الجناية على سيبويه

«بيانٌ لِقوّةِ اللغةِ العربيّةِ وإبرازٌ لجمالِها وردٌّ على خُصومِها»

تأليف

مروان بن عزيز الكردي

راجعه وقرّظه

الشيخُ العلّامةُ د. شفيع برهاني

الشيخُ المحقّقُ د. محمد طاهر البرزنجيُّ

الشيخُ العلّامةُ عُمرُ بنُ مسعودٍ الحدوشيُّ

الشيخُ اللغويُّ أ.د. محمد حسن عثمان

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالأزهر الشريف

مكتبة سرمد
السليمانية - العراق

مكتبة أمير
كركوك - العراق

للتواصل مع المؤلف:

marwankurdii

الجِنَايةُ عَلَى سِيبَوَيهِ

«بَيَانٌ لِقُوَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَإِبرَازٌ لِجَمَالِهَا، وَرَدٌّ عَلَى خُصُومِهَا»

بسم الله الرحمن الرحيم

الجِنَايةُ عَلَى سِيبَوَيهِ

«بَيَانٌ لِقُوَّةِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ، وَإبرازٌ لِجَمَالِهَا، وَرَدٌّ عَلَى خُصُومِهَا»

تَألِيفُ:

مَروَان بن عَزيزٍ الكُرديّ

رَاجَعَهُ وَقَرَّظَهُ:

الشَّيخُ العَلَّامةُ د.شَفِيع بُرهاني

الشَّيخُ المُحقِّقُ د.محمَّد طاهر البَرزنجيُّ

الشَّيخُ العَلَّامةُ عمرُ بنُ مسعُودٍ الحَدُّوشيُّ

الشَّيْخُ اللُّغويُّ أ.د.محمَّد حسَن عُثمان

رَئيسُ قِسمِ اللُّغةِ العَربيَّةِ وَآدابِها بالأزهرِ الشَّرِيفِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

[يوسف: ١٠٨]

قَالَ الإِمَامُ فَخْرُ الدِّيْنِ الرَّازِيّ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (٦٠٦هـ):

« إِنَّ إِبْطَالَ شُبهَاتِ الْمُلْحِدِيْنَ بِالأَجْوِبَةِ الخَسِيْسَةِ الضَّعِيْفَةِ سَعْيٌ فِي تَقْوِيَةِ شُبُهَاتِهِمْ».

[مُنَاظَرَاتُ الإِمَامِ الرَّازِيِّ، ص: (٤٢)]

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (٧٢٨هـ):

«إِذَا جَاءَتْ عَصَا الشَّرِيْعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ؛ ابْتَلَعَتْ مَا صَنَعَهُ الخَارِجُوْنَ عَنْهَا مِنَ السِّحْرِ الْمُفْتَرَى».

[جَامِعُ الْمَسَائِلِ لِابنِ تَيْمِيَة (٥/٢٢٦)]

الإِهْدَاءُ

أُهدِي هذَا الجُهْدَ الـمُتَوَاضِعَ:

* إِلَى إِمَامِ العَرَبِيَّةِ بِلَا مُنَازِعٍ عَمْرو بْنِ عُثْمَانَ سِيبَوَيْهِ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

* وَإِلَى مَشَايِخِي الكِرَامِ الَّذِينَ نَهَلْتُ مِن مَنْهَلِهِمُ الصَّافِي، وَأَعْطَونِي أَوْقَاتِهِمُ النَّفِيْسَةَ.

* وَإِلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِلُ هَمَّ هذِهِ الأُمَّةِ، وَيَحْمِي حِمَاهَا، وَيُدَافِعُ عَنْ هُوِيَّتِهَا.

* وَإِلَى وَالِدَيَّ الحَبِيبَيْنِ الكَرِيمَيْنِ وَزَوْجَتِي البَارَّةِ.

تَقْرِيظُ شَيْخِنَا العَلَّامَةِ د.شَفِيعِ بُرْهَانِي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ وَكَفَى، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِهِ الـمُصْطَفَى، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتبَاعِهِ أُولِي الصِّدقِ وَالوَفَى، **وَبَعْدُ:**

فَقَدْ أَطْلَعَنِي الأَخُ الفَاضِلُ النَّبِيلُ الشَّيخُ مَرْوَانُ الكُردِيُّ عَلَى أَنَّهُ أَلَّفَ كِتَابًا رَدَّ فيهِ عَلَى مُحَاوَلَةٍ جَائِرَةٍ سَمَّاهَا صَاحِبُهَا -ظُلْمًا وَزُورًا، غَيرَ مُرَاعٍ فِيهَا حَقَّ العِلْمِ وَأَصْحَابِهِ-: «جِنَايَةَ سِيبَوَيْهِ»، وَطَلَبَ مِنِّي مُطَالَعَةَ الكِتَابِ، وَإِبْدَاءَ الرَّأْيِ فِيْهِ، وَأَرسَلَ إِلَيَّ نُسْخَةً مِنْهُ، وَمَعَ أَنِّي كُنْتُ قَلِيلَ الفُرْصَةِ مُشْتَغِلًا بِأعمَالٍ كَثِيرَةٍ أُخْرَى، لَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ إِجَابَتِهِ، لِـمَا رَأيتُ فِيهِ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ فِي عَمَلِهِ وَصِدْقِ الرَّغْبَةِ فِي طَلَبِهِ، فَطَالَعْتُهُ مُطَالَعَةً مُتَأَنِّيَةً فِي بَعْضِهِ وَعَابِرَةً فِي البَعْضِ الآخرِ، فَوَجَدْتُهُ -وَللهِ الحَمْدُ- كِتَابًا حَافِيًا فِي بَابِهِ، بَدِيعًا في مَوْضُوعِهِ، رَدَّ فِيْهِ الـمُؤَلِّفُ عَلَى مَزَاعِمِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ رَدًّا عِلْمِيًّا مُؤَيَّدًا بِالدَّلِيلِ وَالبُرْهَانِ، وَبَيَّنَ زَيْفَ أَقوَالِهِ وَضَعْفَهَا مُسْتَنِدًا إِلَى مَا نَقَلَهُ عَنْ أَربَابِ العِلْمِ وَالبَيَانِ.

فَفِي الكِتَابِ مَا يَكْفِي لِإِسْكَاتِ الخَصْمِ وَأَشْبَاهِهِ، وَإِضَاءَةِ الطَّرِيقِ لِـمَنْ أَرَادَ السَّيْرَ عَلَى دَرْبِ اليَقِيْنِ وَأَعْتَابِهِ، وَلَمْ أَرَ فِيْهِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الإِصْلاحِ إِلَّا مَوَاضِعَ يَسِيرَةً ذَكَّرْتُهُ

بِهَا، فَلَمْ يَبْقَ لِيَ الآنَ إِلَّا أَنْ أَدعُوَ لَهُ مِنْ صَمِيمِ الفُؤَادِ بِدَوَامِ الإِخْلاصِ فِي العَمَلِ، وَالتَّوفِيقِ لَهُ فِي الـمَسَارِ العِلْمِيِّ الصَّحِيْحِ، وَفَّقَهُ اللهُ وَإِيَّانَا لِـمَا يُحِبُّ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرٌ وَبالإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

شَفيع بُرْهَانِي
إِيرَان-مهَابَاد
١٦/سبتمبر/٢٠١٩م

تَقْرِيظُ شَيْخِنَا اللُّغَوِيِّ
أ.د. مُحَمَّد حَسَن عُثْمَان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمْدُ للهِ عَلى الإنْعَامْ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ الأنامْ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ مَا تعاقَبَ اللَّيْلُ والنَّهارْ، وصَلِّ عَليهِ وَعَلَى آلهِ الأطْهارْ، وصَلِّ عليهِ وَعَلَى الـمُهاجِرينَ والأنصَارْ، وصَلِّ عليهِ وعلى أصحَابِهِ الأخْيارْ.

[مِنَ الكَامِلِ]

يَـا رَبِّ صَـلِّ عَلَـى النَّبِـيِّ وآلِـهِ ... عَـدَدَ الخَلاَئِـقِ حَصْـرُهَا لَا يُحْسَـبُ

اللهُمّ إنَّا نحْمَدُك عَلى مَا علَّمْتَ مِنَ البَيانِ، وألْهَمْتَ مِنَ التِّبْيان، كَمَا نحْمَدُكَ عَلَى ما أسْبغْتَ مِنَ العَطاء، وأسبَلْتَ مِنَ الغِطَاء، ونسْتغْفِرُكَ مِنْ سَوْقِ الشَّهَوَاتِ إلى سُوقِ الشُّبُهاتِ، كَما نَستغْفِرُكَ مِنْ نَقْلِ الخطوَاتِ إلى خِططِ الخَطيئَاتِ، ونسْتَوْهِبُ منْكَ توفيقًا قائِدًا إلى الرُّشْدِ، وقَلْبًا متقلِّبًا مَعَ الحقِّ، ولِسَانًا مُتحلِّيًا بالصِّدْقِ، ونُطْقًا مؤيَّداً بالحُجّةِ، وإصابةً ذائِدَةً عَنِ الزَّيْغِ، وعَزيمةً قاهِرةً هَوَى النَّفْسِ، وَبصيرةً نُدْرِكُ بِهَا عِرْفَانَ القَدْرِ، ونَسْأَلُكَ أنْ تُسعِدَنا بالهِدايَةِ إلى الدِّرايةِ.

اللَّهُمَّ فحقِّقْ لَنا هذِهِ الـمُنْيَةْ، وأنِلْنَا هذِه البُغْيَةْ، فقدْ مَدَدْنا إليْكَ يدَ المسْألَةِ، وَالـمَسْكَنةِ، واستَنْزَلْنَا كرَمَكَ الجَمَّ، وفضْلَكَ الَّذِي عَمَّ بضَراعَةِ الطَّلَبِ، وَبِضَاعَةِ

الأمَلِ، وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمَّدٍ سَيِّدِ البشَرِ، وَالشَّفِيعِ الـمُشَفَّعِ فِي الـمَحْشَرِ. الَّذِي ختَمْتَ بِهِ النَّبِيِّينَ، وأَعْلَيتَ دَرَجَتَهُ فِي عِلِّيِّينَ، ووَصفْتَه في كِتَابِكَ الـمُبينِ. فقُلتَ- وأنتَ أصدَقُ القَائِلينَ-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ١٠٧].

اللَّهُمَّ فصَلِّ عليهِ، وَعَلَى آلِهِ الهَادِيْن، وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ شَادُوا الدِّين، واجْعَلْنا لهَدْيِهِ وهَدْيِهِمْ مُتَّبعينَ، وانْفعْنَا بمَحبَّتِهِ، ومحبَّتِهِمْ أجْمَعين. إنَّك على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، وبالإجابةِ جَديرٌ. أَمَّا بَعْدُ:

فقدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَخِي الكَرِيمُ المِفْضَالْ، ذُو القَلَمِ السَّيَّالْ، الكَاتِبُ الأَرِيبْ، وَالأَدِيبُ اللَّبِيبْ، فَضِيْلَةُ الشَّيْخِ الفَاضِلِ، الأُسْتَاذِ مَرْوَانَ الكُرْدِيِّ، كِتَابَهُ: (الجِنَايَة عَلَى سِيْبَوَيْهِ) للنَّظَرِ فِيْهِ، وَتَصْحِيْحِهِ، وَتَقْرِيْظِهِ، فلبَّيْتُ دَعْوَتَهُ تلبيَةَ الـمُطِيعْ، وبذَلْتُ في مُطاوَعتِه جُهْدَ الـمُسْتَطِيعْ، فَبَدَأَ الـمُؤَلِّفُ -حَفِظَهُ اللهُ- كِتَابَهُ بِإِهْدَاءِ مَا كَتَبَهُ لِإِمَامِ النُّحَاةِ سِيْبَوَيْهِ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- الَّذِي صَارَ كِتَابُهُ عَلَمًا بِالغَلَبَةِ، فَقَالَ: «أُهدِي هذَا الجُهْدَ الـمُتَوَاضِعَ: إِلَى إِمَامِ العَرَبِيَّةِ بِلَا مُنَازِعٍ عَمرِو بْنِ عُثْمَانَ سِيبَوَيْه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-». وَهُوَ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى فَضْلِ الـمُتَقَدِّمِ عَلَى الـمُتَأَخِّرِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ السَّلَفُ مِنْ ثَنَاءِ الخَلَفِ وَدُعَائِهِم، وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِقَوْلِ ابْنِ مَالِكٍ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عَنِ الشَّيْخِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الـمُعْطِي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-:

[مِنَ الرَّجَزِ]

وَهْوَ بِسَبْقٍ حَائِزٌ تَفْضِيلَا ... مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِيَ الْجَمِيلَا
وَاللهُ يَقْضِي بِهِبَاتٍ وَافِرَهْ ... لِي وَلَهُ فِي دَرَجَاتِ الآخِرَهْ

وَلَـمَّا بَدأتُ القِرَاءَةَ فِي الكِتَابِ، وَجَدْتُ الـمُؤَلِّفَ -حَفِظَهُ اللهُ- بَدَأَ كِتَابَهُ بِبَرَاعَةِ الاسْتِهلالِ، ومَعْنَاهَا عِنْدَ أَهلِ البَلاغَةِ أَنْ يَذْكُرَ الـمُؤَلِّفُ فِي طَالِعَةِ كِتابِه مَا يُشْعِرُ

بِمَقْصُودِهِ، فَقدْ قَالَ فِي أوّلِ كِتَابِهِ: «الْحَمدُ للهِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِنُعُوتِ الكَمَالِ وَصِفَاتِ الجَمَالِ، الـمُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَإعْلال، مُولِي النِّعَمِ وَمُجَدِّدِهَا حَالًا بَعْدَ حَال، ربِّ النَّاسِ وَمُبْدِئِهم بِلَا إِبْدَال»، فدَلَّ بذَلِكَ عَلَى مَقْصُودِهِ مِنَ الحَدِيثِ عَنِ النَّحوِ، والصَّرْفِ.

ثُمَّ تَحَدَّثَ فِي الـمُقَدِّمَةِ عَنْ سَبَبِ تَأليفِهِ لِكِتَابِهِ بقَوْلِهِ: «وَظَهَرَ فِي هذِهِ الأَيَّامِ أُنَاسٌ مِنْ بَنِيْهَا، يَدَّعُونَ رَضَاعَ أَلْبَانِهَا، حَاوَلُوا إِقْلاعَهَا مِنْ رُقِيِّهَا وَسَنِيِّهَا، تَحْتَ شِعَارِ الصِّدْقِ وَالإِخْلاصِ، مُوهِمِيْنَ الخَلَاصَ مِمَّا فِيْهَا مِنَ الإِمْلاص .. وَقَدْ سَارَ الـمُهَنْدِسُ زَكَرِيَّا أُوزُونُ -أَرْشَدَهُ اللهُ رُشْدَهُ- عَلَى نَهْجِهِم وَاقْتَفَى أَثْرَهُم، لَكِنَّهُ بِأسلُوبٍ جَدِيدٍ، فِي كِتَابٍ لَهُ أَسْمَاهُ: «جِنَايَةَ سِيْبَوَيْهِ»، فَاخْتَارَ اسْمَ الإِمَامِ العَلَمِ سِيْبَوَيْهِ لِيَجْعَلَهُ عُنْوَانًا لِنَقْدِ العَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ جَيِّدًا مَنْزِلَةَ هذَا الإِمَامِ الجَهْبَذِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةُ نَحوٍ يُحجّ، وَيُقْصَدُ لِعِلْمِهِ مِنْ كُلِّ فَجّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ السُّذَّج. ولَم أَرَ بُدًّا إِلَّا أَنْ أَرُدَّ عليهِ وَأُبَيِّنَ الحَقَّ لِالتِبَاسِهِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ.

ثُمَّ بَيَّنَ الـمُؤَلِّفُ -حَفِظَهُ اللهُ- سَبَبَ سِيَادَةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ العَالَمَ، فَقَالَ: «قُوَّتَانِ فَحَسْبُ؛ (القُوَّةُ السِّيَاسِيَّةُ)، وَ(القُوَّةُ الِاقتِصَادِيَّةُ)، فَالسِّيَاسَةُ والِاقتِصادُ هُمَا قَدْ فَرَضَا الإِنجلِيزِيَّةَ وأَثَّرَا فِيهَا لِتَكُونَ غَازِيَةً للبُلْدَانِ».

ثُمَّ ذَكَرَ سَبَبَ الحَرْبِ عَلَى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، فَقَالَ: «فَكَانَ العُدوَانُ عَلَى الإِسلامِ وَالِازْدِرَاءُ بِهِ بَدَأَ مُنْذُ قُرونٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَى صُوَرٍ وَأَشْكَالٍ، وَأَنواعٍ وَأَلوَانٍ، فَمِنْ هَذَا العُدوَانِ الطَّعْنُ فِي العَرَبِيَّةِ وَالنَّيْلُ مِنْهَا، وَلكِنْ بَعْدَ سُقُوطِ الخِلَافَةِ الإِسلامِيَّةِ وَضَعْفِ قُوَى المُسلِمِينَ التَفَتَ الأَعْدَاءُ إِلَى غَزْوِ اللُّغَةِ وَاهتَمُّوا بِهِ اهتِمَامًا بالِغًا؛ لأَنَّهُم أَدْرَكُوا أنَّ غَزْوَ اللُّغَةِ يُحَقِّقُ مَصَالِحَهُم فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ، مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ القُوَّةُ

وَالعَتَادُ وَالجُنُودُ وَالأَوتَادُ بِسَنَوَاتٍ وَدُهُورٍ.. ثُمَّ بَدَا يَظْهَرُ بَعْضُ مَنِ استَنَّ مِنَ العَرَبِ بِسُنَّةِ هؤلَاءِ المُستَشرِقينَ الحَاقِدِينَ، فَجَاؤُوا حَامِلِينَ شِعَاراتٍ مُزَيَّفَةً سَوْدَاءَ فِي الحَرْبِ عَلَى لُغَةِ القُرآنِ وَلِسَانِ الأُمَّةِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى هَيَّأَ لِهذِهِ اللُّغَةِ مَنْ يَحْمِيْهَا، وَقَيَّضَ لَهَا مَنْ يَذُودُ عَنْهَا وَيَحْمِيْهَا، كَـ(مُصْطَفَى صَادِقِ الرَّافِعِيِّ، وَحَافِظٍ إِبراهِيمَ، وَمَحمُود شَاكِر، وَالْمَنفلُوطِيِّ) وَغيرُهُم كَثِيرٌ، جَزَاهُمُ اللهُ خيرًا».

ثُمَّ بَيَّنَ الـمُؤَلِّفُ سَبَبَ إِهْمَالِ العَرَبِيَّةِ عِنْدَ صَاحِبِ الجِنَايَةِ، فَقَالَ: «بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الكَاتِبُ تَقدُّمَ الإِنجليزيَّةِ وسِيادَتَهَا، وَتَراجُعَ العَرَبِيَّةِ وَإِهمَالَهَا، شَرَعَ فِي بيَانِ السَّبَبِ وَيَقُتُّ الأَحَادِيث وَيُلَفِّقُهَا بِصَنِيعٍ يَقْبُحُ فِي القَالَةِ، إِذْ قَالَ: «وَالسَّببُ فِي ذَلِك يَعُودُ -بِرَأينَا- إِلَى عنْصُرَيْنِ: أَوَّلُهُما: عِلْمُ النَّحْوِ العَرَبِيِّ. وَثَانِيهِمَا: الاشتِقاقُ اللُّغويُّ من جُذورِ الكَلِمةِ العربِيَّةِ، لِاستِيعَابِ المفرَدَاتِ وَالمُصطَلَحَاتِ الجَدِيدَةِ»». وَقَدْ رَدَّ الـمُؤَلِّفُ عَلَى صَاحِبِ الجِنَايَةِ رَدًّا مُفْحِمًا عَلَى ذلِكَ.

ثُمَّ تَحدَّثَ المؤلِّفُ -حَفِظَهُ اللهُ- عَنْ قُوَّةِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا وَصُوَرِ مُرَاعَاةِ الـمَنْطِقِ فِيهَا، وَذَكَرَ لِذَلِكَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَلِيلًا. ثُمَّ تَسَاءَلَ قَائِلًا: هَلْ تُرِيدُنَا أَنْ نَتْرُكَ لُغَةَ القُرآنِ؟!

ثُمَّ بَيَّنَ أَهَمِيَّةَ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، فِي أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى النَّحْوِ فَقَطْ، بَلِ اشْتَمَلَ عَلَى التَّصْرِيفِ، وعِلْمِ مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ، وَفِيْهِ مِنْ عُلُوْمِ البَلَاغَةِ: الـمُسْنَدُ وَالـمُسْنَدُ إِلَيْهِ وَأَحْكَامُهُمَا، وَالـمَجَازُ العَقْلِيُّ، وَالتَّشْبِيهُ، وَأَدَوَاتُهُ، وَالِاستِعَارَةُ، وتَأكِيدُ المَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ، وَالتَّجرِيدُ، وَالقَلْبُ، وَفِيْهِ أَيضًا عِلْمُ الأَصْوَاتِ، وَعِلْمُ القِرَاءَاتِ، وَعِلْمُ التَّجْوِيدِ، وفِقْهُ اللُّغَةِ، وَعِلْمَا العَرُوْضِ وَالقَافِيَةِ، وَاللَّهَجَاتُ العَرَبِيَّةُ الفَصِيْحَةُ، وَفِيْهِ بَيَانُ كَلَامِ العَرَبِ، وَهُوَ يُعَدُّ دِيوَانًا لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وَفِيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِ العَرَبِ.

ثُمَّ تَحدَّث -حَفِظَهُ اللهُ- عَنْ نَيلِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ مِنَ الأَدَبِ العَرَبِيِّ، وَمِن امْرِئِ القَيْسِ، ثُمَّ تحدَّثَ أيضًا عَنْ مُفَاضَلَةِ أُوزُونَ الجَائِرَةِ بَيْنَ ابْنِ زَيْدُونَ وَنزار قَبَّانِي!

وَتحدَّث كَذَلِك عَنْ دَلَالَةِ الجُمْلَةِ الِاسمِيَّةِ، وَتَنَاوَلَ فِيهَا اعْتِرَاضَاتِ المُهَنْدِسِ (أُوزُونَ) عَلَى النُّحَاةِ، وَجعَلَ لِكُلِّ اعْتِرَاضٍ عُنوَانًا يُنَاسِبُ المَسْأَلَةَ النَّحْوِيَّةَ الَّتِي يُرِيدُ الحَدِيثَ عَنْهَا، عَلَى طَرِيْقَةِ السَّجع، وقَدْ فنَّدَ فيها كلَّ مَا قالَه أوزُونُ بالأدلَّةِ العِلْمِيَّةِ، وهَذا ذِكْرٌ لِبعضِهَا: (تَغَالُطُ المُهَنْدِسِ بِمِلْءِ فِيهْ، فِي بَحْثِ المَفْعُولِ فِيهْ)، (طَغَى المُهَنْدِسُ وَتَجَبَّرْ، فِي بَحْثِ المُبْتَدَإِ وَالخَبَرْ)، (البَرَاهِينُ الفَاحِصَةْ، فِي تَوْجِيهِ الأَفْعَالِ النَّاقِصَةْ)، (اعتِرَاضٌ مَشلُولْ، عَلَى الفِعْلِ المَبْنِيِّ للمَجهُولْ)، (طَيْفٌ زَائِلْ، فِي الِاعتِرَاضِ عَلَى الفَاعِلْ)، (اعتِرَاضٌ مُخَنَّثْ، عَلَى المُذَكَّرِ وَالمُؤنَّثْ)، (كَلامٌ غيرُ مَعقُولْ، فِي تَنكِيرِ اسْمِ المَوصُولْ)، (جُرْمُ المُهَنْدِسِ المُفَخَّمْ، عَلَى المُنَادَى المُرَخَّمْ)، (بَيَانُ جَوْرِ المُهَنْدِسِ وَجَهْلِهْ، فِي حَقِّ المفعُولِ لِأَجْلِهْ)، (بِئْسَ المَقَالْ، فِي الِاعتِرَاضِ عَلَى الحَالْ)، (الوَاوُ الحَالِيَّةْ، وَاعتِرَاضَاتُ المُهَنْدِسِ الخَيَالِيَّةْ)، (وَقَعَ المهندِسُ فِي الحُتُوفْ، لَمَّا تَكَلَّمَ عَنِ الحُرُوفْ)، (نَصَبَ المُهَنْدِسُ العَدَاءْ، لِإتيَانِ الهَمْزَةِ للنِّدَاءْ)، (إِتْحَافُ الأَحْبَابْ، فِي بَيَانِ قَوْلِهِمْ: لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإِعْرَابْ)، (الإِجْرَامُ بالكَلامْ، فِي تَقدِيرِ هَمْزَةِ الِاستِفْهَامْ)، (التَّحقِيقُ الوَفِيّ، عَنْ دُخُولِ الهَمْزَةِ عَلَى المَنْفِيّ)، (أَوْهَامُ المُهَنْدِسِ المُلَفَّقَةْ، فِي بَحْثِ «إِنِ» المُخَفَّفَةْ)، (دَفْعُ نَزْغِ الشَّيْطَانْ، فِي أَوْجُهِ: إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانْ)، (نَظْمُ القِلَادَةْ، فِي بَيَانِ مَعْنَى الزِّيَادَةْ)، (وَقَعَ المُهَنْدِسُ فِي الخَطَلْ، فِي بَحْثِ إِعْرَابِ الجُمَلْ)، (اِعْتِرَاضَاتٌ سَطْحِيَّةْ، عَلَى الشَّوَاهِدِ النَّحْوِيَّةْ).

وَهذَا غَيضٌ مِنْ فَيْضٍ، فقَدْ أَجَادَ الـمُؤَلِّفُ -حَفِظَهُ اللهُ- فِي عَرْضِ هذِهِ القَضَايَا، وَغَيْرِهَا، وَأَبْطَلَ فِيْهَا حُجَجَ صَاحِبِ الجِنَايَةِ.

هذَا، وَقَدِ احْتَوَى الكِتَابُ عَلَى مَبَاحِثَ مُنِيْفَةٍ تَتَعَلَّقُ بِقُوَّةِ العَرَبِيَّةِ وَأهميَّةِ قَوَاعِدِهَا، وَخَصَائِصِهَا وَمُمَيزَاتِهَا، وَمَسَائِلَ أُخْرَى مُهِمَّةٍ تَسرُّ أَعيُنَ الـمُحِبِّينَ، وَتُنِيْرُ دَرْبَ الحَائِرِيْنَ، وَتُخْرِسُ أَلْسُنَ الـمُشَكِّكِيْنَ، وَتَكْسِرُ أَقْلامَ الـمُسْتَأْجَرِيْنَ الحَاقِدِيْنَ.

أَذْكُرُ مِثَالًا لِذَلِكَ:

عِنْدَ مَا تَحدَّثَ الـمُؤَلِّفُ العَلَّامَةُ -حَفِظَهُ اللهُ- عَنِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، وَعَلَاقَتِهَا بِالـمَعْنَى، قالَ: «ظَهَرَ أُنَاسٌ مِنْ بَيْنِنَا قَدِيْمًا وَحَدِيثا، سَعَوا لِإِزَالَةِ الحَرَكَاتِ سَعْيًا حَثِيْثا، وَأعلَنُوا عَلَيْهَا حُرُوبَهُمُ القَاسِيَّةْ، وَصَارُوا فِيْهَا عَبُوسَ الـمُحيَّا وَالنَّاصِيَةْ، وَأَرَاقُوا سُمُومَ أقلَامِهِمْ عَلَى السُّطُورِ وَالطُّرُوسْ، فِي هذِهِ الحَرْبِ العُدوَانِيَّةِ الضَّرُوسْ، تَلَقَّفُوا شَطَحَاتِ الـمُسْتَشْرِقِينَ بالقَبُولْ، فَوَصَفُوا الحَرَكَاتِ بالزِّيَادَةِ وَالفُضُولْ، وَقَالُوا: لَيْسَتْ تَرْجِعُ بِطَائِلْ، وَلَا فِيْهَا فَائِدَةٌ لِسَائِلْ، وَغَايَتُهَا الغُمُوضْ وَالتَّعْقِيدْ، فَإِزَالَتُهَا حُكْمٌ سَدِيدْ».

نُلَاحِظُ أنَّ المؤَلِّفَ -حَفِظَهُ اللهُ- تَحدَّثَ عَنِ القَضِيَّةِ بِأُسْلُوبٍ أَدَبِيٍّ رَصِيْنٍ حَلَّاهُ بِالسَّجعِ، وَجَمَّلَهُ بجمَالِ اللَّفْظِ، فَسُبْحَانَ مَنْ وَهَبَهُ مَلَكَةَ اللُّغَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَ جَهْلَ القَائِلِيْنَ بِعَدَمِ فَائِدَةِ الإِعْرَابِ، فَقَالَ: «وَلَمْ يَعرِفْ هؤلاءِ مَا للحَرَكَاتِ مِنْ دَورْ، فَلَوْ عَرَفُوهُ مَا أَتَوْا بكُلِّ هَذَا الجَوْرْ، بَاتَ ادِّعَاؤُهُم ادِّعَاءً عَقِيْمًا لَا يُجدِي شَيْئًا، وَلَمْ يأتِ بِهِ صَاحِبُهُ إلَّا هُزْءًا».

ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِم رَدًّا عِلْمِيًّا بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةَ تُزِيلُ الإِشْكَالَ، وَاللَّبْسَ فِي الكَلامِ»، وَذَكَرَ لِذَلِكَ سَبْعَةً وَأَرْبَعِينَ مِثَالًا، فَلِلَّهِ دَرُّهُ.

وَأقُولُ: الحقُّ مَا ذَهَبَ إلَيهِ المؤلِّفُ -حَفِظَهُ اللهُ-، فقدْ ذكرَ العُلماءُ فَائِدَةَ الإِعْرَابِ، وَقالُوا: «إِنَّهُ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْـمَعَانِي الْـمُخْتَلِفَةِ الَّتِي لَوْ لَمْ يَدْخُلِ الْإِعْرابُ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَتَعَاقَبُ عَلَيهَا تِلْكَ الْـمَعَانِي التبسَتْ، وَالْـمِثَالُ فِي ذَلِكَ الْـمَسْأَلَةُ الْـمَذْكُورَةُ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: «مَا أَحْسَنَ زَيْدًا !» وَ«مَا أَحْسنَ زَيْد». صِيغَةُ الْكَلاَمِ وَاحِدَةٌ، وَمَعَانِيهِ مُخْتَلِفَةٌ فَإِذَا نَصَبْتَ زَيْدًا وَفَتَحْتَ النُّونَ مِنْ «أَحْسَنَ» كَانَ الْكَلاَمُ تعجُّبًا، وَإِذَا رَفَعْتَ (زَيْدًا) مَعَ فَتْحِ النُّونِ كَانَ الْكَلاَمُ نَفْيًا لِلْإِحْسَانِ عَنْهُ، وَإِذَا رَفَعْتَ النُّونَ، وَجَرَرْتَ زَيْدًا كَانَ الْكَلاَمُ اِسْتِفْهامًا عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ مَا فِي زَيْدٍ، كَأَنَّكَ سَأَلْتَ: أَعَيْنُ زَيْدٍ أَحْسَنُ مَا فِيه أَمْ أَنْفُهُ أَمْ فَمُهُ؟، إِلَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَصِحُّ الْاِسْتِفْهامُ عَنْه مِنْه، فَلَوْلَا اِخْتِلَافُ الْـحَرَكَاتِ -الَّتِي هِيَ الرَّفعُ، والنَّصْبُ، وَالْجَرُّ- الْـمُتَعَاقِبَةُ عَلَى دَالِ (زَيْدٍ) التَبَسَتْ هذِهِ الْـمَعَانِي، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ بَعْضِهَا، وَبَعْضٍ فَرْقٌ فِي اللَّفْظِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْـمَسَائِلِ الَّتِي تَتَبَيَّنُ فِيْهَا فائِدَةُ الإِعْرابِ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: قَوْلُهُمْ: «لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وتَشْرَب اللَّبَنَ» بِرَفْعِ «تَشْرب» عَلَى الاسْتِئنَافِ، وبِنَصْبِهِ عَلَى الْـمُصَاحَبَةِ فِي النَّهْيِ، وَبِجَزْمِه عَلَى النَّهْي عَنِ الشُّرْبِ أيضًا.

قَالَ ابْنُ هِشَام -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي شَرْحِ الشُّذُورِ(١/ ٤٠٢): «فَإِذَا أَرَدْتَ بِالْوَاوِ عَطْفَ الْفِعْلِ عَلَى الْفِعْلِ جَزَمْتَ الثَّانِي، وَكَانَ شَرِيْكَ الأَوَّلِ فِي النَّهْيِ، وكَأَنَّكَ قلتَ: لَا تَفْعلْ هَذَا وَلَا هَذَا، وَحِينَئِذٍ يَلْتَقِي سَاكِنَانِ: الْبَاءُ وَاللَّامُ، فَتُكْسَرُ الْبَاءُ عَلَى أَصْلِ الْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَإِنْ أَرَدْتَ عطْفَ مَصْدَرِ الْفِعْلِ عَلَى مَصْدَرٍ مُقَدَّرٍ مِمَّا قَبْلَهُ، نَصَبْتَ

الْفِعْلَ بِـ(أَنْ) مُضْمَرَةً، وَكَانَ النَّهْيُ حِينَئِذٍ عَنِ الجَمْعِ بَينَهُمَا، وَإِنْ أَردْتَ الِاسْتِئْنَافَ رَفَعْتَ الثَّانِيَ».

وَقَدْ أَنْهَى الـمُؤَلِّفُ -حَفِظَهُ اللهُ- حَدِيثَهُ عَنْ هذِهِ الـمَسْأَلَةِ بِقِصَّةٍ رَوَاهَا أَهْلُ التَّارِيْخِ عَنِ الوَلِيْدِ بْنِ عَبْدِ الـمَلِكِ، وَلَهَا عَلَاقَةٌ بِمَوضُوعِنَا، وَهِيَ: أَنَّ الْوَلِيدَ كَانَ لَـحَّانًا لَا يُحْسِنُ النَّحْوَ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ يومًا، فَقَالَ: أَنْصِفْنِي مِنْ خَتَنِي يَا أَمِيْرَ الـمُؤْمِنِيْنَ!، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَنْ خَتَنَكَ؟ بِفَتْحِ النُّونِ، وَظَنَّ الْأَعْرَابِيُّ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخِتَانَ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الحَيِّ لَا أَعْرِفُ اسْمَهُ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيْزِ: إِنَّمَا يُرِيدُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: مَنْ خَتَنُكَ؟ وَضَمَّ النُّونَ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هُوَ ذَا بِالبَابِ. فَقَالَ الوَلِيْدُ لِعُمَرَ: مَا هَذَا؟ قالَ: النَّحْوُ الَّذِي كُنْتُ أَخْبَرْتُكَ. قَالَ: لَا جَرَمَ: فَإِنِّي لَا أُصَلِّي بِالنَّاسِ حَتَّى أَتَعَلَّمَهُ.

هَذَا، وَفِي الكِتَابِ آثَارُ مَعْرِفَةٍ وَاسِعَةٍ بِعُلُومِ العَرَبِيَّةِ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الـمُخْتَصُّونَ بِدِرَاسَةِ أُصُوْلِـهَا، وَالـمُتَبَحِّرُونَ فِي فِقْهِ لُغَتِهَا، وَالعَاكِفُونَ عَلَى مَعْرِفَةِ نَحْوِهَا وَصَرْفِهَا، وَأَسَالِيْبِ التَّعْبِيْرِ بِهَا، وَأَحْسِبُ الـمُؤَلِّفَ مِنْهُمْ، وَلَا أُزَكِّيْهِ عَلَى اللهِ، فَذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ.

وَقَدْ أَعْجَبَتْنِي طَرِيْقَةُ عَرْضِ الـمُؤَلِّفِ فِي كِتَابِهِ، فَقَدْ أَوْرَدَ كَلَامَ الـمُهَنْدِسِ أُوْزُونَ، -صَاحِبِ كِتَابِ: (جِنَايَةِ سِيبَوَيْهِ)- وردَّ عَلَيْهِ رَدًّا عِلْمِيًا بِالأَدِلَّةِ، وَالبَرَاهِيْنِ، مَعَ عَدَمِ التَّجْرِيحِ لِشَخْصِهِ، فَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَاءِ لَهُ بِالهِدَايَةِ، وَالرُّشْدِ فِي كلِّ مَسْأَلَةٍ يَرُدُّ فِيهَا عَلَيْهِ.

يَقُولُ -حَفِظَهُ اللهُ- «وَقَدْ أَتَيْتُ بِجَمِيعِ اعتِرَاضَاتِهِ وَانتِقَادَاتِهِ، دُونَ حَذْفٍ، أَوْ: بَتْرٍ، وَلا قَصٍّ لِنَصٍّ، وَلَا إِخْفَاءٍ لِفَصٍّ، وَلَا تَأوِيلٍ مُتَكَلَّفٍ لِكَلامِهِ، وَمَا مِلْنَا عَنِ الـمَنْهَجِ العِلْمِيِّ شِبْرًا، وَلَمْ نَظْلِمْهُ سَطْرًا، وَحَاوَرْنَاهُ بِمُقْتَضَى العَقْلِ وَالـمَنْطِقِ اللُّغَوِيِّ .. وَمَا

تَرَكْتُ لَهُ شُبْهَةً وَلَا وَجْهًا مِنَ الِاعتِرَاضِ عَلَى قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، وَقُوَّتِهَا وَمَظَاهِرِ أهميتها، إلَّا وَرَدَدْتُ عَلَيْهَا وَنَسَفْتُهَا عَلَيْهِ بِلِسَانِ الحُجَّهْ، فَتَبَيَّنَ مِنْ خِلالِهَا لِرُوَّادِ الحَقِّ المَحَجَّهْ، وَلَمْ أَتَعَرَّضْ لِشَخْصِهِ مَهْمَا أَمْكَنَنِي، وَرَبَطْتُ جَأْشِي وَصَبرتُ على غَلِيْظِ مَقَالِهِ، وَسُوءِ فِعَالِهِ، بُغْيَةَ بَيَانِ الحَقِّ وَظُهُورِهِ، دُونَ المَيْلِ وَالِانْحِرَافِ، وَالعَاطِفَةِ وَالِانْحِيَازِ، فَالحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَع».

وَظَهَرَ لِي فِي الكِتَابِ تَواضُعُ المُؤَلِّفِ -حَفِظَهُ اللهُ- فَقَدْ قَالَ: «وَمَعَ هذَا أَعتَرِفُ بِمُزْجَاةِ بِضَاعَتِي، وَكَسَادِ حُجَّتِي، وَلَا أَدَّعِي التَّفَوُّقَ وَلَا النُّبُوغ، وَلَا عُلُوَّ كَعْبٍ وَلَا البُلُوغ، وَلكِنَّ وَهنَ نَسْجِ اعتِرَاضَاتِ الخُصُومْ، وَمَا اعترَاهُم مِنَ الأَدْوَاءِ وَالكُلُومْ، جَعَلَنِي أَهْلًا لأَرُدَّ عَلَيْهِم».

وَقَدْ ظَهَرَ لِي مِنْ كَلامِ صَاحِبِ كِتَابِ: (جِنَايَةِ سِيْبَوَيْهِ) بُغْضُه الشَّدِيْدُ لِلُغةِ القُرآنِ الكَرِيمِ، فَمِمَّا قَالَه عَنِ العَربِيَّة: «لغتُنا العَربِيَّةُ المقعَّدةُ بقيتْ جَامِدةً لَا، بلْ: تراجَعَتْ عالميًّا ولم يَعُدْ يُهتمُّ بها حتَّى أهلُها»[1].

وقالَ أيضًا: «قَوَاعِدُ اللُّغَةِ عِنْدَنَا لَيستْ مَنْطِقِيَّةً وَلَا عقْلانِيَّةً، وَهُوَ يُسَبِّبُ ابتِعَادَ الطُّلَّابِ عَنْهَا بِمَنْ فِيهِمُ المُتَفَوِّقُونَ».

وَأَقُولُ للمُهَنْدِسِ أُوْزُونَ: «أَنَا عَلَى يَقِينٍ بأنَّكَ لَسْتَ أهلًا لِتفْهَمَ كَلامَ سيبَوَيْهِ بِلُكنَتِكَ المُستَهجَنَةِ وَعُجمَتِكَ المعرُوفَةِ، فكيفَ وَصلَتْ بِكَ الجُرْأَةُ بِقَوْلِكَ: «قوَاعِدُ اللُّغَةِ عِنْدَنَا لَيستْ مَنْطِقِيَّةً وَلَا عقْلانِيَّةً!؟»[2].

(١) جِنَايَةُ سِيبَوَيْهِ لِزَكَرِيَّا أوزونَ، (ص١٦).

(٢) جِنَايَةُ سِيبَوَيْهِ لِزَكَرِيَّا أوزونَ، (ص١٦).

وهَذا يُذكِّرُني بِقَوْلِ القَائِلِ: [مِنَ الطَّوِيْلِ]

يَقولُونَ هَذَا عِندَنَا غَيرُ جَائِز ... وَمَنْ أَنتمُ حتَّى يَكُونَ لَكُم عِندُ

فَكُلُّ مَا فَعَلْتَهُ أَنَّكَ اعْتَمَدْتَ عَلَى بَعْضِ الكُتُبِ المُعاصِرَةِ الِابتِدَائيَّةِ، وَاستَخْرَجْتَ منهَا أمثِلَةً نحويَّةً وَغالطتَ فِي حقِّهَا، وَلَوْلَا أَنَّ الشُّبَهَ خَطَّافَةٌ لَكانَ السُّكُوتُ أَفْضَلَ مِنَ الكَلَامِ، ولله دَرُّ القَائِلِ: [مِنَ الطَّوِيْلِ]

إذَا كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَمَارَاكَ جَاهِلٌ ... فَأَعْرِضْ فَفِي تَرْكِ الجَوَابِ جَوَابُ

إنَّ الحَرْبَ عَلَى العَرَبِيَّةِ لَهَا تَارِيْخٌ طَوِيلٌ، وَإِنَّ النَّيْلَ مِنْهَا مَمقُوتٌ هَزِيْلٌ، وَالجُهْدَ إِلَى إِبْعَادِهَا حَقِيْرٌ ذَلِيْلٌ، وَلَيْسَتْ وَلِيدَ العَصْرِ وَلَا رَبِيبَ السَّاعَةِ، ولَا أوزونُ أوَّلَ مَنْ خَاضَهَا، وَلَا يَكونُ آخِرَ قُوَّادِهَا؛ لأنَّهَا حَرْبٌ ضِدَّ الإِسلامِ فَتَستَمِرُّ باستِمْرَارِهِ، وَتَدُومُ مَعَ دَوَامِهِ، وَإِنَّ الفُصْحَى لُغَةُ القُرآنِ الكَرِيمِ وَلِسَانُ الأَحَادِيثِ النَّبويَّةِ، وَالمُتَحَدِّثَةُ بِاسمِ الشَّرِيْعَةِ وَالتُّرَاثِ الإِسْلامِيِّ، وَإِنَّ إِلْغَاءَهَا إِلْغَاءٌ للإِسْلامِ وَلِمَصَادِرِهِ.

ومِنْ خِلالِ خِبرَةِ هؤلاءِ الحَاقِدِيْنَ عَلَى لُغَةِ القُرآنِ، وَطُولِ تَجَارِبِهِمْ مَعَ الإِسْلامِ، وَالمُسْلِمِيْنَ وجَدُوا أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَصَادِرِ قُوَّةِ المُسْلِمِيْنَ تَمسُّكهم بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَتَدَبُّرُهُمَا وَمُمَارَسَتَهُمَا فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ. ووَجَدُوا أَنَّ مَصْدَرَ هَذَا التَّمَسُّكِ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَامِلَانِ رَئِيْسَانِ:

أَوَّلُهُمَا: صِدْقُ الإِيْمَانِ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.

وَثَانِيْهِمَا: اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الوَحْيُ الكَرِيمُ قُرآنًا عَلى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِيْنَ.

إِذَنْ فَلْيُوهِنُوا إِيْمَانَ الـمُسْلِمِيْنَ بِشَتَّى الوَسَائِلِ، وَليُوهِنُوا صِلَتَهُم بِاللُّغَةِ العَربيَّةِ الَّتِي بِهَا -وَحْدَهَا- يُتْلَى كِتابُ اللهِ، وَيُتَدَبَّرُ، ومِنْ هُنَا بَدأتِ الحرْبُ عَلَى اللُّغةِ العربيَّةِ حَرْبًا شَرسًا يُـخَطِّطُ لها شَيَاطِينُ الإنْسِ وَالـجِنِّ بِبَرَاعَةٍ، وَصَبْرٍ، كَما يُـخطِّطُونَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لِتَوْهِيْنِ إِيْمانِ النَّاسِ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وهَذَا الـمَسْعَى يُعِيْنُ فِي تَحقِيْقِ الـمَسْعَى الآخَرِ، فَتَوْهِيْنُ إِيْمَانِ النَّاسِ يُسَاعِدُ عَلَى تَوْهِيْنِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وتَوهينُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ يُسَاعِدُ عَلَى تَوْهِيْنِ الإِيمَانِ وَالتَّوحِيْدِ فِي النُّفُوْسِ. بَلْ: كَانَ الأمْرُ أَخطَرَ مِنْ ذلِكَ، فإِنَّ تَوْهِينَ صِلَةِ الـمُسْلِمِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَتَجْهِيلَهُ بِهَا يَعْزُلُهُ كُلِّيَّةً عَنْ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَزْلَ تِلَاوَةٍ، وَتَدَبُّرٍ، وَمُمَارَسَةٍ. وَعَزْلُ الـمُسْلِمِ عَنِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُوهِنُ إِيمَانَهُ بِالله وَاليومِ الآخِرِ. فَأصبحَتْ قَضِيَّةُ اللُّغَةِ العَربِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ للإِسْلَامِ وَالـمُسْلِمِيْنَ قَضِيَّةً أَسَاسِيَّةً، قَضِيَّةَ حَيَاةٍ، أَوْ: مَوْتٍ.

هَذِهِ المعْرَكةُ اسْتَغْرَقَتْ قُرُوْنًا طَوِيْلَةً جِدًّا، حَتَّى أَفْلَحَ الـمُجْرِمُونَ فِي الأَرْضِ فِي تَجْهِيْلِ بَعْضِ الـمُسْلِمِيْنَ، وَعَزْلِهِمْ عَنْ لُغةِ القُرآنِ، وَالسُّنَّةِ، بِسَبَبِ وَهَنِ الـمُسْلِمِيْنَ وَضَعْفِهِمُ الَّذِي أخَذَ يَزْدَادُ، وَيَنْمُوْ مَعَ الأَيَّامِ، حَتَّى تفرَّقوا شِيَعًا وَأَحْزَابًا، وَأَقْطَارًا.

فَلَا عَجَبَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَرَى اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ اليَوْمَ قَدْ ضَعُفَتْ ضَعْفًا مُذْهِلًا بَينَ أَبْنَائِهَا، فَعجمَتْ أَلْسِنَةُ الكَثِيْرِيْنَ، وَغَلَبَ الجَهْلُ بِهَا.

وَمِمَّا سَهَّلَ الأَمرَ انْتِشَارُ اللُّغَةِ العَامِّيَّةِ بينَ العَرَبِ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى أَصْبحتْ هِيَ لُغَةَ التَّخَاطُبِ بَيْنَ النَّاسِ، وانْحَسرَتِ اللُّغةُ العَرَبِيَّةُ الفُصْحَى عَنْ وَاقِعِ الـمُسْلِمِيْنَ، وعَنْ وَاقِعِ العَرَبِ، وَامْتَدَّتِ العَامِّيَّةُ مِنْ خِلالِ تَارِيخٍ لَيسَ بالقَصِيرِ. واقترنَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى

اللُّغَةِ العَامِّيَّةِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى مَا يَزْعُمُوْنَهُ مِنْ حَرَكَاتِ تَجْدِيدٍ، وَإِصْلَاحٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا حَرَكَاتُ تَهْدِيْمٍ، وَتَغْرِيْبٍ، وَتَبَعِيَّةٍ.

وَرَحِمَ اللهُ الإِمَامَ ابنَ مَنظُورٍ القائِلَ فِي مُقَدِّمَةِ لِسَانِهِ: «فَإِنَّنِي لم أقصِدْ سِوَى حِفْظِ أُصُولِ هَذِهِ اللُّغَةِ النَّبَوِيَّةِ وَضَبْطِ فَضْلِهَا، إِذْ عَلَيْهَا مدَارُ أَحْكَامِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.. وَذَلِكَ لِمَا رَأَيْتُهُ قَدْ غَلَبَ فِي هَذَا الأَوَانِ، مِنِ اخْتِلَافِ الْأَلْسِنَةِ وَالأَلْوَانِ، حَتَّى لَقَدْ أَصْبَحَ اللَّحْنُ فِي الْكَلَامِ يُعَدُّ لَحْنًا مَرْدُوْدًا، وَصَارَ النُّطْقُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْمَعَايِبِ مَعْدُوْدًا. وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي تَصَانِيْفِ التَّرْجمانَاتِ فِي اللُّغَةِ الأَعْجَمِيَّةِ، وَتَفَاصَحُوا فِي غَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَجَمَعْتُ هَذَا الْكِتَابَ فِي زَمَنٍ أَهْلُهُ بِغَيْرِ لُغَتِهِ يَفْخَرُوْنَ، وَصَنَعْتُهُ كَمَا صَنَعَ نُوْحٌ الفَلَكَ وَقَوْمُهُ مِنْهُ يَسْخَرُوْنَ، وَسَمَّيْتُهُ لِسَانَ الْعَرَبِ». ا.هـ

وَفِي العَصْرِ الحَاضِرِ لَمْ يَسْتَنكِفِ الأعدَاءُ عَنِ النَّيلِ منْ هذهِ اللُّغَةِ العَبقرِيَّةِ العَجِيبَةِ، بَلِ: استَخدَمُوا الوَسَائِلَ العَرْجَاءَ كُلَّهَا، وَأتَوا الوَسَائِطَ العَمياءَ جَمِيعَهَا، لِإبعَادِ المُسلِمينَ عَنْ لُغَةِ القُرآنِ، وَتَقبِيحِ هذِهِ اللُّغَةِ، وَأساتِذتها فِي أعيُنِ النَّاسِ، وَتَشوِيهِ سُمعَتِهَا وَصُورَتِهَا، ولكِنَّ اللهَ تعالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِحِفْظِهَا، ولوْلا هذَا الحِفظُ الإِلهِيُّ لَم يَتَبَّقَ لهذِهِ اللُّغةِ منْ أثرٍ، مَعَ كُلِّ هذا الكَيدِ والعُدوانِ وَجَبَرُوتِ هذِهِ الخُصُومَاتِ. فاللُّغَاتُ يُعْفَى رَسمُهَا بعْدَ مُرُورِ الزَّمَنِ دونَ المؤامَرَةِ وَالعُدوانِ، ولكِنَّ العَرَبيَّةَ بقيتْ بحفظِ اللهِ تعالَى ورِعايتِهِ، مَعَ كُلِّ هَذا الزَّمَنِ المُضِيِّ مُصَاحِبًا كُلَّ هذِهِ الهَجَمَاتِ الشَرِسَةِ عَلَيهَا، وَلم تَستَسلِمْ للعدُوِّ، بلْ قاوَمَتْ خيرَ مُقاوَمةٍ، فَإنْ دَلَّ هذَا عَلَى شَيءٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أنَّ العَرَبِيَّةَ مَحمِيَّةٌ بِحِمَايَةِ اللهِ تَعَالَى مَصُونَةٌ بِصِيَانَتِهِ.

وَأَقُولُ لِصَاحِبِ كِتَابِ: (جِنَايَةُ سِيْبَوَيْهِ): أَظُنُّكَ أَيُّها الـمُهَنْدِسُ الفَنِّيْ، الَّذِي ظَنَّ أَنَّه الأَصْمعِيْ. قَدْ غَرَّكَ رَهْطٌ احْتفوا بِكَ في مَـجْلِسِكْ، وألقَوْا السَّمْعَ إلى هَوَسِكْ. يُصدِّقونَكَ فِي كُلِّ هَذَرْ، وَيُصَوِّبُونَكَ فِي كُلِّ مَا تَأْتِي وَتَذَرْ، وَيُعَظِّمُونَكَ فِي الخِطابْ، وَيُمثِّلُونَكَ بِذَوِي الأَلْبَابْ، وَيُلَقِّبُونَكَ بالإمَامِ اللَّوذَعِي، ويَرْفَعُونَكَ فَوقَ رُتبَةِ الشَّافِعِيْ، فَظننْتَ بِنَفْسِكَ الظُّنُونْ، وَلم تُرزقْ ناصِحًا رَحِيما، وَلَا مُرشِدًا بِأَدْواءِ النُّفُوسِ عَلِيما، يَصْرِفُكَ عَنْ هواكَ وعَصبِيَّتِكْ، وَيَـحُثُّكَ عَلَى التَّوبَةِ مِنْ خَطيئَتِكْ، ويُرشِدُكَ إلى الـمَنَاهِجِ السَّوِيَّةْ، وَيُلْحِقُكَ بِذَوِي الآدَابِ الـمَرْعِيَّةْ، ويُوقِظُكَ مِنْ غَفَلاتِكْ، ويَقولُ لَكَ: [مِنَ الوَافِرِ]

أَرَاكَ عَلَى شَفَا خَطَرٍ مَهُولِ ... بِمَا آذَيْتَ رَاسَكَ مِنْ فُضُولِ

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ فِيما حَوْلَكَ فُحُولٌ، ولكنَّهُمْ صَامِتُونْ، ونَحَارِيرُ عِلْمٍ، ولكِنَّهم متواضِعونْ، لا يُشقُّ لهم غُبارْ، ولا يُـجْرَى مَعَهُم في مِضْمَارْ، فإنْ كُنْتَ رَأَيْتَ نفسكَ فَوقَ الكُلِّ، فإنَّ قَدْرَكَ لا يَـخْفَى عَلى العَاقِلِ النَّبِيه.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّكَ إذَا سَابَقْتَ فِي الـمِضْمارِ العِتَاقَ الجِيادْ، وناضَلْتَ عِنْدَ الرِّهَانِ ذَوِي البَأْسِ الشِّدَادْ، فَقدْ جَعلْتَ نَفْسَكَ سُخْرَةً لِلسَّاخِرينْ، وأُضْحُوكةً للضَّاحِكِينْ، وَغَرَضًا للسِّهَامْ، وكُرَةً بينَ الأَقْدامْ. فَاقْبَلْ مِنِّي النَّصِيحَةَ، وَلَا تَتَمَادَ فِي العِنَادِ. فَإِنْ عُدْتَ إلى رُشْدِكَ، فأنَا لَكَ صَدِيقْ. وقَانَا اللهُ وَأَهْلَ الإِسْلَامِ مَزَالِقَ الطَّرِيقْ.

هذَا، وَقَدْ خَتَمَ الـمُؤَلِّفُ كِتَابَهُ بِقَوْلِهِ: «لَا بُدَّ لِكُلِّ عَمَلٍ بَشَرِيٍّ مِنْ نِهَايَةٍ وَاخْتِتَامْ، وَلَوْ كَانَ غَايَةً فِي الشِّدَّةِ وَالِاحْتِدَامْ، وَالخَاتِمَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَحْمُودَةً مَرْضِيَّةً، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مَرْذُولَةً مَخْزِيَّةً، فَيَا فَرَحَ مَنْ حَسُنَتْ لَهُ الخَاتِمَةُ، وَفَازَ بِالجِنَانِ النَّاعِمَةِ، وَيَا سُرُورَ مَنْ

رَضِيَ عَنهُ مَوْلَاهُ، وَبِخَيْرَاتِهِ أَوْلَاهُ، وَيَا تَرَحَ مَنْ سَاءَ خِتَامُهُ، وَكَثُرَ فِيهِ ظُلْمُهُ وَإِجْرَامُهُ».

جَزَى اللهُ الـمُؤَلِّفَ الأُسْتَاذَ الأَدِيبَ الشَّيْخَ مَرْوَانَ الكُرْدِيَّ خَيْرَ الجَزَاء، عَلَى هَذَا الجُهْدِ المُبَارَكِ الـمَشْكُورِ، فَقدْ أَبْدَعَ فِي السَّبْكِ، وَالتَّعْبِيرْ، وَالفَهْمِ وَالتَّنْوِيرْ، وَكَانَتْ رُدُوْدُهُ عِلْمِيَّةً مَصْحُوبَةً بِالأَدِلَّةِ وَالبَرَاهِيْنِ، وَقَدْ أَسْدَى بِهَذَا الصَّنِيْعِ مَعْرُوفا، وَأَغَاثَ بِهِ مَلْهُوفا، فَاللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَتَوَلَّاهُ بِرِعَايَتِهْ، وَيُؤَازِرَهُ بِعِنَايَتِهْ، وأَنْ يجعَلَ بِفَضْلِهِ هذَا العَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الكَرِيْمِ خَالِصًا مَصْرُوفا، وَعَلَى النَّفعِ بِهِ موقُوفا، وَنَافِعًا لِلمُسْلِمينْ، وَأَنْ يُثَقِّلَ بِهِ مِيزَانَ حَسَنَاتِهِ يَوْمَ الدِّينْ، وسَلَامٌ عَلَى الـمُرْسَلِينْ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمينْ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيْمًا كَثِيرًا دَائِمًا أَبَدًا إلى يَوْمِ الدِّيْنِ[1].

كَتَبَهُ رَاجِي عَفْوِ رَبِّهِ الـمَنَّانْ
أ.د مُحَمَّدُ بْنُ حَسَنِ بْنُ عُثْمَانْ
رَئِيْسُ قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا
بِجَامِعَةِ الأَزْهَرِ الشَّرِيْفِ
٥/شَعْبَان/١٤٤٠هـ-١٠/٤/٢٠١٩م
مِصْرُ

---

(١) أَعْتَذِرُ عَنْ رَدَاءَةِ أُسْلُوبِي؛ لِأَنَّي لَسْتُ أَدِيبًا، فَأَنا بالعَجْزِ مَعْلُومْ، وَمِثْلِي عَنِ الخطَأ غَيرُ مَعْصُومْ، وَبِضاعَتِي مُزجَاةْ، وتَسْمَعُ بالـمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهْ.
أَقُولُ (مَرْوَانُ): جَزَاكَ رَبِّي خَيْرًا فَضِيْلَةَ أُستَاذِنَا الـمُوَقَّر، كَفَى يَرَاعُكَ شَاهِدًا عَلَى رُتْبَتِكَ فِي العُلُوم، وَدُرُوسُكَ فِي النَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالبَلَاغَةِ وَالعَرُوضِ نَاطِقَةٌ بِعُلُوِّ كَعْبِكَ وَسَنَاءِ رُتْبَتِكَ، فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا مَا رُزِقْتُمْ مِنَ العِلْمِ وَالأَدَبِ وَالتَّوَاضُعِ.

تَقريظُ شَيْخنا المُحَقِّق د.مُحَمَّد البَرزنجِي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَبَعْدُ: فَإِنَّ لُغَةَ القُرآنِ الكَرِيْمِ قَدْ أَضْفَتْ عَلَى العَرَبِيَّةِ جَمالًا وَبَهاءً، وَأَعْطَتْهُ حَياةً جَدِيدَةً بِمَبَانِيْهَا الرَّائِعَةِ، وَمَعَانِيْهَا النَّبِيْلَةِ وَأَسَالِيْبِهَا الرَّصِيْنَةِ، وَقَوَاعِدِهَا المَتِيْنَةِ، وَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةُ ذَلِكَ تَمامًا وَارْتَوَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّبْعِ الرَّقْرَاقِ، فَلَمَّا اخْتَلَطَتِ الأَعَاجِمُ بِأَهْلِ الحِجَازِ بَعْدَمَا فُتِحَتِ البُلْدَانُ، وَدَخَلَتِ الأَقْوَامُ فِي دِيْنِ اللهِ أَفْوَاجًا، فَطِنَ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الكِرَامُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ سَادَةُ التَّابِعِيْنَ لِأَمْرٍ جَلَلٍ، فَخَصَّصُوا أَوْقَاتًا نَفِيْسَةً مِنْ عُمرِهِمْ لِخِدْمَةِ القَوَاعِدِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي صَارَتْ تَضْبِطُ كَلَامَ العَرَبِ عَلَى أُصُولِهَا الأَوَّلِيَّةِ وَزِيَادَةٍ، فَبَرَعَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ وَكَثُرُوا .. حَتَّى قَيَّضَ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ الإِمَامَ النَّحْوِيَّ سِيْبَوَيْهِ فَجَمَعَ مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ مِنْ عِلْمِ السَّابِقِيْنَ بِلُغَةِ القُرآنِ، وَصَنَّفَ مَا جَمَعَهُ وَفَقِهَهُ أَحْسَنَ تَصْنِيْفٍ وَزَادَ عَلَيْهِ فِي ثَوْبٍ قَشِيْبٍ، لَيْسَ المَغْزَى مِنْهُ بَيَانَ المُبْتَدَإِ مِنَ الخَبَرِ أَوِ الفَاعِلِ مِنَ المَفْعُولِ فَقَطْ وَإِنَّمَا تَيْسِيرُ فَهْمِ كِتَابِ اللهِ وَتَهْيِئَةِ الوَسَائِلِ لِأَهْلِ الأُصُولِ وَالفِقْهِ كَيْ يَشُقُّوا طَرِيْقَهُمْ فِي الفَهْمِ وَالِاسْتِنْبَاطِ وَالتَّأْصِيْلِ .. وَلَيْسَ هذَا كَلَامِي، أَوْ: كَلَامَ أَخِي الشَّيْخِ مَرْوَانَ فَحَسْبُ، بَلْ: عِبَارَاتُ الأَئِمَّةِ الكِبَارِ نَصُوْغُهَا بِعِبَارَاتِهَا العَصْرِيَّةِ المُتَوَاضِعَةِ...

فَقَدْ نَبَّهَ الإِمَامُ الأُصُولِيُّ الشَّاطِبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- (أَنَّ كِتَابَ سِيْبَوَيْهِ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ النَّظَرُ وَالتَّفْتِيْشُ، فَسِيْبَوَيْهِ وَإِنْ كَانَ تَكَلَّمَ فِي النَّحْوِ وَقَوَاعِدِهِ فَقَدْ نَبَّهَ فِي ثَنَايَا كَلَامِهِ عَلَى

مَقَاصِدِ العَرَبِيَّةِ وَأَنْحَاءِ تَصَرُّفَاتِهَا فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا، أَيْ: أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى بَيَانِ أَنَّ الفَاعِلَ مَرْفُوعٌ، وَالمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ: قَدْ بَيَّنَ فِي كُلِّ بَابٍ مَا يَلِيقُ بِهِ، فَاحْتَوَى كِتَابُهُ عَلَى عِلْمِ المَعَانِي وَالبَيَانِ، وَوُجُوهِ تَصَرُّفَاتِ الأَلْفَاظِ وَالمَعَانِي)[١].

وَمِنْ قَبْلِ الشَّاطِبِيِّ بِقُرُونٍ قَالَ الإِمَامُ أَبُو عُمَرَ الجَرْمِيُّ (ت ٢٢٥ هـ) -وَهُوَ أَحَدُ شُرَّاحِ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، وَعَالِمٌ مُتَبَحِّرٌ فِي عِلْمِ اللُّغَةِ-: «أَنَا أُفْتِي النَّاسَ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ»، فَأُخْبِرَ «المُبَرِّدُ» بِذلِكَ، فَقَالَ: «أَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ هذَا»[٢].

وَهُنَا أَتَوَقَّفُ عَنِ الِاسْتِشْهَادِ بِتَوْثِيقِ العُلَمَاءِ الأَعْلَامِ مِنْ مَشَاهِيرِ الإِسْلَامِ فِي العُصُورِ الغَابِرَةِ، وَأُحَاوِلُ الِاسْتِشْهَادَ بِآرَاءِ الخُبَرَاءِ المُتَأَخِّرِينَ، وَلكِنْ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ مِنْ فَطَاحِلِ اللُّغَةِ الغَرْبِيِّينَ كَيْ يَعْلَمَ المَدْعُو «أُوزُون» وَمَنْ وَرَاءَهُ وَمَنْ يَتْبَعُهُ: أَنَّ كِتَابَ إِمَامِ اللُّغَةِ سِيبَوَيْهِ جَبَلٌ أَشَمُّ يَظَلُّ عَلَى مَدَى العُصُورِ مَنَارًا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَسِيبَوَيْهِ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ قَدْ لَخَّصَ جُهُودَ الأَئِمَّةِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِ، تَمَامًا كَمَا فَعَلَ الإِمَامُ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ حِينَمَا صَنَّفَ فِي صَحِيحِ الحَدِيثِ، فَجَمَعَ زُبْدَةَ جُهُودِ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الحُفَّاظِ، كَمَالِكٍ، وَعَبْدِ الرَّزَّاقِ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَابْنِ المَدِينِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الحَدِيثِ.

وَمِمَّا لَاشَكَّ فِيهِ أَنَّ أَيَّ ثَنَاءٍ عَلَى قَوَاعِدِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ يَنَالُ ضِمْنًا كِتَابَ سِيبَوَيْهِ..يَقُولُ المُسْتَشْرِقُ الأَلْمَانِيُّ «نولدكه» عَنِ العَرَبِيَّةِ وَفَضْلِهَا وَقِيمَتِهَا: «إِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لَمْ تَصِرْ حَقًّا عَالَمِيَّةً إِلَّا بِسَبَبِ القُرآنِ وَالإِسْلَامِ، وَقَدْ وَضَعَ أَمَامَنَا عُلَمَاءُ

---

(١) المُوَافَقَاتُ، للشَّاطِبِيِّ (١٠/ ٧٤) بِتَصَرُّفٍ.

(٢) أُنْظُرْ: مَجَالِسَ ثَعْلَبٍ، تَحْقِيقُ عَبْدِ السَّلَامِ هَارُونَ (ص١٩١).

اللُّغَةِ العَرَبُ بِاجْتِهَادِهِمْ أَبْنِيَةَ اللُّغَةِ الكلاسِيكيَّةِ، وَكَذَلِكَ مُفْرَدَاتِهَا فِي حَالَةِ كَمَالٍ تَامٍّ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَزْدَادَ تَعَجُّبُ الـمَرْءِ مِنْ وَفْرَةِ مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، عِنْدَ مَا يَعْرِفُ أَنَّ عَلَاقَاتِ الـمَعِيْشَةِ لَدَى العَرَبِ بَسِيطَةٌ جِدًّا، وَلكِنَّهُمْ فِي دَاخِلِ هذِهِ الدَّائِرَةِ يَرْمُزُونَ لِلفَرْقِ الدَّقِيْقِ فِي الـمَعْنَى بِكَلِمَةٍ خَاصَّةٍ، وَالعَرَبِيَّةُ الكلَاسِيكِيَّةُ لَيْسَتْ غَنِيَّةً فَقَطْ بِالـمُفْرَدَاتِ وَلكِنَّهَا غَنِيَّةٌ أَيْضًا بِالصِّيَغِ النَّحْوِيَّةِ، وَتَهْتَمُّ العَرَبِيَّةُ بِرَبْطِ الجُملِ بِبَعْضِهَا .. وَهكَذَا أَصْبَحَتِ اللُّغَةُ (البَدَوِيَّةُ) لُغَةً لِلدِّيْنِ وَالـمُنْتَدَيَاتِ، وَشُؤُوْنِ الحَيَاةِ الرَّفِيْعَةِ، وَفِي شَوَارِعِ الـمَدِيْنَةِ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ لُغَةَ الـمُعَامَلَاتِ وَالعُلُوْمِ، وَإِنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ غَالِبًا جِدًّا مَا يَتْلُو يَوْمِيًّا فِي الصَّلَاةِ بَعْضَ أَجْزَاءٍ مِنَ القُرآنِ، وَمُعْظَمُ الـمُسْلِمِيْنَ يَفْهَمُونَ بِالطَّبْعِ بَعْضَ مَا يَتْلُونَ، أَوْ: يَسْمَعُوْنَ، وَهكَذَا كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُوْنَ لِهذَا الكِتَابِ مِنَ التَّأْثِيرِ عَلَى لُغَةِ الـمَنْطِقَةِ الـمُتَّسِعَةِ مَا لَمْ يَكُنْ لِأَيِّ كِتَابٍ سِوَاهُ فِي العَالَـمِ، وَكَذَلِكَ يُقَابِلُ لُغَةَ الدِّيْنِ وَلُغَةَ العُلَمَاءِ وَالرَّجُلِ العَادِي بِكَثْرَةٍ، وَيُؤَدِّي إِلَى تَغْيِيْرِ كَثِيْرٍ مِنَ الكَلِمَاتِ وَالتَّعَابِيْرِ فِي اللُّغَةِ الشَّعْبِيَّةِ إِلَى الصِّحَّةِ»[1].

وَيَقُولُ الـمُسْتَشْرِقُ الأَلْـمَانِيُّ «كَارْل بِرُوكْلمَان» : «بَلَغَتِ العَرَبِيَّةُ بِفَضْلِ القُرآنِ مِنَ الاِتِّسَاعِ مَدًى لَا تَكَادُ تَعْرِفُهُ أَيُّ لُغَةٍ أُخْرَى مِنْ لُغَاتِ الدُّنْيَا»[2].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ العَالِـمَ اللُّغَوِيَّ «أَفْرَام نعُوم تشُومسْكِي» وَهُوَ فَيْلَسُوفٌ وَلُغَوِيٌّ يَهُودِيٌّ (وَكَانَ أَبُوهُ أُسْتَاذَ اللُّغَةِ العِبْرِيَّةِ) فَإِنَّهُ –أَيْ: تشُومسْكِي– قَدْ أَقَرَّ بِالـمَكَانَةِ العَظِيْمَةِ لِلُّغَة

(١) مِنْ كِتَابِ: اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، لِنَذِير حَمْدَان، (ص ١٣٣).

(٢) مِنْ كِتَابِ: قَضَايَا اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الـمُعَاصِرَةِ، الـمُنَظَّمَةُ العَرَبِيَّةُ لِلتَّرْبِيَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالعُلُومِ، (ص ٢٧٤).

العَرَبِيَّةِ، وَقَدْ بَيَّنَ الإِخْوَةُ البَاحِثُونَ مِنْ قَبْلِي أَنَّهُ قَدْ أَسَّسَ لِنَظَرِيَّةٍ جَدِيْدَةٍ قَلَّبَتِ الـمَنْظُومَةَ اللُّغَوِيَّةَ الغَرْبِيَّةَ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ. ظَهَرَ كِتَابُهُ الأَوَّلُ فِي التَّرَاكِيْبِ النَّحْوِيَّةِ (Syntactic Structure) سَنَةَ (١٩٥٧م) وَانْتَقَدَ فِيْهِ طَرِيْقَةَ عِلْمِ اللُّغَةِ الوَصْفِيِّ (Descriptive Linguistics) السَّائِدَةَ فِي الغَرْبِ حَتَّى عَهْدٍ قَرِيْبٍ، وَمَيَّزَ بَيْنَ بِنْيَتَيْنِ فِي الجُمْلَةِ، هُمَا: (البِنْيَةُ العَمِيْقَةُ)، وَ(التَّرْكِيْبُ السَّطْحِيُّ)، وَأَوْضَحَ أَنَّ البِنْيَةَ الأُوْلَى هِيَ أَسَاسُ الثَّانِيَةِ. وَقَدْ أَكَّدَ «تشُومسْكِي» فِي مَعْرِضِ بَعْضِ إِجَابَاتِهِ بِأَنَّ تَأْثِيْرَاتِ النَّحْوِ العَرَبِيِّ كَبِيْرَةٌ عَلَى نَظَرِيَّتِهِ هذِهِ فِي دِرَاسَةِ اللُّغَةِ وَقَوَاعِدِهَا، وَأَنَّهُ قَدْ قَرَأَ كِتَابَ سِيْبَوَيْهِ كَمَرْجِعٍ أَسَاسٍ فِي أَبْحَاثِهِ وَنَظَرِيَّتِهِ[١].

وَيَقُولُ الأُسْتَاذُ «ميليه» : (إِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لَمْ تَتَرَاجَعْ عَنْ أَرْضٍ دَخَلَتْهَا، لِتَأْثِيْرِهَا النَّاشِئِ مِنْ كَوْنِهَا لُغَةَ دِيْنٍ وَلُغَةَ مَدَنِيَّةٍ، وَلَمْ تَبْقَ لُغَةٌ أُوْرُبِّيَّةٌ وَاحِدَةٌ لَمْ يَصِلْهَا شَيْءٌ مِنَ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ الـمُبِيْنِ، حَتَّى اللُّغَةُ اللاَّتِيْنِيَّةُ الأُمُّ الكُبْرَى، فَقَدْ صَارَتْ وِعَاءً لِنَقْلِ الـمُفْرَدَاتِ العَرَبِيَّةِ إِلَى بَنَاتِهَا)[٢].

وَأَخِيْرًا: فَلَقَدْ رَاجَعْتُ كِتَابَ أَخِي الشَّيْخِ مَرْوَانَ هذَا، وَمِنْ قَبْلُ رَاجَعْتُ كِتَابَيْهِ (الجِنَايَةَ عَلَى البُخَارِيِّ)، وَ(الوَحْيِ الثَّانِي)، فَوَجَدْتُهُ بِحَقٍّ مَدْرَسَةً مُتَأَصِّلَةً فِي الحَدِيْثِ وَاللُّغَةِ، وَلَا يَعْنِي هذَا أَنِّي أُوَافِقُهُ فِي كُلِّ سَطْرٍ سَطَرَهُ، فَالِاتِّفَاقُ فِي جَمِيْعِ هذِهِ الجُزْئِيَّاتِ العِلْمِيَّةِ أَمْرٌ عَزِيزٌ، وَلكِنْ يَكْفِيْهِ فَخْرًا أَنَّ اللهَ قَدْ وَفَّقَهُ لِلذَّوْدِ عَنْ حِيَاضِ الحَدِيْثِ وَلُغَةِ القُرآنِ، وَوَهَبَهُ ذِهْنًا مُتَوَقِّدًا، وَفِكْرًا وَاسِعًا، وَبَدِيْهَةً حَاضِرَةً، وَسَبْرًا

(١) قَضَايَا اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الـمُعَاصِرَةِ، الـمُنَظَّمَةُ العَرَبِيَّةُ لِلتَّرْبِيَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالعُلُومِ، (ص١٦٦).

(٢) مِنْ كِتَابِ: الفُصْحَى لُغَةُ القُرآنِ، أَنْوَر الجُنْدِي، (ص ٣٠٤).

لِبُحُوْرِ العِلْمِ، وَأَرْجُو أَنْ يُطِيْلَ اللهُ فِي عُمرِ هذَا الشَّابِّ حَتَّى يَصِيْرَ إِمَامًا فِي العُلُوْمِ الشَّرْعِيَّةِ..وَلَا أُزَكِّيْهِ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُنَا وَحَسِيْبُنَا...

وَفِي الخِتَامِ أَقُولُ: الجُهْدُ البَشَرِيُّ لَا يَخْلُو مِنَ الخَطَإِ وَالزَّلَلِ، لِذَا أَرْجُو مِنْ إِخْوَتِي العُلَمَاءِ الكِرَامِ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَى هذَا الكِتَابِ اطِّلَاعَ النَّاصِحِ الأَمِيْنِ، وَيُعِيدُوا عَلَيْنَا عُيُوْبَنَا (فَلَا أَنْسِبُ أَخْطَاءَ الكِتَابِ إِنْ وُجِدَتْ إِلَى أَخِي مَرْوَانَ وَحْدَهُ، بَلْ: أَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِي كَذَلِكَ) وَرَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيْنَا عُيُوْبَنَا.

وَكَتَبَهُ
مُحَمَّدُ الشَّيْخ طَاهِرٍ البَرْزَنْجِيُّ
رَمَضَانُ الـمُبَارَكُ عام ١٤٤٠ للهِجْرَةِ
قَطَرُ

تَقْرِيظُ شَيْخِنَا العَلَّامَة أبِي الفَضْل عُمَر الحَدُّوشِي

التَقْرِيظُ الـمَمْزُوجُ بالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلامُ عَلَى سَيِّدِ الـمُرْسَلِيْنَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ أَجْمَعِيْنَ، أَحْمَدُهُ تَعَالَى حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ الَّتِي لَا تُطِيْقُهَا العُقُولُ.

إِلَيْهِ أَشْكُو غَلَبَةَ الأَعْدَاء، وَتَفَشِّي الدَّاء، وَتَحَكُّمَ الأَهْوَاء، وَتَخَاذُلَ العُلَمَاء، وَظُلْمَ الأَقْوِيَاء، وَتَكَالُبَ الأَغْنِيَاء، وَغُرُوْرَ السُّفَهَاء، وَنُزُوْلَ البَلَاءِ بَعْدَ البَلَاء، وَغُرْبَةَ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي هذِهِ الفَتْرَةِ القَاتِمَة، وَمَا يَتَنَاوَبُنَا فِيْهَا مِنْ فِتَنٍ مُظْلِمَة، وَمِحَنٍ مُؤْلِمَة، لَا نَحْنُ عِنْدَهَا بِالبَرَرَةِ الأَتْقِيَاء، وَلَا ذَوِي الشَّكِيْمَةِ الأَقْوِيَاء، إِلَيْكَ وَحْدَكَ -رَبَّنَا- أَشْكُو ظُلْمَ مَنْ ظَلَمَنَا: (يَا مَنْ لَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ المُلِحِّين، وَيَسَعُ كَرَمُهُ وَجُودُهُ مَطَالِبَ السَّائِلِيْن، انْقَطَعَتِ الأَسْبَاب، وَتَحَيَّرَتِ الأَلْبَاب، وَأَعْرَضَ الأَحْبَاب، وَسُدَّتْ فِي وُجُوهِنَا الأَبْوَاب، فَلَجَأْنَا إِلَى بَابِك، وَتَمَسَّكْنَا بِأَسْبَابِك، عَالِمِيْنَ أَنَّ اللَّاجِئِيْنَ إِلَى بَابِكَ مَقْبُولُون، وَالـمُتَمَسِّكِينَ بِأَسْبَابِكَ نَاجُونَ وَمَحْمُولُون، أَهْلَكَتْنَا الشَّهَوَاتُ وَسَمُّهَا لَذِيْذٌ، وَوَقَعْنَا فِي شِرَاكِ الخَطَايَا وَخَطَرُهَا عَرِيضٌ مَدِيدٌ.

إِلَهنا، هذَا اضْطِرَارُنَا فَامْنُنْ بِالإِجَابَة، وَهذَا انْكِسَارُنَا وَهُوَ عُنْوانُ الإِنَابَة، يَا مَنْ يُجِيْبُ الـمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاه، وَيَجْبُرُ كَسْرَ التَّائِبِ وَيَرْعَاه، إِلَهنا، ادَّخَرت تِسْعَةً وَتِسْعِين

جُزْءاً مِنْ رَحْمتِكَ للآخرةِ، وَأَنْزَلْتَ جُزْءاً وَاحِداً إلى الأَرْضِ، فَبِهِ يَتَراحَمُ الخَلْقُ، فَوَفِّرْ حَظَّنَا مِنْ رَحْمَتِكَ يَا عَظِيمَ الرَّحْمةِ، وَأَغْرِقْ جَرَائِمَنَا فِي بِحَارِ عَفْوِكَ يَا وَاسِعَ الـمَغْفِرَةِ.

إِلَهَنَا، لَا تُحَاسِبْنا بِمَا فَعَلْنَا، وَلَا تُعَذِّبْنا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، وَقَدْ أَوْرَثَنَا حِلْمُكَ عَنَّا الْجُرْأَةَ عَلَيْكَ، وَأَغْرَانَا سَتْرُكَ لَنَا عَلَى التَّمَادِي فِي عِصْيَانِكَ، فَنَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَبِحِلْمِكَ مِنْ غَضَبِكَ، وَبِكَ مِنْكَ، يَا مَنْ لَا يَسْتَفِزُّهُ نَزَقُ الطَّائِشِيْنَ، وَلَا يَسْتَثِيرُهُ طَيْشُ الغُواةِ النَّزِقِينَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

إِلهَنَا، لَا تُعَذِّبْ أَلْسِنَةً تَتَحَرَّكُ بِذِكْرِكَ، وَلَا تُحْرِقْ بِنَارِكَ أَعيُنًا نَظَرَتْ فِي كِتَابِكَ، وَبَكَتْ مِنْ خَشْيَتِكَ، وَلَا قُلوبًا خَفَقَتْ بِحُبِّكَ، وَالشَّوْقِ إِلى قُرْبِكَ، وَلَا تَرُدَّ أَيْدِيًا رَفَعَتْها الآمَالُ إِلَيْكَ صِفْراً، وَلَا أَقْدامًا سَعَتْ إِلَى مَرْضَاتِكَ لِتَنَالَ أَجْراً.

إِلَهَنَا، أَنْتَ أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنْ طَاعَتِنَا، وَأَرْفَعُ المُنَزَّهِينَ عَنْ إِسَاءَتِنَا، فَهَبْ عِصْيَانَنَا لإِحْسَانِكَ، وَغَطِّ عَلَى إِجْرَامِنَا بِعَفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ، هذَا رَجَاؤُنَا فِي فَضْلِكَ، وَجَّهَتْهُ عُبُودِيَّتُنَا لِرُبُوْبِيَّتِكَ، وَهذَا طَمَعُنَا فِي تَجَاوُزِكَ، أَثَارَهُ سَبَقُ رَحْمَتِكَ لِغَضَبِكَ، وَهذَا اضْطِرَارُنَا لِرِفْدِكَ[1]، أَبْرَزَهُ افْتِقَارُنَا لِكَرَمِكَ، وَهذَا انْطِرَاحُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ، دَفَعَ إِلَيْهِ خَوْفُنَا مِنْ سَطْوَتِكَ، وهذِهِ لَهْفَتُنَا وَضَرَاعَتُنَا، فَقَابِلْهَا بِلُطْفِكَ وَغَوْثِكَ، هَا نَحْنُ بِبَابِكَ وَاقِفُونَ فَلَا تَرُدَّنَا خَائِبِيْنَ، يَا أَكْرَمَ الأَكْرَمِيْنَ، يَا غِيَاثَ الـمُسْتَغِيْثِيْنَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا رَبَّ العَالَـمِينَ)[2].

---

(١) **الرِّفْدُ بِالكَسْرِ**: العَطَاءُ وَالصِّلَةُ.

(٢) هذِهِ مُنَاجَاةٌ جَمِيْلَةٌ -أَحْسَنُ مَا قَرَأْتُ بِزَنْزَانَتِي فِي مُنَاجَاةِ العَبْدِ لِرَبِّهِ- بَعَثَ بِهَا إِلَيَّ فَضِيلَةُ شَيْخِنَا عَلَمُ الأَدَبِ سَيِّدِي محمد الحَسَنِي -حَفِظَهُ اللهُ- وَقَالَ فِي آخِرِهَا: (مِنْ تَلْفِيقِ الفَقِيرِ إِلَى اللهِ أَبِي أُوَيْسٍ مُحَمَّدِ بْنِ الأَمِينِ بُوخُبْزَةَ الحَسَنِيُّ عَفَا اللهُ عَنْهُ بِمَنِّهِ).

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إلَيْـكَ شَـكَاتِي يَـا وَلِيِّـي وَيَـا حَكَـمْ فَـوَارِي عُيُـوبِي بِالسَّـمَاحَةِ وَالْكَـرَمْ
وَأَفْـرِغْ عَلَـيَّ الصَّـبْرَ فَضْـلاً وَعَـافِنِي فَجَيْشُ الرَّزَايَا وَالْـمَصَائِبِ قَـدْ هَجَـمْ
وَأَدْرِكْ يَقِينِـي بِالثَّبَـاتِ فَقَـدْ وَهَـى وإِبْلِـيسُ بِالتَّشْـكِيكِ وَالْيَـأْسِ قَـدْ رَجَـمْ
أَعِـيشُ كئيبـًا في اضْـطِرَابٍ ومِحْنَـةٍ أُعَـانِي تَبَـارِيحَ التَّحَيُّـرِ والأَلَـمْ
وَفِـي قَلَـقٍ أُمْسِـي وَأُصْـبِحُ شَـارِداً شَـقِيًّا بِمَـا فِـي الْقَلْـبِ مِنِّـيَّ قَـدْ أَلَـمْ
أَغِثْنِـي فَـإِنِّي –يَـا إِلَهِـي– عَلَى شَـفَا الـ ـهَلاَكِ، وَأَنْقِـذْنِي فَعَزْمِـي قَـدِ انْهَـزَمْ
وَتُـبْ وَاعْـفُ عَمَّـا قَدْ جَنَيْتُ جَهَـالَةً فَـإِنِّي أُنَـادِي بِالضَّرَاعَـةِ وَالنَّـدَمْ
وَدَمْعِـي وَفَقْـرِي وَاضْـطِرَارِي شَـوَاهِدٌ عَلَى الصِّدْقِ فَاقْبَلْ –يَا حَلِيمُ– وَقُلْ: نَعَمْ
وَلاَ تَـبْلُ عَبْـدَ السُّـوءِ فَهْـوَ مُهَـدَّدٌ بِطَـرْدٍ وَحِرْمَـانٍ لِمَـا مِنْـهُ قَـدْ نَـجَمْ
وَلَكِنَّـهُ عَبْـدُ الـرَّحِيمِ وَقَـدْ أَتَـى مُنِيبـًا عَلَى الإِصْلاَحِ وَالتَّـوْبِ قَدْ عَـزَمْ
وَحَاشَـاكَ أَنْ تَـأْبَى انْـحِيَاشَ مُشَـرَّدٍ إِلـى حَـرَمِ الإِحْسَـانِ فِـي جُمْلَـةِ الْخَـدَمْ
وفِـي بَحْـرِكَ الطَّـامِي بِجُـودِكَ تَسْبَحُ الـ ـعَوَالِمُ يَـا جَـوَّادُ بِالْفَضْـلِ والْكَـرَمْ
فَـأَغْرِقْ بِـهِ فَضْـلاً (صُـكُوكَ) جَرَائِمِـي فَتُمْسِـي –وَقَـدْ أَدْمَـتْ فُـؤَادِيَّ– كَالْعَـدَمْ
وأَنْعِـمْ بِبَـرْدِ الْـعَفْوِ، فَالْعَبْـدُ مُعْلِـنٌ بِتَوْحِيـدِكَ الأَسْـمَى وَبِـالْحَقِّ قَـدْ جَـزَمْ
فَـلاَ رَبَّ غَيْـرُ اللهِ يُعْبَـدُ، لَـمْ يَكُـنْ لِيُشْـرِكَ فِـي التَّوْحِيـدِ شَـيْئًا ولاَ جَـرَمْ
وَتِلْـكَ الَّتِـي يَرْجُـوْ لِقَـاءَكَ لاَهِجـًا بِهَا، كَافِراً بِالشِّرْكِ فِي العُرْبِ والْـعَجَمْ
فَيَـا رَبِّـي حَقِّـقْ لِـي رَجَـائِي وَمُنْيَتِـي أَمُـوتُ عَلَـى التَّوْحِيـدِ يَـا مُسْـدِيَّ الـنِّعَمْ

وَأَنْقِذْ بِهِ الأَوْلَادَ وَالأَهْلَ وَاجْمَعَنْ ... بِهِ الشَّمْلَ بِالأَحْبَابِ وَالصَّحْبِ وَالْحَشَمْ
وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ البَرِيَّةِ أحمدٍ ... وَسَلِّمْ-وَمَنْ فِي سِلْكِ أَتْبَاعِهِ انْتَظَمْ(١)

إِلَهِي، لَا تَجْعَلْنَا مَغْرُورِيْنَ فَنَحْجُبَ نَوَاظِرَنَا عَنْ أَخْطَائِنَا، وَنَصِمَّ آذانَنا عَنِ النَّصَائِحِ، وَنَغْلِقَ تَفْكِيرَنا أَمَامَ تَجَارِبِ الآخَرينَ وَجُهُودِهِم، وَلَا تَجْعَلْنَا مَخْدُوعِينَ فَنَنْدَفِعَ فِي البَاطِلِ، وَنَبْتَعِدَ عَنِ الحَقِّ، وَنَثِقَ بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ شَرَفَ الثِّقَةِ، وَلَا تَجْعَلْنَا مُتَكَبِّرِينَ فَنُعْطِيَ أَنْفُسَنا مَا لَيْسَ لَهَا، وَنَتَعَالَى بِهَا عَنْ أَقْرَانِهَا، وَنَفْتَرِضَ لَهَا الحَقَّ دَائِماً، وَالكَمَالَ أَبَداً، وَلَا تَجْعَلْنَا ظَالِمِينَ فَنَأْنَسَ إِلى القَسْوَةِ، وَنَغْتَصِبَ مَا لَيْسَ لَنَا، ونسلبَ غيرَنا حقَّهُ المَشْرُوعَ فِي الكَرَامةِ وَالحُرِيَّةِ، وَلَا تجعَلْنا فَاشِلِينَ فَنَقْضِيَ حَيَاتَنا بِلَا غَايَةٍ، وَأَيَّامَنَا بِلَا رِسَالَةٍ، وَسَاعَاتِنا بِلَا كِفَاحٍ، وَلَا تجعلْنا جُبَنَاءَ فَنَضْعُفَ عَنْ قَوْلَةِ الحَقِّ، وَنَتَخَاذَلَ عَنْ مُقَاوَمَةِ البَاطِلِ، وَنَتَرَاجَعَ حَيْثُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ، وَلَا تَجْعَلْنَا حَاسِدِيْنَ، فَنَتَعَذَّبَ لِنِعَمِ اللهِ عَلَى غَيْرِنَا، وَنَتَعَامَى عَنْ خَيْرِهِ عَلَيْنَا، وَنَقْضِيَ أَيَّامَنا بَيْنَ شَرٍّ وَاقِعٍ، وَآخَرَ مَقْبُولٍ(٢).

إِلَهِي، إِنْ كُنَّا قَدْ عَصَيْنَاكَ بِجَهْلٍ، فَقَدْ دَعَوْنَاكَ بِعَقْلٍ، حيثُ عَلِمْنَا أَنَّ لَنَا رَبًّا يَغْفِرُ لَنَا وَلَا يُبَالِي، إلهي، إِنْ كُنَّا قَدْ فَرَّطْنَا فِي طَاعَتِكَ فَقَدْ تَمَسَّكْنَا بِأَحَبِّهَا إِلَيْكَ، وَهِيَ: (شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَأَنَّ رُسُلَكَ جَاءَتْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ).

---

(١) هذِهِ الشَّكْوَى البَلِيغَةُ أَرْسَلَهَا لِي فَضِيلَةُ شَيْخِنَا عَلَمُ الأَدَبِ وَالكِتَابِ سَيِّدِي «أَبُو أُوَيْسٍ» محمد الحَسَنِيُّ، فَذَيَّلْتُهَا بِبَيْتَيْنِ فَقَطْ وَهُمَا:

وَلكِنَّ رَجَائِي فِي الكَرِيمِ وَفَضْلِهِ ... يُفَرِّجُ عَنْ نَفْسِي الحَزِيْنَةِ كُلَّ غَمّْ
عَلَى العَبْدِ مِنْ مَوْلَاهُ سَابِغُ نِعْمَةٍ ... فَإِنْ يَصْبِرَنْ يُؤْجَرْ وَإِنْ يَشْكُرَنْ غَنِمْ

(٢) هذِهِ الشَّكْوَى للحَسَنِ البَصْرِيِّ.

إِلَهِي، إِنْ كُنَّا قَدْ عَصَيْنَاكَ بِارْتِكَابِ الـمُوبِقَاتِ، فَقَدْ تَرَكْنَا أَبْغَضَهَا إِلَيْكَ، وَهِيَ: (الإِشْرَاكُ بِكَ)، وَأَخِيرًا يَا إِلَهِي، حَقِّقْ فِيكَ رَجَاءَنَا، وَأَجِبْ بِفَضْلِكَ دُعَاءَنَا)[١].

(إِلَهِي، ارْدُدْ لَنَا الْكَرَّةَ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَوَفِّقْنَا إِلَى مُوْجِبَاتِ نَصْرِكَ، وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَكِينَتَكَ، وَامْدُدْنَا بِعَوْنِكَ وَتَأْيِيدِكَ، وَاجْعَلْنَا أَكْثَرَ نَفِيراً، اللَّهُمَّ أَقِلَّ عَثَرَاتِ الـمُسْلِمِيْنَ مِنْ عِبَادِكَ، تَحْقِيقًا لِآمَالِنَا فِي إِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ، وَقَبْلَ أَنْ نَرَى فِيْنَا غَضَبَكَ لِانْتِصَارِ البَاطِلِ عَلَى الحَقِّ[٢]، وَتَغَلُّبِ الجَوْرِ عَلَى العَدَالَةِ، يَا مَنْ وَعْدُهُ الحَقُّ، وَلَهُ دَعْوَةُ

---

(١) اِنْتَهَى مِنْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِ: (القَوْلِ السَّدِيدِ فِي مَعَالِمِ التَّوْحِيدِ) (ص:٣/ ٤)، وَ(كَيْفَ تَفْهَمُ عَقِيْدَتَكَ؟) (ص:٣/ ٤) الطَّبْعَةُ الأُولَى، مَطْبَعَةُ النَّجَاحِ بِالدَّارِ البَيْضَاءِ، أَوِ: الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ (ص:١٠/ ١١) مِنْ مَطْبُوعَاتِ دَارِ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ بِبَيْرُوت-لُبْنَان، كِلَاهُمَا لِكَاتِبِ هذَا التَّقْرِيظِ.

(٢) وَصَوْلَةُ البَاطِلِ وَحَبْلُهُ قَصِيرٌ قِصَرَ أَجَلِ الظَّالِمِ وَإِلَّا فَأَيْنَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَفَرَاعِيْنُ البَشَرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا؟.

يَظُنُّونَ: أَنَّ الإِسْلَامَ لَنْ تَعْلُوَ لَهُ رَايَةٌ وَلَنْ تُشْرِقَ لَهُ شَمْسٌ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَنْ يَكُونَ لَهُ فَجْرٌ، فَنَقُولُ لِلْمُهَنْدِسِ زَكَرِيَّا أُوزُونَ وَلِسَائِرِ الـمُنَاوِشِيْنَ لِلُغَةِ القُرآنِ: «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»، فَقَدْ عَرَّى عَوْرَتَكُم كَاتِبُنَا اللَّبِيبُ، الأُسْتَاذُ الحَبِيبُ، صَاحِبُ القَلَمِ السَّيَّالِ مَرْوَانُ الكُرْدِيُّ. أَخِي مَرْوَانُ:

رَفَعْتُمْ شَأْنَ يَعْرُبَ لِلأَعَالِي ... شُمُوخُ النَّفْسِ والْعِزُّ الْعَتَادُ

وَأَقُولُ لِلْمُهَنْدِسِ-مُتَمَثِّلًا-بِقَوْلِي:

وَاهِمٌ مَنْ يَرَى الْحَيَاةَ نَعِيمًا ... لَيْسَ يَفْنَى، يَظَلّ فِيهِ مُقِيمَا

بِيَدِ اللهِ كُلّ شَيءٍ، فَأَقْصِرْ ... يَا أَخَا الْعَقْلِ قَدْ نَرَاكَ فَهِيمَا

مَا جَمَالُ الْحَيَاةِ إِلاَّ سَرَابٌ ... يَتْرُكُ الْعَقْلَ مِنْ ظَمَاهُ سَقِيمَا

فَسُرُورٌ وَبَهْجَةٌ وَانْشِرَاحٌ ... بَعْدَهَا تَكْتَسِي النُّفُوسُ هُمُومَا

وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ عَنَاكُمْ يَا أَخِي مَرْوَانُ حِيْنَ قَالَ:

إِنْ لَمْ تَكُنْ لِلحَقِّ أَنْتَ فَمَنْ يَكُونْ؟ ... (وَالنَّاسُ فِي مِحْرَابِ لَذَّاتِ الدَّنَايَا عَاكِفُونَ)

صَدْرُ البَيْتِ مِنَ الكَامِلِ، وَالعَجُزُ غيرُ مَوزُونٍ. =

الحَقِّ، وَهُوَ شَدِيْدُ الـمِحَالِ، اللَّهُمَّ وَمَنْ أَرَادَ الإِسْلَامَ وَالـمُسْلِمِيْنَ بِسُوْءٍ، فَأَشْغِلْهُ فِي نَفْسِهِ، وَارْدُدْ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ، وَاجْعَلْ تَدْمِيْرَهُ فِي تَدْبِيْرِهِ، وَاشْدُدْ عَلَيْهِ وَطْأَتَكَ، وَاقْدُرْ لَهُ أَسْوَأَ الـمَصَائِرِ)[١].

أَمَّا بَعْدُ: فقدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَخِي وَتَلْمِيْذِي الذَّكِي وَالزَّكِي، ذُو القَلَمِ السَّيَّالِ، وَالأُسْلُوبِ الفَيَّاضِ، وَالرَّدِّ اللَّامِعِ، الكَاتِبُ الـمُبْدِعِ، وَالأَدِيبُ الـمِصْقَعِ، جَنَابُ الشَّيْخِ الأَجَلِّ، الأُسْتَاذِ مَرْوَانَ الكُرْدِيِّ، ذِي الغَوْرِ البَعِيْدِ، وَالشَّأْوِ السَّعِيْدِ، صَاحِبُ الْجُمَلِ الـمُنِيْفَةِ، وَالقَلَمِ الصَّلِيْلِ، وَالـمِشْعلِ الوَقَّادِ، وَالزِّنَادِ السَّدِيْدِ، الكَاتِبُ الَّذِي تَسْجُدُ لَهُ البَلَاغَةُ مِنْ غَيْرِ مَثْنَوِيَّةٍ: كِتَابَهُ: (الجِنَايَةُ عَلَى سِيْبَوَيْهِ) لِلنَّظَرِ فِيْهِ، وَتَصْحِيْحِهِ، وَتَقْرِيْظِهِ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ: (يَسْتَنْبِطُ الكَامِنَ مِنْ بَدِيْعِ صَنْعَتِهِ بِذَكَاءِ فِطْنَتِهِ، وَيَسْتَخْرِجُ الغَامِضَ مِنْ جَلِيلِ فِطْرَتِهِ بِدَقِيقِ فِكْرَتِهِ، غَائِصاً فِي بَحْرِ تصرُّفِهِ على دُرَرِ مَعَانٍ،

= وَصَدَقَ الأُسْتَاذُ العَقَّادُ حِينَ قَالَ: (كَثِيراً مَا يكُونُ البَاطِلُ أَهْلاً لِلهَزِيمَةِ، لَكِنَّهُ لَا يجِدُ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلانْتِصَارِ عَلَيْهِ)، وَقَبْلَهُ قَالَ الحَافِظُ ابنُ الجَوْزِيِّ: (اصْبِرُوا فَلَا بُدَّ لِلشُّبُهَاتِ أَنْ تَرْفَعَ رَأْسَهَا فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، وَإِنْ كَانَتْ مَدْمُوغَةً، وَلِلبَاطِلِ جَوْلَةٌ وَلِلحَقِّ صَوْلَةٌ، وَالدَّجَّالُونَ كُثُرٌ، وَلَا يَخْلُو بَلَدٌ مِمَّنْ يَضْرِبُ البَهْرَجَ عَلَى مِثْلِ سِكَّةِ السُّلْطَانِ).

وَالفَجْرُ الصَّادِقُ لَاحَ فِي الأُفُقِ وَانْتَشَرَ، عِنْدَ مَا انْتَشَرَتْ كِتَابَاتُكُمُ الَّتِي تَفْضَحُ الـمُنْدَسِّيْنَ بَيْنَنَا، وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

بَنُــو الإِنْسَــانِ يَنْتَظِــرُونَ فَجْــراً ... بِلَيْــلِ الـــوَهْمِ يَخْتَــرِقُ الضَّـــبَابَا
وَقَــدْ لَاحَــتْ أَشِــعَّتُهُ وِضَــاءً ... وَإِرْهَاصَـــاتُهُ انْطَلَقَـــتْ شِـــهَابَا
غـــداً تمشـــي الشـــعوب علـــى هـــداه ... ونـــور الله يحـــدوها ركابـــا

وَلَنَا مَعَ الفَجْرِ مَوَاثِيقُ وَعُهُودٌ، لَا بُدَّ أَنْ نَرَى وَنَشْهَدَ ثَمَرَةَ الوَفَاءِ، وَالنَّصْرِ، وَالنَّجَاحِ، وَالنَّجَاةِ، عِنْدَ مَا نَرَى كِتَابَكُم يَغْزُو الـمَكْتَبَاتِ العَالَمِيَّةَ.

(١) اِنْتَهَى مِنْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِي: (نَشْرِ العَبِيْرِ فِي مَنْظُومَةِ قَوَاعِدِ التَّفْسِيْرِ) (ص:٢٤).

أَحْسَنَ مِنْ أَيَّامِ مُحسن معانٍ، وَأَبْهَجَ مِن نيْلِ أمانٍ، في ظِلِّ صحةٍ وَأَمَانٍ، مُودِعًا إياهَا أَصْدَافَ أَلْفاظٍ، أَخْلَبَ للقُلُوبِ مِنْ غَمَزَاتِ أَلْحَاظ، وَأَسْحَرَ للعُقُولِ مِنْ فَتَراتِ أجفانٍ نَواعِسَ أَيْقَاظ، نَاظِمًا مِنْ مَحَاسِنِهَا عُقُودَ أمثَال، يَحكُمُ أَنَّها عَدِيمَةُ أَشْبَاهٍ وأَمْثَال، تَتَحَلَّى بِفَرَائدِهَا صُدُورُ الْمَحَافِلِ وَالْمَحَاضِرِ، وَتَتَسَلَّى بِشَوَارِدِهَا قُلُوبُ البَادِي وَالحَاضِرِ، وَتُقَيَّدُ أَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ الدَّفاتِرِ وَالصَّحَائِفِ، وتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ الشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ التَّنَائِفِ، فَهِيَ تُوَاكِبُ الرِّيَاحَ النُّكْبَ فِي مَدَارِجِ مَهَابِّهَا، وَتُزَاحِمُ الأَرَاقِمَ الرُّقْشَ فِي مَضَايِقِ مَدَابِّهَا، وَتَحوجُّ الخَطِيبَ الْمِصْقَعَ وَالشَّاعِرَ الْمُفْلِقَ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا، فِي أَثْنَاءِ مُتَصَرَّفَاتِهَا وَأَدْرَاجِهَا، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيْبِ الحُسْنِ وَالجمَالِ، وَاسْتِيلَائِهَا فِي الْجَوْدَةِ عَلَى أَمَدِ الكَمَالِ، وَكَفَاهَا جَلَالَةَ قَدْرٍ، وَفَخَامَةَ فَخْرٍ، أنَّ كِتَابَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- وَهُوَ أَشْرَفُ الْكُتُبِ، الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى العَجَمِ وَالعُرْبِ، -لم يَعْرُ مِنْ وِشاحِها المفصَّلِ تَرَائبُ طِوالِهِ ومُفَصَّلِهِ، ولا مِنْ تَاجِهِ الْمُرَصَّعِ مَفارِقُ مُجْمَلِهِ ومُفَصَّلِهِ، وَأَنَّ كَلامَ نَبِيِّهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ-وَهُوَ أَفْصَحُ الْعَرَبِ لِسَانًا، وَأَكْمَلُهُمْ بَيَانًا، وأرجَحُهُمْ فِي إِيضَاحِ القَوْلِ مِيزَانًا-لَمْ يَخْلُ فِي إِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ، وتَبْشِيرِهِ وَإِنْذَارِهِ، مِنْ أُسْلُوبٍ وَبَلَاغَةٍ يَحوزُ قَصَبَ السَّبْقِ فِي حَلبَةِ الإِيجَازِ، وَيَسْتَوْلِي على أَمَدِ الْحُسْنِ فِي صَنْعَةِ الإِعجَازِ، أَمَّا الْكِتَابُ فَقَدْ وُجِدَ فيه هذا النَّهجُ لَحِبًا مَسْلُوكًا)[(١)].

وَصَحَّحْتُ مَا نَدَّ عَنِ البَصَرِ، فَأَخَذَ بِكُلِّ مَا اقْتَرَحْتُهُ جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا، وَعِنْدَ مَا خَتَمْتُ الكِتَابَ هِبتُ أَنْ أُقَدِّمَ لِـمِثْلِ هذَا الكِتَابِ البَلِيْغِ، إِلَّا أَنَّهُ أَصَرَّ عَلَى ذلِكَ، فَوَقَعْتُ فِي مَوْضِعٍ لَا أُحْسَدُ عَلَيْهِ.

---

(١) انظرْ: (مَجْمَعَ الأَمْثَالِ) (١/ ١٣) للمَيْدَانِيِّ، مِنْ مَطْبُوعَاتِ: دَارِ الفِكرِ.

فَنُزُولًا عِنْدَ رَغْبَتِهِ أُرَانِي أُقَدِّمُ رِجْلاً وَأُؤَخِّرُ أُخْرَى، وَأُكَلِّمُ نَفْسِي قَائِلاً: ماذَا أفعلُ؟ أَأُقَدِّمُ لِكِتَابٍ أَبْدَعَ فِيْهِ صَاحِبُهُ وَأَجَادَ وَأَعَادَ، وَصَالَ وَجَالَ، بَلَاغَةٌ فِي البَيَانِ، وَإِيْجَازٌ فِي المَقَالِ، وَلَا مُبَالَغَةَ إِذَا قُلْتُ: إِنَّ الكَاتِبَ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي يُرَقِّصُ البَلَاغَةَ بِقَلَمِهِ، وَيَلْعَبُ بِهَا بِحِبْرِهِ وَمِدَادِهِ وَيَرَاعِهِ، وَيَصُوْغُ مِنْهَا سِحْراً حَلَالاً، وَيَدْخُلُ إِلَى قُلُوبِ مُحِبِّيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَأَبَتِ البَلَاغَةُ إِلَّا أَنْ تَنْقَادَ لَهُ بِفُصُولِهَا وَفُصُوصِ نُصُوصِهَا، وَسَلَّمَتْ لَهُ عِنَانَهَا، وَعَنَانَهَا، (طَلَعَ النَّهَارُ فَأَطْفِئُوا القِنْدِيلَا):

[مِنَ الكَامِلِ]

طَلَعَتْ بِهِ شَمْسُ الهِدَايَةِ لِلْوَرَى وَأَبَى لَهَا وَصْفُ الكَمَالِ أُفُوْلَا

وَالشَّيْخُ مَرْوَانُ: سَخَّرَ قَلَمَهُ الفَصِيْحَ للدِّفَاعِ عَنْ رُمُوزِ الإِسْلَامِ وَأَئِمَّتِهِ، وَوَقَفَ كَالطَّوْدِ الأَشَمِّ رَافِعاً صَوْتَهُ الجَهْوَرِيَّ قَائِلاً: (مَرْحَباً بِكُم فِي السَّاحَةِ تَكْتُبُونَ وَنَكْتُبُ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الأَيَّامُ، وَ«إِنَّ غَداً لِنَاظِرِهِ قَرِيبٌ»، لَكُمْ أَقْزَام، وَلَنَا أَعْلَام، وَالحَقُّ أَبْلَج، وَالبَاطِلُ لَجْلَج، وَلَنْ يَدُومَ بُنْيَانُ البَاطِلِ مَهْمَا زُخْرِفَ وَبُهْرِجَ فَمَصِيْرُهُ إِلَى الزَّهَقِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَقُلْ للعُيُونِ الرُّمْدِ لِلشَّمْسِ أعيُنٌ تَرَاهَا بِحَقٍّ فِي مَغِيبٍ ومَطْلَعِ

وَالشَّيْخُ مَرْوَانُ: لَا يَجْهَلُ أَحَدٌ كِتَابَيْهِ: (الجِنَايَةُ عَلَى البُخَارِيِّ)، وَ(الجِنَايَةُ عَلَى الشَّافِعِيِّ)، مِنْ مُخْتَلَفِ طَبَقَاتِ المُثَقَّفِيْنَ، صِغَاراً وَكِبَاراً، ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً، فَهُوَ قَدْ أَحْرَزَ شُهْرَةً وَاسِعَةً، أَشْهَرَ مِنْ: (قِفَا نَبْكِ)، وَمِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمٍ، بِحَيْثُ لَا تَسْأَلُ عَنْهُ مُتَأَدِّباً وَلَوْ نَاشِئاً إِلَّا وَوَجَدْتَ عِنْدَهُ مِنْ أَمْرِهِ خَبَراً، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ مَا يَكُونُ الدِّفَاعُ عَنْ

عَلَمٍ مِنْ أَعْلَامِ اللُّغَةِ وَمَصْدَرِهَا وَإِمَامِهَا، سَارَتْ شُهْرَتُهُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

فِي الطَّـوْدِ فِي رَحْـبِ السُّـهُولِ وأَبْطُـحِ ... فِي البَحْـرِ فِـي الصَّـحْرَاءِ فِي كُـلِّ الـدُّنَا
فِـي الطَّيْـرِ تَسْـبَحُ فِي الْفَضَـا أَوْ: تَنْثَنِـي ... فَـوقَ الغُصُـونِ غَـدَتْ تُـرَدِّدُ أَلْحُنَـا
فِي نَسْـــلِ آدَمَ فِي أَجَــلِّ جِبِلَّـــةٍ ... تَــدَعُ العُقُــولَ بِلَبْسِــهَا أَنْ تَفْطِنَــا[1]

ضَعْ نَفْسَكَ أَمَامَ مِرآةٍ صَافِيَةٍ يَا عُمُرُ، وَدَعْ عَنْكَ مَحَاسِنَ الأَثْمَار، وَالوُرُودِ وَالأَزْهَارِ؛ لِأَنَّ بِهَا مَا يُدْهِشُ الأَبْصَارَ، وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ عَنَانِي حِيْنَ قَالَ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

يَـا بَـارِيَ القَـوْسِ بَرْيًـا لَـيْسَ يُحْسِـنُهُ ... لَا تَظْلِـمِ القَـوْسَ أَعْـطِ القَـوْسَ بَارِيْهَـا

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَكُـلُّ امْـرِئٍ يَـدْرِي مَوَاقِـعَ رُشْـدِهِ ... وَلكِنَّـــهُ أَعْمَـــى أَسِـــيْرُ هَـــوَاهُ
يُشِـيْرُ عَلَيْـهِ النَّاصِـحُونَ بِجُهْـدِهِمْ ... فَيَـأْبَى قَبُـوْلَ النُّصْـحِ وَهْـوَ يَـرَاهُ
هَـوَى نَفْسِـهِ يُعْمِيْـهِ عَـنْ قَصْـدِ رُشْـدِهِ ... وَيُبْصِــرُ عَــنْ فَهْـمٍ عُيُـوْبَ سِـوَاهُ

وَقَالَ آخَرُ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَرَى كُـلَّ إِنْسَـانٍ يَـرَى عَيْـبَ غَيْـرِهِ ... وَيَعْمَـى عَـنِ العَيْـبِ الَّـذِي هُـوَ فِيْـهِ

---

(١) هـذِهِ الأَبْيَـاتُ الثَّلَاثَـةُ مِـنْ قَصِيدَتِي الَّتِي أَسْـمَيْتُهَا: (إِتْحَـافُ العُقُـولِ: فِـي مَحَاسِـنِ الـمَرْأَةِ الْعَطْبُول)، وَ(الْعَطْبُولُ) -بِفَتْحِ العَيْنِ، وَسُكُوْنِ الطَّاءِ- هِيَ: (الـمَرْأَةُ الحَسْنَاءُ الجَمِيْلَةُ).

وَلَا خَيْـرَ فِـيْمَنْ لَا يَـرَى عَيْـبَ نَفْسِـهِ ... وَيَعْمَـى عَـنِ العَيْـبِ الَّـذِي بِأَخِيْـهِ

وَالخِدْمَةُ تَكُونُ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِنَا الضَّعِيْفَةِ، مِنْ بَابِ قَوْلِ أَبِي نَصْرٍ العُتْبِيِّ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

لَكِـنَّ طَاقَـةَ مِثْلِـي غَيْـرُ خَافِيَـةٍ ... وَالنَّمْلُ يُعْذَرُ فِي القَدْرِ الَّذِي حَمَلَا

وَرَحِمَ اللهُ أَبَا الشَّمَقْمَقِ كَأَنَّهُ يُنَادِيْنِي بِقَوْلِهِ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

مَهْـلاً علـى رِسْـلِكَ حَـادِي الأَيْنُـقِ ... وَلا تُكَلِّفْهَـا بِمَـا لَـمْ تُطِـقِ
فطَالَمَـا كَلَّفْتَهَـا وسُـقْتَهَا ... سَـوْقَ فَتًـى مِـنْ حَالِهَـا لَـمْ يُشْـفِقِ
وَلَـمْ تَـزَلْ تَرْمِـي بِهَـا يَـدُ النَّـوَى ... بِكُـلِّ فَـجٍّ وَفَـلاةٍ سَـمْلَقِ
وَمَـا ائْتَلَـتْ تَـذْرَعُ كُـلَّ فدْفَـدٍ ... أَذْرُعُهَـا وَكُـلَّ قَـاعٍ فَـرِقِ
وَكُـلَّ أَبْطَـحَ وأَجْـرَعَ وَجِـزْ ... عٍ وَصَـرِيمَةٍ وكُـلَّ أَبْـرَقِ
مَجَاهِـلُ تَحَـارُ فِـيهِنَّ القَطَـا ... لا دِمْنَـةٌ لا رَسْـمُ دَارٍ قَـدْ بَقِـي
لَـيْسَ بِهـا غَيْـرُ السَّـوَافِي والحَـوَا ... صِـبِ الحَـرَاجِيجِ وكُـلِّ زِحْلِـقِ(١)

وَالكَلَامُ يَنْبَغِي أَنْ يكُونَ مُنَاوَبَةً لَا مُنَاهَبَةً، وَمُسَاوَقَةً لَا مُسَابَقَةً، بَلْ: مُتَابَعَةً وَمُنَاصَفَةً، مِنْ غَيْرِ مَيْلٍ وَانْصِرَاف، وَلَا انْحِرَافٍ وَانْجِرَاف، وَلَا غُمُوضٍ وَإِبْهَامٍ وَإِيْهَامٍ، مَعَ دِقَّةٍ جَلِيلَةٍ فِي الوَصْفِ، وَصِدْقٍ أَجْلَى فِي التَّعْبِيرِ، وَمُرَاعَاةِ التَّغَيُّرِ فِي الأَحْوَالِ، وَالأَزْمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ، وَتَحْدِيْدِ الأَبْعَادِ وَالمَعَالِمِ، كَمَا فَعَلَ الأُسْتَاذُ الأَجَلُّ

---

(١) أُنْظُرْ: (شَرْحَ الشَّمَقْمَقِيَّةِ) (ص:١٢/ ١٥/ رقم:١/ ٧) لِشَيْخِنَا العَلَّامَةِ الأَدِيْبِ عَبْدِ اللهِ كَنُّوْن الحَسَنِي، مِنْ مَطْبُوعَاتِ: دَارِ الجِيْلِ للطِّبَاعَةِ.

مَرْوَانُ الكُرْدِيُّ فِي هذَا السِّفرِ المُطرِبِ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مَتِينٍ، وَأُسْلُوبٍ مُتَنَاسَقٍ مُتَمَاسِكٍ، وَكِتَابُهُ هذَا سَيكُونُ مَرْجِعاً لَا غِنَى عَنْهُ لِمَنْ أَرَادَ دِرَاسَةَ نُكَتِ اللُّغَةِ مَعَ رَوَابِطَ أَصِيْلَةٍ، وَمَعَانٍ أَصْلِيَّةٍ لَا انْفِصَامَ لَهَا بَيْنَ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ، وَلُغَةِ الأُمِّ العَرَبِيَّةِ، يَكْتُبُ أَدِيبُنَا بِلُغَةِ القَوْمِ الَّذِي بُعِثَ فِيْهِمْ نَبِيُّنَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ- وَبِدِقَّةٍ فِي التَّطْبِيْقِ لَيْسَ فِي الفَهْمِ فَحَسْبُ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

فَهْمٌ لأَمْرٍ عِنْدَهُمْ مِنْ أَمْرِ ... لَفظُ الدَّلالَةِ عَلَيهِ يَجْرِي
وَقِيْلَ: كَوْنُ الأَمْرِ لِلتَّفَهُّمِ ... مُهَيَّئًا فُهِمَ أَو: لَم يُفْهَمِ

فَأَنْيَابُ الأَغْوَالِ لَا تُدرَكُ بِالحِسِّ، لِعَدَمِ وُجُوْدِهَا، وَلَوْ أُدرِكَتْ لَمْ تُدْرَكْ إِلَّا بِحِسِّ البَصَرِ، وَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

الْغُوْلُ والْبُوْمُ[1] والْعَنْقَاءُ ثَالِثُهَا ... أَسْمَاءُ أشياءَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَمْ تَكُنِ

وَلَيس بَعْدَهُ شَيْءٌ يُقَارِنُهُ؛ لِأَنَّهُ عَمَّ وَتَمَّ، رَدٌّ مَرْوَانِيٌّ لَازَمَ أَصْلَهُ، وَ(مَنْ جَاءَ عَلَى أَصْلِهِ فَلَا سُؤَالَ عَلَيْهِ):

[مِنَ الرَّجَزِ]

لِلأَصْلِ يُرْجَعُ بِأَدْنَى سَبَبِ ... وَلاَ خُرُوجَ دُونَ أَقْوَى سَبَبِ

---

(١) أُنْظُرْ: (بَذْلَ المَاعُونِ لِدَارِسِ الجَوْهَرِ المَكْنُونِ) (ص:٩٣)، كَأَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَعْرِفُ البُوْمَ، مَعَ أَنَّهُ طَيْرٌ مَعْرُوفٌ. وَرَوَى بَعْضُهُم: (الجُود)، بَدَلًا مِنَ (البُوم)، وَالجُودُ أيضًا مَوجُودٌ.

وَالفطِنُ الذَّكِيُّ لَا يُختبَرُ عَنْ فِطْنَتِهِ، وَإِنَّما يُختبَرُ عَنْ مِقْدَارِهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَطِنًا وَجَبَ اخْتِبَارُهُ، إِذِ الحَذْفُ عَدَمُ الذِّكْرِ، وَعَدَمُ الحَذْفِ سَابِقُ الْوُجُودِ، وَالـمَعْنَى مُتَوقِّفٌ عَلَى الكَلِمَةِ لَا عَلَى غَيْرِهَا:

[مِنَ الرَّجَزِ]

وَالْحُكْـمُ إِنْ كَـانَ عَلَـى مَجْهُـولِ ... لَـمْ يُفِـدِ السَّـامِعَ للمَقُـوْلِ

إِذِ الضَّمِيرُ كُلِّيٌّ وَضْعًا، جُزْئِيٌّ اسْتِعْمَالاً، وَالْمُخَاطَبُ يَتْرُكُ تَعْيِيْنَهُ إِذَا قَصَدْنَا الشُّمُولَ، وَإِذَا كَانَ الضَّمِيرُ بِحَسَبِ التَّكَلُّمِ وَالخِطَابِ وَالغَيْبَةِ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ للظَّاهِرِ، وَالغَيْبَةُ الَّتِي هِيَ مَقَامُ الضَّمِيرِ شَرْطُهَا تَقَدُّمُ الظَّاهِرِ حَقِيْقَةً، أَوْ: حُكْمًا -بِأَنْ دَلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ- وَالنُّكَتُ البَيَانِيَّةُ لَا تَخْتَصُّ بِبَابٍ دُوْنَ بَابٍ، وَذِكْرُ الأَعَمِّ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ الأَخَصِّ، وَالفَرْقُ بَيْنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْثِيرِ، وَبَيْنَ التَّحْقِيرِ وَالتَّقْلِيلِ: (أَنَّ النَّظَرَ فِي الأَوَّلَيْنِ مِنْهُمَا إِلَى الكَيْفِ، وَالآخَرَيْنِ إِلَى الْكَمِّ)، وَرِضَا اللهِ وَاحِدٌ لكِنَّ مُتَعَلَّقَاتِهِ كَثِيرَةٌ[1].

وَالظَّاهِرُ أَخصُّ مِنَ الحَالِ؛ لِأَنَّ الحَالَ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ، الشَّيْءُ إِذَا حُذِفَ دَلَّ عَلَيْهِ العَقْلُ وَحدَّهُ، وَإِذَا ذُكِرَ دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَالعَقْلُ، لَا يَسْتَقِلُّ العَقْلُ بِخِلَافِ الحَذْفِ فَصَارَ أَقْوَى؛ لِأَنَّ النَّفْسَ أَسْرَعُ إِلَى إِدْرَاكِ الـمُجْمَلَاتِ مِنَ التَّفْصِيْلَاتِ، وَمِمَّا كَانَ

---

(١) كَسْراً وَفَتْحاً فِي لَامِ (الـمُتَعَلّق)، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ النَّحْوِ يَخْتَارُونَ الكَسْرَ؛ لِأَنَّ نَظَرَهُمْ إِلَى الأَلْفَاظِ، وَأَلْفَاظِ الـمَعْمُولَاتِ، وَأَهْلَ الـمَعَانِي يَخْتَارُونَ الفَتْحَ؛ لِأَنَّ نَظَرَهُم إِلَى الـمَعَانِي وَهِيَ بِاعْتِبَارِ الـمَعْنَى مُتَعَلَّقَاتٌ بِالفَتْحِ.

يُنْشِدُهُ ابنُ القَاسِمِ الـمَالِكِيُّ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَلَـيسَ مِـنَ الخُسـرانِ أَنَّ لَياليـاً   تَمُـرُّ بِـلا نَفَـعٍ وَتُحسَـبُ مِـن عَمـري

وَصدَق مَنْ قَالَ: (إذَا مَرَّت بِلاَ نَفْعٍ فَهِي كَرَامَةٌ، فَكَيْفَ إذَا مَرَّتْ بِضَرِرٍ)، وَالجَوَابُ لَا يُعطَفُ عَلَى سُؤَالٍ، وَكُلُّ مَا وُجِدَ القِصَاصُ وُجِدَتِ الحَيَاةُ، عَلَى أَنَّهُ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَا يَكْتُبُهُ الـمُهَنْدِسُ زَكَرِيَّا أُوزُونُ، وَبينَ مَا يَكْتُبُهُ الشَّيْخُ مَرْوَانُ إِذْ أُسْلُوبُ الأَوَّلِ فِي دُنُوٍّ حِسًّا وَمَعْنًى، وَلَفْظًا وَحُكْمـًا، وَتَفْصِيلاً وَإِجْمَالاً، وَالثَّانِي أُسْلُوبٌ فِي عُلُوٍّ، فَشَتَّانَ بَيْنَ الثَّرَى وَالثُّرَيَّا، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَبْنِي وَبَيْنَ مَنْ يَهْدِمُ؛ إِذِ الهَدْمُ يُحْسِنُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَالبِنَاءُ لَا يُحسِنُهُ إِلَّا العُظَمَاءُ (فَدِيْنُنَا عَظِيْمٌ، لَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى عُظَمَاءَ أَمْثَالِ كُرْدِيِّنَا)، إِذًا الرَّادُّ وَالـمَرْدُودُ عَلَيْهِ لَا يَلْتَقِيَانِ أَحَدُهُمَا عَرَبِيُّ االلَّهْجِ بَلِيْغٌ، وَالآخَرُ غَرْبِيُّ النَّهْجِ بَلِيْعٌ، رَضَعَ أَلْبَانـًا فَاسِدَةً، عَقَارِبُ قَلَمِهِ مُدَمِّرَةٌ قَلْقَلَ اللهُ أَنْيَابَهَا، ذَاتُهُ مُذَكَّرَةٌ مُكَبَّرَةٌ، وَأَفْكَارُهُ مُخَنَّثَةٌ مُصَغَّرَةٌ، لَا إِلَى هؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هؤُلَاءِ، يَكْتُبُ مُؤَلَّفَاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِالفَحْمِ كَانَ كَثِيراً فِي حَقِّهَا، لَهُ عُقْدَةٌ نَفْسِيَّةٌ مَعَ العَرَبِ الـمُسْتَعْرِبَةِ، عُقْدَةَ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيْرِ وَالتَّحْرِيْفِ وَالتَّخْرِيفِ، لكِنْ هذِهِ الْعُقَدُ سَتَنْهَارُ بَعْدَ أَنْ يَقْرَأَ هذَا الكِتَابَ وَأَخَوَيْهِ، وَيَقْرَأَ مَا فِيْهِ مِنَ السَّيْلِ العَارِمِ مِنْ الحُجَجِ القَوِيَّةِ، الَّتِي لَا يُحْسِنُ مِثْلَهَا أُوزُونُ؛ لِأَنَّهَا لَيْستْ يَسِيرَةً، بَلْ: عَسِيرَةٌ شَاقَّةٌ، وَالتَّأْلِيفُ صَنْعَةٌ لَا يُحْسِنُهَا كُلُّ أَحَدٍ، وَمَنْ قَرَأَ هذَا الجُزْءَ الحَصِيفَ وَجَدَهُ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُتَنَاوَلَ بِاليَدَيْنِ، وَيُكْتَبَ دُوْنَ الـمِدَادِ وَالعَسْجَدِ وَاللُّجَيْنِ.

وَأَمْثَالُ أُوزُونَ دَاءٌ عُضَالٌ ابْتُلِيَتْ بِهِمُ الأُمَّةُ فِي عَصْرِنَا، وَسُمُّهُمْ زُعَافٌ يَسْرِي فِي جَسَدِ الـمَرْضَى بِبُطْءٍ، وَكَانَتْ هذِهِ الرُّدُودُ الجَمِيْلَةُ، الَّتِي سَتَحلُّ حُبْوَةَ أُوزُونَ، وَتَسِيلُ لُعَابَهُ دَوَاءً لِانْتِفَاخِ الرَّأسِ.

فَجَاءَتْ رُدُودُ أَخِيْنَا الأَدِيبِ مَرْوَانِ الخَيْرِ، عِبَارَةً عَنْ: (لُـمَاضَاتِ حَرَشَةِ الضِّبَابِ، ونُفَاثَاتِ حَلَبَةِ اللِّقَاحِ، وَحَمَلَ الْعِلاَبِ، مِنْ كُلِّ مُرتَضِعٍ دَرَّ الفَصاحةِ يَافِعًا وَوَلِيدا، مُرْتَكِضٍ فِي حجر الذَّلاَقة تَوأَمًا ووَحيدا، قد ورد مَنَاهلَ الفِطنةِ يَنْبُوعًا فَيَنْبُوعا، وَنَزَفَ مَنَاقِعَ الحِكْمَةِ لَدُوداً ونَشُوعا، فَنطَقَ بِمَا يُسِرُّ الْـمُعَبِّرُ عَنْهَا حَسْواً فِي ارْتِغَاء[1]، وَالـمُشِيرُ إِلَيْهَا يَمْشِي فِي خَمَرٍ وَيدِبُّ فِي ضَراء، وَلهذَا السَّبَبِ خَفِيَ أَثرُهَا، وَظَهَرَ أقلُّها وَبطَنَ أَكْثَرُهَا، وَمَنْ حَامَ حَوْلَ حِمَاهَا، وَرَامَ قَطْفَ جَنَاهَا، عَلِمَ أَنَّ دُونَ الوُصُولِ إِلَيْهَا خَرْطَ القَتَاد، وَأَنْ لَا وُقُوفَ عَلَيْهَا إِلَّا للكَامِلِ العَتَاد، كَالسَّلَفِ الماضِينَ الَّذِينَ نَظَمُوا مِنْ شَمْلِهَا مَا تَشَتَّتَ، وَجَمَعُوا مِنْ أَمْرِهَا مَا تَفَرَّقَ، فَلَمْ يُبْقُوا فِي قَوْسِ الإِحْسَانِ مَنْزَعا، وَلَا فِي كِنَانَةِ الإِتْقَانِ وَالإِيْقَانِ أَهْزَعا، وَالنَّاسُ اليَوْمَ كَالـمُجْمِعِينَ عَلَى تَقَاصُرِ رَغَبَاتِهِمْ، وَتَقَاعُدِ هِمَّاتِهِم، عَمَّا جَاوَزَ حَدَّ الإِيْجَاز، وَإِنْ حَرَّكَ فِي تَلْفِيْقِهِ سِلْسِلَةُ الإِعْجَاز، إِلَّا مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ رَغْبَةِ مَنْ عَمَرَ مَعَالِمَ العِلْمِ وَأَحْيَاهَا، وَأَوْضَحَ مَنَاهِجَ الفَضْلِ وَأَبْدَاهَا، وَهِمَّةِ مَنْ تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هِمَمٌ مِلْءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا.. وَعَلَيْهِ عينةٌ مِنْ سَيِّدٍ جُمِعَ لَهُ إِلَى القُدْرَةِ العِصْمَة، وَإِلَى التَّوَاضُعِ الرِّفْعَةُ وَالحِشْمَة، فَرَفَلَ مِنَ السِّيَادَةِ فِي أَغْلَى أَثْوَابِهَا، وَأَتَى بُيُوتَ الـمَجْدِ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَبَاشَرَ أَبْكَارَ الـمَكَارِمِ فَالْتَزَمَهَا وَاعْتَنَقَهَا، وَبَاكَرَ أَقْدَاحَ الـمَحَامِدِ فَاصْطَحَبَهَا وَاغْتَبَقَهَا، فَأَصْبَحَ لَا

(١) وَفِي الـمَثَلِ العَرَبِيِّ القَدِيْم: (يُسِرُّ حَسْواً فِي ارتِغَاءٍ).

يَطْرَبُ إِلَّا عَلَى مَعْنًى تَكِدُّ لَهُ الأَفْهَام، دُوْنَ مُؤَثِّرٍ يَأْتِي لَهُ الإِيْهَام، وَلَا يَعْشَقُ إِلَّا بَنَاتِ الخَوَاطِرِ وَالأَفْكَارِ، دُوْنَ العَذَارَى الخُرَّدِ الأَبْكَارِ، وَلَا يُثَافِنُ إِلَّا مَنْ أَخْلَقَ جَدِيدَيْهِ، حَتَّى مَلأَ مِنَ الفَضْلِ بُرْدَيْهِ، وَكَحَّلَ بِإِثْمِدِ السَّهرِ جَفْنَيْهِ، حَتَّى أَقَرَّ بِنَيْلِ القُرْبِ مِنْهُ عَيْنَيْهِ، فَتَبَوَّأَ مِنْ حَضْرَتِهِ المَأْنُوسَةِ جَنَّةً حُفَّتْ بِالمَكَارِمِ لَا المَكَارِه، وَرَوْضَةً خُصَّتْ بِالمَجْدِ الزَّاهِرِ لَا بِالأَزَاهِرِ، تَنْثَالُ عَلَيْهَا أَفْرَادُ الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ أَوْب، وَتَنْصَبُّ إِلَيْهَا آحَادُ العَصْرِ مِنْ كُلِّ صَوْب، لَا سَلَبَ اللهُ أَهْلَ الأَدَبِ ظِلَّه، وَلَا بَلَغَ هَدْيُ عُمرِهِ مَحِلَّهُ، مَا طَلَعَ نَجْمٌ، وَنَجَمَ طَلْعٌ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ)[١].

وَكَأَنِّي بِالمُهَنْدِسِ يَقُولُ: (يَا أَرْضُ اشْتَدِّي مَا عَلَيْكِ أَحَدٌ قَدِّي).

وَلَوْلَا أَنَّ الشُّبَهَ خَطَّافَةٌ يَا (مُهَنْدِسَنَا) مَا تَعَرَّضَ الأُسْتَاذُ مَرْوَانُ لَكَ وَلَا لِأَمْثَالِكَ مِنَ النَّاعِقِيْنَ المَدْفُوعِيْنَ-الَّذِيْنَ يَطْعَنُونَ عَلَى لُغَةِ الوَحْيِ-تَحْقِيراً لِشَأْنِكُم وَتَبْكِيتاً لَكُم وَإِظْهَاراً لِقُبْحِكُم.

وَقَدِيمًا قِيلَ: (مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ كَثُرَ لَغَطُهُ). أَوْ: كَثُرَ خَطَؤُهُ، أَوْ: (مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ كَثُرَ اعْتِرَاضُهُ). وَ(لَوْ سَكَتَ مَنْ لَا يَعْلَمُ لَقَلَّ الخِلَافُ)، وَ(مَنْ تَكَلَّمَ فِي غَيْرِ فَنِّهِ أَتَى بِهَذِهِ العَجَائِبِ).-فَفَنُّكَ الهَنْدَسَةُ لَيْسَ إِلَّا-فَلِكُلِّ عِلْمٍ أَهْلُهُ، وَلِكُلِّ فَنٍّ فُرْسَانُهُ، وَ(فَاقِدُ الشَّيءِ لَا يُعْطِيهِ)، وَ(طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ مَرِيضٌ).

لكِنْ مَا دَوْرُ العُلَمَاءِ عِنْدَ مَا يُصْبِحُ أَبُو جَهْلٍ بَطَلاً قَوْمِيًّا، أَوْ: عِنْدَ مَا يُرِيدُ النَّمْلُ أَنْ يَطِيْرَ:

---

(١) أُنْظُرْ: (مَجْمَعَ الأَمْثَالِ) (١/ ١٣) لِلمَيْدَانِيِّ.

[مِنَ الكَامِلِ]

وَإِذَا اسْتَوَتْ للنَّمْلِ أَجْنِحَةٌ حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطَبُهْ

وَقَالَ الأَمِيْرُ أَبُو الفَضْلِ الـمِيْكَالِيُّ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَقَدْ يَهْلِكُ الإِنْسَانَ حُسْنُ رِيَاشِهِ كَمَا يُذْبَحُ الطَّاوُوْسُ مِنْ أَجْلِ رِيْشِهِ

فَنَحْنُ (مِنْ فَمِكَ نَدِينُكَ)، وَ(عَلَى نَفْسِهَا جَنَتْ بَرَاقِشُ)، وَ(الـمُهَنْدِسُ) أَبَى إِلَّا أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَهُ الأُسْتَاذُ الأَدِيبُ مَرْوَانُ بِلُغَةِ: (عَاشِرِ الذِّئَابَ عَلَى أَنْ تَكُونَ فَأْسُكَ فِي يَدِكَ)، وَلُغَةِ: (إِنْ كُنْتَ رِيْحاً فَقَدْ لَاقَيْتَ إِعْصَاراً).

وَبِالـمُنَاسَبَةِ-أَيُّهَذَا الـمُهَنْدِسُ-: فَإِنَّ: (جِنَايَتَكُمْ عَلَى سِيْبَوَيْهِ) احْتَوَتْ عَلَى دَعَاوَى خَطِيْرَةٍ، دَرَيْتَ أَمْ: لَمْ تَدْرِ، وَعَانَقَتْ مَسَاوِيًا عَظِيْمَةً:

[مِنَ الوَافِرِ]

مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الغَوَانِي لَمَا جُهِّزْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

وَقَدْ صَدَرَتْ مِنْ شَخْصٍ تَزَبَّبَ فِي عِلْمٍ لَمْ يَتَحَصْرَمْ فِيْهِ، وَهذَا الأَمْرُ مِنْ مَزَالِقِ الأَقْدَامِ، لَا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ فِيْهِ مَنْ تَرَبَّى فِي أَحْضَانِ الغَرْبِ وَتَرَعْرَعَ عَلَى مَوَائِدِهِم، وَتَشَبَّعَ بِأَفْكَارِهِمْ وَثَقَافَتِهِمْ، فَأَنْتَ لَسْتَ أَهْلاً لِلكِتَابَةِ وَالسِّبَاحَةِ فِي هذَا الـمَيْدَانِ، حَتَّى وَلَوْ سَوَّدْتَ وَجْهَكَ بِالـمِدَادِ:

[مِنَ الوَافِرِ]

فَدَعْ عَنْكَ الكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا وَلَوْ سَوَّدْتَ وَجْهَكَ بِالمِدَادِ

وَلَاسِيَّمَا مَنْ كَانَ دَعِيًّا فِي هذَا العِلْمِ لَا يُعْرَفُ لَهُ فِيْهِ أَبٌ وَلَا أُمٌّ، رَضِيَ بِالبَنَاتِ وَزَهِدَ فِي الأُمَّهَاتِ، وَاكْتَفَى بِالوَجبَاتِ السَّرِيعَةِ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ وَضَعَ سَوَاداً فِي بَيَاضٍ يكُونُ كَاتِباً فِي كُلِّ فَنٍّ، وَرُبَّمَا اختصَّ بِكَ مَا جَاءَ فِي بَعْضِ الحِكَمِ: (مَنِ اسْتَعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ عُوْقِبَ بِحِرْمَانِهِ)، كَأَنَّ لِسَانَ حَالِكَ -وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ المَقَالِ- يَقُولُ: (اخْضَعُوا لَنَا حَتَّى نَضَعَ لَكُمْ نقطًا بَيْضَاءَ فِي صَحَائِفِكُمْ عِنْدَنَا):

[مِنَ الرَّجَزِ]

مَهْــلاً هَــدَاكَ اللهُ مَــا الحَــدِيْثُ لَــكْ ... مَنْ خَاضَ فِي اللِّجَاجِ حَتْمـًا قَدْ هَلَكْ

وَهذِهِ ثَمَرَةُ مَنْ تَرَكَ مُلَازَمَةَ الشُّيُوْخِ، وَاكْتَفَى بِمَشْيَخَةِ الكُتُبِ وَالصُّحُفِ: العِلْمُ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ أَفْوَاهِ العُلَمَاءِ لَا مِنْ بُطُوْنِ الكُتُبِ، فَإِنَّ (مِنْ أَعْظَمِ البَلِيَّةِ تَشَيُّخَ الصَّحِيفَةِ).

[مِنَ المُجْتَثِّ]

لَا تَحْسَــــبَنْ أَنَّ بِالكُتْـــــبِ مِثْلَنَـــا سَتَصِـــيْرُ
وَلِلدَّجَاجَـــةِ رِيْـــشٌ لَكِنَّهَـــا لَا تَطِيْـــرُ

وَيُذَكِّرُنِي صَنِيْعُ المُهَنْدِسِ -الَّذِي ارْتَقَى مُرْتَقًى صَعْبًا، وَوَقَعَ فِي حَيْصَ بَيْصَ- بِدُوْدَةِ القَزِّ، وَذلِكَ أَنَّ دُوْدَةَ القَزِّ لَمَّا أَخَذَتْ تَنْسُجُ أَقْبَلَتِ العَنْكَبُوتُ تَتَشَبَّهُ وَقَالَتْ: لَكِ نَسْجٌ وَلِي نَسْجٌ، فَقَالَتْ دُوْدَةُ القَزِّ: وَلكِنَّ نَسْجِي أَرْدِيَةُ بَنَاتِ المُلُوْكِ، وَنَسْجُكِ شَبَكَةُ الذُّبَابِ وَعِنْدَ مَسِّ النَّسِيْجَيْنِ يَتَبَيَّنُ الفَرْقُ. (وَكُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيْهِ يَرْشَحُ)، (فَمَنْ أَحَبَّ مَقْرُوْطًا قَرَطَهُ اللهُ)، وَ(حُبُّكَ الشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ).

قَالَ (مُهَنْدِسُ) المُتَصَعِّدُ سَنَامَ الكِتَابَةِ مَعَ قُصُورِ نَظَرِهِ، لَا يَرَى أَبْعَدَ مِنْ أَرْنَبَةِ أَنْفِهِ، طَاشَ دَمَاغُهُ فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٌ، وَكُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةٌ، وَظَنَّ أَنَّ المِسْكَ

يُسْتَخْلَصُ مِنْ جِيَفِ الكِلَابِ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ وَاسِعَ الأُفُقِ لَمَا خَفِيَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشُّعَرَاءُ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (فُصِّلَتْ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (يُوسُفُ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النَّحْلُ)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (طَه).

وَالخِطَابُ هُنَا لِلعَرَبِ وَلَيْسَ لِلغَرْبِ أَسَاتِذَةِ أُوزُونَ، وَلَائِحَةُ الآيَاتِ فِي هَذَا المِضْمَارِ طَوِيْلَةٌ، وَالحَبْلُ إِلَيْهَا جَرَّارٌ، لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ شَمَّ رَائِحَةَ العِلْمِ وَلَوْ مِنْ بَعِيْدٍ، لَوْ سَأَلْتَ تَلَامِذَةَ الأُسْتَاذِ مَرْوَانَ لَوَجَدْتَ عِنْدَهُمُ الخَبَرُ اليَقِيْنُ:

[مِنَ الوَافِرِ]

أُمُورٌ يَضْحَكُ السُّفَهَاءُ مِنْهَا ... وَيَبْكِي مِنْ عَوَاقِبِهَا اللَّبِيْبُ

وَثَقَافَةُ أُوزُونَ أَعْتَبِرُهَا لَوْثَةً وَافِدَةً لِبِلَادِ السُّورِيِّينَ، وَوَعْكَةً نَازِلَةً لِأَهْلِ الشَّامِ المُجَاهِدِيْنَ، وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الحَافِظِ البَنَّا: (هذَا زَمَانُ السُّكُوتِ، وَالرِّضَا بِالقُوتِ، وَلُزُومِ البُيُوْتِ، وَمَنْ قَالَ الحَقَّ يَمُوْتُ).

أَمَّا أَخِي مَرْوَانُ فَفِي الخِتَامِ أَقُولُ لَهُ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

رُدُوْدُكَ حُلْوَةٌ وَالفَهْمُ أَحْلَى ... كَأَنِّي لَمْ أَجِدْ إِلَّاكَ خِلَّا
فَدَيْتُكَ سَيِّدِي مِنْ خَلِيْلٍ ... يَصُوغُ الرَّدَّ أَزْهَارًا وَفُلَّا

فَبَارَكَ اللهُ فِيْك، وَحقَّقَ آمَالَك، وَخَفَّفَ آلَامَك، وَكَثَّرَ فَوَائِدَك، وَمَدَّ عَلَى الخَلْقِ عَوَائِدَك، وَاصِلْ -يَا رَعَاكَ اللهُ- فَالخَيْرُ أَمَامَك، وَسَيَكُونُ لَكَ مُسْتَقْبَلٌ زَاهِرٌ، وَسَتُصْبِحُ جَبَلًا وَمَرْجِعًا، وَرَجَوْنَا مِنْ عَمَلِكُمْ هذَا أَنْ يُشْبِعَ رَغَبَاتِ أَهْلِ العِلْمِ، وَأَحْمَدُ اللهَ أَنَّنِي قَرَأْتُهُ قَبْلَ أَنْ يُنْشَرَ فَيَنْتَشِرَ، وَإِلَّا لَكَانَ فِي قَلْبِي لَوْعَةٌ:

[مِنَ الكَامِلِ]

هــذَا كِتَــابٌ لَــوْ يُبَــاعُ بِوَزْنِــهِ ذَهَبًــا لَكَــانَ البَــائِعُ الــمَغْبُونَا

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

تَــرَاهُ إِذَا مَــا جِئْتَــهُ مُــتَهَلِّلًا كَأَنَّــكَ تُعْطِيْــهِ الَّــذِي أَنْــتَ سَــائِلُهْ

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

كَأَنَّــهُ شَــمْسٌ وَالشُّــرُوحُ كَوَاكِــبٌ إِذَا طَلَعَــتْ لَــمْ يَبْــدُ مِــنْهُنَّ كَوْكَــبُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ علَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ أَجْمَعِيْنَ

كَتَبَهُ أَخُوْهُ الفَقِيْرُ إِلَى عَفْوِ رَبِّهِ:

عُمَرُ بْنُ مَسْعُوْدٍ الحَدُّوْشِيُّ، تَطْوَان

٢/شَعْبَان، سَنَةَ: ١٤٤٠هـ.

المُقَدِّمَةُ

الْحَمدُ للهِ الَّذِي تَفرَّدَ بِنُعُوتِ الكَمَالِ وَصِفَاتِ الجَمَالِ، الْمُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَإعْلال، مُولِي النِّعَمِ وَمُجَدِّدِهَا حَالًا بَعْدَ حَال، ربِّ النَّاسِ وَمُبْدِئِهِم بِلَا إِبْدَال، مَنْ لَزِمَ شُكْرَهُ وَعطَفَ لَهُ قَنَاتَهُ نَجَا، وَمَنْ تَعدَّ حَدَّهُ هَلَكَ وَصَارَ يَوْمُهُ دُجى، مُصَرِّفِ القُلُوبِ نَحْوَهُ بِجَمِيْلِ التَّصْرِيْف، مَلَاذِ الأَفْرَادِ وَالجُمُوعِ وَهُوَ الخَبِيرُ اللَّطِيْف، نَوَالُهُ مَقْرُونٌ بِعِبَادِهِ الْمَقْرُونَ اللَّفِيف، وَالصَّلاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَصْدَرِ الخَيْرَات، الْمُمَيَّزِ بِضُرُوبِ الْمُعْجِزَاتِ، الَّذِي اشتُقَّ اسْمُهُ مِنَ الحَمْدِ وَهُوَ أَحْمَد، إِمَامُ البَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ مُحَمَّد، وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ رُوَّادِ البَدِيْعِ وَالبَيَانِ، الْمُبَرَّئِينَ مِنْ شَوَائِبِ اللُّكْنَةِ وَالعُجْمَةِ فِي اللِّسَان، وَعَلَى أُمَّةِ القُرآنِ إِلَى يَوْمِ لُقيَانَا بِرَبِّنَا الرَّحمن، أمَّا بَعْدُ:

فَلَا يَخْفَى عَلَى ذِي عَيْنَيْن، أنَّ لُغَةَ القُرآنِ عَرَبِيَّةٌ بِغَيْرِ مَيْن، وَأنَّهُ لَا يُفْهَمُ عَلَى وَجْهِهِ بِغَيْرِ لِسَانِ العَرَب، فَهُوَ أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ كُلِّ ذِي لُبٍّ وَأَرَب، وَبِقَدْرِ البُعْدِ عَنْ أَسَالِيْبِ هذَا اللِّسَانِ، يَبْتَعِدُ الْمَرْءُ عَنْ فَهْمِ القُرآنِ، وَيَكُونُ فِيْهِ أَعْجَمَ أَلْكَنَ بَعِيْدًا عَنِ النَّصَاعَةِ وَالبَيَانِ.

وَلَقَدْ أحَسَّ بهذَا السِّرِّ عَدُوُّنَا الحَقُوْد، فَجَمعَ ضِدَّ العَرَبِيَّةِ أوْتَادَهُ وَالجُنُوْد، فَحَاوَلُوا هَدْمَ أَرْكَانِهَا وَصَارُوا يَدًا وَاحِدَة، وَحَشَدُوا أُصُولًا وَفُرُوعًا مُتَّحِدَة، لِلحَرْبِ عَلَى هذِهِ اللُّغَةِ الفَرِيْدَة، وَبَثِّ الزَّعْزَعَةِ حَوْلَ قَوَاعِدِهَا العَتِيْدَة.

وَلَقَدْ شُنَّ عَلَيْهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الحُرُوب، مُقَسَّمَةً عَلَى أَنْحَاءٍ وَضُرُوب، تَارَةً بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّاتِيْنِيَّة، وَأُخْرَى بِالتَّرْوِيجِ لِلعَامِّيَّة، وَلكِنَّهَا مَحمِيَّةٌ بِحِمَايَةِ مَنْ لَا يَمَسُّهُ نَصَبٌ

وَلَا لُغُوب! فلَوْ لَا هذِهِ العِنَايَةُ الإِلهِيَّةُ، وَالحِمَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، لَمْ يَبْقَ لهذِهِ اللُّغَةِ بَعْدَ مُرُورِ هذِهِ الـمُدَّةِ الطَّوِيْلَةِ رَسْمٌ، وَلَا مَعَ هذِهِ الـمُؤَامَرَاتِ ذِكْرٌ وَلَا اسْمٌ؛ لأَنَّ اللُّغَاتِ تَمُوتُ وَتَنْدَرِسُ وَتُمْحَى، بَعْدَ تَعَاقُبِ الأَيَّامِ وَالأَزْمَانِ، مِنْ غَيْرِ مُؤَامَرَةٍ وَلَا عُدْوَان، فَكَيْفَ إِذَا طَالَ عَلَيْهَا الأَمَد، وَالعدُوُّ الشَّرِسُ لَهَا بِصَدَد، بِكُلِّ عَتَادٍ وَمَدَد؟!

وَظَهَرَ فِي هذِهِ الأَيَّامِ أُنَاسٌ مِنْ بَنِيْهَا، يَدَّعُونَ رَضَاعَ أَلْبَانِهَا، حَاوَلُوا إِقْلاعَهَا مِنْ رُقِيِّهَا وَسَنِيِّهَا، تَحْتَ شِعَارِ الصِّدْقِ وَالإِخْلاصِ، مُوهِمِيْنَ الخَلَاصَ مِمَّا فِيْهَا مِنَ الإِمْلاص، وَلكِنَّ مِثْلَهُم لَا يُوْثَقُ بِسَيْلِ تَلْعَتِهِ، لِتَشَوُّهِ وَجْهِ نِدَائِهِ وَطَلْعَتِهِ، يشِفُّ ظَاهِرُهُ عَنْ بَاطِنِهِ، وَيَنْكَشِفُ سُوءُ حَالِهِ مِنْ مَعْدِنِه.

وَقَدْ سَارَ الـمُهَنْدِسُ زَكَرِيَّا أُوزُونُ-وَفَّقَهُ اللهُ لِلرَّشَادِ-عَلَى نَهْجِهِم وَاقْتَفَى أَثَرَهُم وَتَقَيَّلَهُم، لَكِنَّهُ بِأُسلُوبٍ جَدِيدٍ، فِي كِتَابٍ لَهُ أَسْمَاهُ: (جِنَايَةَ سِيبَوَيْهِ)، فَاخْتَارَ اسْمَ الإِمَامِ العَلَمِ سِيْبَوَيْهِ لِيَجْعَلَهُ عُنْوَانًا لِنَقْدِ العَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ جَيِّدًا مَنْزِلَةَ هذَا الإِمَامِ الجِهْبِذِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةُ نَحْوٍ يُحَجّ، وَيُقْصَدُ لِعِلْمِهِ مِنْ كُلِّ فَجّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ السُّذَّج، إِذْ بَلَغَ القُلَّتَيْنِ وَزِيَادَةً مِنْ غَيْرِ مَرَج، وَقَدْ كَانَ يُصِيبُ بِسِهَامِ رَأْيِهِ أَكْبَادَ الـمُشْكِلَاتِ، وَيُمَزِّقُ ظُلُمَاتِ العَوِيْصَاتِ فِي أَمْرِ اللُّغَاتِ.

فَلِذلِكَ جَنَى عَلَيْهِ كَمَا جَنَى عَلَى الإِمَامَيْنِ العَلَمَيْنِ: (الشَّافِعِيِّ، وَالبُخَارِيِّ)، وَسَوَّدَ صَفَحَاتٍ مِنْ طُرُوس، بِهذِهِ الحُرُوبِ الضَّرُوس، دُونَ جُرْمٍ ارْتَكَبُوهُ، وَلَا لِبَاسِ جِنَايَةٍ ارْتَدَوْهُ، وَلكِنَّ الـمُهَنْدِسَ-أَنَارَ اللهُ دَرْبَهُ، وَأَنْهَى حَرْبَهُ-كَانَ مُغْرَمًا بِحُبِّ النَّقْدِ وَالِانْتِقَادِ وَمُولَعًا بِهِ، دُونَ البَحْثِ عَنْ وَجْهِ الحَقِّ وَقَصْدِ الصَّوَابِ، وَهذَا يُذَكِّرُنِي

بِكَلَامٍ رَائِعٍ مَاتِعٍ، رَاقٍ رَائِقٍ، لِابنِ قُتيبَةَ الدِّيْنَوَرِيِّ مُعَلِّقًا عَلَى مُنَاقضَةٍ بينَ أَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمِ بْنِ الوَلِيدِ، إِذْ نَاقَضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَيْتَ صَاحِبِهِ، فَعَلَّقَ ابنُ قُتَيْبَةَ قَائِلًا: (وَالبَيْتَانِ جَمِيعًا صَحِيحَانِ لَا عَيْبَ فِيهِمَا، غَيْرَ أَنَّ مَنْ طَلَبَ عَيْبًا وَجدَهُ، أَوْ: أَرَادَ إِعْنَاتًا قَدرَ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ مُتَحَامِلًا مُتَحَيِّنًا، غَيْرَ قَاصِدٍ للحَقِّ وَالإِنْصَافِ)[١].

فَهذَا هُوَ مَسْلَكُ الـمُهَنْدِسِ وَمَطْلَبُهُ، وَبُغْيَتُهُ فِي النَّقْدِ وَمَذْهَبُهُ؛ لأَنَّهُ اعتَرَضَ عَلَيْهِمْ عَلَى أشيَاءَ لَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا إِلَّا مُتَعَنِّتٌ، وَلَا يَرُدُّهَا إِلَّا مُتَزَمِّتٌ، وَقَدْ رأيتُمْ ذلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابَيْهِ السَّابِقَيْنِ وَتَرونَهُ فِي هذَا الكِتَابِ أيضًا بَادِيًا أَبْلَجَ.

وَقَدْ أَتَيْتُ بِجَمِيعِ اعتِرَاضَاتِهِ وَانتِقَادَاتِهِ، دُونَ حَذْفٍ، أَوْ: بَتْرٍ، وَلا قَصٍّ لِنَصٍّ، وَلَا إِخْفَاءٍ لِفَصٍّ، وَلَا تَأْوِيلٍ مُتَكَلَّفٍ لِكَلامِهِ، وَمَا مِلْنَا عَنِ الـمَنْهَجِ العِلْمِيِّ شِبْرًا، وَلَمْ نَظْلِمْهُ سَطْرًا، وَحَاوَرْنَاهُ بِمُقْتَضَى العَقْلِ وَالـمَنْطِقِ اللُّغَوِيِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ الرُّوْمِيِّ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِمَعْرِفَـةٍ لَا يَقْـرَعُ الشَّـكُّ بَابَهَـا ... وَلَا طَعْـنُ ذِي طَعْـنٍ عَلَيْهَـا بِهَـاجِمِ

وَمَعَ هذَا أعتَرِفُ بِمُزْجَاةِ بِضَاعَتِي[٢]، وَكَسَادِ حُجَّتِي، وَلَا أَدَّعِي التَّفَوُّقَ وَلَا النُّبُوغَ، وَلَا عُلُوَّ كَعْبٍ وَلَا البُلُوغَ، وَلكِنَّ وَهنَ نَسْجِ اعتِرَاضَاتِ الخُصُومِ، وَمَا اعتَرَاهُم مِنَ الأَدْوَاءِ وَالكُلُومِ، جَعَلَنِي أَهْلًا لأَرُدَّ عَلَيْهِم، وَلَا سِيَّمَا أَنَّنِي رَأَيتُ بَعْضَ ضَعِيفِي الرَّأيِ مِنَ النَّاشِئَةِ اسْتَحْسَنُوا مِثْلَ هذِهِ الأَقَاوِيلِ، وَلَم يَتَفَطَّنُوا لِمَا فِيهَا مِنَ

---

(١) الشِّعرُ وَالشُّعَرَاءُ لِابنِ قُتيبَةَ (٢/ ٧٩٥).
(٢) أقولُهُ صِدْقًا لَا تَوَاضُعًا وَلَا رِيَاءً وَلَا تَصَنُّعًا.

الكَيْدِ وَالتَّدجِيلِ، فَاسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى لِـمَا نُدِبْتُ إِلَيْهِ، وَبَدَأْتُ بِالرَّدِّ عَلَيْهِ، لِيكُونَ تَكْمِلَةً لِأُخْتَيْهِ[١].

وَكَانَ شُعُورِي بالـمَسؤُولِيَّةِ أَذْهَبَ بالصَّمْتِ وَالسُّكُوتِ، وَالأَمَانَةُ الَّتِي عَلَى عَاتِقِ كُلِّ فَرْدٍ مُسْلِم، للدِّفَاعِ عَنْ هُوِيَّةِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، لَمْ تَدَعْ لِي مَجَالًا لأُغْمِض عَيْنَيَّ وَأُمْسِكَ يَدَيَّ، وَكَذَا إِحسَاسِي بالأَلَمِ لِـمَا يُخَافُ مِنْ وُقُوعِ شَبَابِنَا فِي هُوَّةِ الهَوَى وَظُلُمَاتِ الرَّدَى، وَالبُعْدِ عَنِ الرُّشْدِ وَالهُدَى، لَم يَسْمَحْ لِي بالسُّكُوتِ، وَكَانَ القَلْبُ مُتَقَطِّعًا مِنَ الغَمِّ وَالهَمِّ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ ابنِ دُرَيْدٍ الأَزْدِيِّ:

[مِنَ الكَامِلِ]

قَلْبٌ تَقَطَّعَ فَاستَحَالَ نَجِيْعَا ... فَجَرى فَصَارَ مَعَ الدُّمُوعِ دُمُوعَا
رُدَّتْ إِلَى أَحْشَائِهِ زَفَرَاتُهُ ... فَفَضْنَ مِنهُ جَوانِحًا وَضُلُوْعَا
عَجَبًا لِنَارٍ ضُرِّمَتْ فِي صَدْرِهِ ... فَاسْتَنبَطَتْ مِنْ جَفْنِهِ يَنْبُوْعَا
لَهَبٌ يَكُوْنُ إِذَا تَلَبَّسَ بِالحَشَا ... قَيْظًا وَيَظهَرُ فِي الجُفُونِ رَبِيْعَا

---

(١) أَرَدْتُ أَنْ لَا أَرُدَّ عَلَيْهِ بِكِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ، وَأَكتَفِي بِكِتَابِي: (رَفْعِ الشَّجْوِ عَنِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ)، وَأُنَاقِشَ اعتِرَاضَاتِهِ هُنَا، كَمَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فِي أَوَاخِرِ كِتَابِي: (الجِنَايَةِ عَلَى الشَّافِعِيِّ)، وَاسْتَقَرَّ رَأْيِي عَلَى هذَا، وَعمِلْتُ عَلَى كِتَابَيْنِ آخَرَيْنِ وَأَنْهَيتُهُمَا (الوَحْيِ الثَّانِي)، وَ(صَحِيحِ البُخَارِيِّ بَيْنَ نَقْدِ الأَعْلَامِ وَجَهْلِ العَوَامِ)، هذَا الأَخِيرُ عَمَلٌ مُشْتَرَكٌ مَعَ شَيْخِنَا الـمُحَقِّقِ د.مُحمَّدٍ البَرْزنجِيِّ.
وَلكِنَّ بَعْضَ الأَسَاتِذَةِ الأَجِلَّاءِ وَالـمَشَايِخِ النُّبَلاءِ، أَشَارُوا إِلَى ضَرُورَةِ الرَّدِّ بِكِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ شَيْخِي العَلَّامَةُ أَبُو الفَضْلِ عُمَرُ الحَدُّوشِيُّ -حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى وَثَبَّتَهُ-، عِنْدَ مَا قُلْتُ لَهُ: مَوْلَايَ هَلْ تَرَى إِفْرَادَهُ بِكِتَابٍ مُفْرَدٍ وَرَدٍّ مُسْتَقِلٍّ؟ فَقَالَ: بَلْ: أَرَى وجُوبَهُ. ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ شَرَعْتُ فِي كِتَابَتِهِ، وَاللهَ تَعَالَى أَسْأَلُ النَّفْعَ وَالقبُولَ.

ولَم أَرَ بُدًّا إِلَّا أَنْ أَرُدَّ عليهِ وَأُبيِّنَ الحَقَّ لِالتِبَاسِهِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ؛ لأَنَّ غِشَاوَةَ الوَهمِ وَغُبَارَ الخَيَالِ اعترَاهُم وَاعْتَلَاهُم، فَسَادَهُم وَقَادَهُم، وَخَلَّطَ عَلَيْهِمُ الأَمْرَ فَلَمْ يُمَيِّزُوا بينَ العَالِمِ الصَّادِقِ، وَالدَّعِي الزَّائِفِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ الأَخْرَسِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

رَأَيْتُ مَقَامًا لا يُرَى الفَرْقُ عِنْدَهُ ... مِنَ العَالِمُ النِّحْرِيْرُ وَالجَاهِلُ الغُمْرُ؟
وَلا بُدَّ للأَشْيَاءِ مِنْ نَقْدِ عَارِفٍ ... يُمَيِّزُ بَيْنَ الصِّفْرِ وَالذَّهَبِ التِّبْرُ

وَاليَوْمَ نَحْنُ فِي زَمَانٍ اسْتَوَلَى عَلَى مَنَابِرِهِ قُسَاةُ النَّاسِ، وَطَغَى عَلَى مَحَابِرِهِ قُطَّاعُ الطَّرِيْقِ، وَضَرَبُوا وَجْهَ الحَقِّ وَوَجْنَتَيْهِ، وَافْتَقَدَ المِيزَانُ كَفَّتَيْهِ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الإِمَامُ أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ عَنْ زَمَانِهِ بِكَلامٍ، وَمَا أَحْرَاهُ بِزَمَانِنَا، فَإِذَا كَانَ هذَا هُوَ كَلَامَهُ فِي زَمَانِهِ، لَا نَشُكُّ أَنَّهُ لَوْ تَخَيَّلَ زَمَانَنَا هذَا لَصعِقَ وَغُشِيَ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَمُتْ كَمَدًا، فَقَالَ: (وَاعْلَمْ عُلِّمْتَ الخَيْرَ -وَعَمِلْتَ بِهِ- أَنَّ أَكْثَرَ آفَاتِ النَّاسِ الرُّؤَسَاءُ الجُهَّالُ، وَالصُّدُورُ الضُلَّالُ، وَهذِهِ فِتْنَةُ النَّاسِ عَلَى قَدِيْمِ الأَيَّامِ وَغَابِرِ الأَزْمَانِ، فَكَيْفَ بِعَصْرِنَا هذَا، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى كدَرِ الكدَرِ، وَانْتَهَيْنَا إِلَى عكَرِ العكَرِ، وَأُخِذَ هذَا العِلْمُ عَمَّنْ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْقَهُ، وَلَا يحسُّ وَلَا يَنْقَهُ، يُفَهِّمُ النَّاسَ مَا لَا يَفْهَم، وَيُعَلِّمُهُم عِنْدَ نَفْسِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَم، يَتَقَلَّدُ كُلَّ عِلْمٍ وَيَدَّعِيه، وَيَرْكَبُ كُلَّ إِفْكٍ وَيَحْكِيْه، يَجْهَلُ وَيَرَى نَفْسَهُ عَالِمًا، وَيَعِيْبُ مَنْ كَانَ مِنَ العَيْبِ سَالِمًا.

[مِنَ الرَّمَلِ]

يَتَعَاطَى كُلَّ شَيْءٍ ... وَهوَ لَا يُحْسِنُ شَيَّا

فَهُــــــوَ لَا يَـــــــزْدَادُ رُشْـــــدًا إِنَّمَـــــــا يَـــــــزْدَادُ غَيَّـــــــا

ثُمَّ لَا يَرْضَى بِهذَا حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسِ، وَلَا يَمْنَعُهُ ذلِكَ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أُخِذَ هذَا العِلْمُ عَنْهُ لَوْ حُشِرُوا لَاحْتَاجُوا إِلَى التَّعَلُّمِ مِنْهُ، فَهُوَ بَلَاءٌ عَلَى الـمُتعَلِّمِيْن، وَوَبَاءٌ عَلَى الـمُتَأَدِّبِين، إِنْ رَوَى كَذَب، وَإِنْ سُئِلَ تَذَبْذَب، وَإِنْ نُوْظِرَ صَخِب، وَإِنْ خُولِفَ شَغَب، وَإِنْ قُرِّرَ عَلَيْهِ الكَلَامُ سَبّ.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

يُصِيْبُ وَمَا يَدْرِي، وَيُخْطِي وَمَا دَرَى وَكَيْـــفَ يَكُـــونُ النَّـــوْكُ إِلَّا كَـــذلِكَا

فَالوَاحِدُ مِنْ هؤُلَاءِ فِي طَبَقَةٍ مِنَ الجَهْلِ لَا تُدْرَكُ بِالـمِقيَاس، وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا الخَلِيلُ حِينَ طَبَّقَ النَّاس)[1].

وَمَا دَامَ الأَمْرُ هَكذَا، كَانَ مِنَ الوَاجِبِ التَّصَدِّي لهؤلَاءِ النَّاسِ، وَرَفْعِ الأَسْتَارِ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَحِلْمٍ، وَنَزَاهَةٍ وَرَصَانَةٍ، دُونَ فَظَاظَةٍ فِي الخُلُقِ، ولَا غَلَاظَةٍ مِنَ القَوْلِ، وَلَا خُشُوْنَةٍ فِي الطَّبْعِ، فَمِنْ هذَا الـمُنْطَلَقِ حَاوَرْتُ صَاحِبَ الجِنَايَةِ -نَوَّرَ اللهُ بَصَرَهُ وَبَصِيْرَتَهُ- وَنَاقَشْتُهُ، وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ.

وَمَا تَرَكْتُ لَهُ شُبْهَةً وَلَا وَجْهًا مِنَ الِاعتِرَاضِ عَلَى قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، وَقُوَّتِهَا وَمَظَاهِرِ عَقْلَنَتِهَا، إِلَّا وَرَدَدْتُ عَلَيْهَا وَنَسَفْتُهَا عَلَيْهِ بِلِسَانِ الحُجَّةْ، فَتَبَيَّنَ مِنْ خِلالِهَا لِرُوَّادِ الحَقِّ الـمَحَجَّهْ، وَلَمْ أَتَعَرَّضْ لِشَخْصِهِ مَهْمَا أَمْكَنَنِي، وَرَبَطْتُ جَأْشِي وَصَبرتُ عَلَى غَلِيْظِ

(١) مَرَاتِبُ النَّحْوِيِّينَ لأَبِي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ، (ص١٦-١٧).

مَقَالِهِ، وَسُوءِ فِعَالِهِ، بُغْيَةَ بَيَانِ الحَقِّ وَظُهُورِهِ، دُونَ المَيْلِ وَالاِنْحِرَافِ، وَالعَاطِفَةِ وَالاِنْحِيَازِ، فَالحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ.

كَمَا احتوَى الكِتَابُ عَلَى مَبَاحِثَ مُنِيفَةٍ تَتعَلَّقُ بِقُوَّةِ العَرَبِيَّةِ وَعَقْلَنَةِ قَوَاعِدِهَا، وَخَصَائِصِهَا وَمُمَيزَاتِهَا، وَمَسَائِلَ أُخْرَى مُهِمَّةٍ تَسرُّ أَعيُنَ المُحِبِّينَ، وَتُنِيْرُ دَرْبَ الحَائِرِيْنَ، وَتُخرِسُ أَلْسُنَ المُشَكِّكِيْنَ، وَتَكْسِرُ أَقْلامَ المُسْتَأجِرِيْنَ الحَاقِدِيْنَ.

فَهذَا هُوَ جُهْدِي المُتَوَاضِعُ بَيْنَ أيدِيكُم، وَأرجُو أَنْ تكُونَ فِيْهِ فَائِدَةٌ مَرْجُوَّةٌ، وَغَايَةٌ مَنْشُودَةٌ، وَلَيْسَ بعجَبٍ أَنْ أَقعَ فِي أَخْطَاءٍ وَزَلَلٍ، وَأَوْهَامٍ وَعِلَلٍ؛ لأَنَّ الغَالِبَ عَلَى طَبْعِ البَشَرِ هُوَ السَّهْوُ وَالنِّسْيَانُ، وَهذَا مُتَوَقَّعٌ مِنَ العَالِمِ النِّحرِيْرِ، وَلِلهِ دَرُّ ابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ لَـمَّا قَالَ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

وَقَــدْ يَــزِلُّ العَــالِمُ النِّحريــرُ والحَبْــرُ قَــدْ يَخُونُــهُ التَّحْبِيــرُ

فَكيفَ بِطَالِبٍ مِثْلِي؟ فَهُوَ أَوْلَى وَأَحْرَى بالخَطَإِ، وَالعُذْرُ عِنْدَ الأَحْرَارِ مَقْبُول، وَهذَا مِنَ الكِرَامِ مَأمُول، وَلَا سِيَّمَا أَنَّنِي عَمِلْتُ هذَا الكِتَابَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِي، وَلَمْ يَسْتَغْرِقْ أكثَرَ مِنْ شَهْرٍ، مَعَ مَا أُعَانِي مِنْهُ مِنْ آلَامٍ وَأَوْجَاعٍ[1]، وَاللهُ تَعَالَى مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ، فَأَسْأَلُهُ السَّلامَةَ وَالرُّشْدَ وَالسَّدَادَ.

---

(١) هذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ الشَّكْوَى -مَعَاذَ اللهِ- بَلْ: هُوَ لِبَيَانِ حَالِي؛ لأَنَّ المَرَضَ يُخِلُّ اتِّزَانَ العَقْلِ وَالفِكْرِ وَيُشَوِّشُهُمَا، وَذَكَرْتُهُ حَتَّى يَكُونَ لِي شَفِيعًا عَنْ خَطَإٍ ارتَكَبْتُهُ، أَوْ: قَسْوَةٍ اعْتَرَتْنِي فِي حَقِّ المُهَنْدِسِ، وَمَعَ هذَا فَأَنَا مُعْتَرِفٌ بِجَهْلِي وَقِلَّةِ بَاعِي، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

فَهَا هُوَ قَدْ سُطِرَ بِحِبْرِي وَمِدَادِي، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى اللهِ تَعَالَى اعتِمَادِي وَإِمْدَادِي، فَأَسَأَلُهُ –وَحْدَهُ– إِرْشَادِي وَسَدَادِي، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي رِضَاهُ اجْتِهَادِي وَارْتِيَادِي، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُرِيَنِي بِهِ وَالـمُسلِمِينَ وَجْهَهُ الكَرِيْمَ يَوْمَ مَعَادِي، مُصَاحِبًا سيِّدَ الوَرَى مُحَمَّدًا الهَادِي، عَلَيْهِ صَلَاةُ اللهِ وَسَلَامُهُ مَا بَزَغَتْ شَمْسٌ وَنَاحَ عَلَى الأَيْكَةِ الحَمَامُ الشَّادِي، آمِيْنَ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمْلاهُ العَبْدُ الفَقِيرُ إِلَى عَفْوِ مَوْلَاهُ
مَرْوَانُ الكُرْدِيُّ
١٦/رجب/١٤٤٠هـ
٢٠١٩/٣/٢٣م
إِسْطَنبُول
alkurdimarwan@gmail.com

وَقَفَاتٌ عَلَى مُقَدِّمَة صَاحِب الجِنَايَة

أَوَّلُ ما سَطَرَهُ بَنَانُ صَاحِبِ الجِنَايةِ وَكَتَبْ، وَهَفَا بِهِ يَرَاعُهُ وَأَسْهَبْ، هُوَ قَضِيَّةُ انتِشَارِ اللُّغَةِ الإِنجليزِيَّةِ، وَإِرجاعُ هذا الإِنتِشَارِ إِلَى حَيَوِيتِهَا وَسُهُولَتِهَا، وَالتَّصريحُ بأَنَّ العربِيَّةَ تَرَاجَعتْ وَتُرِكَتْ لِصُعوبَتِهَا وَضَعْفِ قَواعِدِهَا، وَعَدَمِ عَقْلَنَتِهَا وَبُعْدِهَا عَنِ المَنْطِقِ وَهُوَ فِي ذلِكَ يُؤَالِسُ وَيُدَالِسُ، وَحَاكَّ فِي صَدْرِي أَمْرُهْ، وَآلَمَنِي جَوْرُهْ، لَمَّا رَأيتُ عَلَى النَّاشِئَةِ سَطْوَتَهْ، وَعَلَى العَرَبِيَّةِ هَفْوَتَهْ، ولكِنَّنِي مُتَيَقِّنٌ أَنَّ حَبْلَ البَاطِلِ غَيرُ مَدِيدْ، وَأَنَّهُ مَقْطُوعُ الوَرِيدْ، وَيَفْنَى وَيَبِيدْ.

فَفِي الفَصْلِ الآتِي سَنَقِفُ على كَلَامِهِ حَوْلَ سَبَبِ انتِشَارِ الإِنجلِيزِيَّةِ، ونُبَيِّنُ عُجَرَ مَقَالِهِ وَبُجَرَ غَلْوَائِهِ، بِبيانٍ مُفَصَّلٍ وَمُؤصَّلٍ، وَكَلَامٍ مَنْطِقِيٍّ عنْ سببِ هذِهِ السِّيادَةِ وَالرِّيادَةِ الَّتِي تتَمَتَّعُ بها الإِنجليزِيَّةُ فِي عَصْرِنَا، مَعَ دَفعِ المُغالَطَاتِ الَّتِي ظَنَّهَا صَاحِبُ الكِتَابِ بُرهَانًا فِي حَقِّ العَرَبِيَّةِ جُرْمًا وَإِجْرَامًا، وَالإِشَارَةِ إِلَى بَعضِ جِهَاتِ الخَلَلِ فِي اللُّغَةِ الإِنجلِيزِيَّةِ لَاحِقًا إِنْ شَاءَ المَوْلَى[1]، وَمِنْ خِلالِ ذلِكَ نُرْجِئُ الحُكمَ، بَلْ: نَتْرُكُهُ لَكُم حَتَّى تَكُونُوا حَكَمًا عَدْلًا فِي هذِهِ القَضَايَا.

(١) أَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَيستْ هُنَاكَ لُغَةٌ تَخْلُو عَنْ بَعضِ ظَوَاهِرِ النَّقْدِ، وَكَمَا أَعْتَقِدُ أَنَّ أَكْثَرَ التَّفَاضُلَاتِ وَالمُوَازَنَاتِ فِي عَصْرِنَا تَكُونُ عنْ عَاطِفَةٍ وَانْحِيَازٍ، وَلكِنَّنَا نُجَانِبُ هذَا الدَّاءَ بِإِذْنِ اللهِ وَنَمِيلُ إِلَى العَدْلِ وَالإِنْصَافِ.

لِمَاذَا سَادَتِ الإنجليزيَّةُ العَالَمَ؟ وَمَا العَامِلُ فِي ذَلكَ؟

ابتدَأ صاحبُ الجنايةِ كتابَهُ بهذَا الكَلامِ: (اللُّغةُ هِيَ أداةُ التفكيرِ وأهمُّ أسَاليبِ التَّواصُلِ بينَ النَّاسِ، وقدْ شَهِدتْ لغاتُ العالَمِ المتداولةُ اليومَ تطوُّرًا في ألفَاظِهَا وَتَرَاكِيبِهَا وَقَوَاعِدِهَا وتمكَّنتْ بعضُ اللُّغاتِ -كالإنكليزيَّةِ مثلًا- من غزْوِ معظَمِ الأَرْضِ لتُصبحَ لغةً بديلةً لِكَثيرٍ مِنَ اللُّغاتِ السَّائدَةِ.

أمَّا لغتُنا العربيَّةُ المقعَّدَةُ فبقيتْ جَامِدةً لا، بلْ: تراجعتْ عالميًّا ولم يعدْ يهتمُّ بها حتَّى أهلُها) ص: (١١).

أقولُ: إنَّ إرجاعَ سببِ انتِشَارِ الإنجليزيَّةِ وغزوِها للعَالَمِ واهتِمَامِ النَّاسِ بِهَا، إلَى حيَوِيتِها وَقُوَّتِهَا وتطوُّرِها فِي الألفَاظِ والتَّراكيبِ، لَـمِنْ قَبيلِ القَسَاوَةِ الَّتِي ألفينَا الـمُهندِسَ أوزونَ عليهَا مِنْ خِلالِ كُتُبِهِ السَّابِقَةِ، وفِي هذا الكِتابِ أيضًا يتكرَّرُ ذلِكَ منهُ مرَّاتٍ وكرَّاتٍ، وَنَراهُ يُجْحِفُ فِي حَقِّ هذِهِ اللُّغَةِ العَبقَرِيَّةِ وَيُزْهِف، وَيَقْذِفُ باتِّهَامَاتٍ وَقَوْلِ الزُّورِ وَيُرْدِف، وَيُسهِمُ فِي نَقْلِ شُبُهَاتِ أَهلِ الشُّرُورِ وَلَا يُتْحِف، وَفِي كُلِّ ذلِكَ يَظْلِمُ وَلَا يُنْصِف.

وإنَّنِي لَا أظنُّ واحدًا يخفَى عليهِ أنَّ الإنجليزيَّةَ انتشرتْ وسادَتِ العَالمَ بِسَبَبِ هَيمَنَةِ الدُّولِ الَّتِي تتكلَّمُ بهَا، وأنَّ العَامِلَ المُؤثِّرَ فِي هذِه السِّيادَةِ والرِّيَادَةِ هُمَا أمرانِ، أَوْ: قُوَّتَانِ فَحسبُ، وَلَا ثَالِثَ لَهُمَا:(القُوَّةُ السِّياسِيَّةُ)، وَ(القُوَّةُ الاِقتِصَادِيَّةُ)، فَالسِّياسَةُ والاِقتِصادُ هُمَا قَدْ فَرَضَا الإنجليزيَّةَ وأثَّرا فِيهَا لتكونَ غَازِيَةً للبُلْدَانِ، و تَفصيلُ هذَا يأتِي فِي الفَصلَينِ الآتيينِ، وَلَا يَبْقَى مَعَهُمَا كَلِمَةٌ وَلَا كُلَيْمَةٌ للمُخَالِفِ المُعتَرِضِ بإذنِ اللهِ تعالَى.

العَامِلُ السِّيَاسِيُّ:

إنَّ القُوَّةَ، وَالغَلَبَةَ تَفْرِضَانِ عَادَاتِ الغَالِبِ علَى المَغلُوبِ، فَيَتَأَثَّرُ المغلُوبُ بِمَنْهَجِ الغَالِبِ ونَهْجِهِ، وَعَادَاتِهِ وَعَوائِدِهِ فَورًا، وَهذا لَا يُنكِرُهُ إلَّا مَنْ لا بصيرَةَ له بِعِلْمِ النَّفسِ وَعِلْمِ الاِجتِمَاعِ؛ لأنَّ هذا بَدَهِيٌّ والنَّاسُ يعرفُونَهُ بالضَّرورَةِ، كمَا قالَ العَالمُ الاِجتِمَاعِيُّ الكَبيرُ ابنُ خلدُونَ: «الفصلُ الثَّالثُ والعِشرونَ في أنَّ المغلُوبَ مُولَعٌ أبدًا بِالاِقتدَاءِ بِالغَالِبِ فِي شِعَارِهِ وَزِيهِ وَنِحْلَتِهِ وَسَائِرِ أَحوَالِهِ وَعَوَائِدِهِ».

والسّببُ في ذلك أنَّ النَّفْسَ – أبدًا – تعتقدُ الكمالَ في مَنْ غَلَبَهَا وانقادتْ إليهِ، إمّا لِنَظرِهِ بالكَمالِ بِمَا وَقَرَ عِندَهَا مِنْ تعظيمِهِ، أو: لما تغالطَ بِهِ مِنْ أَنَّ انقيادَهَا ليسَ لِغَلَبٍ طَبِيعيٍّ، إنّما هو لكمالِ الغالبِ، فَإِذَا غَالَطتْ بذلِكَ واتّصلَ لها اعتقادًا، فانتحَلَتْ جميعَ مَذَاهِبِ الغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وذلكَ هُوَ الاِقتِدَاءُ، أَوْ: لِمَا تَراهُ –واللهُ أعلمُ– مِنْ أنّ غَلَبَ الغالبِ لَهَا ليسَ بعصبيّةٍ ولا قُوَّةِ بأسٍ، وإنَّما هو بِمَا انْتَحَلَتْهُ مِنَ العَوَائِدِ والمذَاهِبِ، تُغَالِطُ أيضًا بذلك عنِ الغلَبِ، وهذا راجعٌ للأوّلِ ولذلك ترى المغلوبَ يَتَشبَّهُ أبدًا بالغالبِ في مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلاحِهِ، في اتِّخاذِها وَأشكَالِها، بَلْ: وفي سَائرِ أحوالِهِ، وانظرْ ذلِكَ في الأبناءِ مع آبائِهم كيفَ تَجِدُهُم مُتَشَبِّهِينَ بِهم دائِمًا، وما ذلك إلَّا لاعتقَادِهِمُ الكَمَالَ فيهِم، وانظُرْ إلى كلِّ قُطْرٍ مِنَ الأَقطارِ كيفَ يَغْلِبُ على أهلِهِ زِيُّ الحَامِيَةِ وَجُنْدِ السُّلطَانِ فِي الأَكثَرِ لأَنَّهمُ الغَالِبُونَ لَهُم، حتَّى إنَّهُ إذَا كانتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى ولَهَا الغَلَبُ عليها فَيَسْرِي إِلَيهِم مِنْ هذَا التَّشَبُّهِ والاِقتدَاءِ حَظٌّ كبيرٌ كما هو فِي الأَنْدَلُسِ لِهذَا العَهْدِ مَعَ أُمَمِ الجلالِقَةِ، فإنّك تجدُهم يتشبَّهونَ بهم في مَلابِسِهِم وشَارَاتِهم والكثيرِ مِنْ عَوائِدِهم وأحوالِهم حتّى في رَسْمِ التَّمَاثيلِ فِي

الجُدْرَانِ وَالـمَصَانِعِ والبُيوتِ، حتّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذلِكَ النَّاظِرِ بعينِ الحِكْمَةِ أنّهُ من عَلاماتِ الِاستِيلاءِ وَالأَمْرِ للهِ.

وَتأَمَّلْ فِي هذَا سِرَّ قَولِهِمْ: (العَامَّةُ عَلَى دِيْنِ الـمَلِكِ)، فإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ؛ إِذِ الـمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تحتَ يدِهِ والرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لاعتقادِ الكَمالِ فيهِ اعتقَادَ الأَبْنَاءِ بِآبائِهِم، والمتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهم)[١].

وَقَدْ أشَارَ شِهَابُ الدِّينِ المقرِيُّ إِلَى هذَا التَّأَثُّرِ لَمَّا تكلَّمَ عنْ زِيّ أهلِ الأندَلُسِ وَتَرْكِ العَمَائِمِ بَعْدَ ضَعْفِ المسلِمينَ وَقوّةِ النَّصَارَى فِي تِلْكَ البِلادِ، فقَالَ: «وأمّا زِيُّ أهلِ الأندَلُسِ فالغالبُ عليهم تركُ العَمائمِ، لا سيَّما في شرقِ الأندلسِ، فإنَّ أهلَ غرْبِها لا تكادُ تَرَى فِيهم قاضِياً ولا فَقِيهاً مُشاراً إليهِ إلاّ وهو بعِمَامَةٍ، وقَدْ تَسَامَحُوا بِشَرْقِهَا في ذلِكَ، ولقدْ رأيتُ عَزِيزَ بْنَ خطَّابٍ أكْبَرَ عَالِمٍ بِمَرْسِيَةَ، حَضْرَةَ السُّلطانِ في ذلك الأَوانِ، وإليهِ الإشَارةُ، وقدْ خُطِبَ له بالمُلْكِ في تلك الجِهَةِ، وَهُوَ حَاسِرُ الرَّأسِ، وَشَيْبُهُ قَدْ غلَبَ عَلَى سَوَادِ شَعْرِهِ. وَأَمَّا الأَجنادُ وسائِرُ النَّاسِ فقليلٌ منهُم تراهُ بعمَّةٍ فِي شرقٍ منهَا أَوْ في غربٍ، وابنُ هودٍ الَّذِي ملكُ الأندلسِ في عَصْرِنا، رأيتُهُ في جميعِ أحوالِهِ ببلادِ الأنْدَلُسِ وهو دُونَ عِمَامَةٍ، وكذلك ابنُ الحمرِ الَّذي مُعظمُ الأنْدَلسِ الآنَ في يدِهِ، وكثيراً ما يتزَيَّا سلاطينُهُم وأجنادُهم بزِيِّ النَّصَارَى المجَاوِرِينَ لهُم، فَسِلاحُهُم كَسِلاحِهِم، وَأَقْبِيَتُهُم[٢] مِنَ الأشْكَرْلاطِ[٣] وغيرِهِ كأَقْبِيَتِهِم، وكذلكَ

---

(١) تاريخُ ابنِ خلدونَ (١/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) لِبَاسٌ يُلبَسُ فوقَ القَمِيصِ وَالثِّيابِ يُتَمَنْطَقُ عليهِ.

(٣) نَوعٌ مِنَ النَّسِيجِ.

أعلامُهم وَسُرُوجُهم.»[١].

فَاللُّغَةُ مِنْ بابِ أَوْلَى تَدْخُلُ في هذا التَّأَثُّرِ فِي قُلُوبِ المَغلُوبِ، وهذا قَدْ حصَلَ قَدِيمًا عندَ بعضِ العَرَبِ وَوقَعَ، لمَّا حصَلَ لَهُم الذّلةُ وَصَارُوا تحتَ حُكمِ الأعَاجِمِ فَتَأَثَّرُوا بلُغتهم وتركُوا العَرَبِيَّةَ، وَهذَا مَا قَدْ سَجَّلَهُ التَّاريخُ فِي بُطُونِ رِواياتِهِ وَحَفِظَتْهُ الكُتُبُ لَنَا، كمَا أشارَ ابنُ خلدُونَ فِي مَوضِعٍ آخرَ مِنْ تَاريخِهِ: «وَلَـمَّا تَمَلَّكَ العَجَمُ مِنَ الدَّيْلَمِ، وَالسَّلجُوقيَّةُ بعدَهُم بالمشْرِقِ، وَزنَاتَةُ وَالبَرْبَرُ بِالمغْرِبِ، وَصَارَ لَهُمُ الملكُ والِاستيلاءُ عَلَى جميعِ المَمَالِكِ الإسلاميَّةِ، فَسَدَ اللِّسَانُ العَرَبِيُّ لِذَلِكَ، وَكَادَ يَذْهَبُ لَوْلَا مَا حَفِظَهُ مِنْ عِنايَةِ المسلِمينَ بالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذَين بِهِمَا حِفْظُ الدِّينِ، وَصَارَ ذلك مُرَجِّحًا لِبَقاءِ اللُّغةِ العَربيَّةِ الـمُضَرِيَّةِ مِنَ الشِّعرِ وَالكَلامِ إلّا قَلِيلًا بالأَمصَارِ، فلمَّا مَلَكَ التَّتَرُ والمغُولُ بالمشْرِقِ ولم يكُونُوا علَى دِيْنِ الإسلامِ، ذَهَبَ ذلِكَ المرَجِّحُ وَفَسَدَتِ اللُّغةُ العربيّةُ على الإطلاقِ ولم يبقَ لها رَسْمٌ في الممالِكِ الإسلاميّةِ بالعِرَاقِ، وخُرَاسَانَ، وبلادِ فَارسَ[٢]، وأرْضِ الهِندِ، وَالسِّنْدِ، ومَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وبِلادِ الشّمَالِ، وبلادِ الرُّومِ، وذهبتْ أساليبُ اللّغةِ العربيّةِ مِنَ الشِّعْرِ والكلامِ، إلَّا قَليلًا يَقعُ تَعليمُهُ صِناعِيًّا بِالقَوانينِ المتَدَارسَةِ مِنْ كلامِ العَرَبِ، وَحِفظَ كلامِهم لمنْ يَسَّرَهُ اللهُ تعَالى لِذَلِكَ.

(١) نفحُ الطيبِ مِنْ غُصْنِ الأندلسِ الرَّطيبِ (١/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) كلِمَةُ (فَارس)، فِي أَصْلِ تَسمِيتِهَا عندَهُم بِسُكُونِ الرَّاءِ، فَتَحرِيكُهَا لأجلِ مَنْعِ التِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ فِي العَرَبِيّةِ.

وَرُبَّما بَقِيَتِ اللّغةُ العربيّةُ المضَريّةُ بِمِصْرَ، وَالشَّامِ، وَالأندَلُسِ، وبالمغربِ، لِبَقَاءِ الدّينِ، طَلَبًا لها فَانْحَفَظَتْ بِبَعْضِ الشَّيْءِ، وَأمَّا فِي مَمَالِكِ العِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ، فَلَمْ يبقَ له أَثَرٌ وَلَا عينٌ حتَّى إنَّ كُتُبَ العُلُومِ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ العَجَمِيِّ، وَكذَا تَدرِيسُهُ فِي المجَالِسِ»[1].

وهذَا مِثالُهُ فِي التَّاريخِ القَدِيمِ، وفِي عَصْرِنَا أيضًا قدْ نَرَى أثرَ هذا التَّأثُّرِ عِنْدَ المغلُوبِ بالغَالِبِ فِي الاقتِدَاءِ بِهِ وَالتَّمثُّلِ لِمَا يَرَاهُ وَيرتَئِيهِ، وَلا يُنكِرُ المحسُوسَ إلَّا المَمسُوس!

العَامِلُ الاقْتِصَادِيُّ:

إنَّ الاقتِصَادَ هُو العَامِلُ الثَّانِي فِي صَدَارَةِ اللُّغَةِ وَفَرْضِهَا، فَإذا كَانَ أربَابُ هذِهِ اللُّغَةِ مَلَكُوا زِمَامَ الاقتِصَادِ وَفَرَّقُوا أموالًا طائلةً لِنَشرِ لُغَتِهم وَهَيْمَنَتِهَا عَلَى سَائرِ اللُّغَاتِ، ورَغَّبُوا فِي تَعَلُّمِهَا وَتَعلِيمِهَا، بافتِتَاحِ الجَامِعَاتِ وَالمَرَاكِزِ وَالمُؤَسَّسَاتِ فِي البُلدَانِ المُختَلِفَةِ، وَجَعَلُوا لُغتَهَم اللُّغَةَ الوَحِيدَةَ فِي تدرِيسِ العُلُومِ وَجَعَلُوهَا لُغَةَ العِلْمِ، وَسَخَّرُوا الإعلامَ للتَّروِيجِ وَخَصَّصوا أموالًا كَثيرَةً فِي هذَا الغَرَضِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ تَنْتَشِرَ هذِهِ اللُّغَةُ وَيُقبِلَ النَّاسُ عليهَا وَيُقَدِّمُوهَا على لُغَةِ الأُمِّ!

وَهذَا قَدْ حَصَلَ قَدِيمًا للُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، بِسَبَبِ تَرْغِيبِ المُلُوكِ وَالسَّلاطِينِ فِي تعلُّمِ اليُونَانِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ، وَإعطَاءِ الأموالِ الضَّخمَةِ لِمَنْ يُتَرْجِمُ مِنْهُمَا إلَى العَرَبِيَّةِ، كَمَا ذكَرَ ابنُ كثيرٍ قَائِلًا: «وَكَانَ المَأْمُونُ شَدِيدَ الاعْتِنَاءِ بِذَلِك جِدًّا، وَكَذَلِك جَعْفَرٌ البَرْمَكِيُّ قَبْلَهُ»[2].

---

(١) تاريخُ ابنِ خلدونَ (١/ ٤٧٥-٤٧٦).

(٢) البدايةُ والنِّهايةُ (١٤/ ٥٤٧).

فلِذلِكَ تَسَارَعَ النَّاسُ في الإقبالِ على لُغَةِ الأَعاجِمِ وَتركِ العربيةِ، كَمَا سَجَّلَ ذلِكَ الإِمَامُ ابنُ مَنظُورٍ فِي مُقَدِّمَةِ لِسَانِهِ، وَقَالَ مُتَحَسِّرًا وَمَتَأَسِّفًا: «فَإِنَّنِي لم أقصِدْ سِوَى حِفْظِ أُصُولِ هَذِهِ اللُّغَةِ النَّبَوِيَّةِ وَضَبْطِ فَضْلِهَا، إِذْ عَلَيْهَا مدارُ أَحْكَامِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ وَلِأَنَّ العَالِمَ بِغَوَامِضِهَا يَعْلَمُ مَا تَوَافَقَ فِيهِ النِّيَّةُ اللِّسَانَ، وَيُخَالِفُ فِيْهِ اللِّسَانُ النِّيَّةَ، وَذَلِكَ لِمَا رَأَيْتُهُ قَدْ غَلَبَ فِي هَذَا الأَوَانِ، مِنِ اخْتِلَافِ الْأَلْسِنَةِ وَالأَلْوَانِ، حَتَّى لَقَدْ أَصْبَحَ اللَّحْنُ فِي الْكَلَامِ يُعَدُّ لَحْنًا مَرْدُوْدًا، وَصَارَ النُّطْقُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْمَعَايِبِ مَعْدُوْدًا. وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِي تَصَانِيْفِ التّرْجمانَاتِ فِي اللُّغَةِ الأَعْجَمِيَّةِ، وَتَفَاصَحُوا فِي غَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَجَمَعْتُ هَذَا الْكِتَابَ فِي زَمَنٍ أَهْلُهُ بِغَيْرِ لُغَتِهِ يَفْخَرُوْنَ، وَصَنَعْتُهُ كَمَا صَنَعَ نُوْحٌ الفَلَكَ وَقَوْمُهُ مِنْهُ يَسْخَرُوْنَ، وَسَمَّيْتُهُ [لِسَانَ الْعَرَبِ].»[1].

فهذَا هُوَ العَامِلُ الاِقتِصَادِيُّ أيضًا ولهُ منَ الدَّورِ على فَرْضِ اللُّغةِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى ذِي عَيْنَيْنِ، وبهذَا تبيَّنَ دورُ السِّياسةِ وَالاِقتِصَادِ فِي انتشارِ اللُّغةِ وَهَيْمَنَتِهَا وَفَرْضِهَا عَلَى النَّاسِ.

وَكَذلِكَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ يَبْطُلُ كَلَامُ صَاحِبِ الجِنَايَةِ عَنْ سَبَبِ انتِشَارِ الإنجليزِيَّةِ، أَلَا وَهُوَ: كَوْنُ اللُّغةِ الفَرنسِيَّةِ انتَشَرَتْ فِي الأَمَاكِنِ الَّتِي صَارتْ تحتَ سُلطَةِ المُستعمِرِ الفَرَنسِيِّ بَدلًا مِنَ اللُّغةِ الإنجليزيَّةِ، وَكَذَا الحَالُ بالنِّسبَةِ للُّغَةِ الإسبَانِيَّةِ فِي الأَرَاضِي المُسْتَعْمَرَةِ مِنْ قِبَلِ إِسْبَانيَا المُحتَلَّةِ، وَمَا جَاوَرَهَا مِنَ الأَرَاضِي، كـ: (الأَرجنتينِ، وَالمَكسيكِ، وَتشِيلِي..وَغيرِهَا مِنْ دُوَلِ القَارةِ الأمرِيكيَّةِ)، وَكَذَا

---

(١) لِسَانُ العَرَبِ لِابنِ مَنْظُورٍ (١/ ٨).

اللُّغَةُ البُرتُغَالِيَّةُ للمَنَاطِقِ الَّتِي كَانتْ تَحتَ سَيْطَرَتِهم، أَوْ: لَهُم عَلَيْهَا تَأثيرٌ وَسُلطَانٌ، كَـ: (البَرَازِيلِ، وَغِينيَا) وَغيرِهِمَا، وَكَذَا بالنِّسْبَةِ للُّغَةِ الرُّوسيَّةِ للدُّوَلِ وَالأَقَالِيمِ الَّتِي تحتَ سَيْطَرَتِهَا، كَـ: (أَرمِينيَا، وَطَاجِيكستَان)، وَغَيرِهِما، وَلَا يَزَالُ أهلُ هذِهِ الدُّوَلِ يتدَاولونَ لُغةَ المُستعمِرِ معَ لُغَتِهِم الأمِّ وَيعرِفُونَهَا أكثرَ مِنَ الإِنجلِيزيَّةِ.

وهذَا مَا نراهُ عيانًا بينَ الكُرْدِ حيثُ تَرَى كُردَ مَنْطِقَةِ إيرانَ يَعرِفُونَ الفَارسيَّةَ مَعَ الكُردِيَّةِ، وَكُردَ تُركِيا يَعرِفُونَ التُّركيَّةَ مَعَ الكُردِيَّةِ، وَكُرْدَ سُورِيَا يَعرِفُونَ العَرَبيَّةَ مَعَ اللُّغَةِ الأُمِّ؛ لأَنَّهمْ لم يَكُونوا مُستَقلِّينَ عنْ تلكَ الدُّولِ فِي شُؤُونِهم وما كَانُو مُنفَصِلينَ عنهُم، فَلِذلِكَ تعلَّمُوا اللُّغاتِ الفَارِسيَّةَ وَالتُّرْكِيَّةَ وَالعَرَبِيَّةَ جيِّدًا، أمَّا كُرْدُ العِراقِ فَالحَالُ عندَهُم كَذلِكَ إلَى بعدَ الاِستِقلالِ يَعْرِفُونَ العَرَبِيَّةَ عُمُومًا، وَلكِنْ ضَعُفَتْ عندَهُم العربِيَّةُ بَعْدَ ذلِكَ، إلَّا عِندَ نُخبَةٍ مِنَ المُهتَمِّينَ بِهَا؛ لأنَّ الدِّرَاسَةَ صَارَتْ بالكُردِيَّةِ، وَلَم يَكُنْ هناكَ ما يَفرِضُ العربِيَّةَ لِاستِقلَالِهِمُ السِّياسيِّ وَالِاقتِصَادِيِّ، وَمَنْ تعلَّمَ العربِيَّةَ منهُم فَلِدَافِعِ الدِّينِ؛ لأَنَّهُم رَأوهَا لغةَ الإِسْلامِ وَالقُرآنِ، وَلَا يُمكِنُ فهمُ الشَّريعَةِ إلَّا بها.

فَهذَا المِثالُ وَحدَهُ كافٍ لتثبيتِ حُجَّةِ الكَلَامِ الَّذِي نحنُ بصَدَدِهِ في تأثيرِ هذينِ العَامِلينِ، فَلَوْ تفكَّرَ المعترِضُ قليلًا فِي هذِهِ الأمُورِ، لأدرَكَ أنَّ العَامِلَ الَّذِي فرضَ الإنجلِيزيَّةَ فِي أيَّامِنَا هُوَ القُوَّةُ وَالقَهْرُ، لَا مَتَانَةُ القَوَاعِدِ وَحَيويتُها.

وَمِنْ جانبٍ آخَرَ نقُولُ لهذَا المُعترِضِ: لَو أنَّ المُستبصِرَ المُنصِفَ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ الأَلمانيَّةِ وَقَارَنَهَا بالإِنجلِيزيَّةِ وَالفَرَنسيَّةِ، لَرَأى أنَّ الأَلمَانيَّةَ أَقوَى مِنْهُمَا تَأصِيلًا وَتَقعِيدًا، وَلكِنْ قُدِّمَتَا عَلَى الأَلمَانِيَّةِ لِمَآرِبَ مُخَبَّإٍ فِي نَفسِ إبليسَ!

وَللعَربيَّةِ الحظُّ الأكبَرُ مِنْ هذِهِ اللُّعبَةِ الشَّيطَانيَّةِ المَاكِرَةِ، قَدِيمًا وَحَديثًا، وَفِي العَصْرِ الحَاضِرِ لَمْ يَسْتَنكِفِ الأعداءُ عَنِ النَّيلِ مِنْ هذهِ اللُّغَةِ العَبقرِيَّةِ العَجِيبَةِ، بَل: استَخدَمُوا الوَسَائِلَ العَرْجَاءَ كُلَّهَا، وَأتَوا الوَسَائِطَ العَمياءَ جَمِيعَهَا، لِإبعَادِ المُسلِمينَ عَنْ لُغَةِ القُرآنِ[1]، وَتَقبيحِ هذِهِ اللُّغَةِ وَأساتِيذِهَا فِي أعيُنِ النَّاسِ، وَتَشوِيهِ سُمعَتِهَا وَصُورَتِهَا، ولكِنَّ اللهَ تعالَى قَدْ تكَفَّلَ بِحِفْظِها، ولوْلا هذَا الحِفظُ الإِلهيُّ لَم يَتَبَقَّ لِهذِهِ اللُّغةِ مِنْ أثرٍ، معَ كُلِّ هذا الكَيدِ والعُدوانِ وَجَبَرُوتِ هذِهِ الخُصُومَاتِ.

فاللُّغَاتُ يُعْفَى رَسمُهَا وَيَنْدَرِسُ أَثَرُهَا بعْدَ مُرُورِ الزَّمَنِ دونَ المؤامَرَةِ وَالعُدوانِ، ولكِنَّ العَرَبيَّةَ بقِيتْ بحفظِ اللهِ تعالَى ورِعايتِهِ، مَعَ كُلِّ هذا الزمَنِ المُضِيِّ مُصَاحِبًا كُلَّ هذِهِ الهَجَمَاتِ الشَرِسَةِ عَلَيهَا، وَلم تَستَسلِمْ للعدُوِّ، بلْ: قاوَمَتْ خيرَ مُقاوَمةٍ، فَإِنْ دَلَّ هذَا عَلَى شَيءٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أنَّ العَرَبيَّةَ مَحمِيَّةٌ بِحِمَايَةِ اللهِ تَعَالَى مَصُونَةٌ بِصِيَانَتِهِ.

وَمِنْ خِلالِ ذلِكَ تَعرِفُ أنَّ كَلَامَ المُهنْدِسِ كَلامٌ بَعِيدٌ عَنِ الوَاقِعِ أَبْعَدَ مِنَ السَّرَابِ، وَلَا يُعِيرُهُ عَاقِلٌ ثِقتَهُ، وَكَمَا يَتبَيَّنُ مِنْ خِلالِهِ أَنَّهُ ظَلَمَ العَربيَّةَ وَمَقَتَ حَقَّهَا ولَم يُنْصِفْهَا، وَمَالَ عَنِ الحَقِّ إِلَى جِوَارِ الجَوْرِ، وَدَخَلَ جُحْرَ الإِجْحَافِ، فأَرجُو لَهُ العَوْدَةَ وَالرُّجُوعَ وَإِلَّا فعُقْبَاهُ غيرُ مَحمُودَةٍ.

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَبَشِّرِ الخَصْمَ أَنَّ البَغْيَ يَصْرَعُهُ وَمَارِدَ الجَوْرِ أَنَّ الظُّلْمَ يَدْحَرُهُ

---

(١) وَقَدْ يأتِي مَعَنَا إنْ شَاءَ اللهُ تعَالَى فِي الفَصْلِ الآتِي بيانُ شيءٍ منْ هذِهِ المؤامَرَاتِ.

الحَرْبُ عَلَى العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى!

إنَّ الحَرْبَ عَلَى العَرَبِيَّةِ لَهَا تَارِيْخٌ مُذَيَّلٌ طَوِيلْ، وَإِنَّ النَّيْلَ مِنْهَا مَمقُوتٌ هَزِيلْ، وَالجُهْدَ إِلَى إِبْعَادِهَا حَقِيْرٌ ذَلِيْلْ، وَلَيْسَتْ وَلِيدَ العَصْرِ وَلَا رَبِيبَ السَّاعَةِ، ولَا أوزونُ أَوَّلَ مَنْ خَاضَهَا، وَلَا يكونُ آخِرَ قُوَّادِهَا؛ لأَنَّهَا حَرْبٌ ضِدَّ الإِسلامِ فَتَستَمِرُّ باستِمْرَارِهِ وَتَدُومُ مَعَ دَوَامِهِ، وَيَبْقَى مَعَ بَقَائِهِ، إِذَن الحَرْبُ مُستَمِرَّةٌ وَالضَّغِينَةُ مَاضِيَةٌ، وَلكِنَّنَا نُعَامِلُهَا عَلَى حَدِّ قَوْلِ العَرَبِ: (إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ، فَالنَّعْلُ لَهَا حَاضِرَةٌ)!

فَجَاؤُوا وَشَنّوا عَلَيهَا الحَرْبَ الضَّروسَ تِلْوَ حَرْبْ، بِوَاسِطَةِ أَبِي رِغَالٍ مِنْ بَنِي جِلْدَتِهَا بِأَوَامِرِ الغَرْبْ، وَأفنَوا أموالَهُم وَأَعمَارَهُم فِي هذَا الدَّرْبْ، وَلكِنَّ العَرَبِيَّةَ بَقِيَتْ شَامِخَةً جَمِيلَةَ الوَجْهِ وَالمُحَيَّا بِحِفْظِ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ-!

وَقَدْ كَانَ العُدوَانُ عَلَى الإِسلامِ وَالاِزْدِرَاءُ بِهِ ظَهَرَ مُنْذُ قُرونٍ مُتَقَدِّمَةٍ عَلَى صُوَرٍ وَأَشْكَالٍ، وَأنواعٍ وَألوَانٍ، فَمِنْ هذَا العُدوَانِ الطَّعْنُ فِي العَرَبِيَّةِ وَالنَّيْلُ مِنْهَا، وَلكِنْ بَعْدَ سُقُوطِ الخِلافَةِ الإِسلامِيَّةِ وَضَعْفِ قُوَى المُسلِمِينَ التَفَتَ الأَعْدَاءُ إِلَى غَزْوِ اللُّغَةِ وَاهتَمُّوا بِهِ اهتِمَامًا بالِغًا؛ لأَنَّهُم أَدْرَكُوا أنَّ غَزْوَ اللُّغَةِ يُغَيِّرُ لَهُم وَيُحَقِّقُ مَصَالِحَهُم فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ، مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ القُوَّةُ وَالعَتَادُ وَالجُنُودُ وَالأَوتَادُ بِسَنَوَاتٍ وَدُهُورٍ!

فَلِذلِكَ ظَهَرَتْ جُهُودٌ خَسِيسَةٌ تَعِسَةٌ بَئِيسَةٌ، لِرَفْضِ الفُصْحَى وَاستِخْدَامِ اللَّهَجَاتِ المحلِيَّةِ العَامِّيَةِ الرَّكِيكَةِ البَالِيَةِ، الَّتِي تَخلُو مِنَ الأُسُسِ وَالقَوَاعِدِ وَالضَّوَابِطِ وَالتَّأسِيْسَاتِ أَصْلًا، وَلَا أَدرِي كَيفَ يُخَيَّلُ أَنَّهَا تُقاوِمُ العَرَبِيَّةَ؟.

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ تَرْكُ الكِتَابَةِ بالفُصْحَى العَزِيْزَةِ النَّامِقَةِ العَلِيَّةِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الكِتَابَةِ اللَّاتِينِيَّةِ المُهَلْهَلَةِ فِي مجَالِ الإِعْلامِ والصَّحَافَةِ فِي الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ!

فَارتُفِعَتْ أَصواتٌ شَاذَّةٌ تُغَرِّدُ كَالغُرَابِ وَتُغَنِّي كَالجَرَادِ، وَبألوَانٍ مُتَلَوّنَةٍ كَأَبِي بَرَاقِشَ، بَلْ: فَاقُوا الحِرْبَاءَ فِي التَّلَوُّنِ، فَتَارَةً يَدعونَ للكِتَابةِ بالعَامِّيَّةِ بَدَلَ الفُصْحَى، وَتارَةً يدعُونَ للكِتابةِ باللَّاتينيَّةِ، وَتارَةً يدعُونَ لتفضِيلِ لُغَةِ المُستعمِرِ عَلَى الفُصحَى، وَقَدْ شاهدَتِ العربيَّةُ أنواعًا مِنَ الحُرُوبِ القَاسيَةِ، سَواءٌ كانَ مِنَ المستَشرِقينَ الَّذِينَ تَظَاهَرُوا بالنُّصحِ وَالإخلَاصِ(١)، أَو: مِنْ أبنائِهَا مِنَ الَّذِينَ دَرَسُوا فِي جامِعَاتِ الغَربِ وَتسمَّموا بأفكارِهِمُ السَّامَّةِ؛ لِأَنَّهُم رُضِعُوا أَلْبَانَهُمُ الفَاسِدَةَ، فَجَاءَتْ أَفْكَارُهُمْ مَسْمُوْمَةً (التَّسَمُّم المَعْلُوماتِيّ) وَعَلَى رَأسِهِم رِفاعَةُ الطَّهْطَاوِيُّ(١٨٠١م-١٨٧٣م) الَّذِي تَعَلَّمَ فِي حَضانَةِ الْمُسْتَشرِقينَ وَتَدَرَّبَ عِنْدَهُم، وَكَانَ تَلميذًا بارًّا بِهِم فِي مَدْرَسَةِ القَسْوَةِ وَالعُقُوقِ بِأُمَّتِهِ، فَكَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يُقَنِّنَ للدَّارِجَةِ(العَامِّيَّةِ) وَلَكِنَّهُ مَا أَفْلَحَ وَمَا نَجَحَ، وَقَدْ عَاضَدَهُ آبَاؤُهُ مِنَ الْمُسْتَشرِقينَ فِي التَّقنِينِ وَضَبْطِ القَوَاعِدِ للعَامِّيَّةِ، كَمَا ظَهَرَ ذلِكَ جَلِيًّا فِي مُحَاوَلَاتِ الْمُسْتَشرِقِ الأَلْمَانِيِّ «ولهلم سبيتا» الَّذِي كَانَ مُدِيرًا لِدَارِ الكُتُبِ الْمِصرِيَّةِ حَيْثُ كَتَبَ كِتَابَهُ: (قَوَاعِدَ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ العَامية فِي مِصرَ)، وَدَعَا فِي كِتَابِهِ: (اللَّهجَةِ العَرَبيَّةِ الحَدِيْثَةِ) إِلَى الكِتَابَةِ باللَّاتِينِيَّةِ، وَمِنْ بَعْدِهِ الحَاقِدُ «كَارل فُولرس» الَّذِي لَم يَكُنْ أَقَلَّ حِقْدًا وَخَساسَةً مِنْهُ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَقَوَاعِدِهَا العَلِيَّةِ.

وَكَذلِكَ تَرَى نِدَاءَاتِ الْمُبَشِّرِ الإِنجليزِيِّ «وليم لكُوكس» فِي حَوَالِي (١٨٩٠م) وَمَا بَعْدَهَا، حَيثُ كَانَ يَدعُو إِلَى نَبْذِ الفَصِيْحَةِ وَتَبدِيْلِهَا بالعَامِّيَّةِ فِي الكِتَابَةِ وَالإِعلَامِ، مُبَرِّرًا دَعْوَاتَهُ بأَنَّ الفَصِيْحَةَ تَقِفُ حَائِلًا وَحَاجِزًا دونَ الِابتِكَارِ، وَنَشَرَ مَقَالَاتٍ خِدْمَةً

(١) عَجِيبٌ أمرُ مَنْ يَرَى الثَّعْلَبَ المَاكِرَ أَخًا نَاصِحًا!.

لِـمَقْصِدِهِ الدَّنِيءِ وَأَشْهَرُهَا: (لِمَ لَمْ تُوجَدْ قُوَّةُ الِاخْتِرَاعِ لَدَى الْمِصْرِيِّينَ إِلَى الآنَ؟!) وَيَرْسِمُ الفُصْحَى كَالسَّبَبِ الرَّئِيسِ فِي التَّقَاعُسِ وَالجُمُودِ، وَقَدْ كَانَ يَخْطُبُ بينَ النَّاسِ قَائِلًا: «أيُّها المِصريّونَ[١]، لنْ تزالُوا قادرينَ عَلَى إيجادِ قُوَّةِ الِاختراعِ لَدَيكُم .. فإنَّهُ يُوْجَدُ فيكم أناسٌ كثِيرونَ توفَّرتْ فيهِمُ الشُّروطُ، ولكنْ بسبَبِ عدَمِ وجُودِ لسَانٍ عِلْمِيٍّ مَشْهُورٍ فِيمَا بينكُم، لم تحصُلوا عَلَى شَيْءٍ، أَضَعْتُم أَعْمَالَكُم سُدًى؛ إِذِ السَّبَبُ فِي ذلكَ أنَّ الكُتُبَ العِلْمِيَّةَ الدُّنيويَّةَ يؤلِّفُهَا أَرْبَابُهَا بِكَلَامٍ مِثْلِ الجِبَالِ وَفِي آخِرِ الأَمْرِ لَا يَلِدُ هذَا الكَلامُ الصَّعْبُ إلَّا فَأْرًا صَغِيرًا، وَمَا نَشَأَ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ كَوْنِ اللِّسَانِ العِلْمِيِّ غَيْرَ مَشْهُوْرٍ فِيمَا بَيْنَ العَامَّةِ .. أَقُوْلُ لَكُمْ إِذَا جَنَحْتُمْ إِلَى هذِهِ اللُّغَةِ الدَّارِجَةِ القَوِيَّةِ الشَّهِيْرَةِ فِيمَا بَيْنَكُم وَتَرَكْتُم هذِهِ اللُّغَةَ الضَّعِيْفَةَ تُمْنَحُوْنَ كَثِيْرًا.»[٢].

وَقَدْ قَامَ هذَا الرَّجُلُ بِجُهُودٍ أُخْرَى لِإِبعادِ الفُصْحَى كَمَا أَنَّهُ تَرْجَمَ الإِنْجِيْلَ وَبَعْضَ الكُتُبِ وَالْـمَسْرَحِيَّاتِ إِلَى العَامِّيَّةِ!

وَلَمْ يَكُنْ حَظُّ الْـمُسْتَشْرِقِ الفَرَنسِيِّ «لويس مَاسِينيُون» أَقَلَّ مِمَّا سَبَقَ، بَلْ: فَاقَهُم فِي الدَّعوَةِ إِلَى نَبْذِ الفُصْحَى وَإِبْعَادِهَا، وَكَذَلِكَ بَعْدَهُم أَتى الحَاقِدُ الإِنجلِيزِيُّ القَاضِي فِي وَقْتِهِ «دلْمُور» وَأَلَّفَ كِتَابَ (لُغَةِ القَاهِرَةِ) (١٩٠٢م) وَكَانَ يُنَمِّقُ الدَّعوَةَ إِلَى استِعمَالِ العَامِّيَّةِ وَإِبْعَادِ الفُصْحَى، وَأَتَى فِيْهِ بِزُخْرُفٍ مِنَ القَوْلِ الْـمُبَهْرَجِ الْـمُفْتَرَى!

---

(١) فِي الْمَطبوعِ: (أيُّهَا الْمِصريِّينَ)!

(٢) فَلسَفةُ الِاستِشراقِ وَتَأثيرُهَا فِي الأدبِ العربيِّ الْمُعَاصِرِ لأحمدَ سمَايلوفِتش (ص٦٧٢-٦٧٣). فَكُلٌّ يَعْرِفُ أَنَّ الأَمرَ عكسُ مَا قالَهُ هَذا الخَائِنُ تَمَامًا، كَيفَ تَكُونُ الفُصْحَى ضَعِيفَةً وَالدَّارِجَةُ العَامِّيَّةُ البَالِيَّةُ قَوِيَّةً؟!

وَبَعْدَ أَنِ احْتَلَّتِ الإِنْجِلِيزُ مِصْرَ أَلَّفَ «سلُون ولمور» الحَاكِمُ البريطَانِيُّ الحَاقِدُ فِي مَحَاكِمِ مِصْرَ كِتَابًا بِاسمِ: (العَرَبِيَّة الْمَحَلِّيَّة بِمِصْرَ) (١٩٠١م) وَطَالَبَ فِيْهِ بِرَفْضِ الفُصْحَى وَنَبْذِهَا وَتَبْدِيلِهَا بالعَامِّيَّة.

[مِنَ البَسِيْطِ]

خَابَتْ ظُنُونُ رِجَالٍ بَايَعُوا وَسَعَوا ... فِي قَتْلِهِ وَهَفَتْ أَحلامُهُم وَعَمُوا
بِئسَ الأَمَانِيُّ مَنَّتهُم نُفُوسُهُمُ ... جَهْلاً وَيَا قُربَ مَا فَاجَاهُمُ النَّدَمُ

ثُمَّ بَدَا يَظْهَرُ بَعْضُ مَنِ استَنَّ بِسُنَّةِ هؤلاءِ مِنَ العَرَبِ الَّذينَ يَسْتَجِيبونَ لِكُلِّ دَاعٍ وَيرَوْنَ كُلَّ صَوْتٍ رنَّةً وَنَغمةً، وَلا يُمَيِّزونَ بينَ الحَدْوِ وَالصَّعْقَةِ، فَجَاؤُوا حَامِلِينَ شِعَاراتٍ مُزَيَّفَةً سَوْدَاءَ فِي الحَرْبِ عَلَى لُغَةِ القُرآنِ وَلِسَانِ الأُمَّةِ الإِسلامِيَّةِ، كـ(لويس عوض[1]، وَسَلامَة مُوسَى، وَأَحْمَد لُطْفِي السَّيِّد، وَعَبْد العزِيزِ فَهمِي بَاشَا، وَطَه

(١) تَبًّا لَهُ مِنْ خَائِنٍ يَكْتُبُ كِتَابًا فِي نَقْدِ الفُصْحَى وَيُهْدِيْهِ إِلَى «كريستوفر سكيف» الجَاسُوس الإنجليزِيِّ الحَاقِدِ عَلَى الْمُسلمينَ وَالعَرَبِ! انظُرْ كِتَابَ: لِمَاذا يُزَيِّفُونَ التَّارِيخَ وَيَعْبَثُونَ بالحَقَائِقِ، إِسْمَاعِيل كِيلانِي (ص٣٢٨-٣٢٩)، قَالَ الأُستاذُ محمود شاكر فِي: (أَبَاطِيل وَأَسْمَار) (ص:٧-٨): «فَمِنْ ذلك ما كان يكتُبُهُ أجاكس عِوَض الَّذِي كان يُعْرَفُ فيما غَبَرَ باسْمِ «لويس عِوَض» كَانَ من سوالفِ الأقضيَةِ أَنْ كتبَ اللهُ عليَّ يومًا ما أنْ أقرأَ له شيئًا سَمَّاهُ «بُلُوتُولَنْد» وَقَصَائِدَ أُخْرَى، وَكُتِبَ تحتَهُ مِنْ شِعْرِ الخَالِصَةِ وأهدَاهُ إِلى «كريستوفر سكيف» وذلك فِي: (١٩٤٧) مِنَ الميلادِ، ولَمَا كنتُ أعلمُ خَبْءَ «سكيف» هذا وأنَّهُ كان أستاذًا فِي كليةِ الآدابِ بجامعةِ القَاهرةِ وأنه كان ماكرًا خبيثًا خَسِيْسَ الطِّبَاعِ وأنه كانَ يُفَرِّقُ بينَ طلبةِ القِسْمِ الإنجليزيِّ في الجامعةِ! يمُدُّ يَدًا إلى هذا؛ لأَنَّهُ تابعٌ له حاطب في هواهُ، وينفضُ يدَهُ من ذاك لأنه يعْتَصِمُ ببعضِ ما يَعْتَصِمُ به المخلصُونَ لِدِينهم وَوَطَنِهِم، حَمِيَّةً وَأَنَفَةً وَاسْتِنْكَافًا أَنْ يَضَعَ فِي عُنقِهِ غلًّا للسِّيَادَةِ البَرِيْطَانِيَّةِ وَللثَّقَافَةِ التَّبْشِيرِيَّةِ الْمَسِيْحِيَّةِ، وكنتُ أعلمُ فَوْقَ ذلِكَ أَنَّهُ «شرلتان» عَرِيضُ الدَّعوَى لا يَسْتَحِقُّ أَنْ يكُونَ أُسْتَاذًا فِي جَامِعَةٍ ولكنَّ سِيَادَةَ بَرِيْطَانِيَا كَانَتْ يَوْمَئِذٍ هِيَ الغَالِبَةُ، وكانتْ كَلِمَتُهَا هِيَ النَّافِذَةُ، فَأَصْبَحَ سِرُّ «أجاكس عوض» مَفْضُوحًا عِنْدِي بِإِهْدَائِهِ «بلوتولند» وَقَصَائِدَ أُخْرَى إِلَى هذَا الجَاسُوس =

حُسين[١]، وَعِيْسَى إسكندَر الْمَعلُوف[٢])، وَغَيرِهِم مِمَّنْ رَجَعُوا مِنْ جَامِعَاتِهِم مَمْلُوكِيْنَ وَسَبَايَا لأَفْكَارِ الْمُستَشرِقينَ الحَاقِدِينَ، وَرَاقِصِيْنَ بِدُفُوفِهِم وَاقِفِينَ فِي صُفُوفِهِم، حَتَّى وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى أَنْ عُقِدَ فِي لُبنَانَ مُؤتَمَرٌ فِي هَدمِ الفُصْحَى وَإِزَالَتِهَا عَلَنًا فِي (١٩٧٣م)!

فَهذَا التَّارِيخُ مَكتُوبٌ ومُدَوَّنٌ يَعرِفُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ إِلْمَامٌ بِدَسَائِسِ الْمُسْتَشرِقِينَ الخَائِنِينَ وَتَآمُرِهِم عَلَى الأُمَّةِ الإِسلامِيَّةِ[٣].

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى هَيَّأَ لِهذِهِ اللُّغَةِ البَلِيْغَةِ الأَبِيَّةِ مَنْ يَحمِيْهَا، وَقَيَّضَ لَهَا مَنْ يَذُودُ عَنْهَا وَيَحْمِيْهَا، وَأَوجَدَ مَنْ يُدَافِعُ عَنْهَا بِحُجَجٍ دَامِغَةٍ مُبِيْدَةٍ كَـ(مُصْطَفَى صَادِقٍ الرَّافِعِيِّ، وَحَافِظٍ إِبراهِيمَ، وَمَحمُود شَاكِر، وَالْمَنفَلُوطِيِّ)، وَغَيرُهُم كَثِيرٌ، جَزَاهُمُ اللهُ عَنِ اللُّغَةِ خَيْرًا.

= المحترفِ والْمُبَشِّرِ الثَّقَافِيِّ الصَّفِيْقِ...». ا.هـ.

(١) كَانَ هذا الرَّجُلُ عاقًّا بِأُمَّتِهِ، وَكَانَ مُتَأَثِّرًا بالفِكْرِ الغَرِبيِّ الاستِشرَاقِيِّ، وَقَدْ تَصَدَّى لَهُ عُمَر فروخ وَعبَاس محمُود العَقَّادِ، وَرَدًّا عَلَيْهِ فِي الدَّعوَةِ إِلَى الكِتَابَةِ باللَّاتِينِيَّةِ، فَجَزَاهُمَا اللهُ عَنَّا خَيْرًا.

(٢) وَالأَعْجَبُ أَنَّ هذَا الأَخيرَ كَانَ عضوًا فِي مَجمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَكَانَ يَكتُبُ فِي جَرِيدَةِ الْمَجمَعِ فِي الازدِرَاءِ بالعَرَبِيَّةِ الفُصْحَى وَيَدعُو إِلَى العَامِّيَّةِ، عَجَبًا صَارَتِ الذِّئَابُ لِلنِّعَاجِ أَسيَادًا.

(٣) وَقَدْ تَجِدُونَ بَعضًا مِنْ هذِهِ الأَشياءِ وَأَكثَرَ فِي كِتَابِ: (فَلسَفَةِ الاستِشرَاقِ وَتَأثِيرِهَا فِي الأَدبِ العربيِّ الْمُعَاصِرِ) لأَحمدَ سمَايلوفِتش (ص٦٦٦) وَمَا بَعْدَهَا فِي قَضِيَّةِ اللُّغَةِ، فَهُوَ كِتَابٌ مُهِمٌّ جِدًّا جِدًّا وَلا بُدَّ مِنَ الوقوفِ عليهِ وَقِرَاءَتِهِ بِإِمْعَانٍ وَإِنْعَامٍ وَتَأَنٍّ، طبعَ بدارِ الفِكرِ العَربِيِّ بالقاهرةِ سنةَ: (١٤١٨هـ-١٩٩٨م). وَكَذَا كِتَابُ (لِمَاذَا يُزَيِّفُونَ التَّارِيخَ وَيَعْبَثُونَ بالحَقَائِقِ)، إِسْمَاعِيل كَيلانِي (ص٣٢٠) وَمَا بَعْدَهَا، وَقَدْ كَتَبَتِ الدُّكتُورَةُ نفوسةُ زكريَّا سعيد أَيضًا كِتَابًا قَيِّمًا وَنَالَتْ بِهِ الدُّكتوراه، بَاسمِ (تَارِيْخُ الدَّعوةِ إِلَى العَامِّيَّةِ وَآثَارُهَا فِي مِصْرَ) فِي (٥٢٧ صَفْحَةً) فَهُوَ كذلِكَ كِتَابٌ مُهِمٌّ جِدًّا لِفِي هذَا البَابِ، طُبِعَ بِدَارِ نَشْرِ الثَّقَافَةِ بالإِسكندرِيَّةِ (١٣٨٣هـ-١٩٦٤م).

وَمَا أَفْلَحَ المُتَآمِرُ وَالمستَأجَرُ -وَللهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ- وَبَاءَتْ جُهُودُهُم بِالفَشَل، وَمَا زِلْنَا نَرَى لُغَةَ الإِعْلامِ وَالكُتُبِ هِيَ الفُصْحَى، وَبَقِيَتْ فِي الجَامِعَاتِ وَتُؤَلَّفُ بِهَا الكُتُبُ وَتُشْرَحُ، كَمَا لَمْ يُفْلِحُوا أَيْضًا فِي الدَّعوَةِ إِلَى الكِتَابَةِ باللَّاتِينيَّةِ، والحمدُ للهِ ربِّ العَالمينَ.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَتَبًّا لَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ ضَلَّ سَعْيُهُم وَقَدْ عَمِيَتْ أَبْصَارُهُم وَالبَصَائِرُ

مَاذَا بَعْدَ إِهْمَالِ الفُصْحَى وَالإِقْبَالِ عَلَى العَامِيَةِ؟

إِنَّ الدَّعوَةَ إِلَى رَفْضِ الفُصْحَى وَإِهمَالِهَا وَتَبديلِهَا بالدَّارِجَةِ، تَحْتَوِي عَلَى دَسٍّ وَكيدٍ بالأُمَّةِ وَأَنواعٌ مِنَ الشَّرِّ فِيْهَا مُنْدَرِجَة، وَلَقَدْ أحسَّ العَدُوُّ الـمُتَآمِرُ الخَادِعُ بِهذَا الأَمرِ الفَظِيعِ الخَطِيرِ، وَبِهذَا النَّكَدِ الَّذِي يَذْهَبُ بأَبْنَاءِ الأُمَّةِ إِلَى الهَلاكِ وَسُوءِ الـمَصِيرِ، فَلِذلِكَ صَرَفُوا مَجهُودًا كَبيرًا فِي تَحقِيقِهِ وَتَثْبِيْتِهِ، وَحَاوَلُوا الوصُولَ إِلَى هذَا المَقصِدِ وَلَو كَلَّفَهُم فِيْهِ أموالَهُم وَأَروَاحَهُم، لِـمَا عَلِمُوا فِيهِ مِنَ الـمَهَالِكِ وَالـمَزَالِقِ وَالبَلَايَا، وَمِنْ هذِهِ البَلَايا الَّتِي تُنْتَجُ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الـمَاكِرَة:

إِبْعَادُ الـمُسْلِمِيْنَ عَنْ دِيْنِهِمِ:

إِنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ (الـمَصْدَرَ الأَوَّلَ للإِسْلامِ) وَالسُّنَّةَ النَّبويَّةَ الشَّرِيفَةَ (الـمَصْدَرَ الثَّانِي) جَاءَا بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، فَمَهْمَا ابتَعَدَتْ هذِهِ اللُّغَةُ عَنْ وَاقِعِ النَّاسِ كَانَ فَهمُهُم لَهُمَا أَبْعَدَ وَأَعْوَجَ، وَمَهْمَا غَابَتْ عَنْ أَذهَانِ النَّاسِ صَارَا بَعِيْدَيْنِ عَنْ أَذهَانِهِم وَأَفْهَامِهِم[١]، فَلِذلِكَ جَعَلَ الاِسْتِشراقُ الطَّعْنَ فِي هذَا اللِّسَانِ العَبقَرِيِّ مَطِيَّهُ وَبُغْيَتَهُ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَنتَزِعُوا مِنْ قُلُوبِ المُسلِمِينَ مَحَبَّتَهُ وَنُصْرَتَهُ.

فَإِنَّ الفُصْحَى هِيَ لُغَةُ القُرآنِ الكَرِيْمِ وَلِسَانُ الأَحَادِيثِ النَّبويَّةِ، وَهِيَ الـمُتَحَدِّثَةُ بِاسمِ الشَّرِيْعَةِ وَالتُّرَاثِ[٢] الإِسْلامِيِّ، وَإِنَّ إِلْغَاءَهَا إِلْغَاءٌ للإِسْلامِ وَلِمَصَادِرِه، وَكَمَا

---

(١) وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَنْ ضَرورَةِ العَرَبيَّةِ لِلعُلُومِ الشَّرعِيَّةِ فِي كِتَابِنَا (رَفعِ الشَّجْوِ) بِبَيانٍ مُفَصَّلٍ، أَسأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُيَسِّرَ إِخرَاجَهُ.

(٢) كَلِمَةُ التُّرَاثِ وَرَاءَهَا مَا وَرَاءَهَا مِنْ دَسٍّ وَكَيْدٍ، استَخْدَمَهَا الـمُستَشرِقُونَ وَأَذنَابُهُم وَأَذيَالُهُم =

قِيلَ: إِنَّ اللُّغَةَ كَالإِنَاءِ إِذَا كُسِرَ ضَاعَ مُحْتَوَاهُ!

وَقَدْ كَانَ يَتَأَذَّى هؤلاءِ القَوْمُ (الْـمُستَشرِقونَ) بِالنَّيلِ مِنْ لُغَتِهِم، وَيُدافِعُونَ عَنْهَا وَيحمونَهَا مِنْ أيِّ تَحدٍّ، وَلكِنَّهُم جَاؤُوا يَنَالونَ مِنْ لُغَتِنَا وَأوهَمُوا أنَّ الدَّافِعَ لَهُم هُوَ الإِخلاصُ للعَرَبِ وَالعَرَبِيَّةِ، فَهَا هُوَ «جُوزيف موريس» يَهودِيٌّ إِنجليزِيٌّ يَقُولُ: «الَّذينَ يُبعِدونَنَا عنِ اللُّغَةِ العِبرِيَّةِ يُضْمِرُونَ الشَّرَّ لِشَعْبِنَا وَمَجْدِهِ الخَالِدِ، طَالَما سنظَلُّ يَهودًا[1]، وَطَالَمَا سَنُنَادِي بِأَنَّ التَّوراةَ كِتابُنَا، يجبُ أَنْ نُقَدِّسَ اللُّغَةَ الَّتِي كُتِبَتْ بِهَا تَقْدِيْسًا لَا حَدَّ لَهُ.»[2].

وَبِهذَا تَعرِفُ قَدْرَ اللُّغَةِ عِنْدَ هؤلَاءِ وَمِنْهُ تَعرِفُ لِمَاذَا يُطَالِبُ الأَعْدَاءُ بِرَفْضِ لُغَةِ القُرآنِ!

= للسُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ قَصْدًا؛ لأنَّ التُّراثَ ليسَ وَحيًا، فَهُوَ جُهْدٌ بَشَرِيٌّ يَقْبَلُ الخَطَأَ وَالصَّوابَ، فَلْيُتَنَبَّهْ.

(١) عَدَّ بعضُ العُلَماءِ كَلِمَةَ (يَهُود) مُنْصرِفَةً وَالآخَرُونَ عَدُّوْهَا غَيْرَ مُنْصَرِفَةٍ، قَالَ فِي: (المِصبَاحِ الـمُنيرِ) (٢/ ٦٤٢): يَهُودُ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ لِلْعَلَمِيَّةِ وَوَزْنِ الفِعْلِ، وَيَجُوزُ دُخُولُ الْأَلِفِ وَاللَّامِ، فَيُقَالُ: (الْيَهُودُ) وَعَلَى هَذَا فَلَا يَمْتَنِعُ التَّنْوِينُ؛ لِأَنَّهُ نُقِلَ عَنْ وَزْنِ الْفِعْلِ إِلَى بَابِ الْأَسْمَاءِ». اهـ.

وَقَالَ الجَوْهَرِيُّ فِي: (الصِّحَاحِ) (٢/ ٥٥٧): «ثُمَّ عُرِفَ الجَمْعُ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَجُزْ دُخُولُ الأَلِفِ وَاللَّامِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَعرِفَةٌ مُؤَنَّثٌ، فَجَرَى فِي كَلَامِهِم مَجْرَى القَبِيْلَةِ، وَلَمْ يُجْعَلْ كَالحَيِّ». اهـ.

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي: (الفَائِقِ فِي غَرِيبِ الحَدِيثِ) (١/ ١٥٦): «وَالْأَصْلُ فِي (يَهُوْدَ وَمَجُوسَ) أَنْ يُسْتَعْمَلَا بِغَيرِ لَامِ التَّعْرِيفِ لِأَنَّهُمَا عَلَمَانِ خَاصَّانِ لِقَوْمَيْنِ كَقَبِيْلَتَيْنِ.».اهـ.

وَبَعْضُهُم أَنْكَرَ العَلَمِيَّةَ فِيهَا وَقَالُوا هِيَ اسمُ جِنْسٍ، وَمَنْ قَالَ إِنَّ فِي الكَلِمَةِ عَلَمِيَّةً رَآهَا اسمَ قَبِيلَةٍ. يُنْظَرُ: إِيضَاحُ شَوَاهِدِ الإِيْضَاحِ لأَبِي عَلِيٍّ القَيسِيِّ (٢/ ٦٥٨)، وَغَرِيبُ الحَدِيثِ لابنِ قُتَيبَةَ (٢/ ٤٦١)، وَالمُحْكَمُ وَالمُحِيطُ الأَعظَمُ (٤/ ٤١١).

(٢) لِمَاذَا يُزَيِّفُونَ التَّارِيخَ وَيَعْبَثُونَ بِالحَقَائِقِ، إِسْمَاعِيل كَيلانِي (ص٣١٩)، المكتب الإسلاميّ، ط:٢/ ١٤١٣هـ.

وَقَالَ الأُسْتَاذُ مَحمُود شَاكِر عَنْ هذِهِ الحَرْبِ الِاسْتِشرَاقيَّةِ: «وَهذَا هُوَ تَارِيْخُهَا ولكِنَّهُ تَارِيْخٌ طَوِيْلٌ جِدًّا وَمُتَقَادِمٌ جِدًّا، وَيُؤْسِفُنِي أنْ أكُونَ مُضطَرًّا لِلْإِيجَازِ(١)، فَمُنْذُ اسْتَيْقَظَ العَالَمُ الأُوروبيُّ لِنَهْضَتِهِ الحَدِيْثَةِ، وَهُوَ يَرَى عَجَبًا مِنْ حَوْلِهِ أُمَمٌ مُخْتَلِفَةُ الأَجْنَاسِ وَالأَلْوَانِ وَالأَلْسِنَةِ، مِنْ قَلْبِ روسِيَا إِلى الصِّينِ، إِلى الهندِ إلى جَزَائِرِ الهِنْدِ، إلى فَارِسَ إلى تُركِيَا، إلى بِلادِ العَرَبِ إلى شمَالِ أفريقيَّةَ، إلى قَلْبِ القَارةِ الإفريقيَّةِ وَسَوَاحِلِهَا، إلى قَلْبِ أوروبَا نَفْسِهَا: تَتْلُو كِتَابًا وَاحِدًا يَجْمَعُهَا، يَقْرَؤُهُ مَنْ لِسَانُهُ العَرَبِيَّةُ وَمَنْ لِسَانُهُ غَيْرُ العَرَبِيَّةِ، وَتَحْفَظُهُ جَمْهَرَةٌ كَبِيرةٌ منهُمْ عن ظَهْرِ قَلْبٍ، عَرَفَتْ لُغَةَ العَرَبِ أَمْ: لم تَعْرِفْهَا، وَمَنْ لم يَحْفَظْ جَمِيْعَهُ حَفِظَ بَعْضَهُ لِيُقِيْمَ بِهِ صَلاتَهُ، وَتَدَاخَلَتْ لُغَتُهُ فِي اللُّغَاتِ وَتَحَوَّلَتْ خُطُوطُ الأُمَمِ إِلى الخَطِّ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ هذَا الكِتَابُ، كالهِنْدِ وَجَزَائِرِ الهِنْدِ وَفَارِسَ وَسَائِرِ مَنْ دَانَ بِالإسلامِ، فَكَانَ عَجَبًا أَنْ لا يكُونَ فِي الأَرضِ كِتَابٌ كانتْ لَهُ هذِهِ القُوَّةُ الخَارِقَةُ، فِي تَحوِيْلِ البَشَرِ إِلَى اتِّجَاهٍ واحِدٍ مُتَّسِقٍ مُنَسَّقٍ عَلَى اختِلافِ الأَجْنَاسِ والأَلْوانِ وَالأَلْسِنَةِ.

فَمُنْذُ ذلكَ العَهْدِ ظَهَرَ الِاسْتِشْرَاقُ لِدِرَاسَةِ أَحْوَالِ هذا العَالَمِ الفَسِيحِ الَّذِي سَوْفَ تَتَصَدَّى لَهُ أُوروبا الْمَسِيحِيَّةُ بَعْدَ يَقْظَتِهَا، وَعَلَى حِيْنِ غَفْوَةٍ رَانَتْ عَلَى هذَا العَالَمِ الإِسْلامِيِّ، فَكَانَ مِنْ أَوَّلِ هَمِّ الِاسْتِشْرَاقِ: أَنْ يَبْحَثَ لِأُوروبَّا النَّاهِضَةِ عَنْ سِلاحٍ غَيْرِ أَسْلِحَةِ القِتَالِ، لِتَخُوْضَ الْمَعْرَكَةَ مَعَ هذا الكِتَابِ الَّذِي سَيْطَرَ عَلَى الأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ الأَجْنَاسِ والأَلوانِ والأَلسِنَةِ، وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَاحِدَةً تعدُّ العَرَبِيَّةَ لِسَانَهَا وتعدُّ تاريخَ العَرَبِ تاريخَهَا.

---

(١) يَذكُرُ التَّارِيخَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مُخْتَصَرًا فِيمَا مَضَى.

وَبَدَأَ الغَزْوُ الْمُسَلَّحُ وَسَارَ الِاسْتِشْرَاقُ تَحْتَ رَايَتِهِ وَزَادَتِ الخِبْرَةُ بِهذِهِ الأُمَمِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهَا لَهُ لِسَانٌ غَيْرُ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ أُعِدَّتْ لَهُ سِيَاسَةٌ جَدِيْدَةٌ لِإِغْرَاقِهِ فِي لِسَانِ الغَازِي الأُوروبِيِّ حَتَّى يُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، وَمَنْ كانَ لِسَانُهُ عَرَبِيًّا أُعِدَّتْ لَهُ سِيَاسَةٌ أُخْرَى لِإِغْرَاقِهِ فِي تَخَلُّفٍ مُمِيْتٍ، لَخَّصَهَا «وليم جِيفُورد بلجرَاف» فِي كَلِمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ: (مَتَى تَوَارَى القُرآنُ وَمَدِيْنَةُ مَكَّةَ عَنْ بِلَادِ العَرَبِ، يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَى العَرَبِيَّ يَتَدَرَّجُ فِي سَبِيْلِ الحَضَارَةِ -يَعْنِي: الحَضَارَةَ الْمَسِيْحِيَّةَ- الَّتِي لَمْ يُبْعِدْهُ عَنْهَا إِلَّا مُحَمَّدٌ وَكِتَابُهُ). فَكَانَ بَيِّنًا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَارَى القُرآنُ حَتَّى تَتَوَارَى لُغَتُهُ.

وَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنْ لَا وَسِيْلَةَ إِلى إِقْصَاءِ القرآنِ فِي الأَرْضِ إِلَّا بِالسَّيْطَرَةِ عَلَى وَسَائِلِ التَّعْلِيْمِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى لَا تَتَمَكَّنَ الأُمَّةُ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهِ، فَتَقَيُّمُهُ عَلَى طَرِيْقٍ سَوِيٍّ يُفْضِي إِلَى نَهْضَةٍ صَحِيْحَةٍ، وكانَ مِنْ قَدَرِ اللهِ أَنَّ مَنَارَةَ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ كَانَتْ فِي مِصْرَ (وَهِيَ الأَزْهَرُ)[1] فَصَارَ مِنَ الحَتْمِ الْمَقْطُوْعِ بِهِ أَنْ تَكُوْنَ سِيَاسَةُ الغَزْوِ الأُوروبِيِّ، مُوَجَّهًا إِلَى مِصْرَ قَبْلَ كُلِّ مَكَانٍ فِي هذَا العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ حملةُ نَابليُونَ سَنَةَ (١٢١٣) مِنَ الهِجْرَةِ (١٧٩٨م) وَلَكِنَّهُ لم يَلْبَثْ بِهَا إِلَّا قليلًا ثُمَّ رَحَلَ، وبَعْدَ قليلٍ أيضًا صَارَ أمرُ مِصْرَ إِلى مُحمَّد عَلِيّ سَنَةَ (١٢٢٠) مِنَ الهِجْرَةِ (١٨٠٥م) فَمِنْ خِلَالِ حُكْمِهِ سَيْطَرَتِ القنَاصِلُ الأُوروبِيَّةُ عَلَى مَرَافِقِ البِلَادِ..»[2].

---

(١) حَالُ الأَزْهَرِ الآنَ بِحَاجَةٍ إِلَى الِاسْتِرْجَاعِ مُقَارَنَةً بالـمَاضِي، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِليهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ.

(٢) أبَاطِيْلُ وَأَسْمَارٌ لِمَحْمُود شَاكِر (ص١٢٨، ١٢٩). فَمحَمَّد عَلِيّ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رِفَاعَةَ الطَّهْطَاوِيَّ إِلَى فرنسَا، لِيتعلَّمَ مِنَ الغربِ وَفِي حَضَانَةِ الْمُسْتَشرِقينَ وَعَادَ مُطَالِبًا بالعَامِّيَّةِ وَرَفْضِ الفُصْحَى!

وَهَا هُوَ «محمَّد أركون» فِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ يتأذَّى مِنْ أَنْ تَحْمِلَ العَرَبِيَّةُ سِمَةَ الإِسْلامِ وَيَكتُبُ قَائِلًا: «وَكَمَا بَقِيَ الفَلَّاحُ يَسْتَعمِلُ المحراقَ العتيقَ دونَ أَيِّ تَحْسِينٍ آلِيٍّ، فكذَلِكَ بقيتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ محافِظَةً عَلَى تَعَابِيْرَ دينيَّةٍ، ونتفٍ مِنَ الفقهِ، والنَّحوِ والأدبِ، منفصلةً عنِ الْمَعَاجِمِ العِلْمِيَّةِ الثَّرِيَّةِ الَّتِي أحدَثَهَا المفكِّرونَ والأدباءُ والعلمَاءُ في عصُورِ الإِزدهارِ، ولم تزَلْ إلى الآنَ منفَصِلَةً عنِ الْمُعْجَمِ العَقْلانِيِّ العِلْمِيِّ، الَّذِي أحدَثَهُ الفَلاسِفَةُ..»[(١)].

فَالغَرَضُ الأَهمُّ والأساسُ مِنْ هذِهِ الدَّعوَةِ هُوَ إبعَادُ المُسلمِينَ عنْ كتابِ اللهِ تعالَى وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَفَهْمِهِمَا فَهْمًا صَحِيحًا، وَأَثَّرَ عَامِلُ ابتِعَادِ النَّاسِ عَنِ الفُصْحَى عَلَى فَهْمِ الشَّرِيْعَةِ وَمَصَادِرِهَا، كَمَا نَرَى اليَوْمَ عَدَمَ قُدْرَةِ كَثِيرٍ مِنَ العَامَّةِ (وَبَعْضِ المُثَقَّفِينَ أيضًا) عَلَى فَهْمِ مَعَانِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لأَنَّهُمُ ابتَعَدُوا عَنْ لُغَتِهِمَا ابتِعَادًا تَامًّا، فَاندَرَسَتْ تِلْكَ الأَسَالِيبُ اللُّغَوِيَّةُ الرَّفِيعَةُ، وَانْمَحَتْ تِلْكَ الخِطَابَاتُ البَيَانِيَّةُ المصْعقَةُ القُحَّةُ بَيْنَهُمْ، فَلِذلِكَ صَارُوا أَعْجَمِينَ بالعَرَبِيَّةِ وَلَا يَفْهَمُونَهَا عَلَى وَجْهِهَا، كَمَا فَهِمَهَا الأَوَائِلُ، وَهذِهِ هِيَ مُصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ.

هَدْمُ جِسْرِ الوُصُوْلِ إِلَى التَّارِيخِ الإِسلامِيِّ:

وَمِنَ الكَوَارِثِ الَّتِي فِي طَيِّ هذِهِ الدَّعوةِ النَّتِنَةِ هُوَ هدْمُ (التُّرَاثِ) الإِسْلامِيِّ وَالعَرَبِيِّ وَعَدْمُهُ، فَإِذَا ابتَعَدْنَا عَنِ اللُّغَةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُرَاثُنَا التَّارِيخِيُّ، فَلا يَكَادُ يَبْقَى تَارِيخٌ نَفْرَحُ بِهِ وَلَا مَجْدٌ نَعْتَزُّ بِهِ وَلَا بُطُولَاتٌ تُحْكَى لأَبْنَائِنَا، فَنَصِيرُ أُمَّةً بِلا عِزٍّ وَلا

---

(١) الفِكرُ العَربيُّ المعَاصرُ لمحمّد أركون (ص٨)، ترجمة: عادل العوا، منشورات عويدات بيروت – باريس ط:٣/ ١٩٨٥م.

شَرَفٍ وَلا تَارِيخ، وَبِهَذا نَفقِدُ الوُقوفَ أَمَامَ الحَضَاراتِ الأُخْرَى، وَلا نَستطيعُ أَنْ نُقَدِّمَ قَدَمًا إِلَى الأَمَامِ؛ لأَنَّ أُمَّةً لا يُرَى لَهُ أَثَرٌ فِي مُدَّةِ أَلْفِ سَنةٍ وَزِيَادَةٍ، فَإِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ بِناءَ بَيْتٍ وَمَسكَنٍ فِي المُسْتَقْبَلِ، فَكَيْفَ بِحَضَارَةٍ تَقِفُ فِي وُجُوهِ الحَضَاراتِ الأُخْرَى، فَلِذلِكَ أعداؤُنا حَرِيصُونَ عَلَى هَدْمِ لُغَةِ تَارِيْخِنَا الْمُشْرِقِ، وَإِخْفاءِ صَفَحَاتِهِ عَنْ أذهَانِ المُسلِمينَ وَالجِيْلِ النَّاشِئِ!

فَهَؤلَاءِ الْمنتَقِدونَ الأَعْدَاءُ أَنْفُسُهُم حَرِيصُونَ عَلَى لُغَتِهِم جِدَّ الحِرْصِ، وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهَا أَيَّمَا مُحَافَظَةٍ مِنَ الغَزْوِ اللُّغَوِيِّ؛ لأَنَّهُم أَدْرَكُوا هذِهِ الحَقِيقَةَ وَجَرَّبُوهَا وَعَلِمُوا خُطُورَتَهَا، كَمَا قَالَ الأَدِيبُ الكَبِيرُ مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِيُّ: «وَهَلْ أعجبُ مِنْ أنَّ المجمَعَ العِلْمِيَّ الفرنسيَّ يُؤْذِنُ فِي قَوْمِهِ بِإِبطَالِ كلمَةٍ إنجليزيَّةٍ كَانَتْ فِي الألسِنَةِ مِنْ أَثَرِ الحَرْبِ الكُبْرَى، وَيُوجِبُ إسقَاطَهَا مِنَ اللُّغَةِ جُمْلَةً، وَهِيَ كَلِمَةُ «نِظَامِ الحَصْرِ البَحْرِيّ»، وَكَانَتْ مِمَّا جاءَتْ مَعَ نَكبَاتِ فَرَنْسَا فِي الحَرْبِ العُظْمَى، فلمَّا ذَهَبَتْ تلكَ النَّكَبَاتُ رَأَى المجمَعُ العِلْمِيُّ أنَّ الكَلِمَةَ وَحدَهَا نَكْبَةٌ على اللُّغَةِ كأنَّهَا جنديُّ دولَةٍ أجنبيَّةٍ فِي أرضِ دولةٍ مستقِلَّةٍ بِشَارَتِهِ وَسِلاحِهِ، وَعَلَمُهُ يُعْلِنُ عَنْ قَهْرٍ أَوْ: غَلَبَةٍ أَوِ: اسْتِعْبَادٍ! وَهَلْ فَعَلُوا ذلكَ إِلَّا أَنَّ التَّهَاوُنَ يدعُو بعضُهُ إلى بعضٍ، وأنَّ الغَفْلَةَ تبعثُ على ضعفِ الحِفْظِ والتَّصَوُّنِ، وأنَّ الاختلاطَ وَالاضْطِرَابَ يَجِيْءُ مِنَ الغَفْلَةِ، وَالفَسَادَ يَجْتَمِعُ مِنَ الاختِلاطِ وَالاضْطِرَابِ.»[1].

أُنْظُرُوا كَيْفَ لا يَرْضَى هؤلاءِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ دَخِيلَةٍ عَلَى لُغَتِهِم، وَمِنْ ثَمَّ جَاؤُوا إِلَيْنَا وَدَعوا إِلَى تَرْكِ الفُصْحَى كَامِلَةً، وَاتَّبعهُم وَتَقَيَّلَهُم فِي دَعَاوَاهُم الكَاذِبَةِ شِرذِمَةٌ

(١) تحتَ رَايَةِ القُرآنِ، مصطفى صادِق الرَّافِعِيّ (ص٢١)، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

مِنَ العَرَبِ أَنْفُسِهِم مُغْتَرِّينَ بِتِلْكَ الدَّعَاوَى الـمَاكِرَةِ، دونَ أيِّ تَفَكُّرٍ فِي الحَالِ وَالمآلِ، وَاللهُ المُستَعَانُ.

فَصْلُ العَلَاقَةِ بَيْنَ الـمُسلِمينَ:

جَعَلَ القُرآنُ الكَرِيمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لُغَةً مُشتَرَكةً بينَ الْمُسلمينَ بِهَا يتَفَاهَمونَ فِيمَا بَيْنَهُم، وَبِهَا يُعبِّرُ كُلُّ شَعْبٍ مِنْ تِلْكَ الشُّعُوبِ الـمُسلِمَةِ إِذَا أَرادَتْ أَنْ تَهْمِسَ فِي أُذنِ إِخْوَتِهَا (أَعْنِي: بَاقِي الشُّعُوبِ الْمُسلمَةِ)، مُعَبِّرَةً عَنْ آلَامِهَا وَأَحْزَانِهَا وَأَشْجَانِهَا، وَبِذلِكَ صَارَتِ العَرَبِيَّةُ مِلْكًا للجَمِيْعِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ الشُّعُوبِ يَرَاهَا لُغَةً لَهُ، وَخَيرُ شاهِدٍ عَلَى ذلِك أَنَّكَ تَجِدُ أَنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ قَدِيمًا وَالخَادِمينَ لَهَا مِنْ غَيْرِ العَرَبِ، وَأَنَّ مِنْ أَكَابِرِ شُعَرَاءِ العَرَبِيَّةِ فِي النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القَرْنِ العِشرِينِ كَانُوا مِنَ الكُرْدِ (شَوْقِي، الرّصَافِيّ، الزَّهَاوِيّ)!

فَلِذلِكَ أَرادَ الأَعدَاءُ أَنْ يَقضُوا عَلَى هذِهِ النُّقْطَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي يَلْتَقِي فِيْهَا الـمُسلِمُونَ جَمِيعًا باخْتِلافِ أَلْوَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، وَقَدْ عَلَّقَ الأُستَاذُ الدُّكتُورُ محمَّد محمَّد حُسَيْن عَلَى كَلامِ اثنَيْنِ مِنَ الـمُغتَرِّينَ بالدَّعوةِ الغربيَّةِ الِاستشرَاقيَّةِ إِلَى رَفْضِ الفُصْحَى وَالإِتيانِ بالعَامِّيَّةِ وَالكِتَابَةِ باللَّاتينيَّةِ، قَائِلًا: «أَليسَ يَرْضَى الِاسْتِعْمَارُ عَنْ مِثْلِ اقْتِرَاحِ الْمَعْلُوفِ وَفَهْمِي[1]؟ أَليسَ يَرْضَى عَنْهُ العُضْو الإِنْجِلِيْزِيُّ (جب) الَّذِي يُقَرِّرُ فِي كِتَابِهِ: (إِلَى أينَ يَتَّجِهُ الإِسْلامُ؟) عِنْدَ كَلامِهِ عَنِ الوَحْدَةِ الإِسْلامِيَّةِ أَنَّ مِنْ أَهَمِّ مَظَاهِرِهَا الحُرُوفُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي سَائِرِ العَالَمِ الإِسْلامِيِّ، أَليسَ

---

(١) يُرِيدُ: عَبْدَ العزِيزِ فَهمِي بَاشَا، وَعِيْسَى إِسكندَر الْمَعْلُوف.

يَرْضَى عَنْهُ الِاسْتِعْمَارُ الفَرَنْسِيُّ الَّذِي حَارَبَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَى فِي شمَالِ إفْرِيقيَا أَعْنَفَ الحَرْبِ، وَضَيَّقَ عَلَيْهَا أَشَدَّ التَّضيِيْقِ؟»[١].

وَبِهذَا الفَصْلِ يَسْهُلُ سَيطَرَةُ العَدُوِّ المَاكِرِ عَلَى الشُّعُوبِ المُسلِمَةِ؛ لأَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ العلَاقَةَ بَينَ تِلْكَ الشُّعُوبِ، وَصَنَعَ بينَهُم حَاجِزًا مُفَرِّقًا مُشَتِّتًا، بِإبعَادِ هذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ وَجَعَلَتْهُم كَاليَدِ الوَاحِدَةِ، فَلِذلِكَ هُوَ حَرِيصٌ عَلَى إبعَادِهَا عَنْ وَاقِعِ المُسلِمِينَ.

الـمُشْكِلَةُ الأَدَبِيَّةُ:

إنَّ الأَدَبَ بَعْدَ الإسلامِ ليسَ مِلْكًا للعَرَبِ وَحْدَهُم، حَتَّى يَأْخُذَ طَابِعًا مَحلِّيًّا بلَهْجَةٍ عَامِّيَّةٍ؛ لأَنَّكَ تَرَى الأُمَمَ وَالأَقوامَ كُلَّهُم (الـمُسلِمِينَ) يكتبُونَ بالعربيَّةِ الفُصْحَى نَظْمًا وَنَثرًا، وَبِذلِكَ صَارَ الأَدَبُ الإِسلامِيُّ أَدَبًا عَالَميًّا، فَكُلٌّ[٢] لَهُ فِيْهِ حَظٌّ وَنَصِيبٌ، وَلَهُم مُشَارَكَةٌ تَامَّةٌ فِي بِنَاءِ هذَا الأَدَبِ العَبْقَرِيِّ الفَذِّ، عَرَبِهِم، وَفَارِسِهِم، وَتُرْكِهِم، وَكُرْدِهِم، وَبَرْبَرِهِم، وَهِندِهِم، وَغَيْرِهِم مِنَ الأُمَمِ، فَكُلُّ واحِدٍ منهُم رَأى العَرَبِيَّةَ لُغةً لَهُ، وَيُعبِّرُ بِهَا عَنْ مَشَاعِرِهِ، وَبِهَا يُغَرِّدُ وَيُنَغِّمُ نَظْمًا وَنَثْرًا.

---

(١) الِاتِّجَاهَاتُ الوَطَنِيَّةُ فِي الأَدَبِ الْمُعَاصِرِ، د. محمَّد حُسَيْنٍ (٢/ ٣٦٠-٣٦١)، ط: مؤسَّسَةُ الرِّسالةِ، بيروت.

(٢) قَالَ الأَزْهَرِيُّ: «قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: قلتُ للأصمعيّ: رَأَيْت فِي (كتاب ابْن المقفَّع): (الْعلم كثيرٌ ولكنَّ أخْذَ الْبَعْض خيرٌ من ترك الكُلّ). فَأنكرهُ أشدّ الإِنْكَار وَقَالَ: الْألف وَاللَّام لَا تدخلان فِي (بعض) و(كلّ)؛ لِأَنَّهُمَا معرفَة بِغَيْر ألف وَلَام، وَفِي الْقُرْآن: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النَّمل: ٨٧] قَالَ أَبُو حَاتِم: وَلَا تقول العربُ الكلَّ وَلَا البعض، وَقد اسْتَعْمَلهُ النَاسُ حَتَّى سِيبَوَيْهِ والأَخْفَشُ فِي كُتُبِهِمَا، لِقلَّةِ عِلْمِهِمَا بِهَذَا النَّحْوِ، فَاجْتَنِبْ ذَلِك فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَام الْعَرَبِ.» تهذيبُ اللُّغَةِ للأَزهَرِيِّ (١/ ٣١١).

فَهؤُلاءِ الأَعداءُ يريدُونَ أَنْ يُزِيلُوا هذِهِ السِّمَةَ العَالَمِيَّةَ الَّتِي يَحمِلُهَا الأَدَبُ الإِسْلامِيُّ وَيَضَعُوهُ فِي إِطَارٍ ضَيِّقٍ وَيكُون أَدَبًا مُتَقَوْقِعًا خَاصًّا بِالعَرَبِ، وَيَصِلُوا مِنْهُ إِلَى تَمزِيقِ صَفَحَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الأَدَبِ الرَّفِيعِ، بأنواعِهِ المختَلِفَةِ وَأَشكَالِهِ المُتَبَاينَةِ.

تَمْزِيْقُ الهُوِيَّةِ:

إِنَّ الفُصْحَى لُغَةٌ قَوِيَّةٌ رَصِينَةٌ لَيْسَ لَهَا مَثِيْلٌ بينَ اللُّغَاتِ العَالَمِيَّةِ، وَيَعْتَرِفُ بِهَا الخُصُومُ الْمُنصِفونَ قبلَ الأَهْلِ وَالأَنْصَارِ[1]، وَلهَا قَوَاعِدُ وَضَوَابِطُ قَوِيَّةٌ مَتِيْنَةٌ وَتُراثٌ ضَخْمٌ هَائِلٌ فَاخِرٌ، مَعَ تَقْنِينٍ جَبَّارٍ تَتَمَتَّعُ بِهِ هذِهِ اللُّغَةُ العَبقَرِيَّةُ، وَبِفَضْلِ هذِهِ الأُمُورِ تَتَّسِمُ بِالحَيَوِيَّةِ وَالقُوَّةِ مَعًا فَتَقِفُ فِي وَجْهِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى مِنْ حيثُ القُوَّةُ وَالْمُكْنَةُ.

وَلكِنَّ الخُصُومَ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْلُبُوا مِنَ الْمُسلِمِينَ هَذَا البَحْرَ الزَّخَّار، وَبَدَا يُخَطِّطُونَ لَهَا لَيْلَ نَهَار، وَلَم يَترُكُوا مَدْخَلًا لِدخُولِ الدَّارِ، فَيَا فَرَحَهُم إِذَا تَرَكَ الْمسلِمونَ لُغَةَ قُرآنِهِم وَتُراثِهِم وَأَقْبَلُوا عَلَى لُغَةٍ وَلِيْدَةٍ لَيْسَتْ تَمْلِكُ عُشْرَ مِعْشَارِ الفُصْحَى، بَلْ: مِنَ الجُرْمِ أَنْ يُمْتَزَجَ اسْمُهُمَا مَعًا لِلمُقَارَنَةِ.

لُغَةٌ (لَهْجَةٌ) بِحَالَةٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالهَوانِ تَحتَاجُ إِلَى تَقْنِينِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالخوَنَةِ والضُّعفَاءِ، فَكَيْفَ يَترُكُ عَاقِلٌ أَجمَلَ لُغَاتِ الدُّنيا، وَأَبْهَاهَا وَأَرْصَنهَا لَهَا؟!

فَقُوَّةُ العَرَبِيَّةِ قُوَّةُ العَرَبِ فِي رُقِيِّهِم وَحَضَارَتِهِم، فَإِذَا ضَعُفَتِ العَرَبِيَّةُ ضَعُفَتِ العَرَبُ، وَإِذَا مَاتَتْ مَاتُوا، وَلكِنَّ هؤلاءِ لَا يَعْلَمُونَ[2]!

---

(١) وَسَيَأتِي بيَانُ قُوَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا فِي أَبْحَاثِ الكِتَابِ بِإِذنِ اللهِ تَعَالَى.

(٢) أَوْ يَعْلَمُونَ وَلكِنْ بَلَغَ بِهِمُ الحَمَاقَةُ وَالإِعْجَابُ بِثَقَافَةِ العَدُوِّ إِلَى حَدٍّ لَمْ يبقَ لَدَيْهِمْ أَيُّ نخوَةٍ وَغيرَةٍ عَلَى الأُمَّةِ وَحَيَاتِهَا. (د.شَفيع).

فَهذِهِ الـمَصَائِبُ وَالكَوَارِثُ بَعضُ نَتَائِجِ إِهْمَالِ الفُصْحَى وَلكِنَّ الَّذِينْ هُمْ أَبْنَاءُ سَاعَتِهِم لَا آبَاءُ عَاقِبَتِهِم وَلَا خُبَرَاءُ مَآلِهِم، لَا يُدْرِكُونَ خُطُورَتَهُ، وَلَا يَنْتَبِهُونَ لِهَوْلِ الخَطْبِ وَخَطَرِ الأَمْرِ، وَاللهُ الـمُستَعَانُ.

[مِنَ الوَافِرِ]

أُمُـــورٌ يَضْـــحَكُ السُّـــفَهَاءُ مِنْهَـــا وَيَبْكِـــي مِـــنْ عَوَاقِبِهَـــا اللَّبِيـــبُ

مَا هُوَ سَبَبُ إِهْمَالِ العَرَبِيَّةِ؟!

بَعْدَ أنْ ذَكَرَ الكَاتِبُ تَقدُّمَ الإِنجليزيَّةِ وسيادَتَهَا، وَتَراجُعَ العَربيَّةِ وَإهمَالَهَا، شَرَعَ فِي بيَانِ السَّبَبِ وَيَقُتُّ الأَحَادِيث وَيُلَفِّقُهَا بِصَنِيعٍ يَقْبُحُ فِي القَالَةِ، إِذْ قَالَ: «وَالسَّببُ في ذلكَ يعُودُ – بِرَأينَا - إلى عُنصرَيْنِ أسَاسِيَينِ:

أَوَّلِهما: علمُ النَّحوِ العربيِّ.

ثَانِيهمَا: الِاشتِقاقُ اللُّغويُّ مِنْ جُذورِ الكَلِمةِ العَربيَّةِ، لِاستِيعابِ المفرَدَاتِ وَالمُصطَلَحَاتِ الجَدِيدَةِ.». ص: (١٢).

أقولُ: إنَّ الوَاقِفَ على المقدِّمَةِ الَّتِي مَرَّتْ معنَا فِي أسبابِ تَرَأُّسِ اللُّغَةِ وَتَصَدُّرِهَا، يَعرِفُ – لا مَحالَةَ - مَدَى قَسَاوَةِ هذَينِ السَّبَبَينِ اللَّذَينِ اختَلَقَهُمَا صَاحبُ الجِنَايَةِ، فَالسَّببُ الأوَّلُ يتبَيَّنُ لَنَا نَقضُهُ وَنَفْضُهُ خِلالَ أبْحَاثِ الكِتَابِ المُتفرِّقَةِ، وَنَقِفُ عَلَى عبقَرِيَّةِ عِلمِ النَّحوِ إِنْ شَاءَ المَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ.

أمَّا السَّبَبُ الثَّانِي فَهُوَ أيضًا سببٌ سَمْجٌ يضحَكُ منهُ العُقلاءُ؛ لأنَّ العربيَّةَ مِنْ أهمِّ مميزَاتِهَا التَّوسُّعُ فِي الألفَاظِ والكَلِمَاتِ وَسَعتُهَا مِنْهَا، وَذلِكَ راجعٌ إِلَى أُمُورٍ مُهمَّةٍ:

الأَوَّلُ: سَعَةُ الكَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ وَمُفرَدَاتِهَا، وَهذَا يأتِي مَعَنَا فِي بَحْثِ خَصَائِصِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى.

الثَّانِي: الِاشْتِقَاقُ الَّذِي تَتَمَتَّعُ بِهِ العربيَّةُ مِنْ تَصرِيفِ الكَلِمَاتِ، وَتولُّدِ بعضِهَا مِنْ بعضٍ بواسِطَتِهِ، وَهذَا أيضًا سيَأتِي بَحْثُهُ بِإِذْنِ المَوْلَى.

الثَّالِثُ: قَوَاعِدُ عِلْمِ الصَّرْفِ العَبْقَرِيَّةُ فِي تَسمِيَةِ الأشياءِ الحَادِثَةِ كَأسمَاءِ الآلَاتِ، وكَذَا فُصُولُ اسمِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَالنِّسبَةِ، وَالمَصْدَرِ الصِّناعِيِّ، وَالقَلْبِ المَكَانِيِّ،

وَغيرِهَا مِنْ أبَوابِ الصَّرْفِ المُهِمَّةِ، فَالمُتَطَلِّعُ المُنصِفُ على كُتُبِ التَّصريفِ يُقِرُّ بهذَا دونَ أيِّ جُحُودٍ، وَلَا إِنْكَارٍ.

الرَّابِعُ: وجُودُ التَّعرِيبِ فِي العَربيَّةِ، حيثُ تَرَى كَلِمَاتٍ مُعَرَّبَةً مِنَ اليُونانِيَّةِ وَالفَارِسيَّةِ وَالنّبطِيَّةِ وَالقِبطِيَّةِ وَالحَبَشِيَّةِ وَالرُّومِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَتْ بَعْضٌ مِنْ هذِهِ المُعَرَّبَاتِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ أيضًا، فَهذَا التَّعرِيبُ جَعلَهَا تَحتَوِي عَلَى كَلِمَاتٍ أُخرَى مَعَ الحِفَاظِ عَلَى هَيْكَلِ اللُّغَةِ مِنَ الهَدْمِ وَالِانكِسَارِ، وَهذَا مِنْ مَظَاهِرِ المُرونَةِ وَالِاتِّسَاعِ مَعَ الحِفاظِ عَلَى الأَصَالَةِ.

الخَامِسُ: القِياسُ فِي اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ مِنْ أهمِّ أدواتِ المُرُونةِ وَالِاتِّسَاعِ فِي الكَلِمَاتِ وَالجُمَلِ فِي هذِهِ اللُّغَةِ، وَقَدْ ضبطَ عُلماءُ العَربيَّةِ القِيَاسَ بِضَوابِطَ، وَقَنَّنُوا لَهُ قَوانِينَ قَوِيَّةً رَصِينةً، بحيثُ سهَّلَتْ عَلَى مُمَارِسِي العربيَّةِ وَمُؤَدِّيْهَا كَيفيةَ القِياسِ لِغَيرِ المَعلُومِ على المَعلُومِ، وَحَمْلِ الأَوَّلِ عَلَى الثَّانِي بِجامِعٍ بينَهُمَا.

السَّادِسُ: مِنْ أهمِّ وَسَائِلِ العَربيَّةِ هُوَ وجُودُ (النَّحتِ)، لِاختِصَارِ الجُمَلِ وَالكَلِمَاتِ، سواءٌ كَانَتْ كَلِماتٍ عربيَّةً أصِيلَةً، أَمْ: كانتْ نَقْلًا مِنَ اللُّغَاتِ الأُخرَى، وَهذا أيضًا أعطَى العربيَّةَ مُرونةً وَاتِّساعًا، وَقدْ يأتِي الكَلامُ عليهِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

فَهذِهِ النِّقَاطُ تُبيِّنُ جُرْمَ المُهندسِ وَجَوْرَهُ فِي حَقِّ العَرَبيَّةِ، وَقَدْ يأتِي مَعَنَا فِي خَصَائِصِ العَرَبِيَّةِ وَمُمَيِّزَاتِهَا بيانُ هذَا أَكثرَ فَأَكْثرَ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

[مِنَ المُتَقَارِبِ]

زِمَامُ أُصُولِ جَمِيعِ الفَضَائِـ ـلِ عَدْلٌ وَفَهْمٌ وَجُودٌ وَبَاسْ
فَمَنْ هذِهِ رُكِّبَتْ غَيرُهَا فَمَنْ حَازَهَا فَهُوَ فِي النَّاسِ رَاسْ
كَذَا الرَّاسُ فِيْهِ الأُمُورُ الَّتِي بِإِحْسَاسِهَا يُكْشَفُ الِالتِبَاسْ

مَا حَظُّ سيبويه عِنْدَ صَاحِب (الجنَايَة)؟!

ثُمَّ بعدَ ذلكَ يَسْتَمِرُّ الكَاتِبُ وَيُقَلِّدُ كَلِمَاتِهِ السَّابِقَةَ قَلَائِدَ الخِزْيِ وَالعَارِ-فَتَغمسُهُ فِي بِحَارِ جَرَائِمَ لَا يَمْحُوهَا تَتَابُعُ الزَّمَانِ، وَلَا تَعَاقُبُ الحَدَثَانِ- وَيَفُوقُ كُلَّ مَعَانِي الجِنَايَةِ وَيَقُولُ: «وقدْ قُمتُ بنقْدِ علمِ النَّحوِ مُعتَمِدًا على تَصنيفِ النُّحَاةِ نَفْسِهِ، فَبَحثتُ فِي أنواعِ الكَلِمَةِ: الاِسْمِ، الفِعْلِ، الحَرفِ .. وَأظهَرتُ غِيابَ المُحاكَمَةِ السَّليمَةِ فِي قَوَاعِدِ النَّحوِ العربيِّ، بأسلُوبٍ يختَلِفُ عَنْ أسلُوبِ القُدَمَاءِ وَتراكِيبِهم وَمُصطَلَحَاتِهم بَعْدَ تَوخِّي الإِيجَازِ وَالتَّبسيطِ ... أخيرًا، فَإِنَّ هذَا الكِتابَ يُمكِنُ أنْ يَكُونَ كِتابًا نَقدِيًّا وَتعليمِيًّا بآنٍ وَاحِدٍ.». ص:(١١-١٢).

أقُولُ: إنَّنِي تَعجَّبتُ مِنْ عُنوانِ الكِتابِ (جِنايَةِ سِيبَوَيْهِ)، لَمَّا رأيتُهُ فِي المَرَّةِ الأُوْلَى وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يَا لَيْتَنِي عَلِمتُ سَبَبَ وصفِ عَمَلِ سِيبَوَيْهِ بالجِنَايَةِ؟! وَهَلْ فِي تتبُّعِ كَلامِ العَرَبِ مِنَ العَربِ الأَقحَاحِ أَنْفُسِهِم، وَالإقبالِ عَلَى أئمَّةِ اللِّسانِ كَالخَليلِ بنِ أحمدَ الفَرَاهِيدِيِّ وَغيْرِهِ جُرْمٌ وَجنايَةٌ ارتكَبَهُمَا سِيبَوَيْهِ، حتَّى يُشْتَقَّ لَهُ مِنَ الجنايَةِ اسمٌ وَيُلتَصَقَ بِهِ؟!

ثُمَّ بعدَ قِرَاءَتِي لِكِتَابِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ زَادَ تعجُّبِي وَبَلَغَ القِمَّةَ (لَكِنْ إِذَا ظَهَرَ السَّبَبِ، بَطَلَ العَجَب)؛ لأَنَّنِي قرأتُ الكِتَابَ كَامِلًا وَلَم أَرَ كَلامًا مَنصُوصًا لِسِيبَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخرِهِ، فَقُلْتُ: يَاربِّ كيفَ يُتَّهَمُ رَجلٌ بالجِنَايَةِ معَ الجَهلِ التَّامِّ بآثَارِهِ ونِتاجِهِ العِلْمِيِّ؟

فلوْ كانَ صاحِبُ الجِنايَةِ صادِقًا فِي هذِهِ المُحاكَمَةِ السَّليمَةِ الَّتِي يدَّعِيها بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى، لَنَقَلَ لِقُرَّائِهِ مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِ سِيبَوَيهِ، وَلَم يَتْرُكْهُ كُلًّا، وَلكِنَّنِي مُتيقِّنٌ أنَّ الرَّجُلَ ليسَ أهلًا لِيَفْهَمَ كَلامَ سيبَوَيْهِ بِلُكنَتِهِ المُستَهجَنَةِ وَعُجمَتِهِ المعرُوفَةِ، فَكيفَ بأنْ يُحاكِمَهُ وَيَرُدَّ عليهِ، فلَيتَهُ نَقَلَ لَنا رَدًّا عَلَى كلامٍ وَاحِدٍ لِسيبَوَيْهِ حتَّى نُحسِنَ بهِ الظَّنَّ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ شَيْخِنَا أبِي الفَضْلِ عُمَرَ الحَدُّوشِيِّ: (الخَطَأُ فِي حُسْنِ الظَّنِّ لَا يَضُرُّ، أَمَّا الخَطَأُ فِي سُوْءِ الظَّنِّ فَيَضُرُّ).

فَكُلُّ مَا فَعَلَهُ صَاحِبُ الكِتَابِ أنَّهُ اعتَمَدَ عَلَى بَعضِ الكُتُبِ المُعاصِرَةِ الِابتِدَائيَّةِ وَاستَخْرَجَ منهَا أمثِلَةً نَحويَّةً وَغَالطَ فِي حَقِّهَا، كَمَا سَيأتِي مَعَنَا بإذنِ اللهِ تَعالَى فَرْدًا فَرْدًا، وَنُتْبِعُهُ نَقْدًا نَقْدًا، ولكنْ وللأسَفِ الشَّدِيدِ أنَّنَا بُلِينَا بإعلامٍ إبلِيسِيٍّ مَاكِرٍ يَقُودُهُ أمثَالُ أبِي رِغَالٍ، بَلْ: أبُو رِغَالٍ أشرفُ مِنْ بعضِهِم وَأعزُّ؛ لأنَّهُم فَاقُوا كُلَّ نُعوتِ الخِيَانَةِ وَالعمالَةِ وَالتَّآمُرِ وَالنَّزَالَةِ، حيثُ يُروِّجُونَ لأمثَالِ هذَا الكِتابِ وَيُضَخِّمُونَهُ فِي عُيونِ النّاسِ، مَعَ أنَّهُ فِي غَايَةٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالجَهْلِ وَالفُسُولَةِ وَالرَّكَاكَةِ، بَلْ: هُوَ آيَةٌ فِي البَلَادَةِ، وَكَأَنَّهُ كُتِبَ بِلُغَةِ الفَحْمِ، مَغْسُولٌ مِنَ البَلاغَةِ. كَمَا سَتَقِفُونَ عَلَيْهِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

أمَّا وَصفُهُ لِكِتَابِهِ بأنَّهُ كِتابٌ نقدِيٌّ وَتعلِيمِيٌّ مَعًا، فليسَ لِي كَلامٌ عليهِ وَأترُكُ التَّقيِيمَ لكُم بعْدَ مُناقَشَةِ مَا أتَى بِهِ وَسوَّدَ بِهِ كِتابَهُ.

هَلْ قَوَاعِدُ النَّحو مُقدَسةٌ؟

أوَّلُ كلامٍ قالَهُ صاحبُ الكِتابِ بعدَ المُقدِّمَةِ هُوَ قَوْلُهُ: «لَا أعلَمُ لماذَا كنتُ أتردَّدُ فِي نقدِ النَّحْوِ العَربيِّ وَيَنْتَابُنِي الخَوفُ أحيَانًا، أَلِأنَّ السَّادَةَ العُلماءَ الأفاضِلَ وَمَنْ بعدَهُمُ النُّحاةُ قدْ رَبَطُوهُ بالقُرآنِ الكَريمِ؟ فَجَعَلُوهُ كَالقُرآنِ الكَريمِ لَا يَحِقُّ لأحَدٍ نقْدُهُ، أوْ: مُعارَضَتُهُ». ص: (١٣).

أقُولُ: هذَا الخَوْفُ الَّذِي يتكَلَّمُ عنهُ جَنابُ المهندِسِ ليسَ سِوَى وَهمٍ وَخيالٍ فِي ذِهْنِهِ وَذَاكِرَتِهِ، لَيسَ ثمَّةَ مَا يُصدِّقُهُ فِي الوَاقِعِ، بَلِ: الوَاقِعُ يُكَذِّبُهُ؛ لأنَّنَا نَرَى بَعضًا مِنَ العُلَمَاءِ قدْ أنكَرُوا قَوَاعِدَ نحوِيَّةً قبلَ ولادَةِ آبَاءِ المهندِسِ زَكَرِيَّا أوزونَ، دونَ أيِّ خَوْفٍ، أو: قَلَقٍ مِنْ ردِّهَا وَإنكَارِهَا، وَلَم يُسِئْ أحدٌ إليهِم وَرَأَوا جُهُودَ النُّحَاةِ اجتِهَادًا مِنهُم يَقبَلُ المُرَاجعَةَ وَيَبْقَى فِي دائِرَةِ الحِوارِ وَالنِّقَاشِ، وَيُحْمَدُونَ عَلَى تِلْكَ الجُهُودِ وَيُقَرُّ لَهُم بِالفَضْلِ، وَلَا يَرَوْنَهُم مَعصُومِينَ مِنَ الخَطَإِ وَالزَّلَلِ.

فَظَاهِرَةُ الرُّدُودِ فِي النَّحوِ وَمُحاوَلَاتُ التَّجدِيدِ وَالنَّقدِ فِي القَدِيمِ والحَدِيثِ لَا تَخْفَى عَلَى أيِّ بَاحِثٍ فِي تَاريخِ التَّدوينِ وَنشأةِ المدَارِسِ فِي عِلْمِ النَّحوِ، وَالأَمثِلَةُ عَلَى ذلِكَ كَثِيرَةٌ وَلكِنَّنِي هُنا أكتَفِي بأبْرَزِ مِثالٍ، وَهو مَا قَامَ بِهِ ابنُ مَضاءِ اللَّخمِيُّ وَدَعَا إليهِ فِي كِتابِهِ: (الرَّدِّ عَلَى النُّحَاةِ)، حيثُ رَفضَ جُملَةً مِنْ مَبَاحِثِ عِلْمِ النَّحوِ وردَّ عليهَا وَشَنَّعَ عَلَى القَائِلِينَ بِهَا، وَبِهذَا المِثَالِ وَحْدَهُ يَنْصَبُّ دَقِيقُ المُهندِسِ عَلَى الأَشْوَاكِ.

فَإليكَ شَيئًا مِنْ كَلَامِ ابْنِ مَضاءٍ فِي التَّشنِيعِ عَلَى النُّحَاةِ لِقَوْلِهِم بِعَمَلِ العَامِلِ النَّحْوِيِّ وَتَرْكِ الأَثَرِ وَرَاءَهُ، حَيثُ أَتَى بِقَوْلٍ عَجِيبٍ تَحتَ فَصْلٍ سَمَّاهُ: (فَصْلٌ عَنْ

إِلغَاءِ العَوَامِلِ) فَقَالَ: «قَصْدِي فِي هَذَا الكِتَابِ أَنْ أَحْذِفَ مِنَ النَّحْوِ مَا يَسْتَغْنِي النَّحْوِيُّ عَنْهُ، وَأُنَبِّهَ عَلَى مَا أَجْمَعُوا عَلَى الخَطَأِ فِيهِ»(١).

وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَسْطُرٍ فِي كِتَابِهِ يَذْكُرُ قَوْلَ الإِمَامِ العَلَمِ سِيبَوَيْهِ عَنِ العَوَامِلِ، وَهُوَ: «وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ لَكَ ثَمَانِيَةَ مَجَارٍ لأُفَرِّقَ بَيْنَ مَا يَدْخُلُهُ (ضَرْبٌ) مِنْ هذِهِ الأَرْبَعَةِ لِمَا يُحْدِثُ فِيهِ العَامِلُ - وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا إِلاَّ وَهُوَ يَزُوْلُ عَنْهُ - وَبَيْنَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ الحَرْفُ بِنَاءً لا يَزُوْلُ عَنْهُ لِغَيْرِ شَيْءٍ أَحْدَثَ ذَلِكَ فِيْهِ مِنَ العَوَامِلِ»(٢).

وَبِكُلِّ جُرْءَةٍ يُعَلِّقُ عَلَى قَوْلِ الإِمَامِ قَائِلاً: «فَظَاهِرُ هذَا أَنَّ العَامِلَ أَحْدَثَ الإِعْرَابَ، وَذَلِكَ بَيِّنُ الفَسَادِ»(٣).

ثُمَّ يَنْقُلُ قَوْلَ ابْنِ جِنِّي -رَحِمَهُ اللهُ- فِي مَعْرِضِ ذَلِكَ، وَهُوَ: «وَأَمَّا فِي الحَقِيْقَةِ وَمَحْصُوْلِ الحَدِيْثِ، فَالعَمَلُ مِنَ النَّصْبِ وَالرَّفْعِ وَالجَرِّ وَالجَزْمِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْمُتَكَلِّمِ نَفْسِهِ لا لِشَيْءٍ غَيْرِهِ»(٤).

وَيُعَلِّقُ عَلَى كَلاَمِ ابْنِ جِنِّي بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا قَوْلُ المُعْتَزِلَةِ، وَأَمَّا مَذْهَبُ أَهْلِ الحَقِّ، فَإِنَّ هَذِهِ الأَصْوَاتَ إِنَّمَا هِيَ مِنْ فِعْلِ اللهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا تُنْسَبُ إِلَى الإِنْسَانِ كَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ سَائِرُ أَفْعَالِهِ الاخْتِيَارِيَّةِ»(٥).

---

(١) الرَّدُّ عَلَى النُّحَاةِ لابنِ مَضَاءٍ، (ص:٦٩)، ت: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، الطَّبعةُ الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ١٣).

(٣) الرَّدُّ عَلَى النُّحَاةِ، (ص:٦٩)

(٤) الخَصَائِصُ لابن جِنِّيّ (١/ ١١٠)

(٥) الرَّدُّ عَلَى النُّحَاةِ، (ص:٦٩-٧٠)

ثُمَّ بَعْدَ نَقْلِهِ القَوْلَيْنِ السَّابِقَيْنِ يَأْتِي بِمَا يُرِيدُهُ مِنَ الكَلام وَيَضَعُهُ مِنَ القَوَاعِدِ فِي إِبْطَالِ القَوْلِ بِالعَامِلِ فَيَقُولُ: «فَإِنْ قِيلَ: بِمَ يُرَدُّ عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَعَانِي هذِهِ الأَلْفَاظِ هِيَ العَامِلَةُ؟ قِيلَ: الفَاعِلُ عِنْدَ القَائِلِيْنَ بِهِ إِمَّا أَنْ يَفْعَلَ بِإِرَادَةٍ كَالحَيَوَانِ، وَإِمَّا أَنْ يَفْعَلَ بِالطَّبع كَمَا تُحَرِّقُ النَّارُ وَيُبَرِّدُ المَاءُ، وَلا فَاعِلَ إِلاَّ اللهُ عِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ، وَفِعْلُ الإِنْسَانِ وَسَائِرِ الحَيَوَانِ فِعْلُ اللهِ تَعَالَى، كَذِلِكَ المَاءُ وَالنَّارُ وَسَائِرُ مَا يَفْعَلُ، وَقَدْ تَبَيَّنَ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ. وَأَمَّا العَوَامِلُ النَّحْوِيَةُ فَلَمْ يَقُلْ بِعَمَلِهَا عَاقِلٌ، لا أَلْفَاظِهَا وَلا مَعَانِيْهَا؛ لأَنَّهَا لا تَفْعَلُ بِإِرَادَةٍ وَلا بِطَبْعٍ»[1].

سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ يَسْهُلُ عَلَيْهِ القَوْلُ بِأَنَّ العَوَامِلَ النَّحْوِيَةَ لَمْ يَقُلْ بِعَمَلِهَا عَاقِلٌ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ العُلَمَاءِ عَلَى القَوْلِ بِهَا، بَلْ: كَادَ أَنْ يَكُونَ أَمْراً مُجْمَعًا عَلَيْهِ بَيْنَهُم؟

وَإِنَّمَا تَفَوَّهَ ابنُ مَضَاءٍ -عَلَيْهِ سَحَائِبُ الرَّحْمَةِ- بِذَلِكَ بِنَاءً عَلَى تَعَصُّبِهِ لِلمَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ القَائِلِ بِنَفِي الطَّبْعِ والعِلَّةِ فِي الأَشْيَاءِ.

فَالبَاعِثُ عَلَى هذَا الرَّدِّ كَانَ بَاعِثًا اعتِقَادِيًّا أَدَّى بِهِ إِلَى رَفْضِ العَوَامِلِ النَّحوِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ باعِثًا لُغَوِيًّا، وَمَعَ كونِ كَلامِهِ خطَأً بيِّنًا لَم يُسِئ إِلَيْهِ العُلَمَاءُ وَلم يُخَاطِبْهُ واحِدٌ منهُم: كيفَ تردُّ العَوامِلَ النَّحويَّةَ مَعَ كونِهَا مُقرَّرةً عندَ أهلِ اللُّغَةِ، وَقالَ بِعَمَلِ العَامِلِ أسَاطِينُهَا.

فَإِنْ دلَّ هذا عَلَى شيءٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ كَلامِ المهندِسِ بِأَنَّ النَّحْوَ كَانَ عِنْدَ العُلَمَاءِ كَالقُرآنِ لَمْ يُمْكِنْ وَلَا يُمكِنُ رَدُّ شيءٍ مِنهُ.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يُمَانِعُ ضَوْءَ الفَجْرِ وَالفَجْرُ صَادِعٌ ... كَمَا عَارَضَ البُرهَانَ قَوْلٌ مُلَفَّقُ

---

(١) الرَّدُّ عَلَى النُّحَاةِ، (ص:٧٠)

وَبالتَّالِي فَإِنَّ هُنَاكَ أمرًا مُهِمًّا يجبُ التَّنَبُّهُ لهُ، وَهُوَ أنَّ جنابَ المهندِسِ يَستَخْدِمُ ألفَاظَ التَّبجيلِ وَالِاحتِرَامِ مَعَ عُلَمَائِنَا فِي كُتُبِهِ، وَلكِنَّهُ أسْمَى كُتُبَهُ الثَّلاثَةَ جِنَايَةً وَنَعَتَ بِهَا الأَئِمَّةَ الثَّلاثَةَ، وَقَدْ مرَّ مَعَنَا نَقلُ كَلَامِهِ فِي الِازدِرَاءِ بِعُلَمَاءِ المُسلِمينَ بَدْءًا بالصَّحْبِ الكِرَامِ وَمَنْ بَعدَهُم، وَانتِهَاءً بِعُلَمَاءِ عَصرِنَا، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي رَدِّنَا عَلَى جِنَايَتَيْهِ الأُخْرَيَيْنِ لِمَنْ أرادَ الوقُوفَ عليهِ، نسألُ اللهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُ الهِدَايَةَ وَحُسْنَ الخِتَامِ.

هَل العُلَمَاءُ رَأَوا سِيبْويه وَكِتَابَهُ مَعصُومِين مُقَدَّسِيْن؟

إنَّ المُهَنْدِسَ صَوَّرَ فِي هذَا الكِتَابِ وَفِي أَوَائِلِ كِتَابِهِ (جِنَايَةِ الشَّافِعِيِّ) أيضًا أنَّ المُسلِمينَ رَأَوا سِيبَوَيْهِ مَعصُومًا، وَلَم يُنَاقِشُوهُ فِي شَيءٍ وَأَهمَلُوا العَقْلَ وَالمَنْطِقَ فِي مُنَاقَشَتِهِ، مُذعِنينَ لَهُ وَلآرَائِهِ دونَ أيِّ تَفكُّرٍ فِيهَا، وَلكِنَّ البَاحِثَ المُنصِفَ فِي تَارِيخ هذَا العِلْمِ وَالتَّدوينِ فِيهِ وَتَرَاجِمِ عُلَمَائِهِ، يَرَى خِلافَ مَا بَثَّهُ المُهنْدِسُ وَلَفَّقَهُ، وَيَسْتَيقِنُ أَنَّهُ مُجحِفٌ مُعْتَدٍ فِي حَقِّهِ وَفِي حَقِّ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّهُ فِي الوَهْلَةِ الأُوْلَى مِنَ البَحْثِ يَقِفُ عَلَى كِتَابٍ مُستَقِلٍّ لِلمُبَرِّدِ يَرُدُّ بِهِ عَلَى سِيبَوَيْهِ وَيَنقُدُهُ فِي مَسَائِلَ وَيُخَالِفُهُ فِيهَا، كَمَا ذكَرَهُ القَاضِي التّنوخِيُّ قَائِلًا: «وَلَهُ كِتَابٌ صَغِيرٌ يَرُدُّ عَلَى سِيبَوَيْهِ، نَحْوَ أَرْبَعْمِائَةِ مَسْأَلَةٍ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: رَجَعَ عَنْ أَكْثَرِهَا إِلَى قَوْلِ سِيبَوَيْهِ. قَالَ: وَفِيهَا مَا يُلْزِمُ سِيبَوَيْهِ عَلَى مَذْهَبِهِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ مَسْأَلَةً.

وَالَّذِي أَعْتَقِدُ فِي ذَلِكَ أَنَّ سِيبَوَيْهِ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ شَيْءٌ مِمَّا ذُكِرَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَرْوِي عَنِ الْعَرَبِ»[(١)].

وَقَدْ مَرَّرَ العُلَمَاءُ رَدَّ المُبَرِّدِ وَرَأَوهُ شَيئًا عَادِيًّا، وَلَم يُسِئْ إِلَيْهِ أَحَدٌ بالقَوْلِ أَوِ الفِعْلِ؛ لأَنَّ سِيبْوَيْهِ كَغَيرِهِ بَشَرٌ يُمكِنُ وقُوعُ الخَطَإِ مِنهُ، وَهذَا مَعَ أَنَّ الحَقَّ كَانَ مَعَ سِيبَوَيْهِ وَرَجَعَ المُبَرِّدُ نَفْسُهُ عَنْ أَكْثَرِ اعتِرَاضَاتِهِ إِلَى قَوْلِ سِيبَوَيْهِ فِيمَا بَعْدُ.

---

(١) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ مِنَ البَصْرِيِّينَ والكُوفيِّينَ وَغيرِهِم للتّنوخِيِّ (ص٥٩).

وَلَم يَكْتَفِ بِهـذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ الـمُقْتَضَبِ أيضًا فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: عِنْدَ الكَلَامِ عَنْ (أَنِ) الـمُخَفَّفَةِ مِنَ الثَّقِيلَةِ، حَيثُ نَقَلَ كَلَامَ سِيْبَوَيْهِ وَانتَقَدَهُ، فَقَالَ: «زَعَمَ سِيْبَوَيْهِ أَنَّهُ يَجُوزُ: (خِفْتُ أَنْ لَا تَقُومَ يَا فَتَى)، إِذَا خَافَ شَيْئًا كَالـمُسْتَقِرِّ عِنْدَهُ، وَهَذَا بَعِيدٌ»[١].

وَكَذَا الإِمَامُ ابنُ فَارِسٍ رَدَّ عَلَي سِيْبَوَيْهِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ (الصَّاحِبِي)[٢] وَرَاجَعَهُ فِي بَعْضِ حُدُودِهِ وَتَعْرِيفَاتِهِ وَاعتَرَضَ عليهَا، وَلَمْ يُغْلِظْ أَحَدٌ القَوْلَ فِي حَقِّهِ، بَلْ: رَأَوا اعتِرَاضَاتِهِ جُهْدًا مَشْكُورًا.

وَكَذَا مَا دَارَ بينَ ابنِ تَيمِيَةَ وَأَبِي حَيَّانَ حَوْلَ سِيْبَوَيْهِ نِقَاشٌ مَشْهُورٌ وَمَعْرُوفٌ، حيثُ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ: إِنَّ سِيْبَوَيْهِ أَخطَأَ فِي الكِتَابِ فِي ثَمَانِينَ مَوْضِعًا.

وَقَدْ ذَكَرَ الأَئِمَّةُ قِصَّةَ ذلِكَ، يُمكِنُ الرُّجُوعُ إليهَا[٣].

وَمِنَ الَّذِينَ رَدّوا عَلَى سِيبَوَيْهِ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ:

أَبُو إِسْحَاق إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ الزِّيَادِيُّ، تَلْمِيذُ سِيْبَوَيْهِ[٤].

---

(١) الـمُقْتَضَبُ للمُبَرِّدِ (٣/ ٨)، وَقَدْ يأتِي مَعَنَا بيَانُ هذِهِ الـمَسأَلَةِ عِنْدَ الكَلامِ عَلَى (أَنْ) الـمُخَفَّفَةِ وَاعتِرَاضِ أوزونَ عليهَا.

(٢) رَدَّ عَلَيْهِ فِي مَبَاحِث وَأَوْرَدَ عَلَى حُدُودِهِ إِيرَادَاتٍ وَأَلْزَمَهُ بِإلْزَامَاتٍ، مِنْهَا تَعْرِيفُهُ لِلاسْمِ (ص٤٨)، وَتَعرِفُهُ للفِعْلِ (ص٥٠).

(٣) الرَّدُّ الوَافِرُ لِابنِ نَاصِرِ الدِّينِ (ص٦٤)، وَالدُّرَرُ الكَامِنَةُ لِابنِ حَجَرٍ (١/ ١٧٨)، والشَّهَادَةُ الزَّكِيَّةُ لِمَرْعِي الحَنبَلِيِّ (ص٣٢)، وَالبَدْرُ الطَّالِعُ للشَّوْكَانِيِّ (١/ ٧٠)، وَقَدْ ذَكَرْتُ تَفْصِيلَ ذلِكَ وَحَقِيقَةَ كَلامِ ابنِ تَيمِيَةَ وَمُرادَهُ فِي كِتَابِي: (رَفْعِ الشَّجْوِ عَنِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ).

(٤) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ مِنَ البَصْرِيّينَ والكُوفيِّينَ للتّنوخِيِّ (ص٧٩)، ونزهَةُ الألباءِ فِي =

- أَبُو عُثْمَانَ الـمَازِنِيُّ[١].

- الكِسَائِيُّ[٢].

- الفَرَّاءُ[٣].

- أَبُو العَلَاءِ المَعرِّيُّ[٤].

- أَبُو بَكرٍ ابنُ السَّرَّاجِ البَغْدَادِيُّ[٥].

- الأَصْمَعِيُّ[٦].

- أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ[٧]. وَلكِنَّ ابنَ الضَّائِعِ رَدَّ عَلَى اعتِرَاضَاتِهِ[٨].

= طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص١٥٧)، شَرْحُ كِتَابِ سِيبَـوَيْهِ للسّيرَافِيِّ (١/ ٣٩٠).

(١) تَاريخُ دِمَشْقَ لِابنِ عَسَاكِرَ (٧٤/ ١٥٥)، وَالجَلِيْسُ الصَّالِحُ الكَافِي وَالأَنِيْسُ النَّاصِحُ الشَّافِي لِلمُعَافَى بْنِ زَكَرِيَّا (ص٤١٠).

(٢) تـاريخُ العُلَمَـاءِ النَّحـوِيِّينَ مِـنَ البَصْـرِيِّينَ والكُـوفيِّينَ للتّنـوخِيِّ (ص١٠٢)، وَتَـاريخُ بَغْـدَادَ للخَطِيبِ البَغدَادِيِّ (١٣/ ٥٨٩)، وَفَيَاتُ الأَعيانِ (٣/ ٢٩٦).

(٣) تـاريخُ العُلَمَـاءِ النَّحـوِيِّينَ مِـنَ البَصْـرِيِّينَ والكُـوفيِّينَ للتّنـوخِيِّ (ص١٠٢)، وَتَـاريخُ بَغْـدَادَ للخَطِيبِ البَغدَادِيِّ (١٣/ ٥٨٩)، الوَافِي بالوَفَيَاتِ للصَّفَدِيِّ (١٩/ ٢٠٩).

(٤) رِسَالَةُ الغُفْرَانِ للمعرِّيِّ (ص٣٥).

(٥) معجَمُ الأدباءِ (٦/ ٢٥٣٥)

(٦) تَاريخُ بَغْدَادَ للخَطِيبِ البَغدَادِيِّ (١٢/ ١٥٧)، وَتَـاريخُ دِمَشْـقَ لِابـنِ عَسَـاكِرَ (٣٧/ ٧٠)، سيرُ أعلامِ النُّبلاءِ (١٠/ ١٨٠).

(٧) بُغيَةُ الوعَاةِ للسُّيوطِيِّ (٢/ ٢٠٤).

(٨) بُغيَةُ الوعَاةِ للسُّيوطِيِّ (٢/ ٢٠٤).

- عَلِيُّ بنُ الـمُبَارِكِ، أَبُو الحَسَنِ الأَحْمَرُ[١].

- أَبُو البَقَاءِ العُكبَرِيُّ، أخذَ عَلَى سِيبَوَيْهِ فِي مَوَاضِعَ[٢].

- ابنُ هِشَامٍ الأَنْصَارِيُّ، فَهُو أَيضًا مَعَ حُبِّهِ الشَّدِيدِ لِسِيبَوَيْهِ، يَرُدُّ عَلَيهِ فِي أَمَاكِنَ مِنْ كُتُبِهِ، وَلَا يَقُولُ بِقَوْلِهِ[٣].

محمَّدُ بنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الأَكْبَرِ المُبَرِّدُ: كَمَا مَرَّ وَذَكَرْنَاهُ فِي أَوَّلِ الكَلامِ أَلَّفَ كِتَابًا مُستَقِلًّا باسْمِ (الرَّدِّ عَلَى سِيبَوَيْهِ)[٤]، حَتَّى وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى أَنْ يُصَنِّفَ الرُّمَّانِيُّ فِي ذلِكَ كِتَابًا وَأَسْمَاهُ: (كِتَابَ الخِلافِ بَيْنَ سِيْبَوَيْهِ وَالـمُبَرِّدِ)[٥]. وَلِابْنِ ولَّادٍ كِتَابُ الِانْتِصَارِ، رَدَّ فِيْهِ عَلَى المبرِّدِ[٦]. وَالصَّحِيحُ أَنَّ الـمُبَرِّدَ رَجَعَ عَنِ أَكْثَرِ انتِقَادَاتِهِ كَمَا حَكَى عَنْهُ ابنُ جِنِّيْ فِي خَصَائِصِهِ بِسَنَدِهِ فَقَالَ: «وَمِنَ الشَّائِعِ فِي الرُّجُوعِ عَنْهُ مِنَ المذَاهِبِ مَا كَانَ أَبُو العَبَّاسِ تَتبَّعَ بِهِ كَلَامَ سِيْبَوَيْهِ وَسَمَّاهُ: (مَسَائِلَ الغَلَطِ). فَحَدَّثَنِي أَبُو عَلِيٍّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ أَبَا العَبَّاسِ كَانَ يَعْتَذِرُ مِنْهُ وَيقُولُ: هذَا شَيْءٌ كُنَّا رَأَيْنَاهُ فِي أَيَّامِ الحدَاثَةِ، فَأَمَّا الآنَ فَلَا»[٧].

---

(١) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ للتّنوخِيِّ (ص١٠٢)، وَتَارِيخُ بَغْدَادَ للخَطِيبِ البَغدَادِيِّ (١٣/ ٥٨٩)، إِنبَاهُ الرُّواةِ (٤/ ١١٠).

(٢) تَارِيخُ إربلَ، لِابنِ المستَوفِي (٢/ ٤٢٠).

(٣) عَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ انظُرْ: مُغْنِي اللَّبِيب (ص٥٦٨)، فِي مَوْضُوعِ التَعَلُّقِ بِمَا يُشْبِهُ الفِعْلَ..

(٤) معجَمُ الأدباءِ (٦/ ٢٦٨٤)، وَإِنبَاهُ الرُّوَاةِ (٣/ ٢٥١).

(٥) إِنبَاهُ الرُّوَاةِ (٢/ ٢٩٥).

(٦) البُلْغَة فِي تَرَاجِمِ أَئِمَّةِ النَّحوِ وَاللُّغَة للفيرُوز آبَادِي (ص٢٢٣). وَقَدْ ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ بِاسمِ: (انتِصَارِ سِيْبَوَيْهِ عَلَى الـمُبَرِّدِ)، يُنظَرُ: بُغيَةُ الوعَاةِ للسُّيوطِيِّ (١/ ٣٨٦).

(٧) الخَصَائِصُ لِابنِ جِنِّي (١/ ٢٠٧).

فَهذِهِ الرُّدُودُ نَاقَشَهَا كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي مَوَاضِعَ مُتَفَرِّقَةٍ، كَأَبِي حَيَّانَ وَالرَّضِيِّ[١]، وَغيرِهِمَا وَلَا سيَّمَا شُرَّاحُ الكِتَابِ، وَنَاصَرُوا سِيبَوَيْهِ لِقُوَّةِ حُجَّتِهِ لَا لِتَعصُّبٍ لَهُ، وَلكِنَّ الشَّاهِدَ هُنَا: أنَّ عُلَمَاءَ اللُّغَةِ لَم يَكُونُوا مُقلِّدينَ لِسِيبَوَيْهِ دونَ النَّظَرِ فِي حُجَّتِهِ وَالتَّفكُّرِ فِيهَا، وَمَا دَافعُوا عنهُ وَلَا نَاصَرُوهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا ذَهَبَ إِليهِ وَجَعَلَهُ لِنَفْسِهِ مَذْهبًا، وَمِنْ هُنَا أُنْهِي مَا شَرَعْتُ فِيْهِ بِكَلامٍ للخفَاجِيِّ فِي هذَا الـمَعْنَى حَيثُ يَرُدُّ عَلَى سِيبَوَيْهِ وَغَيْرِهِ مِنَ النُّحَاةِ وَيُعارِضُهُم وَيُخَطِّئُهُم فِي تَعْرِيفِ الكَلَامِ، وَيَقُولُ: «حَدُّهُ: مَا انْتَظَمَ مِنْ حَرْفَيْنِ فَصَاعِدًا مِنَ الحُرُوفِ الـمَعقُولَةِ، إِذَا وَقعَ مِمَّنْ تَصِحُّ مِنْهُ، أَوْ: مِنْ قَبِيلِهِ الإِفَادَةُ»[٢].

وَبِهذَا التَّعرِيفِ يُخالِفُ كَثِيرًا مِنْ أربَابِ اللُّغَةِ، كَمَا خُولِفَ اعْتِمَادًا عَلَى كَلَامِ سِيبَوَيْهِ مِنْ قِبَلِ أَبِي طَالِبٍ[٣] فَيَرُدُّ الخَفَاجِيُّ اعتِرَاضَهُ بِقَوْلِهِ: «فَيُقَالُ لِأَبِي طَالِبٍ: إِنْ كُنتَ أوردتَ مَا ذَكرتَهُ عن سِيبَوَيْهِ علَى وَجْهِ الاستِدْلالِ بِهِ فَلا حُجَّةَ فِيْهِ؛ لِأَنَّا لَسْنَا نُخَالِفُكَ فِي هذِهِ الـمَسْأَلَةِ وَحدَكَ، وَإِنَّما نُخَالِفُ فِيهَا سِيْبَوَيْهِ وَغَيْرَهُ مِنَ النَّحوِيِّينَ الَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَى أنَّ الكَلامَ هُوَ الـمُفِيدُ دُونَ غَيْرِهِ»[٤].

وَكَانَ ابنُ جِنِّيْ مَعَ تَعْظِيمِهِ الـمَعْرُوفِ لِسِيبَوَيْهِ وَاعتِرافِهِ الـمَأْلُوفِ بِعِلْمِهِ، فَرَضَ هذَا الِاعتِرَاضَ فِي مسأَلَةِ التَّقدِيمِ وَالتَّأخيرِ فقَالَ: «فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ هذَا لَيْسَ مَرْفُوعًا إِلَى العَرَبِ وَلَا مَحكِيًّا عَنْهَا أَنَّهَا رَأَتْهُ مَذْهبًا، وَإِنَّما هُوَ شَيْءٌ رَآهُ سِيبَوَيْهِ وَاعْتَقَدَهُ قَوْلًا،

(١) وَهُوَ أيضًا لَهُ بَعضُ الِاعتِرَاضَاتِ عَلَى سِيبَوَيْهِ فِي شَرْحِ الكَافِيَةِ.

(٢) سِرُّ الفَصَاحَةِ للخفَاجِيِّ (ص٣٢).

(٣) لَا أَدْرِي مَنْ هُوَ.

(٤) سِرُّ الفَصَاحَةِ للخفَاجِيِّ (ص٣٧).

وَلَسْنَا نُقَلِّدُ سِيبَوَيْهِ وَلَا غَيْرَهُ فِي هذِهِ العِلَّةِ وَلَا غَيْرِهَا، فَإِنَّ الجَوَابَ عَنْ هذَا حَاضِرٌ عَتِيدٌ، وَالخَطْبَ فِيهِ أَيْسَرُ، وَسَنَذْكُرُهُ فِي بَابٍ يَلِي هذَا بإذنِ اللهِ»[1].

فَإِذَا كَانَ ابنُ جِنِّيٍّ يُقَدِّسُ سِيبَوَيْهِ وَيَرَى عِصْمَتَهُ، أَوْ لَم يؤمِنْ بانتِقَادِهِ، فَلَمْ يَكُنْ يَرْضَى بِهذَا الكَلامِ أَصْلًا، وَكَانَ مَنْهجُ الأَئِمَّةِ اللُّغَوِيِّينَ كَغيرِهِم مِنَ العُلَمَاءِ المُحَقِّقِينَ لَمْ يَكُونُوا إِمَّعَةً مَعَ كُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، وَقَالَ وَأَطَالَ، بَلْ: كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الدَّلِيلِ وَالتَّعلِيلِ فَإِذَا وَجَدُوا لِكَلامِهِ وَجْهًا صَحِيحًا مِنَ الدَّلِيلِ قَبِلُوهُ وَإِلّا فَلَا، كَمَا قَالَ الإِمَامُ ابنُ الأَنبَارِيِّ فِي مُقَدِّمَةِ أَسْرَارِهِ: «فَقَدْ ذَكَرْتُ فِي هذَا الكِتَابِ المَوْسُومِ بِـ: (أَسْرَارِ العَرَبِيَّةِ)، كَثيرًا مِنْ مَذَاهِبِ النَّحْوِيِّينَ المُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ، مِنَ البَصْرِيِّينَ وَالكُوفِيِّينَ، وَصَحَّحْتُ مَا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ مِنْهَا بِمَا يَحْصُلُ بِهِ شِفَاءُ الغَلِيلِ، وَأَوْضَحْتُ فَسَادَ مَا عَدَاهُ بِوَاضِحِ التَّعلِيْلِ، وَرَجَعْتُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلى الدَّلِيل»[2].

وَقَدْ صَدَّقَ مَقَالَهُ هذَا بِتَطْبِيقِهِ العَمَلِيِّ؛ إِذْ رَدَّ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ المُتَقَدِّمِينَ فِي مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ فِي بَعْضِ آرَائِهِم وَتَعْلِيلاتِهِم، فَمِنْهُم سِيبَوَيْهِ[3]. فَالإِمَامُ لَم يَكُنْ يَقْبَلُ قَوْلَ وَاحِدٍ مِنهُم -كَمَا عَاهَدَ قُرَّاءَهُ- إِلَا عَنْ وَجْهٍ مِنَ الدَّلِيلِ، وَصَحِيحٍ مِنَ التَّعلِيلِ، وَلَم يَكُنْ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ مُقَلِّدًا لِقَوْلِ وَاحِدٍ مَهْمَا عَلَا كَعْبُهُ فِي العُلُومِ، إِلَّاإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ صِحَّةُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بِالدَّلِيلِ المُرَجِّحِ.

---

(١) الخَصَائِصُ (١/ ٢٩٩).

(٢) أَسرَارُ العَرَبِيَّةِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٦٤).

(٣) عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ يُنْظَرُ: أَسرَارُ العَرَبِيَّةِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٦٤) فِي البَابِ الخَامِسِ: (بَابِ التَّثنِيَةِ وَالجمْعِ)، وَ(ص٧٧)، فِي سَبَبِ رَفْعِ الخَبَرِ، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

فَكُلُّ هـذِهِ الأَمثِلَـةِ الَّتِي مَـرَّتْ تُبَـيِّنُ لَـكَ جُـرْمَ الأَعْـدَاءِ وَافتِـرَاءَهُم عَلَـى العَرَبِيَّـةِ وَعُلَمَائِهَا، وَتُفْحِمُ الـمُهَنْدِسَ فِي تَقَوُّلِهِ وكَأَنَّهُ سَالَ بِهِ السَّيْلُ وَجَرَى عَلَيْهِ الفَلَـكُ، وَلَا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

عَقْلَنَةُ قَوَاعِدِ العربيةِ وقُوَّتُها!

ثُمَّ يأتِي الكَاتِبُ بِأَرَاجِيفِ الغُوَاةِ، وَيُرَقِّي عَلَى تُرَّهَاتِ الرُّوَاةِ، وَيَفْتَعِلُ القَوْلَ وَيَفْتَئِتُهُ، فَيَقُولُ: «قَوَاعِدُ اللُّغَةِ عِنْدَنَا لَيسَتْ مَنْطِقِيَّةً وَلَا عَقْلانِيَّةً، وَهُوَ يُسَبِّبُ ابتِعَادَ الطُّلَّابِ عَنْهَا بِمَنْ فِيهِمُ المُتَفَوِّقُونَ». ص: (١٦).

أقُولُ: سَيأتِي مَعَنَا مُنَاقَشَةُ مَا سَيَذكرُهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى أَنَّهُ يُساعِدُهُ فِي عدَمِ عقْلَنَةِ قَوَاعِدِ العَربيَّةِ وَظَنَّهُ دَلِيلًا عَلَى كَلامِهِ، إِنْ شَاءَ المَوْلَى، وَمِنْ هُنَا سأذْكُرُ طرَفًا مِنْ سِيمَا العَقْلَنَةِ وَالمَنْطِقِ فِي قَوَاعِدِ النَّحْوِ، ولكِنْ قبلَ ذلِكَ أودُّ أَنْ نتوَقَّفَ يَسِيرًا عِنْدَ كَلامِهِ هذَا: (وَهُوَ يُسَبِّبُ ابتِعَادَ الطُّلَّابِ عَنْهَا بِمَنْ فِيهِمُ المُتَفَوِّقونَ)، وَنقولَ لَهُ: جنابَ المهندِسِ إنَّ عقلَنَةَ اللُّغَةِ وَعدَمَهَا لَا يُؤَثِّرَانِ فِي ابتِعَادِ أهلِهَا منهَا بِقَدْرِ مَا للأسبَابِ الخَارِجيَّةِ مِنْ تأثيرٍ عَلى ابتِعَادِ النَّاسِ عنهَا؛ لأَنَّنَا نَرَى بَعْضَ اللُّغَاتِ لَا تَملِكُ قَوانِينَ إلَّا جملَةً يسِيرَةً منهَا، فكيفَ بأنْ تكونَ تِلكَ القَواعِدُ كُلُّهَا قَواعِدَ عقلِيَّةً، وَمَعَ هذَا نَجِدُ أهلَهَا مُتَمَسِّكِينَ بِهَا وَمُتَحَمِّسِينَ لَهَا وَلَا يُبْعِدُهُم عَنْهَا شَيءٌ، وَلم يَبْتَعِدُوا عنهَا شِبْرًا، فَلِذَلِكَ كانَ حُكمُكَ يا مهندِسُ عَلَى العَرَبِيَّةِ حُكمًا جَائِرًا.

فَابتِعَادُ بعضِ النَّاسِ عنِ العَرَبِيَّةِ الفَصِيحَةِ كَانَتْ بِسَبَبِ كُلِّ هذِهِ المؤامَرَاتِ الَّتِي أشرنَا إليهَا، وَمَرَرْنَا عَلَيهِ مُرُورَ الحَاجِّ بِوَادِي مُحَسِّرٍ، فَهذَا أَمْرٌ لَا يَتَخَالَجُنَا فِيهِ رَيبٌ، وَلَا يَعْتَرِضُنَا فِيْهِ عَيْبٌ؛ لأَنَّ دَلَائِلَهُ خَرَجَتْ وَتَنَزَّهَتْ عَنْ مَظَانِّ الزُّورِ، وَنُفِضَ عَنهَا غُبَارُ السُّقْمِ وَالوَهْمِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخرَى يَرْجِعُ هذَا الابتِعَادُ إِلَى عَدَمِ حُسنِ تَعَامُلِ طَالِبِيهَا مَعَهَا، أَوْ: بِسَبَبِ بَعضِ المَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ، أَوْ: لِعَجْزِ بَعضِ الأَسَاتِذَةِ أحيَانًا، أَوْ: يَشْتَرِكُ كُلُّ هذِهِ

الأَشْيَاءِ أحيَانًا فِي إِبْعَادِ العَرَبِيَّةِ، وَقَدْ نُشِيرُ إِلَى شَيءٍ مِنْ هذِهِ المَسَائِلِ بِإِذنِ اللهِ تعَالَى فِي الأبحاثِ الآتِيَةِ.

ولكِنَّ الأعجَبَ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ أنَّ الكَاتِبَ نَاقضَ نَفْسَهُ بنَفسِهِ، لَمَّا ذَكَرَ بعدَ هذَا الكَلَامِ مُباشَرَةً دونَ أيِّ فَاصِلٍ قَائِلًا: (أمَّا جَوابُ السُّؤالِ الخَامِسِ، فإنَّهُ يكمُنُ في عَدَمِ استِطاعَةِ اللُّغَةِ العربيَّةِ أنْ تُؤَدِّيَ دورَهَا المطلُوبَ، بينَمَا استَطَاعَتْ لغتُنا العَرِيقَةُ وَالجَمِيلةُ أنْ تنتَشِرَ..)!.

فَلَا أدري إِذَا كَانَ النَّاسُ تَرَكُوا العَربيَّةَ الفُصْحى لِأَجْلِ عَدَمِ عَقْلَنَةِ قَوَاعِدِهَا فِي رأيِ الكَاتِبِ، فَلِمَاذَا انتَشَرَتِ العَامِّيَّةُ وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، مَعَ أنَّهَا لَا تَملِكُ القَوَاعِدَ أَصْلًا حَتَّى تَكُونَ عَقْلِيَّةً مَنْطِقِيَّةً؟!

أمَّا سِمَاتُ العَقْلَنَةِ فِي العَرَبِيَّةِ فَإِلَيكَ شَيئًا مِنْهَا مَعَ مُقدِّمَةٍ يَسِيرَةٍ:

إِنَّ قَوَاعِدَ العَرَبِيَّةِ تَتَوَافَقُ وَالأُصُولَ العَقلِيَّةَ وَالأُسُسَ المَنْطِقِيَّةَ، وَهذَا مَا جَعَلَ العُلَمَاءَ المُحَقِّقِينَ يَبْحَثُونَ فِي عِلَلِ تِلْكَ القَوَاعِدِ وَالظَّفَرِ بالمُنَاسَبَاتِ العَقليَّةِ وَرَاءَهَا، وَقَدْ أَفْلَحُوا فِي ذلِكَ وَأَصَابُوا كَبِدَ الحَقِيقَةِ فِي الأَمْرِ الَّذِي رَامُوهُ وَظَفَرُوا بِهِ[(١)]، فَمِنْ هؤلاءِ العُلَمَاءِ الَّذِينَ خَلَّطُوا النَّحْوَ بِالمَنْطِقِ وَبَحَثُوا عَنْ هذَا السِّرِّ هُوَ العَلَّامَةُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ عِيسَى الرُّمَّانِيُّ.

قَالَ عنهُ الذَّهَبِيُّ: «كَانَ رَأسًا فِي عِدَّةِ فُنُونٍ وَسَمَاءِ العَرَبِيَّةِ، وَكَانَ يُخْرِجُ كَلَامَهُ فِي النَّحْوِ بِالمَنْطِقِ، حَتَّى قَالَ فِيهِ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ: إِنْ كَانَ النَّحْوُ مَا يَقُولُهُ الرُّمَّانِيُّ

---

(١) وَلَا يَخْفَى أنَّ بَعْضًا مِنْ تِلْكَ العِلَلِ وَالمناسَبَاتِ ضَعِيفَةٌ رَكِيكَةٌ، وَيَعلُوهَا أَمَارَةُ التَّكَلُّفِ؛ لأَنَّهَا عِلَلٌ بَعْدَ الوقُوعِ، وَلكِنْ فِي الجُملَةِ عِلَلٌ قَوِيَّةٌ مُقنِعَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ، فَهذَا القَلِيلُ لَا يَرُدُّ الكَثِيرَ العَقلِيَّ المَنطِقِيَّ، فَلَا عِبْرَةَ بالنَّادِرِ، إِذِ العِبْرَةُ بالعَامِّ الغَالِبِ.

فَلَيْسَ مَعَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّحْوُ مَا نَقُولُهُ، فَلَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ»[١].

فَكَلَامُ الفَارِسِيِّ عَنْهُ نَابِتٌ عَنْ خَوْضِهِ الكَثِيرِ فِي رَبْطِ النَّحْوِ بِالـمَنْطِقِ، فَهذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَدْرٍ لَا يُفْسِدُ النَّحْوَ بِسَبَبِ تَلَطُّخِهِ بِمَبَاحِث أَجنَبِيَّةٍ عنهُ، كَمَا فَعَلَ الرُّمَّانِيُّ، فَالرُّمَّانِيُّ لَيْسَ وَحِيدًا فِي هـذَا الجَانِبِ، فَلَوْ وَقَفَ البَاحِثُ عَلَى الكُتُبِ المُفرَدَةِ للعِلَلِ، أَو: قَرَأَ فِي الكُتُبِ الَّتِي تَنَاوَلَتِ العِلَلَ وَالمُنَاسَبَاتِ كَشَرْحِ الجَامِيِّ عَلَى الكَافِيَةِ وَحَوَاشِيْهِ وَالكُتُبِ الأُخْرَى للعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانَ لَهُم إِلمَامٌ بِالعُلُومِ العَقلِيَّةِ مَعَ اللُّغَةِ، لَقَرَّتْ عَينُهُ وَسَرَّتْ فِي هذَا البَابِ.

فَمِنْ هُنَا أَذكُرُ أَمْثِلَةً يَسِيرَةً عَلَى عَقْلَنَةِ قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، وسَيأتِيكُم بِإِذنِ اللهِ تَعَالَى فِي كِتَابِ (رَفْعِ الشَّجْوِ) أَكْثَرُ مِنْ ذلِكَ وَتَقِفُونَ عَلَيْهِ، وَمِنْ هُنَا أُقَسِّمُ سِيمَا العَقْلَنَةِ إِلَى قِسْمَيْنِ وَهُمَا: (عَقْلَنَةُ الِاصطِلَاحَاتِ)، وَ(عَقْلَنَةُ القَوَاعِدِ)، فَإِلَيْكُمْ بَيَانَهُمَا:

عَقْلَنَةُ العَرَبِيَّةِ فِي اصْطِلَاحَاتِهَا:

إِنَّ النَّاظِرَ فِي اصْطِلَاحَاتِ عُلُومِ العَرَبِيَّةِ وَلَا سِيَّمَا النَّحْوَ يَتَعَجَّبُ مِنْ مُطْلِقِي هـذِهِ الأَلْقَابِ وَالأَسْمَاءِ عَلَى تِلْكَ الأُمُورِ الـمُقَعَّدَةِ الوَارِدَةِ فِيهَا، حَيثُ يُوجَدُ تَرَابُطٌ وَاقِعِيٌّ عَقلِيٌّ قَوِيٌّ رَصِينٌ بينَ الأَلْفَاظِ وَحقَائِقِهَا، وَهذَا بِحَدِّ ذاتِهِ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَاتِ عَلَى عَقْلَنَةِ هذِهِ اللُّغَةِ العَبْقَرِيَّةِ وَقُوَّتِهَا، وَفِي ذلِكَ أَضْرِبُ بَعضَ الأَمْثِلَةِ اليسيرَةِ عَلَى نِقَاطٍ عِدَّةٍ:

---

(١) تَاريخُ الإِسلامِ للذَّهبِيِّ (٢٧/ ٨٣)، وَكَلامُ أَبي عليٍّ مذكورٌ فِي: مُعجَم الأدباءِ (٤/ ١٨٢٦)، والوَافِي بالوَفَياتِ (٢١/ ٢٤٨).

أَوَّلًا: الحَرَكَاتُ الإِعرَابِيَّةُ، اسمُهَا، وَرَسْمُهَا، وَوَضْعُهَا:

لَا يَخْفَى عَلَيكُمْ أَنَّ الحَرَكَاتِ وُضِعَتْ للنُّطْقِ بالحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ؛ لأَنَّهَا فِي الأَصْلِ ساكِنَةٌ كَمَا قَالَ الإِمَامُ الرَّازِيُّ مُعَرِّفًا الحَرَكَةَ وَمُبيِّنًا هذَا السِّرَّ بِقَوْلِهِ: «لِأَنَّ الْحَرَكَةَ عِبَارَةٌ عَنِ الصَّوْتِ الَّذِي يَحْصُلُ التَّلَفُّظُ بِهِ بَعْدَ التَّلَفُّظِ بِالْحَرْفِ»[(١)].

أَمَّا الحَرَكَاتُ الإِعْرابِيَّةُ فَإِنَّهَا مَعلُومَةٌ لَدَى الجَمِيعِ وَهِي مُنْحَصِرَةٌ فِي أَرْبَعٍ: (الضَّمَّةِ، وَالفَتْحَةِ، وَالكَسْرَةِ، وَالسُّكُونِ)، وَقَدْ كَانُوا أَخَذُوهَا مِنْ حُرُوفِ الـمَدِّ وَاللِّيْنِ كَمَا قَالَ ابنُ جِنِّيْ: «اِعْلَمْ أنَّ الحَرَكَاتِ أَبْعَاضُ حُرُوفِ الـمَدِّ وَاللِّيْنِ، وَهِيَ: (الأَلِفُ، وَاليَاءُ وَالوَاوُ)، فَكَمَا أَنَّ هذِهِ الحُروفَ ثَلَاثَةٌ، فكذلِكَ الحَرَكَاتُ ثَلاثٌ، وَهِيَ: (الفَتْحَةُ، والكسرةُ، والضَّمَّةُ)، فَالفَتْحَةُ بَعْضُ الأَلِفِ، وَالكَسْرَةُ بعضُ اليَاءِ، وَالضَّمَّةُ بعضُ الوَاوِ، وقدْ كانَ مُتَقَدِّمُو النَّحوِيِّينَ يُسَمُّونَ الفَتحَةَ: الأَلِفَ الصَّغيرةَ، وَالكَسْرَةَ: اليَاءَ الصَّغِيرَةَ، وَالضَّمَّةَ: الوَاوَ الصَّغيرَةَ»[(٢)].. ويدُلُّكَ على أَنَّ الحَرَكَاتِ

---

(١) التَّفسِيرُ الكَبِيرُ (١/ ٥٦).

(٢) وَقَدْ خَالَفَ فِي ذلِكَ بعضُ عُلَمَاءِ النَّحْوِ وَقَالُوا إِنَّ هذِهِ الحُروفَ مَأخُوذَةٌ مِنَ الحرَكاتِ الثَّلاثِ، وَلكِنَّهُ ضَعِيفٌ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ ابنُ الجَزَرِيِّ: اخْتَلَفَ النَّحويُّونَ في الحَركاتِ الثَّلاثِ: الضَّمَّةِ والكسرةِ وَالفتحةِ، هَلْ هِيَ مأخُوذةٌ منْ حُروفِ الـمَدِّ واللِّيْنِ الثَّلاثَةِ: الأَلِفِ وَالوَاوِ واليَاءِ؟، أَوْ: حُروفُ الـمَدِّ وَاللِّيْنِ مأخُوذَةٌ مِنَ الحَرَكَاتِ؟
فقالَ أكثرُ النُّحاةِ: إِنَّ الحَركاتِ الثَّلاثَ مأخُوذةٌ مِنَ الحُرُوفِ الثَّلاثةِ، الضَّمَّةُ مِنَ الوَاوِ، وَالكسرةُ مِنَ اليَاءِ، والفتحةُ مِنَ الأَلِفِ.
واسْتَدَلُّوا على ذلِكَ بِمَا قَدَّمنَاهُ مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الحُروفَ قَبْلَ الحركَاتِ، وَالثَّانِي أبدًا مأخُوذٌ مِنَ الأَوَّلِ، والأَوَّلُ أَصْلٌ لَهُ، ولا يجُوزُ أَخْذُ الأَوَّلِ مِنَ الثَّانِي؛ لأَنَّهُ يَصِيرُ مأخُوذًا مِنَ الـمَعدُومِ.
وَاستَدَلُّوا أيضًا أَنَّ العَرَبَ لَـمَّا لَم تُعْرِبْ أَشْيَاءَ مِنَ الكَلامِ بِالحَرَكَاتِ، الَّتِي هِيَ أَصْلُ الإِعْرَابِ، أَعْرَبَتْهُ بِالحُروفِ الَّتِي أُخِذَتِ الحَرَكَاتُ مِنْهَا، وذلكَ نَحوُ التَّثْنِيَةِ وَالجَمْعِ السَّالمِ، وَنَحْوُ الأَسْمَاءِ =

أَبعاضٌ لِهذِه الحُروفِ، أنَّكَ مَتَى أَشْبَعْتَ وَاحِدَةً مِنهُنَّ حَدَث بَعْدَهَا الحَرْفُ الَّذِي هِيَ بَعْضُهُ، وذلِكَ نَحْوُ فَتْحَةِ عَيْنِ (عَمْرٍ)، فَإنَّكَ إِنْ أَشبَعْتَهَا حَدَثَتْ بَعْدَهَا أَلِفٌ، فَقُلْتَ: (عَامر)، وكذلِكَ كَسْرَةُ عينِ (عِنَبٍ)، إِنْ أَشْبَعْتَهَا نَشَأَتْ بَعْدَهَا يَاءٌ سَاكِنَةٌ، وَذَلِكَ قولُكُ: (عِينَب)، وكذَلِكَ ضَمَّةُ عَيْنِ (عُمَرَ)، لَوْ أَشْبَعْتَهَا لَأَنْشَأْتَ بَعْدَهَا وَاوًا سَاكِنَةً، وذَلِكَ قَوْلُكَ: (عُوْمَر)»[1].

قِصَّةُ وَضْعِ هذِهِ الحَرَكَاتِ وَبِدَايَةُ عِلْمِ النَّحوِ:

ذَكَرَ الإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ عَنِ الإِمَامِ ابنِ الأَنْبَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «حَدَّثَنَا أَبُو عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ الْعُتْبِيُّ: كَتَبَ مُعَاوِيَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إِلَى زِيَادٍ، يَطْلُبُ عُبَيْدَ اللهِ -ابْنَهُ- فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ كَلَّمَهُ فَوَجَدَهُ يَلْحَنُ! فَرَدَّهُ إِلَى زِيَادٍ وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَلُومُهُ فِيهِ وَيَقُولُ: أَمِثْلُ عُبَيْدِ اللهِ يَضِيعُ؟! فَبَعَثَ زِيَادٌ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْأَسْوَدِ إِنَّ هَذِهِ الْحَمْرَاءَ قَدْ كَثُرَتْ وَأَفْسَدَتْ مِنْ أَلْسُنِ الْعَرَبِ، فَلَوْ وَضَعْتَ شَيْئًا يُصْلِحُ بِهِ النَّاسُ كَلَامَهُمْ وَيُعْرِبُونَ بِهِ كِتَابَ اللهِ تَعَالَى، فَأَبَى ذَلِكَ أَبُو الْأَسْوَدِ، وَكَرِهَ إِجَابَةَ زِيَادٍ إِلَى مَا سَأَلَ.

فَوَجَّهَ زِيَادٌ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ: اقْعُدْ فِي طَرِيقِ أَبِي الْأَسْوَدِ فَإِذَا مَرَّ بِكَ فَاقْرَأْ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ وَتَعَمَّدِ اللَّحْنَ فِيهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ! فَلَمَّا مَرَّ بِهِ أَبُو الْأَسْوَدِ رَفَعَ الرَّجُلُ صَوْتَهُ فَقَالَ: [أَنَّ اللهَ بَرِيْءٌ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَرَسُولِهِ]! فَاسْتَعْظَمَ ذَلِكَ أَبُو الْأَسْوَدِ وَقَالَ: عَزَّ وَجْهُ اللهِ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ رَسُوْلِهِ. ثُمَّ رَجَعَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى زِيَادٍ فَقَالَ: يَا هَذَا قَدْ أَجَبْتُكَ إِلَى مَا سَأَلْتَ

= السِّتَّة، قَالُوا: أَلَا تَرى أَنَّهُم لَـمَّا لَم يُعْرِبُوا هذا بِالحَرَكَاتِ أَعْرَبُوهُ بِالحُرُوفِ الَّتِي أُخِذَتِ الحَرَكَاتُ مِنْهَا». يُنْظَرُ: التَّمهِيدُ فِي عِلْمِ التَّجوِيدِ لِابنِ الجَزَرِيِّ (ص٧٩).

(١) سِرُّ صَنَاعَةِ الإِعرَابِ لِابنِ جِنِّي (١/ ٣٣-٣٤).

وَرَأَيْتَ أَنْ أَبْدَأَ بِإِعْرَابِ الْقُرْآنِ فَابْعَثْ إِلَيّ ثَلاثِين رَجُلًا.

فَأَحْضَرَهُم زِيَادٌ فَاخْتَارَ مِنْهُم أَبُو الْأَسْوَدِ عَشرَةً ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يخْتَارُ مِنْهُم حَتَّى اخْتَارَ رَجُلًا مِن عَبْدِ الْقَيْسِ فَقَالَ: خُذِ الْـمُصْحَفَ وَصِبْغًا يُخَالِفُ لَوْنَ الـمِدَادِ، فَإِذَا فَتَحْتُ شَفَتَيَّ فَانْقَطْ وَاحِدَةً فَوْقَ الْحَرْفِ، وَإِذَا ضَمَّمْتُهُمَا فَاجْعَلِ النُّقْطَةَ إِلَى جَانِبِ الْحَرْفِ، وَإِذَا كَسَّرْتُهُمَا فَاجْعَلِ النُّقْطَةَ فِي أَسْفَلِهِ، فَإِنِ اتَّبَعْتُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الحَرَكَاتِ غُنَّةً[(١)] فَانْقَطْ نُقْطَتَيْنِ»[(٢)].

فَلَوْ تَأَمَّلْنَا هذا الوَضْعَ لَرَأَيْنَاهُ يُوَافِقُ العَقْلَ وَالـمَنْطِقَ لأَنَّهُم أَخْرَجُوا الحَرَكَاتِ مِنْ جِنْسِ الحُرُوفِ كَمَا ذَكَرَ ذلِك ابنُ جِنِّي وَنَقَلْنَا كَلامَهُ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ فَإِنَّ إِطْلاقَ الأَسْماءِ يُوَافِقُ النُّطْقَ وَحَالَةَ الشَّفَتَيْنِ كَمَا نَبَّهَ إِلَى ذلِكَ أَبُو الأَسْوَدِ حَيثُ الشَّفَتَانِ عِنْدَ النُّطْقِ بالضَّمَّةِ تَكُونُ مَضْمُومَتَيْنِ، وَعِنْدَ الفَتْحِ مَفْتُوحَتَيْنِ، وَعِنْدَ الكَسْرَةِ(الخَفْضَةِ) مَخْفُوضَتَيْنِ، وَعِنْدَ السُّكُونِ سَاكِنَتَيْنِ، فَبِذلِكَ نَعرِفُ أَنَّ اللَّبِنَةَ الأُوْلَى مِنْ هذَا العِلْمِ كَانَ عَلَى القِيَاسِ الـمَنْطِقِيِّ العَقْلِيِّ.

وَقَدْ أَوْضَحَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ الزَّجَّاجِيُّ هذِهِ العِلَّةَ بِقَوْلِهِ: «فَنَسَبُوا الرَّفعَ كُلَّهُ إِلَى حَرَكَةِ الرَّفْعِ؛ لأَنَّ الـمُتَكَلِّمَ بالكَلِمَةِ الـمَضمُومَةِ يَرْفَعُ حَنَكَهُ الأَسْفَلَ إِلَى الأَعْلَى، وَيَجْمَعُ بَيْنَ شَفَتَيْهِ، وَجُعِلَ مَا كَانَ مِنْهُ بِغَيْرِ حَرَكَةٍ مَوْسُومًا أَيْضًا بِسِمَةِ الحَرَكَةِ لأَنَّها

---

(١) يَقْصِدُ بالغُنَّةِ التَّنْوِين.

(٢) الـمُحكَمُ فِي نَقْطِ الـمَصَاحَفِ للدَّانِيِّ (ص٤)، وَنُزْهَةُ الأَلِبَّاءِ لابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٢٠)، وَتَارِيخُ دِمَشق (٢٥/ ١٩٣)، وَسَبَبُ وَضعِ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ للسُّيُوطِيِّ (ص٣٦)، وَمَا بَعْدَهَا، تَكَلَّمَ أَهلُ العِلْمِ فِي ثُبُوتِ القِصَّةِ.
قَالَ شَيْخُنَا البَرْزَنجِيُّ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ وَضعَ القَوَاعِدِ كَانَ فِي عَصرِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ.

هِيَ الأَصْلُ. وَالـمُتَكَلِّمُ بِالكَلِمَةِ الـمَنْصُوبَةِ يَفْتَحُ فَاهُ، فَيُبِيْنُ حَنَكَهُ الأَسْفَلَ مِنَ الأَعْلَى، فَيُبِينُ لِلنَّاظِرِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ قَدْ نَصَبَهُ لإِبَانَةِ أَحَدِهِمَا عَنْ صَاحِبِهِ. وَأَمَّا الجَرُّ فَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ مَعْنَى الجَرِّ الإِضَافَةُ، وذلِكَ أَنَّ الحُرُوفَ الجَارَّةَ تَجُرُّ مَا قَبْلَهَا فَتُوْصِلُهُ إِلَى مَا بَعْدَهَا كَقَوْلِكَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ)، فَالبَاءُ أَوْصَلَتْ مُرُورَكَ إِلَى زَيْدٍ. وكذلِكَ: (المَالُ لِعَبْدِ اللهِ). وَ(هذَا غُلامُ زَيْدٍ)،هذَا مَذْهَبُ البَصْرِيِّينَ وَتَفْسِيرِهِمْ.

وَمَنْ سَمَّاهُ مِنْهُمْ[(١)]، وَمِنَ الكُوفِيِّينَ خَفْضًا، فَإِنَّهُم فَسَّرُوهُ نَحْوَ تَفْسِيرِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ؛ فَقَالُوا لانْخِفَاضِ الحَنَكِ الأَسْفَلِ عِنْدَ النُّطْقِ بِهِ، وَمَيْلِهِ إِلى إِحْدَى الجِهَتَيْنِ.

وَأَمَّا الجَزْمُ فَأَصْلُهُ القَطْعُ. يُقَالُ: (جَزَمْتُ الشَّيْءَ، وَجَذَمْتُهُ، وَبَتَرْتُهُ، وَجَذَذْتُهُ، وَصَلَمْتُهُ، وَفَصَلْتُهُ، وَقَطَعْتُ: بِمَعْنًى وَاحِدٍ. فَكَأَنَّ مَعْنَى الجَزْمِ قَطْعُ الحَرَكَةِ عَنِ الكَلِمَةِ، هذَا أَصْلُهُ»[(٢)].

وَقَدْ كَانَ سِيْبَوَيْهِ أَيضًا اعتبَرَ الـمَخْرَجَ الصَّوتِيَّ فِي ذلِكَ كَمَا نَصَّ عَلَى ذلِكَ فِي كِتَابِهِ قَائِلًا: «هذَا بَابُ مَجَارِي أَوَاخِرِ الكَلِمِ مِنَ العَرَبِيَّةِ؛ وَهِيَ تَجْرِي عَلَى ثَمَانِيَةِ[(٣)] مَجَارٍ: عَلَى النَّصْبِ وَالجَرِّ وَالرَّفْعِ وَالجَزْمِ، وَالفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالكَسْرِ وَالوَقْفِ.

وَهذِهِ الـمَجَارِي الثَّمَانِيَةُ يَجْمَعُهُنَّ فِي اللَّفْظِ أَرْبَعَةُ أَضْرُبٍ: فَالنَّصْبُ وَالفَتْحُ فِي اللَّفْظِ ضَرْبٌ وَاحِدٌ، وَالجَرُّ وَالكَسْرُ فِيْهِ ضَرْبٌ وَاحِدٌ، وَكذَلِكَ الرَّفْعُ وَالضَّمُّ، وَالجَزْمُ وَالوَقْفُ»[(٤)].

---

(١) أَيْ: مِنَ البَصْرِيِّينَ.

(٢) الإِيْضَاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ للزَّجَّاجِيِّ (ص٩٣-٩٤).

(٣) تَقْسِيمُهُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ باعتِبَارِ حَالَتَيِ الإِعْرَابِ وَالبِنَاءِ، وَالثُّبُوتِ وَالتَّجرِيدِ.

(٤) الكِتَابُ لسيبَوَيْهِ (١/ ١٣).

وَلَيْسَ هذَا فَحَسْبُ، بَلْ: بَحَثُوا فِي رَسْمِ هذِهِ الحَرَكَاتِ وَمَوْقِعِهَا فِي الكِتَابَةِ، وَأَنَّ هذَا أيضًا لَهُ حَظٌّ مِنَ الـمَنْطِقِ السَّلِيمِ، كَمَا تَطَرَّقَ لِهذَا الـمَوضُوعِ الإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ وَقَالَ: «اعْلَمْ أَنَّ الحَرَكَاتِ ثَلَاثٌ: فَتْحَةٌ، وَكَسْرَةٌ، وَضَمَّةٌ؛ فَمَوْضِعُ الفَتْحَةِ مِنَ الْحَرْفِ أَعْلَاهُ؛ لِأَنَّ الْفَتْحَ مُسْتَعْلٍ، وَمَوْضِعُ الكَسْرَةِ مِنْهُ أَسْفَلُهُ لِأَنَّ الْكَسْرَ مُسْتَفِلٌّ، وَمَوْضِعُ الضَّمَّةِ مِنْهُ وَسَطُهُ، أَوْ: أَمَامَهُ لِأَنَّ الفَتْحَةَ لَـمَّا حَصَلَتْ فِي أَعْلَاهُ، وَالكَسْرَةَ فِي أَسْفَلِهِ لأَجْلِ اسْتِعْلَاءِ الْفَتْحِ وَتَسَفُّلِ الْكَسْرِ بَقِيَ وَسَطُهُ فَصَارَ مَوْضِعًا لِلضَّمَّةِ»[١].

ثَانِيًا: اصْطِلَاحُ الفَاعِلِ وَالـمَفْعُولِ:

إِنَّ هذَينِ الِاصطِلاحَيْنِ يَتَطَابَقَانِ مَعَ الوَاقِعِ تَمَامًا؛ لأَنَّنا نَرَى الفَاعِلَ يَقُومُ بِالفِعْلِ وَالـمَفْعُولُ وَقَعَ عَلَيْهِ الفِعْلُ كَالِاصطِلاحِ الـمَوضُوعِ لَهُمَا، وهذَا مِنْ قَبِيلِ العَقْلَنَةِ وَالوَاقِعِيَّةِ تَمَامًا.

يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هـذَينِ الِاصطِلاحَيْنِ يَسْتَخْدِمُهُمَا أَصْحَابُ اللُّغَاتِ الأُخْرَى وَلَيْسَا خَاصَّيْنِ بِالعَرَبِيَّةِ حَتَّى يُدَلَّ بِهِمَا عَلَى القُوَّةِ وَالعَقْلَنَةِ. فَنَقُولُ: نَعَمْ صَحِيحٌ؛ لأَنَّنَا نَجِدُ هذَينِ الِاصطِلاحَيْنِ، مَذكورَيْنِ مُتَدَاوَلَيْنِ فِي بَعضِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَلكِنَّ الكَلامَ لَيسَ مُوجَّهًا مِنْ هـذِهِ الجِهَةِ، بَلْ: مُوجَّهٌ مِنْ جِهَةِ فَضْلِ الإِيجَادِ وَسَبْقِ الِاصطِلاحِ؛ لأَنَّنَا لَا نَجِدُ لُغَةً استَخْدَمَتْهُمَا قَبْلَ العَرَبِيَّةِ، فَهـذَانِ وَغيرُهُمَا مِنَ الِاصطِلاحَاتِ سَبَقَ إِلِيهِمَا عُلَمَاءُ العَرَبِيَّةِ؛ وَالجُهُودُ لِضَبْطِ قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ وَالتَّقنِينِ لَهَا تَقَدَّمَتْ عَلَى سَائِرِ اللُّغَاتِ، عَلَى مَا نَعْلَمُ، وَلَيستْ هُنَاكَ لُغَةٌ تَقَدَّمَتْ عَلَى العَرَبِيَّةِ فِي التَّقْعِيدِ وَالتَّقْنِيْنِ[٢]، وَاللهُ تَعَالَى أَعلَمُ.

---

(١) الـمُحكَمُ فِي نَقْطِ الـمَصَاحِفِ لِلدَّانِيِّ (ص٤٢).

(٢) قَالَ شَيْخُنَا البَرزنجِيُّ: إِنَّ وَضْعَ القَوَاعِدِ فِي العَرَبِيَّةِ تَقَدَّمَ عَلَى سَائِرِ اللُّغَاتِ وَبَعْدَهَا تَأتِي اللُّغَةُ =

ثَالِثًا: اصطِلاحَاتٌ أُخْرَى:

نَجِدُ فِي العَرَبِيَّةِ اصطِلاحَاتٍ كَثِيرَةً لَا تُوجَدُ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، أَو: يُوجَدُ قَلِيلٌ مِنهَا وَلكِنْ باختِلافٍ فِي الـمَعْنَى وَالمَاهِيَةِ، وهـذِهِ الِاصطِلاحَاتُ دَلِيلُ عَقْلَنَتِهَا بِتَطَابُقِهَا مَعَ الوَاقِعِ، فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ اُنظُرْ فِي: (العَطْفِ، وَالبَدَلِ، وَالحَالِ، وَالِاستِثْنَاءِ، وَعَطْفِ بَيَانٍ، وَالجَامِدِ، وَالـمُشتَقِّ، الـمُعْرَبِ، الـمَبْنِي..)، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ انظُرْ أيضًا فِي الأَقْسَامِ الَّتِي تَنْشَأُ مِنْ هذِهِ الِاصطِلاحَاتِ وأُطْلِقَتْ عَلَيْهَا أَسْمَاءٌ أُخْرَى أيضًا، كأنواعِ البَدَلِ: (بَدَلُ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ)، وَ(بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ)، وَ(بَدَلُ الغَلَطِ)، أَوْ: كالأَنْوَاعِ الَّتِي تَنْشَأُ مِنَ الِاستِثْنَاءِ، كـ: (الِاستِثْنَاءِ التَّامِّ) وَ(الِاستِثْنَاءِ الـمُفَرَّغ)، وَ(الـمُتَّصِل)، وَ(الـمُنْقَطِع). وَإِلَى آخِرِ الِاصطِلاحَاتِ النَّحوِيَّةِ، فَأنَا لا أُرِيدُ أَنْ أُطِيلَ عَليكُمْ هُنَا، فَيُمكِنُكُم الرُّجُوعُ إِلَى الـمَعْنَى اللُّغَوِي لِاصطِلاحَاتِ عُلَمَاءِ النَّحْوِ، ثُمَّ قَارِنُوا بينَ الـمَعْنَى اللُّغَوِيِّ وَالـمَعْنَى الِاصطِلاحِيِّ حَتَّى تُدْرِكُوا مَدَى الوَاقِعِيَّةِ وَالعَقْلَنَةِ فِي هذِهِ الِاصطِلاحَاتِ[1].

عَقْلَنَةُ العَرَبِيَّةِ فِي أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا:

إِنَّ النَّاظِرَ فِي قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ أُصُولًا وَفُرُوعًا، يَرَى عَقْلَنَةً تَامَّةً وَوَاقِعِيَّةً مُجَسَّدَةً فِيهَا، بحيثُ يَكُونُ مِنَ الصَّعبِ أَوْ: مِنَ الـمُستَحِيلِ أَحيَانًا أَنْ يُوجَدَ مِثْلُهَا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ أُخْرَى مِنَ اللُّغَاتِ، فَكَيْفَ باجتِمَاعِ كُلِّ هذِهِ القُوَّةِ وَسِيمَا العَقْلَنَةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ، فَمِنْ هُنَا

= العِبرِيَّةُ، وَهذَا بِشَهَادَةِ عُلَمَاءِ الغَرْبِ أَنْفُسِهِم.

(١) ثُمَّ أَضِفْ إِلَيْهَا اصْطِلاحَاتِ علُومِ البَلاغَةِ وَالتَّصرِيفِ وَفُنُونِهَا الأُخْرَى!

أُبَرْهِنُ كَلَامِي بِبَعضِ البَرَاهِيْنِ وَالأَدِلَّةِ، وَهِيَ:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: عَدَمُ إِتيَانِ الِابتِدَاءِ بالنَّكِرَةِ:

عِندَ مَا تَقْرَأُ أيَّ كتابٍ نَحويٍّ تَرَاهُم نَصَّوا علَى عَدَمِ جَوازِ الِابتِدَاءِ بالنَّكِرَةِ فِي كُتُبِهِم[(١)]، فَهَلْ سأَلْتُمْ يومًا لِمَاذا مَنَعُوا ذلِكَ فِي الكَلامِ؟ وَلِمَاذا لا يَقَعُ الـمُبْتَدَأُ في العَرَبِيَّةِ نَكِرَةً؟ وَالجَوابُ وَاضِحٌ بيِّنٌ: لأنَّ الـمَنَاطِقَةَ عِنْدَ مَا أمعَنُوا النَّظَرَ في الْمَعقُولاتِ ضَبَطُوا قاعِدَةَ: (الْحُكْمُ عَلى الشَّيْءِ فَرْعٌ عَنْ تَصَوُّرِهِ).

فأيَّ شيءٍ تُرِيدُ أَنْ تَتكلَّمَ عَنهُ لا بُدَّ أنْ تَتَصَوَّرَهُ أَوَّلًا ثُمَّ تَتكلَّمَ عَنْهُ[(٢)]، فَلِذلِكَ اشتَرَطَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ شُرُوطًا(هَذِهِ الشُّرُوطُ كَانَتْ مَوجُودَةً وَهُم اكتَشَفُوهَا وَلَيسَتْ مِنْ وَضْعِهِم)، إذا كَانَتْ مَوجُودَةً تُسَوِّغُ لِلْمُبْتَدَإِ الإتيانَ نَكِرَةً[(٣)]، فكُلُّ هذِهِ الشُّروطِ

---

(١) الكِتَابُ لسيبَوَيْهِ (١/ ٣٢٩)، والأُصُولُ في النَّحوِ لابنِ السَّرَّاجِ (١/ ٥٩)، والخَصَائِصُ (١/ ٣١٨)، ونتَائِجُ الفِكرِ لأبي القاسمِ السُّهَيليِّ (ص٣١٥)، وشرحُ الكافيةِ الشَّافيةِ لابنِ مالكٍ (١/ ٣٦٠)، وأوضَحُ المسالكِ لابنِ هشامٍ (١/ ٢٠٢)، ومَا بعدَهَا، وحاشيةُ الصَّبَّانِ عَلَى شرحِ الأُشمونِيِّ (١/ ٢٩٩).

(٢) حاشيَةُ العَلَّامَّةِ الجُورِيِّ عَلَى الشَّمسيَّةِ (ص٤٢)، وما بعدَهَا، وَشَرحُ بَحرِ العُلوم على سُلَّمِ العُلومِ فِي الْمَنْطِقِ لأبِي العبَّاسِ اللّكهنويِّ، ص:(٢١٩)، وَحاشِيَةُ الجوريِّ عَلَى الفَنَارِيِّ، (ص٤٣).

(٣) الكِتَابُ لسيبَوَيْهِ (١/ ٣٢٩)، الأُصُولُ في النَّحوِ لابنِ السَّرَّاجِ (١/ ٥٩)، وَالخَصَائِصُ (١/ ٣١٨)، وَنتَائِجُ الفِكرِ لأبي القَاسمِ السُّهَيليِّ (ص٣١٥)، وَشرحُ الكَافيةِ الشافيةِ لابنِ مالكٍ (١/ ٣٦٠)، ومَا بعدَهَا، وَأوضَحُ المسالكِ لابنِ هِشَامٍ (١/ ٢٠٢)، وَمُغني اللَّبيبِ لَهُ (ص١٤٥)، وَحاشيةُ الصَّبَّانِ عَلَى شَرْحِ الأُشمونِيِّ (١/ ٢٩٩)، وَشَرحُ التَّصْريحِ عَلَى التَّوضِيحِ لخالدٍ الأزهريِّ (١/ ٢٠٩)، والسُّيوطِيُّ في هَمْعِ الهَوَامِعِ (١/ ٣٨١)، وَقالَ ابنُ مالِكٍ جَامعًا الشُّروطَ بِقَوْلِهِ: =

تُخرِجُهَا عَنْ دائِرَةِ الإِبهَامِ وَتَجْعَلُهَا صالحةً بأنْ يُخْبَرَ عَنْهُ عَقْلًا؛ لأَنَّ هذِهِ الكَلِمَةَ تَخْرُجُ عَنْ حَيِّزِ النَّكْرَةِ وَيُمْكِنُ تَصَوُّرُهَا لِيُحكَمَ عَلَيْهَا!

فِلذلكَ قالَ ابنُ السَّرَّاجِ: «وَإِنَّمَا امْتَنَعَ الِابْتِدَاءُ بِالنَّكِرَةِ الْـمُفْرَدَةِ المَحْضَةِ لأَنَّهُ لا فائدةَ فيهِ وَمَا لا فائدةَ فيهِ؛ فَلا مَعْنَى لِلتَّكَلُّمِ بهِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لو قلتَ: (رَجُلٌ قَائِمٌ) أوْ: (رجلٌ عالمٌ)، لم يكُنْ في هذَا الكَلامِ فَائِدَةٌ لأَنَّهُ لا يُسْتَنْكَرُ أنْ يكُونَ في النَّاسِ رَجُلٌ قَائِمًا أَوْ: عَالِمًا[1]، فإِذَا قُلْتَ: (رَجُلٌ مِنْ بَنِي فُلانٍ)، أَوْ: (رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِكَ)، أَوْ: وَصَفْتَهُ بِأَيِّ صِفَةٍ كَانَتْ؛ تُقَرِّبُهُ مِنْ مَعْرِفَتِكَ حَسُنَ لِمَا فِي ذَلكَ مِنَ الفَائِدَةِ»[2].

وَقَدْ تَكَلَّمَ إِمَامُ النَّحْوِ سِيبَوَيْهِ عَنْ عَدَمِ إِتيَانِ الْـمُبْتَدَإِ نكِرَةً وَبيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: «لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ خَبَرِ مَنْ هُوَ مَعرُوفٌ عِنْدَهُ، كَمَا حَدَّثْتَهُ عَنْ خَبَرِ مَنْ هُوَ مَعرُوفٌ عِنْدَكَ؛ فَالـمَعرُوفُ هُوَ الـمَبدُوءُ بِهِ.

وَلَا يُبْدَأُ بِمَا يكُونُ فِيهِ اللَّبْسُ، وَهُوَ النَّكِرَةُ. أَلا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: (كَانَ إِنْسَانٌ حَلِيمًا)، أَوْ: (كَانَ رَجُلٌ مُنْطَلِقًا)، كنتَ تُلْبِسُ؛ لأَنَّهُ لَا يُسْتَنْكَرُ أنْ يكُونَ فِي الدُّنيا إِنسانٌ هكذَا، فكَرِهُوا أَنْ يَبْدَؤُوا بِمَا فِيهِ اللَّبْسُ، ويَجعَلُوا الـمَعْرِفَةَ خَبَراً لِـمَا يكُونُ فِيهِ

= [مِنَ الرَّجَزِ]

وَلَا يَجُوزُ الابْتِدَا بِالنَّكِرَهْ ... مَا لَمْ تُفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهْ
وَهَلْ فَتًى فِيكُم فَمَا خِلٌّ لَنَا ... وَرَجُلٌ مِنَ الكِرَامِ عِنْدَنَا
وَرَغْبَةٌ فِي الخَيْرِ خَيْرٌ وَعَمَلْ ... بِرٍّ يَزِينُ وَلْيُقَسْ مَا لَمْ يُقَلْ

(١) تَقْدِيرُ الكَلامِ: (قَائِمًا كَانَ أَوْ: عَالِمًا)، وهذا كَلامٌ منطِقيٌّ لأَنَّكَ بهذا الحُكمِ لا تُضيفُ جديدًا، إِذَنْ ما الغَرَضُ من كِلامِكَ؟! فلذلِكَ يمتنِعُ مِثلُ ذلِكَ.

(٢) الأُصُولُ فِي النَّحوِ لابنِ السَّرَّاجِ (١/ ٥٩).

هذَا اللَّبْسُ»[١].

وَقَالَ أَبُو البقَاءِ العُكبرِيُّ: «وَإِنَّما كَانَ الـمُبْتَدَأُ مَعْرِفَةً فِي الْأَمْرِ العَامِّ؛ لِأَنَّ الْفَائِدَةَ لَا تَحْصُلُ بِالإِخْبَارِ عمَّا لَا يُعْرَفُ، فَأَمَّا إِذَا وُصِفَتِ النَّكِرَةُ فَالإِخْبَارُ عَنْهَا مُفِيدٌ لِتَخَصُّصِهَا»[٢].

الدَّلِيلُ الثَّانِي: زِيَادَةٌ فِي الـمَبْنَى زِيَادَةٌ فِي الـمَعْنَى:

أَشَارَ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ إِلَى هذِهِ القَاعِدَةِ العَلِيَّةِ الـمَتِينَةِ الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ أَيَّةَ زِيَادَةٍ عَلَى اللَّفْظِ تُؤَثِّرُ فِي الـمَعْنَى، فَمَثَلًا (فَاعَلَ)، وَ(فَعَّلَ)، وَ(افتعَلَ)، وَ(افعَنْلَلَ)، وَغيرُهَا مِنَ الأَوْزَانِ الَّتِي زِيْدَتْ فِيهَا بِحَرْفٍ، أَوْ: أَكْثَرَ مِمَّا زَادتْ عَلَى حُرُوفِهِ الأَصْلِيَّةِ، يَكُونُ فِيهَا مَعْنًى جَدِيدٌ لَيسَ فِي (فَعَلَ) مَثَلًا، وَقَدْ تَكَلَّمَ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ عنْ هذهِ القَضِيَّةِ وَبيَّنُوهَا.

قَالَ سِيْبَوَيْهِ: «قَالُوا: (خَشُنَ)، وقَالُوا: (اخْشَوْشَنَ). وَسَأَلْتُ الخَلِيْلَ فقَالَ: كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا الـمُبَالَغَةَ وَالتَّوكِيدَ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا قَالَ: (اعْشَوْشَبَتِ الأَرْضُ) فَإِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ ذلِكَ كَثِيرًا عَامًّا، قَدْ بَالَغَ»[٣].

وَقَدْ بَوَّبَ ابنُ جِنِّيْ فِي خَصَائِصِهِ بابًا عَنْ هذَا تَحْتَ اسمِ: (بَابٌ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ لِقُوَّةِ الـمَعْنَى) وَقَالَ تَحْتَهُ: «هذَا فَصْلٌ مِنَ العَرَبِيَّةِ حَسَنٌ. مِنْهُ قَوْلُهُم: خَشُنَ وَاخْشَوْشَنَ. فَمَعْنَى خَشُنَ دُوْنَ مَعْنَى اخْشَوْشَنَ؛ لِـمَا فِيْهِ مِنْ تَكْرِيرِ العَيْنِ وَزِيَادَةِ الـوَاوِ .. وكذلِكَ قولُهمْ: (أَعْشَبَ الـمَكَانُ)، فَإِذَا أَرَادُوا كَثْرَةَ العَشَبِ فِيْهِ قَالُوا:

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٤٨).

(٢) اللُّبَابُ فِي عِلَلِ البِنَاءِ وَالإِعْرَابِ للعُكبرِيِّ (١/ ١٣١).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٤/ ٧٥). وَقَدْ نَبَّهَ بَعْدَ هذَا عَلَى أَنَّ هُنَاكَ أَلْفَاظًا لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلَّا مَعَ زَوَائِدَ وَهِيَ بِمَعْنَاهَا الـمُجَرَّدِ.

(اعْشَوْشَبَ). وَمِثْلُهُ: (حَلَا وَاحْلَوْلَى)، وَ(خَلقَ وَاخْلَوْلَقَ)[١]، وَ(غَدَنَ وَاغْدَوْدَنَ)[٢].
وَمِثْلُهُ بَابُ (فَعَلَ وَافْتَعَلَ)، نَحْوُ: (قَدَرَ وَاقْتَدَرَ). فَاقْتَدَرَ أَقْوَى مَعْنًى مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدَرَ. كذلِكَ قَالَ أَبُو العَبَّاسِ وَهُوَ مَحْضُ القِيَاسِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: [أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ]؛ فَمُقْتَدِرٌ هُنَا أَوْفَقُ مِنْ قَادِرٍ؛ مِنْ حَيْثُ كَانَ الـمَوْضِعُ لِتَفْخِيمِ الأَمْرِ وَشِدَّةِ الأَخْذِ. وَعَلَيْهِ -عِنْدِي- قَوْلُ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-: [لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ]، وَتَأْوِيلُ ذلِكَ أَنَّ كَسْبَ الحَسَنَةِ بِالإِضَافَةِ إِلى اكْتِسَابِ السَّيِّئَةِ أَمْرٌ يَسِيرٌ وَمُسْتَصْغَرٌ. وَذلِكَ لِقَوْلِهِ -عَزَّ اسْمُهُ: [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا]؛ أَفَلَا تَرَى أَنَّ الحَسَنَةَ تُصَغَّرُ بِإِضَافَتِهَا إِلَى جَزَائِهَا، صِغَرَ الوَاحِدِ إِلَى العَشَرَةِ، وَلَـمَّا كَانَ جَزَاءُ السَّيِّئَةِ إِنَّمَا هُوَ بِمِثْلِهَا، لَمْ تُحْتَقَرْ إِلَى الجَزَاءِ عَنْهَا، فَعُلِمَ بِذَلِكَ قُوَّةُ فِعْلِ السَّيِّئَةِ عَلَى فِعْلِ الحَسَنَةِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى: [تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا] فَإِذَا كَانَ فِعْلُ السَّيِّئَةِ ذَاهِبًا بِصَاحِبِهِ إِلَى هذِهِ الغَايَةِ البَعِيْدَةِ الـمُتَرَامِيَةِ، عَظُمَ قَدْرُهَا، وَفَخُمَ لَفْظُ العِبَارَةِ عَنْهَا، فَقِيْلَ: [لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ]. فَزِيْدَ فِي لَفْظِ فِعْلِ السَّيِّئَةِ، وَانْتُقِصَ مِنْ لَفْظِ فِعْلِ الحَسَنَةِ؛ لِـمَا ذَكَرْنَا»[٣].

وَقَالَ الجُرْجَانِيُّ فِي بَيَانِ مَعَانِي (أَفْعَلَ) الَّذِي زِيْدَ فِيْهِ حَرْفٌ واحِدٌ عَلَى الثُّلَاثِيِّ، وَبَيَانِ بَعْضِ الأَوْزَانِ الأُخْرَى الَّتِي فِيْهَا زِيَادَةٌ: «أَفْعَلَ: للتَّعْدِيَةِ غَالِبًا؛ نَحْوُ: أَجْلَسْتُهُ.

---

(١) يُقَالُ: اخْلَوْلَقَتِ السَّمَاءُ أَنْ تُمْطِرَ، أَيْ: قَارَبَتْ.
(٢) غَدَنَ: اسْتَرْخَى وَلَانَ.
(٣) الخَصَائِصُ (٣/ ٢٦٨). وَنَقَلَهُ عنهُ ابنُ الأَثِيرِ فِي: (الـمَثَلِ السَّائِرِ) (٢/ ٥٦)، ت: محي الدين.

وَلِلتَّعْرِيضِ، نَحْوُ: أَبَعْتُهُ. وَلِلصَّيْرُورَةِ ذَا كَذَا، نَحْوُ: أَغَدَّ البَعِيرُ، وَمِنْهُ: أَحْصَدَ الزَّرْعُ. وَلِوُجُودِهِ عَلَيْهَا، نَحْوُ: أَحْمَدْتُهُ وَأَبْخَلْتُهُ. وَلِلسَّلْبِ نَحْوُ: أَشْكَيْتُهُ. وَبِمَعْنَى فَعَلَ، نَحْوُ: قِلْتُهُ وَأَقَلْتُهُ.

وفَعَّلَ: لِلتَّكْثِيرِ غَالِبًا، نَحْوُ: غَلَّقْتُ، وَقَطَّعْتُ، وَجَوَّلْتُ، وَطَوَّفْتُ. وَلِلتَّعْدِيَةِ، نَحْوُ: فَرَّحْتُهُ، وَمِنْهُ فَسَّقْتُهُ. وَلِلسَّلْبِ. نَحْوُ: جَلَّدْتُ البَعِيرَ، وَقَرَّدْتُهُ. وَبِمَعْنَى: (فَعَلَ)، نَحْوُ زِلْتُهُ وَزَيَّلْتُهُ.

وَفَاعَلَ: لِنِسْبَةِ أَصْلِهِ إِلَى أَحَدِ الأَمْرَيْنِ مُتَعَلِّقًا بِالآخَرِ لِلْمُشَارَكَةِ صَرِيحًا، فَيَجِيءُ العَكْسُ ضِمْنًا، نَحْوُ: ضَارَبْتُهُ وَشَارَكْتُهُ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ غَيْرُ الـمُتَعَدِّي مُتَعَدِّيًا، نَحْوُ: كَارَمْتُهُ، وَشَاعَرْتُهُ...وتَفَاعَلَ: لِـمُشَارَكَةِ أَمْرَيْنِ فَصَاعِدًا فِي أَصْلِهِ صَرِيحًا، نَحْوُ: تَشَارَكَ، وَمِنْ ثَمَّ نَقَصَ مَفْعُولًا عَنْ (فَاعَلَ)، وَلِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الفَاعِلَ أَظْهَرَ، أَنَّ أَصْلَهُ حَاصِلٌ لَهُ، وَهُوَ مُنْتَفٍ، نَحْوُ: تَجَاهَلْتُ وَتَغَافَلْتُ[١].

وتَفَعَّلَ: لِـمُطَاوَعَةِ (فَعَّلَ)، نَحْوُ: كَسَّرْتُهُ فَتَكَسَّرَ. وَلِلتَّكَلُّفِ، نَحْوُ: تَشَجَّعَ وتَحَلَّمَ. وَلِلاتِّخَاذِ، نَحْوُ: تَوَسَّدَ. وَلِلتَّجَنُّبِ، كَـ: تَحَرَّجَ، وَتَهَجَّلَ»[٢].

وَأَشَارَ إِلَى ذَلِكَ عُلَمَاءُ آخَرُونَ وَذَكَرُوا الأَوْزَانَ الأُخْرَى مَعَ بَيَانِ مَعَانِي تِلْكَ الحُرُوفِ الزَّائِدَةِ فِيهَا بِتَفْصِيلٍ وَتَذْيِيلٍ[٣].

---

(١) أي: أَنَّ الفَاعِلَ أَظْهَرَ أَصْلَ مَعْنَى التَّفَاعُلِ، مَثَلًا لَو قَالَ: (تَغَافَلَ)، فَالفَاعِلُ هُوَ الَّذِي أَظْهَرَ مَعْنَى التَّغَافُلِ.

(٢) الـمِفتَاحُ فِي الصَّرْفِ لِلجُرجَانِيِّ (ص٤٩-٥٠).

(٣) الـمُمتِعُ الكَبِيرُ لِابنِ عُصفُورٍ (ص١٢٤) وَمَا بَعْدَهَا، وَشرحُ الشَّافِيَةِ لِلرَّضِيِّ (١/ ١٠٣) وَمَا =

وَلَا أَدْرِي إِذَا لَمْ يَكُنْ هذا دَلِيلَ العَقْلَنَةِ فَمَاذَا يَكُونُ؟ وَإِذَا اعتُرِضَ عَلَى مِثْلِ هـذِهِ اللُّغَةِ بِأَنَّهَا لَيسَتْ مَنْطِقِيَّةً مَعَ كُلِّ هـذِهِ القُوَّةِ وَالـمَنْطِقِيَّةِ، فَمَاذَا يَكُونُ كَلامُهُم عَلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى؟!.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: جَوَازُ حَذْفِ أَحَدِ مَفْعُولَي (أَعْطَى)، بِخِلافِ (عَلِمَ):

وَلِمِثَالٍ آخَرَ فِي هذَا البَابِ نَقُولُ: لَوْ نَظَرْنَا إِلَى الكُتُبِ النَّحوِيَّةِ لَرَأَينَاهَا مُطْبِقَةً عَلَى جَوَازِ حَذْفِ أَحَدِ مَفْعُولَي (أَعْطَى)؛ لأَنَّهُمَا لَيْسَا شَيْئًا وَاحِدًا، بَلْ: بَيْنَهُمَا مُغَايَرَةٌ، كَمَا فِي نَحْوِ قَوْلِنَا: (أَعْطَيْتُ زَيْدًا دِينَارًا)، نَستَطِيعُ أَنْ نَحْذِفَ الـمَفعُولَ الأَوَّلَ وَنَقُولَ: (أَعْطَيْتُ دِينَارًا)، وَكَمَا نَستَطِيعُ أَنْ نَحذِفَ الثَّانِيَ وَنقُولَ: (أَعْطَيْتُ زَيْدًا).

هذَا بِخِلافِ بَابِ (عَلِمْتُ) فَإِنَّ الحَذفَ فِيهِ غَيرُ جَائِزٍ؛ لأَنَّ الْـمَفعُولَ الأَوَّلَ هُوَ الثَّانِي نَفْسُهُ، كَمَا فِي نَحوِ قَوْلِنَا: (عَلِمْتُ زَيْدًا فَاضِلًا)، فَلَا يَجُوزُ حَذفُ أَحَدِ الـمَفعُولَيْنِ وَالاقتِصَارُ عَلَى الآخَرِ؛ لأَنَّ (زَيْدًا) هُوَ (فَاضِلًا) نَفْسُهُ، وَبِالعَكْسِ! بِخِلافِ البَابِ الأَوَّلِ الَّذِي يَجُوزُ فِيهِ الحَذْفُ، فَهذَا مُرَاعَاةٌ لِلعَقْلِ وَالْـمَعنَى وَالْـمَنْطِقِ فِي صِيَاغَةِ القَوَاعِدِ إِنْ أَرادَ الخَصْمُ الاعتِرَافَ.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: هَمْزَةُ (أَنَّ) بَيْنَ الفَتْحِ وَالكَسْرِ:

وَأَضْرِبُ مِثَالًا آخَرَ فَأَقُولُ: عِنْدَ مَا نَنظُرُ فِي (أَنَّ) بِفَتْحِ الهَمْزَةِ نَرَى أَنَّهَا فِي تَأوِيلِ مَصْدَرٍ، فِي نَحْوِ قَوْلِكَ: (سَمِعْتُ أَنَّ زَيدًا قَائِمٌ) يُؤَوَّلُ بِـ: (سَمِعْتُ قِيَامَ زَيْدٍ)، وَمَا دَامَتْ فِي تَأوِيلِ مُفْرَدٍ، فَتَكُونُ هَمْزَتُهُ مَفتُوحَةً فِي الْـمَوَاقِعِ الَّتِي يَكُونُ الأَصْلُ فِيهَا

= بَعْدَهَا، وَهَمْعُ الهَوَامِعِ لِلسُّيوطِيِّ (٣/ ٣٠٣) وَمَا بَعْدَهَا.

مُفْرَدًا، فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ أُنْظُرْ فِي تِلْكَ الأَمْثِلَةِ:

* (لَوْلَا أَنَّ مُحَمَّدًا حَاضِرٌ لَحَضَرَ عَلِيٌّ): فَالهَمْزَةُ هُنَا تَكُونُ مَفتُوحَةً؛ لأنَّ مَا بَعْدَ (لَوْلَا) مُبْتَدَأٌ وَالـمُبْتَدَأُ مُفْرَدٌ. كَقَوْلِنَا: (لَوْلَا مُحَمَّدٌ لَحَضَرَ عَلِيٌّ)، فَـ(لَولَا) حَرْفُ امتِنَاعٍ، وَ(مُحمَّدٌ) مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ مَحذُوفٌ[1] تَقدِيرُهُ: (مَوجُودٌ). وَكَذلِكَ لَوْ قُلتَ: (عِندِي أَنَّكَ قَائِمٌ)، يَجِبُ فَتحُ هَمْزَةِ (أَنَّ) لأَنَّهَا تَقَعُ مُبْتَدَأً، فَـ(عِنْدِي) فِي مَحَلِّ رَفعٍ خبرٌ مُقَدَّمٌ، وَ(أَنَّ) حَرفٌ مُشَبَّهٌ بالفِعلِ، وَالضَّمِيرُ(كَ) فِي مَحَلِّ نَصْبٍ اسمُهَا، وَ(قَائِمٌ) خَبَرُهَا، وَالجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرٌ لِلمُبتَدَإِ (عِنْدِي).

* وَكَذلِكَ عِنْدَ مَا تَقَعُ فَاعِلًا مِثْلُ: (بَلَغَنِي أَنَّ خَالِدًا قَائِمٌ)، وَهُوَ فِي تَأوِيلِ: (بَلَغَنِي قِيَامُ خَالِدٍ)، مَا دَامَتْ وَاقِعَةً فِي مَوْضِعِ فَاعِلٍ وَالفَاعِلُ مُفرَدٌ، فَتَكُونُ مَفتُوحَةً!

* وَكَذلِكَ الحَالُ عِنْدَ مَا تَقَعُ مَفعُولًا بِهِ، أَوْ:مُضَافًا إِلَيْهِ، أَوْ: مَجرُورًا بِحَرْفِ الجَرِّ، وَبَعْدَ (لَوْ)، وَبَعْدَ (حَتَّى الجَارَّةِ)، وَفِي أَمْكِنَةٍ أُخْرَى، حَيثُ يَكُونُ الـمَحَلُّ مُفْرَدًا؛ لأَنَّهَا فِي تَأوِيلِ مُفْرَدٍ.

وَقَدْ نَبَّهَ الإِمَامُ ابنُ الوَرَّاقِ إِلَى ضَرورَةِ التَّفرِيقِ بَيْنَهُمَا وَسَبَبِ إِعْطَاءِ إِحدَاهُمَا كَسْرَةً وأُخْرَى فَتْحَةً، فَقَالَ: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا الْحَاجَةُ إِلَى الْفَصلِ بَينَهُمَا؟

قِيلَ لَهُ: لِأَنَّ (أَنَّ) الـمَفْتُوحَةَ وَمَا بَعْدَهَا فِي تَقْدِيرِ اسْمٍ، وَالـمَكْسُورَةَ لَا تَكُونُ مَعَ مَا بَعْدَهَا اسْمًا، فَلَمَّا اخْتَلَفَ حُكْمُهُمَا، وَجَبَ الْفَصْلُ بَينَهُمَا.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ خُصَّتْ بِالْكَسْرِ، وَخُصَّتِ الْأُخْرَى بِالْفَتْحِ؟

---

(١) قَالَ ابنُ مَالِكٍ: [مِنَ الرَّجَزِ]

وَبَعْدَ لَوْلَا غَالِبًا حَذْفُ الْخَبَرْ ... حَتْمٌ وَفِي نَصٍّ يَمِينٍ ذَا اسْتَقَرْ

قِيلَ لَهُ: لِأَنَّ الْكَسْرَ أَثْقَلُ مِنَ الْفَتْحِ، وَ(أَنَّ) الـمَفْتُوحَةُ قَدْ قُلْنَا: إِنَّهَا وَمَا بَعْدَهَا اسْمٌ، فَقَدْ طَالَتْ بِصِلَتِهَا، وَالـمَكْسُورَةُ مُفْرَدَةُ الحُكْـمِ، فَهِـيَ أَخَفُّ مِنْهَا، فَوَجَبَ أَنْ يُفْتَحَ الأَثْقَلُ، وَيُكْسَرَ الأَخَفُّ لِيَعْتَدِلَا»[١].

الدَّلِيلُ الخَامِسُ: مَنْعُ عَطْفِ حَرْفٍ عَلَى حَرْفٍ:

فَلنَأتِ بِمِثَالٍ آخَرَ عَلَى مُراعَاةِ الْمعيارِ العَقْلِيِّ فِي القَوَاعِدِ وَضَبْطِهَا، وَهُوَ إِجمَاعُهُم عَلَى عَدَمِ جَوازِ عَطْفِ الحَرفِ عَلَى الحَرْفِ، وهذَا؛ لأنَّ الحرفَ لَا يَسْتَقِلُّ بِمَعنًى فِي ذاتِهِ، بَلْ: هِيَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى غيرِهَا؛ لِتُعْطِيَ مَعنًى مُفِيدًا، فَهذَا عَينُ مُرَاعَاةِ العَقْلِ وَالـمَنْطِقِ فِي هذِهِ اللُّغَةِ البَلِيغَةِ.

وَأَمَّا الَّذِي جَاءَ فِي ذلكَ القَبِيلِ حيثُ يُشعِرُ بهذَا النَّوعِ مِنَ العَطْفِ؛ فَهُوَ فِي تقديرِ جُمْلَةٍ، مَثَلًا لَوْ قيلَ: (لَا وَلَنْ أخرُجَ) فَلَيسَ مِنْ عطفِ الحرفِ على الحَرْفِ فِي شَيءٍ؛ لأَنَّ التَّقديرَ: (لَا أخرُجُ وَلَنْ أخرجَ)، وَكَانَ فِي الجُمْلَةِ حَذفٌ لأَجْلِ الِاختِصَارِ، فَالِاختِصَارُ مَحمُودٌ إِذَا لَم يُخِلَّ بالمَعْنَى، فَلْيُتَأَمَّلْ.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: الجُمَلُ بَعْدَ النَّكِرَةِ صِفَاتٌ، وَبَعْدَ الـمَعْرِفَةِ أَحْوَالٌ:

قَالَ الإِمَامُ ابنُ هِشَامٍ: «يَقُولُ الـمُعْرِبُونَ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيبِ: الْجُمَلُ بعدَ النَّكِرَاتِ صِفَاتٌ، وَبَعْدَ الـمَعَارِفِ أَحْوَالٌ، وَشَرْحُ الْـمَسْأَلَةِ مُسْتَوْفَاةً أَنْ يُقَالَ: الْجُمَلُ الخَبَرِيَّةُ الَّتِي لم يَسْتَلْزِمْهَا مَا قَبْلَهَا؛ إِنْ كَانَتْ مُرْتَبِطَةً بِنَكِرَةٍ مَحْضَةٍ فَهِيَ صِفَةٌ لَهَا، أَوْ: بِمَعْرِفَةٍ مَحْضَةٍ فَهِيَ حَالٌ عَنْهَا، أَوْ: بِغَيْرِ الـمَحْضَةِ مِنْهُمَا فَهِيَ مُحْتَمِلَةٌ لَهُمَا، وَكُلُّ ذَلِكَ بِشَرْطِ

(١) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص٤٤٦).

وُجُودِ الْـمُقْتَضِي وَانْتِفَاءِ الْـمَانِعِ»[١].

هـذِهِ القَاعِـدَةُ مُهِمَّـةٌ جِـدًّا وَعَقْلِيَّـةٌ للغَايَـةِ؛ لأَنَّ النَّكِـرَةَ بِحَاجَـةٍ إِلَـى التَّوْصِـيفِ وَالتَّخْصِيصِ حَتَّى يُرْفَعَ عَنْهَا الإِبْهَامُ، أَمَّا الـمَعْرِفَةُ فَإِنَّ ذَاتَهَا مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَى التّوصِيفِ، وَلكِنَّ هَيْئَتَهَا مَجْهُولَةٌ وَهِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى بَيَانِ الهَيْئَةِ فَلِذلِكَ نَأْتِي بِمَا يَدُلُّ عَلَى الهَيْئَةِ وَهُوَ الحَالُ[٢].

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: إِزَالَةُ الهَاءِ مِنَ الـمُؤَنَّثِ فِي بَعْضِ حَالَاتٍ:

لَوْ نَظَرْنَا إِلَى الكَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ فَإِنَّنَا نَجِدُ كَلِمَاتٍ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهَا الهَاءُ عِنْدَ مَا نَصِفُ بِهَا أُنْثَى، كَـ: (مُرْضِعٍ، وَحَامِلٍ، وَحَائِضٍ..)، وَالسِّرُّ فِي ذلِكَ أَنَّ هذِهِ الصِّفَاتِ تَخْتَصُّ بالأُنْثَى وَلَا يُشَارِكُهُنَّ فِيهَا الذُّكُورُ، وَمَا دُمْنَا أَمِنَّا الِالتِبَاسَ وَالخَلْطَ بينَ الـمُذَكَّرِ وَالـمُؤَنَّثِ أَزَلْنَا عَلَامَةَ التَّأْنِيثِ فِيهَا، وَنَقُولُ: (امرَأَةٌ مُرْضِعٌ)، وَ(حَامِلٌ)، وَ(حَائِضٌ).

فَهذَا مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الِاعتِبَارِ بالـمَنْطِقِ وَالعَقْلِ فِي تَقرِيرِ القَوَاعِدِ وَوَضْعِهَا.

وَقَدْ يَسْأَلُ وَاحِدٌ وَيَقُولُ: مَاذَا عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ...﴿٢﴾ ﴾ (الحج)، كَمَا نَرَى الآيَةَ فَإِنَّ (الـمُرْضِعَةَ) دَخَلَتْ عَلَيْهَا الهَاءُ!

هذِهِ لَيسَتْ للتَّأْنِيثِ، بَلْ: هِيَ مَا يُسمَّى التَّاءَ بالفِعْلِ، يَدُلُّ عَلَى حَالَةِ وقُوعِ الفِعْلِ وَالعَمَلِ، وَقَدْ نَبَّهَ سِيبَوَيْهِ عَلَى ذلِكَ حَيثُ قَالَ: «وَزَعَمَ الخَلِيلُ -رَحِمَهُ اللهُ- أَنَّ

(١) مُغْنِي اللَّبِيبِ لِابنِ هِشَامٍ (ص٥٦٠).

(٢) هذِهِ القَاعِدَةُ للنَّكِرَةِ الـمَحْضَةِ وَالـمَعرِفَةِ الـمَحْضَةِ، فلْيُتَأَمَّلْ.

[السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ]، كَقَوْلِكَ: (مُعَضِّلٌ للقَطَاةِ). وَكَقَوْلِكَ: (مُرْضِعٌ)، لِلَّتِي بِهَا الرِّضَاعُ. وَأَمَّا الـمُنْفَطِرَةُ فَيَجِيءُ عَلَى العَمَلِ، كَقَوْلِكَ: (مُنْشَقَّةٌ)، وَكَقَوْلِكَ: (مُرْضِعَةٌ) لِلَّتِي تُرْضِعُ[1].

وَقَالَ ابنُ السِّكِّيتِ: «يَقُولُ: (امْرَأَةٌ مُرْضِعٌ)؛ إِذَا كَانَ لَهَا لَبَنُ رِضَاعٍ. وَ(امْرَأَةٌ مُرْضِعَةٌ)؛ إِذَا كَانَتْ تُرْضِعُ وَلَدَهَا. وَ(امْرَأَةٌ طَاهِرٌ)؛ إِذَا طَهُرَتْ مِنَ الحَيْضِ، وَ(امْرَأَةٌ طَاهِرَةٌ)؛ إِذَا كَانَتْ نَقِيَّةً مِنَ العُيُوبِ»[2].

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ: «وَمَا كَانَ عَلَى (مُفْعِل)، مِمَّا لَا يُوصَفُ بِهِ الـمُذَكَّرُ فَهُوَ بِغَيْرِ هَاءٍ، نَحْوُ: (مُرْضِع)، وَ(ظَبْيَةٍ مُشْدِنٍ)، فَإِذَا أَرَادُوا الفِعْلَ قَالُوا: (مُرْضِعَةٌ).

وَمَا كَانَ عَلَى (فَاعِل) مِمَّا لَا يكُونُ وَصْفًا لِلمُذَكَّرِ فَهُوَ بِغَيْرِ هَاءٍ، نَحْوُ: (حَائِضٍ، وَطَالِقٍ، وَطَامِثٍ)، فَإِذَا أَرَادُوا الفِعْلَ قَالُوا: (طَالِقَةٌ)، وَ(حَامِلَةٌ)»[3].

الدَّلِيلُ الثَّامِنُ: لَا يُجمَعُ بينَ عِوَضٍ وَمُعَوَّضٍ مِنْهُ:

إِنَّ مِنَ القَوَاعِدِ الكُلِّيَّةِ فِي العَرَبِيَّةِ هُوَ عَدَمُ الجَمْعِ بَيْنَ العِوَضِ وَالـمُعَوَّضِ مِنْهُ[4]؛ لِأَنَّ العِوَضَ إِنَّمَا يَأْتِي لِسَدِّ فَرَاغِ الـمُعَوَّضِ مِنْهُ، وَإِذْ ذُكِرَ فِي الجُمْلَةِ فَكَانَ اللُّجُوءُ إِلَى العِوَضِ ضَرْبًا مِنَ الحَشْوِ، فَلِذَلِكَ ضَبَطُوا هذِهِ القَاعِدَةَ وَأَعْمَلُوهَا، فَمَثَلًا حَرْفُ (الـمِيم) فِي قَوْلِكَ: (اللَّهُمَّ)، عِوَضٌ مِنْ يَاءِ النِّدَاءِ[5]، فَإِذَا جِئْتَ بِهَا حَذَفْتَ الـمِيمَ، وَتَقُولُ: (يَا اللهُ)،

---

(١) الكِتَابُ (٢/ ٤٧). وَكَذَا فِي (٣/ ٣٨٤).
(٢) إِصْلاحُ الـمَنْطِقِ لِابنِ السِّكِّيتِ (ص٢٤٢).
(٣) الـمُزْهِرُ للسُّيُوطِيِّ (٢/ ١٩٢).
(٤) دُرَّةُ الغَواصِ فِي أَوهَامِ الخواصِ للحَرِيرِيِّ (ص٨٢)، وَهَمْعُ الهَوَامِعِ للسُّيوطِيِّ (٢/ ٦٣).
(٥) أَمَّا الكُوفِيِّونَ فإِنَّهُم لَا يَرَوْنَهَا عِوَضًا عَنِ اليَاءِ.

بَدَلًا مِنْ (يا اللَّهُمَّ)، قَالَ ابنُ جِنِّيْ: «وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشِّعْرِ»(١).

وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَامُ ابنُ الأَنبَارِيِّ بَيْتًا لِابنِ مِرْدَاسٍ وَعَلَّق عليهِ، وَهُوَ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنتَ ذا نَفَرٍ فَإِنَّ قَوْمِي لَم تَأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ

وَقَالَ: «وَالتَّقْدِيرُ فِيهِ: (إِنْ كُنْتَ ذَا نَفَرٍ)، فَحَذَفَ الفِعْلَ، وَزَادَ (مَا) عَلَى (أَنْ) عِوَضًا عَنِ الفِعْلِ، كَمَا كَانَتِ (الأَلِفُ) فِي (اليَمَانِيِّ) عِوَضًا عَنْ إِحْدَى يَائَي النَّسَبِ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّها عِوَضٌ عَنِ الفِعْلِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ذِكْرُ الفِعْلِ مَعَهَا؛ لِئَلَّا يُجْمَعَ بَيْنَ العِوَضِ وَالـمُعَوَّضِ»(٢).

وَهذِهِ القَاعِدَةُ نَاطِقَةٌ بِعَقْلَنَةِ العَرَبِيَّةِ وَتَوَافُقِهَا مَعَ الـمِعيَارِ العَقْلِيِّ الصَّحِيح.

الدَّلِيلُ التَّاسِعُ: حَذْفُ مَا عُهِدَ حَذْفُهُ أَوْلَى مِنْ حَذْفِ مَا لَمْ يُعْهَدْ حَذْفُهُ:

هذِهِ القَاعِدَةُ عَمِلَ عَلَيْهَا النُّحَاةُ وَاعتَمَدُوهَا وَإِنْ كَانَتْ لَم تُضْبَطْ إِلَّا مُتَأَخِّرَةً، وَهِي حَقًّا قَاعِدَةٌ عَقْلِيَّةٌ مَنْطِقِيَّةٌ؛ لأَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي اعتَادَ النَّاسُ عَلَى حَذْفِهِ أَوْلَى بالحَذْفِ مِن غَيرِهِ حَتَّى لَا يَلْتَبِسَ أَمْرُ الـمَحْذُوفِ عَلَى الـمُخَاطَبِ، وَيَظْفَرَ بِهِ فِي النَّظْرَةِ الأُوْلَى، وَمِمَّنْ نَصَّ عَلَى هذِهِ القَاعِدَةِ الإِمَامُ ابنُ مَالِكٍ(٣).

---

(١) سِرُّ صَنَاعَةِ الإِعرابِ لِابنِ جِنِّيْ، (٢/ ١٠٣)، وَاللُّمَعُ لَهُ أيضًا (ص١١٣)، وأسرَارُ العَرَبِيَّةِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٧٦)، وَالـمُقْتَضَبُ للمُبَرِّدِ (٤/ ٢٤٢)، وَشَرحُ الشَّافِيَةِ الكَافِيَةِ لِابنِ مَالِكٍ (٣/ ١٣٠٦).

(٢) الإِنْصَافُ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (١/ ٦٠).

(٣) شَرحُ الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ (٣/ ١٦٤٨)، وَنَقَلَهُ أَيضًا السُّيوطِيُّ فِي: (هَمْعِ الهَوَامِعِ) (١/ ٢٠١).

الدَّلِيلُ العَاشِرُ: الـمُخْتَصَرُ لَا يُخْتَصَرُ:

وَمِنَ القَوَاعِدِ الـمُهِمَّةِ الَّتِي نَبَّهَ عَلَيْهَا بَعضُ الـمُحَقِّقِينَ مِنَ العُلَمَاءِ هُوَ إِنْكَارُ اختِصَارِ الـمُخْتَصَرِ، حَتَّى لَا يُؤَدِّيَ إِلَى الإِجْحَافِ وَالتَّعمِيَةِ وَالإِخْلالِ بالبَيَانِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَشَأَتِ اللُّغَاتُ، فَمِنَ الَّذِينَ نَصَّ عَلَيْهَا، الإِمَامُ ابنُ جِنِّي[1]، وَالعَلَّامَةُ ابنُ هِشَامٍ[2]، وَالحَبْرُ السُّيُوطِيُّ[3]، وَغَيرُهُمْ.

قَالَ ابْنُ جِنِّيْ: «أَخْبَرَنَا أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ- قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَذْفُ الحُرُوْفِ لَيْسَ بِالقِيَاسِ. قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّ الحُرُوْفَ إِنَّمَا دَخَلَتِ الكَلَامَ لِضَرْبٍ مِنَ الِاخْتِصَارِ، فَلَوْ ذَهَبْتَ تَحْذِفُهَا لَكُنْتَ مُخْتَصِرًا لَهَا هِيَ أَيْضًا، وَاخْتِصَارُ الـمُخْتَصَرِ إِجْحَافٌ بِهِ. تَمَّتِ الحِكَايَةُ.

تَفْسِيْرُ قَوْلِهِ: (إِنَّمَا دَخَلَتِ الكَلَامَ لِضَرْبٍ مِنَ الِاخْتِصَارِ) هُوَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (مَا قَامَ زَيْدٌ)، فَقَدْ أَغْنَتْ (مَا) عَنْ (أَنْفِي)، وَهِيَ جُمْلَةٌ (فِعْلٌ وَفَاعِلٌ). وَإِذَا قُلْتَ: (قَامَ القَوْمُ إِلَّا زَيْدًا)، فَقَدْ نَابَتْ (إِلَّا) عَنْ (أَسْتَثْنِي)، وَهِيَ (فِعْلٌ وَفَاعِلٌ). وَإِذَا قُلْتَ: (قَامَ زَيْدٌ وَعَمْرٌو)، فَقَدْ نَابَتِ (الوَاوُ) عَنْ (أَعْطِفُ)، وَإِذَا قُلْتَ: (لَيْتَ لِي مَالًا)، فَقَدْ نَابَتْ (لَيْتَ) عَنْ (أَتَمَنَّى)..»[4].

---

(١) سِرُّ صَنَاعَةِ الإِعرابِ (١/ ٢٨٠).

(٢) مُغْنِي اللَّبِيْب (ص٧٩٤).

(٣) وَضَعَ بابًا خَاصًّا فِي كِتَابِهِ وَأسماهُ: (اختِصَارَ الـمُخْتَصَرِ لَا يَجُوزُ)، يُنْظَرُ: الأَشباهُ وَالنَّظَائِرُ فِي النَّحوِ للسُّيوطِيِّ (١/ ٧٤).

(٤) الخَصَائِصُ (٢/ ٢٧٥).

فَهذَا أَيضًا مِنْ قَبيلِ الِاعتِبَارِ بالـمِعيَارِ العَقْلِيِّ.

الدَّلِيلُ الحَادِيَ عَشَرَ: مَا لَا يُوْصَفُ لَا يُصَغَّرُ:

ذَكَرَ العُلَماءُ هذِهِ القَاعِدَةَ[١]، وَمِنْ ضِمْنِهَا يَنْدَرِجُ أُمُورٌ أُخْرَى تَتَعَلَّقُ بالوَصْفِ، وَقَالُوا بِعَدَمِ تَصْغِيرِ مَا لَا يُوصَفُ؛ لأنَّ التَّصغِيرَ عَادَةً لِوَصْفِ الشَّيْءِ بالصِّغَرِ عَلَى جِهَةِ الِاختِصَارِ، كَمَا نَقَلَهُ السُّيُوطِيُّ[٢]، وَمَا دَامَ لَا يُوصَفُ أَصلًا لَا يُصَغَّرُ أَيْضًا.

قَالَ ابنُ القَوَّاسِ فِي شَرْحِهِ عَلَى أَلْفِيَّةِ ابـنِ مُعْطٍ: «التَّصغِيرُ وَالتَّحقِيرُ مُتَرَادِفَانِ، وَهُمَا فِي الأَصْلِ مَصْدَرَ (صَغَّرَ)، وَ(حَقَّرَ)، وَهُوَ وَصْفٌ فِي الـمَعْنَى بِدَلِيلِ أَنَّ اسمَ الفِعْلِ وَالـمَصْدَرَ لَا يَعْمَلَانِ مُصَغَّرَيْنِ، كَمَا لَا يَعْمَلَانِ مَوْصُوفَيْنِ؛ لِبُعْدِهِمَا بِذلِكَ عَنْ شَبَهِ الفِعْلِ.

وَيُؤَكِّدُهُ أَنَّهُ قِيلَ لِبَعضِ العَرَبِ: (كَيْفَ تُصَغِّرُ دَمكْمكًا؟) وَهُوَ العَظِيمُ الجُثَّةِ، قِيلَ: (شَخْتٌ) وَهُوَ الدَّقِيقُ، نَظَرًا إِلَى الـمَعْنَى[٣]. وَفَائِدَتُهُ الِاختِصَارُ...قَوْلُكَ: (رَجُلٌ) يَحْتَمِلُ الكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ، فَإِذَا أَرَدْتَ التَّخصِيصَ قُلْتَ: (رُجَيْلٌ صَغِيرٌ)، فَإِنْ أَرَدْتَ مَعَ التَّخصِيْصِ الِاختِصَارَ، قُلْتَ: (رُجَيْلٌ)، وَلِذلِكَ لَم يُصَغَّرِ الفِعْلُ»[٤].

وَمِنْ هذَا البَابِ ذَكَرَ السَّرْخَسِيُّ طُرْفَةً نَادِرَةً عَنِ الكِسَائِيِّ فَقَالَ: «حُكِيَ أَنَّ مُحَمَّدًا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قَالَ لِلْكِسَائِيِّ وَكَانَ ابْنَ خَالَتِهِ: لِمَ لَا تَشْتَغِلُ بِالْفِقْهِ مَعَ هَذَا

---

(١) الأَشباهُ وَالنَّظَائِرُ فِي النَّحوِ للسُّيوطِيِّ (١/ ٧٠).

(٢) الأَشباهُ وَالنَّظَائِرُ فِي النَّحوِ للسُّيوطِيِّ (١/ ٧١).

(٣) يَعْنِي: مَالَ إِلَى الإِتيَانِ بِضِدِّهِ بَدَلًا مِنْ تَصْغِيرِهِ؛ لأَنَّ تَصْغِيرَ مَا دَلَّ عَلَى العَظَمَةِ يأبَاهُ الـمَعْنَى.

(٤) شَرْحُ أَلفِيَّةِ ابنِ مُعْطٍ لِابنِ القَوَّاسِ (٤/ ١٢٠١).

الْخَاطِرِ؟ فَقَالَ: مَنْ أَحْكَمَ عِلْمًا فَذَلِكَ يَهْدِيهِ إِلَى سَائِرِ الْعُلُومِ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إِنِّي أُلْقِي عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ فَخَرِّجْ جَوَابَهُ مِنَ النَّحْوِ؟. فَقَالَ: هَاتِ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ سَهَا فِي سُجُودِ السَّهْوِ فَفَكَّرَ سَاعَةً؟. فَقَالَ: لَا سَهْوَ عَلَيْهِ. فَقَالَ: مِنْ أَيِّ بَابٍ مِنَ النَّحْوِ خَرَّجْتَ هَذَا الْجَوَابَ؟ فَقَالَ: مِنْ بَابِ: (أَنَّ الْـمُصَغَّرَ لَا يُصَغَّرُ) فَتَعَجَّبَ مِنْ فِطْنَتِهِ»[(١)].

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَشَرَ: لُزُومُ كُلِّ فِعْلٍ لِلْمَفَاعِيلِ الـمَعرُوفَةِ غَيرِ اثْنَيْنِ مِنْهَا:

ذَكَرَ عُلَمَاءُ النَّحْوِ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الـمَفَاعِيلِ إِلَّا مَفْعُولَيْنِ وَهُمَا: (الـمَفعُولُ لَهُ - لِأَجْلِهِ -)، وَ(الـمَفعُولُ مَعَهُ)، وَهذَا فِيهِ نُكْتَةٌ بَدِيعَةٌ رَائِعَةٌ ذَكَرَهَا السِّيرافِيُّ فِي شَرْحِ الكِتَابِ، فَقَالَ: «وَالنَّحْوِيُّونَ يَذْكُرُونَ تَعَدِّيَ الأَفْعَالِ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنَ السِّتَّةِ، وَاشْتِرَاكَهَا فِيْهَا، وَهِيَ الـمَصَادِرُ، وَظُرُوفُ الزَّمَانِ، وَظُروفُ المكَانِ، وَالحَالُ، وَلم يذكُروا المفعُولَ مَعَهُ، وَلَا المفعُولَ لَهُ مَعَ هذِهِ الأَرْبَعَةِ، وذلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعلٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَصْدَرٍ، وَظَرْفِ زَمَانٍ، وَظَرْفِ مَكَانٍ، وَحَالٍ، وَقَدْ تَخلُو مِنَ المفعُولِ لَهُ، وَالمفعُولِ مَعَهُ، وذلِكَ أَنَّ المفعُولَ لَهُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ الفِعْلُ مِنْ أَجْلِهِ وَهُو الغَرَضُ الدَّاعِي للفَاعِلِ إِلى إِيقَاعِ الفِعْلِ، والمفعُولُ مَعَهُ هُوَ الَّذِي يُشَارِكُهُ الفَاعِلُ وَيُلَابِسُهُ فِيْهِ، تَقُولُ: (قَامَ زيدٌ حَذَرَ الشَّرِّ)، فَكَأَنَّهُ قَامَ، وكَانَ غَرَضُهُ فِي قِيَامِهِ أَنْ يَكْفِيَ الشَّرَّ الَّذِي يَحْذَرُهُ وَ(قَامَ زيدٌ ابتِغَاءَ الخَيْرِ)، أَيْ: لِابتغَاءِ الخَيْرِ، وكانَ قَصْدُهُ إِلَى ذلِكَ.

---

(١) الـمَبسُوطُ للسَّرَخسِيِّ (١/ ٢٢٤).

وَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَكَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ، أَوْ: فَعَلَ فِعْلًا وَهُوَ سَاهٍ، وَلَمْ يكُنْ لَهُ فِيْهِ غَرَضٌ، لـم يَكُنْ فِي فِعْلِهِ مَفعُولٌ لَهُ، وَلَوْ فَعَلَ فِعْلًا لم يُشَارِكْهُ فِيْهِ غيرُهُ لم يكُنْ مَفعُولٌ مَعَهُ، فَذَكَرَ النَّحويُّونَ الأَرْبَعَةَ الَّتِي يَحْتَاجُ الفِعْلُ إِلَيْهَا، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْ وَاحِدٍ مِنْهَا مَذْكُورًا، أَوْ: مَحْذُوفًا»[١].

الدَّلِيلُ الثَّالِثَ عَشَرَ: لَا يَجُوزُ بِنَاءُ مَا لَم يُسَمَّ فَاعِلُهُ مِنَ الفِعْلِ اللَّازِمِ:

هذِهِ القَاعِدَةُ قَاعِدَةٌ عَقلِيَّةٌ بَحْتَةٌ وَهِي مُنْبَنِيَّةٌ عَلَى الـمَنْطِقِ السَّلِيم؛ لأَنَّكَ لَو أَتَيْتَ إِلَى جُمْلَةِ (خَرَجَ زَيْدٌ)، أَوْ: (حَسُنَ زَيْدٌ)، وَأَرَدْتَ أَنْ تَجْعَلَهُمَا عَلَى صِيغَةِ الـمَفعُولِ الَّذِي لَم يُسمَّ فَاعِلُهُ، فَتَرَاهُمَا غيرَ صَالِحَيْنِ؛ لأَنَّ الفِعْلَ لَا يَسْتَنِدُ عَلَى شَيءٍ إِذَا حَذَفْتَ منهُ الفَاعِلَ، وَهذَا مُخِلٌّ بالـمَنْطِقِ وَالعَقْلِ، فَلِذلِكَ امتَنَعَ مِثلُ ذلِكَ، كَمَا قَالَ ابنُ الأنبَارِيِّ: «فَإِنْ قِيْلَ: فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُبْنَى الفِعْلُ اللَّازِمُ للمَفعُولِ بِهِ؟ قِيْلَ: لَا يَجُوزُ ذلِكَ عَلَى القَوْلِ الصَّحِيْحِ، وَقَدْ زَعَمَ بعضُهُم أَنَّهُ يَجُوزُ، وَلَيْسَ بِصَحِيْحٍ، إِلَّا أَنَّكَ لَوْ بَنَيْتَ الفِعْلَ اللَّازِمَ للمفعُولِ بِهِ، لَكُنْتَ تَحْذِفُ الفَاعِلَ، فَيَبْقَى الفِعْلُ غَيرَ مُسْتَنِدٍ إِلَى شَيْءٍ، وَذلِكَ مُحَالٌ»[٢].

وَقَدْ آنَ الأَوَانُ أَنْ أَتوَقَّفَ هُنَيْهَةً لِنَعُودَ إِلَى هذَا الـمَبْحَثِ لَاحِقًا فِي كِتَابِنَا الـمَوْسُومِ: (رَفْعِ الشَّجْوِ)، أَوْ: فِي بَحْثٍ مُسْتَقِلٍّ، بِإذنِ اللهِ تَعَالَى، وَلكِنْ قَبْلَ خِتَامِ هذَا الفَصْلِ أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْقُلَ هُنَا مُنَاظَرَةً جَمِيلَةً حَكَاهَا أَبُو حَيَّانَ التَّوحِيدِيُّ، وَهذِهِ الـمُنَاظَرَةُ وَقَعَتْ بَيْنَ أَبِي سَعِيدٍ السِّيرَافِيِّ، وَبينَ مَتَّى بنِ يُونسَ الـمَنْطِقِيِّ، وَمَدَارُهَا

---

(١) شَرحُ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ (١/ ٢٦٥).

(٢) أسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص٨٨).

حَوْلَ النَّحْوِ وَالـمَنْطِقِ وَالتَّفَاضُلِ بينَهُمَا، فَرَأيتُ أَنْ مِنَ الـمُستَحْسَنِ إِيْرَادُهَا هُنَا؛ لِأَنَّ لَهَا ارْتِبَاطًا بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَلَا سِيَّمَا وَالسِّيرَافِيُّ بيَّن فِيْهَا بِحِنْكَتِهِ الأَدَبِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ بَعْضَ خَصَائِصِ النَّحْوِ وَضَرُورَةَ مَعْرِفَتِهَا، وَضَرْبًا مِنْ جَانِبِ عَقْلَنَةِ قَوَاعِدِهِ.

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ السِّيرَافِيُّ بَعْدَ كَلامٍ طَوِيلٍ: «حَدِّثْنِي عَنِ «الوَاوِ» ما حكمُه؟ فإنِّي أريدُ أَنْ أُبيّنَ أنّ تفخيمَكَ للمنطِقِ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيئًا، وأنتَ تَجْهَلُ حَرْفًا واحِدًا فِي اللُّغةِ الَّتِي تدعُو بِهَا إِلَى حِكْمَةِ يُونَانَ، وَمَنْ جَهِلَ حَرْفًا أَمْكَنَ أَنْ يَجْهَلَ حُرُوفًا، وَمَنْ جَهِلَ حُروفًا جَازَ أَنْ يَجْهَلَ اللُّغَةَ بِكَمالِهَا، فإنْ كانَ لَا يجهَلُهَا كُلَّهَا وَلكِنْ يجهَلُ بعضَهَا، فلعلَّهُ يجهلُ مَا يحتاجُ إليهِ، وَلا يَنْفَعُهُ فيهِ عِلْمُ مَا لا يحتاجُ إليهِ. وهذِهِ رُتبَةُ العَامَّةِ، أَوْ: رُتبةُ مَنْ هُوَ فَوْقَ العَامَّةِ بِقَدْرٍ يَسيرٍ، فَلَمْ يَتَأَبَّ عَلى هذا وَيتكبَّرْ، ويتوهَّمُ أَنَّهُ مِنَ الخَاصّةِ وَخَاصَّةِ الخَاصَّةِ، وأَنَّهُ يعرِفُ سِرَّ الكَلامِ وَغامِضَ الحِكمَةِ وَخَفِيَّ القِيَاسِ وَصَحِيحَ البُرهانِ؟

وَإِنَّما سَأَلتُكَ عَنْ مَعَانِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، فكيفَ لو نَثَرْتُ عليكَ الحُروفَ كُلَّهَا، وَطالبتُكَ بِمَعَانِيهَا وَمَوَاضِعِهَا الَّتِي لَهَا بالحَقِّ، وَالَّتِي لَهَا بِالتَّجَوُّزِ، سَمِعْتُكُم تقُولُونَ: إِنَّ «فِي» لَا يَعرِفُ النَّحوِيُّونَ مَوَاقِعَهَا، وَإِنَّما يقُولُونَ: هِيَ «لِلوِعَاءِ» كَمَا يقُولُونَ: إِنَّ «البَاءَ» للإِلْصَاقِ، وَإِنَّ «فِي» تُقَالُ عَلَى وُجُوهٍ: يُقَالُ: «الشَّيءُ فِي الإِنَاءِ» «وَالإِنَاءُ فِي الـمَكَانِ» «وَالسَّائِسُ فِي السِّيَاسَةِ» «وَالسِّيَاسَةُ فِي السَّائِسِ».

أَتَرَى أَنَّ هذَا التَّشْقِيقَ هُوَ مِنْ عُقُولِ يونَانَ وَمِنْ نَاحِيَةِ لُغَتِهَا؟ وَلَا يجُوزُ أَنْ يُعْقَلَ هذَا بِعُقُولِ الهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالعَرَبِ؟ فهذَا جَهْلٌ مِنْ كُلِّ مَنْ يَدَّعِيهِ، وَخَطَلٌ مِنَ القَوْلِ

الَّذِي أَفَاضَ فِيْهِ. النَّحوِيُّ إِذَا قَالَ «فِي» للوِعَاءِ فَقَدْ أَفْصَحَ فِي الجُمْلَةِ عَنِ المعْنَى الصَّحِيحِ، وَكَنَّى مَعَ ذَلِكَ عَنِ الوُجُوهِ الَّتِي تَظْهَرُ بِالتَّفْصِيلِ، ومثلُ هذا كثيرٌ، وهو كافٍ في موضِعِ التَّكْنِيَةِ.

فَقَالَ ابنُ الفُرَاتِ[1]: أيُّها الشَّيخُ الموفَّقُ، أجِبْهُ بالبَيانِ عَنْ مَوَاقِعِ «الوَاوِ» حتَّى تكونَ أشدَّ في إفحَامِهِ، وحقِّقْ عِندَ الجمَاعةِ ما هُوَ عَاجِزٌ عنهُ، وَمَعَ هذَا فَهُو مُشَنِّعٌ بِهِ.

فقَالَ أبُو سَعِيدٍ: للوَاوِ وجوهٌ ومواقِعُ؛ مِنهَا: مَعْنَى العَطْفِ فِي قولِكَ: «أكرمتُ زيدًا وعمرًا». وَمِنهَا: القَسَمُ فِي قولِكَ: «وَاللهِ لَقَدْ كانَ كذَا وَكذَا». ومِنهَا: الِاسْتِئنَافُ[2] فِي قولِكَ: «خَرَجْتُ وَزَيدٌ قَائِمٌ»؛ لأَنَّ الكَلَامَ بعدَهُ ابتِدَاءٌ وَخبرٌ، وَمِنْهَا: مَعْنَى «رُبَّ» الَّتِي هِيَ للتَّقلِيلِ نَحو قَوْلِهِم:

[مِنَ الرَّجَزِ]

وَقَاتِمِ الأَعْمَاقِ خَاوِي الْمُخْتَرَقْ

ومِنهَا: أَنْ تكُونَ أَصلِيَّةً فِي الِاسْمِ، كَقَوْلِكَ: «وَاصِلٌ، «وَاقِدٌ، وَافِدٌ»، وفي الفِعْلِ كذَلِك، كَقَولِكَ: «وَجِلَ يَوْجَلُ»، وَمِنْهَا: أَنْ تكُونَ مُقْحَمَةً نَحْوُ قَولِ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-: [فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ]، أَيْ: نَادَيْنَاهُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

---

(١) قَالَ شَيخُنَا أَبُو الفَضلِ: فَائِدَةٌ: الِاسْتِئْنَافُ قِسْمَانِ، اسْتِئْنَافٌ نَحوِيٌّ، وَاسْتِئنَافٌ بَيَانِيٌّ. مَا هُوَ ضَابِطُ الِاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ؟ ج: الِاسْتِئْنَافُ البَيَانِيُّ هُوَ: (الوَاقِعُ فِي جَوَابِ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ).
س: مَا هُوَ الِاسْتِئْنَافُ النَّحوِيُّ؟ ج: الِاسْتِئْنَافُ النَّحْوِيُّ عَكْسُ الِاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ، إِذْ هُوَ: مَا لَيْسَ وَاقِعًا فِي جَوَابِ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ هذَا التَّقْسِيمَ، دَفْعًا بِالصَّدْرِ، وَالقَوْلُ بِهِ هُوَ الرَّاجِحُ. (التَّوْضِيحَاتُ الجَلِيَّةُ) (ص:٥٦٨).

(٢) هُوَ الوَزِيرُ الَّذِي عَقَدَ مَجْلِسَ المُنَاظَرَةِ.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَلَمَّا أجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ

المعْنَى: انْتَحَى بِنَا، وَمِنْهَا: مَعْنَى الحَالِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: [وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا]، أيْ: يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي حَالِ كُهُولَتِهِ. وَمِنْهَا: أنْ تكونَ بِمَعْنَى حَرْفِ الجَرِّ، كقَولِكَ: استوَى الماءُ وَالخَشَبَةَ، أَيْ: مَعَ الخَشَبَةِ.

فَقالَ ابنُ الفُرَاتِ لِمَتَّى: يَا أَبَا بِشْرٍ: أَكانَ هذَا فِي نَحْوِكِ؟.

ثُمَّ قالَ أَبُو سَعيدٍ: دَعْ هذَا، هَاهُنَا مَسْأَلَةٌ عَلاقَتُها بِالمعْنَى العَقْلِيِّ أكثرُ مِنْ علاقَتِهَا بِالشَّكْلِ اللَّفْظِيِّ، مَا تَقُولُ فِي قولِ القَائِلِ: «زيدٌ أَفْضَلُ الإِخوَةِ» ؟ قَالَ: صَحِيْحٌ.

قالَ: فَمَا تقُولُ إِنْ قَالَ: «زيدٌ أفضَلُ إِخْوَتِهِ»؟ قالَ: صَحِيحٌ، قالَ: فَمَا الفَرْقُ بَيْنَهُمَا مع الصِّحَّةِ؟

فَبَلَحَ وَجَنَحَ، وَغصَّ بِرِيْقِهِ.

فقالَ أبو سَعِيدٍ: أَفْتَيتَ عَلى غَيرِ بَصيرَةٍ وَلَا استِبَانَةٍ، المسألةُ الأُولى جوابُكَ عَنْهَا صحيحٌ وإنْ كُنتَ غَافِلًا عن وَجْهِ صحَّتِها، والمسألةُ الثَّانيَةُ جوابُك عَنْهَا غيرُ صَحِيحٍ وإنْ كنتَ أيضًا ذَاهِلًا عَنْ وَجْهِ بُطْلَانِها.

قالَ متَّى: بَيِّنْ لي مَا هذَا التَّهْجِينُ؟

قالَ أَبُو سَعيدٍ: إذَا حَضَرْتَ الحلقةَ استفدْتَ، لَيسَ هذَا مكانَ التَّدريسِ، هوَ مَجْلِسُ إِزالَةِ التَّلبِيسِ، مع مَنْ عَادَتُهُ التَّمويْهُ وَالتَّشبِيهُ، والجماعةُ تَعْلَمُ أنّك أخطأتَ، فلِمْ تَدَّعِ أنَّ النَّحويَّ إنَّما ينظرُ في اللَّفْظِ دونَ المعنَى، والمنطقيَّ ينظرُ في المعْنَى لَا في

اللَّفْظِ؟ هذَا كانَ يَصِحُّ لَوْ أَنَّ المنطِقِيَّ كانَ يَسْكُتُ وَيُجِيْلُ فِكْرَهُ فِي المعَانِي، وَيُرَتِّبُ مَا يُرِيدُ بِالوَهمِ السَّانِحِ والخَاطِرِ العَارِضِ وَالحَدْسِ الطَّارِئ ... قالَ ابنُ الفُراتِ لأَبي سَعيدٍ: تَمِّمْ لَنَا كَلامَكَ فِي شَرْحِ المسأَلَةِ حتَّى تكُونَ الفَائِدَةُ ظَاهِرَةً لِأَهْلِ المجلِسِ، والتَّبْكِيتُ عَامِلًا فِي نَفْسِ أَبِي بِشْرٍ.

فقالَ: مَا أَكْرَهُ مِنْ إِيضَاحِ الجوَابِ عنْ هذِهِ المسأَلَةِ إِلَّا مَلَلَ الوَزِيرِ، فإنَّ الكَلامَ إِذَا طَالَ مَلَّ.

فقالَ ابنُ الفُراتِ: مَا رَغِبْتُ فِي سَمَاعِ كَلامِكَ وَبينِي وَبيْنَ الـمَلَلِ عَلاقَةٌ، فَأَمَّا الجَمَاعَةُ فَحِرْصُهَا على ذلِكَ ظَاهِرٌ.

فقالَ أبو سَعيدٍ: إِذَا قُلْتَ: «زَيدٌ أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ» لَم يَجُزْ، وَإِذا قُلْتَ: «زَيدٌ أَفْضَلُ الإِخْوَةِ» جَازَ، وَالفَصْلُ بَيْنَهُما أَنَّ إِخوَةَ زَيْدٍ هُمْ غَيْرُ زَيْدٍ، وَزَيدٌ خَارِجٌ عَنْ جُمْلَتِهِم.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَو سأَلَ سَائِلٌ فقَالَ: «مَنْ إِخوَةُ زَيْدٍ؟» لَم يَجُزْ أَنْ تَقُولَ: «زَيدٌ وَعَمْرٌو وَبَكْرٌ وَخَالِدٌ»، وَإِنَّمَا تَقُولُ: «بَكْرٌ وَعَمْرٌو وَخَالِدٌ»، وَلا يَدْخُلُ زَيدٌ فِي جُمْلَتِهِم، فَإِذَا كانَ زيدٌ خَارِجًا عنْ إخوَتِهِ؛ صَارَ غَيْرَهُمْ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ تَقُولَ: «أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ»، كَمَا لَم يَجُزْ أَنْ تَقُولَ: «إِنَّ حِمَارَكَ أَفْرَهُ البِغَالِ»؛ لأَنَّ الحَمِيرَ غَيْرُ البِغَالِ، كَمَا أَنَّ زَيْدًا غَيرُ إِخْوَتِه، فَإِذَا قُلْتَ: «زَيْدٌ خَيرُ الإِخْوَةِ» جَازَ؛ لأَنَّهُ أَحَدُ الإِخْوَةِ، وَالِاسمُ يَقَعُ عليهِ وَعَلَى غيرِه، فَهُوَ بَعْضُ الإِخوَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لو قِيلَ: «مَنِ الإِخْوَةُ»؟ عَدَّدْتَهُ فِيهِمْ، فَقُلْتَ: «زَيْدٌ وَعمرٌو وبكرٌ وخالِدٌ» فيكُونُ بمَنزِلَةِ قولِكَ: «حِمَارُكَ أَفْرَهُ الحَمِيرِ» لأَنَّهُ دَاخِلٌ تحتَ الِاسْمِ الوَاقِعِ عَلَى الحَمِيرِ. فَلَمَّا كانَ على مَا وَصَفْنَا جَازَ أَنْ يُضَافَ إِلَى وَاحِدٍ مَنْكُورٍ يَدُلُّ عَلَى الجِنْسِ، فتقُولُ: «زَيدٌ أَفْضَلُ رَجُلٍ»، وَ«حِمَارُكَ

أَفْرَهُ حِمَارٍ»، فَيدُلُّ «رَجُل» عَلَى الجِنْسِ كَمَا دَلَّ «الرِّجَال»، وَكَمَا فِي: «عِشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَائَةِ دِرْهَمٍ».

فقالَ ابنُ الفُراتِ: مَا بعدَ هذَا البَيَانِ مَزِيدٌ[1]، وَلَقَدْ جَلَّ عِلْمُ النَّحْوِ عِنْدِي بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وهذَا الإِسْفَارِ»[2].

فَهذِهِ هي قوَّةُ قَواعِدِ العربيَّةِ حيثُ يعترِضُ عليهَا أعدَاءُ الأُمَّةِ وَيدعُونَ إِلَى إِبْعَادِهَا عَنِ الإِعْلامِ وَالصَّحَافَةِ، وَهِيَ لُغَةٌ كُلُّ كَلِمَاتِهَا نُورٌ، وَكُلُّ أدَوَاتِهَا نَصَاعَةٌ وَفَصَاحَةٌ لَحرِيَّةٌ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

بَلَاغَةٌ عِنْدَهَا كَعَّ البَلِيغُ فَلَمْ ... يَنْطِقْ وَفِي هَدْيِهِ طَاحَتْ أَضَالِيْلُ

وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ أوزونُ وَتَقَيَّلَ الأَعْدَاءَ، بَلْ: فَاقَهُم فِي هذِهِ الهَجْمَةِ العُدوانيَّةِ الشَّرسَةِ التَّعِسَةِ وَدَعَا إِلَى إِبعَادِ الفَصِيْحَةِ عَنِ الحَيَاةِ وَجَعْلِ العامِّيَّةِ بديلًا لَهَا، دونَ الاعتبارِ بأنَّ اللُّغَةَ العَربيَّةَ الفَصِيحَةَ تَجمَعُ المسْلِمينَ وَتُوَحِّدُ كَلِمَتَهَمُ، وإِنْ كَانَ لا يؤمِنُ باجتِمَاعِ المسلِمينَ وَوَحْدَتِهِم، فَلِمَ لا تُحرِّكُهُ عَرَبيَّتُهُ وَالحَميَّةُ القَوميَّةُ الَّتِي لَطَالَمَا يَقرعُونَ الآذانَ بِهَا؟ وَلكنَّ المسكِينَ لا يَدْرِي أنَّ شَرَّ السَّمكِ الَّذي يُكَدِّرُ الْمَاءَ، ليتَهُ تَنبَّهَ وَفَهِمَ وَلَمْ يكُنْ أُلعوبةً بيدِ أُنَاسٍ رِعدِيدِينَ ضَالِّينَ، وَأمعَنَ النَّظَرَ فِي كَلامِ الأديبِ

---

(١) قَالَ شَيخُنَا عُمَرُ الحَدُّوشيُّ: كانَ شيخُنا ومجيزُنا العَلامَّةُ النَّحويُّ عيادٌ اليدريُّ- بَعْدَ أنْ يُبَيِّنُ للطَّلَبَةِ مَسْأَلَةً مِنْ مَسَائِلِ النَّحوِ أوِ: البَلَاغَةِ ويُقرِّبُهَا لَهُم يَقُولُ: (هَلْ بَعْدَ هذَا البَيَانِ مِنْ بَيَانٍ؟).

(٢) الإِمتَاعُ وَالمؤانسَةُ لأَبي حَيَّانَ التَّوحِيدِيِّ، (ص٩٤-٩٧)، وَنَقَلَهُ يَاقُوتُ فِي مُعْجَمِهِ (٢/ ٩٠١).

الكَبيرِ مُصْطَفَى صَادِقٍ الرَّافِعِيِّ حَيْثُ قالَ: «وَمَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذَلَّ، وَلَا انْحَطَّتْ إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ، وَمِنْ هذَا يَفْرِضُ الأَجْنَبِيُّ الْـمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرْضًا عَلَى الأُمَّةِ الْـمُسْتَعْمَرَةِ، ويُرْكِبُهُم بِهَا ويُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيْهَا، ويَسْتَلحِقُهُم مِنْ نَاحِيَتِهَا، فَيَحْكُم عَلَيْهِم أَحْكَامًا ثَلاثةً في عَمَلٍ وَاحِدٍ:

أمَّا الأوَّلُ: فحبْسُ لُغَتِهِم في لُغَتِهِ سجْنًا مؤبَّدًا.

وَأَمَّا الثَّانِي: فالحُكْمُ عَلَى مَاضِيْهِمْ بِالقَتْلِ مَحْوًا وَنِسْيَانًا.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِم في الأَغْلالِ الَّتِي يَصْنَعُهَا، فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبَعٌ.»[(١)].

وَاللهِ لَقَدْ صَدَقَ الرَّافِعيُّ فِي ذلِكَ ورأيناهُ وَنَراهُ عيانًا، وَقَدْ تَأَثَّرَ بِهِم بَعْضُ كُتَّابِ الْـمُسلمينَ مِنَ الْـمُخلِصِينَ، وَآخَرُونَ يَعمَلونَ بِمُخَطَّطِهِمُ الظَّالِمِ وَيَأْخذُونَ عِندَهُمُ الدُّرُوسَ الْـمَنهَجِيّةَ فِي تَشْوِيشِ فِكْرِ الشَّبابِ وَانحِرافِهِم عَنِ الجَادَّةِ، وَقَدْ رَأَينَا الْـمُهَندِسَ أيضًا فِي كُتُبِهِ الثَّلاثَةِ عَمِلَ عَلَى هذَا، وَاللهُ الْـمُسْتَعَانُ.

وَالآنَ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَدَى قَسَاوَةِ قَلْبِ الْـمُهَنْدِسِ مَعَ العَرَبِيَّةِ لَـمَّا قَالَ: (قَوَاعِدُ اللُّغَةِ عِنْدَنَا لَيسَتْ مَنْطِقِيَّةً وَلَا عَقْلانِيَّةً!). وَكَمَا حُقَّ لأَبْنَاءِ العَرَبِيَّةِ وَمُحِبِّيْهَا أَنْ يَقُولُوا لِلْمُهَنْدِسِ مَنْ أَنْتَ حَتَّى يَكُوْنَ لَكَ رَأيٌ فِي تَقْيِيمِ العَرَبِيَّةِ؟ بَلْ: حَتَّى يَكُونَ لَكَ (عِنْد) أَصْلًا؟

---

(١) وَحْيُ القَلمِ للرَّافِعيِّ (٣/ ٢٧).

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَتَانَـــا مِــنَ الأَرْيَـــافِ قَــوْمٌ تَفَقَّهُــوا وَلَـيْسَ لَهُـمْ فِـي الفَضْـلِ قَبْـلُ وَلَا بَعْـدُ

يَقُولُـــونَ هَـــذَا عِنــدَنَا غَيــرُ جَـــائِزٍ وَمَــنْ أَنــتمُ حتَّــى يَكُــونَ لَكُــم عِنــدُ

هَلْ تُرِيدُنَا أَنْ نترُكَ لُغَةَ القُرآنِ؟!

حَاولَ الكَاتِبُ أَنْ يَجْعَلَ تركَ اللُّغةِ الفُصْحَى كَشيءٍ يَسيرٍ وَكأَنَّهُ أمرٌ هَيِّنٌ جِدًّا، فَقَالَ: «وَقَدْ يقُولُ أحدُهُم الآنَ: هَلْ تُرِيدُنَا أنْ نتكلَّمَ باللَّهْجَةِ العَامِّيَّةِ وَنترُكَ اللَّهْجَةَ الأُمَّ وَاللُّغَةَ الأُمَّ لُغَةَ القُرآنِ الكَريمِ؟ فَأقُولُ لَهُ: مَهلًا يَا سيِّدِي فأنتَ قدْ تَرَكْتَهَا في الوَاقِعِ -شِئْتَ ذلِكَ أَمْ أبيتَ- والدَّليلُ على هذَا وجودُ اللَّهَجَاتِ المنتَشِرَةِ فِي كَافَّةِ أرجاءِ الوَطَنِ العَرَبِيِّ، وإنَّ حِوارَكَ معَ أفرادِ أُسرَتِكَ، أَوْ: مَعَ نَفْسِكَ -عندَ مَا تُخَطِّطُ وَتُفكِّرُ وَتُدَبِّرُ- هُوَ بالعَامِّيَّةِ، حَتَّى أحلامُكَ تَرَاهَا وَتَحكِيهَا بالعَامِّيَّةِ، وَمَا المُشكِلَةُ إِذَا تَمكَّنَّا مِنْ فهْمِ لَهَجَاتِ لُغتِنَا العَرَبِيَّةِ الجَمِيلَةِ وَاستوْعَبْنَاهَا. وَهَلْ أَلْغَى رَسُولُنَا الكَرِيمُ محمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَهَجَاتِ القَبَائِلِ عِنْدَ بِعثَتِهِ؟ لَقَدْ سَمَحَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ بِقراءَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ بِقِرَاءاتٍ مُختَلِفَةٍ، فكانَ مِنْ تيسيرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- للرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنْ أَمَرَهُ بأنْ يُقْرِئَ كُلَّ قومٍ بلُغَتِهِم». ص(١٨).

أقُولُ: إنَّ الكَلامَ علَى مَا أتَى بِهِ صاحِبُ الجِنايَةِ يَكونُ مِنْ جِهَاتٍ عِدَّةٍ، وَهِيَ:

الأُوْلَى: يُحاوِلُ أنْ يُصوِّرَ بأنَّ الفُصْحَى تَمَّ هجرُهَا وَلَم يَبْقَ لَهَا اسمٌ وَلَا رَسمٌ، وَتَرَكَهَا النَّاسُ بالكُلِّيَّةِ، وَلكِنَّ مِثْلَ هذَا الكَلَامِ عَجِيبُ التَّفَوُّهُ بِهِ؛ لأنَّ لُغَةَ الجَامِعَاتِ وَالمَدَارِسِ وَمَنَاهِجَهَا فِي الدُّوَلِ العَرِبيَّةِ هِيَ الفُصْحَى، وَإِنَّكَ لَا تَجِدُ حقْلًا عِلميًّا إلَّا وَاتَّخذَ الفُصْحَى لَهُ لِسَانًا وَعُنوانًا وَيعيشُ مَعَهَا، وَلا تَزَالُ الكُتُبُ تُطْبَعُ وتُنشَرُ بالفُصْحَى، وَهِيَ لُغَةُ الإعلامِ أيضًا فِي جَمِيعِ الأَقطَارِ العَرِبيَّةِ، والحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ.

الثَّانِيَةُ: أنَّ عَوَامَّ النَّاسِ فِي السُّوقِ، أوْ: فِي بُيوتِهِم يَتكَلَّمُونَ بالعَامِّيَّةِ، وَهذَا لَا يُنْكَرُ، وَلكِنَّ سَبَبَ انتِشَارِ العَامِّيَّةِ وَتِلكَ اللَّهَاجَاتِ الدَّارِجَةِ، لَم يَكُنْ مِنْ جَرَّاءِ كَرَاهِيَّةٍ فِي قُلُوبِ النَّاسِ عَلَى الفُصْحَى، وَلَم يَكُنْ حِقْدًا دَفِينًا وَلَا ضَغِينَةَ صَدْرٍ تُجَاهَهَا، بَلْ: كَانَ بِسَبَبِ مُؤامَرَاةٍ صَدَّتِ النَّاسَ عنهَا وَأبْعَدَتْهَا فِي حَياتِهِم، وَإِلَّا فَالفُصْحَى كَانَتْ لُغَةَ النَّاسِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي حَيَاتِهِم، وَهكذَا استَمَرَّ لأُلُوفِ سِنينَ دونَ أيَّةِ مُشكِلَةٍ مُقبلَةٍ فِي الوَاقِعِ، وَكَانُوا بِهَا يَتكَلَّمُونَ وَبِهَا يَكتُبُونَ أَشعَارَهُم، وَ كانَتْ هِيَ لِسانَهُم فِي المُعَاملَاتِ اليَومِيَّةِ، وَكُلُّ مَا حَصَلَ مِنِ ابتِعَادِ النَّاسِ عَنْهَا، كَانَ جَرَّاءَ هَجمَاتِ المُستَشرِقينَ وَأذنَابِهِم وَأَذيَالِهِم عَلَى هذِهِ اللُّغَةِ العَبقَرِيَّةِ، وَاتِّهَامِهِم إِيَّاهَا بالتَّعقِيدِ وَالجُمُودِ وَالصُّعُوبَةِ، وَلم يَكتَفُوا بالتَّنقِيصِ وَحْدَهُ، بَلْ: كانَ مَعَ كُلِّ مُحاوَلَةِ تَنقِيصٍ، كَانَ هُناكَ مُحاولَةٌ لِتَزيِينِ الدَّارِجَةِ(العَامِّيَّةِ)، حَتَّى اغتَرَّ بِهَا بعضُ النَّاسِ، وَقَدْ كَانَ الأَعدَاءُ وَرَاءَ إِخرَاجِ أفلامٍ وَمُسلسَلَاتٍ بالدَّارِجَةِ، حَتَى تَنتَشِرَ مِنْ خِلالِ السِّينَمَا، وَهذَا مَعلُومٌ لَدَى كُلِّ مَنْ نَظَرَ فِي تَارِيخِ الحَرْبِ عَلَى الفُصْحَى.

الثَالِثَةُ: لَوْ فَرَضْنَا أنَّ النَّاسَ تَرَكُوا الفُصْحَى وَابتَعَدُوا عَنْهَا، فَلَا شَكَّ أنَّ هَمَّ المُخلِصِ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى سَيَكُونُ فِي إِيقَاظِهِم وَتَنبِيهِهِم، لَا أَنْ يَكُونَ مُمَرِّرًا لَهِذِهِ الكَارِثَةِ وَالفَاجِعَةِ البَشْعَاءِ، فَمِنْ هذِهِ الجِهَةِ يَتَمَيَّزُ المُخلِصُ مِنَ المُتَآمِرِ!

الرَّابِعَةُ: عَجِيبٌ أمرُ سِيَادَةِ المُهندِسِ لَـمَّا حَاوَلَ تَزْيِينَ العَامِّيَّةِ فَحَبَّبَهَا بِوَصْفِهِ إِيَّاهَا بالجَمِيلَةِ، وَفِي أَوَّلِ الكِتَابِ إِلَى آخِرِهِ يَصِفُ الفَصِيحَةَ بِالجُمُودِ وَأنواعٍ مِنَ الكَلامِ القَاسِي الجَافِّ الجَافِي، وَالمُنصِفُ بَعْدَ النَّظَرِ إِلَى مَبَاحِثِ كِتَابِنَا يَتبَيَّنُ لَهُ قبحُ مَقَالِهِ وَيُبْسُ مَآلِهِ، فِي العُدْوَانِ عَلَى هذِهِ اللُّغَةِ العَبقَرِيَّةِ.

الخَامِسَةُ: أنَّ الأَعْجَبَ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ وَالأَدْهَى وَالأَمَرَّ، هُو استِدلالُ السَّيِّدِ أوزون بإقْرَارِ الرَّسُولِ الكَرِيم -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بوجُودِ اللَّهَجَاتِ، وَأَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ رَاعَاهَا فِي الِاستِخْدَامِ، فَقُبحُ هذَا الِاستِدلالِ لَا يَخْفَى عَلَى أحدٍ؛ لأنَّ اللَّهَجَاتِ الَّتِي أَقرَّهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُلُّهَا مِنْ ضِمْنِ الفُصْحَى، وَلكِنَّ اللَّهَجَاتِ العَامِّيَّةَ مُقارِنَةً بِتِلْكَ اللَّهَجَاتِ الَّتِي أقَرَّهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَأَنَّهَا لُغَةٌ أُخرَى غيرِ العَرَبِيَّةِ، فِي القَوَاعِدِ وَالنَّظْمِ وَالأُسْلوبِ، وَكُلُّ ذلِكَ يُؤَثِّرُ عَلَى فَهْمِ النَّاسِ لِكِتابِ اللهِ تَعالَى، فَالمُشكِلَةُ تَكْمُنُ فِي فَهْمِ كَلَامِ العَرَبِ عَلَى جِهَتِهِ، وَبذلِكَ لَا يَستَقِيمُ فَهمُ النَّاسِ لِمُرادِ كَلامِ اللهِ تَعالَى وَكلامِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى وَجْهِهَا، فَمَثَلًا لَـمَّا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ**»، حَوَّلَهَا بِإِحدَى اللَّهَجَاتِ الفَصِيحَةِ -وَهِيَ لُغَةُ الأَشْعَرِيِّينَ- كَمَا رَوَاهُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي مُسْنَدِهِ قَائِلًا: أَخْبَرَنَا سُفيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ كَعْبِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَيْسَ مِنَ امْبِرِّ امْصِيَامُ فِي امْسَفَرِ**»[1].

وَقَالَ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ: «وَهَذَا لُغَةُ الْأَشْعَرِيِّينَ يَقْلِبُونَ اللَّامَ مِيمًا فَيَقُولُونَ: (**رَأَيْنَا أُولَئِكَ امْرِجَالَ**) يُرِيدُونَ: الرِّجَالَ، وَ(**مَرَرْنَا بِامْقَوْمِ**) أَيْ: بِالْقَوْمِ، وَهَى لُغَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ إِلَى الْآنَ بِالْيَمَنِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: (**يَوْمَ الدَّارِ طَابَ امْضَرْبُ**)، يُرِيدُ: طَابَ الضَّرْبُ»[2].

---

(١) رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ فِي الـمُسْنَدِ (١/ ١٥٧)، وَيُنْظَرُ أيضًا: مُسنَدُ الحُمَيْدِيِّ (٢/ ١١٣)، بِرَقْمِ: (٨٨٧)، وَشَرْحُ مَعَانِي الآثَارِ (٢/ ٦٣)، بِرَقْمِ: (٣٢١٣).

(٢) الكِفَايَةُ فِي عِلْمِ الرِّوَايَةِ للخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (ص١٨٣).

فكَمَا عَلِمْنَا أنَّ إقْرَارَ النَّبيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ عَلَى هذِهِ الجِهَةِ، أمَّا استِدْلالُ أوزونَ بِهِ للَّهَجَاتِ العَامِّيَّةِ فَهُو عَجَبٌ عُجَابٌ.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَمَنْ عَاشَ فِي الدُّنيَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَرَى أعَاجِيبَ شَتَّى وَالزَّمَانُ أَعَاجِيبُ

ثُمَّ يَستمِرُّ الكَاتِبُ بِنَاءً عَلَى مُغالَطَتِهِ السَّابِقَةِ بالِاحتِجَاجِ بالقِرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ وَيقُولُ كَلامًا يُزْرِي بِهِ، وَهُوَ: «وَلَا أظنُّكُم تطلُبُونَ مِنْ كلِّ مُسلِمٍ أنْ يقومَ بِقِرَاءَةِ القُرآنِ كَامِلًا وَبِنَفْسِ لَهجَةِ قُرَيشٍ ولَو طَلَبْنَا ذلِكَ لعجزَ عَنِ الإسلَامِ -بشَكْلٍ مَبْدَئِيٍّ- أَهْلُ البَاكِستانِ وَأفغَانستَان وَإيران ونَيجيريَا وَإندُونيسيَا وَالسّنغَالِ وأَهْلِ تُركيَا وَالبلقَانِ، وحتَّى العَربُ؛ لأنَّ قِراءَتَهُم لَا تُعجِبُ الكَثِيرَ مِنَ القُرَّاءِ الأفَاضِلِ، وَلعلَّ نِسبَةَ النَّجَاحِ فِي قِراءَتِهم لَا تتجَاوَزُ العَشرةَ بالمائَةِ». ص: (١٨).

لَا أدرِي وَاللهِ بِمَ أُعلِّقُ عليهِ وَكيفَ أُقوِّمُ لَهُ أخطَاءَهُ، هَلْ أُبيِّنُ له أنَّ القِرَاءَاتِ شَيءٌ وَاللَّهَجَاتِ العَامِّيَّةَ شَيءٌ آخرُ؟ أَمْ: أُبيِّنُ لَهُ أنَّ أَهْلَ أَكْثَرِ هذِهِ البُلْدَانِ الَّتِي ذَكَرَهَا يَقرَؤُونَ القُرآنَ عَلَى قِراءَةِ حَفْصٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَليسَتْ بينَ قِرَاءَتِهِم وَقِرَاءَتِنَا ثَمَّةَ فَرْقٌ؟ أَمْ: أبَيِّنُ لَهُ أنَّ قِرَاءَاتِهِم بِالقِرَاءَاتِ الأُخرَى صَحِيحَةٌ يُقِرُّهَا كُلُّ مُسلِمٍ، وَتُعْجِبُهُم وَلَا يَرَونَ بِهَا بَأسًا، وَمَا أَدْرِي كَيفَ حدَّدَ أوزُونُ العَشرَةَ بالمائَةِ؟ وَاللهُ المُستَعَانُ.

[مِنَ الوَافِرِ]

أَسُوْءُ سَرِيرَةٍ وَخَبَالُ قَلْبٍ؟ وَلُؤمُ غَرِيزَةٍ وَفَسَادُ عِرقٍ؟
نَعُوذُ بِرَبِّنَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَنَبرَأُ مِنْ مَعَرَّةِ كُلِّ رِقِّ

هَلْ لُغَةُ النَاسِ فِي الحَيَاةِ اليَومِيَةِ كَانَتْ فُصْحَى؟

هُنَاكَ مَنْ يُخَالِفُ فِي ذلِكَ وَيَقُولُ: إنَّ للعَامِيَّةِ وجُودًا عِنْدَ العَرَبِ الأَقْدَمِينَ، وَكَانَ النَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ بِهَا فِيمَا بَيْنَهُم فِي حَيَاتِهِمُ اليَومِيَّةِ، أمَّا الفُصْحَى فَإِنَّهَا كَانَتْ لِلمَجَالِسِ العِلْمِيَّةِ وَالأَنديَاتِ الأدَبِيَّةِ، وَمَا عَدَا ذلِكَ فَالنَّاسُ تَكَلَّمُوا باللَّهَجَاتِ العَامِّيَّةِ دُونَ الفُصْحَى!

وَلكِنَّنِي لَا أقتَنِعُ بِذلِكَ أبدًا وَمِنَ الصَّعْبِ الاقتِنَاعُ بِهِ عِنْدَ مَنْ بَحَثَ فِي أحوَالِ العَرَبِ المُختَلفَةِ وَتَارِيْخِهِم وَحَيَاتِهِمُ اليَومِيَّةِ؛ لأنَّ الأَدِلَّةَ بِخلافِ مَقَالِهِم قَائِلَةٌ نَاطِقَةٌ، وَهِيَ تُثْبِتُ أنَّ العَرَبَ كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بالفُصْحَى، وَلَا يَعْرِفُونَ شَيئًا اسمُهُ العَامِّيَّةُ، أَوِ: الدَّارِجَةُ، وَمِنْ هُنَا أكتَفِي بِبَعْضِ الأَدِلَّةِ لَعَلَهَا تُرشِدُ الحَائِرَ وَتُلْجِمُ الجَائِرَ.

فَمِنْهَا: أَنَّ أبَا الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ رَأَى أعْدَالًا للتُّجَّارِ عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ (لأَبُو فلَانٍ)، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ يَلْحَنُونَ وَيَرْبَحُونَ![1].

فهذَا الكَلامُ كَانَ للتُّجَّارِ مِنْ أَهْلِ السُّوقِ وَليسَ للأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَأَهْلِ العِلْمِ.

وَمِنْهَا: مَا رُوِيَ أنَّ رَجُلًا قَالَ للحَسَنِ البَصْرِيِّ: (يَا أَبُو سَعِيدٍ)!، فَقَالَ: كَسْبُ الدَّرَاهِمِ شَغَلَكَ عَنْ أَنْ تَقُولَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ![2].

---

(١) أَدَبُ المجَالَسَةِ وَحَمْدُ اللِّسَانِ لِابنِ عَبدِ البَرِّ (ص٦٢)، وَفِي عُيونِ الأَخبَارِ لِابنِ قُتيبَةَ (٢/ ١٧٤)، عَنْ أعرَابِيٍّ، وَفِي مُعجَمِ الأُدباءِ (١/ ٢٣)، والمستَطْرَفِ فِي كُلِّ فَنٍّ مُستَطْرف للأبشيهِيِّ (ص٣١).

(٢) أَدَبُ المجَالَسَةِ وَحَمْدُ اللِّسَانِ لِابنِ عَبدِ البَرِّ (ص٦٢).

وَأورَدَهُ يَاقُوتُ قَائِلًا: قَرَعَ رَجُلٌ عَلَى الحَسَنِ البَصْرِيِّ البَابَ وَقَالَ: يَا أَبُو سَعِيْدٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ: أَبِي سَعِيْدٍ، فَقَالَ الحَسَنُ: قُلِ الثَّالِثَةَ وَادْخُلْ[1]. يَعْنِي بالثَّالِثَةِ: أبَا سَعِيدٍ.

وَهذَا الكَلَامُ أيضًا مُوَجَّهٌ لِرَجُلٍ تَاجِرٍ كَانَ شُغْلُهُ التِّجَارَةَ وَالتَّسَوُّقَ، وَلَيسَ التَّجْوَالَ فِي مَجَالِسِ العِلْمِ.

وَمِنْهَا: مَا أَورَدَهُ الوَزِيرُ أَبُو سَعدٍ الآبِيُّ قَائِلًا: دخلَ خَالِدُ بنُ صَفوَانَ الْحمَّامَ -وَفِيهِ رَجلٌ مَعَ ابْنِهِ- فأرادَ أَنْ يُعرِّفَ خَالِدًا بَلاغتَهُ فَقَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، ابْدَأْ بِيَدَاكَ وَثَنِّ بِرِجْلاكَ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى خَالِدٍ، فقَالَ: يَا أَبَا صَفوانَ! هَذَا كلامٌ قَدْ ذَهَبَ أَهلُهُ.

فَقَالَ خالِدٌ: هَذَا كلامٌ مَا خلَقَ اللهُ لهُ أَهلًا[2].

وَمِنْهَا: مَا ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ التَّارِيخِ وَاللُّغَةِ أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى زِيَادِ بْنِ أَبِيْهِ وَقَالَ: إِنَّ أَبُونَا مَاتَ، وَإِنَّ أَخِينَا وَثَبَ عَلَى مَالِ أَبَانَا فَأَكَلَهُ. فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ: الَّذِي أَضَعْتَ مِنْ لِسَانِكَ أَضَرُّ عَلَيْكَ مِمَّا أَضَعْتَ مِنْ مَالِكَ[3].

وَمِنْهَا: مَا حَكَاهُ يَاقُوتُ فِي مُعْجَمِهِ قَائِلًا: كَانَ مُعَاوِيَةُ بنُ بَجِيْرٍ عَامِلُ البَصْرَةِ لَا يَلْحَنُ، فَمَاتَ بَجِيرٌ بِالبَصْرَةِ وَمُعَاوِيَةُ بِفَارِسَ خَلِيفَةُ أَبِيهِ، فَقَالَ الفَيْجُ الَّذِي جَاءَ بِنَعْيِهِ:

---

(١) مُعجَمُ الأُدباءِ لِياقُوت الحَمَويِّ (١/ ٢٣).

(٢) نَثْرُ الدُّرِّ فِي المحَاضَرَاتِ للآبيِّ (٥/ ١٧٩).

(٣) البَيَانُ وَالتَّبيينُ للجَاحِظِ (٢/ ١٥٢)، وَتَارِيخُ دِمشقَ (١٩/ ١٩٥)، وَالمَحَاسِنُ والأَضدَادُ للجَاحِظِ (ص٢٥)، وَعُيونُ الأخبَارِ (٢/ ١٧٤)، وَرَبِيعُ الأَبرارِ للزَّمَخْشَرِيِّ (٤/ ٥٨)، وَالتَّذْكِرَةُ الحَمدُونِيَّةُ (٩/ ٤٥٢)، وَصُبحُ الأَعْشَى (١/ ٢٠٧).

مَاتَ بُجَيْرًا. فقَالَ لَهُ: لَحِنْتَ لَا أُمَّ لَكَ[١].

وَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الآبِيُّ أيضًا: «قَالَ رَجُلٌ لآخَرَ: تَأْمُرُ بِشَيْئًا؟ قَالَ: بِتَقْوَى اللهِ، وَإِسْقَاطِ الْأَلِفِ»[٢].

فَهذِهِ الرِّوَاياتُ وَغيرُهَا مِنَ الرِّواياتِ الكَثِيرَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي بيَانِ شِدَّتِهِم مَعَ عَامَّةِ النَّاسِ فِي الكَلامِ اليَومِيِّ وَالمُطَالَبَةِ بالإعرَابِ وَعَدَمِ اللَّحْنِ، كُلُّهَا دَالَّةٌ عَلَى أنَّ النَّاسَ قَدِيمًا يَتَكَلَّمُونَ بالفُصْحَى فِي مَجَالَاتِ حَيَاتِهِم الـمُخْتَلِفَةِ، وَلَمْ تَكُنْ للعَامِّيَّةِ أثَرٌ بَيْنَهُم لَا مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ، وَصَاحِبُ هذَا الرَّأيِ القَائِلِ بِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَتَكَلَّمُون بالعَامِّيَّةِ مُطَالَبٌ بالدَّلِيلِ عَلَى إثبَاتِ كَلامِهِ، وَلَا سيَّمَا أنَّ الدَّلِيلَ بِخِلَافِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُسْتَفِيضٌ وَكَثِيرٌ إِلَى حَدٍّ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى وَيُذْكَرُ وَلَا يُنْسَى، وَنَحْنُ ذَكَرْنَا هذَا اليَسِيرَ مِنْ بَابِ أَشَارَ فَأَشَارَ وَإِلَّا فَمَا بَقِيَ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ.

---

(١) مُعجَمُ الأُدباءِ لِياقُوت الحَمَويِّ (١/ ٢٣).

(٢) نَثْرُ الدُّرِّ فِي المحَاضَرَاتِ للآبيِّ (٥/ ١٨٠).

هَلْ نَجحَ سِيبويه فِي عَقْلَنَة قَوَاعِد العَرَبيَّة؟!

وَضَعَ صَاحِبُ الجِنَايةِ هذَا السُّؤالَ ثُمَّ أجابَ بِقَوْلِهِ: «إنَّ سِيبَوَيهِ لم يَنجحْ فِي عَقْلَنَةِ قَوَاعِدِ اللُّغةِ العربيَّةِ -وَهُوَ مَا سنَراهُ لاحِقًا- والسَّببُ بِبَساطَةٍ يَعُودُ إلَى أنَّ سِيبَوَيهِ كَوْنُهُ فَارِسيَّ الأَصْلِ قامَ بِوَضْعِ قواعِدَ لأَمثَالِهِ فِي ذلِكَ الوَقْتِ كِي لَا يَلْحَنُوا فِي لَفْظِ كَلِماتِ اللُّغَةِ العَرَبيَّةِ -لغةِ العِلْمِ وَالمعرِفَةِ آنَذَاكَ- لِذلِكَ فَقَدِ انصَبَّ اهتِمَامُ سِيبَوَيهِ عَلَى النَّقْلِ وَعَلَى أوَاخِرِ الكَلِمَاتِ. وَجاءَ للأَسَفِ مِنْ بعدِهِ بعضُ العَرَبِ لِيَعتَمِدُوا تِلكَ القَوَاعِدَ وَلِيَعتَبِرُوها قَوَاعِدَ لُغَتِهِم وَقُرآنِهِم، وَأَخَذُوا يُعْمِلُونَ العَقْلَ فِي إيجَادِ التَّخَارِيجِ لِمَا يَشُذُّ عَمَّا جَاءَ بِهِ سِيبَوَيهِ، عِوَضًا عَنْ إعمَالِ العَقْلِ فِي إيجَادِ البَدِيلِ النَّافِعِ المَنطِقِيِّ». ص(١٨).

أقُولُ: إنَّ هذِهِ الأَسطُرَ القَلِيلَةَ مَلِيئَةٌ بالأَخطَاءِ المَنهَجِيَّةِ وَالمُغالَطَاتِ، كَعَادَةِ كُلِّ مَنْ لا يُحْسِنُ شَيئًا وَيَتَكَلَّمُ فِيهِ وَيَخُوضُ فِي دَقَائِقِهِ، فَلَو كَانَ أوزونُ عَارِفًا بِحَقِيقَةِ الأَمْرِ لَم يَخْفَ عليهِ أنَّ عملَ سيبَوَيهِ لَم يَكُنْ فِي عَقْلَنَةِ القَوَاعِدِ، فَيَكُونُ سُؤالُهُ ضَرْبًا مِنَ الهَذَيانِ مِنْ أَصْلِهِ.

وَكذَلِكَ لَم يَكُنْ جُهْدُهُ مُقْتَصِرًا عَلَى النَّحْوِ، وَكذَا العُلَمَاءُ مَا كَانُوا يُبَرِّرُونَ لِكُلِّ مَا قالَهُ سِيبَوَيهِ[1]، وَكَمَا أنَّ عَمَلَهُ لَيسَ مُوَجَّهًا لِغَيرِ العَرَبِ، فَهذَا كُلُّهُ يأتِي مَعَنَا إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بِفُصُولٍ مُستَقِلَّةٍ مُفَصَّلَةٍ مُؤَصَّلَةٍ فِيمَا يَلِي:

---

(١) وَهذَا بَيَّنَّاهُ مُفَصَّلًا مُؤَصَّلًا.

لَمْ يَكُنْ سِيبَوَيْهِ بِدْعًا فِي عَمَلِهِ:

إنَّ هُنَاكَ مُحَاوَلَاتٍ ضِدَّ سِيبَوَيْهِ الإمَامِ وَعَمَلِهِ الـمُتْقَنِ الجَبَّارِ، وَحَاوَلُوا تَصوِيرَهُ جَانِيًا وَجَائِرًا أَتَى لِيَظْلِمَ العَرَبِيَّةَ وَأُصُولَهَا، وَلكِنَّهُم جهِلُوا أنَّ أَصْلَ عَمَلِهِ مَأْخُوذٌ مِنْ أئِمَّةِ العَرَبِيَّةِ وأَسَاطِينِهَا، بِسِلْسِلَةٍ مَعرُوفَةٍ بالعِلْمِ بالعَرَبِيَّةِ وَأُصُولِهَا، وَأَصْلُ التَّقنِينِ للعربيَّةِ رَاجِعٌ إِلَى أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ، وَأخَذَ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ: عَنْبَسَةُ الْفِيلِ، وَأَخَذَ عَنْ عَنْبَسَةَ: مَيْمُونٌ الأَقْرَنُ، ثُمَّ أَخَذَهُ عَنْ مَيْمُونٍ: عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ الْحَضْرِميُّ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ: عِيسَى بْنُ عُمَرَ، وَأَخَذَهُ عَنْ عِيسَى: الْخَلِيلُ بنُ أحمدَ، وَأَخَذَهُ عَنِ الْخَلِيلِ: سِيبَوَيْهِ[1]، وَأَخَذَهُ عَنْ سِيبَوَيْهِ: سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ الأَخْفَشُ[2].

وَهذَا الإِسنَادُ مَعلُومٌ وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ أهلِ اللُّغَةِ وَذَكَرُوهُ وَحَاوَلُوا إِيصَالَهُ وَعَدَمَ انْقِطَاعِهِ، وَقَدْ أَثْبَتَهُ بَعْدَ سِيبَوَيهِ الإِمَامُ ابنُ الأَنْبَارِيِّ عَنْ شَيْخِهِ ابنِ الشَّجَرِيِّ إِلَى سِيبَوَيْهِ وَمِنْهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَبِي الأَسْوَدِ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ ابنُ الأَنبارِيُّ عَنْ شَيْخِهِ ابنِ الشَّجرِيِّ: (وَعَنْهُ أَخَذْتُ عِلْمَ العَرَبِيَّةِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ أَخَذَهُ عَنِ ابْنِ طَبَاطَبَا، وَأَخَذَهُ ابنُ طَبَاطَبَا: عَنْ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى الرّبْعِيِّ، وَأَخَذَهُ الرَّبْعِيُّ: عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ، وَأَخَذَهُ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ: عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ السَّرَّاجِ، وَأَخَذَهُ ابنُ السَّرَّاجِ: عَنْ أَبِي العَبَّاسِ المبرِّدِ، وَأَخَذَهُ المبرِّدُ: عَنْ أَبِي عُثْمَانَ المازِنِيِّ، وَأَبِي عُمَرَ الجَرْمِيِّ، وَأَخَذَاهُ: عَنْ أَبِي الحَسَنِ الأَخْفَشِ، وَأَخَذَهُ الأَخْفَشُ: عَنْ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرِهِ..)[3]، إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى أَبِي الأَسْوَدِ.

---

(١) كَمَا أَخَذَ سِيبَوَيْهِ عَنْ عِيسَى بْنِ عُمَرَ أَيْضًا.

(٢) المنتظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٦/ ٩٧)، معجَمُ الأدباءِ (٥/ ٢١٤١)، تَارِيخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٥/ ٢٧٩)، ت: تدمري، وَإِنبَاهُ الرُّوَاةِ للقِفْطِيِّ (١/ ٤١).

(٣) نزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ (ص٣٠٢).

وَالمُتَأخِّرُونَ بَعْدَهُ أيضًا ذَكَرُوا إِسنَادَ عُلُومِ اللُّغَةِ بَعْدَ سِيبَوَيْهِ إِلَى أَنِ انتَشَرَ فِي الآفَاقِ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ الإِنْبَاهِ قَائِلًا: «أَخَذَ عَنْ سِيْبَوَيْهِ: أبو الحَسَنِ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ الأَخْفَشُ الأَوْسَطُ، وَأَخَذَ عَنِ الأَخْفَشِ: أبو عُثْمَانَ بَكْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الـمَازِنِيُّ الشَّيْبَانِيُّ وَأَبُو عُمَرَ الجَرْمِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ الـمَازِنِيِّ وَالجَرْمِيِّ: أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ المبرِّدُ، وأَخَذَ عَنِ المبرِّدِ: أَبُو إِسحَاقَ الزَّجَّاجِ، وَأَبُو بَكرِ بْنِ السَّرَّاجِ، وَأَخَذَ عَنِ ابْنِ السَّرَّاجِ: أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ ابنُ عَبْدِ الغَفَّارِ الفَارِسِيِّ، وَأَخَذَ عَنِ الفَارِسِيِّ: أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى الرَّبْعِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ الرَّبْعِيِّ: أَبُو نَصْرٍ القَاسِمُ بْنُ مُبَاشِرٍ الوَاسِطِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ ابْنِ الـمُبَاشِرِ: طَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ ابْنِ بَابْشَاذَ الـمِصْرِيُّ.

وَأَخَذَ أَيْضًا عَنِ الزَّجَّاجِ: أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ أَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الـمِصْرِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ النَّحَّاسِ: أَبُو بَكْرٍ الأَدْفُوِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ الأَدْفُوِيِّ: أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ الحُوْفِيُّ، وأَخَذَ عَنِ الحُوْفِيِّ: طَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ بَابْشَاذَ النَّحْوِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ ابْنِ بَابْشَاذَ: أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ بَرَكَاتٍ النَّحْوِيُّ الـمِصْرِيُّ، وَأَخَذَ عَنِ ابْنِ بَرَكَاتٍ وَعَنْ غَيْرِهِ: أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ بَرِّيٍّ، وَأَخَذَ عَنِ ابْنِ بَرِّيٍّ: جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ مِصْرَ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ القَادِمِينَ عَلَيْهِ مِنَ الـمَغْرِبِ وَغَيْرِهَا؛ وَتَصَدَّرَ فِي مَوْضِعِهِ بِجَامِعِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ تَلْمِيذُهُ الشَّيْخُ أَبُو الحُسَينِ النَّحْوِيُّ الـمِصْرِيُّ الـمَنْبُوزُ بِخُرْءِ الفِيْلِ. وَمَاتَ فِي حُدُودِ سَنَةِ عِشْرِيْنَ وَسِتِّمَائَةٍ»[١].

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ سِيْبَوَيْهِ لَمْ يَبْتَدِعْ بِدْعَةً مَذمُومَةً، وَهُوَ قَدِ اقتَدَى بِمَنْ سَبَقَهُ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ أَمَامَ مَنْ لَحِقَهُ، وَهُوَ قَدْ أَخَذَ علُومَ العَرَبِيَّةِ بالإِسْنَادِ المُتَّصِلِ عَنْ أَرْبَابِهَا

(١) المنتظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٦/ ٩٧)، ومعجَمُ الأدباءِ (٥/ ٢١٤١)، وَتَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٥/ ٢٧٩)، ت: تدمري، وَإِنبَاهُ الرُّوَاةِ للقِفْطِيِّ (١/ ٤١-٤٢).

وَالمُتَضَلِّعِينَ منهَا، مَعَ تَقنِينِ لَهَا وَضَبْطِ بَعْضِ الضَّوَابِطِ لَهَا، وَبَعْدَهُ أَخَذَهُ مِنْهُ العُلَمَاءُ جِيْلًا عَنْ جِيْلِ عَرَبًا وَعَجَمًا حَتَّى وَصَلَ عِلْمُهُ إِلَيْنَا، فَجَزَاهُ اللهُ عَنِ الإِسْلامِ وَالمُسلِمِينَ خَيْرًا وَحَشَرَنَا وَإِيَّاهُ تَحْتَ لِوَاءِ سَيِّدِنَا مُحمَّدٍ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-.

مَاذَا كَانَ عَمَلُ سِيبَوَيهِ؟

إِنَّ الكَاتِبَ غَالَطَ نَفْسَهُ وَقَرَّبَ رَمْسَهُ لَـمَّا بَحثَ نَجَاحَ سِيبَوَيْهِ وَعَدَمَ نَجَاحِهِ فِي عَقْلَنَةِ العَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّ الإِمَامَ العَلَمَ سِيْبَوَيْهِ -رَحِمَهُٱللَّهُ- لَم يُقْبِلْ عَلَى هذَا أَصْلًا وَلَمْ يَكُنْ يَرُومُ إِلَى أَنْ يُعَقْلِنَ القَوَاعِدَ، بَلْ: جُمْلَةُ مَا فعلَهُ هُوَ أَنَّهُ تَتَبَّعَ كَلامَ العَرَبِ وَرَوَى عَنْهُم نَظْمَهُم وَنَثْرَهُم، وَأَقْبَلَ عَلَى أَئِمَّةِ اللُّغَةِ وَأَخذَ النَّحْوَ وَاللُّغَةَ عَنْهُم، وَضَبَطَ ذلِكَ بِضَوَابِطَ وَقَوَاعِدَ، وَلَهُ إِسْنَادٌ مُتَّصِلٌ بِأَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ كَمَا ذَكَرْنَا ذلِكَ فِي الفَصْلِ السَّابِقِ.

فَرَوَى سِيْبَوَيْهِ عَنِ الخَلِيلِ(١)، وَيونسَ بْنِ حَبِيبٍ(٢)، وَأَبِي الخَطَّابِ الأَخْفَشِ(٣)، وَعِيْسَى بْنِ عُمَرَ الثَّقَفِيِّ(٤).

وَلَا سِيَّمَا الأَوَّلَ وَالأَخِيرَ مِنْهُم؛ أَمَّا الخَلِيلُ فَإِنَّهُ مَرْجِعُ سِيبَوَيْهِ الأَهَمُّ وَمُعَلِّمُهُ الأَعْظَمُ، وَقَدِ اعتَمَدَ عليهِ فِي عِلْمِهِ وَتَحْقِيقِهِ فِي تَأْلِيفِ كِتَابِهِ وَجَمْعِهِ لِـمَبَاحِثِهِ، وَهذَا

(١) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٤)، وَالكامِلُ لابنِ الأثيرِ (٥/ ٢٢٢)، وتَاريخُ الإسلامِ (١٠/ ١٣٧)، والمختَصَرُ في أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥).

(٢) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٩١)، والمختَصَرُ فِي أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥)، وَتاريخُ ابنِ الوَردِيِّ (١/ ١٩٨).

(٣) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٤)، ومِرآةُ الجِنانِ لليَافِعِيِّ (١/ ٣٤٢).

(٤) تَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٩/ ٥٦٢)، ومِرآةُ الجِنانِ لليَافِعِيِّ (١/ ٢٤٠).

لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ مِنَ الَّذِينَ دَرَسُوا الكِتَابَ، وَالمَوَاطِنُ الَّتِي نَقَلَ فِيْهَا عَنِ الخَلِيلِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسِمَائَةِ مَوْطِنٍ، فَهُوَ كَمَا قَالَ السِّيرَافِيُّ: «والخَلِيلُ أُستَاذُ سِيبَوَيْهِ، وَعَامَّةُ الحِكَايَةِ فِي كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ عَنِ الخَلِيلِ، وَكُلُّ مَا قَالَ سِيبَوَيْهِ: (وَسَأَلْتُهُ)، أَوْ: (قَالَ) مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذْكُرَ قَائِلَهُ فَهُوَ الخَلِيلُ»[١].

وَقَدْ يَنْقُلُ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ عَنِ الخَلِيلِ بِقَوْلِهِ: (زَعَمَ الخَلِيلُ)، فَهذَا مَعْنَاهُ: (قَالَ الخَلِيلُ)، وَلَيْسَ لِاتِّهَامِ المَقُولِ وَتَضْعِيفِهِ، كَمَا فَهِمَهُ بعضُ النَّاسِ[٢].

وَقَدْ شَكَّ يُونسُ فِي مَرْوِيَّاتِ سِيبَوَيْهِ عَنِ الخَلِيْلِ لَـمَّا عَلِمَ عنهُ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ الخَلِيلِ، كَما نَقَلَ مُحَمَّدُ بنُ يَزِيدَ الْـمُبَرِّدُ عَنْ يُونُسَ أَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ سِيبَوَيْهِ فَقَالَ: «أَظُنُّ هَذَا الْغُلَامَ يَكْذِبُ عَلَى الْخَلِيلِ! فَقِيلَ لَهُ: قَدْ رَوَى عَنْكَ أَشْيَاءَ فَانْظُرْ فِيهَا. فَنظَرَ، وَقَالَ: صَدَقَ فِي جَمِيعِ مَا قَالَ، هُوَ قَوْلِي.»[٣].

فَهذَا خيرُ دَلِيلٍ عَلَى صِدْقِ اللَّهْجَةِ وَالحِفْظِ الـمُتْقَنِ اللَّذَيْنِ كَانَ سِيْبَوَيْه يَتَمَتَّعُ بِهِمَا.

---

(١) أخبَارُ النَّحوِيِّينَ البَصْرِيّينَ للسِّيرافِيِّ (ص٣٢)، وَقَالَهُ القَاضِي التّنوخِيُّ أيضًا، يُنظَرُ: تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ مِنَ البَصْرِيّينَ والكُوفيِّينَ وَغيرِهم للتّنوخِيِّ (ص١٠٩)، وَكَذَا ابنُ الأنبارِيِّ، يُنْظَرُ: نزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ (ص٤٥).

(٢) قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ، فِي: (تَهذِيبِ الأَسمَاءِ واللُّغَاتِ) (٣/ ١٣٤): «رُوِّينَا فِي حَدِيثِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّه قَالَ لِرَسُولِ اللهِ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**زَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَزَعَمَ أَنَّ عَلَيْنَا الزَّكَاةَ، وَزَعَمَ كَذَا وَكَذَا**» الحَدِيث. وَزَعَمَ فِي كُلِّ هذَا بِمَعْنَى: (قَالَ)، وَلَيْسَ فِيْهَا تَشَكُّكٌ، وَقَدْ أَكْثَرَ سِيْبَوَيْهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الَّذِي هُوَ قُدْوَةُ أَهْلِ العَرَبِيَّةِ مِنْ قَوْلِهِ: (زَعَمَ الخَلِيلُ كَذَا)، (وَزَعَمَ أَبُو الخَطَّابِ)، وَهُمَا شَيْخَاهُ، وَيَعْنِي بِـ(زَعَمَ): قَالَ».

(٣) خِزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ لِلبَغْدَادِيِّ (١/ ٣٧٢).

وَأَمَّا عِيسَى بْنُ عُمَرَ فإنَّهُ العُمْدَةُ لِلاثْنَيْنِ (الخَلِيل وَسِيْبَوَيْه)، فَسِيْبَوَيهِ قَدْ لَزِمَهُ وَعُرِفَ بِهِ وَانْتَفَعَ، وَأَخذَ كِتَابَهُ الَّذِي صَنَّفَهُ وَسَمَّاهُ: (الْجَامِعَ) فَزَادَ عَلَيْهِ وَبَسَطَهَ، فَهُوَ (كِتَابُ سِيبَوَيْهِ) الْيَوْمَ، وَكَانَ يَسْأَلُ عَمَّا أُشْكِلَ فِيهِ عَلَيْهِ شَيْخَهُ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ، وَقَدْ سَأَلَ الْخَلِيلُ يَوْمًا سِيبَوَيْهِ عَمَّا صَنَّفَ عِيسَى بْنُ عُمَرَ فَقَالَ: جَمَعَ بِضْعًا وَسَبْعِينَ كِتَابًا، ذَهَبَتْ كُلُّهَا إِلَّا كِتَابَهُ (الْإِكْمَالَ)، وَهُوَ بِأَرْضِ فَارِسَ وَكِتَابَهُ (الْجَامِعَ)، وَهُوَ الَّذِي أَشْتَغِلُ فِيهِ وَأَسْأَلُكَ عَنْ غَوَامِضِهِ. فَأَطْرَقَ الْخَلِيلُ سَاعَةً ثُمَّ أَنْشَدَ:

[مِنَ الرَّمَلِ]

ذَهَبَ النَّحْوُ جَمِيعًا كُلُّهُ … غَيْرَ مَا أَحْدَثَ عِيسَى بْنُ عُمَرْ
ذَاكَ (إِكْمَالٌ) وَهَذَا (جَامِعٌ) … وَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرْ[1]

لكِنَّ سِيبْوَيْهِ يُعلِّقُ على كَلامِ عِيسَى بْنِ عُمَرَ، وَيُحَشِّيهِ وَيُحَقِّقُ فيه، كَمَا نَقَلَ عَنِ الآخَرِينَ مِنْ أربَابِ اللُّغَةِ كَأَبِي عَمْرِو بْنِ العَلَاءِ، فَإِنَّهُ نَقَلَ عَنْهُ فِي أَرْبَعِينَ مَوْضِعًا تَقرِيبًا، وَنَقَلَ عَنْ يُونُسَ بْنِ حَبِيْبٍ قُرَابَةَ مَائَتَي مَرَّةٍ، وَأَحْيَانًا يَكُونُ النَّقْلُ طَوِيلًا، كَمَا تَرَاهُ فِي نِهَايَةِ بَابِ: (تَصْغِيرِ مَا كَانَ عَلَى ثَلاثَةِ أَحْرُفٍ وَلَحِقَتْهُ أَلِفُ التَّأْنِيثِ بَعْدَ أَلِفٍ، فَصَارَ مَعَ الأَلِفَيْنِ خَمْسَةَ أَحْرُفٍ)[2]، أَنَّهُ قَالَ: (جَمِيعُ مَا ذَكَرْتُ لَكَ فِي هذَا البَابِ، وَمَا أَذْكُرُ لَكَ فِي البَابِ الَّذِي يَلِيْهِ قَوْلُ يُونُسَ)[3]. وَالبَابُ الَّذِي يَلِيهِ هُوَ: (بَابُ

---

(١) وَفيَاتُ الأَعيانِ (٣/ ٤٨٧)، وتَارِيخُ الإِسلامِ (٣/ ٥٤٣)، وَالبِدايَةُ والنِّهَايَةُ (١٣/ ٤١٢)، وَمِرآةُ الجِنَانِ لليَافِعِيِّ (١/ ٢٤٠)، وَشذَراتُ الذَّهبِ (٢/ ٢٢٤)، وَإِنبَاهُ الرُّوَاةِ فِي طَبَقَاتِ النُّحَاةِ (٢/ ٣٤٧).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيهِ (٣/ ٤١٩).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيهِ (٣/ ٤٢٣)، وَهذَا يُظْهِرُ عِفَّةَ الإِمَامِ العَلَمِ سِيبَوَيْهِ فِي المُحافَظَةِ عَلَى الأَمانَةِ =

تَحْقِير[١] مَا كَانَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرُفٍ)[٢].

وَقَدْ نَقَلَ لَنَا كَثيرًا مِنْ كَلامِ العَرَبِ الأَقحاحِ وحَفِظَهُ كِتابُهُ لَنا، واستَشْهَدَ بآيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا قَوَاعِدَ وَأُصُولًا، ويبلُغُ عَدَدُ الآيَاتِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعمائَةِ آيَةٍ، وكَذَا اسْتَشْهَدَ بِأبياتٍ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ يبلغُ عددُها أَلْفًا وَخَمْسِينَ بَيْتًا شِعْرِيًّا.

وَمَعَ هذَا فإنَّهُ يَعرِضُ ما يَكتُبُه عَلَى جَهَابِذَةِ عَصرِهِ كَمَا هُو مَذكورٌ فِي الرِّوايةِ السَّابِقَةِ فِي عَرْضِهِ عَلَى الخَليْلِ، وَكَذَا مَا ذَكَرَهُ ابنُ قتيبةَ فَهوَ شَاهِدٌ على ذلِك أيضًا؛ قَالَ ابنُ قُتيبةَ: حدَّثَنَا الرِّيَاشِيُّ، قَالَ: سمعتُ الأَخفشَ يقُولُ: كَانَ «سِيبَوَيْهِ» إِذَا وَضَعَ شَيئًا مِنْ كِتَابِهِ عَرَضَهُ عَلَيَّ، وهُوَ يَرَى أَنِّي أعلمُ مِنهُ، وَكانَ أَعْلَمَ مِنِّي، وَأَنَا اليَوْمَ أَعْلَمُ مِنهُ[٣].

= العِلميَّة، وَنِسبَةِ العِلمِ إِلَى أَهْلِهِ، وَالخَوفَ التَّامَ مِنَ اللهِ تعالَى؛ لأَنَّهُ لو أَرادَ أَنْ يَنسبَ البَابَيْنِ إِلَى نَفسِهِ لَم يَكنْ هُناكَ مَا يَمْنَعُهُ وَيُبْطِلُ دَعْوَاهُ، فَغفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ وَأَسْكنَهُ الفِرْدَوسَ.

(١) يَعْنِي بالتَّحْقِيرِ تَصْغِيرًا.

(٢) الكِتابُ لِسيبَوَيه (٣/ ٤٢٣).

(٣) المَعارِفُ لابنِ قتيبةَ (١/ ٥٤٦)، وَتاريخُ ابنِ الوَردِيِّ (١/ ٢٠٩)، والمختَصَرُ في أخبارِ البَشَرِ (٢/ ٢٩)، وَقَالَ فِي: (المختصَر فِي أخبارِ البَشَرِ): (الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ بالأَخْفَشِ ثَلاثَةٌ، أَوَّلُهُم: الأَخفشُ الأَكبرُ، وهوَ أَبو الخطَّابِ عَبْدُ الحَميدِ، مِنْ أَهْلِ هجرَ، وكانَ نحويًا أيضًا. ثُمَّ الأَخْفَشُ الأَوْسَطُ، سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَة..ثمَّ الأَخْفَشُ الأَصْغَرُ المتَأَخِّرُ، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ بنِ الفَضْلِ، وَكَانَ الأَخْفَشُ الأَصْغَرُ المذكُورُ، نَحوِيًا أيضًا، وَتُوفِّيَ فِي سَنَةِ خَمْسَ عَشرَةَ، وَقِيْلَ: سِتَّ عَشرَةَ وَثَلاثِمَائَةٍ).

أمَّا قَوْلُهُ: (وَأَنَا اليَوْمَ أَعْلَمُ مِنْهُ)، فَإِنَّهُ راجِعٌ إِلَى زِيادَةٍ فِي العُمرِ؛ لأَنَّهُ بقيَ بعدَ سيبويهِ كَثيرًا، فَعَاشَ سِيبَوَيْهِ اثْنَتَيْنِ وَثَلاثِينَ سَنَةً عَلى خِلافٍ. وَمَعَ هذَا فَإِنَّ هذا الكَلامَ لَمْ يَرْضَ عنهُ أهلُ العِلْمِ لِمَا فيهِ مدْحُ نَفسِهِ، كَمَا قَالَ القَاضِي أَبُو المَحَاسِنِ التَّنوخِيُّ فِي: (تَارِيخِ العُلَمَاءِ النَّحويينَ)، (ص:٩٩): مَا =

وَبهذَا العَرْضِ السَّابِقِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ سِيبَوَيْهِ لَم يَبْتَدِعْ فِي ذلِكَ، وَلَم يأْتِ بِشَيءٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ فِي اللُّغَةِ العَربيَّةِ حَتَّى يُتَّهَمَ فِي صَنِيعِهِ، وَلكِنَّ الَّذِي قَامَ بِهِ هُوَ تَتبُّعٌ لِكَلامِ العَرَبِ، تَتبُّعًا تَامًّا، وَاستِجْمَاعٌ لِكَلامِ أَهْلِ الصَّنعَةِ فِيْهِ مَعَ فَهْمٍ لِكَلامِهِم وَمُنَاقَشَتِهِم وَإِيرَادِ الإِلْزَامَاتِ عَلَى بَعضِ الآرَاءِ، وَتَرْكِ مَا رَآهُ غَيرَ قَوِيٍّ مِنْهَا، ثُمَّ التَّنقِيحُ وَالتَّفتِيشُ فِي تِلْكَ الآرَاءِ بأسلُوبٍ لَم يُسْبَقْ إِليهِ، ثُمَّ القِياسُ عَلَى الصَّحيحِ مِنْهَا، وَوَضْعُ قَوَاعِدَ وَأُسُسٍ عَلَى تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي جَاءتْ عَنِ العَرَبِ الأَقْحَاحِ، مَعَ ذِكْرِ شَيْءٍ مِنَ العِلَلِ وَالمُنَاسَبَاتِ لَهَا، حَتَّى صَارَ هذَا الكِتَابَ الضَّخْمَ وَالسِّفْرَ العَظِيمَ الَّذِي يُرْحَلُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغارِبِهَا(١).

وَلِبُرْهَانِ كَلَامِي عَلَى هذِهِ الإِطْلالَةِ الـمَنْهَجِيَّةِ أَذكُرُ مِثالًا وَاحِدًا مِنَ الكِتَابِ حَيثُ يَقُومُ سِيْبَوَيْهِ بِنَقْلِ كَلامِ العَرَبِ فِي قَضِيَّةِ ضَمِيرِ الفَصْلِ، وَيُورِدُ مَقَالَةً وَيُفَنِّدُهَا بِعَقْلِهِ اللُّغوِيِّ الفَذِّ، قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَاعْلَمْ أَنَّ مَا كَانَ فَصْلًا، لَا يُغَيِّرُ مَا بَعْدَهُ عَنْ حَالِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبلَ أَنْ يُذْكَرَ، وَذلِكَ قَوْلُكَ: (حَسِبْتُ زَيْدًا هُوَ خَيْرًا مِنْكَ)، وَ(كَانَ عَبْدُ اللهِ

= كنتُ أستحِبُّ لسَعيدٍ أنْ يَقُولَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَتعَرَّضُ لقَوْلِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الوَافِرِ]

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وَيُرْوَى بالشِّيْنِ مُعْجَمَةً.

وَقَالَ الأُخَرُ:

[مِنَ الوَافِرِ]

ولمَّا أنْ فَكَكْتُ الغُلَّ عَنهُ ... وأَفْلَتَ قَالَ: أيَّ فَتًى تَرانِي

(١) وَلكِنْ مَعَ هذَا فَالظَّنُّ الغَالِبُ أَنَّهُ لَم يُكمِلْهُ وَأَنَّهُ كَانَ عَلَى نِيَّةِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَالـمُرَجَّحُ فِي ذلِكَ أَنَّهُ بَقِيَ دُونَ وجُودِ الـمُقَدِّمَةِ وَالخَاتِمَةِ.

هُوَ الظَّرِيْفَ)، وَقَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ].

وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ أَنَّ (هُوَ) هَا هُنَا صِفَةٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ صِفَةً وَلَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا عَرَبِيٌّ يَجْعَلُهَا هَا هُنَا صِفَةً لِلمُظْهَرِ. وَلَوْ كَانَ ذلِكَ كَذَلِكَ لَجَازَ: (مَرَرْتُ بِعَبْدِ اللهِ هُوَ نَفْسِهِ)، فَهُوَ هَا هُنَا مُسْتَكْرَهَةٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهَا العَرَبُ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَوَاضِعِهَا عِنْدَهُمْ»[(١)].

وَهذِهِ الجُمْلَةِ: (وَلَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا عَرَبِيٌّ يَجْعَلُهَا هَا هُنَا صِفَةً لِلمُظْهَرِ) دَالَّةٌ عَلَى تَتَبُّعٍ تَامٍّ لِكَلامِ العَرَبِ وَمَعْرِفَةٍ كَامِلَةٍ بِأَسَالِيبِ كَلامِهَا، كَمَا أَنَّ انْتِقَادَهُ وَتَحلِيلَهُ يَدُلَّانِ عَلَى قُوَّةٍ عَجِيبَةٍ وَعَبْقَرِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ كَانَ سِيْبَوَيْهِ يَتَمَتَّعُ بِهَا.

وَلَا يُسَلِّمُ لآرَاءِ الأَئِمَّةِ دونَ استِعْمَالِ العَقْلِ وَالمَنْطِقِ وَالقِيَاسِ اللُّغَوِيِّ وَالسَّلِيقَةِ العَرَبِيَّةِ الفَذَّةِ الدَّقِيقَةِ الـمُرْهَفَةِ، فَإِذَا وَجَدَ فِي كَلَامِ أَحَدِ العُلَمَاءِ شَيئًا لَم يَسكُتْ عَلَيْهِم، بَلْ: بَيَّنَ فِي المسألَةِ رأيَهُ وَمَا ارتَآهُ صَوَابًا، كَمَا نَجِدُهُ يَعْتَرِضُ عَلَى الخَلِيلِ فِي مَوَاضِعَ، فَمِنْهَا: اعتَرَضَ عليهِ بِقَوْلِهِ: «وَزَعَمَ الخَلِيلُ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: (هذَا رَجُلٌ أَخو زَيدٍ)، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُشَبِّهَهُ بِأَخِي زَيْدٍ.

وهذَا قَبِيحٌ ضَعِيفٌ لَا يَجُوزُ إِلَّا فِي مَوْضِعِ الاضْطِرَارِ، وَلَوْ جَازَ هذَا لَقُلْتَ: (هذَا قَصِيرٌ الطَّويلُ)، تُرِيدُ: مِثْلَ الطَّوْيلِ. فَلَمْ يَجُزْ هذَا كَمَا قَبُحَ أَنْ تَكُونَ «المعرِفَةُ «حَالًا لِلنَّكِرَةِ إِلَّا فِي الشِّعْرِ. وَهُوَ فِي الصِّفَةِ أَقْبَحُ؛ لأَنَّكَ تَنْقُضُ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ، فَلَمْ يُجامِعْهُ فِي الحَالِ، كَمَا فَارَقَهُ فِي الصِّفَةِ. وَسَيُبَيَّنُ لَكَ فِي بَابِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى»[(٢)].

---

(١) الكِتَابُ (٢/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) الكِتَابُ (١/ ٣٦١).

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «قَوْلُكَ: (مَرَرْتُ بِرَجُلٍ صَالِحٍ، وَإِنْ لَا صَالِحًا فَطَالِحٌ). وَمِنَ العَرَبِ مَنْ يَقُولُ: (إِنْ لَا صَالِحًا فَطَالِحًا)، كَأَنَّهُ يَقُولُ: (إِنْ لَا يَكُنْ صَالِحًا فَقَدْ مَرَرْتُ بِهِ، أَوْ: لَقِيتُهُ طَالِحًا).

وَزَعَمَ يُونُسُ أَنَّ مِنَ العَرَبِ مَنْ يَقُولُ: (إِنْ لَا صَالِحٍ فَطَالِحٍ)، عَلَى: (إِنْ لَا أَكُنْ مَرَرْتُ بِصَالِحٍ فَبِطَالِحٍ) وَهذَا قَبِيحٌ ضَعِيفٌ؛ لأَنَّكَ تُضْمِرُ بَعْدَ (إِنْ لَا) فِعْلًا آخَرَ فِيهِ حَذْفٌ غَيْرَ الَّذِي تُضْمِرُ بَعْدَ (إِنْ لَا) فِي قَوْلِكَ: (إِنْ لَا يَكُنْ)»[1].

أَخِيرًا أَقُولُ: إِذَا كَانَ فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ خَلَلٌ عَقْلِيٌّ، أَوْ: مُشْكِلَةٌ مَنْطِقِيَّةٌ، فَلِمَاذَا لَم يُبَيِّنْهُ أوزونُ حَتَّى نَدُلَّهُ عَلَى وَجْهِ كَلامِ سِيبَوَيْهِ، وَنُبَيِّنَ لَهُ صَوَابَهُ، وَنُظْهِرَ خَلَلَ فَهْمِ أوزونَ وَبُعْدَهُ؟! وَلكِنْ يَبْقَى فِي النَّفْسِ شَيءٌ مِنْ تَرْكِهِ كَلامَ سيبويْهِ وَكِتَابَهُ وَعَدَمَ النَّقْلِ مِنْهُ وَلَوْ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَوْ كَانَ أوزونُ رَأَى كَلَامًا لَهُ يَقْبَلُ الِاعتِرَاضَ مَا كُنتَ تَرَاهُ يَخْتَارُ الصَّمْتَ وَيُؤْثِرُهُ عَلَى الكَلَامِ!

---

(١) الكِتَابُ (١/ ٢٦٢).

هَلْ كَانَ جُهْدُ سِيبويْه لغَير النَاطقينَ بالعَربيَة؟

وَالعَجِيبُ مِنْ كَلَامِ أَوزونَ أَنَّه فِي النَّصِّ السَّابِقِ قَالَ: (كَوْنُهُ فَارسيَّ الأَصلِ قامَ بِوَضْعِ قواعِدَ لأَمثَالِهِ فِي ذلِكَ الوَقْتِ كي لَا يَلْحَنُوا فِي لَفْظِ كَلِماتِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ).

وَإِنَّنِي عَلَى يَقِينٍ أَنَّ صَاحِبَ هذَا الكَلامِ إِمَّا لَم يَنْظُرْ فِي كلامِ سِيبوَيهِ وَلَا يَعْرِفُ مَا فِي كِتَابِهِ أَصْلًا، وَإِمَّا حَاقِدٌ عَنِيدٌ بَلَغَ بِهِ العِنَادُ إِلَى أَقْصَى الحَدِّ، حَتَّى أَكَلَ بَعضُهُ بَعْضًا؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ طَالَعَ الكِتَابَ وَنَظَرَ فِيهِ -وَلَوْ يَسيرًا- عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ (الكِتَابَ) لَا يَصلُحُ إِلَّا لِمُنْتَهٍ مِنْ طَالِبِي العَرَبِيَّةِ، فَكيفَ يُقَالُ إِنَّهُ لِغَيرِ نَاطِقٍ بِالعَرَبِيَّةِ؟ وَكَأَنَّ سِيبَوَيهِ عَاكِفٌ عَلَى مَعْهَدٍ لِتَعلِيمِ العَرَبِيَّةِ لِغَيرِ النَّاطِقِينَ بِهَا وَيَشْرَحُ لَهُم الحُرُوفَ الهِجَائِيَّةَ وَرَسْمَهَا، هذَا حَقًّا مُزْرٍ بِصاحِبِ الجِنايَةِ وَسُمعَتِهِ العِلميَّةِ وَالدَّارِ النَّاشِرَةِ لِكِتَابِهِ، وَطَوَّقَهُم عَارًا وَعَصَبَ بِرَأسِهِم لَا يَمْحُوهُ مَاحٍ.

وَيَكْفِي تَعظِيمًا لِكِتابِهِ أَنَّ فَطَاحِلَ العَرَبِيَّةِ وعُلَمَاءَهَا الأَفْذَاذَ دَرَّسُوهُ وَتَدَارَسُوهُ كالمبَرِّدِ[(١)]، وَأَبِي عُثْمَانَ المَازِنِيِّ[(٢)]، وَالكِسَائِيِّ[(٣)]، وَالأَخْفَشِ[(٤)]، وَالزَّمَخْشَرِيِّ[(٥)]،

---

(١) تَاريخُ الطَّبريِّ (١١/ ٣٨١).

(٢) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (١٢/ ١٢)، وتَاريخُ الإسلامِ للذَّهَبِيِّ (١٨/ ١٨٧)، وَمِرآةُ الجِنَانِ لليافِعِيِّ (٢/ ٨٢).

(٣) أخبَارُ النَّحوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ للسِّيرافِيِّ (ص٤١)، وَتَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (١٥/ ١٧٣).

(٤) أخبَارُ النَّحوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ للسِّيرافِيِّ (ص٤٠)، وَتَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (١٥/ ١٧٣).

(٥) البُلْغَة فِي تَرَاجِمِ أَئِمَّةِ النَّحوِ وَاللُّغَة للفيرُوز آبَادِي (ص١٧٢).

وَأَبِي عُمَرَ الجَرْمِيِّ البَصْرِيِّ[١]، وَابنِ دُرُسْتُوَيْهِ[٢]، وَابنُ السَّرَّاجِ[٣]، وَأَبِي جَعْفَرٍ النَّحَّاسِ[٤]، وَأَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ[٥]، وَعَلِيِّ بْنِ عِيْسَى الرُّمَانِيِّ[٦]، وَابنِ مَالِكٍ[٧]، وَغَيْرِهِم مِنْ أَئِمَّةٍ كَثِيرين بِحَيْثُ يَمَلُّ المتَعَدِّدُ فِي عَدِّهِم وَيَكِلُّ.

وَكَانَ كِتابُهُ نَجْمًا بَارِزًا، بَلْ: قَمَرًا مُنِيرًا فِي سَمَاءِ العَرَبِيَّةِ إِلَى حَدِّ أَنَّهُم إِذَا أَطْلَقُوا كَلِمَةَ الكِتَابِ فِي عُلُومِ العَرَبِيَّةِ انصَرَفَ الذِّهْنُ إِليهِ، وَلَوْ لَم يُذْكَرْ اسمُ صَاحِبِهِ، وَكَانُوا إِذَا أَرادُوا وَصْفَ أَحَدٍ وَرُسوخَ كَعْبِهِ فِي النَّحْوِ ذَكَرُوا إِتْقَانَهُ للكِتَابِ، كَمَا وَصَفُوا أَبَا عُثْمَانَ الأَنمَارِيَّ قَائِلًا: (كَانَ عَالِمًا بِالنَّحْوِ إِمَامًا فِي كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ)[٨].

وَكَانَ سِيبَوَيهِ مَضْرِبَ المَثَلِ فِي اِستِيعَابِ علُومِ العَرَبِيَّةِ، حَتَّى إِنَّهُم لو أَرَادُوا وَصفَ شَخصٍ بالعِلْمِ بالعَربِيَّةِ شَبَّهُوهُ بِهِ، وَقَالُوا: «سِيبَوَيهِ زَمَانِهِ»، «كَأَنَّهُ سِيبَوَيهِ»، وَهذَا كَثِيرٌ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَالتَّرَاجِمِ وَالطَّبَقَاتِ، فَكَيْفَ يُوصَفُ جُهْدُهُ بأَنَّهُ لِغيرِ النَّاطِقِينَ بالعَرَبِيَّةِ مَعَ هذَا التَّبَحُّرِ وَالـمَعرِفَةِ؟.

---

(١) أخبَارُ النَّحوِيّينَ البَصْرِيّينَ للسّيرافِيِّ (ص٤٠)، وَتَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (١٦/ ٢٠٢).
(٢) معجَمُ الأدباءِ (٢/ ٧٢٩)، وَتَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٢٦/ ١٣٩).
(٣) أخبَارُ النَّحوِيّينَ البَصْرِيِّينَ للسّيرافِيِّ (ص٨٢)، ونزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص١٨٦).
(٤) تَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٢٦/ ١٨٥).
(٥) معجَمُ الأدباءِ (٢/ ٥٠٦)، وَتَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٢٩/ ١٣٤).
(٦) تَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٢٩/ ١٣٤)، وَالوَافِي بالوَفَيَاتِ للصَّفَدِيِّ (١٩/ ٢٠٩).
(٧) الـمَنْهَلُ الصَّافِي وَالـمُسْتَوْفَى بَعْدَ الوَافِي (٥/ ٣٩٦).
(٨) الصِّلَةُ فِي تَارِيخِ أَئِمَّةِ الأَنْدَلُسِ لِابنِ بشكوَال (ص٢١٦).

وَكَانَ الشَّاعِرُ العَرَبِيُّ الكَبِيرُ أَبُو نُواسٍ تَلمِيذًا عَلَى كِتَابِهِ وَاستَفَادَ مِنْ نَحْوِهِ[١]. فَأَبُو نُواسٍ مِنْ أساطِينِ العَربيَّةِ العَارِفينَ بأسَالِيبِهَا، كَما قَالَ عنهُ الجَاحِظُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَعْلَمَ بِاللُّغَةِ مِنْ أَبِي نُوَاسٍ، وَلَا أَفْصَحَ لَهْجَةً مَعَ حَلَاوَةٍ وَمُجَانَبَةِ الاِسْتِكْرَاهِ»[٢].

وَلَا أدرِي إنْ كانَ صاحِبُنا أوزونُ يرَاهُ غيرَ نَاطِقٍ بالعَرَبِيَّةِ!.

وَكَانَ الإِمَامُ اللُّغَوِيُّ الكَبِيرُ أَبُو حَاتِمٍ السِّجستَانِيُّ مِمَّنْ قَرَأَ كِتَابَ سِيبَوَيهِ عَلَى الأَخْفَشِ مَرَّتَيْنِ[٣]. وَهَذَا يُبْرِزُ جَلَالَةَ قَدْرِ الكِتَابِ وَعُلُوَّ كَعْبِ مُؤلِّفِهِ فِي العَرَبِيَّةِ.

وَكَانُوا يُعَظِّمُونَ الكِتَابَ، وَيَرَوْنَهُ أَصْلًا أَصِيلًا فِي العَرَبِيَّةِ، وَلَا يَدْرُسُهُ وَلَا يُدَرِّسُهُ إِلَّا مُتَخَصِّصٌ مَاهِرٌ وَصَيْرَفِيٌّ حَاذِقٌ، كَمَا قَالَ ابنُ بُرْهَانَ: «قَصَدْتُ ابنَ كَيْسَانَ لِأَقْرَأَ عَلَيهِ كِتَابَ سِيبَوَيْهِ، فَقَالَ: اذْهَبْ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ. يَعْنِي: الزَّجَّاجَ، وَابْنَ السَّرَّاجِ»[٤].

فَهذِهِ الأَمْثِلَةُ وَغيرُهَا مِمَّا سَيَأتِي مَعَنَا بِإذنِ اللهِ تَعَالَى فِي تَرْجَمَتِهِ، تُظْهِرُ ضَعْفَ كَلامِ المُهندِسِ، وَتُرِينَا أَنَّهُ كلامٌ فارِغٌ غَيرُ وَاقِعِيٍّ؛ لأَنَّ الأَئِمَّةَ مِنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ نَظَرُوا إِلَى الكِتَابِ بِعَينِ الاِعتِبَارِ وَالتَّبْجِيلِ وَالتَّعظِيمِ، وَرَأَوهُ مِنْ أَعْظَمِ مَا صُنِّفَ فِي العَرَبِيَّةِ، وَلَا مَثِيلَ لَهُ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَكُلُّ كِتَابٍ بَعْدَهُ فِي النَّحْوِ عِيالٌ عَلَيْهِ، وَبِهذَا أَدْرَكْنَا أنَّ كَلَامَ الـمُهندِسِ لَيْسَ سِوَى تَموِيهٍ يُتَعَجَّبُ مِنهُ كَبَاقِي أُعْجُوبَاتِهِ.

---

(١) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (١٠/ ١٦)، وَتَاريخُ بغدَادَ (٨/ ٤٧٥)، ت: بشار، البدايةُ والنِّهايةُ (١٤/ ٦٤).

(٢) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (١٠/ ١٦).

(٣) أخبَارُ النَّحوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ للسِّيرافِيِّ (ص٧١)، المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (١٢/ ٩١) وتَاريخ الإسلامِ للذَّهَبِيِّ (١٩/ ١٦٤).

(٤) معجَمُ الأدباءِ (٥/ ٢٣٠٧)، وَتَاريخُ الإسلامِ للذَّهَبِيِّ (٢٢/ ٢٤٨).

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَلَّا إِنَّ فِـي الـدُّنْيَا أَعَاجِيـبَ جَمَّـةً   وَأَعْجَبُهَـا أَنْ لَا يَشِـيبَ وَلِيْـدُهَا

لَيْسَ عَمَلُ سِيبَوَيْهِ النَّحْوَ فَقَط!

يَظْهَرُ مِنْ كِتابِ أوزونَ أنَّ سِيْبَوَيهِ لَم يَشْتَغِلْ إلَّا بعِلْمِ النَّحْوِ، وَليسَ فِي كِتابهِ سِوَاهُ، وَهذَا أَيضًا جَهْلٌ بالكِتَابِ كَجَهَالَاتِهِ الأُخْرَى؛ لأنَّ سِيْبَوَيْهِ أَوْدَعَ كِتَابَهُ مَبَاحِثَ جَلِيلَةً مِنَ التَّصرِيفِ، كَمَا ذَكَرَ فِيهِ مَعَالِمَ مُنِيفَةً مِنْ عِلْمِ البَلَاغَةِ، وَهُوَ أَيضًا موسُوعَةٌ عَظِيمَةٌ فِي عِلْمِ الأَصْوَاتِ، وَكذَا مَرْجعٌ مُهِمٌّ لِعِلْمِ التَّجوِيدِ، كَمَا هُوَ مَرْجعٌ لُغويٌّ فَذٌّ، فَالكِتَابُ غَمَامٌ هَمُوعٌ مُتَقَاطِرٌ، دُرُّ أَفْضَالِهِ وَإِفْضَالِهِ فِي شَوَارِدِ العُلُوْمِ مُتَنَاثِر، وَقَدْ يأتِي بيَانُ ذَلِك بفُصُولٍ يَسِيرَةٍ بإِذنِ اللهِ تَعَالَى، وَلَعَلَّ البَاحِثِينَ يُبرزُونَ هذِهِ الجَوَانِبَ بإِطْنَابٍ وَتَفْصِيلٍ، وَيُفَصِّلُونَ فِيهَا وَيُؤَصِّلُونَ(١).

الكِتَابُ وَعِلْمُ التَّصْرِيفِ:

إنَّ كِتابَ سِيبَوَيْهِ يُضَمِّنُ أُمَّهَاتِ أبوَابِ التَّصرِيفِ، وَيَخُوضُ فِي دَقَائِقِ مَسَائِلِهَا وَشَوَارِدِ فَرَائِدِهَا، كَالإِعْلَالِ وَالإِبدَالِ بأنوَاعِهِمَا، وَالقَلْبِ الـمَكَانِيِّ، وَصِيْغَةِ اسمَي الفَاعِلِ وَالمفعُولِ، وَاسْمِ الآلَةِ، وَالـمَصَادِرِ، وَالتَّصغِيرِ بأنوَاعِهِ وَمَبَاحِثِهِ، وَالحُرُوفِ الزَّوَائِدِ، وَنُونَي التَّوْكِيدِ، وَالـمُضَعَّفِ، وَالـمَقصُورِ وَالـمَمدُودِ، وَكَيفِيَةِ بِنَاءِ الجُمُوعِ وَأنواعِهَا وَأَبنِيَةِ القِلَّةِ مِنْهَا وَالكَثْرَةِ، وَصِيَغِ الأَفْعَالِ وَأَبنِيَتِهَا، وَأَبنِيَةِ صِيَغِ الـمُبَالَغَةِ، وَالصِّفَةِ الـمُشَبَّهَةِ، وَاسْمِ التَّفْضِيلِ، وَجَمْعِ الجَمْعِ وَاسمِ الجَمْعِ، وَاسْمَيِ الزَّمَانِ وَالـمَكَانِ، وَغَيرِهَا مِنَ الأَبوَابِ الـمُهِمَّةِ وَالـمَسَائِلِ الـمُنِيفَةِ فِي التَّصرِيفِ، وَلَيسَ هذَا

---

(١) هُنَاكَ دِرَاسَاتٌ جَلِيلَةُ القَدْرِ رَفِيعَةُ الرُّتْبَةِ وَالمَقَامِ، وَلكِنَّهَا لَا تَفِي بحَقِّ الكِتَابِ، مِنْ حَيْثُ إِخرَاجُ دُرَرِ فُنُونِهِ المتَنَاثِرَةِ، وَشعَبِهِ المُتَكَاثِرَةِ، وَلَعَلَّ اللهَ يُقَيِّضُ لَهُ مَنْ يَهْتَمُّ بِدِرَاسَةِ عُلُومِ كِتَابِهِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ.

فَحسبُ، بَل: العُلَمَاءُ بَعْدَهُ اعتَمَدُوا عَلَى أَوزانِهِ الصَّرفِيَّةِ فِي الِاسمِ وَالفِعْلِ، وَجَعَلُوا مَا أَثبَتَهُ حُجَّةً وَقَرَّرُوهُ فِي كُتُبِهِم، كَابْنِ قُتَيْبَةَ[١]، وَابْنِ دُرَيْدٍ[٢]، وَابْنِ الأَنبَارِيِّ[٣]، وَالأَزْهَرِيِّ[٤]، وَغيرِهِم مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ.

الكِتَابُ وَعِلْمُ مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ:

إِنَّ كِتَابَ سِيبَوَيْهِ مَعَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ قَوَاعِدَ وَأُصُولٍ؛ تَضَمَّنَ أيضًا قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنْ مُفرَدَاتِ اللُّغَةِ، وَصَارَ فِي هذَا مَوسُوعَةً كَبِيرَةً وَثَرْوَةً لُغَوِيَّةً كَبِيرَةً لَا تُنْكَرُ.

قَالَ عَبْدُ القَادِرِ البَغْدادِيُّ: «قَدْ رَوَى فِي كِتَابِهِ قِطْعَةً مِنَ اللُّغَةِ غَرِيبَةً لم يُدْرِكْ أَهْلُ اللُّغَةِ مَعْرِفَةَ جَمِيعِ مَا فِيهَا وَلَا رَدّوا حَرْفًا مِنْهَا»[٥].

وَنَقَلَ أَيضًا قَائِلًا: «قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: إذا تَأَمَّلْتَ الْأَمْثِلَةَ مِنْ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، تَبَيَّنْتَ أَنَّهُ أَعلَمُ النَّاسِ باللُّغةِ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ يَزِيدَ: أَنَّ الـمُفَتِّشِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَنْ لَهُ الْـمَعْرِفَةُ بِاللُّغَةِ تَتَبَّعُوا عَلَى سِيبَوَيْهِ الْأَمْثِلَةَ، فَلَمْ يَجِدُوهُ تَرَكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَمْثِلَةٍ مِنْهَا، (الهُنْدَلِعُ): وَهِيَ بَقْلَةٌ. وَ(الدُّرْدَاقِسُ): وَهُوَ عَظْمٌ فِي الْقَفَا. وَ(شَمَنْصِيرُ): وَهُوَ اسْمُ أَرْضٍ.

---

(١) غَرِيبُ الحَدِيثِ لِابنِ قُتيبَةَ (٢/ ٢٩٠)، (٢/ ٣٥٧).

(٢) جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ لِابنِ دُرَيْدٍ (٢/ ١٢١٣)، (٣/ ١٢٩٨).

(٣) الزَّاهِرُ فِي مَعَانِي كَلِمَاتِ النَّاسِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (١/ ٩٠)، (١/ ١٩٦).

(٤) تَهذِيبُ اللُّغَةِ للأَزهرِيِّ (٣/ ٢٢٩)، (٥/ ٤٥)، (٩/ ٢٦٩)، (٩/ ٢٩٨).

(٥) خزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ للبَغْدَادِيِّ (١/ ١٧).

وَقَدْ فَسَّرَ الْأَصْمَعِيُّ حُرُوفًا مِنَ اللُّغَةِ الَّتِي فِي كِتَابِهِ، وَفَسَّرَ الْجَرْمِيُّ الْأَبْنِيَةَ، وَفَسَّرَهَا أَبُو حَاتِمٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ يَحْيى، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ مَا عِنْدَهُ فِيمَا يَعْلَمُهُ وَيَقِفُ عَمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَلَا يَطْعَنُ عَلَى مَا لَا يَعْرِفُهُ، وَيَعْتَرِفُ لِسِيْبَوَيْهِ فِي اللُّغَةِ بِالثِّقَةِ وَأَنَّهُ عَلِمَ مَا لم يَعْلَمُوا وَرَوَى مَا لَم يَرْوُوا[١].

وَقَدْ نَقَلَ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ عَنْ كِتَابِ سِيبَوِيهِ فِي هذَا البَابِ، مِنْهُم: ابنُ دُرَيْدٍ الأَزْدِيُّ[٢]، وَالجَوْهَرِيُّ[٣]، وَابنُ فَارِسٍ[٤]، وَابنُ سِيْدَه[٥]، وَغيرُهُم مِنْ عُلَمَاءَ آخَرِينَ كَثيرِينَ.

الكِتابُ دِيوَانٌ للشِّعْرِ العَرَبِيِّ:

إِنَّ الكِتَابَ مَوسُوعَةٌ كَبيرَةٌ حَفِظَتْ لَنَا شَوَاهِدَ كَثِيرَةً فِي العَرَبِيَّةِ ممَّا زَادَ عَلَى الأَلْفِ كَمَا أَشَرْنَا إليهِ سَابِقًا، قَالَ البَغْدَادِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ خِزَانَتِهِ: «قَالَ الْجَرْمِيُّ: (نَظَرْتُ فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ؛ فَإِذَا فِيهِ أَلْفٌ وَخمسُونَ بَيْتًا، فَأَمَّا الْأَلْفُ فَقَدْ عَرَفْتُ أَسمَاءَ قَائِلِيهَا فَأَثْبَتُّها، وَأَمَّا الْخَمسُونَ فَلَمْ أَعْرِفْ أَسمَاءَ قَائِلِيهَا)، فَاعْتَرَفَ بِعَجْزِهِ وَلم يَطْعَنْ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْكَلَامُ لأَبِي عُثْمَانَ المَازِنِيِّ أَيْضًا، وَلِكَوْنِ أَبْيَاتِهِ أَصَحَّ الشَّوَاهِدِ التَزَمْنَا فِي هَذَا الشَّرْحِ أَنْ نَنُصَّ عَلَى مَا وُجِدَ فِيهِ مِنْهَا بَيْتًا بَيْتًا، وَنُمَيِّزَهَا عَنْ غَيرِهَا

---

(١) خزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ للبَغْدَادِيِّ (١/ ٣٧٠).

(٢) جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ لِابنِ دُرَيدٍ (٢/ ٧٣١)، (٣/ ١٢٩٨).

(٣) الصِّحَاحُ للجَوْهَرِيِّ (١/ ٣٣٢)، (٢/ ٦٢٦).

(٤) المُحْكَمُ وَالمُحِيطُ الأَعْظَمُ (١/ ٦٦)، (١/ ٧٥)، (٢/ ١١٩)، (٧/ ٣١٧).

(٥) مُجْمَلُ اللُّغَةِ لِابنِ فَارِسٍ (١/ ٢١٨)، وَمَقَايِيسُ اللُّغَةِ (٢/ ٢٢).

لِيَرْتَفِعَ شَأْنُهَا وَيظْهَرَ رُجْحَانُهَا[١].

وَقَدْ كَانَ التزَمَ عدَم نِسْبَةِ البَيْتِ إِلَى قَائِلِهِ، وَاختَلَفَتْ آرَاءُ المُحقِّقِينَ فِي ذلِكَ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ أبيَاتِهِ مَعلُومَةٌ نِسبَتُهَا كَمَا قَالَهُ المَازِنِيُّ وَالجَرْمِيُّ.

وَقَالَ البَغْدَادِيُّ: «فَإِنَّ سِيبَوَيْهِ إِذَا اسْتَشْهَدَ بِبَيْتٍ لم يَذْكُرْ نَاظِمَهُ، وَأَمَّا الأَبيَاتُ المَنْسُوبَةُ فِي كِتَابِهِ إِلَى قَائِلِيْهَا؛ فَالنِّسْبَةُ حَادِثَةٌ بَعْدَهُ، اعْتَنَى بِنِسْبَتِهَا أَبُو عُمَرَ الْجَرْمِيُّ[٢]...وَإِنَّمَا امْتنعَ سِيبَوَيْهِ مِنْ تَسْمِيَةِ الشُّعَرَاءِ؛ لِأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَذْكُرَ الشَّاعِرَ وَبَعْضُ الشِّعْرِ يُرْوَى لِشَاعِرَيْنِ، وَبَعْضُهُ مَنْحُولٌ لَا يُعْرَفُ قَائِلُهُ لِأَنَّهُ قَدُمَ الْعَهْدُ بِهِ، وَفِي كِتَابِهِ شَيْءٌ مِمَّا يُرْوَى لِشَاعِرَيْنِ فَاعْتَمَدَ عَلَى شُيُوخِهِ وَنَسَبَ الإِنْشَادَ إِلَيْهِم؛ فَيَقُولُ: (أَنْشَدَنَا) يَعْنِي: الْخَلِيلَ، وَيَقُولُ: أَنْشَدَنَا يُونُسُ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ فِيمَا يَحْكِيْهِ عَنْ أَبِي الْخَطَّابِ وَغيرِهِ مِمَّنْ أَخَذَ عَنهُ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَنْشَدَنِي أَعْرَابِيٌّ فَصِيحٌ.

وَزَعَمَ بَعْضُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي الشِّعْرِ أَنَّ فِي كِتَابِهِ أَبيَاتًا لَا تُعْرَفُ،فَيُقَالُ لَهُ: لَسْنَا نُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ لَا تَعرِفُهَا وَلَا أَهْلُ زَمَانِكَ، وَقَدْ خَرَجَ كِتَابُ سِيبَوَيْهِ إِلَى النَّاسِ وَالْعُلَمَاءُ كَثِيرٌ وَالعِنَايَةُ بِالْعِلْمِ وَتَهْذِيبِهِ أَكِيدَةٌ، وَنُظِرَ فِيهِ وَفُتِّشَ؛ فَمَا طَعَنَ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ، وَلَا ادَّعَى أَنَّهُ أَتَى بِشِعْرٍ مُنْكَرٍ»[٣].

---

(١) خِزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ لِلبَغْدَادِيِّ (١/ ١٧).

(٢) هُنَا يَذكُرُ كَلَامَ الجَرْمِيِّ السَّابِقَ ذِكْرُهُ فِي عَدَدِ أَبيَاتِ الكِتَابِ.

(٣) خِزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ لِلبَغْدَادِيِّ (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

الكِتَابُ وَعِلْمُ البَلَاغَةِ:

إِنَّ الكِتَابَ مُشْتَمِلٌ عَلَى عُيُونِ أَعْيَانِ البَلَاغَةِ، وَتَطْبِيقَاتٍ عَمَلِيَّةٍ لَهُمَا، وَقَدْ نَقَلَ عنهُ كَثِيرٌ مِنْ أَرْبَابِ اللُّغَةِ وَأَئِمَّةِ البَيَانِ، مِنْهُم إِمَامُ البَلَاغَةِ وَمُؤَسِّسُهَا الأَوَّلُ بِلَا مُنَازِعٍ الإِمَامُ عَبدُ القَاهِرِ البَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ: (دَلَائِلِ الإِعْجَازِ)، حَيثُ نَقَلَ عَنْهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَارتَضَى تَحْقِيقَهُ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ نَقْلًا يَسِيرًا مِنْ سِيبَوَيْهِ، أَمْ: هُوَ نَقْلٌ لِفُصُولٍ مُستَقِلَّةٍ مِنْهُ إِلَى كِتَابِهِ، أَوِ: استِدلالُهُ بِشَوَاهِدِهِ الشِّعرِيَّةِ، أَوِ: الأَمثِلَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا سِيبَوَيْهِ، فَعَلَى سَبِيلِ المِثَالِ عِندَ مَا ذَكَرَ سِيبَوَيْهِ تَقْدِيمَ المَفْعُولِ عَلَى الفَاعِلِ، فِي مِثْلِ: (ضَرَبَ زَيْدًا عَبْدُ اللهِ)، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الأَصْلَ تَقْدِيمُ الفَاعِلِ عَلَى المَفعُولِ، ولكِنْ فِي هذَا المِثَالِ قُدِّمَ المَفعُولُ لِغَرَضٍ بَيَانِيٍّ، كَمَا أَشَارَ إِليهِ بِقَوْلِهِ: «كَأَنَّهُمْ إِنَّما يُقَدِّمُونَ الَّذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَغْنَى، وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يُهِمَّانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِم»[(١)]. وَقَدْ نَقَلَهُ الجُرْجَانِيُّ عنهُ مُسْتَحْسِنًا إِيَّاهُ[(٢)].

المُسْنَدُ وَالمُسْنَدُ إِلَيْهِ وَأَحْكَامُهُمَا:

وَقَدْ بَحَثَ فِي بَعْضِ أَهَمِّ مَبَاحِثِ عُلُومِ البَلَاغَةِ، كَالمسنَدِ وَالمسنَدِ إِلَيْهِ، وَبعضِ أَحكَامِهِمَا، كَالتَّعرِيفِ وَالتَّنكِيرِ، وَالتَّقدِيمِ وَالتَّأخِيرِ وَالحَذْفِ[(٣)]، وَمِنَ المَسَائِلِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي بَيَانِ عَقْلَنَةِ العَرَبِيَّةِ سَابِقًا هِيَ مَسْأَلَةُ تَعرِيفِ المُبْتَدَإِ (المُسْنَدِ إِلَيْهِ)، وَكَمَا قُلْنَا: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ الإِخْبَارُ عَنِ النَّكِرَةِ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ المُخْبَرُ عَنْهُ مَعْرِوفًا كَمَا يَجِبُ

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٣٤).

(٢) دَلَائِلُ الإِعجَازِ للجُرْجَانِيِّ (ص١٠٧)، ت: شاكر.

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٤٨)، وَمَا بَعْدَهَا.

أَنْ يَكُونَ الـمُخْبَرُ بِهِ مَعْرُوفًا، وَلكِنْ أَحيانًا نَعْدِلُ عَنْ هذَا الأَصْلِ لأُمُورٍ دَاعِيَةٍ لِذَاكَ العُدُولِ، فَمِنهَا مَا ذَكَرَهُ سِيْبَوَيْهِ فِي فَصْلٍ وَأَسْمَاهُ: (هذا بابٌ تُخْبِرُ فِيْهِ عَنِ النَّكِرَةِ بِنكِرَةٍ)، وَقَالَ تَحْتَهُ: «وذَلِكَ قَولُكَ: (ما كَانَ أحدٌ مِثلَكَ)، وَ(مَا كانَ أحدٌ خيرًا مِنْكَ)، وَ(مَا كانَ أحدٌ مُجترِئًا عَلَيكَ).

وَإِنَّما حَسُنَ الإخبارُ ههُنَا عنِ النَّكِرَةِ حيثُ أردتَ أنْ تَنفِيَ أنْ يكُونَ فِي مِثْلِ حَالِهِ شيءٌ، أَوْ: فَوْقَهُ؛ ولِأنَّ المخاطَبَ قَدْ يحتاجُ إِلى أَنْ تُعْلِمَهَ مِثلَ هذا.

وإذا قلتَ: (كانَ رَجُلٌ ذاهِبًا) فليسَ في هذا شيءٌ تُعلِمهُ كَانَ جَهلَهُ. ولو قلتَ: (كانَ رجلٌ مِنْ آلِ فُلانٍ فَارِسًا) حَسُنَ؛ لأَنَّهُ قد يَحتاجُ إلى أَنْ تُعْلِمَهُ أنَّ ذاك في آلِ فُلانٍ وَقَدْ يَجْهلُهُ. ولو قلتَ: (كانَ رجلٌ في قَومٍ عَاقِلًا) لم يَحْسُنْ؛ لأَنَّهُ لَا يُسْتَنْكَرُ أنْ يكُونَ فِي الدُّنيا عَاقِلٌ وَأنْ يكُونَ مِنْ قومٍ. فعلَى هذَا النَّحْوِ يَحْسُنُ ويَقْبُحُ.

وَلَا يجوزُ لأحدٍ أَنْ تَضَعهُ فِي مَوْضِعٍ وَاجِبٍ، لو قُلتَ: (كانَ أحدٌ منْ آلِ فُلانٍ) لم يَجُزْ؛ لأنّه إنَّما وَقَعَ فِي كَلامِهِم نفْيًا عَامًّا.

يقُولُ الرَّجلُ: (أتَانِي رَجلٌ)، يُرِيدُ وَاحِداً فِي العَدَدِ لَا اثْنَيْنِ، فيُقَالُ: (مَا أتاكَ رَجُلٌ)، أَيْ: أتاكَ أكثرُ منْ ذلكَ، أَوْ: يقُولُ: (أَتانِي رَجلٌ لَا امرَأَةٌ) فَيُقَالُ: (مَا أَتَاكَ رَجُلٌ)، أَيِ: امْرَأَةٌ أَتَتْكَ. ويقُولُ: (أَتانِي اليَوْمَ رَجُلٌ)، أَيْ: فِي قُوَّتِهِ وَنَفَاذِهِ، فَتقُولُ: (مَا أَتَاكَ رَجلٌ)، أَيْ: أَتَاكَ الضُّعَفَاءُ. فَإِذَا قَالَ: (مَا أَتَاكَ أَحَدٌ) صَارَ نَفْيًا عَامًّا لهذَا كُلِّهِ، فَإنَّما مَجْرَاهُ فِي الكَلامِ هذَا»[1].

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٥٤-٥٥).

وَقَدْ تَعرَّضَ لِمَبْحَثِ الحَذْفِ لِلاختِصَارِ فِي أمَاكِنَ كَثِيرَةٍ؛ فَمِنْهَا قَوْلُهُ فِي فَصْل(مَا يَحسُنُ عليهِ السُّكُوتُ في هذِهِ الأَحْرُفِ الخَمْسَةِ[1])، قَالَ: «لإضْمَارِكَ ما يكُونُ مُستَقَرًّا لها ومَوْضِعَهَا لَوْ أَظْهَرْتَهُ، وليسَ هذا المضمَرُ بِنَفْسِ المظهَرِ. وذلك: (إِنَّ مَالًا وَإِنَّ وَلَدًا وَإِنَّ عَدَدًا)، أَيْ: إنَّ لَهُمْ مَالًا. فَالَّذِي أَضْمَرْتَ: (لَهُمْ).

ويقُولُ الرَّجُلُ للرَّجُلِ: هلْ لكُمْ أَحدٌ إنَّ النَّاسَ أَلْبٌ عَليكُمْ؟، فيقُولُ: إِنَّ زَيدًا، وَإِنَّ عَمْرًا، أَيْ إِنَّ لَنَا. وَقَالَ الأَعْشَى:

[مِنَ الـمُنْسَرِحِ]

إنّ مَحَــــــلًّا وإنَّ مُــــــرْتَحَلًا … وإنَّ في السَّــفرِ مَــا مَضَــى مَهَــلا

وتقولُ: (إِنَّ غيرَهَا إِبِلًا وَشَاءً) كَأَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ لَنَا غَيْرَهَا إِبِلًا وَشَاءً)، أَوْ: عِنْدَنَا غَيْرَهَا إِبِلًا وَشَاءً»[2].

وَقَدْ ذَكَرَهُ الخَطِيبُ القَزوِينِيُّ وَاسْتَشْهَدَ بِالبَيْتِ الَّذِي أَوْرَدَهُ سِيْبَوَيْهِ مَعَ مِثَالِهِ[3].

وَقَالَ سِيبَوَيهِ أيضًا: «وتقولُ: (مَا كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَةٌ، وَلَا بَيْضَاءَ شَحْمَةٌ)، وَإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَ (شَحْمَةٌ). وَ(بَيْضَاءَ) فِي مَوْضِعِ جَرٍّ، كَأَنَّكَ أَظْهَرْتَ (كُلّ) فَقُلْتَ: (وَلَا كُلُّ بَيْضَاءَ). قَالَ الشَّاعِرُ:

[مِنَ الـمُتَقَارِبِ]

أَكُــلَّ امــرِئٍ تَحْسَــبِينَ امْــرَأً … ونَــارٍ تَوَقَّــدُ باللَّيْــلِ نَــارَا

---

(١) الأَحرُفُ الخَمْسَةُ هِيَ إِنَّ وَأَخواتُها.
(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٢/ ١٤١).
(٣) الإِيْضَاحُ فِي عُلُومِ البَلاغَةِ (٢/ ١٠٥).

فاستغنيتَ عَنْ تَثْنِيَةِ (كُلّ) لِذِكْرِكَ إِيَّاهُ فِي أَوَّلِ الكَلامِ، وَلِقِلَّةِ الْتِبَاسِهِ عَلَى المُخَاطَبِ. وَجَازَ كَمَا جَازَ فِي قولِكَ: (مَا مِثْلُ عَبْدِ اللهِ يقُولُ ذاكَ وَلَا أخِيهِ)، وَإِنْ شِئْتَ قُلتَ: وَلَا مِثلُ أَخِيْهِ[1].

الـمَجَازُ العَقْلِيُّ:

وَقَدْ ذَكَرَ مِنْ مَبَاحِثِ البَلاغَةِ مَسْأَلَةَ الـمَجَازِ العَقْلِيِّ فِي كِتَابِهِ فِي مَوَاطِنَ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ: «تقولُ: (مُطِرَ قومُكَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ)، عَلَى الظَّرْفِ وعلَى الوَجْهِ الآخَرِ. وَإِنْ شِئْتَ رَفَعْتَهُ علَى سَعَةِ الكَلامِ، كَما قالَ: (صِيْدَ عَلَيْهِ اللَّيلُ وَالنَّهارُ)، وَ(هُوَ نَهَارُهُ صَائِمٌ وليلُهُ قَائِمٌ)، وَكَمَا قَالَ جَرِيرٌ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

لقد لُمْتِنا يا أُمَّ غَيْلانَ فِي السُّرَى ... وَنِمْتِ وما لَيْلُ الْمَطِيّ بِنَائِمِ[2]

فَكَأَنَّهُ فِي كُلِّ هذا جَعَلَ اللَّيْلَ بَعْضَ الِاسْمِ.»[3].

وَقَوْلُهُ أيضًا: «(سَرَقَتِ اللَّيْلُ أَهْلَ الدَّارِ)، فَتُجْرِي اللَّيْلَةَ عَلَى الفِعْلِ فِي سَعَةِ الكَلامِ، كَمَا قَالَ: (صِيْدَ عَلَيهِ يَوْمَانِ)، وَ(وُلِدَ لَهُ سِتُّونَ عَامًا). فاللَّفْظُ يَجرِي علَى قولِهِ: (هذَا مُعْطِي زَيدٍ دِرْهَمًا)، والمعنَى إِنَّما هُوَ (فِي اللَّيْلَةِ)، وَ(صِيْدَ عَليهِ فِي اليَوْمَينِ)، غيرَ أَنَّهم أوقَعُوا الفِعلَ عليهِ لِسَعَةِ الكَلامِ ... وَمِثْلُ مَا أُجْرِيَ مُجْرَى هذَا

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٦٥).

(٢) اللَّيلُ لَا تَنامُ، إِنَّمَا أرادَ: وَمَا لَيْلُ الـمَطِيِّ بِمَنُومٍ فِيْهِ.

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ١٦٠).

فِي سَعَةِ الكَلامِ وَالِاستِخْفَافِ قَولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: [بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]. فَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَا يَمْكُرانِ، وَلكِنَّ الـمَكْرَ فِيهِمَا»[١].

وَقَالَ أيضًا: «وَمِثْلُهُ: وَمِمَّا جاءَ عَلَى اتِّسَاعِ الكَلَامِ والِاختِصَارِ قولُهُ تَعَالَى جَدُّهُ: [وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيْهَا وَالعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيْهَا] إنّما يُرِيدُ: أَهْلَ القَرْيَةِ، فَاخْتَصَرَ، وَعَمِلَ الفِعْلَ فِي القَرْيَةِ كَمَا كَانَ عَامِلًا فِي الأَهْلِ لَوْ كَانَ هاهُنَا.

[بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]، وَإِنَّما المعْنَى: بَلْ مَكْرُكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: [ولكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ]، وَإِنَّما هُوَ: ولكِنَّ البِرَّ بِرُّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.

وَمِثْلُهُ فِي الاتِّسَاعِ قولُهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً]، وَإِنَّما شُبِّهُوا بِالـمَنْعُوقِ بِهِ. وَإِنَّما الـمَعْنَى: مَثَلُكُم وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ النَّاعِقِ وَالـمَنعُوقِ بِهِ الَّذِى لَا يَسْمَعُ. وَلكِنَّهُ جَاءَ عَلَى سَعَةِ الكَلَامِ وَالإِيْجَازِ لِعِلْمِ الـمُخَاطَبِ بِالـمَعْنَى»[٢].

وَقَالَ أَيضًا: «مَتَى سِيرَ عَلَيْهِ؟ فيقولُ: الحَاجَّ، وَخُفُوقَ النَّجْمِ، وَخِلافَةَ فُلَانٍ، وصَلاةَ العَصْرِ. فإِنَّما هُوَ: زَمَنَ مَقْدَمِ الحَاجِّ، وَحِينَ خُفُوقِ النَّجْمِ، وَلكِنَّهُ عَلَى سَعَةِ الكَلَامِ وَالِاختِصَارِ»[٣].

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ١٧٦).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢١٢).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٢٢).

التَّشبيهُ وَأَدَوَاتُهُ:

وَمِمَّا ذَكَرَهُ وَنَبَّهَ عليهِ هُوَ الكَلامُ على أدَاتَيْنِ مِنْ أدَوَاتِ التَّشبيهِ، الأُوْلَى: وَهِيَ (كَأَنَّ)، فقَالَ: «إِنَّمَا تَجِيْءُ الكَافُ للتَّشبيهِ، فَتَصِيرُ وَمَا بَعْدَهَا بِمَنْزِلَةِ شَيْءٍ وَاحِدٍ. مِنْ ذَلِكَ قَولُكَ: (كَأَنَّ)، أَدْخَلْتَ الكَافَ عَلَى (أَنَّ) للتَّشْبِيهِ»(١).

وَقَالَ أيضًا: «وَسَأَلْتُ الخَلِيلَ عَنْ (كأنَّ)، فَزعَمَ أَنَّهَا (أَنَّ)، لَحِقَتْهَا الكَافُ للتَّشْبِيْهِ، وَلكِنهَّا صَارَتْ مَعَ (أَنَّ) بِمَنْزِلَةِ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ نَحْوُ: (كَأَيٍّ رَجُلًا)، وَنَحْوُ: (لَهُ كَذَا وَكَذَا دِرْهَمًا)(٢).

أمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ (الكَافُ) وَحْدَهَا، فَقَالَ: «كَافُ الجَرِّ الَّتِي تَجِيْءُ للتَّشْبِيهِ، وَذلِكَ قولُكَ: (أَنْتَ كَزَيدٍ)(٣).

فَعَلَى ذِلكَ تعرِفُ أنَّ الخَلِيلَ بنَ أحمدَ هُوَ أَوَّلُ مَنْ بَحَثَ أدَوَاتِ التَّشبيهِ وَسِيْبَوَيْهِ بَعْدَهُ وَلَيسَ الجَاحِظُ وَلَا غيرُهُ، كَمَا قِيلَ.

الِاستِعَارَةُ:

وَقَدْ ذَكَرَ بَيْتًا فِي الِاستِعَارَةِ التَّخييْلِيَّةِ وَاستَخْرَجَ الوَجْهَ البَلاغِيَّ فِيْهِ، وَهُوَ:

[مِنَ المُتَقَارِبِ]

وَدَاهِيَةٍ مِنْ دَوَاهِي المَنُو … نِ تَرْهَبُهَا النَّاسُ لَا فَا لَهَا(٤)

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٢/ ١٧١).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٣/ ١٥١).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٤/ ٢١٧).

(٤) لَا فَا لَهَا: أَرَادَ: (لَا فَمَ لَهَا)، وَمُرَادُهُ المَخْرَجُ.

فَقَالَ سِيبَوَيْهِ: «فَجعَلَ لِلدَّاهِيَةِ فَمًا، حَدَّثَنَا بِذَلِك مَنْ يُوْثَقُ بِهِ»[١]. وَنَقَلَهُ عنْ سِيبَوَيْهِ ابنُ سِنَانَ الخَفَاجِيُّ»[٢].

تَأْكِيدُ الـمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ:

وَبَحَثَ فِي فَنِّ البَدِيعِ أيضًا كَمَا ذَكَرَ مَا اصْطَلَحَ عليهِ المتأَخِّرونَ بِـ: (تأكيدِ الـمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الذَّمَّ)، وَقَالَ: «وَمِثْلُ ذلِكَ مِنَ الشِّعْرِ قَوْلُ النَّابِغَةِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَلَا عَيْـبَ فِـيْهِمْ غَيْـرَ أَنَّ سُـيُوْفَهُمْ ... بِهِـنَّ فُلُـوْلٌ مِـنْ قِـرَاعِ الكَتَائِـبِ

أَيْ: وَلكِنَّ سُيُوْفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ»[٣].

التَّـجْـرِيـدُ:

وَمِنَ الـمَبَاحِثِ البَدِيعِيَّةِ الَّتِي تَطَرَّقَ إِليهَا أيضًا مَبْحَثُ (التَّجرِيدِ)، حَيثُ مَثَّلَ لَهُ قَائِلًا: «أَمَّا أَبُوكَ فَلَكَ أَبٌ، لَكَانَ عَلَى قَوْلِهِ: فَلَكَ بِهِ أَبٌ، أَوْ: فِيْهِ أَبٌ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ بِقَوْلِهِ: فِيْهِ أَبٌ مَجْرَى الأَبِ عَلَى سَعَةِ الكَلَامِ»[٤].

وَقَدْ نَقَلَهُ عنهُ ابنُ جَنِّيْ فِي خَصَائِصِهِ فِي الفَصْلِ الخَاصِّ بالتَّجرِيدِ فَقَالَ: «وَمِنْهُ مَسْأَلَةُ الكِتَابِ: أَمَّا أَبُوكَ فَلَكَ أَبٌ. أَيْ: لَكَ مِنْهُ، أَوْ: بِهِ، أَوْ: بِمَكَانِهِ أَبٌ»[٥].

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٣١٦).

(٢) سِرُّ الفَصَاحَةِ لِلخَفَاجِيِّ (ص٣٦).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٢/ ٣٢٦).

(٤) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٣٩٠).

(٥) الخَصَائِصُ (٢/ ٤٧٧).

القَلْبُ:

وَمِنَ المَبَاحِثِ البَدِيعِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أيضًا هُوَ القَلْبُ كَمَا ذَكَرَ لَهُ مِثالًا، وَقَالَ: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: (أُدْخِلَ فُوهُ الحَجَرَ)، فَهذَا جَرَى عَلَى سَعَةِ الكَلَامِ، وَالجَيِّدُ: (أُدْخِلَ فَاهُ الحَجَرُ)، وَكَمَا قَالَ: (أَدْخَلْتُ فِي رَأْسِي القَلَنْسُوَةَ)، وَالجَيِّدُ: (أَدْخَلْتُ فِي القَلَنْسُوَةِ رَأْسِي)»[١].

وَبِهذَا أُنْهِي الأَمْثِلَةَ وَمِنْ وَحْيِهَا أَقُولُ: إِنَّ المُتَطَلِّعَ عَلَى آثَارِ العُلَمَاءِ المُهتَمِّينَ بالبَلاغَةِ وَعُلُومِهَا؛ كَالجُرْجَانِيِّ، وَابنِ المُعْتَزِّ، وَأَبِي هِلالٍ العَسْكَرِيِّ وَابنِ سِنَانَ الخَفَاجِيِّ، وَغَيْرِهِم مِنَ المتَقَدِّمينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ، يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّهُم قَدْ تَأَثَّرُوا بِسِيبوَيْهِ وَكِتَابِهِ تَأَثُّرًا بالِغًا، سَواءٌ أَكَانُوا نَقَلُوا عَنهُ بِاسمِهِ، أَوِ: اكتَفوا بالنَّقْلِ عنهُ لِشُهْرَةِ كِتابِهِ وَمَبَاحِثِهِ دونَ العَزْوِ إِلَيْهِ.

الكِتابُ وَعِلْمُ الأَصْوَاتِ:

إِنَّ مِنْ أَبْرَزِ مَا فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ وَأَظْهَرِهِ هُوَ عِلْمُ الأَصْوَاتِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِمَبَاحِثِهِ، وَقَدْ أَكْثَرَ المُحَقِّقُونَ فِي ذلِكَ وَأَطْنَبُوا بِوَفْرَةٍ وَافِرَةٍ، فِي كُتُبٍ مُتَفَاخِرَةٍ، مُسْتَخرِجِينَ كَلامَهُ فِي هذَا المَقْصِدِ المَرْمُوقِ بِكَثْرَةٍ كَاثِرَةٍ، مُعَلِّقِينَ عليهِ بِمَا يَحْتَاجُهُ مِنَ الكَشفِ وَالبَيَانِ، وَهذَا تَجِدُونَهُ فِي الكُتُبِ المفرَدَةِ فِي هذَا العِلْمِ، وَلا أَظُنُّهُ يَخفَى عَلَى أحدٍ مَا لِسِيبَوَيْهِ وَكِتَابِهِ مِنْ دَوْرٍ عَظِيمٍ فِي بُرُوزِ هذَا العِلْمِ وَظُهُورِهِ وَانتِشَارِهِ الوَاسِعِ فِي أَيَّامِنَا،

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ١٨١).قَالَ محمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ القَيرَوَانِيُّ (المتوَفَّى: ٤١٢هـ) فِي كِتَابِ: (مَا يَجوزُ للشَّاعِرِ فِي الضَّرُورَةِ) (ص١٨٢): «وَمِمَّا يجوزُ له: قَلْبُ المَعْنَى إِذَا كانَ الكَلامُ لَا يُشْكِلُ؛ وذلِكَ أَنْ يقُولَ: أُدخِلَ فُوهُ الحَجرَ، فيَكُونُ المَعْنَى أَنَّ الفَمَ أُدْخِلَ فِي الحَجَرِ، وَإِنَّما حَقِيقَتُهُ: أَنَّ الحَجَرَ أُدْخِلَ فِي الفَمِ».

وَالبُحوثُ وَالكُتُبُ فِي ذلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا وَالحَمْدُ للهِ، يُمكِنُ الرُّجوعُ إليهَا وَالوقُوفُ عَلَى حَقِيقَةِ ذلِكَ فِي مَقَالِنَا.

الكِتَابُ وَعِلْمُ القِرَاءَاتِ:

مَوضُوعُ القِرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ فِي كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ نَالَ بُحُوثًا فِي الجَامِعَاتِ وَالحُقُولِ العِلمِيَّةِ بِكَثْرَةٍ كَاثِرَةٍ، وَبُحُوثٍ مُتَنَاثِرَةٍ؛ لأَنَّ سِيبَوَيْهِ مُكْثِرٌ مِنْ إيرادِهَا، وَلكِنْ فِي عصرِهِ لَم تَكُنِ القِراءَاتُ القُرآنِيَّةُ مَجموعَةً فِي كِتابٍ وَلا دُوِّنَتْ فِي مُدَوَّنٍ، بَلْ: هِيَ مُتَفَرِّقَةٌ فِي صُدُورِ أهلِهَا، وَمُتداوَلةٌ فِي بُطُونِ بعضِ الأَوْرَاقِ مُتَفَرِّقَةً شَذَرَ مَذَرَ، وَمَا كَانَتْ فِي عصرِهِ صُنِّفَتْ عَلَى التَّقسِيمِ المَعْلُومِ إِلَى: قِرَاءَةٍ مُتَواتِرَةٍ وَشَاذَّةٍ، وَلِذلِكَ لا نَجِدُهُ أَنَّهُ أشارَ إلَى هذَا التَّمييزِ، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ أسماءَ القُرَّاءِ، ولكِنَّهُ يأتِي بِهَا عَلَى صِيَغٍ مُختَلِفَةٍ كَقَوْلِهِ: (قَرَأَ بَعْضُهُم)[١]، وَقَوْلِهِ: (إِنَّ بَعْضَهُم قَرَأَ)[٢]، وَقَوْلِهِ: (قَرَأَ أُنَاسٌ)[٣]، (قَرَأَ بَعْضُ النَّاسِ)[٤]، إِلَى آخِرِ الأَلفَاظِ المُعْتَادَةِ وَالمُتَعَدِّدَةِ.

الكِتَابُ مَرْجعٌ فِي عِلْمِ التَّجْوِيدِ:

إِنَّ الكِتَابَ يَحْتَوِي عَلَى مَبَاحِثَ مُهِمَّةٍ مِنْ عِلْمِ التَّجوِيدِ؛ كَالهَمْزِ وَالتَّسْهِيلِ، والإِمَالَةِ وَالفَتْحِ، وَالإِدّغَامِ بِشَكْلٍ مُفَصَّلٍ وَمُطْنَبٍ، وَالإِخْفَاءِ، وَبَعْضِ مَسَائِلِ المَدِّ وَأنواعِهِ، وَالمَخَارِجِ وَالصِّفَاتِ، وَقَدْ بَحَثَهُ بعضُ البَاحِثِينَ وَبيَّنُوهُ جَزاهُمُ اللهُ خَيرًا.

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٨٢)، (١/ ١٤٨).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٥٨)، (٢/ ٧٠).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ١٤٤).

(٤) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٢/ ١٠٨).

الكِتَابُ وَفِقْهُ اللُّغَةِ:

إِنَّ كِتَابَ سِيبَوَيْهِ مُشْتَمِلٌ عَلَى مَبَاحِث سَنِيَّةٍ مِنْ فِقْهِ اللُّغَةِ، وهذَا قَدْ أَبْرَزَهُ الإِمَامُ ابنُ جِنِّيْ فِي خَصَائِصِهِ وَهُوَ اللَّبنةُ الأُوْلَى مِنْ هذَا الفَنِّ الرَّفِيْعِ[1]، وَقَدْ نَقَلَ عنهُ عِدَّةَ نُقُولاتٍ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ، كَمَا هُنَاكَ أيضًا بَعضُ الأَمْكِنَةِ مِنْ هذَا العِلْمِ نَصَّ عليهَا سِيْبَوَيْهِ، أَوْ: يُتَلَمَّسُ مِنْ كَلامِهِ ضِمْنًا، وَلكِنَّهُ أغفَلَ عنْ ذكْرِهِ وَإيرادِهِ.

وَمِن بعْدِهِ نَقَلَ عنْ سِيْبَوَيْهِ أبُو مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيُّ فِي فُصُولٍ إِلَى كِتَابِهِ الشَّهِيرِ: (فِقْهِ اللُّغَةِ وَأَسرَارِ العَرَبِيَّةِ)، وَكَذَا السُّيُوطِيُّ نَقَلَ عَنْهُ فِي مَوَاطِنَ مِنْ السِّفْرِ العَظِيمِ: (الـمُزْهِرِ)[2].

وَهذَا الـمَجَالُ لَمْ يُصِبْهُ سَهْمُ البَاحِثِينَ بِإِفْرَادٍ حسَبَ اطِّلَاعِي، وَلَعلَّ أحدَهُم يَنشطُ لهُ وَيُخْرِجُ دُرَرَ كلامِهِ فِي هذَا البَابِ.

الكِتَابُ وَعِلْمَا العَرُوْضِ وَالقَافِيَةِ:

مِنْ جُمْلَةِ العُلُومِ الَّتِي ضَمَّنَهَا كِتَابُ سِيبَوَيْهِ، هُوَ العَرُوضُ وَالقَافِيَةُ، حَيثُ تَطَرَّقَ الإِمَامُ إِلَى بَحْثِ بَعضِ مُصْطَلَحَاتِ الفَنَّيْنِ وَأُسُسِهِمَا وَتَطْبِيقِهِمَا وَالإِشَارَةِ إلى مَسَائِلِهِمَا، كَمَا ذَكَرَ مُصْطَلَحَ الإِقْوَاءِ وَالـمُعَاقَبَةِ وَالإِجْرَاءِ وَالوَصْلِ وَالكَفِّ، وَغيرِهَا مِنَ الِاصطِلاحَاتِ، أَمَّا مَسَائِلُ الفَنِّ فَإِنَّهَا مَوجُودَةٌ إِلَى حَدٍّ لَا بَأسَ بِهِ، كَمَا ذَكَرَ جَوَازَ تَحرِيكِ الـمَجْزُومِ وَالسَّاكِنِ فِي القَوَافِي، وَذَكَرَ أيضًا حَذْفَ الهَاءِ وَتَعوِيضِهَا بالـمَدِّ إِذَا اضطَرَّ الشَّاعِرُ، وَذَكَرَ الإِجْرَاءَ عَلَى الأَصْلِ وَعَلَى غَيرِ الأَصْلِ، وَمَسَائِلَ أُخرَى مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالعِلْمَيْنِ.

---

(١) هذَا الكِتَابُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ عِلْمِ اللُّغَةِ أيضًا.

(٢) اشْتَهَرَ كِتَابُ الـمُزْهِرَ عَلَى أَنَّهُ فِي فَنِّ فِقْهِ اللُّغَةِ، وَلكِنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ.

وَقَدْ أَفْرَدَ هذَا الجَانِبَ بعضُ البَاحِثِينَ بالتَّأْلِيفِ وَبَحَثُوهُ.

الكِتَابُ وَالدِّرَاسَةُ الشِّعْرِيَّةُ:

عَقَدَ سِيبَوَيهِ فِي كِتَابِهِ بَابَيْنِ فِي الشِّعْرِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ أَحكَامٍ، فَالأَوَّلُ: (هذَا بَابُ مَا يَحْتَمِلُ الشِّعْرُ)(١)، فَأَورَدَ فِيهِ مَسَائِلَ وَأَحكَامًا وَأَمثِلَةً، وَقَالَ فِي أَوَّلِهِ: «اِعْلَمْ أَنَّهُ يَجوزُ فِي الشِّعْرِ مَا لَا يَجُوزُ فِي الكَلَامِ؛ مِنْ صَرْفِ مَا لَا يَنْصَرِفُ، يُشَبِّهُونَهُ بِمَا قَدْ حُذِفَ وَاسْتُعْمِلَ مَحْذُوفًا، كَمَا قَالَ العَجَّاجُ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

وَالقَاطِنَاتِ البَيْتَ غَيرِ الرُّيَّمِ(٢) قَوَاطِنًا مَكَّةَ مِنْ وُرْقِ الحَمِي(٣)

يُرِيدُ الحَمامَ.

وَقَالَ خُفَافُ بْنُ نُدْبَةَ السُّلَمِيُّ:

[مِنَ الكَامِلِ]

كَنَوَاحِ(٤) رِيْشِ حَمَامَةٍ نَجْدِيَّةٍ وَمَسَحْتِ بِاللِّثَتَينِ عَصْفَ الأَثْمَدِ(٥)

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٦).
(٢) صَدْرُ البَيْتِ غَيرُ مَذكُورٍ.
(٣) أَصْلُهُ: الحَمَامُ: حُذِفَتِ الأَلِفُ وَأُبْدِلَتِ الأَلِفُ يَاءً، وَجُعِلَتْ فَتْحَةُ المِيمِ كَسْرَةً لِمُنَاسَبَةِ اليَاءِ، فَصَارَتْ: (حَمِي).
(٤) أَصلُهُ: (كَنَوَاحِي) وَاجتزَأَ بالكَسْرَةِ عَنِ اليَاءِ، كَمَا يُجْتَزَأُ بِالفَتْحَةِ عَنِ الأَلِفِ وَبالضَّمَّةِ عَنِ الوَاوِ.
(٥) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٦-٢٧).

وقَالَ أيضًا: (بَابُ وُجُوهِ القَوَافِي فِي الإِنْشَادِ)[١]، وَهذَا البَابُ كَسَابِقِهِ يَحْتَوِي عَلَى أمُورٍ تَتعَلَّقُ بالقَافِيَةِ، فقَالَ تَحْتَهُ: «أَمَّا إِذَا تَرَنَّمُوا فَإِنَّهُم يُلْحِقُونَ الأَلِفَ وَاليَاءَ وَالوَاوَ؛ مَا يُنَوَّنُ وَمَا لَا يُنَوَّنُ؛ لِأَنَّهُم أَرَادُوا مَدَّ الصَّوْتِ، وَذَلِكَ قَوْلِهِمْ -وَهُوَ لِامْرِئِ القَيْسِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

قِفَا نَبكِ مِن ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِي ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[٢]

وَقَالَ فِي النَّصْبِ - لِيَزِيْدَ بْنِ الطَّثْرِيَّةِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَبِتْنَا تَحِيدُ الوَحْشُ عَنَّا كَأَنَّنَا ... قَتِيلَانِ لَمْ يَعلَمْ لَنَا النَّاسُ مَصْرَعَا

وَقَالَ فِي الرَّفْعِ - للأَعْشَى:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

هُرَيْرَةَ ودِّعْهَا وإنْ لامَ لائِمُو ... غَدَاةَ غَدٍ أمْ أنتَ لِلْبَيْنِ واجِمُ[٣]

وَقَدْ نَقَلَ عنهُ ابنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي ذلِكَ وَاعتَمَدَ عليهِ، كَمَا قَالَ: «وَأَمَّا المُضَارِعُ وَالمُقْتَضَبُ وَالمُجْتَثُّ؛ فَلَيْسَ فِيهَا حَرْفُ مَدٍّ، لِتَمَامِ أَوَاخِرِهَا، وَأَمَّا المُتَقَارَبُ فَأَلْزَمُوا «فعُول» المَقصُور حَرْفُ المَدِّ: لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ. قَالَ سِيْبَوَيْهِ: وَكُلُّ هذِهِ القَوَافِي قَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بِغَيْرِ حَرْفِ المَدِّ؛ لِأَنَّ رَوِيَّهَا تَامٌّ صَحِيْحٌ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٤/ ٢٠٤).

(٢) لَم يَذكُرِ الشَّطْرَ الثَّانِي.

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٤/ ٢٠٤-٢٠٥)، وَلَم يَذكُرْ عَجزَ البَيْتِ.

بِحَرْفِ الـمَدِّ، وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِم، وَلكِنَّهُ شَاذٌّ قَلِيلٌ، وَأَنْ تكُونَ بِحَرْفِ الـمَدِّ أَحْسَنُ، لِكَثْرَتِهِ وَلزُومِ الشُّعَرَاءِ إِيَّاهُ»[1].

الكِتَابُ وَنَقَلُ اللَّهَجَاتِ العَرَبِيَّةِ الفَصِيْحَةِ:

قَدْ حَفِظَ كِتَابُ سِيبَوَيْهِ لَهَجَاتٍ كَثِيرَةً للأَلْفَاظِ وَالكَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ مَعَ التَّوْجِيهِ وَالتَّعلِيلِ لَهَا، وَقَدْ كَانَ هذَا ثَرْوَةً لُغَوِيَّةً عَظِيمَةً وَصلَتْنَا خِلالَ كِتَابِهِ، فَإِنَّنَا نَجِدُهُ يَنْقُلُ عَنْ طَيٍّ وَبَنِي تَمِيمٍ وَغَيْرِهِم مِنَ القَبَائِلِ الـمُنْتَشِرَةِ فِي الأَقْطَارِ العَرَبِيَّةِ، كَقَوْلِهِ: «هذَا بَابُ مَا أُجْرِيَ مُجْرَى (لَيْسَ) فِي بَعْضِ الـمَوَاضِعِ، بِلُغَةِ أَهْلِ الحِجَازِ، ثُم يَصِيرُ إِلَى أَصْلِهِ وذلِكَ الحَرْفُ (مَا). تقُولُ: مَا عبدُ اللهِ أَخَاكَ، وَمَا زَيدٌ مُنْطَلِقًا.

وَأَمَّا بنُو تَمِيمٍ فَيُجْرُونَهَا مُجْرَى (أَمَّا) وَ(هَلْ)، أَيْ: لَا يُعْمِلُونَهَا فِي شَيْءٍ وَهُوَ القِيَاسُ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ بِفِعْلٍ وَلَيْسَ (مَا) كَـ(لَيْسَ)، وَلَا يكُونُ فِيهَا إِضْمَارٌ.

وَأَمَّا أَهْلُ الحِجَازِ فَيُشْبِهُونَهَا بِـ(لَيْسَ)، إِذْ كَانَ مَعْنَاهَا كَمَعْنَاهَا، كَمَا شَبَّهُوا بِهَا (لَاتَ) فِي بَعْضِ الـمَوَاضِعِ، وذلِكَ مَعَ (الحِيْنِ) خَاصَّةً»[2].

وَالأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ جِدًّا لَا يُمْكِنُ حَصْرُهَا هُنَا، وَقَدْ بَحَثَ كَثِيرٌ مِنَ البَاحِثِينَ مَسأَلَةَ اللَّهَجَاتِ فِي كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ، بِأَنْوَاعٍ مِنَ البُحُوثِ مِنْ نَوَاحِي مُخْتَلِفَةٍ، كَالـمُقَارَنَةِ بَيْنَهَا، وَمِنْ حَيثُ أَوزانُهَا وَصِيَغُهَا، وَمِنْ حَيْثُ القِيَاسُ، وَمِنْ جَوَانِبَ أُخْرَى مُخْتَلِفَةٍ.

---

(١) العقْدُ الفَرِيدُ لِابنِ عبدِ رَبِّهِ (٦/ ٣٥٦).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٥٧).

الكِتَابُ شَارِحٌ للجُمَلِ العَرَبيَّةِ وبيَانٌ لِمَأْثُورِ كَلَامِ العَرَبِ:

وَمِنَ الفُنُونِ البَدِيعَةِ الَّتِي احتوَاهَا كِتَابُ سِيبَوَيْه، هُوَ شَرحُهُ لِكَلامِ العَرَبِ وَبَيَانٌ لِمُرادِهِم فِيْه، وَإِيضاحٌ لِكَيفِيَةِ تَألِيفِه، فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ عَنِ العِوَضِ: «العِوَضُ قَوْلُهُم: (زَنَادِقَةٌ وزَنَادِيْقُ، وفَرَازِنَةٌ وفَرَازِيْنُ)، حَذَفُوا اليَاءَ وَعَوَّضُوهَا الهَاءَ. وَقَوْلُهُم: (أَسْطَاعَ يُسْطِيعُ)، وَإِنَّما هِيَ (أَطَاعَ يُطِيعُ)، زَادُوا السِّيْنَ عِوَضًا[1] مِنْ ذَهَابِ حَرَكَةِ العَيْنِ مِنْ (أَفْعَلَ). وَقَوْلُهُم: (اللَّهُمَّ)، حذَفُوا (يَا) وَأَلْحَقُوا الـمِيْمَ عِوَضًا»[2].

وَقَوْلُهُ: «زَعَمَ أَبُو الخَطَّابِ أَنَّ سُبْحَانَ اللهِ كَقَوْلِكَ: (بَرَاءَةَ اللهِ مِنَ السُّوْءِ)، كَأَنَّهُ يَقُولُ: (أُبَرِّئُ بَرَاءَةَ اللهِ مِنَ السُّوْءِ). وَزَعَمَ أَنَّ مِثْلَه قَوْلُ الشَّاعِرِ، وَهُوَ الأَعْشَى:

[مِنَ السَّرِيْعِ]

أَقُــولُ لَــمَّا جَــاءَنِي فَخْــرُهُ ... سُــبْحَانَ مِــنْ عَلْقَمَــةَ الفَــاخِرِ

أَيْ: بَرَاءَةً مِنْهُ»[3].

وَمِنْهُ قَوْلُهُ: «اعْلَمْ أَنَّ الدُّعَاءَ بِمَنْزِلَةِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَإِنَّمَا قِيْلَ: (دُعَاءٌ) لِأَنَّهُ اسْتُعْظِمَ أَنْ يُقَالَ: أَمْرٌ، أَوْ: نَهْيٌ. وذلِكَ قولُكَ: (اللَّهُمَّ زَيْدًا فَاغْفِرْ ذَنْبَهُ)، وَ(زَيْدًا فَأَصْلِحْ شَأْنَهُ)، وَ(عَمْرًا لِيَجْزِهِ اللهُ خَيْرًا)»[4].

---

(١) قَالَ شَيخُنَا عُمرُ الحَدُّشِيُّ: وتارةً يكونُ العِوَضُ فِي مَحَلِّه، وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَحَلِّه كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ كِتَابِي: (التَّوضِيحَاتِ الجَلِيَّة) (ص:٨٧).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْه (١/ ٢٥).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْه (١/ ٣٢٤).

(٤) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْه (١/ ١٤٢).

وَقَوْلُهُ: «إِنَّا مَعْشَرَ العَرَبِ نَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، كَأَنَّهُ قَالَ: أَعْنِي[١]، ولكِنَّهُ فِعْلٌ لَا يَظْهَرُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ كَمَا لم يَكُنْ ذلِكَ فِي النِّدَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ اكْتَفوا بِعِلْمِ الـمُخَاطَبِ[٢].

وَمِنْهَا قَوْلُهُ عَنِ الحَذْفِ عِندَ الِاستِغْنَاءِ فِي (اللَّهُمَّ غُلامًا): «وَمَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ هَبْ لِي غُلَامًا[٣].

وَقَوْلُهُ: «أَصْبَحْنَا وَأَمْسَيْنَا وَأَسْحَرْنَا وَأَفْجَرْنَا، وَذلِكَ إِذَا صِرْتَ فِي حِيْنِ صُبْحٍ وَمَسَاءٍ وَسَحَرٍ، وَأَمَّا صَبَّحْنَا وَمَسَّيْنَا وَسَحَّرْنَا فَتَقُولُ: أَتَيْنَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً وَسَحَرًا، وَمِثْلُهُ بَيَّتْنَاهُ: أَتَيْنَاهُ بَيَاتًا»[٤].

الكِتَابُ وَالـمَثَلُ العَرَبِيُّ:

إِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مَا فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ إِيرادَهُ لِجَمْهَرَةٍ مِنَ الأَمْثَالِ العَرَبِيَّةِ وَبَيَانَهُ لِمَعَانِيهَا وَتوجِيهَهُ لَوَجْهِهَا الإِعرَابِيِّ، فَمِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ: «جَعلُوا عَسَى بِمَنْزِلَةِ (كَانَ) فِي قَوْلِهِمْ: (عَسَى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا)»[٥].

وَقَوْلُهُ: «قَوْلُ العَرَبِ فِي مَثَلٍ مِنْ أَمْثَالِهِمْ: (اللَّهُمَّ ضَبُعًا وذِئبًا) إِذَا كَانَ يَدعُو بِذَلِكَ عَلَى غَمِّ رَجُلٍ. وَإِذَا سَأَلْتَهُم مَا يَعْنُونَ؟ قَالُوا: (اللَّهُمَّ اجْمَعْ، أَوِ: اجْعَلْ فِيْهَا ضَبُعًا وَذِئْبًا)[٦].

---

(١) يُرِيدُ نَصبَ (مَعْشَر).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٢/ ٢٣٣).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٢/ ٣٠٩).

(٤) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٤/ ٦٢، ٦٣).

(٥) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٥١)، (١/ ١٥٩)، (٣/ ١٥٨).

(٦) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٥٥).

وَقَوْلُهُ: (الـمَرْءُ مَقتُولٌ بِمَا قَتَلَ بِهِ)[١].

وَقَوْلُهُ: (أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ)، كأَنَّهُ قَالَ: بَادِرْ أَهْلَكَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا الـمَعْنَى أَنْ يُحَذِّرَهُ أَنْ يُدْرِكَهُ اللَّيْلُ. وَاللَّيْلُ مُحَذَّرٌ مِنْهُ»[٢].

وَكَذَا أَوْرَدَ سِيبَوَيْهِ قَوْلَهُم: (مَرَرْتُ بِهِم قَضِّهِم بِقَضِيْضِهِم)[٣]. وَمَعْنَى: (قَضِّهِم وَقَضِيضِهِم)، أَيْ: كُلِّهِم، وَقَدْ ذَكَرَ سِيبَوَيْهِ جَوَازَ النَّصْبِ فِي (قَضّهم).

وَأَورَدَ أيضًا:(مَرَرْتُ بِهِمُ الجَمَّاءَ الغفيرَ)، (وَالنَّاسُ فِيْهَا الجَمَّاءَ الغَفِيرَ). فَهذَا يَنْتَصِبُ[٤].

وَكَذَا أَورَدَ: (مُذْ شَبَّ إِلى دَبَّ)[٥]. وَحكَاهُ ثَعْلَبٌ وَقَالَ: وَتَقُولُ: مَا هُوَ إِلَّا عَلَى خُلُقٍ وَاحِدٍ مِنْ شَبَّ إِلَى دَبَّ، وَمِنْ شَبٍّ إِلَى دَبٍّ. يَعْنِي: مُذْ كَانَ شَابًّا إِلَى أَنْ دَبَّ عَلَى العَصَا[٦].

فَهذَا إِلَى آخِرِ الأَمْثَالِ الَّتِي أَتَى بِهَا وَحَكَاهَا عَنِ العَرَبِ، مُسْتَشهِدًا بِهَا، أَوْ: مُبيِّنًا مَعَانِيَهَا، وَقَدِ اهتَمَّ بَعضُ البَاحِثِينَ بِهذَا الجَانِبِ مِنْ كِتَابِهِ وَأَفْرَدُوهُ بالذِّكْرِ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٥٨).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٧٥).

(٣) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٣٧٤).

(٤) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٣٧٥).

(٥) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (٣/ ٢٦٩).

(٦) مَجَالِسُ ثَعلَبٍ (ص٢٠).

وَهذَا البَحْثُ الـمُخْتَصَرُ يَكْفِي للبَاحِثِ المُنْصِفِ لِيُوصِلَهُ إِلَى حَقِيقَةِ سَبَبِ تَعظِيمِ الأَئِمَّةِ لِسِيْبَوَيْهِ وَكِتَابِهِ، وَمِنْ خِلالِهِ يَتَبَيَّنُ سِرُّ اهتِمَامِهِم بِهِ وَتَوقِيرِهِم إِيَّاهُ، وَلِذلِكَ قَالَ الأَعْلَمُ الشَّنْتَمْرِيُّ فِي صَدْرِ شَرْحِهِ لِلكِتَابِ: «وَقَدْ عَلِمَ العُلَمَاءُ أَنَّ كِتَابَ أَبِي بِشْرٍ عَمْرِ بْنِ عُثْمَانَ الـمَعرُوفِ بِسِيْبَوَيْهِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَجْمَعُ مَا أُلِّفَ فِي اللِّسَانِ العرَبِيِّ لِإِقَامَةِ حُدُودِهِ، وَمعرِفَةِ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَفَهْمِ مَنْظُومِهِ وَمَنْثُورِهِ، وَجَلِيِّهِ وَمَسْتُورِهِ، وَأَصَحُّ مَا وُضِعَ فِي إِبَانَةِ أَنْحَاءِ العَرَبِ وَلُغَاتِهَا وَمَرَامِيهَا فِي كَلامِهَا وَإِشَارَاتِهَا، وَمَجَازِهَا وَاستِعَارَاتِهَا، وَبِقَدْرِ تَرَقِّي العَالِمِ فِي فَهْمِهِ، يَتَرَقَّى فِي عِلْمِ التَّنزِيلِ وَحَدِيثِ الرَّسُولِ، وَالتَّأوِيلِ لِمُشكِلَاتِ الأَقَاوِيلِ.

وَلَمْ نَرَ هذَا اللِّسَانَ العَرَبِيَّ الـمُبِينَ مُنْذُ وُضِعَ هذَا الكِتَابُ يَدُورُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَرْجِعُ الـمُختَلِفُونَ فِيْهِ إِلَّا إِليهِ، فَكَمْ مِنْ مُتَشَابِهٍ مِشْنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى شَرَحَ، وَمُشْكِلٍ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْضَحَ، وَعَوِيصٍ مِنَ الالحُكْمِ أَبَانَ عَنهُ وَأَفْصَحَ، وَفَاسِدٍ مِنْ كَلامِ النَّاسِ رَقَّحَ[1] وَأَصْلَحَ. وَفَضْلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ لِسَانٌ، أَوْ: يُحِيطَ بِهِ تِبْيَانٌ»[2].

وَلَعَلَّ الخُصُومَ يَكُونُونَ مُنصِفِينَ وَلَوْ لِسَاعَةٍ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الكِتَابِ بِعَيْنِ الإِنْصَافِ وَالإِتْحَافِ وَيَرَوْنَ هذِهِ الحَقَائِقَ.

---

(١) رَقَّحَ: أقَامَ ،أَصْلَحَ.

(٢) النُّكَتُ فِي تَفسِيرِ كَلامِ سِيْبَوَيْهِ للأَعْلَمِ الشَّنْتَمْرِيِّ (١/ ١٥١)، دراسة وتحقيق: رَشِيد بلحَبيب.

هَلْ سِيبْويْه أَهْمَلَ الـمَعَانِي مُقْبلًا عَلَى الأَلْفَاظِ فقط؟

إنَّ الأَبحاثَ السَّابقَةَ الَّتِي ذكَرْناهَا فِي بَيَانِ احتِوَاءِ الكِتَابِ عَلَى عُلُومٍ أُخْرَى وَلَا سيَّمَا علُومَ البَلاغَةِ؛ لَكَفِيلَةٌ بأنَّ سِيبَوَيْهِ لَم يَنظُرْ إِلَى الأَلْفَاظِ وَحْدَهَا، مُجرَّدَةً عَن الغَوْصِ فِي الـمَعَانِي وَالدَّلالَاتِ؛ لأنَّ بُحُوثَ الـمَعَانِي وَالبَيَانِ وَالنَّقْدِ مِنْ قَبِيلِ الِاهتِمَامِ بالـمَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ، بَلْ: مِنْ أرْقَى مَقَامَاتِ الِاهتِمَامِ بالـمَعْنَى لأَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَى النَّقْدِ مِنَ الَّذِينَ يعنونَ بالـمَعَانِي إِلَّا الحَظِيُّ مِنْهُم وَالمُتَمَارِسُ المَاهِرُ، وَمَعَ هذَا كُلِّهِ أنَّ صَاحِبَ الجِنَايَةِ -فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ- وَغيرُهُ مِنْ أعداءِ العَرَبيَّةِ يَتَّهِمُونَ سِيْبَوَيْهِ بأنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى الأَلْفَاظِ وَحدَهَا وَترَكَ الـمَعَانِيَ وَالدِّلَالَاتِ وَلَمْ يَعْبَأْ بِهَا.

وَلكِنَّهُ فِي مَقَالَتِهِم هذِهِ إمَّا جَاهِلُونَ بِكِتَابِ سِيْبَوَيْهِ وَإِمَّا جَائِرُونَ مُجْحِفُونَ فِي حَقِّهِ بِرَمْيِهِم بالكَذِبِ وَالبُهْتَانِ، إِذِ الـمَبَاحِثُ السَّابِقَةُ تُرِيهِمْ سُوءَ مَقَالِهِم، وَتُعَرِّيهِم أَمَامَ قُرَّائِهِم، وَزِيَادَةً عَلَى ذلِكَ أَقُولُ:

إنَّ كِتَابَ سِيبَوَيْهِ مَلِيءٌ بالأَبْحَاثِ الَّتِي تَرْجِعُ فِي أَصْلِهَا إِلَى الِاحتِكَامِ الـمَعْنَوِيِّ، وَبِنَاءِ الأَحكَامِ عَلَى الـمَعَانِي، وَيُمكِنُ أَنَّ نَفْيَ سِيبَوَيْهِ لوجُودِ بَدَلِ الغَلَطِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى خَيرُ دَليلٍ عَلَى أَنَّهُ يَنْظُرُ فِي اللَّفْظِ والمَعْنَى مَعًا، وَمَا دَامَ اللهُ تَعَالَى لَهُ العِلمُ المطلَقُ ويُوصَفُ بِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي كَلامِهِ بَدَلُ الغَلَطِ، فَلِذلِكَ أنكَرَهُ، كَمَا حَكَاهُ عنهُ الأَزْهَرِيُّ قَائِلًا: «وَمَذْهَبُ سِيبَوَيْهِ أَنَّ بَدَلَ الْغَلَطِ لَا يَجُوزُ فِي كِتَابِ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-»(١).

---

(١) تَهذِيبُ اللُّغَةِ للأَزْهَرِيِّ (١/ ١٠٨).

وَكَذَا اهتِمَامُهُ بالـمَعانِي يَتَجَلَّى خِلالَ شَرْحِ الجُمَلِ وَالعِبَارَاتِ وَتَأْوِيلِ النُّصُوصِ وَبيَانِ الـمَجازَاتِ إِنْ كَانَتْ موجُودَةً، فَعَلَى سَبيلِ الـمِثَالِ نَأْتِي بِهذَا الكَلامِ لَهُ، قَالَ سِيْبَوَيْهِ فِي مَوْضِعٍ فِيهِ الحَذفُ: «سَمِعْنَا مِنَ العَرَبِ مَنْ يَقُولُ -مِمَّنْ يُوْثَقُ بِهِ-: (اجْتَمَعَتْ أَهْلُ اليَمَامَةِ)؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ فِي كَلَامِهِ: (اجْتَمَعَتِ اليَمَامَةُ)، يَعْنِي: أَهْلَ اليَمَامَةِ، فَأَنَّثَ الفِعْلَ فِي اللَّفْظِ؛ إِذْ جَعَلَهُ فِي اللَّفْظِ لليَمامَةِ، فتَرَكَ اللَّفْظَ يكُونُ عَلَى مَا يكُونُ عَلَيْهِ فِي سَعَةِ الكَلَامِ»[(١)].

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ: «هذَا بَابُ الِاستِقَامَةِ مِنَ الكَلَامِ وَالإِحَالَةِ؛ فَمِنْهُ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ، وَمُحَالٌ، وَمُسْتَقِيمٌ كَذِبٌ، وَمُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ، وَمَا هُوَ مُحَالٌ كَذِبٌ:

- فَأَمَّا الـمُسْتَقِيمُ الحَسَنُ؛ فقَوْلُكَ: أَتَيتُكَ أَمْسِ وَسَآتِيكَ غَدًا، وَسَآتِيكَ أَمْسِ.
- وَأَمَّا الـمُسْتَقِيمُ الكَذِبُ؛ فقَوْلُكَ: حَمَلتُ الجَبَلَ، وَشَرِبْتُ مَاءَ البَحْرِ، وَنَحْوُهُ.
- وَأَمَّا الـمُسْتَقِيمُ القَبِيْحُ؛ فَأَنْ تَضَعَ اللَّفْظَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، نَحْوُ قَوْلِكَ: قَدْ زَيْدًا رَأَيْتُ، وَكَي زَيْدًا يَأْتِيكَ، وَأَشْبَاهِ هذَا.
- وَأَمَّا الـمُحَالُ الكَذِبُ؛ فَأَنْ تقُولَ: سَوْفَ أَشْرَبُ مَاءَ البَحْرِ أَمْسِ»[(٢)].

إِنَّنِي أَتَعَجَّبُ منْ هؤلاءِ الَّذِينَ يَتَّهِمُونَ سيبَوَيْهِ بأَنَّهُ أَهمَلَ المَعَانِي والدَّلالَاتِ، مُقبِلًا عَلَى الأَلْفَاظِ وَالحَرَكَاتِ، مَعَ أَنَّ عَمَلَ سِيبَوَيْهِ كَانَ عَلَى المَعَانِي وَالدَّلالَاتِ أَكْثَرَ مِنَ الأَلْفَاظِ وَحَرَكَاتِ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ، حَتَّى إِنَّ ثَعْلَبًا اعتَرَضَ عَلَى سِيبَوَيْهِ؛ لأَنَّهُ

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٥٣).

(٢) الكِتَابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٢٥).

كانَ يَرَى سِيبَوَيْهِ مُهمِلًا الأَلْفَاظَ، كَمَا ذَكَرَهُ القِفْطِيُّ وَغيرُهُ عَنْ قُطْرُبٍ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلَ الفَرَّاءُ عَلَى الرَّشِيدِ فتكَلَّمَ بِكَلامٍ، فَلَحَنَ فِيهِ مَرَّاتٍ، فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيى: إِنَّهُ لَحَنَ يَا أَمِيرَ المؤمِنينَ! فَقَالَ الرَّشِيدُ للفَرَّاءِ: أَتَلْحَنُ؟.

فَقَالَ الفَرَّاءُ: يَا أَمِيرَ المؤمِنينَ، إِنَّ طِبَاعَ أَهْلِ البَدْوِ الإِعْرَابُ، وَطِبَاعَ أَهْلِ الحَضَرِ اللَّحْنُ، فَإِذَا تَحفَّظْتُ لَم أَلْحَنْ، وَإِذَا رَجَعْتُ إِلَى الطَّبْعِ لَحَنْتُ. فَاسْتَحْسَنَ الرَّشِيدُ قَوْلَهُ.

وَقَالَ ثَعْلَبٌ: العَرَبُ تُخْرِجُ الإِعْرَابَ عَلَى الأَلْفَاظِ دُوْنَ المَعَانِي، وَلَا يُفْسِدُ الإِعْرَابُ المَعَانِيَ، وَإِذَا كَانَ الإِعْرَابُ يُفْسِدُ المَعْنَى فَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ.

وَإِنَّما صَحَّ قَوْلُ الفَرَّاءِ؛ لِأَنَّهُ عَمِلَ النَّحْوَ وَالعَرَبِيَّةَ عَلَى كَلَامِ العَرَبِ، فَقَالَ: كُلُّ مَسْأَلَةٍ وَافَقَ إِعْرَابُهَا مَعْنَاهَا، وَمَعْنَاهَا إِعْرَابَهَا، فَهُوَ الصَّحِيحُ، وَإِنَّمَا لَحِقَ سِيبَوَيْهِ الغَلَطُ؛ لأَنَّهُ حَمَلَ كَلَامَ العَرَبِ عَلَى المَعَانِي دُوْنَ الأَلْفَاظِ، وَلم يُوْجَدْ فِي كَلامِ العَرَبِ وَأَشْعَارِ الفُحُولِ إِلَّا مَا المَعْنَى فِيهِ مُطَابِقٌ للإِعْرَابِ، وَالإِعْرَابُ مُطَابِقٌ للمَعْنَى.. قَالَ(ثَعْلَبٌ): وَمَا نَقَلَهُ هِشَامٌ، عَنِ الكِسَائِيِّ، فَلَا مَطْعَنَ فِيهِ، وَمَا قَاسَهُ فَقَدْ لَحِقَهُ فِيهِ المَغْمَزُ؛ لِأَنَّهُ سَلَكَ بَعْضَ سَبِيلِ سِيْبَوَيْهِ، فَعَمِلَ العَرَبِيَّةَ عَلَى المَعَانِي وَتَرَكَ الأَلْفَاظَ، وَالفَرَّاءُ حَمَلَ العَرَبِيَّةَ عَلَى الأَلْفَاظِ وَالمَعَانِي، فَبَرَعَ وَاسْتَحَقَّ التَّقْدِمَةَ،وَذَلِكَ كَقَوْلِكَ: مَاتَ زَيْدٌ، فَلَوْ عَامَلْتَ المَعْنَى لَوَجَبَ أَنْ تَقُولَ: «مَاتَ زَيْدًا»؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَمَاتَهُ، وَلَكِنَّكَ عَامَلْتَ اللَّفْظَ فَأَرَدْتَ: «سَكَنَتْ حَرَكَاتُ زَيْدٍ»[1].

---

(١) إِنبَاهُ الرُّواةِ للقِفْطِيِّ (٤/ ٨).

وَلَا نُرِيدُ أَنْ نُطِيلَ هذَا الفَصْلَ بأَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ وَنُطْنِبَ فِيْهِ، فَكِتَابُ سِيبَوَيْهِ مُتَوَفِّرٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَتَصِلُهُ الأَيَادِي، طَالِعُوهُ وَقِفُوا عَلَى مَبَاحِثِهِ، يَتَبَيَّنْ لَكُم أَنَّ مَقَالَةَ هؤُلاءِ القَوْمِ نَاتِجَةٌ عَنْ جَهْلٍ مُغْدِقٍ، أَوْ: عَنْ حِقْدٍ مُغْرِقٍ، وَتَعَصُّبٍ أَعْمَى عَلَيْهِ، وَبِهذَا عَلِمْنَا أَنَّ مَقَالَةَ الخُصُوم فِي اتِّهَام سِيْبَوَيْهِ بِإِهْمَالِ المَعَانِي وَالدَّلَالَاتِ مَقَالَةٌ عَوْرَاءُ عَوْجَاءُ عَرْجَاءُ، لَا تَحْمِلُهَا أَرْضٌ وَلَا تَظَلُّهَا سَمَاءُ، وَاللهُ المُسْعَانُ.

صَاحِبُ الجِنَايَةِ وَالنَّيْلُ مِنَ الأَدَبِ العَرَبِي

إنَّ مِنَ الغَرَائِبِ وَالعَجَائِبِ، وَالكَوَارِثِ وَالـمَصَائِبِ، مُحَاوَلَةَ صَاحِبِ الجِنَايَةِ لِتَشوِيهِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ عُمُومًا وَالتُّرَاثِ الشِّعرِيِّ خُصُوصًا، وَيُوحِي إِلَى قُرَّائِهِ ضَعْفَ النِّتَاجِ الأَدَبِيِّ وَالشِّعْرِيِّ بِسَبَبِ هذِهِ اللُّغَةِ غَيرِ الـمَنْطِقِيَّةِ -عَلَى طَيْفِهِ وَخَيَالِهِ- وَيَقُولُ: «إنَّ لُغَةَ أَجْدَادِنَا القُدَامَى فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسلامِ، لَم تُعْطِ ذلِكَ النِّتَاجَ الرَّائِعَ فِي الشِّعْرِ، أَوِ: النَّثْرِ، وَإِنَّمَا كانَ نتَاجًا لَا يَزِيدُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ عن نتَاجِنا الـمُعَاصِرِ، إِنْ لم نَقُلْ إِنَّهُ أَقَلُّ مِنهُ فِي جَوَانِبَ كَثِيرَةٍ». ص: (١٩).

أَقُولُ: عَجِيبٌ أَمرُ الـمُهندِسِ أوزون، إِذْ نَرَاهُ يَتَكَلَّمُ كَمُحَدِّثٍ وَمُتَخَصِّصٍ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَيُعطِي نَفْسَهُ كَامِلَ الحُرِيَّةِ فِي الكَلَامِ عَنْ مَبَاحِثِهَا فِي كِتَابِهِ (جِنايَةِ البُخَارِيِّ)، مَعَ أَنَّنَا بيَّنَّا حَقِيقَتَهُ العِلمِيَّةَ في رَدِّنَا عليهِ، وَفِي كِتَابِهِ (جِنايَةِ الشَّافِعِيِّ)، تَظَاهَرَ كَفَقِيهٍ أُصُولِيٍّ يَصُولُ وَيَجُولُ فَيحمَرُّ وَيَقُولُ، وَلكِنْ رَأَيتُمْ حَالَهُ خِلالَ رَدِّنَا عَلَى كِتَابِهِ هَذَا، وَمِنْ هُنَا أَيْضًا تَظَاهَرَ كَمُتَخَصِّصٍ فِي النَّحْوِ وَأُصُولِهِ، وَسَيأتِي بيَانُ انتِقَادَاتِهِ عَلَى قَوَاعِدِ النَّحْوِ فِي الفُصُولِ اللَّاحِقَةِ وَتَرَوْنَ حَالَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَكْثَرَ، كَمَا رَأَيتُم مِنْ قَبْلُ بعضَ أَحوالِهِ، وَكَذَا يَظْهَرُ فِي هذِهِ الأَسْطُرِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا كَمُتَخَصِّصٍ فِي الأَدَبِ وَالنَّقْدِ وَالـمُقَارَنَةِ، حَيثُ يُقَارِنُ الأَدَبَ القَدِيمَ بالأَدَبِ الـمُعَاصِرِ وَيُفَضِّلُ الأَخِيرَ عَلَى الأَوَّلِ، وَإِنَّنِي مُتَعَجِّبٌ مِنْهُ كَيفَ أَعطَى نَفْسَهُ حُرِيَّةَ الكَلامِ النَّقْدِيِّ فِي هذِهِ الـمَجَالَاتِ كُلِّهَا، مَعَ أَنَّهُ مُهَنْدِسٌ وَلَيسَ بينَهُ وَبينَ تِلْكَ العُلُومِ أَيَّةُ عَلاقَةٍ، أَوْ: رَابِطٍ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَجْمَعَ بينَ الضَّبِّ وَالنُّونِ.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَلَـوْ أَنَّهُـمْ جَـاؤُوا بِشَـيءٍ مُقَـارِبٍ لِشَـيْءٍ وَبالشَّـكْلِ الـمُقَارِبِ لِلشَّكْلِ
ولَكِــنَّهُمْ جَــاؤُوا بحِيتَــانِ لُجَّــةٍ قَـوَامسَ وَالـمَكْنِيِّ فِيْنَا أَبَا حِسْـلِ[١]

جِنَايَتُهُ فِي حَقِّ امرِئِ القَيْسِ!

يَستَمِرُّ الـمُهَنْدِسُ عَلَى كَلامِهِ وَيأتِي بِبَيْتٍ لِامْرِئِ القَيْسِ مِنْ مُعَلَّقَتِهِ، وَهُوَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

مِكَــرٍّ مِفَــرٍّ مُقْبِــلٍ مُــدْبِرٍ مَعًــا كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[٢]

يُعلِّقُ عليهِ قَائِلًا: «لَا أريدُ أنْ أُضيِّعَ الوقتَ هُنا بِفَرْطِ إعجابِ أهلِ اللُّغةِ بذلِكَ البَيتِ وَبالصُّورةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي رسمَهَا شاعِرُنا الكَبيرُ فِي وصفِهِ لحرَكَةِ الخَيلِ. فَلَوْ أَنَّنَا رَضِينا معَهُم -مُجاملةً- بِقَبُولِ الشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنَ البَيْتِ سَنَجِدُ أنَّ معنَى الشَّطرِ الثَّانِي قَدْ فرَّغَ مَعْنَى الشَّطرِ الأَوَّلِ مِنْ مُحتَوَاهُ وَأوقَفَهُ تماما.

فَفِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ حَرَكَةُ تَقَدُّمٍ وَتَأَخُّرٍ (كَرٌّ وَفَرٌّ) (إِقْبَالٌ وإِدبَارٌ)، أَمَّا صورةُ الشَّطرِ الثانِي وَالَّتِي استَخْدَمَ فيهَا أداةَ التَّشبيهِ (الكَاف) فَهِيَ باتِّجَاهٍ وَاحِدٍ فقَط؛ لأَنَّ الصَّخرَةَ لَا يُمْكِنُهَا أنْ تَتَحرَكَ تحتَ تأثيرِ وَزْنِهَا الذَّاتِي وَبِفعلِ السَّيلِ إِلَّا باتِّجاهٍ واحِدٍ مِنَ الأَعلَى إلى الأَسفَلِ.

---

(١) أَبُو حِسْلٍ: هُوَ الضَّبُّ، وَالحِسْلُ بِكَسْرِ الحَاءِ هُوَ وَلَدُ الضَّبِّ. يُنْظَرُ: الجِيمُ لأبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ (١/ ٢٠٥)، وَجَمْهَرَةُ اللُّغَةِ (١/ ٥٣٣)، مُعْجَمُ دِيوَانِ الأَدَبِ للفَارَابِيِّ (١/ ١٩٢)، وَالقَامُوسُ الـمُحِيطُ (ص٩٨٤)، وَتَاجُ العَرُوسِ (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) دِيوانِ امرِئِ القَيْسِ (ص٥٤)، وَجمْهَرَةُ أشعَارِ العَرَبِ لأَبِي زَيْدٍ القُرَشِيِّ (ص١٣٥)، وَالشِّعرُ وَالشُّعَرَاءِ لِابنِ قُتيْبَةَ (١/ ١١٢)، وَشَرْحُ الـمُعلَّقَاتِ للزَّوْزَنِيِّ (ص٦٤)، وَشَرْحُ القَصَائِدِ العَشْرِ للتَّبرِيزِيِّ (ص٣٩).

فَأينَ مَنطِقِيَّةُ هذا البَيْتِ؟ وأينَ الرَّبطُ بينَ الصَّخرَةِ وَالحِصَانِ؟ صُورَةٌ لَا أرَى فِيهَا جَمَالًا وَهِيَ الأَجْمَلُ عِنْدَ أهلِ اللُّغَةِ». ص:(١٩-٢٠).

أقُولُ: إنَّ الـمُهَندِسَ جَارَ عَلَى هذَا البَيْتِ الشِّعْرِيِّ الرَّاقِي لأَنَّهُ لَم يَفْهَمْهُ، وَلَمْ يُدْرِكْ وَجْهَ الشَّبَهِ فِيهِ وَالتَّصوِيرَ الَّذِي أرادَهُ امرُؤُ القَيْسِ، وَكَمَا قِيلَ: (الـمَرْءُ عَدوٌّ مَا يَجْهَلُهُ)!

فَلَوْ أَدْرَكَ أنَّ التَّشبِيهَ وَقَعَ عَلَى السُّرْعَةِ وَالحَرَكَةِ لَا عَلَى الكَرِّ وَالفَرِّ فِي الصَّخْرَةِ، لَم يَعْتَرِضْ اعتِرَاضَهُ وَسَكَتَ، فَالشَّاعِرُ هُنَا وَصَفَ سُرْعَةَ الإِقْبَالِ وَالإِدْبَارِ فِي حِصَانِهِ عِنْدَ هُجُومِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، وَكَأَنَّهَا سُرْعَةُ الصَّخْرَةِ الَّتِي تَنْحَطُّ مِنْ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ بِضَغْطِ سَيْلٍ قَوِيٍّ، كَمَا قَالَ إِمَامُ البَدِيعِ فِي عَصْرِهِ عَبْدُ العَظِيمِ البَغْدَادِيُّ(ت:٦٥٤): «لِأَنَّ الحَجَرَ يَطْلُبُ جِهَةَ السُّفْلِ لِكَوْنِهَا مَرْكَزَهُ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يَطْلُبُ مَرْكَزَهُ بِطَبْعِهِ الَّذِي جُبِلَ عَلَيْهِ، فَالحَجَرُ يَسْرُعُ انْحِطَاطُهُ إِلَى السُّفْلِ مِنَ العُلُوِّ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَكَيْفَ إِذَا أَعَانَتْهُ قُوَّةُ دِفَاعِ السَّيْلِ مِنْ عَلٍ، فَهُوَ حَالَ تَدَحْرُجِهِ يُرَى وَجْهُهُ فِي الآنَ الَّذِي يُرَى فِيهِ ظَهْرُهُ لِسُرْعَةِ تَقَلُّبِهِ، وَبِالعَكْسِ، وَلِهذَا قَالَ الشَّاعِرُ، (مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا) يَعْنِي: يَكُونُ إِدْبَارُهُ وَإِقبَالُهُ مُجْتَمِعَيْنِ فِي الـمَعِيَّةِ»[(١)].

وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ أنَّ الصَّخْرَةَ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ كَمَا فَهِمَهُ الـمُعْتَرِضُ، فَإِنْ كَانَ امرُؤُ القَيْسِ قَصَدَ هَذَا لَضَحِكَ مِنهُ صِبْيَانُ العَرَبِ فَكَيْفَ بِفُصَحَائِهِم؟! فَالـمُشْكِلَةُ لَدَى الـمُهَنْدِسِ أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ النُّصُوصَ وَلَا يَرْجِعُ إِلَى كَلامِ أَربَابِهَا حَتَّى يَفْهَمَ، بَلْ: سَرعَانَ مَا نَجِدُهُ يَصْرُخُ وَيُجَلْجِلُ وَيُضَخِّمُ الأَمْرَ، وَهذَا مَا رَأينَا مِنْهُ فِي كُتُبِهِ السَّابِقَةِ أيضًا، وَإِلَّا فَلَوْ رَجَعَ إِلَى كَلَامِ أَهلِ العِلْمِ بالشِّعْرِ وَالأَدَبِ لَرَأوهُ كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ.

---

(١) تَحرِيرُ التَّحبِيرِ فِي صَنَاعَةِ الشِّعْرِ وَالنَّثْرِ للبَغْدَادِيِّ (ص٤٥٤).

قَالَ أَبُو الحَسَنِ العَلَوِيُّ أيضًا: «وَأَمَّا تَشْبِيهُ الشَّيءِ بالشَّيءِ حَرَكَةً، وبُطْأً، وسُرعةً، فكَقَولِ الرَّاعِي:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

كَأَنَّ يَدَيْهَا بَعْدَمَا انضَمَّ بُدْنُها[1] ... وَصَوَّبَ حَادٍ بالرَّكَابِ يَسُوقُ

يَدَا مَاتِحٍ عَجْلانَ رِخْوٍ مِلاطُهُ ... لَهُ بَكْرَةٌ تَحْتَ الرِّشَاءِ فَلُوقُ

ثُمَّ مِنَ الأَبياتِ الَّتِي ذَكَرَهَا عَلَى هذَا النَّوْعِ مِنَ التَّشْبِيهِ (تَشْبِيهِ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ فِي السُّرْعَةِ) ذَكَرَ بيتَ امرِئِ القَيْسِ هذَا[2].

وَهذَا البَيْتُ لِامرِئِ القَيْسِ فِيهِ مَعَ جَمَالِ الصُّورَةِ جَمَالُ اللَّفْظِ لأَنَّهُ أَتَى بالطِّبَاقِ وَهُوَ مِنَ المُحَسِّنَاتِ البَدِيعِيَّةِ، حَيثُ جَمَعَ بينَ (مِكَرٍّ وَمِفَرٍّ)، وَبَيْنَ (مُقْبِلٍ وَمُدْبِرٍ)، وَمَعَ الطِّبَاقِ فِيهِ التَّكْمِيلُ وَالاستِطْرَادُ[3]، وَبِهذَا قَدْ كَسَاهُ حُلَّةَ الجَمَالَيْنِ، جَمَالِ المَعْنَى وَالمَبْنَى، وَلكِنَّ المُهَنْدِسَ لَا يَظْفَرُ بِهِ؛ لأَنَّ هذَا مُبَايِنٌ لِعَمَلِهِ وَمِهْنَتِهِ.

وَقَدْ أَدْرَجَهُ العَلَّامَةُ ابنُ رَشِيْقٍ فِي بَابِ (الِاتِّسَاعِ) فِي عُمْدَتِهِ وَقَالَ فِي بَيَانِهِ: «وَذَلِكَ أَنْ يَقُولَ الشَّاعِرُ بَيْتًا يَتَّسِعُ فِيهِ التَّأْوِيلُ؛ فَيَأْتِي كُلُّ وَاحِدٍ بِمَعْنًى، وَإِنَّما يَقَعُ ذلِكَ لِاحْتِمَالِ اللَّفْظِ، وَقُوَّتِهِ، وَاتِّسَاعِ المَعْنَى. مِنْ ذلِكَ قَوْلُ امْرِئِ القَيْسِ..»[4]. ثُمَّ شَرَعَ فِي بَيَانِ مَا يَحْتَمِلُهُ هذَا البَيْتُ مِنَ التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ.

---

(١) البُدْنُ: النُّوْقُ.

(٢) عِيَارُ الشِّعْرِ لأَبِي الحَسَنِ (ص٣٧).

(٣) انظُرْ تَفْصِيلَهُ عندَ ابنِ حُجَّةِ الحَمَوِيِّ فِي: (خزَانَةِ الأَدَبِ وَغَايَةِ الأَرَبِ) (١/ ١٦١).

(٤) العُمْدَةُ فِي مَحَاسِنِ الشِّعْرِ وَآدَابِهِ لِابنِ رَشِيْقٍ القَيرَوَانِيِّ (٢/ ٩٣).

أمَّا مَا قَالَهُ فِي آخِرِ كَلامِهِ: (فَأينَ مَنطِقِيَّةُ هذا البَيْتِ؟ وأينَ الرَّبطُ بينَ الصَّخرَةِ وَالحِصَانِ؟ صُورَةٌ لَا أرى فِيهَا جَمالًا)، فاقُولُ عنهُ: يَا جَنَابَ المُهَنْدِسِ إذَا كُنْتَ لَا تَرَى فِيهِ جَمَالًا مَعَ كونِ الجَمَالِ فِيهِ ظَاهِرًا بَادِيًا أَبْلَجَ، فَلَيْسَ لِكَوْنِ البَيْتِ لَا يَحْمِلُ جَمَالًا، بَلْ: أَنْصَحُكَ أنْ تَجِدَ الجَوَابَ فِي بَيْتٍ للبُوصِيريِّ حَيثُ قَالَ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

أَوْ: مِنْ قَوْلِ القَائِلِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَقُلْ للعُيُونِ الرُّمْدِ لِلشَّمْسِ أعيُنٌ ... تَرَاهَا بِحَقٍّ في مَغيبٍ ومَطْلَعِ

وَسَامِحْ نُفُوسًا بِالْقُشُورِ قَدِ ارْتَضَتْ ... وَلَيْسَ لَهَا لِلُبٍّ مِنْ مُتَطَلَّعِ

وَسَامِحْ عُيونًا أَطْفَأَ اللهُ نُورَهَا ... بِأَبْصَارِهَا لَا تَستَفِيقُ وَلَا تَعِي

ثُمَّ ذَكَرَ أُوزونُ بَيْتًا آخَرَ مِنَ القَصِيدَةِ نَفْسِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيرُ فِي وُكُنَاتِهَا(١) ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ(٢)

---

(١) أَغْتَدِي: أَخْرُجُ غَدَاءً. وُكُونَات: مَوَاقِعُ الطُّيورِ. مُنجرد: القَلِيلُ الشَّعْرِ. الأَوَابِدُ: الوُحُوشُ. الهَيْكَلُ: العَظِيمُ.

(٢) دِيوانِ امرِئِ القَيْسِ (ص٥٣)، وَجمْهَرَةُ أشعَارِ العَرَبي لأبي زَيْدٍ القُرَشِيِّ (ص١٣٥)، وَشَرحُ المُعلَّقَاتِ للزَّوْزَنِيِّ (ص٦٣)، وَشَرْحُ القَصَائِدِ العَشْرِ للتَّبرِيزِيِّ (ص٣٩).

وَيُعلِّقُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «يَركبُ حِصَانَهُ باكِرًا وَالطُّيورُ نائِمَةٌ فِي أَعشَاشِهَا، مَا الـمُمتِعُ فِي هذَا البَيْتِ وَمَا هُوَ الجَمِيلُ فِيْهِ؟ وَأَينَ هِيَ التَّشَابِيهُ البَلِيغَةُ وَالصُّوَرُ الرَّائِعَةُ..». ص: (٢٠).

أقُولُ: إِنَّ سَبَبَ ذِكْرِ البُكُورِ دَلِيلٌ عَلَى النَّشَاطِ، أَوْ: كَانَ مِنْ جِنْسِ الطِّيَرَةِ الَّتِي كَانَتِ العَرَبُ يَتَطَيَّرُونَ، وَهذَا الأَخِيرُ هُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الأَبْشَيْهِيُّ، وَقَالَ: «كَانَتِ العَرَبُ تَتَطَيَّرُ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ؛ مِنْهَا: العُطَاسُ. وَسَبَبُ تَطَيُّرِهِم مِنْهُ أَنَّ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا: العَاطُوسُ، كَانُوا يَكْرَهُونَهَا وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا سَفَرًا خَرَجُوا مِنَ الغَلَسِ وَالطَّيْرُ فِي أَوْكَارِهَا عَلَى الشَّجَرِ فَيُطَيْرُوْنَهَا، فَإِنْ أَخَذَتْ يَمِينًا أَخَذُوا يَمِينًا وَإِنْ أَخَذَتْ شَمَالًا أَخَذُوا شَمَالًا. وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ القَيْسِ: وَقَدْ أَغْتَدِي ...»[١].

أَمَّا التَّشْبِيهُ البَلِيغُ وَالصُّورَةُ الرَّائِعَةُ اللَّذَانِ يَطْلُبُهُمَا الـمُهَنْدِسُ فَمَوجُودٌ فِي البَيْتِ الثَّانِي، وَقَدْ ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ وَبَيَّنُوهُ وَلكِنَّ الـمُهَنْدِسَ مُتَحَامِلٌ شَدِيدَ التَّحَامُلِ عَلَى التُّرَاثِ العَرَبِيِّ، وَإِلَّا فَلَم يَكُنْ يَخفَى عليهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى دَارِسٍ لِلشِّعْرِ العَرَبِيِّ وَعُيونِهِ.

قَالَ الإِمَامُ أَبُو هِلالٍ العَسْكَرِيُّ: «أَعْجَبُ وَأَبْلَغُ وَأَجْوَدُ مَا وَصَفَ بِهِ ظَفَرَهُ عِنْدَ الطَّلَبِ قَوْلُه: (وَقَدْ أَغْتَدِي..) فَجعَلَ الأَوَابِدَ -وَهِيَ الوَحْشُ- مُقَيَّدَةً لَهُ يَنَالُهَا كَيْفَ يُرِيدُ»[٢].

وَقَالَ ابنُ سِنَانَ الخفَاجِيُّ: «لأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصِفَ الفَرَسَ بِالسُّرْعَةِ؛ فَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ سَرِيعٌ. وَقَالَ: (قَيْدِ الأَوَابِدِ) وَهِيَ الوُحُوشُ. أَيْ: أَنَّهُ إِذَا طَلَبَهَا عَلَى هذَا الفَرَسِ

---

(١) الـمُسْتَطْرَفُ للأَبْشَيهِيِّ (ص٣٣٥).

(٢) دِيوَانُ الـمَعَانِي لأَبِي هِلالٍ العَسْكَرِيِّ (٢/ ١٠٩).

لَحِقَهَا لِسُرْعَتِهِ فَكَأَنَّهُ قَيَّدَهَا لَهُ، وَفِي هذَا مِنَ الـمُبَالَغَةِ مَا لَيْسَ فِي وَصْفِ الفَرَسِ بِأَنَّهُ سَرِيعٌ؛ لأَنَّ الفَرَسَ قَدْ يكُونُ سَرِيعًا وَلَا يَلْحَقُ الوَحْشَ حَتَّى تَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ الـمُقَيَّدَةِ لَهُ.

وَقَدِ اسْتَحْسَنَ النَّاسُ هذَا اللَّفْظَ مِنِ امْرِئِ القَيْسِ حَتَّى قَالُوا فِي الـمَدْحِ: (هُوَ أَوَّلُ مَنْ قَيَّدَ الأَوَابِدَ)»[١].

وَفِي هذَا كِفَايَةٌ لِمَنْ كَانَ بَاحِثًا عَنِ التَّصوِيرِ الفَنِّيِّ وَيَتَمَتَّعُ بالذَّوْقِ الأَدَبِيِّ، وَإِلَّا فَالنُّصُوصُ فِي ذلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا وَلَا يُمْكِنُ نَقْلُ جَمِيعِهَا فِي هذَا الـمَكَانِ الضَّيِّقِ، وَبِوسعِكُمُ الرُّجُوعُ إِلَيْهَا فِي مَظَانِّهَا، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

ثُمَّ ذَكَرَ بَيْتًا آخَرَ مِنَ القَصِيدَةِ وَهُوَ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَــهُ أَيْطَــلَا ظَبْــيٍ وَسَــاقَا نَعَامَــةٍ وَإِرْخاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ[٢]

وَيُعَلِّقُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: «فَإِذَا نَجَحَ القَارِئُ فِي فَكِّ رُمُوزِ وَمَعانِي تِلكَ الـمُفْرَدَاتِ وَالكَلِمَاتِ، وَجَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ صُورَةٍ رَائِعَةٍ مِنْ صُوَرِ أَفلَامِ الكَارتُونِ فِي أَيَّامِنَا هذِهِ، وَالَّتِي يُمكِنُ للكُومبيوتَرِ أَنْ يَرسمَهَا لَنَا لِإِمْتَاعِ أَطْفَالِنَا بِهَا.

---

(١) سِرُّ الفَصَاحَةِ لِابنِ سِنَانَ (ص٢٣١).

(٢) دِيوانِ امرِئِ القَيْسِ (ص٥٨)، وَجمْهَرَةُ أَشعَارِ العَرَبِي لأَبِي زَيْدٍ القُرَشِيِّ (ص١٣٨)، وَالشِّعرُ وَالشُّعَرَاءُ لِابنِ قُتَيْبَةَ (١/ ١١٢)، شَرحُ الـمُعلَّقَاتِ للزَّوْزَنِيِّ (ص٦٨)، وَشَرْحُ القَصَائِدِ العَشْرِ للتَّبرِيزِيِّ (ص٤١).

تَخَيَّلْ حِصانًا لَهُ خَاصِرَتَا غَزَالٍ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ، وَجَرْيُ الذِّئْبِ، أَوِ: الثَّعْلَبِ (جَامِعِ الأَوصَافِ) وَلَعَلَّ فِي فِيلم (حَرْبِ النُّجُومِ) مَا يُوَضِّحُ الفِكْرَةَ الَّتِي نُحَاوِلُ شَرْحَهَا». ص: (٢٠).

أَقُولُ: إِنَّ هذَا الِاعتِرَاضَ مِنْ صَاحِبِ الجِنَايَةِ يُبَيِّنُ عَدَمَ مَعْرِفَتِهِ بالأَدَبِ وَالشِّعْرِ عُمُومًا، وَالشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَائِمِ عَلَى الـمَجَازَاتِ وَالِاستِعَارَاتِ وَالـمُبَالَغَاتِ خُصُوصًا، فهذِهِ التَّشبِيهَاتُ وَالتَّصوِيرَاتُ مَأْلُوفَةٌ فِي شِعْرِ الأُمَمِ وَأَدَبِيَّاتِهِم جَمِيعًا، وَفِي العَرَبِيَّةِ أَكْثَرُ، فَامْرُؤُ القَيْسِ جَاءَ لِيُبَالِغَ فِي مَدْحِ فَرَسِهِ وَاستَعَارَ لِهذَا الغَرَضِ أَعْضَاءَ كُلِّ حَيْوَانٍ أَعْجَبَهُ وَرَأَى فِيهِ مَزِيَّةً وَأَعْطَاهَا فَرَسَهُ، وَهذِهِ الـمُبَالَغَةُ فِي الوَصْفِ شَيْءٌ عَادٍ وَلَيْسَ فِيهِ مَا يَجْعَلُهُ مَرْفُوضًا عِنْدَ أَيِّ شَخْصٍ لَهُ أَدْنَى إِلْـمَامَةٍ بالأَدَبِ؛ لأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالـمَجَازِ وَلَيسَ حَقِيقَةً، حَتَّى يُعْتَرَضَ عَلَى صَنِيعِهِ، وَللهِ دَرُّ الإِمَامِ العَلَّامَةِ أَبِي هِلالٍ العَسْكَرِيِّ لَـمَّا بيَّنَهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ حَتَى لَا يَذْهَبَ مَنْ لَا حَظَّ لَهُ مِنَ الأَدَبِ مَذْهَبًا غَيْرَ مَا ارتَآهُ صَاحِبُ البَيْتِ، فَقَالَ: «وَقَدْ يَكُونُ التَّشبِيهُ بِغَيْرِ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ؛ وَهُوَ كَقَوْلِ امْرِئِ القَيْسِ: (لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ..) هذَا إِذَا لَمْ يُحمَلْ عَلَى التَّشْبِيهِ فَسَدَ الكَلَامُ؛ لِأَنَّ الفَرَسَ لَا يَكُونُ لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ، وَلَا سَاقَا نَعَامَةٍ، وَلَا غَيْرُهُ مِمَّا ذَكَرَهُ، وَإِنَّمَا الـمَعْنَى: لَهُ أَيْطَلَانِ كَأَيْطَلَي ظَبْيٍ، وَسَاقَانِ كَسَاقَي نَعَامَةٍ. وَهذَا مِنْ بَدِيعِ التَّشْبِيهِ؛ لأَنَّهُ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ»[١].

وَبَعْدَ هذَا لَا أَدْرِي كَيفَ أَعْطَى نَفْسَهُ حَقَّ الـمُوَازَنَةِ وَالـمُقَارَنَةِ مَنْ يَجْهَلُ هذَا الأَمْرَ، وَجَعَلَهُ يَتَخَبَّطُ تَخَبُّطَ عَشْوَاءَ، وَمَيْلَانَ أَعْشَى فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ؟!.

---

(١) كِتَابُ الصِّنَاعَتَيْنِ للعَسْكَرِيِّ (ص٢٤٩).

أمَّا: (أيْطَلُ ظَبْيٍ) وَ(سَاقَا نَعَامَةٍ)، فَهذَا مِنْ بَدِيعِ مَا ذَكَرَهُ امرُؤُ القَيْسِ، وَكَانَ هذَا مَرْغُوبًا عِنْدَ العَرَبِ، كَمَا قَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: «أَيْطَلَا ظَبْيٍ: كَشْحَاهُ..وَشَبَّهَهَا بِكَشْحَيْ ظَبْيٍ لَأَنَّهُ طَاوٍ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ: لِقِصَرِ سَاقَيْهَا؛ وَيُسْتَحَبُّ قِصَرُ السَّاقَيْنِ فِي الفَرَسِ»[(١)].

وَأَمَّا: (إِرْخَاءُ سِرْحَانٍ)، وَهُوَ: الذِّئْبُ، فَقَدِ استَخْدَمَتِ العَرَبُ مِشْيَةَ الثَّعْلَبِ للفَرَسِ، كَمَا استَخْدَمَتْ للبِرْذَوْنِ مِشْيَةَ النِّعَاجِ، قَالَ الجَاحِظُ: «يُقَالُ لِلْبِرْذَوْنِ: مَشَى مِشْيَةَ النِّعَاجِ. وَيُقَالُ للفَرَسِ: مَشَى مِشْيَ الثَّعْلَبِيَّةِ»[(٢)].

وَكَذَا: (تَقْرِيبُ الثَّعْلَبِ)، مِمَّا يُضْرَبُ بِهِ الـمَثَلُ لتَفَنُّنِهِ فِي ذلِكَ، وهذَا كَمَا قَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحْسَنَ إِرْخَاءً مِنَ الذِّئْبِ، وَلَا أَحْسَنَ تَقْرِيبًا مِنَ الثَّعْلَبِ»[(٣)].

وَقَدْ أَبْدَعَ فِي هذَا البَيْتِ لأَنَّهُ أَتَى فِيْهِ بِتَشْبِيهَاتٍ أَرْبَعَةٍ وَهذَا مِمَّا يَقِلُّ التَّأَتِّي بِهِ، وَلَا يَتَأَتَّى إِلَّا لِلفُحُولِ مِنَ الشُّعَرَاءِ الكِبَارِ، وَلِذلِكَ قَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: «وَقَدْ تَبِعَهُ النَّاسُ فِي هذَا الوَصْفِ وَأَخَذُوهُ، وَلَم يَجْتَمِعْ لَهُمْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ»[(٤)].

فَلِذلِكَ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «يُقَالُ: إِنَّهُ لَم يُقَلْ فِي وَصْفِ الفَرَسِ أَحْسَنُ مِنْ هذَا البَيْتِ»[(٥)].

---

(١) الـمَعَانِي الكَبِيرُ لِابنِ قُتَيبَةَ (١/ ١٤١). وَذَكَرَهُ الثَّعَالِبِيُّ أيضًا فِي: (ثِمَارِ القُلُوبِ)، (ص: ٤٤٤).

(٢) البُرْصَان وَالعُرْجَان للجَاحِظِ (ص٢٣٩)، وأَكْثَرَ مِنْ إيرَادِ الشَّوَاهِدِ فِي كِتَابِ الحَيَوَانِ (٦/ ٤٧٥).

(٣) الـمَعَانِي الكَبِيرُ لِابنِ قُتَيبَةَ (١/ ٣٣).

(٤) الشِّعْرُ وَالشُّعَرَاءُ لِابنِ قُتَيْبَةَ (١/ ١٣٤).

(٥) الـمَعَانِي الكَبِيرُ لِابنِ قُتَيبَةَ (١/ ٣٣).

وَقَدْ ذَكَرَ الثَّعَالِبِيُّ أَبْيَاتَهُ فِي وَصْفِ الفَرَسِ وَنَعَتَهَا بِالقَلَائِدِ الفَاخِرَةِ[1].

وَكَمَا عَدَّ النَّاقِدُ الأَوَّلُ قُدَامَةُ بنُ جَعْفَرٍ (ت:٣٣٧هـ) هذَا مِنَ الـمُحَسِّنَاتِ الشِّعْرِيَّةِ وَقَالَ: «وَقَدْ يَقَعُ فِي التَّشْبِيهِ تَصَرُّفٌ إِلَى وُجُوهٍ تُسْتَحْسَنُ، فَمِنْهَا: أَنْ تُجْمَعَ تَشْبِيهَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ وَأَلْفَاظٍ يَسِيرَةٍ، كَمَا قَالَ امْرُؤُ القَيْسِ: لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ..»[2].

وَقَدْ نُسِبَ إِلَى الفَرَزْدَقِ أَنَّهُ رأى هذَا البَيْتَ أَكْمَلَ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ، كَمَا قَالَ ابنُ رَشِيْقٍ: «زَعَمَ الفَرَزْدَقُ أَنَّ أَكْمَلَ بَيْتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ، أَوْ: قَالَ: أَجْمَعُ بَيْتٍ قَوْلُ امْرِئِ القَيْسِ: لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ..»[3].

عَجِيبٌ أَمرُ مَنْ يَعْتَرِضُ عَلَى هذِهِ الأَبيَاتِ الرَّفِيعَةِ بَعْدَ أَنْ رَأى فِيهَا الجَمَالَ الفَنِّيَّ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ وَقَفَ عَلَى شَهَادَةِ عَبَاقِرَةِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ وَكُبَرَائِهِ، وَخُبَرَاءِ كُنُوزِهِ وَأَسْرَارِهِ.

مُفَاضَلَةُ أُوزُونَ الجَائِرَةُ بينَ ابنِ زَيْدُونَ وَنزارَ قَبَّانِي!

ثُمَّ يأتِي صَاحِبُ الجِنَايَةِ إِلَى الـمُقَارَنَةِ بيْنَ بَيْتٍ لِلشَّاعِرِ الكَبِيرِ ابْنِ زَيْدُونَ وَبَيْنَ بَيْتَيْنِ لِنزَار قَبَّانِي، أَمَّا بَيْتُ ابنِ زيدُونَ فَهُوَ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَلِلنَّسِيْمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ ... كَأَنَّهُ رَقَّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا

---

(١) لُبَابُ الآدَابِ لِلثَّعَالِبِيِّ (١٠٧).

(٢) نَقْدُ الشِّعْرِ لِقُدَامَةَ بْنِ جَعْفَرٍ (ص٣٨).

(٣) العُمْدَةُ فِي مَحَاسِنِ الشِّعْرِ وَآدَابِهِ لِابنِ رَشِيْقٍ القَيْرَوَانِيِّ (٢/ ٢٤).

وَيَصِفُهُ بأَنَّهُ جَمِيلٌ، ثُمَّ يَقُولُ: «إِلَّا أَنِّي لَا أَرَى ذلِكَ البَيْتَ أجمَلَ مِمَّا ذَهَبَ إليهِ شَاعِرُنَا الكَبِيرُ الرَّاحِلُ نزار قَبَّانِي عِنْدَ مَا يَقُولُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

حَتَّـــى فَسَـــاتِيْنِي الَّتِـــي أَهْمَلْتُهَـــا ... فَرِحَـتْ بِـهِ رَقَصَـتْ عَلَـى قَدَمَيْـهِ

سَـــامَحْتُهُ وَسَـــأَلْتُ عَـــنْ أَخْبَـــارِهِ ... وَبَكَيْـتُ سَـاعَاتٍ عَلَـى كَتِفَيْـهِ

فَإِذَا كَانَ النَّسِيمُ قَدْ تَعَاطَفَ مَعَ العَاشِقِ ابنِ زَيْدُونَ، فَإِنَّ الفَسَاتِينَ قَدْ فَرِحَتْ بِرُجُوعِ الـمَحْبُوبِ عِنْدَ نزار قَبَّانِي». ص: (٢١).

أقُولُ: لَا يُنْكَرُ شَاعِرِيَّةُ قَبَّانِي وَرَوَائِعُهُ الشَّعْرِيَّةُ، وَلكِنْ لَا أَدْرِي بِمَ فَضَّلَ الـمُهَنْدِسُ(ضِمْنًا) بَيْتَ قَبَّانِي علَى بَيْتِ ابْنِ زَيْدُونَ، مَعَ أَنَّ بَيْتَ ابنِ زَيْدُونَ أَجْمَلُ وَأَرَقُّ مِنْ وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّ ذِكْرَ النَّسِيمِ أَرَقُّ وَأَجْمَلُ وأَلْيَقُ بالحُبِّ مِنَ الفَسَاتِيْنِ.

الثَّانِي: أَنَّ اعتِلَالَ النَّسِيمِ يُحَاكِي اعتِلَالَ قَلْبِ الـمُحِبِّ، وَالِاعتِلَالُ أَبْلَغُ فِي النُّفُوسِ مِنَ الفَرَحِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ نِسْبَةَ الرِّقَّةِ إِلَى النَّسِيمِ وَالشَّفَقَةِ إِلَيْهِ عَلَى حَالِ الـمُحِبِّ، تَكْسُوهُ جَمَالًا وَإِبْدَاعًا مِمَّا يُظْهِرُ ذُلَّ الـمُحِبِّ وَتَتَيُّمَهُ بِسَبَبِ الهَجْرِ وَالبَيْنِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ تَأْثِيرَ هذَا أَكْثَرُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ رَقْصِ الفَسَاتِيْنِ.

هذِهِ النِّقَاطُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا كَافِيَةٌ فِي دَحْضِ مَقَالَتِهِ، وَلكِنْ هُنَا لَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى أَمْرٍ مُهِمٍّ وَهُوَ: أَنَّ هذَا الأُسلُوبَ الأوزونيَّ الحَلَزُونِيَّ، وَالـمِعيَارَ الـمِعْوَجَ، لَا يَقْبَلُهُ

أيُّ بَاحِثٍ رَصِينٍ، وَلَا أيُّ فِكْرٍ حَصِينٍ؛ لأَنَّ صَاحِبَهُ مَالَ عَنِ الحَقِّ وَأَجْحَفَ، وَعَدَلَ عَنِ الصَّوَابِ وَأَخْلَفَ، حَيثُ يأتِي بِبَيْتٍ شِعْرِيٍّ وَيُحَاكِمُ عَلَيْهِ الشِّعْرَ القَدِيمَ كُلَّهُ، فَالمَنْطِقُ يَرْفُضُ هذَا الحُكْمَ وَيأْبَاهُ وَلَا يَرْضَاهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْنَزَلْنَا إِلَى قَوْلِهِ وَفَرَضْنَا أنَّ بيت امرِئِ القَيْسِ كانَ ضَعِيفًا، أَوْ: عَيَّبْنَا بيتَ ابْنِ زَيْدُونَ، فَلَيسَ هُنَاكَ مَا يَصْلُحُ لِدَعْوَى المُهَنْدِسِ؛ لأَنَّ الحُكْمَ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ استِقرَاءِ جَمِيعِ أَشْعَارِ القَدِيمِ ثُمَّ الحُكْمُ عَلَيْهِ، وَكَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ الوَاحِدُ فَإِنَّهُ يَتَوجَّبُ عَلَيْكَ الوُقُوفُ عَلَى آثَارِهِ كُلِّهَا إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مُسْتَوَاهُ أَوْ رُمْتَ المُوَازَنَةَ، وَلَا يَكُونُ بِبَيْتٍ وَاحِدٍ مِنْ قَصِيدَةٍ، وَلَا بِقَصِيْدَةٍ وَاحِدَةٍ بينَ قَصَائِدَ رَاقِيَةٍ رَائِعَةٍ رَائِقَةٍ كَثِيْرَةٍ، فَامرُؤُ القَيْسِ وَابنُ زَيدُونَ وَغيرُهُم مِنَ الشُّعَرَاءِ الكِبَارِ المُتَقَدِّمِينَ لَهُم قَصَائِدُ لَا تُوْزَنُ إِلَّا بِالذَّهَبِ، فَأَكْثَرُ مَا قَالُوهُ خَرَجَ عَنْ دَائِرَةِ النَّقْدِ الأَدَبِيِّ مُقَارَنَةً بِمَنْ يَلِيهِم فِي العُصُورِ المُتَأَخِّرَةِ، وَلَا أَدرِي كَيْفَ يَسهُلُ لِصَاحِبِ الجِنَايَةِ مِثْلُ هذِهِ المُوَازَانَةِ الهَزِيلَةِ الرَّزِيلَةِ؟

وَإِذَا نَظَرْنَا فِي المَسْأَلَةِ بِعَيْنِ الإِنْصَافِ؛ أَدْرَكْنَا أَنَّ جَمِيعَ مَا كَتَبَهُ قَبَّانِي لَا يَصِلُ إِلَى مَرْتَبَةِ نُونِيَّةِ ابْنِ زَيْدُونَ المَشْهُورَةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ(١)، وَفِيهَا مِنَ الجَمَالِيَّاتِ مَا لَا تُعَدُّ وَلَا تُحصَى، إِذْ كُلُّ بَيْتٍ مِنْهُ عِبَارَةٌ عَنْ قَصِيْدَةٍ كَامِلَةٍ لَفْظًا وَمَعْنًى، وَلكِنَّ المُهندِسَ لَا يَعرِفُ إِلَى هذَا طَرِيقًا؛ لأَنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهلِ الأَدَبِ وَلَا مِنْ أَربَابِ القَلَمِ فِي ذلِكَ، وَلَيسَ لَهُ أَنْ يَضَعَ فِيهِ سَوَادًا عَلَى بَيَاضٍ، وَلِذلِكَ وَقَعَ فِي فَخِّ الهَوَى وَسَادَهُ، وَاستَعْمَلَ إِبْلِيسُ قَلَمَهُ وَقَادَهُ، فَأَخرَجَ مِنهُ العَجَائِبَ وَالغَرَائِبَ.

---

(١) النُّونِيَّةُ الَّتِي عَلَى بَحْرِ البَسِيطِ، أَوَّلُهَا:

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا ... وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا

[مِنْ مُخَلَّعِ البَسِيْطِ]

شَـــيطَانُهُ رَاكِـــبٌ عَلَيْـــهِ مِـــنْ يَـــدِهِ مَـــا لَـــهُ نَجَـــاةُ
يُوْقِعُـــهُ فِـــي جُحُـــودِ مَـــا لَا يَدْرِيْـــهِ مِمَّـــا دَرَتْ ثِقَـــاتُ
وَذَاكَ مَـــا لَا اعْتِبَـــارَ عِنْـــدِي وَلَا إِلَيْـــهِ لَنَـــا التِفَـــاتُ
وَالحَـــرْفُ ذُوْ عُجْمَـــةٍ وَأَمَّـــا حُرُوفُـــهُ فَهِـــيَ مُهْمَـــلَاتُ

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يَتَطَرَّقُ الكَاتِبُ إِلَى بَعْضِ مَسَائِلَ أُخْرَى كَعَدَمِ مَقْدِرَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَى احتِوَاءِ أسماءِ الِاختِرَاعَاتِ الجَدِيدَةِ، وَمُخَالَفَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ لِلنَّحْوِ العَرَبِيِّ، وَمَا يُسَمَّى بِالزِّيَادَةِ فِي العَرَبِيَّةِ وَالقُرآنِ الكَرِيْمِ، فَكُلُّ ذلِكَ ذَكَرَهُ هُنَا اسْتِطْرَادًا وَسَيَذكُرُهُ فِي مَبَاحِثِ كِتَابِهِ، وَسَيكُونُ لَنَا مَعَهُ وَقَفَاتٌ فِي مَحَلِّهِ، إِنْ شَاءَ المَوْلَى -عَزَّوَجَلَّ-.

مُصْطَلَحُ (الحَرْفِ) مُصْطَلَحٌ غَيْرُ دَقِيقٍ!

يَقُولُ صاحِبُ الجِنايَةِ فِي الفَصْلِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ فِي بَحْثِ الكَلِمَةِ وَالجُمْلَةِ: «هُنَا عَلَيْنَا أَنْ نصوِّبَ قبْلَ الدُّخولِ فِي التَّفَاصِيلِ بأَنَّ مُصْطَلَحَ الحَرْفِ (وَهُوَ عندَهُم كَلِمَةٌ لَا يَظْهَرُ معناهَا إلَّا إذَا اقترَنَتْ بِغَيرِهَا) يَجِبُ أنْ يُستَبْدَلَ بأدَاةٍ حَتْمًا. فمَثَلًا (عَنْ) مؤلَّفَةٌ مِنْ حرفَيْنِ وَليسَتْ حَرفًا وَاحِدًا، وَ(إلَى) مُؤَلَّفَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أحرُفٍ، وَهكذَا. وعليهِ يجِبُ أنْ يُصَحَّح هذَا النَّوْعُ بالقَوْلِ (أَدَاة) عِوَضًا عَنِ (الحَرْفِ) وذلِكَ كَيْ يَتِمَّ التَّطابُقُ بينَ الدَّالِّ وَالـمَدلُولِ». ص: (٢٥).

أقُولُ: إنَّ مِثْلَ هذِهِ الِاعتِرَاضَاتِ هَزِيلَةٌ جِدًّا مِنَ الأَوْلَى بِجَنَابِ الـمُهندِسِ أَنْ يُجَانِبَهُ وَيُنَزِّهَ سُمْعَتَهُ عنهُ؛ لأنَّ كُلَّ طَالِبٍ مُبْتَدٍ فِي العَرَبِيَّةِ يَعْرِفُ أَنَّ الحُرُوفَ فِي العَرَبِيَّةِ قِسْمَانِ: (حُرُوفُ الـمَبَانِي)، وَ(حُرُوفُ الـمَعَانِي)، فَالأَوَّلُ هوَ مَا يُسَمَّى بالحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ، وَالثَّانِي هُوَ مَا ذَكَرَهُ الـمُعترِضُ، ويُمْكِنُ تَسمِيَتُهُ (أَدَاةً)، وَلكِنْ لَا نَنْسَى أنَّ الأَدَاةَ أيضًا اسمٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ أشياءُ كَثِيرَةٌ وَيَحْصُلُ الخَلْطُ لِكَثْرَةِ مَا يَدْخُلُ تحتَ هذَا الإِطْلاقِ، وَلَيسَ إطْلاقُ الأَدَاةِ بِمُنْجٍ مِنَ الِاعتِرَاضَاتِ وَالِاضْطِرَابَاتِ حَتَّى نُسَلِّمَ لَهُ.

وَلكِنْ مَا دَامَ عُلَمَاءُ العَرَبِيَّةِ فَرَّقُوا بينَ الحُروفِ وَأَعْطَوا هذا القِسْمَ قَيْدًا (الـمَعَانِي) يُغَايِرُ القِسْمَ الآخَرَ وَلَا يُدَاخِلُهُ، فَلا يَبْقَى اعتِرَاضٌ إِلَّا إذَا كَانَ مِنْ خَصْمٍ مُتَعَنِّتٍ مُتَحَيِّنٍ عَنِيد، وَهذَا لَا حَلَّ لَهُ وَلَا كَلامَ مَعَهُ يُفِيد.

وَقَدْ كَانَ العُلَمَاءُ لَهُم حُجَّتُهُم وَكَلامُهُم فِي سَبَبِ إطْلاقِ هذِهِ التَّسْمِيَةِ، كَمَا قَالَ ابنُ الأَنبَارِيِّ: «فَإِنْ قِيلَ: لِمَ سُمِّيَ الحَرْفُ حَرْفًا؟ قِيلَ: لِأَنَّ الحَرفَ فِي اللُّغَةِ هُوَ

الطَّرَفُ؛ وَمِنْهُ يُقَالُ: حَرْفُ الجَبَلِ؛ أَيْ: طَرَفُهُ؛ فَسُمِّي حَرْفًا؛ لأَنَّهُ يَأْتِي فِي طَرَفِ الكَلَامِ»[(١)].

وَقَالَ الزَّجَّاجِيُّ بَعْدَ الكَلَامِ عَلَى الِاسمِ وَالفِعْلِ: «سُمِّيَ القِسْمُ الثَّالِثُ حَرْفًا لأَنَّهُ حَدُّ مَا بَيْنَ هذَيْنِ القِسْمَيْنِ وَرِبَاطٌ لَهُمَا، وَالحَرْفُ حَدُّ الشَّيْءِ، فَكَأَنَّهُ لِوَصْلِهِ بَيْنَ هذَيْنِ كَالحُرُوفِ الَّتِي تَلِي مَا هُوَ مُتَّصِلٌ بِهَا، وَهذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ»[(٢)].

وَمَا دَامَ لَهُم تأوِيلٌ مُسْتَحْسَنٌ لإِطْلاقِهِمْ هذَا الـمُصْطَلَحَ وَيَكُونُ بينَ الدَّالِ وَالـمَدْلُولِ مُنَاسَبَةٌ كَمَا تَبَيَّنَ مِنْ كَلامِهِم، وَوَضَعُوهُ بِمَا يُبَايِنُ الحُرُوفَ الهِجَائِيَّةَ وَلَا يُدَاخِلُهَا، فَلَا مَجَالَ لِلاعتِرَاضِ عَلَيهِم.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ نَقُولُ: لَا يَعْتَرِضُ عَارِفٌ بالـمَعْقُولَاتِ عَلَى هذَا الِاصْطِلاحِ وَغَيْرِهِ لأَنَّهُ وُضِعَ لِلتَّلْقِيبِ فَحَسْبُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ لَقَبٌ يُنَزَّهُ عَنِ الكَلَامِ فِيْهِ، وَهذَا مَا نَبَّهَ إِلَيْهِ العَلَّامَةُ ابنُ الوَرَّاقِ (ت:٣٨١هـ) فَقَالَ: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَلِمَ خَصَصْتُمُ الْقِسْمَ الأَوَّلَ بِتَلْقِيبِهِ بِالِاسْمِ، وَالثَّانِيَ بِالْفِعْلِ، وَالثَّالِثَ بِالحَرْفِ؟

فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: أَنَّ غَرَضَ النَّحْوِيِّينَ بِهَذَا التَّلْقِيبِ الْفَصْلُ بَينَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، إِذْ كَانَتْ مَعَانِيهَا مُخْتَلِفَةٌ، فَإِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِاللَّقَبِ إِلَى الْفَصْلِ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: لِمَ لَقَّبْتُم هَذَا الْقِسْمَ بِهَذَا اللَّقَبِ دُوْنَ غَيرِهِ؟ إِذْ لَا لَقَبَ يُلَقَّبُ بِهِ إِلَّا وَيُمْكِنُ أَنْ يُعْتَرَضَ بِهَذَا السُّؤَالِ، وَقَدْ وَجَبَ بِحَالَةٍ أَنْ يُخَصَّ بِلَقَبٍ، فَإِذَا وَجَبَ الشَّيْءُ لَمْ يَجِبِ الِاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ.

---

(١) أسرَارُ العَربيَّةِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٤٠).

(٢) الإِيْضَاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ لِلزَّجَّاجِيِّ (ص٤٤).

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ لَقَبٍ مَعْنًى مِنْ أَجْلِهِ لُقِّبَ بِهِ»[(١)].

فَالغَرَضُ مِنَ الِاصْطِلَاحِ هُوَ الِاهْتِدَاءُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ الأَشْيَاءِ، وَلِذَلِكَ ضَبَطُوا قَاعِدَةَ: (لَا مُشَاحَّةَ فِي الِاصْطِلَاحِ)[(٢)]، وَكَمَا قَالَ الغَزَالِيُّ: «لَا مُشَاحَّةَ فِي الْأَلْفَاظِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْـمَعَانِي»[(٣)].

وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ ابنُ الدَّهَّانِ: «فَلَا مُشَاحَةَ فِي الْأَسْمَاءِ بَعْدَ الِاتِّفَاقِ عَلَى الـمُسَمَّيَاتِ»[(٤)].

وَلِذَلِكَ ذَهَبَ الـمُبَرِّدُ إِلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى أنواعِ الكَلِمَةِ الثَّلَاثَةِ مُصْطَلَحُ (الِاسْمِ)، وَكذَا إِطْلَاقُ(الحَرْفِ) عَلَيْهَا جَمِيعِهَا، وَكذَا إِطْلَاقُ (الفِعْلِ)، كَمَا نَقَلَهُ الزَّجَّاجِيُّ وَقَالَ: «كَانَ أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الـمُبَرِّدُ يَقُولُ: أُجِيزُ أَنْ أُسَمِّيَهَا كُلَّهَا أَسْمَاءً؛ يَذْهَبُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ قَوْلَنَا: (زَيْدٌ) كَلِمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى مُسَمًّى، وَقَوْلَنَا: (قَامَ) كَلِمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى حَدَثٍ فِي زَمَانٍ، وَقَوْلَنَا (إِنْ، وَمِنْ، وَلَمْ) وَمَا أَشْبَهَ ذلِكَ كَلِمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى مَعْنًى، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا اسْمٌ لِـمَا دَلَّ عَلَيْهِ. وَقَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ أُسَمِّيَهَا كُلَّهَا حُرُوفًا. وَكَأَنَّهَا قِطَعُ الكَلَامِ مُتَفَرِّقَةً. وَيَجُوزُ أَنْ أُسَمِّيَهَا أَفْعَالًا..»[(٥)].

---

(١) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص١٣٧-١٣٨).

(٢) التَّذْيِيلُ وَالتَّكْمِيلُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّسْهِيلِ لِأَبِي حَيَّانَ (٦/ ٢٢٥)، وَالإِحكَامُ فِي أُصُولِ الأَحكَامِ للآمِدِيِّ (٤/ ٢٢١)، وَالبَحْرُ الـمُحِيطُ لِأَبِي حَيَّانَ (١٠/ ٤١٤)، وَالفُرُوقُ للقَرَافِيِّ (٢/ ٥٩)، وَصُبْحُ الأَعْشَى فِي صِنَاعَةِ الإِنْشَا للقَلْقَشَنْدِيِّ (٦/ ١٠٤).

(٣) الـمُسْتَصْفَى للغَزَالِيِّ (ص٢٣).

(٤) تَقْوِيمُ النَّظَرِ فِي مَسَائِلَ خِلَافِيَّةٍ ذَائِعَةٍ لِابنِ الدَّهَّانِ (١/ ٣٥٢).

(٥) الإِيْضَاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ للزَّجَّاجِيِّ (ص٤٤).

فَهَذَا اجتِهَادٌ منهُم وَاصطِلاحٌ مِنْ أهْلِ الصَّنعَةِ، فَاختَارُوهُ وَاصطَلَحُوا عَليهِ، وَمَا أَطْلَقُوهُ إِلَّا لِمُنَاسَبَةٍ ظَاهِرَةٍ كَمَا بيَّنَّا، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ اعتِرَاضٌ عَليهِم وَاقْتِرَاحٌ لِجَدِيدٍ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَضْبطَ مِنِ اصْطِلاحِهِم، وَأَجْمَعَ منهُ، وَأَنْسَبَ مِنهُ فِي الدَّلالَةِ، وَإِلَّا فَالِاعتِرَاضُ يَكُونُ (حَدِيثَ خُرَافَةَ[1]!).

وَأَخِيرًا: لَا نَنْسَى أنَّ اصْطِلاحَ (الأَدَاةِ) أيضًا لَيْسَ مِنِ اخْتِرَاعِ أوزونَ حَتَّى يَفْرَحَ بِهِ وَيَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ بِهِ، بَلِ: اسْتَخْدَمَهُ بعضُ العُلَمَاءِ قَبْلَ ولَادَةِ آبَائِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ ألفِ سَنَةٍ، كَالفَرَّاءِ[2]، وَغَيْرِهِ مِنَ العُلَمَاءِ.

---

(١) خُرافَةُ اسمُ رَجُلٍ مِنْ (عُذْرَة) كَانَ يُحَدِّثُ بَغَرَائِبَ وَعَجَائِبَ عَنْ عَالَمِ الجِنِّ، فَإِذَا تَكَلَّمَ شَخْصٌ بِكَلامٍ غَرِيبٍ أَطْلَقُوا عَلَى كَلامِهِ: (حَدِيث خُرَافَةَ)، نِسبَةً إِلَيهِ، وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ هذَا فِي أَحَادِيث ضَعِيفَةٍ. يُنْظَرُ: الفَاخِرُ لِلمُفضَّلِ بنِ سَلَمَةَ (ص١٦٨)، وَالأَمْثَالُ المولَّدَةُ للخَوارزمِيِّ (ص٣٢٩).

(٢) مَعَانِي القرآنِ للفرَّاءِ (١/ ٥٨)، (٢/ ٣٣٢).

دَلَالَةُ الجُمْلَةِ الاسمِيَةِ!

ثُمَّ يَتَطَرَّقُ الـمُهَنْدِسِ إِلَى مَوْضُوعٍ آخَرَ وَيُكَرِّرُ فِيْهِ جُرْمَهُ وَجَوْرَهُ، وَيَقُولُ: «قَبْلَ أَنْ أدخُلَ فِي تَفَاصِيلِ مَا يُسَمَّى بالجُمْلَةِ الِاسمِيَّةِ، أريدُ أن أوضِّحَ أمرًا هامًّا حولَهَا، وسأضرِبُ لذلِكَ الـمِثَالَ التَّالِي: (الطِّفْلُ سَعِيدٌ). هذِهِ جملةٌ اسمِيَّةٌ استوفَتْ شُروطَهَا عندَ أهلِ اللُّغَةِ...لكِنَّهَا نُلاحِظُ أنَّ العِبارَةَ السَّابِقَةَ تُفِيدُ الدَّيمُومَةَ وَالثَّبَاتَ وَيَغِيبُ فِيهَا تأثيرُ الزَّمَنِ وَدَوْرُهُ، بِمَعْنَى أنَّ الطِّفْلَ كَانَ سَعِيدًا وَهُوَ سَعِيدٌ الآنَ وَسَيَبْقَى سَعِيدًا فِي الـمُسْتَقبَلِ، وَهذَا لَا يَنْطَبِقُ عَلَى صِفَاتِ البَشَرِ، لِذَا فَإِنَّ مُصْطَلَحَ الجُمْلَةِ الِاسمِيَّةِ -إنْ صَحَّ- لَا يَصْلُحُ إلَّا فِي الـمُعْتَقَدَاتِ وَالحَقَائِقِ العلمِيَّةِ الثَّابِتَةِ فَقَطْ، كَقَوْلِنَا: (الأَرْضُ كُرَوِيَّةٌ)، فهذِهِ العِبَارَةُ تُشَكِّلُ حَقِيقَةً عِلمِيَّةً ثَابِتَةً الآنَ وَمُستَمِرَّةً مَعَ تَبَدُّلِ الزَّمَنِ.

كذلِكَ عندَ مَا نَقُولُ: (اللهُ عَظِيمٌ) فَإِنَّ تلْكَ العِبَارَةِ تَتَّسِمُ بِصِفَةِ الثَّبَاتِ وَالدَّيمُومَةِ مَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ..أمَّا أنْ نَقُولَ: (زَيدٌ قَوِيٌّ) فَهذَا كَمَا رأينَا لا يُشَكِّلُ تركيبًا صَحِيحًا؛ لأنَّ تأثيرَ الزَّمَنِ فِيهِ غَائِبٌ وَلَا تَنْطَبِقُ صِفَةُ الثَّبَاتِ وَالدَّيمُومَةِ عَلَى الإنسَانِ، فَزَيدٌ قَوِيٌّ الآنَ ولكِنَّهُ كَانَ ضَعِيفًا عندَ ما كَانَ رَضِيعًا وَلَنْ يَحْتَفِظَ بكامِلِ قوَّتِهِ عِنْدَ الكِبَرِ.

وعليهِ فَمُصْطَلَحُ الجملَةِ الِاسمِيَّةِ من حيثُ الدَّلالَةُ وَالـمَعْنَى يَحْتَاجُ إِلَى إعادَةِ النَّظَرِ». ص: (٢٧).

أَقُولُ: إِنَّ الـمُهَنْدِسَ لَم يَفْهَمِ الـمَسألَةَ كَمَا هِيَ وَجاءَ بِمَا يَشِيْنُهُ وَلَا يَزِيْنُهُ، وهذِهِ الـمُصِيبَةُ كَانَتْ ضَيفًا لِجَنَابِ الـمُهَنْدِسِ فِي جَمِيعِ كُتُبِهِ، كَمَا هِيَ ضَيفٌ دَائِمٌ عَلَى بَابِ الـمُعتَرِضِينَ جَمِيعًا، وَكَادَ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الدَّارِ عِنْدَهُم!.

إنَّ الأَصْلَ فِي الجُمْلَةِ الِاسمِيَّةِ دَلَالَتُهَا عَلَى الثُّبُوتِ فِي ذَاتِهَا، وَدَلَالَتُهَا عَلَى الدَّيمُومَةِ بِقَرِينَةٍ، فَإِذَا كَانَ خَبَرُهَا مُفْرَدًا، أَوْ: جُمْلَةً اسمِيَّةً فَإِنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى الدَّيمُومَةِ عَلَى إِطْلَاقِهَا. وَقَدْ يَخرُجُ مَدلُولُهَا عَنْ هذَا الأَصْلِ وَلَا يَدُلُّ عَلَى الدَّيمُومَةِ إِلَّا بِقَرِينَةٍ، كَمَا لَوْ أَنَّ الكَلَامَ فِي مَعْرِضِ المَدْحِ، أَوِ: الذَّمِّ، فَلَا يَدُلُّ حِينَئِذٍ عَلَى الدَّيمُومَةِ وَالثُّبُوتِ إِلَّا بِقَرِينَةٍ مُرَجِّحَةٍ.

وَإِذَا كَانَ الخَبَرُ فِعْلًا فَإِنَّ مَدلُولَهَا كَمَدلُولِ الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الحُدُوثِ وَالِاستِمْرَارِ فِي زَمَنٍ مُحَدَّدٍ.

وَهذَا كَمَا قَالَ أَبُو البَقَاءِ الكفويُّ: «وَالْجُمْلَةُ الِاسمِيَّةُ مَوْضُوعَةٌ لِلإِخبَارِ بِثُبُوتِ الْمُسندِ للمُسْنَدِ إِلَيْهِ، بِلَا دَلَالَةٍ عَلَى تَجدُّدٍ، أَوِ: اسْتِمْرَارٍ، وَإِذَا كَانَ خَبَرُهَا اسْمًا فَقَدْ يُقْصَدُ بِهِ الدَّوَامُ وَالِاستِمْرَارُ الثُّبُوتِيُّ بِمَعُونَةِ الْقَرَائِنِ، وَإِذَا كَانَ خَبَرُهَا مُضَارِعًا فَقَدْ يُفِيدُ استِمْرَارًا تَجَدُّدِيًّا إِذَا لم يُوجَدْ دَاعٍ إِلَى الدَّوَامِ، فَلَيْسَ كُلُّ جُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ مُفِيدَةٍ للدَّوَامِ فَإِنَّ (زَيْدٌ قَائِمٌ) يُفِيدُ تَجَدُّدَ الْقِيَامِ لَا دَوَامَهُ»[(١)].

وقَالَ: «الْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ تَدُلُّ بِمَعُونَةِ الْمَقَامِ عَلَى دَوَامِ الثُّبُوتِ، وَإِذَا دَخَلَ فِيهَا حَرْفُ النَّفْيِ دَلَّتْ عَلَى دَوَامِ الِانْتِفَاءِ لَا عَلَى انْتِفَاءِ الدَّوَامِ، كَذَلِكَ الْمُضَارِعُ الْخَالِي عَنْ حَرْفِ الِامْتِنَاعِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ الثُّبُوتِ، وَإِذَا دَخَلَ فِيهِ حَرْفُ الِامْتِنَاعِ دَلَّ عَلَى استِمْرَارِ الِامْتِنَاعِ»[(٢)].

---

(١) الكُلِّيَّاتُ لأَبِي البَقَاءِ الكَفَوِيِّ (ص٣٤١).

(٢) الكُلِّيَّاتُ لأَبِي البَقَاءِ الكَفَوِيِّ (ص١٠١٠).

وَكذَا الجُمْلَةُ الفِعْلِيَّةُ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ وَالتَّجدُّدِ وَلكِنْ أحيانًا تَخْرُجُ عنْ هذَا وَتَدُلُّ على الِاسْتِمْرَارِ، كَمَا قَالَ الكفوِيُّ: «وَالْجُمْلَةُ الفِعْلِيَّةُ مَوْضُوعَةٌ لِإِحْدَاثِ الْحَدَثِ فِي الْـمَاضِي، أَوِ: الْحَالِ فَتَدُلُّ عَلَى تَجَدُّدٍ سَابِقٍ، أَوْ: حَاضِرٍ وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْـمُضَارِعُ لِلاستِمْرَارِ بِلَا مُلَاحَظَةِ التَّجَدُّدِ فِي مَقَامٍ خِطَابِيٍّ يُنَاسِبُهُ»[(١)].

وَمُخْتَصَرُ القَوْلِ: أنَّ الجُملَةَ الِاسمِيَّةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الِاستِمْرَارِيَّةِ دَوْمًا، بَلِ: الدَّلَالَةُ فِيهَا تَابِعَةٌ لِنَوْعِ الخَبَرِ، فَإِذَا كَانَ مُفْرَدًا، أَوْ: جُملَةً اسمِيَّةً، فَإِنَّ مَدْلُولَهَا الِاستِمْرَارُ، أَوْ: بِوَاسِطَةِ قَرِينَةٍ أَحيَانًا، بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ مَدْحًا، أَوْ: ذَمًّا.

أَمَّا إِذَا كَانَ خَبَرُهَا فِعْلًا فَإِنَّ مَدْلُولَهَا كَمَدلُولِ الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ، إِذْ يَدُلُّ عَلَى الِانقِضَاءِ إِذَا كَانَ مَاضِيًا، وَعَلَى الحُدُوثِ وَالتَّجَدُّدِ إِذَا كَانَ مُضَارِعًا، وَأَمْرُ هَذَا مُبَيَّنٌ فِي الـمُطَوَّلَاتِ وَيَعْرِفُهُ أَربَابُ اللُّغَةِ.

وَبَعْدَ هذَا عَجِيبٌ إِذَا أَقْبَلَ بعضُ النَّاسِ عَلَى هَرْطَقَاتِ هذَا الرَّجُلِ وَخَرْبَشَاتِهِ؛ لأَنَّ كَلامَهُ بُنِيَ عَلَى الوَهْمِ وَشَجَرَةُ الوَهْمِ لَا تُثْمِرُ إِلَّا ضَعْفًا وَهَوانًا.

وَفِي الحَقِيقَةِ لَيسَ عَجَبًا إِذِ النَّاسُ يَمِيلُ مَعَ كُلِّ نَاعِقٍ، وَلَا يُمَيِّزُ الكَاذِبَ مِنَ الصَّادِقِ، وَقَدْ يَقْبَلُ بعضُهُم كَلامَ مَنْ لَا يُقِيمُ جُمْلَةً صَحِيحَةً وَيترُكُ العَالِمَ النَّحرِيرَ هَمَلًا، وَصَدَقَ الرّصَافِيُّ لَـمَّا قَالَ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَدْ تُعرِضُ الأَسْمَاعُ عَنْ ذِيْ فَصَاحَةٍ ... وَتُصْغِي إِلَى ذِي اللُّكْنَةِ الـمُتَشَارِقِ

---

(١) الكُلِّيَّاتُ لأَبِي البَقَاءِ الكَفَوِيِّ (ص٣٤١).

طَغَى الـمُهَنْدِسُ وَتَجَبَّر، فِي بَحْثِ الـمُبْتَدَإِ وَالخَبَر!

ثُمَّ بعدَ الكَلامِ عَلَى دَلَالَةِ الجُمْلَةِ الاِسمِيَّةِ يَتَطَرَّقُ إِلَى الجِنَايَةِ علَى مَبْحَثٍ آخَرَ من مَبَاحِثِ عِلْمِ النَّحوِ وَهُوَ (الـمُبْتَدَأُ وَالخَبَرُ)، وَيأتِي بِمَا يُشْعِرُهُ شَنَارَهُ وَيُلْبِسُهُ عَارَهُ، وَيَكُونُ وَصْمَةَ عَارٍ وَوَسْمَةَ خِزْيٍ لَهُ إِلَى الأَبَدِ، وَيَقُولُ: «وَأعتَرِفُ هنَا بأنِّي بعدَ بحثٍ طويلٍ فِي قَضَايا الـمُبْتَدَإِ وَالخَبَرِ أدرَكْتُ مَعْنَى قَوْلِ شَاعِرِنَا الكَبيرِ الرَّاحِلِ نزَار قَبَّانِي: (سَأهربُ مِنْ لعنَةِ الـمُبتدإِ والخَبَر)، إنَّهَا لَعْنَةٌ فِعْلًا، وسأقُومُ فِي البحثِ فيهَا مَعَ مُعْظَمِ تَخَارِيجِهَا، وَنضربُ لذلِكَ الأمثِلَةَ التَّالِيَةَ..». ص: (٢٧).

أقُولُ: سَنَقِفُ عَلَى هذِهِ الجُرأةِ الَّتِي يَملِكُهَا أوزونُ فِي انتِقَادِ الأُصُولِ مِنْ غيرِ مَا بُرْهَانٍ، أَوْ: أَسَاسٍ عِلمِيٍّ، وَقَدْ نتكَلَّمُ عنْ أمثِلَتِهِ وَنُحَاجِجُهُ بِالـمِعيارِ العَقلِيِّ دونَ أيِّ تَحَامُلٍ، ولكِنْ قبلَ ذلِكَ أودُّ الإشارَةَ إِلَى أنَّ هذَا الرَّجُلَ مِنْ عادتِهِ أَنْ يُضَخِّمَ مَنِ انْحَرَفَ وَمَالَ عَنِ الصَّوَابِ، فَكَمَا رَأينَاهُ سَابِقًا وَنَرَاهُ الآنَ كيفَ يُضَخِّمُ اسمَ قَبَّانِي هُنَا، لِيُمَرِّرَ باطِلَهُ وَزَيْفَهُ، وَلَو كَانَتِ النَّتِيجَةُ هَلَاكَهُ وَحَتْفَهُ.

وَالأَمثِلَةُ الَّتِي ضَرَبَهَا هِيَ:

الـمِثَالُ الأَوَّلُ: خَالِدٌ قَائِدٌ بَطَلٌ لَا يَخَافُ الأَعْدَاءَ.

اعتَرَضَ عَلَى هذِهِ الجُمْلَةِ؛ لأَنَّ فيهَا ثَلَاثَةَ أَخْبَارٍ وَقَالَ: «وعليهِ فإنَّنَا نَرَى أنَّ المبدَأَ[1] الوَاحِدَ فِي تلكَ الجُملةِ قدْ أخذَ ثلاثَةَ أخبَارٍ. وهُنَا نَتَسَاءَلُ: كيفَ يتعَدَّدُ

---

(١) يقصِدُ الـمُبتدَأَ وَهُوَ خطأٌ مَطْبَعِيٌّ.

الخَبَرُ؟ فَقَدْ أخبرْنَا عَنِ الـمُبتَدَإ (خالدٍ) بِقَائِدٍ، وَالاسمُ بعدَهُ فَقَدَ وَظِيفَتَهُ فلم يعدْ يخبرُ عن المبتدإِ؛ لأنَّ الِاسْمَ قبْلَهُ قَدْ سبقَهُ وقَامَ بالمهمّةِ، وهكذَا فإنَّنا نَرَى أنَّ قَبُولَ مبدَإِ مُتَعَدّدِ الخبرِ يُساهِمُ مَعَ غيرِهِ فِي خَلْقِ أُمِّ الـمَشَاكِلِ فِي أدبِنَا العَرَبيِّ وَبالتَّالِي عَقلِنَا العَرَبيِّ، وَهِيَ مُشكِلَةُ التَّرَادُفِ فِي الـمُفرَدَاتِ وَالألفَاظِ». ص: (٢٨).

أقُولُ: لَا عَاقِلَ لَهُ أدنَى عِلْمٍ باللُّغَاتِ يَرَى مَا بَحَثَهُ صاحِبُ الجِنَايَةِ وَلا يَتَعَجَبُ منهُ؛ لأنَّهُ قامَ بِمَا يساءُ منهُ اللَّبِيبُ الفَطِنُ بهذَا الِاعتِرَاضِ الهَزِيلِ السَّمْجِ، فَهِيَ سُبَّةٌ بَاقِيَةٌ إِلَى الأَبَدِ إِنْ لَمْ يَرْجِعْ، إِذْ إِنَّ مَبْدَأَ تَعَدُّدِ الخَبَرِ شَيءٌ عَادٍ فِي الـمَعقُولِ وَاللُّغَةِ؛ أَمَّا فِي الـمَعقُولِ فَلِأَنَّكَ تُخْبِرُ عَنِ الِاسمِ بِعِدَّةِ أَخْبَارِهِ، فَمَثَلًا أَنْتَ فِي هذِهِ الجُمْلَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أوزونُ تُخبِرُ عَنْ خَالِدٍ بأَنَّهُ (قَائِدٌ)، وَ(بَطَلٌ) وَ(لَا يخَافُ الأَعْدَاءَ)، وَمَا دَامَتِ الجُمْلَةُ تَحتَمِلُ ثَلاثَةَ أَخبارٍ، عَلَى كَوْنِ الـمُتكَلَّمِ عَنْهُ يُتَّصَفُ بِهَا فَلا مُشكِلَةَ فِي تَعْدَادِهَا مَعًا!.

أمَّا فِي اللُّغَةِ فَلِأَنَّكَ تَسْتَطِيعُ إِمَّا أَنْ تُخْبِرَ عَنْ هذَا الـمُرَادِ بِوَاسِطَةِ حَرْفِ العَطْفِ وَتقولَ: (خَالِدٌ قَائِدٌ وَبَطَلٌ وَلَا يَخَافُ الأَعْدَاءَ)، وَإِمَّا أَنْ تُجَرِّدَ الكَلامَ عَنِ الوَاوِ اختِصَارًا وَتَبْنِيَ الجُمَلَةَ عَلَى هَيئَةِ الخَبَرِ، كَمَا مَثَّلَهَا الـمُهَندِسُ.

وَلَا أدرِي لِمَ الِاعتِرَاضُ عَلَى هذَا الـمِثَالِ إِذَا لَم يَكُنِ البَاعِثُ العَبَثَ؟ هَبْ أَنَّنَا لَا نَقُولُ بِتَعْدَادِ الخَبَرِ وَقُلْنَا بِقَوْلِ أوزونَ فَمَاذَا نَقُولُ وَكَيفَ نُعَبِّرُ وَمَاذَا نُسَمِّي نَوعَ خِطَابِنَا، فهلَّا أوزونُ بيَّنَ لَنَا شَيئًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقْدَ وَالِاعتِرَاضَ، وَكَمَا قُلْنَا وَنَقُولُهَا دَومًا: لَا يُمْكِنُ الِاعتِرَاضُ وَالِانتِقَادُ بالتَّشَاغُبِ مَعَ النُّصُوصِ، وَإِلَّا فَلَيسَ يَبْقَى ثَمَّةَ كَلامٌ مَعقُولٌ، وَلَا قَولٌ مَقُولٌ، وَلَا صَوَابٌ مَأمُولٌ، وَلَا جُهْدٌ مَحصُولٌ؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ تَضْطَرِبُ فِيهِ العُقُولُ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الكَلامِ العَرَبِيِّ الفَصِيحِ ذِكْرُ أَرْبَعَةِ أَخْبَارٍ، كَمَا جَاءَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (البروج).

وَجَاءَ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ أيضًا كَقَوْلِهِم:

[مِنْ مَشْطُورِ الرَّجَزِ]

مَنْ يَكُ ذَا بَتٍّ فَهذَا بَتِّي ... مُصَيِّفٌ مُقَيِّظٌ مُشَتِّي
تَخِذْتُهُ مِنْ نَعَجَاتٍ سِتِّ ... سُودٍ جِعَادٍ مِنْ نِعَاجِ الدَّشْتِ

فَبَتِّي: خَبَرُ الـمُبْتَدَإِ الَّذِي هُو (هذَا)، وَ(مُصَيِّفٌ): خَبَرٌ ثَانٍ، وَ(مُقَيِّظٌ): خَبَرٌ ثَالِثٌ، وَ(مُشَتِّي): خَبَرٌ رَابِعٌ[1].

وَكَقَولِ الخَنْسَاءِ فِي تَعَدُّدِ خَبَرِ (إِنَّ):

[مِنَ البَسِيطِ]

حَمَّالُ أَلوِيَةٍ هَبَّاطُ أَودِيَةٍ ... شَهَّادُ أَندِيَةٍ لِلجَيشِ جَرَّارُ

وَكُلُّ هذِهِ الأَخْبَارِ (حَمَّالُ أَلوِيَةٍ)، (هَبَّاطُ أَودِيَةٍ)، (شَهَّادُ أَندِيَةٍ)، رَاجِعَةٌ لِقَوْلِهَا: (وَإِنَّ صَخْرًا..) فِي الأَبيَاتِ السَّابِقَةِ.

أَمَّا الكَلامُ عَنِ التَّرادُفِ وَمَاهِيَتِهِ وَأنواعِهِ وَاختِلافِ الأَئِمَّةِ فِيهِ، فَقَدْ مَضَى وَسَلَفَ فِي (الجِنَايَةِ عَلَى الشَّافِعِيِّ) مُفصَّلًا مُؤصَّلًا، يُمكِنُ الرُّجُوعُ وَاللُّجُوءُ إِليهِ، وَلكِنْ إِدْخَالُ تَعَدُّدِ الخَبَرِ فِي بَابِ التَّرَادُفِ فِي كَلَامِهِ لَـمِنَ العَجَبِ العُجَابِ، كَبَيَاضِ اللَّونِ لِلغُرَابِ، وَلكِنَّهُ عَادٍ إِذْ هُوَ دَيْدَنُهُ فِي الإِسْهَابِ وَالإِطْنَابِ بِغَيْرِ صَوَابٍ، وَمَعَ هذَا

---

(١) الإِنصَافُ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (٢/ ٥٩٦).

يُخْرِجُ لَهُ مُؤسَّسَاتُ سَوْطِ عَذَاب![1].

[مِنَ الـمُنْسَرِحِ]

نَحْـنُ مِـنَ الـدَّهْرِ فِـي أَعَاجِيـب فَنَسْـأَلُ اللهَ صَـبْرَ أَيُّـوبْ
أَقْفَـرَتِ الأَرْضُ مِـنْ مَحَاسِـنِهَا فَابْـكِ عَلَيْهَـا بُكَـاءَ يَعْقُـوبْ

المِثَالُ الثَّانِي: الـمَدِينَةُ شَوَارِعُهَا نَظِيفَةٌ.

يُعَلِّقُ علَى الـمِثَالِ بِقَوْلِهِ: «فِي تلكَ الجُملَةِ نَرَى أنَّ هناكَ مُبتَدَأَينِ، فالمدينةُ مبتدَأٌ - آمنَّا وصدَّقْنَا- أمَّا (شَوَارِعُهَا) فَهِي مُبتدأٌ ثانٍ؟! ما دُمْنَا قَدْ بدأنَا مَا يُسمَّى (الجُملةَ الِاسميَّة) باسمٍ وَاصطَلَحْنا علَى أنْ يَكُونَ فِي البِدايةِ مُبتَدَأً فكيفَ يكُونُ الاسمُ بَعدَهُ مبتدَأً ثانيًا؟ وكيفَ نَسمَحُ لأنفسِنَا أنْ نُسمِّيَهُ مُبْتَدَأً وَلَمْ نَبْدَأْ بِهِ؟ ما هذِهِ التَّخرِيجَةُ الغريبةُ؟ وَالأَغرَبُ مِنْ ذلِكَ أنَّ الجملَةَ الِاسميَّةَ (شوارِعُهَا نَظِيفَةٌ) فِي محَلِّ رفْعٍ خبرٌ للمُبتدإِ الأوَّلِ، فكيفَ يتِمُّ التَّأويلُ هُنَا؟ هَلْ نُؤَوِّلُ الأسمَاءَ بالأسمَاءِ وَالأَشياءَ بالأَشياءِ، ونغربُ الـمَعانِي عنْ حَقِيقَتِهَا؟ وَما الغَايَةُ مِنْ ذلِكَ؟ وَلـمَاذَا المبتَدَأُ اسمٌ مَثَلًا وَليسَ فِعْلًا؟ وَمَاذَا سيكُونُ الفَرْقُ؟ أُمورٌ لَا يَصِح[2] الـمَنطِقُ إلَّا بِرَفضِهَا مِنْ أَسَاسِهَا أَصْلًا». ص: (٢٨-٢٩).

أقُولُ: إنَّ الكَاتِبَ فِي هذِهِ الأَسْطُرِ قَدْ أَتَى جَرائِمَ وَجِنَايَاتٍ، وَرَكِبَ مَظَالِمَ وَخِيَانَاتٍ، وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِ الـمُغَالَطَةِ وَالسَّفْسَطَةِ وَالشَّقْشَقَةِ، لَيْتَهُ أَدْرَكَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ وَعَلِمَ أَنَّ الخِيَانَةَ مِنَ العَرَبِيَّةِ سَتَكُونُ لِصَالِحِ مَنْ؟

---

(١) أَعْنِي بِهَا بَعْضَ دُورِ النَّشْرِ وَالإِعْلامَ الـمَاجِنَ.
(٢) كَلَامٌ رَكِيكٌ.

[مِنَ البَسِيطِ]

وَكَمْ أَضَعْتَ عُهُودًا كُنْتُ أَحْفَظُهَا … وَخُنْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا بِخَوَّانِ
رَوَّعْتَ قَلْبِي وَكَمْ فَرَّقْتَ مُجْتَهِدًا … بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِلَّائِي وَأَخْدَانِي
وَكَمْ بَغَيْتَ وَلكِنْ كُنْتُ مُصْطَبِرًا … وَكَانَ يَحْتَمِلُ البَلْوَاءَ جُثْمَانِي
وَكَانَ عِنْدِي عَلَى هذَا الأَسَى جَلَدٌ … حَتَّى تَجَاوَزْتَ فِي بَغْيِي وَعُدْوَانِ

فَالجَوَابُ عَلَى سَفَاسِطِهِ يَكُونُ مُقَسَّمًا عَلَى نِقَاطٍ وَهِيَ:

الأُوْلَى: كَيْفَ يَكُونُ فِي الكَلامِ مُبْتَدَأَيْنِ؟

أَقُولُ: إِنَّ هذِهِ الجُمْلَةَ فِي أَصْلِ تَكْوِينِهَا جُمْلَتَانِ، وَمَا دَامَتْ جُمْلَتَيْنِ فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ذِكْرُ مُبْتَدَأَيْنِ، وَاحِدٌ أَصْلِيٌّ وَآخَرُ فَرعٌ مِنْهُ لتَمَامِ الكَلامِ، فَفِي مِثَالِنَا الَّذِي ضَرَبَهُ صَاحِبُ الجِنَايَةِ: (المَدِينَةُ شَوَارِعُهَا نَظِيفَةٌ)، تَكُونُ (المَدِينَة) مُبْتَدَأً؛ لأَنَّنَا بِصَدَدِ الإِخبَارِ عنهَا، وَالجُمْلَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى نَظَافَةِ الشَّوَارِعِ هِيَ الخَبَرُ لَهَا، وَفِي هذَا الأَصْلِ تَقَعُ جُمْلَةٌ فرعِيَّةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنْ مُبْتَدَإٍ وَخَبَرٍ لإِتْمَامِ الحُكْمِ عَلَى ذَاكَ الأَصْلِ، وَهُوَ قَوْلُنَا: (شَوَارِعُهَا نَظِيفَةٌ)، فَـ(شَوارِع) مُبْتَدَأٌ، وَ(نَظِيفَةٌ) خَبَرٌ. وَهذَا مِنْ أَسَالِيبِ العَرَبِيَّةِ فِي الخِطَابِ بِالتَّقدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَإِلَّا فَبوسْعِنَا أَنْ لَا نَسْتَخْدِمَ هذَا الأُسْلُوبَ وَنَعدِلَ عنهُ، وَنصُوغَ الجملةَ بِشَكْلٍ آخرَ، وَنَقُولَ: (شَوَارِعُ المَدِينَةِ نَظِيفَةٌ)، وَلكِنْ لِهذَا التَّقدِيمِ وَالتَّأخِيرِ أَغْرَاضٌ كَمَا سَنَذكُرُهَا لَاحِقًا، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ عِنَايَةَ المُتَكَلِّمِ فِي الجُمْلَةِ الأُوْلَى تَقَعُ عَلَى المَدِينَةِ فَلِذلِكَ قَدَّمَهَا وَأَتَى بِهَا أَوَّلًا، وَاضْطَرَ إِلَى ذِكْرِ جُمْلَتَيْنِ اسمِيَتَيْنِ، وَإِلَّا فَكَانَ بوسعِهِ أَنْ يُؤَخِّرَ (المَدِينَة)، وَيَصُوغَ الجُمْلَةَ كَالصِّيَاغَةِ الثَّانِيَةِ، لِكنَّ الأُوْلَى فِيهَا غَرَضٌ بيَانِيٌّ لَيسَ فِي الثَّانِيَةِ كَمَا أَنَّ فِي

الثَّانِيَةِ غَرَضًا لَيْسَ فِي الأُوْلَى، وَهذَا كُلُّهُ راجِعٌ إِلَى مَسأَلَةِ التّقْدِيمِ وَالتَّأخيرِ فِي البَحْثِ البَيَانِيِّ، وَلكِنَّ صاحِبَنَا جَهِلَهَا فَعَادَاهَا، وَنَزَعَ ثِيَابَ التَّحَصُّنِ وَالتَّحَرُّزِ، وَأَرْسَلَ نَفْسَهُ عَلَى سَجِيَّتِهَا.

الثَّانِيَةُ: كيفَ نَسمَحُ لِأنفُسِنَا أنْ نُسمِّيَهُ مُبْتَدَأً وَلَمْ نَبْدَأْ بِهِ؟

أَقُولُ: إِنَّ الـمُشكِلَةَ لدَى الـمُهْندِسِ أَنَّهُ تَصوَّرَ الـمَسأَلَةَ خَطأً فأدَى بِهِ إِلَى قُصُورٍ وَكُسُورٍ، بَلْ: خَطإٍ فِي النَّتِيجَةِ؛ لأَنَّهُ تَصَوَّرَ فِي (الـمُبْتَدَإِ) أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ الكَلَامِ وَإِلَّا فَلَيْسَ مُبْتَدَأً، وَهذَا خَطأٌ؛ لأنَّ الـمُرَادَ مِنَ الِابْتِدَاءِ ابتِدَاءُ الجُمْلَةِ، وَلَيْسَ ابتِدَاءَ الكَلامِ، وَمِنْ هُنَا (الـمَدِينَةُ شَوارِعُهَا نَظِيفَةٌ) قَدْ وَقَعَ الـمُبْتَدَأُ فِي أَوَّلِ جُمْلَتِهِ؛ لأنَّ الجُمْلَةَ الَّتِي هُوَ فِيهَا مُبْتَدَأٌ هِيَ: (شَوارِعُهَا نَظِيفَةٌ)، فَكَمَا نَرَاهُ فَهُوَ مُبْتَدَأٌ فِي جُمْلَتِهِ، فَالعِبرَةُ بِجُمْلَتِهِ وَلَيْسَتْ بِصَدَارَةِ الكَلامِ كُلِّهِ.

وهذَا الِاعتِرَاضُ كَاعتِرَاضِ مَنِ اعترَضَ عَلَى كَوْنِ الحَرْفِ يأتِي فِي طَرَفِ الكَلامِ لِذلِكَ سُمِّيَ حَرْفًا، وَقَالَ: كَيفَ يَكُونُ هذَا، مَعَ أَنَّنَا نَجِدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الكَلَامِ أَنَّ حُرُوفًا تَأتِي فِي الوَسَطِ وَلَا تَقَعُ طَرَفًا!!

الثَّالِثَةُ: كَيفَ تَكُونُ (شَوارِعُهَا نَظِيفَةٌ) خَبَرًا لِـ(الـمَدِينَةِ)؟

أقُولُ: هذَا عَادٍ جِدًّا وَليسَ بالأَغربِ الَّذِي يتحَدَّثُ عَنْهُ صَاحِبُ الجِنَايَةِ، وَنحنُ نَقُولُ لَهُ وَلِغَيرِهِ مِنَ الـمُعتَرِضِينَ: دَعُوا مُصطَلَحَ الـمُبْتَدَإِ وَالخَبَرِ أَصْلًا، وَنَتَخَيَّلْ جَمِيعًا أَنْ ليسَ هُنَاكَ مُصطَلَحَانِ باسْمِ:(الـمُبْتَدَإِ وَالخَبَرِ)، وَنَحتَكِمُ إِلَى العَقْلِ وَالـمَنْطِقِ لِإِسْفَارِ الـمَعْنَى فِي هذِهِ الجُمْلَةِ.

أَلَيسَتْ جُملَةُ (شَوارِعُهَا نَظِيفَةٌ) حُكْمًا عَلَى الـمَدِينَةِ وَقَوْلًا رَاجعًا إِليهَا وَخبَرًا أَخْبَرْنَا بِهِ عنهَا؟ فَهذَا هُوَ الخَبَرُ نَفْسُهُ، إِذَنْ لِـمَاذَا هذَا التَّشَاغُبُ يا مُهَنْدِسُ؟ وَمَا الشَّيْءُ الأَغْرَبُ فِيهِ؟

الرَّابِعَةُ: لِـمَاذَا المبتَدَأُ اسمٌ مَثَلًا وَليسَ فِعْلًا؟ وَمَاذَا سَيكُونُ الفَرْقُ؟

أَقُولُ: هذَا وَحْدَهُ كَافٍ لِيُعْرَفَ أَنَّ صَاحِبَ الجِنَايَةِ لَا يُتْقِنُ جُزْئِيَّاتٍ يَسِيرَةً لَا منَ اللُّغَةِ وَلَا مِنَ العَقْلِ وَلَا مِنَ الـمَنْطِقِ، وَإِلَّا فَلَم يَكُنْ يَعتَرِضُ هذَا الِاعتِرَاضَ عَلَى شَكْلِ الِاستِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ؛ لأَنَّهُ باتِّفَاقِ العُقَلاءِ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يُحْكَمُ عَليهِ بالخَبَرِ هُوَ الِاسمُ لَا الفِعْلُ؛ لِأَنَّ الخَبَرَ هُوَ مَا احتَمَلَ الصِّدْقَ وَالكَذِبَ لِذَاتِهِ، وَهذَا خَاصٌّ بالأَسْمَاءِ دُونَ الأَفْعَالِ، وَلكِنَّ الـمُهَنْدِسَ لَا يَفْهَمُهُ؛ لأَنَّ اللُّغَةَ وَالعَقْلَ لَهُمَا أَهْلُهُمَا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُمَا، فَحُقَّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي الهَنْدَسَةِ إِنْ كَانَ يَعْرِفُهَا، وَإِلَّا فَلَيْسَتْ هذِهِ الـمَسَائِلُ مُذَلَّلَةَ القُطُوفِ لَهُ حَتَّى يَأْتِيَهَا وَيَخُوضَ فِيهَا.

وَبَعْدَ هذِهِ السُّؤالَاتِ الَّتِي أَتَى بِهَا قَالَ: (أُمورٌ لَا يَصح الـمَنطِقُ إِلَّا بِرَفضِهَا مِنْ أَسَاسِهَا أَصْلًا)، وَلكِنَّ هذَا الكَلَامَ يَنْطَبِقُ عَلَى سُؤالَاتِهِ وَاعتِرَاضَاتِهِ تَمَامًا، لَا عَلَى القَوَاعِدِ النَّحوِيَّةِ، وَاللهُ الـمُستَعَانُ.

وَعَلَى الـمُهندِسِ أَنْ يَتَنَبَّهَ لِعَاقِبَةِ أَمْرِهِ وَيَعْرِفَ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ هُوَ البَغْيُ عَلَى هذِهِ اللُّغَةِ البَلِيغَةِ، وَعَاقِبَةُ البَغْيِ لَا تُحْمَدُ لَا فِي الدُّنيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ[1].

[مِنَ الـمُنْسَرِحِ]

بَغَيْتَ ظُلمًا وَالبَغْيُ مَصرَعُ مَنْ ... بَغَى عَلَى أَهْلِهِ بِتَغيِيرِ

(١) قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الفَضْلِ عُمَرُ الحَدُّوشِيُّ: هذَا الـمُهَنْدِسُ يُمَارِسُ الهَدْمَ العَشْوَائِيَّ!

تَقْدِيمُ الخَبَرِ عَلَى المُبْتَدَأ، لِمَاذَا؟

ثُمَّ بعدَ ذلِكَ يَتطَرَّقُ إلَى مَوْضُوعِ تَقدِيمِ الخَبَرِ عَلَى الـمُبْتَدَإِ، وَيقُولُ: «نعم يَتقدَّمُ الخبرُ على الـمبتدإِ ليُصبحَ الخبرُ في البدَايةِ وَالـمُبتدأُ فِي النِّهَايةِ، فعِندَ مَا رَصَدَ سِيبَوَيهِ وَأتبَاعُهُ كَلامَ العَرَبِ كَقولِهِم: (فِي القَوْمِ عَالِمٌ) وَجدُوا (عَالِمٌ) مَرفوعَةً، فلَمْ يكُنْ خِيارٌ وَاعتبَرُوهَا مُبتَدَأً ولكِنَّهُ مُؤخَّرٌ». ص: (٣٠).

أقُولُ: إنَّ الشَّيْءَ الَّذِي أَسماهُ النَّحوِيُّونَ: (الـمُبْتَدَأَ)، لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ رَفْعِ الكَلِمَةِ كَمَا أوهَمَ أوزونُ، بَلْ: نَظَرُوا إِلَى أَصْلِ هذَا الشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فَإِذَا بِالعَرَبِ يَبْدَأُ بِهِ الكَلامَ، وَلَا يُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِغَرَضٍ، فَلِذلِكَ أَعْطَوهُ اسمَ الـمُبْتَدَإِ وَجعَلُوا الأَصْلَ لَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى الشَّيْءِ اللَّازِمِ لَهُ، وَهُوَ مَا أَسْمَوهُ الخَبَرَ.

وَعَليهِ فَإِنَّهُم فَتَّشُوا كَلامَ العَرَبِ وَبَحَثُوا عَنْ هذَا الشَّيْءِ فَوَجدُوهُ يَتَقَدَّمُ دومًا عَلَى الثَّانِي الَّذِي أَطْلَقُوا عليهِ (الخَبَرَ)، فَإِذَا بالخَبَرِ لَا يَتَقَدَّمُ عليهِ إِلَّا لِأَغْرَاضٍ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

- لِلتَّفَاؤُلِ: كَمَا تَقُولُ لِلمَرِيضِ: (فِي عَافِيَةٍ أَنْتَ).
- لِلاهتِمَامِ وَالعِنَايَةِ: كَقَوْلِكَ: (فِي الـمَسْجِدِ الأَقْصَى أنَا).
- لِلقَصْرِ وَالحَصْرِ: كَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ (الكافرون).
- لِتَعْجِيلِ البُشْرَى وَالـمَسَرَّةِ: (فِي نَجَاحٍ أَنْتَ).
- لِلاختِصَاصِ: كَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... ۝١٢٠﴾ (المائدة).
- وَلِأَغْرَاضٍ أُخرَى ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ فِي كُتُبِ البَلاغَةِ.

فالنَّحوِيُّونَ أَطْلَقُوا عَليهِمَا: (الـمُبْتَدَأ وَالخبَرَ)، وَالبيَانِيِّونَ: (الـمُسْنَدَ إِلَيْهِ وَالـمُسْنَدَ)، وَالأُصُولِيِّونَ وَالفُقَهَاءُ: (الـمَحكُومَ عَلَيْهِ وَالـمَحكُومَ بِهِ)، وَالـمُتكَلِّمُونَ: (الـمَوْصُوفَ وَالصِّفَةَ)، وَالـمَنَاطِقَةُ: (الـمَوْضُوعَ وَالـمَحمُولَ)، وَالفَلاسِفَةُ: (الجَوْهَرَ وَالعَرَضَ)، عَجِيبٌ أَنْ تَرُدَّ هذَا الـمُصْطَلَحَ عِنْدَ النَّحوِيِّينَ وَتُنْكِرَهُ عَلَيهِم وَتَسْكُتَ عَنِ الآخَرِينَ الَّذِينَ وَضَعُوا لَهُمَا اصطِلاحًا كَاصْطِلاحِ النَّحوِيِّينَ، وَالأَعْجَبُ مِنهُ إِذَا رَدَدْتَهَا كُلَّهَا؛ لأَنَّكَ بِهذَا تُفَضِّلُ عَقْلَكَ عَلَى أُلُوفِ عُقُولٍ جَبَّارَةٍ كَانَتْ وَرَاءَ هذِهِ الاصطِلاحَاتِ فِي هذِهِ الفُنُونِ!

البَرَاهِينُ الفَاحِصَة في تَوْجِيْه الأَفْعَالِ النَاقصَة

ثُمَّ يَذْهَبُ الكَاتِبُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ وَبَحْثٍ جَدِيدٍ، وَيَرُدُّ فِيهِ الأَفعَالَ النَّاقِصَةَ، وَيَقُولُ مُتَعَرْبِدًا مُتَجَهِّمًا فِي حَقِّ العَرَبِيَّةِ: «سُمِّيَتْ ناقِصةً لأنَّهُ لا تَتِمُّ الجُملةُ مَعَهَا إلَّا بِمَرْفُوعٍ وَمَنْصُوبٍ. وَفِي التَّسميةِ أمرٌ غَرِيبٌ فِعلًا يُبَيِّنُهُ المِثالُ (نَامَ زَيدٌ) فَفِعْلُ نَامَ هُنا تامٌّ، فِي حِينِ أنَّ فِعْلَ أمْسَى فِي المِثالِ (أمْسَى زَيْدٌ) نَاقِصٌ. وَهُناكَ جُمَلٌ فيهَا أفعالٌ تَامَّةٌ لَا تَتِمُّ إلَّا بِمَرفُوعٍ (فَاعِلٍ) وَمَنصُوبٍ (مَفْعُولٍ بِهِ)، مِثْلُ: (قَالَ أحمدُ الصِّدقَ)، أو: (سَمِعَ أحمدُ الحَقَّ)، وهكذا نَرَى أنَّ فِي تِلكَ التَّسمياتِ أُمورًا لا يُمكِنُ قبولُهَا مِنْ مُنْطَلَقِهَا فِي الأَصْلِ». ص: (٣٠).

أقُولُ: هذَا الأمرُ أيسَرُ بِكَثِيرٍ مِمَّا كَبَّرَهُ وَضَخَّمَهُ بحيثُ أعطَاهُ أكثَرَ مِنْ حَقِّهِ بِكَثِيرٍ، وَلَا يَحْتَاجُ إلَى هذَا الصُّراخِ المُزعِجِ، وَلَا مُشكِلَةَ فِي تَسمِيَتِهِنَّ بالأَفعَالِ النَّاقِصَةِ، وَنُقْصَانُهُنَّ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ حَاجَةِ الأَفْعَالِ التَامَّةِ إلَى الفَاعِلِ وَالمَفعُولِ، قَالَ الزَّمخشَرِيُّ فِي بَيَانِ ذلِكَ: «وَنُقْصَانُهُنَّ مِنْ حَيْثُ إِنَّ نَحْوَ: (ضَرَبَ)، وَ(قَتَلَ) كَلَامٌ مَتَى أَخَذَ مَرْفُوعَهُ، وَهؤلَاءِ مَا لَمْ يَأْخُذْنَ المَنْصُوبَ مَعَ المَرْفُوعِ لَمْ يَكُنْ كَلَامًا»[١].

وَقَدْ شَرَحَهُ ابنُ يَعِيشَ وَأبَانَ بأوْضَحَ فقَالَ: «تُسَمَّى أَفْعَالًا نَاقِصَةً، وَأَفْعَالَ عِبَارَةٍ[٢]. فَأَمَّا كَوْنُهَا أفْعالًا، فَلِتَصَرُّفِهَا بِالمَاضِي وَالمُضَارِعِ وَالأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالفَاعِلِ، نَحْوُ قَوْلِكَ: (كَانَ)، (يَكُونُ)، (كُنْ)، (لَا تَكُنْ)، (وَهُوَ كَائِنٌ).

---

(١) المُفَصَّلُ للزَّمَخْشَرِيِّ (ص٣٤٩).

(٢) بَعْدَ الكَلامِ الَّذِي نَنْقُلُه يَذْكُرُ وَجهَ كَوْنِهَا أَفْعَالَ عِبَارَةٍ.

وَأَمَّا كَوْنُهَا نَاقِصَةً فَإِنَّ الفِعْلَ الحَقِيْقِيَّ يَدُلُّ عَلَى (مَعْنًى وَزَمَانٍ)، نَحْوُ قَوْلِكَ: (ضَرَبَ)، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ، وَعَلَى مَعْنَى الضَّرْبِ. وَ(كَانَ) إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ فَقَطْ، وَ(يَكُونُ)، تَدُلُّ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ، أَوْ: عَلَى مَا يَأْتِي مِنَ الزَّمَانِ، فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ فَقَطْ. فَلَمَّا نَقَصَتْ دَلَالَتُهَا، كَانَتْ نَاقِصَةً»[1].

فَالفَرْقُ بينَ هذَا النَّقْصِ الَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي تِلْكَ الأَفْعَالِ مُبايِنٌ جِدًّا للأَفعَالِ التَّامَّةِ، كَـ(نَامَ)، وَ(سَمِعَ) وَ(قَالَ) الَّتِي ضَرَبَهَا أوزونُ، حَيثُ إِنَّ الأَوَّلَ يَدُلُّ عَلَى النَّوْمِ وَالزَّمَنِ أيضًا -وَهُوَ المَاضِي- فِي نَفْسِهِ، وَكذَا الثَّانِي يَدُلُّ عَلَى السَّمَاعِ فِي الزَّمَانِ نَفْسِهِ، وَالثَّالِثُ عَلَى القَوْلِ فِي هذَا الزَّمَانِ أيضًا، فَهذِهِ الدَّلَالَةُ تَكْسِبُهُ كَمَالًا مُقَارَنَةً بِمَا سُمِّيَ بالأَفْعَالِ النَّاقِصَةِ.

وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ الجِنَايَةِ لَا يَرْغَبُ فِي هذَا الاصطِلاحِ وَلَا يُعْجِبُهُ وَأَصَرَّ عَلَى رَدِّهِ، فَإِنَّ لِلنَّحوِيِّينَ فِيْهِ اصْطِلاحًا آخَرَ وَهُوَ (الأَفْعَالُ النَّاسِخَةُ)، فهذِهِ الأَفعَالُ النَّاقِصَةُ تُسَمَّى بِهذَا الاسمِ أيضًا؛ لأَنَّهَا تَنْسَخُ -تُزِيلُ- حُكْمَ المُبْتَدَإِ وَالخَبَرِ بِحَيثُ تَجْعَلُ المُبْتَدَأَ اسمًا مَرْفُوعًا لَهَا، وَالخَبَرَ خَبَرًا مَنصُوبًا لَهَا، فَلْيَأْخُذْ بِهذَا الاصطِلاحِ وَيَدَعِ التَّشَاغُبَ عَلَى العُلُومِ وَالجِنَايَةَ فِي حَقِّ أربَابِهَا.

إِذَنْ لَا يَبْقَى للمُعتَرِضِ قَولٌ سِوَى الثَّرْثَرَةِ إِنِ استَمَرَّ عَلَى العُدْوَانِ بَعْدَ هذَا البَيَانِ.

ثُمَّ استَمَرَّ وَقَالَ: «كَمَا أَنَّنَا نَجِدُ أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ قَدْ خَالَفَ ذلِكَ صراحةً -مَفهُومَ الفِعْلِ النَّاقِصِ- حَيثُ يَقُولُ -عَزَّوَجَلَّ-: [فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ]

---

(١) شَرحُ المُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيش (٤/ ٣٣٥).

سورَةُ الرُّومِ. فعلُ (تُمسونَ) وَفعلُ (تُصبِحُونَ) تامَّانِ حَتْمًا (وَهما من أخواتِ كانَ: أمسَى-أصْبَحَ). وكذلِكَ قولُهُ تعالَى: [..خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُواتُ وَالأَرْضُ] سُورَةُ هود. مَا دَامَتْ: فِعْلٌ تَامٌّ أيضًا (وهُوَ مِنْ أخواتِ كَانَ).

ثُمَّ نأتِي إلَى الزَّعِيمَةِ (كَانَ) الَّتِي لا أدرِي لِمَاذَا لَا تَمْلكُ آبَاءً أَوْ: أجدَادًا وَإِنَّمَا لَهَا أخواتٌ، فَنجِدُ أنَّ اللهَ -عَزَّوَجَلَّ- يقُولُ: [وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ] سورَةُ البَقَرَةِ. (كَانَ) هُنَا تَامَّةٌ وَ(ذُو) فاعِلٌ مَرفُوعٌ بالوَاوِ لأَنَّهُ مِنَ الأسمَاءِ الخَمْسَةِ حَسَبَ أهلِ اللُّغَةِ.

بعدَ ذلِكَ الِاستِعْرَاضِ السَّرِيعِ مِنْ كِتابِ اللهِ تعَالَى -خيرِ الكَلامِ وَأحْسَنِهِ- هَلْ لنَا أَنْ نَعرفَ الفَرْقَ بينَ الفِعلِ التَّامِّ وَالنَّاقِصِ؟. وَهُنا قَدْ نجِدُ مَنْ يَقُولُ: مَهْلًا فهذَا شُذوذٌ؛ وَلِكُلِّ قاعِدَةٍ شُذُوذُها، وَأنَا أقولُ لَهُ: هذَا خُرُوجٌ صَرِيحٌ يَا سَيِّدِ وَليسَ شُذُوذًا -شِئْتَ أَمْ أبيتَ-». ص: (٣١).

أَقُولُ: إِنَّ اللِّسَانَ يَتَلَعْثَمُ أحيَانًا عِنْدَ مَا تَرَى الشَّخْصَ يَتجَاهَلُ وَيَتَحَمَّسُ للبَاطِلِ وَيَتَعَصَّبُ عَلَى الحَقِّ وَيَقِفُ ضِدَّهُ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُعرِبَ عَمَّا بِدَاخِلِهِ استِعْظَامًا لِهَوْلِ الخَطْبِ، وَوُعُورَةِ الدَّرْبِ، وَرُعُونَةِ طَبْعِ الـمُخَالِفِ وَخُشُونَتِهِ!

لَا أدرِي أيْنَ أبْدَأُ وَمَاذَا أقُولُ تُجَاهَ شَخْصٍ يَعرِفُ جَيِّدًا، أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ وَالكَلامَ العَرَبِيَّ الفَصِيحَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الفِعْلِ لَهُ اسمٌ مَرْفُوعٌ وَخَبَرٌ مَنْصُوبٌ، وَهُوَ يُسَمَّى بالأَفْعَالِ النَّاقِصَةِ، وَيَعرِفُ جَيِّدًا أنَّ بَعْضًا مِنْ هذِهِ الأَفعَالِ تَأتِي أحيَانًا تَامَّةً فِي العَرَبِيَّةِ، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي هذِهِ الآيَاتِ القُرآنِيَّةِ وَمِثْلِهَا.

وَالجَوابُ يَكُونُ مِنْ جِهَتَيْنِ، جَهَةِ سُؤالٍ وَاستِفْسَارٍ، وَجِهَةِ مُعَارَضَةٍ وَتَحَدٍّ لِلمُعَارِضِ:

أمَّا السُّؤالُ وَالِاستِفسَارُ فَهُوَ: أنَّ هذِهِ الآيَاتِ القُرآنِيَّةَ وَبَعْضًا مِنَ الشَّوَاهِدِ الشِّعْرِيَّةِ الَّتِي أَغْفَلَهَا أوزونُ وَلَم يُورِدْ وَاحِدًا مِنهَا، ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ اللُّغَةِ وَأربَابُ النَّحْوِ فِي كُتُبِهِم وَلَم يَكُونُوا غَافِلِينَ عَنْهَا، أَيُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ هؤلاءِ العُلَمَاءُ جَمِيعًا مَعَ كَثْرَةِ اشتِغَالِهِم بِمَسَائِلِ النَّحْوِ وَالتَّضَلُّعِ فِيهَا، وَرُدُودِ بَعضِهِم عَلَى بَعضٍ وَعَدَمِ سُكُوتِهِم عَمَّا رَأَوهُ خَطَأً، وَلَوْ كَانَ القَائِلُ الخَلِيلَ بنَ أَحمدَ، أَوْ: سِيبَوَيْهِ، كَمَا أَثْبَتْنَا ذلِك بِأدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ فِيمَا مَضَى-، تَرَكُوا عُقُولَهُم وَنَبَذُوهَا وَلَمْ يُعمِلُوهَا لِيَظْفَرُوا بِمَا ظَفرَ بِه مُهَنْدِسٌ فِي عَصرِنَا؟ أَمِثلُ هذَا مَنطِقِيٌّ مَعقُولٌ يَا سَادَةُ؟

كَلَّا لَم يَكُنِ الأمرُ كذلِكَ ولكِنَّ الـمُشكِلَةَ كَامِنَةٌ فِي صَاحِبِ الجِنَايَةِ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى وَأَرْشَدَهُ الرُّشْدَ.

أمَّا جِهَةُ مُعَارَضَةٍ وَتَحَدٍّ، فَهِيَ: أَنَّنَا نطلُبُ مِنْ صَاحِبِ الجِنَايَةِ أَنْ يأتِيَ بِكَلامٍ وَاحِدٍ فَصِيحٍ عَلَى أنَّ الأفْعَالَ الَّتِي ذَكَرَ العُلَمَاءُ أنَّهَا لَا تَأتِي تَامَّةً، أَتَتْ تَامَّةً بِخِلافِ مَقَالِهِم[1]، وَيُثْبِتَ أنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ خِلافُ قَوَاعِدِ النَّحْوِ، حَتَّى نَقُولَ بِقَوْلِهِ وَنَتَّبِعَهُ فِي كَلامِهِ، فَهُوَ فِي فُسحَةٍ مِنَ البَحْثِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ أَنْ يَجِدَ دَلِيلًا وَاحِدًا، أَوْ: نِصْفَ دَلِيلٍ، أَوِ: احتِمَالًا ضَعِيفًا عَلَى كَلامِهِ.

---

(١) معلُومٌ أنَّ العُلَمَاءَ قَسَّمُوا هذِهِ الأَفْعَالَ النَّاقِصَةَ، إِلَى مَا يأتِي تَامًّا أحيَانًا، وَمِنهَا مَا لَا يأتِي إِلَّا نَاقِصًا كَـ: (لَيْسَ، مَا فَتِئَ، مَا بَرِحَ). قَالَ ابنُ مَالِكٍ: [مِنَ الرَّجَزِ]

وَمَنْعُ سَبْقِ خَبَرٍ لَيْسَ اصْطُفِي ... وَذُو تَمَامٍ مَا بِرَفْعٍ يَكْتَفِي
وَمَا سِوَاهُ نَاقِصٌ والنَّقْصُ فِي ... فَتِئَ لَيْسَ زَالَ دَائِمًا قُفِي

وَنَحْنُ نُكَرِّرُ دَائِمًا وَنَقُولُ: إِنَّ النَّحْوَ مَبْنِيٌّ عَلَى القُرآنِ الكَرِيْمِ وَفَصِيْحِ كَلامِ العَرَبِ، وَإِنَّكَ لَا تَجِدُ مُخَالَفَةً بَيْنَ قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَآيَاتِ القُرآنِ الكَرِيْمِ، فَإِذَا وُجِدَ فِي النَّحْوِ مَا يُخَالِفُ القُرآنَ الكَرِيْمَ لَا شَكَّ أَنَّ العُلَمَاءَ رَدّوهُ قَبْلَ ولَادَةِ الـمُهَنْدسِ بِعُصُورٍ وَلَمْ يَسكُتُوا، وَلكِنَّ الـمُهَنْدِسَ يَتَشَاغَبُ وَيَتَعَنَّتُ وَيَتَزَمَّتُ صَرَاحَةً.

ثُمَّ استَمَرَّ وَقَالَ بِنَاءً عَلَى مُقَدِّمَاتِهِ الخَاطِئَةِ: «وَإِنَّهُ لَيَستَوِي عِنْدِي إِذَا قُلْتُ:

كَانَ أحمدُ فَائِزًا.

أَوْ: قُلتُ: كَانَ أَحمدَ فَائِزٌ.

أَوْ: قُلْتُ: كَانَ أَحْمَدُ فَائِزٍ.

أَوْ: قُلْتُ: كَانَ أَحمَدْ فَائِزْ.

فَالـمطلُوبُ وَالـمَدلُولُ وَصَلَ إِلَى العَقْلِ وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى رَفْعٍ أَوْ: نَصْبٍ، أَوْ: جَرِّ الأَسْمَاءِ لأفهَمَ مَا أُرِيدُ، وَهو مَا يَحْدُثُ فِعْلًا فِي حِوَارِنَا بِاللَّهْجَةِ العَامِّيَّةِ». ص:(٣٢).

أَقُولُ: لَا تَعلِيقَ لِي هُنا عَلَى هذَا الكَلامِ غَيرِ الـمَنْطِقِيِّ الـمِعْوَجِ، وَسَوْفَ أُنَاقِشُهُ بِإِذنِ اللهِ تَعَالَى وَأُخَصِّصُ فَصْلًا مُستَقِلًّا لِضَرُورَةِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، كَمَا أَتَنَاوَلُ تَأثِيرَ هذِهِ الحَرَكَاتِ عَلَى فَهْمِ النُّصُوصِ فِي أَحَايِينَ كَثِيرَةٍ، وَبَعْدَ ذلِكَ أَترُكُ لَكُمُ الحُكمَ وَالِاختِيَارَ وَالقَرَارَ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الـمُوَفِّقُ.

ثُمَّ يَقُولُ: «أخيرًا: لا بُدَّ مِنْ أَنْ نَذكُرَ هُنَا أَنَّ (كَانَ) يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً. نَعَمْ زَائِدَة، لا تَامَّةً وَلَا نَاقِصَةً، بَلْ: زَائِدَة، وَمِثالُ ذلِكَ قَولُكَ: (مَا كَانَ أجمَلَ الرَّبِيعَ!).

كَانَ هُنَا تُعرَبُ زَائِدَةً، فَتَأَمَلْ عَزِيزِي القَارِئُ ذلِكَ وَلاحِظْ غِيَابَ مَفْهُومِ الزَّمَنِ فِي قَوَاعِدِ النَّحْوِ عِنْدَنَا». ص: (٣٢).

أَقُولُ: إِنَّ مَعْنَى الزَّائِدَةِ لَيسَ كَمَا ذَهَبَ إِليهِ الـمُهَنْدِسُ؛ لأَنَّ مَعْنَى الزِّيَادَةِ عِندَ عُلَماءِ النَّحْوِ غيرُ الـمَعْنَى الَّذِي تَعَارَفَ عليهِ العَامَّةُ، وَهذَا سَيأتِي مَعَنَا بيَانُهُ إِنْ شَاءَ الـمَوْلَى -عَزَّوَجَلَّ-، أَمَّا مِنْ هُنَا فَأَرَادَ النَّحوِيُّونَ مِنَ الزِّيَادَةِ أَنَّ الجُمْلَةَ سَلِيمَةٌ بِدُونِ (كَانَ)، إِذَا قُلْتَ: (مَا أَجْمَلَ السَّمَاءَ!)، بَدَلًا مِنْ (مَا كَانَ أَجْمَلَ السَّمَاءَ!)، وَلكِنَّ (كَانَ) جَاءَتْ لِمَعْنًى زَائِدٍ وَهُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى الـمَاضِي، أَوْ: للتَّأْكِيدِ أَحيَانًا، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ لَمْ تَعْمَلْ كَانَ عَمَلَهَا فَلِذلِكَ سُمِّيَتْ زَائِدَةً[(١)].

وَقَدْ أَشَارَ الرَّضِيُّ إِلَى ذلِكَ فَقَالَ: «وَأَمَّا إِذَا دَلَّتْ (كَانَ) عَلَى الزَّمَانِ الـمَاضِي وَلَمْ تَعْمَلْ، نَحْوُ: (مَا كَانَ أَحْسَنَ زَيْدًا)، وَكَذَا قَوْلُهُمْ: (إِنَّ مِنْ أَفْضَلِهِمْ كَانَ زَيْدًا)، فَهِيَ زَائِدَةٌ عِنْدَ سِيبَوَيْهِ..فَفِي تَسْمِيَتِهَا (زَائِدَةً)، نَظَرٌ، لِـمَا ذَكَرْنَا: أَنَّ الزَّائِدَ مِنَ الكَلِمِ عِنْدَهُمْ، لَا يُفِيدُ إِلَّا مَحْضَ التَّأْكِيدِ، فَالأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: سُمِّيَتْ زَائِدَةً مَجَازًا، لِعَدَمِ عَمَلِهَا، وَإِنَّمَا جَازَ أَلَّا تُعْمِلَهَا مَعَ أَنَّهَا غَيْرُ زَائِدَةٍ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ، لِدَلَالَتِهَا عَلَى الحَدَثِ الـمُطْلَقِ، الَّذِي كَانَ الحَدَثُ الـمُقَيَّدُ فِي الخَبَرِ يُغْنِي عَنْهُ، لَا لِدَلَالَتِهَا عَلَى زَمَنٍ مَاضٍ؛ لِأَنَّ الفِعْلَ إِنَّمَا يَطْلُبُ الفَاعِلَ وَالـمَفْعُولَ لِـمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الحَدَثِ، لَا لِلزَّمَانِ، فَجَازَ لَكَ أَنْ تُجَرِّدَهَا فِي بَعْضِ الـمَوَاضِعِ عَنْ ذلِكَ الحَدَثِ الـمُطْلَقِ، لِإِغْنَاءِ الخَبَرِ عَنْهُ فَإِذَا جَرَّدْتَهَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا الزَّمَانُ، وَهُوَ لَا يَطْلُبُ مَرْفُوعًا وَلَا مَنْصُوبًا، فَبَقِيَ

---

(١) وَقَدْ أَنْكَرَ بَعضُ العُلَمَاءِ أَنْ تَكُونَ كَانَ هُنَا زَائِدَةً كَالسِّيْرَافِيِّ مَثَلًا، يُنْظَرُ: شَرْحُ الـمُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيشَ (٤/ ٤٢٣).

كَالظَّرْفِ دَالًّا عَلَى الزَّمَانِ فَقطْ»[١].

وَقَالَ أيضًا: «وَفَائِدَةُ الفَصْل بِـ(كَانَ) فِي نَحْوِ: (مَا كَانَ أَحْسَنَ زَيْدًا): أَنَّهُ كَانَ فِي الـمَاضِي حُسْنٌ وَاقِعٌ دَائِمٌ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَّصِلْ بِزَمَانِ التَّكَلُّمِ، بَلْ: كَانَ دَائِمًا قَبْلَهُ»[٢].

أمَّا الِاستِهْزَاءُ بأنَّ تِلْكَ الجُمْلَةَ لَيس فِيهَا دَلالَةُ الزَّمنِ، فَمُزْرٍ بِهِ تَمامًا وَمُظْهِرٌ لِعَدَم مَعْرِفَتِهِ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَبِمَدلُولَاتِها مِنْ جِهَةٍ، وَبِأقوَالِ العُلَمَاءِ مِنْ جِهَةٍ أُخرَى؛ لأنَّ التَّعَجُّب لَهُ دَلَالَةٌ يَدُلُّ عَلَى زَمَنٍ بمَدلُولِهِ، إِذْ أنتَ لَا تَتعجَّبُ إِلَّا إِذَا رأَيْتَ مَا يُثِيرُ الإِعْجَابَ فِيكَ فِي الحَالِ، فَمَثَلًا لَوْ قُلْتَ: (مَا أَجْمَلَ العِرَاقَ)، فَيكُونُ للحَالِ، أَوْ: للمَاضِي الـمُتَّصِلِ بِالحَالِ، وَإِذَا أَرَدْتَ التَّعَجُّبَ فِي الـمَاضِي زِدْتَ (كَانَ)، كَقَوْلِكَ: (مَا كَانَ أَجْمَلَ الشَّامَ!)، وَإِذَا أَرَدْتَ الـمُسْتَقْبَلَ زِدْتَ قَرِينَةَ الِاستِقْبَالِ، كَقَوْلِكَ: (مَا أَجْمَلَ مِصْرَ غَدًا!).

قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ (مريم).

فَقَوْلُهُ: [يَوْمَ يَأْتُونَنَا]، قَرِينَةٌ تَجعَلُ الـمَعْنَى للمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ تَكَلَّمَ أَهْلُ العِلْمِ عَنْ هذَا وَبيَّنُوهُ وَعَلَى رَأسِهِم الإِمَامُ العَلَمُ سِيبَوَيهِ الَّذِي لَم يَقْرَأْ لَهُ صاحِبُنَا أوزونُ وَكَتَبَ فِي نَقْدِهِ، قَالَ الإِمَامُ فِي الكِتَابِ: «وَتَقُولُ: (مَا كَانَ أَحْسَنَ زَيْدًا)، فَتَذْكُرُ (كَانَ)، لِتَدُلَّ أَنَّهُ فِيمَا مَضَى»[٣]. وَبِمِثْلِهِ قَالَ ابنُ السَّرَّاجِ[١]، وَنُقِلَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ[٢]، وَقَالَهُ

---

(١) شَرْحُ الكَافِيَةِ للرَّضِي (٤/ ١٩٢)، يُنْظَرُ أيضًا: شَرْحُ قَوَاعِدِ الإعرابِ لِشَيْخ زَادَهْ (ص٢٠).
(٢) شَرْحُ الكَافِيَةِ للرَّضِي (٤/ ٢٣٣).
(٣) الكِتابُ لِسِيبَوَيْهِ (١/ ٧٣).

الزَّمَخْشَرِيُّ[٣]، وَابنُ يَعِيشَ[٤]، وَابنُ مَالِكٍ[٥]، وَغيرُهم.

وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَامُ أَبُو البَقَاءِ العُكبرِيُّ شَيئًا مِنْ تَعَلُّقِهِ بالزَّمَنِ فقَالَ: «لَا يكُونُ التَّعَجُّبُ إلَّا مِنْ وَصْفٍ مَوْجُودٍ فِي حَالِ التَّعَجُّبِ مِنْهُ، ولذَلِك كَانَتِ الصِّيغَةُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ صِيغَةَ الْمَاضِي؛ لأنَّ فِعْلَ الْحَالِ لَا يَتكَامَلُ حَتَّى يَنْتَهِيَ وَالـمُستقبَلُ مَعْدُومٌ، فَأَمَّا قَوْلُهُم: (مَا أَطْوَلَ مَا يَخْرُجُ هَذَا الْغُلَام)، فَجَازَ؛ لأنَّ أَمَارَاتِ طُولِهِ فِي الْـمُسْتَقْبَلِ مَوجُودَةٌ فِي الْحَالِ»[٦].

أَمَّا الكَلَامُ عَنِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ وَمَوَاقِعِهَا فِي الكَلامِ، وَضَرُورَةِ وَضْعِهَا فِي مَوْضِعِهَا فقَدْ يأْتِي مَعَنَا مُفَصَّلًا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَلَا أَدرِي مَاذَا يَكُونُ مَوْقِفُ صَاحِبِ الجِنَايَةِ بَعْدَ دَحْضِ مَقَالَتِهِ بِالحُجَّةِ وَالبُرْهَانِ، فَلَعَلَّهُ يَرجِعُ عنهَا وَيَتُوبُ، وَهذَا خَيرٌ لَهُ، ولَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَرْجِعَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَفَطَّنُ لِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ وَمَا أَوْقَعَهُ فِيهِ نَفْسُهُ، حَتَّى يُرَاجِعَ حَالَهُ وَيَعْرِفَ مَآلَهُ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَيـا لَيتَـهُ جَهـلٌ بَسـيطٌ بِـهِ نَشَـا ... وَلَكِنَّـهُ جَهـلٌ جَسِـيمٌ مُرَكَّـبُ

---

(١) الأُصُولُ فِي النَّحوِ (١/ ١٠٦)، (٢/ ٢٥٨).

(٢) اللُّبَابُ فِي عِلَلِ البِنَاءِ وَالإِعْرَابِ للعُكبرِيِّ (١/ ٢٠٤).

(٣) الـمُفصَّلُ للزَّمَخشَرِيِّ (ص٣٦٨).

(٤) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيشَ (٤/ ٤٢٣).

(٥) شَرْحُ الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ لِابنِ مَالِكٍ (٢/ ١٠٩٩).

(٦) اللُّبَابُ فِي عِلَلِ البِنَاءِ وَالإِعْرَابِ للعُكبرِيِّ (١/ ١٩٩).

وَرَحِمَ اللهُ الخَلِيلَ لَـمَّا قَالَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

إِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي وَلَم تَكُ كَالَّذِي ... يُشَاوِرُ مَنْ يَدْرِي فَكَيفَ إِذًا تَدْرِي

جَهِلْتَ فَلَم تَدْرِ بِأَنَّكَ جَاهِلٌ ... وَأَنَّكَ لَا تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي

وَمِنْ أَعْظَمِ البَلْوَى بِأَنَّكَ جَاهِلٌ ... فَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لَا تَدْرِي

رُبَّ امْرِىءٍ يَجْرِي وَيَدْرِي بِأَنَّهُ ... إِذَا كَانَ لَا يَدْرِي جَهُولٌ بِمَا يَجْرِي

الحُرُوفُ الـمُشَبَّهَةُ بالفعْل، وَجنَايَةُ الـمُؤلِّف

ثُمَّ استعَارَ الكَاتِبُ قَلَمَ الخِيانَةِ وَالعُقُوقِ مَرَةً أُخرى، وَتَطَرَّقَ إِلَى بَحثٍ آخرَ، وَهُوَ الكَلامُ عَنِ الحُرُوفِ الـمُشَبَّهَةِ بالفِعْلِ، وَقالَ عَنْها: «هِيَ أدَوَاتٌ تدخلُ على الـمُبتدَإِ والخَبرِ، فَتنصِبُ الأَوَّلَ ويُسَمَّى اسمَهَا، وَتَرْفَعُ الخَبَرَ وَيُسمَّى خَبرَهَا، وَتَشمَلُ (إنَّ) وَأخواتِهَا، وهنَا نعترضُ -كَمَا رأينَا- على التَّسمِيَةِ أصلًا، فـ(إنَّ) ليستْ حرفًا أصلًا، بَلْ: ثَلاثَة حُروفٍ، وَ(لكِنَّ) أربَعَةُ أحرُفٍ، وهكذَا. فَهِيَ كَمَا ذَكَرْنَا سَابقًا أدواتٌ. ولكِنْ كيفَ تُشَبَّهُ بالفِعْلِ؟ كيفَ لأدَاتٍ أَنْ تُشْبِهَ، أَوْ: أَنْ تَنُوبَ، أَوْ: أَنْ تُصْبِحَ فِعلًا؟

هُنا نعودُ لِنَرَى كيفَ أنَّ حَرَكَةَ نِهايَةِ الكَلِمَاتِ هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَحكُمُ سِيبَوَيْهِ وَغيرَهُ مِنَ الـمُقلِّدِينَ -وليسَ الـمَفهُومِ الصَّحيحِ وَالـمَنْطِقِيِّ- فَـ(إنَّ) تُشْبِهُ الفِعْلَ لأَنَّهَا نَصبَتِ الإسمَ بَعْدَهَا، تَمَامًا كمَا يفعَلُ الفِعْلُ المتعَدِّي الَّذِي يَنصِبُ الـمَفعُولَ بِهِ (الإسمَ) بَعْدَهُ، لِذلِكَ جَعلُوا (إِنَّ) وَأَخواتِهَا أحرُفًا مُشبَّهَةً بالفِعلِ، وَشتَّانَ بينَ أداةٍ لَا مَعْنَى لَهَا بِمُفْرَدِهَا، وَبينَ فِعْلٍ يَدُلُّ عَلَى حَدَثٍ مُعَيَّنٍ فِي زَمَنٍ مُعيَّنٍ». ص: (٣٢-٣٣).

أقُولُ: إنَّ هذِهِ الأَحْرُوف تُشْبِهُ الفِعْلَ مِنْ جِهاتٍ شَتَّى وَلَيْسَ كَمَا أوهمَ أوزونُ وَجَرَمَ، فَهذَا هُوَ الإِمَامُ ابنُ الأنبَارِيِّ يُعَدِّدُ لَنَا أُوجُهًا خَمْسَةً إِذْ قَالَ: «إنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَ أُعْمِلَتْ هذِهِ الأَحْرُفُ؟ قِيْلَ: لِأَنَّهَا أَشْبَهَتِ الفِعلَ، وَوَجْهُ الشَّبهِ بَيْنَهُمَا مِنْ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنَّها مَبْنِيَّةٌ عَلَى الفَتْحِ، كَمَا أنَّ الفِعْلَ الـمَاضِيَ مَبْنِيٌّ عَلَى الفَتْحِ.

وَالوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهَا عَلَى ثَلاثَةِ أَحْرُفٍ، كَمَا أنَّ الفِعْلَ عَلَى ثَلاثَةِ أَحْرُفٍ.

وَالوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّهَا تَلْزَمُ الأَسْمَاءَ، كَمَا أَنَّ الفِعْلَ يَلْزَمُ الأَسْمَاءَ.

وَالوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّهَا تَدْخُلُ عَلَيْهَا نُونُ الوِقَايَةِ، كَمَا تَدْخُلُ عَلَى الفِعْلِ؛ نَحْوُ: (إِنَّنِي)، وَ(كَأَنَّنِي)، وَ(لكِنَّنِي).

وَالوَجْهُ الخَامِسُ: أَنَّ فِيْهَا مَعَانِيَ الأَفْعَالِ، فَمَعْنَى (إِنَّ وَأَنَّ): حَقَّقْتُ، وَمَعْنَى (كَأَنَّ): شَبَّهْتُ، وَمَعْنَى (لكِنَّ): اسْتَدْرَكْتُ، وَمَعْنَى (لَيْتَ): تَمَنَّيْتُ، وَمَعْنَى (لَعَلَّ): تَرَجَّيْتُ.

فَلَمَّا أَشْبَهَتْ هذِهِ الحُرُوفُ الفِعْلَ مِنْ هذهِ الأَوْجُهِ الخَمْسَةِ؛ وَجَبَ أَنْ تَعْمَلَ عَمَلَهُ»[1].

وَيُمْكِنُ أَنْ نَزِيدَ فِيْهَا وَنَقُولَ:

الوَجْهُ السَّادِسُ: تَتَّصِلُ بِهَا الضَّمَائِرُ كَمَا تَتَّصِلُ بالأَفْعَالِ، نَحْوُ: (إِنَّهُ، وَكَأَنَّهُ)، وَفِي الأفعَالِ: (كَتَبَهُ، وَقَالَهُ).

الوَجْهُ السَّابِعُ: أَنَّ هذِهِ الحُرُوفَ عَلَى أَوْزَانِ الفِعْلِ.

الوَجْهُ الثَّامِنُ: شَابَهَتِ الفِعْلَ فِي اقْتِضَاءِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ[2].

وَلَا أَدْرِي بَعْدَ هذَا مَاذَا يَكونُ مَوْقِفُ الـمُعترِضِ؟!

---

(١) أَسْرَارُ العَربيَّةِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص١٢٢). يُنْظَرُ أيضًا: شَرْحُ الرّضِيِّ عَلَى الكَافِيَةِ (٤/ ٣٣٠).

(٢) هذَا ذَكَرَهُ ابنُ شاهنساه، فِي: (الكُنَّاش فِي فَنَّي النَّحْوِ والصَّرْفِ) (٢/ ٩٠)، كما ذَكَرَهُ غَيرُهُ.

النَّفْيُ بـ(إِنِ)، الـمُخَفَّفَةِ:

ثُمَّ يَقُولُ الكَاتِبُ عاقًّا غَيْرَ بَارٍّ: «وَالـمُضْحِكُ أنَّ (إن) إِذَا كَانَتْ مُخَفَّفَةً بَطل عَمَلُهَا وَأَصْبَحَتْ حَرْفَ نَفْيٍ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَإِنْ كُلٌّ لَـمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ] سُورَةُ يس». ص: (٣٣).

أقُولُ: إنَّ الجَهْلَ مُزْرٍ بالإِنسَانِ وَيُرْهِقُهُ لَهْفَةً إِذْ يُوقِعُ صَاحِبَهُ مَوَاقِعَ لَا تُحْمَدُ، فَيَمْتَعِضُ أَسَفًا، وَيَجْعَلُهُ نَادِمًا سَادِمًا، فالـمُهندِسُ لَو سَكَتَ لَم يعرِفْ واحِدٌ كيفَ مُستَواهُ وَمَاذَا يَعرِفُ وَمَاذَا يَجْهَلُ، وكانَ مِنْ قَبْلُ مَستُورَ الحَالِ لَا يُعْرَفُ بِفَضْلِ سُكُوْتِهِ، وَلكِنَّهُ هَتَكَ السِّتْرَ وَكَشَفَ عَوَارِيَهُ بِسَبَبِ لِسَانِهِ وَقَلَمِهِ، لَيتَهُ اختَارَ السُّكُوتَ وَلَم يَدْخُلْ قَعْرَ بِحَارِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ دونَ سِبَاحَةِ البَحْثِ وَالتَّحْقِيقِ، وَلكِنْ لَم يَرْضَ إلَّا بذلِكَ، فَلِذلِكَ نُصَحِّحُ لَهُ وَنَقُولُ: يا مُهَنْدِسُ إِنَّ كَثيرًا مِنْ حُرُوفِ العَرَبِيَّةِ لَهَا مَوَاقِعُ وَفِي كُلِّ مَوْقِعٍ لَهَا عَمَلٌ خَاصٌّ، فَمِنْ هذِهِ الحُرُوفِ حَرْفُ (إِنْ) حَيثُ ذَكَرَ العُلَمَاءُ مَوَاقِعَهَا فِي الكَلامِ وَبَيَّنُوهَا:

قَالَ إِمَامُ الفَنِّ سِيبَوَيْهِ: «وَأَمَّا (إِنْ) فَتكُونُ للمُجَازَاةِ، وَتَكُونُ أَنْ يُبْتَدَأَ مَا بَعْدَهَا فِي مَعْنَى اليَمِينِ، وَفِي اليَمِينِ، كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَـمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ] [وَإِنْ كُلٌّ لَـمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ].

وَحَدَّثِنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الـمَدِينَةِ مَوْثُوقٍ بِهِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَرَبِيًّا يَتَكَلَّمُ بِمِثْلِ قَوْلِكَ: (إِنْ زَيدٌ لَذَاهِبٌ)، وَهِيَ الَّتِي فِي قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: [وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِيْنَ] وَهذِهِ (إِنَّ) مَحْذُوفَةٌ.

وَتكُونُ فِي مَعْنَى (مَا). قَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [إِنِ الكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ]، أَيْ: مَا الكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ.

وَتَصْرِفُ الكَلامَ إِلَى الاِبْتِدَاءِ، كَمَا صَرَفَتْهَا (مَا) إِلَى الاِبْتِدَاءِ فِي قَوْلِكَ: (إنمَّا)، وَذلِكَ قَوْلُكَ: (مَا إِنْ زَيْدٌ ذَاهِبٌ). وَقَالَ فَرْوَةُ بْنُ مُسَيْكٍ:

[مِنَ الوَافِرِ]

وَمَـــا إِنْ طِبُّنَـــا جُـــبْنٌ وَلَكِـــنْ مَنَايَانَـــا وَدَوْلَـــةُ آخَرِيْنَـــا[1]

وَقَدْ عَدَّدَ الرُّمَّانِيُّ أنوَاعَهَا فَقَالَ: «وَإِنِ الـمُخَفَّفَةُ الـمَكْسُورَةُ الأَلفِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

الْجَزَاءُ: نَحْوُ قَوْلِكَ: (إِنْ تَأْتِنِي أُكْرِمْكَ)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ]، وَقَولُهُ تَعالَى أَيْضًا: [وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ]

وَالجَحْدُ[2]: نَحْو قَوْلِهِ تَعَالَى: [إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ] بِمَعْنَى: مَا الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ، وَتقُولُ: (إِنْ أَتَيْتَنِي) بِمَعْنى: وَاللهِ مَا أَتَيْتَنِي.

وَمُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَإِنْ كُلٌّ لَـمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ] تَلْزَمُهَا اللَّامُ فِي الْخَبَرِ لِئَلَّا تَلْتَبِسَ بِـ(إِن) الَّتِي للجَحْدِ فَتقولُ: (إِنْ زَيْدًا لَقَائِمٌ) فَتَكُونُ إِيجَابًا فَإِنْ قُلْتَ: (إِنْ زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ نَفْيًا.

---

(١) الكِتَابُ لِسِيبَوَيهِ (٣/ ١٥٣).

(٢) هذَا مَا أَسْمَاهُ ابنُ هِشَامٍ (النَّافِيَة)، يُنْظَرُ: مُغْنِي اللَّبِيبِ لِابنِ هِشَامٍ (ص٣٣).

وَزَائِدَةٌ: نَحو قَولِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الوَافِرِ]

وَمَـــا إِنْ طِبُّنَـــا جُـــبْنٌ وَلَكِـــنْ مَنَايَانَـــا وَدَوْلَـــةُ آخَرِيْنَـــا

وَتقُولُ: (مَا إِنْ فِي الدَّارِ أَحَدٌ) بِمعْنَى: مَا فِي الدَّار أحدٌ، فَهَذِهِ زَائِدَةٌ عَلَى التَّوْكِيدِ»[(١)].

وَقَدْ ذَكَرَ ابنُ هِشَام (إِنِ) الشَّرْطِيَّةَ فقَالَ: «تكونُ شَرْطِيَّةً، نَحْوُ: [إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ]، [وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ]. وَقَدْ تَقْتَرِنُ بِـ(لَا) النَّافِيَةِ فيَظُنُّ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ أَنَّهَا (إِلَّا) الِاستِثْنَائِيَّةُ»[(٢)].

وَأمَّا القِسْمُ الَّذِي ذَكَرَهُ صَاحِبُ الجِنَايَةِ (الـمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ)، فَقَدْ يَجُوزُ إِعْمَالُهَا وَإِهْمَالُهَا، وَالوَجْهَانِ جَاءَا فِي فَصِيحِ كَلامِ العَرَبِ، كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ هِشَامٍ قَائِلًا: «تَكُونُ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ فَتَدْخُلُ عَلَى الجُمْلَتَيْنِ فَإِنْ دَخَلَتْ عَلَى الِاسْمِيَّةِ جَازَ إِعْمَالُهَا خِلَافًا للكُوفِيِّينَ، لَنَا قِرَاءَةُ الحِرْمِيِّيْنِ[(٣)] وَأبِي بَكْرٍ [وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ]، وَحِكَايَةُ سِيبَوَيْهِ: (إِنْ عَمْرًا لَـمُنْطَلِقٌ)، وَيكْثُرُ إِهْمَالُهَا نَحْو: [وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]، [وَإِنْ كُلٌّ لَـمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ]، وَقِرَاءَةُ حَفْصٍ: [إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ] وَكَذَا قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ شَدَّدَ نُونَ (هَذَانِ) وَمِنْ ذَلِكَ: [إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَـمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ] فِي قِرَاءَةِ مَنْ خَفَّفَ (لَـمَا) وَإِنْ دَخَلَتْ عَلَى الْفِعْلِ أُهْمِلَتْ وُجُوبًا، وَالأَكْثَرُ كَونُ الْفِعْلِ مَاضِيًا نَاسِخًا نَحْوُ: [وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً]، [وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ]، [وَإِنْ

---

(١) مَنَازِلُ الحُرُوفِ لِلرُّمَّانِيِّ (ص٤٧-٤٨).

(٢) مُغْنِي اللَّبِيبِ لِابنِ هِشَامٍ (ص٣٣).

(٣) بِكَسْرِ الحَاءِ، نِسْبَةً إِلَى الحَرَمَيْنِ، يُقْصَدُ بِهِمَا: ابْنُ كَثِيرٍ الـمَكِّيُّ، وَنَافِعٌ الـمَدَنِيُّ مِنَ القُرَّاءِ.

وَجَدْنَا أَكْثَرَهُم لَفَاسِقِينَ]، وَدُوْنَهُ أَنْ يَكُونَ مُضَارِعًا نَاسِخًا نَحْوُ: [وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ]، [وَإِنْ نَّظُنُّكَ لَـمِنَ الْكَاذِبِينَ] وَيُقَاسُ عَلَى النَّوْعَيْنِ اتِّفَاقًا»[(1)].

إِعْمَالُ (أَنِ) الـمُخَفَّفَةِ مِنْ (أَنَّ):

ثُمَّ بَعْدَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كلامِهِ وَرَدَدْنَا عليهِ، يأتِي بِتَلفِيقٍ وَخِيَانَةٍ حَيثُ يُخَلِّطُ بينَ (إِنْ) وَ(أَنْ)، وَلَا أَدرِي أَفَعَلَ هذَا عَمْدًا، أَمْ: جَهْلًا مِنْهُ، وَيقُولُ: «فَـ(إِنْ) هُنَا لَيسَتْ حَرفًا مُشَبَّهًا بالفِعْلِ وَلكِنَّهَا (إِن الـمُخَفَّفَة) تَصحُو مِنْ جَدِيدٍ وَتَعْمَلُ عَمَلَ (إِنَّ) الـمُشَدَدَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [عَلِمَ أَنْ سَيكُونُ مِنكُمْ مَرْضَى] سُورَةُ الـمُزَّمِلِ. تأمَّلِ الإِعرابَ هُنَا:

أَنْ: حَرفٌ مُشَبَّهٌ بالفِعْلِ وَاسمُهَا ضَميرُ الشَّأنِ مَحذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: (أَنَّهُ)، وَجُملَةُ (سَيكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى) فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرُ (أن).

تأمَّلِ الفَرْقَ بينَ الآيةِ الكَريمَةِ وَبينَ وَهمِ النُّحَاةِ، فهلْ تَستَوِي العِبَارَةُ (عَلِمَ أَنَّهُ سَيكُونُ منكُمْ مَرْضَى) عندَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- مَعَ الآيةِ الكَرِيمَةِ السَّابِقَةِ؟ أَرجُوكُم أَيُّهَا النُّحَاةُ كَفَاكُمْ تَخرِيجَاتٍ مُحْرِجَةً وَحَكِّمُوا العَقْلَ لِتَصِلُوا بِقَوَاعِدِ لُغَتِكُم إِلَى بَرِّ السَّلامِ وَالأَمَانِ». ص: (٣٣).

أَقُولُ: إِنَّ كَلامَ الـمُهَندِسِ يُنْبِئُ عَنْ جَهْلِهِ بالعَرَبِيَّةِ وَأَسَالِيبِهَا وَكَلامِ الفُصَحَاءِ بِهَا، وَإِلَّا لَم يَخْفَ عليهِ هذَا الأَمْرُ وَلَم يأتِ بهذَا العَجِيبِ مِنَ القَوْلِ، وَعِلَاوَةً عَلَى هذَا

---

(١) مُغْنِي اللَّبِيبِ لِابنِ هِشَامٍ (ص٣٦-٣٧)، وَانظُرْ أيضًا: شَرْحَ كِتَابِ سِيْبَوَيهِ للسيرَافِيِّ (٢/ ٤٦٧)، شَرْحَ الـمُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيشَ (٤/ ٥٤٥)، وَشَرْحَ التَّسْهِيلِ لِابنِ مَالِكٍ (٢/ ٣٣)، وَتَمْهِيدَ القَوَاعِدِ بِشَرْحِ تَسْهِيلِ الفَوَائِدِ لِنَاظِرِ الجَيْشِ (٣/ ١٣٥٩)، وَشَرْحَ الـمُقَدِّمَةِ الـمُحْسِبَةِ لِابْنِ بَابشَاذ (١/ ٢٥٦)، وَالـمَقَاصِدَ الشَّافِيَةَ لِلشَّاطِبِيِّ (٢/ ٣٨٥).

نَجِدُهُ يُخَلِّطُ بينَ (أنْ) وَ(إنْ)، مَعَ أنَّ بينَهُما فَرْقًا وَاسِعًا وَبَوْنًا شَاسِعًا، فِي الـمَعْنَى وَالعَمَلِ، وَقَدْ مَرَّ شَيءٌ منهُ وَفِي الفَصْلِ الآتِي أيضًا يأتِيكُمْ بإذنِ اللهِ تَعَالَى كَلامٌ زَائِدٌ عنهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَهلُ العِلْمِ بيَانَ هذِهِ الـمَسألَةِ وَأَصَّلُوها، وَذَكَرُوا أنَّ (أَن) الـمُخَفَّفَةَ لَا تَعْمَلُ إِلَّا فِي حَالَاتٍ، فَمِنْهَا أَنْ تَقعَ فِي أَفْعَالِ اليَقِينِ كَمَا فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أوزونُ، قَالَ الإمَامُ ابنُ الوَرَّاقِ: «وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا خفَّفْتَ هَذِه الْمَكْسُورَةَ، جَازَ أَن تُعْمِلَهَا وَتَنْوِيَ التَّشْدِيدَ؛ لِأَنَّكَ لم تَحْذِفِ التَّشْدِيدَ حَذْفًا لَازِمًا، فَصَارَ حُكْمُهَا مُرَاعًى، فَلذَلِكَ جَازَ أَنْ تَحذِفَهَا وَيبقَى حُكْمُ (إِنَّ) عَلَى الْعَمَلِ، كَقَوْلِكَ: (لم يَكُ زيدٌ مُنْطَلِقًا)[1]، وَمَنْ أَبْطَلَ عَمَلَهَا، فَإِنَّهُ شَبَّهَهَا بِالْفِعْلِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ دُوْنَ الْـمَعْنى، فَلَمَّا زَالَ لَفْظُهَا سَقَطَ شَبَهُهَا بِالْفِعْلِ، فَوَجَبَ أَنْ يَبْطُلَ عَمَلُهَا، وَحُكْمُ الْـمَفْتُوحَةِ الْـمُشَدّدَةِ فِي التَّخْفِيفِ وَالتَّثْقِيلِ وَجَوَازِ الْعَمَلِ، إِلَّا فِي خَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ أَنَّ (إِنِ) الْـمَكْسُورَةَ إِذَا خُفِّفَتِ ارْتَفَعَ مَا بعْدَهَا بِالِابْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ، وَ(أَن) الْـمَفْتُوحَةَ الْـمُشَدّدَةَ إِذَا خُفِّفَتْ أُضْمِرَ فِيهَا اسْمُهَا، كَقَوْلِكَ: (قَدْ عَلِمْتُ أَنْ زَيْدٌ قَائِمٌ)، تَقْدِيرُهُ: أَنَّهُ زَيْدٌ قَائِمٌ، فَالهَاءُ الـمُضْمَرَةُ اسْمُ (أَنْ).

وَإِنَّمَا وَجَبَ ذَلِك فِي (أَنِ) الْـمَفْتُوحَةِ، وَلم يَجِبْ ذَلِك فِي الْـمَكْسُورَةِ؛ لِأَنَّ الْـمَفْتُوحَةَ قَدْ قُلْنَا: إِنَّهَا وَمَا بَعْدَهَا اسْمٌ، فَلَا تَخْلُو مِنْ عَامِلٍ يعْمَلُ فِيهَا، فَلَمْ يَجُزْ إِلْغَاءُ حُكْمِهَا، فَلذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُضْمَرَ اسْمُهَا، لِثَبَاتِ حُكْمِهَا فِي الْكَلَامِ، وَأَمَّا الْـمَكْسُورَةُ فَهِيَ تَقَعُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ، فَإِذَا ارْتَفَعَ مَا بعْدَهَا، لم تكُنْ بِنَا ضَرُورَةٌ إِلَى تَقْدِيرِ اسْمٍ

---

(١) أَرَادَ أَنَّ إِعْمَالَهَا مُخَفَّفَةً، بِمَنْزِلَةِ (يَكُونُ) حَيثُ يُحْذَفُ مِنْهَا بَعضُ حُرُوفِهَا وَتَبْقَى عَلَى عَمَلِهَا، وَهذَا ذَكَرَهُ ابنُ السَّرَّاجِ وَالجَامِي أيضًا.

فِيهَا؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تُقَدِّرَهَا حَرْفًا غَيْرَ عَامِلٍ مِنَ الْحُرُوفِ غَيْرِ العَوَامِلِ، نَحْوُ: (هَلْ)، وَ(بَلْ)، وَمَا أَشْبَهَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفعَالَ الْقُلُوبِ تَنْقَسِمُ ثَلَاثَةَ أَقسَامٍ:

أَحَدِهَا: يَقِينٌ، نَحْوُ: (عَرَفْتُ) وَ(عَلِمْتُ).

وَالثَّانِي: شَكٌّ ورَجَاءٌ، نَحْوُ: (رَجَوْتُ) وَ(خِفْتُ).

وَالثَّالِثِ: مُتَوَسِّطٌ بَينَ الْيَقِينِ وَالشَّكِّ، وَهُوَ (الظَّنُّ) وَ(الحُسْبَانُ).

وَأَمَّا (عَلِمْتُ) وَنَحْوُهَا فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَقَعَ بعْدَهَا (أَنْ) الـمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ مُشَدَّدَةً وَغَيْرَ مُشَدَّدَةٍ، نَحْوُ: (قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَقُومُ)، فَإِذَا خَفَّفْتَهَا -وَبَعْدَهَا الْفِعْلُ- أَضْمَرْتَ الِاسْمَ، عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَعَوَّضْتَ مِنَ التَّخْفِيفِ -إِذَا كَانَ بعْدهَا الْفِعْلُ- أَحَدَ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: السِّينُ، وَالْآخرُ: سَوْفَ، وَالثَّالِثُ: قَدْ، وَالرَّابِعُ: لَا؛ كَقَوْلِكَ: (قَدْ عَلِمْتُ أَنْ سَتَقُومُ)، كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [عَلِمَ أَنْ سَيَكُوْنُ مِنْكُمْ مَّرْضَى]، وَكَذَلِكَ: (عَلِمْتُ أَنْ سَوفَ تَقُومُ)، وَ(عَلِمْتُ أَنْ قَدْ قُمْتَ)، وَهَذِهِ الْأَعْرَاضُ الثَّلَاثَةُ مَتَى دَخَلَتْ بَعْدَ (أَنْ) لم تَكُنْ إِلَّا مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ»[1].

وَقَدْ ذَكَرَ لَهَا الإِمَامُ ابنُ جِنِّي أَمْثِلَةً كَثِيرَةً فَقَالَ: «وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: [عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى] (المزمل).

---

(١) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص٤٤٧-٤٤٩).

وَقَوْلُ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الكَامِلِ]

زَعَـمَ الفَـرَزْدَقُ أَنْ سَـيَقْتُلُ مَرْبَعًـا أَبْشِـرْ بِطُـولِ سَـلَامَةٍ يَـا مَرْبَـعُ(١)

وَقَدْ ذَكَرَ الـمُبَرِّدُ هذِهِ الـمَسأَلَةَ بِتَفْصِيلٍ بَدِيعٍ لَمْ يُسْبَقْ إليهِ فِي كِتَابِهِ الفَذِّ (الـمُقْتَضَبِ)، وَوَضَعَ فيهِ فَصْلًا وَأَسْمَاهُ: (هَذَا بَابُ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تكُونُ (أَنْ) مَعَهَا إِلَّا ثَقيلَةً، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تكُونُ معهَا إِلَّا خَفِيفَةً، وَالْأَفْعَالِ الـمُحْتَمَلَةِ للثَّقِيلَةِ وَالخَفِيفَةِ)، وَقَالَ تَحْتَهُ: «أَمَّا مَا كَانَ مِنَ الْعِلْمِ فَإِنَّ (أَنْ) لَا تكُونُ بعدَهُ إِلَّا ثَقيلَةً؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ قَدْ ثَبَتَ وَاسْتقَرَّ وَذَلِك قَوْلُكَ: (قَدْ عَلِمْتُ أَنْ زَيْدًا مُنْطَلِقٌ)، فَإِنْ خَفَّفْتَ فعَلى إِرَادَةِ التَّثْقِيْلِ وَالإِضْمَارِ، وَتَقُولُ: (قَدْ عَلِمْتُ أَنْ سَيَقُومُ زَيْدٌ)، تُرِيدُ أَنَّهُ سَيَقُومُ زَيْدٌ، قَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى] لِأَنَّهُ شَيءٌ قَدِ اسْتَقَرَّ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ (عَلِمْتُ أَنْ يَقُومُ زَيْدٌ)! لِأَنَّ (أَنْ) الخَفِيفَةَ إِنَّمَا تكُونُ لِـمَا لم يَثْبُتْ، نَحْوُ: (خِفْتُ أَنْ تَقُومَ يَا فَتَى)، وَ(أَرْجُو أَنْ تَذْهَبَ إِلَى زَيْدٍ)؛ لِأَنَّهُ شيءٌ لم يَسْتَقِرَّ، فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فَهَذَا مَجَازُهُ.

فَأَمَّا الْأَفْعَالُ الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيهَا الْخَفِيفَةُ وَالثَّقِيلَةُ: فَمَا كَانَ مِنَ الظَّنِّ؛ فَأَمَّا وُقُوعُ الثَّقِيلَةِ فَعَلَى أَنَّهُ قَدِ اسْتَقَرَّ فِي ظَنِّكَ كَمَا اسْتَقَرَّ الأَوَّلُ فِي عِلْمِك، وَذَلِك قَوْلُكَ: (ظَنَنْتُ أَنَّك تَقُومُ)، وَ(حَسِبْتُ أَنَّكَ مُنْطَلِقٌ)، فَإِذَا أَدْخَلْتَ عَلَى الـمَحْذُوفَةِ الْعِوَضَ(٢)

---

(١) سِرُّ صَنَاعَةِ الإِعرَابِ لِابنِ جِنِّي (٢/ ٢٠٠).

(٢) وَالعِوَضُ يكُونُ إِحْدَى هذِهِ الأَشيَاءِ: أَحَدُهَا: السِّينُ، وَالْآخرُ: سَوفَ، وَالثَّالِثُ: قَدْ، وَالرَّابِعُ: =

قُلْتَ: (حَسِبْتُ أَنْ سَيَقُومُونَ)، وَكَذَلِكَ تَقُولُ: (ظَنَنْتُ أَنْ لَا تَقُولَ خَيْرًا) تُرِيدُ أَنَّكَ لَا تَقُولُ خيرًا.

وَأَمَّا النَّصبُ فَعَلَى أَنَّهُ شَيءٌ لَمْ يَسْتَقِرَّ، فَقَدْ دَخَلَ فِى بَابِ: (رَجَوْتُ) وَ(خِفْتُ) بِهَذَا الْمَعْنى، وَهَذِه الْآيَةُ تُقْرَأُ عَلَى وَجْهَيْنِ: [وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ] وَ[أَنْ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ]، فَانْتَصَبَ مَا بَعْدَ (لَا) وَهِىَ عِوَضٌ كَمَا أَوْقَعَتِ الْخَفِيفَةُ النَّاصِبَةُ بَعْدَ (ظَنَنْتُ) بِغَيْرِ عِوَضٍ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ]؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا مَعْنَى مَا لَمْ يَسْتَقِرَّ وَكَذَلِكَ: [إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ]. وَزَعَمَ سِيْبَوَيْهِ أَنَّهُ يَجُوزُ: (خِفْتُ أَنْ لَا تَقُومُ يَا فَتَى)، إِذَا خَافَ شَيْئًا كَالـمُسْتَقِرِّ عِنْدَهُ. وَهَذَا بَعِيدٌ، وَأَجَازَ أَنْ تَقُولَ: (مَا أَعْلَمُ إِلَّا أَنْ تَقُومَ)، إِذَا لم يُرِدْ عِلْمًا وَاقِعًا، وَكَانَ هَذَا القَوْلُ جَارِيًا عَلَى بَابِ الْإِشَارَةِ، أَيْ: (أَرَى)، مِنَ الرَّأْيِ وَهَذَا فِى الْبُعْدِ كَالَّذِى ذَكَرْنَا قَبْلَهُ، وَجُمْلَةُ الْبَابِ تَدُورُ عَلَى مَا شَرَحْتُ لَكَ مِنَ التَّبْيِينِ وَالتَّوَقُّعِ»[(١)].

وَلَا أدرِي بَعْدَ هذا الكَلامِ الجَمِيلِ وَالتَّفصِيلِ البَدِيعِ وَالتَّأصِيلِ العِلْمِيِّ الرَّائِعِ، وَالتَّعلِيلِ العَقلِيِّ العَمِيقِ، مَاذَا يَقُولُ صَاحِبُ الجِنَايَةِ وَكَيفَ يَكُونُ لَوْنُ وَجهِهِ؟

الكَلَامُ عَنْ أَدَاةِ الحَصْرِ (إِنَّمَا):

ثُمَّ يَتَطَرَّقُ إِلَى مَوضُوعٍ آخرَ وَيَقُولُ: «أخِيرًا: إِذَا دَخلَتْ (مَا) عَلى (إِنَّ) وَأَخواتِهَا كَفَتْهَا عَنِ العَمَلِ -باستِثْنَاءِ لَيتَ- وَهُنَا نَسأَلُ: مَا هذَا الإِنْجَازُ العَظِيمُ؟ وَمَا يُهِمُّنَا إِذَا

= لَا. كَمَا مَرَّ مَعَنَا فِي كَلامِ ابنِ الوَرَّاقِ.

(١) الـمُقْتَضَبُ للمُبَرِّدِ (٣/ ٧-٨).

كَفَّتْ أَو لَم تَكفَّ؟ وَلـمَاذَا لَا نَعْتَرِفُ بأنَّ (إِنَّمَا) مُستَقِلَّةٌ عَنْ (إِنَّ) وَلَا عَلَاقَةَ لِلكَفِّ وَالـمَكفُوفِ هُنَا، أَلِأَنَّ الِاسمَ جَاءَ بَعْدَهَا مَرْفُوعًا؟» ص: (٣٣-٣٤).

أَقُولُ: إِنَّ الـمُهَنْدِسَ لَا يَخَافُ اللهَ تَعَالَى فِي هذِهِ الأَقْوَالِ الجَائِرَةِ، كَمَا لَا يَخَافُ مِنْ سُمْعَتِهِ العلمِيَّةِ، وَإِلَّا فَلَم يَكُنْ يَخُوضُ فِي هذِهِ القَضَايَا الَّتِي لَا يَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَرْفَعُ فِيهَا رَأْسًا، وَلَا يَرْمُقُ فِيْهَا حَدْسًا.

إِنَّ العُلَمَاءَ لَم يَقُولُوا بأَنَّ (إِنَّمَا)، رُكِّبَتْ مِنْ (إِنَّ)، وَ(مَا)، إِلَّا بَعْدَ البَحْثِ الدَّائِبِ، وَالنَّظَرِ الثَّاقِبِ، وَمِنْ خِلالِهِ وَجَدُوا دَلِيلًا سَادَهُم وَبرْهَانًا قَادَهُم إِلَى هذَا القَوْلِ، فَيُمْكِنُ أَنَّ خَيرَ دَلِيلٍ عَلَى ذلِكَ أَنَّنَا نَجِدُ فِي العَرَبِيَّةِ (إِنَّمَا)، وَ(أَنَّمَا)، كَمَا نَجِدُ (إِنَّ)، وَ(أَنَّ)، وَفِي مَوْضِعٍ فَتْحِ الهَمْزَةِ مِنْ(أَنَّ)، يَجِبُ فَتْحُ (أَنَّمَا) أيضًا، وَكَذَا فِي مَوْضِعٍ تَنْكَسِرُ فِيهِ هَمْزَةُ (إِنَّ)، تَنْكَسِرُ فِي(إِنَّمَا) أيضًا، فَهذَا وَحْدَهُ كَافٍ بِصِحَّةِ مَا ذَهَبُوا إِليهِ.

قَالَ الإِمَامُ ابنُ يَعِيشَ: «وَقَدْ تَدْخُلُ (مَا) عَلَى هذِهِ الحُرُوفِ، فَتَكُفُّهَا عَنِ العَمَلِ، وَتَصِيرُ بِدُخُولِ (مَا) عَلَيْهَا حُرُوفَ ابْتِدَاءٍ، تَقَعُ الجُملَةُ الِابتدائِيَّةُ وَالفِعلِيَّةُ بَعدَهَا، وَيَزُولُ عَنْهَا الِاخْتِصَاصُ بِالأَسْمَاءِ، وَلِذَلِكَ يَبْطُلُ عَمَلُهَا فِيمَا بَعْدَهَا. وَذلِكَ نَحْوُ قَوْلِكَ: (إِنَّما)، وَ(أَنَّما)، وَ(كَأَنَّما)، وَ(لَيْتَما)، وَ(لَعَلَّما). فأَمَّا (إِنَّما)، وَ(أَنَّما)، فَحُكْمُهُمَا حُكْمُ (إِنَّ)، وَ(أَنَّ): تَفْتَحُهَا فِي الـمَوْضِعِ الَّذِي تَفْتَحُ فِيْهِ (أَنَّ)، وَتَكْسِرُهَا فِي الـمَوْضِعِ الَّذِي تَكْسِرُ فِيْهِ (إِنَّ)، فَتَقُولُ: (حَسِبْتُكَ إِنَّما أَنْتَ عَالِمٌ). وَلَا تَكُونُ (إِنّما) هَا هُنَا إِلَّا مَكْسُورَةً؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ جُملةٍ. وَلَا تَقَعُ الـمَفْتُوحَةُ هَا هُنَا؛ لِأَنَّ الـمَفْتُوحَةَ مَصْدَرٌ»[1].

---

(١) شَرحُ الـمُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيشَ (٤/ ٥٢١).

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ أنَّ (أَنَّمَا) فِي تَأوِيلِ مُفْرَدٍ، كَمَا (أَنَّ) فِي تأوِيلِ مُفْرَدٍ، وَذَكَرْنَاهُ سَابِقًا فِي بَحْثِ كَسرِ الهَمْزَةِ عِنْدَ مَبْحَثِ عَقْلَنَةِ قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، وَ(إِنَّمَا) فِي تَأوِيلِ جُمْلَةٍ، كَمَا (إِنَّ) فِي تَأوِيلِ جُمْلَةٍ، قَالَ ابنُ يَعِيشَ فِي بَيَانِ ذلِكَ، مَعَ ذِكْرِ مَعْنَى الجُمْلَةِ الَّتِي تَدْخُلُ فِيهِ (إِنَّمَا)، أَوْ: (أَنَّمَا): «فَأَمَّا (إِنَّما) الـمَكسُورَةُ فَتَقْدِيرُهَا تَقدِيرُ الجُمَلِ كَمَا كَانَتْ (إِنَّ) كذلِكَ، وَ(مَا)، كَافَّةٌ لَهَا عَنِ العَمَلِ، وَيقَعُ بعدَهَا الجُملَةُ مِنَ الـمُبتَدَإِ وَالخَبَرِ، وَالفِعْلِ وَالفَاعِلِ. وَهِيَ مَكْفُوفَةُ العَمَلِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَمَعْنَاهَا التَّقلِيلُ، فَإِذَا قُلْتَ: (إنَّما زَيدٌ بَزّازٌ) فَأَنْتَ تُقلِّلُ أَمْرَهُ، وَذلِكَ أَنَّكَ تَسْلُبُهُ مَا يُدَّعَى عَلَيْهِ غَيرَ البَزِّ، وَلِذَلِكَ قَالَ سِيْبَوَيْهِ فِي «إِنَّمَا سِرْتُ حَتَّى أَدْخُلَهَا»: إِنَّكَ تُقَلِّلُ. وَذلِكَ أَنَّ (إِنَّما) زَادَتْ (إِنَّ) تَأكِيدًا عَلَى تَأكِيدِهَا، فَصَارَ فِيهَا مَعْنَى الحَصْرِ، وَهُوَ إِثْبَاتُ الحُكْمِ لِلشَّيْءِ الـمَذْكُورِ دُوْنَ غَيْرِهِ، فَإِنَّ مَعْنَى [إِنَّما اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ]، أَيْ: مَا اللهُ إلَّا إلهٌ وَاحِدٌ، نَحْوُ: [لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ]، وَكَذلِكَ: [إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ]، أَيْ: مَا أَنْتَ إِلَّا مُنْذِرٌ، وَمِنْ هَا هُنَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ فِي قَوْلِهِ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِنَّمَا يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِم أَنَا أَوْ مِثْلِي

وَالمرَادُ: مَا يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِم إِلَّا أَنَا، فَـ(أَنَا) هاهُنَا فِي مَحَلِّ رَفعٍ بِأَنَّهُ فَاعِلُ (يُدَافِعُ)، لَا تَأكِيدُ الضَّمِيرِ فِي الفِعْلِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَجْعَلَ (مَا) زَائِدَةً مُؤَكِّدَةً عَلَى حَدِّ زِيَادَتِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [مَثَلًا مَا بَعُوضَةً]، وَ[فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ]، فَلَا يَبْطُلُ عَمَلُهَا، فَتَقُولُ: (إِنَّما زَيْدًا قَائِمٌ)، كَمَا تَقُولُ: (إِنَّ زَيدًا قَائِمٌ).

وَأَمَّا المفتُوحَةُ فَهِيَ تُقدَّرُ تَقدِيرَ المفرَدَاتِ، وَهِيَ مَعَ مَا بَعْدَهَا فِي تَأْوِيلِ الـمَصْدَرِ كَمَا كَانَتْ (أَنَّ) كذلِكَ، فَتَفْتَحُهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ يَخْتَصُّ بِالمفرَدِ، نَحوُ قَوْلِهِ تَعَالَى:

[يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ]، فَتَفْتَحُ (أَنَّما) ههُنَا؛ لأَنَّها فِي مَوْضِعِ رَفْعِ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الخَفِيْفِ]

أَبْلِغِ الحَارِثَ بنَ ظَالِمِ المُو ... عِدَ والنَّاذِرَ النُّذُورَ عَلَيَّا
أَنَّمَا تَقْتُلُ النِّيَامَ ولا تَقْتُلُ ... يَقْظَانَ ذا السِّلاحِ كَمِيَّا

لَا تَكُونُ (أَنَّما) ههُنَا أيضًا إلَّا مَفْتُوحَةً؛ لأَنَّهَا فِي مَوْضِعِ المَفعُولِ الثَّانِي لِـ(أَبْلِغْ)، فَهِيَ فِي مَوْضِعِ المَصْدَرِ؛ لأَنَّ المُرَادَ: أَبْلِغْهُ هذَا القَوْلَ»[1].

وَقَالَ أيضًا: «وَالفَرْقُ بَيْنَ (أَنَّ)، وَ(أَنَّما)، وَإِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ مَا بَعْدَهُ مَصْدَرًا، أَنَّ (أَنَّ) عَامِلَةٌ فِيمَا بَعْدَهَا، وَ(أَنَّمَا) غَيرُ عَامِلَةٍ، فَقَدْ كَفَّتْهَا (مَا) عَنِ العَمَلِ، وَصَارَ يَلِيْهَا كُلُّ كَلَامٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَلِيهَا كَلامٌ مَخْصُوصٌ.

وَالفَرْقُ بَيْنَ (إِنَّمَا)، وَ(أَنَّما)، (أَنَّ (إِنَّما) المكسُورَةَ إذَا كُفَّتْ بِـ(مَا)؛ كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ فِعْلٍ مُلْغًى؛ لأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الفِعْلِ. فَإِذَا كُفَّتْ بِـ(مَا)، لَمْ يَبْقَ لَهَا اسْمٌ مَنْصُوبٌ، فَصَارَتْ بِمَنْزِلَةِ الفِعْلِ المُلْغَى، نَحْوَ: (زَيْدٌ ظَنَنْتُ مُنْطَلِقٌ)، وَ(أُشْهِدُ لَزَيْدٌ قَائِمٌ).

وَ(أَنَّما) المَفْتُوحَةُ إذَا كُفَّتْ، كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الاِسْمِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ (مَا) زَائِدَةً مُؤَكِّدَةً، فَتَنْصِبَ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فِي (إِنَّما) المَكْسُورَةِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الحُرُوفِ، نَحْوَ: (لَكِنَّما)، وَ(كَأَنَّما)، وَ(لَيْتَما)، وَ(لَعَلَّما)، تَقُولُ: (لَكِنَّما زَيْدٌ قَائِمٌ)»[2].

---

(١) شَرْحُ المُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيش (٤/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٢) شَرْحُ المُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيش (٤/ ٥٢٤).

كَلَامُ العِدَا عَنْ (عَدَا):

يَستَمِرُّ الكَاتِبُ فِي الخُصُومَةِ -وَقَدْ جَاشَ صَدْرُهُ وَيَنْفِطُ- فَيَقُولُ: «وَفِي خِتامِ الحَدِيثِ عَنِ الأَحرُفِ الـمُشَبَّهَةِ بالفِعلِ، فَإِنَّهُ يَحضُرُنِي هُنَا تَشبهٌ آخَرُ أَكْثَرُ غَرَابَةً مِنَ الحَرْفِ الـمُشَبَّهِ بالفِعْلِ، فَكَلِمَةُ (خَلَا) مَثَلًا يُمكِنُ أَنْ تَكُونَ حَرْفَ جَرٍّ (أَدَاةَ جَرٍّ) أَوْ: فِعْلًا مَاضِيًا. هُنَا أَصبَحَ التَّجَاوُزُ أَضْخَمَ وَأَعْظَمَ، فَمِنْ أَداةِ الجَرِّ إِلَى الفِعْلِ مُبَاشَرَةً...فَتَأَمَّلْ عَزِيزِي القَارِئُ دِقَّةَ السَّادَةِ النُّحَاةِ فِي الـمُسَاوَاةِ بينَ الأَدَاةِ وَالفِعْلِ». ص: (٣٤).

أَقُولُ: إِنَّ تَعَدُّدَ العَمَلِ لِشَيءٍ وَاحِدٍ، أَو: تَنَوُّعَ العَمَلِ لَهُ، تَجِدُهُ فِي العَرَبِيَّةِ كَثْرَةً، وَلَا أَظُنُّ أَنْ تَكونَ هُنَاكَ لُغَةٌ تَخلُو عَنْ هذَا، وَهُوَ مِنْ سِمَاتِ التَّوَسُّعِ فِي الأَسَالِيبِ وَالتَّعبِيرَاتِ، وَلَيْسَ نَقْصًا وَعَيْبًا حَتَّى تُتَّهَمَ بِهِ العَرَبِيَّةُ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ أَقُولُ لِجَنَابِ الـمُهَنْدِسِ: كُنْ مُنْصِفًا فِي كَلامِكَ وَتَقْيِيمِكَ، فَمَاذَا كَانَ عَلَى النُّحَاةِ أَنْ يَفعَلُوا؟ وَمَاذَا كَانَ عليهِم مِنْ وَضْعِ اصْطِلاحٍ فَأَهمَلُوهُ؟ ومَا الزَّائِدُ الَّذِي كَانَ عَليهِمْ حَذفُهُ وَلَم يَحذفُوهُ؟ فَهُم قَدْ وَجَدُوا فِي كَلامِ العَرَبِ لِـ(عَدَا) مَوْقِعَيْنِ فِي الجُمْلَةِ، مَوْقِعٌ تُوَافِقُ فيهِ الأَفْعَالَ، وَمَوْقِعٌ تُوافِقُ فِيْهِ الحُرُوفَ الجَارَّةَ، فَقَالُوا بِتَعَدُّدِ عَمَلَيْنِ لَهَا، وَهذَا كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ فَلِمَاذَا كُلُّ هذِهِ القَسْوَةِ وَالجَفَاءِ بِحَيثُ تَكَادُ تَخْرُجُ مِنْ ثِيَابِكَ حِقْدًا وَغَيْظًا؟.

وَأنَا أَدعُو جَنَابَ الـمُهَنْدِسِ أَنْ يُجَانِبَ مَا أَصَّلَهُ عُلَمَاءُ النَّحْوِ وَلَا يُؤمِنَ بِهِ، وَلكِنْ بِشَرْطِ أَنْ يَجِدَ لِـمَوْقِعَيْ (عَدَا) اسمًا وَاحِدًا، بِحَيثُ يَجْمَعُهُمَا فِي الكَلامِ الفَصِيحِ، فَمَثَلًا جَاءَتْ بِمَا لَا يُشَكُّ فِي كَوْنِهَا فِعْلًا، كَمَا ذَكَرَهُ الـمُبَرِّدُ وَقَالَ: «وَأَمَّا (عَدَا) وَ(خَلَا) فَهُمَا فِعْلَانِ يَنْتَصِبُ مَا بَعْدَهُمَا؛ وَذَلِكَ قَوْلُكَ: (جَاءَنِي الْقَوْمُ عَدَا زَيْدًا) لِأَنَّهُ

لَـمَّا قَالَ: (جَاءَ الْقَوْمُ) وَقعَ عِنْدَ السَّامِعِ أَنَّ بَعضَهُم (زَيْدًا)[1] فَقَالَ: عَدَا زَيْدًا، أَيْ: جَاوزَ بَعضُهُم زَيْدًا، فَهَذِهِ تَقْدِيرُهُ؛ إِلَّا أَنَّ (عَدَا) فِيهَا مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ، وَكَذَلِكَ (خَلَا)، فَمَعْنَى (عَدَا): جَاوَزَ، مِنْ قَوْلِكَ: (لَا يَعْدُونَّكَ هَذَا)، أَيْ: لَا يُجَاوِزَنَّكَ»[2].

وَجَاءَتْ حَرْفًا عَلَى قِلَّةٍ، كَقَوْلِهِم: (جَاءَ القَوْمُ عَدَا زَيْدٍ)، وَالعَجِيبُ أَنَّ سِيْبَوَيْهِ جَانَبَ حَرْفِيَّةَ (عَدَا) وَلَم يَذْكُرْهَا أَصْلًا لِقِلَّتِهَا، وَلَا أدرِي هَلْ أوزونُ لَم يَطَّلِعْ عَلَى كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ حَتَّى الآنَ وَجَاءَ يَنْتَقِدُهُ؟ أَم: اطَّلَعَ عَلَى الكِتَابِ وَعَلِمَ أَنَّ سِيْبَوَيْهِ أَغْفَلَ ذِكْرَهَا، وَسَكَتَ عنهُ أوزونُ؟ فالأَمْرَانِ أَحْلاهُمَا مُرٌّ للمُهَنْدِسِ، وَكِلاهُمَا جَوْرٌ وَجَفَاءٌ.

---

(١) يُمْكِنُ هُوَ: (زَيْدٌ).

(٢) الـمُقْتَضَبُ للمبرِّدِ (٤/ ٤٢٦).

أَزْمِنَةُ الأَفْعَالِ فِي العَرَبِيَةِ

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ صَاحِبُ الجِنَايَةِ مَسَائِلَ تَتعلَّقُ بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ، أَتَى بالجُرْمِ وَالجِنَايَةِ عَلَى الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ، وَأَوَّلُ مَا بَحَثَهُ هُنَا هُوَ مَسألَةُ الزَّمَنِ فِي العَرَبِيَّةِ، فَحَرَّفَ فِيْهِ وَافترَى وَبَدَّلَ وَامترَى، إِذْ قَالَ: «(الأفعَالُ حَسَبَ زَمَنِ وُقُوعِهَا): وَهِيَ كَمَا نَعْلَمُ: مَاضٍ، وَمُضَارِعٌ وَأمرٌ. وهُنَا يَتَّضِحُ مِنْ تسمِيَةِ الأَنواعِ أَنَّ مَفهُومَ الزَّمَنِ وَهُوَ أَهَمُّ مَا يُميِّزُ الاسمَ عَنِ الفِعلِ غَائِبٌ عِنْدَ السَّادَةِ النُّحَاةِ، فَالفِعْلُ المُضَارِعُ هُوَ حَدَثٌ (فِعْلٌ) يَحدُثُ فِي الزَّمَنِ الحَاضِرِ وَقَدْ سَمَّوْهُ مُضَارِعًا لأَنَّهُ يُضارِعُ الاسمَ فِي حَرَكَاتِهِ[1]، فَهُوَ مَرفُوعٌ وَمَنصُوبٌ مَرَّةً وَمجزُومٌ أُخرَى، وعليهِ فَالتَّسمِيَةُ تَتَجَاهَلُ الزَّمَنَ لذلِكَ نَجِدُ أَنَّ أَوَّلَ سُؤالٍ يَسأَلُهُ التَّلمِيذُ، أَوِ: الطَّالِبُ: مَا مَعْنَى فِعْلِ المُضَارِعِ؟ فَنَقُولُ لَهُ: هُوَ فِعْلٌ يَحدُثُ فِي الزَّمَنِ الحَاضِرِ، وَهُنَا يُصْبِحُ أقرَبَ إِلَى الذِّهْنِ، وَمَعَ ذلِكَ فالسَّادَةُ النُّحَاةُ لَم يُغيِّرُوا قُرآنَ سِيبَوَيْهِ وَأتبَاعِهِ لِيَقُولُوا فِعْلًا حَاضِرًا عِوَضًا عَنْ فِعْلٍ مُضَارِعٍ، وَالمُشكِلَةُ لَيستْ فِي التَّسمِيَةِ -بالرَّغْمِ مِنْ أَهَمِّيَّتِهَا- إِنَّمَا هِيَ فِي حَقِيقَةِ غِيَابِ الزَّمَنِ عَنْ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ». ص: (٣٥).

أقُولُ: إِنَّ تَصَوُّرَ المُهندِسِ للقَضِيَّةِ خَاطِئٌ رَأسًا، فَأدَّى بِهِ هذا الخَطَأُ إِلَى مُغَالَطَةٍ فِي جَمِيعِ مَا قَالَهُ فِي مَسْأَلَةِ الزَّمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخرِهَا؛ لأَنَّ هذَا التَّقسِيمَ الَّذِي ذَكَرَهُ لَيسَ تَقسِيمًا زَمَنِيًّا للفِعلِ، بَلْ: هُوَ تَقسِيمٌ بنَائِيٌّ صِيَاغِيٌّ لَهُ.

وَقَدْ أَشَارَ العَلَّامَةُ أَبُو حَيَّانَ إِلَى ذلِكَ فَقَالَ: «وهذِهِ القِسْمَةُ بِالنَّظَرِ إِلَى الصِّيَغِ لَا بِالنَّظَرِ إِلَى الزَّمَانِ»[2].

---

(١) قَالَ شَيخُنَا أَبُو الفَضْلِ: يُشْبِهُ الفِعْلُ المُضَارِعُ الاِسْمَ مِنْ وُجُوهٍ: فِي عَدَدِ الحُرُوْفِ، وَعَدَدِ الحَرَكَاتِ، وَعَدَدِ السَّكنَاتِ، وَقبُوْلِهِ لَامَ الاِبْتِدَاءِ، وَلِيسَ كَمَا أَوْهَمَ أوزونُ.

(٢) التَّذْيِيلُ وَالتَّكْمِيلُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّسْهِيلِ لأَبِي حَيَّانَ (١/ ٦٧).

وَهذَا وَحْدَهُ كَافٍ لِنَقْضِ مَقَالِ الـمُهَنْدِسِ وَنَفْضِهِ، وَرَفْضِهِ، بَلْ: دَحْضِهِ.

فزِيَادَةً عَلَى ذلِكَ نَقُولُ: إِذَا كَانَ الـمُهَنْدِسُ بَاحِثًا غَيْرَ مُخاصِمٍ لَكَانَ عليهِ أَنْ يُرَاجِعَ كِتَابَ سِيبَوَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِدَهُ؛ لأَنَّهُ أَبَانَ عَنْ زَمَنِ الأَفْعَالِ فِي تَعريفِ الفِعْلِ بأوضَحِ البَيَانِ وَأَتَمِّهِ لـمَّا عَرَّفَهُ وَأَتَى فِيهِ بالأَمْثِلَةِ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا الفِعْلُ: فَأَمْثِلَةٌ أُخِذَتْ مِنْ لَفْظِ أَحْدَاثِ الأَسْمَاءِ، وبُنِيَتْ: (لِـمَا مَضَى)، وَ(لِـمَا يكُونُ ولم يقعْ)، وَ(مَا هُوَ كَائِنٌ لَم ينقَطِعْ).

فَأَمَّا بِناءُ مَا مَضَى: فَـ(ذَهَبَ وَسَمِعَ وَمَكُثَ وَحُمِدَ).

وَأَمَّا بِناءُ مَا لَم يَقَعْ فَإِنَّهُ قَوْلُكَ آمِرًا: (اذْهَبْ وَاقْتُلْ وَاضْرِبْ)، وَمُخْبِرًا: (يَقْتُلُ وَيَذْهَبُ وَيَضْرِبُ وَيُقْتَلُ وَيُضْرَبُ).

وَكذلِكَ بِنَاءُ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ وَهُوَ كَائِنٌ إِذَا أَخْبَرْتَ»[(١)].

فَهذَا وَاضِحٌ أَنَّ الزَّمَنَ لَم يَكُنْ غَائِبًا فِي الأَفْعَالِ عِنْدَ سِيبَوَيْهِ، فَاصْطِلاحُهُ عَلَى الأَفْعَالِ خَيرُ شَاهِدٍ عَلَى ذلِكَ: (مَا مَضَى)، (مَا يَكُونُ وَلَم يقَعْ)، (مَا هُوَ كَائِنٌ لَم يَنْقَطِعْ)!

وَقَدْ نَقَلَ إِمَامُ البَلَاغَةِ الجُرْجَانِيُّ تَعرِيفَهُ وَتَقْسِيمَهُ ثُمَّ قَالَ عَقِيبَهُ مُعْجَبًا بِهِ أَيَّمَا إِعْجَابٍ: «لَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَتَى فِي مَعْنَى هذَا الكَلَامِ بِمَا يُوَازِنُهُ، أَوْ: يُدَانِيهِ، أَوْ: يَقَعُ قَرِيبًا مِنْهُ، وَلَا يَقَعُ فِي الوَهْمِ أَيضًا أَنَّ ذلِكَ يُسْتَطَاعُ»[(٢)].

وَنَقَلَ أَبُو البَقَاءِ العُكبرِيُّ تَعرِيفَهُ، وَشَرَحَهُ وَبَيَّنَ الأَزمِنَةَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي دَلَّ عليهَا كَلَامُ سِيبَوَيْهِ[(٣)].

---

(١) الكِتَابُ (١/ ١٢).

(٢) الرِّسَالَةُ الشَّافِيَةُ فِي وجُوهِ الإعجَازِ للجُرْجَانِيِّ (ص٦٠٥)، الـمُلْحَقَةُ بِـ(دَلَائِلِ الإِعجَازِ)، ط: شَاكر.

(٣) مَسَائِلُ خِلافِيَّةٌ لأَبِي البَقَاءِ العُكبرِيِّ (ص٦٩)، وَالتَّبْيِينُ عَنْ مَذَاهِبِ النَّحوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ وَالكُوفِيِّينَ لأَبِي البَقَاءِ أيضًا (ص١٤١).

وَقَدْ نَقَلَ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ تَعرِيفَ سِيبَوَيْهِ، وَأَرْدَفَهُ بتعرِيفٍ آخَرَ لِبَعْضِ أصحَابِهِ، فَقَالَ: «وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ يقُولُ فِي وَصْفِهِ: (إِنَّهُ مَا دَلَّ عَلَى حَدَثٍ وَزَمَانٍ)»[(١)].

وَنَقَلَ السُّهَيلِيُّ هذَا التَّعرِيفَ أيضًا وَارتَضَاهُ[(٢)].

وَدَلِيلٌ آخَرُ عَلَى أنَّ هذَا التَّقسِيمَ كَانَ بالنَّظَرِ إِلَى الصِّيغَةِ هُوَ: أَنَّ الكُوفِيِّينَ يَرَوْنَ الفِعْلَ قِسْمَيْنِ: (مَاضٍ، وَمُضَارِعٌ)[(٣)]، وَالأَمْرُ يُصَاغُ مِنَ المُضَارِعِ، فَلِذلِكَ قَسَّمُوهُ التَّقسِيمَ الثُّنَائِيَّ، وَأَخْرَجُوا الأَمْرَ مِنَ التَّقْسِيمِ، وَوَافَقَهُم عَلَيهِ الأَخْفَشُ[(٤)].

أَمَّا مِنْ حَيثُ الزَّمَنُ فَإِنَّهُم قَالُوا بِدَلَالَةِ المَاضِي وَالحَاضِرِ وَالمُسْتَقْبَلِ صَرَاحَةً، وَلَم يُنْكِرْ وَاحِدٌ منهُم ذلِكَ[(٥)].

قَالَ نَاظِرُ الجَيْشِ: «وَالأَزمِنَةُ ثَلَاثَةٌ: مُتَقَدِّمٌ وَمُنْتَظَرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى زَمَنِ الإِخْبَارِ: وَهُمَا: (المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلُ)، وَزَمَنُ الإِخْبَارِ وَهُوَ: (الحَالُ)، وَلَنَا حَاجَةٌ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى الزَّمَانِ المُعَيَّنِ؛ فَاشْتُقَّ مِنَ الأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى هذِه المَعَانِي صِيَغٌ تُفِيدُ المَعْنَى الَّذِي تُفِيدُهُ تِلْكَ. وَيُفِيدُ مَعَ ذلِكَ زَمَانًا مُعَيَّنًا، وَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ ثَلَاثَةَ أَلْفَاظٍ بِحَسَبِ الزَّمَانِ»[(٦)].

---

(١) المَسَائِلُ العَسكَرِيَّاتُ للفَارسِيِّ (ص٥٦).

(٢) نَتَائِجُ الفِكَرِ للسُّهَيلِيِّ (ص٥٢).

(٣) قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الفَضْلِ: وَلهذَا السَّبَبِ أَعْرَبَ الكِسَائِيُّ فِعْلَ الأَمْرِ، وَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَنَا سِيبَوَيْهِ المَغْرِبِ عِيَادًا اليَدْرِيَّ يَقُولُ:

وَأَعْـرَبَ الكِسَـائِي فِعْـلَ الأَمْـرِ   وَقَــدْ بَنَــاهُ سِــيْبَوَيْهِ فَــادْرِ

(٤) التَّذْيِيلُ وَالتَّكْمِيلُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّسهِيلِ لأَبِي حَيَّانَ (١/ ٦٧)، وشَرْحُ كِتَابِ الحُدُودِ للفَاكِهِيِّ (ص٩٧).

(٥) مَسَائِلُ خِلافِيَّةٌ لأَبِي البَقَاءِ العُكبرِيِّ (ص٦٩)، وَالتَّبْيِينُ عَنْ مَذَاهِبِ النَّحوِيِّينَ البَصْرِيِّينَ وَالكُوفِيِّينَ لأَبِي البَقَاءِ أيضًا (ص١٤١).

(٦) تَمهِيدُ القَوَاعِدِ بِشَرْحِ تَسْهِيلِ الفَوَائِدِ لِنَاظِرِ الجَيْشِ (١/ ١٧١).

وَقَالَ ابنُ جِنِّيْ قَبْلَهُ: «وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَضْرُبٍ تَنْقَسِمُ بِأَقْسَامِ الزَّمَانِ: مَاضٍ، وَحَاضِرٌ، وَمُسْتَقْبَلٌ»(١).

فَعَلَى هذَا عَلِمْنَا أنَّ هذَا التَّقسِيمَ تَقْسِيمٌ باعتِبَارِ الصِّيَغِ وَالأَبنِيَةِ لَا باعتِبَارِ الزَّمَنِ، كمَا أنَّ للأفْعَالِ تَقْسِيمَاتٍ باعتِبَارَاتٍ أُخرَى، كَتَقسِيْمِهَا باعتِبَارِ التَّعَدِّي وَاللُّزُومِ، حَيثُ يَنْقَسِمُ إِلَى: (المُتَعَدِّي وَاللَّازِمِ)، وَباعتِبَارِ التَّمَامِ وَالنُّقْصَانِ يَنْقَسِمُ إِلَى: (التَّامِّ وَالنَّاقِصِ)، وَإِلَى آخرِ التَّقسِيمَاتِ المَوجُودَةِ، فَهذَا التَّقْسِيمُ الثُّلَاثِيُّ أيضًا تَقسِيمٌ مِنْ تَقسِيمَاتِ الفِعْلِ، وَهُوَ بالنَّظَرِ إِلَى صِيْغَةِ الفِعْلِ، وَإِلَّا فَالعُلَمَاءُ أَشَارُوا إِلَى الزَّمَنِ كَمَا نَقَلْنَا كَلَامَهُم.

وَعَلَيْهِ فَإِذَا أَخذَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ تَقسِيمًا مِنْ هذِهِ التَّقسِيمَاتِ الأُخْرَى وَاعتَرَضَ بِعَدَمِ وجُودِ الزَّمَنِ فِيهَا، يَكُونُ مُغالِطًا فِي كَلامِهِ، وَجَائِرًا فِي حُكْمِهِ، وَخَائِنًا فِي نِتَاجِهِ؛ لأَنَّهُ لم يَذْهَبْ إِلَى التَّقسِيمِ الَّذِي خُصِّصَ للزَّمَنِ.

وَبهذَا العَرْضِ السَّابِقِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أنَّ المُهَنْدِسَ إمَّا بَعِيدٌ كُلَّ البُعْدِ عَنْ إدرَاكِ مَبَاحِثِ العَرَبِيَّةِ وَانتِقَادِهَا، وَإِمَّا ظَالِمٌ مُجْحِفٌ فِي حَقِّ قَوَاعِدِهَا وَيُرِيدُ إِحْدَاث زَعْزَعَةٍ فِكرِيَّةٍ فِي المُجتَمَعِ بِالتَّحرِيفِ وَالخِيَانَةِ، فَلَيْسَ أَحدُهُمَا بأفْضَلَ مِنَ الآخَرِ.

ثُمَّ قَالَ المُهَندِسُ: «إنَّ التَّقسِيمَ الثُّلاثِيَّ لِزَمَنِ الأفعَالِ السَّابِقَةِ: مَاضٍ، مُضارعٌ، أَمرٌ، هوَ تقسِيمٌ غيرُ موفَّقٍ أصْلًا، وَهُوَ فِي حَقِيقَةِ الأمرِ يَعتَمِدُ عَلَى زَمَنَيْنِ اثْنَيْنِ فَقَط؛ همَا: (المَاضِي وَالحَاضِرُ)، إِذْ لَا يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ لِفِعْلِ الأَمرِ زَمَنٌ عَلَى الإِطْلَاقِ؛ لأَنَّكَ لَا تَأمرُ فِي المَاضِي وَلَا تأمرُ فِي المُستَقْبَلِ، وَعَليهِ فَإِنَّ الأمرَ يَنْدَرِجُ تحتَ زَمَنِ الحَاضِرِ فِي الطَّلَبِ وَإمكَانِيَّةِ التَّحَقُّقِ فِي المُستَقْبَلِ». ص: (٣٦).

---

(١) اللُّمَعُ لِابنِ جِنِّي (ص٢٣).

أقولُ: هذَا مَا تَمَّ بيانُهُ وَإيضَاحُهُ، وَلَيسَتِ الـمُشكِلَةُ في العَرَبيَّةِ وَقَواعِدِهَا، وَلكِنَّ الـمُشكِلَةَ فِي فَهمِكَ وَتَصوُّرِكَ، وَبيَّنَّا أنَّ الـمُؤسِّسَ الأوَّلَ وَالشَّخْصَ الَّذِي نَسَبْتَ إليهِ الجِنَايَةَ قَالَ بِخِلافِ مَقَالِكَ، وَالعُلَمَاءُ بَعْدَهُ قَرَّروا خِلافَ مَا نَسَبْتَهُ إِلَيْهِمْ وَإِلَى العَرَبيَّةِ حِقْدًا وَغَيْظًا في صَدْرِكَ وَكَأَنَّ فِي كَبِدِكَ جَمْرًا.

أمَّا دِلالَةُ (الأَمْرِ)، فَإِنَّهَا للحَالِ، إلَّا إذَا دَلَّتِ القَرِينَةُ عَلَى الـمُستَقْبَلِ، وَهـذَا شَيءٌ بَدَهِيٌّ، أمَّا للحَالِ فَإِنَّهُم ذَكَرُوا مَعَ الأَمْرِ الـمُضَارِعَ أيضًا؛ لأنَّ الـمُضَارِعَ يَدُلُّ عَلَى الحَالِ وَالـمُستَقْبَلِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ هذَا مِنْ كَلامِ سِيبَوَيْهِ السَّابِقِ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، نَسأَلُ اللهَ تَعَالَى الهِدَايَةَ لَنَا وَلِصَاحِبِ الجِنَايَةِ، وَأَرْشَدَهُ رُشْدَهُ وَأَنَارَ لَهُ الطَّرِيقَ.

ثُمَّ قَالَ: وَالحَقِيقَةُ أنَّ قَضِيَّةَ الزَّمَنِ فِي أفعَالِ اللُّغةِ العربيَّةِ هِيَ قَضِيَّةٌ مُعَقَّدَةٌ، وَلَم يُوَفَّقْ أهلُ اللُّغَةِ إطْلاقًا فِي حَلِّهَا وَتَصنِيفِهَا، وَكُلُّ ذلِكَ بِحُضُورِ النَّقلِ وَغِيَابِ العَقْلِ.

وَإِنَّنَا نَجِدُ أزمِنَةَ الأفعَالِ فِي بَقِيَّةِ اللُّغَاتِ العَالَمِيَّةِ -وَلتَكُنِ الإنكِلِيزِيَّةُ مَثَلًا- أَوْضَحُ وَأَدَقُّ مِنْهَا فِي العَرَبِيَّةِ.

نُؤمِّلُ الآنَ أَنْ لَا يَنْفَعِلَ أَحَدُهُم وَيقُولَ: اسمَعُوا إنَّ اللُّغَةَ الإِنكلِيزِيَّةِ هِيَ أَدَقُّ وَأَوْضَحُ مِنْ لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ (لُغَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ)، وَهُنَا أقولُ لَهُ: عُدْ وَاقرَأِ الفقرَةَ ثَانِيَةً[1] وَفَرِّقْ بينَ اللُّغَةِ وَقَوَاعِدِهَا وَزَمَنِ أَفْعَالِهَا». ص: (٣٦).

أقُولُ: إِنَّنِي أَتَعجَّبُ مِنْ هذَا الرَّجُلِ، كَيفَ لَا يَتَقِي اللهَ تَعَالَى وَلَا يَخَافُ سُمْعَتَهُ بِجَمْعِ هـذِهِ الكَلِمَاتِ؟! وَلَا أدْرِي مَا عَلاقَةُ العَقْلِ وَالنَّقْلِ بمِثلِ هـذِهِ القَضَايا؟ وَالأَعْجَبُ أَنَّهُ نَسَبَ إِلَى النُّحَاةِ إهمَالَ الزَّمَنِ وَهُم لَم يُهمِلُوهُ، وَعَلى هذَا الشَّيءِ الَّذِي لَم يَفْعَلُوهُ يُحَاكِمُهُم، وَيَحكُمُ عليهِمْ ظُلمًا وَجَوْرًا باطِّرَاحِ العَقْلِ، وَاللهِ لَعَجِيبٌ هذَا!

---

(١) يَعْنِي: نَعَم!.

أَمَّا قَضِيَّةُ الزَّمَنِ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى فَكُلُّ لُغَةٍ فِيهَا مَشَاكِلُ كَبِيرَةٌ مِنْ هذَا الجَانِبِ، وَإِمَّا لِنَقصِ بَعضِ الأَزمِنَةِ فِيهَا، وَإِمَّا لِكَثرَةِ الأَزمِنَةِ الـمَوجُودَةِ بِحَيثُ تُشَوِّشُ عَلَى الطَّالِبِ، وَلَا يُمكِنُهُ ضَبطُهَا وَاستِيعَابُهَا إِلَّا بِمَشَقَّةٍ بَالِغَةٍ؛ لأَنَّهَا وَعْرُ الـمُلْتَمَسِ وَالـمُبْتَغَى وَالـمُرتَقَى، وَكَؤُودُ الـمَطْلَبِ وَالـمَرْكَبِ، وَعَلَى رَأسِ هذِهِ اللُّغَاتِ اللُّغَةُ الإِنجلِيزِيَّةُ فَإِنَّ الزَّمَنَ فِيهَا غَيرُ مُنْضَبِطٍ بِضَوَابِطَ دَقِيقَةٍ بهذَا الشَّكْلِ الَّذِي يُبدِي أوزونُ إِعجَابَهُ بِهَا، وَبِالتَّالِي لَو أَنَّ هذَا التَّشَعُّبَ وَالازدِحَامَ وَالتَّشَرْذُمَ الَّتِي نَجِدُهَا فِي زَمَنِ الأَفعَالِ فِي اللُّغَةِ الإِنجلِيزِيَّةِ، وُجِدَتْ فِي العَرَبِيَّةِ، وَمَا كَانَ مَوجُودًا فِي العَرَبِيَّةِ الآنَ كَانَ مَوجُودًا فِي الإِنجلِيزِيَّةِ، لَرَأَينَا أوزونَ يُفَضِّلُ الإِنجلِيزِيَّةَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَيَقُولُ: إِنَّ الزَّمَنَ فِي الإِنجلِيزِيَّةِ أَسهَلُ وَأَدَقُّ، لأَنَّهَا قَسَّمَتْهُ إِلَى (مَاضٍ، وَحَاضِرٍ، وَمُسْتَقْبَلٍ)، أَمَّا العَرَبِيَّةُ الـمُعَقَّدَةُ فَإِنَّهَا قَسَّمَتْهَا إِلَى:

(البَسِيطُ بِأَنوَاعِهِ الثَّلاثَةِ):

Past Simple Tense (الـمَاضِي البَسِيطُ).

Present Simple Tense (الـمُضَارِعُ البَسِيطُ).

Future Simple Tense (الـمُسْتَقْبَلُ البَسِيطُ).

(الـمُستَمِرُّ بِأَنوَاعِهِ الثَّلاثَةِ):

Past Continuous Tense (الـمَاضِي الـمُسْتَمِرُّ).

Presesnt Continuous Tense (الـمُضَارِعُ الـمُسْتَمِرُّ).

Future Continuous Tense (الـمُسْتَقْبَلُ الـمُسْتَمِرُّ).

(التَّامُّ بِأَنوَاعِهِ الثَّلاثَةِ):

Past Perfect Tense(الـمَاضِي التَّامُّ).

Present Perfect Tense (الـمُضَارِعُ التَّامُّ).

Future Perfect Tense (الـمُسْتَقْبَلُ التَّامُّ).

(التَّامُّ الـمُستَمِرُّ بأنوَاعِهِ الثَّلاثَةِ):

Past Perfect Continuous (الـمَاضِي التَّامُّ الـمُسْتَمِرُّ).

Present Perfect Continuous (الـمُضَارِعُ التَّامُّ الـمُسْتَمِرُّ).

Future Perfect Continuous Tense (الـمُسْتَقْبَلُ التَّامُّ الـمُسْتَمِرُّ).

هُنا لَا أقُولُ شَيئًا وَلكِنْ تَخيَّلُوا لَو كَانَ هذَا تَقسِيمَ العَرَبِيَّةِ مَاذَا كَانَ عَدَاءُ أوزونَ؟ هَلْ كَانَ يَصِفُهَا بالدِّقَّةِ وَالجَمَالِ وَالقُوَّةِ، كَمَا يَصِفُ الإنجلِيزيَّةَ، أَمْ: كَانَ يَصِفُهَا بالتَّعقِيدِ وَالجُمُودِ وَالِالتِبَاسِ وَالِارتِيَابِ؟! فَلَا شَكَّ أنَّ قَدْحَهُ فِي زَمَنِ أَفْعَالِ العَرَبِيَّةِ وَمَدْحَهُ لأَزْمِنَةِ الإِنْجلِيزِيَّةِ يُذَكِّرُونِي بِقَوْلِهِم: (عَجبًا لِـمَنْ يُؤثِرُ العَوْرَاءَ عَلَى العَيْنَاءِ!).

ثُمَّ يَتَكَلَّمُ صَاحِبُ الجِنَايَةِ عنْ جِهَةٍ أُخْرَى مِنْ جِهَاتِ الفِعْلِ وَهِيَ الفِعْلُ مِنْ حَيثُ التَّمَامُ وَالنَّقْصُ، وَيَقُولُ: «فَالأَفعَالُ عِندَ أهلِ اللُّغَةِ تَامَّةٌ، أَوْ: نَاقِصَةٌ، وَقَدْ تَمَّ ذِكْرُ ذلِكَ بالتَّفصِيلِ عندَ بحثِ مَفهُومِ الفِعْلِ النَّاقِصِ (كَانَ وَأَخواتِهَا، كَادَ وأخواتِهَا)». ص: (٣٦).

أقُولُ: هُنَاكَ ذَكَرْنَا مَا أتَى بِهِ وَبيَّنَّاهُ مُفَصَّلًا مُوَصَّلًا، فَلَا أقُولُ شيئًا بَعْدَ هذَا، وَالحُكمُ إليكُمْ، وَأَظُنُّ أنَّهُ انْحَسَرَتْ عَنْهُ ظِلَالُ الإِبْهَامِ، وَجَاءَ النُّورُ بَعْدَ الظَّلامِ، وَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا وَبِحَبْلِهِ يَكُونُ الِاعتِصَامُ.

[مِنَ الكَامِلِ]

دَمَغَتْ شُمُوسُ الحَقِّ لَيْلَ البَاطِلِ وَمَحَتْ أكُفُّ العَدْلِ رَسْمَ الجَاهِلِ

مَعْنَى (الْمَفْعُولِ بِه) وَسُقْمُ تَصَوُّرِ الْمُهَنْدِسِ

وَلَا يَزَالُ كَلامُ المهندِسِ مُرْتَبِطًا بالفِعْلِ وَيَتَكَلَّمُ عَنِ (المَفعُولِ بِهِ) وَيُبَيِّنُ لَنَا عَدَمَ مَعْرِفَتِهِ بِهِ تَمَامًا، وَيَقُولُ: «أُريدُ أَنْ أُلفِتَ النَّظَرَ هُنَا إِلَى أَنَّهُ تَمَّ تحدِيدُ المفعُولِ بِهِ بناءً عَلَى حَرَكَةِ آخرِ الكَلِمَةِ (النَّصبِ بالفَتْحَةِ، أَو: مَا يَنُوبُ عَنْهَا)، ولَم يَتِمَّ تَحدِيدُ المفعُولِ بِهِ حَسَبَ عَلاقَتِهِ بالفِعْلِ وَبِوقُوعِ الأَخِيرِ عليهِ.

فَالفِعْلُ (جَلَسَ) مَثَلًا هُوَ فِعْلٌ لَازِمٌ لأَنَّهُ لم يأخذْ مفعُولًا بِهِ (اسمًا مَنْصُوبًا)، وهذَا خَطَأٌ كَبِيرٌ نُبَيِّنُهُ فِي المِثَالِ التَّالِي: (جَلَسَ أحمدُ عَلَى السَّرِيرِ).

نُلاحِظُ أَنَّ فِعلَ الجُلُوسِ قدْ تَمَّ مِنْ قِبَلِ الفَاعِلِ (أحمد) وَقَدْ وَقَعَ عَلَى السَّرِيرِ، وعليهِ فَالسَّرِيرُ هُوَ مَا تَمَّ وقُوعُ الفِعْلِ عليهِ، فَهُوَ مفعولٌ بِهِ، وَإِنْ كانَ مَجرُورًا، كذلِكَ عِندَ مَا نَقُولُ: (نَامَ الطِّفْلُ فِي السَّرِيرِ).

فَإِنَّ فِعلَ النَّوْمِ وَقَعَ فِي السَّرِيرِ لَا فِي مَكَانٍ غيرِهِ، وهُنا نجدُ أَنَّ النُّحَاةَ جَاؤُوا بتَعلِيقِ الجَارِّ وَالمَجرُورِ فقَالُوا: الجَارُّ وَالمَجرُورُ مُتَعَلِّقَانِ بالفِعْلِ (جَلَسَ) فِي المِثَالِ الأَوَّلِ، أَوْ: (نَامَ)، فِي المِثَالِ الثَّانِي، وَهذَا كَلامٌ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا يُوجَدُ لَهُ أَيُّ مَدلُولٍ فِي الذِّهْنِ.

وَعليهِ فَإِنَّهُ كَمَا نَرَى لَا يوجَدُ مَا يُسمَّى بالفِعْلِ اللَّازِمِ وَإِنْ لَم يَقُمْ بِنَصْبِ الِاسمِ بَعْدَهُ». ص: (٣٦-٣٧).

أَقُولُ: إِنَّ المُهندِسَ أَخطَأَ لَمَّا أرادَ أَنْ يُسَوِّيَ بينَ وُقُوعِ الفِعْلِ عَلَى المَفعُولِ، وَبينَ وُقُوعِ الفِعْلِ فِي مِثْلِ النَّوْمِ عَلَى السَّرِيرِ وَمَا شَابَهَهُ؛ لأَنَّ النَّوْمَ وَالجُلُوسَ

وَغيرَهُمَا مِنْ هذِهِ الأَفْعالِ، كَانَ وُقوعُهَا فِي أَمْكِنَتِهَا، أَيْ: عَلَى(السَّرِير، أَوِ: الكُرسِيِّ)، وَهُوَ وُقُوعُ الظَّرْفِ فِي المَظرُوفِ، فَصَارَ السَّرِيرُ ظَرْفًا للمَظرُوفِ الَّذِي هُوَ (النَّوْمُ)، وَمَعْنَى الوقُوعِ هُنَا يَعْنِي: (فَوْقَهُ)، وَليسَ كَوُقُوعِ الضَّرْبِ عَلَى(زَيْدٍ)، حَيْثُ أَوْقَعَ الفَاعِلُ فِعْلَ الضَّرْبِ عَلَيْهِ، فَمَثَلًا، لَوْ قَارَنَّا مِثَالَ أوزونَ: (جَلَسَ أَحمَدُ عَلَى السَّرِيرِ)، بِمِثَالٍ يَظْهَرُ فِيهِ التَّفرِيقُ جَيِّدًا، نَقُولُ: (أَجْلَسَ مُحَمَّدٌ أَحْمَدَ عَلَى السَّرِيْرِ)، فَفِي المِثَالِ الأَوَّلِ جَلَسَ أحمَدُ فَوْقَ السَّرِيرِ، فَالسَّرِيرُ ظَرْفٌ لِفِعْلِ (جَلَسَ).

أمَّا للمِثَالِ الثَّانِي فَأَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا أَوْقعَ فِعْلَ الجُلُوسِ الَّذِي كَانَ فَوْقَ السَّرِيرِ عَلَى أَحْمَدَا!

فالفَرْقُ بَيْنَهُمَا بيِّنٌ بَارِزٌ وَلكِنَّ المُهَندِسَ ذَهَبَ بَعِيدًا جِدًّا، بِسَبَبِ قِلَّةِ باعِهِ فِي فَهْمِ الكَلامِ وَمَواقِعِهِ.

أَمَّا الكَلَامُ عَنِ الجَارِّ وَالمَجرُورِ وَتَعلُّقِهِمَا بالفِعْلِ، فَسَيأتِي مَعَنَا فِي الفَصْلِ الآتِي بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا كَوْنُ الفِعْلِ اللَّازِمِ لَا يَبْقَى لَهُ مَعْنًى كَمَا أَوْهَمَ أوزونُ، فَهُوَ كَلامٌ غيرُ وَاقِعِيٍّ أَصْلًا؛ لأَنَّ الفِعْلَ اللَّازِمَ قَلَّ أَنْ تَقْتَرِنَ بِهِ الحُرُوفُ الجَارَّةُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ، فَمِثَالُهُ قَوْلُكَ: (حَسُنَ إِسْلامُهُم)، أَو: (خَرَجَ مُحمَّدٌ)، وَ: (دَخَلَ أَحْمَدُ)، ..وَإِلَى آخرِ الأَفْعَالِ اللَّازِمَةِ، وَلَا أدرِي لِمَاذَا لَا يَبْقَى لَهَا مَعْنًى إِذَنْ؟

الكَلَامُ عَلَى تَعَلّقِ الجَارِ وَالمَجْرُورِ

تَكَلَّمَ أَوزونُ عَنْ تَعَلُّقِ الجَارِّ وَالمَجرُورِ ورآهُ حَشوًا، وَلَا مَكَانَ لَهُ فِي الذِّهْنِ، فَقَالَ: «وهُنا نجدُ أنَّ النُّحَاةَ جَاؤُوا بتَعليقِ الجَارِّ وَالمَجرُورِ فَقَالُوا: الجَارُّ وَالمَجرُورُ مُتَعَلِّقَانِ بالفِعْلِ (جَلَسَ) فِي المِثَالِ الأَوَّلِ، أَوْ: (نَامَ)، فِي المِثَالِ الثَّانِي، وَهذَا كَلامٌ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا يُوجَدُ لَهُ أيُّ مَدلُولٍ فِي الذِّهنِ.

وَعليهِ فإنَّهُ كَمَا نَرَى لَا يوجَدُ مَا يُسمَّى بالفِعْلِ اللَّازِمِ وَإِنْ لَم يَقُمْ بِنَصْبِ الِاسمِ بَعْدَهُ». ص: (٣٧).

أقُولُ: إنَّ تَعَلُّقَ الجَارِّ، أَوِ: الجَارِّ وَالمَجرُورِ بِمُتَعَلَّقٍ مِنَ المَبَاحِثِ المهِمَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا عُلَمَاءُ النَّحوِ، وَهُوَ أَصْلًا مَبْحَثٌ عَقلِيٌّ فَائِدَتُهُ تَرجِعُ إِلَى المَعْنَى، لَا إِلَى حَرَكَاتِ آخِرِ الكَلِمَةِ الَّتِي لِجَنَابِ المُهَنْدِسِ مَعَهَا حَسَّاسِيَّةٌ وَيُنَافِرُهَا دَوْمًا، وَلَا أَدرِي مَا الدَّافِعُ لِرَدِّهِ وَإِنْكَارِهِ، لَيتَهُ بيّنَ لَنَا السَّبَبَ الوَاقِعِيَّ.

أَشرَعُ فِي بَيَانِ تَعَلُّقِ الجَارِّ وَالمَجرُورِ بالفِعْلِ أَوْ: بِمَا هُوَ شَبِيهٌ بالفِعْلِ (كَالمُشتَقَّاتِ)، أَوْ: مَا هُوَ فِي مَعْنَى الفِعْلِ[1]، كَمَا قَالَ ابنُ هِشَامٍ: «لَا بُدَّ مِنْ تَعَلُّقِهِمَا بِالْفِعْلِ، أَوْ: مَا يُشْبِهُهُ، أَوْ: مَا أُوِّلَ بِمَا يُشْبِهُهُ، أَوْ: مَا يُشِيرُ إِلَى مَعْنَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مَوْجُودًا قُدِّرَ»[2].

وَلكِنْ قبلَ ذلكَ أَتَقَدَّمُ بِمُقَدِّمَةٍ يَسِيرَةٍ عَلَى تَقسِيمِ الحُرُوفِ الجَارَّةِ إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ:

القِسمُ الأَوَّلُ: حَرْفُ الجَرِّ الأَصْلِيُّ.

القِسْمُ الثَّانِي: حَرْفُ الجَرِّ الزَّائِدُ.

القِسْمُ الثَّالِثُ: حَرْفُ الجَرِّ الشَّبِيهُ بالزَّائِدِ.

---

(١) كَقَوْلِكَ: (أَيْنَ أنتَ مِنَ المَعَالِي؟)، يَعْنِي: بَعُدْتَ عَنِ المَعَالِي.

(٢) مُغْنِي اللَّبِيبِ (ص٥٦٦).

فَالقِسْمُ الأَوَّلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى مُتَعلَّقٍ يَتَعَلَّقُ بِهِ بينَ الأَقْسَامِ الثَّلاثَةِ، فَهذَا القِسْمُ لَوْ أَزَلْتَهُ فِي الجُمْلَةِ لاختَلَّ مَعْنَاهَا الأَصْلِيُّ الَّذِي أُنْشِئَتْ عليهِ، بِخِلافِ القِسْمَيْنِ الآخرينِ[١]، حيثُ يَبْقَى الـمَعْنَى الأَصْلِيُّ بَعْدَ إِزَالَتِهِ، مَعَ أَنَّ وجودَهُ يَدُلُّ عَلَى تَوكِيدِ الـمَعْنَى فِي الثَّانِي، وَعَلَى مَعْنًى جَدِيدٍ فِي الثَّالِثِ.

فَفِي هذَا القِسْمِ لَا بُدَّ مِنْ شِبْهِ الجُملَةِ (الجَارِّ وَالـمَجْرُورِ، وَالظَّرْفِ)، مِنْ مُتَعلَّقٍ يَتَعلَّقُ بِهِ، وَهذَا الـمُتَعَلَّقُ يُظْهِرُ تَمَامَ الـمَعْنَى الدَّلَالِيِّ مِنَ الجُمْلَةِ وَيُسْفِرُ عَنْهُ تَمَامَ الإِسْفَارِ مِنْ حَيثُ الـمَكَانُ وَالزَّمَانُ وَالنَّوْعُ، مَثَلًا، لَوْ قُلْتَ: (خَرَجَ زَيْدٌ)، فَإِنَّكَ لَا تَعْرِفُ هَلْ كَانَ الخُرُوجُ مِنْ مَكَانٍ، أَوْ: زَمَانٍ، فَإِذَا قُلْتَ: (مِنَ الـمَسْجِدِ)،دَلَّ عَلَى الـمَكَانِ، وَإِذَا قُلْتَ: (بِالسَّحَرِ)، دَلَّ عَلَى الزَّمَانِ.

وَكذَا لَوْ قُلْتَ: (زَيْدٌ فِي الدَّارِ)، أَوْ: (مَرَرْتُ بِرَجُلٍ مِنْ فِلِسطِينَ) فَلَا شَكَّ أَنَّ مَعْنَاهُ: (مُستَقِرٌّ فِي الدَّارِ)، (كَائِنٍ مِنْ فِلسطِينَ)، سَوَاءٌ قُلْتَ بِالـمُتَعَلَّقِ، أَوْ: لَم تَقُلْ، وَقَدْ سَبَقَ أَوزونَ ابْنُ مَضاءٍ اللَّخمِيُّ وأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ هذَا الـمَعْنَى لِلمُتَعَلَّقِ، بَلْ: نَسَبَ الـمَعْنَى إِلَى حَرْفِ الجَرِّ.

وَقَدْ يَصِحُّ كَلامُ ابنُ مَضَاءٍ فِي بَعْضِ الجَوَانِبِ وَهُوَ سَدِيدٌ، وَلكِنْ لَا يَخلُو مِنْ مَقَالٍ فِي بَعضِ الجَوَانِبِ، وَلَيسَ ثَمَّةَ مَكَانٌ لِلوقُوفِ عَلَى إِيرَادِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ تَأْثِيرَ مَبْحَثِ التَّعَلُّقِ عَلَى التَّفسيرِ وَالتَّوجِيهِ، فَلْيَنظُرْ إِلَى كُتُبِ التَّفسِيرِ الَّتِي تَعْتَنِي بِجَانِبِ اللُّغَةِ، كَالكَشَّافِ وَالبَحْرِ الـمُحِيطِ، وَغيرِهِمَا[٢]. وَمَعَ هذَا نَعْتَرِفُ بِأَنَّ بَعضَ العُلَمَاءِ جَعَلَ التَّعَلُّقَ تَابِعًا لِلـمَعْنَى لَا كَاشِفًا عَنِ الـمُرَادِ، وَهذَا نَرَاهُ جَلِيًّا عِنْدَ اختِيَارِ الـمُتَعَلَّقِ وَقْتَ الخِلافِ بينَهُم فِي تَحْدِيدِهِ.

---

(١) مُغْنِي اللَّبِيبِ (ص٥٧٥).

(٢) وَمِنَ الـمُهِمِّ أَيضًا العِنَايَةُ بِكُتُبِ شُرُوحِ الشِّعْرِ، وَلَا سِيَّمَا الفُصَحَاءِ وَالبُلَغَاءِ منهُم.

فَعَلَى كُلِّ حَالٍ لَيسَتْ هذِهِ الجُزئيَّةُ اليَسِيرَةُ تُبَرِّرُ لِهَدْمِ جُهْدِ النُّحَاةِ الجَبَّارِ، وَعَمَلِهِمُ المُتْقَنِ الرَّصِينِ، جَزَاهُمُ اللهُ عَنِ الإسلامِ وَالعَرَبِيَّةِ (لُغَةِ القُرآنِ الكَرِيمِ) خَيرًا.

إنْكَارُ تَعَدِّي الفِعْلِ إلَى مَفْعُولَيْن وَأَكْثَر

ثُمَّ بعدَ ذلِك جاءَ لِيُنْكِرَ الـمَفْعُولَ الثَّانِيَ وَالثَّالِثَ فِي العَرَبِيَّةِ، وَقَالَ: «أمَّا مَا يُسمّونَهُ الأَفعالَ الـمُتعَدِّيَّةَ لِـمفعُولَين، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أنْ يَقعَ الفِعْلُ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ واحِدٍ، أيْ: أنَّهُ لا يُمكِنُ للفِعْلِ أَنْ يَأخذَ أَكْثَرَ مِنْ مَفعُولٍ بِهِ وَاحِدٍ، وَتِلكَ الأَسماءُ الـمَنصُوبةُ الَّتِي سُمِّيَتْ مَفعُولًا بِهِ ثَانِيًا (أَصلُهَا مُبْتَدأً وَخبَرًا وَغيرهَا) أَوْ: ثالِثًا، هِيَ ضربٌ مِنَ التَّخرِيجَاتِ لِحَرَكَةِ النَّصْبِ الَّتِي ارتَبَطَتْ دَائِمًا فِي ذِهْنِنَا بالـمَفعُولِ بِهِ، وَسَأشرَحُ ذلِكَ بالأَمثِلَةِ التَّالِيَةِ..». ص: (٣٧-٣٨).

أقُولُ: قَبْلَ أَنْ أَتكَلَّمَ عَلَى الـمِثَالَيْنِ اللَّذَيْنِ جَاءَ بِهِمَا، بِودِّي أَنْ أَطْلُبَ مِنَ الـمُهندِسِ بَيَانَ وَجْهِ امتِنَاعِ تَعَدِّي الفِعْلِ إِلَى مَفْعُولَيْنِ، وَنتَمَنَّى أَنْ يُبيِّنَ لَنَا العِلَّةَ فِي ذلِكَ لِنَعرِفَ جَمِيعًا حَقِيقَةَ هذَا الامتِنَاعِ؛ لأَنَّنَا لَا نَرَى فِي ذلِكَ بأسًا لَا عَقلًا وَلَا عُرْفًا وَلَا لُغَةً؛ لأنَّ وَقُوعَ الفِعْلِ الوَاحِدِ عَلَى أَكْثَرَ مِنَ الوَاحِدِ لَهُ أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ فِي الوَاقِعِ الـمَحسُوسِ، وَلَيْتَهُ بيَّنَ وَنَتَمَنَّى أَنْ يُبيِّنَ فِيمَا بَعْدُ، حَتَى نَسْتَمِعَ إِلَى دَلِيلِهِ وَنُحَاوِرَهُ عَلَى مُقْتَضَى كلامِهِ.

وَكَمَا قُلنَا مَرَّاتٍ: إِنَّهُ مِنَ السَّهْلِ أَنْ تُنْكِرَ وَلَا تُذعِنَ لِشَيءٍ وَتَرُدَّ كُلَّ مُسَلَّمٍ بِهِ، ولكِنَّ الصَّعبَ الشَّاقَّ هُوَ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَى رَأيٍ وَالاعتِرَاضِ عَلَيْهِ، أَوِ الدِّفَاعُ عنهُ، أمَّا إطلاقُ القَوْلِ دُونَ التَّقيِيدِ بالبُرهَانِ فيُحْسِنُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ.

وَالآنَ نَذْهَبُ إِلَى مِثَالِهِ فِي الـمَوضُوعِ، حَيثُ يَضرِبُ مِثَالَيْنِ وَلَا أَدرِي لِمَاذَا قَالَ (الأَمثِلَة) فِي كَلامِهِ مَعَ كَونِ الـمِثَالِ اثْنَيْنِ وَلَيْسَ جَمْعًا، وَهُمَا:

المِثَالُ الأَوَّلُ: (أَعْطَى أحمَدُ الفَقِيرَ رَغِيفَ خُبْزٍ):

يُعلِّقُ عليهِ قَائِلًا: «وَالحقيقَةُ أنَّ الَّذي وَقَعَ عليهِ فِعْلُ العَطَاءِ هُوَ الفَقيرُ فَهُوَ المَفعُولُ بِهِ. أَمَّا الرَّغِيفُ فَهُوَ ليسَ مَفعُولًا بِهِ ثَانِيًا، وَهُوَ يُبيِّنُ نَوْعَ العَطَاءِ، وَلَا عَلَاقَةَ لَهُ بِوقُوعِهِ». ص: (٣٨).

أقُولُ: عَجِيبٌ أَمْرُ هذَا الرَّجُلِ، فَهَلْ حَقًّا هُوَ بِصَدَدِ تَسْهِيلِ العَرَبِيَّةِ وَإِعْطَائِهَا إِطَارًا عَقليًّا؟ أَمْ: هُوَ بِصَدَدِ التَّعمِيَةِ وَالتَّشوِيشِ وَجَعْلِهَا مُعَمَّى، بحيثُ يُدْخِلُ فِي المَفعُولِ بِهِ مَا ليسَ فِيهِ، وَالآنَ يُرِيدُ أَنْ يُخرِجَ مِنهُ مَا هوَ فيهِ (المَفعُولُ الثَّانِي)، وَلَا أَدرِي هَلْ نَسِيَ أَنَّهُ قالَ: يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ كِتابُهُ كِتابًا تَعلِيمِيًّا فِي البِدَايَةِ، أَهكذَا يَكُونُ كِتابًا تعليميًّا؟

أَمَّا عَنْ تَوجِيهِهِ لِلمِثَالِ فأقُولُ: هَبْ أَنَّ هذَا ليسَ مَفعُولًا بِهِ وَلَا نَتَّفِقُ مَعَ النُّحَاةِ علَى ذلِكَ، وَلكِنْ كيفَ نُفرِّقُ بينَهُ وبينَ المَفعُولِ المُطْلَقِ الَّذِي يَكُونُ لِبَيَانِ الفِعْلِ؟ أليسَ هذَا أيضًا لِبَيَانِ الفِعْلِ وَهُوَ مَنْصُوبٌ؟! إِذَا لَم يعتَمِدْ أوزونُ عَلَى قواعِدِ النُّحَاةِ كَيفَ يُميِّزُ بينَ هذَا وَذَاكَ؟

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ أَنَّ أوزونَ لم يُطْلِقْ عليهِ مُصْطَلَحًا حَتَّى نُنَاقِشَهُ فِيهِ، فَكُلُّ مَا قَالَهُ هُوَ أَنَّ الرَّغِيفَ جَاءَ لِبَيَانِ نَوْعِ العَطَاءِ، فالمَفعُولُ الثَّانِي أيضًا يَحمِلُ صِفَةَ البَيَانِ وَيُبيِّنُ، وَلَمْ نُعَرِّهِ مِنَ البَيَانِ حَتَّى يُعَارِضَنَا أوزونُ بِكَوْنِهِ مُبَيِّنًا.

وَكَذَا هُنَاكَ وَجْهٌ آخَرُ فِي الرَّدِّ عَلَى أوزونَ وَهُوَ أَنَّ هذِهِ الجُمْلَةَ يُعَبَّرُ عَنْهَا بالأُسلُوبِ العَصْرِيِّ بِشَكْلٍ آخَرَ، وَهُوَ: (أَعطَى أحمدُ لِلفَقِيرِ رَغِيفًا) أَوْ: (رَغِيفَ خُبْزٍ)، فَـ(رَغِيفًا)، مَفعُولٌ بِهِ بِاتِّفَاقٍ دونَ أيِّ نكِيرٍ، وَهذِهِ الجُمْلَةُ لَو تُرْجِمَتْ إِلَى الإِنْجليزِيَّةِ، أَوْ: غيرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، تَكونُ (الرَّغِيفُ)، مَفعُولًا بِهِ. فَمَثَلًا لَوْ تَرْجَمْنَاهَا إِلَى الإِنْجِلِيزِيَّةِ لَقُلْنَا:

(Ahmad gave a loaf of bread to the poor man)

فَكَلِمَةُ (bread) مَفْعُولٌ بِهِ فِي هذِهِ الجُمْلَةِ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ مِنْ غَيرِ خِلَافٍ.

وَلَا أَدرِي مَا الفَرْقُ بينَ (الرَّغِيفِ) فِي الجُمْلَتَيْنِ لِمَاذَا لَا يَصلُحُ لِتَكُونَ مَفعُولًا بهِ فِي الأُولَى، وَيَصْلُحُ فِي الثَّانِيَةِ؟ وَهَلْ أوزونُ يُذعِنُ للأَمرِ وَيَقُولُ بأنَّهُ مَفعُولٌ بِهِ فِي اللُّغاتِ الأُخرَى وَيَترُكُ الثَّرْثَرَةَ فِي حَقِّ العَرَبِيَّةِ، أَمْ: يَدعُو لِتَغييرِ قَوَاعِدِ الإنجلِيزيَّةِ أيضًا (اللُّغَةِ العبقَرِيّةِ الفَذَّةِ عندَ أوزون)؟!.

المِثَالُ الثَّانِي: (أَظُنُّ الطَّالِبَ نَاجِحًا):

يُعَلِّقُ عَليهِ بِقَوْلِهِ: «وَهُنا فإنَّ فِعْلَ الظَّنِّ وَقَعَ عَلَى الطَّالِبِ، وَلَم يَقَعْ عَلَى نَجَاحِهِ، وَكَلِمَةُ (نَاجِحًا) تُبيِّنُ حَالَ الطَّالِبِ وَتَتَعَلَّقُ بِهِ، وَلَا علاقَةَ لَهَا بِفِعْلِ الظَّنِّ». ص: (٣٧).

أقُولُ: إنَّ حَذْفَ المَفْعُولِ الثَّانِي مِنْ بَابِ (ظَنَّ)، لَا يَجُوزُ بِحَالٍ، وَهُوَ مِنَ الأَمكِنَةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ فِيهَا حَذْفُهُ قَطْعًا، قَالَ المُبَرِّدُ: «(هَذَا بَابُ الْفِعْلِ المُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى أَحَدِهِمَا دُونَ الآخَرِ)

وَتِلْكَ الْأَفْعَالُ هِيَ أَفعَالُ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ؛ نَحْوُ: (عَلِمْتُ زَيْدًا أَخَاكَ)، وَ(ظَنَنْتُ زَيْدًا ذَا مَالٍ)، وَ(حَسِبْتُ زَيْدًا دَاخِلًا دَارَكَ)، وَ(خِلْتُ بَكْرًا أَبَا عَبْدِ اللهِ)، وَمَا كَانَ مِنْ نَحوِهِنَّ وَإِنَّمَا امْتَنَعَ: (ظَنَنْتُ زَيْدًا) حَتَّى تَذْكُرَ المَفْعُولَ الثَّانِيَ؛ لِأَنَّهَا لَيسَتْ أَفْعُلًا وَصَلَتْ مِنْكَ إِلَى غَيْرِكَ، إِنَّمَا هُوَ ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ، فَإِذَا قُلْتَ: (ظَنَنْتُ زَيْدًا مُنْطَلِقًا) فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: (زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ فِي ظَنِّي، فَكَمَا لَا بُدَّ لِلابْتِدَاءِ مِنْ خَبَرٍ، كَذَا لَابُدَّ مِنْ مَفْعُولِهَا الثَّانِي؛ لِأَنَّهُ خَبَرُ الِابْتِدَاءِ»[1].

وَهذَا خَيرُ دَلِيلٍ عَلَى أنَّ عَمَلَهُ أكبَرُ مِنْ أنْ يَكُونَ لِبَيَانِ الحَالِ فَقَط؛ لأنَّ الجُمْلَةَ تَستَقِيمُ بِدُونِ بَيَانِ الحَالِ، وَلكِنْ هَدْمُهَا يَكُونُ بِحَذْفِ أَحَدِ أَرْكَانِهَا، وَمَا دَامَ المَعْنَى

---

(١) المُقْتَضَبُ للمبرِّدِ (٣/ ٩٥).

لَا يَستَقِيمُ بدُونِ الـمَفعُولِ الثَّانِي، لَا وَجْهَ للقَوْلِ بأنَّهُ لِبَيَانِ الحَالِ، فَمَثَلًا، لَوْ قُلْتَ: (أَظُنُّ الطَّالِبَ)، لَم يَكُنْ كَلامُكَ مَفْهُومًا وَلَا يَزَالُ الـمُخاطَبُ بانتظَارِ استِمَاعٍ إلَى مَا يَدُلُّ عَلَى الـمَقْصُودِ.

أمَّا الحَالُ، أوْ: بيَانُ الحَالِ، فَكِلاهُمَا تَستَقِيمُ الجُمْلَةُ بِدُونِهِمَا، كَقَوْلِكَ: (جَاءَ الطَّالِبُ مَسرُورًا)، فلَوْ حَذَفْتَ: (مَسرُورًا)، لَم تُخِلَّ الـمَعْنَى وَلَا يَنتَظِرُ الـمُخاطَبُ شَيئًا آخرَ بِخِلافِ الأُوْلَى.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أنَّ كَلامَ أُوزونَ هـذَا (وَهُنا فإنَّ فِعْلَ الظَّنِّ وَقعَ عَلَى الطَّالِبِ) خَطَأٌ كَبيرٌ مِنْ جِهَةِ الـمَعْنَى، وهذَا يُكَذِّبُ كُلَّ مَا ادَّعَاهُ سَابقًا عَنِ الرُّجُوعِ إلَى الـمَعْنَى لَا إلَى اللَّفْظِ وَالحَرَكَاتِ؛ لأنَّ الظَّنَّ لَم يَقَعْ عَلَى الطَّالِبِ مِنْ جِهَةِ الـمَعْنَى، بَلْ: وَقَعَ عَلَى النَّجَاحِ؛ لأنَّهُ لَم يُشَكَّ فِي الطَّالِبِ، بَلْ: شُكَّ فِي نَجَاحِهِ وَعَدَمِ نَجَاحِهِ، وَهذَا مَا نَبَّهَ إليهِ ابنُ السَّرَّاجِ فِي بَيَانِ حَذْفِ الـمَفْعُولِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ منْ هذِهِ الأَبوَابِ، فَقَالَ: «إِنَّمَا اسْتَحَالَ هذَا مِنْ جِهَةِ الـمَعْنَى؛ لأنَّكَ إذَا قُلْتَ: (ظَنَنْتُ زَيْدًا مُنْطَلِقًا)، فَالشَّكُّ إنَّمَا وَقَعَ فِي (الِانْطِلَاقِ) لَا فِي (زَيْدٍ)؛ فَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: (ظَنَنْتُ زَيْدًا) وَتَقْطَعَ الكَلَامَ، وَيَجُوزُ أنْ تَقُولَ: (ظَنَنْتُ) وَتَسْكُتَ فَلَا تُعَدِّيَهُ إلَى مَفْعُولٍ، وهذَا لَا خِلَافَ فِيْهِ»[1].

وَبِذلِكَ عَلِمْنَا أنَّ الـمُهَنْدِسَ يُسْرِعُ خَيْلَهُ فِي ظِلَالِ الضَّلَالِ وَالخَيَالِ، فَلَمْ يُنْتِجْ لَهُ إلَّا الِاضمِحْلالَ وَالزَّوَالَ.

---

(١) الأُصُولُ فِي النَّحْوِ لِابنِ السَّرَّاجِ (٢/ ٢٨٥).

ضَرُورَةُ مَعْرِفَةِ المُجَرَّدِ وَالمَزِيدِ مِنَ الأَفْعَالِ

ثُمَّ بعدَ ذلِكَ يَتكَلَّمُ عَنِ الفِعْلِ الـمُجَرَّدِ وَالـمَزِيدْ، وَجُرْمُهُ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَعُلَمَائِهَا يَزِيدْ، وَلَم يأتِ فِي اعتِرَاضَاتِهِ بِشَيءٍ جَدِيدْ، وَيَقُولُ كَرَجُلٍ عَنِيدْ: «الأَفْعَالُ الـمَزِيدَةُ: وهِيَ الأفعالُ الَّتِي لَا تَكُونُ أحرُفُهَا كُلُّهَا أصلِيَّةً، وَإِذَا حَذَفْنَا أحدَهَا ظَلَّ للفِعْلِ مَعْنًى. نَحْو (كَاتِب) أَصْلُهَا (كَتَبَ)، وَهُنَا أيضًا نَجِدُ أنفُسَنَا أمَامَ خَلْطٍ وَمُغَالَطَةٍ وشد وعصر للمعطَيَاتِ[1] والحقائِقِ، فَالفِعلُ الـمَزِيدُ (كَاتِب) مَثَلًا إِذا حَذَفْنَا منهُ الأَلِفَ الـمَزِيدَةَ -حَسَبَ رأيِهِم- نَحصُلُ عَلَى الفِعْلِ (كَتَبَ) وَهُوَ مغايِرٌ تَمَامًا فِي مَعْنَاهُ للفعْلِ (كَاتِب) وَفِي كُلِّ الأحوَالِ، فإِنَّهُ لا يُمكِنُنَا إِسقَاطُ أيٍّ مِنَ الحُرُوفِ فِي الأفعَالِ سَواءٌ كانَتْ مُجرَّدَةً أَمْ: مزيدَةً؛ لأَنَّهُ لَا تَرَادُفَ فِي مُفْرَدَاتِ اللُّغَةِ، وَلَا يُوجَدُ أيُّ مُبَرِّرٍ لإِعادَةِ الفِعْلِ إِلَى أَصْلِهِ -كَمَا يَزْعُمُونَ- وَلَرُبَّمَا نَشَأَتْ فكْرَةُ الفِعْلِ الـمُجَرَّدِ وَالفِعْلِ الـمزيد مِنَ الـمُعجَمَاتِ الَّتِي وضِعَتْ بحيثُ يَسْهُلُ فيهَا حَصْرُ الكَلِماتِ للحَدِّ مِنْ كَثْرَتِهَا بِسَبَبِ التَّقَنِيَّةِ السَّائِدَةِ آنذَاكَ. أمَّا اليومَ وَمَعَ وجُودِ الكُومبيوتَرِ ونِتَاجِهِ العَظِيمِ فإِنَّهُ يجِبُ إِعادَةُ النَّظَرِ بِتِلْكَ المَفَاهِيمِ..». ص: (٣٩).

أقُولُ: لَا أدرِي أينَ أبدَأُ وَبِمَ أُنْهِي كَلامِي مِنْ كَثْرَةِ أوهَامِ الـمُهَنْدِسِ وَبُعْدِ نَتَائِجِهِ عَنْ وَاقِعِ النَّحْوِ؟ أَأَتكَلَّمُ عَنْ عَجِيبِ أمرِهِ حيثُ يُمَثِّلُ للفِعلِ الرُّبَّاعِي بـ(الكَاتِب) الَّتِي هِيَ اسمُ الفَاعِلِ، وَليسَتْ بِفِعْلٍ أصْلًا؟ أَمْ: أتكَلَّمُ عنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِضَرُورَةِ التَّفرِيقِ بينَ الـمُجَرَّدِ وَالـمَزِيدِ مِنَ الأفعَالِ؟

يا مُهَنْدِسُ إِنَّ عُلَمَاءَنَا لَا يَرَوْنَ (الكَاتِب) فِعْلًا أَصْلًا، حَتَّى يَتَكَلَّمُوا عَنْ حَذْفِ الأَلِفِ فِيهَا، فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ منْ (كَتَبَ)، كَمَا أنَّ اسمَ الـمَفعُولِ يَكُونُ (مَكْتُوبًا)، وهذَا

---

(١) كَلَامٌ غيرُ مفهُومٍ مِنَ الـمهندِسِ.

الَّذِي أنتَ تتكَلَّمُ بِهِ يَضْحكُ منهُ الطَّالِبُ الـمُبْتَدِئُ فِي قِرَاءَةِ مُقَدِّمَاتِ عِلْمِ الصَّرْفِ، لَيْتَكَ أَمْسَكْتَ عَنْ شَيءٍ لَا تُحْسِنُهُ؛ لأنَّ العِلْمَ لَا يُحَابِي، وَلِسَانُ التَّارِيخِ لَا يَرْحَمُ.

أمَّا لِضَرورَةِ التَّفريقِ بينَ الـمُجَرَّدِ وَالـمَزِيدِ فنكْتَفِي بِنُقْطَتَيْنِ:

الأُوْلَى: عِنْدَ مَا مَيَّزْنَا الـمُجَرَّدَ مِنَ الـمَزِيدِ، وَقَفْنَا عَلَى الحُرُوفِ الزَّائِدَةِ مِنَ الأَفْعَالِ، وَمِنْهَا نَصِلُ إِلَى مَعَانِي تِلْكَ الحُرُوفِ الزَّائِدَةِ، فَمَثَلًا، (فَعَلَ)، لَوَ جَعَلْنَاهُ (فَعَّلَ)، أَوْ: (فَاعَلَ)، أَوْ: (تَفَعَّلَ) أَوْ..، سَتَحْصُلُ فِي هذِهِ الأَوْزَانِ مَا ليسَ فِي (فَعَلَ) مِنَ الـمَعَانِي، كَمَا سَنَذْكُرُهُ فِي خَصَائِصِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَلكِنْ هُنَا نَكْتَفِي، بِذِكْرِ (تَفَعَّلَ)، كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ الحَاجِبِ فِي شَافِيَتِهِ، فَقَالَ: «وَتَفَعَّلَ: لِـمُطَاوَعَةِ (فَعَّلَ) نَحْوُ: كَسَّرْتُهُ فتكَسَّرَ. وَللتَّكَلُّفِ؛ نَحْوُ: تَشَجَّعَ وتَحَلَّمَ. وَلِلاتِّخَاذِ، نَحْوُ: تَوَسَّدَ. وَلِلتَّجَنُّبِ؛ نَحْوُ: تَأَثَّمَ، وَتَحَرَّجَ. وَلِلْعَمَلِ الـمُتَكَرِّرِ فِي مُهْلَةٍ؛ نَحْوُ: تَجَرَّعْتُهُ، وَمِنْهُ: تَفَهَّمَ. وَبِمَعْنَى (اسْتَفْعَلَ) نَحْوُ: تَكَبَّرَ وتَعَظَّمَ»(١).

الثَّانِيَةُ: أنَّ مَعْرِفَةَ الـمُجَرَّدِ وَتَمييزَهُ عَنِ الـمَزِيدِ فِيهِ، يُسَهِّلُ عليكَ الوصُولَ إِلى مَعْنَاهُ فِي الـمَعَاجِمِ؛ لأَنَّكَ لَو لَم تَعرِفْ أَصْلَ كَلِمَةٍ لَا تَسْتَطِيعُ إِيجَادَهَا فِي الـمَعَاجِمِ عندَ البَحْثِ عنهَا؛ لأنَّ الـمَعَاجِمَ عَادَةً تَذكُرُ الـمُجَرَّدَ وَلَا تَتطَرَّقُ إِلَى الـمَزِيدِ إِلَّا يَسِيرًا؛ لأنَّ مَرَدَّ هذَا التَّمْيِيزِ إِلَى عِلْمِ الصَّرْفِ، فلِذلِكَ أغفَلَهُ أصحَابُ الـمَعَاجِمِ خوفًا مِنَ التَّطوِيلِ.

---

(١) شَرْحُ الشَّافِيَةِ للرَّضِيِّ (١/ ٢٥٩).

كَيْفَ يَكُونُ الفِعْلُ جَامِدًا؟

ثُمَّ بعدَ ذلِكَ يأتِي إلَى بَحْثِ الفِعْلِ مِنْ حَيثُ كُونُهُ مُتَصرِّفًا، أَوْ: جَامِدًا، وَيقُولُ: «وَهُنَا لا بُدَّ مِنَ الاِستِغْرَابِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ ذلِكَ التَّصنِيفِ الفَرِيدِ، فكيفَ يكُونُ الفِعْلُ جَامِدًا؟ أينَ مَفهُومُ الزَّمَنِ فِي الفِعْلِ؟ وَهلْ (عسَى) و(ليسَ) مِنَ الأفعَالِ؟ مَا الَّذِي يَحدُثُ فِي تِلْكَ القَوَاعِدِ؟! أينَ الـمُحاكَمَةُ وَالـمَنطِقُ فِي قَوَاعِدِنَا هذِهِ؟ وَهَلْ يُعتبَرُ هذَا الكَمُّ وَالحَشْوُ مِنَ الكَلامِ قَوَاعِدَ نَفْخَرُ بِهَا وَنَفْرَحُ لِذِكْرِهَا؟ أينَ مَفهُومُ الزَّمَنِ وَالحَدَثِ فِي (ليسَ)؟ وَهَلْ يُمكِنُ أَنْ تَكُونَ فِعْلًا؟». ص: (٤٠).

أقُولُ: إنَّ مَفهُومَ الزَّمَنِ ليسَ غَائِبًا فِي الأَفْعَالِ العَرَبِيَّةِ كَمَا بيَّنَّا ذلِكَ مُفَصَّلًا، وَكَذَا الأَصْلُ فيهَا التَّصرُّفُ، أَمَّا الـجُمُودُ فَهوَ حَالَةٌ استِثنَائِيَّةٌ فِي بَعْضِ الأَفْعَالِ، حَيثُ تُشْبِهُ الفِعْلَ التَّامَّ الـمُتَصرِّفَ مِنْ بَعْضِ الجَوَانِبِ وَتُشْبِهُ الحَرْفَ مِنْ جَانِبٍ، فَلِذلِكَ أَخَذَتْ بَعْضَ خِصَالِ الأَفْعَالِ وَبَعْضَ خِصَالِ الحُرُوفِ، وَلكِنَّهَا أَقْرَبُ إلَى الفِعْلِ، فَلِذلِكَ سُمِّيَتْ أفْعَالًا.

قَالَ ابنُ الأَنبارِيِّ: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا (عَسَى) مِنَ الكَلَامِ؟ قِيلَ: فِعلٌ مَاضٍ مِنْ أَفْعَالِ الـمُقَارَبَةِ لَا يَتَصرَّفُ، وَقَدْ حُكِيَ عَنِ ابْنِ السَّرَّاجِ: أَنَّهُ حَرْفٌ، وَهُوَ قَوْلٌ شَاذٌّ لَا يُعَرَّجُ عَلَيْهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ فِعْلٌ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذلِكَ، أَنَّهُ يَتَّصِلُ بِهِ تَاءُ الضَّمِيرِ، وَأَلِفُهُ، وَوَاوُهُ؛ نَحْوُ: (عَسَيْتُ، وَعَسَيَا، وَعَسَوا)؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: [فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ]، فَلَمَّا دَخَلَتْهُ هذِهِ الضَّمَائِرُ كَمَا تَدْخُلُ عَلَى الفِعْلِ؛ نَحْوُ: (قُمْتُ، وَقَامَا، وَقَامُوا، وَقُمْتُم)، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ، وَكَذَلِكَ -أَيضًا- تَلْحَقُهُ تَاءُ التَّأْنِيثِ السَّاكِنَةُ الَّتِي تَختَصُّ بِالفِعْلِ؛ نَحْوُ: (عَسَتِ الـمَرْأَةُ)؛ كَمَا تَقُولُ: (قَامَتْ وَقَعَدَتْ)؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ»[(١)].

---

(١) أسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص١٠٨).

ثُمَّ بَحَثَ عَنْ عِلَّةِ عَدَمِ تَصَرُّفِهِ قَائِلًا: «فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ لَا يَتَصَرَّفُ؟ قِيلَ: لِأَنَّهُ أَشْبَهَ الحَرْفَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِيهِ مَعْنَى الطَّمَعِ أَشْبَهَ (لَعَلَّ)، وَ(لَعَلَّ) حَرْفٌ لَا يَتَصَرَّفُ، فَكَذَلِكَ مَا أَشْبَهَهُ»[(١)].

وَقَالَ ابنُ الوَرَّاقِ فِي (كَانَ): «فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ (كَانَ وَأَخَوَاتُهَا) تَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ فَقَطْ، فَهَلَّا جُعِلَتِ اسْمًا، لِدَلَالَتِهَا عَلَى مَعْنًى مُفْرَدٍ، كَدَلَالَةِ (يَوْم وَلَيْلَة) وَمَا أَشْبَهَهُمَا؟ قِيلَ: إِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ فَقَطْ، فَقَدْ صُرِّفَتْ تَصْرِيفَ الْأَفْعَالِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالغَرَضُ فِي ذِكْرِهَا الْعِبَارَةُ عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي تَقَعُ فِي خَبَرِ الْمُبْتَدَإِ، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنى وَالزَّمَانِ جَمِيعًا. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (كَانَ زَيْدٌ قَائِما)، دَلَّتْ بِـ(كَانَ) عَلَى قِيَامٍ فِي زَمَانٍ مَاضٍ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ تُجْعَلَ أَفْعَالًا»[(٢)].

---

(١) أَسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص١٠٨).

(٢) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص١٤١).

الكَلامُ عَنْ أسْماءِ الأفْعالِ

ثُمَّ يَمْشِي كَعادَتِهِ وَراءَ سَفْسَطَةٍ وَخَيالٍ، وَجارَ فِي بَحْثِ (أَسْماءِ الأَفْعالِ)، وَبيَّنَ عَجْزَهُ فَقالَ: «أضِفْ أنَّ هُناكَ أسْماءً للأَفْعالِ تَعْمَلُ عَمَلَ أَفْعالِهَا. تَخَيَّلْ أَنَّ الأَسْماءَ تَقُومُ مَقامَ الأَفْعالِ فَتَعْمَلُ عَمَلَهَا، وَتَأْخُذُ فاعِلًا وَمفعُولًا بِهِ، كَقَولِنَا: (دُوْنَكَ القَلَمَ)..فَعِنْدَ مَا وَجَدُوا أنَّ القَلَمَ مَنْصُوبًا[1] لَم يَجِدُوا حَلًّا سِوَى اعتِبَارِ (دُونَكَ) اسمَ فِعْلٍ بِمَعْنَى خُذْ، فَاعِلُهُ (أَنْتَ). وهكَذا عادَتِ التَّخريجاتُ وَعادَتْ حَرَكَةُ اكَلِمَةِ (الفَتْحَةُ فِي القَلَمِ) لِتُسَيْطِرَ عَلَى الفَهْمِ وَعَلَى المَفهُومِ وَلِتَجْعَلَنا نَتَخَبَّطُ فِي مُسْتَنْقَعٍ مِنَ التَّناقُضِ وَالمُغالَطَةِ، فَنُوجِدُ مَا لَا يُوجَدُ وَنَبْتَكِرُ مَا لَا يُعْرَفُ وَنُراوِحُ فِي المَكانِ أَمامَ لَعْنَةِ حَرَكَةِ أَواخِرِ الكَلِماتِ». ص: (٤٠).

أقولُ: إنَّ فِي العَرَبِيَّةِ شَيئًا يَعْمَلُ عَمَلَ الفِعْلِ مَعنًى وَإعْرابًا (فِي اقتِضاءِ المَرفُوعِ وَالمَنْصُوبِ)، وَإِنْ كانَ فِي الحَقِيقَةِ لَيسَ بِفِعْلٍ، فَلا بُدَّ مِنَ الاعتِرافِ بِهِ وَالإذعَانِ لَهُ؛ لأنَّ الكَلامَ الفَصِيحَ مُكْثِرٌ مِنهُ، وَالقُرآنُ الكَرِيمُ أيضًا استَخْدَمَهُ، كَمَا تُوجَدُ فِي قَوْلِهِ تَعالَى (أُفٍّ): ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (الإسراء).

وَ(أُفٍّ) مَعَ (وَيلٌ) فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأحقاف).

وَ(هَيْتَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يوسف).

---

(١) يَجِبُ أَنْ تَقولَ: وَجَدُوا القَلَمَ (مَنصُوبًا)، بِحَذْفِ (أنَّ)، أَوْ: أَنْ تَقُولَ: وَجَدُوا أَنَّ القَلَمَ (مَنْصوبٌ).

وَ(هَيْهَاتَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ ﴾ (المؤمنون).

وَنَجِدُ غيرَهَا مِنْ أسماءِ الأفْعَالِ فِي آيَاتٍ أُخَرَ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ، وَجَاءَتْ فِي فَصِيحِ الشِّعْرِ أيضًا كَثِيرًا، يُمكِنُ الرُّجُوعُ إلَى أُمَّهَاتِ كُتُبِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ.

وَهذَا وَاقِعٌ لَا مَفَرَّ مِنْهُ إنْ أَسْمَيتَهُ اسمَ فِعْلٍ، أَوْ: لَم تُسَمِّهِ، وَقَد كَانَ بَعضُ العُلَمَاءِ نَعَتَهُ بِأسمَاءِ الأَخْبَارِ بَدَلًا مِنَ الأَفْعَالِ كَالزَّمَخْشَرِيِّ مَثَلًا[١].

قَالَ سِيْبَوَيْهِ فِي بَيَانِهِ: «وَاعْلَمْ أَنَّ هذِهِ الحُرُوفَ الَّتِى هِىَ أَسْمَاءٌ لِلفِعْلِ لَا تَظْهَرُ فِيْهَا عَلَامَةُ الـمُضْمَرِ، وَذلِكَ أَنَّهَا أَسْمَاءٌ، وَلَيْسَتْ عَلَى الأَمثِلَةِ الَّتِى أُخِذَتْ مِنَ الفِعْلِ الحَادِثِ فِيْمَا مَضَى وَفِيْمَا يُسْتَقْبَلُ وَفِى يَوْمِكَ، وَلكِنَّ المأمُورَ وَالمنهِىَّ مُضْمَرَانِ فِي النِّيَّةِ. وَإِنَّمَا كانَ مِنْ أَصْلِ هذَا فِى الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَكَانَا أَوْلَى بِهِ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يكُونَانِ إِلَّا بِفِعْلٍ، فَكَانَ الـمَوْضِعُ الَّذِى لَا يَكُونُ إِلَّا فِعْلًا أَغْلَبَ عَلَيْهِ، وَهِىَ أَسْماءُ الفِعْلِ»[٢].

وَقَدْ أَشَارَ الرَّضِيُّ إِلَى أَنَّهُ أَمْرٌ اجتِهَادِيٌّ، كَمَا بيَّنَ عِلَّةَ تَسْمِيَتِهَا بِأسْمَاءِ الأَفْعَالِ فَقَالَ: «وَالَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ قَالُوا: إنَّ هذِهِ الكَلِمَاتِ وَأَمْثَالَهَا لَيْسَتْ بِأَفعَالٍ مَعَ تَأْدِيَتِهَا مَعَانِيَ الأَفْعَالِ: (أَمْرٌ لَفْظِيٌّ)، وَهُوَ أَنَّ صِيَغَهَا مُخَالِفَةٌ لِصِيَغِ الأَفْعَالِ، وَأَنَّهَا لَا تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَهَا، وَتَدْخُلُ اللَّامُ عَلَى بَعْضِهَا، وَالتَّنْوِينُ فِي بَعْضٍ، وَظَاهِرُ كَوْنِ بَعْضِهَا ظَرْفًا، وَبَعْضِهَا جَارًّا وَمَجْرُورًا»[٣].

---

(١) الـمُفصَّلُ فِي صنعَةِ الإِعرَابِ (ص١٩٣).

(٢) الكِتَابُ (١/ ٢٤٢).

(٣) شَرحُ الكَافِيَةِ (٣/ ٨٣-٨٤).

جِنَايَةُ الـمُهَنْدِسِ عَلَى أُسلُوبِ (التَّعَجُّبِ)!

ثُـمَّ وَصَـلَ الـمُهَنْدِسُ إِلَى بَحْـثٍ آخَرَ وَجَنَى عَلَـى العِلْـمِ جِنَايَـةً لَا يَمْحُوهَـا إِلَّا الرُّجُوعُ وَالنَّدَمُ الصَّـادِقُ وَالِاعتِرَافُ بالزَّلَّـةِ، فَقَـالَ: «وَمَـا دُمنَـا نَتَحَدَّثُ عَـنِ الأَفْعَالِ الجَامِدَةِ (لَاحِظْ ذلِكَ الـمُصْطَلَحَ البَشِعَ فِعْل جَامد) فَإِنَّنَا نَتَذَكَّرُ أفعَالَ التَّعَجُّـبِ. نَعَـمْ أفعَالُ التَّعَجُّبِ، فَلا يَحِقُّ لَنَا عِنْدَ أهلِ اللُّغَةِ أَنْ نَتعَجَّبَ إِلَّا بِإِحْدَى الصِّيْغَتيْنِ: (مَا أَفْعَلَهُ!)، وَ(أَفْعِلْ بِهِ!) فتَأَمَّلْ.

إِنَّكَ إِذَا شَاهَدْتَ بَيْتًا جَمِيلًا فَإِنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ: (مَا أَجْمَلَ البَيْتَ!)، أَوْ: (أَجْمِلْ بالبَيْتِ!). مَـا هـذِهِ الدِّيكْتَاتورِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ؟ وَمَتَى كَانتْ قَوَاعِدُ اللُّغَـةِ تَـدْخُلُ الأَحَاسِيسَ البَشرِيَّةَ لِتُعَلِّمَنَا كَيفَ نَتَعَجَّبُ وَكَيْفَ نَهْوَى وَكَيْفَ نَعْشَقُ الأَشْيَاءَ؟ أَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَقُولَ: (يَا لَجَمَالِ البَيْتِ مَثَلًا)! أَوْ: (يَا لَطِيفُ شُو حلو هَالبيت)! أَمْ: أَنَّهُ يَتَوَجَّبُ عليَّ أَنْ أَتعَجَّبَ كَمَا يَتعَجَّبُ أَهلُ قُرَيْشٍ وَمُضَـرَ؟ أَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أُعَبِّرَ عَـنْ مَشَاعِرِي بالأُسلُوبِ الَّذِي يُعجِبُنِي وَيُعْجِبُ أَفرادَ أُمَّتِي الـمُعَاصِرِينَ؟». ص: (٤٠-٤١).

أقُولُ: يَعجزُ لِسَانُ الـمَرءِ عَنِ الكَلامِ تَعَجُّبًا وَاستِعظَامًا لِـمَا أَوْقَعَ فِيهِ الـمُهَندِسُ نَفْسَـهُ، وَيُوقِعهَـا فيـهِ بيـنَ الفَيْنَـةِ وَالأُخْـرَى مِـنَ الظُّلْـمِ والإِجْحَـافِ تَـارَةً، وَالتَّحَامُـلِ وَالتَجَاهُلِ تَارَةً أُخْرَى، وَلَا أَدْرِي كيفَ يَلْعَبُ بِدِينِهِ وَمُعْتَقَدِهِ وَيُرَقِّعُهُمَا؟ وَكَيفَ يَلْعَبُ بِعُقُولِ السُّذَّجِ مِنَ النَّاسِ بِكَلِمَاتٍ مُزَيَّفَةٍ مُزَخْرَفَةٍ لَفَّقَهَا، حَيْثُ لَا أَصْلَ لَهَـا؟ وَكَيْفَ يَسهُلُ عليهِ هذَا الِافتِرَاءُ الصَّرْدُ عَلَى العُلَمَاءِ وَاللُّغَةِ؟

أفَـلَا يَعْلَـمُ الـمُهَنْدِسُ أَنَّ النُّحَـاةَ ذَكَـرُوا للتَّعَجُّـبِ القِيَاسِـيِّ صِـيْغَتَيْنِ، وَهُمَـا (مَـا أَفْعَلَهُ!)، وَ(أَفْعِلْ بِهِ)، أَمَّا غَيرُ القِيَاسِيِّ (السَّمَاعِيُّ)، فَلَا حَدَّ لَـهُ وَلَا يَعْتَرِيـهِ قَـانُونٌ وَلَا

يَعلُوهُ قِيَاسٌ، وَذَكَرُوا الصِّيْغَتَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا أَشْيَعُ وَأَقْيَسُ وَلَيسَ مِنْ بَابِ الحَصْرِ وَالقَصْرِ عَلَيْهِمَا، وَإِنْكَارِ سِوَاهُمَا.

وهذَا كَمَا قَالَهُ الشَّاطِبِيُّ: «وَالحَصْرُ فِي هَاتَيْنِ الصِّيغَتَيْنِ بَاطِلٌ؛ فَإِنَّ فِي كَلَامِ العَرَبِ صِيَغًا كَثِيرَةً تَقْتَضِي مِنْ مَعْنَى التَّعَجُّبِ مَا يَقْتَضِيهِ (مَا أَفْعَلَهُ، وَأَفْعِلْ بِهِ)»(١).

وَقَالَ ابنُ مَالِكٍ قَبْلَهُ: «للتَّعَجُّبِ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ لَا يُبَوَّبُ لَهَا كَـ:(لِلهِ أَنْتَ)»(٢).

وَمِنْهَا ذَكَرَ قَولَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لأَبِي هُرَيْرَةَ: «سُبْحَانَ اللهِ يَا أَبَا هِرٍّ إِنَّ المُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ»(٣).

وَقَالَ فِي (شَرْحِ التَّسْهِيلِ): «للتَّعَجُّبِ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ لَا يَتَعَرَّضُ لَهَا النَّحْوِيُّونَ فِي بَابِ التَّعَجُّبِ»(٤).

وَهذَا. لأَنَّهُم عَمِدُوا إِلَى ذِكْرِ القِيَاسِيِّ غَالِبًا، وَلَمْ يَرُومُوا إِلَى اسْتِقْصَاءِ غَيْرِ القِيَاسِيِّ مِنْهَا.

---

(١) المَقَاصِدُ الشَّافِيَةُ للشَّاطِبِيِّ (٤/ ٤٣٤). وَذَكَرَ الشَّاطِبِيُّ صِيْغَةً أُخْرَى (فَعُلَ)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِم].

(٢) شَرْحُ الشَّافِيَةِ الكَافِيَةِ لِابنِ مَالِكٍ (٢/ ١٠٧٦).

(٣) شَرْحُ الشَّافِيَةِ الكَافِيَةِ (٢/ ١٠٧٦). وَالحَدِيثُ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ: البُخَارِيُّ (١/ ٦٥)، بِرَقْمِ: (٢٨٥)، وَمُسلِمٌ (١/ ٢٨٢)، بِرَقْمِ: (٣٧١).

(٤) شَرْحُ التَّسهِيلِ لِابنِ مَالِكٍ (٣/ ٣٠). وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ العُلَمَاءِ نِسْبَةَ الشَّرْحِ إِلَى ابنِ مَالِكٍ، وَنَسَبُوهُ إِلَى ابْنِهِ، وَلَكِنَّ السُّيوطِيَّ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ كَتَبَهُ وَلَمْ يُتِمَّهُ، فَقَالَ: «وَأَمَّا شَرْحُ التَّسْهِيلِ، فَقَدْ وَصَلَ فِيهِ إِلَى بَابِ مَصَادِرِ الْفِعْلِ الثُّلَاثِيِّ، وَكَمَّلَ عَلَيْهِ وَلَدُهُ». يُنْظَرُ: (بُغْيَةُ الوعَاةِ) (١/ ١٣٤)، ثُمَّ قَالَ: وَذَكَرَ الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ أَنَّهُ كَمَّلَهُ. وَكَانَ كَامِلًا عِنْدَ شِهَابِ الدِّينِ أَبِي بَكْرِ بْنِ يَعْقُوبَ الشَّافِعِيِّ تِلْمِيذِهِ، فَلَمَّا مَاتَ الْمُصَنِّفُ، ظَنَّ أَنَّهُمْ يُجلِسُونَهُ مَكَانَهُ، فَلَمَّا خَرَجَتْ عَنْهُ الْوَظِيفَةُ تَأَلَّمَ لِذَلِكَ، فَأَخَذَ الشَّرْحَ مَعَهُ، وَتَوَجَّهَ لِلْيَمَنِ غَضَبًا عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَ، وَبَقِيَ الشَّرْحُ مَخْرُومًا بَيْنَ أَظْهُرِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ». يُنْظَرُ إِلَى كَلَامِ الصَّفَدِي فِي الوَافِي بالوَفَيَاتِ (١٠/ ١٦٧)، تَرْجَمَة: (الشَّاغورِيّ النَّحْوِيّ).

عَدَّ أَبُو حَيَّانَ عِبَارَاتٍ كَثِيرَةً، عِنْدَ مَا ذَكَرَ النَّوْعَ الأَوَّلَ (القِيَاسِيَّ)، ثُمَّ شَرَعَ فِي النَّوْعِ الثَّانِي وَهُوَ مَا استَخْدَمَتْهُ العَرَبُ فِي كَلامِهَا، فَقَالَ: «هذَا الأَخِيرُ لَمْ يُبَوَّبْ لَهُ بَابٌ فِي النَّحْوِ، وَالتَّعَجُّبُ فِيهِ بِعُرْفٍ، أَوْ: بِقَرِينَةٍ، وَذلِكَ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: (سُبْحَانَ اللهِ!)، وَ(لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ!)، وَ(سُبْحَانَ اللهِ مَنْ هُوَ!)، وَ(مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَيِّمَا[1] رَجُلٍ!)، وَ(زَيْدٌ مَا زَيْدٌ!)، وَمِنْهُ: [القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ]، [الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ]، وَ(وَيْلُمِّهِ[2] رَجُلًا!)، وَ(لِلهِ دَرُّهُ فَارِسًا!)، وَ(حَسْبُكَ بِهِ فَارِسًا!)، وَ(كَفَاكَ بِزَيْدٍ رَجُلًا!)، وَ(سُبْحَانَ اللهِ رَجُلًا!)، وَلَكَ أَنْ تُدْخِلَ «مِنْ» فِي هذِهِ الأَرْبَعَةِ، وَ(العَظَمَةُ لِلهِ مِنْ رَبٍّ!)، وَ(حَسْبُكَ بِزَيْدٍ فَارِسًا!)، وَيَجُوزُ حَذْفُ البَاءِ، فَتَرْفَع (زَيْدًا). وَ(لِلهِ دَرُّهُ!)، وَ(اعْجَبُوا لِزَيدٍ رَجُلًا!)، وَ(مِنْ رَجُلٍ!)، وَ(كَاليَوْمِ رَجُلًا!)، وَكَاللَّيْلَةِ قَمَرًا!)، وَ(كَرَمًا وَصَلَفًا!)، وَ(يَا لِلمَاءِ!)، وَ(يَا لِلدَّوَاهِي!)، وَ(يَا حُسْنَهُ رَجُلًا!)، وَ(يَا طِيبَهَا مِنْ لَيْلَةٍ!)، وَ(يَا لَكَ فَارِسًا!)، وَ(إِنَّكَ مِنْ رَجُلٍ لَعَالِمٌ!)، وَ(مَا أَنْتَ مِنْ رَجُلٍ!)، وَلَا يَجُوزُ حَذْفُ «مِنْ» فِي قَوْلِكَ: (إِنَّكَ مِنْ رَجُلٍ لَعَالِمٌ!)»[3].

وَقَالَ ابنُ هِشَامٍ: «لَهُ عِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ، نَحْوُ: [كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ]..»[4].

وَقَالَ خَالِدٌ الأَزْهَرِيُّ: وَالتَّعَجُّبُ لَهُ عِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ وَارِدَةٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلِسَانِ العَرَبِ..وَمِنْ كَلَامِ العَرَبِ قَوْلُهُمْ: (للهِ دَرُّهُ فَارِسًا). وَإِنَّمَا لَمْ يُبَوَّبْ لَهَا فِي

---

(١) بِجرِّ (أيّ) عَلَى أَنَّهَا صِفَةُ (رَجُل). قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي: (الكِتَابِ) (١/ ٤٢٢): «وَمِنَ النَّعْتِ أَيْضًا: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَيِّمَا رَجُلٍ، فـ(أَيّما) نَعتٌ للرَّجُلِ فِي كَمَالِهِ وبَذِّهِ غَيْرَه، كَأَنَّهُ قَالَ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ كَامِلٍ».

(٢) وَهُوَ فِي الأَصْلِ: (وَيْلٌ لِأُمِّهِ)، وَللمؤنَّثِ: (وَيْلُمِّهَا).

(٣) التَّذْيِيلُ وَالتَّكْمِيلُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّسْهِيلِ لِأَبِي حَيَّانَ (١٠/ ١٧٦).

(٤) أَوْضَحُ المَسَالِكِ إِلى أَلْفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ (٣/ ٢٢٥).

النَّحْوِ لأَنَّهَا لَمْ تَدُلَّ عَلَى التَّعَجُّبِ بِالوَضْعِ، بَلْ: بِالقَرِينَةِ»[١].

وَقَدْ ذَكَرَ السُّيوطِيُّ فِي: (هَمْعِهِ) بابًا وَسَرَدَ كَثِيرًا مِنْ هذِهِ الصِّيَغِ وَالعِبَارَاتِ وَأَسْمَاهُ: (بَعْضَ صِيَغِ التَّعَجُّبِ الَّتِي لَمْ تُبَوَّبْ فِي النَّحْوِ)[٢].

وَبِمِثْلِ ذلِكَ نَصَّ الأَئِمَّةُ أَيضًا، مِنْهُم: ابنُ فَارِسٍ[٣]، وَالثَّعَالِبِيُّ[٤]، وَالزَّجَّاجِيُّ[٥]، وَابنُ النَّاظِمِ[٦]، وَابنُ القَيِّمِ[٧]، وَغَيرُهُم مِنَ العُلَمَاءِ.

أخِيرًا: حَبِيبِي القَارِئُ الكَرِيمُ أَعْتَذِرُ إِليكَ إِنْ أَطَلْتُ وَأَطْنَبْتُ بِكَثْرَةِ النُّقُولِ، مِنْ أَقوَالِ الأَئِمَّةِ الفُحُولِ، وَكَانَ غَرَضِي أَنْ أُبَيِّنَ مَدَى قَسْوَةِ الـمُهَنْدِسِ وَسَطْوَتِهِ، مَعَ قِلَّةِ بَاعِهِ وَاستِطَالَةِ يَرَاعِهِ، وَمِنْ خِلالِهِ يَتَبَيَّنُ لَكُم كَمْ هُوَ مُجْحِفٌ عَلَى الفَضَائِلِ وَمُتْلِفٌ لِجُهُودِ الأَوَائِلِ، وَلِيَعْلَمَ الجَمِيعُ أَنَّ تَوَالِيفَهُ تَوَالِفُ!

فَالآنَ وَلِمَرَّةٍ أُخرَى فَلْنُجَدِّدْ قِرَاءَةَ شَيءٍ مِنْ مَقَالِهِ السَّابِقِ: «فَلا يَحِقُّ لَنَا عِنْدَ أَهلِ اللُّغَةِ أَنْ نَتَعَجَّبَ إِلَّا بِإِحْدَى الصِّيْغَتَيْنِ: (مَا أَفعَلَهُ!)، وَ(أَفْعِلْ بِهِ!) فَتَأَمَّلْ.

إِنَّكَ إِذَا شَاهَدْتَ بَيتًا جَمِيلًا فَإِنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَ: (مَا أَجْمَلَ البَيْتَ!)، أَوْ: (أَجْمِلْ بِالبَيْتِ!). مَا هذِهِ الدِّيكْتَاتُورِيَّةُ اللُّغَوِيَّةُ؟ وَمَتَى كَانَتْ قَوَاعِدُ اللُّغَةِ تَدْخُلُ الأَحَاسِيسَ البَشَرِيَّةَ لِتُعَلِّمَنَا كَيفَ نَتَعَجَّبُ وَكَيْفَ نَهْوَى وَكَيْفَ نَعْشَقُ الأَشيَاءَ؟ أَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَقُولَ: (يَا لَجَمَالِ البَيْتِ مَثَلًا)! أَوْ: (يَا لَطِيفُ شُو حلو هَالبيت)! أَمْ: أَنَّهُ

(١) شَرْحُ التَّصرِيحِ عَلَى التَّوْضِيحِ (٢/ ٥٧).
(٢) هَمْعُ الهَوَامِعِ فِي شَرْحِ جَمْعِ الجَوَامِعِ لِلسُّيُوطِيِّ (٣/ ٥٣).
(٣) الصَّاحِبِي لِابْنِ فَارِسٍ (ص٧٥).
(٤) فِقْهُ اللُّغَةِ لِلثَّعَالِبِيِّ (ص٢٤٥).
(٥) اللَّامَاتُ لِلزَّجَّاجِيِّ (ص٨١).
(٦) شرْحُ ابنِ النَّاظِمِ عَلَى الأَلفِيَّةِ (ص٣٢٥).
(٧) إِرْشَادُ السَّالِكِ إِلَى حَلِّ أَلْفِيَّةِ ابنِ مَالِكٍ لِابنِ القَيِّمِ (١/ ٥٥٩).

يَتَوَجَّبُ عليَّ أَنْ أَتعجَّبَ كَمَا يَتَعَجَّبُ أَهلُ قُرَيْشٍ وَمُضَرَ؟ أَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أُعَبِّرَ عَنْ مَشَاعِرِي بالأُسلُوبِ الَّذِي يُعْجِبُنِي وَيُعْجِبُ أَفرادَ أُمَّتِي الـمُعَاصِرِينَ؟»!.

وَإِنَّنِي الآنَ أَتعَجَّبُ مِنْ كَلامِ أوزونَ وَمِنْ جُرْأَتِهِ وَجَرَاءَتِهِ عَلَى الِافتِرَاءِ بأسلُوبٍ غَيرِ (مَا أَفْعَلَهُ)، وَ(أَفْعِلْ بِهِ)، وَأَقُولُ: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ)(١).

[مِنْ مَجْزُوءِ الرَّمَلِ]

وَخِــــدَاعٌ لَـــمْ يَـــزَلْ تَعْـــــ ـــــــمِيةٌ للغَافِلِيْنَـــــــا

---

(١) وَهِيَ للتَّعَجُّبِ أَيضًا.

اِعْتَلَّ الْـمُهَنْدِسُ فِي الفِعْلِ الـمُعتَلِّ!

ثُمَّ بعدَ ذلِكَ يَأخُذُ الـمُهَنْدِسُ بِنَاصِيَةِ مَبْحَثٍ آخَرَ وَيَضْرِبُهُ مِنْ غَيرِ إِثْمٍ وَلَا جُرْمٍ، وَهُوَ (الفِعْلُ الـمُعْتَلُّ)، وَيَقُولُ عَنهُ: «أُرِيدُ أَنْ أسأَلَ: لِمَاذا سُمِّيَتِ الأحرُفُ الثَّلاثَةُ (اليَاءُ، الوَاوُ، الأَلِفُ) أَحرُفَ عِلَّةٍ؟ وَمَا هِيَ علَّتُهَا؟ وَلِماذَا يَعتلُّ الفِعْلُ، أَوِ: الِاسمُ فِيهَا (يُصبِحُ مَرِيضًا)؟ وَلِماذَا فِعْلُ (ضَرَبَ) فِعلٌ صَحِيحٌ وَفِعْلُ (سَمَا) فِعْلٌ مُعتَلٌّ؟ مَعَ الِاختِلَافِ الكَبِيرِ فِي الـمَعْنَى وَاللَّفْظِ وَالـمَفهُومِ بينَ الفِعْلَيْنِ، وَهَلِ الغَايَةُ مِنْ أحرُفِ العِلَّةِ مَعْرِفَةُ إِسْنَادِ الأَفْعَالِ مَثَلًا؟

تِلْكَ التَّسمِيَاتُ الغَرِيبَةُ وَالعِبَارَاتُ العَجِيبَةُ الَّتِي تُدَرَّسُ لِطُلَّابِنَا فِي مُختَلَفِ مَرَاحِلِهِمُ الدِّراسِيَّةِ، عَلينَا أَنْ نَتَخلَّصَ مِنهَا وَأَنْ نُدْرِكَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ وَنَحْنُ فِي عَصْرٍ نَحْتَاجُ فيهِ إِلَى كُلِّ مَا هُوَ بَسِيطٌ وَمُفِيدٌ». ص: (٤١-٤٢).

أَقُولُ: إِنَّ هذِهِ التَّسمِيَةَ تَسمِيَةٌ صَحِيحَةٌ وَاقِعِيَّةٌ تُحَاكِي وَاقِعَ تِلْكَ الأَفْعَالِ الَّتِي سُمِّيَتْ بِهَا؛ لأَنَّهَا تَحْتَوِي عَلَى حُرُوفِ العِلَّةِ فِي أُصُولِهَا، وَهذِهِ الحُرُوفُ سُمِّيَتْ بِحُرُوفِ العِلَّةِ؛ لأَنَّهَا عَلَى حَالَةٍ مِنَ الضَّعْفِ تُشْبِهُ العِلَّةَ (الـمَرَضَ)، وَهُوَ كَمَا أُطْلِقَ عَلَى تِلْكَ الحُرُوفِ (حُرُوفُ اللِّينِ)، مُنَاسَبَةً بينَ الِاسمِ وَالـمُسَمَّى، أَوْ: تُعِلُّ مَا بَعْدَهَا، فَلِذلِكَ أُطلِقَ عليهَا هذَا الِاسْمُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ أهلُ العِلْمِ عَنْ ذلِكَ وَبيَّنُوهُ، كَمَا قَالَ ابنُ الحَاجِبِ فِي أَمَالِيْهِ: «إِنَّمَا سُمِّيَتْ حُروفُ العِلَّةِ بِذَلِكَ، إِمَّا لِأَنَّهَا تُعِلُّ مَا تَكُونُ فِيهِ بِالتَّغْيِيرِ، أَيْ: تُغَيِّرُهُ، فَتَكُونُ إِضَافَتُهَا كَإِضَافَةِ حُرُوفِ الجَرِّ، فَإِنَّا أَضَفْنَاهَا إِلَى أَثَرِهَا. وَإِمَّا لِأَنَّهَا حُرُوفٌ تَعْتَلُّ فِي أَنْفُسِهَا فتَكُونُ إِضَافَتُهَا كَإِضَافَةِ حُرُوفِ الِاسْتِعْلَاءِ، فَأَضَفْنَاهَا إِلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا، كَمَا تَقُولُ: (رَجُلُ عِلْمٍ). وَلَيْسَ المرَادُ هُنَا الإِضَافَةَ الَّتِي فِي اصْطِلَاحِ النَّحْوِيِّينَ مِنْ مَنْعِهِم إِضَافَةَ الصِّفَةِ إِلَى مَوْصُوفِهَا، أَوِ: العَكْسِ، فَإِنَّا ههُنَا قَدْ بَيَّنَّا المرَادَ مِنْ قَوْلِنَا:

(إِنَّهَا مُضَافَةٌ)، إِمَّا إِلَى أَثَرِهَا، أَوْ: إِلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهَا، فَلْيُتَأَمَّلْ ذَلِكَ»[(١)].

وَقَالَ ابنُ الصَّائِغ: «هذِهِ الحُرُوفُ سُمِّيَتْ حُرُوْفَ العِلَّةِ؛ لِسُكُونِهَا وَعَدَمِ الحَرَكَاتِ فِيْهَا دَائِمًا. وَسُمِّيَتْ حُرُوْفَ اللِّيْنِ؛ لِضَعْفِهَا وَاتِّسَاع مَخَارِجِهَا»[(٢)].

وَقَدْ ذَكَرَ بَعضُ عُلَمَاءِ التَجويدِ سَببًا آخرَ، كَمَا قَالَهُ صَاحِبُ (العَمِيدِ): «تُسَمَّى حُرُوفَ العِلَّةِ؛ لِتَأَوُّهِ العَلِيْلِ -أَي: الـمَرِيْضِ- بِهَا»[(٣)].

وَكَذَا تَسمِيَةُ أَقْسَامِهَا وَاقِعِيَّةٌ وَفِيهَا تَطَابُقٌ تَامٌّ بينَ الاِسمِ وَالـمُسَمَّى، وَهِيَ:

المِثَالُ: لأنَّ مَاضِيَهُ يُمَاثِلُ الصَّحِيحَ.

الأَجْوَفُ: لأنَّ جَوْفَهُ(وَسَطَهُ)، خَالٍ مِنَ الصَّحِيحِ وَهُوَ مُعتَلٌّ، أَوْ: لأَنَّ جَوْفَهُ أُخِذَ فِي بَعْضِ تَصَارِيفِهِ.

النَّاقِصُ: لِنُقْصَانِ آخرِهِ أحيَانًا بِحَذْفِهِ.

اللَّفِيفُ: لِلَفِّ(جَمْعِ) حَرْفَيْنِ مِنْ حُرُوفِ العِلَّةِ فيهِ. وَهُوَ قِسْمَانِ، (اللَّفِيفُ الـمَفرُوقُ)، وَ(اللَّفِيفُ الـمَقرُونُ)، وَهُمَا أيضًا تَسمِيَةٌ وَاقِعِيَّةٌ يَتطَابَقُ الاِسمُ وَالـمُسَمَّى فِيْهِمَا.

وَكَذَا الصَّحِيحُ فَإِنَّ تَسْمِيَتَهُ وَتَسْمِيَةَ أَقْسَامِهِ وَاقِعِيَّةٌ، حَيثُ أَطْلَقُوا عَلَيهِ (الصَّحِيحَ)؛ لأَنَّهُ عَكسُ العِلَّةِ وَليسَ فِي أُصُولِهِ حَرفُ عِلَّةٍ، وَأَطْلَقُوا عَلَى أَقْسَامِهَا الثَّلاثَةِ:

السَّالِمُ: لأنَّ حُرُوفَهُ الأَصْلِيَّةَ سَالِمَةٌ مِنَ الهَمْزَةِ وَالعِلَّةِ وَالتَّضعِيفِ، كَـ: (سَمِعَ، عَلِمَ).

---

(١) أَمَالِي ابنِ الحَاجِبِ (٢/ ٧٠١).

(٢) اللَّمْحَة فِي شَرْحِ الـمُلْحَة لِابنِ الصَّائِغ (١/ ١٧٣).

(٣) العَمِيدُ فِي عِلْمِ التَّجوِيدِ لِابنِ بسّة (ص٥٣).

الـمَهْمُوزُ: لأَنَّ أَحَدَ أُصُولِهِ هَمْزَةٌ، كـ: (أَخَذَ، سأَلَ، قَرَأَ).

الـمُضَعَّفُ (الـمُضَاعَفُ): لأَنَّ فِيْهِ تَضْعِيفَ الحَرْفِ، كَـ: (شَدَّ، مَدَّ).

اعتِرَاضٌ مَشلُول، عَلَى الفِعْلِ المَبْنِيِّ لِلمَجهُول

ثُمَّ يأتِي صَاحِبُ الجِنَايَةِ إلَى مَوضُوعٍ آخَرَ وَهُوَ الفِعلُ المَبنِيِّ للمَجهُولِ، وَيقُولُ: «الأَفعالُ المَبنِيَّةُ للمَجهُولِ هِي الأفعالُ الَّتِي حُذِفَ فَاعِلُهَا وَنابَ عنهُ غيرُهُ. وَفِي هذَا التَّقسِيمِ الرَّهِيبِ نَجِدُ أنَّ النُّحاةَ أيضًا قَدْ لَحِقُوا بالحَرَكَةِ فِي آخِرِ الكَلِمَةِ (وَهِيَ الضَّمَّةُ فِي حالَتِنَا) وَنَسُوا المَنطِقَ وَإعمالَ العقلِ، فعنْدَ مَا نقُولُ: (كَسَرَ أحمدُ الزُّجَاجَ)[1]..وعنْدَ مَا نُحوِّلُ الجُملَةَ السَّابِقَةَ إلَى صِيغَةِ المَبنِيِّ للمَجهُولِ فإنَّهَا تُصْبِحُ (يُضَمُّ أَوَّلُ الفِعْلِ وَيُكْسَرُ مَا قَبْلَ آخِرِهِ): (كُسِرَ الزُّجَاجُ). عِندَئِذٍ تُعرَبُ مُفرَدَاتُهَا:

كُسِرَ: فِعْلٌ مَاضٍ للمَجهولِ مَبنِيٌّ عَلَى الفَتْحِ.

الزُّجَاجُ: نَائِبُ فَاعِلٍ مَرْفُوعٌ وَعلامَةُ رَفْعِهِ الضَّمَّةُ الظَّاهِرَةُ فِي آخِرِهِ.

تَأَمَّلْ ذلِكَ الإعرابَ العَتِيدَ وَالَّذِي يُفِيدُ بأنَّهُ عِندَ مَا لَم نَجِدِ الفَاعِلَ (أحمد) جَعَلْنَا الزُّجَّاجَ يَنُوبُ عنهُ، (عَنْ أحمدَ) فَيكسرُ نفسَهُ فهُوَ نائِبُ فاعِلٍ، كيفَ يمكِنُ أنْ نَقبلَ ذلِكَ؟ وكيفَ لَنَا أَنْ نَقبلَ عَلَى مَرِّ أكثَرَ مِنْ أَلفِ عَامٍ هذَا الهراءَ؟ نعَم هذا الهرَاءِ؟ أنْ تنوبَ حركةُ آخرِ الكَلِمَةِ عَنْ مَوقِعِ الكَلِمَةِ الحَقِيقِيِّ فِي الجُمْلَةِ وَأَنْ نُكَرِّرَ مَا قالَهُ غيرُنَا وَنطربَ لِذلِكَ دونَ بَحْثِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى العَقْلِ وَالمَنْطِقِ.

وَلَقَدْ لاحَظَ النُّحاةُ أنَّ كَلِمَةَ (الزُّجَاج) فِي مِثالِنَا السَّابِقِ قَدْ جَاءَتْ مرفُوعةً فَسَمَّوْهَا نَائِبَ فَاعِلٍ لأَنَّهَا نَابَتْ عنهُ فِي حَرَكَةِ الرَّفْعِ، ضَارِبينَ عُرْضَ الحَائِطِ بِكُلِّ المَعَايِيرِ وَالمَقَايِيسِ المَنطِقِيَّةِ». ص: (٤٢-٤٣).

---

(١) يقُومُ بإعْرابِ الجُمْلَةِ وَتَرَكْنَاهُ.

أقُولُ: إنَّ الـمُهَنْدِسَ غَالَطَ فِي مَقَالِهِ هذَا رأسًا، لَـمَّا بَحَثَ هذِهِ الـمَسألَةَ فِي هذَا الكِتَابِ وَجعَلَهَا اصْطِلاحَ النَّحوِيِّينَ، وَعلَى رأسِهِم سِيْبَوَيْهِ؛ لأنَّ الـمُتَقَدِّمينَ مِنَ النُّحَاةِ لَم يَسْتَخدِمُوا اصْطِلاحَ (الـمَبْنِيِّ للمَجهُولِ أصْلًا)، وكَانُوا يُطْلِقُونَ عليهِ (الـمَفعُولَ الَّذِي لَم يُسَمَّ فَاعِلُهُ)، أَو: (الـمَبْنِيَّ للمَفعُولِ)، فَسِيْبَوَيْهِ لَم يَسْتَخْدِمْ هذَا الاصطِلاحَ وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابٍ، وَأَسْمَاهُ بِقَوْلِهِ: (الـمَفْعُولُ الَّذِي لَمْ يَتَعَدَّ إِلَيْهِ فَاعِلٌ، وَلم يَتَعَدَّهُ فِعْلُهُ إِلَى مَفْعُولٍ آخَرَ)[1].

كَمَا أَطْلَقَ عليهِ (الـمَفعُولَ الَّذِي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ) عُلَمَاءُ كَثِيرُونَ، فَمِنْهُم:

ابنُ السِّكِّيْتِ[2]، وَالسِّيرَافِيُّ[3]، وَابْنُ الوَرَّاقِ[4]، وَابنُ جِنِّيْ[5]، وَالخَلِيْلُ[6]، وَالـمُبَرِّدُ[7]، وَابنُ السَّرَّاجِ[8]، وَابنُ الأَنْبَارِيِّ[9]، وَالحَرِيرِيُّ[10]، وَالزَّمَخْشَرِيُّ[11]، وَابنُ السِّيْدِ البَطَلْيَوْسِيُّ[12]، ....

---

(١) الكِتَابُ (١/ ٣٣).

(٢) إِصْلاحُ الـمَنْطِقِ لِابنِ السِّكِّيْتِ (ص١١٠).

(٣) شَرْحُ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ (١/ ١٤٢)، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

(٤) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص٢٧٧).

(٥) سِرُّ صَنَاعَةِ الإعرابِ لِابنِ جِنِّيْ (١/ ١٤٢).

(٦) الجُمَلُ للخَلِيْلِ (ص١٩٨).

(٧) الـمُقْتَضَبُ لِلمُبَرِّدِ (١/ ٩٣)، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

(٨) الأُصُولُ فِي النَّحْوِ (١/ ١٩٤)، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

(٩) أسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص٨٥).

(١٠) مُلْحَةُ الإِعْرَابِ (ص٣٠).

(١١) الـمُفَصَّلُ فِي صَنْعَةِ الإِعْرَابِ (ص٣٤٣)، أَسْمَاهُ: (الفِعْلَ الـمَبْنِيَّ للمفعُولِ)، كَمَا أَشَارَ إِلَى الـمَعْنَى الآخرِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَاستَخْدَمَهُ أيضًا، كَمَا فِي (ص:٥٢٦).

(١٢) رَسَائِلُ ابنِ السِّيْدِ فِي اللُّغَةِ (ص٢٣٤)، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

وَالسُّهَيْلِيُّ[(١)]، وَابنُ عُصفورٍ[(٢)]، وَغيرُهم مِنَ النُّحَاةِ الكَثِيرِينَ.

وَهذَا وَحْدَهُ يُبْطِلُ دَعْوَى أوزونَ، وَيُعَرِّي ظُلْمَهُ وَجَوْرَهُ وَتَحَامُلَهُ علَى العُلَمَاءِ وَاصْطِلاحَاتِهِم، وَعَلَى قَوَاعِدِ النَّحْوِ؛ لأَنَّهُ لَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمُ استَخْدَمُوا اصْطِلاحًا غَيرَ هذَا الِاصطِلاحِ الَّذِي شَنَّعَ عليهِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ هذَا الِاصطِلاحَ لَم يَكُنْ يُعْرَفُ إِلَّا فِي عُصُورٍ مُتَأَخِّرَةٍ، وَالـمُشكِلَةُ الكُبْرَى فِي طَرِيْقِ أوزونَ هِيَ أنَّ الـمَجْنِيَّ عَلَيْهِ (سِيْبَوَيْهِ) لَمْ يَسْتَخْدِمْهُ أَصْلًا!

وَكَذَا مُصْطَلَحُ (النَّائِبِ عَنِ الفَاعِلِ)، أَو: (نَائِبِ الفَاعِلِ)، مُتَأَخِّرٌ أيضًا، وَأَوَّلَ مَنْ أَطْلَقَهُ هُوَ ابنُ مَالِكٍ فِي التَّسْهِيلِ، وَهذَا مَا نَبَّهَ عليهِ أبُو حَيَّانَ فِي شَرْحِهِ عَلَى التَّسْهِيل، وَقَالَ: «هذَا الِاصْطِلَاحُ فِي بَابِ (الـمَفعُولِ الَّذِي لَـم يُسَمَّ فَاعِلُهُ) بِـ(النَّائِبِ) لَـمْ أَرَهُ لِغَيْرِ هذَا الـمُصَنِّفِ، وَإِنَّمَا عِبَارَةُ النَّحوِيِّينَ فِيْهِ أَنْ يَقُولُوا: (بَابُ الـمَفْعُولِ الَّذِي لَـمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ)، وَلَا مُشَاحَّةَ فِي الِاصْطِلَاحِ»[(٣)].

أَمَّا إِذَا قِيلَ: لِمَاذَا حُذِفَ الفَاعِلُ، فَنَقُولُ: هذَا شَيءٌ عَادِيٌّ وَاللُّغَاتُ كُلُّهَا لَا تَخْلُو عَنْ وُجُودِ مِثْلِ ذلِكَ، فَأحيانًا يَكُونُ المُتكَلِّمُ مُضْطَرًّا إِلَى بِنَاءِ الكَلامِ بِهذِهِ الصِّيغَةِ، وَفِي هـذَا الحَذْفِ لَهُ أغـرَاضٌ كَثِيرَةٌ، كَمَا ذَكَرَ ابنُ الأنبَارِيِّ بَعْضًا مِنْهَا، مَعَ ذِكْرِ سُؤالَاتٍ أُخْرَى وَأَجوِبَتِهَا فَقَالَ: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَ لَمْ يُسَمَّ الفَاعِلُ؟ قِيلَ: لأَنَّ العِنَايَةَ قَدْ تَكُونُ بِذِكْرِ المفعُولِ، كَمَا تكونُ بذِكرِ الفَاعِلِ، وقد تكُونُ للجَهْلِ بِالفَاعِلِ، وقدْ تكُونُ للإِيجَازِ وَالِاخْتِصَارِ، أَوْ: إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيْلَ: فَلِمَ كَانَ مَا لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ مَرْفُوعًا؟ قِيْلَ: لِأَنَّهُم لَمَّا حَذَفُوا الفَاعِلَ، أَقَامُوا المفعُولَ مُقَامَهُ، فَارْتَفَعَ بإسنَادِ الفِعْلِ إليْهِ، كَمَا كَانَ يَرْتَفِعُ الفَاعِلُ.

---

(١) نَتَائِجُ الفِكرِ للسُّهَيلِيِّ (ص٢٤٣).

(٢) الـمُمْتِعُ الكَبِيرُ لِابنِ عُصفُورٍ (ص٢٨٢)، وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى.

(٣) التَّذْيِيلُ وَالتَّكْمِيلُ فِي شَرحِ كِتَابِ التَّسهِيلِ لأَبِي حَيَّانَ (٦/ ٢٢٥).

فَإِنْ قِيْلَ: فَلِمَ إِذَا حُذِفَ الفَاعِلُ، وَجَبَ أَنْ يُقَامَ اسْمٌ آخَرُ مُقَامَهُ؟ قِيلَ: لأَنَّ الفِعْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَاعِلٍ؛ لِئَلَّا يَبْقَى الفِعْلُ حَدِيثًا مِنْ غَيْرِ مُحَدَّثٍ عَنْهُ، فَلَمَّا حُذِفَ الفَاعِلُ -ههُنا- وَجَبَ أَنْ يُقَامَ اسْمٌ آخَرُ مُقَامَهُ؛ لِيَكُونَ الفِعْلُ حَدِيثًا عَنْهُ، وَهُوَ الـمَفْعُولُ.

فَإِنْ قِيْلَ: كَيْفَ يُقَامُ الـمَفعُولُ مُقَامَ الفَاعِلِ، وَهُوَ ضِدُّهُ فِي الـمَعْنَى؟ قِيلَ: هذَا غيرُ غريبٍ فِي الِاستِعْمَالِ، فَإِنَّهُ إِذَا جَازَ أَنْ يُقَالَ: (مَاتَ زَيْدٌ) وَسُمِّي (زَيْدٌ) فَاعِلًا، وَلَمْ يُحْدِثْ بِنَفْسِهِ الـمَوْتَ، وَهُوَ مَفْعُولٌ فِي الـمَعْنَى، جَازَ أَنْ يُقَامَ الـمَفْعُولُ -ههُنَا- مُقَامَ الفَاعِلِ، وَإِنْ كَانَ مَفْعُولًا فِي الـمَعْنَى؛ وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المفعُولَ -ههُنَا- أُقِيْمَ مُقَامَ الفَاعِلَ، أَنَّ الفِعْلَ إِذَا كَانَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، لَمْ يَتَعَدَّ إِلَى مَفعُولٍ أَلْبَتَّةَ؛ كَقَوْلِكَ فِي (ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا)، وَ(أَكْرَمَ بَكْرٌ بِشْرًا): «ضُرِبَ عَمْرٌو، وَأُكْرِمَ بِشْرٌ»، وَإِنْ كَانَ يَتَعَدَّى إِلَى مفعُولَيْنِ، صَارَ يَتَعَدَّى إلى مفعُولٍ وَاحِدٍ؛ كقولِكَ فِي (أَعْطَيْتُ زَيْدًا دِرْهَمًا)، وَ(ظَنَنْتُ عَمْرًا قَائِمًا): «أُعْطِيَ زَيْدٌ دِرْهَمًا»، وَ«ظُنَّ عَمْرٌو قَائِمًا»، وَلَوْ قُلْتَ: «ظُنَّ قَائِمٌ عَمْرًا»؛ جَازَ لِزَوَالِ اللَّبْسِ، وَلَوْ قُلْتَ فِي (ظَنَنْتُ زَيْدًا أَبَاكَ): «ظُنَّ أَبُوكَ زَيْدًا» لَمْ يَجُزْ، وذلِكَ؛ لأَنَّ قَوْلَكَ: (ظَنَنْتُ زَيْدًا أَبَاكَ) يُؤْذِنُ بِأَنَّ زَيْدًا مَعْلُومٌ، وَالأُبُوَّةَ مَظْنُونَةٌ، فَلَوْ أُقِيمَ الأَبُ مُقَامَ الفَاعِلِ؛ لَانْعَكَسَ المعْنَى، فَصَارَتِ الأُبُوَّةُ مَعْلُومَةً، وَزَيْدٌ مَظْنُونًا، وَذلِكَ لَا يَجُوزُ، وكذلِكَ تَقُولُ: «أُعْطِيَ زَيْدٌ دِرْهَمًا، وَأُعْطِيَ دِرْهَمٌ زَيْدًا» فيكونُ جَائِزًا؛ لِعَدَمِ الِالتِبَاسِ، فَلَوْ قُلْتَ فِي (أَعْطَيْتُ زَيْدًا غُلَامًا): «أُعْطِيَ غُلامٌ زَيْدًا» لَمْ يَجُزْ؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَصِحُّ أَنْ يكُونَ هُوَ الآخِذَ، فَلَوْ أُقِيمَ (غُلامٌ) مُقَامَ الفَاعِلِ، وَلَمْ يُعْلَمِ الآخِذُ مِنَ المأخُوذِ، فَهذا، كانَ مُمْتَنِعًا؛ وكذلِكَ، إِنْ كَانَ الفِعْلَ يَتَعَدَّى إِلَى ثَلَاثَةِ مَفْعُولِينَ، صَارَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ كَقَوْلِكَ فِي (أَعْلَمَ اللهُ زَيْدًا عَمْرًا خَيْرَ النَّاسِ): «أُعلِمَ زَيْدٌ عَمْرًا خَيرَ النَّاسِ»، لِقِيَامِ المفعُولِ الأَوَّلِ مُقَامَ الفَاعِلِ، وَكَانَ هُوَ الأَوْلَى؛ لأَنَّهُ فَاعِلٌ فِي المعْنَى؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المفعُولَ -ههُنَا- أُقِيْمَ مُقَامَ

الفَاعِلِ.»[(١)].

بِهذَا العَرْضِ وَالتَّفصِيلِ مِنَ الإِمَامِ ابنِ الأَنْبَارِيِّ تَبَيَّنَ أَنَّهُم لَم يَنْظُرُوا إِلَى الأَلْفَاظِ وَحدَهَا دُونَ الاِعتِبَارِ بالـمَدلُولَاتِ وَالـمَعَانِي كَمَا يُصَوِّرُهُ أوزونُ وَأَمثَالُهُ، فَكُلُّ مَا أَجَازُوهُ أَجَازُوهُ اعتِمَادًا عَلَى الـمَعْنَى وَالدَّلَالَةِ، وَمَا رَفَضُوهُ رَفَضُوهُ بِسَبَبِ ذلِكَ، وَفِي هذَا نَقضٌ لِمُحَاوَلَةِ خُصُومِ النَّحْوِ.

وَقَدْ أَجَابَ الإِمَامُ العَلَّامَةُ ابنُ الـوَرَّاقِ عَـنْ هـذا الاِعتِـرَاضِ مُبْـدِعًا فِي الإِجَابَةِ إِذْ قَالَ: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَ وَجبَ إِذَا حُذِفَ الْفَاعِلُ أَنْ يُقَامَ مُقَامَهُ اسْمٌ مَرْفُوعٌ؟

فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْفِعْلَ لَا يَخْلُو مِنْ فَاعِلٍ، فَلَمَّا حُذِفَ فَاعِلُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ اسْتَقْبَحَ أَنْ يَخْلُوَ مِنْ لَفْظِ الْفَاعِلِ، فَلِهَذَا وَجَبَ أَنْ يُقِيمَ مُقَامَ اسْمِ الْفَاعِلِ اسْمًا مَرْفُوعًا، أَلَا تَرَى أَنَّهُم قَالُوا: (مَاتَ زَيْدٌ)، وَ(سَقطَ الْحَائِطُ)، فَرفَعُوا هَذِه الْأَسْمَاءَ وَإِنْ لم تَكُنْ فَاعِلَةً فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنْ شِئْنَا جَعَلْنَا الرَّفْعَ فِي الْـمَفْعُولِ الَّذِي قَامَ مَقَامَ الْفَاعِلِ بِعِلَّةٍ أُخْرَى، وَهُوَ حَمْلُهُ عَلَى الْفَاعِلِ، فَمِنْ جِهَةِ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الْفِعْلِ صَارَ خَبَرًا عَنِ الْـمَفْعُولِ الَّذِي يَتَعَدَّى الْفِعْلُ إِلَيْهِ مَفْعُولًا آخَرَ، كَمَا أُقِيمَ مُقَامَ الْفَاعِلِ»[(٢)].

ثُمَّ قَالَ أَوزونُ: «وَيُطَلْبُونَ مِنَ الطُّلَّابِ أَنْ يَفْهَمُوا وَيَحْفَظُوا تِلْكَ القَوَاعِدَ الَّتِي لَا تَتَطَابَقُ فيهَا الدَّلَالَاتُ وَالـمَدلُولَات! ثُمَّ كيفَ لَنَا أَنْ نَقُولَ فِي إِعْرابِ (كُسِرَ): فِعْلٌ مَاضٍ مَبْنِيٌّ لِلمَجْهُولِ؟ كَيفَ نَبْنِي أَمْرًا عَلَى الـمَجْهُولِ؟ وَهَلْ يُبْنَى شَيءٌ عَلَى مَا يُسمَّى الـمَجْهُولَ؟ فَالمَجهُولُ غَيرُ مَعْرُوفٍ فَكَيفَ نَبْنِي عَلَيْهِ؟! مَا هـذَا الكَلامُ وَمَا هذِهِ الـمَعَانِي الَّتِي لَا نرى عِنْدَ فَكْفَكَتِهَا إِلَّا الخُرُوجَ عَنْ كُلِّ مَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُهُ فِي عُقُولِنَا مِنْ مَفَاهِيمَ وَأَفْكَارٍ». ص: (٤٣-٤٤).

---

(١) أسرَارُ العَرَبيَّةِ (ص٨٥-٨٦).

(٢) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص٢٧٧).

أَقُولُ: بَعْدَ أَنْ بيَّنَّا جُرْمَ أوزون وَظُلْمَهُ نُبيِّنُ هُنَا أَنَّهُ جَارَ مَرَّةً أُخْرَى وَخَانَ الأَمَانَةَ؛ لأَنَّهُ قَلَّبَ الـمُصْطَلَحَ بِحَيثُ شَاءَ هَوَاهُ؛ لأَنَّهُ قَالَ: (نَبْنِي عَلَى الـمَجْهُولِ)، وَالعُلَمَاءُ قَالُوا: (البِنَاءُ للمَجهُولِ)، فَالفَرْقُ بينَ (عَلَى)، وَ(اللَّامِ) كَبيرٌ جِدًّا، وَهذَا التَّخلِيطُ مِنْ أوزون جُرْمٌ وَجِنَايَةٌ وَهُوَ مِنْ مُرَمَّاتِ الكَلَامِ وَفِرْيَةِ صَوَّاغٍ عَلَى العُلَمَاءِ؛ لأَنَّهُ بهذَا قَلَّبَ الـمَعْنَى وَتَصَرَّفَ فِيهِ تَصرُّفًا سَيِّئًا؛ لأنَّ الـمَجهُولَ كَمَا قَالَهُ أوزونُ هُوَ مَجْهُولٌ فِي ذاتِهِ، كَيفَ يُبْنَى عَلَيْهِ.

أَمَّا البِنَاءُ لَهُ، فَمُمْكِنٌ وَهُوَ مَوجُودٌ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، عِنْدَ مَا لَا تَعْرِفُ الفَاعِلَ، أَوْ: تَعرِفُهُ وَلكِنْ لَا تُرِيدُ ذِكْرَهُ، فَيَكُونُ بِنَاءُ كَلامِكَ لِفَاعِلٍ غيرِ مَذْكُورٍ، فَمِنْ هُنَا بَنَيْنَا الفِعْلَ لَهُ وَلَم نَبْنِهِ عَلَيْهِ، ولكِنَّ الـمهندِسَ تَصرَّفَ فيهِ عَلَى هَوَاهُ، حَتَّى يُثْبِتَ قَسْوَتَهُ وَعَدَمَ إِنْصَافِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يَذْكُرُ أَشياءَ عَنِ الفِعْلِ وَهِيَ عَادِيَّةٌ جِدًّا وَلَـم يَعْتَرِضِ اعتِرَاضًا ذَا بَالٍ حَتَّى نَشْتَغِلَ بِرَدِّهِ وبَيَانِهِ، فَيُمكِنُكُمُ الرُّجُوعُ إِلَى كَلامِهِ.

إِلَّا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَنْ نَصبِ الفِعْلِ الـمُضَارِعِ بِسَبَبِ (أَنِ) الـمُضْمَرَةِ، وَاعتَرَضَ عَلَى هذَا وَأَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ فِي ذلِكَ فَائِدَةٌ تُذْكَرُ[1]، فَنَرُدُّ عليهِ بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ فِي الفَصْلِ الآتِي.

مَا الفَائِدَةُ مِنْ (أَنِ) الـمُضْمَرَةِ فِي الفِعْلِ الـمُضَارِعِ؟

فَأَقُولُ فِي جَوابِهِ: إِنَّ إِضْمَارَ (أَنْ) فِي هذِهِ الـمَوَاقِعِ الَّتِي ذَكَرَهَا النُّحَاةُ تَرْجِعُ فَائِدَتُهَا إِلَى أَنَّهَا تَجعَلُ الجُمْلَةَ فِي تَأويلِ مُفْرَدٍ، وَالجُمْلَةُ بحَاجَةٍ إِلى هذَا الـمُفْرَدِ، وَلَا يَتَأَتَّى تَمَامُ مَعْنَاهَا إِلَا بِسَبَبِ (أَنْ).

---

(١) (ص٤٧).

مَثلًا لَو قُلْتَ: (جِئتُكَ لِتُكرِمَنِي)، فَتقْدِيرُ الجُمْلَةِ: (لِأَنْ تُكرِمَنِي)، وَهذِهِ (أَنْ) تُؤَوَّلُهَا بِـ(جِئتُ لِإِكْرَامِي)، وَكَذلِكَ اللَّامُ جَارَّةٌ، كَمَا أنَّ (حَتَّى) جَارَّةٌ، فَأَعْمَلُوا (أَنْ) فِي النَّصْبِ، فَاقْتَضَى اللَّفْظُ وَالمَعْنَى عَمَلَ (أَنْ).

قَالَ الإِمَامُ أَبو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ: «(حَتَّى): يَنْتَصِبُ الفِعْلُ بَعْدَهَا بِإِضْمَارِ(أَنْ)، وَالَّتِي يَنْتَصِبُ الفِعْلُ بَعْدَهَا هِيَ العَامِلَةُ فِي الِاسْمِ الجَرَّ، وَ(أَنْ) المُضْمَرَةُ وَالفِعْلُ المُنْتَصَبُ فِي مَوْضِعِ اسْمِ مَجْرُورٍ كَمَا أَنَّ (أَكْرِمَكَ) مِنْ قَوْلِكَ: جِئْتُ لِأُكْرِمَكَ، مَعَ (أَنْ) المُضْمَرَةِ فِي مَوْضِعِ اسْمِ مَجْرُورٍ»[1].

وَقَدْ أَجَابَ الإِمَامُ ابنُ يَعِيشَ عَنْ سُؤَالِ مَنْ سَأَلَ عَنْ إِعْمَالِ (أَنْ) وَقَالَ: «فَإِنْ قِيلَ: وَلِمَ قُلْتُمْ: إنَّ (أَنْ) مُقَدَّرَةٌ بَعْدَ هذِهِ الحُرُوفِ، وَلَمْ تَكُنْ مُقَدَّرَةً بَعْدَ (إِذَنْ)، وَ(لَنْ)، وَ(كَيْ)؟ قِيلَ: إنَّ (إِذَنْ، وَلَنْ، وَكَيْ فِي أَحَدِ وَجْهَيْهَا) تَلْزَمُ الأَفْعَالَ، وَتُحْدِثُ فِيهَا مَعَانِيَ، فَصَارَتْ كـ(أَنْ) فِي لُزُومِهَا الفِعْلَ، فَحُمِلَتْ عَلَيْهَا، وَعَمِلَتْ عَمَلَهَا لِمُشَارَكَتِهَا إِيَّاهَا عَلَى مَا وَصَفْنَا؛ فَأَمَّا (اللَّامُ) وَ(حَتَّى)، فَهُمَا حَرْفَا جَرٍّ، وَعَوَامِلُ الأَسْمَاءِ لَا تَعْمَلُ فِي الأَفْعَالِ، فَإِذَا وُجِدَ الفِعْلُ بَعْدَهُمَا مَنْصُوبًا، كَانَ بِغَيْرِهِمَا. فَإِذَا قَدَّرْتَ (أَنْ) صَارَتِ اللَّامُ، وَ(حَتَّى)، عَامِلَتَيْنِ فِي اسْمٍ عَلَى أَصْلِهِمَا؛ لِأَنَّ (أَنْ) وَالفِعْلَ فِي تَأْوِيلِ الِاسْمِ.

وَإِنَّمَا سَاغَ حَذْفُ (أَنْ) وَالنَّصْبُ بِهِمَا؛ لأَنَّ (حَتَّى)، وَ(اللَّامَ) صَارَتَا عِوَضَيْنِ مِنْهَا، فَكَانَتْ كَالموجُودَةِ لِوُجُودِ العِوَضِ مِنْهَا»[2].

ثُمَّ يُتَابِعُ المهندِسُ وَيستَمِرُّ فِي التَّشَاغُبِ مَعَ بَعضِ الأَمْثِلَةِ، كَالكَلامِ عَلَى الجَزْمِ بِحَذْفِ حَرْفِ العِلَّةِ وَحَذْفِ النُّونِ، وَيَبْحَثُ عَنْ عَلاقَتِهَا بِعَلامَةِ الجَزْمِ الأَصْلِيَّةِ

---

(١) التَّعلِيقَةُ عَلَى كِتَابِ سِيبَوَيْهِ لِلفَارِسِيِّ (٢/ ١٣٥).

(٢) شَرحُ المُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيش (٤/ ٢٣٠).

(السُّكُونِ)، وَلَا أَظُنُّ هذَا مِمَّا نَحْنُ بِصَدَدِهِ وَهُوَ شَيءٌ جُزئِيٌّ يَسِيرٌ جِدًّا، مَعَ أَنَّهُ لَيسَ مِنَ الوَاجِبِ وجودُ العَلَاقَةِ بينَ السُّكُونِ وَحَذْفِ حَرْفِ العِلَّةِ، أَوْ: حَذْفِ النَّوْنِ، حَتَّى يَكُونَ الأَمرُ مَقبُولًا، وَبدُونِهِ يَصِيرُو مَرْفُوضًا.

فَأَصْلُ المَسْأَلَةِ أَنَّ النُّحَاةَ وَجَدُوا العَرَبَ يَسْتَخدِمُونَ فِي كَلَامِهِمْ حَالَةً مِنَ الفِعْلِ فَأَطْلَقُوا عَلَيهَا (المَجزُومَ)، وَرأَوا لِهَذَا المَجزُومِ صُورَتَيْنِ: صُورَةً يَكُونُ الجَزْمُ بِسكُونِ الكَلِمَةِ كَالأَفْعَالِ الصَّحِيحَةِ، نَحْوُ: (لَمْ يَخْرُجْ، لَمْ يَذْهَبْ).

وَصُورَةً يَكُونُ الجَزْمُ فيهَا بِالحَذْفِ، إِمَّا بِحَذْفِ حَرْفِ العِلَّةِ، نَحْوُ: (لَمْ يَرْجُ، لَمْ يَلْقَ، لَم يَنِ). أَوْ: بِحَذْفِ النُّونِ وَذلِكَ فِي الأَفْعَالِ الخَمْسَةِ، نَحْوُ: (لَمْ يَذْهَبَا، لَمْ يَذْهَبُوا..).

فَمَاذَا عَلَى النَّحوِيِّينَ فِي جَمْعِ هذِهِ الأَسَالِيبِ وَإِطْلَاقِ اصْطِلَاحٍ عَلَيْهَا وَالتَّقْنِينِ لَهَا، وَضَبْطِهَا ضَبْطًا دَقِيقًا يَجْمَعُ جَمِيعَ أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا؟!

طَيْفٌ زَائِلٌ فِي الاعتِرَاضِ عَلَى الفَاعِلِ

الفَاعِلُ الظَّاهِرُ وَالفَاعِلُ الـمُستَتِرُ:

ثُمَّ تَكَلَّمَ المهندِسُ عَنْ الفَاعِلِ يَكُونُ بَارِزًا تَارَةً، وَيَكُونُ مُستَتِرًا أُخْرَى، وَمَثَّلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمِثَالٍ(١)، وَلكِنَّهُ إِنْ أَرَادَ الِاعتِرَاضَ عَلَى هذَا الأَمْرِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّحَامُلِ وَالظُّلْمِ عَلَى العَرَبِيَّةِ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنَ الجَهْلِ بِاللُّغَاتِ الأُخْرَى مِنْ جَانِبٍ آخَرَ لأَنَّ هذَا مَوجودٌ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى الَّتِي وَقَفْنَا عليهَا كَالإِنجلِيزِيَّةِ وَالفَارِسيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ وَالكُرْدِيَّةِ، وَهُوَ عَادٍ جِدًّا وَلَا غَرَابَةَ فِي ذلِكَ؛ لأَنَّ الفَاعِلَ مَعلُومٌ وَلَا التِبَاسَ فِي حَذْفِهِ وَعَدَمِ ذِكْرِهِ، وَكَانَ أَوزونُ أَرادَ مِنْ ذِكْرِ هذَا أَنْ يَعْتَرِضَ عليهِ، كَمَا صَرَّحَ بِذلِكَ بَعْدَ صَفْحَةٍ وَقَالَ: (نَعُودُ الآنَ إِلَى مِثَالِ الفَاعِلِ الـمُسْتَتِرِ حيثُ الجملَةَ: (ذَهَبَ بالخيرِ كُلِّهِ)، فَنجِدُ أنَّ الفِعْلَ (ذَهَبَ)، مَاضٍ، فَاعِلُهُ مُستَتِرٌ جوازًا تَقدِيرُهُ (هُوَ). وَنسأَلُ: لِمَاذَا لَا يَكُونُ الفَاعِلُ الجَيشَ مَثَلًا؟ أَو: الجَرَادَ؟ أَوِ: اللُّصُوصَ؟ فَيكُونُ التَّأوِيلُ: ذَهَبَ اللُّصُوصُ بالخيرِ كُلِّهِ. وعليهِ فالضَّمِيرُ (هُم) يعودُ، أَو: يَنُوبُ عَنِ اللُّصُوصِ، عِوَضًا عَنْ ضَمِيرِنَا الوَهْمِيِّ (هُوَ))»(٢).

وَأَنَا لَا أَدْرِي حَقِيقَةً لِـمَاذَا هذَا التَّشَاغُبُ وَالـمُغَالَطَةُ مِنْ صَاحِبِ الجِنَايَةِ مَعَ العَرَبِيَّةِ، وَمَا هذَا التَّهَكُّمُ وَالسُّخرِيَّةُ بِهذَا الأُسلُوبِ الهَمَجِيِّ الَّذِي لَا يُنْتِجُ خَيْرًا وَلَا يَرُومُ إِصْلَاحًا؟ أَيُمْكِنُكَ أَنْ تَهْدِمَ العَرَبِيَّةَ؟ لَا وَأَلْفُ لَا، (لَيْسَ هَذَا بِعُشِّكِ فَادْرُجِي!).

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ فَالمهندِسُ أَجْنَبِيٌّ عَنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَلِذلِكَ مَالَ إِلَى ذِكْرِ (الجَيْشِ)؛ لأَنَّهُ لَا بَأْسَ بِإِفْرَادِ الفِعْلِ وَتَذْكِيرِهِ، حَيثُ إِنَّ (الجَيشَ) مُفْرَدٌ بِاللَّفْظِ وَجَمْعٌ بِالـمَعْنَى، فَعَلَى ذلِكَ يُمْكِنُكَ أَنْ تُقَدِّرَ الضَّمِيرَ بِـ(هُوَ).

---

(١) (ص٤٩-٥٠). مَثَّلَ للظَّاهِرِ بِقَوْلِهِ: (أَكَلْتُ التُّفَّاحَةَ). وَللمُستَتِرِ: (ذَهَبَ بِالخَيْرِ كُلِّهِ).

(٢) (ص٥١-٥٢).

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ فالسِّيَاقُ هُوَ الحَاكِمُ فِي اختِيَارِ الضَّمِيرِ وَتَقْدِيرِه، وَلَيسَ الضَّمِيرُ (هُوَ) دَوْمًا، حَتَّى يُعارِضَ الـمُهندِسُ بهذَا الِاعتِرَاضِ الهَزِيلِ، وَلَم يَقُلْ بذلِك أَحَدٌ مِن العُلَمَاءِ مُطْلَقًا، وَلَم يَحصرُوا الضَّمِيرَ فِي (هُو) حَتَّى يَعْتَرِضَ وَيَسْتَهزِئَ، وَهذَا كُتُبُهُم بينَ أَيدِيكُمْ وَفِي مَكْتَبَاتِكم، رَاجِعُوهَا يَتَبَيَّنْ لَكُمُ الأَمْرُ.

فَالضَّمِيرُ قَدْ يَكُونُ (هُوَ)، كَمَا يَكُونُ (هِيَ)، فَالسِّيَاقُ هُوَ الَّذِي يُعَيِّنُ نَوْعَ الضَّمِيرِ، فَإِذَا كَانَ سِيَاقُ الكَلَامِ عَنْ مُفْرَدٍ، يُوضَعُ الضَّمِيرُ الَّذِي يُوَافِقُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ عَنْ جَمْعٍ يُوضَعُ لَهُ مَا يَدُلُّ عَلَى الجَمْعِ، وَهكَذَا الشَّأنُ مَعَ الـمُذَكَّرِ وَالـمُؤنَّثِ.

تَقْدِيمُ الفَاعِلِ عَلَى الفِعْلِ:

وَمِنَ الأَشياءِ الَّتِي ذَكَرَهُ وَغَالَطَ فِيهِ، هُوَ الكَلامُ عَنْ تَقدِيمِ الفَاعِلِ عَلَى الفِعْلِ (وَهُوَ مَا يُسَمَّى بالـمُبْتَدَإِ فِي هذِهِ الصُّورَةِ)، وَقَالَ: «سَنَجِدُ الكَثِيرَ مِنَ التَّنَاقُضَاتِ الَّتِي تُغيِّبُ الـمَعانِي وَالـمفَاهِيمَ وَلنَأخُذِ الـمِثَالَ الأَوَّلَ: (جَاءَ الرَّجُلُ إِلَى البَيْتِ). حَيثُ الفَاعِلُ (الرَّجلُ) ظَاهِرٌ وَلا غُبارَ عليه، وَلْنُغَيِّرِ الآنَ فِي مَوْقِعِ الفَاعِلِ لِتُصْبِحَ الجُملَةُ: (الرَّجُلُ جَاءَ إِلَى البَيْتِ). فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّ الفَاعِلَ فِي الجُملةِ السَّابِقَةِ مُباشرة هُوَ الرَّجلُ فَقَدْ نِلْتَ عَلامةَ الصِّفْرِ بجدَارةٍ فِي قَوَاعِدِ النَّحْوِ العَرَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ تَنَالُ العَلامَةَ الكَامِلَةَ فِي الفَهْمِ وَالإِدْرَاكِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ هُنَا مُبتَدَأٌ مَرفُوعٌ بالضَّمَّةِ الظَاهِرَةِ..وَهُنَا نَسْأَلُ: مَا هذَا التَّأوِيلُ الغَرِيبُ؟ وَمَا هذِهِ القَوَاعِدُ الشَّاذَّةُ عَنِ الفَهْمِ وَالإِدْرَاكِ؟ إِنَّ القَائِمَ بالفِعْلِ هُوَ الرَّجُلُ سَوَاءٌ جَاءَ قَبْلَ الفِعلِ، أَوْ: بَعْدَهُ. وَكَانَ الأَجْدَرُ بأهلِ اللُّغَةِ أَنْ يُعْرِبُوا (الرَّجُل) فَاعِلًا مُقَدَّمًا، مِثلَمَا يُعرِبُونَ الـمَفعُولَ بِهِ الـمُقَدَّمَ عَنْ فِعْلِهِ مَثلًا[1]».

ص:(٥٠).

(١) عَلَى فِعْلِهِ، وَلَيسَ (عَنْ فِعْلِهِ)، وَكَذَا مِنَ الأَوْلَى حَذْفُ (مَثَلًا)؛ لأَنَّهُ فِي أَوّلِ كَلامِهِ قَالَ: (مِثلَمَا)!.

أقولُ: إنَّ جُمهُورَ النُّحَاةِ لَا يَرَوْنَ تَقدِيمَ الفَاعِلِ عَلَى فِعْلِه، وَسَيأتِينَا دَلِيلُ كَلامِهِم إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى[1]، وَلكِنْ قبلَ ذلِكَ أَودُّ أَنْ أُشِيرَ إِلَى أنَّ الـمُهندِسَ تكَلَّمَ عَنِ الـمَوضُوعِ وَقَالَ: إنَّ هـذِهِ الأَشياءَ تُغيِّرُ الـمَعْنَى وَتُغيِّبُهُ، وَلكِنَّ هـذَا الكَلامَ خِلافُ الوَاقِعِ؛ لأنَّ أَصْلَ الـمَعْنَى يَبْقَى وَلَا يَتَغَيَّرُ، ثُمَّ إِنَّ الجُمْلَةَ الفعليَّةَ تُفِيدُ بأنَّ الرَّجُلَ قَدْ جَاءَ إِلَى البيتِ، وَالجُمْلَةَ الاسميَّةَ (الـمُبْتَدَأَ وَالخبَرَ) أيضًا تُفِيدُ هـذِهِ الإِفَادَةَ، بحيثُ تَذكُرُ -فِي الِاسمِيَّةِ- الـمُبْتَدَأَ وَتُخْبِرُ عنهُ بالـمَجِيءِ إِلَى البَيْتِ، فَمَا التَّنَاقُضُ الـمَوهُومُ الَّذِي أَشَارَ إِليهِ أوزونُ؟ وَمَا الـمَعْنَى الَّذِي غَابَ فِي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ؟ أرجُو أَنْ يُجِيبَ الـمهندِسُ إِجَابَةً مَنْطِقِيَّةً.

أَمَّا عَنْ تَقدِيمِ الفَاعِلِ عَلَى الفِعْلِ فَنَقُولُ: اعتَمَدَ النُّحَاةُ عَلَى أنَّ الفِعْلَ وَالفَاعِلَ بِمَنْزِلَةِ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا يَجُوزُ تَقدِيمٌ فِيهَا وَلَا تَأخِيرٌ، كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ جِنِّي بِكَلَامٍ طَوِيلٍ فَقَالَ: «وَاسْتَدَلَّ أَبُو عَلِيٍّ عَلَى شِدَّةِ اتِّصَالِ الفِعْلِ بِالفَاعِلِ بِأَربعَةِ أَدِلَّةٍ، وَاستَدْلَلْتُ أَنَا أَيضًا بِخَمْسَةِ أَدِلَّةٍ أُخَرَ غَيْرِ مَا استَدَلَّ بِهِ هُوَ، وَأَنَا أُورِدُ مَا قَالَ فِي ذلِكَ، وَأُتْلِيهِ مَا رَأَيْتُهُ، وَاللهُ الموفِّقُ.

فَمَا استدَلَّ بِهِ على شدَّةِ اتِّصَالِ الفِعْلِ بالفَاعِلِ: تَسْكِينُهُم لَامَ الفِعْلِ إِذَا اتَّصَلَتْ بِهِ عَلَامَةُ ضَمِيرِ الفَاعِلِ، وذلِكَ نَحْوُ: (ضَرَبْتُ، وَدَخَلْتُ، وَخَرَجْتُ)، وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذلِكَ لأَنَّهم كَرِهُوا أَنْ يقولُوا: (ضَرَبَتُ، وَدَخَلَتُ، وَخَرَجَتُ)، لِتَوَالِي أَرْبَعَةِ مُتَحَرِّكَاتٍ، فلَوْلَا أَنَّهم قَدْ نَزَّلُوا التَّاءَ مِنْ (ضَرَبْتُ) مَنْزِلَةَ رَاءِ (جعفَر) مِنْهُ، لما امْتَنَعُوا مِنْ أنْ يقُولُوا: (ضَرَبَتُ)، ولكِنَّهُ لَـمَّا لَمْ يُوجَدْ فِي كَلَامِهِم كَلِمَةٌ اجتَمَعَتْ فِيهَا أَربعَةُ مُتَحرِّكَاتٍ، وَنَزَلَتِ التَّاءُ مِنْ (فَعَلْتُ) مَنْزِلَةَ جُزْءٍ مِنَ الفِعْلِ، أَسْكَنُوا اللَّامَ، كَرَاهِيَّةَ

---

(١) يَرَى الكُوفِيُّونَ جَوَازَ التَّقدِيمِ فِي الشِّعْرِ، أُنظُرْ: رَسَائِلَ ابنِ السِّيْدِ (ص: ١٧٦)، وَقَدْ نَاظَرَهُم نَاظِرُ الجَيْشِ فِي: شَرْحِهِ عَلَى التَّسْهِيلِ (٤/ ١٥٨٢)، وَرَدَّ عَلَى استِشْهَادَاتِهِم.

اجتِمَاعِ الـمُتَحَرِّكَاتِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُم لَا يَكْرَهُونَ هذَا التَّوَالِيَ إِذَا اتَّصَلَ الفِعْلَ بِضَمِيْرِ الـمَفْعُولِ، وذلِكَ نَحْوُ: (ضَرَبَكَ، وَضَرَبَهُ)، وذلِكَ أَنَّهُ لَيسَ لِضَمِيرِ المفعُولِ مِنَ الاتِّصَالِ بالفِعْلِ مَا لِضَمِيْرِ الفَاعِلِ؛ لأنَّ الفِعْلَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَاعِلٍ أَلْبَتَّةَ، وَقَدْ يَسْتَغْنِى عَنِ المفعُولِ فِي كَثِيْرٍ مِنْ أحكَامِهِ.

وَدَلِيلٌ لَهُ آخَرُ: وَهُوَ امْتِنَاعُهُم مِنَ العَطْفِ عَلَى ضَمِيْرِ الفَاعِلِ؛ نَحْوُ: (قُمْتُ وَزَيْدٌ)، وَ(قَعَدْتُ وبَكْرٌ)، فَاستِقْبَاحُهُم لِذَلِكَ حتَّى يُؤَكِّدُوْهُ فَيُقَوُّوْهُ وَيُلْحِقُوْهُ بِالأَسْمَاءِ فِي نَحْوُ: (قُمْتُ أَنَا وَزَيْدٌ)، وَ(قَعَدْتُ أَنَا وَجَعْفَرٌ) -دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُم قَدْ نَزَّلُوا التَّاءَ مَنْزِلَةَ بَعْضِ الفِعْلِ، فَكَمَا لَا يَحْسُنُ أَنْ تَعْطِفَ الِاسْمَ عَلَى بَعْضِ الفِعْلِ، كذلِكَ لَمْ يَسْتَحْسِنُوا عَطْفَهُ عَلَى التَّاءِ مِنْ (قُمْتُ)، لِضَعْفِ التَّاءِ، وَامْتِزَاجِهَا بِالفِعْلِ، وَكَوْنِهَا كَجُزْءٍ مِنْهُ.

وَدَلِيلٌ لَهُ ثَالِثٌ: وَهُوَ امتِنَاعُهُم مِنْ جَوَازِ تَقَدُّمِ الفَاعِلِ عَلَى الفِعْلِ، وَإِنْ كَانُوا يُجِيزُوْنَ تَقَدُّمَ خَبَرِ الـمُبْتَدَإِ عَلَيْهِ، فَكَمَا لَا يُقَدِّمُونَ الدَّالَ عَلَى الزَّايِ مِنْ (زَيْدٍ)، كذلِكَ امتَنَعُوا مِنْ تَقدِيْمِ الفَاعِلِ عَلَى الفِعْلِ.

وَدَلِيلٌ لَهُ رَابِعٌ: وَهُوَ مِنْ أَغْرَبِهَا وَأَلْطَفِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُم فِي التَّثْنِيَةِ: (يَقُومَانِ)، فَالنُّونُ عَلَامَةُ الرَّفعِ بِمَنْزِلَةِ ضَمَّةِ الـمِيْمِ مِنْ (يَقُومُ) فِي الوَاحِدِ، وَعَلامَةُ الرَّفْعِ يَنْبَغِي أَنْ تَلْحَقَ المرفُوعَ مَعَ انقِضَاءِ أَجْزَائِهِ بِلَا فَرْقٍ وَلَا تَرَاخٍ، فَمَجِيْءُ النُّونِ فِي (يَقُومَانِ) بَعْدَ الأَلِفِ الَّتِي هِيَ ضَمِيرُ الفَاعِلِيْنَ، يَدُلُّ - مِنْ مَذْهَبِهِم - عَلَى أَنَّهُم قَدْ أَحَلُّوا ضَمِيرَ الفَاعِلَ مَحَلَّ حَرْفِ الإعرَابِ مِنَ الفِعْلِ؛ لأَنَّهُم أَوْلَوا ضَمِيرَهُ عَلَامَةَ الرَّفْعِ، وَهِيَ النُّونُ فِي (يقُومَانِ، وَيَقعُدَانِ)، كَمَا أَوْلَوا حَرْفَ الإِعْرَابِ فِي الوَاحِدِ، وَهُوَ الـمِيمُ مِنْ (يقُومُ)، عَلَمَ الرَّفْعِ، وَهُوَ الضَّمَّةُ فِي (يقُومُ، ويقعُدُ) وَبَاشَرُوْهُ بِهِ، فَفِي هذَا أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى شِدَّةِ امتِزَاجِ الفِعْلِ بِالفَاعِلِ، وَكَوْنِهِ مَعَهُ كَبَعْضِ أَجْزَائِهِ مِنْهُ. وَكذلِكَ (يَقُومُونَ،

وَتقُومِينَ)[١].

وَأمَّا الخَمْسَةُ الأدِلَّةُ الَّتِي رَأَيْتُهَا أَنَا فِي شِدَّةِ اتِّصالِ الفِعْلِ بِالفَاعِلِ:-

فَأَوَّلُهَا: أَنِّي رَأَيْتُهُم قَدْ أَجْرَوا الفِعْلَ وَالفَاعِلَ فِي قَوْلِهِم: (حَبَّذَا) مُجْرَى الجُزْءِ الوَاحِدِ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أنَّ الفِعْلَ الَّذِي هُوَ «حَبَّ» وَالفَاعِلَ الَّذِي هُوَ «ذَا» قَدْ قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ، وَمَعَ ذلِكَ فَلَمْ يَسْتَقِلَّا، وَلَمْ يُفِيدَا شَيْئًا حَتَّى تَرْبُطَ بِهِمَا اسْمًا بَعْدَهُمَا، فَتَقُولُ: (حَبَّذَا زَيْدٌ)، وَ(حَبَّذَا مُحَمَّدٌ)، فَلَوْلَا أَنَّهُمَا قَدْ تَنَزَّلَا مَنْزِلَةَ الجُزْءِ الوَاحِدِ، لَاستَقَلَّا بِأَنْفُسِهِمَا، كَمَا يَجِبُ فِي الفِعْلِ وَالفَاعِلِ، نَحْوُ: (قَامَ زَيْدٌ وَقَعَدَ مُحَمَّدٌ)، فَكَما أنَّكَ لَوْ قُلْتَ: (زَيْدٌ)، وَسَكَتَّ، أَوْ: قُلْتَ: (قَعَدَ)، وَسَكَتَّ، وَلَمْ تَذْكُرْ بَعْدَ ذلِكَ اسْمًا، لم يَتِمَّ الكَلامُ، ولم يَسْتَقِلَّ. فكذلِكَ أيضًا جَرَى (حَبَّذَا)، وَإِنْ كَانَ فِعْلًا وَفَاعِلًا فِي حَاجَتِهِ إِلَى مَا بَعْدَهُ حَاجَةَ الجُزْءِ المُفْرَدِ إِلَى مَا بَعْدَهُ، مَجْرَى الجُزْءِ الوَاحِدِ.

وَالجِهَةُ الأُخْرَى: إِجَازَةُ النَّحْوِيِّينَ أَنْ يقُولُوا فِي قَوْلِهِم: (حَبَّذَا زَيْدٌ)، أنَّ (حَبَّذَا) فِي مَوْضِعِ مَرْفُوعٍ بِالِابْتِدَاءِ، وَ(زَيْدٌ) فِي مَوْضِعِ خَبَرِ (حَبَّذَا)، فَلَوْلَا أَنَّهُ قَدْ تَنَزَّلَ عندَهُم أنَّ (حَبَّ) وَ(ذَا) جَميعًا قَدْ جَرَيَا مَجْرَى (زَيْدٍ) وَحْدَهُ، لَمَّا وَسَمُوْهُ بِأَنَّهُ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالِابْتِدَاءِ، وَأَنَّ مَا بَعْدَهُ خَبَرٌ عنهُ.

وَالجِهَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ (حَبَّذَا) قَدْ أُجْرِيَ عَلَى الوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ، وَالمُذَكَّرِ وَالمؤنَّثِ مُجْرًى وَاحِدًا، فِي قَوْلِكَ: (حبَّذَا زَيدٌ، وَحبَّذَا هِنْدٌ، وَحَبَّذَا الزَّيدَانِ، وَحَبَّذَا الهِنْدَانِ، وَحَبَّذَا الزَّيدُونَ، وَحبَّذَا الهِنْدَاتُ)، فَلَوْلَا أنَّ (حَبَّ) قَدْ خُلِطَ بِـ(ذَا) حَتَّى صَارَا مَعًا كَالجُزْءِ الوَاحِدِ، وَخَرَجَا عَمَّا عَلَيْهِ الفِعْلُ وَالفَاعِلُ فِي فَرْشِ هذهِ اللُّغَةِ،

---

(١) يَعْنِي هذَا للأَمْثِلَةِ الخَمْسَةِ، وليسَ للمُثَنَّى وَحْدَهُ. وَقَدْ نَبَّهَ ابنُ الأنبَارِيِّ إِلَى ذلِكَ عندَ مَا عَدَّ سَبْعَةَ أَوْجُهٍ فِي عَلاقَةِ الفِعْلِ بالفَاعِلِ.

لَقَالُوا: (حَبَّذِهِ هِنْدٌ، وَحَبَّذَانِ الزَّيدَانِ، وَحَبَّتَانِ الهِنْدَانِ، وَحَبَّ هؤُلَاءِ الزَّيدُونَ وَالهِنْدَاتِ). فَامْتِنَاعُهُم مِنْ هذِهِ الفُصُولِ وَالفُرُوْقِ الـمُطَّرِدَةِ مَعَ غَيْرِ (حَبَّذَا) دَلَالَةٌ عَلَى امْتِزَاجِهِمَا عِنْدَهُم، وَجَرْيِهِمَا مَجْرَى الكَلِمَةِ الوَاحِدَةِ مِمَّا حَدَثَ لَهُمَا مِنَ الِانْضِمَامِ وَقُوَّةِ التَّرْكِيبِ، فَاعْرِفْ ذلِكَ.

وَيُقَوِّي ذلِكَ أَيْضًا قَوْلُ العَرَبِ: (لَا تُحَبِّذْهُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ)، أَيْ: لَا تَقُلْ لَهُ حَبَّذَا، فَاشْتِقَاقُهُمُ الفِعْلَ مِنْهُمَا أَقْوَى دَلَالَةٍ عَلَى شِدَّةِ امْتِزَاجِهَا. فهذَا أَحَدُ الأَدِلَّةِ.

وَدَلِيلٌ ثَانٍ: وَهُوَ أَنَّهُمْ قَدْ قَالُوا: (قَامَتْ هِنْدٌ، وَقَعَدَتْ جَمَلٌ)، فَأَلْحَقُوا التَّاءَ الفِعْلَ، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ عَلَامَةُ تَأْنِيثِ الفَاعِلِ، فَلَوْلَا أَنَّ الفِعْلَ وَالفَاعِلَ جَمِيعًا كَالجُزْءِ الوَاحِدِ، لَمَا جَازَ أَنْ يُرِيدُوا بِالتَّأْنِيثِ شَيْئًا وَيَجْعَلُوهُ فِي غَيْرِهِ، حَتَّى يَكُونَا مَعًا كَالشَّيْءِ الوَاحِدِ...فَلَوْ كَانَ المرَادُ تَأْنِيثَ الفِعْلِ دُوْنَ فَاعِلِهِ لَجَازَ (قَامَتْ زَيْدٌ) وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَدَلِيلٌ ثَالِثٌ: وَهُوَ أَنَّ أَبَا زَيْدٍ أَنْشَدَ:

[مِنَ الوَافِرِ]

إِذَا مَا كُنْتَ مُلْتَمِسًا لِغَوْثٍ ... فَلَا تَصْرُخْ بِكُنْتِيٍّ كَبِيرِ

وَأَنْشَدَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيى:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَأَصْبَحْتَ كُنْتِيًّا وَأَصْبَحْتَ عَاجِنًا ... وَشَرُّ خِصَالِ الـمَرْءِ كُنْتُ وَعَاجِنُ[1]

---

(١) قَالَ الأَزْهَرِيُّ فِي: (تَهذِيبِ اللُّغَةِ) (١٠/ ٨٣): «ثَعْلَب عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِي: قِيلَ لصبيّةٍ مِنَ العَرَبِ: مَا بَلَغَ الكِبَرُ مِنْ أَبِيك؟ فَقَالَتْ: قَدْ عجنَ وخبزَ، وَثَنَّى وثلَّث، وأَلْصَقَ وأَوْرَص، وكَانَ وكَنتَ.
قَالَ أَبُو الْعَبَّاس، وَأَخْبرنِي سَلمَةُ عَنِ الْفَرَّاءِ أَنَّهُ قَالَ: الكُنْتِيُّ فِي الجِسْمِ، وَالكَانِيُّ فِي الخُلُقِ.
قَالَ: وَقَالَ ابْنُ الأعرابيِّ: إِذَا قَالَ: كُنْتُ شَابًّا وَشُجَاعًا فَهُوَ كُنْتِيٌّ، وَإِذَا قَالَ: كَانَ لِي مَالٌ فكُنْتُ أُعْطِي مِنْهُ فهو كانِيٌّ».

فَقَوْلُهُ: (كُنْتِيًّا) مَعْنَاهُ أَنَّهُ يقُولُ: كُنْتُ فِي شَبَابِي أَفْعَلُ كَذَا، وَكُنْتُ فِي حَدَاثَتِي أَصْنَعُ كَذَا، وَ(كُنْتُ): فِعْلٌ، وَفَاعِلُهُ التَّاءُ، وَمِنَ الأُصُولِ الْـمُسْتَمِرَّةِ أَنَّكَ لَوْ سَمَّيْتَ رَجُلًا بِجُمْلَةٍ مُرَكَّبَةٍ مِنْ فِعْلٍ وَفَاعِلٍ، ثُمَّ أَضَفْتَ إِلَيْهِ، أَيْ: نَسَبْتَ، لَأَوْقَعْتَ الإِضَافَةَ عَلَى الصَّدْرِ، وَحَذَفْتَ الفَاعِلَ، وَعَلَى ذلِكَ قَالُوا فِي النَّسَبِ إِلَى (تَأَبَّطَ شَرًّا): تَأَبَّطِيٌّ، وَفِي قُمْتَ: (قُومِيٌّ)، حَذَفُوا التَّاءَ، وَحُرِّكَتِ الميمُ بِالكَسْرَةِ الَّتِي تَجْتَلِبُهَا يَاءُ الإِضَافَةِ، فَلَمَّا تَحَرَّكَتْ رَجَعَتِ الوَاوُ الَّتِي كَانَتْ سُقِطَتْ لِسُكُونِهَا وَسُكُونِ الميمِ، وَتِلْكَ الوَاوُ عَيْنُ الفِعْلِ مِنْ (قَامَ)[1]، فَقُلْتَ: (قُومِيٌّ)، وَكَذَا كَانَ القِيَاسُ أَنْ تَقُولَ فِي (كُنْتَ): كُونِيٌّ، تَحْذِفُ التَّاءَ؛ لأَنَّهَا الفَاعِلُ، وَتُحَرِّكُ النُّونَ، فَتَرُدُّ الوَاوَ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الفِعْلِ مِنْ (كُنْتُ)، فَقَوْلُهُم: كُنْتِيٌّ، وَإِقْرَارُهُمُ التَّاءَ الَّتِي هِيَ ضَمِيرُ الفَاعِلِ مَعَ يَاءِ الإِضَافَةِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُم قَدْ أَجْرَوا الضَّمِيرَ الفَاعِلَ مَعَ الفِعْلِ مَجْرَى دَالِ (زَيْدٍ) مِنْ زَايِهِ وَيَائِهِ، وَكَأَنَّهُم نَبَّهُوا بِهَذَا وَنَحْوِهِ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ قُوَّةَ اتِّصَالِ الفِعْلِ بِالفَاعِلِ، وَأَنَّهُمَا قَدْ حَلَّا جَمِيعًا مَحَلَّ الجُزْءِ الوَاحِدِ.

وَدَلِيلٌ رَابِعٌ: وَهُوَ أَنَّ أَبَا عُثْمَانَ ذَهَبَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ اسْمُهُ: [أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ] إِلَى أَنَّهُ أَرَادَ: أَلْقِ أَلْقِ. قَالَ: فَثَنَّى ضَمِيرَ الفَاعِلِ، فَنَابَ ذلِكَ عَنْ تَكْرِيرِ الفِعْلِ. فهذَا أيضًا يَشْهَدُ بِشِدَّةِ اشْتِرَاكِهِمَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَـمَّا ثَنَّى أَحَدَهُمَا وَهُوَ ضَمِيرُ الفَاعِلِ، نَابَ عَنْ تَكْرِيرِ الفِعْلِ، وَإِنَّمَا نَابَ عَنْهُ لِقُوَّةِ امْتِزَاجِهِمَا، فَكَأَنَّ أَحَدَهُمَا إِذَا حَضَرَ فَقَدْ حَضَرَا جَمِيعًا[2].

---

(١) لأَنَّ أَصْلَ (قَامَ): (قَوَمَ).

(٢) قَالَ ابنُ الأنبَارِيِّ فِي: (أسرارِ العَرَبِيَّةِ) (ص: ٨١): وَالوَجْهُ السَّابِعُ: أَنَّهُم قَالُوا للوَاحِدِ: «قِفَا» عَلَى التَّثْنِيَةِ؛ لأَنَّ المعْنَى: قِفْ قِفْ، قَالَ اللهُ تعَالَى: [أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ] فَثَنَّى وَإِنْ كَانَ الخِطَابُ لِمَلَكٍ وَاحِدٍ؛ لأَنَّ المرَادَ بِهِ: أَلْقِ أَلْقِ، وَالتَّثْنِيَةُ لَيْسَتْ للأَفْعَالِ، وَإِنَّما هِيَ للأَسْمَاءِ، فَلَوْ لَمْ

وَدَلِيلٌ خَامِسٌ: وَهُوَ قَولُهُم: (زَيْدٌ ظَنَنْتُ قَائِمٌ)، فِيمَنْ أَلْغَى، فَلَوْلَا أَنَّ الفِعْلَ مَعَ الفَاعِلِ كَالجُزْءِ الوَاحِدِ، لَمَا جَازَ إِلْغَاءُ الفَاعِلِ فِي ظَنَنْتُ.

فهذَا كُلُّه يَشْهَدُ بِقُوَّةِ اخْتِلَاطِ الفِعْلِ بِالفَاعِلِ»[(١)]. انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ جِنِّيْ.

فَعَلَى ذلِكَ نَعْرِفُ أَنَّهُم لَم يَقُولُوا ذلِكَ سُدًى، بَلْ: كَانَ لَهُم دَلِيلُهُم وَبُرْهَانُهُم، وَجَعَلَهَا الإِمَامُ ابنُ الأَنبارِيِّ سَبْعَةَ أَدِلَّةٍ وَاختَصَرَهَا وَقَالَ فِي نِهَايَتِهَا: «وَإِذَا ثَبَتَ بِهذِهِ الأَوْجُهِ أَنَّ الفَاعِلَ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الجُزْءِ مِنَ الفِعْلِ، لَمْ يَجُزْ تَقْدِيمُهُ عَلَيْه»[(٢)].

وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَامُ ابنُ الوَرَّاقِ أَدِلَّةً عَقلِيَّةً وَمُنَاقَشَةً رَائعَةً لِمَنِ اعترَضَ عَلَى هذَا فَقَالَ: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الْمَفْعُولُ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْفِعْلِ بَقِي مَفْعُولًا، وَالْفَاعِلُ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْفِعْلِ خَرَجَ مِنْ أَنْ يكُونَ فَاعِلًا وَارْتَفَعَ بِالِابْتِدَاءِ؟

فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْمَفْعُولَ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الفِعْلِ، فَلَيْسَ ثَمَّ عَامِلٌ آخَرُ يُوجِبُ نَصْبَ الْمَفْعُولِ، فَيَجِبُ أَلَّا يَخْرُجَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فِي حَالِ التَّأْخِيرِ، وَأَمَّا الْفَاعِلُ فَإِنَّهُ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْفِعْلِ أَمْكَنَ أَنْ يُقَدَّرَ لَهُ عَامِلٌ غَيْرُ الْفِعْلِ، وَهُوَ الِابْتِدَاءُ وَعَمَلُهُ رَفْعٌ، كَعَمَلِ الْفِعْلِ فِي الْفَاعِلِ، فَلَمَّا كَانَ الِابْتِدَاءُ سَابِقًا لِذِكْرِ الْفِعْلِ، وَجَبَ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ، وَأَمَّا الْمَفْعُولُ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْفِعْلِ فَلَيْسَ ثَمَّ قَبْلَهُ عَامِلٌ لَفْظِيٌّ وَلَا وَهْمِيٌّ غَيْرَ الْفِعْلِ الَّذِي قَدِمَ قَبْلَهُ، إِذْ خَلَا ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنْ ضَمِيرٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى ضَمِيرٍ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى مَذْكُورٍ قَبْلَهُ، فَرُتْبَةُ الْمَفْعُولِ بَاقِيَةٌ مَعَ التَّقْدِيمِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ، وَرُتْبَةُ الْفَاعِلِ ذَاهِبَةٌ مَعَ التَّقْدِيمِ مِنْ أَجْلِ الِابْتِدَاءِ الَّذِي لَا يظْهَرُ لَهُ عَامِلٌ لَفْظِيٌّ»[(٣)].

وَقَالَ أَيضًا: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَهَلَّا نُوِيَ بِالفَاعِلِ التَّأْخِيرُ، وَإِذَا نُوِيَ بِهِ التَّأْخِيرُ لَمْ يَجُزْ كَونُهُ مُبْتَدَأً؟

يَتنزَّلِ الاسْمُ مَنزِلَةَ بَعْضِ الفِعْلِ، وَإِلَّا لَمَا جَازَت تَثْنِيَتُهُ بِاعْتِبَارِه.

(١) سِرُّ صَنَاعةِ الإعرابِ (١/ ٢٣١-٢٣٥).

(٢) أسرَارُ العَربيَّةِ (ص٨١).

(٣) عِلَلُ النَّحوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص٢٧١).

فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ، وَذَلِكَ أَنَّ شَرْطَ الْفَاعِلِ إِذَا كَانَ بعدَ الْفِعْلِ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ غَيْرُهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ، نَحْوُ: (قَامَ زَيدٌ)، فَمُحَالٌ أَنْ تَذْكُرَ فَاعِلًا لِلْقِيَامِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَلَا تَثْنِيَةٍ مَعَ وُجُودِ (زَيْد)، فَلَمَّا كَانَ (زَيد) إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْفِعْلِ بِهَذِهِ الْمنزلَةِ اسْتَحَالَ وجودُ فَاعِلٍ سِواهُ، فَإِذَا جَازَ أَنْ يكُونَ لِهَذَا الْفِعْلِ فَاعِلٌ سِوَى (زَيد)، عَلِمْنَا بِهَذِهِ الدَّلَالَةِ أَنَّ (زَيْدًا) قَدْ خَرَجَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فَاعِلًا، نَحْوُ قَوْلِكَ: (زَيْدٌ قَامَ أَبوهُ)، فَالقِيَامُ لِلْأَبِ لَا مَحَالَةَ، فَوَجَبَ أَنْ يكُونَ (زَيْدٌ) مُرْتَفِعًا بِغَيْرِ هَذَا الْفِعْلِ، وَهُوَ الِابْتِدَاءُ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّ الْفَاعِلَ لَوْ كَانَ مُرْتَفِعًا بِفِعْلِهِ إِذَا تقدَّمَ، لَمْ يخْتَلِفْ حَالَ الْفِعْلِ، فَلَمَّا وَجَدْنَاهُ مُخْتَلِفًا، عَلِمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مُرْتَفِعًا بِفِعْلِهِ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْفِعْلِ، وَذَلِكَ ظُهُورُ عَلَامَةِ التَّثْنِيَةِ وَالْجمْعِ، كَقَوْلِكَ: (الزَّيدَانِ قَامَا، وَالزَّيدُونَ قَامُوا)»[1].

وَبِهذَا عَلِمْنَا أَنَّ الـمهندِسَ لَم يعتَرِضْ إِلَّا بِسَبَبِ بُعْدِهِ عَنْ قَوَاعِدِ النَّحْوِ وَكَلامِ أربَابِهِ فِي قَوَاعِدِهِ وَضَوابِطِهِ، وَتأْصِيلاتِهِم لَهَا، فَلَوْ رَجَعَ إِلَى كَلامِهِم لَأَذْعَنَ وَأيقَنَ وَاعتَرَفَ إِنْ كانَ باحِثًا، وَاللهُ تَعَالَى وَلِيُّ التَّوفِيْقِ بِفَضْلِهِ.

كَيْفَ تَحِلُّ (النُّونُ) مَحَلَّ الفَاعِلِ؟

ثُمَّ يَتَطَرَّقُ إِلَى مِثَالٍ آخَرَ، وَهُوَ: (النِّسَاءُ يَعْمَلْنَ فِي الحقْلِ)، وَيَعتَرِضُ عَلَى أَنَّ (النُّونَ) هِيَ الفَاعِلُ، وَيَقُولُ: «كَيفَ تَحِلُّ النُّونُ مَحَلَّ الفَاعِلِ؟ وَأَينَ الـمُحاكَمَةُ العَقلِيَّةُ فِي التَّقعِيدِ؟»[2].

أَقُولُ: هذَا لَيسَ سِوَى التَّشَاغُبِ وَالثَّرْثَرَةِ بالكَلامِ، وَإِلَّا فَلَيسَ هُناكَ مَا يَمْنَعُ مِنْ ذلِكَ، وَهذَا مِنْ سِمَاتِ الِاخْتِصَارِ وَالتَّيسِيرِ مِنْ جَانِبٍ حَيثُ يَقُومُ الضَّمِيرُ (حَرْفٌ وَاحِدٌ) مَقَامَ الفَاعِلِ (اسْمٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى حُرُوفٍ)، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ أَدَاةٌ لِتَنْسِيقِ

---

(١) عِلَلُ النَّحْوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص٢٧١-٢٧٢).

(٢) (ص٥١).

الكَلامِ، حيثُ يَكُونُ (النِّسَاءُ) مُبْتَدَأً، وَ(النُّونُ) فَاعِلًا؛ لأَنَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ الفَاعِلُ فِي العَرَبِيَّةِ عَلَى فِعْلِهِ، للأَسبَابِ السَّابِقَةِ الَّتِي مَرَّتْ فِي كَلامِ المُحقِّقِينَ.

وَكذَا نَقُولُ للمهنْدِسِ: هَبْ أَنَّنَا لَا نَقُولُ بِقَوْلِ النُّحَاةِ، وَلَا نَرْضَى بِكَلامِهِم، وَلكِنْ أَعْطِنْا كَلامًا مَعقُولًا فِي تَحدِيدِ مَوْقِعِ(النُّونِ) فِي مِثْلِ هذِهِ الجُمْلَةِ، وَيكُونُ كَلامُكَ مَنْطِقِيًّا سَلِيمًا عَقْلَانِيًّا، يَخرُجُ سَالِمًا فِي المُحَاكمةِ العَقلِيَّةِ وَتَحتَ المِعيَارِ المَنْطِقِيِّ!

كَيْفَ يَكُونُ لِفِعْلِ الأَمْرِ فَاعِلٌ؟

ثُمَّ يَذْهَبُ صَاحِبُ الجِنَايَةِ إِلَى مَوْضُوعِ (فِعْلِ الأَمْرِ) وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الفَاعِلِ لِفِعْلِ الأَمْرِ وَيُنْكِرُهُ، وَيَقُولُ: «نَنْتَقِلُ الآنَ إِلَى حَالَةِ إِعرَابٍ أُخرَى، وَلْنَأْخُذْ مَثَلًا الجُمْلَةَ التَّالِيَةَ: (ارْجِعْ إِلَى البَيْتِ). حَيثُ (ارجِعْ) فِعلُ أَمْرٍ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ الظَّاهِرِ فِي آخِرِهِ. وَالفَاعِلُ ضَمِيرٌ مُستَتِرٌ وجُوبًا -لَاحِظْ كَلِمَةَ (وجُوبًا)-تَقدِيرُهُ (أَنْتَ).

وهُنا نَجِدُ غَرَابَةً فِي ذلِكَ الإِعرَابِ الفَرِيدِ، حيثُ افتَرَضْنَا فَوْرًا أَنَّ الفِعْلَ قَدْ تَمَّ، وَخلَقْنَا لَهُ فَاعِلًا هُوَ الضَّمِيرُ (أَنْتَ). فِي حِينِ أَنَّ هُنَاكَ احتِمَالًا كَبِيرًا بِعَدَمِ تَحَقُّقِ الفِعلِ لِيكُونَ لَهُ فَاعِلٌ.

فَمَثَلًا عِنْدَ قَوْلِي لِصَدِيقِي: (عُدْ أَوِ: ارْجِعْ إِلَى البَيْتِ) يُمكِنُهُ دائِمًا أَنْ يَرْفُضَ الرُّجُوعَ، أَوِ: العَوْدَةَ، وَلَا يُلَبِّيَ ذلِكَ، وَعلَيهِ فَلَا يَحدُثُ الفِعْلُ أَصْلًا». ص: (٥٢).

أَقُولُ: إِنَّ وجُودَ شَخْصٍ مُخَاطَبٍ يَقُومُ بالفِعلِ فِي صِيغَةِ الأَمْرِ، مِنْ أَرْكَانِ الأَمْرِ وَإِلَّا فَلَا يَتِمُّ وَلَا يُقَالُ لَهُ الأَمْرُ؛ لأَنَّهُ يَقُومُ عَلَى أَرْكَانٍ أَرْبَعَةٍ: (الآمِرُ، وَالمَأْمُورُ، وَالمَأمُورُ بِهِ، وَالصِّيغَةُ)، فَإِذَا فُقِدَ وَاحِدٌ مِنْ هذِهِ الأَرْبَعَةِ لَا يُقَالُ لَهُ أَمْرٌ، وَلَيْسَ فِي العَرَبِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ: فِي جَمِيعِ لُغَاتِ العَالَمِ هَكَذَا؛ لأَنَّهُ لَا يُفْهَمُ بِدُونِهَا، وَيَشْتَرِكُ جَمِيعُ اللُّغَاتِ فِي كَوْنِ خِطَابِهَا مَفْهُومًا ذَا دَلَالَةٍ وَإِلَّا فَلَا تُسَمَّى لُغَةً.

فَالفَاعِلُ هُوَ الشَّخْصُ الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ الآمِرُ خِطَابَهُ، وَيَقُومُ بِهِ فِي الـمُسْتَقْبَلِ، وَبِدُونِهِ لَا يَبْقَى للأَمْرِ مَعْنًى، وَلَا يَرَى أَحَدٌ صِيغَةً مِنْ صِيَغِ الأَمْرِ وَإِلَّا تَخَيَّلَ فِيْهَا وجُودَ شَخْصٍ يَقُومُ بِهِ، إِذَا كَانَ مُفْرَدًا، فَهُو (أَنْتَ)، أَوْ: جَمَاعَةَ ذُكُورٍ (أَنْتُم)، أَوْ: جَمَاعَةَ إِنَاثٍ (أَنْتُنَّ)، فهذِهِ الضَّمَائِرُ تَقُومُ بالفِعْلِ وَيَتَعَلَّقُ الخِطَابُ بِهِنَّ، فَيَصِيرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُنَّ فِي مَكَانِهِ فاعِلًا.

فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ، لَوْ قَالَ وَاحِدٌ: (قُمْ صَلِّ فِي الـمَسْجِدِ)، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَصَوَّرَ فِي ذِهْنِهِ (أَنْتَ) الَّذِي خُوطِبَ فِي الأَمْرِ، سَوَاءٌ كَانَ يَقُومُ بالفِعْلِ فِي الـمُسْتَقْبَلِ، أَوْ: لَا يَقُومُ بِهِ. وَكَذَا فِي الإِنْجلِيزِيَّةِ (You)، وَفِي التُّرْكِيَّةِ (sen)، وَفِي الفَارِسِيَّةِ (شُما)، وَهكَذَا فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَكَذَا بالنِّسْبَةِ للمُذَكَّرِ وَالغَائِبِ، وَالـمُفْرَدِ وَالجَمْعِ بالنِّسْبَةِ للعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَاتِ الأُخْرَى[1].

وَلَا أَرَى أَنْ يُنْكِرَ هذَا عَاقِلٌ، وَلَا أَشُكُّ أَنَّ الـمُهندِسَ أيضًا مِنْ جُمْلَتِهِم وَيُؤمِنُ بِهِ، وَلكِنَّهُ تَعَصَّبَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَعُلَمَائِهَا فَتَأَجَّجَ وَتَأَجَّمْ، وَكَتَبَ وَاسْتَعْجَمْ، وَأَتَى بِمَا لَا يُقَالُ وَيُلْجَمْ.

وَالأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ أَنَّهُ سَرْعَانَ مَا نَاقَضَ نَفْسَهُ عِنْدَ مَا ذَكَرَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى [وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ]، وَيَذكُرُ أَنَّ النُّحَاةَ قَالُوا إِنَّ الفَاعِلَ مُسْتَتِرٌ وجُوبًا، وَيَقُولُ فِي الهَامِشِ: (الـمُنَاقَشَةُ مِنْ مَدْرَسَةِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَلَا تُمَثِّلُ رَأْيَنَا؛ لأَنَّ الفَاعِلَ عِنْدَنَا هُوَ آدَمُ حَتْمًا)[2]!!.

يَا سَلَامُ، (الفَاعِلُ عِنْدَهُم هُوَ آدَمُ حَتْمًا)، كَمْ هُوَ جَمِيلٌ قَوْلُهُ: (عِنْدَنَا)؛ لأَنَّهُ فَاصِلٌ وَمُعرِبٌ لِيُبَيِّنَ تَنَاقُضَهُ وَتَخَبُّطَهُ دُونَ أَيِّ تَأْوِيلٍ وَلَا شُبْهَةٍ، وَإِنَّنِي لَا أَدرِي مَاذَا أُسَمِّي

---

(١) بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الـمُذَكَّرِ وَالـمُؤَنَّثِ؛ لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ اللُّغَاتِ لَا تُفَرِّقُ بينَهُمَا.

(٢) (ص٥٥)، الهَوَامِشُ، هَامِشُ: (٢١).

فِعْلَهُ هذَا، هَلْ أُسَمِّيهِ بأنَّهُ لَايدرِي مَا يَقُولُ؟ أَمْ أُسَمِّيهِ التَّنَاقُضَ؟ أَمْ أُسَمِّيْهِ التَّشَاغُبَ مَعَ اللُّغَةِ؟

فَعلَى أَيَّةِ حَالٍ فَالـمُهَنْدِسُ مُوافِقٌ للنُّحَاةِ فِي ذلِكَ باعتِرَافِهِ، وَأَمَّا سَبَبُ اعتِرَاضِهِ السَّابِقِ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ، وَلَيْسَ سِوَى تَعْمِيَةٍ وَتَدْجِيلٍ، وَلكِنَّنَا لَا نَدَعُ تَدجِيلًا وَاحِدًا وَلَا نَسكُتُ عَنهُ مَا بَا بِقِيَتْ فِيْنَا رُوحٌ تَرْمُقُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى، وَنَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ العِيسَوِيِّ لِدَحْرِ التَّدجِيلِ وَالدَّجَاجِلَةِ، وَاللهُ الـمُستَعَانُ.

[مِنَ الكَامِلِ]

نُشِرَتْ دَجَاجِلَةُ الزَّمَانِ وَقَدْ أَتَوْا ... تَتْرَى فَيَتْلُو كُلَّ جِيْلٍ جِيلْ
صَبْرًا فَكَمْ زَمَنٌ أَتَى ثُمَّ انْقَضَى ... وَعَسَى بِعِيْسَى يُبْطِلُ التَّدْجِيلْ

الـمُهَنْدِسُ أُوزُون، وَكَلامٌ غَيرُ مَوْزُون، عَنْ فَاعِلِ (اسكُنْ):

ثُمَّ شَرَعَ الـمُهَنْدِسُ فِي مَوضُوعِ وجُوبِ اسْتِتَارِ الضَّمِيرِ فِي فِعْلِ الأَمْرِ، وَقَالَ: «فَإِنَّ استِتَارَ الضَمِيرِ (أَنْتَ) وجُوبًا لَا مُبَرِّرَ لَهُ. لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: [وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ] (البَقَرَة).

نُلاحِظُ هُنَا أَنَّ الضَّمِيرَ (أَنتَ) هُوَ الفَاعِلُ لِلفِعْلِ (اسْكُنْ) وَلَم يَسْتَتِرْ، علمًا أَنَّ بَعْضَ النُّحَاةِ يَعْتَبِرُ الضَّمِيرَ (أَنْتَ) الوَارِدَ فِي الآيَةِ الكَرِيمَة ضَمِيرًا مُنْفَصِلًا فِي مَحَلِّ رَفْعٍ تَوكِيدٌ للفَاعِلِ الـمُسْتَتِرِ، وَنَحنُ نَرَى أَنَّ هذَا الكَلامَ مَا هوَ إِلَّا إِغْرَابٌ وَتَضْلِيلٌ، فَهَلْ يَحْتَاجُ الخَالِقُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يُؤَكِّدَ لآدَمَ مَا يَتَوَجَّبُ عليهِ فِعْلُهُ، وَأَمْرُهُ بينَ الكَافِ وَالنُّوْنِ؟ وَهَلْ نُعَرِّفُ أَنْتَ بِـ(أَنْتَ)؟ وَلكِنْ بِبَسَاطَةٍ لَا يُرِيدُ السَّادَةُ النُّحَاةُ أَنْ يَخرُجُوا عَنْ قَوَاعِدِ شُيُوخِهِم حَتَّى وَلَوْ غَيَّرُوا الـمَعْنَى، فَهُم دَائِمًا يَلْوُونَ ذِرَاعَ النَّصِّ لِصَالِحِهِم». ص: (٥٢-٥٣).

أقُولُ: إنَّ الـمُهندِسَ لَم يَفْهَمْ هذِهِ الـمَسأَلَةَ كَمَا لَمْ يَفْهَمِ الـمَسَائِلَ الأُخْرَى، وَكَانَ استِدلَالُهُ بِهذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ استِدْلالًا فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، فَالآيَةُ لَيسَتْ مُخالِفَةً وَلَا مُنَاقِضَةً لِمَا أَصَّلَهُ النُّحَاةُ؛ لأنَّنَا قُلْنَا سابِقًا وَنُكَرِّرُهُ مرَّةً أُخرَى هُنَا: كَانَ اعتِمَادُ النُّحَاةِ الأَوَّلُ عَلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى فِي الِاستِدْلَالِ عَلَى القَوَاعِدِ، وَلَا يَكُونُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ خِلافُ مَا ذَكَرَهُ النُّحَاةُ وَاتَّفَقُوا عَلَيْهِ فِي كُتُبِهِم؛ لأَنَّهُم جَعَلُوهُ مَنْهَلًا لِمَعَارِفِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ، وَكَانَ الـمَصْدَرَ الأَوَّلَ لِقِيَاسَاتِهِم وَاحتكَمُوا إليهِ، فَكَيفَ يُدَّعَى بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ فِي القُرآنِ الكَرِيمَ خِلافَ مَا قَالُوهُ؟!

مَا دَامَتِ الـمَسأَلَةُ هكَذَا وَالنُّحَاةُ اعتَمَدُوا عَلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَالـمَصْدَرِ الأَوَّلِ لِكَوْنِهِ أَفْصَحَ كَلَامٍ عَرَبِيٍّ وَأَنْصَعَهُ عَلَى الإِطْلاقِ، عَلِمْنَا أَنَّ الخَطَأَ لَيسَ فِي كَلامِ النُّحَاةِ، وَلَيسَ ثَمَّةَ بينَ كَلامِهِم وَلَا بينَ هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَيُّ تَنَاقُضٍ، وَلكِنَّ الخَطَأَ فِي فَهْمِ الـمُهَنْدِسِ، كَيْفَ؟

نُوَضِّحُ مَا جَاءَ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَنَقُولُ: إنَّ الفَاعِلَ فِيْهَا هُوَ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ، أَمَّا (أَنْتَ) الـمَذْكُورُ، فَلَيْسَ بِفَاعِلٍ، بَلْ: هُوَ تَوْكِيدٌ للفَاعِلِ؛ لأَنَّهُ لَم يأتِ فِي كَلامٍ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ العَطْفُ عَلَى هـذَا الضَّمِيرِ الـمُسْتَتِرِ، وَلَا عَلَى الضَّمِيرِ الظَّاهِرِ أَيضًا عَلَى الصَّحِيحِ، إِلَّا وَأَكَّدُوهُ بِضَمِيرٍ آخَرَ مِثْلِهِ، ثُمَّ عَطَفُوا عليهِ، فَفِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ عطَفَ اللهُ تَعَالَى زَوْجَ[1] آدَمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- عَلَى آدَمَ[2] فِي الحُكْمِ، فَلِذَلِكَ كَرَّرَ الضَّمِيرَ وَعَطَفَ عليهِ، وَلَمْ يأتِ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ إظْهَارُ الضَّمِيرِ فِي الأَمْرِ، إِلَّا فِي هذِهِ الصُّورَةِ، فَإِذَا

---

(١) قَالَ ابنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ: (لَيسَ فِي كَلامِ العَرَبِ) (ص:٣٣٧): «فالرَّجُلُ زَوْجُ المرأةِ، والمرأةُ زَوْجُ الرَّجُلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ] وَرُبَّمَا قِيلَ للمَرْأَةِ: زَوْجَةٌ، بِالهَاءِ تَوْكِيدًا للتَّأنِيثِ وَرَفْعًا لِلَّبْسِ، كَمَا قَالُوا: فَرَسٌ للذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَرُبَّمَا قَالُوا: فَرَسَةٌ».

(٢) آدَمُ هُوَ الـمَعْنِيُّ بِالضَّمِيرِ الـمُسْتَتِرِ هُنَا.

كَانَ أوزونُ لَدِيهِ دَليلٌ آخرُ فَلَهُ الـمُهْلَةُ إِلَى يوم القِيَامَةِ أَنْ يُثْبِتَ ذلِكَ، وَلَهُ بَعْدَ ذلِكَ أَنْ يَدَّعِي هذَا الِادِّعَاءَ وَيقُولَ بأنَّ القرآنَ الكَرِيمَ خَالَفَ قَوَاعِدَ النُّحَاةِ.

فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ نَأْتِي بِذِكْرِ أَمْثِلَةٍ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ عَلَى (الأَمْرِ):

فِي هذِهِ الآيَةِ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَمْرًا لِمُفْرَدٍ، فَالفَاعِلُ فِيهَا مُسْتَتِرٌ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (طـه).

وَفِي هذِهِ الآيَةِ ذَكَرَ أَمْرًا لِاثْنَيْنِ، وَالفَاعِلُ مُسْتَتِرٌ: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ (الفرقان).

فَفِي هذِهِ الآيَةِ جُمِعَتْ أَرْبَعَةُ أَوَامِرَ بِصِيْغَةٍ لِجَمَاعَةِ الذُّكُورِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ (الحج).

فَأينَ ذِكْرُ الفَاعِلِ؟ أَلَيسَ مُسْتَتِرًا؟

وَفِي هذِهِ الآيَةِ جَمَعَ ثَلَاثَةَ أَوَامِرَ وَنَهْيًا وَاحِدًا لِجَمَاعَةِ الإِنَاثِ: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب).

فَأَيْنَ ذِكْرُ الفاعِلِ لِهذِهِ الأَوَامِرِ أليسَ ضَمِيرًا مُسْتَتِرًا؟

فَهذِهِ بَعضُ الأَمْثِلَةِ وَإِلَّا فَذِكْرُ الأَمرِ فِي جَمِيعِ القُرآنِ الكَرِيمِ هَكذَا باستِتَارِ الضَّمِيرِ، إِلَّا فِي صُورَةِ العَطْفِ عَلَى هذَا الضَّمِيرِ الـمُسْتَتِرِ، وَقَدْ ذَكَرَ إِمَامُ الصَّنعَةِ سِيْبَوَيْهِ هذِهِ الآيَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا أوزونُ وَذَكَرَ آيَةً أُخرَى وَأَشَارَ إِلَى هذَا الأَمرِ فَقَالَ: «لَوْ قُلْتَ: (اذْهَبْ وَعَبْدُ اللهِ) كَانَ فِيهِ قُبْحٌ، فَإِذَا قُلْتَ: (اذْهَبْ أَنْتَ وَعَبْدُ اللهِ)، حَسُنَ. وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي القُرآنِ: [فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا]، وَ[اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ

الجَنَّةَ]»[١].

وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ: «فَإِنْ نَعَتَّهُ حَسُنَ أَنْ يَشْرَكَهُ الْمُظْهَرُ، وَذلِكَ قَوْلُكَ: (ذَهَبْتَ أَنْتَ وَزَيْدٌ)، وَقَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ] وَ[اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ]»[٢].

وَقَالَ ابنُ جِنِّيْ: «فَإِنْ كَانَ الْمُضْمَرُ مَرْفُوعًا مُتَّصِلًا لَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ حَتَّى تُؤَكِّدَهُ، تَقُولُ: (قُمْ أَنْتَ وَزَيْدٌ)، وَلَوْ قُلْتَ: (قُمْ وَزَيْدٌ) مِنْ غَيْرِ تَوْكِيدٍ لَمْ يَحْسُنْ»[٣].

وَقَالَ ابنُ يَعِيش فِي العَطْفِ عَلَى الضَّمِيرِ: «فَإِنْ كَانَ مَرْفُوعَ الْمَوْضِعِ، لَمْ يَجُزِ العَطْفُ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ تَأْكِيدِهِ»[٤].

فَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ الْمَسْأَلَةُ قَدِ اتَّضَحَتْ، وَالإِلْبَاسَ قَدْ زَالَ، وَالقِنَاعَ قَدْ رُفِعَ، وَالسِّتْرَ قَدْ كُشِفَ.

أَمَّا بَاقِي الكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ المهندِسُ: (فَهَلْ يَحْتَاجُ الخَالِقُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يُؤَكِّدَ لآدَمَ مَا يَتَوَجَّبُ عليهِ فِعْلُهُ، وَأَمْرُهُ بينَ الكَافِ وَالنُّوْنِ؟ وَهَلْ نُعَرِّفُ أَنتَ بِـ(أَنْتَ)؟) فَهُوَ دَلِيلُ بُعْدِهِ عَنِ العَرَبِيَّةِ وَأَسَالِيبِهَا؛ لأنَّ الْمَسأَلَةَ ليستْ مَسْأَلَةَ التَّوكِيدِ الَّذِي فَهِمَهُ الْمهندِسُ، بَلْ: كَانَ الغَرَضُ مِنْ تَوكِيدِ الضَّمِيرِ لأَجْلِ العَطْفِ كَمَا بَيَّنَّا لأنَّ العَرَبَ لَا تَعْطِفُ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرفُوعِ إِلَّا بَعْدَ تَوْكِيدِهِ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ فَهَلْ فِي تَوْكِيدِ اللهِ لآدَمَ أَمْرَهُ فِيهِ مُشكِلَةٌ وَيَحْتَمِلُ الِاعتِرَاض؟ فَهُوَ إِنْ كَانَ مَوجُودًا فَهِمْنَاهُ كَبَاقِي تأكِيدَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ، بأسَالِيبِهَا الْمُختَلِفَةِ لأَغْرَاضِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ.

---

(١) الكِتَابُ (١/ ٢٤٧).

(٢) الكِتَابُ (١/ ٢٤٧).

(٣) اللُّمَعُ (ص٩٦).

(٤) شَرْحُ الْمفصَّلِ (٢/ ٢٨٠).

وَإِنَّنِي لَا أَعْرِفُ عَلَاقَةَ هذَا العَطْفِ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، حَتَّى يُذَكِّرَنَا أوزونُ بِهَا، بالكَلامِ عَنِ الكَافِ وَالنُّونِ(١).

وَكَذَا لَا أَجِدُ مَعْنًى مَعقُولًا لِقَوْلِهِ (وَهَلْ نُعَرِّفُ أَنْتَ بِـ(أَنْتَ)؟)؛ لأَنَّنَا لَم نُعَرِّفِ الضَّمِيرَ بالضَّمِيرِ، وَليسَ عَمَلُ تَوْكِيدِ الضَّمِيرِ هُنَا التَّعرِيفَ، حَتَّى يَقُولَ صَاحِبُ الجِنَايَةِ هذَا الكَلامَ.

وَإِنَّنِي أُذَكِّرُ نَفْسِي وَجَنَابَ الـمُهَنْدِسِ بِمَا قَالَهُ ابنُ دُرَيْدٍ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

جَهِلْتَ فَعادَيْتَ العُلُومَ وَأَهلَهَا ... كَذاكَ يُعادي العِلمَ مَنْ هُوَ جاهِلُهْ

وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَن يُرَى مُتَصَدِّرًا ... وَيَكرَهُ لا أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهْ

---

(١) هذَا الكَلَامُ إِذَا جَازَ فَبِتَأويلٍ وَإِلَّا فَأَمْرُ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّونِ، بَلْ: بَعْدَ (كُنْ)، كَمَا جَاءَ فِي آيَاتٍ، مِنْهَا آيَةُ البَقَرَةِ: [بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الاسْمُ العَلَمُ وجَهْلُ صَاحِبِ الجِنَايَةِ

بَعْدَ أَنِ انتَهَى مِنَ الكَلامِ عَلَى الأَفْعَالِ، شَرَعَ فِي الكَلامِ عَنِ الأَسْمَاءِ، وَتَطَرَّقَ لِلاسْمِ العَلَمِ فَقَالَ: «تَجدرُ الإشارةُ هُنا إِلَى أنَّ اسمَ الأَشْخاصِ لَا يَكُونُ عَلَمًا (مَعْرِفَةً) بدونِ جُزْءَينِ رَئيسِيَّيْنِ هُمَا الاسمُ وَاللَّقَبُ (النِّسْبَةُ)، فَإِذَا سِرْتَ فِي الشَّارِعِ السُّوري فِي دِمَشْقَ وَنادَيتَ: يَا مُحمَّدُ! تَجشَّدُ عددًا من الأشخَاصِ يَلْتَفِتُ إليكَ، بِمَعْنَى أنَّ اسمَ محمَّدٍ لم يعُدْ معرِفَةً بِحَدِّ ذَاتِهِ وَأَصْبحَ حُكمُهُ نَكرَةً حَسَبَ تَصْنِيفِهِم». ص: (٥٨).

أقُولُ: إنَّ القولَ بأَنَّ الأَعْلَامَ ليستْ مَعَارِفَ شَيءٌ عَجِيبٌ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ وَلَا يَقُولُ بِهِ عَاقِلٌ، إِذْ تَعْرِيفُهَا فِي ذَاتِهَا، وَلَا تَحتَاجُ إِلَى الكُنْيَةِ وَاللَّقَبِ لِيَجْعَلَاهَا مَعْرِفَةً، فَهِيَ بِذاتِهَا مِنْ أَعْرَفِ المَعَارِفِ.

قَالَ ابنُ الأَنْبَارِيِّ: «فَإِنْ قِيْلَ: فَمَا أَعْرَفُ هذِه المَعَارِفِ؟ قِيلَ: اخْتَلَفَ النَّحوِيُّونَ فِي ذلِكَ، فَذَهَبَ بعضُهُم إِلَى أَنَّ الاِسْمَ المُضْمَرَ أَعْرَفُ المَعَارِفِ، ثُمَّ الاِسْمُ العَلَمُ..»[1].

وَذَهَبَ سِيْبَوَيْهِ وَالسِّيرَافِيُّ إِلَى أَنَّ أَعْرَفَ المَعَارِفِ هُوَ الاِسمُ العَلَمُ بينَ سَائِرِ المَعَارِفِ[2]. وَهذَا مَذْهَبُ البَصرِيِّينَ[3]؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الاِسْمِ العَلَمِ أَنْ يُوْضَعَ

---

(١) أسرَارُ العَربيَّةِ (ص٢٤٣).

(٢) أسرَارُ العَربيَّةِ (ص٢٤٤)، اللّبَابِ للعُكبَريِّ (١/ ٤٩٤)، وَنُسِبَ إِلَى سِيبَوَيْهِ القَولُ بالضَّمِيرِ أيضًا. يَجِبُ الِانتِبَاهُ إِلَى أَنَّ الخِلافَ فِي غَيرِ اسمِ اللهِ تَعَالَى كَمَا ذَكَرَهُ السُّيوطِيُّ وَقَالَ: «وَمَحَلُّ الْخِلَافِ فِي غَيْرِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ أَعْرَفُ المَعَارِفِ بِالْإِجْمَاعِ». هَمْعُ الهَوَامِعِ (١/ ٢٢١). وَقَالَ الفَاكِهِيُّ عَنْ لَفْظِ الجَلَالَةِ (اللهِ): «وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ أَعْرَفُ المَعَارِفِ وَإِنْ كَانَ عَلَمًا» شَرْحُ كِتَابِ الحُدُودِ فِي النَّحْوِ (ص٣٧).

(٣) الإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ (٢/ ٥٨١).

لِشَيْءٍ بِعَيْنِهِ لَا يَقع عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَإِذَا كَانَ الأَصْلُ فِيْهِ أَنْ لَا يكُونَ لَهُ مُشَارِكٌ أَشْبَهَ ضَمِيرَ الـمُتكلِّمِ، وَكَمَا أَنَّ ضَمِيرَ الـمُتكلِّمِ أَعْرَفُ مِنَ الـمُبْهَمِ فَكَذلِكَ مَا أَشْبَهَهُ[(١)].

أمَّا كونُ التِفَاتِ أُنَاسٍ عندَ نِدَائِكَ بِاسْمِهِم، فَهُوَ راجِعٌ إِلَى اشتِرَاكِهِم فِي هذَا الِاسمِ وَلَا يَرْجِعُ إِلَى كونِ الِاسمِ نكرَةً، وَهذَا مَوجودٌ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ، وَلَا تَخلُو لُغَةٌ مِنَ اللُّغَاتِ عَنْ وجودِ الِاشتِرَاكِ فِي الأَسْمَاءِ، وَمَعَ هذَا لَمْ يُصَنِّفُوا الأَعْلامَ ضِمْنَ النَّكِرَاتِ، بَلْ: صَنَّفُوهَا فِي الـمَعَارِفِ، وَأَصْلُ التَّسمِيَةِ لِأَجْلِ التَّعرِيفِ وَعَدَمِ التَّخلِيطِ، فَإِذَا صَنَّفْتَهَا فِي النَّكِرَةِ، فَلَا يَبْقَى لِلتَّسمِيَةِ مَعْنًى مَعْقُولٌ، إِلَّا إِذَا قُلْتَ: إِنَّ التَّعرِيفَ يَكُونُ بالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يَعرِفُونَهُ وَلَا يُقْصَدُ الأَشْخَاصُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَهُ، وَفِي هذَا كَلامٌ لِابنِ الوَرَّاقِ، كَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى ذلِكَ حَيثُ قَالَ: «إِنَّمَا صَارَ الِاسْمُ الْعَلَمُ مَعْرِفَةً؛ لِأَنَّها وُضِعَ دَلَالَةً عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أُمَّتِهِ، فَلِهَذَا صَارَ مَعْرِفَةً»[(٢)].

وَكَذَا ابنُ يَعِيشَ أَشَارَ إِلَى ذلِكَ فَقَالَ: «اعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا ثَنَّيْتَ الِاسْمَ العَلَمَ تَنكَّرَ، وَزَالَ عَنْهُ تَعْرِيفُ العَلَمِيَّةِ، لِمُشَارَكَةِ غَيْرِهِ لَهُ فِي اسْمِهِ»[(٣)].

أَمَّا الِاشتِرَاكُ فِي اللُّغَاتِ، فَشيءٌ حَتمِيٌّ وَلَا يُمْكِنُ مَنْعُهُ وَلَا سَبِيلَ لِلوصُولِ إِليهِ، لِكَثْرَةِ النَّاسِ، وَقِلَّةِ الأَسْمَاءِ، وَلِعَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنَ التَّأَكُّدِ عَلَى الأَسْمَاءِ هَلِ استُخْدِمَتْ أَمْ لَا، حَتَّى إِذَا كَانَتْ مُسْتَخْدَمَةً عِنْدَ أَحَدٍ، لَا يُسَمِّي بِهَا آخَرُونَ أَوْلَادَهُم.

---

(١) الإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ (٢/ ٥٨٢).

(٢) عِلَلُ النَّحْوِ (ص٣٨٠).

(٣) شَرْحُ المفصَّلِ (١/ ١٤٠).

وَمِنْ هُنَا يَجِبُ الإِشَارَةُ إِلَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَحَدِهِمَا: أنَّ أوزونَ كَتَبَ (اسْم العَلَم)، بَدَلًا مِنَ (الِاسمِ العَلَمِ)، وَهذَا يَتكَرَّرُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَمَعْنَى الكَلِمَتَيْنِ عَلَى الصِّفَةِ وَالمَوْصُوفِ، مُغايرٌ لِمَعْنَى للإِضَافَةِ.

ثَانِيهِمَا: أَنَّهُ فَسَّرَ (العَلَمَ) بِـ(النَّكِرَةِ)، وَهذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ يَتَجَنَّبُهُ أَصْغَرُ طَلَبَةِ اللُّغَةِ.

ثَالِثِهِمَا: فَسَّرَ (اللَّقَبَ) بِـ(النِّسْبَةِ)، وَبينَ هذَينِ مِنَ الفَرْقِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى طَالِبٍ مُبْتَدِئٍ.

حَدُّ النَّصْلِ، فِي الجِنَايَةِ عَلَى ضَمِيْرِ الفَصْلِ

يَسْتَمِرُّ صَاحِبُ الكِتَابِ فِي الكَلامِ وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الضَّمَائِرِ وَغَالَطَ فِيهَا مَشْيًا عَلَى مُقَدِّمَاتِهِ السَّابِقَةِ الَّتِي نُوقِشَتْ، وَلَم يُضِفْ جَدِيدًا هُنَا حَتَّى نَرُدَّ عليهِ، وَاستَمَرَّ بَعْدَ صَفْحَةٍ إِلَى أَنْ وَصلَ إِلَى الكَلامِ عَنْ ضَمِيرِ الفَصْلِ فَقَالَ: «أخيرًا قَدْ لَا يَكُونُ للضَّمِيرِ الـمَعْرِفَةِ مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرابِ، فَعِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ ضَمِيرُ الفَصْلِ لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإِعْرابِ، كَقَوْلِكَ: (صَدِيقُكَ هُوَ الوَفِيُّ). هُوَ: ضَمِيرٌ مُنفَصِلٌ لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإِعْرابِ، فَمَا رَأيُكَ عَزِيزِي القَارِئُ؟». ص: (٥٩).

أَقُولُ: إِنَّ فِي العَرَبِيَّةِ نوْعًا مِنَ الضَّمِيرِ، وَلَا يَعْمَلُ كَالضَّمَائِرِ الـمَعرُوفَةِ بأعمَالِهَا، وَهُوَ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ عَنْهُ: «يتوسَّطُ بينَ الـمُبْتَدَإِ وَخَبَرِهِ -قَبْلَ دُخُولِ العَوَامِلِ اللَّفظِيَّةِ، وَبَعْدَهُ إِذَا كَانَ الخبَرُ مَعْرِفَةً، أَوْ: مُضَارِعًا لَهُ فِي امْتِنَاعِ دُخُولِ حَرْفِ التَّعْرِيفِ عَلَيْهِ، كَـ(أَفْعَلُ مِنْ كذَا)- أَحَدُ الضَّمَائِرِ الـمُنْفَصِلَةِ الـمَرْفُوعَةِ، لِيُؤْذِنَ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ بِأَنَّهُ خَبَرٌ لَا نَعْتٌ، وَلِيُفِيدَ ضَرْبًا مِنَ التَّوْكِيْدِ. وَتُسَمِّيْهِ البَصْرِيُّونَ فَصْلًا، وَالكُوفِيُّونَ عِمَادًا. وَذلِكَ فِي قَوْلِكَ: (زَيْدٌ هُوَ الـمُنْطَلِقُ، وَزَيْدٌ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ عَمْرٍو)، وَقَالَ تَعَالَى: [إِنْ كَانَ هذَا هُوَ الحَقَّ]، وَقَالَ تَعَالَى: [كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيْبَ عَلَيْهِمْ]، وَقَالَ: [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ]، وَقَالَ تَعَالَى: [إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا]»[1].

وَشَرَحَ ابنُ يَعِيشَ كَلَامَهُ وَذَيَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «اِعْلَمْ أَنَّ الضَّمِيرَ الَّذِي يَقعُ فَصْلًا، لَهُ ثَلَاثُ شَرَائِطَ:

---

(١) الـمُفَصَّلُ (ص١٧٢).

أَحدِهَا: أَنْ يَكُونَ مِنَ الضَّمَائِرِ الـمُنْفَصِلَةِ الـمَرْفُوعَةِ الـمَوْضِعِ، وَيكُونَ هُوَ الأَوَّلَ فِي الـمَعْنَى.

الثَّانِي: أَنْ يكُونَ بَيْنَ الـمُبْتَدَإِ وَخَبَرِهِ، أَوْ: مَا هُوَ دَاخِلٌ عَلَى الـمُبْتَدَإِ وَخَبَرِهِ مِنَ الأَفْعَالِ وَالحُرُوْفِ، نَحْوُ: (إِنَّ) وَأَخَوَاتِهَا، وَ(كَانَ) وَأَخَوَاتِهَا، وَ(ظَنَنْتُ) وَأَخَوَاتِهَا.

الثَّالِثُ: أَنْ يكُونَ بَيْنَ مَعْرِفتَيْنِ، أَوْ: مَعْرِفَةٍ وَمَا قَارَبَها مِنَ النَّكِرَاتِ.

وَيُقَالُ لَهُ: (فَصْلٌ)، وَ(عِمَادٌ). فَالفَصْلُ مِنْ عِبَارَاتِ البَصْرِيِّينَ، كَأَنَّهُ فَصَلَ الِاسْمَ الأَوَّلَ عَمَّا بَعْدَهُ، وَآذَنَ بِتَمامِهِ، وَأَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ مِنْ نَعْتٍ، وَلَا بَدَلٍ إِلَّا الخَبَرَ لَا غَيرُ. وَالعِمادُ مِنْ عِبَارَاتِ الكُوْفِيِّينَ، كَأَنَّهُ عَمَدَ الِاسْمَ الأَوَّلَ، وَقَوَّاهُ بِتَحْقِيْقِ الخَبَرِ بَعْدَهُ.

وَالغَرَضُ مِنْ دُخُولِ الفَصْلِ فِي الكَلَامِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ إِرَادَةِ الإِيْذَانِ بِتَمَامِ الِاسْمِ وَكَمَالِهِ، وَأَنَّ الَّذِي بَعْدَهُ خَبَرٌ، وَلَيْسَ بِنَعْتٍ، وَقِيْلَ: أُتِيَ بِهِ لِيُؤْذِنَ بِأَنَّ الخَبَرَ مَعْرِفَةٌ، أَوْ: مَا قَارَبَهَا مِنَ النَّكِرَاتِ.

وَإِنَّمَا اشْتُرِطَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الضَّمَائِرِ الـمُنْفَصِلَةِ الـمَرْفُوعَةِ الـمَوْضِعِ، لأَنَّ فِيْهِ ضَرْبًا مِنَ التَّأْكِيدِ، وَالتَّأْكِيدُ يكُونُ بِضَمِيْرِ المرفُوعِ المنفَصِلِ، نَحْوُ: (قُمْتُ أَنَا)، وَ[اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ]، وَلِذَلِكَ مِنَ المعْنَى وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الـمُضْمَرُ هُوَ الأَوَّلَ فِي المعنَى؛ لأَنَّ التَّأْكِيدَ هُوَ المؤَكَّدُ فِي الـمَعْنَى. وَلهذَا المعْنَى يُسَمِّيهِ سِيْبَوَيْهِ (وَصْفًا) كَمَا يُسَمِّيهِ التَّأْكِيدَ المحْضَ..وَاعْلَمْ أَنَّ الفَصْلَ لَا يَظْهَرُ لَهُ حُكْمٌ فِي بَابِ (إِنَّ) وَأَخَوَاتِهَا، وَبَابِ الـمُبْتَدَإِ وَالخَبَرِ؛ لأَنَّ أَخْبَارَهَا مَرْفُوعَةٌ، فَإِذَا قُلْتَ: (زَيْدٌ هُوَ القَائِمُ)، وَ(إِنَّ زَيْدًا هُوَ القَائِمُ)، لَمْ يُعْلَمْ أَنَّ الـمُضْمَرَ فَصْلٌ، أَوْ: مُبْتَدَأٌ، إِلَّا بِالإِرَادَةِ وَالنِّيَّةِ. وَلَا يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَهُما فِي اللَّفْظِ، وَيَظْهَرُ مَعَ الفِعْلِ، لأَنَّ أَخْبَارَهُ مَنْصُوبَةٌ، نَحْوُ قَوْلِكَ: (كَانَ زَيْدٌ هُوَ القَائِمَ)، وَ(ظَنَنْتُ زَيْدًا هُوَ العَاقِلَ). فَعُلِمَ أَنَّ (هُوَ) فَصْلٌ بِنَصْبِ مَا بَعْدَهُ.

وَإِنَّمَا وَجَبَ أَنْ يكُونَ بَعْدَ مَعْرِفَةٍ؛ لأنَّ فِيْهِ ضَرْبًا مِنَ التَّأْكِيْدِ، وَلَفْظُهُ لَفْظُ المعرِفَةِ، فَوَجَبَ أنْ يكُونَ الاسمُ الجَارِي عَليهِ مَعرِفةً، كَما أنَّ التَّأكِيدَ كذلِكَ، وَوَجَبَ أنْ يكُونَ مَا بَعْدَهُ مَعرِفةً أيضًا؛ لأنّه لا يكُونُ مَا بعدَهُ إلَّا مَا يَجُوزُ أنْ يكُونَ نَعْتًا لِما قَبْلَهُ، وَنَعْتُ المعْرِفَةِ مَعْرِفَةٌ. فَلِذَلِكَ وَجَبَ أنْ يَكُونَ بَيْنَ مَعْرِفَتَيْنِ»[1].

أَخِيرًا: فَإِنَّ هذَا نَوْعٌ مِنَ الضَّمِيرِ مَوجُودٌ فِي كَلامِهِمْ وَلَا مَجَالَ لإِنْكَارِهِ؛ لأنَّ الكَلامَ الفَصِيحَ جَاءَ بِهِ، وَقَدْ نَجِدُ أَنَّهُ فِي استِخْدَامِ هذَا الضَّمِيرِ يَقَعُ خَلْطٌ وَاختِلاطٌ إِذَا لَم نُمَيِّزْ بينَ الضَّمِيرِ هَلْ هُوَ للفَصْلِ، أَوْ: لِغَيرِ الفَصْلِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذلِكَ إِمَامُ الصَّنعَةِ سِيبَوَيهِ تَحتَ بَابَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ، وَهُمَا: «بَابٌ مَا يَكُونُ فِيْهِ (هُوَ) وَ(أَنْتَ) وَ(أَنَا) وَ(نَحْنُ) وَأَخَوَاتُهُنَّ فَصْلًا»[2]، وَ: «بَابٌ لَا تَكُونُ (هُوَ) وَأَخَوَاتُهَا فِيْهِ فَصْلًا، وَلكِنْ يَكُنَّ بِمَنْزِلَةِ اسْمِ مُبْتَدَإٍ»[3].

فَكَمَا عَلِمْنَا هُوَ مَوجودٌ فِي كَلامِهِمْ وَضَرُورَةُ مَعرِفَتِهِ حَتْمٌ لَازِمٌ لِكَي لَا يَقَعَ الخَلْطُ فِي الفَهْمِ، وَلَا أَدْرِي مَاذَا كَانَ علَى النُّحوِيِّينَ فِعْلُهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ؟ هَلْ يَتَعَرَّضُ لَهُمُ المُهندِسُ لأَنَّهُم لَمْ يُنكِرُوا وجُودَ هذَا الضَّمِيرِ وَلَم يَحْذفُوهُ؟ فَإِذَا كَانَ هذَا هُوَ المَقصِدَ مِنْ كَلامِهِ فَلَا يُمْكِنُ حَذْفُهُ وَإِنْكَارُهُ؛ لأَنَّهُ جَاءَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وَالشِّعْرِ العَرَبِيِّ الفَصِيحِ، وَلَا يُمْكِنُ إِنْكَارُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ العَرَبُ الأَقْحَاحُ، وَجَاءَ إِلَيْنَا بِطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، وَأَثْبَتَهُ أَربَابُ اللُّغَةِ وَرُوَاتُهَا.

أَمْ: هُوَ يَعْتَرِضُ عَلَى النُّحَاةِ لِكَونِهِم قَصَّرُوا فِي التَّقنِينِ وَالتَّعبِيرِ؟ فَإِذَا كَانَ الثَّانِي فَالمُهندِسُ مُطَالَبٌ بِالتَّعبِيرِ وَالتَّقنِينِ أَفْضَلَ مِمَّا عَبَّرَ بِهِ النَّحوِيُّونَ وَقَنَّنُوا، وَإِذَا جَاءَ

---

(١) شَرْحُ المُفَصَّل (٢/ ٣٢٩-٣٣١). وَقَدْ ذَكَرَ ابنُ الأَنبَارِيِّ خِلافَ البَصرِيِّينَ وَالكُوفِيِّينَ وَنَاقَش الكُوفِيِّينَ، يُنظَرُ: الإِنْصَافُ فِي مَسَائِلِ الخِلافِ (٢/ ٣٩٠).

(٢) الكِتَابُ (٢/ ٣٨٩).

(٣) الكِتَابُ (٢/ ٣٩٥).

بأَفْضَلَ فَنَحْنُ أيضًا صَائِرُونَ إِلَى قولِهِ سَائِرُونَ عَلَيْهِ، وَلكِنَّ الـمُهَنْدِسَ كَعَادَتِهِ يَمِيلُ إِلَى الهَدْمِ وَالرَّدْمِ، لَا إِلَى البِنَاءِ بِهَنَاء، فالأَوَّلُ يُحْسِنُهُ حَتَّى الأَنْوَكُ البَلِيدُ، أمَّا الثَّانِي فَلَا يُحْسِنُهُ إِلَّا العُلَمَاءُ.

[مِنَ الوَافِرِ]

فَقُلْ: لِلأَعْوَرِ الدَّجَّالِ هذَا زَمَانُكَ إِنْ عَزَمْتَ عَلَى الخُرُوْجِ

الكَلَامُ عَنْ أَسْمَاءِ الإِشَارَةِ

ثُمَّ بعدَ ذلِكَ يتكلَّمُ عَنْ أَسماءِ الإِشَارَةِ وَيَسْخرُ مِنْهَا قَائِلًا: «وَهِيَ عندَ أهلِ اللُّغةِ: (ذَا، ذِه، تِه، تِي، ذَانِ، تَانِ، أُولَاءِ)، وَتُذَكِّرُونِي بِشَخصِيَّةٍ فَرَنسيَّةٍ فُكاهِيَّةٍ لِشَابٍّ اسمُهُ تَان، رُبَّمَا أُخِذَ اسمُهُ مِنْ تِلْكَ الأَسْمَاءِ، وَلَا عَجَبَ فِي ذلِكَ فَلا يُوجَدُ أحدٌ مِنْ نَاطِقِي لُغَةِ الضَّادِ الـمَحكيَّةِ (العَامِّيَّةِ) يَقُولُ (ذَانِ)، أَوْ: (تَانِ)، أَو: (تِي)، وَمعَ ذلِكَ يعتبرُ النُّحَاةُ أنَّ الهَاءَ فِي (هـذَا) وَ(هـذِهِ)...هِيَ للتَّنبيهِ، وليسَتْ مِنْ أصلِ اسْمِ الإِشَارَةِ فَيُعْرِبُونَ (هذَا): الهَاءُ للتَّنبِيهِ، ذَا: اسمُ إِشَارَةٍ. وَأنَا أرَى أَنَّ أَسْمَاءَ الأَلْغَازِ هذِهِ، ليسَتْ أَسْمَاءً أَصْلًا فَهِيَ أدوَاتٌ وَالأَدَوَاتُ لَيْسَتْ مَعَارِف.

وَهَلْ قَوْلُنَا للشَّيْءِ (هذَا) يَعْنِي مَعْرِفتَهُ؟ فَعِنْدَ مَا نَقُولُ: (هذَا القَضَاءُ)، أَوْ: (هذَا القَدَرُ) فَهَلْ نَحنُ أَمَامَ مَعَارِف؟». ص: (٥٩-٦٠).

أَقُولُ: لَيسَ مِنَ المهمِّ أَنْ نَقِفَ عَلَى سَبَبِ إِدْرَاجِ هذِهِ الأَلْفَاظِ فِي الأَسْمَاءِ مِنْ قِبَلِ النُّحَاةِ، وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ يَتَنَبَّهَ الـمُهندِسُ إِلَى أَنَّ هذِهِ التَّقَاسِيْمَ لَا تَخْلُو عَنِ الاِعتِرَاضِ كَالتَّعرِيفَاتِ ذَاتًا، فَلَا شَكَّ لَو أنَّ أوزونَ عَرَّف لَنَا الأَدَاةَ لأَوْرَدْنَا عَلَيهِ إِيْرَادَاتٍ وَأَلْزَمْنَاهُ إِلْزَامَاتٍ فِيمَا يَرَاهُ أَدَوَاتٍ، وَنَقَضْنَاهَا عليهِ بِإيرَادَاتٍ وَأَلْزَمْنَاهُ القَوْلَ بِعَدَمِ كَوْنِهَا أَدَاةً، وَكذَا بالنِّسْبَةِ للأَشياءِ الَّتِي يُخْرِجُهَا عَنْ كَوْنِهَا أَدَاةً، فَلذلِكَ هذَا الَّذِي يَقُومُ بِهِ الـمُهندِسُ مُغَالَطَةٌ صَرِيحَةٌ وَحَرْبٌ عَلَى الأَلفَاظِ فَحَسْبُ، وَهذَا لَا يَقْبَلُهُ باحِثٌ مُحَايِدٌ؛ لأَنَّهُ بعدٌ عَنِ الرَّصَانَةِ وَالـمَنْهَجِيَّةِ، فَهُوَ أُسلُوبٌ غَوْغَائِيٌّ غَيرُ نَزِيهٍ.

أَمَّا قَوْلُهُ: (فَعِنْدَ مَا نَقُولُ: (هذَا القَضَاءُ)، أَوْ: (هذَا القَدَرُ) فَهَلْ نَحنُ أَمَامَ مَعَارِف؟) فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ مَعْرِفَةِ الـمُهندِسِ باللُّغَةِ وَمُزْجَاةِ بِضَاعَتِهِ فِيهَا؛ لأَنَّهُ ظَنَّ القَضَاءَ وَالقَدَرَ فِي كَلامِهِ نَكِرَتَيْنِ، اعتِمَادًا عَلَى اعتِقَادِهِ بأَنَّ الشَّيْءَ الـمَقْدُورَ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ غَيرُ اللهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ نَقُولُ: إِنَّهُ مِنَ الـمَعَارِفِ؟ وَلَقَدْ صَدَقُوا لَـمَّا قَالُوا بأَنَّ العِلْمَ

نُقْطَةٌ كَثَّرَهَا الجُهَّالُ، فَلَوْ سَكَتَ مَنْ لَا يَدْرِي لَقَلَّ الخِلَافُ وَانْعَدَمَ.

فَهذَا الِاعتِرَاضُ غَيرُ نَاضِجٍ عِلمِيًّا؛ لأَنَّ قَوْلَكَ: (القَضَاءُ)، وَ(القَدَرُ)، لَيْسَ للشَّيْءِ المَقضِيِّ بِهِ وَلَا للشَّيْءِ المَقدُورِ الَّذِي نَحْنُ نَجْهَلُهُ، بَلْ: هُمَا مَعْرِفَتَانِ بِنَفْسِهِمَا؛ لأَنَّ (ال) الدَّاخِلَةَ عَلَيهِمَا للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الفتح).

وَلَمَّا كَانَتْ شَجَرَةُ الرِّضْوَانِ فِي ذِهْنِ المُسلِمِينَ مَوْجُودَةً، لَمْ يَذكُرِ اللهُ تَعَالَى اسْمَهَا، وَاكْتَفَى بِإِدْخَالِ (ال) الَّتِي للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ عَلَيْهَا، فَعَلِمَ المُسلِمُونَ المُرادَ بِهَا؛ لأَنَّ الشَّجَرَةَ الَّتِي تَمَّتِ البَيْعَةُ تَحْتَهَا هِيَ (الرِّضْوَانُ).

فَكَذَلِكَ للقَوْلِ بالنِّسْبَةِ للقَضَاءِ وَالقَدَرِ، فَعِنْدَ مَا تُطْلِقُ أَحَدَهُمَا مُعرَّفًا بـ(ال)، فَيَكُونُ القَضَاءُ الَّذِي فِي ذِهْنِنَا هُوَ القَضَاءُ المَعرُوفُ الَّذِي عَلَّمَنَا الإِسْلَامُ وَجَاءَ بِهِ، وَكذَا بالنِّسْبَةِ للقَدَرِ.

وَلَكِنَّ الشَّيْءَ المَقضِيَّ بِهِ وَالمَقدُورَ مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ، وَإِذَا اسْتُخْدِمَ (هذَا القَضَاءُ)، وَ(هذَا القَدَرُ)، وَأُرِيدَ بِهذِهِ المَاهِيَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الإِسلَامُ وَعَرَّفَهَا، وَلَيسَ الغَرَضُ مِنَ التَّعرِيفِ تَعرِيفَ أَجْزَائِهِمَا.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ قَدْ يَكُونُ أَحيَانًا التَّعرِيفُ لِمَا جَاءَ وَعُرِفَ مِنَ القَضَاءِ، فَيَكُونُ بَعْدَ أَنْ قُرِّرَ وَأَتَى، وَفِي هذِهِ الحَالِ نَحْنُ نَعْرِفُهُ وَلَدَيْنَا العِلْمُ بِهِ، فَلَيسَ ثَمَّةَ اعتِرَاضٌ أَيضًا.

كَلامٌ غيرُ مَعقُول، في تَنكير اسم المَوصُول!

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يَشْرَعُ المهَنْدِسُ فِي الكَلامِ عَنِ اسْمِ المَوصُولِ وَيظْلِمُ أَكْثَرَ مِنَ السَّابِقِ، وَيَقُولُ: «الأَسماءُ المَوصُولَةُ: أهمُّهَا: (الَّذِي، الَّتِي، اللَّذَانِ، اللَّتَانِ، الَّذِينَ، اللَّوَاتِي...)، ويمكِنُ الرُّجُوعُ إليهَا عِنْدَ أهلِ اللُّغَةِ لِمعرِفَةِ تَفَاصِيْلِهَا، وَهِيَ أَدَوَاتٌ وَلَيْسَتْ مَعَارِفَ، فَعِنْدَ مَا نَقُولُ: (جَاءَ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ) يَتَّضِحُ تَمَامًا أَنَّ الَّذِي جَاءَ غَيرُ مَعرُوفٍ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ، فكيفَ يكُونُ معرِفَةً؟». ص: (٦٠).

أَقُولُ: هذَا المِثَالُ مِنَ المُهَندِسِ ضَرْبٌ مِنَ السَّفْسَطَةِ وَاطِّرَاحِ المَنهَجِيَّةِ العِلميَّةِ جُمْلَةً وَتَفصِيلًا؛ لأَنَّ التَّعرِيفَ فِي اسْمِ المَوْصُولِ يَكُونُ بالصِّلَةِ (أَي: بِالجُملَةِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَهُ)، وَإِلَّا فَبِدُونِ الصِّلَةِ لَم يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ العُلَمَاءِ إِنَّهُ مِنَ المَعَارِفِ، فَمَثَلًا لَوْ قُلْتَ: (جَاءَ الَّذِي) وَسَكَتَّ فَلَا يَكُونُ كَلَامًا أَصْلًا لأَنَّهُ غيرُ مُفِيدٍ، فكيفَ يَكُونُ معرِفَةً[1]؟!

قَالَ ابنُ يَعِيشَ: «أَلَا تَرَى أَنَّ تَعرِيفَ (الَّذِي) وَ(الَّتِي) بالصِّلَةِ لَا بِمَا فِيْهِ مِنَ اللَّامِ. يَدُلُّ عَلَى ذلِكَ أَنَّ (مَنْ)، وَ(مَا) مَعَارِفُ، وَلَيْسَ فِيهِمَا لَامٌ، فَعَلِمْتَ بِذَلِكَ أَنَّ التَّعرِيفَ بِالصِّلَةِ لَا بِاللَّامِ»[2].

---

(١) قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الفَضل عُمَرُ الحَدُّوشِيُّ: لأَنَّهُ مَا زَالَ مُتَوَغِّلًا فِي الإِبهَامِ، وَلَا يَرْتَفِعُ إِلَّا بِالصِّلَةِ؛ لأَنَّهُ لَا يَظْهَرُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِجُمْلَةٍ تُذْكَرُ بَعْدَهُ لِبَيَانِ مَعْنَاهُ، وَلِذلِكَ كَانَتِ الصِّلَةُ وَالمَوْصُولُ كَالشَّيْءِ الوَاحِدِ، كَالصَّدْرِ وَالعَجُزِ، وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ القَائِلِ:

وَصِلَةُ المَوْصُولِ مِنْهُ كَالعَجُزْ تَأْخِيرُهَا حَتْمٌ وَسَبْقٌ لَا يَجُوزْ

وَقَوْلَ ابْنِ مَالِكٍ:

وَكُلُّهَا يَلْزَمُ بَعْدَهُ صِلَهْ عَلَى ضَمِيرٍ لَائِقٍ مُشْتَمِلَهْ

(٢) شَرحُ المُفصَّلِ (٣/ ١٣٣).

وَقَالَ مَرَّةً: «أَمَّا الأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الَّذِي) وَ(الَّتِي)، فَهِيَ لِتَعْرِيفِ اللَّفْظِ وَإِصْلَاحِهِ لأَنْ يكُونَ وَصْفًا للمَعْرِفَةِ، وَإِنَّما هُمَا زَائِدَانِ، وَحَقِيقَةُ التَّعرِيفِ بِالصِّلَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ نَظَائِرَهَا مِنْ نَحْوِ (مَنْ)، وَ(مَا) كُلُّهَا مَعَارِفُ، وَلَيْسَتْ فِيهَا لَامُ الـمَعْرِفَةِ؟»[1].

وَقَالَ ابنُ جِنِّي قَبْلَهُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ لَا تَتِمُّ مَعَانِيهَا إِلَّا بِصِلَاتٍ تُوَضِّحُهَا وَتُخَصِّصُهَا»[2].

وَمَا سُمِّيَ هذَا الِاسمُ باسْمِ الـمَوصُولِ إِلَّا لِحَاجَتِهِ الشَّدِيدَةِ لَهُ، بحيثُ لَا يَتَّضِحُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِهِ، كَمَا قَالَ ابنُ الأَنبَارِيِّ: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: لِمَ سُمِّي (الَّذِي، وَالَّتِي، وَمَنْ، وَمَا، وَأَيّ) أَسْمَاءَ الصِّلاتِ؟ قِيلَ: لأَنَّها تَفْتَقِرُ إِلَى صِلَاتٍ تُوَضِّحُهَا وَتُبَيِّنُهَا؛ لأَنَّها لَمْ تُفْهَمْ مَعَانِيْهَا بِأَنْفُسِهَا، أَلَا تَرى أَنَّكَ لَوْ ذَكَرْتَهَا مِنْ غَيْرِ صِلَةٍ، لَمْ تُفْهَمْ مَعْنَاهَا[3]، حَتَّى تُضَمَّ إِلَى شَيْءٍ بَعْدَهَا، كَقَوْلِكَ: (الَّذي أَبُوهُ مُنْطَلِقٌ)، أَو: (الَّذِي انْطَلَقَ أَبُوهُ)، وَكذلِكَ: (الَّتِي أَخُوهَا ذَاهِبٌ)، وَ(الَّتِي ذَهَبَ أَخُوهَا)، وَكَذَلِكَ سَائِرُهَا»[4].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ التَّعرِيفَ فِي اسْمِ الـمَوْصُولِ يَكُونُ فِي صِلَتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الـمِثَالَ الَّذِي ضَرَبَهُ أوزونُ لَيْسَ سِوَى زَعْزَعَةٍ مُزْعِجَةٍ، لَا وَزْنَ لَهُ فِي الـمِعيَارِ العَقْلِيِّ، فَهُوَ دَلِيلُ قِلَّةِ بَاعِهِ وَزَلَّةِ يَرَاعِهِ.

ثُمَّ يَتكَلَّمُ عَنْ بَعضِ مَا يَتَعَلَّقُ باسْمِ الـمَوْصُولِ كَالكَلَامِ عَنْ (مَا) الـمَوصُولَةِ، وَغيرِهَا، فَهُوَ كَعَادَتِهِ يُنْكِرُ أَنْ تَكُونَ (مَا) بِمَعْنَى (الَّذِي)، وَليتَهُ ذَكَرَ لَنَا جِهَةَ الِامتِنَاعِ

---

(١) شَرحُ الـمُفصَّلِ (٥/ ١٣٨).

(٢) اللُّمَعُ (ص١٨٩). قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الفَضْلِ: الـمَوصُولُ قِسْمَانِ: اسْمِيٌّ وَحَرْفِيٌّ، وَالِاسْمُ هُوَ: مَا افْتَقَرَ إِلَى صِلَةٍ وَعَائِدٍ، فَمَا مَعْنَى الـمَوْصُولِ؟ أَيِ: الَّذِي يُوْصَلُ بِغَيْرِهِ وَلَا يَظْهَرُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِذِكْرِ الجُمْلَةِ بَعْدَهُ مُشْتَمِلَةً عَلَى ضَمِيرٍ لَائِقٍ.

(٣) يُمْكِنُ هِيَ: (مَعَانِيْهَا).

(٤) أَسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص٢٦٣).

وَبيَّنَ لَنَا مَعْنَى (مَا) الَّتِي قَالَ النَّحوِيُّونَ إِنَّهَا بِمَعْنَى (الَّذِي)، حَتَّى يُقْنِعَنَا باحتِجَاجِهِ اللُّغَوِيِّ العَبْقَرِيِّ، وَتَعلِيلِهِ العَقْلِيِّ الرَّصِينِ، وَيُبْهِرَنَا بِذلِكَ وَنكُونَ لَهُ شَاكِرِينَ وَنترُكَ آرَاءَ النَّحوِيِّين وَنَقُولَ بِمَا قَالَهُ وَنَرَى مَا ارتَآهُ جَنَابُ المُهندِسِ.

هَلِ المَصْدَرُ أَصْلُ الاشْتقَاق، أَم الأَصْلُ هُوَ الفعْلُ؟

وَمِنَ المَسَائِلِ الَّتِي عَرَضَهَا فِي كِتابِهِ هِيَ مَسْأَلَةُ أَصْلِ الاِشْتِقَاقِ، وَقَالَ: «غَالبًا مَا أسأَلُ: مَاذَا نعنِي بِمَصْدَرِ الفِعْلِ؟ فيأتِي الجَوابُ: هُوَ اسمُ مَعْنًى (جَامِدٌ) يُدْرَكُ بالعَقْلِ وَعنهُ تُصْدَرُ الأفعَالُ وَالأسمَاءُ المُشتَقَّةُ. ثُمَّ يُقالُ لَنا: أَوْجِدْ لَنَا مَصْدَرَ الفِعْلِ، المَصْدَرُ هُوَ الأصْلُ ثُمَّ نُوجِدُهُ مِنَ الفِعْلِ المُشْتَقِّ، كَيفَ يَحدُثُ ذلِكَ؟ نَستَدِلُّ عَلَى الأبِ بالِابْنِ!!.

وَيُقالُ إِنَّ طُلَّابَنَا لَا يُمَيِّزُونَ المَصْدَرَ مِنَ المُشْتَقِّ، فأنَا لَا أَلُومُهم وَلَا أَظُنُّ أنَّ بِهِمُ الحَاجَةَ للتَّمييزِ بينَ تِلْكَ المُصْطَلَحَاتِ الَّتِي لَا تُسْمِنُ، أَو: لَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ». ص: (٦٢-٦٣).

أقُولُ: إنَّ هُناكَ خِلافًا بينَ العُلَمَاءِ فِي تَحدِيدِ أَصْلِ المُشتَقَّاتِ، فَذَهَبَ البَصرِيُّونَ إِلَى أنَّ الأَصْلَ هُوَ المَصْدَرُ، واستَدَلُّوا بِسَبْعَةِ أَدِلَّةٍ[(١)]، وَذَهَبَ الكُوفِيُّونَ إِلَى أنَّ الأَصْلَ هُوَ الفِعْلُ، وَاعتَمَدُوا أيضًا عَلَى بَعْضِ الأَدِلَّةِ وَذَكَرَ ابنُ الأنبارِيِّ مِنْهَا ثَلاثَةً وَرَدَّ عَلَيهِم فِيهَا وَانتَصَرَ لِمَدْرَسَةِ البَصْرَةِ[(٢)].

وَهُنَاكَ مَذَاهِبُ أُخَرُ كَمَا ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ فَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ طَلْحَةَ قَوْلَهُ: إِنَّ كُلًّا مِنَ المَصْدَرِ، وَالفِعْلِ أَصْلٌ بِنَفْسِهِ لَيْسَ أَحَدُهُمَا مُشْتَقًّا مِنَ الآخَرِ[(٣)].

---

(١) أَسرَارُ العَرَبيَّةِ (ص١٣٧)، وَيُنْظَرُ أيضًا: مَسَائِلُ خِلافِيَّةٌ للعكبَرِيِّ (ص٧٣).

(٢) أَسرَارُ العَرَبيَّةِ (ص١٣٧)، وَيُنْظَرُ أيضًا: مَسَائِلُ خِلافِيَّةٌ للعكبَرِيِّ (ص٧٣).

(٣) اِرْتِشَافُ الضَّرَبِ لِأَبِي حَيَّانَ (٣/ ١٣٥٣)، وَكَذَا ذَكَرَهُ السُّيوطِيُّ فِي الهَمْعِ (٢/ ٩٥).

وَبَعْدَ ذلِكَ نَقُولُ: لَيْسَ هُنَاكَ اعتِرَاضٌ عَلَى مَنْ قَالَ بأيِّ قَوْلٍ بينَ هذِهِ الأَقْوَالِ؛ لأنَّهَا مَسألَةٌ لَا يَتَرَتَّبُ عليهَا أَمرٌ مَعْنَوِيٌّ، وَلَيْسَ التَّشَاغُلُ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ حَدِّهَا مَحْمُودًا، وَقَدْ جَاءَ نَاظِرُ الجَيْشِ فِي شَرْحِهِ عَلَى التَّسْهِيلِ بِكَلامٍ بدِيعٍ فِي ذلِكَ بَعْدَ أَنْ أَشَارَ إِلَى وجُودِ الخِلافِ فِي ذلِكَ وَقَالَ: «وَلَيْسَ هذَا مِمَّا يُتَشَاغَلُ بِهِ، وَلَا يُضَيَّعُ الزَّمَانُ فِي ذِكْرِهِ»(١).

وَفِي ضَوْءِ هذَا العَرْضِ نَرْجِعُ إِلَى المُهنْدِسِ وَنَقُولُ: إِنَّ مَنْ طَلَبَ استِخْرَاجَ المَصْدَرِ مِنَ الفِعْلِ هُوَ مِنَ القَائِلِينَ بأنَّ الأَصْلَ للمُشْتَقَّاتِ هُوَ الفِعْلُ، وَلَم يَدلَّ عَلَى الأَبِ بالِابْنِ، فَالمسألَةُ هكَذا بِكُلِّ سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وَلَا تَحتَاجُ إِلَى تَضْخِيمٍ وَتَفْخِيمٍ زَائِدَيْنِ.

---

(١) تَمهِيدُ القَوَاعِدِ (٤/ ١٨١٧).

إِنْكَارُ دَلَالَةِ الجُمُوعِ الـمُكَسَّرَةِ عَلَى الكَثْرَةِ وَالقِلَّةِ!

ثُمَّ بَعْدَ كَلَامِهِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الفَصْلِ السَّابِقِ يَأْتِي إِلَى الكَلامِ عَنِ الجُمُوعِ(١) وَيَقُولُ: «أخيرًا نلفتُ النَّظَرَ إِلَى أنَّ مَا يُسمَّى بِجمْعِ القِلَّةِ (وَهُوَ للعَدَدِ مِنَ الثَّلاثَةِ إِلَى العَشرةِ) غيرُ صحيحٍ فـ(أَنْفُس) (عَلَى وَزْنِ أَفْعُلٍ) يَتَجَاوَزُ العَدَدَ فِيهَا العَشرةُ لِيَصِلَ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ] (سُورَةُ النِّسَاءِ)». ص: (٦٧).

أَقُولُ: إِنَّ النَّاظِرَ فِي كَلَامِ العَرَبِ شِعْرِهِ وَنَثْرِهِ، يَرَى مُرَاعَاةَ دَلَالَاتِ الجُمُوعِ فِي القِلَّةِ وَالكَثْرَةِ فِي استِخْدَامَاتِهِم، فَالقُرآنُ الكَرِيمُ أيضًا رَاعَاهَا وَاسْتَخْدَمَهَا، وَقَبْلَ الشُّرُوعِ فِي البَيَانِ أُرِيدُ إِيْضَاحَ أوزَانِ جُمُوعِ القِلَّةِ، وَمَا سِوَاهَا فَهِيَ للكَثْرَةِ، فَأَوزَانُ القِلَّةِ جُمِعَتْ فِي قَوْلِهِم: (أَنْفُسُ الفِتْيَةِ أَعْمِدَةُ الأَجْيَالِ)، وَكَمَا نَظَمَهَا ابنُ مَالِكٍ بِقَوْلِهِ:

[مِنَ الرَّجَز]

أَفْعِلَةٌ أَفْعُلُ ثُمَّ فِعْلَهْ   ثُمَّتَ أَفْعَالٌ جُمُوعُ قِلَّهْ

وهذَا نَجِدُهُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ صرَاحًا صحَارًا، فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ أُنظُرْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ (لقمان).

فَلَمَّا كَانَ (أَفْعُلٍ) للقِلَّةِ فَنَاسَبَ جَمْعُ (البَحْرِ) عَلَى (أَبْحُرٍ)؛ لأَنَّ العَدَدَ سَبْعَةٌ.

---

(١) ثُمَّ بَعْدَ هذَا تَكَلَّمَ عَنْ بَعْضِ صِيَغِ اسمِ الفَاعِلِ وَغَالَطَ فِيهَا وَاستَغْرَبَ، وَمنهُ ذَهَبَ إِلَى الكَلامِ عَنِ الحَرَكَاتِ الإِعرابيَّةِ مَرَّةً أُخرَى وَلَمْ يُضِفْ جَدِيدًا حَتَّى نأتِيَ بِهِ وَنَرُدَّ عليهِ.

وَلكِنْ يَجِبُ التَّفَطُّنُ إِلَى أَنَّ جَمْعَ القِلَّةِ يَصِيرُ مَعْنَاهُ إِلَى الكَثْرَةِ بِوَاسِطَةِ القَرَائِنِ، وَبِالعَكْسِ أيضًا، كَمَا قَالَ ابنُ مَالِكٍ: «وَقَدْ يُسْتَغْنَى بِبَعْضِ أَبْنِيَةِ القِلَّةِ عَنْ بَعْضِ أَبْنِيَةِ الكَثْرَةِ، وَبِبَعْضِ أَبْنِيَةِ الكَثْرَةِ عَنْ بَعْضِ أَبْنِيَةِ القِلَّةِ»[١]. وَسَبَقَهُ بِالقَوْلِ إِلَى ذلِكَ الزَّجَاجِيُّ[٢].

وَقَالَ بَدْرُ الدِّينِ المُرَادِيُّ: «إِذَا قُرِنَ جمعُ القِلَّةِ بِـ(أل) الَّتِي لِلاستِغْرَاقِ، أَوْ: أُضِيفَ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى الكَثْرَةِ انْصَرَفَ بِذَلِكَ إِلَى الكَثْرَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالى: [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ] وَقَدْ جَمَعَ الأَمْرَيْنِ قَوْلُ حَسَّانَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا[٣]

وَذَكَرَ الإِمَامُ ابنُ يَعِيشَ هذا البيتَ وَأَشَارَ إِلَى نَقْدِ بَعضِهِم عَلَى البَيْتِ وَدَافَعَ عَنْهُ فَقَالَ: «قَالُوا: البيتُ مَدْحٌ، وقدْ كانَ يَنْبَغِي أَنْ يقُولَ: (لَنَا الجِفَانُ البِيضُ)؛ لأَنَّ الغُرَّةَ بَيَاضٌ يَسِيرٌ، وكانَ حقُّهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ (السُّيُوف) مَوْضِعَ (الأَسْيَاف).

هـذَا، وَإِنْ كَانَ الظَّاهِرُ مَا ذَكَرُوهُ، إِلَّا أَنَّ العَرَبَ قَدْ تَسْتَعْمِلُ اللَّفْظَ المَوْضُوعَ لِلقَلِيْلِ فِي مَوْضِعِ الكَثِيْرِ. مِنْ ذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى: [وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ]، وَقَالَ: [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ]، وَلَا يَعِدُ الكَرِيمُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ فِي الجَنَّةِ غُرُفَاتٍ يَسِيرَةً، وَكذلِكَ لَيْسَ المرادُ بقَولِهِ: [إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ] العَشَرَةَ فَمَا دُوْنَهَا، وَإِنَّمَا الإِخْبَارُ عَنْ هـذَا الجِنْسِ قَلِيْلِه وَكَثِيْرِه. وَذلِكَ أَنَّ الجُمُوعَ قَدْ يَقَعُ بَعْضُهَا مَوْضِعَ بَعْضٍ، وَيُسْتَغْنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، أَلَا تَرَى أَنَّهم قَالُوا: (رَسَنٌ)، وَ(أَرْسَانٌ)،

(١) شَرْحُ الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ (٤/ ١٨١١).
(٢) الإِيْضَاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ لِلزَّجَّاجِيِّ (ص١٢٣).
(٣) تَوْضِيحُ المَقَاصِدِ (٣/ ١٣٧٩).

وَ(قَلَمٌ)، وَ(أَقْلامٌ)، وَاستَغْنَوا بِهَذَا الجَمْعِ عَنْ جَمْعِ الكَثْرَةِ؟ وَقَالُوا: (رَجُلٌ)، وَ(رِجَالٌ)، وَ(سَبُعٌ)، وَ(سِبَاعٌ) وَلَمْ يَأْتُوا لَهُمَا بِبِنَاءِ قِلَّةٍ؟ وَأَقْيَسُ ذلِكَ أَنْ يُسْتَغْنَى بِجَمْعِ الكَثْرَةِ عَنِ القِلَّةِ، لأَنَّ القَلِيْلَ دَاخِلٌ فِي الكَثِيْرِ»(١).

وَقَدْ أَشَارَ الإِمَامُ أَبُو حَيَّانَ إِلَى ذلِكَ أَيضًا فَقَالَ فِي تَفسِيرِ أَوَائِلِ البَقَرَةِ: [مِنَ الثَّمَرَاتِ]: «مِنْ لِلتَّبْعِيضِ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الثَّمَرَاتِ لِتَعْرِيفِ الْجِنْسِ وَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَلَا ضَرُورَةَ تَدْعُو إِلَى ارْتِكَابِ أَنَّ الثَّمَرَاتِ مِنْ بَابِ الْجُمُوعِ الَّتِي يَتَفَاوَتُ بَعْضُهَا مَوْضِعَ بَعْضٍ لِالْتِقَائِهِمَا فِي الْجَمْعِيَّةِ، نَحْوُ: [كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ]، و[ثَلاثَةَ قُرُوءٍ]، فَقَامَتِ الثَّمَرَاتُ مَقَامَ الثَّمَرِ، أَوِ: الثِّمَارِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْجَمْعِ الْمُحَلَّى بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ، فَهُوَ وإن كان جمع قلة، فَإِنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ الَّتِي لِلْعُمُومِ تَنْقُلُهُ مِنَ الِاخْتِصَاصِ لِجَمْعِ الْقِلَّةِ لِلْعُمُومِ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الثَّمَرَاتِ وَالثِّمَارِ، إِذِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ لِلِاسْتِغْرَاقِ فِيهِمَا، وَلِذَلِكَ رَدَّ الْمُحَقِّقُونَ عَلَى مَنْ نَقَدَ عَلَى حَسَّانَ قَوْلَهُ:لَنَا الْجَفَنَاتُ..بِأَنَّ هَذَا جَمْعَ قِلَّةٍ، فَكَانَ يَنْبَغِي عَلَى زَعْمِهِ أَنْ يَقُولَ: الْجِفَانُ وَسُيُوفُنَا، وَهُوَ نَقْدٌ غَيْرُ صَحِيحٍ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ الِاسْتِغْرَاقَ يَنْقُلُهُ»(٢).

فَدَلَالَةُ (أَفْعِلٍ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ]، للكَثْرَةِ لِدُخُولِ (ال) الَّتِي لِلاستِغْرَاقِ عَلَيْهَا، وَهذِهِ القَرِينَةُ تَجعَلُ مَعْنَاهَا للكَثْرَةِ.

وَبذلِكَ تَعرِفُ أَنَّ مَا يَقُومُ بِهِ المُهَندِسُ مِنْ إِنْكَارِ هذَا المَعْنَى الَّذِي جَاءَ بِكَثْرَةٍ مُتَكَاثِرَةٍ فِي لِسَانِ العَرَبِ، بِسَبَبِ حَالَةِ (اسْتِغْنَاءِ أَحَدِهِمَا بالآخَرِ)، لَيْسَ سِوَى حَمْأَةٍ لِسُمْعَتِهِ العِلمِيَّةِ، وَلَوْثَةٍ فِكرِيَّةٍ تَشِينُهُ إِنْ لَم يَتُبْ وَلَم يَرْجِعْ إِلَى رُشْدِهِ، وَمُنَايَ أَنْ يَرجِعَ فَهُوَ خَيرٌ لَهُ.

---

(١) شَرْحُ المُفَصَّلِ (٣/ ٢٢٥).

(٢) البَحْرُ المُحِيطُ (١/ ١٦٠).

اعتِراضٌ مُخَنَّث، عَلَى المُذَكَّر وَالمُؤَنَّث

ثُمَّ يَصِلُ إِلَى الكَلامِ عَنِ المُذَكَّرِ وَالمُؤنَّثِ وَيَذكُرُ أَقْسَامَهُمَا وَلَا يَعْتَرِضُ اعتِرَاضًا عِلمِيًّا وَاكْتَفَى بالِازدِرَاءِ فَقَطْ وَقَالَ: «بعدَ أَنِ استَعْرَضْنَا تَقْسِيمَاتِ الِاسمِ المُؤنَّثِ السَّابِقَةَ، يتَّضِحُ لَنَا تَمَامًا أنَّ مَنْ سَاهَمَ فِي وَضْعِ قَوَاعِدِ لُغَتِنَا لَيْسَ عَرَبِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ يُحَاوِلُ وَصْفَ تِلْكَ اللُّغَةِ لِأَمثَالِهِ مِنْ غَيرِ العَرَبِ.

فَالِاسمُ الَّذِي لَا يَنْتَهِي بِعَلامَاتِ التَّأنيثِ (تَاء مَرْبُوطَة-أَلِف مَمدُودَة)، يُعْتَبَرُ شَاذًّا وَلِذَلِكَ سُمِّيَ بالمُؤنَّثِ المَعْنَوِيِّ. وَأَبْقَى نُحَاتُنَا الأَفَاضِلُ المُخَلَّفَاتُ اللَّاعَرَبِيَّةُ وَصَاغُوهَا بأسلُوبٍ عَرَبِيٍّ، وَأَضَافُوا المُؤَنَّثَ اللَّفظِيَّ وَالمَعْنَوِيَّ لَهَا، فَتَأَمَّلْ ذلكَ الإِنْجَازَ.

وَهُنَا نسأَلُ: مَنْ مِنَّا يَعْتَبِرُ اسمَ (زَيْنَب)، أَوْ: (مَرْيَم) اسمًا مُذَكَّرًا، وَاسمَ (مُعَاوِيَة) مُؤَنَّثًا؟». ص: (٦٧-٦٨).

أقُولُ: إنَّ المَرْءَ يَتَعَجَّبُ مِنْ جُرْمِ هذَا الرَّجُلِ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَعُلَمَائِهَا، وَلَا يَدْرِي مَاذَا يَقُولُ أمَامَ كُلِّ هذِهِ المُغالَطَاتِ وَالأَقوَالِ الجَائِرَةِ الَّتِي تَصدُرُ عَنهُ، وَمِنْ هُنَا أُعَلِّقُ عَلَى كَلامِهِ تَعلِيقَاتٍ:

الأَوَّلُ: أنَّ إِسْهَامَ عُلَمَاءِ غَيرِ العَرَبِ فِي تَقْنِينِ قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ وَتَطْوِيرِهَا، مِمَّا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثنَانِ وَلَا يَنْتَطِحُ فِيْهِ عَنْزَانِ، وَلكِنْ كَانَ إِسْهَامًا جَيِّدًا وَرَائِعًا وَبَارِعًا، وَجُهْدًا مُتْقَنًا مُشْرِقًا، وَجُهدُ سِيبَوَيْهِ خَيرُ دَلِيلٍ عَلَى ذلِكَ، فَقَدِ اشتَغَلَ بِهِ العَرَبُ أَكثَرَ مِنَ العَجَمِ وَالعَجَمُ أَكْثَرَ مِنَ العَرَبِ، وَكُنَّا قَدْ أَشَرْنَا إِلَى شيءٍ مِنْ ذلِكَ وَذَكَرْنَا اهتِمَامَ

العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالشُّعَرَاءِ بهِ، كَمَا ذَكَرْنَا جَوَانِبَ مِنَ العُلُومِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا كِتابُ سِيْبَوَيْهِ، فَهذَا وَحْدَهُ كَافٍ لإِبْرازِ ظُلْمِ أَوزونَ وَمَقْتِهِ حَقَّ هؤلاءِ العَبَاقِرَةِ، فِي تَصوِيرِ مَجهُودِهِمُ العَظِيمِ بأَنَّهُ لِغَيرِ النَّاطِقِينَ بالعَرَبِيَّةِ.

الثَّانِي: أنَّ مَسأَلَةَ المُذَكَّرِ وَالمُؤنَّثِ في العَرَبِيَّةِ بِحالَةٍ مِنَ القُوَّةِ وَالرَّصَانَةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ، حُقَّ الافتِخَارُ بِهَا وَالتَّبَاهِي، وَمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ جُرْمِ أوزونَ فَلْيُراجِعِ الكُتُبَ المُفْرَدَةَ لِذلِكَ، كَكِتَابِ ابنِ الأَنْبَارِيِّ العَظِيمِ: (المُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ)، وَكِتَابِ: (المُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ)، لأَبِي حَاتِمٍ السّجِسْتَانِيِّ، وَغيرِهِمَا مِنَ الكُتُبِ العَجِيبَةِ.

الثَّالِثُ: لَم يَضَعِ العُلَمَاءُ الِاسمَ الَّذِي لَا يَنْتَهِي بالتَّاءِ المَرْبُوطَةِ، أَوِ: الأَلِفِ المَمْدُودَةِ فِي دَائِرَةِ الشَّاذِّ، كَمَا افترَى عَليهِمْ صَاحِبُ الجِنَايَةِ وَلَفَّقَ القَوْلَ، بَلْ: إِنَّهُم أَطْلَقُوا عليهِ (المُؤَنَّثَ المَعْنَوِيَّ)؛ لأَنَّ لَفْظَهُ ليسَ فِيهِ عَلامَةُ التَّأنِيثِ، أَمَّا التَّأنِيثُ مِنهُ فَقَدْ يُعْرَفُ بالنَّظَرِ إِلَى المَعْنَى، وَلَا أَدْرِي أينَ القَوْلُ بالشُّذُوذِ؟ وَكَيفَ يَسْهُلُ عَلَى المُهَندِسِ التَّقَوُّلُ دُونَ أَيِّ خَوْفٍ مِنْ قِيَامَةٍ وَلَا حِسَابٍ، وَلَا مِنَ الِافتِضَاحِ فِي الدُّنيَا؟

الرَّابِعُ: لَمْ يُغْفِلْ سِيْبَوَيْهِ أَمْرَ المُذَكَّرِ وَالمُؤنَّثِ فِي اللَّفْظِ وَالمَعْنَى، حَيثُ أشَارَ إِلَى ذلِكَ وَقَالَ: «تَقولُ: (ثَلَاثَةُ أَشْخُصٍ)، وَإِنْ عَنَيْتَ نِسَاءً؛ لِأَنَّ الشَّخْصَ اسْمٌ مُذَكَّرٌ. وَمِثْلُ ذَلِكَ: (ثَلَاثُ أَعْيُنٍ)، وَإِنْ كَانُوا رِجَالًا؛ لِأَنَّ العَيْنَ مُؤَنَّثَةٌ. وَقَالُوا: (ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ)؛ لِأَنَّ النَّفْسَ عِنْدَهُم إِنْسَانٌ. أَلَا تَرَى أَنَّهُم يَقُولُونَ: (نَفْسٌ وَاحِدٌ) فَلَا يُدْخِلُونَ الهَاءَ»[١].

---

(١) الكِتَابُ (٣/ ٥٦٢).

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْدَ صَفَحَاتٍ مِنْ كَلامِهِ شَوَاهِدَ مِنَ الشِّعْرِ، مِنْهَا قَوْلُ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كِلَابٍ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَإِنَّ كِلابًا هَـذِهِ عَشْـرُ أَبْطُـنٍ وَأَنْـتَ بَـرِيءٌ مِـنْ قَبائِلِها الْعَشْـرِ

وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: «فَأَنَّثَ (أَبْطُنًا) إِذْ كَانَ مَعْنَاهَا القَبَائِلَ»[1].

وَنَقَلَ أيضًا بَيْتَ عُمَرَ بْنِ رَبِيعَةَ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فكـانَ نَصِـيرِي دُونَ مَـنْ كُنْـتُ أَتَّقِي ثَلاثُ شُخُوصٍ كاعِبانِ وَمُعْصِرُ

وَقَالَ: «فَأَنَّثَ (الشَّخْصَ) إِذْ كَانَ فِي مَعْنَى أُنْثَى»[2].

وَبِهذَا يَظْهَرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَجْهَلُ الـمُؤنَّثَ اللَّفْظِيَّ وَالـمَعْنَوِيَّ وَمُراعَاتِهِمَا فِي الكَلامِ العَرَبِيِّ.

الخَامِسُ: أَنَّ العِلْمَ بتأنيثِ (مَرْيَمَ)، وَتَذكِيرِ (مُعاوِيَةَ)، أَمْرٌ بَدَهِيٌّ يَعْرِفُهُ كُلُّ وَاحِدٍ عَرَفَ الأَسْمَاءَ العَرَبِيَّةَ، وَهذَا لَا يُنَافِي جُهْدَ النُّحَاةِ وَلَا يُقَلِّلُ مِنْ شَأنِ عَمَلِهِم؛ لأنَّ التَّقْنِينَ اللُّغَوِيَّ يَجِبُ أَنْ يَشْمَلَ جَوَانِبَ اللُّغَةِ جَمِيعِهَا، دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا، خَفِيِّهَا وَجَلِيِّهَا، وَلَا يَبْقَى شَيءٌ دُونَ التَّقْنِينِ وَالقَوَاعِدِ، وَلَا سِيَّمَا اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الَّتِي هِيَ لُغَةُ العَقْلِ وَالتَّقْنِينِ، فَاعتِرَاضُ الـمُهَنْدِسِ لَيسَ فِي مَحَلِّهِ وَاللَّبِيبُ يَسْتَحْيِي مِنْهُ.

---

(١) الكِتَابُ (٣/ ٥٦٥).

(٢) الكِتَابُ (٣/ ٥٦٦).

إِنْكَارُ الضَّمَائِرِ أَنْ تكونَ مَفْعُولًا بهِ

ثُمَّ يَذْهَبُ إِلَى بَحْثِ الـمَنْصُوبَاتِ مِنَ الأَسْمَاءِ ويأتِي إلى الـمَفعُولِ بِهِ، ويُنكِرُ أَنْ تَكُونَ الضَّمَائِرُ مَفْعُولًا بِهِ، ويقُولُ: «رأينَا سَابِقًا أنَّ الـمفعُولَ بِهِ اسمٌ يَقعُ عليهِ الفِعْلُ وَلَا تُهِمُّنَا حركَةُ آخرِهِ (الفَتْحَةُ) لِتَحديدِهِ، أيْ: لا يُشتَرَطُ أنْ يَكُونَ الـمفعُولُ بهِ منصُوبًا، وَإِنَّمَا يَتِمُّ استِنْتَاجُهُ مِنْ سِياقِ الكَلامِ وَمنْ فهْمِ الجُملَةِ وتحديدِ الفِعْلِ وَالفَاعِلِ، كَمَا رأينَا أَنَّهُ لا تَعدُّدَ فِي المفعُولِ بِهِ وَسَنُضِيفُ هُنَا أنَّ الأحرُفَ (كَالكَافِ وَالتَّاءِ وَاليَاءِ) لَا يُمكِنُهَا أَنْ تكونَ مَفعُولًا بِهِ، ويجبُ أنْ نَتَوَقَّفَ عَنْ تَخَيُّلِ مَحَلَّاتِ الإِعرابِ فَنقول فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، أَوْ: مَا شَابَهَ ذلِكَ كَمَا فِي إعرابِ: (أَكْرَمَنِي رَبِّي) حَيثُ تعربُ: أكرَمَنِي: (أكرَمَ) فعلٌ مَاضٍ مَبنِيٌّ عَلَى الفَتْحِ، وَالنُّونُ للوِقَايَةِ، وَاليَاءُ ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ فِي محلِّ نَصْبٍ مَفعُولٌ بِهِ.

وَإِنِّي إِذْ أُعلِنُ – صَرَاحَةً– رَفْضِي التَّامَّ لـمَا جَاءَ فِي إعرابِ تِلْكَ الكَلِمَةِ باستِثْنَاءِ زَمَنِ الفِعْلِ الـمَاضِي أَسأَلُ: مَا مَعْنَى نونِ الوِقَايَةِ؟ فَيأتِي الجَوابُ: تَقِي (النُّونُ) الفِعْلَ مِنَ الكَسْرِ وذلِكَ حِينَ تَتَّصِلُ بِهِ يَاءُ الـمُتَكلِّمِ. وَنسأَلُ: وَكَيفَ يَكْسِرُ آخِرَ الفِعْلِ؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ حَرَكَتُهُ الكَسْرَ بِدُونِ نُوْنِ الوِقَايَةِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ لَفْظُ ذلِكَ؟ وَمَا قَوْلُكُم فِي نُونِ الوِقَايَةِ الَّتِي تَدخُلُ عَلَى (إِنَّ) وَأَخَواتِهَا كَقَوْلِي: (إِنَّنِي مُؤمِنٌ). فَمَاذَا تَقِي النُّونُ هُنَا؟ تَقِي الحَرْفَ مِنَ الكَسْرِ؟ وَمَا يُهِمُّ فَالحَرْفُ يُشْبِهُ الفِعْلَ وَإِذَا كَانَتِ النُّونُ للوِقَايَةِ (لَاحِظْ عَزِيزِي القَارِئُ كَيفَ تَحكُمُ حَرَكَةُ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ التَّسمِيَّةَ دَائِمًا) فَهَلْ يَعْنِي أَنَّ قَوْلِي: (إِنَّنِي مُؤمِنٌ) تُعَادِلُ قَوْلِي: (إِنِّي مُؤمِنٌ)؟ فَالنُّونُ للوِقَايَةِ فَقَطْ.

أَخِيرًا: فَالياءُ ضَمِيرٌ مُتَّصِلٌ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٌ بِهِ، مَا مَعْنَى ذلِكَ؟ وَمَا هذَا الأُسلُوبُ فِي التمُحاكَمَةِ وَالتَّفكِيرِ؟». ص: (٦٩-٧٠).

أَقُولُ: إِنَّنَا قَدْ رَدَدْنَا عَليهِ فِي مَسأَلَةِ الـمَفعُولِ بِهِ وَنَقَضْنَا عليهِ أَقوالَهُ كُلَّهَا وَبيَّنَّا عَدَمَ فَهْمِهِ مَسأَلَةَ وقُوعِ الفِعْلِ عَلَى الـمَفْعُولِ بِهِ عَلَى وَجْهِهَا.

أَمَّا إِنْكَارُ الضَّمَائِرِ أَنْ تَكونَ مَفْعُولًا بِهِ، فَلَيْسَ سِوَى التَّمَادِي فِي البَاطِلِ، وَالإِجْحَافِ الصِّرْفِ؛ لأَنَّ الضَّمِيْرَ وَقَعَ مَوْقِعَ الِاسْمِ وَوَقَعَ عَليهِ فِعْلُ الفَاعِلِ، ويَأْخُذُ مَعْنَى الِاسْمِ تَمَامًا، كَمَا أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: (أَكْرَمْتُهُ)، بَدَلًا مِنْ (أَكْرَمْتُ زَيْدًا)، فَإِنَّنَا نَرَى الضَّمِيرَ الـمُتَّصِلَ (الهَاءَ) فِي الجُمْلَةِ الأُوْلَى وَقَعَ مَوْقِعَ الِاسْمِ الصَّرِيحِ(زَيْدًا) فِي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَمَا الغَرَابَةُ فِي ذلِكَ؟ بَلْ: مِنَ الوَاجِبِ أَنْ نَقُولَ هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ.

أَمَّا القَوْلُ بأَنَّهُ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ؛ لأَنَّهُ ضَمِيرٌ وَالضَّمائِرُ مَبْنِيَّةٌ وَلَيْسَتْ مُعْرَبَةً حَتَّى نَقُولَ: (مَنْصُوبٌ، أَوْ: مَرْفُوعٌ، أَوْ: مَجْرُورٌ)، وَالعُلَمَاءُ وَجَدُوا فِي الضَّمَائِرِ شُبْهَةَ الفِعْلِ، فَهِيَ جَعَلَتْهَا مَبْنِيَّةً.

قَالَ ابنُ الأَنبَارِيِّ: «فَإِنْ قِيْلَ: فَلِمَ بُنِيَ الِاسْمُ الـمُضْمَرُ وَالـمُبْهَمُ دُونَ سَائِرِ المعَارِفِ؟ قِيْلَ: أَمَّا الـمُضْمَرُ فَإِنَّمَا بُنِيَ؛ لأَنَّهُ أَشْبَهَ الحَرْفَ؛ لأَنَّهُ جُعِلَ دَلِيْلًا عَلَى الـمُظْهَرِ، فَإِذَا جُعِلَ عَلَامَةً عَلَى غَيْرِهِ، أَشْبَهَ تَاءَ التَّأْنِيْثِ وَإِذَا أَشْبَهَ تَاءَ التَّأْنِيثِ، فَقَدْ أَشْبَهَ الحَرْفَ، وَإِذَا أَشْبَهَ الحَرْفَ، فَيَجِبُ أَنْ يكُونَ مَبْنِيًّا. وَأَمَّا الـمُبْهَمُ، وَهُوَ اسْمُ الإِشَارَةِ، فَإِنَّمَا بُنِيَ؛ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى حَرْفِ الإِشَارَةِ»[1].

---

(١) أسرارُ العَربيَّةِ (ص٢٤٤).

وَتَجسَّدَتْ هذِهِ الـمُشَابَهَةُ بَيْنَ الضَّمَائِرِ وَالحُرُوفِ فِي جوانِبَ، كَالوَضْعِ، وَالِافتِقَارِ، وَالجُمُودِ وَغَيرِهَا، وبِهذَا يَتبَيَّنُ أَنَّهُم لَم يَقُولُوا بالإعرَابِ الـمَحَلِّيِّ جُزَافًا.

أَمَّا نُونُ الوِقَايَةِ فَإِنَّهَا تَأتِي لِتَقِيَ الفِعْلَ مِنَ الكَسْرِ؛ لأَنَّ الكَسْرَ للفِعْلِ مُمْتَنِعٌ، كَمَا قَالَ ابنُ الأنبارِيِّ: «هذِهِ النُّونُ إِنَّما تَصْحَبُ يَاءَ الضَّمِيرِ فِي الفِعْلِ خَاصَّةً؛ لِتَقِيَهُ مِنَ الكَسْرِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: أَكْرَمَنِي، وَأَعْطَانِي، وَمَا أَشْبَهَ ذلِكَ؟ وَلَوْ قُلْتَ فِي نَحْوِ(غُلَامِي وَصَاحِبِي): غُلَامُنِي، وَصَاحِبُنِي، لَمْ يَجُزْ»[1].

وَقَدْ أَتَى الإِمَامُ ابنُ يَعِيش بِتَأْصِيلٍ رَائِعٍ عَجِيبٍ حَوْلَ هذِهِ النُّونِ، فَقَالَ: «اعْلَمْ أَنَّ ضَمِيْرَ المنصُوبِ إِذَا كَانَ للمُتَكَلِّمِ، وَاتَّصَلَ بِالفِعْلِ، نَحْوُ: (ضَرَبَنِي)، وَ(خَاطَبَنِي)، وَ(حَدَّثَنِي)، فَالِاسْمُ إِنَّما هُوَ اليَاءُ وَحْدَهَا، وَالنُّونُ زِيَادَةٌ. أَلَا تَرَاهَا مَفْقُودَةً فِي الجَرِّ مِنْ نَحْوِ (غُلَامِي)، وَ(صَاحِبِي)، وَالمنصُوبُ وَالمجرُورُ يَسْتَوِيَانِ.

وَإِنَّما زَادُوا النُّونَ فِي المنصُوبِ إِذَا اتَّصَلَ بِالفِعْلِ وِقَايَةً للفِعْلِ مِنْ أَنْ تَدْخُلَهُ كَسْرَةٌ لَازِمَةٌ. وذلِكَ أَنَّ يَاءَ الـمُتَكَلِّمِ لَا يكُونُ مَا قَبْلَهَا إِلَّا مَكْسُورًا إِذَا كَانَ حَرْفًا صَحِيْحًا، نَحْوُ: (غُلَامِي)، وَ(صَاحِبِي). وَالأَفْعَالُ لَا يَدْخُلُهَا جَرٌّ، وَالكَسْرُ أَخُو الجَرِّ؛ لأَنَّ مَعْدِنَهُمَا وَاحِدٌ، وَهُوَ المَخرَجُ، فَلَمَّا لم يَدْخلِ الأَفْعَالَ جَرٌّ، آثَرُوا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا مَا هُوَ بِلَفْظِهِ وَمِنْ مَعْدِنِهِ خَوْفًا وَحِراسَةً مِنْ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهَا الجَرُّ، فَجَاؤُوا بِالنُّونِ مَزِيدَةً قَبْلَ اليَاءِ، لِيَقَعَ الكَسْرُ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ وِقَايَةً لِلفِعْلِ مِنَ الكَسْرِ. وَخَصُّوا النُّونَ بِذَلِكَ، لِقُرْبِهَا مِنْ حُرُوفِ الـمَدِّ وَاللِّيْنِ، ولِذلِكَ تُجامِعُهَا فِي حُرُوفِ الزِّيَادَةِ، وَتكُونُ إِعْرَابًا فِي (يَفْعَلَانِ، وَتَفْعَلَانِ، وَيَفْعَلُونَ، وَتَفْعَلُونَ، وَتَفْعَلِيْنَ)، كَمَا تَكُونُ حُرُوفُ الـمَدِّ

---

(١) أسرَارُ العَربيَّةِ (ص١٠٢).

وَاللِّيْنِ إعْرَابًا فِي الأَسْمَاءِ السِّتَّةِ الـمُعْتَلَّةِ مِنْ نَحوِ قَوْلِكَ: (أَخُوكَ، وَأَبُوكَ)، وَأَخَوَاتِهِمَا، وَفِي التَّثْنِيَةِ وَالجَمْعِ؛ وَلِأَنَّ هذِهِ النُّونَ قَدْ تكُونُ عَلَامَةَ إِضْمَارٍ، فَكرِهُوا أَنْ يَأتُوا بِحَرْفٍ غَيْرِ النُّونِ، فَيَخْرُجَ عَنْ عَلَامَاتِ الإِضْمَارِ.

فَإِنْ قِيْلَ: فَلِمَ زِدْتُموهَا فِيْمَا آخِرُه أَلِفٌ مِنَ الأَفْعَالِ، نَحْوُ: (أَعْطَانِي)، وَ(كَسَانِي)، وَالكَسْرُ لَا يكُونُ فِي الأَلِفِ؟ قِيْلَ: لَـمَّا لَزِمَتِ النُّونُ وَاليَاءُ فِي جَمِيْعِ الأَفْعَالِ الصَّحِيْحَةِ لِـمَا ذَكَرْنَاهُ، صَارَتْ كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الضَّمِيْرِ، فَلَمْ تُفَارِقْهَا لِذَلِكَ، مَعَ أَنَّ الحَكِيْمَ يُدَارُ عَلَى الـمَظِنَّةِ لَا عَلَى نَفْسِ الحِكْمَةِ، وَاليَاءُ مَظِنَّتُهُ كَسْرُ مَا قَبْلَهَا، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أنَّ النُّونَ مَزِيدَةٌ لِما ذَكَرْنَاهُ أنَّ هذا الضَّمِيرَ إذَا اتَّصَلَ باسْمٍ، لَمْ تَأْتِ فِيْهِ بِنُونِ الوِقَايَةِ، نَحْوُ: (الضَّارِبِي)، وَ(الشَّاتِمِي)، فَاليَاءُ ههُنَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ، كَمَا تَقُولُ: (الضَّارِبُ زَيْدًا)، وَلَمْ تَأْتِ مَعَهُ بِنُونِ الوِقَايَةِ؛ لأَنَّهُ اسْمٌ يَدْخُلُهُ الجَرُّ، فَلَمَّا كَانَ الجرُّ مِمَّا يدخلُهُ، لم يَمتنعْ مِمَّا هُوَ مُقَارِبٌ لَهُ.

فإنْ قِيلَ: فَهَلَّا حُرِستِ الأَفْعَالُ مِنَ الكَسْرِ فِي مِثْلِ (اضْرِبِ الرَّجُلَ)؟. قِيْلَ: الكَسْرَةُ هَا هُنَا عَارِضَةٌ لِالتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، فَلَا يُعْتَدُّ بِهَا مَوْجُودَةً، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تُعِيْدُ الـمَحْذُوفَ لِالتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ فِي مِثْلِ: (رَمَتِ المرأةُ)، وَ(بَغَتِ الأَمَةُ)، وَإِنْ كَانَ أَحَدُ السَّاكِنَيْنِ قَدْ تَحرَّكَ، إِذِ الحَرَكَةُ عَارِضَةٌ لِالتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ.

وَقَدْ أَدْخَلُوا هذِهِ النُّونَ مَعَ (إنَّ) وَأَخَوَاتِهَا، فَقَالُوا: (إِنَّنِي، وَأَنَّنِي، وَكَأَنَّنِي، وَلكِنَّنِي، وَلَعَلَّنِي، وَلَيْتَنِي)؛ لِأَنَّهَا حُرُوفٌ أَشْبَهَتِ الأَفْعَالَ، وَأُجْرِيَتْ فِي العَمَلِ مُجرَاهَا، فَلَزِمَهَا مِنْ عَلَامَةِ الضَّمِيْرِ مَا يَلْزَمُ الفِعْلَ»[(١)].

---

(١) شَرحُ المفَصَّلِ (١/ ٣٤٧-٣٤٨).

وَكذلكَ لَيْسَ عَمَلُهَا مُنْحَصِرًا فِي وِقَايَةِ الفِعْلِ مِنَ الكَسْرِ، بَلْ: لَهُ مَعَ هذَا عَمَلَانِ آخَرَانِ كَمَا ذَكَرَهُ ابنُ مَالِكٍ[1] وَ قالَ: «وَإِنَّما سُمِّيَتْ نُونَ وِقَايةٍ؛ لأَنَّهَا وَقَتْ مَحذُوْرَيْنِ فِي فِعْلِ الأَمْرِ لَوِ اتَّصَلَ بالياءِ دُوْنَهَا: أَحَدُهُمَا: «التِبَاسُ يَاءِ الـمُتَكَلِّمِ بِيَاءِ الـمُخَاطَبَةِ». وَالثَّانِي: «التِبَاسُ أَمْرِ الـمُذَكَّرِ بِأَمْرِ الـمُؤَنَّثَةِ»[2]. فَلَمَّا صَحِبَتِ النُّونُ اليَاءَ مَعَ فِعْلِ الأَمْرِ صَحِبَتْهَا مَعَ أَخَوَيْهِ وَمَعَ اسْمِ الفَاعِلِ وُجُوبًا؛ لِيَدُلَّ لِحَاقُهَا عَلَى نَصْبِ اليَاءِ، وَلَحِقَتْ (إِنْ) وَأَخَوَاتِهَا جَوَازًا لِشَبَهِهَا بِالأَفْعَالِ»»[3].

أَمَّا حَذْفُهَا وَإِبْقَاؤُهَا فِي (إِنَّ)، فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى جَوَازِ الحَذْفِ وَالإِبْقَاءِ فِي الفِعْلِ الـمُضَارِعِ الَّذِي فِيهِ نُونُ الإِعْرابِ، وَمَا دَامَتْ هُنَاكَ نُونٌ فَإِنَّكَ لَسْتَ مُلْزَمًا بِإِدْخَالِ النُّونِ، وهذَا كَمَا قَالَهُ ابنُ الحَاجِبِ: «نُونُ الوِقَايَةِ لَازِمَةٌ مَعَ اليَاءِ فِي المَاضِي وَالمضَارِعِ عَرِيًّا عَنْ نُونِ الإِعْرَابِ: إِلَى آخِرِهِ، كَقَوْلِكَ: (ضَرَبَنِي، وَيَضْرِبُنِي، وَلَمْ يَضْرِبُونِي)، فَلَابُدَّ مِنْ نُونِ الوِقَايَةِ. وَلَزِمَتْ لأَنَّهَا لَيْسَتْ مَعَهَا نُونُ إِعْرَابٍ، فَلَوْ كَانَتْ مَعَهَا نُونُ إِعْرَابٍ لَجَازَ الأَمْرَانِ، كَقَوْلِكَ: (يَضْرِبُونِي)، وَ(يَضْرِبُونَنِي). وَقَرَأَ نَافِعٌ: [فَبِمَ تُبَشِّرُوْنِ][4]، وَ [تُشَاقُّونِ فِيهِمْ]. فَالمحذُوفُ نُوْنُ الوِقَايَةِ اسْتِغْنَاءً عَنْهَا بِنُونِ الإِعْرَابِ، وهذَا أَوْلَى مِنْ أَنْ تُقَدَّرَ نُونُ الإِعْرَابِ مَحْذُوفَةً اسْتِغْنَاءً عَنْهَا بِنُونِ الوِقَايَةِ؛

---

(١) لَمْ يَرْتَضِ ابنُ مَالِكٍ التَّعلِيلَ السَّابِقَ للوِقَايَةِ أَصْلًا.

(٢) قَالَ فِي الحَاشِيَةِ: معناهُ: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: اضْرِبِي - دُونَ نُوْنِ وِقَايَةٍ، وَمَعْنَاهُ: أَمْرُ المخاطَبِ أَنْ يَضْرِبَكَ - اضْرِبنِي - فَإِنَّهُ يَلْتَبِسُ بأَمْرِ المؤَنَّثَةِ؛ لأَنَّ الصِّيغَةَ وَاحِدَةٌ فِيهِمَا، وَيَتْبَعُ ذلِكَ أَيْضًا التِبَاسُ يَاءِ المتكَلِّمِ بِيَاءِ المخَاطَبَةِ، وَحِيْنَ تَلْحَقُ النُّوْنُ أَحَدَ الفِعْلَيْنِ زَالَ الالْتِبَاسُ.

(٣) تَمهِيدُ القَوَاعِدِ (١/ ٤٨٦).

(٤) بِكَسْرِ النُّونِ الـمُخَفَّفَةِ، وَلكِنَّ ابنَ كَثِيرٍ قَرَأَ بِتَشْدِيدِهَا.

لأَنَّ نُونَ الوِقَايَةِ أَمْرٌ استِحْسَانِيٌّ لَا دَلَالَةَ لَهَا، وَنُونُ الإِعْرَابِ لِمَعْنًى. فَإِذَا اجْتَمَعَا وَقُدِّرَ حَذْفُ أَحَدِهِمَا كَانَ حَذْفُ مَا لَا دَلَالَةَ لَهُ أَوْلَى(١).

وَلَزِمَتْ فِي الماضِي فِي مِثْلِ: (ضَرَبَنِي)، وَفِي المضَارِعِ فِي مِثْلِ: (يَضْرِبُنِي)، كَرَاهَةَ أَنْ يَدْخُلَ الفِعْلَ الكَسْرُ، وَلَمْ تَلْزَمْ فِي (يَضْرِبُونَنِي) استِغْنَاءً عَنْهَا بِنُونِ الإِعْرَابِ لأَنَّهَا مِثْلُهَا فِي اتِّصَالِهَا بِالفِعْلِ، فَدَخَلَ الكَسْرُ وَلَمْ يُكْرَهْ كَرَاهَتَهُ فِيمَا هُوَ مِنْ نَفْسِ الفِعْلِ. وَمَنْ قَالَ: (يَضْرِبُونِي)، رَاعَى مَا اتَّصَلَ بِالفِعْلِ فِي كَرَاهِيَّةِ دُخُولِ الكَسْرِ عَلَيْهِ مُرَاعَاتَهُ فِي نَفْسِ الفِعْلِ وَهُوَ الأَكْثَرُ فِي كَلَامِ العَرَبِ»(٢).

---

(١) اختَلَفَ النُّحَاةُ فِي تَحدِيدِ المَحذُوفِ وَاختَارَ ابنُ الحَاجِبِ أنَّ الَّتِي للوِقَايَةِ فَهِيَ مَحذُوفَةٌ (وهذَا مَذْهَبُ الأَخْفَشِ وَالمُبرِّدِ وَأكثرِ المُتَأخِّرِين)، وَاستَدَلَّ لهُ بقَوْلِهِ: «إذَا قُلْتَ: يَضْرِبُونِي، فَلَكَ أنْ تَأتِيَ بنُونِ الوِقَايَةِ وَلَكَ أنْ لَا تَأتِيَ بِهَا، وَأَيُّهُمَا المحذُوفُ؟ وقالَ: نُونُ الوِقَايَةِ هِيَ المحذُوفَةُ؛ لِأَمْرَيْنِ: أَحدِهِمَا: أَنَّ نُونَ الإِعْرَابِ دَلَالَتُهَا مَعْنَوِيَّةٌ، وَالوِقَايَةِ لَفْظِيَّةٌ. وَإِذَا دَارَ الأَمْرُ بَيْنَ المَعْنَوِيِّ وَاللَّفظِيِّ، فَالمَعْنَوِيُّ بَقَاؤُهُ هُوَ الوَجْهُ، وَاللَّفْظِيُّ أَوْلَى بِالحَذْفِ. الآخَرُ: أَنَّ الوِقَايَةَ هِيَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الثِّقَلُ، وَذلِكَ أَنَّ النُّطقَ بنُوْنِ الإعْرَابِ حَاصِلٌ أَوَّلًا قَبلَ النُّطْقِ بِهَا، فَلَمْ تَأْتِ الكَرَاهَةُ إِلَّا مِنَ الأُوْلَى، وَلِذلِكَ قَالَ الشَّيْخُ الشَّاطِبِيُّ فِي هذَا بِعَيْنِهِ: (وَالحَذْفُ لَمْ يَكُ أَوَّلَا)» أمَالِي ابنِ الحَاجِبِ (٢/ ٧٠١). فِي نِهَايَةِ كَلَامِهِ يُشِيرُ إِلَى بيتِ الشَّاطِبِيَّةِ هذَا:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَخَفِّفْ نُونًا قَبْلَ فِي اللهِ مَنْ لَهُ ... بِخُلْفٍ أَتَى وَالْحَذْفُ لَمْ يَكُ أَوَّلَا

(٢) أمَالِي ابْنِ الحَاجِبِ (٢/ ٥٤٠-٥٤١).

ظَلَمَ صَاحِبُ الجِنَايَةِ وَتَرَدَّى، فِي الكَلَامِ عَنِ الـمُنَادَى

ثُمَّ يُعَدِّدُ بَعضَ الأَشْيَاءِ أُعْطِيَتْ مَعْنَى الـمَفعُولِ بِهِ، وَأُعْطِيَتْ حَرَكَتَهُ الإِعْرابِيَّة، ثُمَّ يُفَصِّلُ فِيهَا، فأوَّلًا يَتَكَلَّمُ عَنِ النِّدَاءِ وَيَقُولُ: «وَالمنادَى في رأينَا لا عَلاقَةَ لَهُ بالمفعُولِ بِهِ وَلَوْ توهَّمَ بعضُهُم أَنَّ الِاسمَ بعدَهُ منصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحذُوفٍ تَقدِيرُهُ (أَدعُو)، أَو: (أُنادِي)، والنِّدَاءُ أسلُوبٌ يعرِفهُ الصَّغِيرُ وَالكَبِيرُ...والمنادَى بأداةِ النِّداءِ في أيَّامِنَا هذِهِ هو اللهُ -عَزَّوَجَلَّ- الَّذِي لَا حولَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِهِ، وهُوَ يقبَلُ نِدَاءَنَا -دُونَ أَدْنَى شَكٍّ- بدُونِ (يَا)، أَوْ: (أَيُّهَا)، وَمَعَ ذلكَ فقدْ أبَى النُّحاةُ أَنْ نقولَ: (يا اللهُ)، فعلَّمُونا أَنْ نَقُولَ: (اللهُمَّ)». ص: (٧٠).

أَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي العَرَبِيَّةِ حَرْفًا وَاسْمًا رُكِّبَا فِي تَرْكِيبٍ وَأَفَادَ إِفَادَةً تَامَّةً، وَالـمُنادَى رُكِّبَ مِنْ حَرْفٍ وَاسْمٍ، وَأَحيَانًا يُحْذَفُ حَرْفُ النِّدَاءِ وَيَبْقَى الـمُنَادَى وَحْدَهُ، فَالنُّحَاةُ بَحَثُوا فِي ذلِكَ وَوَجَدُوا أَنَّ هذَا مُؤَوَّلٌ، قِيَاسًا عَلَى كَلامِ العَرَبِ وَأَسلُوبِهِ فِي عَدَمِ تَرْكِيبِ الكَلامِ مِنْ حَرْفٍ وَاسْمٍ، وَقَالُوا إِنَّ قَوْلَكَ: (يَا عَبْدَ اللهِ)، فِي تأوِيلِ: (أُنَادِي عَبْدَ اللهِ)، أَوْ:(أَدْعُو عَبْدَ اللهِ). فَهذَا الكَلامُ مَنْطِقِيٌّ مِنْ جِهَةِ إِعْرابِ اللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ الـمَعْنَى.

أَمَّا مِنْ جِهَةِ الإِعْرابِ، فَلأَنَّ الـمَفْعُولَ بِهِ مَنْصُوبٌ، وَكذَا الـمُنَادَى مَنْصُوبٌ[1].

أَمَّا مِنْ جِهَةِ الـمَعْنَى فَإِنَّكَ عِنْدَ مَا تَقُولُ: (يَا فُلانُ)، فَلَا شَكَّ أَنَّكَ تُنَادِيهِ وَتَدْعُوهُ، وهذَا الفِعْلُ (النِّدَاءُ) يَتَطَلَّبُ فَاعِلًا وَهُوَ الـمُنَادِي، وَمَفْعُولًا وَهُوَ الـمُنَادَى.

---

(١) العامِلُ فِيهِ إِمَّا فِعْلٌ مُقَدَّرٌ، أَوْ: (يَا) فَهِيَ نَابت مَنَابَ (أُدْعُو)، أَوْ: (أُنَادِي) كَمَا قَالَهُ الـمُبَرِّدُ.

فَعَلَى هذَا لَا إِشْكَالَ فِي تَوْجِيهِ النُّحَاةِ وَإِشَارَتِهِم، فَهُوَ بِحَقٍّ مَعقُولٌ مَنْطِقِيٌّ وَليسَ فِيهِ مَا يَدعُو إِلَى رَفْضِهِ، أَوِ: الِاسْتِغرَابِ فِي أَمْرِهِ.

قَالَ ابنُ الأنبَارِيِّ: «إنَّما حَصلَتِ الفَائِدَةُ فِي النِّدَاءِ مَعَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي قَوْلِكَ (يَا زَيْدُ): أَدْعُو زَيْدًا، وَأُنَادِي زَيْدًا، فَحَصَلَتِ الفَائِدَةُ بِاعْتِبَارِ الجُمْلَةِ المقدَّرَةِ، لَا بِاعْتِبَارِ الحَرْفِ مَعَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ»[1].

أَمَّا إِذَا قِيلَ: لِمَاذَا لَا يَظْهَرُ فِعْلُ (أَدْعُو)، أَوْ: (أُنَادِي)؟ فَلِمَاذَا لَا نُصَرِّحُ بِهِ فِي الكَلامِ؟ قُلْنَا: هذَا قَدْ أجابَ عنهُ الإِمامُ ابنُ يَعِيشَ فَقَالَ: «لَا يَجُوزُ إِظْهَارُ ذَلِكَ، وَلَا اللَّفْظُ بِهِ لِأَنَّ (يَا) قَدْ نَابَتْ عَنْهُ؛ وَلِأَنَّكَ إِذَا صَرَّحْتَ بِالفِعْلِ، وَقُلْتَ: (أُنَادِي)، أَوْ:(أُرِيْدُ)، كَانَ إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِكَ، وَالنِّدَاءُ لَيسَ بِإِخْبَارٍ، وَإِنَّمَا هُوَ نَفْسُ التَّصْوِيْتِ بِالـمُنَادَى، ثُمَّ يَقَعُ الإِخْبَارُ عَنْهُ فِيمَا بَعْدُ، فَتَقُول: (نَادَيْتُ زَيدًا)»[2].

أَمَّا كَلَامُهُ بِأَنَّ النُّحَاةَ لَا يَرْضَونَ بِـ(يَا اللهُ)، فَهذَا مَحْضُ افتِرَاءٍ وَكَذِبٌ صُراحٌ وَتَقَوُّلٌ مَقِيتٌ، وَلم يَقُلْ بِهِ وَاحِدٌ منهُم وَلَمْ يَمْنَعُوا أَحَدًا مِنِ استِخْدَامِهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ فِي صِيغَةِ التَّعَجُّبِ حيثُ تَقَوَّلَ عَلَى العُلَمَاءِ وَارْتَجَلَ فِي الِافتِرَاءِ، وَأَبْرَزْنَا ذلِكَ وَأَوْضَحْنَاهُ بِكَلامِهِم.

فَاستِخْدَامُ (يَا اللهُ)، ليسَ هنَاكَ وَاحِدٌ منَ النُّحَاةِ مَنَعَ ذلِكَ إِطْلاقًا، بَلْ: ذَكَرَ هذِهِ الصِّيْغَةَ للمُنَادَى كَثِيرٌ مِنْهُم، فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ أَذْكُرُ: سِيبَوَيْهِ[3]، . . . .

---

(١) أسرَارُ العربيَّةِ (ص٤٢).

(٢) شَرْحُ الـمُفصَّلِ (١/ ٣١٦).

(٣) الكِتابُ (٢/ ١٩٥)، (٢/ ٢٧٥)، (٢/ ٤٠٠).

وَالزَّجَّاجِيَّ[١]، وَالـمُبَرِّدَ[٢]، وَابنَ الأَنبَارِيِّ[٣]، وَابنَ جِنِّيْ[٤]، وَغَيرُهُم كَثِيرٌ.

ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بَعْدَ ذلِكَ عَنِ النُّدْبَةِ وَيَجْعَلُ عَدَمَ استِخْدَامِهَا مِنْ قِبَلِ العَامَّةِ سَبَبًا لِرَفْضِهَا، فَهذِهِ الـمَنْهَجِيَّةُ للقبُولِ وَالرَّدِّ لَمْ أَسْمَعْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ قَبْلَ أوزونَ، وَلَا أَظُنُّنِي أَرَاهَا بعْدَ هذَا مَرَّةً أُخْرَى لِبُعْدِهَا عَنِ الـمَنْطِقِ، وَهِيَ مُغالَطَةٌ حَقِيقِيَّةٌ.

جُرْمُ الـمُهَنْدِسِ الـمُفَخَّم، عَلَى الـمُنَادَى الـمُرَخَّم:

ثُمَّ يَتَكَلَّمُ المهندِسُ عَنِ التَّرخِيمِ (الحَذْفِ الَّذِي يَكُونُ فِي آخرِ الـمُنادَى)، وَيَقُولُ: «وَهُوَ حذفُ أَوَاخِرِ الكَلامِ فِي النِّداءِ عَلَى لُغَةِ مَنْ يَنتَظِرُ الحَرْفَ وَمَنْ لَا يَنْتَظِرُ الحَرْفَ -لَاحِظْ هذِهِ التَّعرِيفَ- وَهُوَ أمرٌ لَا يُمْكِنُكَ إِلَّا أَنْ تَتَحَوْقَلَ مِنْهُ وَمِنْ فَرَضِيَّاتِهِ السَّهلَةِ الـمُمْتِعَةِ -كَمَا يَقُولُون- وَلَعَلَّ أَهْلَ حَلَبَ القُدَامَى عِنْدَ مَا يَقُولُون: (تَا) عِوَضًا عَنْ (تَعَال) هُم أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى استِيعَابِ التَّرخِيمِ وَإِدْخَالِهِ عَلَى الأَفْعَالِ عِوَضًا عَنِ الأَسْمَاءِ شَاءَ ذلِكَ النُّحَاةُ أَمْ أَبوا». ص: (٧٢).

أَقُولُ: إِنَّ إِنْكَارَ تَرْخِيمِ الـمُنَادَى شَيءٌ لَا أَظُنُّ عَاقِلًا يَقُولُ بِهِ؛ لأَنَّهُ جَاءَ فِي الكَلَامِ الفَصِيحِ كَثِيرًا، وَلَا مَجَالَ لِرَدِّهِ، وَلَا أَظُنُّ الـمُهَندِسَ أيضًا يُنْكِرُهُ وَيَرُدُّهُ وَلكِنَّهُ اعتَرَضَ عَلَى تَقْنِينِ النُّحَاةِ لَهُ.

---

(١) الجُمَلُ للزَّجَّاجِيِّ (ص٢٦١).

(٢) الـمُقْتَضَبُ (١/ ٢٥٣)، (٤/ ٢٤٠).

(٣) أسرَارُ العربيَّةِ (ص١٧٥).

(٤) اللُّمَعُ (ص١١٢).

أمَّا ضَابِطُهُ فَهُوَ كَمَا قَالَ ابنُ جِنِّيْ: «اعْلَمْ أَنَّ التَّرْخِيمَ حَذْفٌ يَلْحَقُ أَوَاخِرَ الْأَسْمَاءِ الـمَضْمُومَةِ فِي النِّدَاءِ تَخْفِيفًا، وَهُوَ فِي الْكَلَامِ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

أَحدِهمَا: أَنْ تَحْذِفَ آخِرَ الِاسْمِ وَتَدعَ مَا قَبْلَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ.

وَالْآخَرُ: أَنْ تَحْذِفَ مَا تَحْذِفُ وَتجْعَلَ مَا بَقِيَ بَعْدَ الْحَذْفِ اسْمًا قَائِمًا بِنفسِهِ كَأَنْ لَمْ تَحْذِفْ مِنْهُ شَيْئًا»[(١)].

وَهذَا أيضًا لَيسَ مِمَّا يُعْتَرَضُ عليهِ لأَنَّ تَقنينَهُم تَقنِينٌ دَقِيقٌ للغَايَةِ، وَليسُوا مُقصِّرينَ فِي النَّظَرِ عِنْدَ وَضْعِهِ، فَهذَا هُوَ الإِمَامُ ابنُ يَعِيش يَذكُرُهُ وَيُبيِّنُهُ إِذْ يَقُولُ: «ثُمَّ هذَا التَّرْخِيمُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِمَا: وَهُوَ الأَكْثَرُ، أنْ يُحذفَ آخِرُ الِاسْمِ، وَيكُونَ المحذُوفُ مُرادًا في الحُكْمِ كَالثَّابِتِ المنطُوقِ بِهِ، تَدَعُ مَا قَبْلَهُ عَلَى حَالِهِ، فِي حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، إِيذَانًا وَإِشْعَارًا بِإِرَادَتِهِ[(٢)].

وَالثَّانِي: أنْ يُحذَفَ مَا يُحذَفُ مِنْ آخِرِهِ، وَيَبْقَى الِاسْمُ كَأَنَّهُ قَائِمٌ بِرَأسِهِ غَيْرُ مَنْقُوصٍ مِنْهُ، فَيُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الأَسْمَاءِ التَّامَّةِ مِنَ البِنَاءِ عَلَى الضَّمِّ[(٣)].

فَيُقَالُ عَلَى الوَجْهِ الأَوَّلِ فِي (حِارِثٍ): (يَا حَارِ)، وَفِي (أُمَامَةَ): (يَا أُمَامَ)...وَيُقَالُ عَلَى الوَجْهِ الثَّانِي فِي (حَارِثٍ): (يَا حَارُ)، وَفِي (أُمَامَةَ): (يَا أُمَامُ)، وَفِي (بُرْثُنَ): (يَا

---

(١) اللُّمَعُ لِابنِي جِنِّيْ (ص١١٤).

(٢) مَا يُسَمَّى بِلُغَةِ مَنْ يَنْتَظِرُ.

(٣) هُوَ لُغَةُ مَنْ لَا يَنْتَظِرُ.

بُرْثُ)، كُلُّهُ بِالضَّمِّ، إِلَّا أَنَّ الضَّمَّةَ فِي (بُرْثُ) غيرُ الضَّمَّةِ الأَصْلِيَّةِ إِنَّما هِيَ ضَمَّةُ النِّدَاءِ. وَقَدِ انْحَذَفَتِ الضَّمَّةُ الأَصْلِيَّةُ كَمَا حَذَفْتَ الكَسْرَةَ مِنْ (يَا حَارِثُ) وَأتيتَ بِالضَّمَّةِ»[1].

فَمُخْتَصَرُ المَقَالِ: أنَّ مَنْ أرادَ انتِظَارَ الحَرْفِ الأَخيرِ مِنَ الِاسمِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ كَاسمٍ مُسْتَقِلٍّ، قَالَ: (يَا حَارِ) مِنْ (حَارِث)، فَيَبْقَى الحَرْفُ الَّذِي قَبْلَ الآخِرِ كَمَا هُوَ مِنْ غيرِ تَغييرٍ فِي حَرَكَتِهِ، وكَأَنَّهُ أَرَادَ إِكْمَالَ الِاسْمِ بنُطْقِ الحَرْفِ المَحْذُوفِ، وَإِذَا أَرادَ أَنْ لَا يَنْوِيَ هذَا الحَرْفَ المَحذُوفَ وَلَا يَنْتَظِرَهُ قَالَ: (يَا حَارُ)، بالبِنَاءِ علَى الضَّمِّ وَكَأَنَّهُ اسمٌ مُسْتَقِلٌّ بنَفْسِهِ وَلَمْ يُحْذَفْ مِنْهُ شَيءٌ.

فهذَا مَا تَوصَّلَ إليهِ النُّحَاةُ وقَنَّنُوا لَهُ بَعْدَ مَجِيْءِ النَّوْعَيْنِ مِنَ المُنَادَى المُرَخَّمِ فِي كَلامِ العَرَبِ، فَإِذَا وَصلَ أوزونُ إِلَى أَفْضَلَ مِنْهُ فليتَفَضَّلْ بِهِ وَلَا يَبْخَلْ حَتَّى نَسْتَفِيدَ منهُ جَمِيعًا، وَنَعْتَرِفَ بأنَّ مَقَالَتَهُ أَحْسَنُ وَأَرْصَنُ، أَمَّا إِطْلَاقُ القَوْلِ وَالهَدْمُ فَأَمرٌ هَيِّنٌ يَسِيرٌ يَقْدِرُ عليهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ، أمَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْكِرَ التَّرْخِيمَ رَأسًا فَهذَا ضَرْبٌ مِنَ الجُنُونِ؛ لأنَّ الكَلَامَ الفَصِيحَ جَاءَ بِهِ، وَلَا أَظُنُّ وَاحِدًا مِنَّا لَمْ يَسْمَعْ بَيْتَ امرِئِ القَيْسِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَفَاطِمَ مَهلاً بَعضَ هَذا التَّدَلُّلِ ... وَإِن كُنتِ قَد أَزمَعتِ صَرْمِي فَأَجمِلي

(١) شَرحُ المُفصَّلِ (١/ ٣٧٩).

وَقَالَ الـمُثَقِّبُ العَبْدِيُّ:

[مِنَ الوَافِرِ]

أَفَــاطِمُ قَبْــلَ بَيِنِــكِ مَتِّعِيْنِــي وَمَنعُــكِ مــا سَــأَلْتُكِ أَنْ تَبِيْنِــي

وَقَالَ مُهَلْهِلٌ:

[مِنَ الكَامِلِ]

يَــا حَــارُ لا تَجْهَــلْ علــى أشْـياخِنَا إنَّــا ذَوُوالسَّــوْراتِ والأحْــلامِ

وقال زُهَيْرٌ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

يَــا حَــارُ لَا أُرْمَــيَنْ مِــنكُمْ بِدَاهِيَــةٍ لــم يَلْقَهَــا سُــوقَةٌ قَبْلــي وَلَامَلِــكُ

الإِغْرَاءُ وَالتَّحذِيرُ:

ثُمَّ تَكَلَّمَ أوزونُ عَنْ هذَا الأُسلُوبِ العَرَبِيِّ الأَصِيْلِ فَقَالَ: «ظَهَرَ هذَا الأُسلُوبُ عِنْدَ مَا وَجدَ أهلُ اللُّغَةِ -النُّحَاةُ- حَرَكَةَ فَتْحَةِ آخِرِ الكَلِمَةِ، فَحَاوَلُوا إيجَادَ تَخْرِيجَةٍ لَهَا. فَمَثَلًا عِنْدَ مَا سَمِعُوا عَرَبِيًّا أَصِيلًا يَقُولُ: (الحَزْمَ) عِوَضًا عَنِ (الحَزْمُ) -الحَزْمُ الـمُبْتَدَأُ الـمَرْفُوعُ- قَرَّرُوا أَنْ يُعْرِبُوا (الحَزْمَ): مَفْعُولٌ بِهِ مَنصُوبٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ - لَاحِظْ ذلِكَ تَقدِيرُهُ: (الْزَمْ)! وَلَمْ يَعْتَرِفُوا بأَنَّ قَوْلَنَا (الحَزْمَ) يُعْطِينَا نَفْسَ مَعْنَى (الحَزْمُ الحَزْمُ)، وَأَنَّ حَرَكَةَ الحَرْفِ الأخيرِ لَا تُغَيِّرُ مَعْنَى الكَلِمَةِ وَمَوْقِعَهَا.

مَعَ العِلْمِ بأنَّ تِلْكَ التَّرَاكِيبَ الَّتِي قَامَتْ مِنْ أجلِهَا هذِهِ القَوَاعِدُ تتضاءَلُ فِي خُطبِ العُظَمَاءِ الرَّنَّانَةِ اليومَ، فَقَلَّ أَنْ يَبْدَأَ أَحَدُهُم قَوْلَهُ فِي أَيَّامِنَا هذِهِ بـ: (العَمَلَ العَمَلَ)، وَهِيَ أُمورٌ سَتَمُوتُ مَعَ مُرُورِ الزَّمنِ». ص: (٧٢-٧٣).

أقُولُ: هَبْ أنَّ العُلَمَاءَ لَمْ يَضَعُوا قَوَاعِدَ للإِغْرَاءِ والتَّحذِيرِ أَصْلًا، وَلِكْن لَوْ سَمِعْتَ وَاحِدًا يَقُولُ لَكَ: (الأَسَدَ الأَسَدَ)، أَلَيسَ مُرَادُهُ أَنْ يُحَذِّرَكَ مِنَ الأَسَدِ؟ إِذَنْ تَفْهَمُ أَنَّهُ عَلَى تَقدِيرِ (احْذَرِ الأَسَدَ).

وَكذَا لَوْ قَالَ لَكَ: (الجِدَّ الجِدَّ)، أَوِ: (القُوَّةَ القُوَّةَ)، أَوِ: (الإِسْلامَ الإِسْلامَ)، أَوِ: (الصَّلاةَ الصَّلاةَ)، أَوِ: (الجِهَادَ الجِهَادَ)، فَأَنْتَ تَتَخَيَّلُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هذِهِ الجُمَلِ أَفْعَالًا تُنَاسِبُ الكَلامَ، كَـ: (الْزَمِ الجِهَادَ)، مَثَلًا!

وَلَا أَعْرِفُ وَجْهَ الإِنْكَارِ إِذَا قُلْنَا إِنَّ نَصْبَهُ كَانَ بِتَقْدِيرِ فِعْلٍ؟

وَإِذَا سُئِلَ عَنْ سَبَبِ تَكْرِيرِ الِاسْمِ المَنْصُوبِ فِي الإِغْرَاءِ وَالتَّحذِيرِ، فَإِنَّ الإِمَامَ ابنَ الأَنْبَارِيِّ يُجِيبُ عَنْ ذلِكَ بِقَوْلِهِ: «إِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا وَجْهُ التَّكْرِيْرِ إِذَا أَرَادُوا التَّحْذِيرَ فِي نَحْوِ قَوْلِهِم: (الأَسَدَ الأَسَدَ)؟ قِيلَ: لِأَنَّهُم أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا أَحَدَ الِاسْمَيْنِ قَائمًا مَقَامَ الفِعْلِ الَّذِي هُوَ (احْذَرْ) وَلِهذَا، إِذَا كَرَّرُوا، لَمْ يَجُزْ إِظْهَارُ الفِعْلِ، وَإِذَا حَذَفُوا أَحَدَ الِاسْمَيْنِ، جَازَ إِظْهَارُ الفِعْلِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَحَدَ الِاسْمَيْنِ قَائِمٌ مَقَامَ الفِعْلِ»[(١)].

أمَّا الحَرَكَاتُ فِي العَرَبِيَّةِ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ جُزَافًا كَمَا صَوَّرَ المهندِسُ، وَسَيأتِي مَعَنَا الكَلامُ عَنْهَا بِفَصْلٍ مُسْتَقِلٍّ بإِذنِ اللهِ تَعَالَى، وَمِنْ خِلالِهِ يَتَبَيَّنُ لَكُمْ حَقِيقَةُ دَعَاوَى المُهندِسِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ.

---

(١) أسرَارُ العَرَبيَّة (ص١٣٥).

أَمَّا تَرْكُ هذِهِ الأَسَالِيبِ وَمَوْتُهَا، فَلَيسَ سوَى خَيَالٍ وَوَهمٍ مِنَ الـمُهَندِسِ؛ لأَنَّ الكُتَّابَ وَالشُّعَرَاءَ وَالخُطَبَاءَ يَسْتَخدِمُونَ هذِهِ التَّعابِيرَ فِي نَظْمِهِم وَنَثْرِهِم، فَلَيسَ الِاعتِبَارُ بِكَلَامِ العَوامِّ مِنَ النَّاسِ.

[مِنَ الوَافِرِ]

دَعِ الأَوْهَــامَ إِنْ حَاوَلْــتَ أَمْــرًا ... فَــإِنَّ مَغَبَّــةَ الــوَهمِ الهَــوَانُ
لَعَمْــرُ الحَــقِّ إِنَّ الــوَهمَ فَــخٌّ ... يُصَــادُ بِــهِ أَخُــو الخَنَــعِ الجَبَــانُ

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِمَوْتِهَا فَإِنَّهُ لا يَحْدُثُ أَبَدًا بِإِذنِ اللهِ تَعَالَى وَسَتَبْقَى كَمَا بَقِيتِ الآنَ شَامِخَةً عَزِيزَةً عَلَى لِسَانِ أَبْنَائِهَا وَمُحِبِّيْهَا.

حَتَّى إِنَّ هذَا الأُسلُوبَ لَوْ مَاتَ فِي الـمُسْتَقْبَلِ كَمَا يَقُولُهُ أَوزونُ، فَلَيْسَ مُبَرِّرًا صَحِيحًا لحَذْفِهِ مِنْ كُتُبِ النَّحْوِ؛ لأَنَّ هذَا الأُسلُوبَ كَانَ مُسْتَخْدَمًا فِي فَصِيحِ كَلَامِ العَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَإِنَّكَ تَكُونُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ قَوَاعِدِهِ لِفَهْمِ كَلَامِ الأَسْلَافِ، وَعَلَى رَأسِهِمِ الأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ، وَالشِّعْرُ العَرَبِيُّ الَّذِي هُوَ وَسِيلَةٌ لِفَهْمِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَعَلَيْهِ فَلَا يَدْعُو إِلَى حَذْفِهِ وَإِفْنَائِهِ مُحِبٌّ للقُرآنِ الكَرِيْمِ وَمُعَظِّمٌ لَهُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ الـمُهندِسُ عَنْ مَسَائِلَ أُخْرَى كَالِاخْتِصَاصِ وَالـمَنصُوبِ بِنَزْعِ الخَافِضِ، وَالِاشْتِغَالِ، وَكَانَ كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَلِمَاتِهِ السَّابِقَةِ فِي التَّشَاغُبِ مَعَ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، وَقَدْ أَعْطَينَا البَاحِثَ مَا يَكْفِيهِ مَؤُونَةَ البَحْثِ فِي ذلِكَ، وَنَزِيدُهُ عَلَيْهَا بَيَانًا فِي أَوَاخِرِ الكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

تَغَالُطُ الـمُهَنْدِسِ بِمِلْءِ فِيْه، فِي بَحْثِ الـمَفْعُول فيْه

ثُمَّ تَكَلَّمَ الـمُهَندِسُ عَنِ الـمَفعُولِ فِيهِ وَقَالَ: «وَهُوَ اسمٌ يَدُلُّ عَلَى زَمَانٍ، أَوْ:مَكَانِ وُقُوعِ الفِعْلِ، وَيُقْسَمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: ظَرْفِ زَمَانٍ وَظَرْفِ مَكَانٍ، وَمِنْ بِدَايَةِ هذَا التَّصْنِيفِ نَجِدُ عَدَمَ التَّمييزِ بينَ مَفهُومِ الزَّمَانِ وَمَفْهُومِ الـمَكَانِ.

فَزَمَنُ حُدوثِ الفِعْلِ يَخْتَلِفُ تَماَمًا عَنْ مَكَانِ حُدُوثِهِ وَلَا تَصِحُّ التَّسْمِيَةُ العَامَّةُ الـمُشتركَةُ لَهُمَا (مَفْعُولٌ فِيْهِ) كَمَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ السَّيْطَرَةُ عَلَى الزَّمَنِ -حَالِيًا- مِنْ قِبَلِ الإِنْسَانِ. لِذلِكَ فَإِنَّ ذلِكَ الـمُصْطَلَحَ لَا يَصْلُحُ فِي مَفهُومِ الزَّمَانِ لأَنَّهُ خَارِجَ سَيْطَرَتِنَا فَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نفعلَ فيهِ مَتَى نَشَاءُ.

ثُمَّ يأتِي بعدَ ذلِكَ مُصْطَلَحُ كَلِمَةِ[1] (الظَّرْفِ) وَهُوَ مُصْطَلَحٌ غريبٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكَ أَيَّ مَدلُولٍ فِي الذِّهْنِ، ولِذلِكَ نَجِدُ أَنَّ الكَثِيرَ مِنَ الطُّلَّابِ يُخلِّطُ بينَ الـمَفعُولَاتِ: فيهِ، بِهِ، وَلَا لَوْمَ عليهِمْ فِي ذلِكَ». ص: (٧٥).

أَقُولُ: إِنَّ هذَا الِاعتِرَاضَ عَلَى اصْطِلاحِ (الـمَفعُولِ فِيهِ) هَزِيلٌ جِدًّا؛ لأَنَّهُ مِنْ مُمَيِّزَاتِ هذَا الِاصطِلاحِ عِنْدَ مَا جَمَعَ بينَ الظَّرْفَيْنِ بِكَلامٍ وَاحِدٍ، وَلكِنْ لَـمَّا يأتِي دَورُ التَّفصِيلِ فُصِلَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِتَفْصِيلٍ بَدِيعٍ، فَإِذَا جُمِعَا تَحتَ مُصْطَلَحٍ جَامِعٍ فَإِنَّهُ لَا يَعْنِي كَوْنَهُمَا شَيْئًا وَاحِدًا، حَتَّى يُعَارِضَ الـمُهَنْدِسُ بأَنَّ زَمَنَ الفِعْلِ يَخْتَلِفُ عَنْ مَكَانِ وَقُوعِهِ، وَبالتَّالِي فَإِنَّنَا لَسْنَا فِي مَوْقِعِ التَّعرِيفِ وَالحَدِّ حَتَّى يُقالَ بِوَضْعِ حَدٍّ يَكُونُ مَانِعًا.

---

(١) عندَ مَا قَالَ (مُصْطَلَح) فإِنَّ (كَلمة) تكونُ حَشْوًا وَلَا فَائِدَةَ فِي ذِكْرِهَا.

أمَّا كَلامُهُ عَنْ كَوْنِ الزَّمَنِ لَيْسَ فِي سَيْطَرَتِنَا، وَلَسْنَا نَقْدِرُ عَلَى فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ كَمَا نَشَاءُ، فَهُو كَلامٌ عَجِيبٌ جِدًّا، وَلَا أعْرِفُ لَهُ وَجْهًا يَرْبطُهُ بِمَا بَحَثَهُ النُّحوِيُّونَ، وَليتَ الـمُهَندِسَ أبَانَ الرَّابِطَ.

أمَّا كَلامُهُ عَنِ الظَّرْفِ أنَّهُ لَا يَتْرُكُ أيَّ مَدْلُولٍ، فَهُوَ تَحَامُلٌ بارِدٌ وَكَيْلٌ بِمِكْيَالَيْنِ مِنَ الـمُهندِسِ فِي تَقْيِيمِ الِاصْطِلاحَاتِ النَّحوِيَّةِ، وَإلَّا فَكُلُّ واحِدٍ مِنْ صِغَارِ طَلَبَةِ النَّحْوِ يَعْرِفُ أنَّ الظَّرْفَ فِي اللُّغَةِ مِنْ مَعَانِيْهِ الوعَاءُ، فَالزَّمَانُ وَالمَكَانُ صَارَا كَالوعَاءِ فِي احتِوَاءِ الفِعْلِ؛ لأنَّهُ حَدَثَ فِيهِمَا، قَالَ الإِمَامُ ابنُ الأنبَارِيِّ: «فَإِنْ قِيْلَ: فَلِمَ سُمِّيَ ظَرْفًا؟ قِيلَ: لِأَنَّهُ لَـمَّا كانَ مَحَلًّا للأَفْعَالِ، سُمِّيَ ظَرْفًا، تَشْبِيهًا بِالأَوَانِي الَّتِي تَحلُّ الأَشْيَاءُ فِيْهَا؛ وَلِهذَا سَمَّى الكُوفِيُّونَ الظُّرُوفَ: (محالّ)؛ لِحُلُولِ الأَشياءِ فِيْهَا»[1].

وَلَا أَدرِي أيَّ وُضُوحٍ يَطْلُبُ أَكْثَرَ مِنْ هذَا؟.

ثُمَّ بَعْدَ هذَا يَتكَلَّمُ عَنِ الحَرَكَاتِ الإِعْرابِيَّةِ مَرَّةً أُخرَى ويُصوِّرُ أنَّ تَغييرَ حَرَكَةٍ لِأُخرَى، وتبديلَ إِحْداهَا بِغَيرِهَا ليسَ لهُ أيُّ بأسٍ، وَهُوَ أمرٌ هَيِّنٌ وَلَا يَتَغَيَّرُ الـمَعْنَى بِذلِكَ أَلْبَتَةَ، وكَمَا قُلْنَا فَإِنَّنَا سنتكَلَّمُ عنْ ذلِكَ بِإِذنِ اللهِ تَعالَى، وَنُبيِّنُهُ بيَانًا لَا يَبْقَى مَعَهُ أَدْنَى شَكٍّ.

---

(١) أسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص١٤١).

كَلَامُ الـمُهَنْدِسِ عَنِ الـمَفعُولِ الـمُطْلَق

ثُمَّ يَصِلُ الـمُهَنْدِسُ إِلَى مَبْحَثٍ آخَرَ وَهُوَ الكَلامُ عَنِ الـمَفعُولِ الـمُطْلَقِ، وَيَقُولُ: «وَهُوَ اسمٌ (مَصْدَرٌ) يُذْكَرُ بعدَ فِعْلٍ مِنْ لَفْظِهِ لِتَوكِيدِه، وَيَكُونُ مَنصُوبًا دَائِمًا.

والسُّؤَالُ هُنَا: مَا مَعْنَى مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ؟ وَكيفَ نفهَمُ هذَا الـمُصْطَلَحَ فَهْمًا مَنْطِقِيًّا مُعَقْلَنًا يُمَكِّنُنَا مِنْ تَطْبِيقِهِ؟ وَمَا الـمَقصُودُ بِكَلِمَةِ (مُطْلَقٍ)؟ وَكيفَ يَكُونُ الـمَفعُولُ مُطْلَقًا؟ مُطْلَقٌ فِي عَمَلِهِ؟ مُطْلَقٌ فِي صَلاحِيَّتِهِ؟ مُطْلَقٌ فِي حُكْمِهِ؟ مُطْلَقٌ فِي مَدْلُولِهِ؟ وَإِذا قُلْتُ: (جَازَفْتُ مُجَازَفَةً)، فَهَلْ بذلِكَ[1] تَوْكِيدٌ للمُجازَفَةِ؟ وَهَلْ يُسْتَنْتَجُ أَنَّ تِلْكَ الجُمْلَةِ مُؤَكَّدَةٌ وَتَفُوقُ فِي مَعْنَاهَا قَوْلِي: (جَازَفْتُ بِحَيَاتِي)؟». ص: (٧٦).

أقُولُ: إِنَّ الأَوَائِلَ سَمَّوا هذَا الصِّنْفَ (مَصْدَرًا)، وَلَمْ ينعَتُوهُ بـ(الـمَفْعُولِ الـمُطْلَقِ)، وَعِلَّةُ هذِهِ التَّسمِيَةِ ذَكَرَهَا ابنُ يَعِيش بِقَوْلِهِ: «سُمِّيَ مَصْدَرًا لِأَنَّ الفِعْلَ صُدِرَ عَنْهُ، وَأُخِذَ مِنْهُ، وَلِهَذَا قِيْلَ لِلمَكَانِ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهُ الإِبلُ بَعْدَ الرِّيِّ: مَصْدَرٌ، كَمَا قِيْلَ: مَوْرِدٌ لِـمَكَانِ الوُرُوْدِ»[2].

وَقَدْ كَانَ سِيْبَوَيْهِ يُسَمِّيهِ بَعْضَ تَسْمِيَّاتٍ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَّلَ ابنُ يَعِيش تَسْمِيَاتِهِ قَائِلًا: «وَيُسَمِّيْهِ سِيْبَوَيْهِ: (الحَدَث) وَ(الحدَثَان)، وذَلِكَ لأَنَّها أَحْدَاثُ الأَسْمَاءِ الَّتِي تُحْدِثُهَا، وَالمرَادُ بِالأَسْمَاءِ: أَصْحَابُ الأَسْمَاءِ، وَهُمُ الفَاعِلُونَ، وَرُبَّمَا سَمَّاهُ الفِعْلَ

---

(١) هذَا رَكِيكٌ مِنَ الأَوْلَى أَنْ يَقُولَ: (فِي ذَلِكَ).

(٢) شَرحُ الـمُفَصَّلِ (١/ ٢٧٢).

مِنْ حَيْثُ كَانَ حَرَكَةَ الفَاعِلِ»[(١)].

أمَّا الـمُتَأَخِّرُونَ فَإِنَّهُم سَمَّوهُ (الـمَفعُولَ الـمُطْلَق) لِيَتَمَيَّزَ مِنْ بَاقِي الـمَفَاعِيلِ، كَمَا قَالَ السُّيوطِيُّ: «إِنَّمَا سُمِّيَ مَفْعُولًا مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُقَيَّدْ بِحَرْفِ جَرٍ كَالـمَفعُولِ بِهِ وَلَهُ وَفِيهِ وَمَعَهُ»[(٢)].

أمَّا وَجْهُ النَّصْبِ فيهِ فَإِنَّهُ كَمَا قَالُوا لأَنَّهُ فِي مَعْنَى الـمَفعُولِ، فَلِذلِكَ أُعْطِيَ حُكْمَهُ، كَمَا قالَ ابنُ الوَرَّاقِ: «اعْلَمْ أَنَّ الْـمَصْدَرَ إِنَّمَا يُنْصَبُ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (ضَرَبْتُ ضَرْبًا)، فَقِيلَ لَكَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتَ: أَحْدَثْتُ ضَرْبًا، فَقَدْ بَانَ لَكَ أَنَّ الْـمَصْدَرَ مَفْعُولٌ، فَلِهَذَا انْتَصَبَ»[(٣)].

وَبَعْدَ هذَا البَيَانِ نَقُولُ: إِنْ كانَ أوزونُ لَا يَقْبَلُ الـمَفعُولَ الـمطلَقَ كَاصْطِلاحٍ -مَعَ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ- فَليَقْبَلْ بِالِاصْطِلاحَاتِ الأُخْرَى الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا العُلَمَاءُ، وَإِذَا كَانَ لَا يَقْبَلُ هذِهِ الِاصطِلَاحَاتِ أيضًا، فليأتِ بِاصْطِلاحٍ آخَرَ مَنْطِقِيٍّ أَفْضَلَ مِمَّا وَضَعُوهُ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ إِذَا كَانَ يُمكِنُهُ فِعْلُ ذلِكَ (وَهذَا يُكَلِّفُهُ مُخَّ البَعُوضَةِ)، وَلكِنَّ الثَّرْثَرَةَ فِي حَقِّ الِاصْطِلاحَاتِ بِغَيرِ عِلْمٍ وَلَا بَصِيرَةٍ، فَهذَا مَنْهَجٌ لَا يَقْبَلُهُ باحِثٌ مُحَقِّقٌ، وَلَا حَتَّى عَدُوٌّ مُنصِفٌ، وَلَا أَدرِي مَاذَا أَقُولُ بعدَ هذَا، وَإِلَى اللهِ نَشْكُو عَالَمَ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ.

---

(١) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ (١/ ٢٧٢).

(٢) هَمْعُ الهَوَامِعِ (٢/ ٩٤).

(٣) عِلَلُ النَّحْوِ (ص٣٥٩).

الـمُهَنْدِسُ وَإِنْكَارُ الـمَفعُولِ مَعَهُ

ثُمَّ يأتِي الـمُهَندِسُ وَيسْخَرُ مِنْ مَبْحَثٍ نَحوِيٍّ وَهُوَ الـمَفعُولُ مَعَهُ، وَيَقُولُ عَنهُ: «وَهُوَ أمرٌ يُؤسِفُنِي ذِكْرُهُ أصْلًا فأنَا لَنْ (أَسِيْر وَالشَّارِعَ) لِسَبَبٍ بَسِيطٍ وَهُوَ أنِّي كَائِنٌ حَيٌّ وَالشَّارِعُ جَمادٌ سَاكِنٌ وَلَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى أنَّ إِعرَابَ (وَالشَّارِعَ) هُوَ:

الوَاوُ: وَاوُ الـمَعِيَّةِ–لَاحِظْ هذِهِ التَّسمِيَّةَ–.

الشَّارِعَ: مَفعُولٌ مَعَهُ مَنصُوبٌ بِالفَتْحَةِ الظَّاهِرَةِ فِي آخِرِهِ. نَعَم مَفعُولٌ مَعَهُ! وَيَرْتَعِدُ النُّحَاةُ وَيَتَضَايَقُونَ إِذَا قَالَ أَحَدُنَا: (إِنَّ الشَّمْسُ سَاطِعَةً)، أَو: (كَانَ الجُندِيَّ جَرِيحٌ)، وَلكِنَّهُم يَقْبَلُونَ مُصْطَلَحَ مَفعُولٍ مَعَهُ. وَكَيفَ يتِمُّ إِنْجَازُ الفِعْلِ مِنْ قِبَلِ الإِنْسَانِ وَالشَّارِعِ مَعًا؟ سُؤَالٌ لَا أَعْرِفُ كَيفَ أَطْرَحُهُ، فَهَلْ يَجِدُ لِي النُّحَاةُ صِيغَةً لِسُؤَالِي ومِنْ ثَمَّ يُجِيبُونَ عَليهِ أَنْفُسُهُم؟». ص: (٧٧).

أَقُولُ: إِنَّ هذَا الِاصْطِلاحَ لَا بأسَ بِهِ وَهُوَ عَقلِيٌّ جِدًّا وَلَا لَوْمَ عَلَى وَاضِعِيهِ؛ لأَنَّ الجُمْلَةَ تَدُلُّ عَلَى الـمَعِيَّةِ بِوضُوحٍ، وَلكِنَّ الـمُهندِسَ لَم يَعْلَمْ أَنَّ هذِهِ الـمَعِيَّةَ مَعِيَّةٌ مَجَازِيَّةٌ، وَلَيسَتْ حَقِيقِيَّةً، وَلِذلِكَ أَتَى بالِاعتِرَاضِ وَقَالَ بِجَمَادِيَّةِ الشَّارِعِ، فَلَوْ عَرَفَ أَنَّ النُّحَاةَ أَشَارُوا إِلَى أَنَّ الـمَعِيَّةَ هُنَا مَجَازٌ كَبَاقِي الـمَجَازَاتِ فِي العَرَبِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ لِيَعْتَرِضَ هذَا الِاعتِرَاضَ؛ لأَنَّهُ كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ الـمعِيَّةَ للشَّارِعِ هِيَ امتِدَادُهُ مُدَّةَ سَيرِ الشَّخصِ الـمَارِّ عَليهِ.

وَقَدْ نَبَّهَ الأَئِمَّةُ عَلَى ذلِكَ كَمَا أَشَارَ إِليهِ الإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ عِنْدَ مَا ذَكَرَ أَنواعَ هذَا القِسْمِ فَقَالَ: «أَوْ: كَانَ مَجَازًا نَحْوُ: (مَشِيتُ وَالنِّيْلَ)»[1]. وَنَقَلَ منهُ الأَئِمَّةُ كَمَا قَالَ

---

(١) اِرْتِشَافُ الضَّرَبِ (٣/ ١٤٩٤).

السُّيُوطِيُّ: «سَارَ زَيْدٌ وَالنِّيلَ، إِذْ يَصِحُّ عَطْفُهُ عَلَى الْمَجَازِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَا يُفَارِقُ زَيْدًا فِي حَالِ سَيْرِهِ، كَمَا لَا يُفَارِقُهُ مَنْ سَائِرُهُ»[١]. وَذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ وَغيرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ[٢].

وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظُ العَلَائِيُّ فِي بَيَانِ أَنْوَاعِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ فِي القِسْمِ الثَّانِي النَّوْعَ الَّذِي تَكَلَّمَ عنهُ أوزونُ فَقَالَ: «لِمُصَاحَبَةِ مَعْمُولِ فِعْلٍ إِمَّا لَفْظًا، أَوْ: مَعْنًى لَازِمًا كَانَ، أَوْ: مُتَعَدِّيًا مِثْلَ: (جِئْتُ وَزَيْدًا)، وَ(اسْتَوَى الْمَاءَ وَالْخَشَبَةَ).

وَالْوَاوُ هُنَا جَامِعَةٌ غَيْرُ عَاطِفَةٍ، وَأَصْلُ مَا بَعْدَهَا أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا وَلكِنَّهُ عُدِلَ بِهِ إِلَى النَّصْبِ لِمَا لُحِظَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْمَفْعُولِ بِهِ، فَإِذَا قُلْتَ: (اسْتَوَى الْمَاءُ وَالْخَشَبَةَ) كَانَ مَعْنَاهُ: (سَاوَى الْمَاءُ الْخَشَبَةَ) وَكَذَلِكَ (جَاءَ الْبَرْدُ وَالطَّيَالِسَةَ)، مَعْنَاهُ: بِالطَّيَالِسَةِ.

ثُمَّ إِنَّ مَسَائِلَهُ تَتَنَوَّعُ إِلَى خَمْسَةِ أَنْوَاعٍ:

الْأَوَّلُ: مَا يَتَعَيَّنُ فِيهِ الْعَطْفُ وَلَا يَجُوزُ غَيْرُهُ، كَقَوْلِكَ: (كُلُّ رَجُلٍ وَضَيْعَتُهُ)، فَلَا يَجُوزُ هُنَا النَّصْبُ لِأَنَّهُ لَا نَاصِبَ لَهُ، وَلَا مَا يَطْلُبُ الْفِعْلَ، وَالْخَبَرُ هُنَا مُقَدَّرٌ مَعْنَاهُ: مُقْتَرِنَانِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَحُكِيَ عَنِ الصَّيْمَرِيِّ أَنَّهُ جَوَّزَ النَّصْبَ فِي مِثْلِ هَذَا وَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالغَلَطِ، وَقَدْ بَيَّنَ سِيبَوَيْهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ النَّصْبُ فِيهِ.

وَالثَّانِي: مَا يَتَعَيَّنُ فِيهِ النَّصْبُ، مِثْلُ: (مَشَيْتُ وَالسَّاحِلَ)، وَ(سَارَ زَيْدٌ وَالجَبَلَ)، فَلَا يَجُوزُ غَيْرُ النَّصْبِ؛ لِأَنَّ الْجَبَلَ وَالسَّاحِلَ لَا يُشَارِكَانِ فِي الْمَشْيِ وَالسَّيْرِ فَيَتَعَذَّرُ

---

(١) هَمْعُ الهَوامِع (٢/ ٢٣٨).
(٢) التَّذييلُ والتَّكمِيل (٨/ ١٠٩).

الْعَطْفُ لِفَسَادِ الْـمَعْنَى»[١].

وَنَقَلَ عَنِ الإِمَامِ ابنِ بَرِّي أَنَّهُ قَالَ: «الْوَاوُ الَّتِي مَعَ الْـمَفْعُولِ مَعَهُ لَهَا فَائِدَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّهَا لَا تَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الثَّانِي لِلْأَوَّلِ فِي الْفِعْلِ، مِثْل: (سَارَ زَيْدٌ وَالنِّيْلَ)، وَوَاوُ الْعَطْفِ تَقْتَضِي ذَلِكَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا تَجْمَعُ بَيْنَ الِاسْمَيْنِ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، وَلَا كَذَلِكَ وَاوُ الْعَطْفِ.»[٢].

ثُمَّ يُعلِّقُ عَلَى كَلَامِ ابْنِ بَرِّي حَتَّى يَقُولَ: «وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ جِنِّيْ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّ الْـمَفْعُولَ مَعَهُ إِنَّمَا يَجُوزُ حَيْثُ يَصْلُحُ الْعَطْفُ، فَكُلُّ مَوْضِعٍ لَا يَصْلُحُ فِيهِ الْعَطْفُ لَمْ يَجُزْ فِيهِ النَّصْبُ عَلَى الْـمَفْعُولِ مَعَهُ، فَلَا يَصِحُّ قَوْلُكَ: (انْتَظَرْتُكَ وَطُلُوْعَ الشَّمْسِ) أَيْ: مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ لِعَدَمِ صِحَّةِ الْعَطفِ فِيهِ.

وَهَذَا الْكَلَامُ كَأَنَّهُ فِي الْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُمْ: (سِرْتُ وَالجَبَلَ)، وَلَا يَصِحُّ الْعَطْفُ هُنَا، وَهُوَ مِمَّا يَجِبُ فِيهِ النَّصْبُ كَمَا تَقَدَّمَ. فَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ غَيْرُ مُطَّرِدَةٍ وَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهَا ابْنُ خَرُوْفٍ وَغَيرُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ»[٣].

---

(١) الفُصُولُ المفِيدَة فِي الوَاوِ المَزِيدَة للحَافظِ العَلَائِيِّ (ص١٨٨-١٩٠).

(٢) الفُصُولُ المفِيدَة فِي الوَاوِ المَزِيدَة للحَافظِ العَلَائِيِّ (ص١٩٢).

(٣) الفُصُولُ المفِيدَة فِي الوَاوِ المَزِيدَة للحَافظِ العَلَائِيِّ (ص١٩٨-١٩٩)، قَالَ ابنُ مَالِكٍ فِي (شَرْحِ التَّسْهِيل) (٢/ ٢٥٠): «وَذَكَرَ ابنُ خَرُوفٍ أَنَّ أَبَا الفَتْحِ بْنَ جِنِّي قَالَ: إِنَّ العَرَبَ لَمْ تَسْتَعْمِلِ الوَاوَ بِمَعْنَى مَعَ إِلَّا فِي مَوْضِعٍ يَصِحُّ أَنْ تَقعَ فِيهِ عَاطِفَةً وَأَنْكَرَ قَوْلَهُ ابْنُ خَرُوفٍ وَهُوَ بِالإِنْكَارِ حَقِيْقٌ، فَإِنَّ العَرَبَ اسْتَعْمَلَتِ الوَاوَ بِمَعْنَى (مَعَ) فِي مَوَاضِعَ لَا يَصْلُحُ فِيْهَا العَطْفُ، وَفِي مَوَاضِعَ يَصْلُحُ فِيْهَا». هذَا القَيْدُ نَقَلَهُ ابنُ جِنِّي عَنِ الأَخْفَشِ كَمَا هُوَ فِي: (الخَصَائِصِ) (١/ ٣١٤)، وَ(٢/ ٣٨٥) عِنْدَ الكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِمْ: (انتَظَرْتُكَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ).

وَقَالَ ابنُ يَعِيشَ: «فَإِنْ قِيلَ: نَحْنُ مَتَى عَطَفْنَا اسْمًا عَلَى اسْمٍ بِالوَاوِ، دَخَلَ الثَّانِي فِي حُكْمِ الأَوَّلِ، وَاشْتَرَكَا فِي الـمَعْنَى، فَكَانَتِ الوَاوُ بِمَعْنَى (مَعَ)، فَلِمَ اخْتَصَصْتُم هذَا البَابَ بِمَعْنَى (مَعَ)، قِيلَ: الفَرْقُ بَيْنَ العَطْفِ بِالوَاوِ وهذَا البَابِ أَنَّ الوَاوَ الَّتِي للعَطْفِ تُوْجِبُ الاِشْتِرَاكَ فِي الفِعْلِ، وَلَيْسَ كذلِكَ الوَاوُ الَّتِي بِمَعْنَى (مَعَ)؛ لِأَنَّها تُوْجِبُ الـمُصَاحَبَةَ. فَإِذَا عَطَفْتَ بِالوَاوِ شَيْئًا عَلَى شَيْءٍ، دَخَلَ فِي مَعْنَاهُ، وَلَا تُوْجِبُ بَيْنَ الـمَعْطُوفِ وَالـمَعْطُوفِ إِلَيْهِ مُلَابَسَةً وَمُقَارَنَةً، كَقَوْلِكَ: (قَامَ زَيْدٌ وَعَمْرٌو)، فَلَيْسَ أَحَدُهُمَا مُلَابِسًا للآخَرِ، وَلَا مُصَاحِبًا لَهُ. وَإِذَا قُلْتَ: (مَا صَنَعْتَ وَأَبَاكَ)، فَإِنَّما تُرِيْدُ: مَا صَنَعْتَ مَعَ أَبِيْكَ، وَأَيْنَ بَلَغْتَ فِيْمَا فَعَلْتَهُ، وَفَعَلَ بِكَ. وَإِذَا قُلْتَ: (اسْتَوَى الـمَاءُ وَالخَشَبَةَ)، وَ(مَا زِلْتُ أَسِيرُ وَالنِّيْلَ)، يُفْهَمُ مِنْهُ الـمُصَاحَبَةُ وَالـمُقَارَنَةُ»[(١)].

وَبِذلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ النُّحَاةَ لَم يَقْصِدُوا أَنَّ الجَبَلَ يَسِيرُ وَيَمْشِي كَالكَائِنِ الحَيِّ، وَلَمْ يَخْفَ عنهُم أَنَّهُ جَمَادٌ لَا يَتَحَرَّكُ، وَأَشَارُوا إِلَى كَوْنِ الـمَعْنَى عَلَى الـمَجَازِ وَلَيسَ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَلكنَّ أَوزونَ إِمَّا لَمْ يَقْرَأْ كَلَامَهُم وَاعتَرَضَ عَلَيهِمْ ظُلْمًا، وَإِمَّا قَرَأَ وَأَخفَى الحَقِيقَةَ، فَلْيَخْتَرْ أَهْوَنَ الأَمْرَيْنِ، وَأَحْلاهُمَا مُرٌّ يُزْرِي بِالحُرِّ!.

وَمَعَ هذَا فَإِنَّ ابنَ الحَاجِبِ قَدْ أَنْكَرَ هذَا النَّوْعَ وَخَالَفَ الجمهُورَ فَقَالَ: «وَقَدْ تَوَهَّمَ مَنْ لَا عِبْرَةَ بِهِ جَوَازَ: (سِرْتُ وَالجَبَلَ)، وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِـمَا ذَكَرْنَاهُ. إِذِ الجَبَلُ لَا يَسِيْرُ، بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ فِي صِحَّةِ نِسْبَةِ الفِعْلِ إِلَيْهِمَا عَلَى سَبِيْلِ الـمَعِيَّةِ. ثمَّ[(٢)] وَلَوْ سُلِّمَ

---

(١) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ (١/ ٤٤١).

(٢) جَاءَ فِي كِتَابِهِ هذِهِ العِبَارَةُ: (ثمَّ وَلَو) عِدَّةَ مَرَّاتٍ، يُمْكِنُ أَنَّهُ (ثَمَّ)، بِفَتْحِ (الثَّاءِ) للمَكَانِ، كَمَا يُمْكِنُ أَنَّهُ لَم يُرِدْ بالوَاوِ (العَطْفَ)، أَوْ: لَا بُدَّ مِنْ نُقْطَةِ النِّهَايَةِ هكَذَا: (ثُمَّ. وَلَوْ)، مِنْ بَابِ الطَّيِّ =

جَوازُهُ فَلَابُدَّ فِيْهِ مِنْ تَأْوِيلٍ، وَهُوَ أَنَّهُ يَجْعَلُ كَأَنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنَ الجَبَلِ سَائِرٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَارَ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ نَواحِي الجَبَلِ فَذَاكَ مُفَارِقٌ لَهُ، فَيُسَمَّى سَائِرًا»[١].

فَكَلَامُ ابْنِ الحَاجِبِ فِيْهِ شَيءٌ مِنَ التَّكَلُّفِ؛ لأَنَّ هذَا النَّوْعَ مِنَ الـمَفْعُولِ مَعَهُ عَلَى الـمَجَازِ لَا بأسَ بِهِ وَهُوَ كَبَاقِي مَجَازَاتِ الكَلامِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي العَرَبِيَّةِ، وَقَدْ أَشَارَ هُوَ بِنَفْسِهِ -عَلَى سَبِيلِ الِاحتِمَالِ- أَنَّ إِجَازَتَهُ تَكُونُ بِتَأْوِيل.

وَقَدْ أَشَارَ الرَّضِيُّ إِلَى هذَا الِاختِلافِ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ: «هَلْ يُشْتَرَطُ فِي نَصْبِ الِاسْمِ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ مَعَهُ جَوازُ عَطْفِهِ مِنْ حَيْثُ الـمَعْنَى عَلَى مُصَاحِبِهِ؟ قَالَ الأَخْفَشُ: نَعَمْ، فَلَا يَجُوزُ: (جَلَسَ زَيْدٌ وَالسَّارِيَةَ)، إِذْ لَا يُسْنَدُ الجُلُوسُ إِلَى السَّارِيَةِ، وَكَذَا لَا يَجُوزُ (ضَحِكَ زَيْدٌ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ)، وَإِنَّمَا ذلِكَ عِنْدَهُ مُرَاعَاةٌ لِأَصْلِ الوَاوِ فِي العَطْفِ، وَأَجَازَهُ غَيْرُهُ استِدْلَالًا بِقَوْلِهِمْ: (مَا زِلْتُ أَسِيرُ وَالنِّيْلَ)، وَلَا يُقَالُ: سَارَ الـمَاءُ، بَلْ: جَرَى.

وَلَهُ أَنْ يَقُولَ، إِنَّ ذلِكَ لِاسْتِعَارَةِ السَّيْرِ لِجَرْيِ النِّيْلِ، لَـمَّا اقْتَرَنَ بِمَا يَصِحُّ مِنْهُ السَّيْرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩].

وَقَرِيْبٌ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: [فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ]»[٢].

= وَالحَذْفِ، وَهُوَ أُسْلُوبٌ بَلِيْغٌ. وَإِلَّا فَلَا مُسَوِّغَ لِمَجِيءِ عَاطِفَيْنِ مَعًا. أَفَادَهُ شَيْخُنَا أَبُو الفَضْلِ عُمَرُ الحَدُّوشِيُّ.

(١) أَمَالِي ابنِ الحَاجِبِ (١/ ٣٣٣).

(٢) شَرْحُ الكَافِيَةِ (١/ ٥٢٠).

وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ لَا نَنْسَى أَنَّ هُنَاكَ خِلَافًا فِي مِثْلِ هذَا الكَلامِ، هَلْ يَجُوزُ القِيَاسُ عَلَيْهِ، أَمْ: يَجِبُ الِاقْتِصَارُ عَلَى مَا سُمِعَ، وَقَدْ بيَّنَهُ أَبُو حَيَّانَ فِي (ارتِشَافِهِ) يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ وَالِاستِفَادَةُ مِنهُ[١].

(١) ارتِشَافُ الضَّرَبِ (٣/ ١٤٩٤).

بَيَانُ جَوْرِ الـمُهَنْدِسِ وجَهْلِهِ، فِي حَقِّ الـمَفعُول لِأَجْلِه!

ثُمَّ يأتِي الـمُهندِسُ للإِجْرَام عَلَى مَبْحَثٍ جَدِيدٍ مِنْ مَبَاحِثِ النَّحوِ وَيقُولُ: «الـمفعُولُ لأجلِهِ: وهوَ اسمٌ مَنصُوبٌ يُذكرُ لبيانِ سببِ وقوعِ الفِعْلِ. وَمِثالُ ذلكَ قولُنَا: (وَقفَ الطُّلَّابُ احتِرَامًا للمعلِّمِ)، والإعرابُ هُوَ:

وَقَفَ: فعلٌ ماضٍ مبنِيٌّ على الفَتْح.

الطُّلَّابُ: فاعِلٌ مرفُوعٌ بالضَّمَّةِ الظَّاهِرَةِ فِي آخرِه.

احترَامًا: مفعُولٌ لأجلِهِ منصوبٌ بالفَتْحَةِ الظَّاهِرَةِ في آخرِه.

للمعلِّمِ: جارٌّ وَمجرُورٌ.

فَـ(احترامًا)-كمَا ترَى- مفعُولٌ لأجلِهِ، هنا نتساءَلُ: الهَاءُ فِي كلمَةِ (لأجْلِهِ) عَلَى مَنْ تَعُودُ؟ علَى الفِعْلِ (وَقفَ)؟ أمْ على الـمعلِّمِ؟ أَمْ علَى الطُّلَّابِ؟ وَالوَاضِحُ أنَّ الـمعلِّمَ هُوَ الـمَفْعُولُ لأجْلِهِ، فَمِنْ أجلِهِ تَمَّ الوقُوفُ مِنْ قِبَلِ الطُّلَّابِ، أمَّا (احترَامًا) فَهِيَ سَبَبُ وقُوفِ الطُّلَّابِ، وهكذا يتَّضِحُ لَنَا ثانيةً أنَّ تلكَ التَّسمياتِ بِحاجةٍ إِلَى إِعادَةِ نَظَرٍ». ص: (٧٧-٧٨).

أقُولُ: إِنَّ سُؤالَ الـمُهندِسِ عَنْ هاءِ (لأَجْلِهِ) تَعُودُ إِلَى مَنْ، أمرٌ مُضحِكٌ وَمُبْكٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ؛ لأنَّهُ لا يَخفَى عَلَى أَحدٍ أنَّ هذا الضَّمِيرَ يَرْجِعُ إِلَى مَنْ فُعِلَ لِأَجْلِهِ الفِعْلُ، وَهُوَ الـمُعَلِّمُ فِي هذِهِ الجُمْلَةِ؛ لأَنَّ فِعْلَ القِيَامِ فُعِلَ لأَجلِ احتِرَامِ الـمُعَلِّمِ، وهذَا يَعْرِفُهُ

كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّنْ دَرَسَ شَيئًا يَسِيرًا مِنَ العَرَبِيَّةِ، بَلْ: يَعلَمُهُ فِطْرَةً مَنْ لَمْ يدرُسْ شَيئًا مِنَ القَوَاعِدِ، ولكِنَّ الـمُهندِسَ يُرِيدُ أَنْ يُشَوِّهَ صُورَةَ النَّحْوِ وعُلَمَائِهِ، وَيُعْطِي فِي ذلِكَ كُلَّ شَيءٍ حَتَّى سُمْعَتَهُ العِلْمِيَّةَ!

أَمَّا قَولُهُ: (وَالوَاضِحُ أَنَّ الـمعلِّمَ هُوَ الـمَفْعُولُ لأجْلِهِ، فَمِنْ أجلِهِ تَمَّ الوقُوفُ مِنْ قِبَلِ الطُّلَّابِ)، فَهُوَ بِحَقٍّ جَهْلٌ مُطْبِقٌ وَجَوْرٌ مُغْدِقٌ، وَتَجَنٍّ مُغْرِقٌ؛ لأَنَّهُ لَم يَصدُرْ إِلَّا عَنْ عدَمِ فَهْمِ هذَا الـمفعُولِ رأسًا، إِذ هُوَ مَعلُومٌ أَنَّ (احتِرَامًا)، هُوَ الـمفعُولُ، فَهُوَ حَدَثَ لأجْلِ الـمُعلِّمِ وَكَانَ سَبَبًا وَتَعليلًا للفِعْلِ، فَيَكُونُ مَفْعُولًا لأَجْلِ الـمُعلِّمِ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ (الـمعلِّمُ) الـمَفْعُولَ لأَجْلِهِ، فَهذَا ضَرْبٌ مِنَ الجُنُونِ، لَا يَقُولُ بِهِ غَيرُ أوزون، وَالجُنُونُ فُنُونٌ!

وَالـمُشكِلَةُ مِنَ الـمُهندِسِ أَنَّهُ تَصوَّرَ الجُزْئَيْنِ (الـمَفْعُولَ)، وَ(لأَجْلِهِ)، جُزْءًا وَاحِدًا فَلِذلِكَ أَدَّى بِهِ إِلَى هذِهِ الـمُغالَطَةِ الصَّرِيحَةِ، فَلَوْ عَلِمَ، أَنَّ الـمَفعُولَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي فُعِلَ، وَيَكُونُ لأَجْلِ شَيءٍ مَا، لَمْ يَكُنْ يَعْتَرِضُ هذَا الِاعتِرَاضَ.

ثُمَّ يقولُ الكَاتِبُ: «فَإذا تغيَّرت حَرَكَةُ آخرِ الكَلِمَةِ تَغَيَّرَ الإِعرابُ وَبَدَأَتِ التَّخرِيجَاتُ كَمَا فِي قولِنَا: (تهيمُ الوحُوشُ في البَرَارِي للفِرَارِ مِنَ الأَسْرِ).

هُنا كَلِمةُ (للفِرَارِ) أصبحَتْ جَارًّا وَمَجرُورًا وَنَسِينا مَا سَمَّيْنَاهُ مَفعُولًا لأجلِهِ؛ لأنَّ الحَرَكَةَ هِيَ الَّتِي تَحكُمُ وَليسَ الـمَعْنَى، أَوْ: حَتَّى الـمُصطَلَحُ الَّذِي اختَارَهُ أهلُ اللُّغَةِ أَنْفُسُهُم

لكِنْ إذا قُلْنَا: (تهيمُ الوحُوشُ فِي البَرَارِي فِرَارًا مِنَ الأَسْرِ) هُنَا ظَهَرَتِ الفَتْحَةُ فِي كَلِمَةِ (فِرَارًا) فَهِيَ مَفْعُولٌ لأَجْلِهِ. وَالـمَجدُ وَالخُلُودُ لِحَرَكَةِ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ».

ص: (٧٨).

أقولُ: إنَّ حَالَ الـمُهندِسِ هُنَا ليسَ أَفْضَلَ مِنْ حَالِهِ فِي الكَلَامِ السَّابِقِ؛ لأَنَّهُ لو عَلِمَ أنَّ مَعْنَى الـمَفعُولِ لأَجْلِهِ يَدُورُ حولَ ذِكْرِ التَّعلِيلِ وَالسَّببِ لِفِعْلٍ مَا، وَكَذَا هذا الـمِثَالُ وَأَشْبَاهٌ لَهُ مِمَّا استُخدِمَ فِيهَا حَرْفُ الجَرِّ لَهَا الـمَعْنَى نَفسُهُ؛ لأَنَّ حَرْفَ الجَرِّ هُنَا للتَّعليلِ، فَالـمَعْنَى وَاحِدٌ فِي الأُسلُوبَيْنِ وَلكِنَّ حَرَكَةَ الإِعْرابِ مُختَلِفَةٌ.

أَليسَ أوزونُ يَدعُو إِلَى ضَرُورَةِ الالتِفَاتِ إِلَى الـمَعْنَى، فَها هُمْ أَشَارُوا إِلَى كُتُبِهِم أنَّ (مِنْ) تأتِي للسَّبَبِيَّةِ وَالتَّعليلِ، فَمَا مُشْكِلَتُهُ مَعَهُم؟

أمَّا قَوْلُهُ بأنَّ الحَرَكَةَ هِيَ الحَاكِمَةُ، فأقولُ: لَا بُدَّ أَنْ تَحكُمَ الحَرَكَةُ؛ لأنَّ الاختِلافَ فِي الجُمْلَةِ اختِلافُ اللَّفْظِ وَالحَرَكَةِ (مِنَ النَّصبِ فِي الجُملَةِ الأُوْلَى إِلَى الجَرِّ فِي الثَّانِيَةِ) فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ مِنْ حُكْمِ الحَرَكَةِ الإعرابِيَّةِ، وَهذَا لَا يُنْكِرُهُ واحِدٌ لأنَّ النُّطْقَ باللَّفظِ فِي الجُمْلَتينِ مُختَلِفٌ(١).

وَلَا أَدرِي بَعْدَ هذا كَيْفَ لَا يَخجَلُ مِنْ تَسْطِيرِ هذِهِ الأَقَاوِيلِ الضَّعِيفَةِ الضَّئِيلَةِ، وَنِسبَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ وَتَسوِيدِ الطُّرُوسِ وَالسُّطُورِ بِهَا، وَكَأَنَّهُ وَجَدَ الصَّدَفَ فِي قَعْرِ البِحَارِ؟ تُذكِّرُنِي حَالُهُ بِالأَبيَاتِ الشَّهِيرَةِ:

[مِنَ الكَامِلِ]

لَوْ قِيلَ: كَمْ خَمْسٌ وَخَمْسٌ؟ لَاغْتَدَى ... يَوْمًا وَلَيْلَتَهُ يَعُدُّ وَيَحْسُبُ
يَرْمِي بِمُقْلَتِهِ السَّمَاءَ مُفَكِّرًا ... وَيَظَلُّ يَرْسُمُ فِي التُّرَابِ وَيَكْتُبُ
وَيَقُولُ: مُعْضِلَةٌ عَظِيمٌ أَمْرُهَا ... وَلَئِنْ فَهِمْتُ فَإِنَّ فَهْمِيَ أَعْجَبُ

---

(١) اشْتَرَطَ بعضُهُم خَمْسَةَ شُرُوطٍ للمَفعُولِ لأجْلِهِ، فَإِذَا لَمْ تَتوَفَّرْ فِيهِ، أَوْجَبُوا إِتْيَانَ حَرْفِ الجَرِّ الَّذِي فِيْهِ مَعْنَى التَّعلِيلِ، يُنْظَرُ: أوضَحُ الـمَسَالِكِ (٢/ ١٩٨).

حَتَّـــى إِذَا خَـــدِرَتْ أَنَامِـــلُ كَفِّـــهِ　　عَـــدًّا وَكَـــادَتْ عَيْنُـــهُ تَتَصَـــوَّبُ
أَوْفَى عَلَى جَبَلٍ وَقَالَ: أَلَا اسْمَعُوا　　قَدْ كِدْتُ مِنْ طَرَبٍ أُجَنُّ وَأُسْلَبُ
خَمْـسٌ وَخَمْـسٌ: سِــتَّةٌ أَوْ سَــبْعَةٌ　　قَـوْلَانِ قَالَهُمَـا الخَلِيـلُ وَثَعْلَـبُ
فِيْــهِ خِــلَافٌ ظَــاهِرٌ وَمَــذَاهِبٌ　　لكِـــنَّ مَـــذْهَبَنَا أَصَـــحُّ وَأَصْـــوَبُ

بِئْسَ الـمَقَال، فِي الاعتِرَاضِ عَلَى (الحَال)!

ثُمَّ يَتَسَلَّقُ الـمُهندِسُ بِسُلَّمِ الإِجْحَافِ وَعَدَمِ الإِنْصَافِ، حَتَى يَصِلَ إِلَى صَفْحَةٍ أُخرَى مِنْ صَفَحَاتِ الجُرْمِ وَالإِجْرَامِ فِي حَقِّ هذِهِ اللُّغَةِ العَبْقَرِيَّةِ، وَيقُولُ: «الحَالُ: وهوَ اسمٌ منصوبٌ يُذكَرُ لِبيَانِ هَيئَةِ الفَاعِلِ، أوِ: الـمَفعُولِ بِهِ حِينَ وقُوعِ الفِعْلِ، وَكَمَا نَرَى فإِنَّ الحَالَ يَحتَاجُ إِلَى فعلٍ مَعَ فَاعِلٍ، أو: مَفعُولٍ بِهِ.

فإذا قلْتَ: (هذَا البَطَلُ خاسِرٌ) فإنَّ كلِمَةَ (خاسِرٌ) لَيسَتْ حَالَ البَطَلِ أبَدًا، بَلْ: هِيَ خَبَرٌ لأَنَّهَا مَرفُوعَةٌ مِنْ جِهَةٍ وَلأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِعلٌ مِنْ جِهَةٍ أُخرَى.

كذلِكَ إذا قُلْتَ: (سأزُورُكَ مَا دَامَ أبُوكَ مَرِيضًا)، فإنَّ (مريضًا) هُنَا لَيسَتْ حَالَ (الأَبِ) بَلْ: هِيَ خَبَرُ الفِعْلِ النَّاقِصِ (مَا دَامَ).

أمَّا إِذَا قُلْتَ: (جَاءَ طِفلٌ رَاكِضًا) سَارَعَ النُّحاةُ وَقالُوا: مَا هذا الخَلْطُ وَالخَبصُ، عليكَ أنْ تَقُولَ: (جَاءَ طِفْلٌ رَاكِضٌ)، فَـ(راكِضٌ) هُنا هِيَ صِفَةٌ للطِّفْلِ النَّكِرَةِ (مَرفُوعٌ مِثْلهُ بالضَّمَّةِ).

أخِيرًا إِذا قُلْتَ: (جَاءَ الطِّفْلُ رَاكِضًا) فَقَدْ أَصَبْتَ وَأَصْبَحَتْ (رَاكِضًا) حَالًا للطِّفْلِ الـمَعْرِفَةِ (منصُوبٌ بالفَتحَةِ)». ص: (٧٨-٧٩).

أقُولُ: إنَّ الـمهندِسَ أعماهُ تَعَصُّبُهُ الشَّدِيدُ عَلَى العَرَبِيَّةِ حَتَّى طَفِقَ يَتَخَبطُ تَخَبُّطَ السِّكِّيرِ، وَيَرْتَعِدُ ارتِعَادَ الـمَسحُورِ، وَإِلَّا كَيفَ يُنْكِرُ أَنَّ دَلَالَةَ هذِهِ الجُمْلَةِ: (هذَا البَطَلُ

خاسِرٌ) دَلَالَةٌ خَبرِيَّةٌ؟ وَأنَا أقُولُ للقَارِئِ الكَرِيم: هَبْ أَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ أبَدًا بمُصْطَلَحِ (الخَبَرِ)، ولَا (الحَالِ)، وَالآنَ جِئتَ إِلَى هذِهِ الجُمْلَةِ وَتَقْرَأُهَا مِنْ غَيرِ اعتِبَارٍ بِقَواعِدِ النُّحَاةِ، وَلَا زَعْزَعَةِ الـمُهَندِسِ، أَلَسْتَ تَسْتَفِيدُ مِنَ الجُمْلَةِ خَبرًا عَنِ البَطَلِ بأَنَّهُ خَاسِرٌ؟

هذَا مِنْ جَانِبٍ وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ أَنَّ (الحَالَ) أيضًا ضَرْبٌ مِنَ الخَبَرِ؛ لأَنَّهَا تَكُونُ لِـمَا استَبْهَمَ مِنَ الهَيْئَةِ وَتَصِفُهَا؛ وَهذَا دَاخِلٌ فِي الـمَعْنَى العَامِّ للخَبَرِ، وَلكِنَّ بينَهُما تَغَايُرًا فِي بَعْضِ الجَوَانِبِ، فَلِذلِكَ ضَبطَ النُّحَاةُ كِلَيْهِمَا بِضَوَابِطَ حَتَّى يُفَرِّقَ الطَّالِبُ بينَهُما فِي تِلْكَ الصُّوَرِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُخَلِّطَ بينَهُما، وَلكِنَّ أوزونَ جَاءَ وَظَلَمَ وَلَم يُنْصِفْ[1].

أَمَّا مُحَاوَلَةُ تَخلِيطِ الصِّفَةِ بالحَالِ، فَهِيَ ضَئِيلَةٌ بَئِيلَةٌ، نَحِيفَةٌ ضَعِيفَةٌ؛ لأَنَّ هُنَاكَ فُرُوقًا بَيْنَهُما مِنْ حَيثُ الـمَعْنَى، فَإِلَيْكَ بعضَ صُوَرِ الفُرُوقِ:

أَنَّ الصِّفَةَ تَصِفُ الـمَوصُوفَ، أَمَّا الحَالُ فَإِنَّهَا تُبَيِّنُ هَيْئَةَ صَاحِبِ الحَالِ.

أَنَّ الصِّفَةَ تَكُونُ للنَّكِرَاتِ وَالـمَعَارِفِ، فَتُخَصِّصُ الأَوَّلَ وَتُوَضِّحُ الثَّانِي، أَمَّا الحَالُ فَإِنَّهَا مُختَصَّةٌ بالـمَعَارِفِ[2]، وَفَائِدَتُهَا بيَانُ هَيْئَةِ الفَاعِلِ، أَوِ: الـمَفْعُولِ، أَوْ: بَيَانُهُما مَعًا.

أَنَّ الصِّفَةَ تَلْزَمُ الـمَوصُوفَ بحيثُ لَا تُفَارِقُهُ -غَالِبًا- بِخِلَافِ الحَالِ فإِنَّهَا لِوَقْتٍ مُحَدَّدٍ، وَلَا تَلْزَمُ صَاحِبَ الحَالِ عَلَى الدَّوَامِ، إِلَّا مَا كَانَ لِتَوْكِيدِ الخَبَرِ أَوْ إِيْضَاحِهِ.

---

(١) وكَذَا الـمِثَالُ الآخَرُ الَّذِي ضَرَبَهُ دَاخِلٌ فِي هذَا الـمَعْنَى: (سأَزُورُكَ مَا دَامَ أَبُوكَ مَرِيضًا).

(٢) وَقَدْ يَكُونُ صَاحِبُ الحَالِ نَكِرَةً لِمُسَوِّغَاتٍ.

أنَّ الحَالَ تَصْلُحُ فِي جَوَابِ (كَيفَ)[١] دائِمًا بِخِلافِ الصِّفَةِ، فَلَوْ قُلْتَ: (كَيفَ جاءَ الرَّجُلُ؟) يَكُونُ جَوابُهُ: (جَاءَ رَاكِضًا)، أَمَّا فِي الصِّفَةِ فَلَا يَصِحُّ ذلِكَ؛ لأنَّ مِثالَ الصِّفَةِ يَكُونُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَقُولَ: (جَاءَ رَجُلٌ رَاكِضٌ)، وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ: (جَاءَ الرَّجُلُ الرَّاكِضُ)! فَكِلَاهُمَا لَا يَصْلُحَانِ فِي جَوَابِ (كَيْفَ)، وَهذَا يَعْرِفُهُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عِلْمٍ بالمَعقُولَاتِ، وَلَا سِيَّمَا صِفَةُ المعرِفَةِ فَإِنَّهَا لَا تصلُحُ لِتكُونَ حَالًا؛ لأنَّ (كَيْفَ) تُسْأَلُ بِهَا عَنِ النَّكِرَاتِ، فَنَاسَبَتْ أَنْ تَكُونَ الحَالُ نَكِرَةً[٢].

أنَّ دَلَالَةَ الصِّفَةِ دَلَالَةٌ مُطْلَقَةٌ، غَيرُ مُقَيَّدَةٍ بِخُصُوصِيَّةِ مَادَّةٍ مِنَ المَوَادِّ كَمَا قَالَهُ الجَامِيُّ، بِخِلافِ الحَالِ فَإِنَّ دَلالتَهَا مُقَيِّدَةٌ -بِكَسْرِ اليَاءِ- بِمَعْنًى مِنَ المَعَانِي[٣].

أنَّ الصِّفَةَ تَكُونُ للتَّفرِيقِ بَيْنَ اسْمَيْنِ مُشْتَرِكَيْنِ، وَلكِنَّ الحَالَ لِزِيَادَةِ فَائِدَةٍ فِي الخَبَرِ، وَهذَا بيَّنَهُ الإِمَامُ الزَّجَّاجِيُّ فَقَالَ: «وَالفَرْقُ بينَ الحَالِ وَبينَ الصِّفَةِ، تُفَرِّقُ[٤] بينَ اسْمَيْنِ مُشْتَرِكَيْنِ فِي اللَّفْظِ. والحَالُ: زِيَادَةٌ فِي الفَائِدَةِ وَالخَبَرِ، وَإِنْ لَم يَكُنْ لِلاسْمِ مُشَارِكٌ فِي لَفْظِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ القَائِمِ) فَأَنْتَ لَا تَقُولُ ذلِكَ إِلَّا وَفِي النَّاسِ رَجُلٌ آخرُ اسْمُهُ (زَيدٌ) وَهُوَ غيرُ قَائِمٍ، فَفَصَلْتَ بِـ (القَائِمِ) بَيْنَهُ وبينَ مَنْ لَهُ هذَا الِاسْمُ وَلَيْسَ بِقَائِمٍ. وَتَقُولُ: (مَرَرْتُ بِالفَرَزْدَقِ قَائمًا) وَإِنْ لَمْ يَكُنْ

---

(١) فِي الأَفْعَالِ، لَا الأَسْمَاءِ، فَفِي الأَسْمَاءِ تَكُونُ (كَيْفَ) لِبَيَانِ النَّوْعِ أيضًا.

(٢) هذا مَا أَشَارَ إِلَيهِ أَبُو البَقَاءِ فِي: (اللُّبَابِ) (١/ ٢٨٦).

(٣) وَقَدْ أَشَارَ ابنُ الحَاجِبِ إِلَى هذَا المَعْنَى فِي أَمَالِيهِ، وَأَورَدَ إِشْكَالًا وَرَدَّ عليهِ، يُنْظَرُ: الأَمَالِي (٢/ ٥٤٦).

(٤) يَعنِي: الصِّفَةَ. يُمْكِنُ أَنَّهُ ذَكَرَهَا وَسَقَطَتْ عندَ نَاسِخٍ، كَمَا يُمْكِنُ لَم يَذْكُرْهَا لِعَدَمِ الفَاصِلِ فِي الكَلَامِ.

أَحدٌ اسْمُهُ (الفَرَزْدَقُ) غَيْرَه، فَقَوْلُكَ: (قَائِمًا) إِنَّما ضَمَمْتَ بِهِ إِلَى الأَخْبَارِ بِالمرُورِ خَبَرًا آخَرَ مُتَّصِلًا بِهِ مُفِيدًا.

فهذَا فَرْقُ مَا بَيْنَ الصِّفَةِ وَالحَالِ، وَهُوَ أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِاسْمٍ مُشْتَرَكٍ فِيْهِ لِمَعْنَيَيْنِ، أَوْ: لِمَعَانٍ، وَالحَالُ قَدْ تَكُونُ لِلاسْمِ المُشْتَرَكِ وَالِاسْمِ المُفْرَدِ»[١].

وَسَبَقَهُ بالإِشَارَةِ إِلَى ذلِكَ المُبَرِّدُ حيثُ قَالَ فِي المُقْتَضَبِ: «اعْلَم أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (جَاءَنِي عَبْدُ اللهِ) وَ(قَصَدَ إِلَيَّ زَيْدٌ)، فَخِفْتَ أَنْ يَعْرِفَ السَّامِعُ اثْنَيْنِ، أَو: جَمَاعَةً، اسْمُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ (عَبدُ اللهِ) أَوْ: (زَيدٌ)، قُلْتَ: (الطَّوِيلُ)، أَوِ: (الْعَاقِلُ)، أَوِ: (الرَّاكِبُ) أَوْ: مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ؛ لِتَفْصِلَ بَيْنَ مَنْ تَعْنِي وَبَينَ مَنْ خِفْتَ أَنْ يَلْتَبِسَ بِهِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: (جَاءَنِي زَيْدٌ الْمَعْرُوفُ بِالرُّكُوبِ أَوِ: الْمَعْرُوفُ بِالطُّوْلِ)، وَكَذَلِكَ (جَاءَنِي زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو)، وَ(زَيْدٌ النَّازِلُ مَوضِعَ كَذَا).

فَإِنْ لَمْ تُرِدْ هَذَا وَأَرَدْتَ الْإِخْبَارَ عَنِ الْحَالِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا مَجِيئُهُ، قُلْتَ: (جَاءَنِي زَيْدٌ رَاكِبًا)، أَوْ: (مَاشِيًا)، فَجِئْتَ بَعْدَهُ بِنَكِرَةٍ لَا تَكُونُ نَعْتًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ وَذَلِكَ أَنَّكَ لَمْ تُرِدْ (جَاءَنِي زَيْدٌ الْمَعْرُوفُ بِالرُّكُوبِ وَالْمَشْيِ) فَيَكُونُ تَحْلِيَةً بِمَا قَدْ عُرِفَ، وَإِنَّمَا أَرَدْتَ مَجِيئَهُ وَقَعَ فِي هَذِهِ الْحَالِ.

وَكَذَلِكَ (رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ جَالِسًا) وَ(مَرَرْتُ بِعَبْدِ اللهِ ضَاحِكًا) خَبَّرتَ أَنَّ رُؤْيَتَكَ إِيَّاهُ وَمُرُوْرَكَ بِهِ وَقَعَا فِي هَذِه الْحَالِ مِنْهُ»[٢].

---

(١) الأُصُولُ فِي النَّحْوِ لِابنِ السَّرَّاجِ (١/ ٢١٤).

(٢) المُقْتَضَبُ (٤/ ١٦٦). وَنَقَلَهُ عنهُ أَبُو هِلالٍ فِي فُرُوقِهِ (ص:٣١).

وَقَدْ أَبْدَعَ الإِمَامُ ابنُ يَعِيشَ كَمَا تَعَوَّدْنَا مِنْهُ فَقَالَ: «الحَالُ عَلَى ضَرْبَيْنِ:

فَالضَّرْبُ الأَوَّلُ: مَا كَانَ مُنْتَقِلًا، كَقَوْلِكَ: (جَاءَ زَيدٌ رَاكِبًا)، فـ(رَاكِبًا) حَالٌ، وَلَيْسَ (الرُّكُوبُ) بِصِفَةٍ لَازِمَةٍ ثَابِتَةٍ، إنَّمَا هِيَ صِفَةٌ لَهُ فِي حَالِ مَجِيْئِهِ. وَقَدْ يَنْتَقِل عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَلَيْسَ فِي ذِكْرِهَا تَأْكِيدٌ لِـمَا أُخْبِرَ بِهِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ زِيَادَةً فِي الفَائِدَةِ وَفَضْلَةً، أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ: (جَاءَ زَيْدٌ رَاكِبًا) فِيْهِ إِخْبَارٌ بِالمجِيْءِ وَالرُّكُوبِ، إِلَّا أَنَّ الرُّكُوبَ وَقَعَ عَلَى سَبِيْلِ الفَضْلَةِ، وَأَنَّ الِاسْمَ قَبْلَهُ قَدِ اسْتَوْفَى مَا يَقْتَضِيْهِ مِنَ الخَبَرِ بِالفِعْلِ.

وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي: فَهُوَ مَا كَانَ ثَابِتًا غَيْرَ مُنْتَقِلٍ، يُذْكَرُ تَوكِيدًا لِـمَعْنَى الخَبَرِ، وَتَوْضِيحًا لَهُ، وذلِكَ قَوْلُكَ: (زَيدٌ أَبُوكَ عَطُوفًا) وَ(هُوَ الحَقُّ بَيِّنًا)، وَ(أَنَا زَيْدٌ مَعْرُوفًا). فَقولُكَ: (عَطُوفًا) حَالٌ، وَهِيَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلأُبُوَّةِ، فَلِذَلِكَ أَكَّدْتَ بِهَا مَعْنَى (الأُبُوَّةِ)، وَكذلِكَ قَوْلُهُ: (وَهُوَ الحَقُّ بَيِّنًا) أَكَّدَ بِهِ (الحَقَّ)؛ لأَنَّ ذلِكَ مِمَّا يُؤَكَّدُ بِهِ (الحَقُّ)، إِذِ الحَقُّ لَا يَزَالُ وَاضِحًا بَيِّنًا»[(١)].

فَلِذلِكَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ لَا يُخَلَّطَ بَيْنَهُمَا، وَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّفرِيقِ إِلَّا بِمُرَاعَاةِ القَوَاعِدِ الَّتِي وَضَعهَا النُّحَاةُ لِكِلَيْهِمَا، وَلكِنَّ الـمهندِسَ كَعَادَتِهِ عَادَ وَعَنِ الحَقِّ حَادَ!

ثُمَّ يَقُولُ أوزون: «بَعْدَ تِلْكَ الأَمثِلَةِ الـمُبَسَّطَةِ سأَقُومُ بمزِيدٍ مِنَ الشَّرحِ مِنْ خلالِ مَا يَلِي: سأفترِضُ أَنَّنِي فِي ملعَبِ دِمَشْقَ الدَّوْلِيِّ لِكُرَةِ القَدَمِ، وَقدْ جلسَ إِلَى جَانِبِي صَدِيقِي مَروَانُ الَّذِي يَهْوَى مُبَارَيَاتِ كُرَةِ القَدَمِ السُّورِيَّةِ وَألعَابَ الدَّورِي فِيهَا، وعليهِ فَهُوَ يعرِفُ مُعْظَمَ أَسمَاءِ اللَّاعِبِينَ السُّورِيينَ فِي حِينِ أَنِّي أَجْهَلُ أسمَاءَ مُعْظَمِهِم،

---

(١) شَرحُ الـمُفَصَّلِ (٢/ ٢٢).

وَتَراهُ يَقُولُ: (خَرَجَ طلالٌ رَاكِضًا مِنَ الـملعَبِ)؛ لأنَهُ يعرِفُ اسمَ اللَّاعبِ (طَلال) وعَليهِ فإِنَّ(راكِضًا) هُنَا هِيَ حَالٌ مَنصُوبَةٌ لِطَلالٍ(المعرفَة).

وتَرَانِي أَقُولُ لِوَلَدِي الَّذِي يُرافِقُنَا فِي المَلعَبِ وَهُوَ بِجَانِبِي: (خَرَجَ لَاعِبٌ رَاكِضٌ فِي الـمَلْعَبِ) لأنِّي لا أعرِفُ اسمَ اللَّاعبِ، وعليهِ فإنَّ الكَلِمَةَ (رَاكِض) هُنَا هِيَ صِفَةٌ لِـ(لاعِب مَرفُوعَة). نفسُ اللَّاعبِ وَنَفْسُ المكَانِ وَنفسُ الملاحَظَةِ منْ كِلَيْنَا (أنَا وَصَدِيقي مَروانُ)، ولكِنَّ اللَّاعبَ حَازَ علَى وَضْعَيْنِ: أوَّلِهِمَا (حَالٌ)، ثَانِيهِمَا (صِفَةٌ، فَمَا فَرْقُ الحَالِ عَنِ الصِّفَةِ؟ لِمَاذَا تَكُونُ عِبارَتِي (صِفَة) وَعِبارَةُ صَدِيقِي مَروَانَ (حَال) وَاللَّاعِبُ نَفسُهُ؟ علمًا أنَّ صَدِيقِي مَروانَ لَا يَعْرِفُ عَنِ اللَّاعِبِ إلَّا اسمَهُ الأَوَّلَ فَقَطْ.

وإِنِّي أَرَى أَنَّ فِي كلتَا الحَالَتَيْنِ (راكِضًا) هِيَ حَالُ اللَّاعِبِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لأَنَّهُ لَا أَحَدَ يُوصَفُ بأَنَّهُ رَاكِضٌ، فَالصِّفَةُ إِنْ صَحَّتْ تَسمِيَتُهَا تَكُونُ للخَلْقِ وَالخُلُقِ وَلَا تَكُونُ للأُمُورِ الآنِيَةِ وَالمؤقَّتَةِ». (٧٩-٨٠).

أقُولُ: لَيْسَ بِغَرِيبٍ أَنْ يُعبَّرَ عَنْ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ بأنواعٍ مِنَ الكَلَامِ وَهذَا عَادٍ فَمَثَلًا يُمكِنُكَ أَنْ تُعبِّرَ عَنْ حَالَةٍ بِجُمْلَةٍ اسمِيَّةٍ مِنَ الـمُبتدَإِ وَالخَبَرِ، كَمَا يُمكِنُكَ أَنْ تُعبِّرَ بالجُملَةِ الفِعْلِيَّةِ مِنَ الفِعْلِ وَالفَاعِلِ.

وَكذَا فِي حَالَةِ الصِّفَةِ الَّتِي تَكُونُ للوَصْفِ الـمؤَقَّتِ، يُمْكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهَا بالحَالِ كَمَا يُمْكِنُ التَّعبيرُ عَنْهَا بالصِّفَةِ، فَالـمَعْنَى فِيهِمَا مُشتركٌ إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ منهُمَا يَدُلُّ عَلَى بَيَانِ حَالَةٍ عَلَى وَجْهٍ مُؤقَّتٍ، فَمَثَلًا، لَوْ قُلْتَ: (رأيتُ رَجُلًا رَاكِبًا) عَلَى الصِّفَةِ، فإنَّكَ تَدُلُّ بِكَلامِكَ عَلَى رُؤيَةِ رَجُلٍ رَاكِبٍ فِي زَمَنٍ مُحدَّدٍ، وَكَذَا لَوْ قُلْتَ: (رَأيتُ الرَّجُلَ

رَاكِبًا)، فَإِنَّكَ تدُلُّ عَلَى رؤيَةِ رَجُلٍ وَتُبيِّنُ هَيْئَتَهُ حيثُ كَانَ رَاكِبًا، فَالـمَعْنَى فِيهِمَا مُتَّحِدٌ هُنَا، فَلَا بأسَ بالتَّنَوُّعِ في التَّعبيرِ.

وَلِهذَا قَالَ العُلَمَاءُ بأنَّ الحَالَ هِيَ هَيْئَةُ الفَاعِلِ وَصِفتُهُ، كَمَا ذَكَرَ ذلِكَ ابنُ السَّرَّاجِ، وَبيَّنَ أنَّ الحَالَ تَكُونُ لِزَمَنٍ مُحدَّدٍ فَقَالَ: «وَالحَالُ إِنَّمَا هِيَ هَيْئَةُ الفَاعِلِ، أَوِ: الـمَفعُولِ، أَوْ: صِفَتُهُ فِي وَقْتِ ذلِكَ الفِعْلِ الـمُخْبَرِ بِهِ عَنْهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَّا صِفةً مُتَّصِفَةً غَيْرُ مُلازِمَةٍ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خِلْقَةً، لَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: (جَاءَنِي زَيْدٌ أَحْمَرَ) وَلَا (أَخُوكَ)[1]، وَلَا (جَاءَنِي عَمْرٌو طَوِيلًا)، فَإِنْ قُلْتَ: (مُتطَاوِلًا)، أَوْ: (مُتَحَاوِلًا) جازَ، لأَنَّ ذلِكَ شَيْءٌ يَفْعَلُهُ وَلَيْسَ بِخِلْقَةٍ»[2].

وَقَدْ أَشَارَ أَبُو البَقَاءِ العُكْبَرِيُّ صَرِيحًا إِلَى: أَنَّ الحالَ صِفَةٌ فِي الأَصْلِ[3]. يَعْنِي فِي مَعْنَاهُ العَامِّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الوَصْفِ.

وَلكِنْ كَمَا قُلْنَا سَابِقًا: يَجِبُ التَّنَبُّهُ إِلَى جِهَاتِ التَّفريقِ بينَ الحَالِ وَالصِّفَةِ؛ لأَنَّهمَا يَخْتَلِفَانِ فِي صُوَرٍ كَثِيرَةٍ، وَمَا دَامَ كَذلِكَ فَإِنَّهُ يَتَوَجَّبُ علينا أَنْ نُميِّزَ بينَهُمَا، فَأرجُو أَنْ تَكونَ صُورَةُ القَضِيَّةِ قَدِ اتَّضَحَتْ، وَاستَطَعْنَا أَنْ نُزِيلَ غُبَارَ الظُّلْمَةِ وَغَيْمَ الظَّلامِ عَلَيْهَا.

أَمَّا قولُهُ: (وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لأَنَّهُ لَا أَحَدَ يُوصَفُ بأَنَّهُ رَاكِضٌ، فَالصِّفَةُ إِنْ صَحَّتْ تَسمِيَتُهَا تَكُونُ للخَلْقِ وَالخُلُقِ وَلَا تَكُونُ للأُمُورِ الآنِيَةِ وَالمؤقَّتَةِ)، فَهُو كَلَامٌ

---

(١) يَعْنِي: جاءَنِي أَخُوكَ أَحْمَرَ.

(٢) الأُصُولُ فِي النَّحْوِ لِابنِ السَّرَّاجِ (١/ ٢١٣-٢١٤).

(٣) التَّبيينُ عَنْ مَذَاهِبِ النَّحوِيِّينَ البَصرِيِّينَ وَالكُوفِيِّينَ، لأبي البَقَاءِ (ص٢٩٦).

فَارِغٌ؛ لأنَّ الصِّفَةَ نَوْعَانِ، صِفَةٌ تَلزَمُ الـمَوصُوفَ وَلَا تَنْفَكُّ عَنهُ كـ(أعوَرَ، وَأبيضَ)، مَثَلًا، وَصِفَةٌ لَيْسَتْ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاستِمْرَارِ كَـ: (الجَائِعِ، وَالظَّمآنِ) وَفِي بَعْضِ الصِّفَةِ الـمُشَبَّهَةِ أيضًا، كَـ: (كَرِيم، وَبَخِيل)[1]، مَثَلًا.

فلِذلِكَ لَا بأسَ بأنْ يُوصَفَ شَخصٌ بِصِفَةِ (رَاكِض) مُؤقَّتًا، وَلهذَا الغَرَضِ ذكَرْنَا سَابقًا أنَّ الصِّفَةَ تَلْزَمُ الـمَوصُوفَ غَالِبًا، فِي النِّقَاطِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي التَّفرِيقِ بينَ الصِّفَةِ وَالحَالِ.

وَالعَجِيبُ لَوْ أنَّكَ ذَهَبْتَ إِلَى اللُّغَةِ الإِنجلِيزِيَّةِ (اللُّغَةِ العَبقَرِيَّةِ الفَذَّةِ عِندَ أوزونَ)، لَرَأيتَهَا تَستَخدِمُ التَّعبِيرَيْنِ بِالحَالِ وَبالصِّفَةِ، فَيُعَبِّرُونَ عَنْ (خَرَجَ لَاعِبٌ رَاكِضٌ مِنَ الـمَلْعَبِ)، بِقَولِهِم: (A player ran out of the Pitch).

وَيُعَبِّرُونَ عَنْ (خَرَجَ لَاعِبٌ رَاكِضًا مِنَ الـمَلْعَبِ)، بِقَوْلِهِم: (A player came out of the Pitch)

وَكَمَا رَأيتَ فَإِنَّ (رَاكِضٌ) فِي الإِنجلِيزِيَّةِ أيضًا تَكُونُ صِفَةً، وَلَا أَدرِي لِمَاذَا لَا يَرَى ذلِكَ فِي الإِنجلِيزِيَّةِ بأسًا وَيعتَرِضُ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَيَرَى الأُولَى عَبقَرِيَّةً فَذَّةً، وَالثَّانِيَةَ بَعِيدَةً عَنِ العَقْلِ جَامِدَةً، أَلَيْسَ هَذَا جَمْعًا لِحَشَفٍ وَسُوءِ كِيْلَةٍ مِنهُ تُجَاهَ العَرَبِيَّةِ؟!

الكَلَامُ عَنْ (جَمِيعًا)، وَ(مَعًا)، وَ(فُرَادَى)، وَغَيرِهَا:

ثُمَّ جَاءَ الـمُهَنْدِسُ وَقَالَ: «وهكذَا نَرَى أنَّ حركَةَ آخرِ الكَلِمَةِ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْ (رَاكِضًا) حَالَ اللَّاعِبِ، وَمِنْ (رَاكِضٌ) صِفَةً لَهُ وَلَيسَ إِعمَالُ العَقْلِ وَالمحَاكَمَةُ

---

(١) وَقَدْ يُمكِنُ أنْ تَدُلَّ الصِّفَةُ الـمُشَبَّهَةُ بِجَمِيعِ أنوَاعِهَا دَلَالَةً عَقْلِيَّةً -لَا وَضعِيَّةً- عَلَى الدَّوَامِ، إِلَّا إِذَا دَلَّتْ قَرِينَةٌ عَلَى غَيرِ الدَّوَامِ، كَقَوْلِهِم: (حَسُنَ زَيدٌ فَقَبُحَ).

السَّليمَةُ، كَمَا أنَّ بعضَ الكَلِمَاتِ مِثْل: (جَميعًا)، (مَعًا)، (فُرَادَى)، وَغيرِهَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أحوالًا للأَشْخَاصِ، أَوْ: غَيرِهِم حَيثُمَا وَرَدَتْ لأنَّهَا لا تُبيِّنُ هيئَةَ الأَشْخَاصِ، بَلْ: تُبيِّنُ كَيفِيَةَ مَجيئِهِم، فَعِنْدَ مَا نَقُولُ: (جاءَ القَوْمُ مَعًا) أَوْ: فُرَادَى، نَجِدُ أنَّ كَلِمَةَ (مَعًا) تُبيِّنُ أنَّهُم لَمْ يأتُوا بِشَكْلٍ مُتَفَرِّقٍ، وَلَا عَلَاقَةَ لَهَا بِحَالِ القَوْمِ بأيَّةِ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ». ص: (٨٠).

أقُولُ: عَجِيبٌ أَمرُ الـمُهَنْدِسِ يَجْهَلُ هذِهِ التَّأصِيلاتِ العِلمِيَّةَ الرَّائِعَةَ الَّتِي نَقَلْنَاهَا مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ، فَكُلُّ مَا قَالُوهُ كَانَ رَاجِعًا إِلَى الـمَعْنَى، وَكَانَ كَلامُهُم مَنْطِقِيًّا للغَايَةِ وَلكِنَّ الغَفْلَةَ مِنَ الـمُهَنْدِسِ بآثَارِهِم أَسْدَلَتْ سِرْبَالَ الغَيِّ عَنْ إِدْرَاكِهَا، أَوْ: أَدْرَكَهَا وَلكِنَّ التَّدلِيسَ وَالتَّحرِيفَ بَسَطَا جَنَاحَهُمَا لِيَسِيرَ فِي مَسِيرَتِهِ، وَإِلَّا لَم يَتَفَوَّهْ بِمثلِ تِلْكَ الكَلِمَاتِ الـمُسْتَهْجَنَةِ الـمُسْتَبْشَعَةِ.

أمَّا الكَلامُ عَنْ هذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا وَأَنْكَرَ أَنْ تَكُونَ أَحوالًا، فَأَقُولُ: إِنَّ الـمُشكِلَةَ لَدَى الـمُهندِسِ فِي مُعْظَمِ اعتِرَاضَاتِهِ هِيَ قُصُورُ تَصُوُّرِهِ للمَسَائِلِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ عنهَا، فَمِنْ هُنَا أيضًا لَم يَستَوعِبْ مَبْحَثَ (الحَالِ) كَمَا هُوَ فِي العَرَبِيَّةِ، وَلَا فَهِمَهُ كَمَا هوَ فِي الوَاقِعِ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ، إِذِ (الحَالُ) تَصْلُحُ فِي جَوَابِ (كَيْفَ)، وَمَا دَامَ قَوْلُكَ: (جَاؤُوا فُرَادَى) صَالِحًا، لِجَوَابِ مَنْ سَأَلَ: (كَيْفَ جَاؤُوا)، فَلَا بأسَ بِهِ عَقْلًا، وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا هذَا التَّعَنُّتُ مِنَ الكَاتِبِ؟ هَلْ يُرِيدُ أَنْ يَنَالَ مِنْ قَدْرِ لُغَةٍ لا تَلِينُ قَنَاتُهَا لِغَامِزٍ، وَلَا يُهِينُهَا وَلَا يُضَيِّعُهَا لَـمْزُ لَامِزٍ؛ لأَنَّهَا لُغَةُ كِتَابٍ مُبَارَكٍ أَنْزَلَهُ مَنْ أُمْرُهُ بَيْنَ الأَوَامِرِ نَاجِزٌ.

الوَاوُ الحَالِيَّةُ، وَاعتِرَاضَاتُ الـمُهَنْدِسِ الخَيَالِيَّةُ:

ثُمَّ يَسْتَمِرُّ الـمهندِسُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الكَلَامِ عَنِ الوَاوِ الحَالِيَّةِ بَعْدَ الكَلامِ السَّابِقِ وَقَالَ: «كَمَا أَنَّ الجملَةَ الحَالِيَّةَ وَ(الوَاوَ الحَالِيَّةَ)[1]، وغيرَ ذلِكَ مِنَ الـمُصطَلَحَاتِ وَالتَّسمِيَاتِ يَجِبُ إعادَةُ النَّظَرِ فِيْهَا بِشَكْلٍ كَامِلٍ.

فَإِذَا أَخَذْنَا البيتَ التَّالِي:

[مِنَ البَسِيْطِ]

لا تَشْــتَرِ العَبْــدَ إِلَّا وَالعَصَــا مَعَــهُ ... إِنَّ العَبِيــــدَ لَأَنجـــاسٌ مَنَاكِيـــدُ

فَإِنَّ الوَاوَ قَبْلَ كَلِمَةِ (العَصَا) هِيَ وَاو الحَالِيَة[2]، وَنحنُ نسأَلُ: مَاذَا نَعْنِي بِقَوْلِنَا: أنَّ[3] الوَاوَ (وَهِيَ حَرْفٌ) حَالِيَةٌ؟ إِنَّ هذِهِ التَّسمِيَةَ لَا مُبَرِّرَ لَهَا –حَتَّى وَلَوْ قالَ بَعضُهُم بأنَّ الجُمْلَةَ بَعْدَهَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ حَالٌ–وَلَا مَدلُولَ لَهَا: وَهِيَ وَهَمٌ لِتأوِيلٍ وَهمِيٍّ يأتِي بَعْدَهَا». ص: (٨٠).

أَقُولُ: إِنَّنِي لَا أعرِفُ سَبَبًا وَاقِعِيًّا لِإِنْكَارِ الجُملَةِ الحَالِيَّةِ؛ لأنَّ دَلَالَتَهَا ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ، بَارِزَةٌ بَادِيَةٌ، إِلَّا لِهذِهِ الزُّمْرَةِ الـمُعادِيَةِ؛ لأَنَّكَ لَـمَّا رأيتَ مِثْلَ هذَا الكَلامِ: (رَأَيْتُ زَيْدًا يَضْحَكُ)، فأنتَ تَتَخَيَّلُ فَوْرًا أنَّ (يَضْحَكُ) حَالُ زَيْدٍ، فَهذَا هُوَ مُرَادُ النَّحوِيِّينَ، فَلِمَاذَا الإِنْكَارُ يَا سَادَةُ؟

---

(١) وَاوُ الحَالِيَةِ، أَم: الوَاوُ الحَالِيَةُ يَا مُهَنْدِسُ؟

(٢) مَرَّةً أُخْرَى!.

(٣) (أنَّ)، أَمْ: (إِنَّ) يَا مُهَنْدِسُ؟

أمَّا إنْكَارُ الوَاوِ الحَاليَّةِ فَلَيْسَ سِوَى كَلَامٍ فَارِغ؛ لأنَّ استِخْدَامَ الوَاوِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الحَالِ، كَثِيرٌ جِدًّا فِي فَصِيحِ كَلامِ العَرَبِ، وَالقُرآنُ الكَرِيمُ أيضًا استَخْدَمَهَا وَجَاءَ بِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (التوبة).

فَقَوْلُهُ: (وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ)، الوَاوُ فِيهَا حَالِيَةٌ، يَعْنِي: (حَالَ أَعْيُنِهِم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿.. وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ .. ﴿١٨﴾﴾ (الكهف).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ (الأنفال).

وَأَمثِلَتُهَا كَثِيرَةٌ جِدًّا فِي فَصِيحِ الكَلامِ يُمْكِنُ فِيهِ الرُّجُوعُ إِلَى الـمُطَوَّلاتِ، للوقُوفِ عَلَيْهَا.

فَكَمَا رَأَيْنَا أَنَّ هذِهِ الوَاوَ اختَصَرَتِ الكَلَامَ بِاختِصَارٍ بَالِغٍ، وَهِيَ تُعَدُّ مِنْ جَمَالِيَّاتِ العَرَبِيَّةِ، حيثُ تَرَى حَرفًا وَاحِدًا يَحمِلُ مَعْنًى فِي الجُمْلَةِ وَيُنَجِّيْكَ مِنَ التَّطوِيلِ، وَلَا أَدرِي لِمَاذَا يَكْرَهُهُ الـمُهندِسُ وَيُحَاوِلُ حَذْفَهُ؟ وَاللهُ الـمُستعَانُ.

وَبَعْدَ هذا نَقُولُ: لِمَاذَا لَا يَذْهَبُ أوزونُ إِلَى اللُّغَةِ الإنجليزِيَّةِ الَّتِي يَرَى قُوَّتَهَا وَعَقْلَنَتَهَا، فَيَنْتَقِدَهَا ويَقُولَ: (لِمَاذَا فِيهَا شُذُوذٌ كَثِيرَةٌ حَتَّى فِي الحَالِ؟) نَعَمْ، حَتَّى فِي الحَالِ تُوجَدُ شُذُوذٌ فِي الإنجلِيزِيَّةِ، كَمَا يُسَمَّى عِنْدَهُم بـ(Irregular Adverbs)!.

هَبْ أنَّ هذَا كَانَ غيرَ مَنْطِقِيٍّ (مَعَ كَوْنِهِ مَنْطقِيًّا وَبَيَّنَّاهُ) فَلِمَاذَا يَمْدَحُ الإِنْجِلِيزِيَّةَ وَيَصِفُهَا بالعَقْلَنَةِ وَالقُوَّةِ مَعَ أنَّهَا تَحْتَوِي عَلَى ضَعْفٍ وَافتِقَارٍ شَدِيْدَيْنِ؟ وَهَذَا يُذَكِّرُنِي بِقَوْلِ مَنْ قَالَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَلَوْ مُذْنِبٌ غَيْرِي جَنَى الذَّنْبَ كُلَّهُ ... مَا مَسَّهُ بَعْضُ الَّذِي بِي قَائِمُ

رَدٌّ وَجِيز، فِي اعتِرَاضِهِ عَلَى التَّمْيِيز

ثُمَّ يأتِي أوزونُ لِيُثبِتَ جَهْلَهُ بالعَرَبيَّةِ مَرَّةً أُخرَى إِذْ يَقُولُ عَنِ التَّمْيِيْزِ: «هُوَ اسمٌ مَنصُوبٌ يُذكَرُ لِإِزالَةِ الإِبهَامِ عَنِ اسمٍ قَبْلَهُ (تَمييزٌ مَلفُوظٌ)، أَو: عَنْ جُمْلَةٍ سَابِقَةٍ (تَمييزٌ مَلْحُوظٌ) مِثَالٌ: قَولُهُ تَعَالَى: [إِنِّي رَأيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا] (سُورَةُ يُوسفَ).
كَوْكَبًا: تَمييزٌ مَلفُوظٌ. وَكَذَلِكَ قولُ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا ... كَفَى الـمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

فَإِنَّ (نُبلًا) تَمييزٌ مَلْحُوظٌ. ونحنُ نسألُ: مَا الـمَقصُودُ بِكَلِمَةِ تَمْييزٍ؟ وَمَاذَا تُمَيِّزُ؟ وَإِذَا كَانتْ تُزِيلُ الإِبهَامَ عَنِ الاِسْمِ الَّذِي قَبْلَهَا فَهَلِ الـمَعْنَى (تَمْييز) يُعْطِي تِلْكَ الدَّلالَةَ وَيَقُومُ بِهَذِهِ الـمُهِمَّةِ؟

إنَّ التَّمييزَ يَتَحَقَّقُ وَيَتِمُّ عِنْدَ مَا يَتَوَفَّرُ لَدَيْنَا مُعْطَيَاتٌ مُختَلِفَةٌ نُمَيِّزُهَا عَنْ بَعْضِهَا، كَأَنْ يُطْلَبَ مِنَّا أَنْ نُميِّزَ الاِسمَ عَنِ الفِعْلِ فِي نَصٍّ: (مُعْطَيَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ) أَدَبِي، أَمَّا أَنْ نُوجِدَ كَلِمَاتٍ افتِرَاضِيَّةً وَنُسَمِّيهَا (تَمْييز) فَهَذَا وَهمٌ، وَالوَهمُ لَا يُعطِي قَوَاعِدَ لُغَوِيَّةً سَلِيمَةً». ص: (٨٠-٨١).

أَقُولُ: إِنَّ كَلامَ الـمُهندِسِ وَاعتِرَاضَهُ أَمرٌ عَجِيبٌ وَلَا أَدرِي هَلْ هُوَ لَمْ يَفْهَمْ بحثَ التَّمييزِ أَصْلًا، أَم: هُوَ بِصَدَدِ الاِعتِرَاضِ وَالرَّدِّ وَالإِنْكَارِ بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ؛ لأَنَّ مَعْنَى التَّمييزِ بَيِّنٌ بَارِزٌ، إِذْ يُميِّزُ الـمُمَيَّزَ عَنْ بَاقِي الأُمُورِ الدَّاخِلَةِ فِي الكَلامِ، كَمَا قَالَ ابنُ

جِنِّيْ: «وَمَعْنَى التَّمْيِيزِ: تَخْلِيصُ الْأَجْنَاسِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَلَفظُ الْـمُمَيِّزِ اسْمٌ نَكِرَةٌ يَأْتِي بَعْدَ الْكَلَامِ التَّامِ، يُرَادُ بِهِ تَبْيِينُ الْجِنْسِ وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي بَعْدَ الْأَعْدَادِ وَالـمَقَادِيرِ»(١).

وَفِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أوزونُ عَمِلَ التَّمْيِيزُ عَمَلَهُ لَـمَّا قَالَ: ﴿كَوْكَبًا﴾ مَيَّزَهُ عَنْ بَاقِي الأَشْيَاءِ الَّتِي تُعَدَّدُ؛ لأنَّ ﴿أَحَدَ عَشَرَ﴾ غيرُ مُميَّزٍ يَشْمَلُ كُلَّ شَيءٍ يَصْلُحُ للدُّخُولِ فِي مُسَمَّى هذَا العَدَدِ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿كَوْكَبًا﴾، مَيَّزَهُ عَنِ البَاقِينَ.

وَكَذَا الشَّأنُ بالنِّسْبَةِ لـ(نُبْلًا)، فِي البَيْتِ الشِّعْرِيِّ؛ لأَنَّهُ يَشْتَرِكُ مَعَهُ أَشياءُ كَثِيرَةٌ، كَـ(الـمَجْدِ، وَالرِّفْعَةِ..) وَإِلَى آخِرِ الكلِمَاتِ الكَثِيرَة، وَلكِنَّ التَّمييزَ هُنَا أَخْرَجَ باقِي الأَشيَاءِ وَاقتَصَرَ عَلَى وَاحِدٍ بِعَيْنِه.

قَالَ الـمُبَرِّدُ فِي بَيَانِ التَّمْيِيزِ: «فَمَعْنَاهُ: أَنْ يَأْتِيَ مُبَيِّنًا عَنْ نَوْعِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: (عِنْدِي عِشْرُونَ دِرْهَمًا)، وَ(ثَلَاثُونَ ثَوْبًا) لَـمَّا قُلْتُ: (عِنْدِي عِشْرُونَ، وَثَلَاثُونَ) ذَكَرْتَ عَدَدًا مُبْهمًا يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَعْدُودٍ، فَلَمَّا قُلْتُ: (دِرْهَمًا) عَرَفْتَ الشَّيْءَ الَّذِى إِلَيْهِ قَصَدْتُ بِأَنْ ذَكَرْتُ وَاحِدًا مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى سَائِرِهِ»(٢).

وَقَالَ ابنُ يَعِيشَ: «اعْلَمْ أنَّ التَّمْيِيزَ، وَالتَّفْسِيرَ، وَالتَّبْيِينَ، وَاحِدٌ، وَالـمُرَادُ بِهِ رَفْعُ الإِبْهَامِ، وإِزالَةُ اللَّبْسِ، وَذلِكَ نَحْوُ أَنْ تُخْبِرَ بِخَبَرٍ، أَوْ: تَذْكُرَ لَفْظًا يَحْتَمِلُ وُجُوهًا، فَيَتَرَدَّدُ المخاطَبُ فِيهَا، فَتُنَبِّهُهُ عَلَى المرَادِ بالنَّصِّ عَلَى أَحَدِ مُحْتَمَلَاتِهِ تَبْيِينًا للغَرَضِ، وَلِذلِكَ سُمِّي تَمْيِيزًا وَتَفْسِيرًا.

---

(١) اللُّمَعُ (ص٦٣).

(٢) الـمُقتَضَبُ (٣/ ٣٢).

وهـذَا الإِبْهَـامُ يكُـونُ فِـي جُمْلَـةٍ وَمُفْـرَدٍ، فَالجُمْلَـةُ قَوْلُـكَ: (طَـابَ زَيْـدٌ نَفْسًـا)، وَ(تَصَبَّبَ عَرَقًا)، وَ(تفَقَّأَ شَحْمًا) أَلَا تَرَى أَنَّ الطِّيْبَةَ فِي قَوْلِكَ: (طَابَ زَيْدٌ) مُسْنَدَةٌ إِلَيْهِ، وَالمرَادُ شَيْءٌ مِنْ أَشْيَائِهِ، وَيَحْتَمِلُ ذلِكَ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةً، كَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَمَنْزِلِهِ، وَغيرِ ذلِكَ، وَكَذَلِكَ التَّصَبُّبُ، وَالتَّفَقُّؤُ، يَكُونُ مِنْ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةٍ، فَجَرَتْ لِذلِكَ مَجْرَى (عِشْرِيْنَ) فِي احْتِمَالِهِ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةً. فَكَمَا أَنَّ إِبَانَةَ (العِشْرِيْنِ) بِنَكِرَةٍ (جِنْسٍ)، كَذَلِكَ إِبَانَةُ هذِهِ الجُمَلِ بِنَكِرَةِ جِنْسٍ.

وَأَمَّا المفرَدُ، فَنَحْوُ قَوْلِكَ: (عِنْدِي رَاقُودٌ خَلًّا)، وَ(رَطْلٌ زَيْتًا)، وَ(مَنَوَانِ سَمْنًا) فَالتَّمْيِيْزُ فِي هذِهِ الأَشيَاءِ لَمْ يأتِ لِرَفْعِ إِبْهَامٍ فِي الجُمْلَةِ، وَإِنَّمَا لِبَيَانِ نَوْعِ الرَّاقُودِ، إِذِ الإِبْهَامُ وَقَعَ فِيْهِ وَحْدَهُ لِاحْتِمَالِهِ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةً، كَالخَلِّ وَالخَمْرِ وَالعَسَلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا نَوْعِيٌّ، وَالرَّاقُودُ وِعَاءٌ كَالحُبِّ.

وَكَذلِكَ قَوْلُكَ: (عِنْدِي رَطْلٌ زَيْتًا). التَّمْيِيْزُ فِيْهِ لِإِبْهَامِ (الرَّطْلِ)، إِذِ (الرَّطْلُ) مِقْدَارٌ يُوْزَنُ بِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَشْيَاءَ كَثِيْرَةً مِنَ المَوْزُونَاتِ، كَالزَّيْتِ وَالعَسَلِ وَالسَّمْنِ، وَيُقَالُ فِيْهِ: رِطْلٌ، وَرَطْلٌ بِكَسْرِ الرَّاءِ، وَفَتْحِهَا، فَالكَسْرُ أَقْيَسُ، وَالفَتْحُ أَفْصَحُ.

وَكَذَلِكَ (المَنَوَانِ)[1] تَثْنِيَةُ (مَنَا)، وَهُوَ مِقْدَارٌ يُوْزَنُ بِهِ، وَكذلِكَ بَاقِي الأَمْثِلَةِ»[2].

---

(١) وَقَالَ أيضًا (٢/ ٣٣٨): «كذلك نونُ التثنية، أنتَ في حذفِهَا وإثباتِها مخيَّرٌ. تقولُ: «عندي منوانِ سمنًا، ورطلانِ عسلًا»، تنصبُ «سمنًا»، و«عسلًا» بعدَ النُّونِ، ولك حذفُها والخفضُ، نحو: «مَنَوا سَمْنٍ»، وَ«رَطْلَا عَسَلٍ».
وأمّا اللَّازمُ، فَنَحْوُ نُونِ الجَمْعِ فِي نَحْوِ «عِشْرِيْنَ»، وَ«ثَلَاثين» إِلَى «التِّسْعِيْنَ»، النُّونُ فيهِ لَازِمَةٌ، وَالتَّمْيِيْزُ بَعْدَهَا مَنْصُوبٌ. وَلَا يَجُوزُ حَذْفُ النُّونِ مِنْهُ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى المُمَيِّزِ».
(٢) شَرحُ المُفَصَّلِ (٢/ ٣٦).

فَعَلَى هذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ يُبَيِّنُ الشَّيءَ المَقصُودَ بَيْنَ آخَرِينَ كَثِيرِينَ يُمْكِنُ أَنْ تَدْخُلَ فِي الكَلَامِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ اصطِلَاحُهُم اصطِلَاحًا عِلْمِيًّا دَقِيقًا لَا بَأسَ بِهِ، وَلَكِنَّ المُهندِسَ جَارَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ سُوءِ فَهْمِهِ، أَوْ: سُوءِ نِيَّتِهِ، وَرَابَ فِي فَهْمِهِ، وَصَارَ خَابِطَ لَيْلٍ، وَرَاكِبَ عُشْوَةٍ، وَاعتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ.

[مِنَ الكَامِلِ]

غَيرِي جَنَى وَأَنَا المُعَاقَبُ فِيكُم فَكَأَنَّنِي سَبَّابَةُ المُتَنَدِّمِ[1]

ثُمَّ يَسْتَمِرُّ المُهَنْدِسُ فِي الجِنَايَةِ وَيَقُولُ: «وَعِندَ مَا أَقُولُ مَثَلًا: (اشْتَرَيْتُ دونمًا أَرْضًا) فَهَلْ كَلِمَةُ (أرض) مَيَّزَتِ الدُّونمَ وَأَزَالَتْ عنهَا الإِبهَامَ؟ وَلِماذَا لَا تَكُونُ كَلِمَةُ (دونم) هِيَ التَّمييز لأنها تُبَيِّنُ مَسَاحَةَ الأَرْضِ المُشتَرَاةِ مقدَّرة بالدّونم لَا بالفَدَّانِ مثلًا؟

وَإِذَا قُلْتُ: (اشتَرَيْتُ دُونمَ أرضٍ) فَلِماذَا يُصْبِحُ التَّمييزُ مُضافًا إليهِ؟ إِنَّهَا حَرَكَةُ أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ، هِيَ الحَاكِمَةُ دومًا وَأَبَدًا». ص: (٨٠).

أَقُولُ: إِنَّ نَقْضَ التَّمييزِ كُلَّهُ بِسَبَبِ كَوْنِ (الدُّونَمِ) خَاصًّا بالأَرْضِ وَتُفْهَمُ الأَرْضُ بإِطْلَاقِهِ، قِياسٌ عَجِيبٌ لَا يَقُولُ بِهِ إِلَّا مَنْ لَا يَمْلِكُ فِي المَعقُولِ شَيئًا يُقِيمُ بِهِ كَلَامَهُ وَيَزِنُهُ بِهِ؛ لأَنَّ غِنَى وَاحِدٍ لَا يَغْلِبُ حَاجَةَ الأُلُوفِ!

---

(١) اعتَرَضَ النُّقَّادُ عَلَى هذَا البَيْتِ مِنْ جِهَةِ استِخْدَامِ عَضِّ السَّبَّابَةِ؛ لأَنَّهَا لَا تُعَضُّ عِقَابًا وَلَا تُحْمَلُ عَلَيْهَا الجَرِيرَةُ، وَالأَجْمَلُ منهُ بَيْتُ النَّابِغَةِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيرُهُ وَهوَ رَاتِعُ

وَبَعْدَهُ أَكْثَرَ الشُّعَرَاءُ مِنِ استِخْدَامِهِ، وَضَمَّنَ الشَّطرَ الثَّانِي كَثِيرٌ منهُم فِي أَشْعَارِهِم.

أمَّا إتيَانُ الـمُميِّزِ مَجرُورًا فَقدْ ذَكَرَهُ أَئِمَّةُ النَّحوِ وبيَّنُوهُ، فَلا مُشكِلَةَ فِي ذلِكَ، وَإنَّما وَجْهُ مَجِيئِهِ مِنْ غَيرِ إضَافَةٍ لوجُودِ التَّنوينِ (وَنُونِ الـمُثَنَّى وَالجَمْعِ)، كَمَا هُوَ مَعلُومٌ وَمُطَّرِدٌ عِنْدَ جَمِيعِ النُّحَاةِ أنَّ التَّنوينَ وَالإضَافَةَ لَا يَجْتَمِعَانِ، وَإذَا أَزَلْتَ التَّنوينَ فَلَا بأسَ بأنْ يأتِيَ مُضَافًا إليهِ، وَهذَا يُحمَلُ عَلَى التَّنَوُّعِ فِي العِبَارَةِ وَالتَّعَدُّدِ فِيهَا، وَهذَا لَيسَ بِمُنْكَرٍ عِنْدَ العُقَلَاءِ.

قَالَ أَبُو البَقَاءِ العُكْبَرِيُّ: «وَكَذَلِكَ كلُّ مُنَوَّنٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مُمَيِّزٍ كَقَوْلِكَ: (هَذَا رَاقُودٌ خَلًّا) لأنَّ التَّنْوِينَ يَمْنَعُ الْإِضَافَةَ، فَإِنْ أَضَفْتَ فَقُلْتَ: (رَطْلُ ذَهَبٍ) احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنى (اللَّامِ) وَبِمَعْنى (مِنْ) وَإِذَا نَصَبْتَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِمَعْنى (مِنْ) لأَنَّها الـمَوْضُوعَةُ لِلتَّبْيِيْنِ، وَكَذَلِكَ النُّونُ[1] فِي: (مَنَوَانِ، وَقَفِيزَانِ)»[2].

قَالَ السُّيوطِيُّ: «وَيُجَرُّ التَّمْيِيْزُ بِإِضَافَةِ مَا قَبْلَهُ إِلَيْهِ إِنْ حُذِفَ التَّنْوِينُ، أَوِ: النُّونُ نَحْوُ: (رَطْلُ زَيْتٍ، وإردبُ شعيرٍ وَمَنَوَا سمْنٍ)، وَلَا يُحْذَفُ شَيْءٌ غيرُ التَّنْوِينِ، أَوِ: النُّونُ إِلَّا مُضَافٌ إِلَيْهِ صَالِحٌ لِقِيَامِ التَّمْيِيزِ مَقَامَهُ، نَحْوُ: (زيدٌ أَشْجَعُ النَّاسِ رَجُلًا)، فَيُقَالُ: (أَشْجَعُ رجلٍ)، فَإِنْ لم يصلحْ لذَلِك نَحْوَ: (للهِ دَرُّهُ رَجُلًا) وَ(وَيْحَهُ رَجُلًا)، لم يَجُزِ الْحَذفُ، فَلَا يُقَالُ لَهُ: (دَرُّ رَجُلٍ) وَلَا (وَيْحَ رَجُلٍ).

وَالـمَقَادِيرُ إذا أُرِيدَ بِهَا الْآلَاتُ الَّتِي يَقعُ بِهَا التَّقْدِيرُ، لَا يَجوزُ إِلَّا إضَافَتُهَا نَحو: (عِنْدِي مَنَوا سمْنٍ، وقَفِيزُ بُرٍّ، وَذِرَاعُ ثَوبٍ)، يُرِيدُ: الرَّطْلَيْنِ اللَّذينِ يُوْزَنُ بِهِمَا السَّمْنُ، وَالمكيَالَ الَّذِي يُكَالُ بِهِ الْبُرُّ، وَالآلَةَ الَّتِي يُذْرَعُ بِهَا الثَّوْبُ، وَإِضَافَةُ هَذَا النَّوعِ عَلَى

---

(١) يَعْنِي: هُوَ كَالتَّنوينِ لَا يُجْمَعُ بينَهُ وَبَيْنَ الإضَافَةِ.

(٢) اللُّبَابُ (١/ ٢٩٨).

مَعْنَى (اللَّامِ) لَا عَلَى مَعْنَى (مِنْ)»[١].

فَالإِضَافَةُ هُنَا إِضَافَةٌ بَيَانِيَّةٌ؛ لأَنَّهَا بِمَعْنَى (مِنْ)، وَالتَّمييزُ عَمَلُهُ البَيَانُ، وَمَا دَامَا اتَّفَقَا فِي الـمَعْنَى، فَمَا مُشْكِلَةُ الـمُهَنْدِسِ وَلِمَاذَا يَعْتَرِضُ عَلَى النُّحَاةِ وَيَظلِمُهُم؟

أَمَّا حَرْبُهُ عَلَى الحَرَكَاتِ الإِعرَابِيَّةِ فَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ الجُنُونِ؛ لأَنَّنَا نَرَى الخِلافَ فِي قِرَاءَةِ الشَّكْلَيْنِ وَكِتَابَتِهِمَا، فالصُّورَتَانِ مُختَلِفَتَانِ: (اشتَرَيْتُ دُونمًا أرضًا)، (اشتَرَيتُ دُونَمَ أَرضٍ). ومَا دَامَا مُخْتَلِفَيْنِ فَلَا بأسَ باختلافِ الإِعْرَابِ فِي القِياسِ الـمَنْطِقِيِّ عِنْدَ النَّاسِ، ولكِنَّ الـمِعيارَ عِنْدَ الـمُهَندِسِ مُختَلِفٌ، فَكُلُّ مَا هَوَاهُ فَهُوَ العَقْلُ وَالـمَنطِقُ وَمَا سِوَاهُ فَهُوَ الجُمُودُ وَالتَّحَجُّرُ وَالتَّقَوْقُعُ!

وَلَا تَنْسَ -القَارِئُ الحَبِيبُ وَالقَارِئَةُ الكَرِيمَةُ- أَنَّ العُلَمَاءَ ذَكَرُوا مِنَ الـمُمَيِّزِ مَا يَكُونُ مَجْرُورًا، وَلَمْ يُغفِلُوا ذلِكَ حتَّى يأتِيَ أوزونُ وَيَدُلَّنَا عليه، قَالَ الـمُبَرِّدُ: «وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ التَّمْيِيزِ مَا يكُونُ خفْضًا وَلَكِنْ يَكُونُ عَلَى مَعْنًى أَذْكُرُهُ لَكَ..»[٢]. ثُمَّ يَذْكُرُ أنوَاعًا. وَكَذَا ابنُ السَّرَّاجِ ذَكَرَهُ وَبَيَّنَهُ[٣]. والآخَرُونَ غَيرُهُمَا بيَّنُوهُ يُمكِنُكُمُ الرُّجُوعُ إِلَى كَلامِهِم.

ثُمَّ اعتَرَضَ أوزونُ قَائِلًا: «كذلِكَ نَرَى أنَّ التَّمييزَ يَتَخَبَّطُ مَعَ الحَالِ وَالـمَفعُولِ بِهِ فِي قَوْلِنَا: (أَنَا أَثْقَلُ مِنْكَ كيلُو وَزْنًا) فَإِنَّ التَّمييزَ وَالـمُميَّزَ يَتَدَاخَلَانِ مَعَ بَعضِهِمَا». ص: (٨٠).

---

(١) هَمْعُ الهَوَامِعِ (٢/ ٣٣٨).

(٢) الـمُقتَضَبُ (٣/ ٣٧-٣٨).

(٣) الأُصُولُ فِي النَّحوِ (١/ ٣١١).

أقولُ: لَا يَقولُ هذَا الكَلَامَ إِلَّا مَنْ لَا يُميِّزُ بينَ هذِهِ الـمُصْطَلَحَاتِ؛ لأنَّ الحَالَ تُبيِّنُ الهَيْئَةَ وَلَيْسَ التَّمييزُ هَكذَا، وَالـمَفعُولُ بِهِ وَقَعَ عَلَيْهِ فِعْلُ الفَاعِلِ حَقِيقَةً وَلَيسَ التَّمييزُ هَكَذا، وَفِي هذَا الـمِثَالِ لَا يُخَلِّطُ بينَ تِلْكَ الـمُصْطَلَحَاتِ الثَّلَاثَةِ إِلَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ شَيئًا عَنِ النَّحْوِ.

ثُمَّ استَمَرَّ فِي الِاعتِرَاضِ قَائِلًا وَجَانِيًا: «وَإِذَا قُلْنَا: (أعطَيْتُ أُوقِيَّةً شِوَاءً) فَلِمَاذَا لَا تَكُونُ بَدَلًا مِنْ (أُوقيَّةً) مَثَلًا، أَوْ: صِفَةً، أَوْ: مَفعُولًا بِهِ ثَانِيًا حيثُ وَقَعَ عَليهَا فِعْلُ العَطَاءِ؟ (الِافتِرَاضَاتُ مِنْ مَدْرَسَةِ أهلِ اللُّغَةِ وَلَا تُمَثِّلُ رَأيَنَا).

كُلُّ ذلِكَ يَجْعَلُنَا بِحاجَةٍ إِلَى إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي مَا يُسَمَّى بالتَّمييزِ وَإِلَى مَفَاهِيمَ لَا لَبْسَ فِيْهَا، يَحْكُمُهَا الـمَنْطِقُ وَيَقْبَلُهَا العَقْلُ فَتُصْبِحَ بَسِيطَةَ الِاستِعْمَالِ وَاضِحَةَ الدَّلَالَةِ». ص: (٨١).

أقُولُ: إِذَا فَهِمَ الرَّجُلُ أنَّ البَدَلَ وَالـمُبْدَلَ مِنهُ كَالشَّيءِ الوَاحِدِ، لَمْ يَتَخَبَّطْ فِي هذَا الـمِثَالِ تَخَبُّطَ السِّكِّيرِ؛ لأنَّ مِثَالَ البَدَلِ بَيِّنٌ وَليسَ فِيْهِ مَا يَكُونُ مُبْهَمًا يَشْتَرِكُ فِيْهِ أشياءُ كَثِيرُونَ كَمَا هُوَ فِي التَّمييزِ، وَلَا أَظُنُّ طَالِبًا مُبْتَدِئًا يَقُولُ فِي (شِوَاء) هُوَ بَدَلٌ، وَمِنْ وَجْهٍ آخَرَ أنَّ البَدَلَ وَالـمُبْدَلَ مِنْهُ إِذَا وُضِعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَكَانَ الآخَرِ صَلَحَ الكَلَامُ وَليسَ التَّمييزُ هَكذَا، فَمَثَلًا لَوْ قُلْتَ: (قَالَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، يُمكِنُكَ أَنْ تَقُولَ: (قَالَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، بِخِلافِ الـمِثَالِ الَّذِي ذَكَرَهُ أوزونُ.

أَمَّا اختِلاطُهُ بالصِّفَةِ فَلَا يَصْدُرُ إِلَّا عَمَّنْ كَانَ أَعْشَى فِي عُلُومِ العَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ (شِوَاء) صِفَةً لِـ(الأُوقِيَّة) أَبَدًا وَالعَقْلُ وَالطَّبعُ كِلَاهُمَا لَا يَسْمَحَانِ بذلِكَ، وَالسَّلِيقَةُ وَالذَّوْقُ يُنَافِرَانِ ذلِكَ أيضًا.

أمَّا أنْ يَكُونَ مَفْعُولًا ثَانِيًا بِهذَا الشَّكْلِ فَلَا يُمْكِنُ بِحَالٍ؛ لأنَّ الجُمْلَةَ تُشْعِرُ بأنَّكَ أَعْطَيْتَ (الأُوقِيَّةَ) (شَواءً)، فَهَلْ يُعْطَى (الأُوقِيَّةُ) شَيْئًا؟ وَالسُّؤالُ لَكُمْ يَا سَادَةُ.

وَلكِنْ لَوْ قُلْتَ: (أَعْطَيْتُ أُقيَّةَ شِوَاءٍ) فَهُوَ صَالِحٌ وَلَا بأسَ بِهِ إِنْ نَوَيْتَ شَخصًا قَابِلًا للعَطَاءِ.

أخِي القَارِئُ وَأختِيَ القَارِئَةُ! أرَأيتُم كيفَ يَخُوضُ هذَا الرَّجُلُ فِيمَا لَا يُحْسِنُهُ وَلَا يَعْرِفُ منهُ شَيئًا، وَكُلُّ مَا يَقُولُهُ يُشْبِهُ خُرَافَاتِ الأَوَّلِينَ وَخُزَعْبَلَاتِ المَاضِيْنَ، ومَعَ هذَا لَا يَتْرُكُ فَصْلًا دُونَ الهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالغَمْزِ، وَفِي كُلِّ صَفْحَةٍ يَدعُو للعَقْلَنَةِ وَالتَّمَنطُقِ وَلكِنَّهُ بَعِيدٌ كُلَّ البُعْدِ عَنْهُمَا، كَالعَادِمِ لِشَيءٍ حيثُ يذكُرُهُ دومًا وَيَتَغَنّى بِهِ، لأنَّهُ يَتمَنَّاهُ وَمُغْرَمٌ بِحُبِّهِ وَلَكِنَّهُ لَا يَملِكُهُ، كَتَغَنِّي السَّجِينِ بِالحُرِّيَّةِ.

فَأرجُو بَعْدَ هذَا البَيَانِ أَنْ يَتَّهِمَ المُهندِسُ نَفْسَهُ أوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَتَّهِمَ عُقُولَ أُلُوفِ عُلَمَاءَ مُحَقِّقِينَ، وَأَنْ لَا يَسْهُلَ عَلَيهِ تَسوِيدُ الصَّفَحَاتِ بِمِثْلِ هذِهِ الخُزَعْبَلَاتِ بالتَّجَنِّي عَلَى العَمَالِقَةِ الأَفْذَاذِ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

ثُمَّ بَعدَ ذلِكَ يَتطَرَّقُ إِلَى مَوضُوعِ الِاستِثْنَاءِ وَيُغَالِطُ نَفْسَهُ فِيهِ، وَلَم يَنْتَقِدِ انتِقَادًا ذَا بالٍ حَتَّى نَشْتَغِلَ بِهِ وَنَقِفَ عَلَيْهِ، وَبَعْدَ ذلِكَ يَصِلُ إِلَى مَبْحَثِ المَجْرُورَاتِ وَيَجْنِي جِنَايَتَهُ هُنَا أيضًا فِي ثَلَاثِ صَفَحَاتٍ، وَلَا يَزِيدُ شَيئًا غيرَ تَكْرَارِ مَا جَرَمَ سَابِقًا فِي حَقِّ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ وَعَدَمِ ضَرُورَتِهَا، وَكُلُّ مَا قَالَهُ يَدُورُ حَوْلَ هذَا المَقْصِدِ وَأَشَارَ إِلَى أَنَّنَا لَا نَحْتَاجُ إِلَى الجَارِّ وَالمَجْرُورِ، وهذَا الكَلَامُ ضَرْبٌ مِنَ الجُنُونِ وَسَتَقِفُونَ عَلَى نَقْضِهِ وَنَفْضِهِ عِنْدَ مَا ذَكَرْنَا ضَرُورَةَ الحَرَكَاتِ الإِعرابِيَّةِ، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ المُوَفِّقُ.

وَقَعَ الـمُهَنْدِسُ فِي الحُتُوفِ، لـمَّا تَكَلَّمَ عَنِ الحُرُوفِ

ثُمَّ يأتِي صَاحِبُ الكِتَابِ إِلَى بَحْثٍ جَدِيدٍ وَيُكَرِّرُ مَا بَدَأَ بِهِ مِنْ جَوْرٍ وَجِنَايَةٍ، بِجَهْلٍ وَعِمَايَةٍ، وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الحُرُوفِ بِفَصْلٍ مُستَقِلٍّ وَسَمَّاهُ: (الأَدَوَاتِ)، فَانْحَرَفَ عَنِ الطَّرِيْقِ وَمَالْ، فَأَجْرَمَ حيثُ قَالْ: «الأَدَوَات: سَبَقَ ورأينَا أَنَّهَا تُسَمَّى أحرُفًا عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ. وَسَنَبْحَثُ فِي بَعْضِهَا نَظَرًا لِصُعُوبَةِ بَحْثِهَا كُلِّهَا.

الهَمْزَةُ: نَسْتَعرِضُهَا بِشَكْلٍ مُختَصَرٍ فَهِيَ إِمَّا: ١-استِفهَامِيَّةٌ. ٢-للنِّدَاءِ -حَسَبَ تَصْنِيْفِهِم-». ص: (٩١).

أَقُولُ: عَجِيبٌ أمرُ الـمُهَنْدِسِ يَكتُبُ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ شَيئًا وَيُؤَصِّلُهُ حَسَبَ خَيَالِهِ وَطَيْفِهِ، ثُمَّ يُنَاقِضُهُ فِي آخِرِ كِتَابِهِ كَأَنَّ الكَلامَ السَّابِقَ لَيسَ لَهُ، أليسَ أوزونُ جَاءَ وَقَالَ: «هُنَا عَلَيْنَا أَنْ نصوِّبَ قبْلَ الدُّخُولِ فِي التَّفَاصِيلِ بأَنَّ مُصْطَلَحَ الحَرْفِ (وَهُوَ عِندَهُم كَلِمَةٌ لَا يَظْهَرُ معنَاهَا إِلَّا إِذَا اقتَرَنَتْ بِغَيرِهَا) يَجِبُ أَنْ يُستَبْدَلَ بأَدَاةٍ حَتْمًا. فَمَثَلًا (عَنْ) مؤلَّفَةٌ مِنْ حرفَيْنِ وَلَيسَتْ حَرفًا وَاحِدًا، وَ(إِلَى) مُؤَلَّفَةٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أحرُفٍ، وَهكذَا. وعليهِ يجِبُ أَنْ يُصَحَّح هذَا النَّوْعُ بالقَوْلِ (أَدَاة) عِوَضًا عَنِ (الحَرْفِ) وذلِكَ كَيْ يَتِمَّ التَّطَابُقُ بينَ الدَّالِّ وَالمَدلُولِ». ص: (٢٥).

وَالآنَ يَحِقُّ للقَارِئِ الكَرِيمِ وَأبنَاءِ العَرَبِيَّةِ وَأَنْصَارِهَا أَنْ يَسأَلُوا الـمهندِسَ: لِمَاذَا تَذْكُرُ الهَمْزَةَ فِي الأَدَوَاتِ وَتُزِيلُ منهَا اسْمَ الحَرْفِ، مَعَ أَنَّهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ (وَيَدْخُلُ فِي شَرْطِكَ للحُرُوفِ)؟

تَحقِيقُ الكَلامِ، فِي بَيَانِ مَعْنَى الِاسْتِفْهَام:

قَالَ صاحِبُ الجِنايَةِ: «تَدخلُ الهَمزَةُ (أ) عَلَى الفِعْلِ كَمَا فِي قَولِهِ تعَالَى: [أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحمَ أَخِيْهِ مَيْتًا] (سُورَةُ الحُجُرَاتِ).

أَوْ: عَلَى الِاسْمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تعَالَى: [أَأَنْتُم تَخلُوقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ] (سُورَةُ الوَاقِعَةِ).

وَنحنُ نَرَى أنَّ الهَمزَةَ فِي كِلْتَا الآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لَا تُفِيدُ الِاستِفْهَامَ؛ لأنَّ اللهَ -عَزَّوَجَلَّ- لَا يَسْأَلُ عِبَادَهُ فَهُوَ عَالِمٌ بِطَبِيعَةِ عِبَادِهِ وَبِكَافَّةِ أحوَالِهِم وَإِجَابَاتِهِم –وَهِيَ تُفِيدُ الإِنْكَارَ».

ص: (٩١-٩٢).

أقُولُ: إنَّ إِنْكَارَ استِفْهَامِيَّةِ الهَمْزَةِ فِي مِثْلِ هذِهِ الآيَاتِ وَغيرِهَا فِيمَا تَقَعُ هذَا المَوقِعَ لَا يُسَانِدُهُ وَجهٌ مِنَ الدَّلِيلِ، وَلَا طَرَفٌ مِنَ التَّأوِيلِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الِاستِفْهَامَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، كَمَا يُمكِنُ أَنْ يُقَالَ هُوَ استِفْهَامٌ للإِنْكَارِ، وَالأَوَّلُ هُوَ الأَظْهَرُ وَالأَجْمَلُ إِنْ فُهِمَ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَمَاهِيَتِهِ، كَمَا سيأتِي بَيَانُهُ مِنْ كَلامِ الأَئِمَّةِ.

ولكِنْ إِنكَارُ الِاستِفْهَامِيَّةِ لَهَا أَمرٌ لَا يَقُولُهُ مَنْ لهُ أدنَى مَعْرِفَةٍ بالعَرَبِيَّةِ وَلَا يأتِيْهِ، وَصَاحِبُ الجِنَايَةِ أيضًا لَم يُمْكِنْهُ رَدُّ استِفْهَامِيَّتِهَا فَأَنْكَرَهَا فِي أَوَّلِ كَلامِهِ ثُمَّ لَـمَّا شَرَحَ المَعْنَى، أَسْنَدَهُ إِلَى بَابِ الِاستِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ، وَهُوَ مَا يَكُونُ الـمُتَكَلِّمُ عَالِمًا بِنَفْيِ الأَمْرِ وَيُلْقِي خِطَابَهُ عَلَى الِاستِفْهَامِ وَيُرِيدُ بِهِ الخَبَرَ، زِيَادَةً فِي الوقُوعِ عَلَى مَسَامِعِ المُخَاطَبِينَ، وَهذَا مَا يُسَمَّى اسْتِفْهَامَ الإِنْكَارِ!

أَمَّا حَمْلُهُ عَلَى الحَقِيقَةِ فِي مِثْلِ هذِهِ الآيَاتِ فَقَدْ يَجُوزُ وَهُوَ بَلِيغٌ إِنْ عَرَفْنَا الِاستِفْهَامَ عَلَى وَجْهِهِ وَمُرَادِ وَاضِعِ اللُّغَةِ، وَلكِنَّ المُهندِسَ اقْشَعَرَّ مِنْهُ جِلْدُهُ، وَقَامَ لَهُ شَعْرُ رَأْسِهِ وَأَنْفِهِ جَهْلًا بِحَقِيْقَةِ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَبَيَانُ هذَا أَمرٌ مُهِمٌّ جِدًّا وَأَشَارَ إِلَيْهِ الشَّيْخُ بَهَاءُ الدِّيْنِ السُّبْكِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى التَّلْخِيصِ، وَأَزَالَ الِالتِبَاسْ، عَنْ فَهْمِ النَّاسِ، فَقَالَ بَعْدَ الِالتِمَاسْ: «إِنَّ الِاستِفْهَامَ طلبُ الفَهْمِ، وَلَكِنْ طَلَبُ فَهْمِ المُسْتَفْهِمِ، أَوْ: طَلَبُ وُقُوعِ فَهْمٍ لِمَنْ يَفْهَمُ كَائِنًا مَنْ كَانَ. فَإِذَا قَالَ: مَنْ يَعْلَمُ قِيَامَ زَيْدٍ لِعَمْرٍو بِحُضُوْرِ بَكْرٍ الَّذِي لَا يَعْلَمُ قِيَامَهُ: (هَلْ قَامَ زَيْدٌ؟) فَقَدْ طَلَبَ مِنَ المُخَاطَبِ الفَهْمَ، أَعْنِي: فَهْمَ بَكْرٍ، إِذَا تَقَرَّرَ هذَا، فَلَا بِدْعَ فِي صُدُوْرِ الِاسْتِفْهَامِ مِمَّنْ يَعْلَمُ المُسْتَفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا (سلمت)[1] ذَلِكَ، انْزَاحَتْ عَنْكَ شُكُوْكٌ كَثِيْرَةٌ، وَظَهَرَ لَكَ أَنَّ الِاسْتِفْهَامَاتِ الوَارِدَةَ فِي القُرآنِ، لَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ طَلَبُ الفَهْمِ فِيهَا مَصْرُوفًا إِلَى غَيْرِ المُسْتَفْهَمِ عَنْهُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَعَسُّفَاتِ كَثِيْرٍ مِنَ المُفَسِّرِيْنَ، وَبِهذَا انْجَلَى لَكَ أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ التَّقْرِيرِيَّ بِهذَا المَعْنَى حَقِيْقَةٌ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: [أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي] حَقِيْقَةٌ، فَإِنَّهُ طُلِبَ بِهِ أَنْ يُقِرَّ بِذلِكَ فِي ذلِكَ المَشْهَدِ العَظِيْمِ، تَكْذِيبًا لِلنَّصَارَى، وَتَحْصِيلًا لِفَهْمِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، وَهذَا مَا قَدَّمْنَا الوَعْدَ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ][2].

فَإِنْ قُلْتَ: المقرَّرُ بِهِ هوَ مَا يَلِي الهَمْزَةَ، كَمَا تَقَرَّرَ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ: طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقِرَّ بِأَنَّهُ قالَ ذلِكَ، وهذَا لَمْ يُطْلَبْ، بَلْ: طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقِرَّ بِالوَاقِعِ، وَالوَاقِعُ أَنَّهُ لَمْ

---

(١) يُمْكِنُ أَنَّ التَّاءَ مِنَ النُّسَّاخِ.

(٢) أَشَارَ هُنَاكَ أَنَّهُ سَيُبَيِّنُ المَسْأَلَةَ وَهوَ بَيَّنَهَا هُنَا، وَيَزِيدُ فِيهِ تِبْيَانًا.

يَقُلْ!. قُلْتُ: بَلِ: الـمَطْلُوبُ مِنْهُ أَنْ يُقِرَّ بِالأَمْرِ الوَاقِعِ، وَلَا يُنَافِي هذَا قَوْلَهُمْ: إنَّ الـمُقَرَّرَ بِهِ هُوَ مَا يَلِي الهَمْزَةَ، فَإِنَّ الـمُرَادَ أَنَّ الـمُقَرَّرَ بِهِ هُوَ الفَاعِلُ، وَتَقْدِيرُهُ: [أَأَنْتَ فَعَلْتَ] أَمْ: غَيْرُكَ؟ فَقَدْ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُقِرَّ بِالفَاعِلِ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ، وهذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: إنَّ الـمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ مَا يَلِي الهَمْزَةَ، وَإِنْ كَانَ الـمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ فِي قَوْلِكَ: (أَزَيْدٌ قَائِمٌ أَمْ عَمْرٌو)، كُلًّا[1] مِنْ زَيْدٍ وَعَمْرٍو، وَلكِنَّ مَقْصُودَهُم مَا يَلِيهَا مِنْ مُسْنَدٍ مَعَ مُعَادَلَةٍ، أَوْ: مُسْنَدٍ إِلَيْهِ، كذلِكَ وَقَدِ انْجَلَى لَكَ بِهذَا قَوْلُ السَّكَّاكِيِّ: (إنَّ ذلِكَ اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ)، بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي غَايَةِ البَشَاعَةِ، وَاتَّضَحَ لَكَ إِمْكَانُ حَمْلِ الِاسْتِفْهَامَاتِ الوَارِدَةِ فِي القُرآنِ عَلَى حَقِيقَتِهَا مَعَ تَنْزِيهِ البَارِئِ -عَزَّوَجَلَّ- عَنْ أَنْ يَطْلُبَ الفَهْمَ لِنَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[2].

وَقَالَ أَيضًا فِي بَيانِ القَصْدِ مِنِ استِفْهَامِ الإِنْكَارِ وَبَعْضِ أَنْوَاعِهِ الأُخْرَى: «وَأَمَّا اسْتِفْهَامُ الإِنْكَارِ: فَقَدْ يَكُونُ الِاسْتِفْهَامُ بِهِ لِطَلَبِ فَهْمِ السَّامِعِينَ لِذلِكَ الشَّيءِ الـمُنْكَرِ فَيُنْكِرُونَهُ.

وَأَمَّا التَّهَكُّمُ: فَقَدْ يَكُونُ فِيهِ الِاستِفْهَامُ أَيْضًا مَصْرُوفًا إِلَى الـمُخَاطَبِ.

وَأَمَّا التَّحْقِيرُ: فَقَدْ يَكُونُ اسْتِفْهَامًا بِمَعْنَى: أَنَّ ذلِكَ وَصَلَ فِي الحَقَارَةِ إِلَى أَنْ لَا يَعْلَمَ حَقِيقَتَهُ فَيَسْتَفْهِمُ عَنْهُ.

وَأَمَّا الِاسْتِبْعَادُ: فَيُمْكِنُ فِيهِ مَا سَبَقَ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الضَّلَالِ. وَالأَمْرُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومًا مَعَ بَقَاءِ قَصْدِ إِفْهَامِ النَّاسِ حَالَهُمْ، وَطلبِ نُطْقِهِمْ بِذَلِكَ»[3].

---

(١) خَبَرُ كَانَ.

(٢) عَرُوسُ الأَفْرَاحِ فِي شَرْحِ تَلْخِيصِ المِفْتَاحِ (١/ ٤٦٠). وَنَقَلَهُ عَنْهُ الدَّمَامِينِيُّ فِي شَرْحِ مُغْنِي اللَّبِيبِ (١/ ٤٥).

(٣) عَرُوسُ الأَفْرَاحِ فِي شَرْحِ تَلْخِيصِ المِفْتَاحِ (١/ ٤٦٠).

وَقَالَ مُسْفِرًا مَعْنَى آيَةِ الحُجُرَاتِ : «(تَنْبِيهٌ): قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: [أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا]، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامَ تَقْرِيرٍ، وَكَذَا صَرَّحَ بِهِ بعضُهُم، وَوَجْهُهُ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُقِرُّوا بِمَا عِنْدَهُمْ فِي ذلِكَ؛ وَلِهذَا قَالَ مُجَاهِدٌ: التَّقْدِيرُ: (لَا)، فَإِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَفْهَمُوا اسْتِفْهَامَ تَقْرِيرٍ بِمَا لَا جَوَابَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: (لَا) جُعِلُوا كأَنَّهُم قَالُوْهَا، وَهُوَ قَوْلُ الفَارِسِيِّ وَالزَّمَخْشَرِيِّ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارٍ بِمَعْنَى التَّوبِيخِ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ لِأَكْلِ لَحْمِ أَخِيهِمْ (فَيَكُونُ مَيْتَةً)[1]، وَالمُرَادُ بِمَحَبَّتِهِمْ لِأَكْلِ لَحْمِ أَخِيهِمْ (غِيبَتُهُ) عَلَى سَبِيلِ المَجَازِ، وَجَاءَ (فَكَرِهْتُمُوهُ) بِمَعْنَى الأَمْرِ، أَيْ: أَكْرِهُوْهُ، قِيلَ: إِنَّ: (فَكَرِهْتُمُوهُ) أَمْرٌ، وَقَدْ يَأْتِي الأَمْرُ بِصِيغَةِ المَاضِي، نَحْوُ: (اتَّقَى اللهَ امْرُؤٌ فَعَلَ خَيرًا يُثَبْ عَلَيْهِ).

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامَ إِنْكَارٍ بِمَعْنَى التَّكْذِيبِ؛ لأَنَّهُم لَمَّا كَانَتْ (حَالَتُهُم حَالَ) مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ يُحِبُّ أَكْلَ لَحْمِ أَخِيْهِ، نَسَبَ إِلَيْهِمْ ذلِكَ وَكَذَبُوا فِيهِ وَيَكُونُ (فَكَرِهْتُمُوْهُ) خَبَرًا»[2].

أَظُنُّ هذَا القَدْرَ يَقَعُ بِهِ الكِفَايَةُ وَتَحْصُلُ بِهِ المُؤْنَةُ وَتُمْلأُ بِهِ الجُؤْنَةُ، وَلِمَنْ أَرَادَ الاستِزَادَةَ فَعَلَيْهِ بِأُمَّهَاتِ كُتُبِ اللُّغَةِ وَالتَّفسِيرِ.

نَصَبَ المُهَنْدِسُ العَدَاء، لإِتيَانِ الهَمْزَةِ للنِّدَاء:

ثُمَّ يَقُولُ الجَانِي عَلَى العَرَبِيَّةِ عَنِ الهَمْزَةِ: «فَهِيَ حرفُ نِدَاءٍ للقَرِيبِ كَقَوْلِنَا: (أَسَامِرُ لَا تَفعَلِ الشَّرَّ). ولكِنَّنَا نَجِدُهَا ثَقِيلَةً فِي أَيَّامِنَا هذِهِ خَاصَّةً إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُنَادِي

---

(١) يُمْكِنُ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهِ تَغييرٌ مِنَ النُّسَّاخِ.

(٢) عَرُوسُ الأَفْرَاحِ فِي شَرْحِ تَلْخِيصِ المِفْتَاحِ (١/ ٤٦١).

أَحْمَدَ مَثَلًا فَنقُولَ: (أَأَحْمَدُ). وَلَا نَجِدُ مِنَّا اليَوْمَ مَنْ يُنَادِي الآخَرِينَ مُسْتَعْمِلًا الهَمْزَةَ فِي نِدَائِهِ القَرِيبَ». ص: (٩٢).

أَقُولُ: هُنَا لَا بُدَّ مِنْ مَلْحُوظَيْنِ مُهِمَّيْنِ وَيَكُونَانِ جَوَابًا لِاعتِرَاضِهِ:

الأَوَّلُ: أنَّ تَرْكَ النَّاسِ لِشَيءٍ لَا يَعْنِي الدَّعْوَةَ لِإِنْكَارِهِ وَحَذْفِهِ؛ لأَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ لَيسَتْ حَصْرًا عَلَى أَهْلِ السُّوقِ وَالعَامّةِ، حَتَّى إِذا لَم يَسْتَخدِمُوا شَيئًا تَبَادَرْنَا إِلَى حَذْفِهِ فَوْرًا؛ لأَنَّ لُغَةَ الكِتَابَةِ وَالعِلْمِ تَخْتَلِفُ عَنْ لُغَةِ أَهْلِ السُّوقِ تَمَامًا، وَأَنَّ أَسَالِيبَ العِلْمِ وَالأَدَبِ مُبَايِنَةٌ لأَسَالِيبِ السُّوقَةِ رَأسًا.

وَكَذَا مِنْ جَانِبٍ آخَرَ نَقُولُ: لَيسَ وجُودُهُ فِي العَرَبِيَّةِ وَوَضْعُ القَوَاعِدِ لَهَا يُلْزِمُكَ استِخْدَامَهُ فِي كَلامِكَ، فَمَثَلًا قَلَّ مَا يُسْتَخْدَمُ فِي الكَلامِ حَرْفُ النِّدَاءِ أَصلًا، لَا (يَا)، وَلَا (أَيَا)، إِذَنْ لَيسَتِ الـمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةَ الهَمْزَةِ فَحَسْبُ، بَلْ: تَتَعَلَّقُ بِحَذْفِ كُلِّ مَا يُحذَفُ اختِصَارًا، وَهذَا يَدعُو إِلَى مَا يَدعُو إِلَيهِ مِنَ الشَّرِّ الـمَشؤُومِ وَالكَيدِ الـمَرُومِ، مِنْ قِبَلِ العَدُوِّ الـمُتَآمِرِ عَلَى هذِهِ اللُّغَةِ العَبقَرِيَّةِ، وَلَا أَدرِي هَلْ أَوزونُ تَفَكَّرَ فِي مَآلِ مَقَالِهِ أَمْ لَا؟

وَلَكِنْ إِنْكَارُهُ وَالدَّعْوَةُ إِلَى حَذْفِهِ دَعْوَةٌ إِلَى هَدْمِ اللُّغَةِ فِي ذَاتِهَا وَوَأْدٌ لِبَنَاتِهَا شِعْرًا وَنَثْرًا وَجَمِيعَ مَا كُتِبَ بِهَا، وَهذَا لَا يَقْبَلُهُ غَيُّورٌ عَلَى العَرَبِيَّةِ.

الثَّانِي: لَا أَدرِي، أَيُّ صُعُوبَةٍ فِي ذلِكَ، هَلِ النُّطْقُ بِهَمْزَتَيْنِ مَعًا يَحْتَوِي عَلَى الـمَشَقَّةِ وَالعُسْرِ بِدَرَجَةٍ تُبَرِّرُ مَنْعَ ذلِكَ كُلِّيًّا؟ وَلَا أَظُنُّهُ هكَذَا، وَالقُرآنُ الكَرِيمُ أَيضًا جَاءَ فِيهِ استِخْدَامُ هَمْزَتَيْنِ مَعًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ (البقرة).

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ .. قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ .. ﴿١٤٠﴾ ﴾ (البقرة).

وَقَوْلِـــــهِ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الفرقان).

وَفِي آيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةٍ، فَهَلْ يَتَجَرَّأُ أوزونُ أَنْ يُفْصِحَ بِإِنْكَارِ هذِهِ الآيَاتِ؟

وَمِنْ ثَمَّ أَقُولُ: أَلَيسَ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى أَصْعَبُ مِنْ ذلِكَ فِي النُّطْقِ عَلَى اللِّسَانِ، لَا شَكَّ مَوجُودٌ وَنَرَاهُ وَلكِنْ مَعَ هذَا لَا نَجِدُ وَاحِدًا مِنْ أَبنَائِهَا يَدْعُو لِتَشْوِيشِ قَوَاعِدِ لُغَتِهِم؟ لَا يَا حَبِيْبِي لَا تَجِدُ ذلِكَ؛ لأَنَّ الحَرْبَ عَلَى الأُمَّةِ الإِسلامِيَّةِ وَالقُرآنِ الكَرِيمِ وَلُغَتِهِ فَحَسْبُ، وَفِي هذِهِ الحَرْبِ تَرَى أُنَاسًا عُمَلاءَ حَقِيقِيّينَ بَاعُوا كُلَّ شَيءٍ لِيَنَالُوا نِصْفَ مَدِيْحَةٍ مِنْ مَلِيْحَةٍ، وَتَرَى الآخَرِينَ تَذَبْذَبُوا فِي هذِهِ المعركَةِ وَبَحَثُوا عَنِ الحَقِيقَةِ فِي ظِلِّ العَدُوِّ الظَّالِمِ، وَجِوَارِ الحَاقِدِ الغَاشِمِ، فَفَقَدُوا العَقلِيَّةَ البَاحِثَةَ؛ لأَنَّهُم شَرِبُوا مِنْ شَرَابِهِمُ المُسْكِرِ، فَرَجَعُوا بِتَخَرُّصَاتِهِم ظَانِّينَ أَنَّهَا العِلْمُ اليَقِينِيُّ، وَمَا سِوَاهُ هُوَ الجَهْلُ وَالتَّخَلُّفُ وَالتَّقَاعُسُ عَنْ رَكْبِ الحَضَارَةِ وَالرُّقِيِّ، فَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم لِسَانًا مُسْتَطِيلًا عَلَى العَرَبِيَّةِ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ، وَابنًا عَاقًّا لأَهْلِ بَيْتِهِ غَيْرَ بَارٍّ!

إِتْحَافُ الأَحْبَابِ، فِي بَيَانِ قَوْلِهِمْ: (لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإِعْرَابِ):

ثُمَّ بَعْدَ الكَلامِ السَّابِقِ يَقُولُ مُبَاشِرًا: «مَعَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الهَمْزَةَ فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ -الاِستِفْهَامِ وَالنِّدَاءِ- لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعرابِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ». ص: (٩٢).

أَقُولُ: لَقَدْ أَخْطَأَ مِمَّنْ لَا حَظَّ لَهُ مِنَ العَرَبِيَّةِ فِي فَهْمِ المَحَلِّ الإِعْرَابِيِّ، وَظَنَّ أَنَّ مَا قِيْلَ فِيْهِ: (لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الإِعْرَابِ)، أَيْ: لَيسَ لَهُ عَمَلٌ فِي العَرَبِيَّةِ، وَعَلَيْهِ فَلَا مَعْنَى

لَهُ. وَهذَا خَطَأٌ فَاحِشٌ وَقعَ فِيْهِ بَعضُ النَّاسِ جَهْلًا بالعَرَبِيَّةِ وَبُعْدًا مِنْهَا، فَإِلَيْكَ بَيَانًا حَوْلَ هذَا المَبْحَثِ:

إِنَّ فِي العَرَبِيَّةِ لَا بُدَّ لِكُلِّ مُبْتَدَإٍ أَنْ يأخُذَ خَبَرَهُ، وَكُلِّ فِعلٍ أَنْ يَأخُذَ فَاعِلَهُ، وَمَفْعُولَهُ أيضًا إِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا، وَهَكذَا، فَإِذَا استَقرَّ كُلُّ شَيءٍ مَكَانَهُ وَأَخذَ كُلُّ لَازِمٍ مَلْزُومَهُ، فَلَا نكُونُ بِحَاجَةٍ إِلَى الإِعْرَابِ المَحَلِّيِّ، وَلَكِنْ هُنَاكَ حَالَاتٌ لَا يَتِمُّ الكَلَامُ فِيْهَا إِلَّا باللُّجُوءِ إِلَى الإِعْرَابِ المَحَلِّيِّ لإِتْمَامِ الكَلَامِ، وَالإِعْرَابُ المَحَلِّيُّ يَكُونُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: المُفْرَدَاتُ: هُنَاكَ مُفْرَدَاتٌ مَبْنِيَّةٌ لَا تَظْهَرُ عليهَا عَلَامَاتُ الإِعْرَابِ، فَيكُونُ إِعْرَابُهَا إِعرَابًا مَحَلِّيًّا، فَإِلَيْكَ بَعْضَ الأَمْثِلَةِ نُطَبِّقُهَا عَلَى اسْمِ (سِيْبَوَيْهِ).

- خَدَمَ سِيْبَوَيْهِ العَرَبِيَّةَ وَمَا جَنَى: فَـ(سِيبَوَيْهِ) هُنَا، مَبْنِيٌّ عَلَى الكَسْرَةِ، وَمَرْفُوعٌ مَحَلًّا؛ لأَنَّهُ فَاعِلٌ.

- رَحِمَ اللهُ سِيْبَوَيْهِ إِمَامَ النُّحَاةِ: فَـ(سِيْبَوَيْهِ) هُنَا مَبْنِيٌّ عَلَى الكَسْرَةِ، وَمَنْصُوبٌ مَحَلًّا؛ لأَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ.

- كِتَابُ سِيْبَوَيْهِ فَخْرُ لِسَانِ العَرَبِ: فَ(سِيبَوَيْهِ) هُنَا، مَبْنِيٌّ عَلَى الكَسْرَةِ، وَمَجْرُورٌ مَحَلًّا؛ لأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ.

القِسْمُ الثَّانِي: الجُمَلُ: هُنَاكَ حَالَاتٌ نَكُونُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا لَا يَتِمُّ الكَلَامُ إِلَّا بِهِ، فَتَقَعُ الجُمَلُ مَوْقِعَهُ كَالفَاعِلِ وَالمَفعُولِ وَالخَبَرِ، وَغَيْرِهَا، أَوْ: مَا يَكُونُ لِزِيَادَةِ بَيَانٍ وَإِيضَاحٍ كَالحَالِ وَالبَدَلِ وَالتَّعلِيْلِ وَغَيْرِهَا، فَإِلَيْكَ بَعْضَ الأَمثِلَةِ فِي ذلِكَ:

- قَالَ تَعَالَى: ﴿..قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ..﴿٣٤﴾﴾ يونس. فَجُمْلَةُ: (يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ) فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرٌ لِلمُبْتَدَإِ (لَفْظِ الجَلَالَةِ).

- قَالَ تعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ (النساء). فَجُمْلَةُ: (وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ)، جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ كَمَا هِيَ ظَاهِرَةٌ.

- قَالَ تعَالَى: ﴿ ..وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَـٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ ..﴿٦﴾ ﴾ (الأنعام).

فَجُمْلَةُ: (تَجۡرِي) مِنَ الفِعْلِ وَالفَاعِلِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِـ(وَجَعَلۡنَا).

وَالأَمثِلَةُ كَثِيرَةٌ جِدًّا فَلَا نُرِيدُ أَنْ نُطِيلَ علَيكُمْ، ولكِنَّهُ بوسعكمْ أَنْ ترجعُوا إِلَى المُطوَّلَاتِ مِنْ كُتُبِ النَّحْوِ لِتَعرِفُوا الجُمَلَ الَّتِي لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الإِعرابِ، كَمَا يُمكِنُكُمُ الرُّجُوعُ إِلَى كُتُبِ التَّفَاسِيرِ لإِدْرَاكِ ضَرُورَةِ مَعرِفَةِ الإِعْرابِ المَحَلِّي لتَفسيرِ القُرآنِ الكَرِيمِ وَتَوجِيْهِهِ، وَالتَّنسيق بينَ آيَاتِهِ.

فهذَا إِذَا كَانَ الكَلامُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يُتَمِّمُهُ، أَوْ: يُبَيِّنُهُ، أَمَّا إِذَا تَمَّ وَأَخذَ كُلُّ لَازِمٍ مَلْزُومَهُ، وَحَصَلَتْ بِهِ الفَائِدَةُ، فَمَا الحَاجَةُ إِلَى القَوْلِ بالإِعْرَابِ المَحَلِّيِّ؟ فَمَثَلًا لَوْ قُلْتَ: (أَجَاءَ مُحَمَّدٌ؟) فَالكَلامُ هُنَا تَامٌّ وَحَصَلَتْ بِهِ الفَائِدَةُ؛ لأَنَّ (الهَمْزَةَ): لِلاستِفْهَامِ، وَ(جَاءَ): فِعْلٌ مَاضٍ، وَ(مُحَمَّدٌ): فَاعِلٌ. وَكَذَا لَوْ قُلْتَ: (أَمُحَمَّدُ أَقْبِلْ)، فَإِنَّ: (الهَمْزَةَ): حَرْفُ نِدَاءٍ، وَ(مُحَمَّدُ): مُنَادَى، وَ(أَقْبِلْ): فِعْلُ أَمْرٍ، وَفَاعِلُهُ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ فِيهِ وُجُوبًا تَقْدِيرُهُ (أَنْتَ).

فَدَلَّ الجُمْلَتَانِ عَلَى المَقْصُودِ وَلَسْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى القَوْلِ بأَنَّ (الهَمْزَةَ) فِي مَحَلِّ كَذَا، وَإِذَا قُلْتَ بالإِعْرَابِ المَحَلِّيِّ فِيهِمَا فَيَكُونُ كَلامُكَ ضَرْبًا مِنَ اللَّغْوِ وَالحَشْوِ؛ لأَنَّ الجُمْلَتَيْنِ دَلَّتَا عَلَى تَمَامِ مَعْنَاهُمَا: الاِستِفْهَامِ فِي الأُوْلَى، وَالنِّدَاءِ فِي الثَّانِيَةِ!

فَهذَا هُوَ الغَرَضُ مِنَ الإعْرَابِ الـمَحَلِّيِّ، فَالكَلِمَةُ أَوِ: الجُمْلَةُ تَعْمَلُ عَمَلَهَا الـمَوْضُوعَ لَهَا فِي العَرَبِيَّةِ، وَإِذَا كَانَ الكَلامُ بِحَاجَةٍ إِلَى شَيءٍ مُتَمِّمٍ للكَلام فَإِنَّهَا تَمْلَأُ هذَا الفَرَاغَ وَتَقَعُ مَوْقِعَهُ، وَتحلُّ مَحَلَّهُ، وَإِذَا حَصلَتِ الفَائِدَةُ، أَوِ: الجُمْلَةُ مِمَّا تَحْصُلُ بِهَا الفَائِدَةُ عَادَةً كَالمِثَالَيْنِ، فَلَسْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى الإعْرابِ الـمَحَلِّيِّ وَلَا تَقُولُ بِهِ، فَهذَا هُوَ مَا نَصبَ أوزونُ العَدَاءَ مَعَهُ وَأراد وَراءَهُ تَدليسًا وَغشًّا وَخِيَانَةً، وَأَرَادَ مَحْوَ عَمَلِ النُّحَاةِ الجَبَّارِ الَّذِي قَدَّمُوهُ بِأَرْوَعِ الوَجْهِ وَأَكْمَلِهِ؛ لأَنَّ الجُهْدَ وَالِاجتِهَادَ لَا يُفَارِقُهُم بَيَاضَ يَوْمِهِم، وَلَا سَوَادَ لَيْلِهِم، فَاسْتَسْهَلُوا الـمَشَاقَّ وَالصِّعَاب، حَتَّى أَسْهَمُوا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ بِإِسْهَاب.

الإِجْرَامُ بالكَلام، فِي تَقدِيرِ هَمْزَةِ الِاستِفْهَام:

ثُمَّ يَقُولُ: «وَإِذَا كُنَّا نُشَجِّعُ عَلَى إِلْغَائِهَا فَإِنَّنَا نَرْفُضُ حَتْمًا تَخَيُّلَهَا وَتَقْدِيرَهَا وَهْمِيًّا كَمَا فِي قَوْلِ الـمُتَنَبِّي:

[مِنَ البَسِيْطِ]

أَحْيَا وَأَيسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا وَالبَينُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

فَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ بأَنَّ الأَصْلَ فِي (أَحيَا) وَهِيَ فِعْلٌ مُضَارِعٌ: (أَأَحيَا)، وَإِنَّ هَمْزَةَ الِاستِفْهَامِ مَحْذُوفَةٌ، وَنَحْنُ نَسْأَلُ: إِذَا كَانَتْ مَحذُوفَةً فَلِمَاذَا نُضِيفُهَا وَنَتَخَيَّلُهَا؟». ص: (٩٢).

أَقُولُ: إِنَّ النُّحَاةَ لَم يَقُولُو بِتَقدِيرِ (الهَمْزَةِ) فِي هذَا البَيْتِ وَأَمْثَالِهِ جُزَافًا، وَلَا رَجْمًا بالغَيْبِ، بَلْ: قَالُوهُ بَعْدَ النَّظَرِ الثَّاقِبِ، وَالتَّفْتِيشِ الدَّائِبِ، وَلِذلِكَ أَتَوا بالقَولِ الصَّائِبِ،

وَلِمُعَارِضِيهِم الهَوَانُ ضَرْبَةَ لَازِب! وَلكِنَّ الـمُعَارِضَ لَا فَهِمَ قَوَاعِدَ هؤلاءِ العُلَمَاءِ بِنَفْسِهِ، وَلَا قَرَأَ لَهُم وتَفَهَّمَ باستِعَانَةِ غيرِهِ، وَلكِنَّهُ اختَارَ العِنَادَ وَجعَلَهُ لَهُ شِعَارًا وَدِثَارًا، وَجَاءَ وَطَلَبَ مِنْ كُتُبِ النُّحَاةِ ثَأرًا، لَيْتَهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ يُقْدِمُ بِنَفْسِهِ عَلَى شَدَائِدِ الـمَسَالِكِ، وَحَوَالِكِ الهَوَالِكِ، وَاللهُ الـمُستعَانُ.

فَلَوْ رَجعَ إِلَى أَحدٍ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ اعتَنوا بِلُغَةِ هذَا البَيْتِ لأَذْعَنَ لَهُم إِنْ كَانَ باحِثًا مُنْصِفًا، وَلكِنَّهُ جَائِرٌ جَانٍ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ إِنْ كَانَ رَجَعَ وَرَأى الحَقَّ وَأَخْفَاهُ وَانتَقَدَهُ فَجَنَى بِكِتْمَانِهِ، وَإِذَا لَمْ يَرْجِعْ وَلَم يَبْحَثْ فَهُوَ جَانٍ فِي حَقِّ الأَكَابِرِ حيثُ يَنسبُ الجِنَايَةَ إِلَيْهِم وَيَزْدَرِي بِهِم، دُونَ الرُّجُوعِ إِلَى مَقَالِهِم، فَعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ أَنقُلُ بَعضَ مَا قَالَهُ الأَئِمَّةُ عَنِ البَيْتِ.

وَقَدْ شَرحَهُ ابنُ الحَاجِبِ فِي: (أَمَالِيْهِ) شَرْحًا وَافِيًا، وَأَظْهَرَ فِيهِ الأَوْجُهَ الَّتِي يَحْتمِلُهَا البَيْتُ الشِّعْرِيُّ، وَكَذَا تَظْهَرُ خِلالَ كَلَامِهِ ضَرُورَةُ الإِلْمَامِ بالإِعْرابِ وَمَعْرِفَةِ دَقَائِقِهِ لِتَفْسِيرِ النُّصُوصِ[(١)]، فَقَالَ: «يجوزُ أنْ يكُونَ (أَحْيَا) فِعْلًا مُضَارِعًا حُذِفَ مِنْهُ هَمْزَةُ الاسْتِفْهَامِ للإِنْكَارِ. وَتَقْدِيرُهُ: (أَأَحْيَا وَأَيسرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا؟) أيْ: كَيْفَ أَحْيَا وَهذِهِ حَالِي؟ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: (وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ)، جُمْلَةً فِي مَوْضِعِ الحَالِ، أَوْ: جُمْلَةً مَعْطُوفَةً قَرَّرَ بِهَا الجِهَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَنْكَرَ الحَيَاةَ وَنَفَاهَا؛ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَيْسَرُ مَا لَقِيَهُ قَاتِلًا، كَانَ غَيْرَ حَيٍّ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُوْنَ (أَحْيَا) مِنْ بَابِ (أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ) حُذِفَ الـمُضَافُ إِلَيْهِ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِمَا عُطِفَ عَلَيْهِ مِمَّا شُرِّكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِيْهِ. كَأَنَّهُ قَالَ: (أَحْيَا مَا قَاسَيْتُ وَأَيْسَرُ مَا

---

(١) وَفِي هذَا رَدٌّ صَرِيحٌ علَى مُعَارِضِي الإِعْرَابِ، وَعَلَى رأسِهِمْ صَاحِبُ الجِنَايَةِ.

قَاسَيْتُ)، فَحُذِفَ الـمُضَافُ إِلَيْهِ مِنَ الأَوَّلِ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِالثَّانِي، أَوْ: حُذِفَ الـمُضَافُ إِلَيْهِ مِنَ الثَّانِي اسْتِغْنَاءً عَنْهُ بِالأَوَّلِ، ثُمَّ أُخِّرَ لِيَعتمِدَ الثَّاني عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ كَمَا فِي قَوْلِكَ: (نِصْفُ وَرُبْعُ دِرْهَمٍ)، وَكَقَوْلِهِ:

[مِنْ مَجْزُوءِ الكَامِلِ]

إِلَّا عُلالَـــــــــــــةَ أَوْ بُـــــــــــــدا هَــةَ سَــابِحٍ (نَهــدِ الجُــزارَه)[١]

وَيكُونُ مُبْتَدَأً، خَبَرُهُ (مَا قَتَلَا) إِنْ كَانَتْ (مَا) فِي: (مَا قَاسَيْتُ)، بِمَعْنَى (الَّذِي) عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ يَكْتَسِبُ التَّعْرِيفَ بِالإِضَافَةِ[٢]، وَعَلَى القَوْلِ بِأَنَّ الـمَعْرِفَةَ تَتَعَيَّنُ بِتَقَدُّمِهَا لِلابْتِدَاءِ وَإِنْ كَانَتْ مُشْتَقَّةً. أَوْ: يَكُونُ خَبَرًا مُقَدَّمًا عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ لا يَكْتَسِبُ تَعْرِيفًا بِالإِضَافَةِ، وَعَلَى القَوْلِ بِأَنَّ الـمُشْتَقَّ يَتَعَيَّنُ لِلخَبَرِ وَإِنْ كَانَ مَعْرِفَةً وَمُقَدَّمًا. فَإِنْ كَانَتْ (مَا) بِمَعْنَى (شَيْءٍ) فَخَبَرُ مُبْتَدَإٍ بِاتِّفَاقٍ. وَأَمَّا (أَحْيَا) بِاعْتِبَارِ الـمَعْنَى فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَأْخُوذًا مِنْ: (حَيِيَ الشَّيْءُ)، إِذَا كَانَتْ فِيهِ حَيَاةٌ. كَأَنَّهُ قَالَ: أَظْهَرُ شَيْءٍ فِيهِ حَيَاةٌ مِمَّا قَاسَيْتُهُ يَقْتُلُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَبْنِيًّا مِنْ: (أَحْيَيْتُهُ)، إِذَا جَعَلْتَهُ[٣] حَيًّا، كَأَنَّهُ قَالَ: أَظْهَرُ شَيْءٍ

---

(١) لَم يَذكُرْ مَا بينَ القَوْسَيْنِ.
قَالَ فِي حَاشِيَةِ الكِتَابِ: البُدَاهَةُ: أَوَّلُ جَرْيِ الفَرَسِ. وَالعُلالَةُ: جَرْيٌ بَعْدَ جَرْيِهِ الأَوَّلِ. وَالقَارِحُ: مِنَ الخَيْلِ مَا بَلَغَ أَقْصَى أَسْنَانِهِ. والجُزَارَةُ: الرَّأسُ وَالقَوائِمُ. وَالنَّهْدُ: العَظِيمُ. وَالشَّاهِدُ فِيهِ: الفَصْلُ بَيْنَ الـمُضَافِ وَالـمُضَافِ إِلَيْهِ بِاسْمٍ يَقْتَضِي الإِضَافَةَ أَيْضًا وَهُوَ (بُدَاهَة). فَأُنْزِلَا مَنْزِلَةَ اسْمٍ وَاحِدٍ (مُضَافٍ).
(٢) كَمَا هُوَ مَذهَبُ سِيبَوَيْه.
(٣) وَقَدْ يُخْطِئُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي فَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّهَا بَعْدَ (أَي)، وَ(إِذَا)، وَيَقَعُ لَهُمُ الاخْتِلاطُ، وَضَابِطُهُ كَمَا فِي قَوْلِ القَائِلِ: =

يُحْيِي مِمَّا قَاسَيْتُهُ يَقْتُلُ، وَالمقصُودُ يَحْصُلُ مِنَ الـمَعْنَيَيْنِ جَمِيْعًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (وَالبَيْنُ جَارَ عَلَى ضَعْفِي)، فَمُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: (جَارَ)، وَهُوَ يُقَوِّي الوَجْهَ الثَّانِيَ؛ لأَنَّ الوَجْهَ الأَوَّلَ الَّذِي أَنْكَرَ فيهِ كَوْنَهُ حَيًّا، لَا يَحْسُنُ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ أَنَّ البَيْنَ جَارَ عَلَى ضَعْفِهِ. وَبِالتَّقْدِيْرِ الثَّانِي لَا يَلْزَمُ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَّا لِشِدَّةِ مَا قَاسَى، وَأَنَّ غَيْرَهُ يُهْلِكُ بِأَقَلِّهِ، لا أَنَّهُ هَلَكَ. وَإِنَّمَا أَشَارَ فِيْهِ إِلَى صَبْرِهِ وَقوَّتِهِ عَلَى مَا لَقِيَهُ»[1].

هذا. وَإِذَا اتَّهَمْنَا النُّحَاةَ بِأَنَّهُم قَالُوا بِتَقدِيرِ الهَمزَةِ تَبرِيرًا لِقَوَاعِدِهِم، فَمَاذَا عَنْ أَئِمَّةِ البَلَاغَةِ وَالبَيَانِ وَالفُصَحَاءِ الَّذِيْنَ شَرَحُوا بَيْتَ الـمُتَنَبِّيِّ وَقَالُوا بِهِ، كَأَبِي العَلَاءِ الـمَعَرِّيِّ[2]، وَابنِ سِيْدَه[3]، وَأَبِي البَقَاءِ العُكْبَرِيِّ[4] وَغَيْرِهِم مِنَ الأَئِمَّةِ ؟.

التَّحقِيقُ الوَفِيّ، عَنْ دُخُولِ الهَمْزَةِ عَلَى الـمَنْفِيِّ:

ثُمَّ يُحَرِّفُ تَحرِيفًا آخَرَ فِي آخرِ أنفَاسِهِ بُغيَةَ تَشوِيْهِ النَّحْوِ وَالنُّحَاةِ، وَيَقُولُ: «**أخيرًا**: لَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ بعضَ النُّحَاةِ يَقُولُ: إِنَّ الهَمْزَةَ لَا تَدخُلُ إِلَّا

= [مِنَ البَسِيْطِ]

إِذَا كَنَيْتَ بِـ(أَيْ) فِعْلًا تُفَسِّرُهُ ... فَضُمَّ تَاءَكَ فِيْهِ ضَمَّ مُعْتَرِفِ

وَإِنْ تَكُنْ بِـ(إِذَا) يَوْمًا تُفَسِّرُهُ ... فَفَتْحُكَ التَّاءَ أَمْرٌ غَيْرُ مُخْتَلِفِ

وَقَدْ يُرْوَى: (فَفَتْحَةُ التَّاءِ أَمْرٌ..)، مَعْنَاهُ: أَنَّكَ إِذَا فَسَّرْتَ فِعْلًا بِـ(أَي)، ضَمَمْتَ التَّاءَ، وَإِذَا فَسَّرْتَهُ بِـ(إِذَا) فَتَحْتَهَا.

(١) أَمَالِي ابْنِ الحَاجِبِ (٢/ ٦٢٥-٦٢٧).

(٢) اللَّامِعُ العَزِيزِي شَرْحُ دِيوَانِ الـمُتَنَبِّي (ص١٠٥٩).

(٣) شَرْحُ الـمُشْكِلِ مِنْ شِعْرِ الـمُتَنَبِّي (ص٣٥).

(٤) شَرْحُ دِيوَانِ الـمُتنبِّيِّ للعُكبَرِيِّ (٣/ ١٦٢).

عَلَى الفِعْلِ وَالِاسْمِ، فَالحَرْفُ لَا يَدْخُلُ على الحَرْفِ، وَهُنَا نُذَكِّرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ] (سُورَةُ الشَّرْحِ). وَنُلاحِظُ أَنَّ الهَمْزَةَ(الحَرْفَ) دَخَلَتْ عَلَى (لَمْ) الحَرْفِ-حَسَبَ تَعرِيفِهِم». ص: (٩٢-٩٣).

أَقُولُ: إِنَّ الهَمْزَةَ تَدخُلُ عَلَى الِاسْمِ وَالفِعْلِ وَالحَرْفِ، وَلَا أَعرفُ عَالِمًا مِنَ العُلَمَاءِ أَنْكَرَ ذلِكَ، وَالأَمثِلَةُ عَلَى ذلِكَ فِي فَصِيحِ الكَلامِ كَثِيرَةٌ جِدًّا سَواءٌ فِي كِتابِ اللهِ تَعَالَى، أَوْ: فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الفَصِيحِ، فَكيفَ يُنْكِرُونَهُ؟ وَليتَ أوزونَ لَمْ يُطْلِقِ القَوْلَ كَعَادَتِهِ وَأَتى بِقَولِ وَاحِدٍ مِنْهُم فِي إِنْكَارِ ذلِكَ!

فَالهَمْزَةُ تَدْخُلُ عَلَى (لَمْ) وَتُفِيدُ مَعْنَيَيْنِ كَمَا ذَكَرَهُ الزَّرْكَشِيُّ قَائِلًا: «وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى لَمْ أَفَادَتْ مَعْنَيَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: التَّنْبِيهُ وَالتَّذْكِيرُ نَحْوُ: [أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ].

وَالثَّانِي: التَّعَجُّبُ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ كَقَوْلِكَ: أَلَمْ تَرَ إِلَى فُلَانٍ يَقُولُ كَذَا وَيَعْمَلُ كَذَا، عَلَى طَرِيقِ التَّعَجُّبِ مِنْهُ، وَكَيْفَ كَانَ فَهِيَ تَحذيرٌ»[(١)].

وَقَدْ ذَكَرَ دُخولَهَا عَلَى الحُرُوفِ السِّيرَافِيُّ فَقَالَ: «إِنَّ أَلِفَ الِاسْتِفْهَامِ قَدْ تَدْخُلُ للتَّقْرِيرِ، وَالرَّدِّ، وَالإِنْكارِ، وَالتَّوْبِيخِ، وَالتَّوَعُّدِ، فَتَدْخُلُ عَلَى النَّفْيِ فَتُصَيِّرُهُ إِيْجَابًا فِي التَّقْرِيرِ كَقَوْلِهِ -عَزَّوَجَلَّ-: [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ]، وَقَوْلِهِ -عَزَّوَجَلَّ-: [أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ]»[(٢)].

---

(١) البُرهانُ فِي علُومِ القُرآنِ (٤/ ١٧٩).

(٢) شَرحُ كِتابِ سِيبَوَيْهِ (٣/ ٤١٦).

وَقَدْ عَدَّدَ بَدرُ الدِّينِ الـمُرَادِيُّ فِي نِقَاطِ الفَرْقِ بينَ الهَمْزَةِ وَ(هَلْ)، أنَّ الهَمْزَةَ تَدْخُلُ عَلَى الـمَنْفِيِّ بِخِلافِ (هَلْ)، فَقَالَ: «وَانْفَرَدَتِ الهَمْزَةُ أَيْضًا بِأَنَّهَا تَدْخُلُ عَلَى الـمَنْفِيِّ، نَحْوُ: [أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ]، [أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ]. وَلَا تَدْخُلُ (هَلْ) عَلَى مَنْفِيٍّ»[1].

وَسَبَقَهُ إِلى ذلِكَ أَبُو حَيَّانَ إِذْ قَالَ: «فَإِنْ كَانَ مَنْفِيًّا جَازَ دُخُوْلُ الهَمْزَةِ عَلَيْهِ دُوْنَ (هَلْ)»[2].

وَذَكَرَهُ ابنُ هِشامٍ أيضًا[3]، كَمَا ذَكَرَه غيرُهم مِنَ العُلَمَاءِ الأَعْلَامِ.

فَمِنْهُم إِمَامُ الصَّنعَةِ الـمَجْنَى عَلَيْهِ سِيْبَوَيْهِ ذَكَرَ دُخُولَهَا عَلَى (لَا)[4]، كَمَا ذَكَرَ دُخُولَهَا عَلَى (إِنْ)[5]، وَذَكَرَ أيضًا دُخُولَهَا عَلَى الوَاوِ[6]. وَلكِنَّ أوزونَ لَمْ يقرأْ لَو حَتَّى يَعرِفَ رَأيَهُ.

وَمِنْهُمُ الـمُبَرِّدُ حَيثُ تَكَلَّمَ عنْ دُخُولِهَا عَلَى بَعضِ الحُرُوفِ فِي أَمَاكِنَ مِنْ كُتُبِهِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ فِي بَابٍ مُسْتَقِلٍّ عَنْ دُخُولِهَا عَلَى الوَاوِ فَقَالَ: «(هَذَا بَابُ الْوَاوِ الَّتِى تَدْخُلُ عَلَيْهَا أَلِفُ الِاسْتِفْهَامِ)

---

(١) الجَنَى الدَّانِي فِي حُرُوفِ الـمَعَانِي (ص٣٤١).
(٢) ارتِشَافُ الضَّرَبِ (٥/ ٢١٦٥).
(٣) مُغنِي اللَّبِيبِ (ص٤٥٧).
(٤) الكِتَابُ (٢/ ٣٠٧).
(٥) الكِتَابُ (٣/ ٨٢).
(٦) الكِتَابُ (٣/ ١٨٩).

وَذَلِكَ قَوْلك -إِذَا قَالَ الْقَائِلُ: رَأَيْتُ زَيْدًا عِنْدَ عَمْرٍو-: أَوَ هُوَ مِمَّنْ يُجَالِسُهُ؟ اسْتَفْهَمْتَ عَلَى حَدِّ مَا كُنْتَ تَعْطِفُ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: وَهُوَ مِمَّنْ يُجَالِسُهُ، فَقَالَ: أَوَ هَذَا كَذَا؟ وَهَذِهِ الْأَلِفُ لِتَمَكُّنِهَا تَدْخُلُ عَلَى الْوَاوِ، وَلَيْسَ كَذَا سَائِرُ حُرُوفِ الِاسْتِفْهَامِ، إِنَّمَا الْوَاوُ تَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ فِي قَوْلِكَ: وَهَلْ هُوَ عِنْدَكَ؟ فَتكونُ الْوَاوُ قَبْلَ (هَلْ) وَتقُولُ: وَكَيفَ صَنَعْتَ؟ وَمَتى تَخْرُجُ؟ وَأَيْنَ عَبْدُ اللهِ؟ وَكَذَلِكَ جَمِيعُهَا إِلَّا الْأَلِفَ وَلَا تَدْخُلُ الْوَاوُ عَلَى (أَمْ)، وَلَا (أَمْ) عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ (أَمْ) لِلْعَطْفِ، وَالْوَاوُ لِلْعَطْفِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْوَاوِ، وَالْفَاءِ، وَسَائِرِ حُرُوفِ الْعَطْفِ، قَوْلُ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-: [أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ]، [أَوَ أَمن أهلُ الْقرى أَنْ يَأْتِيَهم بأسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ]»[١].

وَالعُلَمَاءُ الذِّينَ ذَكَرُوا دُخولَهَا عَلَى الحُروفِ كَثِيرُونَ جِدًّا، فَمِنْهُم: أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ[٢]، وَابنُ السَّرَّاجِ[٣]، وَالزَّجَّاجِيُّ[٤]، وَابنُ فَارِسٍ[٥]، وَابنُ الانبارِيِّ[٦]، وَابنُ الوَرَّاقِ[٧]، وَابنُ مَالِكٍ[٨]، ....

---

(١) المُقتَضَبُ (٣/ ٣٠٧).

(٢) المَسَائِلُ البَصرِيَّاتُ للفَارِسِيِّ (١/ ٧١٨).

(٣) الأُصولُ فِي النَّحوِ (١/ ٣٩٦).

(٤) حُرُوفُ المَعَانِي وَالصِّفَاتِ للزَّجَّاجِيِّ (ص١٩).

(٥) الصَّاحِبِي (ص٨٠)، و(١٣٧).

(٦) اسرَارُ العَرَبِيَّةِ (ص٢٦٨).

(٧) عِلَلُ النَّحوِ (ص١٥٤).

(٨) شَرحُ الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ (٢/ ٥٦٨).

وَابنُ يَعِيشَ[(١)]، وَالسُّيوطِيُّ[(٢)]، وَالدُّسُوقِيُّ[(٣)]، وَآخَرُونَ كَثِيرونَ بِحَيثُ يَملُّ الـمُتَعَدِّدُ وَيَكَلُّ.

فأرجُو أنْ يُراجِعَ صَاحِبُ الجِنَايَةِ نَفسَهُ بَعْدَ هذَا وَيَتُوبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ هذَا الِافتِرَاءِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الهِدَايَةَ للجَمِيعِ.

ثُمَّ يَتكَلَّمُ عَنْ إِذَا وَمِثالِهَا، وَلا يَعترِضُ عليهِ اعتِرَاضًا عقلِيًّا سِوَى أَنَّهُ جَاءَ بالصُّرَاخِ فَقَطْ، فَلَو جَاءَ باعتِرَاضٍ عِلْمِيٍّ لَوَقَفْنَا عليهِ، ولكِنَّ الوَقْتَ أَشْرَفُ مِنْ أنْ يُضَيَّعَ بِكَلامٍ لَا يَكُونُ فيهِ دَلِيلٌ وَلَا شُبْهَتُهُ!

وَبَعْدَ ذلِكَ يتكَلَّمُ عَنْ (إِنْ)، وَ(أَن) الـمُخَفَّفَتَيْنِ، وَيَعْتَرِضُ عَلَى القَوْلِ بِضَمِيرِ الشَّأنِ، فَإِليكَ كَلامَهُ وَالرَّدَّ عَلَيْهِ فِي الفَصْلِ الآتِي.

---

(١) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ (٢/ ٢٨٧).

(٢) هَمْعُ الهَوَامِعِ (٢/ ٣٨٨).

(٣) حَاشِيَةُ الدُّسوقِيِّ عَلَى مُختَصَرِ الـمَعَانِي (٢/ ٣٨٩).

اعْتِرَاضٌ مِنْ وَهْنٍ، عَلَى ضَمِيرِ الشَّأْنِ

ثُمَّ يقُولُ الـمُهندِسُ: «أنْ: وَقَدْ سَمَّاهَا النُّحَاةُ أنِ الـمُخفَّفَةَ مِنْ (أنَّ) الثَّقِيلَةِ-زَعِيمَةِ الأحرُفِ الـمُشَبَّهَةِ بالفِعْلِ- وَأوجدُوا لَهَا اسْمًا مَحْذُوفًا سَمَّوهُ ضَمِيرَ الشَّأنِ وَجعَلُوا خَبَرَهَا الجُمْلَةَ الَّتِي بَعدَهَا. فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَرْضَى] (الـمُزَّمِّل).

تُعرَبُ (أَنْ): مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسمُهَا مَحذُوفٌ ضَمِيرُ الشَّأنِ، تقدِيرُهُ: (أنَّهُ).

ونحنُ نسأَلُ: مَا الغَايَةُ مِنْ ذلِكَ التَّأوِيلِ؟ وَمَا الفَائِدَةُ مِنْ ضَمِيرِ الشَّأنِ هذَا؟ وَهَلْ يُقْبَلُ ذلِكَ التَّأوِيلُ فِي كَلامِ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-؟ وَكيفَ يَقْبَلُ السَّادَةُ العُلَمَاءُ ذلِكَ وَيحفَظُونَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَيُطَالِبُونَ طُلَّابَ العِلْمِ بِحِفْظِ تِلْكَ القَوَاعِدِ العَتِيدَةِ لِفَهْمِ القُرآنِ الكَرِيمِ. وَهَلْ (عَلِمَ أنْ) عِنْدَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- تُعَادِلُ (عَلِمَ أنَّهُ)؟ رَاجِعْ بَحْثَ الأَحْرُفِ الـمُشَبَّهَةِ بالفِعْلِ». ص: (٩٥).

أقُولُ: إنَّ أمرَ ضَمِيرِ الشَّأنِ رَاجِعٌ إلَى البَحْثِ الـمَعْنَوِيِّ الَّذِي يُطَالِبُهُ الـمهندِسُ دومًا، وَإذَا رَآهُ بأُمِّ عَيْنِهِ يُنْكِرُهُ، فَلَا يُهِمُّهُ فِي هذِهِ السَّبِيلِ الَّتِي سَلَكَهَا إلَّا الاعتِرَاضَ وَالانتِقَادَ، وَالهَدْمَ وَالرَّدْمَ بِشَكْلٍ عَشْوَائِيٍّ هَمَجِيٍّ فِي الإِنْكَارِ.

فَالقَوْلُ بِهذَا الضَّمِيرِ كَانَ مِنْ أَجْلِ تَعْظِيمِ الخَبَرِ وَتَفْخِيمِ شَأنِهِ حَتَّى يأخُذَهُ الـمُخَاطَبُ بِجِدٍّ وَيُحَقِّقَهُ باجتِهَادٍ، والعُلَمَاءُ بيَّنُوهُ وَتكَلَّمُوا عنهُ بِمَا يَشْفِي العِلَّةَ وَيَرْوِي الغُلَّةَ، قَالَ ابنُ يَعِيشَ: «اعلمْ أنَّهُمْ إذَا أرادُوا ذِكْرَ جملةٍ مِنَ الجُمَلِ الاِسمِيَّةِ، أوِ: الفِعلِيَّةِ، فقدْ يُقدِّمُونَ قَبْلَهَا ضَمِيرًا يكونُ كِنَايَةً عَنْ تِلْكَ الجُمْلَةِ، وتكونُ الجُمْلَةُ

خَبَرًا عَنْ ذلِكَ الضَّمِيرِ، وَتَفْسِيرًا لَهُ. وَيُوَحِّدُونَ الضَّمِيرَ؛ لأَنَّهم يُرِيدُونَ الأمرَ والحدِيث، لأنَّ كلَّ جملةٍ شَأنٌ وحدِيثٌ، ولا يَفعلُونَ ذلكَ إلَّا فِي مَوَاضِعِ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، وذلِكَ قولُكَ: (هُوَ زيدٌ قائمٌ)، فَـ(هُوَ) ضَميرٌ لم يَتَقَدَّمْهُ ظَاهِرٌ. إِنَّمَا هُوَ ضَمِيرُ الشَّأْنِ وَالحَدِيْثِ، وَفَسَّرَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الخبَرِ، وَهُوَ (زَيدٌ قَائِمٌ)، وَلَمْ تأتِ في هذهِ الجُمْلَةِ بِعَائِدٍ إِلَى المُبْتَدَإِ؛ لأَنَّها (هُوَ) فِي المَعْنَى، وَلِذَلِكَ كَانَتْ مُفَسِّرَةً لَهُ، وَيُسَمِّيهِ الكُوْفِيُّونَ الضَّمِيرَ المَجْهُولَ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ مَا يَعُوْدُ إِلَيْهِ»[1].

وَقَالَ ابنُ مَالِكٍ: «إذا قَصَدَ المُتَكَلِّمُ أنْ يَسْتَعْظِمَ السَّامِعُ حَدِيْثَهُ، فَقَبْلَ الأَخْذِ فيهِ افْتَتَحَهُ بِالضَّمِيرِ المُسَمَّى: (ضَمِيرَ الشَّأْنِ)»[2].

فَيُسَمَّى: (ضَمِيْرَ الشَّأْنِ) وَ(الْحَدِيثِ) إِذَا كَانَ مُذَكَّرًا وَ(ضَمِيرَ الْقِصَّةِ) إِذَا كَانَ مُؤَنَّثًا[3].

وَقَدْ تَكَلَّمَ الرَّضِيُّ عَنْ هذَا الضَّمِيرِ وَأَبَانَهُ بِمُكْنَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ الفَذَّةِ، فَقَالَ: «وَالمُرَادُ بِهذَا الضَّمِيْرِ: الشَّأنُ وَالقِصَّةُ، فَيَلْزَمُهُ الإِفْرَادُ وَالغَيْبَةُ، كَالمَعُوْدِ إليهِ، إمَّا مذكَّرًا، وهو الأغلبُ، أو: مؤنَّثًا، كَمَا يَجِيءُ، وهذا الضَّمِيرُ كَأَنَّهُ رَاجِعٌ في الحَقِيْقَةِ إلى المَسْؤُوْلِ عَنْهُ بِسُؤَالٍ مُقدَّرٍ، تقُولُ مَثَلًا: (هُوَ الأَمِيرُ مُقْبِلٌ)، كَأَنَّهُ سَمِعَ ضَوْضَاءً وَجَلَبَةً، فَاسْتَبْهَمَ الأَمْرُ فَسَأَلَ: مَا الشَّأْنُ؟ فَقِيلَ: (هُوَ الأَمِيرُ مُقْبِلٌ)، أَي: الشَّأْنُ هذَا، فَلَمَّا كانَ المَعُودُ إليهِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ السُّؤَالُ، غَيْرُ ظَاهِرٍ قَبْلُ، اكْتَفَى فِي التَّفْسِيرِ بِخَبَرِ الضَّمِيرِ الَّذِي يَتَعَقَّبُهُ بِلَا فَصْلٍ؛ لأَنَّهُ مُعيَّنٌ للمَسْؤُولِ عَنْهُ، وَمُبيِّنٌ لَهُ، فَبَانَ لَكَ بِهذَا أنَّ الجُمْلَةَ بَعْدَ الضَّمِيرِ لَمْ يُؤْتَ بِهَا لِمُجَرَّدِ التَّفْسِيرِ، بَلْ: هِيَ كَسَائِرِ أَخْبَارِ المُبْتَدَآتِ، لكِنْ سُمِّيَتْ

---

(١) شَرْحُ المُفَصَّلِ (٢/ ٣٣٥).
(٢) شَرْحُ التَّسهِيلِ (١/ ١٦٣).
(٣) هَمْعُ الهَوَامِعِ (١/ ٢٧٢)، وَيُنْظَرُ أيضًا: ارتِشَافُ الضَّرَبِ لأَبِي حيَّانَ (٢/ ٩٤٧).

تَفْسِيرًا، لِمَا بَيَّنْتُهُ، وَالقَصْدُ بِهَذَا الإِبْهَامِ ثُمَّ التَّفْسِيرِ: تَعْظِيمُ الأَمْرِ، وَتَفْخِيمُ الشَّأْنِ، فَعَلَى هذَا، لَابُدَّ أَنْ يكُونَ مَضْمُونُ الجُمْلَةِ المُفَسَّرَةِ شَيئًا عَظِيمًا يُعْتَنَى بِهِ، فَلَا يُقَالُ، مَثَلًا: (هُوَ الذُّبَابُ يَطِيرُ)»[١].

وَقَالَ إِمَامُ الزَّيدِيَّةِ فِي عَصْرِهِ يَحيَى بْنُ حَمْزَةَ: «فَاعْلَمْ أَنَّ ضَمِيرَ الشَّأْنِ وَالقِصَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ، إِنَّما يَرِدُ عَلَى جِهَةِ المُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِ تِلْكَ القِصَّةِ، وَتَفْخِيمِ شَأْنِهَا، وَتَحْصِيلِ البَلَاغَةِ فِيْهِ مِنْ جهةِ إضمارِهِ أوَّلًا، وتفسيرِهِ ثانيًا؛ لأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ مُبْهَمًا فَالنُّفُوسُ مُتَطَلِّعَةٌ إِلَى فَهْمِهِ، وَلَهَا تَشَوُّقٌ إِلَيْهِ، فَلِأَجْلِ هذَا حَصَلَتْ فِيْهِ البَلَاغَةُ، ولأَجْلِ مَا فِيْهِ مِنَ الاخْتِصَاصِ بِالإِبْهَامِ، لَا يَكَادُ يَرِدُ إِلَّا فِي المَوَاضِعِ البَلِيْغَةِ المُخْتَصَّةِ بِالفَخَامَةِ»[٢].

أخيرًا: فَهذَا الضَّمِيرُ لَيسَ شَيئًا وَهمِيًّا أَوْجَدَهُ النُّحَاةُ بحيثُ لَمْ يكُنْ لَهُ فِي كَلامِ العَرَبِ أَصلٌ فَقَدَّرَهُ هؤلاءِ، بل: الأَصْلُ فِي هذَا الضَّمِيرِ أَنْ يَظْهَرَ فِي الكَلامِ وَيَبرزَ كَقَوْلِهِم: (زَيْدٌ هُوَ مُنْطَلِقٌ)، وَكَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (الإخلاص).

وَهذَا الظُّهُورُ هُوَ الأَصْلُ كَمَا أَشَارَ إِليهِ ابنُ الحَاجِبِ[٣]، أَمَّا الحَذْفُ فَكَانَ لِلاختِصَارِ، وَمَا دَامَ المَكَانُ مِمَّا يَجِبُ فِيهِ تعظِيمُ الكَلامِ يُقَدَّرُ هذَا الضَّمِيرُ فِيْهِ، وَهذَا هُوَ غَرَضُ التَّقدِيرِ.

---

(١) شَرْحُ الكَافِيَةِ (٢/ ٤٦٤-٤٦٥).
(٢) الطِّرَاز لأَسْرَارِ البَلَاغَةِ وَعُلُومِ حَقَائِقِ الإِعْجَازِ لِيَحيى بنِ حَمزَةَ (٢/ ٧٦).
(٣) أَمَالِي ابنِ الحَاجِبِ (٢/ ٦٣٤)، يُنْظَرُ: إِمْلَاءُ (١٠)، تَحتَ عُنوَانِ: (القِيَاسُ إِبْرَازُ ضَمِيرِ الشَّأْنِ، وَحَذْفُهُ شَاذٌّ).

وَكَمَا يَجِبُ أَنْ نَعلَمَ أيضًا: أنَّ هُنَاكَ فَرْقًا فِي الـمَعْنَى بَيْنَ قَوْلِنَا: (زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ)، وَ(زَيْدٌ هُوَ مُنْطَلِقٌ)، وَ(هُوَ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ)، فَالجُمْلَةُ الأُوْلَى إِخْبَارٌ أَوَّلِيٌّ، وَالثَّانِيَةُ فِيْهَا مَعْنَى التَّخْصِيْصِ، وَلَيْسَ فِي الثَّالِثَةِ مَعْنَى التَّخْصِيْصِ، وَإِنَّمَا فِيْهَا مَعْنَى التَّفْخِيْمِ وَالتَّعْظِيْمِ[1].

أَمَّا كَلَامُ الـمهندِسِ هذَا: (وَهَلْ (عَلِمَ أَنْ) عِنْدَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- تُعَادِلُ (عَلِمَ أَنَّهُ)؟)، فَهُوَ كَلامٌ ضَعِيفٌ وَإِيرَادٌ هَزِيلٌ؛ لأنَّ النُّحَاةَ وَالـمُفَسِّرِينَ[2]، لَـم يُغَيِّرُوا النَّصَّ حَتَّى يُخِيفَهُم أوزونُ بهذَا، وَكُلُّ مَا فِي الأَمْرِ أَنَّهُم فَسَّرُوا كَلامَ اللهِ تَعَالَى وَبَيَّنُوه، وَهذَا الِاعتِرَاضُ كَالِاعتِرَاضِ عَلَى مَنْ جَاءَ إِلَى سُورَةِ (الضُّحَى):

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ ﴾ (الضحى).

وَقَالَ: إنَّ ضَمَائِرَ النَّصْبِ حُذِفَتْ مُرَاعَاةً للفَوَاصِلِ، وَإِلَّا فالأَصْلُ فِي (وَمَا قَلَىٰ): وَمَا قَلَاكَ، وَفِي: (فَـَٔاوَىٰ): فَآوَاكَ، وَفِي: (فَهَدَىٰ): فَهَدَاكَ، وَفِي: (فَأَغۡنَىٰ): فَأَغْنَاكَ.

فَإِذَا جَاءَ وَاحِدٌ وَاعتَرَضَ عَلَى هذَا، عَلِمْنَا أَنَّهُ جَاهِلٌ بِلُغَةِ العَرَبِ وَأَسَالِيبِهَا الخِطَابِيَّةِ، وَقَوَاعِدِهَا البَلَاغِيَّةِ، وَاتَّهَمْنَا تَفكِيرَهُ؛ لأَنَّهُ يَتَجَاهَلُ أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ جَاءَ بِلِسَانِ العَرَبِ، فَيَجِبُ مُرَاعَاةُ قَوَاعِدِ هذِهِ اللُّغَةِ فِي تَفسِيرِهَا وَتَوْجِيهِهَا، فِي الحَذْفِ وَالإِضْمَارِ وَغَيرِهِمَا مِنْ أَسَالِيبِ الكَلامِ العَرَبِيِّ الفَصِيحِ.

---

(١) مَعَانِي النَّحو للدكتُورِ فَاضِل السَّامرائِي (١/ ٥٨).

(٢) كَلامُهُ لَا يَتَوجَّهُ إِلَى النُّحَاةِ فَقَطْ، بَلْ: يَتَوَجَّهُ إِلَى الـمُفسِّرِينَ وَغَيرِهِم.

فَبِهذَا عَلِمْنَا أنَّ إِلْزَامَ الـمهندِسِ بهذَا الأَمْرِ مُنْبِئٌ عَنْ جَهْلِهِ بِلِسَانِ العَرَبِ، كَمَا هُوَ مُعرِبٌ عَنْ عَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بالتَّفرِيقِ بينَ التَّأوِيلِ الصَّحِيحِ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ، وَبَيْنَ التَّحرِيفِ للنَّصِّ!

وَأمَّا بالنِّسْبَةِ لِكَلامِهِ هَذَا -ثِقَةً بِكِتَابِهِ-: (رَاجِعْ بَحْثَ الأَحْرُفِ الـمُشَبَّهَةِ بالفِعْلِ)، فَأقُولُ عنهُ: رَاجِعُوا هذَا الفَصْلَ مِنْهُ، وَبَعْدَ هذَا جَدِّدُوا قِرَاءَةَ رَدِّي عليهِ فِي هذَا المَبْحَثِ، حَتَّى تَتَبَيَّنَ لَكُمْ حَقِيقَةُ ثِقَتِهِ بِكِتَابِهِ الـمُلَفَّقِ.

أَوْهَامُ الـمُهَنْدِسِ الـمُلَفَّقَة، فِي بَحْثِ (إِنْ) الـمُخَفَّفَة

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يطْغَى عَلَى (إِن) الـمُخَفَّفَةِ وَيَقُولُ: «وَ(إِنْ) هذِهِ لَا عمَلَ لَهَا فَهِيَ لَـمْ تَنْصِبِ الِاسْمَ بَعْدَهَا وَلَمْ تَرْفَعِ الخَبَرَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [قَالُوا إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانِ] (طَه). حيثُ نجِدُ بَعْدَهَا (هذانِ): اسمٌ مَرْفُوعٌ بالألِفِ -لأَنَّهُ مُثَنًى- وَ(سَاحِرَان) اسمٌ مرفُوعٌ بالألِفِ لأَنَّهُ مُثنًّى.

وهكَذَا فَإِنَّ السَّادَةَ النُّحَاةَ لَمْ يَجِدُوا عَلَامَةَ النَّصْبِ (اليَاء المثنى)[1] فاعتبَرَوا (إِن) لَا عَمَلَ لَهَا؛ لِأَنَّهُم لَا يَعرِفُونَ دَوْرَ الكَلِمَةِ إِلَّا مِنْ خِلالِ الحَرَكَاتِ حَتَّى وَلَـوْ غَابَ الـمَعْنَى، وَلَا يَعترِفُونَ أَنَّ الِاسمَ بَعْدَ (إِنْ) يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا، أَوْ: مَنْصُوبًا، دُونَ أَنْ يُخِلَّ بالـمَعْنَى، لِذلِكَ فَهُم يَبْحَثُونَ دَوْمًا عَنْ تَخرِيجَاتٍ غَالِبًا مَا تَكُونُ مُضْحِكَةً مُبْكِيَةً». ص: (٩٦).

أَقُولُ: إِنَّ أوزونَ لِبُعْدِهِ عَنِ العَرَبِيَّةِ وَآرَاءِ عُلَمَائِهَا يَحصُلُ مِنهُ العَجَبُ العُجَابُ مِنَ الجَهلِ حِيْنًا، وَالغَشِّ وَالخِيَانَةِ وَالِازوِرَارِ طَوْرًا، وَإِلَّا كَيفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَنَّ النُّحَاةَ تَكَلَّمُوا عَنْ هذِهِ الـمَسَائِلِ وَضَبَطُوهَا ضَبْطًا دَقِيقًا بِحَيثُ لَـمْ تَبْقَ شَـارِدَةٌ وَلَا وَارِدَةٌ إِلَّا تَضَمَّنَتْهَا قَوَاعِدُهُم وَضَوَابِطُهُم.

وَأُكَرِّرُ مَرَّةً أُخرَى وَأَقُولُ: يَا مُهَنْدِسُ إِذَا أَنْتَ لَا تَعْرِفُ مَصْدَرَ استِدْلالِ النُّحَاةِ وَاستِشْهَادِهِم فِي التَّقْنِينِ وَالتَّقعِيدِ، فَإِنَّ القُرَّاءَ يَعرِفُونَ جَيِّدًا أَنَّ مَصْدَرَهُمُ الأَوَّلَ هُوَ

---

(١) كَانَ عَليهِ أَنْ يَقُولَ: (يَاء الـمُثَنَّى)، أَوْ: (اليَاء للمُثَنَّى)؛ لأَنَّهُ ليسَ فِي العَرَبِيَّةِ (اليَاءُ الـمُثَنَّى)، وَلكِنْ فِيهَا يَاءٌ تَكُونُ عَلَامَةً للمُثَنَّى.

القُرآنُ الكَرِيمُ؛ لأنَّهُ أَفْصَحُ كَلَامٍ عَرَبِيٍّ عَلَى الإطْلَاقِ، فَلِذلِكَ لَا تَجِدُ فِي قَوَاعِدِهِمْ مَا يُخَالِفُ القُرآنَ الكَرِيمَ أبَدًا، بَلِ: القُرآنُ الكَرِيمُ هُوَ المِيزَانُ لِقَوَاعِدِهِم وَتأسِيْسِهَا، وَضَبْطِ الأُصُولِ وَتَقْنِيْنِهَا(١).

فَالعُلَمَاءُ تَكَلَّمُوا عَنْ (إنِ) المُخَفَّفَةِ وَذَكَرُوا لَهَا شَوَاهِدَ كَلَامِ العَرَبِ، وَفِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى أيضًا عَلَى ضَوَابِطِ إعْمَالِهَا وَإِهْمَالِهَا، كَمَا نَقَلْنَا سَابِقًا كَلَامَ ابْنِ هِشَامٍ فَنَذْكُرُهُ هُنَا مَرَّةً أُخْرَى لِفَائِدَتِهِ، قَالَ ابنُ هِشَامٍ: «تَكُونُ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ فَتَدْخُلُ عَلَى الجُمْلَتَيْنِ فَإِنْ دَخَلَتْ عَلَى الاسْمِيَّةِ جَازَ إعْمَالُهَا خِلَافًا لِلكُوفِيِّينَ، لَنَا قِرَاءَةُ الحِرْمِيَّيْنِ وَأبِي بَكْرٍ [وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ]، وَحِكَايَةُ سِيبَوَيْهِ: (إنْ عَمْرًا لَمُنْطَلِقٌ)، وَيَكْثُرُ إِهْمَالُهَا نَحْو: [وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا]، [وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ]، وَقِرَاءَةُ حَفْصٍ: [إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ] وَكَذَا قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، إلَّا أنَّهُ شَدَّدَ نُونَ (هَذَانِ) وَمِنْ ذَلِكَ: [إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ] فِي قِرَاءَةِ مَنْ خَفَّفَ (لَمَا) وَإنْ دَخَلَتْ عَلَى الْفِعْلِ أُهْمِلَتْ وُجُوبًا، وَالأَكْثَرُ كَونُ الْفِعْلِ مَاضِيًا نَاسِخًا نَحْوُ: [وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً]، [وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ]، [وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُم لَفَاسِقِينَ]، وَدُونَهُ أنْ يَكُونَ مُضَارِعًا نَاسِخًا نَحْوُ: [وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ]، [وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ] وَيُقَاسُ عَلَى النَّوْعَيْنِ اتِّفَاقًا»(٢).

---

(١) قَالَ شَيْخُنَا أَبُو الفَضْلِ: كَانَ يَقُولُ شَيْخُنَا سِيبَوَيْهِ المَغْرِبِ عِيَاد المِهْرَاسُ: (القُرآنُ قَامُوسُ مَنْ لَا قَامُوسَ لَهُ).

(٢) مُغْنِي اللَّبِيبِ لِابنِ هِشَامٍ (ص٣٦-٣٧)، وَانظُرْ أيضًا: شَرْحَ كِتَابِ سِيْبَوَيهِ للسِيرَافِيِّ (٢/ ٤٦٧)، شَرْحَ المُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيشَ (٤/ ٥٤٥)، وَشَرْحَ التَّسْهِيلِ لِابنِ مَالِكٍ (٢/ ٣٣)، وَتَمْهِيدَ القَوَاعِدِ بِشَرْحِ تَسْهِيلِ الفَوَائِدِ لِنَاظِرِ الجَيْشِ (٣/ ١٣٥٩)، وَشَرْحَ المُقَدِّمَةِ المُحْسِبَةِ لِابنِ بَابَشَاذ (١/ ٢٥٦)، وَالمَقَاصِدَ الشَّافِيَةَ لِلشَّاطِبِيِّ (٢/ ٣٨٥).

فَعَلَى هذَا نَعْلَمُ أنَّ كَلَامَ المهندِسِ ضَرْبٌ مِنَ الوَهَمِ وَالخَيَالِ؛ لأنَّ النُّحَاةَ لَمْ يَخْفَ عليهِمُ الحَالَانِ، وَضَبَطُوا لَهُمَا ضَوَابِطَ بحيثُ لَا تَجِدُ مِثَالًا وَاحِدًا يَخْرُجُ عَنْ ضَوَابِطِهِم وَقَواعِدِهِم، فَإذَا كَانَ عِنْدَ أوزونَ شَيءٌ فَليأتِ بِهِ وَيَتَحَدَّى بِهِ النُّحَاةَ، أمَّا الإِتيَانُ بِمِثَالٍ بَحَثَهُ النُّحَاةُ قَبْلَ وُلادَةِ أوزونَ بأَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ، فَهذَا مَضَاحِكُ العُقَلَاءِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ!

وَفِي الخِتَامِ لَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى أنَّ كَلامَ أوزونَ هُنَا فِي هذَا الفَصْلِ لَيْسَ تَشْكِيكًا فِي النَّحْوِ وَحْدَهُ، بَلْ: يَضْرِبُ القَرَاءَاتِ القُرآنِيَّةَ أيضًا، وَمُحاوَلَةٌ مَخذُولَةٌ مَرْذُولَةٌ لِلاعتِرَاضِ عَلَى القِرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ وَتَوْجِيهِهَا، مَعَ العِلْمِ أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا يَعْرِفُ أنَّ القِرَاءَاتِ جَاءَتْ عَلَى لَهَجَاتِ العَرَبِ وَلُغَاتِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَوْجِيهِهَا لُغَوِيًّا، فَإِذَا نَجَحَ أوزونُ فِي تَشْوِيهِ سُمْعَةِ هذِهِ التَّوجِيْهَاتِ، فَإِنَّهُ يَنْجَحُ فِي التَّشْكِيْكِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَيُسَهِّلُ بابَ التَّطَاوِلِ عَلَى القُرآنِ الكَرِيْمِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

وَقَدْ فَعَلَ هذَا فِي كِتَابَيْهِ السَّابِقَيْنِ (جِنَايَةِ البُخَارِيِّ)، وَ(جِنَايَةِ الشَّافِعِيِّ)، حيثُ ذَكَرَ فِي الأَوَّلِ أَحَادِيثَ وَاعتَرَضَ عليهَا وَأسَاءَ إِلَيْهَا مَعَ أنَّ أَصْلَ تِلْكَ الأَحَادِيثِ مَذكُورٌ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ تَمَامًا، وَبِهذَا تَتَجَلَّى صُورَةُ الكَاتِبِ شَيئًا فَشَيْئًا.

وكَذَا فِي الثَّانِي ذَكَرَ مَسَائِلَ وَنَسَبَهَا إِلَى الفِقْهِ وَالتَّارِيْخِ، وَأَسَاءَ القَوْلَ وَالأَدَبَ مَعَهَا وَتَطَاوَلَ، مَعَ أنَّ أَصْلَهَا كَانَ مَذكُورًا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى ذلِكَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَ رَدِّنَا عَلَى كِتَابَيْهِ، يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

[مِنَ السَّرِيْعِ]

يُصَرِّحُ المَجْدُ إذَا مَا بَدَا ... ويَسْجُدُ البَاطِلُ للحَقِّ

دَفْعُ نَزْغِ الشَّيْطَانِ، فِي أَوْجُهِ: (إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانِ):

فَقَدْ جَاءَتْ فِي الـمُتَوَاتِرِ أَوْجُهٌ لِقِرَاءَةِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ ﴾ (طـه).

وَقَدْ جَمَعَهَا الشَّاطِبِيُّ بِقَوْلِهِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَهَـذَيْنِ فِـي هَـذَانِ حَـجَّ وَثِقْلُـهُ ... دَنَـا فَـاجْمَعُوا صِـلْ وَافْـتَحِ الـمِيمَ

يُنْظَرُ إِلَى هذَا الجَدولِ التَّوضِيْحِيِّ لِمَعْرِفَةِ هذِهِ الوجُوهِ[٢]:

القِرَاءَةُ	القَـارِئُ	نُوْنُ (إن)	اسْمُ الإِشَارَةِ
(إِنَّ هذينِ)	أَبُو عَمْرِو بْنُ العَلَاءِ	مُشَدَّدَةٌ	بِاليَاءِ وَنُونُهُ مُخَفَّفَةٌ
(إِنْ هذَانِّ)	قَرَأَ بِهَا ابنُ كَثِيرٍ	مُخَفَّفَةٌ	بِالأَلِفِ وَنُونُهُ مُشَدَّدَةٌ
(إِنْ هذانِ)	قَرَأَ بِهَا حَفْصٌ	مُخَفَّفَةٌ	بِالأَلِفِ وَنُونُهُ مُخَفَّفَةٌ
(إِنَّ هذانِ)	**الجُمْهُورُ**: نَافِعٌ، وَحَمْزَةُ، وَالكِسَائِيُّ، وَأَبُو جَعْفَرٍ	مُشَدَّدَةٌ	بِالأَلِفِ وَنُونُهُ مُخَفَّفَةٌ

فَكُلُّ هذِهِ القِرَاءَاتِ لَهَا وَجْهٌ لُغَوِيٌّ وَجَاءَ مِثْلُهَا فِي كَلامِ العَرَبِ، فَمَثَلًا إِهْمَالُ (إِنْ) فَهُوَ مَرْعِيٌّ فِي كَلامِهِم كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا فَيَكُونُ وَجْهُ: [إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانِ] عَلَى

---

(١) حِرْزُ الأَمَانِي لِلشَّاطِبِيِّ (ص٦٩)، رَقْمُ البَيْتِ: (٨٧٧).

(٢) فِكْرَةُ الجَدْوَلِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ بَحْثٍ مَنْشُورٍ فِي مَوْقِعِ الأَلوكَةِ، للأُستَاذِ إِيهَاب كَمَال.

إِلْغَاءِ عَمَلِ (إِنِ) الـمُخَفَّفَةِ وَإِهْمَالِهَا، فَيَبْقَى الِاسْمَانِ عَلَى الرَّفْعِ كمَا هُمَا عَلَيْهِ قَبْلَ دُخُولِ (إِنْ)، وَهذَا جَاءَ فِي كَلَامِ العَرَبِ بِكَثْرَةٍ مُتَكَاثِرَة.

مِنْ هُنَا نَكْتَفِي بِوَجْهٍ آخَرَ مِنْ وجُوهِ هذِهِ القِرَاءَاتِ وَتَوْجِيْهِهَا، وَهُوَ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: [إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ]، فَنَقُولُ:

إِنَّ (هـذَانِ): اسمُ (إِنَّ) مَنْصُوبٌ بِالفَتْحَةِ الـمُقَدَّرَةِ عَلَى الأَلِفِ، (كَإِعرَابِ الـمُصْطَفَى)، وَ(سَاحِرَانِ): خَبَرُهَا مَنْصُوبٌ بالضَّمَّةِ الـمُقَدَّرَةِ عَلَى الأَلِفِ أيضًا، وَهُوَ مِنَ اللُّغَاتِ الَّتِي ذَكَرُوهَا للمُثَنَّى: حيثُ يَلْزَمُ الألِفَ فِي الحَالَاتِ الثَّلَاثِ(رَفْعًا وَنَصْبًا وَخَفْضًا)، وَهذَا مَا ذَهَبَ إِليهِ ابنُ جِنِّيْ فِي تَوْجِيْهِ الآيَةِ حيثُ قَالَ: «إِنَّ مِنَ العَرَبِ مَنْ لَا يَخَافُ اللَّبسَ، وَيُجْرِي البابَ على أَصْلِ قِيَاسِهِ، فيدَعُ الألِفَ ثابتةً في الأحوالِ الثَّلاثِ، فيقُولُ: (قَامَ الزَّيْدَانِ، وَضَرَبْتُ الزَّيْدَانِ، وَمَرَرْتُ بِالزَّيْدَانِ)، وَهُمْ بَنُو الحَارِثِ بْنُ كَعْبٍ، وَبَطْنٌ مِنْ رَبِيْعَةَ، وَأَنْشَدُوا فِي ذلِكَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

تَـزَوَّدَ مِنَّـا بَيْنَ أُذْنَاهُ طَعْنَةً ... دَعَتْهُ إِلَى هَابِي التُّرَابِ عَقِيْمِ[1]

وَيذْكُرُ شَوَاهِدَ عَلَى ذلِكَ ثُمَّ يَقُولُ: «وَعَلَى هـذَا تَتَوَجَّهُ عِنْدَنَا قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: [إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ]»[2].

وَقَالَ الخَلِيلُ قَبْلَهُ: «وَأَمَّا قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: [إِنَّ هَـذَانِ لَسَاحِرَانِ] فَقَدْ ذُكِرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ –تَبَارَكَ اسْمُهُ– أَنزَلَ الْقُرْآنَ بلغَةِ كُلِّ حَيٍّ مِنْ أَحيَاءِ

---

(١) سِرُّ صَناعَةِ الإعرَابِ (٢/ ٣٣٩).

(٢) سِرُّ صَناعَةِ الإعرَابِ (٢/ ٣٤١).

الْعَرَبِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِلُغَةِ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ؛ لِأَنَّهُم يَجْعَلُونَ الْمُثَنَّى بِالْأَلفِ فِي كُلِّ وَجْهٍ مَرْفُوعًا[(١)]، فَيَقُولُونَ: (رَأَيْتُ الرَّجُلَانِ)، و(مَرَرْتُ بالرَّجُلَانِ) وَ(أَتَانِي الرَّجُلَانِ) وَإِنَّمَا صَارَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَلِفَ أَخفُّ بَنَاتِ الْمَدِّ وَاللِّيْنِ»[(٢)].

وَيُمْكِنُ الرُّجُوعُ فِيْهِ إِلَى كُتُبِ القِرَاءَاتِ وَتَوْجِيْهِهَا لِمَزِيْدٍ مِنَ البَيَانِ وَالإِيْضَاحِ، وَهذَا اليَسِيْرُ ذَكَرْنَاهُ تَوْجِيْهًا لِقِرَاءَتَيْنِ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِيْ قُلوبِ القُرَّاءِ رَيْبٌ فِي أَمْرِهَا، وَاللهُ الموَفِّقُ.

(١) يَعْنِي: عَلَى صُورَةِ المَرْفُوعِ.

(٢) الجُمَلُ فِي النَّحْوِ (ص١٥٧).

هَلْ وَرَدَتْ (إِنَّ) بِمَعْنَى (نَعَمْ) وَ(أَجَلْ) في كَلَام العرب؟

ثُمَّ يَسْتَمِرُّ عَلَى الِاعتِرَاضِ فَقَالَ عَقِبَ الكَلامِ السَّابِقِ: «وَقَدْ وَرَدَتْ قَرَاءَاتٌ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ السَّابِقَةِ بِـ(إِنَّ) (الثَّقِيْلَةِ) وَلَهَا تَخْرِيجَاتٌ مُضْحِكَةٌ عِنْدَ السَّادَةِ النُّحَاةِ، فَمِنْهُم مَنْ يَعْتَبِرُهَا بِمَعْنَى (نَعَمْ) وَنَعَمْ لَا تَعمَلُ، فَكَذلِكَ (إِنَّ)، وَمِنْهُمْ مَنْ يُدْخِلُ ضَمِيْرَ الشَّأنِ، وَإِلَى غَيرِ ذلِكَ مِنَ التَّأوِيلِ وَالوَهمِ». ص: (٩٦).

أقُولُ: إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَا يَدْعُو إِلَى الضَّحِكِ فَاضْحَكْ عَلَى قِلَّةِ باعِكَ-مَا شَاءَ لَكَ الضَّحِكُ-فِي هذِهِ الأُمُورِ الَّتِي خُضْتَهَا جَهْلًا، معَ أَنَّنَا نَبْكِي عَلَى حَالِ عَالَمِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَنَندبُهُ حيثُ نَرَى فِيْهِ أمثَالَ هذِهِ الكُتُبِ، كَمَا نَتَحَسَّرُ وَنَحْزَنُ نَتَلَهَّفُ عَلَى الشَّبَابِ وَالجِيلِ النَّاشِئِ حيثُ بُلُوا بِإِعْلَامٍ إِبْلِيسِيٍّ يُرَوِّجُ لِمِثلِ هذِه الخُزَعْبَلَاتِ وَيَعْرِضُهَا كَالعِلْمِ اليَقِينِيِّ، وَالتَّحقِيْقِ العِلْمِيِّ الحَقِيقِيِّ، فَيَلْعَبُونَ بِعُقُولِ السُّذَّجِ مِنَ الَّذِينَ خُدِعُوا تَحتَ اسمِ التَّنْوِيرِ وَالعَقْلَنَةِ!

أَمَّا مَجِيْءُ (إِنَّ) بِمَعْنَى (نَعَمْ)(١)، أَوْ: (أَجَلْ)، فِي كَلامِ العَرَبِ فَهذَا كَثِيرٌ فِي

---

(١) قَالَ مَوْلَانَا البِيتوشِيُّ-كمَا فِي شَرْحِ شَيْخِنَا العَلَّامَةِ شَفِيعِ بُرهَانِي عَلَى بَدِيْعَتِهِ الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةِ وَالمُسَمَّاةِ: (كِفَايَةَ المُعَانِي فِي حُرُوفِ المَعَانِي) (ص:١٤٨)، (بيت:٣٨٤):

[مِنَ الرَّجَزِ]

وَإِنَّ تَأتِي كَـ(نَعَمْ) وَقِيْلَ: لَا ... وَقَوْلُهُ فَقُلْتُ إِنَّهُ أَوَّلَا

شِعْرِهِم وَنَثْرِهِم، قَالَ الخَلِيلُ: «وَقَدْ يَكُونُ (إِنَّ) فِي مَعْنَى (نَعَمْ) فِي بَعْضِ لُغَاتِ الْعَرَبِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

[مِنْ مَجْزُوءِ الكَامِلِ]

بَكَـرَتْ عَلَـيَّ عَـوَاذِلي ... يَلْحَيْنَنِـي، وَأَلُومُهُنَّـهْ
ويَقُلْـنَ: شَـيْبٌ قَـدْ عَـلَا ... كَ وقَـدْ كَبِـرْتَ، فقُلْـتُ: إِنَّـهْ

أَيْ: نَعَمْ، وَأَجَلْ. وَقَالَ آخرُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

شَـابَ الْـمَفَارِقُ إِنَّ إِنَّ مِـنَ الْبِلَـى ... شَـيْبُ الْقَـذَالِ مَـعَ الْعِـذَارِ الْوَاصِـلِ

أَيْ: نَعَمْ نَعَمْ. وَقَالَ آخَرُ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

قَالَـتْ سُـلَيْمَى لَيْـتَ لِـي بَعْـلاً يَمُـنْ ... يَغْسِلُ عَنْ رَأْسِي وَيُنْسِينِي الحَزَنْ
وَحَاجَـةً لَيْسَـتْ لَهَـا عِنْـدِي ثَمَـنْ ... مَسْـتُورَةً قَضَـاؤُهَا مِنْـهُ وَمِـنْ
قَالَـتْ بَنَـاتُ الْعَـمِّ: يَـا سَـلْمَى وَإِنْ ... كَـانَ فَقِيـرًا مُعْـدِمًا قَالَـتْ وَإِنْ

(قَالَـتْ: وَإِنْ، قَالَـتْ: وَإِنْ: قَالَـتْ: وَإِنْ)

أَيْ: نَعَمْ»[1].

---

(١) الجُمَلُ فِي النَّحْوِ (ص١٥٨-١٥٩)، مَعَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ هذَا الأَخِيرَ يُمْكِنُ أَنْ يُؤَوَّلَ بِنِيَّةٍ مُقَدَّرٍ فِيهِ، عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ: (وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا)، وَلَكِنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى: (وَإِنْ)، وهذَا مَوْجُودٌ فِي كَلَامِهِمْ.

وَقَالَ سِيْبَوَيْهِ: «وَمِثْلُ مَا ذَكَرْتُ لَكَ، قَولُ العَرَبِ: (إِنَّهْ)، وَهُمْ يُرِيدُونَ: (إِنَّ)، وَمَعْنَاهَا: أَجَلْ»[1]. ثُمَّ يَذكُرُ البَيْتَ الأَوَّلَ الَّذِي وَرَدَ مِنْ كَلامِ الخَلِيْلِ.

وَذَكَرُوا أيضًا بَيْتَيْ سَاعِدَةَ الهُذَلِيِّ[2]:

[مِنَ البَسِيْطِ]

حَتَّى أَضَافَ إِلَى وادٍ ضَفَادِعُهُ غَرْقَى رُدَافَى تَرَاهَا تَشتكِي النَّشَجَا
وَلَا أُقِيمُ بِدَارِ الهُونِ إِنَّ وَلَا آتِي إِلى الغَدرِ أَخْشَى دُوْنَهُ الخَمَجَا

وَقَدْ ذَكَرَ مِثْلَهُ الإِمَامُ ابنُ خَالَوَيْهِ وَغَيْرُهُ، قَوْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ لِأَعْرَابِيٍّ[3] اسْتَجْدَاهُ فَلَمْ يُعْطِهِ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَعَنَ اللهُ نَاقَةً حَمَلَتْنِي إِلَيْكَ. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: (إِنَّ وَرَاكِبَهَا)[4].

وَهُنَاكَ شَوَاهِدُ أُخْرَى تَرَكْتُهَا مَخَافَةَ التَّكْثِيرِ وَالتَّطوِيلِ وَإِلَّا لَذَكَرْتُهَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ جُرْمُ هذَا الرَّجُلِ وَمَدَى قَسَاوَتِهِ عَلَى النَّحْوِ وَالنُّحَاةِ، وَكذلِكَ كَمَا قُلْنَا سَابِقًا أَنَّ

---

(١) الكِتَابُ (٤/ ١٦٢).

(٢) النُّكَتُ فِي القُرآنِ الكَرِيْمِ لأَبِي الحَسَنِ المُجَاشِعِيِّ (ص٣٢٠)، وَإِعرابُ القرآنِ للأصبَهَانِيِّ (ص٢٣٠)، وَفِي: (الخزَانة): (بِدَارِ الذُّلِّ) (١١/ ٢١٥).

(٣) مِنْ عَجِيْبِ الاتِّفَاقِ أَنَّ اسْمَهُ أيضًا: عَبْدُ اللهِ بنُ الزُّبَيْرِ، كَمَا قَالَ الخَطِيْبُ البَغْدَادِيُّ: «عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ سُلَيْم، وَيُقَالُ: ابنُ الأَسْلَم، ابنِ الأَعْشَى أَبُو كَثِيْرٍ، وَيُقَالُ: أَبُو سَعْدٍ الأَسَدِيُّ الْكُوفِيُّ الشَّاعِرُ». يُنْظَرُ تَارِيخُ بَغْدَادَ (٢/ ٩٥٥)، تَرْجَمَةُ: (٧٠).

(٤) الحُجَّةُ فِي قِرَاءَاتِ السَّبْعِ لابنِ خَالَوَيْهِ (ص٢٤٣)، وَالمحرَّرُ الوَجيزُ لِابنِ عَطِيَّةَ (٤/ ٥٠)، وَتَارِيخُ دِمشْقَ لِابنِ عَسَاكِرَ (٢٨/ ٢٦٠)، وَذَيلُ طَبَقَاتِ الحَنَابِلَةِ (٣/ ٢٤٤)، وَتَوضِيحُ المُشْتَبِهِ لِابنِ نَاصِرِ الدِّيْنِ (٤/ ٢٧٥)، الإِصَابَة فِي تَمييزِ الصَّحَابَةِ (٥/ ٢٩٧) وَ(٦/ ٢٤٢)، وَتَبْصِيرُ المُنْتَبِهِ بِتَحْرِيْرِ المُشْتَبِهِ (٢/ ٦٤٠).

هـذَا الِاعتِـرَاضَ لَـيْسَ للنَّحْـوِ فَحَسْـبُ، بَـلْ: يَتَخَطَّـى حُـدُودَهُ وَيَصِـلُ إِلَـى القِـرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ وَتَوْجِيْهِهَا بِمُقْتَضَى لِسَانِ العَرَبِ(اللِّسَانِ الَّذِي أُنْزِلَتْ بِهِ)، فَإِذَا تَأَتَّى لَهُم ذلِكَ فَيَا لِفَرْحَةِ أَعْدَاءِ القُرآنِ الكَرِيْمِ وَمُنَاوِئِيْهِ..أَعَلِمْتَ أَيُّهَا المُسْلِمُ الحَبِيبُ وَالمُسْلِمَةُ الفَاضِلَةُ كَيفَ يَتَخَطَّى العَدُوُّ وَيَتَقَدَّمُ شِبراً شِبْرًا حَتَّى يُخَلِّيكَ عَنِ الإِسْلامِ كُلِّهِ؟ وَيُحَاوِلُ أَنْ يَجُرَّكَ إِلَى الِاعتِرَاضِ عَلَى القُرآنِ الكَرِيْمِ شَيئًا فَشَيْئًا؟ فَكُنْ حَذِرًا مِنْ كَيْدِ الأَعْدَاءِ وَمُؤامَرَةِ الخَوَنَةِ، فَإِنَّهُم لَا يُضيِّعُونَ فِيْكَ فُرْصَةً إِلَّا وَيُحَاوِلُونَ فِيْهَا أَنْ يَجْعَلُوكَ خَادِمًا لِإِبْلِيسَ.

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَلَمْ يَزَلْ نَاشِرًا أَسْفَارَ سَفْسَطَةٍ ... يُرْضِي بِهَا شَاحِطَ الرِّضْوَانِ إِبْلِيْسَا

فَلَا تَسْتَسْلِمْ لَحظَةً وَكُنْ قَوِيًّا باللهِ تَعَالَى، وَاسْتَمْسِكْ بِعُلُومِ أَجْدَادِكَ تَكُنْ كَالطَّودِ شَامِخًا للأَمَامِ تُقْدِمْ، وَبِهِمَا لَجَأْتَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ لَا يَنْهَدِمْ، فَهُمَا البَابُ المَنِيعُ الَّذِي لَا يَنْعَدِمْ، وَاجْعَلْ بَيْتَي ابْنِ الأَبَارِ لَكَ شِعَارًا وَدِثَارًا، وَرَدِّدْهُمَا لَيْلًا وَنَهَارًا:

[مِنَ الكَامِلِ]

تَقَعُ الجَلَائِلُ وَهْوَ رَاسٍ رَاسِخٌ ... فِيْهَا يُوَقِّعُ لِلسُّعُودِ جَلَاءَهَا

كَالطَّوْدِ فِي عَصْفِ الرِّيَاحِ وَقَصْفِهَا ... لَا رَهْوَهَا يَخْشَى وَلَا هَوْجَاءَهَا

هَلْ تَعْمَلُ (إِنْ) عَمَلَ (لَيْسَ)؟

ثُمَّ يَقُولُ كَاتِبُ الجِنَايَةِ: «وَلَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنَّ (إِنْ) الَّتِي أَصْلُهَا (إِنَّ)-كَمَا زَعَمُوا-وَالَّتِي تُدْعَى زَعِيمَةَ الأَحْرُفِ الـمُشَبَّهَةِ بالفِعْلِ تَعْمَلُ عملَ (لَيْسَ) وَتَثُورُ عَلَى أُصُولِهَا، وَتَنْتَمِي إِلَى عَدُوَّتِهَا (كَانَ وَأَخواتِهَا)، فَفِي البَيْتِ التَّالِي:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

إِنِ الـمَرْءُ مَيْتًا بِانْقِضَاءِ حَيَاتِهِ وَلكِنْ بِأَنْ يُبْغَى عَلَيْهِ فَيُخْذَلَا

فَإِنَّ (إِنْ)-الَّتِي حُرِّكَتْ بالكَسْرِ منعًا لِالتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ-تَعْمَلُ عَمَلَ أَخواتِ(كَانَ) فَتَرْفَعُ الأَوَّلَ وَيُسَمَّى اسْمَهَا (الـمَرْءُ)، وَتَنْصِبُ الثَّانِي وَيُسَمَّى خَبَرَهَا (مَيتًا) فِي البَيْتِ السَّابِقِ». ص: (٩٦).

أَقُولُ: اخْتَلَفَ النُّحَاةُ فِي عَمَلِ (إِنْ) عَمَلَ لَيْسَ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ الـمُحَقِّقُونَ، كَمَا قَالَ السُّيُوطِيُّ: «(إِنِ) النَّافيةُ أَيْضًا من الْحُرُوف الَّتِي لَا تختَصُّ، فَكَانَ الْقيَاسُ أَلَّا تعْمَلَ فَلذَلِكَ مَنَعَ إِعمَالَهَا الْفرَّاءُ، وَأَكْثرُ البَصْرِيَّةِ وَالـمَغَارِبَةِ، وَعُزِيَ إِلَى سِيبَوَيْهِ، وَأَجَازَ إِعْمَالَهَا الْكِسَائِيُّ، وَأَكْثَرُ الْكُوفِيِّينَ، وَابْنُ السَّرَّاجِ، وَالفَارِسِيُّ، وَابْنُ جِنِّي، وَابْنُ مَالِكٍ، وَصَحَّحَهُ أَبُو حَيَّانَ لـمُشَارَكَتِهَا لِـ(مَا) فِي النَّفْيِ، وَكَوْنِهَا لِنَفْيِ الحَالِ، وَللسَّمَاعِ، وَحُكِيَ عَنْ أَهْلِ الْعَالِيَةِ: (إِنْ ذَلِكَ نَافِعَكَ، وَلَا ضَارَّكَ)، وَ(إِنْ أَحَدٌ خَيْرًا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِالعَافِيَةِ)، وَسَمِعَ الْكِسَائِيُّ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: (إِنَّا قَائِمًا) فَأَنْكَرَهَا عَلَيْهِ وَظَنَّ أَنَّهَا: (إِنَّ) الـمُشَدَّدَةُ وَقعَتْ عَلَى (قَائِم)، قَالَ: فَاسْتَثْبَتُّهُ فَإِذَا هُوَ يُرِيدُ: (إِنْ أَنَا قَائِمًا) فَتَرَكَ الْهمْزَةَ وَأَدْغَمَ عَلَى حَدِّ: [لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي] (الْكَهْف) وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيرٍ: [إِنِ

الَّذِيْنَ تَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ عِبَادًا أَمْثَالَكُم] (الأَعْرَاف)»[(١)].

وَقَدْ بَيَّنَهُ الإِمَامُ أَبُو حَيَّانَ فِي تَفْسِيْرِهِ وَذَكَرَ فِيْهِ الْمَذَاهِبَ لَمَّا ذَكَرَ قِرَاءَةَ سَعِيْدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: «وَقَرَأَ ابْنُ جُبَيْرٍ (إِنْ) خَفِيفَةً وَ(عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ) بِنَصْبِ الدَّالِ وَاللَّامِ، وَاتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى تَخْرِيجِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ عَلَى أَنَّ (إِنْ) هِيَ النَّافِيَةُ أُعْمِلَتْ عَمَلَ (مَا) الْحِجَازِيَّةِ فَرَفَعَتِ الِاسْمَ وَنَصَبَتِ الْخَبَرَ، فَـ(عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ) خَبَرٌ مَنْصُوبٌ.

قَالُوا: وَالْمَعْنَى بِهَذِهِ الْقِرَاءَةِ: تَحْقِيرُ شَأْنِ الْأَصْنَامِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِمْ لِلْبَشَرِ، بَلْ: هُمْ أَقَلُّ وَأَحْقَرُ؛ إِذْ هِيَ جَمَادَاتٌ لَا تَفْهَمُ وَلَا تَعْقِلُ. وَإِعْمَالُ (إِنْ) إِعْمَالَ (مَا) الْحِجَازِيَّةِ فِيهِ خِلَافٌ، أَجَازَ ذَلِكَ الْكِسَائِيُّ، وَأَكْثَرُ الْكُوفِيِّينَ، وَمِنَ الْبَصْرِيِّينَ: ابْنُ السَّرَّاجِ، وَالْفَارِسِيُّ، وَابْنُ جِنِّيْ، وَمَنَعَ مِنْ إِعْمَالِهِ: الْفَرَّاءُ، وَأَكْثَرُ الْبَصْرِيِّينَ، وَاخْتَلَفَ النَّقْلُ عَنْ سِيبَوَيْهِ، وَالْمُبَرِّدِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ إِعْمَالَهَا لُغَةٌ، ثَبَتَ ذَلِكَ فِي النَّثْرِ وَالنَّظْمِ وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ مُشْبَعًا فِي شَرْحِ التَّسْهِيلِ»[(٢)].

وَقَالَ النَّحَّاسُ[(٣)]: هَذِهِ قِرَاءَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْرَأَ بِهَا لِثَلَاثِ جِهَاتٍ:

إِحْدَاهَا: أَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِلسَّوَادِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ سِيبَوَيْهِ يَخْتَارُ الرَّفْعَ فِي خَبَرِ (إِنْ) إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى (مَا) فَيَقُولُ: (إِنْ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ)؛ لِأَنَّ عَمَلَ (مَا) ضَعِيفٌ، وَ(إِنْ) بِمَعْنَاهَا فَهِيَ أَضْعَفُ مِنْهَا.

---

(١) هَمْعُ الهَوَامِعِ (١/ ٤٥٣).

(٢) يُنْظَرُ: التَّذْيِيلُ وَالتَّكْمِيلُ (٤/ ٢٧٦)، وَمَا بَعْدَهَا.

(٣) يُنْظَرُ كَلَامُهُ فِي: إِعْرَابِ القُرْآنِ لِلنَّحَّاسِ (٢/ ٨٤).

وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ الْكِسَائِيَّ رَأَى أَنَّهَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لَا تَكُونُ بِمَعْنَى (مَا) إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا إِيجَابٌ، انْتَهَى.

وَكَلَامُ النَّحَّاسِ هَذَا هُوَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي؛ لِأَنَّهَا قِرَاءَةٌ مَرْوِيَّةٌ عَنْ تَابِعِيٍّ جَلِيلٍ وَلَهَا وَجْهٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَمَّا (الثَّلَاثُ جِهَاتٍ) الَّتِي ذَكَرَهَا فَلَا يَقْدَحُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ:

أَمَّا كَوْنُهَا مُخَالِفَةً لِلسَّوَادِ: فَهُوَ خِلَافٌ يَسِيرٌ جِدًّا لَا يَضُرُّ، وَلَعَلَّهُ كُتِبَ الْمَنْصُوبُ عَلَى لُغَةِ رَبِيعَةَ فِي الْوَقْفِ عَلَى الْمُنَوَّنِ الْمَنْصُوبِ بِغَيْرِ أَلْفٍ، فَلَا تَكُونُ فِيهِ مُخَالَفَةٌ لِلسَّوَادِ.

وَأَمَّا مَا حُكِيَ عَنْ سِيبَوَيْهِ: فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفَهْمُ فِي كَلَامِ سِيبَوَيْهِ فِي (إِنْ).

وَأَمَّا مَا حَكَاهُ عَنِ الْكِسَائِيِّ: فَالنَّقْلُ عَنِ الْكِسَائِيِّ أَنَّهُ حَكَى إِعْمَالَهَا وَلَيْسَ بَعْدَهَا إِيجَابٌ.

وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ هَذَا التَّخْرِيجَ الَّذِي خَرَّجُوهُ مِنْ أَنَّ (إِنْ) لِلنَّفْيِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ قِرَاءَةَ الْجُمْهُورِ تَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ كَوْنِ الْأَصْنَامِ عِبَادًا أَمْثَالَ عَابِدِيهَا، وَهَذَا التَّخْرِيجُ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ[1]، فَيُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ مُطَابَقَةِ أَحَدِ الْخَبَرَيْنِ الْآخَرَ، وَهُوَ لَا يَجُوزُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَقَدْ خَرَّجْتُ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ فِي (شَرْحِ التَّسْهِيلِ) عَلَى وَجْهٍ غَيْرِ مَا ذَكَرُوهُ، وَهُوَ: أَنَّ (أَنْ) هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَأَعْمَلَهَا عَمَلَ الْمُشَدَّدَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ (إِنِ) الْمُخَفَّفَةَ يَجُوزُ إِعْمَالُهَا عَمَلَ الْمُشَدَّدَةِ، فِي غيرِ الْمُضْمَرِ بِالْقِرَاءَةِ

---

(١) لأنَّ قِرَاءَةَ ابنِ جُبَيْرٍ تَصِيرُ مَعْنَاهَا عِنْدَهُم كَمَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: (وَالْمَعْنَى: مَا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ، أَيْ: هِيَ حِجَارَةٌ وَخَشَبٌ؛ فَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ أَشْرَفُ مِنْهُ) تفسيرُ الْقُرْطُبِيِّ (٧/ ٣٤٢).

الْمُتَوَاتِرَةِ: وَ[إِنْ كُلًّا لَـمَّا]، وَبِنَقْلِ سِيبَوَيْهِ عَنِ الْعَرَبِ. لَكِنَّهُ نُصِبَ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ خَبَرُهَا نَصْبَ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْـمَخْزُومِيِّ[١] فِي قَوْلِهِ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا اسْـوَدَّ جُـنْحُ اللَّيْـلِ فَلْتَـأْتِ وَلْـتَكُنْ … خُطَـاكَ خِفَافًـا إِنَّ حُرَّاسَـنَا أُسْـدَا[٢]

وَلكِنَّ السَّمِينَ الحَلبِيَّ أَجَابَ عَنْ إِيْرَادِ الإِمَامِ أَبِي حَيَّانَ فَقَالَ: «ولكِنْ قَدِ اسْتَشْكَلُوا هذِهِ القِرَاءَةَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَنْفِي كَوْنَهُمْ عِبَادًا أَمْثَالَهُمْ، وَالقِرَاءَةُ الشَّهِيرَةُ تُثْبِتُ ذلِكَ، وَلَا يَجُوزُ التَّنَاقُضُ فِي كَلَامِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَدْ أَجَابُوا عَنْ ذلِكَ بِأَنَّ هذِهِ القِرَاءَةَ تُفْهِمُ تَحْقِيرَ أَمْرِ الْـمَعْبُودِ مِنْ دُوْنِ اللهِ، وَغَبَاوَةَ عَابِدِهِ، وذَلِكَ أَنَّ العَابِدِيْنَ أَتَمُّ حَالًا وَأَقْدَرُ عَلَى الضُّرِّ وَالنَّفْعِ مِنْ آلِهَتِهِمْ، فَإِنَّهَا جَمَادٌ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ، فَكَيْفَ يَعْبُدُ الكَامِلُ مَنْ هُوَ دُوْنَهُ؟ فَهِيَ مُوَافِقَةٌ لِلقِرَاءَةِ الْـمُتَوَاتِرَةِ بِطَرِيْقِ الأَوْلَى»[٣].

أَعْتَذِرُ إِنْ تَجَاوَزْتُ قَلِيْلًا وَلكِنْ خِفْتُ أَنْ أَتْرُكَ أَمْرَ هذِهِ القِرَاءَةِ، فَيَدْخُلَ شَيءٌ مِنَ الشُّبَهِ عَلَى قُلُوبِ بَعْضِ القُرَّاءِ.

فَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّكَ تَرَى خِلَافَ النُّحَاةِ فِي إِعْمَالِ (إِنْ) عَمَلَ (لَيْسَ)، فَمِنْهُم مَنْ قَالَ بِهِ وَاعْتَمَدَ عَلَى بَعْضِ الأَدِلَّةِ كَمَا بُيِّنَ، وَمِنْهُم مَنْ لَمْ يَقُلْ بِعَمَلِهَا هذَا العَمَلَ وَتَأَوَّلَ تِلْكَ الأَدِلَّةَ تَأْوِيلًا آخَرَ، وَلَا أَظُنُّ هذِهِ الجُزْئِيَّةَ الفَرِيْدَةَ بِحَاجَةٍ إِلَى مِثْلِ هذَا

(١) نَصَبَ بِهِ الْـمُبْتَدَأَ وَالخَبَرَ.
(٢) البَحْرُ الْـمُحِيطُ (٥/ ٢٥٠).
(٣) الدُّرُّ الْـمَصُونُ لِلسَّمِيْنِ (٥/ ٥٤٠)، وَيُنْظَرُ أَيْضًا: اللُّبَابُ فِي عُلُومِ الكِتَابِ (٩/ ٤٢٥).

التَّضْخِيمِ وَالتَّهوِيلِ، وَلَا تُؤثِّرُ عَلَى عَمَلِ النُّحَاةِ، وَلَا يَتَرتَّبُ عَلَى القَوْلِ بِهَا وَعَدَمِ القَوْلِ كَبيرُ ثَمَرَةٍ، حَتَّى يَجْعَلَهَا صَاحِبُ الجِنَايَةِ مَطْعَنًا فِي العَرَبِيَّةِ وَعُلَمَائِهَا، وَلكِنَّ الأَمْرَ هُوَ كَمَا قَالَ الأَدِيبُ البَارِعُ ابْنُ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِيْنِيُّ: (حُشِيَ قَلْبُهُ رَيْنا، وَمُلِئَ لِسَانُهُ مَيْنا، وَبَيْنَ سَمَائِمِ نَمَائِمِهِ تَلْذَغْ، وَعَقَارِبُ مَكَايِدِهِ تَلْسَعْ)، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَى وَأَعْلَمُ.

نَظْمُ القِلَادَةِ، فِي بَيَانِ مَعْنَى الزِّيَادَةِ

ثُمَّ قَالَ الـمهندِسُ فِي نِهَايَةِ كَلَامِهِ السَّابِقِ عَنْ (إِنِ) الـمُخَفَّفَةِ: «أخِيرًا فَإِنَّ لِـ(إِنْ) وَ(أَنْ) نَصِيبًا وَحظًّا فِي الزِّيَادَةِ أيضًا كَغَيْرِهَا مِنَ الأَدَوَاتِ وَالأَحْرُفِ؛ لأَنَّ قَوَاعِدَ لُغَتِنَا غَنِيَّةٌ -مَا شَاءَ اللهُ- بِالزِّيَادَاتِ، فَهِيَ قَوَاعِدُ الزِّيَادَةِ وَالـمُزَاوَدَةِ كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

فَإِنَّ (إِنْ) زَائِدَةٌ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ (عِنْدَ النُّحَاةِ).

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [فَلَمَّا أَنْ جَاءَ البَشِيْرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارتَدَّ بَصِيْرًا] (سُورَةُ يُوسُفَ). فَإِنَّ (أَنْ) حَرْفٌ زَائِدٌ لَا عَمَلَ لَهُ (عِنْدَ النُّحَاةِ).

وَهُنَا نتَوَقَّفُ عِنْدَ ذلِكَ الحَدِّ وَنَطْلُبُ مِنَ القَارِئِ العَزِيزِ أَنْ يَسْتَنْتِجَ دِقَّةَ وَعَظَمَةَ تِلْكَ القَوَاعِدِ العَتِيْدَةِ». ص: (٩٦-٩٧).

أقُولُ: إِنَّ الـمهندِسَ يَتكَلَّمُ عَنِ الزِّيَادَةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا، كَمَا يَزْدَرِي أَيضًا بِالنُّحَاةِ وَجُهُودِهِم؛ لأَنَّهُم قَالُوا بِالزِّيَادَةِ، وَلكِنَّ الـمُشْكِلَةَ كَعَادَتِهِ تَكَنُّ وَتَكْمُنُ فِي فَهْمِهِ النَّاقِصِ، وَتَصَوُّرِهِ القَالِصِ، وَمَيْلِهِ عَنِ البَحْثِ الخَالِصِ مِنْ شَوَائِبِ الأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ الدَّفِيْنَةِ، وَإِلَّا فَلَوْ تَحَمَّلَ قَلِيلَ مُعَانَاتِ التَّحقِيقْ، مُعْتَمِدًا عَلَى كَلَامِ أَزِمَّةِ التَّدقِيْقْ، لَوَصَلَ إِلَى القَوْلِ الدَّقِيقْ.

قَالَ ابنُ السَّرَّاجِ عَنْ كَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ، عِنْدَ الكَلَامِ عَنْ لَامِ (لَعَلَّ): «وَقَالَ أَصْحَابُنَا: إنَّ اللَّامَ فِي (لَعَلَّ) زَائِدَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ (عَلَّ)، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُمَا لُغَتَانِ، وَأَنَّ الَّذِي يَقُولُ: (لَعَلَّ) لَا يَقُولُ (عَلَّ) إلَّا مُسْتَعِيْرًا لُغَةَ غَيْرِهِ؛ لَأَنِّي لَم أَرَ زَائِدًا لِغَيْرِ مَعْنًى. فَإِنْ قِيْلَ: إِنَّهَا زِيْدَتْ تَوْكِيْدًا فَهُوَ قَوْلٌ»[١].

قَالَ ابنُ يَعِيشَ مُقَسِّمًا إِيَّاهَا قِسْمَيْنِ: «الزِّيَادَةُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: زِيادَةٌ مُبْطَلَةُ العَمَلِ مَعَ بَقَاءِ الـمَعْنَى عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ، وَزِيَادَةٌ لَا يُرادُ بِهَا أَكْثَرُ مِنَ التَّأْكِيْدِ فِي الـمَعْنَى، وَإِنْ كَانَ العَمَلُ بَاقِيًا، نَحْوُ: (مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ)، وَالـمُرَادُ: مَا جَاءَنِي أَحَدٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ: (بِحَسْبِكَ زَيْدٌ)، وَالـمُرَادُ: حَسْبُكَ، وَ[وَكَفَى بِاللهِ] وَالـمُرَادُ: كَفَى اللهُ»[٢].

وَأَشَارَ ابنُ هِشَامٍ إِلَى مَعْنَى الزِّيَادَةِ وَأَوْضَحَهُ لَـمَّا تَكَلَّمَ عَنْ زِيَادَةِ (كَانَ) فِي التَّعَجُّبِ فَقَالَ: «فَزِيْدَتْ (كَانَ) بَيْنَ (مَا) وَفِعْلِ التَّعَجُّبِ، وَلَا نَعْنِي بِزِيَادَتِهَا: أَنَّهَا لَمْ تَدُلَّ عَلَى مَعْنًى أَلْبَتَّة، بَلْ: أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِهَا لِلإِسْنَادِ»[٣]، وَبِمِثْلِهِ قَالَ الشَّيْخُ خَالِدٌ الأَزْهَرِيُّ[٤].

وَقَالَ أَبُو البَقَاءِ الكَفَوِيُّ: «وَالزِّيَادَةُ كَمَا تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الزَّائِدِ الـمُسْتَدْرَكِ-وَهُوَ الْمَعْنَى الْـمَشْهُورُ-، كَذَلِكَ تُسْتَعْمَلُ فِيمَا بِهِ الشَّيْءُ وَيَكْمُلُ بِهِ فِي عَيْنِ الْكَمَالِ، وَالزَّائِدُ فِي كَلَامِهِم لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ فَائِدَةً مَعْنَوِيَّةً، أَوْ: لَفْظِيَّةً، وَإِلَّا كَانَ عَبَثًا وَلَغْوًا.

---

(١) الأُصُولُ فِي النَّحْوِ (٢/ ٢٢٠).
(٢) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيشَ (٤/ ٤٢٣).
(٣) شَرْحُ قَطْرِ النَّدَى (ص١٣٨).
(٤) شَرْحُ التَّصرِيحِ عَلَى التَّوضِيْحِ (١م٢٥١).

فَالـمَعْنَوِيَّةُ: تَأْكِيدٌ للمَعْنَى كَمَا فِي (مِنِ) الِاسْتِغْرَاقِيَّةِ، وَ(الْبَاءِ) فِي خَبَرِ (مَا) وَ(لَيْسَ).

وَاللَّفْظِيَّةُ: تَزْيِينُ اللَّفْظِ وَكَوْنُهُ بِزِيَادَتِهَا أَفْصَحَ، أَوْ: مُهَيَّأً لِاسْتِقَامَةِ وَزْنٍ، أَوْ: لِحُسْنِ سَجعٍ، أَوْ: غَيرِ ذَلِكَ.

وَقَدْ تَجْتَمِعُ الفَائِدَتَانِ فِي حَرْفٍ، وَقَدْ تَنْفَرِدُ إِحْدَاهُمَا عَنِ الْأُخْرَى، وَلَا يَصِحُّ فِي الْكَلَامِ الـمُعْجِزِ مَعْنَى الزِّيَادَةِ الَّتِي تَكُونُ لَغْوًا، بَلِ: الـمُرَادُ بِهَا أَنْ لَا تَكُونَ مَوْضُوعَةً لِـمَعْنًى: هُوَ جُزْءُ التَّرْكِيبِ، وَإِنَّمَا تُفِيدُ وَثَاقَةً وَقُوَّةً لِلتَّرْكِيبِ كَمَا قَالَهُ بَعضُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى] إِنَّ هَذِهِ الْهَمْزَةَ مُقْحَمَةٌ مَزِيدَةٌ لِتَقْرِيرِ مَعْنَى الْإِنْكَارِ، أَوِ: التَّقْرِيرِ، أَرَادَ: أَنَّهَا مُقْحَمَةٌ عَلَى الـمَعْطُوفِ، مَزِيدَةٌ بَعْدَ اعْتِبَارِ عَطْفِهِ، لَا أَنَّهَا مَزِيدَةٌ بِمَنْزِلَةِ حَرْفِ الصِّلَةِ غَيرِ مَذْكُورَةٍ لِإِفَادَةِ مَعْنَاهَا.

وَالزِّيَادَةُ وَالإِلْغَاءُ مِنْ عِبَارَاتِ الْكُوفِيِّينَ، وَالقِلَّةُ وَالحَشْوُ مِنْ عِبَارَاتِ الْبَصْرِيِّينَ. وَالزَّائِدُ يُوْجَدُ فِي كُلِّ عَارِضٍ، وَلَا يَلْزَمُ فِي كُلِّ زَائِدٍ عَارِضٌ»[١].

وَقَدْ رَدَّ ابنُ يَعِيشَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ وجُودَ الزِّيَادَةِ لِغَيرِ مَعْنًى فَقَالَ: «وَقَدْ أَنْكَرَ بعضُهُم وُقُوْعَ هذهِ الأَحْرُفِ زَوَائِدَ لِغَيْرِ مَعْنًى، إِذْ ذلِكَ يَكُونُ كَالعَبَثِ، وَالتَّنْزِيلُ مُنزَّهٌ عَنْ مِثْلِ ذلِكَ. وَلَيْسَ يَخْلُو إِنْكَارُهُمْ لِذلِكَ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوْهُ فِي اللُّغَةِ، أَوْ: لِـمَا ذَكَرُوْهُ مِنَ الـمَعْنَى.

فَإِنْ كَانَ الأَوَّلُ: فَقَدْ جَاءَ مِنْهُ فِي التَّنْزِيلِ وَالشِّعْرِ مَا لَا يُحْصَى، عَلَى مَا سَنَذْكُرُهُ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا.

---

(١) الكُلِّيَّاتُ لأبِي البَقَاءِ (ص٤٨٧).

وَإِنْ كَانَ الثَّانِي: فَلَيْسَ كَمَا ظَنُّوا؛ لأَنَّ قَوْلَنَا: (زَائِدٌ) لَيْسَ الـمُرَادُ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ لِغَيْرِ مَعْنًى أَلْبَتَةَ، بَلْ: يُزَادُ لِضَرْبٍ مِنَ التَّأْكِيدِ. وَالتَّأْكِيدُ مَعْنًى صَحِيْحٌ. قَالَ سِيْبَوَيْهِ عَقِيْبَ [فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ] وَنَظَائِرِهِ: (فَهُوَ لَغْوٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لَمْ تُحدِثْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَ أَنْ تَجِيْءَ مِنَ الـمَعْنَى، سِوَى تَأْكِيدِ الكَلَامِ)[(١)]»[(٢)].

وَقَدْ بَيَّنَ السِّيْرَافِيُّ كَلامَ سِيْبَوَيْهِ فَقَالَ: «قَدْ بَيَّنَ سِيْبَوَيْهِ عَنْ مَعْنَى اللَّغْوِ فِي الحَرْفِ الَّذِي يُسَمُّوْنَهُ (لَغْوًا) وَمَيَّزَ أَنَّهُ لِلتَّوْكِيدِ لِئَلَّا يَظُنَّ إِنْسَانٌ أَنَّهُ دَخَلَ الحَرْفُ لِغَيْرِ مَعْنًى أَلْبَتَّةَ؛ لأَنَّ التَّوْكِيْدَ مَعْنًى صَحِيْحٌ»[(٣)].

وَتَكَلَّمَ السِّيْرَافِيُّ عَنْ هذِهِ الـمَسْأَلَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ: «اعْلَمْ أَنَّ الحُرُوفَ الَّتِي يَجُوزُ حَذْفُهَا عَلَى ضَرْبَينِ: مِنْهَا مَا يُحْذَفُ وَهُوَ مُقَدَّرٌ مَنْوِيٌّ لِصِحَّةِ مَعْنَى الكَلَامِ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ زَائِدًا لِضَرْبٍ مِنَ التَّأْكِيْدِ، والكَلامُ لا يَحْوَجُّ إليهِ، فَإِذَا حُذِفَ لَمْ يُقَدَّرْ. وأَمَّا الَّذي يكُونُ زَائِدًا (قَوْلُك)[(٤)]: (كَفَى بِاللهِ وَلِيًّا)، وَالـمَعْنَى: كَفَى اللهُ. وَ(لَيْسَ أَخُوكَ بِزَيْدٍ)؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ: لَيْسَ أَخُوكَ زَيْدًا. وَ(مَا قَامَ مِنْ أَحَدٍ)؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ: مَا قَامَ أَحَدٌ، فإِذَا حَذَفْنَا هذه الحُرُوفَ، لم يَخْتَلَّ الكلامُ، ولا يَحْوَجُّ المعنى إلى تَقْدِيْرِهَا. وأَمَّا الَّذِي يَقْتَضِيهِ مَعْنَى الكَلامِ فنحْوُ قولِكَ: (نُبِّئْتُ زَيْدًا فَعَلَ كَذَا وَكَذَا) تقديرُهُ: نُبِّئْتُ عَنْ زَيْدٍ؛ لأَنَّ (نُبِّئْتُ) فِي مَعْنَى (أُخْبِرْتُ)، وَالخبرُ يَقْتَضِي (عَنْ) فِي الـمَعْنَى،

---

(١) يُنْظَرُ لِكَلامِ سِيبَوَيْهِ: الكِتَابُ (١/ ١٨٠)، (٤/ ٢٢١).

(٢) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ لِابنِ يَعِيش (٥/ ٦٤).

(٣) شَرْحُ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ (٥/ ٩٨).

(٤) فَقَوْلُك؛ لأَنَّهُ جَوابُ (أَمَّا).

وكذلِكَ: (أَمَرْتُكَ الخَيْرَ)، البَاءُ مقدَّرَةٌ؛ لأَنَّ الأَمْرَ لَا يَصِلُ إِلَى الـمَأْمُورِ بِهِ إِلَّا بِحَرْفٍ، فَأَرَادَ سِيبَوَيْهِ[١] أنَّ (عَن) الـمَحْذُوفَةَ في قولِكَ: (نُبِّئْتُ زَيْدًا)، وَ(عَلَى) الـمَحْذُوفةَ فِي قَوْلِهِ: (آلَيْتُ حَبَّ العِرَاقِ)[٢]، لَيْسَتَا زَائِدَتَيْنِ، وأنَّ الـمَعْنَى يَحْوجُّ إِلَيْهِمَا بأنْ قَالَ: (عَلَى)، وَ(عَنْ) لَمْ يَزْدَادَا قطُّ وَلَا وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا، وَلَـمْ يَدْخُلَا إِلَّا لِـمَعْنًى يَحْوجُّ إِلَيْهِ الكَلَامُ، فَإِذَا وَجَدْنَاهَا فِي شَيْءٍ ثُمَّ فَقَدْنَاهَا، عَلِمْنَا أَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ، كَأَنَّهُمْ لَـمَّا قَالُوا: (نُبِّئْتُ عَنْ زَيْدٍ)، ثُمَّ قَالُوا: (نُبِّئْتُ زَيْدًا)، عَلِمْنَا أَنَّ (عَنْ) مُقَدَّرَةٌ، وَلَوْ لَـمْ تَكُنْ مُقَدَّرَةً عِنْدَ حَذْفِهَا كَانَتْ زَائِدَةً عِنْدَ ذِكْرِهَا، وَهِيَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ زَائِدَةً كَزِيَادَةِ البَاءِ فِي: (كَفَى بِاللهِ)، وَ(لَيْسَ أَخُوكَ بِزَيْدٍ)»[٣].

وَقَالَ ابنُ جِنِّيْ عَنْ زِيَادَةِ البَاءِ: «وَاعْلَمْ أَنَّ هذِهِ البَاءَ قَدْ زِيْدَتْ فِي أَمَاكِنَ. وَمَعْنَى قَوْلِي: (زِيْدَتْ)، أَنَّهَا إِنَّمَا جِيْءَ بِهَا تَوْكِيدًا للكَلَامِ. وَلَـمْ تُحْدِثْ مَعْنًى»[٤]. كَالسَّبَبِيَّةِ وَالـمُصَاحَبَةِ مَثَلًا.

وَقَدْ عَبَّرَ الشَّاطِبِيُّ عَنْ مَعْنَى الزِّيَادَةِ بأسلُوبٍ آخَرَ وَتَوْجِيهٍ جَدِيدٍ[٥] فَقَالَ: «وَمَعْنَى كَوْنِهِ زَائِدًا، كَوْنُهُ يَدْخُلُ فِي مَوْضِعٍ يَطْلُبُهُ العَامِلُ بِدُوْنِ ذَلِكَ الحَرْفِ، فَيَعْمَلُ فيهِ. فإِذَا

---

(١) يُنْظَرُ لِكَلامِ سِيبَوَيْهِ: الكِتَابُ (١/ ٣٨).

(٢) هُوَ بَيْتٌ شِعْرِيٌّ لِلمُلْتَمِسِ ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ (١/ ٣٨):

[مِنَ البَسِيْطِ]

آلَيْتُ حَبَّ العِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمُهُ ... وَالحَبُّ يَأكُلُهُ فِي القَرْيَةِ السُّوْسُ

(٣) شَرْحُ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ (١/ ٢٧٨).

(٤) سِرُّ صَنَاعَةِ الإِعْرَابِ (١/ ١٤٣).

(٥) ثُمَّ يُرْدِفُهُ التَّوْجِيهَ الآخَرَ فِي كَوْنِهَا للتَّوْكِيدِ، ويُفِيدُ طَالِبَ اللُّغَةِ وَيُتْحِفُهُم، كَمَا سَيأتِي.

قلتَ: (مَا فِي الدَّارِ أَحدٌ)، فـ(أَحدٌ) قَدْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ عَامِلُ الِابْتِداءِ مِنْ جِهَةِ الـمَعْنَى لِيَرْفَعَهُ بِأَنَّهُ مُبْتَدَأٌ، وكَذَا: (مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ)، الفِعْلُ طَالِبٌ لِأَحَدٍ بِالفَاعِلِيَّةِ، فَجَاءَتْ (مِنْ) عَامِلَةً فِي اللَّفْظِ مَعَ طَلَبِ العَامِلِ الأَوَّلِ العَمَلَ كذلِكَ فِي اللَّفْظِ، فسُمِّيَتْ زَائِدَةً لذلكَ؛ لأَنَّهَا مُقْحَمَةٌ بَيْنَ طَالِبٍ وَمَطْلُوبٍ، وَلذلكَ قَدْ يَقُولُونَ فِي (لَا) مِنْ قَوْلِهِمْ: (جِئْتُ بِلَا زَادٍ)، إِنَّها زَائِدَةٌ وَإِنْ كَانَ سُقُوطُهَا مُخِلًّا بالمعنى المرَادِ، فَإِنَّما قَصَدُوا بالزِّيَادَةِ ما ذُكِرَ، فَعَلَى هذا قَوْلُهُمْ: (مَا جَاءَنِي مِنْ رَجُلٍ). (مِنْ) فِيْهِ زَائِدَةٌ، وإِنْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الكَثْرَةِ وَالعُمُوْمِ؛ لأَنَّ ذلِكَ الـمَعْنَى الـمَذْكُوْرَ مَوْجُودٌ فِيْهَا، فَلَا يَرِدُ إذًا على النَّحْوِيِّينَ عَلَى هذِهِ الطَّرِيقَةِ اعْتِرَاضُ الـمُبَرِّدِ فِي جَعْلِهِمْ (مِنْ) فِي هذِهِ الـمَوَاضِعِ زَائِدَةً لِحُدُوْثِ مَعْنَى الكَثْرَةِ بِحُدُوثِهَا؛ لأَنَّكَ إذَا قُلْتَ: (مَا جَاءَنِي رَجُلٌ)، احْتَمَلَ أَنْ تُرِيْدَ: (مَا جَاءَنِي رَجُلٌ وَاحِدٌ، بَلِ: اثْنَانِ، أَوْ: ثَلَاثَةٌ)، أَوْ: (مَا جَاءَنِي رَجُلٌ فِي قُوَّتِهِ وَنَفَاذِهِ، بَلْ: ضَعِيفُ الرُّجُولِيَّةِ)، أَوْ: (مَا جَاءَنِي رَجُلٌ، بَلِ: امْرَأَةٌ)، فَإِذَا قُلْتَ: (مَا جَاءَنِي مِنْ رَجُلٍ)، عَمَّ جَمِيْعَ ذَلِكَ، فَأَيْنَ كَوْنُهَا زَائِدَةً؟. فَأُجِيْبَ عَنْ ذَلِكَ بِهَذَا الـمَعْنَى الـمُقَرَّرِ.

وذكَرَ بعضُهُم طريقةً أُخرَى فِي الزِّيَادَةِ: «وَهِيَ الزِّيَادَةُ لِـمُجَرَّدِ التَّوْكِيْدِ مِنْ غَيْرِ إِفَادَةِ كَثْرَةٍ وَلَا عُمُوْمٍ، وَرُدَّ عَلَى الـمُبَرِّدِ بِقَوْلِهِمْ: (مَا جَاءَنِي مِنْ أحدٍ)؛ إِذْ لَا دَلَالَةَ عَلَى عُمُومٍ وَلَا كَثْرَةٍ؛ لأَنَّ (أَحدًا) قَدْ أَفَادَ ذلِكَ الـمَعْنَى؛ إِذْ هُوَ مُرَادِفٌ لِـ(كَرَّابٍ، وَعَرِيْبٍ، وَدَيَّارٍ) وَنَحْوِهَا[1]، وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِعُمُومِ النَّفْيِ، فَإِذًا لَا يُمْكِنُ إِلَّا الزِّيَادَة.

---

(١) يَسْتَخدِمُونَ عِبَارَاتٍ كَثِيرَةً فِي هذَا الـمَوْضِعِ كَقَوْلِهِم: (مَا فِي الدَّارِ أَحَدٌ، وَلَا كَرَّابٌ وَلَا دَيَّارٌ وَلَا كَتِيعٌ، وَلَا طُوئِيٌّ، وَلَا دِبِّيجٌ، وَلَا أَرِمٌ، وَلَا شُفْرٌ، وَلَا آرِمٌ، وَلَا أَرِيمٌ، وَلَا إِيْرَمِيّ، وَلَا إِرَمِيٌّ، وَلَا وابِرٌ، وَلَا دَيُّورٌ، وَلَا دارِيٌّ، وَلَا عينٌ، وَلَا نافِخُ نارٍ، وَلَا نافِخُ ضَرَمةٍ. وَلَا تامُورٌ). فَكُلُّ هذِهِ =

فَإِذَا ثَبَتَتْ زِيَادَتُها أَلْبَتَّةَ فِي: (مِنْ أحَدٍ) جَازَ فِي: (مَا جَاءَنِي مِنْ رجُلٍ) أنْ تُزَادَ، فتكُونُ على ضَرْبَينِ، تَكُونُ زَائِدَةً عَلَى حَدِّ زِيَادَتِهَا فِي: (مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ)، وَتَكُونُ أَيْضًا مُفِيدَةً للعُمُوم، وهذا المَعْنَى قَرَّرَهُ الفَارِسِيُّ، وَهُوَ صَحِيحٌ في نفسِهِ إلَّا أنَّ اعتراضَ المُبَرِّدِ قَدْ يَرِدُ عَلَيْهِ؛ لأنَّ زِيَادَةَ (مِنْ) هُنَا للتَّوكيدِ، فالتَّوكِيدُ هُوَ أَصْلُ مَعْنَاهَا، فليستْ بِزَائِدَةٍ؛ لِأنَّ حَقِيقَةَ الزَّائِدَةِ: (مَا دخُولُهُ كَخُرُوجِهِ)، وهذهِ ليستْ كذلك؛ لأنَّ التَّوكِيدَ قبل دُخُولِهَا مَفْقُودٌ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا حَصَلَ بِهَا التَّوكِيدُ، وهو مَعْنًى كالتَّبعِيْضِ، وَالِابْتِدَاءِ، فَلَا تَسْلَمُ هذِهِ الطَّرِيقَةُ عَلَى هذَا التَّقدِيْرِ، كَمَا أنَّ في الطَّرِيقَةِ الأُوْلَى مَحَلًّا للبَحْثِ.»[(١)].

فَعَلَى أيِّ حَالٍ فَإِنَّ الخِلافَ بَيْنَهُم لَفْظِيٌّ، وَإِلَّا فَجَمِيعُهُم مُتَّفِقُونَ عَلَى عَدَمِ وجُودِ الحَشْوِ وَاللَّغْوِ فِي العَرَبِيَّةِ، وَكِتَابُ اللهِ تَعَالَى أَوْلَى وَأَحْرَى بِالخُلُوِّ مِنَ الحَشْوِ وَاللَّغْوِ؛ لأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الأَرْبَابِ، وَمُلْهِمِ الفُصَحَاءِ الكَلَامَ وَالخِطَابَ.

وَلكِنْ مِنْ بَابِ الأَمَانَةِ نَذْكُرُ أَنَّهُ ظَنَّ بَعضٌ مِمَّنْ لَا يُحتَجُّ بِقَوْلِهِ إِلَى أَنَّ فِي العَرَبِيَّةِ زِيَادَةً لِغَيْرِ مَعْنًى، وَلكِنَّ هذَا القَوْلَ مَرْدُودٌ وَلَا يُعْبَأُ بِهِ وَلَا يَتَرَقَّى لِيَكُونَ مِمَّا يُعَرَّجُ عَلَيْهِ فِي التَّشْنِيعِ عَلَى عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ، بَلِ: العُلَمَاءُ رَدُّوا كَلَامَهُ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ، فَهَا هُوَ الإِمَامُ ابنُ دُرُسْتُوَيْهِ يَقُولُ: «وَقَومٌ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ يزعُمُونَ أَنَّ الِاسمَ يُزَادُ فِي الكَلَامِ لِغَيرِ مَعْنًى، وَكَذَلِكَ غَيْرُ الِاسْمِ، وهذا القَوْلُ مَرْدُوْدٌ مَعِيْبٌ»[(٢)].

= العِبَارَاتِ وَغيرُهَا تُستَخْدَمُ فِي سِيَاقِ: (مَا فِي الدَّارِ أَحَدٌ)، يُنْظَرُ: (الزَّاهِرُ فِي مَعَانِي كَلِمَاتِ النَّاسِ لِابنِ الأنبَارِيِّ) (١/ ٢٦٤-٢٦٦).

(١) المَقَاصِدُ الشَّافِيَةُ (٣/ ٥٩٥-٥٩٧).

(٢) تَصْحِيْحُ الفَصِيْحِ وَشَرْحِهِ لِابنِ دُرُسْتُوَيْهِ (ص٢٤٢).

فَهذَا الكَلَامُ لَا عِبْرَةَ بِهِ ورَدَّهُ النُحَاةُ كَمَا رَأَيْنَاهُ، فَلِذَلِكَ لَا يَحِلُّ لأَحَدٍ أَنْ ينسِبَ إِلَيْهِمْ خِلافَ مَا قَالُوهُ وأَصَّلُوهُ، وَليتَ المهندِسَ رَجَعَ عَنْ تَلْفِيقِهِ وتَقَوُّلِهِ.

وَنَقَلَ نشْوَانُ الحِمْيَرِيُّ عَنِ المُبَرِّدِ أيضًا أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُزَادُ شَيْءٌ لِغَيْرِ مَعْنًى»[1].

أَخِيرًا: أَيُّهَا القَارِئُ الكَرِيمُ لَوْ نَظَرْتَ فِي أَوَائِلِ الكِتَابِ فِي بَحْثِ قَاعِدَةِ: (زِيَادَةٌ فِي المَبْنَى زِيَادَةٌ فِي المَعْنَى)، لَعَلِمْتَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فِي العَرَبِيَّةِ زِيَادَةٌ فِي حَرْفٍ مِنَ الحُرُوفِ الهِجَائِيَّةِ إِلَّا لِمَعْنًى، فَإِنَّهُ مِنْ بابِ أَوْلَى لَا يَكُونُ فِي كَلِمَاتِهَا زِيَادَةٌ لِغَيْرِ مَعْنًى مِنَ المَعَانِي، وَلَيْسَ فِيْهَا مَا يَكُونُ حَشْوًا وَلَغْوًا.

وَمِنْ خِلالِ ذلِكَ يَتَبَيَّنُ لَكُمْ أَنَّ المهندِسَ لَا يَعْرِفُ أُصُولَ العَرَبِيَّةِ وَلَا عِلْمَ لَهُ بِقَواعِدِهَا، إِلَّا عِلْمَ تَلْمِيذٍ مُبْتَدٍ فِي مَرَاحِلِهِ الأَوَّلِيَّةِ، وَمَعَ هذَا جَاءَ يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ وَيَعْرِضُ عَقْلَهُ وَمُسْتَوَاهُ للنَّاسِ، وَإِذَا كَانَ أوزون تَأَذَّى مِنْ مُصْطَلَحِ الزِّيَادَةِ تَنْزِيهًا للقُرآنِ الكَرِيمِ مِنْ أَنْ يَظُنَّ بِهِ الجَهَلَةُ مَا لَيْسَ لَهُ بِلَائِقٍ، فَنَقُولُ لَهُ: يَا مُهَنْدِسُ تَمَهَّلْ، فَتَرَوَّ وَلَا تَتَعَجَّلْ؛ لأَنَّ العُلَمَاءَ سَبَقُوكَ فِي هذَا الأَمْرِ حَيْثُ أَطْلَقَ بَعْضُهُم عَلَى الزَّائِدِ فِي كَلامِ اللهِ تَعَالَى (صِلَةً) تَأَدُّبًا مَعَ كَلامِهِ، وَدَفْعًا لِتَوَهُّمِ الجَهَلَةِ أَنَّ فِيْهِ كَلَامًا لَا مَعْنَى لَهُ وَيَحْضُرُنِي هُنَا مَا وَضَعَهُ الآثَارِيُّ -عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ وَالرِّضْوَانُ- فِي نِهَايَةِ أَلْفِيَّتِهِ فِي النَّحْوِ: (كِفَايَةِ الغُلَامِ)، وَذَكَرَ فِيْهِ إِعْرَابَ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى، فِي الفَصْلِ الأَخِيرِ مِنْهَا وَسَمَّاهُ: (خَاتِمَةَ الفُصُولِ) فَقَالَ:

---

(١) شَمْسُ العُلُومِ لِنَشْوَانَ الحِمْيَرِيِّ (١/ ١٦٠).

[مِنَ الرَّجَزِ]

خَاتِمَةُ الفُصُولِ إعرابُ الأدَبْ مَعَ الإلهِ وَهْوَ بَعْضُ ما وَجَبْ
فَالرَّبُّ مَسؤُولٌ بأفعالِ الطَّلَبْ كَـ(اغفِرْ لَنا) والعبدُ بالأمرِ انتَدَبْ
وَفِي: سَأَلْتُ اللهَ في التَّعلِيم تقُولُ مَنصُوبٌ على التَّعظِيم
فقِسْ عَلَى هذَا وَوَقِّعْ بلَعَلّْ مِنْهُ وحَقِّقْ بِعَسَى تُعْطَ[1] الأَمَلْ
(باللهِ طَالِبٌ ومَطلُوبٌ عُلِمْ)[2] قدْ يَعلَمُ اللهُ بمعنَى قدْ عَلِمْ[3]
وامنعْ مِنَ التَّصغيرِ ثُمَّ التَّثنِيَهْ والجَمْعِ والتَّرخِيمِ خيرَ التَّسمِيَهْ[4]
وَلَا تقُلْ عِندَ النِّدَاءِ: (يَا هُو) فَلَيْسَ فِي النُّحَاةِ مِنْ رَوَاهُ
وَشَاعَ فِي لَفْظٍ مِنَ التَّعَجُّبِ: (مَا أَكْرَمَ اللهَ)، وَفِي مَعْنًى أُبِي
وَحَيْثُمَا قِيلَ: (الكِتَابُ) انْهَضْ إليهِ كِتَابُ رَبِّي لَا كِتَابُ سِيْبَوَيهِ
لأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ شَاهِدُ وَلَا تَقُلْ ذَا الحَرْفِ مِنْهُ زَائِدُ
بَلْ هُوَ تَوكِيدٌ لمعنًى أو صِلَهْ لِلَّفظِ في آياتِهِ المفَصَّلَهْ
أَوْ لِمَعَانٍ حُقِّقَتْ عَمَّنْ رَوَى كَـ(هَلْ) وَنَحْوِ (بَلْ) لِمَعْنى لَا سِوَى
وَمَنْ يَقُلْ بأَنَّ (مَا) زَادَ سَقَطْ أَخْطَأَ فِي القَوْلِ وَذَا عَيْنُ الغَلَطْ

---

(١) فِي المَطْبُوعِ: (تُعْطَى).
(٢) أيْ: بَدَلَ الجَارِّ وَالمَجْرُور.
(٣) فِي المَطبُوعِ: عُلِمْ، بالبِنَاءِ للمَفعُولِ.
(٤) يَعْنِي: لَفْظَ الجَلَالَةِ (الله).

كَمِثْــــلِ (أَنْ) مُفِيْــــدَةِ الإِمْهَـــالِ وَكَافِيْــــــهِ نَافِيَــــــةِ الأَمْثَـــــالِ

وَلَا تَكُـــنْ مُسْتَشْـــهِدًا بالأَخْطَـــلِ فِيْـــهِ وَلَا سِـــوَاهُ كَالسَّـــمَوْأَلِ[1]

---

(١) كِفَايَةُ الغُلَامِ فِي إِعْرَابِ الكَلَامِ للآثَارِي (ص١٠٩).

وَقَالَ شَيْخُنَا أَبُو الفَضْلِ عُمَرُ الحَدُّوشِيُّ فِي مَنْظُومَتِهِ الرَّائِعَةِ: (نَشْرِ العَبِيْرِ فِي نَظْمِ قَوَاعِدِ التَّفْسِيْرِ)، تَحْتَ عُنْوَانِ: (القسمُ فِي القُرآن)، بَيْت: (٤٥٣)، وَمَا بَعْدَهُ، وَفِيْهِ:

ولـــم تقـــعْ زِيَـــادةٌ في الـــذِّكرِ بـــلْ صِـــلةٌ فَـــاعْنَ بهـــذَا الأَمْـــرِ

أعنـــي بـــذا عبـــارةَ المفســـرين فـــالأدبَ الأدبَ سِـــيما الصـــالحين

إذ يُـــوهِم التعبيـــرُ بالزيـــادهْ ألاَّ تكـــونَ معهـــا إفـــادهْ

والأمـــرُ فيهـــا بخـــلاف الواقـــع كـــم في الزوائـــدِ مـــن البـــدائع

لاَ زَائِـــدٌ–يَـــا صَـــاحِ–فِـــي القُـــرْآنِ كَـــلاَّ وَلاَ تَغْيِيـــرَ لِلْبُنْيَـــانِ

وإن جـــرت زيـــادة في المبنـــى دلـــت علـــى زيـــادة في المعنـــى

تـــألَفُ مـــن مجمـــوع مـــا ترادفـــا مـــا لـــم تكـــن لـــدى انفـــراد آلِفَـــا

فقـــوة اللفـــظ لهـــا دلالـــه لقـــوة المعنـــى بـــلا محالـــه

وحيـــث للتأكيـــد زيـــد حـــرف فزيـــده لـــه أقـــام العـــرف

مقـــام مـــا الجملـــة فيـــه كـــررت وذلـــك الأمـــر بـــه قـــد أكـــدت

أَجْحَفَ المُهَنْدِسُ وتَوَلَّى، في كَلَامِه الجَائِر عَنْ (لَا)

ثُمَّ يَقُولُ المهندِسُ: «تأتِي لا علَى أَوجُهٍ مُختَلِفَةٍ سَنكْتَفِي بِحَالَاتِ استِعْمَالِهَا مَعَ الفِعْلِ(مَاضٍ–مُضَارِعٍ). فَهِيَ أَدَاةٌ تَدْخُلُ عَلَى الفِعْلِ المَاضِي كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى](سُورَةُ القِيَامَةِ). وَتَدْخُلُ عَلَى الفِعْلِ المُضَارِعِ (الحَاضِرِ) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: [لَا يُؤاخِذُكُم اللهُ باللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُم](سُورَةُ البَقَرَة).

وَفِي كِلْتَا الحَالَتَينِ السَّابِقَتَيْنِ تُفِيدُ النَّفْي وَهُوَ عَكْسُ الإِثْبَاتِ–كَمَا نَعْلَمُ–وَلَا يَخْفَى عَلَى القَارِئِ الفَارِقُ الكَبِيرُ بينَ النَّفْي وَالإِثْبَاتِ(الإِيجَابِ).وَتُعْرَبُ (لَا) عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ: نَافِيَةً لَا عَمَلَ لَهَا، لَا عَمَلَ لَهَا لأَنَّهَا لَا تُحَرِّكُ وَلَا تُغَيِّرُ مِنْ حَرَكَةِ نِهَايَةِ الكَلِمَاتِ (وَهِيَ الأَفْعَالُ فِي حَالَتِنَا).

إِذًا فَالعَمَلُ مُرْتَبِطٌ بِالحَرَكَةِ، فَإِذَا لَم تُؤَثِّرْ فِي حَرَكَةِ آخِرِ الكَلِمَةِ ذَهَبَ عَمَلُهَا وَأَصْبَحَتْ عَاجِزَةً عِلْمًا بِأَنَّهَا تَهُزُّ كِيَانَ الدُّوَلِ.

فَإِذَا قُلْتَ: (لَا أُحِبُّ الوَطَنَ)، فَإِنَّ (لَا) لَا عَمَلَ لَهَا–نَحْوِيًّا–خَرَّبَتِ الدِّيَارَ وَالوَطَنَ.

فِي حِيْنِ نَجِدُ أَنَّ (لَا) الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الفِعْلِ المُضَارِعِ (الحَاضِرِ)، وَالَّتِي تُفِيدُ مَعْنَى النَّهْي (لَا النَّاهِيَة) تَعمَلُ فَتَجْزِمُ وَتُسَكِّنُ وَتُصبِحُ ذَاتَ مَكَانَةٍ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ.

فَإِذَا قُلْتَ: (لَا تَدْعُ إِلَى الشَّرِّ)، فَإِنَّ (لَا): نَاهِيَةٌ جَازِمَةٌ تَجْزِمُ الفِعْلَ الـمُضَارِعَ، وَفِي حَقِيْقَةِ الأَمْرِ لَا (النَّافِيَةُ)، أَوْ: لَا (النَّاهِيَةُ) تُؤَدِّيَانِ عَمَلًا أَسَاسِيًّا وَاحِدًا وَهُوَ النَّفْيُ، وَلَا النَّافِيَةُ الَّتِي لَا عَمَلَ لَهَا تَنْبَعُ مِنْ إِرَادَةٍ وَاعِيَةٍ، أَوْ: حَقِيقَةٍ ثَابِتَةٍ، أَمَّا لَا النَّاهِيَةُ العَامِلَةُ فَتُسْتَخْدَمُ عِنْدَ النَّهْيِ بالأَمْرِ وَالطَّلَبِ(١)، وَشَتَّانَ بين الـمَعْنَيَيْنِ، وَنُوَضِّحُ ذلِكَ مِنْ خِلالِ الأَمْثِلَةِ التَّالِيَةِ:

فَعِنْدَ مَا نَقُولُ: (لَا تَعِيشُ الخِرَافُ مَعَ الذِّئَابِ)، فَإِنَّ لَا النَّافِيَةَ لَا عَمَلَ لَهَا تَنْبَعُ مِنْ حَقِيْقَةٍ ثَابِتَةٍ (ظَاهِرَةٍ طَبِيْعِيَّةٍ).

كَذلِكَ عِنْدَ مَا نَقُولُ: (لَا أُحِبُّ اسْتِعْبَادَ الشُّعُوبِ)، فَإِنَّ (لَا) النَّافِيَةَ الَّتِي لَا عَمَلَ لَهَا تَنْبَعُ مِنْ إِرَادَةٍ وَاعِيَةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الشُّعُورِ الإِنْسَانِيِّ.

أَمَّا عِنْدَ مَا أَقُولُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيْمُ

فَإِنَّ (لَا) النَّاهِيَةَ العَامِلَةَ تُسْتَخْدَمُ للنَّهْيِ بالأَمْرِ وَالشِّدَّةِ وَالطَّلَبِ». ص: (٩٧-٩٩).

أَقُولُ: إِنَّ هذَا النَّهْجَ الأُوزونِيَّ يَدعُو إِلَى العَجَبِ وَالِاستِغْرَابِ لِمَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَى مَقَالَاتِهِ فِي كُتُبِهِ الأُخْرَى، وَلَمْ يَخْتَبِرْ أَيضًا مَنْهَجَ مُنْكِرِي العُلُومِ الإِسلامِيَّةِ، مِنَ الـمُستَشْرِقِينَ وَمَنْ تَقَيَّلُوهُم وَتَابَعُوهُم أَتْبَعَ مِنَ الظِّلِّ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ رَأَينَا الكَثِيرَ الكَثِيرَ

---

(١) انْظُرْ إِلَى هذَا التَّخَبُّطِ مِنْ شَخْصٍ يُرَدِّدُ دَوْمًا أَنْ لَا تَرَادُفَ فِي اللُّغَةِ، وَكَأَنِّي بِهِ قَدْ سَمِعَ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ إِنْكَارَ التَّرَادُفِ فَجَعَلَهُ لِنَفْسِهِ مَذْهَبًا مِنْ غَيْرِ مَا إِدْرَاكٍ للقَضِيَّةِ أَصْلًا.

مِنْ هذهِ الأَعَاجِيبِ وَالأَلَاعِيبِ مِنْهُم، فَلِذلِكَ لَا نَسْتَغرِبُ مَقَالًا مِنْهُم وَلَا نَتعَجَّبُ لِشَيءٍ يَخْرُجُ مِنْهُم؛ لأَنَّهُم خِرِّيجُو مَدْرَسَةِ القَسْوَةِ وَالعُنْفِ مَعَ النُّصُوصِ وَالثَّوَابِتِ، فَجَعَلُوا الخِيَانَةَ لَهُمْ رَايَة، وَالعِمَايَةَ هِيَ الغَايَة، فَصَارَ التَّموِيهُ وَالتَّحرِيفُ عِنْدَهُم مُعْتَقَدًا وَدِينًا.

[مِنَ الوَافِرِ]

وَذلِكَ دَأْبُهُ فِينَا قَدِيْمًا فَلَا تَعْجَبْ لِفِعْلٍ كَانَ دِيْنَا

أمَّا للجَوَابِ عَنْ سَفَاسِطِهِ وَشَقَاشِقِهِ فأقُولُ: إنَّ عِلْمَ النَّحوِ يَرْتكِزُ عَلَى أَوَاخِرِ الكَلِمَاتِ وَيَبْحَثُ عَنْهَا وَعَنْ مَوَاقِعَا المُخْتَلِفَةِ فِي الكَلَامِ إعْرَابًا وَبِنَاءً وَمَا أَشْبَهَ ذلِكَ، كَمَا أنَّ الصَّرْفَ يَبْحَثُ عَنْ بِنْيَةِ الكَلِمَةِ وَتَصَارِيْفِهَا، وَالبَلَاغَةَ تَبْحَثُ عَنِ التَّرَاكِيبِ مِنْ حَيثُ مَعَانِيْهَا وَأَلْفَاظُهَا، فَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى عِلْمِ الصَّرفِ لِبَحْثِهِ فِي البِنْيَةِ، وَيُقَالُ: لِمَاذَا لَا يَبْحَثُ عَنِ التَّرَاكِيبِ مِنْ حَيثُ بَيَانُهَا وَتَعْقِيدُهَا؛ لأَنَّهُ أَصْلًا وُضِعَ لِبَحْثِ الأَبْنِيَةِ، وَهكذَا يُقَالُ للفُنُونِ وَالعُلُومِ الأُخْرَى، فَإذَا اعْتَرَضْنَا بِمِثْلِ هذِهِ الاعتِرَاضَاتِ لَصِرْنَا أُضْحُوكَةً فِي سُوقِ العِلْمِ وَالفِكْرِ، وَضَيَّعْنَا أَلْقَابَنَا العِلْمِيَّةَ.

إِذَنْ فَلَا عَجَبَ إذَا نَظَرَ النَّحْوُ إِلَى الأَدَوَاتِ وَاعْتَدَّ بِجِهَةِ إِحْدَاثِهَا الحَرَكَاتِ الإِعرَابِيَّةَ، وَحَصَرَ العَمَلَ فِي هذِهِ الجِهَةِ، مَعَ أنَّ هذِهِ الحَرَكَاتِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَشْكَالٍ مَيِّتَةٍ كَمَا يُوحِي أوزونُ، بَلْ: مُرْتَبِطَةٌ وَمُمْتَزِجَةٌ بالمَعَانِي كَامتِزَاجِ الاثْنَيْنِ بالعَشرةِ فِي (اثْنَي عَشَرَ)، بِحَيْثُ لَا يَنْفَكَّانِ أَبَدًا، وَلَا يَدلُّ عَلَى المَقْصُودِ أَحَدُهُمَا دُونَ الآخَرِ، وَبَحْثُ هذَا سيأتِينَا مُفَصَّلًا مُطْنَبًا بأمْثِلَةٍ وَأَجْوِبَةٍ مُسْكِتَةٍ لأَعْدَاءِ الحَرَكَاتِ بِإذْنِ اللهِ تَعَالَى.

أمَّا الأَمْثِلَةُ العَاطِفِيَّةُ وَالطُّفُولِيَّةُ الَّتِي مَثَّلَهَا أوزونُ فَأَظُنُّهَا مَقْتَلًا لَهُ وَلِفِكْرِهِ وَللدَّارِ النَّاشِرَةِ لَهُ ولِدُعَاةِ التَّنوِيرِ وَالأَصْواتِ الشَّاذَّةِ الَّتِي وَراءَهَا؛ لأَنَّهَا كَالعَاهَةِ وَالأَوْرَامِ الخَبِيْثَةِ فِي مَيْدَانِ العِلْمِ وَالبَحْثِ، وَلَا أَدْرِي هَلْ هذِهِ هِيَ الـمُحَاكَمَةُ العَقْلِيَّةُ، وَالحُكْمُ العَقْلِيُّ الَّذِي كَانَ أوزونُ يُغَرِّدُ بِهَا وَيَتَغَنَّى بِهَا بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى؟!

فَعَلَى كُلِّ حَالٍ أقُولُ: إنَّ أَمثِلَةَ الـمهندِسِ لَيْسَتْ سِوَى حَرْبٍ ضِدَّ عَمَلِ النُّحَاةِ وَلكِنَّهَا حَرْبٌ جَاسِرَةٌ لَا يَغْتَنِمُونَ فِيْهَا إِلَّا الـمُرَاهِقِيْنَ السُّذَّجِ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا سِنَّ الرُّشْدِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُم قَدْ كَبِرَ وَشَاخَ، وَإِلَّا فَالفَطِنُ اللَّبِيْبُ يَضْحَكُ عَلَى مَنْ يأتِي بِمِثْلِ هذِهِ الـمُغَالَطَاتِ وَيدعُو إِلَيْهَا غَيْرَهُ.

لأنَّ النَّاسَ جَمِيعَهُم يَقدِرُونَ عَلَى ضَرْبِ الأَمثِلَةِ كَمَا شَاؤُوا، فَمَثَلًا، إِذَا حَاوَلَ أُوزونُ أَنْ يُمَثِّلَ لِـ(لَا) النَّافِيَةِ أَمْثِلَةً رَائِقَةً رَائِعَةً رَاقِيَةً كمَا فَعَلَ وَأَتَى بِهَا، فَغَيرُهُ أَيْضًا يُمْكِنُهُ أَنْ يُمَثِّلَ لَهَا أَمْثِلَةً فِي مُنْتَهَى البُعْدِ عَنِ الطَّبِيْعَةِ وَالعَقْلِ وَالعِلْمِ، فَعَلَى سَبِيْلِ الـمِثَالِ إِلَيْكُمْ بَعْضَ الأَمثِلَةِ، حَتَّى تَعْلَمُوا جَيِّدًا كَيْفَ يَتَلَاعَبُ الـمُهَنْدِسُ وَيَتَغَالَطُ:

- لَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنَ الـمَشْرِقِ، بَلْ: تَطْلُعُ مِنَ الـمَغْرِبِ.
- لَا يَصِيْرُ اثْنَانِ مَعَ اثْنَيْنِ أَرْبَعَةً، بَلْ: يَصِيرُ خَمْسَةً.
- لَا يَكُونُ التَّقَدُّمُ بالعَمَلِ، بَلْ: يَكُونُ بالنَّوْمِ.
- أمَّا لـ(لَا) النَّاهِيَةِ فَأقُولُ مُمَثِّلًا:
- لَا تَكْسَلْ عَنْ وَاجِبَاتِكَ، وَتَقَدَّمْ إِلَى الأَمَامِ.
- لَا تَرْضَ بالظُّلْمِ وَعَادِ أَهْلَهُ.
- لَا تُفْسِدْ فِي الأَرْضِ، وَكُنْ مُصْلِحًا.

أَورَأَيتُمْ أحِبَّتِي كَمِ ابتَعَدَ أوزونُ عَنِ الـمَنْهَجِ البَحْثِيِّ النَّزِيْهِ الرَّصِيْنِ، وَكَيْفَ أَعْمَاهُ تَعَصُّبُهُ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَعُلَمَائِهَا، بحيثُ يَرُوحُ مَعَ الهَوَى أَيْنَمَا رَاحَ وَارتَحَلَ؟!

وَأَكْتَفِي بهذَا القَدْرِ وَلَا أُبَيِّنُ بَاقِي السَّقَطَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا كَلامُهُ الجَائِرُ، فأسألُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُرْشِدَهُ رُشْدَهُ، وَيُبْصِرَهُ بِعُيوبِهِ.

ثُمَّ يَتكَلَّمُ عَنْ (مَا) وَبَعضِ مَوَاقِعِهَا فِي العَرَبِيَّةِ، ثُمَّ يَتَكَلَّمُ عَنْ شَيءٍ مِنْ حُرُوفِ الجَرِّ، وَالسُّؤَالِ عَنْ مَعْنَى الزِّيَادَةِ، وَكُلُّ هذَا قَدْ مَرَّ مَعَنَا، أَوْ: مَرَّ شِبْهُهُ وَحَاوَرْنَاهُ فِيْهِ، وَلَا نَرَى ضَرُورَةَ الِاشْتِغَالِ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَاللهُ تَعَالَ هُوَ الـمُوَفِّقُ.

تَزيِيفُ الكَلَامِ، عَنْ بَعضِ أَدَوَاتِ الاستِفْهَامِ

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يَأْخُذُ الـمهندِسُ نَاصِيَةَ الِاسْتِفْهَامِ وَيُجْحِفُ فِي حَقِّ (كَيْفَ) وَ(مَنْ)، وَيَقُولُ: «أَدَوَاتُ الِاستِفْهَامِ: وَهِيَ غَايَةٌ فِي البَسَاطَةِ سَهْلَةٌ فِي الِاستِخْدَامِ، يَعلَمُهَا الصَّغِيرُ وَالكَبِيرُ دُونَ أَيَّةِ صُعوبَةٍ، مِثل: (أَيْنَ، كَيْفَ، مَا، هَلْ...إلخ)، ولكِنْ عِنْدَ مَا تَبحثُ فِيْهَا عِنْدَ أهلِ اللُّغَةِ تَجِدُهَا غَايَةً فِي الغَرَابَةِ، وَغَايَةً فِي الـمُغَالطَةِ، فأنَا حَتَّى الآنَ مَا زِلْتُ أخلِّطُ بينَ بَعْضِهَا-وَلَا أَجْهَلُهَا-عِلْمًا أنَّ أَيَّ صَبِيٍّ يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعرِضَ حَالَاتِ إِعْرَابِ الأَدَاة (كيفَ) مثلًا، عنْ ظهرِ قلبٍ معَ الأَمثِلَةِ اللَّازِمَةِ، أُعِيدُ ثَانِيَةً: يَسْتَعرِضُ دونَ فهمٍ، أَوْ: تَحليلٍ وَتَرْكِيبٍ مَنْطِقِيٍّ». ص: (١٠٥).

أَقُولُ: إِنَّ هذَا الِاعتِرَافَ مِنَ الـمهندِسِ بأنَّهُ لَا يَزَالُ يُخَلِّطُ بينَ أَدَوَاتِ الِاستِفْهَامِ فِي العَرَبِيَّةِ، لَدَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ مُكْنَتِهِ فِي العَرَبِيَّةِ، وَكَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَم يَهضمْ قَوَاعِدَ النُّحَاةِ وَجاءَ مُعْتَرِضًا عَلَيْهَا، إِذْ هُوَ يَعْتَرِفُ بِتَخْلِيطِهِ لِـمَسَائِلِ الِاستِفْهَامِ، وَكَيْفَ لَا فَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى كِتَابَةٍ سَلِيمَةٍ كَمَا يَكْتُبُ فِي هذا السَّطْرِ نَفْسِهِ: (فأنَا حَتَّى الآنَ مَا زِلْتُ أُخلِّطُ بينَ بَعْضِهَا)، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّ (مَا زَالَ)، يُسْتَخْدَمُ لِلاستِمْرَارِ، لَـمْ يَأْتِ بِـ(حَتَّى)، وَإِذَا عُرِفَ ذلِكَ عُرِفَ أَنَّ الجَمْعَ بينَهُمَا حَشْوٌ وَلَغْوٌ!

أرجعُ فَأَقُولُ: إِنَّ مَسْأَلَةَ صُعُوبَةِ اللُّغَةِ وَتَعْقِيدِهَا، سيأتِينَا فِي فَصْلٍ مُسْتَقِلٍّ فِي أَوَاخِرِ الكِتَابِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- وَنتكَلَّمُ عنهُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيْلِ، أَمَّا هُنَا فَيَجِبُ أَنْ نُفَرِّقَ بينَ السَّعَةِ وَالتَّعقِيْدِ؛ لأنَّ العَرَبِيَّةَ لُغَةٌ وَاسِعَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى قَوَانِيْنَ وَضَوَابِطَ أَكْثَرَ حَتَّى تُتْقَنَ لِسَعَتِهَا، فَالِاستِفْهَامُ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ سَعَتِهَا، فَمَثَلًا تَجِدُ فِي العَرَبِيَّةِ أَدَاةً مِنْ

أَدَوَاتِهَا: (هَلْ) لَهَا مَعَانٍ كَثِيرَةٌ وَاستِخْدَامَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَهذِهِ بَعْضٌ مِنْهَا:

- جَاءَتْ بِمَعْنَى (قَدْ)[1]، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ (الإنسان).

- وَبِمَعْنَى النَّفْيِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ (الرحمن).

- وَللأَمْرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنِ الخَمْرِ[2]: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ (المائدة).

- كَمَا فِي قَوْلِهِ أيضًا: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ (الأنبياء).

---

(١) قَالَ مَوْلَانَا العَلَّامَةُ البِيتوشِيُّ -كَمَا فِي شَرْحِ شَيْخِنَا العَلَّامَةِ شَفِيعٍ بُرهَانِي عَلَى بَدِيْعَتِهِ الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةِ، وَالمُسَمَّاةِ: (كِفَايَةَ المُعَانِي فِي شَرْحِ) (ص:٢٧):

[مِنَ الرَّجَزِ]

أُطْلُبْ بِـ(هَلْ) تَصْدِيقَ مُوْجَب تَطْلُبْ بِهِ تَصَوُّرًا إِذْ حُظِلَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى مَا وَعَدَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَغْتَالَنِي وَشْكُ الرَّدَى
وَهْوَ بِمَعْنَى قَدْ أَتَى وَلَيْسَ فِي ذلِكَ أَصْلًا فِي الأَصَحِّ الأَعْرَفِ
وَإِنْ تَلَا الهَمْزَةَ فَابْنُ مَالِكْ يَقُولُ فِيهِ لَا غِنَى عَنْ ذلِكْ

(٢) لَقَدْ بيَّنَّا مَعنَى الأَمْرِ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ هذِهِ الآيَةُ فِي كِتَابِ: (الجِنَايَةِ عَلَى الشَّافِعِيِّ مُؤَصَّلًا)، وَبيَّنَّا فِيهِ حُرْمَةَ الخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، رَدًّا عَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُحَرِّمِ الخَمْرَ تَحْرِيمًا جَازِمًا، فَارْجِعْ إِلَيْهِ فَفِيهِ مُتْعَةٌ وَفَائِدَةٌ، أُصوليًّا وَلُغَوِيًّا. الجِنَايَةُ عَلَى الشَّافِعِيِّ (ص١٠٥)، وَمَا بَعْدَهَا.

وَلَهُ مَعَانٍ أُخرَى يُمْكِنُ الوقُوفُ عَلَيْهَا فِي أُمَّهَاتِ كُتُبِ النَّحْوِ، هذَا بالنِّسْبَةِ إِلَى خُرُوجِهَا مِنْ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَكذَا فِي مَعْنَاهَا الـمُخَصَّصِ لَهَا (أَعْنِي: الِاستِفْهَامَ) فَإِنَّهَا تَأتِي عَلَى أَشْكَالٍ وَصُوَرٍ، وَتتَبَّعَهَا النُّحَاةُ وَاستَقرَؤُوهَا، فَرَأوا العَرَبَ استَخْدَمَتْهَا وَلَمْ تَكُنْ مِنِ اختِرَاعِ النُّحَاةِ أَنْفُسِهِم حَتَّى يُسَاءَ بِهِمُ الظَّنُّ، فَكُلُّ مَا قَامَ بِهِ النُّحَاةُ هُوَ التَّقنِينُ وَالتَّقعِيدُ لِتِلْكَ الأَشْكَالِ الـمُختَلِفَةِ وَالصُّوَرِ الـمُتَبَايِنَةِ، حَتَّى تَدخُلَ فِي دَائِرَةِ قَوَاعِدِ لُغَةٍ سَلِيمَةٍ، وَلكِنْ إِذَا تَشَعَّبَتِ الـمَسَائِلُ وتَفَرَّعَتْ فَلَيْسَ مِنْ جُرْمٍ ارتَكَبَهُ النُّحَاةُ، وَجِنَايَةٍ جَنَوْهَا فِي حَقِّ العَرَبِيَّةِ كَمَا يُحَاوِلُ الـمُهَنْدِسُ بَثَّهُ وَتَرْسِيخَهُ فِي كِيَانِ ضَعِيفِي القُلُوبِ، بَلْ: هذَا التَّشَعُّبُ رَاجِعٌ إِلَى اللُّغَةِ نَفْسِهَا، وهذِهِ سِمَةُ السَّعَةِ لِلعَرَبِيَّةِ وَلَيستْ وَصْمَةَ عَارٍ، وَسَنَتَكَلَّمُ عنْ هذَا الأَمْرِ مُطْنِبًا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

خَضْرَاءُ الدِّمَن، فِي الِاعتِرَاضِ عَلَى (كَيْفَ)، وَ(مَنْ):

ثُمَّ يأتِي الـمُهندِسُ مُسْتَمِرًّا عَلَى باطِلِهِ وَيَقُولُ: «لنأخذْ مثلًا الأَدَاتَيْنِ: (كيفَ) وَ(مَنْ)، وَلْنُقارِنْ بَيْنَهُما حَسَبَ مَفاهِيم وَمُصْطَلَحَات النُّحَاةِ:

كيفَ: تُعربُ خبرًا مُقدَّمًا (لاحِظِ الـمُغالَطَةَ فِي التَّسمِيَةِ مِنَ البِدَايَةِ) إِذَا وَلِيَهَا اسمٌ، أَوْ: فِعْلٌ نَاقِصٌ. مِثَالُ: (كَيفَ الِادِّخَارُ؟)، (الِادِّخَار: كَمَا نُلاحِظُ اسمٌ جَاءَ بَعْدَهَا. أَمَّا الأَدَاةُ (مَنْ) فَنَجِدُ أَنَّ:

مَنْ: تُعْرَبُ مُبْتَدَأً إِذَا وَلِيَهَا اسمٌ، أَوْ: فِعْلٌ، مِثال: (مَنِ الطَّارِقُ؟) (الطَّارِقُ اسمٌ جَاءَ بَعْدَ مَنْ).

والسُّؤالُ هُنَا: مَا الفَرْقُ بَيْنَ حَالَتَيْ (كَيفَ)، وَ(مَنْ)؟ وَلِـمَاذَا (كيفَ) خَبَرٌ مُقَدَّمٌ وَ(مَنْ) مُبْتَدَأٌ؟ مَا هُوَ الـمِعيارُ الـمَنْطِقِيُّ وَالدَّقِيقُ للفَصْلِ بَيْنَهُمَا؟ وَلِـمَاذَا لَا يَكُونُ كُلُّ

مِنْهُمَا مُبْتَدَأً؟ فَيأتِي الجَوَابُ الـمُفْحِمُ: إِنَّ عِبارَةَ (كَيفَ الادِّخَارُ) تُصْبِحُ، أَوْ: تُعادِلُ العِبَارَةَ: الادِّخَارُ كيفَ؟ عِنْدَئِذٍ فَإِنَّ (الادِّخَارَ) مُبْتَدَأٌ مَرْفُوعٌ وَ(كيفَ) هِيَ الخَبَرُ.

وهكذَا نَدْخُلُ ثانِيَةً فِي حَلْقَةِ التَّرادُفِ الـمُغْلَقَةِ وَنَجِدُ أنَّ (كيفَ الادِّخَارُ) هِيَ مِثْلُ (الادِّخَارُ كَيفَ)، فَلِمَاذَا إِذًا نَبْدَأُ السُّؤَالَ بِالأَدَاةِ كَيفَ؟ وَلِمَاذَا هذَا التَّأوِيلُ الغَرِيبُ؟». ص: (١٠٦).

أقُولُ: إِنَّ القَوْلَ بِأنَّ (كَيْفَ) خَبَرٌ قَوْلٌ مَنْطِقِيٌّ لِلغَايَةِ وَالعَقْلُ يَقْبَلُهُ وَلَا يَشُكُّ فِيهِ، وَقَدْ بَيَّنَ النُّحَاةُ ذلِكَ بِأتَمِّ البَيَانِ وَأوْضَحِهِ، وَذَكَرُوا لَهُ تَأوِيلًا يَتَوَافَقُ تَمَامًا مَعَ حَقِيقَةِ النَّحْوِ؛ لأنَّ (كَيْفَ) تُفْهِمُ السُّؤَالَ عَنِ الحَالِ، وهذَا السُّؤَالُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا لِلتَّعبِيرِ عَنْهُ، فَقَدْ عَبَّرَ عنهُ سِيبَوَيْهِ وَقَالَ: (وَكَيْفَ: عَلَى أَيِّ حَالٍ؟ وَأَيْنَ: أَيُّ مَكَانٍ؟ وَمَتَى: أَيُّ حِيْنٍ»[1].

فَعَلَى هذَا التَّأوِيلِ يَكُونُ الكَلَامُ فِي مِثْلِ قَوْلِكَ: (كَيْفَ أَنْتَ؟): عَلَى أَيِّ حَالٍ أَنْتَ؟ فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الجُمْلَةِ لَرَأَيْنَا أنَّ جُمْلَةَ: (عَلَى أيِّ حَالٍ) فِي مَحَلِّ رَفعٍ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، وَ(أَنْتَ) مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، فَنَابَتْ (كَيْفَ)، مَنَابَ: (عَلَى أيِّ حَالٍ)، فَأَخَذَتْ إِعْرَابَهَا.

أَوْ: كَمَا عَبَّرَ ابنُ فَارِسٍ بِعِبَارَةٍ أُخرَى وَأشَارَ إِلَى أنَّ: (كَيْفَ أَنْتَ؟)، أَيْ: بِأَيِّ حَالٍ أَنْتَ؟[2]. وَلَا شَكَّ أنَّ جُمْلَةَ: (بِأيِّ حَالٍ) فِي مَحَلِّ رَفْعٍ هِيَ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، فَنَابَتْ (كَيْفَ) مَنَابَهَا فَأَخَذَتْ مَوْضِعَهَا الإِعْرَابِيَّ أيضًا. ألَيسَ هذَا اعتِمَادًا عَلَى الـمَنْطِقِ وَالعَقْلِ وَاتِّكَالًا عَلَيْهِمَا فِي وَضْعِ القَوَاعِدِ؟

---

(١) الكِتَابُ (٤/ ٢٣٣).

(٢) الصَّاحِبِي لِابنِ فَارِسٍ (ص١١٥).

قَالَ ابنُ يَعِيْشَ: (كَيْفَ) سُؤَالٌ عَنْ حَالٍ، وَتَضَمَّنَتْ هَمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ، فَإِذَا قُلْتَ: (كَيْفَ زَيْدٌ؟) فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: (أَصَحِيْحٌ زَيْدٌ، أَمْ سَقِيْمٌ؟)، (أَآكِلٌ زَيْدٌ، أَمْ شَارِبٌ؟) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ. وَالأَحْوَالُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا، فَجَاؤُوا بِـ(كَيْفَ) اسْمٌ مُبْهَمٌ يَتَضَمَّنُ جَمِيْعَ الأَحْوَالِ. فَإِذَا قُلْتَ: (كَيْفَ زَيْدٌ؟)، أَغْنَى عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ»[1].

أَمَّا الجَوَابُ عَنْ سُؤَالِهِ فِي الفَرْقِ بينَ (كَيْفَ) وَ(مَنْ)، فَقَدْ أَجَابَ الشَّاطِبِيُّ عَنْهُ قَائِلًا: «وَقَدْ فَرَّقَ النَّحْوِيُّونَ بَيْنَ (كَيْفَ) وَغَيْرِهَا بِأَوْجُهٍ:

مِنْهَا: أَنَّ جَوَابَهَا لَا يكونُ إِلَّا نكرةً فتقولُ: (كَيْفَ زَيْدٌ؟) فَيُقَالُ: (سَقِيْمٌ)، وَلَا تَقُولُ: (السَّقِيْمُ)؛ لأَنَّهُ سُؤَالٌ عَنِ الحَالِ، وَالحَالُ نكرةٌ، بِخِلَافِ (مَتَى) وَغَيْرِهَا، فَإِنَّ جَوَابَهَا يَكُونُ مَعْرِفَةً وَنَكِرَةً، فَلَمَّا قَصُرَتْ عَنْ حَالِ أَخَوَاتِهَا، لَمْ يَبْلُغْ مِنْ قُوَّتِهَا أَنْ تَجْرِيَ فِي الجَزَاءِ مَجْرَاهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّ (كَيْفَ) قَصُرَتْ عَنْ نَظَائِرِهَا أَيْضًا بِأَنَّهَا لَا يُخْبَرُ عَنْهَا، وَلَا يَعُودُ إِلَيْهَا ضَمِيْرٌ، كَمَا يَكُونُ ذلِكَ فِي: (مَنْ)، وَ(مَا)، وَ(مَهْمَا)، وَ(أَيِّ)»[2].

أَخِيرًا: أُذَكِّرُ أوزونَ بأَنَّ النُّحَاةَ وَعَلَى رَأسِهِمْ سِيْبَوَيْهِ لَمْ يَكُونُوا يُلَفِّقُونَ الكَلَامَ، بَلْ: تَتَبَّعُوا كَلامَ العَرَبِ الأَقْحَاحِ، وَفَتَّشُوا فِيهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا، فَـ(كَيْفَ)، أَيضًا لَمْ تَخْلُ مِنْ ذلِكَ، فَهَا هُوَ سِيْبَوَيْهِ يَنْقُلُ قَوْلَ الخَلِيْلِ عَنْ جَعْلِهَا حَرْفًا للجَزَاءِ، فَيَقُولُ: «وَسَأَلْتُ الخَلِيْلَ عَنْ قَوْلِهِ: (كَيْفَ تَصْنَعْ أَصْنَعْ)[3]. فَقَالَ: هِيَ مُسْتَكْرَهَةٌ وَلَيْسَتْ مِنْ

---

(١) شَرْحُ المفصَّل (٣/ ١٤٠).
(٢) المَقَاصِدُ الشَّافِيَةُ (٦/ ١٠٩).
(٣) الكِتَابُ (٣/ ٦٠).

حُرُوْفِ الجَزَاءِ، وَمَخْرَجُهَا عَلَى الجَزَاءِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا عَلَى: أَيِّ حَالٍ تَكُنْ أَكُنْ»[١].

فَكَمَا عَلِمْنَا أَنَّ الخَلِيلَ نَقَلَ الكَلَامَ وَكَرِهَ أَنْ تَكُونَ للجَزَاءِ، وَلَكِنَّ الكُوفِيِّينَ خَالَفُوهُ فِيهِ، وَمِثْلُ هذِهِ الاختِلافَاتِ اللَّفْظِيَّةِ لَيس مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يُخَاضَ فِيْهَا وَيُضَيَّعَ الوَقْتُ بِمِثْلِهَا، وَلَا تُغَيِّرُ شَيئًا؛ لأَنَّهُم مُتَّفِقُونَ فِي المَعَانِي، وَإِنَّمَا وَقَعَ الخِلافُ فِي اللَّفْظِ فَحَسْبُ.

وَكَمَا يَجِبُ الإِشَارَةُ إِلَى: أَنَّ (كَيفَ) تَخْرُجُ عَنِ الاسْتِفْهَامِ وَتَدُلُّ دَلَالَاتٍ أُخْرَى[٢]، وَمِنْ هذِهِ الدَّلَالَاتِ:

- التَّعَجُّبُ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (البقرة).

- التَّهَكُّمُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ (مريم).

- التَّحذِيرُ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (الأعراف).

- النَّفْي: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ (التوبة).

---

(١) يَجُوزُ فِيْهِ الجَزمُ عِندَ الكُوفيِّينَ وَقُطْرُب، يُنْظَرُ: (ارتِشَافُ الضَّرَبِ لأبِي حيَّانَ) (٤/ ٢٠٣١)، وَ(هَمْعُ الهَوَامِعِ للسُّيوطِيِّ) (٢/ ٥٥٠). قَالَ أَبُو حيَّانَ فِي: (شَرْحِ التَّسهِيْلِ) (١/ ٩٧): «..مَا لَا يَجزِمُ نَحْوُ (كَيفَ)، تَقُولُ: كَيفَ تَصْنَعُ أَصْنَعُ، فَكَيْفَ مَعْنَاهَا الجَزَاءُ، وَلَم تَجزِمْ بِهَا العَرَبُ». وَنَقَلَهُ أَيضًا نَاظِرُ الجَيْشِ عَنِ الشِّهَابِ الأُبَّذِيِّ يُنْظَرُ: (تَمْهِيدُ القَوَاعِدِ لِنَاظِرِ الجَيشِ) (١/ ٢٠١).

(٢) تَشْتَرِكُ اللُّغَاتُ فِي بَعْضِ هذِهِ الدَّلَالَاتِ.

وَغيرُهَا مِنَ الـمَعَانِي والدَّلَالَاتِ الـمذكُورَةِ فِي فَصِيحِ كَلامِ العَرَبِ، وَفِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَمِنهُ نُرِيدُ أنْ نَقُولَ: إِذَا جَاءَ النُّحَاةُ وَذَكَرُوا مِنْ دَلَالَاتِ (كَيْفَ) هذِهِ وَأَشَارُوا إِليهَا، فَهَلْ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِم أَمْ: يُشْكَرُونَ عَلَى تَتَبُّعِهِم هذَا؟ وَلَا شَكَّ أَنَّ الـمُنْصِفَ يَحْمَدُهُم وَيُثْنِي عَلَى صَنِيعِهِم، وَلكِنَّ الـمُجحِفَ الـمُتَعَنِّتَ يُشَنِّعُ عَلَيْهِمْ وَيَطْعَنُ فِيهِم.

ثُمَّ يَقُولُ أوزونُ: «لِنَأخُذْ حالةً أخرَى للأدَةِ (كيفَ) حيثُ نَجِدُ: كيفَ: تُعربُ حَالًا إِذَا وَلِيَهَا فِعلٌ تامٌّ، مِثال: (كَيفَ جَاءَ؟)، جَاءَ فِعْلٌ تَامٌّ، بينمَا تبقَى الأداةُ (مَنْ) إِذَا وَلِيَهَا فِعْلٌ تَامٌّ مُبْتَدَأً، مِثال: (مَنْ جَاءَ؟).

والسُّؤالُ هُنَا: (كيفَ) فِي الـمِثَالِ السَّابِقِ تُبيِّنُ حَالَ مَنْ؟ لَقَدْ علَّمُونَا أَنْ نَسْأَلَ عَنِ الحَالِ بالأدَاةِ (كيفَ)، وَهُنَا تُصبِحُ (كيفَ، هِيَ الحَالُ ذاتُهُ. مُحاكَمَةٌ غَرِيبَةٌ شَاذَّةٌ لَا يَقْبَلُهَا العَقْلُ السَّلِيمُ، لِذلِكَ لَا يَتِمُّ استِيْعَابُهَا، ونخَلِّطُ بينَ تِلْكَ الأدَوَاتِ السَّهْلَةِ، وَيَتَخَبَّطُ فِيهَا طُلَّابُنَا». ص: (١٠٧).

أقُولُ: إِنَّ وُقُوعَ (كَيْفَ) حَالًا، مِمَّا لَا يَحْمِلُ اعتِرَاضًا وَلَيسَ فِيهِ أيُّ إِشْكَالٍ؛ لأنَّهَا فِي الحَالَاتِ الَّتِي تَكُونُ (حَالًا)، تُفَسَّرُ بالحَالِ، وَهذَا مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الأَئِمَّةُ وَبيَّنُوهُ-فَمَاذَا عَلَيْهِم إِذَا كَانَ أوزونُ لَا يَقرَأُ لَهُم وَيَنْتَقِدُهُم؟-، كَمَا قَالَ ابنُ فَارِسٍ فِي بَيَانِ أَوْجُهِ (كَيْفَ): «والوَجْهُ الآخرُ[1]: حَالٌ لَا سُؤَالَ مَعَهُ، كقولِكَ: (لَأُكْرِمَنَّكَ كَيْفَ كُنْتَ) أَيْ: عَلَى أيِّ حَالٍ كُنْتَ.

---

(١) مِنْ أَوجُهِ مَوَاقِعِ (كَيفَ) فِي الكَلَامِ، وَهُوَ الوَجْهُ الثَّانِي.

وَالوَجْهُ الثَّالِثُ: (كَيْفَ) بِمَعْنَى التَّعَجُّبِ، وَعَلَى هذيْنِ الوَجْهَيْنِ يُفَسَّرُ قَوْلُهُ: [فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ] قالُوا: مَعْنَاهَا: (عَلَى أَيِّ حَالٍ قَدَّرَ)»[١].

وَقَدْ ذَكَرَ ابنُ هِشَامٍ إِتْيَانَهَا حَالًا وَكانَّهُ لَمْ يَرْتَضِ ذلِكَ فِي جَمِيْعِ الصُّورِ الَّتِي يُقَالُ عَنْهَا: إِنَّهَا حَالٌ، فَقَالَ: «وَحَالًا[٢] قَبْلَ مَا يَسْتَغْنِي، نَحْوُ: (كَيفَ جَاءَ زَيْدٌ؟)، أَيْ: عَلَى أَيِّ حَالَةٍ جَاءَ زَيْدٌ؟. وَعِنْدِي: أَنَّهَا تَأْتِي فِي هَذَا النَّوْعِ مَفْعُولًا مُطْلَقًا أَيْضًا وَأَنَّ مِنْهُ: [كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ]، إِذِ الْمَعْنَى: أَيَّ فِعْلٍ فَعَلَ رَبُّكَ، وَلَا يَتَّجِهُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ، وَمِثْلُهُ: [فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ]، أَيْ: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيْدٍ يَصْنَعُونَ، ثُمَّ حَذَفَ عَامِلَهَا مُؤَخَّرًا عَنْهَا»[٣].

وَلكِنَّ جَعْلَهَا فِي جَمِيعِ الصُّوَرِ-مَفْعُولًا مُطْلَقًا-إِنْ أَرادَهُ ابنُ هِشَامٍ، فَلَا يَخْلُو عَنِ الإِيرَادِ أيضًا.

فَهذَا هُوَ مَا اصْطَلَحَ عليهِ النُّحَاةُ وَقَالُوهُ وَوَضَعُوهُ مِنْ مُصْطَلَحٍ، وَلَهُم تَأْوِيلُهُمُ الْمُسْتَحْسَنُ، وَلَا يَأْبَاهُ العَقْلُ وَالْمَنْطِقُ السَّلِيْمَانِ، وَلكِن لَا أدرِي إِذَا كَانَ الْمهندِسُ أرادَ بالعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ رَأيَهُ وَرُؤيَتَهُ، وَحَصَرَهُمَا فِيمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ وَيَرْتَئِيْهِ، وَفِي كُلِّ الأَحْوَالِ فَعَلَى الْمُهندِسِ أَنْ يَأتِيَ بأَفْضَلَ مِمَّا أَتَوا بِهِ إِنْ كَانَ بُوسْعِهِ، حَتَّى نَنظُرَ فِيْهِ، إِنْ سَلِمَ مِنَ الخَلَلِ وَكَانَ أَفْضَلَ مِمَّا وَضَعَهُ النُّحَاةُ مِنَ اصْطِلاحٍ وَضَبْطٍ فَلْيَشْهَدِ النَّاسُ أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقُولُ بِهِ، وَأُرَحِّبُ بِهِ عَلَى عَمَلِهِ، وَلكِنَّ الشَّغَبَ وَالصَّخَبَ غيرُ مَقبُولٍ، فَالْمهندِسُ لَا يُحْسِنُ إِلَّا الاِتِّهَامَ وَالهَدْمَ، وَلَا يَرُومُ إِصْلاحًا وَلَا يُحْسِنُهُ.

---

(١) الصَّاحِبِي لِابنِ فَارِسٍ (ص١١٥).
(٢) أيْ: تَقَعُ حَالًا.
(٣) مُغْنِي اللَّبِيْبِ (ص٢٧١).

أَمَّا قَوْلُهُ هذَا: (بينمَا تبقَى الأداةُ (مَنْ) إِذَا وَلِيَهَا فِعْلٌ تَامٌّ مُبْتَدَأً، مِثال: مَنْ جَاءَ؟)، فَهُوَ هَزِيلٌ نَحِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُرِيْدُ أَنْ يَقُولَ: لِمَاذَا لَا تَكُونُ (مَنْ) حَالًا، وَهذَا بيِّنٌ؛ لأَنَّ مَنْ لَيْسَ فِي تَأْوِيلِ الحَالِ، كَمَا أَنَّ (كيفَ) فِي مَوَاقِعِهَا الأُخْرَى لَا تأتِي حَالًا، فَ(مَنْ) هنَا فِي تأويلِ قَوْلِكَ: (زَيْدٌ جَاءَ؟)، (مُحمَّدٌ جَاءَ؟)، (رَجُلٌ)، إِلَى آخرِ مَا يَصْلُحُ أَنْ يَدْخُلَ تَحْتَ (مَنْ)، فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ بأنَّهُ حَالٌ، وَلَا يَشُكُّ وَاحِدٌ مِنَّا: أَنَّهُ إِذَا قَالَ وَاحِدٌ مِنَ العُلَمَاءِ هِيَ حَالٌ، لَرأينَا أوزونَ يُسَارِعُ فِي تَخْطِئَتِهِمْ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْمُحَاكَمَةِ العَقْلِيَّةِ الْمَنطِقِيَّةِ السَّلِيْمَةِ الَّتِي نَسْمَعُ مِنَ الْمهندِسِ لَفْظَهَا دُوْنَ مَعْنَاهَا دوْمًا.

وَهكَذَا وَعَلَى الْمِنوَالِ السَّابِقِ يَسْتَمِرُّ الْمهندِسُ وَلَا يَدْرِي مَاذَا يَقُولُ، وَلِمَاذَا يَعْتَرِضُ، وَهَمُّهُ الأَكْبَرُ أَنْ يَعْتَرِضَ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَا لَا يَقْبَلُ الِاعتِرَاضَ، وَيأتِي عَلَى(أَيْنَ) وَيُغَالِطُ، ثُمَّ يتكلَّمُ عَنْ (أيّ) وَيُشَاطِطُ، وَيَعْتَرِضُ عَلَى كَوْنِهِمَا تأتِيانِ فِي العَرَبِيَّةِ عَلَى صُوَرٍ مُختَلِفَةٍ، وَفِي مَوَاقِعَ مُتَبَايِنَةٍ.

وَلكِنَّ الْمُهَنْدِسَ لَوْ تنبَّهَ إِلَى حَقِيقَةٍ لَخَجِلَ، وَالحَقِيقَةُ هِيَ: أَنَّ هذَا التَّعَدُّدَ فِي العَمَلِ ليسَ أمرُهُ يَرْجِعُ إِلَى النُّحَاةِ، بَلْ: يَرْجِعُ إِلَى العَرَبِيَّةِ نَفْسِهَا، وَهذَا مِنْ مَظَاهِرِ السَّعَةِ وَسِيمَا البَسْطِ، وليسَ طَعْنًا فِي العَرَبِيَّةِ؛ لأنَّ تَعَدُّدَ الْمَوَاقِعِ وَحَمْلَ الأَوْجُهِ هُوَ غِنًى تَامٌّ فِي أَسَالِيبِهَا الْمُتَنَاثِرَةِ، وَأَدَوَاتِهَا الْمُتَكَاثِرَةِ، فَهِيَ بِحَالَةٍ مِنَ السَّعَةِ وَالبَسْطِ حَتَّى قَالَ الفَرَّاءُ فِي حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهَا وَهِيَ(حَتَّى) مَقَالَتَهُ الْمَشْهُورَةَ: «أَمُوتُ، وَفِي نَفْسِي مِنْ (حتَّى) شَيْءٌ»[1].

---

(١) مِرآةُ الجِنَانِ لليَافِعِيِّ (٢/ ٣١)، وَشَذَرَاتُ الذَّهَبِ (٣/ ٤٠)، وَإِنْبَاهُ الرُّوَاةِ (٤/ ١٥)، وَوَفَيَاتُ الأَعْيَانِ (٦/ ١٨٠). وَقَدْ يُمْكِنُ فَهْمُ كَلامِهِ عَلَى أَنَّهُ تَعَجُّبٌ مِنْ تَشَعُّبِ مَسَائِلِ (حَتَّى) وَأَنَّهُ لَم يَقْدِرْ عَلَى ضَبْطٍ دَقِيقٍ لَهَا، كَمَا يُمْكِنُ أَنَّهُ بِمَعْنَى تَحَيُّرِهِ فِي أَعْمَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ وَمَواقِعِهَا الْمُتَبَايِنَةِ.

فَكُلُّ مَا فَعَلَهُ النُّحَاةُ هُوَ أَنَّهُم جَمَعُوا هذِهِ الأَدَوَاتِ وَالأَسَالِيْبَ وَضَبَطُوا لَهَا ضَوَابِطَ بَعْدَ تَتَبُّعِهَا وَاستِقْرَائِهَا، أَفِي ذلِكَ جِنَايَةٌ على العَرَبِيَّةِ ارْتَكَبُوهَا؟ وَجُرْمٌ لِحَقِّهَا؟.

[مِنَ الرَّجَزِ]

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذنْبًا كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

بالجَوْرِ أتَى الـمُهَنْدِسُ وحَكَمْ، في كَلَامِ النُّحَاةِ في (كَمْ)

ثُمَّ يَقُولُ أوزونُ مُسْتَمِرًّا فِي جِنَايَتِهِ عَلَى أَدَوَاتِ الِاستِفْهَامِ: «أخِيرًا: نَذكُرُ الأَدَاةَ (كَمْ) فَهِيَ إِمَّا خَبَرِيَّةٌ، أَوِ: استِفْهَامِيَّةٌ (حسَبَ تَصْنِيفِ أَهْلِ اللُّغَةِ). خَبَرِيَّة: مِثالُها: (كَمْ فَقِيرٍ أَعْطَيْتَ؟[1]). فَإِنَّ (كَمْ) تُعْرَبُ هُنَا -لَاحِظْ وَاقرَأ عَزِيزِي القَارِئُ بِإِمْعَانٍ- كَمْ: خَبرِيَّة، عَدَدِيَّةٌ مَبنِيَّةٌ عَلَى السُّكُونِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٌ بِهِ.

أَمَّا إِذَا قُلْتَ: (كَمْ فَقِيرٍ فِي سُوريا)، فَإِنَّ (كَمْ) تُعْرَبُ هُنَا خَبَرِيَّةً عَدَدِيَّةً مَبنِيَّةً علَى السُّكُونِ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأٌ.

وَنسأَلُ: مَا الفَرْقُ بينَ كَمْ الخَبرِيَّةِ -حَسَبَ تصنِيفِ أهلِ اللُّغَةِ وَليسَ حَسَبَ رأينا- فِي الحَالَتَيْنِ؟

فَيأتِي الجَوَابُ الـمُقْنِعُ الـمُفْحِمُ: الأُوْلَى دَخَلَتْ عَلَى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ، وَالثَّانِيَةُ جَاءَ بَعْدَهَا جَارٌّ وَمَجرُورٌ، وَمَا هِيَ النَّتِيجَةُ؟ التِباسٌ وَخَلْطٌ ووهمٌ فِي اسْتِخْدَامِ أدَاةٍ بَسِيطَةٍ يعرِفُهَا الصَّغِيرُ وَالكَبِيرُ، وَلكِنَّهَا بِهِمَّةِ نُحَاتِنَا وَجُهْدِهِم، تُصْبِحُ عُقْدَةً عِنْدَ الكَبِيرِ قَبْلَ الصَّغِيرِ». ص: (١٠٨).

أقُولُ: عَجِيبٌ اعتِرَاضُ الـمهندِسِ، وَلَا أدرِي هلْ حَقِيقةُ أمرِهِ هكذَا وَلَا يَفْهَمُ هذِهِ الـمَسَائِلِ، أمْ أنَّ التَّمَادِي فِي البَاطِلِ، جَعَلَهُ يُخَلِّطُ الحَابِلَ بالنَّابِلِ؟ أمَّا الجُمْلَةُ

(١) يُمكِنُ أنَّ الـمهندِسَ لَمْ يَفْهَمِ القَضِيَّةَ أَصْلًا؛ لأنَّ الجُمْلَةَ خَبَرِيَّةٌ وَليسَتِ اسْتِفْهَامِيَّةً حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى عَلَامَةِ الِاسْتِفْهَامِ.

الأُولَى: (كَمْ فَقِيرٍ أَعْطَيْتَ)، فَهِيَ بَيِّنَةٌ حَيثُ يَقَعُ فِعْلُ أَعْطَى عَلَى (كَمْ)، إِذَنْ يَكُونُ مَفْعُولًا بِهِ، وَنَسْأَلُ نَحْنُ: مَا الفَارِقُ بينَ هذِهِ الجُمْلَةِ وَبينَ صِيَاغَتِهَا بِقَوْلِكَ، (أَعْطَيْتَ كَمْ فَقِيرًا؟)، فِي اقْتِضَاءِ الـمَفْعُولَيْنِ؟

أَمَّا الجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ (كَمْ فَقِيرٍ فِي سُوريا؟) فَهِيَ جُمْلَةٌ لَا يَقَعُ فِيْهَا فِعْلُ فَاعِلٍ عَلَى مَفْعُولٍ، وَمَعْنَاهَا مُخْتَلِفٌ تَمَامًا عَنْ مَعْنَى الجُمْلَةِ الأُوْلَى، وَمَا دَامَ الإِعْرابُ وُضِعَ لِلمَعَانِي فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفرِيقِ فِي الإِعْرابِ بينَ الجُمْلَتَيْنِ، وَالقِسْمَةُ العَقلِيَّةُ تَقْتَضِي ذلِكَ.

وَهذَا إِنْ فُهِمَ عَلَى مُرَادِ الـمهندِسِ وَإِلَّا فالجُمْلَةُ الأُوْلَى لَيْسَتِ استِفهَامِيَّةً أَصْلًا، بَلْ: هِيَ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ؛ لأَنَّ (كَمْ) هُنَا خَبَرِيَّةٌ لِلتَّكْثِيرِ، بِمَعْنَى: (أَعْطَيْتُ فُقَرَاءَ كَثِيرِينَ)[1]، فَيَكُونُ الفَارِقُ أَيضًا فِي الـمَعنَى؛ لأَنَّ الجُمْلَةَ الأُوْلَى جَاءَتْ خَبَرِيَّةً وَالثَّانِيَةُ جَاءَتِ اسْتِفْهَامِيَّةً، وَهذَا الفَارِقُ الـمَعْنَوِيُّ الكَبِيرُ اسْتَلْزَمَ اختِلافَ الإِعْرَابَيْنِ، فَمَا الغَرابَةُ فِي ذلِكَ؟.

فَلِذلِكَ لَا أَرَى فِي اعتِرَاضِهِ وَجْهًا مِنَ الحَقِّ، وَلَا طَرَفًا مِنَ الإِنْصَافِ، وَقَدْ كَانَ يَهْذِي بِمَا يُؤْذِي، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

(١) فَكَانَ عَلَى الـمُهَنْدِسِ أَنْ يَكْتُبَ: (كَمْ فَقِيرًا أَعطَيْتَ؟) بِنَصْبِ (فَقِيْرًا)، ولكِنَّ العَدَاءَ مع الحَرَكَاتِ الإِعْرابِيَّةِ أَوْقَعَهُ فِي هذَا الخَلْطِ.

وَقَعَ الـمُهَنْدِسُ فِي الخَطَلِ، فِي بَحْثِ إِعْرَابِ الجُمَلِ

ثُمَّ يَفْتَحُ الـمهندِسُ مِلَفًّا آخَرَ ويَجْنِي عَلَيْهِ كَالعَادَة، وَهُوَ إِعْرَابُ الجُمَلِ فِي العَرَبِيَّةِ يَا سَادَة، ويُرِي القُرَّاءَ قَسْوَتَهُ وَسطْوَتَهُ، وَيُبيِّنُ جَفْوَتَهُ وَهَفْوَتَهُ، وَظُلْمَهُ وَظُلْمَتَهُ، وَيُعْلِنُ جُرْمَهُ وَجَوْرَهُ، وَفِي البَاطِلِ دَوْرَهُ، فَيَقُولُ: «لِنُبيِّنْ لـلأخِ القَارِئِ الـمَعايير الغَريبَةَ الـمُتَّبَعَةَ فِي مَا يُسَمَّى بـإعرابِ الجُمَلِ، تِلْكَ الـمَعَاييرُ الَّتِي نَطلبُ مِنْ طُلَّابِنَا وَأَسَاتِذَتِهِم أَنْ يتعلَّمُوها لِيُصبِحُوا قادِرِينَ عَلى فَهمِ لُغَتِهِم وَعَلى استِيْعَابِهَا -حَسَبَ زَعْمِ النُّحَاةِ- سَنَرَى أَنَّها لَيسَتْ سِوَى وَهمٍ كَغيرِهَا مِنْ أوهَامِ قَوَاعِدِ لُغَتِنَا». ص: (١١١).

أَقُولُ: سَبَقَتِ الإِشَارَةُ إِلَى ضَرُورَةِ الإِعْرابِ الـمحلِّيِّ للجُمَلِ، فَهذَا هُوَ مَا يَتكَلَّمُ عَنهُ أوزونُ ويُجْحِفُ فِي حَقِّهِ جَهلًا منهُ بِحَقِيْقَةِ ضَرورَةِ إِعْرابِ الجُمَلِ، فَلَوْ أدركَ مَا لمَعْرِفَةِ مَوَاقِعِ الجُمَلِ مِنْ تَأثيرٍ عَلَى الـمَعَانِي وَالدَّلالاتِ، لَمْ يَكُنْ يعتَرِضُ عَلَى القَوْلِ بإِعْرابِهَا إِلَّا ظَالِمًا جَائِرًا.

أَمَّا كَلامُهُ عَنِ الأوهَامِ الـمَوهُومَةِ فِي العَرَبِيَّةِ، فَقَدْ مَضَى وَبيَّنَّا جَهْلَهُ بقَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، وَإِلَّا فَهِيَ لُغَةٌ ذَاتُ قَوَانِينَ مَنْطِقِيَّةٍ كَمَا سَلَفَ الكَلامُ عنْهَا، فَالمهندِسُ نَفسُهُ لا يُؤمنُ بعدَمِ عقلَنَةِ العَرَبِيَّةِ وَلكِنَّهُ يُكَرِّرُ هذَا الـمَقَالَ بينَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى تَثْبِيتًا لَـهُ فِي قُلُوبِ الشَّبَابِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِم: (اكْذِبْ اكْذِبْ حَتَّى يُصَدِّقَكَ النَّاسُ!).

إِنَّ الكَلامَ عَلَى الجُمَلِ وَتَقْسِيمَاتِهَا وَبيَانِ كُلِّ وَاحِدٍ منهَا يَطُول، وَلَيسَ بَحْثُهَا فِي هذا الـمُخْتَصَرِ مِنَ الـمَعْقُول، فَمَنْ أرَادَ مَعرِفَةَ تَفَاصِيْلِهَا فَعَلَيْهِ بالـمُطَوَّلَاتِ، أَوِ:

الكُتُبِ الـمُفرَدَةِ لِبَيَانِ ذلِكَ، كَكِتابِ الـدُّكتُورِ فَخْرِ الـدِّيْن قباوَةَ: (إِعْرَابِ الجُمَلِ وَأَشْبَاهِ الجُمَلِ)، وَغيرِهَا مِنَ الدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ، وَلكِنَّنَا نَخْتَصِرُ فِي الـمَقَالِ، وَنَقْتَصِرُ عَلَى الـمُهِمِّ فَنَقُولُ:

إِنَّ الجُمَلَ مِنْ حَيثُ الإِعْرابُ وَعَدَمُ الإِعرابِ قِسْمَانِ، قِسْمٌ يَكُونُ فِي تَأوِيْلِ مَصْدَرٍ، فَهذَا لَهُ الـمحَلُّ الإعرابِيُّ الَّذِي اختَصَّ بِهِ هذَا الـمَصْدَرُ الـمُفْرَدُ، وَهذَا القِسْمُ لَهُ محَلٌّ مِنَ الإعْرابِ، فَمَثَلًا لَوْقُلْتَ: (إِنَّ الإِعْلامَ يُزَوِّرُ)، فَإِنَّ جُمْلَةَ: (يُزَوِّرُ)، حَلَّتْ مَحَلَّ خَبَرِ (إِنَّ) وَهُوَ فِي تأوِيْلِ: (إِنَّ الإِعْلامَ مُزَوِّرٌ)[1].

فَإِذَا لَمْ تَقَعْ مَوْقعَ الـمُفْرَدِ بالأَصَالَةِ فَلا إِعْرابَ لَهَا، كَمَا قَالَ الجُرْجانِيُّ: «إِذْ لَا يَكُونُ للجُمْلَةِ مَوْضِعٌ مِنَ الإِعْرَابِ حَتَّى تَكُوْنَ وَاقِعَةً مَوْقِعَ الـمُفْرَدِ»[2].

أَمَّا القِسْمُ الآخَرُ: فَهُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ فِي تأوِيلِ مُفْرَدٍ، وَعليهِ لَا يَكُونُ لَـهُ الـمحَلُّ الإِعْرابِيُّ؛ لأَنَّهُ لَمْ يحلَّ مَحَلَّ شَيءٍ حَتَّى يَحْظَى بِمَحَلِّهِ الإِعْرابِيِّ[3]، وهذَا بِحَدِّ ذاتِهِ كَلامٌ عَقْلِيٌّ مَنْطِقِيٌّ، وَلَا يَرِدُ عَليهِ اعتِرَاضٌ مَعْقُول، لِصَوَابٍ مَأمُول.

---

(١) ليسَ القَصْدُ مِنْ كَلامِنَا أَنَّ الجُمْلَتَيْنِ لَا فرْقَ بينَهُمَا مِنْ حَيثُ الـمَعْنَى، بَلْ: لَا يُصَارُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الجُمْلَةِ وَالـمُفْرَدِ إِلَّا لِغَرَضٍ، ولكِنَّ القَصْدَ هُنَا أَنَّهُ يَجُوزُ التَّعبيرُ عَنْ هذهِ الجُمْلَةِ بالـمُفْرَدِ.

(٢) دَلَائِلُ الإِعْجَازِ (ص٢٢٣).

(٣) وَالأَصْلُ فِي الجُمَلِ أَنْ لَا تَحلَّ محَلَّ الـمُفْرَدِ، كَمَا قَالَ ابنُ هِشَامٍ مُعَلِّلًا تَقدِيمَهُ الجُمَلَ الَّتِي لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرابِ عَلَى الجُمَلِ الَّتِي لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرَابِ فَقَالَ: «الْجُمَلُ الَّتِي لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ:

وَهِيَ سَبْعٌ، وَبَدَأْنَا بهَا لِأَنَّهَا لم تحلَّ مَحلَّ الْمُفْرَدِ؛ وَذَلِكَ هُوَ الأَصْلُ فِي الْجُمَلِ». يُنْظَرُ: مُغْنِي اللَّبِيبِ (ص٥٠٠).

قَالَ ابنُ يَعيشَ مُبْدِعًا كَالعَادَةِ: «وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ وَقَعتْ صِفَةً، فَهِيَ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الـمُفْرَدِ، وَلَهَا مَوْضِعُ ذَلِكَ الـمُفْرَدِ مِنَ الإِعْرَابِ، فَإِذَا قُلْتَ: (مَرَرْتُ بِرَجُلٍ يَضْرِبُ)، فَقَوْلُكَ: (يَضْرِبُ) فِي مَوْضِعِ (ضَارِبٍ)، فَأَبَدًا تُقَدِّرُ مَا أَصَبْتَ مَكَانَهُ فِعْلًا بِاسْمِ فَاعِلٍ إِنْ كَانَ الـمَنْعُوتُ كَذَلِكَ، وَبِاسْمِ مَفْعُوْلٍ، إِنْ كَانَ الـمَنْعُوتُ كذلِكَ. وكذلِكَ الجَارُّ وَالـمَجْرُورُ، وَتَقْدِيرُهُ بِمَا يُلائِمُ مَعْنَاهُ، تَقُولُ فِي قَوْلِكَ: (هذَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيْمٍ)، تَقْدِيرُهُ: (تَمِيْمِيٌّ)، وَتَمِيْمِيٌّ: بِمَعْنَى مَنْسُوْبٍ، وَفِي قَوْلِكَ: (هذَا رَجُلٌ مِنَ الكِرَامِ)، تَقْدِيرُهُ: كَرِيْمٌ، فَاعْرِفْ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الـمُفْرَدَ أَصْلٌ، وَالجُمْلَةَ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَهُ؟، فَالجَوَابُ أَنَّ البَسِيْطَ أَوَّلٌ، وَالـمُرَكَّبَ ثَانٍ، فَإِذَا اسْتَقَلَّ الـمَعْنَى بِالاِسْمِ الـمُفْرَدِ، ثَمَّ وَقَعَ مَوْقِعَهُ الجُمْلَةُ، فَالاِسْمُ الـمُفْرَدُ هُوَ الأَصْلُ، وَالجُمْلَةُ فَرْعٌ عَلَيْهِ»[(١)].

أَمَّا الغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ إِعْرَابِ الجُمَلِ فَهِيَ كَمَا ذَكَرَهُ الدَّكتورُ فَخْرُ الدِّيْنِ قَبَاوَة: «إِنَّ الغَايَةَ مِنْ إعرابِ الجُمَلِ هِيَ تَحديدُ مَوْقِعِهَا مِنَ الكَلامِ، وَصِلَةِ كُلٍّ مِنْهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مِنْهُ. وَالحَالُ واحِدَةٌ سَواءٌ أكانَ للجُمْلَةِ مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرابِ، أَمْ: لَمْ يَكُنْ لَهَا مَحَلٌّ. ذلِكَ لأَنَّنَا فِي إعرابِ الجُمَلِ نُحَدِّدُ مَدَى الجُمْلَةِ وَمَكَانَهَا مِنَ العِبَارَةِ، وَعَلَاقَتَهَا بالـمُفْرَدَاتِ وَالجُمَلِ الَّتِي حَوْلَهَا، وَنَوْعَهَا مِنِ اسْمِيَّةٍ، أَوْ: فِعْلِيَّةٍ، أَوْ: شَرْطِيَّةٍ، وَصِفَتَهَا مِنْ صُغْرَى، أَوْ: كُبْرَى ذَاتِ وَجْهٍ، أَوْ: وَجْهَيْنِ، وَنُبَيِّنُ صِلَتَهَا بالإِعْرَابِ.

فَإِنْ كَانَتْ فِي مَوْقِعِ الـمُفْرَدِ، دلَّ مَضْمُونُهَا، أَوْ: لَفْظُهَا عَلَى مَعْنَاهُ، وَحَلَّتْ محلَّهُ فِي تَقْدِيرِ الإِعْرَابِ. وَإِلَّا فَهِيَ جُمْلَةٌ خَالِصَةٌ لَا تَقْتَضِي التَّقْدِيرَ وَالـمَحَلَّ الإِعْرَابِيَّ.

---

(١) شَرْحُ الـمُفَصَّلِ (٢/ ٢٤٣).

وشَأنُ الجُمَلِ فِي هذا هُوَ شأنُ المُفردَاتِ. فَالحُكمُ علَى الحَرفِ، أَوِ: الفِعْلِ المَاضِي، أَوِ: الفِعْلِ المُضَارِعِ، أَوْ: فِعْلِ الأَمْرِ بأَنَّهُ مَبْنِيٌّ، لَا مَحَلَّ لهُ منَ الإعرابِ، لَا يَعْنِي تَجرِيدَهُ مِنَ الدَّلَالَةِ المَعْنَوِيَّةِ، وَالعَلَاقَاتِ الَّتِي بينَهُ وَبينَ الكَلِمَاتِ المُحِيْطَةِ بِهِ.

وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَتَأَثَّرُ لَفظُ آخرِهِ بتَغيِيرِ مَعَانِيْهِ وَعَلاقَاتِهِ، أَوْ: بالكَلِمَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ. فَهُوَ يَلْتَزِمُ صُورَةً وَاحِدَةً لَا علاقَةَ لَهَا بِظَوَاهِرِ الإِعرابِ. أَمَّا الأسماءُ والأفعَالُ المُعرَبَةُ، فَلَفظُ أوَاخِرِهَا مُهَيَّأٌ للتَّأَثُّرِ بالعَلَاقَاتِ المَعْنَوِيَّةِ وَاللَّفْظِيَّةِ، وَتَتَغَيَّرُ صُورُهُ الصَّوْتِيَّةُ، لَفظًا، أَوْ: تَقدِيرًا، تَبَعًا لِتِلْكَ العَلَاقَاتِ.

وَالحَالُ فِي الجُمَلِ قَرِيبَةٌ جِدًّا مِنْ هذَا. فَالَّتِي لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرَابِ شَبِيْهَةٌ بالأَسْمَاءِ وَالأفْعَالِ المُعربَةِ؛ لأَنَّهَا وَقعَتْ فِي مَوْقِعِهَا بِدَلَالَةِ المَضْمُونِ، أَوِ: اللَّفْظِ. وَالَّتِي لَا مَحَلَّ لَهَا شَبِيهَةٌ بِالحُرُوفِ، وَالأَفعَالِ المَاضِيَةِ، والأفعالِ المُضَارِعَةِ المَبنِيَّةِ، وَأفعَالِ الأَمْرِ.

وَعَلَى هذَا، فَإِنَّنَا حِينَ نَقُولُ عَنِ الجُمْلَةِ: إِنَّهَا ابتِدَائِيَّةٌ، أَوِ: اسْتِئْنَافِيَّةٌ، أَوِ: اعتِرَاضِيَّةٌ، أَوْ: جَوَابُ قَسَمٍ، أَوْ: جَوَابُ شَرْطٍ، أَوْ: صِلَةٌ للمَوصُولِ، أَوْ: تَابِعَةٌ لِجُمْلَةٍ لَا مَحَلَّ لَهَا ... فَإِنَّمَا نُبيِّنُ الوَظِيفَةَ النَّحْوِيَّةَ الَّتِي تُؤَدِّيهَا فِي الكَلَامِ، وَنُوَضِّحُ عَلَاقَتَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، مَعَ أَنَّهَا لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإِعْرَابِ»[1].

وَمِنْ هُنَا أَذْكُرُ آيَةً قُرَانِيَّةً فِي ضَرُورَةِ مَعْرِفَةِ إِعْرَابِ الجُمَلِ، وَنَعْرِفُ مِنْ خِلَالِهَا جُرْمَ صَاحِبِ الجِنَايَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ

(١) إعرابُ الجُمَلِ وَأَشْبَاهِ الجُمَلِ (ص٣٥-٣٦).

فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ (النور).

فَاخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي مَسْأَلَةِ رَدِّ شَهَادَةِ القَاذِفِ بِسَبَبِ اختِلَافِهِمْ فِي عَوْدِ الـمُسْتَثْنَى، وَذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ ذلِكَ فَقَالَ: «رَدُّ شَهَادَةِ الْقَاذِفِ مُعَلَّقٌ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِاسْتِيفَاءِ الْحَدِّ، فَإِذَا شَهِدَ قَبْلَ الْحَدِّ أَوْ قَبْلَ تَمَامِ اسْتِيفَائِهِ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، فَإِذَا اسْتَوْفَى لَمْ تُقْبَلْ شَهَادَتُهُ أَبَدًا وَإِنْ تَابَ وَكَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ الْأَتْقِيَاءِ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: يَتَعَلَّقُ رَدُّ شَهَادَتِهِ بِنَفْسِ الْقَذْفِ، فَإِذَا تَابَ عَنِ الْقَذْفِ بِأَنْ رَجَعَ عَنْهُ، عَادَ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ، وَكِلَاهُمَا مُتَمَسِّكٌ بِالْآيَةِ، فَأَبُو حَنِيفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- جَعَلَ جَزَاءَ الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ الرَّمْيُ: الْجَلْدَ، وَرَدَّ الشَّهَادَةَ عَقِيبَ الْجَلْدِ عَلَى التَّأْبِيدِ، فَكَانُوا مَرْدُودِي الشَّهَادَةِ عِنْدَهُ فِي أَبَدِهِمْ وَهُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِمْ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: [وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ]: كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا غَيْرَ دَاخِلٍ فِي حَيِّزِ جَزَاءِ الشَّرْطِ، كَأَنَّهُ حِكَايَةُ حَالِ الرَّامِينَ عِنْدَ اللهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ. وَ[إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا]: اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: [فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ].

وَالشَّافِعِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- جَعَلَ جَزَاءَ الشَّرْطِ الْجُمْلَتَيْنِ أَيْضًا -غَيْرَ أَنَّهُ صَرَفَ الْأَبَدَ إِلَى مُدَّةِ كَوْنِهِ قَاذِفًا، وَهِيَ تَنْتَهِي بِالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ عَنِ الْقَذْفِ، وَجَعَلَ الِاسْتِثْنَاءَ مُتَعَلِّقًا بِالْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَحَقُّ الْمُسْتَثْنَى عِنْدَهُ أَنْ يَكُونَ مَجْرُورًا بَدَلًا مِنْ (هُمْ) فِي: (لَهُمْ)، وَحَقُّهُ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا؛ لِأَنَّهُ عَنْ مُوجَبٍ»[1].

---

(١) الكَشَّافُ (٣/ ٢١٤).

فَإِذَا تبَيَّنَ لَكَ هذَا حُقَّ الشُّرُوعُ الآنَ فِي سَرْدِ بَعْضِ اعتِرَاضَاتِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ وَمُنَاقَشَتِهَا[١]:

مَثَّلَ بِهذَا المِثالِ: (الطِّفْلُ يلعبُ)، وَأشَارَ إِلَى أنَّ جُملةَ (يَلْعَبُ) فِي مَحَلِّ رَفْعِ خَبَرٍ، ثُمَّ اعتَرَضَ وَقَالَ: «لِمَاذَا لا تكونُ جملةُ (يلعبُ) السَّابقةُ فِي مَحلِّ نَصْبِ (حَال)[٢] مَثَلًا، فيكونُ التَّأويلُ: (الطِّفْلُ لَاعِبًا)، وَيكونُ الخَبَرُ مَحذُوفًا، تقدِيرُهُ: (حَالُهُ). علمًا بأنَّ التأويلَ الـمُفردَ بيِّنَ حَالَةَ الطِّفْلِ، فَهُوَ لَاعِبٌ وليسَ حَزِينًا، أَوْ: نَائِمًا، أَوْ: غيرَ ذلِكَ؟». ص: (١١٢).

أقُولُ: جَوابُ هذَا سَهْلٌ يَسِيرٌ جِدًّا، وَيُمْكِنُ الجَوَابُ عنهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

الأَوَّلُ: لأَنَّ مَعْنَى الجُمْلَةِ غيرُ مُسْتَقِيمٍ، وَلَا يُفِيدُ إِفَادَةً تَامَّةً إذَا أَوَّلْتَهَا بِحَالٍ؛ لأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: (الطِّفْلُ لَاعِبًا)، أَوْ: جِئْتَ بِتَقْدِيرٍ مَعَ هذَا التَّأويلِ وَقُلْتَ: (الطِّفْلُ حَالُهُ لَاعِبًا)، كَمَا يَقُولُهُ أوزونُ، فلَيْسَ الكَلامُ فِي الوَجْهَينِ مُفِيدًا، وَلا يَسْتَخْدِمُهُ العَرَبُ أبَدًا؛ لأنَّ الـمُخَاطَبَ يَكُونُ مُنْتَظِرًا لِتَمَامِ الكَلامِ، وَلَا أدرِي كيفَ تَوَصَّلَ إليهِ المهندِسُ؟!

فَلا بُدَّ مِنْ أنْ تُؤَوِّلَهَا عَلَى الخَبَرِ، كَقَوْلِكَ: (الطِّفْلُ لَاعِبٌ).

الثَّانِي: إنَّ الـمَنْطِقَ يَقْتَضِي فِي الـمُعَارَضَةِ وَالنَّقْضِ أَنْ تأتِيَ بِحُجَّةٍ أَقْوَى مِن حُجَّةِ الكَلامِ الَّذِي تَنْقُضُهُ، أَمَّا إِذَا جِئْتَ ونَقَدْتَ كَلامًا لأَجْلِ وجُودِ تأوِيلٍ، وَحَاوَلْتَ نَقْضَهُ

---

(١) نَخْتَارُ مِنهَا مَا نَرَاهُ مَحَلًّا للشُّبْهَةِ، وَإِلَّا فأكثرُ مَا جَاءَ بِهِ ليسَ سِوَى سَفْسَطَةٍ، وَكَلامٍ مُكَرَّرٍ، وَقَدْ تَمَّتْ مُنَاقَشَةُ أَكْثَرِهِ.

(٢) لَيْتَهُ قَالَ: (حَالًا)، أَوْ: (لأَنَّهَا حَالٌ).

مُعْتَمِدًا عَلَى إِيْرَادِ كَلام عَلَى (تأويل)، وَزِدْتَ عَلَى التَّأوِيل (تَقْدِيرًا)، وَمَعَ هذَا أيضًا لَمْ يُفِدْ إِفَادَةً تَامَّةً، وَظَنَنْتَ أنَّكَ نَقَضْتَ كَلامًا صَلُحَ وَأفَادَ إِفَادَةً تَامَّةً، فَهذَا حَقًّا مَضَاحِكُ العُقَلَاءِ، وَلَا يَرْضَى بِهِ الألِبَّاء، فَعَلَى الأقَلِّ يَجِبُ أنْ يأتِي الـمُعْتَرِضُ بِدَلِيلٍ يُسَاوِي دَلِيلَ الـمَنْقُوضِ عَلَيهِ كَلامُهُ.

الثَّالِثُ: أنَّ أوزونَ لِاعتِرَاضَاتِهِ عَلَى العَرَبِيَّةِ جعَلَ التَّيسِيرَ ذَرِيعَتَهُ، وَخَبَّأَ وَرَاءَهُ شَنَاعَتَهُ، فكيفَ يُعَارِضُ الآنَ قَوَاعِدَ النُّحَاةِ وَيأتِي بِمَا يُوغِلُ الطَّلَبَةَ فِي الـمَعْمَعَةِ وَالزَّوْبَعَةِ؟ وَهذَا عجيبٌ حَقًّا، وَيَا تُرَى هَلْ بَقِيَ لِدَعْوَى التَّيْسِيرِ مَعْنًى بَعْدَ هذَا؟

ثُمَّ يأتِي بهذَا الـمِثَالِ: (رَأيتُ طِفْلًا يَلْعَبُ)، فَـ(يلعبُ) فِي هـذِهِ الجُمْلَةِ: (صِفَةٌ)، وَقَالَ: «أمَّا إذا قلْتَ: (رأيتُ الطِّفْلَ يَلْعَبُ)، فإنَّ جملةَ (يلعبُ) الفِعْلِيَّةَ (مِنْ فِعْلٍ وَفَاعِلٍ) فِي مَحَلِّ نَصْبِ حَالٌ، وَذلِكَ حَسَبَ القَاعِدَةِ الـمُهَلْهَلَةِ-خَالِيَةِ الدَّلَالَةِ-: الجُمَلُ بعْدَ الـمَعَارِفِ أحوالٌ، وبعدَ النَّكِرَاتِ صِفَاتٌ.

وَالسُّؤالُ هُنَا: مَا هُوَ الـمِعيارُ الـمنطِقِيُّ الوَاضِحُ الَّذِي جعَلَ الجُمْلَةَ الفِعْلِيَّةَ (يَلْعَبُ) فِي الحَالَةِ السَّابِقَةِ مُباشَرَةً، (حَال)، وَمِنَ الَّتِي قَبْلَهَا (صِفَة)، وَمِنَ الأُوْلَى (خَبَر)[1]؟». ص: (١١٢-١١٣).

أقُولُ: إِنَّنَا تَكَلَّمْنَا سَابِقًا عَنْ عَقْلَنَةِ هذِهِ القَاعِدَةِ، وَأنَّهَا مِنْ جَمَالِيَّاتِ العَرَبِيَّةِ وَلَيسَ فِيهَا مَا يَدْعُو إِلَى الاسْتِغرَابِ أَصْلًا، فكيفَ بِالِاعتِرَاضِ وَالرَّدِّ؟ أمَّا السَّبَبُ فِي كَوْنِ الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ فِي الأُوْلَى (صِفَةً)، فَلِأنَّ (طِفْلًا) نَكِرَةٌ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّوْصِيفِ لِيَقْرُبَ

---

(١) كَمْ هِيَ رَكِيكَةٌ مُسْتَهْجَنَةٌ عِبَارَاتُهُ، (مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا)! ثُمَّ (حَالٌ)، وَ(صِفَةٌ)، وَ(خَبَرٌ)، بِالرَّفْعِ!

إِلَى الذِّهْنِ أَوَّلًا بِتَخْصِيصِهِ، أَوْ: بِتَقْرِيبِهِ مِنَ الـمَعْرِفَةِ، فَلِذلِكَ جُعِلَتِ الجُمْلَةُ وَصْفًا، فَبَيَانُ الحَالِ قَبْلَ التَّوْصِيفِ مَعَ كَوْنِهِ نَكِرَةً يَسْتَغْرِبُهُ العَقْلُ السَّلِيمُ وَالـمَنْطِقُ.

أَمَّا فِي الثَّانِيَةِ فَهِيَ مَعْرِفَةٌ (الطِّفْل)، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَوْصِيفٍ، بَلْ: هُوَ فِي هذِهِ الحَالَةِ بِحَاجَةٍ إِلَى بَيَانِ هَيْئَتِهِ حَالَ رُؤيَتِهِ إِيَّاهُ، فَلذلِكَ يَذكُرُ الهَيْئَةَ دُونَ الصِّفَةِ. وَأعتَقِدُ أَنَّ هذَا القَدْرَ يَكْفِي لِطَالِبِ الحَقِّ.

ثُمَّ يأتِي بِبَعْضِ الجُمَلِ الأُخْرَى وَيَعْتَرِضُ عليهِ عَلَى هذَا الـمِنْوَالِ، وَلكِنَّ خَوْفَ الإِطْالَةِ يُمْسِكُنِي عَنْ إِيرَادِهِ وَلَا سِيَّمَا لَا نَجِدُ فِيْهِ جَدِيدًا، وَالقَارِئُ الكَرِيمُ بِوسعِهِ أَنْ يَرْجِعَ بِنَفْسِهِ إِلَى كُتُبِ العُلَمَاءِ فِي بَحْثِ الجُمَلِ وَإِعْرَابِهَا، حَتَّى تَقَعَ عينُهُ عَلَى مَا يَسُرُّهُ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

اعْتِرَاضَاتٌ سَطْحِيَة، عَلَى الشَّوَاهِدِ النَّحْوِيَة

ثُمَّ ارْتَطَمَ الـمُهَنْدِسُ فِي الوَرْطَةِ لَـمَّا أَتَى بِفَصْلٍ جَدِيدٍ فِي كِتَابِهِ-وَهُوَ الفَصْلُ الأَخِيرُ-وَأَسْمَاهُ: (شَوَاهِد وَتَخرِيجَات نَحوِيَّة)، وَيَقُولُ فِي أَوَّلِهِ: «بَعْدَ أَنْ بَحَثْنَا فِي مَتَانَةِ وَدِقَّةِ وَمَنْطِقِيَّةِ قَوَاعِدِ لُغَتِنَا العَتِيْدَةِ، نَأْتِي إِلَى اسْتِعْرَاضِ بَعْضِ الشَّوَاهِدِ مِنَ القُرآنِ الكَرِيْم، وَمِنْ شِعْرِ العَرَبِ، وَسَنَذْكُرُ بَعْضَ أَوجُهِ الإِعْرَابِ وَالتَّخرِيجَاتِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالنُّحَاةِ، تَارِكِينَ لِلأَخِ القَارِئِ القَرَارَ فِي الحُكْمِ[1] عَلَى تِلْكَ القَوَاعِدِ وَصِحَّةِ تَطْبِيقِهَا». ص: (١١٩).

أَقُولُ: تَبَيَّنَ خِلالَ رُدُودِنَا عَبقَرِيَّةُ قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ وَقُوَّتُهَا، كَمَا تَبَيَّنَ مِنْ خِلالِهَا عَدَمُ مَعْرِفَةِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ بِتِلْكَ القَوَاعِدِ، وَسَيَأْتِينَا مَزِيدٌ مِنَ البَيَانِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

الشَّاهِدُ الأَوَّلُ:

أَوَّلُ شَيءٍ يَذْكُرُه فِي هذَا الفَصْلِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ.. ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة).

ثُمَّ يَذْكُرُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ..وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا.. ﴿١٨٩﴾ ﴾ (البقرة).

وَيَقُولُ: «نُلاحِظُ فِي الآيَتينِ السَّابِقَتَيْنِ انَّ كَلِمَةَ (البِرّ) مَنْصُوبَةٌ فِي الآيَةِ الأُولَى، بينَمَا هِيَ مرفُوعةٌ فِي الآيةِ الثَّانِيَةِ. وَمِنَ الـمعلُومِ أَنَّ (لَيسَ) فِعْلٌ مَاضٍ-حَسَبَ

---

(١) (القرار فِي الحُكم)، كَمْ هِيَ بليغَةٌ فَصِيحَةٌ؟!

تَصنيْفِهِم -يَعْمَلُ عَمَلَ كَانَ وَأَخَواتِهَا، فيرفعُ الِاسْمَ الأَوَّلَ (البرّ) وَيَنْصِبُ الثَّانِيَ، إِلَّا أَنَّ ذلِكَ لَمْ يَتَحَقَّقْ فِي الآيةِ الأُوْلَى، فَـ(البرّ) -كَمَا نَرَى- مَنْصُوبَةٌ، لِذلِكَ أوجدَ النُّحَاةُ تَخريجَةَ الإِعْرابِ التَّالِيَةَ:

البِرُّ: خَبَرُ (ليسَ) مُقَدَّمٌ مَنْصُوبٌ بالفَتْحَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى آخرِه، وَجُمْلَةُ (أَنْ تُولُّوا) فِي تأوِيلِ مَصْدَرٍ مَحَلُّهُ رَفْعٌ، اسمُ (ليسَ)، وَالتَّقدِيرُ: (ليسَ تَوْلِيَتُكُم وُجُوهَكُم البِرَّ كُلَّهُ). ونطلُبُ مِنَ الأَخِ القَارِئِ أَنْ يُلاحِظَ تِلْكَ الـمُغالَطَةَ العَجِيبَةَ، فالبِرُّ خبرٌ مُقدَّمٌ، وجَدُوهَا مَنصُوبَةً بعدَ خَبَرِ (ليسَ)، فلمْ يَجِدُوا حَلًّا سِوَى اعتِبَارِهَا خَبَرَ (ليسَ) مُقَدَّمًا، وَالـمُضْحِكُ بعْدَ ذلِكَ أَنَّهُم خَلَقُوا مَكَانًا لِجُمْلَةٍ فِي الإِعْرابِ لَمْ نَعرِفْهُ مِنْ قبلُ، أَوْ: لِنَقُلْ: إِنَّهُم لم يَذكُرُوهُ فِي حَالَاتِ الجُمَلِ الَّتِي لَهَا مَحَلٌّ مِنَ الإِعْرابِ، فنحنُ نعلَمُ أَنَّ الجملةَ يُمكِنُ أَنْ تقعَ فِي مَحَلِّ رَفعِ خَبَرٍ، أَوْ: نَصبِ خبرِ (كَانَ)، أَوْ: رَفعِ خَبَرِ (إِنَّ)، ولكِنْ أَنْ تكونَ فِي مَحَلِّ رَفعِ اسمِ (ليسَ)[1] فَهِيَ قَضِيَّةٌ جدِيدَةٌ.

وَلَا نَسْتبعِدُ انْ يُصَحِّحَ أحدُهُم قائِلًا: أَلَا تَعلَمُ أَنَّ هُنَاكَ أكثرَ مِنْ عشرِ حَالاتٍ لِإعرابِ الجُمَلِ، (وَأَنَّ الحَالاتِ الَّتِي تعرِفُهَا للمبتدِئينَ أمثَالِكَ)[2].

فَأُجِيبُ: أُذكُرْ ما شِئْتَ مِنْ حَالاتِ إِعرابِ الجُمَلِ فَهُوَ وَهمٌ وَخَيالٌ، وَالخَيالُ وَالوهمُ يَسْتَوعِبُ الكَثِيرَ الكَثِيرَ، أَمَّا الحَقِيقَةُ: فَلَدينا قَوَاعِدُ مَرْكُونَةٌ مُهْمَلَةٌ لَا يَقبَلُهَا عَقلٌ وَلَا تَستَنِدُ إِلَى أَيِّ أَسَاسٍ مَنْطِقِيٍّ». ص: (١١٩-١٢٠).

---

(١) كَمْ هِيَ عِبَارَاتُ الـمُهَنْدِسِ رَكِيكَةٌ!

(٢) هَلْ مَا بينَ القَوْسَيْنِ يُسَمَّى كَلَامًا عَرَبِيًّا؟

أقولُ: إنَّ المهندِسَ يُحسِنُ التَّلاعُبَ بِعُقُولِ السُّذَّجِ، وَلكِنْ لَا يُمْكِنُهُ الفِرَارُ مِنَ النَّقْدِ العِلْمِيِّ، فقَبْلَ الدُّخولِ فِي صُلْبِ المَوضُوعِ أودُّ التَّنبيهَ إِلَى تَلَوُّنِ هذَا الرَّجُلِ وَتَصَنُّعِهِ العَجِيبَيْنِ، فكَأَنَّهُ لَمْ يَضَعْ قَبْلَ هذَا فَصْلًا فِي إِنْكَارِ إِعْرابِ الجُمَلِ وَالِاعتِرَاضِ عَلَى القَوْلِ بأنَّ لَهَا مَوْقِعًا إِعْرابِيًّا، وَلكِنَّهُ جَاءَ الآنَ وَيُظْهِرُ اعتِقَادَهُ بأنَّ الجُمْلَةَ تَكُونُ خبَرًا! وَإِذَا كَانَ يُؤمِنُ بوقُوعِ الجُمْلَةِ فِي مَوْقِعِ الخَبَرِ -وليس كَلامُهُ صَادِرًا عَنْ مُعارَضَةٍ عَمْيَاءَ لِلاعتِرَاضِ عَلَى القَوَاعِدِ-؛ فَإِنَّ هذَا مُنافٍ لِكَلامِهِ السَّابِقِ فِي إِنْكَارِ القَوْلِ بالمَوْقِعِ للجُمَلِ، وَهذِهِ قَاصِمَةُ ظَهْرٍ للمهندِسِ.

أمَّا كَلامُهُ عَنْ وَقُوعِ (أَنْ) وَالجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا موْقِعَ (الِاسْمِ) وَالتَّقَوُّلُ عَلَى النُّحَاةِ فِيهِ، فَهُوَ ظُلْمٌ وَإِجْحَافٌ فِي حَقِّ العَرَبِيَّةِ، وَقَهْرٌ وَإِتْلافٌ مِنهُ لِتِلْكَ الجُهُودِ الجَبَّارَةِ؛ لأنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا سَمِعَ القَوْلَ (بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ)، وَهُوَ (أنْ) تُصَيِّرُ الجُمْلَةَ بَعْدَهَا إِلَى مَصْدَرٍ، فَيَكُونُ (بِأَنْ تُوَلُّوا): بِتَوْلِيَتِكُم. وَهذَا شَيءٌ يَعْرِفُهُ صِغَارُ طَلَبَةِ اللُّغَةِ فَهُوَ مَهْيَعٌ فِي العَرَبِيَّةِ، وَلَا أَدْرِي كَيفَ يَقُولُ المهندِسُ: إِنَّهُ جَدِيدٌ. وَيُمْكِنُ أَنَّهُ أرادَ بالجَدِيدِ شَيئًا آخَرَ وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُهُ، وَلَيتَهُ بيَّنَ لَنَا مُرَادَهُ!.

أمَّا مِنْ حَيثُ اللُّغَةُ فَلَا يَجُوزُ نَصْبُ (البِرُّ) فِي [وَلَيْسَ البِرُّ..]، بِدَلِيلِ دُخُولِ البَاءِ عَلَى [بِأَنْ تَأْتُوا]، وَالبَاءُ لَا تَدْخُلُ عَلَى اسْمِ (لَيسَ) فِي العَرَبِيَّةِ قَطْعًا، وَلَمْ يأتِ فِي كَلامِهِم أبَدًا، بَلْ: تَدْخُلُ عَلَى خبَرِهَا، كَمَا استدَلَّ بِذلِكَ النَّحَّاسُ وَقَالَ: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ ولا يجوزُ نصبُ (البر) لأنَّ الباءَ إنَّما تدخلُ في الخبَرِ»[1].

---

(١) إعرابُ القُرآنِ للنَّحَّاسِ (١/ ٩٨).

وَقَالَ مَكِّيُّ بنُ أبي طَالِبٍ أيْضًا: «فَلَا يجوزُ فِي (الْبِرّ) إِلَّا الرّفْعُ لِدُخُولِ الْبَاءِ فِي الْخَبَرِ»[١].

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ: «وَلَا خِلَافَ فِي الرَّفْعِ فِي الحَرْفِ الثَّانِي، وَهُوَ قَوْلُهُ: [وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا] لِأَجْلِ البَاءِ الَّتِي فِي بِـ(أَنْ)»[٢].

أَمَّا الآيَةُ الأُخْرَى فَقَدْ يَجُوزُ فِيْ (البِرّ) الرَّفْعُ وَالنَّصْبُ[٣]، لِعَدَمِ تعيينِ أَحَدِهِمَا بالِاسْمِ وَالآخَرِ بالخَبَرِ، كَمَا قَالَ العُكبرِيُّ: «وَلَا اخْتِلَافَ فِي رَفْعِ «الْبِرُّ» هُنَا ؛ لِأَنَّ خَبَرَ لَيْسَ «بِأَنْ تَأْتُوا» وَلَزِمَ ذَلِكَ بِدُخُولِ الْبَاءِ فِيهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ: [لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا] إِذْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِأَحَدِهِمَا مَا يُعَيِّنُهُ اسْمًا أَوْ خَبَرًا»[٤].

أَمَّا الغَرَضُ فِي تَقْدِيمِ الخَبَرِ عَلَى الِاسْمِ فِي: [لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا]، فَإِنَّهُ كَانَ لِغَرَضٍ بَيَانِيٍّ كَمَا ذَكَرَهُ العُلَمَاءُ وَبَيَّنُوهُ.

وَقَدْ تَكَلَّمَ العَلَّامَةُ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ الوَجْهِ البَيَانِيِّ فِي (الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ) فَقَالَ: «وَالخِطَابُ لِأَهْلِ الكِتَابَيْنِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَكْثَرُوا الخَوْضَ فِي أَمْرِ القِبْلَةِ حِيْنَ حُوِّلَتْ إِلَى الكَعْبَةِ، وَكَانَ كُلُّ فَرِيْقٍ يَدَّعِي خَيْرِيَّةَ التَّوَجُّهِ إِلَى قِبْلَتِهِ مِنَ القُطْرَيْنِ المَذْكُورَيْنِ..فَقِيلَ لَهُمْ: (لَيْسَ البِرَّ مَا ذَكَرْتُم) مِنَ التَّوَجُّهِ إلى تَيْنِكَ الجِهَتَيْنِ، عَلَى أَنَّ

---

(١) مُشْكِلُ إِعْرابِ القُرآنِ لِمَكِّي (١/ ١٢٣).
(٢) جَامِعُ البَيَانِ فِي القِرَاءَاتِ السَّبْعِ للدَّانِي (٢/ ٩٠٠).
(٣) قَرَأَ حَمْزَةُ وَحَفْصٌ (البِرَّ) بِالنَّصْبِ وَالْبَاقُونَ بِالرَّفْعِ.
(٤) التِّبْيَانُ فِي إِعرابِ القُرآنِ للعُكبرِيِّ (١/ ١٥٧).

(البِرَّ) خَبرُ (لَيْسَ) مُقَدَّمًا عَلَى اسْمِهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

سَلِي إِنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وَعَنْهُمُ فَلَيْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وَجَهُولُ

وقولِهِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وَلَيسَ عَلَيْنَا فِي الخُطُوبِ مُعَوَّلُ

وَإِنَّما أُخِّرَ ذَلِكَ أَنَّ المَصْدَرَ المُؤَوَّلَ أَعْرَفُ مِنَ المُحَلَّى بِاللَّامِ؛ لأَنَّهُ يُشْبِهُ الضَّمِيرَ من حيثُ إنَّه لا يُوصَفُ وَلَا يُوْصَفُ بِهِ، والأعرفُ أحقُّ بالإِسميَّةِ؛ وَلأَنَّ فِي الإِسْمِ طُولًا، فَلَوْ رُوْعِيَ التَّرتِيبُ المَعْهُودُ، لَفَاتَ تَجَاوُبُ أَطْرَافِ النَّظْمِ الكَرِيْمِ.

وَقُرِئَ بِرَفْعِ (البِرُّ) عَلَى أَنَّهُ اسْمُهَا وَهُوَ أَقْوَى بِحَسَبِ المَعْنَى؛ لأَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ يَدَّعِي أَنَّ البِرَّ هذَا، فَيَجِبُ أَنْ يكُونَ الرَّدُّ مُوافِقًا لِدَعْوَاهُمْ، وَمَا ذلِكَ إِلَّا بِكَوْنِ البِرِّ اسْمًا كَمَا يُفْصِحُ عَنْهُ جَعْلُهُ مُخْبَرًا عَنْهُ فِي الاسْتِدْرَاكِ بِقَوْلِهِ -عَزَّوَجَلَّ-: [وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ] وَهُوَ تَحْقِيقٌ للحَقِّ بعدَ بيانِ بُطْلَانِ البَاطِلِ، وتفصيلٌ لخِصَالِ البِرِّ مِمَّا لَا يَختلِفُ باختلافِ الشَّرائِعِ، وما يختلفُ باختلافِهَا.

أَيْ: ولكنَّ البِرَّ المعهُوْدَ الَّذِي يَحِقُّ أَنْ يُهتَمَّ بِشَأْنِهِ ويُجَدَّ فِي تَحصِيْلِهِ بِرُّ مَنْ آمنَ باللهِ وَحْدَهُ إِيمانًا بَرِيئًا مِنْ شَائِبَةِ الإِشْرَاكِ»[(١)].

وَقَالَ ابنُ عَاشُورٍ: «وَيَكْثُرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ تَقْدِيمُ الْخَبَرِ عَلَى الِاسْمِ فِي بَابِ

---

(١) إِرْشَادُ العَقْلِ السَّلِيْمِ إِلَى مَزَايَا الكِتَابِ الكَرِيْمِ (١/ ١٥٧)، وَنَقَلَهُ الآلُوسِيُّ أيضًا فِي رُوحِ المَعَانِي (١/ ٤٤٢).

(كَانَ) وَأَخَوَاتِهَا إِذَا كَانَ أَحَدُ مَعْمُولَيْ هَذَا الْبَابِ مُرَكَّبًا مِنْ (أَن) الْـمَصْدَرِيَّةِ وَفِعْلِهَا، كَانَ الْـمُتَكَلِّمُ بِالْخِيَارِ فِي الْـمَعْمُولِ الْآخَرِ، بَيْنَ أَنْ يَرْفَعَهُ وَأَنْ يَنْصِبَهُ، وَشَأْنُ اسْمِ (لَيْسَ) أَنْ يَكُونَ هُوَ الْجَدِيرَ بِكَوْنِهِ مُبْتَدَأً بِهِ.

فَوَجْهُ قِرَاءَةِ رَفْعِ (الْبِرّ): أَنَّ الْبِرَّ أَمْرٌ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ لِأَهْلِ الْأَدْيَانِ مَرْغُوبٌ لِلْجَمِيعِ فَإِذَا جُعِلَ مُبْتَدَأً فِي حَالَةِ النَّفْيِ أَصْغَتِ الْأَسْمَاعُ إِلَى الْخَبَرِ.

وَأَمَّا تَوْجِيهُ قِرَاءَةِ النَّصْبِ: فَلِأَنَّ أَمْرَ اسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ هُوَ الشُّغْلُ الشَّاغِلُ لَهُمْ، فَإِذَا ذُكِرَ خَبَرُهُ قَبْلَهُ تَرَقَّبَ السَّامِعُ الْمُبْتَدَأَ فَإِذَا سَمِعَهُ تَقَرَّرَ فِي عِلْمِهِ»[1].

الشَّاهِدُ الثَّانِي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (البقرة).

قَالَ أوزون: «نُلاحِظُ أَنَّ كَلِمَةَ (أمواتٌ) مَرْفُوعَةٌ وَيُفْتَرَضُ فِيهَا أَنْ تَكُونَ مَنْصُوبَةً؛ لأَنَّهَا مفعُولٌ بِهِ للفِعْلِ (تَقولُوا)، كَمَا يُفْتَرَضُ أَنْ تَأْتِيَ بِصِيغَةِ الْـمُفْرَدِ؛ لأَنَّهُ -عَزَّوَجَلَّ- يَقُولُ: [لِـمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيْلِ اللهِ] (صِيغَةِ الـمُفْرَدِ)». ص: (١٢٠-١٢١).

أَقُولُ: أَيُّهَا القَارِئُ الكَرِيمُ هَبْ أَنَّ عِلْمَ النَّحْوِ لَيسَ لَهُ وجُودٌ، وَلَسْتَ تَعرِفُ فِي العَرَبِيَّةِ شَيئًا اسمُهُ عِلْمُ النَّحْوِ، وَبَعْدَ ذلِكَ تَفَكَّرْ فِي كَلامِ الـمهندِسِ هذَا: «كَمَا يُفْتَرَضُ أَنْ تَأْتِيَ بِصِيغَةِ الـمُفْرَدِ؛ لأَنَّهُ -عَزَّوَجَلَّ- يَقُولُ: [لِـمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيْلِ اللهِ] (صِيغَةِ الـمُفْرَدِ)»، أَلَيسَ هذَا الكَلامُ تَشْكِيكًا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وَطَعْنًا فِيْهِ؟ أَلَيسَ هذَا الكَلامُ

(١) التَّحرِيرُ وَالتَّنوِيرُ (٢/ ١٢٩).

هُوَ مَا بَثَّهُ كَثِيرٌ مِنَ الـمُسْتَشْرِقِينَ، وَالنَّصَارَى وَالمَلاحِدَةُ مِنَ العَرَبِ فِي كِتَابَاتِهِم؟[(١)].

---

(١) عَجِيبٌ أَمرُ هؤلاءِ الـمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ وجودَ الأَخْطَاءِ فِي القُرآنِ الكَرِيم، وَهذَا يُذَكِّرُنِي بكَلامٍ جَمِيلٍ لِابنِ الأَعْرَابِيِّ فِي الرَّدِّ عَلَى ابنِ الرَّاوَندِيِّ لَـمَّا اعتَرَض عَلَى آيَةٍ قُرآنِيَّةٍ اعتِرَاضًا لُغَوِيًّا، ذَكَرَهُ ابنُ عَاشُورٍ فِي تَفسِيرِهِ (١/ ٢٣) فَقَالَ: رُوِيَ أَنَّ ابْنَ الرَّاوَنْدِيِّ (وَكَانَ يُزَنُّ بِالْإِلْحَادِ) قَالَ لِابْنِ الْأَعْرَابِيِّ: «أَتَقُولُ الْعَرَبُ: لِبَاسُ التَّقْوَى؟» فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: لَا بَاسَ لَا بَاسَ، وَإِذَا أَنْجَى اللهُ النَّاسَ، فَلَا نَجَّى ذَلِكَ الرَّاسَ، هَبْكَ يَا ابن الرَّاوَنْدِيِّ تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا، أَفَتُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ فَصِيحًا عَرَبِيًّا؟»).

وللسَّكَّاكِيِّ كَلامٌ بَدِيعٌ فِي هذَا الجَانِبِ-مَعَ مَا فِيهِ بَعْضُ الشِّدَّةِ والقَسْوَةِ وَلكِنَّ المَكَانَ أيضًا لَيْسَ بهيِّن- قَالَ فِي: (مِفْتَاح العُلُوم) (ص:٥٨٥): «تَرَوْنَ أَضَلَّ الخَلْقِ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ فِي الكَلَام؛ إِذَا اتَّفَقَ أَنْ يُعَاوِدَ كَلَامَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، لَا يُعْدِمُ أَنْ يَتَنَبَّهَ لِاخْتِلَالِهِ فَيَتَدَارَكَهُ، ثُمَّ لَا تَرَوْنَ أَنْ تُنَزِّلُوا إِلَّا أَقَلَّ تِلَاوَةِ النَّبِيِّ-عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لِلقُرآنِ نَيِّفًا وَعِشْرِينَ سَنَةً مَنْزِلَةَ مُعَاوَدَةِ جَهُولٍ لِكَلَامِهِ، فَتَنْظِمُوا القُرآنَ فِي سِلْكِ كَلَامٍ مُتَدَارَكِ الخَطَإِ فَتُمْسِكُوا عَنْ هَذَيَانِكُمْ، ثَمَّ إِذْ مَسَخَكُمُ الجَهْلُ هذَا الـمَسْخَ، وَبَرْقَعَ عُيُونَكُمْ عَلَى هذَا الحَدِّ، وَمَلَكَ العَمَى بَصَائِرَكُمْ وَأَبْصَارَكُم عَلَى مَا نَرَى.

فَقَدِّرُوا مَا شِئْتُم: قَدِّرُوا إِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَقَدِّرُوا إِنْ كَانَ نَازِلَ الدَّرَجَةِ فِي الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ، وَقَدِّرُوا إِنْ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمُ إِلَّا أَخطَأَ، وَقَدِّرُوا أَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ مِنَ التَّمْيِيزِ مَا لَوْ زُجِّيَ عُمرُهُ عَلَى خَطَأٍ-لَا يَشْتَبِهُ عَلَيكُم أَنْتُم-لَـمَا تَنَبَّهَ لِذَلِكَ الخَطَأِ، وَلكِنْ قُولُوا فِي هذِهِ الوَاحِدَةِ -وَقَدْ خَتَمْنَا الكَلَامَ مَعَكُمْ إِذْ لَا فَائِدَةَ-: أَوَ قَدْ بَلَغْتُم مِنَ العَمَى إِلَى حَيْثُ لَمْ تَقْدِرُوا أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكُمْ: إِنْ عَاشَ مُدَّةً مَدِيدَةً بَيْنَ أَوْلِيَاءٍ وَأَعْدَاءٍ، فِي زَمَانٍ أَهْلُهُ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ، فَقَدَّرْتُمُوهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ فَيُنَبِّهُ فِعْلَ الأَوْلِيَاءِ، إِبْقَاءً عَلَيْهِ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى نَقِيصَةٍ، وَلَا عَدُوٌّ فَيَنُصُّ عَلَيْهِ مِنْ جَانِبِ الـمَغْمَزِ وَضْعًا مِنْهُ فِعْلَ الأَعْدَاءِ، فَيَتَدَارَكَهُ مِنْ بَعْدِهِ بِتَغْيِيرٍ؟

سُبْحَانَ الحَكِيمِ الَّذِي يَسَعُ حِكْمَتَهُ أَنْ يَخْلُقَ فِي صُوَرِ الأَنَاسِي بَهَائِمَ، أَمْثَالَ الطَّامِعِيْنَ أَنْ يَطْعَنُوا فِي القُرآنِ، ثُمَّ الَّذِي يُقْضِي مِنْهُ العَجَبُ أَنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ هؤُلَاءِ، وَجَدْتَ أَكْثَرَهُم لَا فِي العِيرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ، وَلَا يَعْرِفُونَ قَبِيلًا مِنْ دَبِيرٍ، أَيْنَ هُم عَنْ تَصْحِيحِ نَقْلِ اللُّغَةِ؟ أَيْنَ هُمْ عَنْ عِلْمِ الِاشْتِقَاقِ؟ أَيْنَ هُمْ عَنْ عِلْمِ التَّصْرِيفِ؟ أَيْنَ هُمْ عَنْ عِلْمِ النَّحْوِ؟ أَيْنَ هُمْ..». لِكَلامِهِ بَقِيَّةٌ، ثَمَّ يَذكُرُ شُبُهَاتِهِم وَيُفَنِّدُهَا، جَزَاهُ اللهُ خَيرًا وَأَحسنَ إِلَيْهِ.

وَبِهذَا تَعرِفُ أنَّ الـمهندِسَ يَسْعَى لِصَالِحِ مَنْ؟ وَيَنْتَقِدُ مَاذَا؟، وَتُدرِكُ أنَّ مُشكِلَتَهُ لِيسَتْ مَعَ النَّحْوِ وَلَا اللُّغَةِ، بَلْ: هِيَ مُشْكِلَةٌ مَعَ الإِسْلامِ وَالقُرآنِ أيضًا، إِنْ عَلِمَ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ.

ثُمَّ يَقُولُ: «وَفِيمَا يَلِي إِحدَى تَخرِيجَاتِ السَّادَةِ النُّحَاةِ لِذلِكَ -عَنْ كِتَابِ[1] (إِمْلاء مَا مَنَّ بِهِ الرَّحمن) للعُكبَرِيِّ-:

قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَمْوَاتٌ): جُمِعَ عَلَى مَعْنَى (مَنْ)، وَأَفْرَدَ (يُقْتَلُ) عَلَى لَفْظِ (مَنْ)، وَلَوْ جَاءَ مَيِّتٌ كَانَ فَصِيحًا. وَهُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوف؛ أَيْ: هُمْ أَمْوَاتٌ.

(بَلْ أَحْيَاءٌ): أَيْ: بَلْ قُولُوا: هُمْ أَحْيَاءٌ. وَ«لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ»: فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِقَوْلِهِ: وَلَا تَقُولُوا؛ لِأَنَّهُ مَحْكِيٌّ، وَ(بَلْ) لَا تَدْخُلُ فِي الْحِكَايَةِ هُنَا.

(وَلَكِن لَا تَشْعُرُونَ): الـمَفْعُولُ هُنَا مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: لَا تَشْعُرُونَ بِحَيَاتِهِمْ[2]. انتهَى.

وَنَستَنْتِجُ مِنَ الـمَقْطَعِ السَّابِقِ للعُكبَرِيِّ مَا يَلِي:

١ - اسْتِنْكَارٌ غيرُ مُباشِرٍ وَمُبطَّنٌ لِاستِخدَامِ صِيغَةِ الجَمْعِ (أَموَات) مَعَ الـمُفْرَدِ (لِمَنْ يُقْتَل)، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ: لَو جاءَ مَيِّتًا، كَانَ فَصِيحًا، ونحنُ نقولُ: لَو قالَ أحدُنَا ذلِكَ لَمَا سَلِمَ مِنْ لِسَانِ وَقَلَمِ العُكبَرِيِّ وَأَمثالِهِ.

---

(١) (رَكَاكَةُ العِبَارَةِ ضَيْفٌ دَائِمٌ)! كَادَ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الدَّارِ.

(٢) عِنْدَ أوزونَ: (حَيَاتِهَا)، لَا أدرِي كَيفَ حَصَلَ هذَا، وَقَدْ يَتَجَدَّدُ عندَهُ مَرَّتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ.

٢- استِخْدَامُ كَلِمَةٍ إِضَافِيَّةٍ وَهمِيَّةٍ وَهِيَ الضَّمِيرُ (هُمْ)، لِيُبَرِّرَ حَرَكَةَ الرَّفْعِ فِي كَلِمَةِ (أموَات) عِوَضًا عَنْ (هُم أموَات). ونحنُ نَقُولُ: (أَمْوَات) لَا تُعَادِلُ (وَهُم أموَات) أبَدًا، لِماذَا لَا يَكُونُ تَقدِيرُ الكَلامِ: (إنَّهُم أمواتٌ) عِوَضًا عَنْ (هُم أموَات) مَثَلًا؟ ثُمَّ كَيفَ يَنُوبُ الضَّمِيرُ الوَهمِيُّ (هُمْ) عَنْ (مَنْ يُقْتَل) أليسَ الأَجْدَرُ أَنْ نَقُولَ: (أَنتَ أموات) لِيَنسَجِمَ الضَّمِيرُ مَعَ صِيغَةِ المُفرَدِ؟.

٣- تَكْرَارُ استِخْدَامِ ضَمِيرٍ وَهميٍّ إِضَافِيٍّ فِي قَوْلِ (بَل هُم أحياء) عِوَضًا عَنْ (أحياء) وَإِضَافَةُ الفِعْلِ (قُولُوا) وهكَذَا فَإِنَّ (بَلْ أحياء) تُعادِلُ عِنْدَهُ (بَلْ قُولُوا هُم أحياء)، كَذلِكَ إِضَافةُ كَلِمَةِ (بِحَيَاتِهَا) بَعْدَ (تَشْعُرُون).

ويبدُو أنَّ العُكبريَّ يَنْسَى وَيَنْسَى مَعَهُ نُحاتُنا الأَفَاضِلُ أنَّ المُتَحَدِّثَ هُوَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ- وأنَّ الكِتابَ مِنْ تَألِيفِهِ[1]، جَلَّ وَعَلا، وَأنَّهُ لا تَرَادُفَ فِي كَلِمَاتِ الكِتَابِ، (وَأنَّ كَلِمَاتِ اللهِ هِيَ الوجُودُ ذاتُهُ)[2]، وعندَمَا يُضِيفُ العكبريُّ وَأمثَالُهُ ضَمِيرًا وَهميًّا (قُولُوا، هَم) فإنَّهُ يأمرُ النَّاسَ بأنْ يَقُولُوا (هُمْ أحياء) عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَمَنْ لَمْ يَقُلْ ذلِكَ فَهُوَ مُخالِفٌ لِتعَالِيمِ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ-.

وسنَقُومُ بِإِضَافَةِ الكَلِمَاتِ الَّتِي تَخَيَّلَهَا العُكْبَرِيُّ إِلَى الآيَةِ الكَرِيمَةِ السَّابِقَةِ، وَنترُكُ لِلقَارِئِ الحُكمَ عَلَى صِحَّةِ مَا ذهَبَ إليهِ العُكبَرِيُّ مَعَ الإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ نِسْبَةَ إِضَافَةِ الكَلِمَاتِ لِمُجمَلِ كَلِمَاتِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ هِيَ (٢٥٪) (خَمْسَةٌ وَعشرُونَ بالمِئَةِ) أيْ: أَضَافَ كَلِمَاتٍ عَدَدُهَا رُبْعُ عَدَدِ كَلِمَاتِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ الَّتِي تُصْبِحُ كَمَا يَلِي: لَا تَقُولُوا

---

(١) أَرجُو أَنْ لَا يُرِيدَ بالتَّأْلِيفِ باطِلًا، يَصِلُ منهُ إِلَى القَوْلِ بِخَلْقِ القُرآنِ.

(٢) لَيْتَهُ أَبَانَ مُرَادَهُ مِن هذَا الكَلامِ.

لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ هُمْ أمواتٌ، بَلْ قُولُوا هُمْ أحياءٌ، ولكِنْ لا تَشعُرُونَ بِحَيَاتِها ..

ص: (١١٩-١٢١).

أقُولُ: إنَّنِي قَبْلَ أنْ أتكلَّمَ عَلَى استِنْتَاجَاتِ أوزونَ وَأقَاوِيلِهِ الـمُزَوَّرَة، وَأفَاعِيْلِهِ الـمُدَهْوَرَة، وَتَلفِيقَاتِهِ الـمُبَلْوَرَة، بِودِّي أنْ أُبَيِّنَ أنَّ (مَنْ) مِنْ ألْفَاظِ العُمُوم وَتُسْتَخْدَمُ لِلجَمْعِ كَمَا تُسْتَخْدَمُ للفَرْدِ مِنْ حيثُ الـمَعْنَى، أمَّا مِنْ حيثُ اللَّفْظُ فَإنَّهَا مُفْرَدَةٌ وَلَيْسَ فِيْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الجَمْعِ، فَلِذلِكَ جَازَ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ إلَيْهَا الاعتِبَارَانِ عِنْدَ الكَلامِ، إذْ يُمكِنُكَ أنْ تُعامِلَهَا مُعَامَلَةَ الـمُفْرَدِ كَمَا يُمْكِنُكَ أنْ تُعامِلَهَا مُعَامَلَةَ الجَمْعِ، وَهذَا يَعْرِفُهُ مَنْ لَهُ أدْنَى مَعْرِفَةٍ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، لِكَثْرَةِ النُّصُوصِ الوَارِدَةِ فِيْهَا.

وَكَذَا لَيْسَتْ هذِهِ الآيَةَ الوَحِيدَةَ فِي ذلِكَ بِحيثُ لا يَكُونُ لَهَا مِثَالٌ مُتَكَرَّرٌ، فَهُنَاكَ آيَاتٌ أُخْرَى عَلَى الـمِنْوَالِ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ (البقرة).

فَفِي هذِهِ الآيَةِ نَجِدُ الإفْرَادَ لِلاسْمِ باعتِبَارِ إفْرَادِ لَفظِ (مَنْ)، وَالجَمْعَ للخَبَرِ باعتِبَارِ مَعْنَى (مَنْ)، كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «فَإنْ قلتَ: كيفَ قِيلَ: (كَانَ هوداً) على توحيدِ الاسْمِ وَجَمْعِ الخَبَرِ؟ قُلْتُ: حُمِلَ الاسْمُ عَلَى لَفْظِ «مَنْ» وَالخَبَرُ عَلَى مَعْنَاهُ»[١].

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣﴾ (النساء). نَرَى أنَّهُ قَالَ: (يُدْخِلْهُ) بالإفْرادِ عَلَى لَفْظِ (مَنْ)، وَقَالَ: (خَالِدِيْنَ) بالجَمْعِ

---

(١) الكَشَّافُ (١/ ١٧٧)، وانظُرْ أيضًا: (إعْرَابَ القُرآنِ) للنَّحَّاسِ (١/ ٧٤).

عَلَى مَعْنَى (مَنْ). وَالآيَاتُ فِي هذَا البَابِ كَثِيرَةٌ جِدًّا.

وَلَا أَظُنُّ هذَا وَأَشْبَاهَهُ يَخْفَى عَلَى دَارِسِي العَرَبِيَّةِ، وَأَشْبَاهُهُ كَأَسْمَاءِ الجُمُوعِ، فَمَثَلًا كَلِمَةُ (الرَّكْبِ)، يُمْكِنُكَ الِاعتِبَارُ بلَفْظِهِ الـمُفْرَدِ، أَوْ: بِمَعْنَاهُ الدَّالِّ عَلَى الجَمْعِ، كَقَوْلِكَ، (مَرَرْتُ بالرَّكْبِ كُلِّهِ)، أَوْ: (مَرَرْتُ بالرَّكْبِ كُلِّهِم).

وَكذَا الشَّأنُ فِي التَّذكِيرِ وَالتَّأنيثِ فِي بَعْضِ الكَلِمَاتِ الـمَجمُوعَةِ الَّتِي سَبَقَتْ بِكُلٍّ، فَهُوَ يُقارِبُ هذَا الحُكْمَ حيثُ بِإمكَانِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِليهَا الضَّمِيرَ بالتَّذكِيرِ نَظَرًا إِلَى لَفْظِ (كُلٍّ)، وَهُوَ مُضَافٌ، أَوْ: بِالجَمْعِ نَظَرًا إِلَى المُضَافِ إِلَيْهِ، كَقَوْلِكَ: (كُلُّ هذِهِ الأُمُورِ بَيَّنَّاهُ)، وَ(كُلُّ هذِهِ الأُمورِ بيَّنَّاهَا).

وَمِثْلُ هـذِهِ الأُمُـورِ أَبْيَنُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى بيَانٍ مُبِيْنٍ، أَوْ: تَعْرِيفِ مُعَرِّفٍ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

أَمَّا بالنِّسْبَةِ إِلَى اسْتِنْتَاجَاتِهِ الثَّلاثَةِ عَلَى كَلامِ الإِمَامِ أَبِي البَقَاءِ:

فَالأَوَّلُ: فِي اتِّهَامِ الإِمَامِ بِأَنَّهُ أَنْكَرَ استِخْدَامَ (الجَمْعِ) فِي (الأَموَاتِ)، وَنِسْبَةِ القَوْلِ إِلَيهِ بأَنَّهُ مَالَ إِلَى فَصَاحَةِ الإِفْرَادِ، فَهُوَ بُعْدُ فَهْمِ أوزونَ عَنْ حَقِيقَةِ النَّصِّ وَإِلَّا فالإِمَامُ لَمْ يَقْصِدْ أنَّ الإِفْرَادَ فَصِيحٌ وَالجَمْعَ غيرُ فَصِيحٍ؛ لأَنَّ كَلامَهُ مِنْ بابِ البَيَانِ وَالإِيْضَاحِ، وليسَ مِنْ بابِ الـمُقَارَنَةِ وَالـمُفَاضَلَةِ بينَ الإِفْرادِ وَالجَمْعِ، حَتَّى يَذْهَبَ أوزونُ إِلَى هذَا الـمَذْهَبِ البَعِيدِ وَيُبْعِدَ النُّجْعَةَ إِلَى هذَا الحَدِّ، بَلْ: غَايَةُ كَلامِ الإِمَامِ أَنَّ الإِفْرَادَ أيضًا فَصِيحٌ كَمَا كَانَ الجَمْعُ فَصِيحًا، وَكِلاهُمَا مُسْتَخْدَمَانِ فِي العَرَبِيَّةِ.

وَإِلَّا فَكَيْفَ يَتَكَلَّمُ مُسْلِمٌ بِمِثْلِ هذَا وَيَتَفَوَّهُ بِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الشَّخْصُ عُرِفَ عنهُ حبُّ كِتابِ اللهِ تَعَالَى وَخِدْمَتُهُ وَصَرْفُ جُلِّ عُمرِهِ فِي خِدْمَتِهِ؟ وَإِذَا كانَ هذَا مُرَادَ

العُكْبَرِيِّ لَمْ يَسْكُتْ عنهُ العُلَمَاءُ قَطْعًا وَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ هذَا الكَلامَ، وَلكِنَّ المهندِسَ اسْتَنْتَجَ مِنْ كَلامِهِ استِنْتاجًا بَعِيدًا لَا يَقْبَلُهُ نَصُّ كَلامِ الإِمَامِ بِحَالٍ وَيُحَاكِمُنَا عليهِ.

وَالثَّانِي: فِي كوْنِ الإِمَامِ أَضَافَ وَهمًا وَهُوَ ضَمِيرُ(هُمْ)، فَهُوَ كَلامٌ غَرِيبٌ مِنَ المُهَنْدِسِ؛ لأَنَّكَ لَوْ قُمْتَ بِتَرْجَمَةِ هذِهِ الآيَةِ إِلَى أَيَّةِ لُغَةٍ، تَكُونُ بِحَاجَةٍ إِلَى هذَا التَّقدِيرِ؛ لأنَّ المَعْنَى يَحْتَاجُ إِليهِ، فَمَثَلًا لَوْ قُلْتَ: (لَا تَقُلْ مَيِّتُون)، فَلَا بُدَّ وَأَنْ تَتَصَوَّرَ مَعَ (مَيِّتُونَ) فِي هذِهِ الجُمْلَةِ ضَمِيرَ (هُمْ)، أيْ: (هُمْ مَيِّتونَ)؛ لأنَّ الكَلامَ لَا يَصِحُّ بِغَيْرِه.

أمَّا بالنِّسْبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: (ونحنُ نَقُولُ: (أَمْوَات) لَا تُعَادِلُ (وَهُم أموَات) أبَدًا، لِماذَا لَا يَكُونُ تَقدِيرُ الكَلامِ: (إنَّهُم أموَاتٌ) عِوَضًا عَنْ (هُم أموَات) مَثَلًا؟ ثُمَّ كَيفَ يَنُوبُ الضَّمِيرُ الوَهمِيُّ (هُمْ) عَنْ (مَنْ يُقْتَل) أليسَ الأَجْدَرُ أَنْ نَقُولَ: (أَنتَ أَمْوَاتٌ) لِيَنسَجِمَ الضَّمِيرُ مَعَ صِيغَةِ المُفرَدِ؟).

فَأقُولُ: إِنَّنَا لَمْ نَقُلْ بأنَّ (أمواتٌ) تُعَادِلُ: (وَهُمْ أمواتٌ)، وَلم يَقُلْ بِهِ الإِمامُ؛ لأنَّ كَلامَ اللهِ تَعالَى لَا يُسَاوِيْهِ شَيءٌ، وَلَا يُمْكِنُ إِضمَارُ مَا أَظْهَرَهُ، وَلَا إِظْهَارُ مَا أَضْمَرَهُ، فَكُلُّ مَا فَعَلَهُ الإِمَامُ فَسَّرَ الآيَةَ وَأَوْضَحهَا وَبيَّنَ أنَّ فِيْهَا إِضْمَارًا وَتَقْدِيرًا كَبَاقِي كَلامِ العَرَبِ.

أمَّا التَّقدِيرُ الَّذِي جَاءَ بِهِ أوزونُ فَهُوَ تَقدِيرٌ يُضْحِكُ الثَّكْلَى مِنْ سَمَاجَتِهِ؛ لأَنَّهُ لَيسَ هُنَاكَ عَرَبِيٌّ يَسْتَخْدِمُ هذَا إِلَّا إِذَا كَانَ مِنَ الجِنسِيَّاتِ الأُخرَى وَهُوَ حَدِيثُ العَهْدِ بِالعَرَبِيَّةِ وَلا يُمَيِّزُ بينَ أسَالِيْبِهَا، وَإِلَّا كَيفَ يَكونُ التَّقدِيرُ فِي مِثْلِ هذَا الكَلامِ: (أَنْتَ أَمْوَاتٌ)! وَاللهِ لَعَجِيبٌ مِثْلُ هذَا الكَلامِ، (أَنْتَ) مُفْرَدٌ، وَ(أَمْوَات) جَمْعٌ، وَكَذَلِكَ

مَغْزَى الآيَةِ عَنِ الغَائِبِيْنَ وَلِيسَ الـمَخَاطَبِينَ حَتَّى يُقَدَّرَ ضَمِيرُ الـمُخاطَبِيْنَ، فَاللهُ تَعالَى قَالَ للمُؤمِنينَ: لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ هُمْ أَموَاتٌ.

وَلَا أدرِي كَيفَ تَوَصَّلَ الـمهندِسُ إِلَى هذَا الاِختِرَاعِ البَدِيعِ، وَالقَوْلِ الـمَنِيْعِ الَّذِي رَقَّى بِكِتَابِهِ إِلَى الأَسْفلِ!

وَالثَّالِثُ: فِي كَوْنِ الإِمَامِ يَتَساوَى عِنْدَهُ نَصُّ الآيَةِ وَتَأوِيلُهُ، فَهذَا مَا تَكَلَّمْنَا عنهُ وَهُوَ مِنْ مُرَمَّاتِ الكَلَامِ، وَلَمْ يَقُلْ بِهِ الإِمَام، فَكُلُّ مَا فِي الأَمْرِ هُوَ تَفْسِيرٌ وَبيَانٌ وَكَشْفٌ وَإِيْضَاحٌ لِكَلامِ اللهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ تَحْرِيفِ النَّصِّ وَالزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

وَإِذَا تَبَيَّنَ هذَا عَلِمْتَ أَنَّ الـمهندِسَ جَائِرٌ ظَالِمٌ وَيُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ بابَ القَوْلِ بِتَحْرِيفِ كَلامِ اللهِ تَعَالَى، وَالتَّشكِيكِ فِيْهِ بِالنَّقْصِ وَالزِّيَادَةِ؛ لأَنَّهُ يُصَوِّرُ تَفْسِيرَ آيَاتِهَا بِبَيَانِ مَا فِيهَا مِنَ الإِضْمَارِ وَالحَذْفِ، زِيَادَةً عَلَى النَّصِّ الأَصْلِيِّ، وهذَا مَرْدُودٌ عليهِ وَلَا يُقْبَلُ منْهُ أَبَدًا؛ لأَنَّهُ جُرْمٌ وَجِنَايَةٌ وَتَضْلِيلٌ وَعمَايَةٌ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

الشَّاهِدُ الثَّالِثُ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (البقرة).

قَالَ أوزونُ عنْ هذِهِ الآيَةِ: «سنجِدُ أَنَّ إِعرابَ الكَلِمَاتِ بعدَ الفِعْلِ (يَضْرِبُ) هُوَ:

مَثَلًا: مَفعُولٌ بِهِ منصُوبٌ وَعَلامَةُ نَصْبِهِ الفَتْحَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى آخِرِهِ.

وَهُنَا نَسْأَلُ: هَلْ وَقَعَ فِعْلُ الضَّرْبِ عَلَى (مَثَلًا) وَلِمَاذا لَا تَكُونُ تَميِيزًا.

مَا: حرفٌ زَائِدٌ-لَاحِظْ ذلِكَ الإِعْرَاب: حَرْفٌ زَائِدٌ يُمْكِنُكَ حَذْفُهُ-.

بَعُوضَةٌ: بَدَلٌ مِنْ (مَثَلًا) مَنصُوبٌ مِثْلُهُ، وَعلامَةُ نَصْبِهِ الفَتْحَةُ الظَّاهِرَةُ عَلَى آخِرِهِ.

وَهُنَا نَرى أنَّ الآيَةَ الكَرِيمَةَ تُصْبِحُ -حَسَبَ الإعْرابِ السَّابِقِ- عَلَى النَّحْوِ التَّالي: (إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحيِي أَنْ يَضْرِبَ بَعُوضَةً).

وَلَقَدْ تَغَيَّرَ مَفهُومُ الضَّرْبِ فَتَحَوَّلَ مِنْ مَفْهُومٍ مَعْنَوِيٍّ (يَضْرِبُ مَثَلًا) إِلَى مَفْهُومٍ مَادِيٍّ (يَضْرِبُ بَعُوضَةً). وَنَتْرُكُ لِلقَارِئِ العَزِيزِ الحُكْمَ عَلَى المَعْنَى البَلِيْغِ الَّذِي أَوْصَلَنَا إِلَيْهِ السَّادَةُ النُّحَاةُ فِي فَهْمِ الآيَةِ الكَرِيْمَةِ». ص: (٢٣).

أقُولُ: إنَّ مُشْكِلَةَ أوزون أنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى القُرآنِ الكَرِيمِ وَتَفْسِيرِ آيَاتِهِ بِالعُجْمَةِ المُسْتَهْجَنَةِ[1] بَعِيدًا عَنْ أَسَالِيبِ هذِهِ اللُّغَةِ وَعَادَاتِهَا البَيَانِيَّةِ، فِي الحَذْفِ وَالإِضْمَارِ وَالمَجَازِ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَسَالِيبِ الَّتِي تَأتِي لِلأَغْرَاضِ الكَثِيرَةِ.

---

(١) هذِهِ العُجْمَةُ هِيَ الدَّاءُ العُضَالُ، وَشَرُّ خِصَالٍ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ المُعْتَرِضِينَ، وَتُذَكِّرُنِي قِصَّةً لأَحَدِ رُمُوزِ الاعتِزَالِ، وَهِيَ كَمَا ذَكَرَ الأَصْمَعِيُّ: أنَّ عَمْرو بْنَ عُبَيْدٍ جَاءَ إِلَى أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: [وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها]، فَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ: مِنَ الْعُجْمَةِ أَتَيْتَ يَا أَبَا عُثْمَانَ! إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَعُدُّ الْإِخْلَافَ فِي الْوَعِيدِ خَلَفًا وَذَمًّا، وَإِنَّمَا تَعُدُّ إِخْلَافَ الْوَعْدِ خَلَفًا وَذَمًّا وَأَنْشَدَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَإِنِّـــي وَإِنْ أَوْعَدْتُـــهُ أَوْ وَعَدْتُـــهُ لَمُخْلِـفُ إِيعَـادِي وَمُنْجِـزُ مَوْعِـدِي

يُنْظَرُ: التَّفسِيرُ البَسِيطُ للواحِدِيِّ (٢/ ١٠٠)ـ تَفسِيرُ البَغَوِيِّ (١/ ٦٧٩)، وَتاريخُ بغدَادَ (٤١/ ٦٣)، وَالمنتَظَمُ (٨/ ٦١)، وَتاريخُ الإِسلَامِ (٩/ ٢٤٠).

فَإِنْكَارُ هذِهِ التَّقْدِيرَاتِ والإِضْمَارَاتِ، فِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وَفِي أيِّ كَلامٍ عَرَبِيٍّ فَصِيحٍ، لَا يَحصلُ إِلَّا مِنَ البُعْدِ عَنْ وَاقِعِ العَرَبِيَّةِ، والجَهْلِ بِكلامِ الفُصَحاءِ مِنْهَا، وَإِلَّا فَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لُغَةُ الـمَجَازِ وَالكِنَايَةِ وَالِاسْتِعَارَةِ، وَغيرِهَا مِنَ الأَسَالِيبِ الَّتِي بِحَاجَةٍ إِلى تَأْوِيلٍ وَإِيْضَاحٍ، وَكَشْفٍ وَبَيانٍ لِمَنْ كَانَ بَعِيدًا عَنْ أُصُولِ مَسَائِلِهَا، وَدُرَرِ قَوَاعِدِهَا، وَشَوَارِدِ فَرَائِدِهَا.

فَأوزون يُعْطِي ثَمَرَةَ جَهْلِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَيُثْبِتُ جُرْمَهُ وَجَوْرَهُ فِي حَقِّ العَرَبِيَّةِ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى، فَمِنْ هُنَا كَرَّرَ الجِنَايَةَ السَّابِقَةَ عَلَى مَعْنَى الزَّائِدِ فِي العَرَبِيَّةِ، وَإِنَّنَا أَوْضَحْنَا الأَمْرَ فِيمَا سَبَقَ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْرَارٍ، وَمِنْ هُنَا أيضًا نَذْكُرُ قَوْلَ الحَارِثِ الـمُحاسِبِيِّ فِي بَيَانِ مَعْنَى (مَا) وَمَوْقِعِهَا فَقَالَ: «(مَا): زَائِدَةٌ، وَهِيَ تَوْكِيْدٌ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: (أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا بَعُوضَةً)، فَزَادَ قَوْلَهُ (مَا) تَوْكِيدًا»[1].

وَالـمُهندِسُ خَاضَ فِي العِلْمِ دُونَ مَعْرِفَةٍ وَلَا صِيانَة، وَقَدْ خَانَ الأَمَانَة، لَـمَّا أَوْهَمَ أَنَّ الآيَةَ تَصِيْرُ: (إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحيِي أَنْ يَضرِبَ بَعُوضَةً).

وَلَقَدْ تَغَيَّرَ مَفهُومُ الضَّربِ فَتَحَوَّلَ مِنْ مَفْهُومٍ مَعْنَوِيٍّ (يَضرِبُ مَثَلًا) إِلَى مَفْهُومٍ مَادِيٍّ (يَضْرِبُ بَعُوضَةً)». لأَنَّهُ حَذَفَ (مَثَلًا)، وَبِهذَا غَيَّرَ الـمَبْنَى، فَانْقَلَبَ الـمَعْنَى، وهذِهِ خِيَانَةٌ كُبْرَى وَجِنَايَةٌ عُظْمَى فِي حَقِّ النَّحْوِ وَالنُّحَاةِ، وَتَقْلِيبٌ للحَقَائِقِ، حيثُ يَحْذِفُ (الـمَثَلَ)، حَتَّى يَكُونَ الـمَعْنَى للضَّرْبِ الَّذِي يُوجِعُ، لَا ضَرْبِ الـمَثَلِ[2]، وَقَدْ

---

(١) مَعَانِي القُرآنِ للأَخْفَشِ (١/ ٥٩).

(٢) قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ نَاقِلًا عَنِ ابْنِ سِيدَهْ: «يُقَالُ: ضَرَبَ فِي الأَرض إذا سَارَ فِيهَا مُسَافِرًا فَهُوَ ضارِبٌ. والضَّرْبُ يَقَعُ عَلَى جَمِيعِ الأعمال، إلا قَلِيلًا. ضَرَبَ فِي التِّجَارَةِ وَفِي الأَرض وَفِي سَبِيلِ اللهِ وضاربه فِي الْمَالِ، مِنَ الـمُضَارَبة: وَهِيَ القِراضُ. والمُضارَبةُ: أَن تُعْطِيَ إِنسانًا مِنْ مَالِكَ مَا =

فَعَلَ هذَا عَمْدًا؛ لأَنَّهُ صَوَّرَ للقُرَّاءِ أنَّ الـمَعْنى تَغيَّرَ مِنْ مَعنًى حِسِّيٍّ إِلَى مَعْنًى مَادِّيٍّ.

فَالأَمْرُ لَيسَ كذلِكَ، بَلْ: هُوَ كَمَا بيَّنَهُ الأَخْفَشُ فَقَالَ: «وَقَالَ: [مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً]؛ لِأَنَّ (مَا) زَائِدَةٌ فِي الكَلَامِ، وَإِنَّما هُوَ: (إِنَّ اللهَ لَا يَستَحي أَنْ يَضْرِبَ بَعُوضَةً مَثلاً)»[1].

وَقَالَ أيضًا فِي بيَانِ وَجْهٍ آخَرَ مِنَ التَّوْجِيهِ للآيَةِ: «وَنَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يَقُولُونَ: [مَثَلاً مَّا بَعُوضَةٌ] يَجْعَلُونَ (مَا) بِمَنْزِلَةِ (الَّذِي) وَيُضْمِرُونَ (هُوَ) كَأَنَّهُمْ قَالُوا: (لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مثلاً الَّذِي هُوَ بَعُوضَةٌ)، يَقُولُ: (لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ الَّذي هُوَ بَعُوضَةٌ مَثَلًا)»[2].

وَقَالَ أبُو حَيَّانَ فِي بَيَانِ الأَوْجُهِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا الآيَةُ الكَرِيمَةُ: «وَ(يَضْرِبُ): قِيلَ: مَعْنَاهُ: يُبَيِّنُ، وَقِيلَ: يَذْكُرُ، وَقِيلَ: يَضَعُ، مِنْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ، وَضُرِبَ الْبَعْثُ عَلَى بَنِي فُلَانٍ، وَيَكُونُ (يَضْرِبُ) قَدْ تَعَدَّى إِلَى وَاحِدٍ، وَقِيلَ: (يَضْرِبُ): فِي مَعْنَى يَجْعَلُ وَيَصِيرُ، كَمَا تَقُولُ: ضَرَبْتُ الطِّينَ لَبِنًا، وَضَرَبْتُ الْفِضَّةَ خَاتَمًا. فَعَلَى هَذَا يَتَعَدَّى لِاثْنَيْنِ، وَالْأَصَحُّ أَنَّ ضَرَبَ لَا يَكُونُ مِنْ بَابِ ظَنَّ وَأَخَوَاتِهَا، فَيَتَعَدَّى إِلَى اثْنَيْنِ، وَبُطْلَانُ هَذَا الـمَذْهَبِ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ النَّحْوِ.

= يَتَّجِرُ فِيهِ عَلَى أَن يَكُونَ الربحُ بَيْنَكُمَا، أَو يكونَ لَهُ سهمٌ معلومٌ مِنَ الرِّبْح. وكأَنه مأْخوذٌ مِن الضَّرْب فِي الأَرض لِطَلَبِ الرِّزْق. قَالَ اللهُ تَعَالَى: [وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ]، قَالَ: وَعَلَى قِيَاسِ هَذَا الْمَعْنَى، يُقَالُ لِلْعَامِلِ: ضارِبٌ؛ لأَنه هُوَ الَّذِي يَضْرِبُ فِي الأَرض. قَالَ: وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ رَبِّ الْمَالِ وَمِنَ الْعَامِلِ يُسَمَّى مُضارِباً؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُضارِبُ صاحِبَه، وَكَذَلِكَ الْمُقارِضُ. وَقَالَ النَّضْرُ: الْمُضارِبُ صاحبُ الْمَالِ وَالَّذِي يأْخذ المالَ؛ كِلَاهُمَا مُضارِبٌ: هَذَا يُضارِبُه وَذَاكَ يُضارِبُه. وَيُقَالُ: فُلَانٌ يَضْرِبُ الـمَجْدَ أَي يَكْسِبُه ويَطْلُبُه». لِسَانُ العرب (١/ ٥٤٤). وَهذَا مِنْ مَظَاهِرِ السَّعَةِ فِي كَلِمَات العَرَبِيَّةِ وَاسْتِخْدَامَاتِهَا.

(١) مَعَانِي القُرآنِ للأَخْفَشِ (١/ ٥٩).

(٢) فَهْمُ القُرآنِ وَمَعَانِيهِ للحَارِثِ الـمُحاسِبِيِّ (ص٢٦٠)، وَ قَالَهُ أيضًا فِي: (ص:٤٨٩).

وَ(مَا): إِذَا نَصَبْتَ (بَعُوضَةً) زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، أَوْ: صِفَةٌ لِلْمَثَلِ تَزِيدُ النَّكِرَةَ شَيَاعًا، كَمَا تَقُولُ: ائْتِنِي بِرَجُلٍ مَا، أَيْ: أَيِّ رَجُلٍ كَانَ. وَأَجَازَ الْفَرَّاءُ، وَثَعْلَبٌ، وَالزَّجَّاجُ: أَنْ تَكُونَ (مَا) نَكِرَةً، وَيَنْتَصِبُ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: مَثَلًا. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: بِنَصْبِ (بَعُوضَةً). وَاخْتُلِفَ فِي تَوْجِيهِ النَّصْبِ عَلَى وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ صِفَةً لـ(مَا)، إِذَا جَعَلْنَا (مَا) بَدَلًا مِنْ (مَثَل)، وَ(مَثَلًا): مَفْعُولٌ بِـ(يَضْرِبُ)، وَتَكُونُ (مَا) إِذْ ذَاكَ قَدْ وُصِفَتْ بِاسْمِ الْجِنْسِ الْمُتَنَكِّرِ لِإِبْهَامِ (مَا)، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ.

الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ (بَعُوضَةً) عَطْفَ بَيَانٍ، وَ(مَثَلًا): مَفْعُولٌ بِـ(يَضْرِب).

الثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ بَدَلًا مِنْ مَثَلَ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لِـ(يَضْرِب)، وَانْتَصَبَ مَثَلًا: حَالًا مِنَ النَّكِرَةِ مُقَدَّمَةٌ عَلَيْهَا.

وَالْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا لِـ(يَضْرِب) ثَانِيًا، وَالْأَوَّلُ هُوَ (الْـمَثَلُ) عَلَى أَنَّ (يَضْرِب) يَتَعَدَّى إِلَى اثْنَيْنِ.

وَالسَّادِسُ: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا أَوَّلَ لِـ(يَضْرِب)، وَ(مَثَلًا) الْـمَفْعُولَ الثَّانِي.

وَالسَّابِعُ: أَنْ تَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى تَقْدِيرِ إِسْقَاطِ الْجَارِّ، وَالْـمَعْنَى: أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَيْنَ بَعُوضَةٍ فَما فَوْقَها، وَحَكَوْا لَهُ: (عِشْرُونَ مَا نَاقَةً فَجَمَلًا)، وَنَسَبَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ لِبَعْضِ الْكُوفِيِّينَ، وَنَسَبَهُ الْمَهْدَوِيُّ لِلْكُوفِيِّينَ، وَنَسَبَهُ غَيْرُهُمَا لِلْكِسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ، وَيَكُونُ (مَثَلًا): مَفْعُولًا بِـ(يَضْرِب) عَلَى هَذَا الْوَجْهِ..وَ(مَا): صِفَةٌ تَزِيدُ النَّكِرَةَ شَيَاعًا؛ لِأَنَّ زِيَادَتَهَا فِي هَذَا الْـمَوْضِعِ لَا تَنْقَاسُ.

وَ(بَعُوضَةً): بَدَلٌ؛ لِأَنَّ عَطفَ الْبَيَانِ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي النَّكِرَاتِ»[١].

وَبِهذَا الأُسلُوبِ يَسْتَمِرُّ الـمهندِسُ وَيأتِي بِعِشْرِينَ آيَةً قُرآنِيَّةً وَيَفْعَلُ كَمَا فَعَلَ هُنَا، وَإِنَّنِي لَا أرَى حَاجَةً فِي إِيْرَادِهَا وَالرَّدِّ عَلَيْهَا؛ لأنَّ كُتُبَ التَّفسِيرِ وَالإِعْرَابِ مَوْجُودَةٌ بينَ أَيْدِيكُمْ وَقَدْ تعَرَّضَ العُلَمَاءُ لِبَيَانِ وُجُوهِ الآيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالبيَانِيَّةِ، إِذْ بِإِمْكَانِكُمُ الرُّجوعُ إِلَيْهَا وَالاسْتِفَادَةُ منهَا[٢]، وَالوقُوفُ عَلَى حَقِيْقَةِ جَهْلِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ، وَالأَمْثِلَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَرَدَدْنَا عَلَى الـمُعتَرِضِ فِيْهَا تُوقِفُكَ عَلَى أَنَّ اعتِرَاضَاتِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الجَهْلِ وَالوَهم، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الـمُوَفِّقُ.

وَلكِنْ قَبْلَ أَنْ أُنْهِي هـذَا الفَصْلَ أَوَدُّ أَنْ أُشِيْرَ إِلَى أَنَّ الـمُهَنْدِسَ أَخْطَأَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى لَـمَّا ذَكَرَهَا، وقَدْ كُنَّا أَشَرْنَا إِليهِ فِي (الجِنَايَةِ عَلَى الشَّافِعِيِّ)، لَـمَّا اتَّهَمَ الإِمَامَ الشَّافِعِيَّ بِأَنَّهُ أَخطَأَ فِي آيَةٍ قُرآنِيَّةٍ فِي الرِّسَالَةِ وَقَدْ نَقَضْنَا عَلَيْهِ هـذِهِ الـمَقَالَةَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قُلْنَا:

أَمَّا قَوْلِي لأُورُونَ فَهُوَ: تَمَهَّلْ يا مُهَنْدِسُ فَلا تَتَعَجَّلْ، وَلا تَكُنْ كَمَنْ يَسْمَعُ الحَدْوَ هَيْعَةً، وَالتَّنَغُّمَ صَيْحَةً، وَالْمِزمَارَ صَعْقَةً، وَلا تَتَّبِعْ هَوَاكَ أَتْبَعَ مِنَ الظِّلِّ وَارحَمْ نَفْسَكَ، فَالنَّاسُ كُلُّهُم لَهُـم أَنْ يَعْتَرِضُوا هَـذا الاعتِرَاضَ سِوَاكَ؛ لأَنَّ لَـكَ صَفَحَاتٍ سَوْدَاءَ، وَمَوَاقِفَ عَوْرَاءَ، وَكَلِمَاتٍ عَوْجَاءَ، مَعَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَالخَطَإِ فيهِ، فَمِنْ هُنَا أَذكُرُ

---

(١) البَحْرُ الـمحيطُ (١/ ١٩٧-١٩٨).

(٢) وَيَذْكُرُ أيضًا أبيَاتًا شِعرِيَّةً وَيُغَالِطُ فِيْهَا، وَلَا يَزِيدُ سِوَى تَكْرَارِ ثَرْثَرَتِهِ القَدِيْمَةِ، وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ رَدَدْنَاهُ عليهِ فِي فُصُولِ الكِتَابِ الـمُتَفَرِّقَةِ، وَيُمْكِنُكُمْ أيضًا الرُّجُوعُ إِلَى أُمَّهَاتِ كُتُبِ اللُّغةِ وَالنَّحْوِ حَتَى يَتبيَّنَ لَكُمْ حَقِيقَةُ مُستَوَى الـمُهندِسِ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

أَمْثِلَةً يَسِيرَةً للقُرَّاءِ لِيَعلَمُوا حَقِقَةَ مَعْرِفَتِكَ بِالقُرآنِ الكَرِيمِ، وَيَعلَموا أنَّكَ تَجْنِي فِي حَقِّ النَّاسِ وَتَتَّهِمُهُم بمَا فِيكَ وَلَيْسَ فِيهِم، إِذًا واللهِ لأَمْرٌ جَلَل، يَجْعَلُ الحُرَّ يَقَعُ فِي خَجَل، وَالقَلبَ فِي بَلْبَلَةٍ وَوَجَل ...[1]

الْمِثَالُ الثَّانِي: قَالَ أوزونُ: «يَقُولُ اللهُ تَعالَى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]»[2]، انتَهَى مِنْ كتابِ جِنايَةِ سِيْبَوَيْهِ.

فَالمهندسُ لَمْ يعرِفِ الآيَةَ وَلا رَقْمَهَا، والآيَةُ الصَّحيحَةُ هِيَ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (الإسراء).

الْمِثَالُ الثَّالِثُ: قَالَ أوزونُ فِي الصَّفحَةِ السَّابِقَةِ نَفْسِهَا: «[كذلك في قوله تعالى: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨].»[3].

وَهذا خَطأٌ أيضًا وَالصَّوابُ قَوْلُهُ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة).

---

(١) المِثَالُ الأَوَّلُ هُوَ اختِلاقُ آيَةٍ وَنِسْبَتُهَا إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعالَى، فِي كتَابِهِ: (جِنَايَةِ البُخَارِيِّ)، وَنَسَبَ هذَا الكَلامَ: [وَلَيْسَ الأَعْمَى كَالبَصِيرِ]، إِلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى!!، يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَى كِتَابِ: (الجِنَايَةِ عَلَى البُخَارِيِّ)، لِمَعْرِفَةِ سَبَبِ هذِهِ الخِيَانَةِ العَظِيْمَةِ.

(٢) جِنَايَةُ سيبَوَيْهِ لزكريَّا أوزونَ (ص١٠١).

(٣) جِنَايَةُ سيبَوَيْهِ لزكريَّا أوزونَ (ص١٠١).

الْمِثالُ الرَّابعُ: هذا الْمِثالُ يَحتَوِي عَلَى خَطَأيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، قالَ أوزونُ: «لنأخذْ آيةً أُخْرَى مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى[1]: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: ١٦٢]»[2].

فَالآيـةُ الصَّـحيحةُ هِـيَ: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ (النساء).

الْمِثالُ الخامِسُ: إنَّ المهندِسَ لَهُ حَظٌّ مِنَ الخطَإِ فِي الآياتِ القُرآنيَّةِ حتَّى فِي جنايَتِهِ فِي حَقِّ الإمَامِ الشَّافِعِيِّ، كَمَا كَتَبَ: «يا أبت افعل ماتؤمر به»[3].

مَعَ أنَّ الآيَةَ هَكَذا: ﴿..قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (الصافات).

دُوْنَ الجَارِّ وَالْمَجرُورِ[4].

---

(١) كَمْ كَانَتْ عِباراتُ الْمُهَنْدِسِ رَكِيكَةً مُسْتَهْجَنَةً!

(٢) جِنَايَةُ سِيبَوَيْهِ لزكريَّا أوزونَ (ص١٠١).

(٣) جِنَايَةُ الشَّافِعِيِّ لزكريَّا أوزونَ (ص١٠٧).

(٤) الجِنَايَةُ عَلَى الشَّافِعِيِّ (ص٣٢٧-٣٢٨)، ط: دَار المعرَاج.

هَلْ تَصْلُحُ العَرَبِيَّةُ لِتَكُونَ لُغَةَ العِلْمِ؟

ثُمَّ يَتكَلَّمُ المهندِسُ في أَوَاخِرِ كِتَابِهِ عَنْ مَسْأَلَةٍ ذَاتِ وُعُورَةٍ وَخُطُورَةٍ، فَيَجُورُ عَلَى الفَضَائِلِ وَيَظْلِم، وَيُنْكِرُ سَعَةَ العَرَبِيَّةِ وَلَا يُكْرِم، وَيَطْغَى وَيَتَجَبَّر، وَيَتَجَاهَلُ وَيَتَكَبَّر، وَيُجْحِفُ وَلَا يُنْصِف، وَيُؤلِمُ وَيُتلِف، وَكَأَنَّهُ خُلِقَ للظُّلْمِ وَالهَدْم، وَالجَوْرِ وَالرَّدْم.

[مِنَ المُتَقَارِبِ]

وَهُمْ يَظْلِمُونَ وَلَا يُنْصِفُون كَمَنْ أَصْبَحَ الظُّلْمُ مِنْ شِيْمَتِه

قَالَ أوزونُ: «فَإِنَّ أَصْحَابَ مَدْرَسَةِ المَاضِي وَالتُّرَاثِ يَقِفُونَ دَائِمًا فِي وَجْهِ كُلِّ مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يأتِيَ بِجَدِيدٍ، أَوْ: يَنْتَقِدَ القَدِيْمَ، وَهُمْ يَنْسَوْنَ أنَّ اللُّغَةَ كَائِنٌ حَيٌّ -كَمَا سَبَقَ وَذَكَرْنَا سَابِقًا- لِذَلِكَ تَجِدُهُم يُؤمِنُونَ بِأَنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحَى (المُقَعَّدَةَ) قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَسْتَوْعِبَ كَافَّةَ المُفْرَدَاتِ وَالمُصْطَلَحَاتِ الجَدِيْدَةِ -خَاصَّةً العِلْمِيَّةَ مِنْهَا- وَنَحْنُ نَرَى غَيْرَ ذَلِكَ تَمَامًا.

فَإِذَا أَخَذْنَا حَقْلَ الطَّيَرَانِ مَثَلًا -الَّذِي بَدَأَ فِي بِدَايَةِ القَرْنِ العِشْرِينَ- مَعَ الأَخَوَيْنِ الأَمِيرِكِيين، رأيت نَجِدُ[1] أَنَّهُ قَدِ احْتَوَى عَلَى مِئَاتِ المُصْطَلَحَاتِ وَالمُفْرَدَاتِ الَّتِي لَيسَ أَمَامَ العَرَبِ إِلَّا اعتِمَادَهَا كَمَا وَرَدَتْ فِي لُغَةِ الدَّوْلَةِ المُسَيْطِرَةِ عِلْمِيًّا وَعَالَمِيًّا، وَهِيَ اللُّغَةُ الإِنكلِيزِيَّةُ حَالِيًا. وَلا عَيبَ فِي ذَلِكَ، فَعِنْدَمَا كَانَ العَرَبُ فِي أَوْجِ ازْدِهَارِهِم تُرْجِمَتْ كَافَّةُ المُؤلَّفَاتِ مِنْ وَإِلَى العَرَبِيَّةِ الَّتِي اعْتُبِرَتْ عِنْدَئِذٍ لُغَةَ العَالَمِ،

---

(١) عَجِيبٌ أَمْرُ أَلْكَنَ يُحَاوِلُ نَقْدَ سِيبَوَيْهِ، أَيُجْمَعُ بينَ: (رأيت)، و(نَجِدُ)، إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَجْمَعُ بيْنَ الضَّبِّ وَالنُّوْنِ؟!

وَلَمْ يَشْعُرِ الغرْبُ بالغَضَاضَةِ عِنْدَ مَا أَخَذَ مُفْرَدَاتٍ عَرَبِيَّةً وَاسْتَخْدَمَهَا، كَكَلِمَةِ (الجَبْرِ) مَثَلًا، وَ(الكِيْمياءِ)، وَ(الصِّفْرِ)، وَغيرِ ذلِك.

وَعليهِ فَإِنَّهُ يَتوَجَّبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نُضَيِّعَ الوَقْتَ فِي إِيْجَادِ مَا يُقَابِلُ الـمُفرَدَاتِ وَالـمُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةَ الإِنكلِيزِيَّةَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَأَنْ نُعِيدَ النَّظَرَ فِي مَا يُسَمَّى بِمَجَامِعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَمَهَامِّهَا، فَالعَرَبُ مُنْذُ بِدَايَةِ القَرْنِ العِشْرِينَ وَحَتَّى يَوْمِنَا هـذَا- أَيْ: عَلَى مَرِّ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَنِ-لَمْ يُقَدِّمُوا مُصْطَلَحًا وَاحِدًا فِي مجَالِ العُلُومِ وَالتَّكنولوجيَا فِي حِيْنِ أَنَّهُم قَدَّمُوا آلَافَ الكُتُبِ الدِّيْنِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ لَا تُسْمِنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوْعٍ[1].

وَإِنَّ طُلَّابَنَا اليَوْمَ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى تَقْوِيَةٍ فِي لُغَةِ العِلْمِ السَّائِدَةِ اليَوْمَ-اللُّغَةِ الإِنكلِيزِيَّةِ-خَاصَّةً فِي الـمَجَالَاتِ العِلْمِيَّةِ؛ لأَنَّهُم عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ التَّحْصِيْلَ العِلْمِيَّ العَالِيَ فَإِنَّهُم يَحصلُونَ عليهِ مِنَ البِلادِ الغَرْبِيَّةِ وَبِلُغَتِهِمُ العِلْمِيَّةِ، مَعَ وجُوبِ الـمُحَافَظَةِ عَلَى لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ الَّتِي رُبَّمَا تَعُودُ إِلَى القِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ عِنْدَ مَا يَتَطَوَّرُ أَهلُهَا فِكْرِيًّا، وَعلميًّا، وَيَتَخَلَّصُونَ مِنْ شَوَائِبِ التُّرَاثِ وَعُقَدِ الـمَاضِي الَّتِي تُلازِمُهُم.

كَمَا أَنَّ تَسْمِيَةَ الـمُخْتَرَعَاتِ هِيَ مِنْ حَقِّ الأُمَمِ الَّتِي أَوْجَدَتْهَا وَأَبْدَعَتْهَا وَلَا يَحِقُّ لِغَيْرِهَا أَنْ يُغَيِّرَهَا، فَنَحْنُ نَقُولُ: (رَادِيو)، عَمَّا سَمَّوهُ عِنْدَنَا (مِذْيَاع)، وَنَقُولُ: (تلفزيون)، أَوْ: (tv)، عَمَّا سَمَّوهُ الرَّائِي، وَنَقُولُ: (كُومبيوتر) عِوَضًا عَنِ (الحَاسُوبِ)، وَ(تليفُون) عِوَضًا عَنِ (الهَاتِفِ)..وَغيرُ ذلِكَ مِنَ الـمُسمَّيَاتِ الَّتِي

---

(١) يَجْهَلُ المهنْدِسُ: أَنَّ دَائِرَةَ الأَخْذِ أَوْسَعُ مِنْ دَائِرَةِ الاِسْتِعْمَالِ، وَهِيَ قَاعِدَةٌ مُطَّرِدَةٌ، فَتَأَمَّلْ، الشَّيْخُ الحَدُّوشِيُّ.

جَاءَتْ مِنَ الغَرْبِ، وَالَّتِي لَمْ يُفْلِحْ أَهلُ مَجامعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي تَعْرِيبِهَا أَصْلًا، فَمَثَلًا كَلِمَةُ (حَاسُوب) جَاءَتْ مِنَ الفعْلِ (حَسبَ) عَلَى وَزْنِ (فَاعُولٍ)–اسمِ آلَةٍ–أَمَّا كَلِمَةُ (هَاتِف) فَجَاءَتْ مِنَ الفِعْلِ (هَتَفَ)، عَلَى وَزْنِ (فَاعِلٍ)–اسْمِ فَاعلٍ–وَالوَاقِعُ أَنَّ الهَاتِفَ لَا يَهْتِفُ مِنْ نَفْسِهِ بَيْنَمَا الحَاسُوبُ يحسبُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، بَعْدَ إِعْطَائِهِ التَّعلِيمِيَّةَ الـمُنَاسِبَةَ.

أَمَّا الـمُصْطَلَحَاتُ العِلْمِيَّةُ فَيَجِبُ أَنْ تُؤخَذَ مِنَ الأُمَّةِ الـمُتَطَوِّرَةِ كَمَا هِيَ، خَاصَّةً فِي مَجَالِ الطِّبِّ وَالهَنْدَسَةِ وَالعُلُومِ التَّطْبِيقِيَّةِ؛ لأَنَّ هذِهِ الـمُصْطَلَحَاتِ أَصْبَحَتِ اليَوْمَ لُغَةً عَالَمِيَّةً يُتْقِنُهَا مُعْظَمُ أَهْلِ الأَرْضِ بِاسْتِثْنَاءِ مُعْظَمِ العَرَبِ.

وَلَعَلَّ مُحَاوَلَةَ تَعرِيبِ رُمُوزِ الكِيمياءِ مَثَلًا، الَّتِي اعْتَمَدَتْهَا بَعْضُ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ هِيَ مِنْ أَفْشَلِ التَّجَارِبِ وَالـمُحَاوَلَاتِ؛ لأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى التَّخَلُّفِ وَعَدَمِ مُواكَبَةِ التَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ». ص: (١٦٠–١٦١).

أَقُولُ: إِنَّ الـمهندِسَ كَعَادَتِهِ يُلْقِي شُبُهَاتٍ كَثِيرَةً ويَدْخُلُ عَلَى القَارِئِ بأسلُوبٍ غَيرِ مُنْضَبِطٍ، وَيَطْرَحُ أَبَاطِيلَ كَثِيرَةً وَيُشَوِّشُ فِكْرَ القَارِئِ، وَيُثِيرُ ضَجَّةً وغَوْغَاءً، حَتَّى يَضِيعَ الحَقُّ بينَ كُلِّ هذِهِ الهَرْطَقَاتِ، وَلكِنَّنَا لَا نَسْمَحُ لَهُ بِحَرْفٍ يَخْرُجُ مِنْ فِيْهِ وَشَوَّهَ بِهِ الحَقَّ، فَلِذلِكَ أُقَسِّمُ كَلامَهُ عَلَى نِقَاطٍ لِيَسْهُلَ تَنَاوُلُ رَدِّهِ كُلِّهِ:

النُّقْطَةُ الأُوْلَى: فِي عَدَمِ قُدْرَةِ العَرَبِيَّةِ عَلَى احتِوَاءِ الـمُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةِ، وَهذَا مَا ذَكَرَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ وَآخرِهِ، فَنَرُدُّ عليهِ مُسْتَعِينِيْنَ باللهِ تَعَالَى وَنَقُولُ:

إِنَّ النَّاظِرَ فِي حَقِيقَةِ اللُّغَاتِ وَلَا سِيَّمَا العَرَبِيَّةِ، يُدْرِكُ أَنَّ دَعْوَى كَوْنِ العَرَبِيَّةِ لَا تَصْلُحُ لِتَكُونَ لُغَةَ العِلْمِ، تَافِهَةٌ تَالِفَةٌ، وَهِيَ نَاتِجَةٌ مِنْ تَحَامُلٍ بَارِدٍ، وتَعَصُّبٍ أَعْمَى،

وَخُصُومَةٍ نَكْرَاءَ؛ لأَنَّ العَرَبِيَّةَ قَدْ وَسِعَتْ فِيْمَا مَضَى عُلُوْمَ اليُونَانِ وَالرُّومَانِ وَالفُرْسِ، وَآدَابَ الأُمَمِ وَمَعَارِفَهَا، وَهذَا مَا شَهِدَ بِهِ الْمُنصِفونَ مِنَ الغَرْبِ وَاعتَرَفُوا بِأَنَّ النَّهْضَةَ العِلميَّةَ فِي أُورُوبَّا عِيالٌ عَلَى عُلُومِ الْـمُسلِمينَ وَمَعَارِفِهِم، وَمِنَ الْمَعلُومِ أَنَّ هذِهِ العلُومَ وَالْمَعارِفَ دُوِّنَتْ وَخُلِّدَتْ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، فَإِذَا كَانَتِ الْـمُشْكِلَةُ فِي ذَاتِ اللُّغَةِ، فَكَيْفَ اسْتَوْعَبَتْ مُصْطَلَحاتِ الأُمَمِ الآخَرِيْنَ؟!

وَكَذلِكَ فِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ وَسِعَتِ الفُصْحَى العُلُوْمَ التَّجْرِيْبِيَّةَ وَمُصْطَلَحَاتِهَا، وَهَا هِيَ الجَامِعَاتُ وَالْـمَعَاهِدُ فِي البُلْدَانِ العَرَبِيَّةِ تُدَرِّسُ هذِهِ العُلُومَ بِالفُصْحَى، وَقَدْ أَنْتَجَتْ عُلَمَاءَ وَخُبَرَاءَ فِي كَثِيْرٍ مِنَ العُلُومِ وَالْـمَعارِفِ[1].

وَهَا نَحْنُ نَرَى لُغَةً مُسْتَهْجَرَةً كَاليَابَانِيَّةِ وَالصِّينيَّةِ تُدْرَسُ وَتُدَرَّسُ وَتُدَارَسُ بِهَا العُلُومُ التَّجرِيبِيَّةُ وَالإِنْسَانِيَّةُ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ تِلْكَ العُلُومُ بينَهُم أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ بَعْضِ البُلْدَانِ الَّتِي تُدَرِّسُ بِالإِنجلِيزِيَّةِ، وَكَذَا اللُّغَةُ العِبْرِيَّةُ تُدَرَّسُ بِهَا العُلُومُ التَّجرِيبِيَّةُ فِي جَامِعَاتِ إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ نَجَحُوا فِي تَدْرِيسِ تِلْكَ العُلُومِ بِهَا، كَمَا نُشَاهِدُهُ عِيَانًا.

فَهذِهِ الأُمُورُ تُظْهِرُ أَنَّ اللُّغَاتِ الـمَهْجُورَةَ وَالضَّعِيْفَةَ بِوسعِهَا أَنْ تَكونَ لُغَةَ العِلْمِ وَالاختِرَاعَاتِ العَصْرِيَّةِ، فَكَيْفَ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الَّتِي فَاقَتِ اللُّغَاتِ قُوَّةً وَصَلابَةً وَغِنَاءً! وَالعَرَبِيَّةُ تَمْلِكُ قَوَاعِدَ وَأُسُسًا لِتَضَمُّنِ الكَلِمَاتِ غَيرِ العَرَبِيَّةِ وَتَعرِيْبِهَا[2]، وَكَمَا يُسَاعِدُنَا أُسْلُوبُ النَّحْتِ فِي اخْتِصَارِ الأَسْمَاءِ الطَّوِيلَةِ، فِي اللُّغَاتِ الأُخرَى عِنْدَ نَقْلِهَا

---

(١) وَسَيأْتِي بَيَانُ سَبَبِ تَخَلُّفِنَا فِي هذِهِ العُلُومِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

(٢) دِيوانُ حَافِظ إبراهيم (١/ ٢٤٢-٢٤٤)، تَحْتَ اسْمِ: (اللُّغة العَرَبِيَّة تَنْعَى حَظَّهَا بَيْنَ أَهْلِهَا)، نَشَرَهَا عضامَ (١٩٠٣م).

إِلَى العَرَبِيَّةِ، وَكَمَا بِوسعِنَا أَنْ نَخْتَصِرَ الجُمْلَةَ الطَّوِيْلَةَ إِلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا كَانَ الأَوَائِلُ وَضَعُوا (الرَّوْمَنَة) لِتَكُونَ مُقَابِلَةً لِجُمْلَةِ: (النَّقْلِ مِنَ الرُّومَانِيَّةِ)، وَكَمَا نَرَى الْمُعَاصِرِينَ وَضَعُوا (النَّقْحَرَة) لِتُقَابِلَ: (النَّقْلَ الحَرْفِيَّ)!

وَإِذَا نَظَرَ البَاحِثُ إِلَى العَرَبِيَّةِ بِعَيْنِ الإِنْصَافِ وَالإِتْحَافِ، اعتَرَفَ بِأَنَّهَا أَغْنَى اللُّغَاتِ وَأَقوَاهَا وَأَنَّهَا صَالِحَةٌ لِتَدرِيسِ العُلُومِ جَمِيْعِهَا[1].

وَلَقَدْ قَامَ شَاعِرُ النِّيْلِ حَافِظ إِبرَاهِيم وَرَدَّ عَلَى الـمُسْتَشْرِقِينَ وَالخَونَةِ مِنَ العَرَبِ فِي بِدَايَةِ ظُهُورِ هذِهِ الدَّعَاوَى، رَدًّا جَمِيْلًا بِقَصِيْدَةٍ بَلِيغَةٍ بَدِيْعَةٍ، رَائِقَةٍ رَقْرَاقَةٍ، عَلَى لِسَانِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، حَيْثُ شَكَتْ عُقُوقَ أَبْنَائِهَا وَاسْتَنْجَدَتْهُم، وَاستَدَلَّتْ لَهُم بِأَنَّهَا وَسِعَتْ كِتَابَ اللهِ تعَالَى وَآيَهُ، فَكَيْفَ لَا تَسَعُ أَسْمَاءَ آلَاتٍ وَأَجْهِزَاتٍ مُخْتَرَعَةٍ؟ وَيقُولُ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

رَجَعتُ لِنَفسِي فَاتَّهَمتُ حَصَاتِي[2] ... وَنَادَيتُ قَوْمِي فَاحتَسَبتُ حَيَاتِي
رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي ... عَقِمْتُ فَلَمْ أَجزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي[3]
وَلَدْتُ وَلَمَّا لَم أَجِدْ لِعَرَائِسِي ... رِجَالًا وَأَكْفَاءً وَأَدْتُ بَنَاتِي
وَسِعتُ كِتَابَ اللهِ لَفظًا وَغَايَةً ... وَمَا ضِقتُ عَن آيٍ[4] بِهِ وَعِظَاتِ
فَكَيفَ أَضِيقُ اليَومَ عَن وَصفِ آلَةٍ ... وَتَنسِيقِ أَسمَاءٍ لِمُختَرَعَاتِ

---

(١) وَالعَجِيبُ أَنَّ خُصُومَ العَرَبِيَّةِ لَيْسَ لَهُم صَوتٌ تُجَاهَ تَدرِيسِ الطِّبِّ وَالعُلُومِ الأُخرى بِالبُقْعَةِ الَّتِي تُسَمَّى إِسرائِيْلَ بِالعبرِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ مِنَ اللُّغَاتِ البَالِيَةِ الْمُنْدَرِسَةِ الْمُنْقَرِضَةِ، وَمَعَ هذَا تَقَدَّمُوا فِي هذِهِ العُلُومِ!

(٢) **الحَصَاةُ**: العَقْلُ وَالفِكْرُ.

(٣) **العُدَاةُ**: الأَعْدَاءُ.

(٤) **الآيِ**: جَمْعُ آيَةٍ.

أَنـا البَحـرُ فِي أَحشَـائِهِ الـدُرُّ كَـامِنٌ فَهَلْ سَأَلُوا الغَـوَّاصَ عَـنْ صَـدَفاتي[١]

فَيـا وَيحكُـمْ أَبْلَـى وَتَبْلـى مَحاسِـني وَمِـنكُم وَإِنْ عَـزَّ الـدَّوَاءُ أَسَـاتي[٢]

فَـلا تَكِلُـوني لِلزَّمَـانِ فَـإِنَّني أَخَـافُ عَلَـيكُمْ أَنْ تَحِـينَ وَفَـاتي[٣]

أرى لِرِجَـالِ الغَـرْبِ عِـزًّا وَمَنْعَـةً وَكَـمْ عَـزَّ أَقـوامٌ بِعِـزِّ لُغـاتِ

أَتَـوا أَهلَهُـم بِالـمُعجِزاتِ تَفَنُّنـا فَيـا لَيـتَكُمْ تَـأْتُونَ بِالكَلِمـاتِ

أَيُطْرِبُكُم مِنْ جانِبِ الغَرْبِ ناعِبٌ[٤] يُنـادي بِـوَأْدِي فِي رَبِيْـعِ حَيَـاتي

وَلَـو تَزْجُـرُونَ الطَّيـرَ يَومًـا عَلِمـتُمُ بِمـا تَحتَـهُ مِـنْ عَثْـرَةٍ وَشَـتَاتِ

سَقَى اللّـهُ فِي بَطْـنِ الجَزِيـرَةِ أَعظُمـًا يَعِـزُّ عَلَيهَـا أَنْ تَلِـينَ قَنَـاتي[٥]

حَفِظْـنَ وِدَادِي فِي البِلَـى وَحَفِظتُـهُ لَهُـنَّ بِقَلْـبٍ دائِـمِ الحَسَـرَاتِ

وَفَـاخَرْتُ أَهـلَ الغَـربِ، وَالشَّـرقُ حَيـاءً بِتِلـكَ الأَعظُـمِ النَّخِـراتِ[٦]

أَرى كُـلَّ يَـومٍ بِالجَرائِـدِ مَزْلَقًـا مِـنَ القَبـرِ يُـدْنِيْني بِغَيـرِ أَنـاةِ[٧]

وَأَسـمَعُ لِلكُتَّـابِ فِي مِصْـرَ ضَـجَّةً فَـأَعلَمُ أَنَّ الصَّـائِحِينَ نُعَـاتِي[٨]

أَيَهجُـرُنِي قَـومي عَفَـا اللّـهُ عَـنهُمُ إِلَـى لُغَـةٍ لَـم تَتَّصِـلْ بِـرُوَاةِ؟

---

(١) لَا وَاللهِ مَا سَأَلُوا، وَإِلَّا فَلَمْ يَعْتَرِضُوا.

(٢) **عَزَّ**: نَدَرَ. **الأَسَاةُ**: جَمْعُ الآسِي، وَهُوَ الطَّبِيبُ الَّذِي يَعْمَلُ بِالمَجَّانِ، وَيُجْمَعُ عَلَى (الإِسَاء) أيضًا.

(٣) لأَنَّ اللُّغَةَ كَالإِنَاءِ، إِذَا انْكَسَرَ، ضَاعَ مُحْتَوَاهُ.

(٤) النَّعِيْبُ لِصَوْتِ الغُرَابِ، وَيُسْتَخْدَمُ لِكُلِّ خَبَرٍ مُفْزِعٍ، وَلِكُلِّ صَوْتٍ مُسْتَكْرَهٍ.

(٥) **القَنَاةُ**: الرُّمْحُ، كِنَايَةٌ عَنِ الضَّعْفِ.

(٦) **النَّخِرَاتُ**: البَالِيَاتُ.

(٧) **المَزْلَقُ**: مَكَانُ الانْزِلَاقِ، أي: السُّقُوطِ. **الأَنَاةُ**: التَأَنِّي.

(٨) **النُّعَاةُ**: جَمْعُ نَاعٍ، وَهُوَ المُخْبِرُ بِالمَوْتِ.

سَرَتْ لَوْثَةُ الإِفْرِنْجِ فيْهَا كَما سَرَى لُعَـابُ الأَفَـاعي فِي مَسِـيلِ فُـراتِ
فَجـاءَتْ كَثَـوبٍ ضَـمَّ سَـبعِينَ رُقعَـةً مُشَـكَّلَةَ الأَلْـوَانِ مُختَلِفَـاتِ
إِلـى مَعشَـرِ الكُتّـابِ، وَالجَمعُ حافِلٌ بَسَـطْتُ رَجَـائِي بَعْـدَ بَسْـطِ شَـكَاتي
فَإِمَّـا حَيـاةٌ تَبعَـثُ الـمَيْتَ فِي البِلَـى وَتُنْبِـتُ فِي تِلـكَ الرُّمُـوسِ[1] رُفَـاتي
وَإِمّـا مَمَـاتٌ لَا قِيامَـةَ بَعـدَهُ مَمـاتٌ لَعَمْـري لَـم يُقَـسْ بِمَمـاتِ

وَكَمَا قُلْنَا: يُمْكِـنُ أَنْ يُعْتَـرَضَ عَلَيْنَا بِـأَنَّ الـدُّوَلَ العَرَبِيَّةَ فِي تَخَلُّفٍ تَـامٍّ عَـنْ هـذِهِ العُلُومِ التَّجرِيبِيَّةِ؟

وَيُجَابُ عَلَيْهِمْ: بِأَنَّ هذَا التَّخلُّفَ لَيسَ سَببُهُ اللُّغَةَ، وَمَنْ صَوَّرَ هذَا وَأَسْنَدَ التَّخَلُّفَ إِلَيْهَا فَهُوَ ظَالِمٌ جَائِر، وَعَلَى اللُّغَةِ مُتَعَصِّبٌ ثَائِر، وعَدُوٌّ كَشَرَ عَـنْ أَنيَابِهِ وَلكِنَّهُ خَائِبٌ خَاسِر؛ لأَنَّ هُنَاكَ دُوَلًا تَقَدَّمَتْ عِلميًّا وَتُعَدُّ مِنَ السَّوَابِقِ فِي النَّهْضَةِ، وَلَكِنَّ لُغَتَهَا لُغَةٌ مَيِّتَةٌ بَالِيَةٌ، أَوْ: هَزِيلَةٌ ضَعِيفَةٌ، إِذَنْ لَيْسَ لِلُّغَةِ إِثْمٌ فِي ذلِكَ قَطْعًا.

أَمَّا تَخَلُّفُنَا فِي هذِهِ العُلُومِ فَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى أَسْبَابٍ، وَقَدْ ذَكَرْتُ طَرَفًا مِنْهَا فِي كِتَابَي: (الجِنَايَةِ عَلَى البُخَارِيِّ) وَ(الجِنَايَةِ عَلَى الشَّافِعِيِّ) لَعَلَّكَ تُرَاجِعُهُمَا، وَتَقِفُ عَلَى حَقِيقَةِ هذَا الكَلامِ الَّذِي هُوَ فِرْيَةٌ بِلا مِرْيَة.

أَمَّا قَوْلُ أوزونَ هذَا: (لَمْ يُفْلِحْ أَهلُ مَجامعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي تَعْرِيبِهَا أَصْلًا، فَمَثَلًا كَلِمَةُ (حَاسُوب) جَاءَتْ مِنَ الفِعْلِ (حَسِبَ) عَلَى وَزْنِ (فَاعُولٍ) -اسم آلَةٍ- أَمَّا كَلِمَةُ (هَاتِف) فَجَاءَتْ مِنَ الفِعْلِ (هَتَفَ)، عَلَى وَزْنِ (فَاعِلٍ) -اسْم فاعلٍ- وَالوَاقِعُ أَنَّ الهَاتِفَ لَا يَهْتِفُ مِنْ نَفْسِهِ بَيْنَمَا الحَاسُوبُ يحسبُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، بَعْدَ إِعْطَائِهِ

---

(١) الرُّمُوسُ: القُبُورُ.

التَّعليمِيَّةَ المُناسِبَة). فَهُوَ خَلَلٌ وَخبَلٌ وَخطَل، وَجُرْمٌ وَشُؤمٌ وَلُؤم؛ لأنَّ المهندِسَ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّفريقِ وَالاعتِرَاضِ وَيتكلَّفُ فِيهِما، فَالجَوابُ عَلَى اعتِرَاضِهِ يَكُونُ مِن جِهَتَيْنِ، جِهَةِ بَيَانٍ، وَجِهَةِ إِلْزَامٍ.

أَمَّا جِهَةُ البَيَانِ فَهِيَ: أنَّ هذِهِ الأَوزَانَ الَّتِي وُضِعَتْ لأَسْمَاءِ الآلَاتِ، لَمْ يُنْظَرْ إِلَيْهَا مِنْ جِهَةِ الفَاعِلِيَّةِ أَصْلًا، وَالنَّظَرُ إِلَى هذِهِ الجِهَةِ جُنُونٌ مَا فَوْقَهُ جُنُون، مِنَ المهندِسِ أُوزُون؛ لأنَّهَا أُطْلِقَتْ عَلَيْهَا: (أَسْمَاءُ الآلَاتِ)، فَهِيَ آلَةٌ، وَالآلَةُ وَسِيْلَةٌ بَيْنَ الفَاعِلِ وَالمُنْفَعِلِ، وَلَيسَ لَهَا مِنْ الاِسْتِقْلالِ شَيْءٌ، وَلَا تَرْفَعُ فِيْهِ رَأْسًا.

أَمَّا جِهَةُ المُعَارَضَةِ فَهِيَ: أنَّ عَمَلَ الحَاسُوبِ أَيْضًا لَيْسَ عَمَلًا مُسْتَقِلًّا، وَلَا يَعْمَلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا بالإِيْعَازِ، وَهذَا الإِيْعَازُ لَوْ أَعْطَيْتَهُ الهَاتِفَ لَرَأَيْتَهُ يَعْمَلُ مَا تُرِيْدُ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ يَخْفَى مِثْلُ هذَا الشَّيْءِ البَدِيْهِيِّ عَلَى أُوزُونَ؟!

النُّقْطَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ: (فَإِنَّهُ يَتوَجَّبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نُضَيِّعَ الوَقْتَ فِي إِيْجَادِ مَا يُقَابِلُ المُفرَدَاتِ وَالمُصْطَلَحَاتِ العِلْمِيَّةَ الإِنكلِيزِيَّةَ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَأَنْ نُعِيدَ النَّظَرَ فِي مَا يُسَمَّى بِمَجَامِعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَمَهَامِّهَا، فَالعَرَبُ مُنْذُ بِدَايَةِ القَرْنِ العِشْرِينَ وَحَتَّى يَوْمِنَا هذَا-أَيْ: عَلَى مَرِّ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَنِ-لَمْ يُقَدِّمُوا مُصْطَلَحًا وَاحِدًا فِي مَجَالِ العُلُومِ وَالتّكنولوجيا).

أَقُولُ: إِنَّ هذَا الكَلامَ لَا يَقُولُهُ إِلَّا مُعَادٍ لِلعَرَبِيَّةِ، وَإِلَّا فَلَوْ كُنْتَ اسْتَطَعْتَ وَضْعَ المُصْطَلَحَاتِ بَدَلًا مِن اسْتِخْدَامِ الاِصْطِلاحَاتِ غَيْرِ العَرَبِيَّةِ، فَهُوَ أَمْرٌ مَرْغُوبٌ فِيْهِ، وَلَيْسَ مِثْلُ هذَا يُعَدُّ تَضْيِيعًا لِلوَقْتِ وَلَا إِهْدَارًا لِلمَجْهُودِ؛ لأَنَّكَ تُحَاوِلُ المُحَافَظَةَ

عَلَى اللُّغَةِ مِنَ الغَزْوِ، بِإِدْخَالِ الكَلِمَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ الكَثِيْرَةِ فِي عُلُومٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَالمُحَافَظَةُ عَلَى هذِهِ السِّمَةِ، تَكُونُ إِنْجَازًا كَبِيرًا فِي اللُّغَةِ، وَالمَجَامِعُ اللُّغَوِيَّةُ فِي جَمِيعِ اللُّغَاتِ تُحَاوِلُ مُحَافَظَةَ اللُّغَاتِ وَصِيَانَتَهَا مِنَ الغَزْوِ بِإِدخَالِ الكَلِمَاتِ الوَافِدَةِ.

أمَّا سَبَبُ عَدَمِ تَقْدِيمِ اصْطِلاحٍ عِلْمِيٍّ، أَوِ: اخْتِرَاعٍ، فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى أَسْبَابٍ كَمَا أُشِيْرَ إِلَيْهَا فِي مَكَانِهَا.

النُّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: (وَإِنَّ طُلَّابَنَا اليَوْمَ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى تَقْوِيَةٍ فِي لُغَةِ العِلْمِ السَّائِدَةِ اليَوْمَ-اللُّغَةِ الإنكليزيَّةِ-خَاصَّةً فِي المَجَالاتِ العِلْمِيَّةِ؛ لأَنَّهُم عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ التَّحْصِيلَ العِلْمِيَّ العَالِيَ فَإِنَّهُم يَحصلُونَ عليهِ مِنَ البِلادِ الغَرْبِيَّةِ وَبِلُغَتِهِمُ العِلْمِيَّةِ مَعَ وجُوبِ المُحَافَظَةِ عَلَى لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ الَّتِي رُبَّمَا تَعُودُ إِلَى القِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ عِنْدَ مَا يَتَطَوَّرُ أَهلُهَا).

أقُولُ: إِنَّ حَثَّ المُهَنْدِسِ للشَّبَابِ عَلَى تَعَلُّمِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ، فَهُوَ أَمرٌ مَحبُوبٌ، لَا يُخَالِفُ شَرِيْعَتَنَا وَلَا مَنْهَجَ العُلَمَاءِ أَبَدًا؛ لأَنَّ رَسُولَنَا الكَرِيْمَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هُوَ القُدْوَةُ الأَوَّلُ وَالمُعَلِّمُ الأَسْبَقُ حَثَّ عَلَى تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى لِحَاجَتِنَا إِلَيْهَا، كَمَا ذَكَرَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ فِي ذلِكَ أَثَرًا وَعَلَّقَ عَلَيْهِ، وهُوَ: «عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: (أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُ)، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إِنِّي مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، فَلَمَّا تَعَلَّمْتُ لَهُ كُنْتُ أَكْتُبُ إِلَى يَهُودَ إِذَا كَتَبَ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ.

قَالَ أَبُو جعْفرٍ: فتَأَمَّلْنَا هَذَا الْحَدِيثَ فَوَجَدْنَا مَا كَانَ يَرِدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ كُتُبِ يَهُودَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ إِنَّمَا كَانَ يَقْرَؤُهُ لَهُ الْيَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْضُرُونَهُ، وَهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى كِتْمَانِهِ بَعْضَ مَا فِيهِ، وَغَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى مَا يُرِيدُونَ، وَكَانَ مَا يَنْفُذُ مِنْ كُتُبِهِ إِلَى الْيَهُودِ جَوَابًا لِكُتُبِهِمْ لَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ فَتَحْتَاجُ الْيَهُودُ الْوَارِدَةُ عَلَيْهِمْ إِلَى مَنْ يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ لِيَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ كَانُوا لَا يُحْسِنُونَ الْعَرَبِيَّةَ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرِّفَ مَا فِي كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا يُرِيدُ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-مَا لَا خَفَاءَ بِهِ، وَفِي قُلُوبِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مَا فِيهَا، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-زَيْدًا أَنْ يَتَعَلَّمَ لَهُ السُّرْيَانِيَّةَ لِيَقْرَأَ كُتُبَهُمْ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ قِرَاءَةً ، فَيَأْمَنَ بِهَا كِتْمَانَ مَا فِيهَا، وَيَأْمَنَ بِهَا تَحْرِيفَ مَا فِيهَا، وَيَكُونَ كِتَابُهُ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-إِذَا وَرَدَ عَلَى الْيَهُودِ وَرَدَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ يَقْرَؤُهُ عَامَّتُهُمْ، يَأْمَنُ فِيهِ مِنْ كِتْمَانِ بَعْضِ مَا فِيهِ، وَمِنْ تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى غَيْرِ مَا كَتَبَ بِهِ»(١).

---

(١) شَرْحُ مُشْكِلِ الآثَارِ (٥/ ٢٨١)، بِرَقْمِ: (٢٠٣٩).
قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ عَنْ هذِهِ القِصَّةِ: «وَهَذِهِ الطَّرِيقُ وَقَعَتْ لِي بِعُلُوٍّ فِي فَوَائِدِ هِلَالِ الْحَفَّارِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ عَيَّاشٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ بْنِ السُّرِّيِّ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، فَذَكَرَهُ. وَزَادَ: (فَتَعَلَّمْتُهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا) وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ فِي مُسْنَدَيْهِمَا، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْمَصَاحِفِ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو يَعْلَى مِنْ طَرِيقِهِ، وَعِنْدَهُ: (إِنِّي أَكْتُبُ إِلَى قَوْمٍ فَأَخَافُ أَنْ يَزِيدُوا عَلَيَّ وَيَنْقُصُوا فَتَعَلَّمِ السُّرْيَانِيَّةَ) فَذَكَرَهُ، وَله طَرِيقٌ أُخْرَى أَخْرَجَهَا ابْنُ سَعْدٍ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي الزِّنَادِ تَفَرَّدَ بِهِ، نَعَمْ لَمْ يَرْوِهِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ خَارِجَةَ إِلَّا عَبْدُ الرَّحْمَنِ؛ فَهُوَ تَفَرُّدٌ نِسْبِيٌّ وَقِصَّةُ ثَابِتٍ يُمْكِنُ أَنْ تَتَّحِدَ مَعَ قِصَّةِ خَارِجَةَ؛ بِأَنَّ مِنْ لَازِمِ تَعَلُّمِ كِتَابَةِ الْيَهُودِيَّةِ تَعَلُّمَ لِسَانِهِمْ، وَلِسَانُهُمُ السُّرْيَانِيَّةُ لَكِنَّ الْمَعْرُوفَ أَنَّ لِسَانَهُمُ الْعِبْرَانِيَّةُ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّ زَيْدًا تَعَلَّمَ اللِّسَانَيْنِ لِاحْتِيَاجِهِ إِلَى ذَلِكَ». يُنْظَرُ: فَتْحُ البَارِي (١٣/ ١٨٦-١٨٧).
أَمَّا القَوْلُ فِي عَدَدِ الأَيَّامِ فَهوَ أَنَّهُ تَعَلَّمَ أَسَاسِيَّاتِ هذِهِ اللُّغَةِ، وَإِلَّا فَلَا تُتَعَلَّمُ اللُّغَةُ فِي هذِهِ الأَيَّامِ القَلَائِلِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ الكَرَامَةِ لِهذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

وَالأَدِلَّةُ عَلَى هذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا لِمَنْ أرادَ الوقُوفَ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ مِنِ اهتِمَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بِاللُّغَاتِ، أَوِ: اهتِمَامِ العُلَمَاءِ الآخَرِينَ مِنْ بَعْدِهِم، رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ.

وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ لَا نَنْسَى فِي ذلِكَ مُرَاعَاةَ الأَهَمِّ وَتَقْدِيمَهُ، فَعَلَى هذَا لَا يُمْكِنُ تَرْكُ العرَبِيَّةِ (لُغَةِ القُرآنِ) وَالإِقْبَالُ عَلَى اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ؛ لأَنَّ البُعْدَ عَنْ لُغَةِ القُرآنِ بُعْدٌ عَنْ فَهْمِ آيَاتِهِ فَهْمًا صَحِيْحًا.

وَكذَا تَجِبُ مُرَاعَاةُ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ؛ لأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا يَجْنِي مِنْ ثَمَرَةِ اللُّغَاتِ الأَجنَبِيَّةِ إِلَّا بُعْدًا عَنِ التَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ، وَالشَّرِيْعَةِ الإِسْلامِيَّةِ وَتَعَالِيْمِهَا الرَّشِيْدَةِ، وَيَتَأَثَّرُ بِالغَرْبِ فِي عَادَاتِهِمُ السَّيِّئَةِ حَتَى يَنْسَلِخَ مِنَ الإِسلامِ قَلْبًا وَقَالِبًا، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

النُّقْطَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: (أَمَّا المُصْطَلَحَاتُ العِلْمِيَّةُ فَيَجِبُ أَنْ تُؤخَذَ مِنَ الأُمَّةِ المُتَطَوِّرَةِ كَمَا هِيَ، خَاصَّةً فِي مَجَالِ الطِّبِّ وَالهَنْدَسَةِ وَالعُلُومِ التَّطْبِيقِيَّةِ؛ لأَنَّ هذِهِ المُصْطَلَحَاتِ أَصْبَحَتِ اليَوْمَ لُغَةً عَالَمِيَّةً يُتْقِنُهَا مُعْظَمُ أَهْلِ الأَرْضِ بِاسْتِثْنَاءِ مُعْظَمِ العَرَبِ.

وَلَعَلَّ مُحَاوَلَةَ تَعرِيبِ رُمُوزِ الكِيمياءِ مَثَلًا، الَّتِي اعْتَمَدَتْهَا بَعْضُ الدُّوَلِ العَرَبِيَّةِ هِيَ مِنْ أَفْشَلِ التَّجَارِبِ وَالمُحَاوَلَاتِ؛ لأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى التَّخَلُّفِ وَعَدَمِ مُوَاكَبَةِ التَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ).

أَقُولُ: إِنَّ إِطْلاقَ الأَسْمَاءِ لَيْسَ مِلْكًا لأَحَدٍ، وَاللُّغَاتُ لَهَا حَقُّ التَّصَرُّفِ بِهَا، أَمَّا الحَقُّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُصَانَ، هُوَ حَقُّ الإِبْدَاعِ وَالاختِرَاعِ وَعَدمُ سَرِقَتِهَا، أَمَّا إِطْلاقُ الأَسْمَاءِ فَلَا يُغَيِّرُ فِي الوَاقِعِ شَيْئًا، كَمَا أَنَّكَ تَجِدُ الفَرَنسِيِّينَ يُطْلِقُونَ عَلَى الحَاسُوبِ: (Informatique)، وَالإِسْبَانُ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ: (ordenador)، وَالأَتْرَاكُ: (bilgisayar)، وَإِذَا ذَهَبْتَ إِلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى تَرَى ذلِكَ وَاضِحًا، وَهذَا لِجَمِيعِ

الِاخترَاعَاتِ -إلَّا النُّدْرَةَ النَّادِرَةَ- فَمَثَلًا لَوْ تَتَبَّعْتَ هذِهِ الأَسْمَاءَ مَثلًا: (السَّيَارَة، السَّفِينَة، الطَّيَّارَة..) إِلَى آخِرِ الأَسْمَاءِ.

وَفِي نِهَايَةِ هذَا البَحْثِ مِنَ الـمُهِمِّ أَنْ أُرَكِّزَ عَلَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ مُهِمَّةٍ، وَهِيَ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أنَّ الـمُهَندِسَ يُصَوِّرُ أَنَّ أَمرِيكَا هِيَ الوَحِيدَةُ الصَّانِعَةُ الـمُتَصَدِّرَةُ، وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا يُجْبِرُنَا أَنْ نُغَيِّرَ هذهِ الكَلِمَاتِ وَفْقَ الإِنْجِلِيزِيَّةِ وَحْدَهَا، فَلِمَاذَا لَا يَأْتِي بِاصْطِلاحَاتٍ صِينِيَّةٍ، أَوْ: يَابَانِيَّةٍ، أَوْ: رُوسِيَّةٍ مَثَلًا، وَكَأَنَّ الـمُهندِسَ جَاءَ لِلدِّفَاعِ عَنْ هؤلاءِ فَقَطْ، وَيُرِيدُ تَجْمِيلَ صُورِهِمُ البَشعَةِ، وَإِخْضَاعَ النَّاسِ لَهُم، وَهذَا فِيهِ مَا فِيْهِ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أنَّ مَنطِقَ هؤلاءِ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ إِلَى تَغيِيرِ الـمُصْطَلَحَاتِ عَلَى حَسَبِ الِاخترَاعَاتِ، مَنْطِقُ الضُّعَفَاءِ وَتَصَوُّرُ العَاجِزِينَ، مِنَ الَّذِينَ انهَزَمُوا فِكْرِيًّا حَتَّى انْغَمَسُوا فِي ضَلَالِهِم وَتَاهُوا؛ لأَنَّهُم يَرَوْنَ أَنْ نَمِيْلَ مَعَ القَوِيِّ أَيْنَمَا رَحَلَ وَارْتَحَلَ، وَأَنْ نَجْعَلَ لُغَتَنَا فَرِيْسَةَ أَسْمَاءِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَإِذَا كَانَ الِاخترَاعُ عِنْدَ أَمرِيكَا فَانْحَرَفْنَا عَنِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ وَاتَّجَهْنَا إِلَى البَيْتِ الأَبْيَضِ، وَنَنْتَظِرُ سَفَلَتَهُم لِاختِيَارِ مَنْهَجٍ جَدِيدٍ لِلُغَتِنَا، وَإِذَا تَصَدَّرَ غَيرُهَا وَقَوِيَ، اتَّجَهْنَا إِلَيهِ وَقَرَأْنَا لَهُ أَنَاشِيْدَ التَّبْجِيلِ وَالتَّمْجِيدِ، وَرَفَعْنَا لَهُ ذِكْرَهُ.

فَأَيُّ انْهِزَامٍ هذَا، وَأَيُّ انحِطَاطٍ وَانْحِلالٍ؟ أَبَلَغَ الحُمْقُ وَالنَّوْكُ وَالطَّيْشُ بِبَعْضِ النَّاسِ إِلَى حَدِّ قَوْلِ مِثْلِ هذِهِ الخُزَعْبَلَاتِ وَالتُّرَّهَاتِ؟ وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

الأَمْرُ الثَّالِثُ: مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ أُشِيْرَ إِلَى هذَا الجُزْءِ مِنْ كَلامِهِ: (مَعَ وجُوبِ الـمُحَافَظَةِ عَلَى لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ الَّتِي رُبَّمَا تَعُودُ إِلَى القِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ عِنْدَ مَا يَتَطَوَّرُ أَهلُهَا فِكْرِيًّا). ص: (١٦١).

فَهَذَا الكَلامُ عَجِيبٌ جِدًّا، وَلَا أَدْرِي عَنْ أيِّ وَاجِبٍ يَتكَلَّمُ، وَعَنْ ايَّةِ لُغَةٍ، وَعَنْ أَيَّةِ مُحَافَظَةٍ؛ لأنَّهُ سَعَى فِي جَمِيْعِ كِتَابِهِ أَنْ يَهْدِمَ مَا للعَرَبِيَّةِ مِنْ عُلُومٍ، نَحْوًا، وَصَرْفًا، وَاشْتِقَاقًا، وَأَدَبًا، وَشِعرًا، وَدَعَا النَّاسَ للعَامِّيَّةِ وَزَيَّنَهَا، وَحَاوَلَ تَشْوِيهَ صُورَةِ الفُصْحَى مَهْمَا أَمْكَنَهُ، وَلَمْ يَتْرُكْ فُرْصَةً فِي القَبْضِ عَلَيْهَا، وَمَعَ هذَا كُلِّهِ أَنَّهُ جَاءَ وَيَقُولُ: (مَعَ وجُوبِ الـمُحَافَظَةِ عَلَى لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ)!

وَلكِنَّهُ خَطَّطَ لِخُطْوَةٍ إِبْلِيسِيَّةٍ وَأَرَادَ مَحْوَ الفُصْحَى رَأْسًا؛ لأَنَّهُ قَالَ مَا قَالَ عَنِ الفُصْحَى، وَزَيَّنَ العَامِّيَّةَ فِي أَيِّ مَكَانٍ تَكَلَّمَ عَنْهَا، ثُمَّ يَأْتِي وَيَقُولُ فِي أَوَاخِرِ الكِتَابِ، وَبَعْدَ كَلِمَاتِهِ الأَخِيرَةِ عَنِ الاصْطِلاحَاتِ العِلْمِيَّةِ: «يُمَثِّلُ الهَدَفُ البَعِيدُ مِنْ هذَا العَمَلِ، وَيَتَخَلَّصُ بِخَلْقِ أُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ مُتَطَوِّرَةٍ لَهَا بَصْمَتُهَا فِي العَالَمِ الـمُعَاصِرِ لَا بَصْمَةُ أَجْدَادِهَا الغَابِرِيْنَ، وَالأَمْرُ هُنَا دَقِيقٌ جِدًّا وَحسَّاسٌ جِدًّا وَيَحْتَاجُ إِلَى الإِيْضَاحِ، فَلِكَيْ تَتَغَيَّرَ الأُمَّةُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لُغَةُ مَعْرِفَتِهَا، وَلُغَةُ اخْتِرَاعِهَا، وَلُغَةُ مَعِيْشَتِهَا، وَلُغَةُ مَحَبَّتِهَا، وَلُغَةُ تَفَاهُمِهَا، هِيَ لُغَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ أَمرٌ هَامٌّ جِدًّا يَفْتَقِدُهُ الإِنْسَانُ العَرَبِيُّ فِي مُخْتَلَفِ أَرْجَاءِ وَطَنِنَا، فَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ فِيمَا بَيْنَنَا بِمَّا يُسَمَّونَهُ العَامِّيَّةَ، وَنُحِبُّ بالعَامِّيَّةِ، وَنُفَكِّرُ بالعَامِّيَّةِ، وَنكْرَهُ بالعَامِّيَّةِ، وَنَشْتَاقُ بالعَامِّيَّةِ، وَلكِنَّنَا نَكْتُبُ رَسَائِلَنَا بالفُصْحَى، وَنَخْطُبُ بالفُصْحَى، وَنَتَعَلَّمُ كَيْفَ نُعَبِّرُ عَنْ حُبِّنَا بالفُصْحَى، هذِهِ الازْدِوَاجِيَّةُ خَطِيرَةٌ وَلَا يُمْكِنُ مِنْ خِلالِهَا أَنْ يَتَقَدَّمَ الشَّعْبُ العَرَبِيُّ.

إِنَّ رَئِيسَ مَجْلِسِ الوزَرَاءِ البَرِيطَانِيِّ يَتَكَلَّمُ فِي مَجْلِسِ اللُّوردَاتِ كَمَا يَتَكَلَّمُ مَعَ ابْنِهِ وَابْنَتِهِ وَزَوْجَتِهِ، وَيَتَكَلَّمُ مَعَ شَعْبِهِ كَمَا يَتَكَلَّمُ مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ الـمُقَرَّبِيْنَ، وَهذَا مَا نُرِيْدُهُ..». ص: (١٧١-١٧٢).

أقُولُ: إنَّ الـمَرْءَ يَتَعَجَّبُ مِنْ هذَا الرَّجُلِ وَقُدْرَتِهِ العَجِيبَةِ عَلَى التَّلَوُّنِ، وَلكِنَّ الصَّيرَفِيَّ يَعْرِفُ زَيْفَ عُمْلَتِهِ جَيِّدًا وَيُعَرِّي حَالَهُ؛ لأنَّهُ وَقَعَ فِي تَنَاقُضَاتٍ وَاضِحَةٍ، وَأوهَامٍ بيِّنَةٍ، فِي هذِهِ الأَسْطُرِ الـمَذْكُورَةِ، وَهِيَ:

الأُوْلَى: نفَى أوزونُ أنْ تكُونَ الفُصْحَى لُغَةَ العِلْمِ وَالِاخْتِرَاعِ، وَلكِنَّهُ الآنَ اخْتَارَ العَامِّيَّةَ لِتكُونَ اللُّغَةَ الوَحِيدَةَ فِي جَمِيعِ جَوَانِبِ الحَيَاةِ، وَمِنْهَا (لُغَةُ الِاخْتِرَاعِ)، كَمَا أشَارَ إليهِ أوزونُ نَفْسُهُ، وَلَا أدرِي إذَا لَـمْ تَقْدِرِ الفُصْحَى عَلَى اسْتِيْعَابِ تِلْكَ الـمُصْطَلَحَاتِ كَيْفَ تَسْتَوْعِبُهَا العَامِّيَّةُ؟ وَهذَا أرَاهُ خَلْطًا وَخَبْطًا مِنَ الـمهندسِ.

الثَّانِيَةُ: تَنَاقَضَ أوزونُ أيضًا لَـمَّا حَاوَلَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ أَنْ يُصَوِّرَ عَدَمَ الفَرْقِ بينَ العَامِّيَّةِ وَاللَّهَجَاتِ الفَصِيْحَةِ الَّتِي أَقَرَّهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَحَاوَلَ الِاسْتِدْلَالَ بِذلِكَ، وَبيَّنَّا هُنَالِكَ أنَّ بَيْنَ العَامِّيَّةِ وَاللَّهَجَاتِ بَوْنًا شَاسِعًا؛ لأَنَّ العَامِّيَّةَ وَالفُصْحَى كَأَنَّهُمَا لُغَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ مُتَبَايِنَتَانِ أَصْلًا. وَلكِنَّ أوزونَ جَاءَ هُنَا وَمَالَ إِلَى أنَّ الفُصْحَى وَالعَامِّيَّةَ مُتَغَايِرَتَانِ تَمَامًا، وَلَيْسَ كَمَا قَالَهُ سَابِقًا!.

الثَّالِثَةُ: إِذَا كَانَ أوزونُ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى لُغَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلِمَاذَا لَا تَكُونُ هذِهِ اللُّغَةُ لُغَةَ القُرآنِ الكَرِيْمِ؟ أَيُرِيدُ أوزونُ أَنْ يُبْعِدَ النَّاسَ عَنْ لُغَةِ القُرآنِ تَمَامًا، وَتَكُونَ لُغَتُهم فِي الكِتَابَةِ وَالخطَابَةِ وَغَيْرِهَا العَامِّيَّةَ؟ أَلَيسَ هذَا إِبْعَادَ النَاسِ عَنِ القُرآنِ الكَرِيْمِ؟ إِذَنْ لِمَاذَا لَا يُصَرِّحُ بِهِ أوزونُ دُونَ الخَوْفِ وَالخَجَلِ[1]؟

---

(١) وَسَيأتِي فِي تَرْجَمَتِهِ مَزِيدٌ مِنَ البَيَانِ وَالكَشْفِ عَنْ هذِهِ الأَسْرَارِ.

أَمَانَةٌ فِي رقبة الـمُهَنْدِسِ، هَلْ يُؤَدِّيهَا؟

عَلَى الـمُهندِسِ أَمَانَةٌ شَاقَّةٌ وَفِي رَقَبَتِهِ عَمَلٌ شَاقٌّ يَجِبُ أَنْ يَفِيَ بِهِ، وَيَعْمَلَ لَهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا فِي شِعَارَاتِهِ النَّمَّاقَةِ، كَالعَمَلِ الجَادِّ لِتَوْعِيَةِ الشَّبابِ وَالتَّنوِيرِ، وَغَيْرِهَا، وَالعَمَلُ هُوَ أَنَّهُ انتقَدَ قَوَاعِدَ العَرَبِيَّةِ بِزَعْمِهَا، وَظَنَّ أَنهَا رَكِيكَةٌ ضَعِيفَةٌ وَبَعِيدَةٌ كُلَّ البُعْدِ عَنِ المَنْطِقِ وَالعَقْلِ، وَإِلَى آخِرِ الاتِّهَامَاتِ الَّتِي أَلْصَقَهَا بِقَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا وَجُهُودِ النُّحَاةِ وَغَيرِهِمْ.

فَآنَ الآوَانُ أَنْ يَطْلُبَ القُرَّاءُ مِنْهُ أَنْ يَأتِيَ بِبَدِيْلٍ وَيَعْمَلَ عَلَيْهِ هُوَ بِعَقْلِيَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ النَّاقِدَةِ الفَذَّةِ، حَتَّى يُرِيَنَا أَنَّهُ لَا يُرِيدُ الزَّعْزَعَةَ الفِكْرِيَّةَ، وَلَا يَرُومُ إِلَى الهَدْمِ وَالدَّمَارِ، بَلْ: يَجْتَهِدُ لِأَجْلِ الشَّبَابِ وَالجِيْلِ النَّاشِئِ، فَإِذَا كَانَ يَرَى مِنْ نَفْسِهِ صِدْقَ التَّجَرُّدِ وَإِخْلاصَ العَمَلِ، فَلْيُتَمِّمِ المِشْوَارَ الخوَارَ الَّذِي بَدَأَ بِهِ، وَيُثْبِتَ لِلجَمِيْعِ صِدْقَهُ.

وَلكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ أُوَاجِهَهُ بِهذَا الكَلامِ فَرَّ مِنَ المَسؤلِيَّةِ وَإِتْمَامِ مَا بَدَأَ بِهِ، وَتَوَسَّلَ بِذَرِيْعَةٍ شَنِيْعَةٍ، وَاسْتَمْسَكَ بِعُذْرٍ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا شَيْنًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: «إِنَّ البَدِيلَ قَدْ أَوْضَحَتْ خُطُوطُهُ العَرِيضَةُ فِي أَبْحَاثِ الكِتَابِ، وَالدُّخُولُ فِي تَفَاصِيلِهِ يَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ مَوْسُوعِيٍّ وَمُؤَسَّسَاتِيٍّ كَبِيرٍ، وَلَا تَنْتَظِرْ مِنِّي-عَزِيزِي القَارِئُ-وَأَنَا شَخْصٌ بِمُفرَدِي أَنْ أُغَيِّرَ بِجُهْدٍ فَرْدِيٍّ قَوَاعِدَ لُغَةٍ مَرَّ عَلَيْهَا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ عَامٍ». ص: (١٧٢).

فَهذَا الكَلامُ فِي غَايَةٍ مِنَ الضَّعفِ وَلَا يأتِي عَلَى قَائِلِهِ بِخَيْرٍ؛ لأَنَّهُ تَعَرَّضَ لِنَقْدِ أَمْرٍ خَطِيْرٍ، وَلَا يُوَافِقُهُ عليهِ أَحَدٌ عَارِفٌ بالعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ فَنَّدْنَا اعتِرَاضَاتِهِ جَمِيعَهَا -وَالحمدُ للهِ-

وَمَا دَامَ كَلامُهُ فِي هـذَا الضَعْفِ وَالهَوَانِ، وَانتِقَادَاتُهُ فِي هـذَا الـمُسْتَوَى مِنَ الوَهَنِ وَالوَهَمِ، فَلَا يَقُولُ بِهِ غَيرُ أَعْدَاءِ العَرَبِيّةِ كَأَمثَالِهِ، إِذَنْ فَلْيَجتَمِعُوا وَيُشَكِّلُوا هـذَا العَمَلَ الـمُؤَسَّسِيَّ الَّذِي يَدَّعِيهِ أوزونُ، لِيَضَعُوا قَوَاعِدَ عَقلِيَّةً أَقْوَى وَأَرْصَنُ مِنْ قَوَاعِدِ النُّحَاةِ، حَتَى نُبدِيَ فِيْهَا رَأيَنَا بَعْدَ أَنْ وَضَعُوهَا، وَبَعْدَ ذلِكَ يَكُونُ لَنَا مَعَهُم وَقفَاتٌ.

وَبالتَّالِي فَالمُهندِسُ يُفَكِّرُ بِعَقلِيَّةٍ غَرِيبَةٍ وَبِمَنْطِقٍ أَغْرَب، وَيتَكَلَّمُ بكَلَامٍ مُفَبْرَكٍ هُنَا؛ لأَنَّهُ عِنْدَ مَا يَنْتَقِدُ وَيَعْتَرِضُ، لَا يُفَكِّرُ فِي أَنَّ هـذِهِ القَوَاعِدَ مَرَّ عَلَيْهَا أَلْفُ عَامٍ وَيَكتُبُ فِي نَقْدِهَا مُسْتَرِيحَ البَالِ، مُسْتَطِيلَ الخَيَالِ، فِي ظِلِّ الضَّلَالِ، وَلكِنَّهُ عِنْدَ مَا يأتِي الكَلامُ الـمُوَجَّهُ إِلَيْهِ فِي وَضْعِ البَدِيْلِ، فَإِنْ لَمْ يأتِ بِهِ يَرَى العَامَّةُ تَقَاعُسَهُ فِي الإتيَانِ بالبَدِيْلِ، يَبْدَأُ بالبُكَاءِ وَالعَوِيْلِ، وَيَقُولُ إِنَّهُ أَمْرٌ مُسْتَطِيل، قَدْ مَضَى عَلَى تِلْكَ القَوَاعِدِ دَهْرٌ طَوِيْل، فَلَا تَنْتَظِرْ مِنِّي البَدِيْلَ لأَنَّهُ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّ البَدِيْلَ يَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيْلِ، وَهذَا لَيسَ أَمرُهُ إِلَى مَنْ فِي اللُّغَاتِ عَلِيْل، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ لإِنَارَةِ السَّبِيْل.

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّ غَايَةَ هؤلاءِ الزَعْزَعَةُ فِي فِكْرِ الجِيْلِ النَّاشِئِ، وَالجُهْدُ الحَثِيثُ لِانْحِرَافِهِمْ عَنِ الجَادَةِ، وَلَيسُوا صَادِقِينَ فِي دَعْوَاهِمُ الرَّنَّانَةِ النَّمَّاقَةِ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

لِـمَاذَا جُعِلَتِ الإِنْجِلِيزِيَّةُ اللُّغَةَ الأُولَى وَفُضِّلَتْ عَلَى العَرَبِيَّةِ؟!

إِنَّ الخُصُومَ يُحَاوِلونَ أَنْ يُصَوِّرُوا بِأَنَّ قُوَّةَ اللُّغَةِ تَتَجَسَّدُ فِي انتِشَارِهَا وَإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا، فَلِذلِكَ يعتَرِضُونَ عَلَيْنَا بِأَنَّ الإِنْجِلِيزِيَّةَ وَالفَرَنسيَّةَ أَقْوَى مِنَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، كَمَا رأينَا هذَا التَّصَوُّرَ عِنْدَ جَنَابِ الـمُهندِسِ!

وَلَكِنَّهُم إِمَّا يَجْهَلُونَ الوَاقِعَ وَلا يَسْتَطِيعُونَ تَفْسِيرَ ظَوَاهِرِهِ، وَإِمَّا يُدْرِكُونَ الحَقِيْقَةَ وَيَعْرِفُونَهَا وَلكِنَّ الخِيَانَةَ وَالْمُؤامَرَةَ أَعْمَتْ مِنْهُمُ الأَبْصارَ وَالبَصَائِرَ، وَأَخْرَسَتْهُم عَنِ الحَقِيْقَةِ؛ لأَنَّ كُلًّا مِنَّا يَعْرِفُ أَنَّ اللُّغَةَ تَنْتَشِرُ وَفْقَ القُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالقُوَّةِ الاقْتِصَادِيَّةِ (كَمَا مَرَّ)، فَالقُوَّةُ تَجعَلُ اللُّغَةَ الرَّفِيعَةَ سَافِلَةً وَالسَّافِلَةَ رَفِيْعَةً، كَمَا نَرَى القُوَّةَ الاختِرَاعِيَّةَ عِنْدَ اليَابَانِيِّينَ وَالصِّينيِّنَ فَرَضَتْ عَلَى التُّجَّارِ وَالوَافِدِيْنَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَتَعَلَّمُوا لُغَتَهُم، مَعَ أَنَّ هَاتَيْنِ اللُّغَتينِ تُعَدَّانِ مِنَ اللُّغَاتِ الضَّعِيفَةِ الرَّكِيْكَةِ، وَحَتَّى نَجِدُ فِي أَيَّامِنَا مُحَاوَلَاتٍ فِي بَعْضِ البُلْدَانِ الإِسْلامِيَّةِ لِوَضعِ اللُّغَةِ الصِّيْنِيَّةِ فِي الـمَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ!

وَلَيْسَتِ الإِنْجِلِيزِيَّةُ سَادَتِ اللُّغَاتِ العَالَمِيَّةَ لِكَونِهَا أَقوَاهَا وَأَزْيَنَهَا وَأَرصَنَهَا، كَلَّا، بَل: السِّيَاسَةُ وَالسَّيطَرَةُ عَلَى الاقْتِصَادِ العَالَمِيِّ مِنْ قِبَلِ بَرِيطَانيَا وَأَمرِيكَا شَكَّلَتَا لِهذِهِ اللُّغَةِ أَهَمِيَّةً وَرَوْنَقًا، وَإِلَّا فَلَا تُقَاوِمُ العَرَبِيَّةَ بِحَالٍ مِنَ الأَحوالِ مِنْ حَيْثُ القُوَّةُ وَالْمُكْنَةُ، كَمَا سَنَتَكَلَّمُ عَنْهَا فِي خَصَائِصِ العَرَبِيَّةِ وَمُمَيزَاتِهَا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

أَمَّا حَصْرُ السَّبَبِ فِي صُعُوبَةِ قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ وَعَدَمِ عَقْلَنَتِهَا، فَكَلامٌ بَاطِلٌ هَزِيْلٌ؛ لأَنَّ العَرَبِيَّةَ ذَاتُ قَوَاعِدَ وَأُصُولٍ قَوِيَّةٍ، وَلَهَا عُلُومٌ كَثِيْرَةٌ تَتَعَلَّقُ بِهَا، وَمَعَ هذَا كُلِّهِ فَإِنَّ

بَعْضَ الفُروعِ وَالْمَسَائِلِ النَّحوِيَّةِ لَا تَخْلُو عَنِ النَّظَرِ فِيْهَا وَإِعَادَةِ صِيَاغَتِهَا، وَلَا سِيَّمَا لِغَيْرِ الْمُخْتَصِّيْنَ كَالخِلافَاتِ الوَارِدَةِ فِي الْمَسَائِلِ النَّحوِيَّةِ، فَإِنَّهَا صَعْبٌ عَلَى غَيْرِ الْمُخْتَصِّ، فَيُمْكِنُ كِتَابَةُ نَحْوٍ مِنْ غَيْرِهَا لِلعَامَّةِ، وَكَذلِكَ الحَالُ بِالنِّسْبَةِ لِلوجُوهِ الـمُتَعَدِّدَةِ فِي الإِعْرَابِ، فَيُمْكِنُ الِاكْتِفَاءُ بِالوَجْهِ الوَاحِدِ وتَرْكُ بَاقِي الوجُوهِ لِلنُّخْبَةِ وَالـمُتَعَمِّقِ[(١)].

أَمَّا سَفْسَطَةُ بَعْضِ النَّاسِ حَوْلَ أُمُورٍ كَحَذْفِ وَاوِ (عَمْرو) وَأَلِفِ (مَائَةٍ)، وَزِيَادَةِ بَعْضِ الأَشْيَاءِ الَّتِي تُنْطَقُ وَلا تُكْتَبُ، كَالأَلِفِ فِي: (هَذَا، ذلِكَ، الرَّحمن) وَدَعْوَتُهُم إِلَى كِتَابَةِ: (هَاذَا، ذَالِكَ، الرَّحمَان)، كَمَا كَتَبَ «طَه حُسين» اَسمَهُ بِهَذَا الشَّكْلِ: (طَاهَا)! وَاتَّبَعَهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي عَصْرِنَا وَزَادَ عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِتَقَدُّمِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَى العَرَبِيَّةِ، جَاهِلًا، أَوْ: مُتَجَاهِلًا، فَهذَا مِنْ شَقَاشِقِ الـمَقَالِ، وَاضْطِرَابِ الحَالِ؛ لأَنَّهُم لَوْ نَظَرُوا إِلَى الإِنجلِيزِيَّةَ لَرَأَوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ بِكَثِيْرٍ، فَعَلَى سَبِيلِ الْـمِثَالِ نَجِدُ فِي الإِنجلِيزِيَّةِ هذِهِ الْمَزَالِقَ وَالْـمَآزِقَ:

- صَوْتٌ يُعَبَّرُ عَنْهُ بِحَرْفَيْنِ: كَمَا نَجِدُ فِي مِثْلِ (چ)، يُعَبَّرُ عَنْهُ بـ(ch).
- صَوْتٌ وَاحِدٌ يَكُونُ فِي حُرُوفٍ كَثِيْرَةٍ وَتَشْتَرِكُ فِيْهِ: كَمَا نَجِدُ فِي مِثْلِ (k).
- حَرْفٌ وَاحِدٌ يُنْطَقُ بِأَنواعٍ مِنَ الأَصوَاتِ، كَمَا نَجِدُ فِي مِثْلِ (c).
- حَرْفَانِ تُنْطَقَانِ بِصَوْتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، كَمَا نَجِدُ فِي مِثْلِ (th) يُنْطَقُ بـ(ث) وَ(ذ).
- الصَّوْتُ يَخْتَلِفُ مَعَ الكِتَابَةِ تَمَامًا فِي كَلِمَاتٍ كَثِيْرَةٍ وَهذِهِ تُعَدُّ مُشْكِلَةً عَوِيصَةً أَمَامَ الْـمُتَعَلِّمِ لِهذِهِ اللُّغَةِ.

---

(١) سَنَتَكَلَّمُ عنْ هذِهِ الأُمُورِ لَاحقًا إِنْ شَاءَ الـمَولَى.

- كَثْرَةُ الشَّوَاذِّ حَيْثُ لَا تُضبطُ وَلا قَاعِدَةَ تَجْمَعُهَا[١].

- كَثْرَةُ الحُروفِ الصَّامِتةِ (*silent letters*): فَإِذَا كَانَ فِي العَرَبِيَّةِ حَرْفٌ، أَوِ: اثنَانِ فَفِي الإِنجليزيَّةِ مِئَاتُ الحُرُوفِ الَّتِي تُكْتَبُ وَلَا تُنْطَقُ.

- مُشْكِلَةُ الزَّمَنِ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ يُعَانِي كَثيرٌ مِنَ الْمُشْتَغِلينَ بهذِهِ اللُّغَةِ مِنَ الْمُضَارِعِ التَّامِّ وَالتَّفريقِ بَيْنَهُ وبينَ الْمَاضِي، وَهذَا بالنِّسْبَةِ لَنَا كَالكُرْدِ سَهْلٌ؛ لأَنَّ لُغَتَنَا فِيْهَا هذَا الزَّمَنُ، أَمَّا غَيْرُنَا مِنَ الَّذِيْنَ لَيسَ فِي لُغَتِهِم هذَا الزَّمَنُ، فَيكُونُ صَعبًا للغَايَةِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا الأَزْمِنَةَ عِنْدَهُم عِنْدَ مُنَاقَشَةِ كَلامِ أوزونَ، وَلكِنَّ العَجِيبَ أَنَّ الـمهندِسَ مُغرَمٌ جِدًّا بِحُبِّ الإِنجليزيَّةِ وَلَا يَرَى لَهَا نَقْصًا.

- مُشْكِلَةُ الْمُبَاشِرِ وَغيرِ الْمُبَاشِرِ، أَوِ: الكَلَامِ الْمَنقُولِ فِي الإِنجليزيَّةِ، أَعْنِي: لَـمَّا تُرِيدُ أَنْ تَنْقُلَ كَلامَ شَخصٍ آخرَ وَتَحْكِيَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى عِنْدَهُم بِـ:

(Reported Speech/Direct and indirect)، فَهِيَ بِحَقٍّ مُشكِلَةٌ كَبِيرَةٌ وَيُعَانِي مِنْ تَعَلُّمِهَا طُلَّابُ الإنجليزيَّةِ جَمِيعًا فِي البِدَايَةِ؛ لأَنَّ تَغييرَ الأَزمِنَةِ وَالأَدَوَاتِ فِيهَا صَعْبَةٌ لا تُضْبطُ إِلَّا بَعْدَ جُهْدٍ كَبيرٍ وَمَشَقَّةٍ بَالِغَةٍ.

فَهُنَاكَ مَشَاكِلُ وَصُعُوبَاتٌ أُخْرَى فِي قَوَاعِدِ الإِنجليزيَّةِ، كَمَا تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَهذِهِ الإِشَارَةُ اليَسِيرَةُ لأَجلِ تَذكيرِ القُرَّاءِ بأَنَّ الإِنجليزيَّةَ ليسَتْ كَمَا صَوَّرَهَا الـمهندِسُ، وَفِيْهَا مَشَاكِلُ وَعَوِيصَاتٌ كَغَيرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، وَسَيأْتِي مَعَنَا فِي

---

(١) الشَّاذُّ مَوجودٌ فِي العَرَبِيَّةِ أَيْضًا، لكِنْ لَيسَ بهذِهِ الكَثرَةِ الَّتِي نَجدُهَا فِي الإِنْجليزِيَّةِ، وَكَذلِكَ الشَّاذُّ فِي العَرَبِيَّةِ يَنْقَسِمُ عَلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةٍ: وَاحِدُهَا: الْمُخَالِفُ لِلقِيَاسِ. ثَانِيْهَا: مُخَالِفٌ لِلسَّمَاعِ. ثَالِثُهَا: مُخَالِفٌ لِكِلَيْهِمَا، فَالأَوَّلَانِ مَقْبُولانِ أَمَّا الأَخيرُ فَمَرْفُوضٌ.

أَوَاخِرِ الكِتَابِ تَأصِيلٌ عِلْمِيٌّ عَنِ الـمُقَارَنة بَيْنَ اللُّغَاتِ، وَالأَخْطَاءِ الَّتِي يَقَعُ فِيْهَا الـمُقَارِنُ.

الدَّعْوَةُ إِلَى الكِتَابَةِ بِاللَّاتِيْنِيَّةِ!

مِنَ الغَرَائِبِ وَالعَجَائِبِ، وَالكَوَارِثِ وَالـمَصَائِبِ، أَنْ تَرَى مَنْ يَنْتَمِي إِلَى الإِسْلامِ وَالعُرُوبَةِ، وَيَدعُو إِلَى اللَّاتِينِيَّةِ بِاسْتِيحْيَاءٍ وَبُرُودَة، أَوْ: مَزَّقَ الـمُرُءَة وَالحَيَاء، وَأَعْلَنَ الصَّيْحَةَ وَالنِّدَاء، وَلَا أَدرِي هَلْ هُوَ جَاهِلٌ غَمْر، أَمْ: هُوَ مُزَيِّفٌ يُزَيِّفُ بِالغُمْرِ؟ حَتَّى وَصَلَ إِلَى اطِّرَاحِ هذَا الخَطِّ الجَمِيْلِ، بِالصُّرَاخِ وَالنُّدْبَةِ وَالعَوِيْل!

هَلْ عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي العَالَمِ أَجْمَلُ مِنَ الخَطِّ العَرَبِيِّ، حَيْثُ يُبَدَعُ فِيْهِ وَيُزَخْرَفُ بِأَشْكَالٍ لَا تَمْلِكُ لُغَةٌ مِنَ اللُّغَاتِ عُشْرَهَا، كَمَا نَرَاهَا فِي اللَّوحَاتِ الخَطِّيَّةِ الفَنِّيَّةِ وَالتُّحَفِ الخَطِّيَّةِ القَدِيْمَةِ وَالحَدِيْثَةِ، فَالخَطُّ العَرَبِيُّ خَطٌّ جَذَّابٌ مُذْهِلٌ، فَلَا يُسَاوِيْهِ خَطّ، وَلَا يُدَانِيهِ قَطّ.

وَلكِنَّهُ حَرْبٌ عَلَى الإِسْلامِ وَالـمُسْلِمِينَ، حَرْبٌ بَلَغَتْ أَقْصَى حُدُودِ القَهْرِ وَالجَبُرُوت، وَتَعَدَّتْ مُنْتَهَى دَرَجَاتِ القَسْوَةِ، فَلِذلِكَ مِنَ الـمُنْتَظَرِ تَقلِيبُ الحَقَائِقِ كُلِّهَا، وَتَشوِيهُ الصُّوَرِ جَمِيْعِهَا، إِنَّهَا الحَرْبُ، وَاسمُهَا يُغْنِي عَنِ التَّعرِيفِ وَالنُّعُوتِ!

وَمَعَ هذَا فَإِنَّ فِي الكِتَابَةِ بِاللَّاتِينِيَّةِ مَصَائِبَ وَكَوَارِثَ؛ لِأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ قَوَانِينَ وَضَوَابِطَ وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ كَثِيْرًا فِي الكِتَابَةِ بِهَا، فَمَثَلًا إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكْتُبَ حَرْفَ الكَافِ، فَمِنهُم مَنْ يَسْتَخْدِمُ (q) وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَخْدِمُ(k)، وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَرْفِ الوَاوِ فَرَأَيْتَهُم يَتَضَارَبُونَ بينَ استِخْدَامِ (u) وَ(o) وَ(ou)، فَمَاذَا تَخْتَارُ إِذَنْ؟!

وَكَمَا نَجِدُ أَنَّ أَشْهَرَ الاِسمِ فِي العَرَبِيَّةِ هُوَ (مُحَمَّدٌ)، فَنَحْنُ نَرَى النَّاسَ فِي تَضَارُبٍ وَاختِلَافٍ شَدِيْدٍ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَشْكَالٍ وَصُوَر، وَهذِهِ هِيَ بَعْضٌ مِنْهَا: (Mohamad) وَ(Mohammad) وَ(Mohamed) وَ(Mohammed) وَ(Muhamad) وَ(Muhammad) وَ(Muhamed)...!

وَفِي ذلِكَ يَحضُرُنِي مَقْتَلُ القَذَّافِي وَنَشْرُهُ فِي القَنَوَاتِ الأُوروبِيَّةِ وَوَسَائِلِ الإِعْلام، حَيْثُ كُتِبَ اسمُهُ بِأَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ تُنَاهِضُ الْمائَةَ، كَمَا تَكَلَّمَ عَنْهُ بَعْضُ البَاحِثِيْنَ، وَذَكَرَهُ أُسْتَاذٌ مِنْ أَسَاتِذَةِ الأَزْهرِ عَلَى قَنَاةِ الرَّحْمَةِ؛ لأَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي كِتَابَةِ (مُعَمَّر القَذَّافِي) بِالإِنجلِيزِيَّةِ، فَفِي الضَّمَّةِ اختَلَفُوا عَلَى الِاختِلافَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الوَاوِ، ثُمَّ تَضَارَبُوا فِي العَيْنِ، ثُمَّ فِي الفَتْحَةِ مَا بَيْنَ (a) وَ(e)ثُمَّ فِي الْمِيْم مَا بينَ التَّخْفِيْفِ وَالتَّشْدِيْدِ، ثُمَّ اختَلَفُوا فِي الفَتحَةِ، ثُمَّ فِي الأَلِفِ وَاللَّامِ عَلَى (al) وَ(el) وبَيْنَ كِتَابَتِهَا مُجَرَّدًا مِن (ال)، ثُمَّ فِي الذَّالِ عَلَى اخْتِلَافَاتٍ كَثِيْرَةٍ، وَهَكَذَا اسْتَمَرَّ الحَالُ إِلَى آخِرِ حُرُوفِ الكَلِمَةِ!

أَبَعْدَ هذَا يَطْلُبُ عَاقِلٌ الكِتَابَةَ اللَّاتِينِيَّةَ بَدَلًا مِنَ الكِتَابَةِ بِالحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ الجَمِيْلَةِ السَّاحِرَةِ، كَمَا كَانُوا يدعُونَ إِليْهَا؟ وَأنَا ذَكَرْتُ هذَا لأَنَّنِي لَا أَستَغرِبُ أَنْ يَرْتَفِعَ بَعضُ الرُّؤُوسِ-وَحتَّى بعضُ مَنْ لَبسَ العِمَامَةَ عِمَامَةَ الزُّورِ الـمُدَنَّسَةَ، وَلَيْسَتِ العِمَامَةَ النَّقِيَّةَ الطَّاهِرَةَ-مِنَ الَّذِينَ يَتَفَكَّرُونَ بِالفِكْرِ الغَرْبِيِّ وَيَقْرَؤُونَ قُرآنَ البَيْتِ الأبيَضِ، وَيَتَّبِعُونَ تَعالِيمَهُم، فَيأتُونَ وَيُجَدِّدُونَ العَهْدَ بِمِثْلِ هذِهِ الأَبَاطِيْلِ؛ لأَنَّهُم بَدَؤُوا حَرْبًا مُكَثَّفَةً مُشَوَّهَةً عَلَى تَعالِيمِ الإِسْلامِ، وَعَلَى الأُصُولِ وَالـمَبَادِئِ، وَعَلَى القِيَمِ كُلِّهَا.

وَالأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ أَنَّكَ تجِدُ هذِهِ النِّدَاءَاتِ تُجاهَ العَرِبيَّةِ فَقَط، وَلَا كَلَامَ مَعَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى وَلَا يُطَالَبُونَ بِمِثلِ هذِهِ المَطَالِبِ المُعادِيَةِ إِلَّا لِلُغَةِ القُرآنِ الكَرِيم، فَإِذَا جَاءَ هؤلاءِ وَطَلَبُوا مِنَّا تَرْكَ الكِتَابَةِ بالعَرَبِيَّةِ رَأسًا، فَلِمَاذَا لَا يَترُكُ هؤلاءِ أنفُسُهَم بعضَ جَوانِبِ قَوَاعِدِ الكِتَابَةِ عندَهُم وَلَا يُغيِّرونَهَا، مَعَ أَنَّ السُّهُولَةَ فِي غَيرِهَا، كَمَا نَجِدُ فِي مِثْلِ هذِهِ الكَلِمَاتِ: لِمَاذَا لَا يُغَيِّرُونَ (photograph)، إِلَى (fotograf)،

أَو: (capture)، إلَـــى (capcha)، أو: (bridge)، إلَـــى (brig)، أوْ: (freight)، إلَى(frait)، أوْ: (communique)، إلَى (kamunikay). هذَا. وَإلَى آخرِ الكَلِمَاتِ الَّتِي بينَ الكِتَابَةِ وَاللَّفظِ فَرْقٌ وَاسِعٌ، وَبَوْنٌ شَاسِعٌ؟!.

أَوْ: لِمَاذَا لَا يُوحِّدُونَ الأَصْوَاتَ فِي لُغَتِهِم، فَأحيَانًا تَجِدُ صَوْتَ (v) يُعبَّرُ عنهُ بالحَرْفِ نَفسِهِ، وَأحيانًا يَكُونُ بـ(f). وَصَوْتَ (ch) أحيانًا بهذَينِ الحَرفَيْنِ وَأحيانًا بـ(tc)، وَصَوْتَ (sh) أحيانًا بهذَينِ الحَرفَينِ وَأحيانًا بـ(ti)، وَإِلَى آخِرِ الأصوَاتِ الشَّائِكَةِ الصَّعبَةِ فِي طَرِيقِ المُتَعَلِّم؟

(وَكُلُّ لَبِيبٍ بالإِشَارَةِ يَفْهَمُ)[١].

---

(١) عَجزُ بَيْتٍ مِنَ الطَّوِيْلِ لِحَسَن حَسَنِي الطُّوَيرَانِيِّ.

خَصَائِصُ اللُّغَةِ العَرَبِيَةِ وَمُمَيِّزَاتُهَا

لَطَالَمَا يَعْتَرِضُ عَلَيْنَا خُصومُ العَرَبيَّةِ الفَصِيْحَة، وَيُعَادُونَنا وَالعَرَبيَّةَ بِكُلِّ مَا مَنَّتْهُم بِهِ القَرِيْحَة، وَيَكْرَهُونَ القَوْلَ بأَنَّ العَرَبِيَّةَ أَوْسَعُ اللُّغَاتِ وَأَقْوَاهَا، وَأَزْيَنُهَا وَأَغْنَاهَا، وَأَرْفَعُهَا وَأَعْلَاهَا، وَيَقُولُونَ: إِنَّ القَائِلِينَ بِقُوَّةِ العَرَبِيَّةِ لَم يَطَّلِعُوا عَلَى اللُّغَاتِ كُلِّهَا، فَكَيْفَ سَاغَ لَهُم تَفضِيلُهَا عَلَى جَمِيعِهَا؟

أَقُولُ: أَمَّا مَا يُقَالُ مِنَ الكَلامِ والتَّشكِيكِ فِي سَعَةِ العربيَّةِ وَقوَّتِهَا، فَكَلامٌ بَاطِلٌ زَائِلٌ، وَإِنْ كَانَ الخَصْمُ يَتَّهِمُ المسلِمينَ بِكَونِهِم لم يَطَّلِعُوا على اللُّغَاتِ الأُخرَى ويَجزِمُونَ بأَنَّ العَرَبيَّةَ أقوَى اللُّغَاتِ، فَنَقُولُ: لَا يُمكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى اللُّغَاتِ جَمِيعِهَا، وَهذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنهُ؛ لأَنَّ اللُّغَاتِ أَكثَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنَّ الاطِّلاعَ عَلَى اللُّغَاتِ المتداوَلَةِ المَشْهُورَةِ فَهُوَ أَمرٌ مُمْكِنٌ، وَعِنْدَ مَا قُلْنَا: إِنّ العَرَبيَّةَ أَوْسَعُ اللُّغَاتِ، أَرَدْنَا اللُّغَاتِ المَشْهُورَةَ المُتَدَاوَلَةَ، وَهذَا يَعرِفُهُ النَّاسُ جَمِيعًا.

فنحنُ نجزمُ بذلِكَ وَاطَّلَعْنَا على بَعْضِ اللُّغَاتِ العَالميَّةِ، فَمَثَلًا فِي الدِّرَاسَةِ المدرَسِيَّةِ دَرَسْتُ اللُّغَةَ الإِنجليزِيَّةَ لأَكثَرَ مِنْ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَدَيَّ معرِفَةٌ باللُّغَةِ الفارسِيَّةِ، مِنْ خِلالِ الكُتُبِ الأَدَبِيَّةِ، وَالدَّوَاوِينِ الشِّعرِيَّةِ وَاستِمَاعِي لِهذِهِ اللُّغَةِ، وَكذَلِكَ جالَسْتُ أربابَهَا وَتَكَلَّمْتُ مَعَهُم، وَكَذَا أَدْرُسُ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ التُّركِيَّةِ مُنْذُ أَشْهُرٍ وَقَطَعْتُ مِنْهَا شَوْطًا لَا بَأْسَ بِهِ لِمَعْرِفَةِ مَاهِيَةِ هذِهِ اللُّغَةِ، كمَا تكلَّمتُ مَعَ مَنْ يُجَوِّدُ الفَرَنسِيَّةَ وَالأَلمانيَّةَ وَالإِسبانيَّةَ، فَحَاوَرتُهُم مُحاوراتٍ بالنِّسْبَةِ لِهذِهِ القَضِيَّةِ وسأَلْتُهُم عَنْ أُمُورٍ توجَدُ في العَرَبيَّةِ مِنَ المَزَايَا، لِأَعلَمَ هَلْ تُوجَدُ عِندَهُم أَمْ: لَا؟ فكَانَ

جوابُهُم: إمَّا عَدَمُ الوجُودِ وإمَّا الوجُودُ معَ تقصيرٍ بالِغٍ مُقَارَنَةً بِالعَرَبِيَّةِ، وَكذلِكَ لُغَتِي الأُمُّ هِيَ الكُردِيَّةُ، وَمَعَ ذَلِكَ أجزِمُ بأنَّ العربيَّةَ أغنَى لُغَاتِ العالَمِ وَأوسَعُهَا وَأبْهَاهَا، وَأرْفَعُهَا وَأنْقَاهَا، وهذَا الكَلامُ نَابعٌ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَجَدْتُهَا فِي العَرَبِيَّةِ حيثُ لَمْ أَجِدْهَا فِي غَيْرِهَا، فَمِنْهَا مَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللُّغَةِ ذَاتِهَا -وَهُوَ الأَكْثَرُ-، وَمِنْهَا مَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى أُمُورٍ خَارِجِيَّةٍ مُرْتَبطَةٍ بِهذِهِ اللُّغَةِ، وَهِيَ:

الأَوَّلُ: كَثْرَةُ الأَدَواتِ فِي العربيَّةِ:

يرَى الباحثُ فِي العَرَبِيَّةِ أدَواتٍ كثيرَةً تَصلُحُ لِمُرادِ المتكلِّمِ فِي أَحوَالِهِ الـمُخْتَلِفَةِ، فَلَا يَجِدُ مِثْلَهَا وَلَا قَرِيبًا مِنْهَا فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ، كَالتَّوكِيدِ وَالاستِفْهَامِ وَالنَّفْيِ وَالطَّلَبِ وَالأَمْرِ وَغَيْرِهَا، فَهذِهِ الكَثْرَةُ مِنَ الأَدَوَاتِ مِيزَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ مُمَيزَاتِ العَرَبِيَّةِ[1].

فَمَثَلًا لَو أرَادَ الـمُتَكَلِّمُ إخبَارَ الـمُخَاطَبِ بِأمْرٍ مَا، يُلقِي إِلَيْهِ كَلامَهُ دُونَ التَّوكِيْدِ، وَقَدْ يُؤَكِّدُ كَلامَهُ عَلى قَدْرِ حالِ الـمُخاطَبِ، إِذَا كَانَ مُتَرَدِّدًا، أَوْ: شَاكًّا، أَوْ: مُنْكِرًا، أَوْ: جَاحِدًا.

وَفِي هذَا قِصَّةٌ لَطِيفَةٌ ذَكَرَهَا كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ، مِنْهُمُ الإمَامُ الرّازِيُّ حيثُ ذَكَرَهَا وَمَثَّلَ لَهَا بِآيَاتٍ قُرآنِيَّةٍ، فَقَالَ: «رَوَى الْأَنْبَارِيُّ: أَنَّ الْكِنْدِيَّ الـمُتَفَلْسِفَ رَكِبَ إِلَى الـمُبَرِّدِ وَقَالَ: (إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ حَشْوًا)!، أَجِدُ الْعَرَبَ تَقُولُ: (عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ)، ثُمَّ تَقُولُ: (إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ)، ثُمَّ تَقُولُ: (إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ)، فَقَالَ الـمُبَرِّدُ: بَل

---

(١) يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: هذِهِ الأَدَوَاتُ مَوْجُودَةٌ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، كَيْفَ تَكُونُ مِيزَةً للعَرَبِيَّةِ؟ فَنَقُولُ: نَعَمْ، وَنحنُ أيضًا لَا نُنْكِرُ وَجودَهَا فِي اللُّغَاتِ، وَلكنَّ وجُودَهَا فِي العَرَبِيَّةِ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ وَجودِهَا فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، كَثْرَةً وَتَشَعُّبًا، وَقَوَاعِدَ وتَأصِيلًا.

الْـمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ الْأَلْفَاظِ، فَقَوْلُهُمْ: (عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ): إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ، وَقَوْلُهُمْ: (إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ): جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ، وَقَوْلُهُمْ: (إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ): جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ لِقِيَامِهِ.

وَاحْتَجَّ عَبْدُ الْقَاهِرِ(١) عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِ، بِأَنَّهَا إِنَّمَا تُذْكَرُ جَوَابًا لِسُؤَالِ السَّائِلِ بِأَنْ قَالَ: إِنَّا رَأَيْنَاهُمْ قَدْ أَلْزَمُوهَا الْجُمْلَةَ مِنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ إِذَا كَانَ جَوَابًا لِلْقَسَمِ، نَحْوُ: (وَاللهِ إِنَّ زَيْدًا مُنْطَلِقٌ) وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ: [وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ] [الْكَهْفِ: ٨٣]، وَقَوْلُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: [نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ] [الْكَهْفِ: ١٣]، وَقَوْلُهُ: [فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ] [الشُّعَرَاءِ: ٢١٦]، وَقَوْلُهُ: [قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ] [الْأَنْعَامِ: ٥٦]، وَقَوْلُهُ: [وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ] [الحجر: ٨٩]، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأَنْ يُجِيبَ بِهِ الْكُفَّارَ فِي بَعْضِ مَا جَادَلُوا وَنَاظَرُوا فِيهِ. وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ: [فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [الشُّعَرَاءِ: ١٦]، وَقَوْلُهُ: [وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ] [الْأَعْرَافِ: ١٠٤]، وَفِي قِصَّةِ السَّحَرَةِ: [إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ] [الْأَعْرَافِ: ١٢٥]، إِذْ مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّهُ جَوَابُ فِرْعَوْنَ عَنْ قَوْلِهِ: [آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ] [طه: ٧١ الشعراء: ٤٩].

وَقَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ: وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا لِلتَّأْكِيدِ وَإِذَا كَانَ الْخَبَرُ بِأَمْرٍ لَيْسَ لِلْمُخَاطَبِ ظَنٌّ فِي خِلَافِهِ، لَمْ يُحْتَجْ هُنَاكَ إِلَى «إِنَّ» وَإِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ السَّامِعُ ظَنَّ الْخِلَافَ،

---

(١) وَالقِصَّةُ فِي: (دَلَائِلِ الإِعْجَازِ) (ص٣١٥)، وَصُبْحِ الأَعْشَى (١/ ٢٢٣)، وَاللُّبَابُ فِي عُلُومِ الكِتَابِ (١/ ٣٠٧)، و(١٦/ ١٨٤)، وَبُغْيَةُ الإِيضَاحِ (١/ ٤٥)، وَالأَطْوَلِ للعِصَامِ (١/ ٢٣٨).

وَلِذَلِكَ تَرَاهَا تَزْدَادُ حُسْنًا إِذَا كَانَ الْخَبَرُ بِأَمْرٍ يَبْعُدُ مِثْلُهُ كَقَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ:

[مِنَ السَّرِيْعِ]

عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ[1] فِي الْيَاسِ

وَإِنَّمَا حَسُنَ مَوْقِعُهَا لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَحْمِلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْيَأْسِ. وَأَمَّا جَعْلُهَا مَعَ اللَّامِ جَوَابًا لِلْمُنْكِرِ فِي قَوْلِكَ: «إِنَّ زَيْدًا لَقَائِمٌ» فَجَيِّدٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ الْمُنْكِرِ كَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَى التَّأْكِيدِ أَشَدَّ، وَكَمَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْكَارُ مِنَ السَّامِعِ احْتَمَلَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَاضِرِينَ.

وَاعْلَمْ أَنَّهَا قَدْ تَجِيءُ إِذَا ظَنَّ الْمُتَكَلِّمُ فِي الَّذِي وَجَدَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مِثْلُ قَوْلِكَ: (إِنَّهُ كَانَ مِنِّي إِلَيْهِ إِحْسَانٌ فَعَامَلَنِي بِالسُّوءِ)، فَكَأَنَّكَ تَرُدُّ عَلَى نَفْسِكَ ظَنَّكَ الَّذِي ظَنَنْتَ وَتُبَيِّنُ الْخَطَأَ فِي الَّذِي تَوَهَّمْتَ، وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ: [قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ] [آلِ عِمْرَانَ: ٣٦]، وَكَذَلِكَ قَوْلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ] [الشُّعَرَاءِ: ١١٧]»[2].

وَأَوْرَدَ هَذِهِ الْقِصَّةَ سِرَاجُ الدِّينِ ابْنُ عَادِلٍ النُّعْمَانِيُّ عَقِبَ كَلَامٍ بَدِيعٍ لَهُ فِي الْإِشَارَةِ إِلَى إِدْخَالِ (اللَّامِ) وَتَجْرِيدِهَا مِنْ خَبَرِ (إِنَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يس).

---

(١) فِي دِيوَانِهِ: (إِنَّ الغِنَى وَيْحَكَ فِي اليَاسِ).

(٢) التَّفْسِيرُ الكَبِيرُ (٢/ ٢٨١-٢٨٢).

فقَالَ: «قَوْلُهُ: [إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ] جَرَّدَ خَبَرَ «إِنَّ» هذِهِ مِنْ لَامِ التَّوْكِيْدِ، وَأَدْخَلَهَا فِي خَبَرِ الثَّانِيَةِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الأُوْلَى اسْتَكْمَلُوا مُجَرَّدَ الإِنْكَارِ فَقَابَلَتْهُمُ الرُّسُلُ بِتَوْكِيْدٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الإِتْيَانُ بِـ«إِنَّ»، وَفِي الثَّانِيَةِ بَالَغُوا فِي الإِنْكَارِ، فَقَابَلَتْهُمُ (الرُّسُلُ) بِزِيَادَةِ التَّأْكِيْدِ، فَأَتَوا بِـ«إِنَّ» وَبِـ«اللَّامِ».

قَالَ أَهْلُ البَيَانِ: الأَخْبَارُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: ابْتِدَاءٌ، وَطَلَبِيٌّ، وَإِنْكَارِيٌّ.

فَالأَوَّلُ: (يُقَالُ) لِمَنْ يَتَرَدَّدُ فِي نِسْبَةِ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ إِلَى الآخَرِ، نَحْوُ: (زَيْدٌ عَارِفٌ).

وَالثَّانِي: لِمَنْ هُوَ مُتَرَدِّدٌ فِي ذَلِكَ، طَالِبٌ لَهُ، مُنْكِرٌ لَهُ بَعْضَ إِنْكَارٍ، فَيُقَالُ لَهُ: (إِنَّ زَيْدًا عَارِفٌ).

وَالثَّالِثُ: لَمْ يُبَالِغْ فِي إِنْكَارِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: (إِنَّ زَيْدًا لَعَارِفٌ)»[(١)].

وَهذَا هُوَ التَّوكِيدُ فَقَطْ، وَإِذَا وَقَفْتَ عَلَى الأَدَوَاتِ الأُخْرَى، تَبَيَّنَتْ لَكَ مِيزَةُ العَرَبِيَّةِ عَلَى سَائِرِ اللُّغَاتِ فِيهَا، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الـمُوَفِّقُ.

الثَّانِي: كَثرَةُ الأَسَالِيبِ وَالتَّعبِيرَاتِ فِي العَرَبِيَّةِ:

وَمِنَ الأُمُورِ الـمُلفِتَةِ لِلنَّظَرِ هُوَ مُكْنَةُ الـمُتَكَلِّمِ بِالعَرَبِيَّةِ فِي التَّعَابِيرِ الـمُتَنَوِّعَةِ، وَقُوَّتُهُ عَلَى الأَسَالِيبِ البَدِيعَةِ الـمُخْتَلِفَةِ فِي الغَرَضِ الوَاحِدِ، عِنْدَ مَا يُرِيدُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ مُرَادِهِ، وَهذَا يَرْجِعُ إِلَى وُجُودِ تِلْكَ الكِنَايَاتِ وَالتَّلمِيحَاتِ وَالاِستِعَارَاتِ الَّتِي تَملِكُهَا هذِهِ اللُّغَةُ الفَصِيحَةُ، فَإِنَّكَ لِلغَرَضِ الوَاحِدِ كَـ(الرِّضَا، وَالغَضَبِ، وَالأَمرِ، وَالنَّهْيِ..) بِوسعِكَ التَّعبِيرُ بِأَسَالِيبَ مُختَلِفَةٍ، فَمَثَلًا، تَجِدُ صِيَغًا كَثِيرَةً لِلأَمْرِ، كَمَا نَعرِفُ لَهُ مَثَلًا:

---

(١) اللُّبَابُ لِابنِ عَادِلٍ (١٦/ ١٨٤).

(فِعْلَ الأَمْرِ، وَالـمُضَارِعَ الـمَجْزُومَ بِلَامِ الأَمْرِ، وَاسْمَ فِعْلِ الأَمْرِ، وَالـمَصْدَرَ النَّائِبَ عَنْ فِعْلِهِ).

وَمِنْ ثَمَّ الأَمْرُ نَفْسُهُ يَدُلُّ دَلَالَاتٍ كَثِيرَةً خارِجَةً عَنِ الأَمْرِ الـمَعلُومِ، كَمَا قَالَ الشَّوْكَانِيُّ: «قَالَ الرَّازِيُّ فِي (الْـمَحْصُولِ): قَالَ الْأُصولِيُّونَ: صِيغَةُ افْعَلْ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ وجهًا:

- لِلإِيْجَابِ: كَقَوْلِهِ تعَالَى: [أَقِيمُوا الصَّلَاةَ].

- وَلِلنَّدْبِ: كَقَوْلِهِ: [فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا]، وَيَقْرُبُ مِنْهُ التَّأْدِيْبُ، كَقَوْلِهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- لِابْنِ عبَّاسٍ: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ»، فَإِنَّ الْأَدَبَ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَعَلَهُ بَعْضُهُمْ قِسْمًا مُغَايِرًا لِلمَنْدُوْبِ.

- وَلِلإِرْشَادِ: كَقَوْلِهِ: [وَاسْتَشْهِدُوا]، [فَاكْتُبُوهُ].

وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّدْبِ وَالْإِرْشَادِ أَنَّ النَّدْبَ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَالْإِرْشَادَ لِمَنَافِعِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْتَقِصُ الثَّوابُ بِتَرْكِ الِاسْتِشْهَادِ فِي الْمُدَايَنَاتِ وَلَا يَزِيدُ بِفِعْلِهِ.

- وَلِلْإِبَاحَةِ: مِثْلُ قَوْلِهِ تعَالَى: [كُلُوا وَاشْرَبُوا].

- وَلِلتَّهْدِيْدِ: مِثْلُ: [اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ][(١)]، [وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ]، وَيَقْرُبُ مِنْهُ الإِنْذَارُ: كَقَوْلِهِ تعَالَى: [قُلْ تَمَتَّعُوا] وَإِنْ كَانَ قَدْ جَعَلُوهُ قِسْمًا آخَرَ.

- وَلِلامْتِنَانِ: مِثْلُ: [فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله].

---

(١) قَالَ شَيخُنَا أَبُو الفَضْلِ عُمَرُ الحَدُّوشِيُّ: أَمَّا قولُهُ-عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-فِي أَهْلِ بَدْرٍ: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ) فَلَيْسَ لِلتَّهْدِيدِ بَلْ: هِيَ لِلتَّكْرِيمِ، أَوِ: التَّرْشِيدِ، لِرَفْعِ التَّحْجِيرِ، كَأَنَّهُ قَالَ: افْعَلْ مَا شِئْتَ، لَا حَرَجَ عَلَيْكَ صِرتَ رَشِيدًا

- وَللإِكْرَامِ: [ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِين].
- وَللتَّسْخِيْرِ: [كُونُوا قِرَدَة].
- وَللتَّعْجِيْزِ: [فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِه].
- وَللإِهَانَةِ: [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيم].
- وَللتَّسْوِيَةِ: [فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا].
- وَللدُّعَاءِ: [رَبِّ اغْفِرْ لِي].
- وَلِلتَّمَنِّي كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ألا انجَلِي

- وَلِلاحْتِقَارِ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ].
- وَللتَّكْوِيْنِ: [كُنْ فَيَكُون]، اِنْتَهَى.
- فَهَذِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ مَعْنًى، وَمَنْ جَعَلَ التَّأْدِيبَ وَالْإِنْذَارَ مَعْنَيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ، جَعَلَهَا سَبْعَةَ عَشَرَ مَعْنًى، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْـمَعَانِي:
- الْإِذْنَ: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالى: [كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ].
- وَالخبَرَ: نَحْوُ: [فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا].
- وَالتَّفْوِيْضَ: نَحْوُ: [فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاض].
- وَالـمَشُوْرَةَ: كَقَوْلِهِ: [فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى].

- وَالِاعْتِبَارَ: نَحْوُ: [انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ].
- والتَّكْذِيبَ: نَحْوُ: [قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم].
- وَالِالْتِمَاسَ: كَقَوْلِكَ لِنَظِيرِكَ: «افْعَلْ».
- وَالتَّلْهِيفَ: نَحْوُ: [قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم].
- وَالتَّصْبِيرَ: نَحْوُ: [فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا].

فَتَكُونُ جُمْلَةُ الـمَعَانِي: سِتَّةً وَعِشْرِينَ مَعْنًى»[1].

الثَّالِثُ: قِلَّةُ الأَلْفَاظِ وَوَفْرَةُ الْـمَعَانِي وَغَزَارَتُهَا:

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ العَرَبِيَّةُ مِنْ غَيْرِهَا، أَنَّكَ تَرَى فِيْهَا حَرْفًا واحِدًا كـ(هَلْ) لَهَا مَعَانٍ كَثِيْرَةٌ بِحَيْثُ يَتَعَجَّبُ الْـمُتَطَلِّعُ عَلَى هذِهِ اللُّغَةِ العَبْقَرِيَّةِ، وَبِفَضْلِ ذلِكَ يَستَطِيْعُ المتكلِّمُ والكَاتِبُ بِهَا أن يُعَبِّرَ بِسُهولَةٍ وَيُسْرٍ دُونَ أيِّ عَنَاءٍ وَجُهْدٍ؛ لأَنَّهُ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُعرِبَ عَمَّا اختلَجَ فِي صَدْرِهِ بأقَلِّ التَّعَابِيرِ.

وَكذلِكَ تَجِدُ مَعانِيَ كثيرةً فِي حُرُوفٍ وَأَدَوَاتٍ أُخَرَ، كمَا هُوَ الحَالُ فِي: (البَاءِ) وَ(فِي) وَ(مَا) وَ..وغيرِهَا كَثِيرَةٌ جدًّا، فَلِذلِكَ إِذَا تَرْجَمْتَ صَفْحَةً مِنَ العَرَبِيَّةِ إِلَى أيَّةِ لُغَةٍ أُخْرَى فَإِنَّكَ تَحْتَاجُ إِلَى صَفْحَتَيْنِ فَأَكْثَرَ لِتَرْجَمَتِكَ، وهذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ مَنْ عَمِلَ فِي مَجَالِ التَّرجمةِ، وَلَيْسَ خَافِيًا عَلَى ذِي عَيْنَيْنِ بِغَيْرِ مَيْنٍ.

---

(١) إِرْشَادُ الفُحُولِ (١/ ٢٥٣-٢٥٥).

الرَّابعُ: كَثْرَةُ مُفْرَدَاتِ العَرَبِيَّةِ:

إنَّ العَرَبيَّةَ أَغْنَى لُغَاتِ العَالَمِ وَأَثْرَاهَا فِي الـمُفْرَدَاتِ حَيثُ تَجِدُ فِيهَا سَعَةً فِي الـمُفرَدَاتِ، وَهِيَ أكثَرُ مِنْ مُفرداتِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى بكَثْرَةٍ كَاثِرَةٍ، وَزِيَادَةٍ مُتَنَاثِرَةٍ، وَهذَا الثَّرَاءُ فِي الـمُفرَدَاتِ مِنْ أَهَمِّ مُمَيِّزَاتِ العَرَبِيَّةِ حيثُ سَهَّلَ الطَّرِيْقَ للمُتَكَلِّمِ بِهذِهِ اللُّغَةِ والكَاتِبِ بِهَا، وَمَهَّدَ لَهُم مُكْنَةً وَقُدْرَةً عَلَى الإبْدَاعِ وَالتَّفَنُّنِ فِي صَوْغِ العِبَارَاتِ؛ لأَنَّ الأَلْفَاظَ مَوْضُوعَةٌ بينَ يَدَيْهَا وَبُسِطَتْ، فَيَسْتَخْدِمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَدَعُ مَا يَشَاءُ.

وهذِهِ الزِّيَادَةُ فِي الـمُفرَدَاتِ الـمُستَقلَّةِ وَالجِذْرِ، فَلَوْ أَتيْتَ إلَى أَمْرِ الاِشْتِقَاقِ لَقَضَيْتَ العَجَبَ مِنْ أمرِهِ؛ لأنَّ العَدَدَ يَتَضَاعَفُ دَرَجَاتٍ، كَمَا سَيأتِينَا فِي النُّقْطَةِ الآتِيَةِ.

الخَامِسُ: الاِشْتِقَاقُ الصَّغِيرُ:

إنَّ الْمُفرَدَاتِ فِي العَرَبِيَّةِ تُنَاهِضُ الْمليونَ بِفَضْلِ الاِشْتِقَاقِ الصَّرفِيِّ وَالاِشْتِقَاقِ الكَبِيرِ؛ لأنَّكَ تَمْلِكُ الْجِذْرَ وَمنهُ تَأخُذُ كَلِمَاتٍ كثِيرَةً، فَمَثَلًا إذَا أخذنَا مَادَّةً، أَوْ: جِذْرَ (ع و د)، فَمِنْهُ نَحْصُلُ عَلَى كَلِمَاتٍ كثيرةٍ مِثْلِ: (عَادَ، وأَعَادَ، وعوَّدَ، وَعَاوَدَ، وَاعْتَادَ، وَتَعوَّدَ، وَاسْتَعَادَ، وَعَوْدٌ، وَعُودٌ، وَعَوْدَةٌ، وَعِيْدٌ، وَمَعَادٌ، وَعِيادَةٌ، وَوَعِيْدٌ، وَعَادَةٌ، ومُعاوَدَةٌ، وإِعَادَةٌ، وَتَعْوِيدٌ، وَاعتِيادٌ، وَتَعَوُّدٌ، واسْتِعَادَةٌ، وَعَادِيٌّ).

وَهكَذَا لِبَاقِي الكَلِمَاتِ الأُخْرَى، وَالأشيَاءُ الـمُسْتَحْدَثَةُ أيضًا تَدْخُلُ فِي هذَا البَابِ، وَبِفَضْلِهِ يُمْكِنُنَا أَنْ نُسَمِّيَ كُلَّ جَدِيْدٍ مِنِ اختِرَاعٍ وَابْتِكَارٍ.

السَّادِسُ: الِاشتِقَاقُ الكَبِيرُ:

الـمَادَّةُ السَّـابِقَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَـا (ع و د) لَـوْ أخَـذْنَاهَا لِلاشْـتقَاقِ الكَبيـرِ، فَتَنْعَكِسُ سُدَاسِـيَّةً وَتَصـيرُ (ع د و) وَ(و ع د) وَ(د ع و) وَ(د و ع) وَ(و د ع)، فَـبَعْضٌ مـن هـذِهِ الإِشتِقَاقَاتِ فِي كُلِّ مَادَةٍ مُهمَلٌ وَالأَكثرُ مِنْهَا مُستَعمَلٌ كَمَا فِي كُتُبِ الاِشتِقَاقِ، وَبِهَـذَا تَعلَمُ سَعَةَ الكَلِمَاتِ العَربيَّةِ وَثَرَاءَهَا.

هذَا. وَإِنَّ بينَ كُلِّ هذهِ الأَلْفَاظِ الـمُتَقَارِبَةِ لَفْظًا اتِّفَاقًا فِي الـمَعْنَى، وَقُرْبًا، وَمَا دَامَتِ الأَلْفَاظُ قَرِيبَةً اَسْتَلْزَمَ هذَا القُرْبُ قُرْبَ الـمَعْنَى، وَمَهْمَا قَرُبَتِ الأَلْفَاظُ وَكَانَتِ العَلَاقَةُ بينَ أَلْفَاظِهَا قَوِيَّةً، قَرُبَ الـمَعْنَى الـمُشْتَرَكُ وَقَوِيَ فِي الدَّلَالَةِ.

السَّابِعُ: تمييزُ الصِّفَاتِ للأَشياءِ وتَفريقُ أوصَافِهَا:

إنَّ مِنْ مُميزَاتِ العَرَبِيَّةِ وَخَصَائِصِهَا، أنَّهَا فَرَّقَـتْ بيـنَ أَوْصَـافِ الأَشـيَاءِ، فمَثَلًا إِذَا أَرَادُوا أنْ يُبيِّنوا الكَثرَةَ لِشَيءٍ لا يُصرِّحُونَ باسْمِهِ، بلْ: يَكتَفونَ بِمَا يَدلُّ عليهِ، فَعَلى سبيلِ الْمِثالِ أَنَّهُم اختَاروا للمَاءِ الكَثِيرِ (الغَمْرَ) وَللشَّجرِ (الغَيْطَلَ)، فإِذَا استَخدَمُوا الغَمْرَ لا يُحتاجُ مَعَهُ إِلَى ذكرِ الـمَاءِ فِي قَوْلِكَ: (الْـمَاءُ الكَثِيرُ) حَتَّى تُبَيِّنَ الْمَقصُودَ، وَتَكْتَفِي بِـ(الغَمْرِ)، كمَا ذكَرَ الثَّعالبِيُّ فِي مَرَاتِبِ الكَثرَةِ قَائِلًا: «الدَّثْرُ: الْمَالُ الكَثِيرُ. الغَمرُ: الْمَاءُ الكَثِيرُ. الْمَجْرُ: الجَيْشُ الكَثِيرُ. العَرْجُ: الإِبلُ الكَثِيرَةُ. الكَلَعَةُ: الغَنَمُ الكَثِيرَةُ. الخَشْرَمُ: النَّحْلُ الكَثِيرَةُ. الدَّيْلَمُ: النَّمْلُ الكَثِيرُ. عنْ أَبِي عَمْرٍو وَعَنْ ثَعْلَبِ عَنِ ابْنِ الأَعْرَابِيِّ. الجُفَالُ: الشَّعْرُ الكَثِيرُ. الغَيْطَلُ: الشَّجَرُ الكَثِيرُ. الكَيْسُومُ: الحَشِيشُ الكَثِيرُ، عنِ اللَّيثِ عَنِ الخَلِيلِ. الحشْبَلَةُ: العِيَالُ الكَثِيرَةُ. عنِ اللَّيثِ وابنِ شُميلٍ. الحِيَرُ: الأَهْلُ والْمَالُ الكَثِيرُ. عَنِ الكِسَائِيِّ. الْكَوْثَرُ: الغُبَارُ الكَثِيرُ. عنِ ابنِ

الأعْرابيّ. الجبلُّ والقِبْصُ: الجَمَاعةُ الكَثِيرَةُ. عنْ أبي عَمْرٍو وَالأَصْمَعِيِّ.»[١].

الثَّامِنُ: كَلِمَاتُ العَرَبِيَّةِ رَنَّانَةٌ ذَاتُ صَدًى مُتَمَيِّز:

إنَّ مِمَّا تَتَمَيَّزُ بِهِ العَرَبِيَّةُ عَنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ، أَنَّهَا لُغَةٌ رَنَّانَةٌ ذَاتُ صَدى جَمِيْل، فِي كَلِمَاتِهَا وَفِي جُمَلِهَا، وَتَتَّسِمُ بِعُذُوبَةِ أَلفَاظِهَا، وَتَرَنُّم كَلمَاتِهَا وطَرَب جُمَلِهَا، فَلِذلِكَ تَجِدُ الشِّعْرَ فِي العَرَبِيَّةِ أرَقَّ وَأَجْمَلَ وَأَلَذَّ مِنْهُ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَهذَا الكَلامُ أقُولُهُ بَعْدَ اطِّلَاعِي عَلَى الشِّعْرِ الكُردِيِّ، وَالفَارِسِيِّ وَالتُّرْكِيِّ، وَالإنجليزِيِّ، وَسَمِعْتُ هذَا الكَلامَ مِنَ الـمُنصِفِيْنَ مِنْ أربَابِ هذِهِ اللُّغَاتِ وَغَيْرِهَا.

وَمَعَ هذَا فإِنَّ كَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ صَالِحَةٌ للشُّعَرَاءِ وَمُسَاعِدَةٌ لَهُم، فَمَثَلًا لَو أرادَ الشَّاعِرُ أَنْ يَأتِيَ بِكَلِمَةٍ عَلَى وَزْنِ (فَاعِل)، أَوْ: (مَفْعُول)، أَوْ: غَيرِهَا مِنَ الأَوْزَانِ فَإِذَا بِمِئاتِ كَلِمَاتٍ أَمَامَهُ بِخِلافِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى.

التَّاسِعُ: الحَذْفُ وَالإِيْجَازُ فِي العَرَبِيَّةِ:

إنَّ الاختِصَارَ وَالتَّقْدِيراتِ فِي العَرَبِيَّةِ مِنْ أَجْمَلِ الأَشيَاءِ فِي هذِهِ اللُّغَةِ البَدِيْعَةِ، حَيثُ تَرَى شَيْئًا يَسِيرًا كـ(التَّنوِين)، مَثَلًا، يَقُومُ مَقَامَ جُمْلَةٍ عَرِيْضَةٍ، كَمَا تَجِدُونَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ (الزلزلة).

فَإِنَّ التَّنوِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (يَوْمَئِذٍ) تَنوِيْنُ عِوَضٍ عَنِ الجُمَلِ السَّابِقَةِ كُلِّهَا، فَبِهذَا التَّنوِينِ وَحْدَهُ لَمْ يُكَرَّرْ وَلَمْ يُطَوَّلِ الكَلامُ؛ لأَنَّ أَصْلَهُ هَكَذَا: (يومَئِذ إِذَا زُلْزِلَتِ

(١) فِقْهُ اللُّغَةِ لأَبِي مَنصورٍ الثَّعالِبيِّ (ص٤٩).

الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنْسَانُ مَالَهَا تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)!!
وَلكِنْ بِهذا التَّنْوِيْنِ اكْتَفَى عَنِ التَّطويلِ، وَكَفَاكَ مُؤنَةَ التَّكْرَرِ وَالإِعَادَةِ!

العَاشِرُ: بَقَاءُ الآثَارِ الشِّعْرِيَّةِ وَالأَسَالِيبِ الكَلَامِيَّةِ لِقُرُونٍ كَثِيرَةٍ:

إِنَّ المرءَ بوسْعِهِ أَنْ يَقِفَ عَلَى الكَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ وَاستِخَداماتِهَا مِنْ قَبْلِ أَكثَرَ مِنْ أَلفِ سَنَةٍ إِلَى يَوْمِنَا هذا، وَقَدْ تُتُبِّعَ كَلَامُ فُصَحَاءِ العَرَبِيَّةِ وَأُدَبَائِهَا شِعْرًا وَنَثْرًا، وَدُوِّنَ فِي دَوَاوِينَ كَثِيرَةٍ وَتَدَاوَلَهَا النَّاسُ وَقَرَؤُوهَا وَأَقْرَؤُوهَا، وَكَانَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ رُوَاةٌ وَرُوَّادٌ يَتَصَدَّرونَ المَجَالِسَ لِرِوَايَةِ هذِهِ اللُّغَةِ وَدِرَايَةِ مَسَائِلِهَا، وَذلِكَ كُلُّهُ بِفَضْلِ جُهُودِ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ لِجَمْعِهَا بَعْدَ حفظِ اللهِ تَعَالَى لِلُغَةِ القُرآنِ، وَهذا يُعتَبَرُ عَامِلًا أَساسِيًّا لِتَفسِيرِ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ وَالأَدبِيَّةِ تَفْسِيرًا صَحِيحًا، مَعَ كَونِهِ مَفْقُودًا فِي اللُّغَاتِ العَالمِيَّةِ كُلِّهَا، وَهذِهِ بِحَقٍّ مِيزَةٌ كَبِيرَةٌ خِصِّيصٌ لِلعَرَبِيَّةِ.

الحَادِي عَشَرَ: عَدَمُ تَغَيُّرِ العَرَبِيَّةِ وَبَقَاؤُهَا كَمَا كَانَتْ:

إِنَّ نُصُوصَ العَرَبِيَّةِ الَّتِي كُتِبَتْ قَبْلَ حَوَالِي أَلْفَي سَنَةٍ مَفهُومَةٌ لِمَنْ يَعرِفُ العَرَبِيَّةَ جَيِّدًا، وَهذا غيرُ موجودٍ فِي اللُّغَاتِ الأُخرَى؛ لأَنَّ النُّصُوصَ القَدِيمَةَ فِيْهَا لَا تُفْهَمُ، بَلْ: لَا تُقْرَأُ أَصْلًا، فَعَلَى سبيلِ المِثَالِ لَوْ أَخذنَا جملَةً مِنَ النُّصُوصِ الأَدبِيَّةِ لِشِكسبيرَ(ت:١٦١٦م) أَوْ: لِجِيفِرِي تشُوسَر(ت:١٤٠٠م)، أَوْ: لِغَيْرِهِمَا مِنَ الأُدَبَاءِ القُدَمَاءِ، لا يَفْهَمُهَا حَتَّى مَنْ يُجوِّدُ الإِنجليزِيَّةَ؛ لأَنَّ هذِهِ اللُّغَةَ تَغيَّرَتْ وَتَبدَّلَتْ وَعَفَتْ رُسُومُهَا رَأسًا، وَلا تُفْهَمُ القَدِيمَةُ إِلَّا عِندَ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ المَعنِيِّينَ بِالنُّصُوصِ التَّارِيخيَّةِ فقطْ!

فَمِنْ هُنَا أَنْقُلُ جُزْءًا مِنْ قَصِيدَةٍ لِلمُثَقِّبِ العَبْدِيِّ، الَّذِي مَاتَ قَبْلَ الإِسْلامِ بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً، فَاقرَؤُوهُ وَاحكُمُوا عَلَى أَلْفَاظِهِ، وَكَأَنَّهُ لِشَاعِرٍ مِنْ عَصْرِنَا الحَاضِرِ، وَهُوَ يَقُولُ:

[مِنَ الوَافِرِ]

إِلَى عَمْرٍو وَمِنْ عَمْرٍو أَتَتْنِي ... أَخِي النَّجَدَاتِ وَالحِلمِ الرَّصِينِ
فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقٍّ ... فَأَعرِفَ مِنكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي
وَإِلَّا فَاطَّرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي ... عَدُوًّا أَتَّقِيكَ وَتَتَّقِينِي
وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ وَجهًا ... أُرِيدُ الخَيرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَأَلخَيرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ ... أَمِ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي
دَعِي مَاذَا عَلِمْتُ سَأَتَّقِيهِ ... وَلَكِن بِالمَغِيبِ نَبِّئِينِي

وكَذَا هُوَ المُهَلْهِلُ بنُ رَبِيعَةَ الَّذِي مَاتَ قَبْلَ الإِسلامِ بِقَرْنٍ تَقرِيبًا، وَهُوَ يَرْثِي كُلَيْبًا فِي مَرْثِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ مُعبِّرَةٍ، وَكَأَنَّهَا لِشَاعِرٍ فِي عَصْرِنَا لِوضُوحِ عِبَارَاتِهَا، فَهَذَا صَدْرُهَا إِذْ يَقُولُ فِيْهَا:

[مِنَ البَسِيطِ]

كُلَيْبُ لاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا ... إِنْ أَنْتَ خَلَّيْتَهَا فِي مَنْ يُخَلِّيهَا
كُلَيْبُ أَيُّ فَتَى عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ ... تَحْتَ السَّفَاسِفِ إِذْ يَعْلُوكَ سَافِيهَا
نَعَى النُّعَاةُ كُلَيْبًا لِي فَقُلْتُ لَهُمْ ... مَادَتْ بِنَا الأَرْضُ أَمْ مَادَتْ رَوَاسِيهَا
لَيْتَ السَّمَاءَ عَلَى مَنْ تَحْتَهَا وَقَعَتْ ... وَحَالَتِ الأَرْضُ فَانْجَابَتْ بِمَنْ فِيهَا
أَضْحَتْ مَنَازِلُ بِالسُّلاَّنِ قَدْ دَرَسَتْ ... تَبْكِي كُلَيْبًا وَلَمْ تَفْزَعْ أَقَاصِيهَا

الْحَــزْمُ وَالْعَــزْمُ كَانَــا مِــنْ صَــنِيعَتِهِ ... مَــا كُــلَّ آلآئِــهِ يَــا قَــوْمُ أُحْصِــيهَا
القَائِــدُ الْخَيْــلَ تَــرْدِي فِــي أَعِنَّتِهَــا ... زَهْــوًا إِذَا الْخَيْــلُ بُحَّــتْ فِــي تَعَادِيهَــا
النَّــاحِرُ الْكُــومَ مَــا يَنْفَــكُّ يُطْعِمُهَــا ... وَالْوَاهِــبُ المِئَــةَ الْحَمْــرَا بِرَاعِيهَــا
مِــنْ خَيْــلِ تَغْلِــبَ مَــا تُلْقَــى أَسِــنَّتُهَا ... إِلاَّ وَقَــدْ خَضَّــبَتْهَا مِــنْ أَعَادِيهَــا

وَقَدْ نُسِبَ إِلَى العَنْبَرِ الخُضم، بَعضُ الأَبياتِ وَهِيَ أَيضًا مَفْهومَةٌ دونَ أَيِّ تَفَكُّرٍ مَعَ أَنَّ صَاحِبَهَ لَم يُدْرِكِ الإِسلامَ وَمَاتَ قَبْلَ البِعْثَةِ بِقُرَابَةِ قَرْنَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ، وَالأَبيَاتُ هِيَ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

قَــدْ رابَنِــي مِــن دَلْــوِيَ اضْــطِرابُهَا
وَالنَّـــأْيُ فِي بَهْــــرَاءَ وَاغتِرابُهَـــا
إِنْ لا تَجِــئْ مَــلأى يَجِــئْ قِرابُهَــا

حَقًّا أَقولُ لَو لَم يَكنْ فِي خُلُودِ هذِهِ اللُّغَةِ سِرٌّ إِلهِيٌّ لِتَكُونَ لِسَانَ آخِرِ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِهِ، لَم تَكُنْ تَبْقَى بِهذَا الشَّكْلِ؛ لأَنَّهُ مِنَ المُستَحِيلِ أَنْ يَبْقَى نَصٌّ مِنْ نُصُوصِ أَيَّةِ لُغَةٍ أُخْرَى مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ، وَيَكُونَ مَفْهُومًا بَعْدَ مُرُورِ هـذِهِ الـمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ، كَمَا نَجِدُهُ فِي العَرَبِيَّةِ (لُغَةِ القُرآنِ الكَرِيْمِ).

الثَّانِي عَشَرَ: التَّقدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ:

إِنَّ العَرَبِيَّةَ بِفَضْلِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ لَهَا قُدْرَةُ التَّقدِيْمِ وَالتَّأْخِيرِ بِصُورَةٍ غَرِيْبَةٍ جَذَّابَةٍ مُذْهِلَةٍ، وَيَكُونُ الـمُتَكَلِّمُ بِهذِهِ اللُّغَةِ عَلَى مُكْنَةٍ وَقُدْرَةٍ وَفُسْحَةٍ مِنْ أَمْرِ التَّعبِيرِ وَالخِطَابِ، دُونَ تَشْوِيشِ الـمَعْنَى وَتَشرِيدِ ذِهْنِ الـمُخَاطَبِ، فَمَثَلًا إِذَا ضَرَبْنَا مِثَالًا عَلَى ذَلِكَ أَخَذْنَا الجُملَةَ الآتِيَةَ: (أَعْطَى سَعِيْدٌ خَالِدًا مَجَلَّةً). فَهذِهِ الجُمْلَةُ تَسْتَطِيعُ أَنْ

تُقَدِّمَ وَتُأَخِّرَ العَنَاصِرَ مِنْهَا كَيْفَ شِئْتَ لأَغْرَاضٍ مَرُومَةٍ تُرِيدُ إِيحَاءَهَا إِلَى الْـمُخَاطَبِ، بِدَلَالَاتٍ بَدِيعَةٍ، وَإِشَارَاتٍ رَائِعَةٍ، وَهِيَ:

* أَعْطَى سَعِيدٌ خَالِدًا مَجَلَّةً: الجُمْلَةُ كِمَا هِيَ دونَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَهذَا إِذا كَانَ الْمُخَاطَبَ خَالِيَ الذِّهْنِ، وَتُرِيدُ إِخبَارَهُ بِأمْرِ هـذَا فَقَطْ دُونَ التَّرْكِيزِ عَلَى جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الخَبَرِ وإِبْرَازِهِ، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الغَرَضُ مِنْهُ إِظْهَارَ الفِعْلِ الَّذِي قَامَ بِهِ الفَاعِلُ، وَبيَانَ نَوْعِهِ، وَهُوَ (العَطَاءُ) هُنَا.

* سَعِيدٌ أَعْطَى خَالِدًا مَجَلَّةً: وَهذَا إِذَا كَانَ عندَ الْمُخَاطَبِ عِلْمٌ بأَنَّ أَحَدًا أَعطَى (خَالِدًا) كِتَابًا، وَلكِنْ لا يَعْرِفُ مَنْ هُوَ، أَبَكْرٌ أَمْ: سَعِيدٌ؟ أَمْ: غَيرُهُمَا، فَالبلاغَةُ تَقْتَضِي هُنَا تَقْدِيمَ الشَّخْصِ الـمُعْطِي (سَعِيدٍ) فِي الإِنْشَاءِ؛ لأَنَّ الـمُخَاطَبَ بِانتِظَارِ استِمَاعِ هذَا الجُزْءِ أَوَّلًا.

* خَالِدًا أَعْطَى سَعِيدٌ مَجَلَّةً: وَفِي هذَا الشَّكْلِ، إِذَا كُنْتَ لَدَيْكَ عِلْمٌ بأَنَّ (سَعِيدًا) أَعْطَى وَاحِدًا، وَلكِنَّكَ لا تَعْرِفُ مَنْ هُوَ؟ فَعَلَيَّ إِذَا أَنْشَأتُ كَلَامًا أَنْ أُقَدِّمَ (خَالِدًا) لِيُطَابِقَ كَلامِي مُقْتَضَى حَاجَتِكَ!

* مَجَلَّةً أَعْطَى سَعِيدٌ خَالِدًا: وَهذَا إِذَا كُنْتَ عَلِمْتَ أَنَّ (سَعِيدًا) أَعْطَى (خَالِدًا)، وَلكِنَّكَ لا تَعْرِفُ مَا الشَّيءُ الَّذِي أَعْطَاهُ؟ فَعَلَيَّ أَنْ أُقَدِّمَ لَكَ اسمَ هـذَا الشَّيْءِ فِي الإِنْشَاءِ، وَهُوَ هُنَا: (مَجَلَّة).

وَهذَا مُقَرَّرٌ فِي البَلَاغَةِ العَرَبِيَّةِ وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنهُ العُلَمَاءُ، كَمَا أَشَارَ الخَطِيبُ القَزوِينِيُّ فِي ذِكْرِ السَّبَبِ لِتَقدِيمِ الـمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «تَقْدِيمُ الْـمُسْنَدِ إِلَيْهِ فَلِكَوْنِ ذِكْرِهِ أَهَمَّ»[١].

---

(١) تَلْخِيصُ الْمِفْتَاحِ (ص٢٨)، المطبُوعُ معَ المطوَّلِ للتفتازانيِّ، تَصْحِيحُ وتعلِيقُ: أحمد عزو عناية، دار الكوخ للطباعة والنشر، ط: الأولى، ١٣٨٧.

وَأَشَارَ إِمَامُ البَلَاغَةِ الجُرْجَانِيُّ فِي شَرْحِهِ كَلَامًا لِسِيْبَوَيْهِ، مَفَادُهُ تَقدِيمُ مَا هُوَ أَهَمُّ فِي الكَلامِ، فَقَالَ: «وَقَالَ النَّحْوِيُّونَ: إِنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَغْرَاضِ النَّاسِ فِي فِعْلِ مَا أَنْ يَقَعَ بِإِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ، وَلَا يُبَالُونَ مَنْ أَوْقَعَهُ كَمِثْلِ مَا يُعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ فِي حَالِ الْخَارِجِيِّ يَخْرُجُ فَيَعِيثُ وَيُفْسِدُ وَيَكْثُرُ بِهِ الْأَذَى، أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ وَلَا يُبَالُونَ مَنْ كَانَ الْقَتْلُ مِنْهُ، وَلَا يَعْنِيهِمْ مِنْهُ شَيْءٌ، فَإِذَا قُتِلَ وَأَرَادَ مُرِيدٌ الْإِخْبَارَ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ الْخَارِجِيِّ فَيَقُولُ: (قَتَلَ الْخَارِجِيَّ زَيْدٌ). وَلَا يَقُولُ: (قَتَلَ زَيْدٌ الْخَارِجِيَّ)؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ فِي أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ زَيْدٌ جَدْوَى وَفَائِدَةٌ. فَيَعْنِيهِمْ ذِكْرُهُ وَيُهِمُّهُمْ وَيَتَّصِلُ بِمَسَرَّتِهِمْ، وَيَعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّ الَّذِي هُمْ مُتَوَقِّعُونَ لَهُ وَمُتَطَلِّعُونَ إِلَيْهِ: مَتَى يَكُونُ وُقُوعُ الْقَتْلِ بِالْخَارِجِيِّ الْمُفْسِدِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ كُفُوا شَرَّهُ وَتَخَلَّصُوا مِنْهُ.

ثُمَّ قَالُوا: فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ بَأْسٌ وَلَا يُقَدَّرُ فِيهِ أَنَّهُ يَقْتُلُ فَقَتَلَ رَجُلًا وَأَرَادَ الْمُخْبِرُ أَنْ يُخْبِرَ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ ذِكْرَ الْقَاتِلِ فَيَقُولُ: (قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا)، ذَاكَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَعْنِيهِ وَيَعْنِي النَّاسَ مِنْ شَأْنِ هَذَا الْقَتْلِ طَرَافَتُهُ وَمَوْضِعُ النُّدْرَةِ فِيهِ وَبُعْدُهُ كَانَ مِنَ الظَّنِّ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَادِرًا وَبَعِيدًا مِنْ حَيْثُ كَانَ وَاقِعًا بِالَّذِي وَقَعَ بِهِ، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ كَانَ وَاقِعًا مِنَ الَّذِي وَقَعَ مِنْهُ. فَهَذَا جَيِّدٌ بَالِغٌ. إِلَّا أَنَّ الشَّأْنَ فِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ فِي كُلِّ شَيْءٍ قُدِّمَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْكَلَامِ مِثْلُ هَذَا الْمَعْنَى وَيُفَسَّرُ وَجْهُ الْعِنَايَةِ فِيهِ هَذَا التَّفْسِيرَ. لَا يَكْفِي أَنْ يُقَالَ قُدِّمَ لِلْعِنَايَةِ، وَقَدْ وَقَعَ فِي ظُنُونِ النَّاسِ أَنَّهُ يَكْفِي أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ قُدِّمَ لِلْعِنَايَةِ؛ وَلِأَنَّ ذِكْرَهُ أَهَمُّ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُذْكَرَ مِنْ أَيْنَ كَانَتْ تِلْكَ الْعِنَايَةُ؟ وَبِمَ كَانَ أَهَمَّ؟ وَلِتَخَيُّلِهِمْ ذَلِكَ قَدْ صَغُرَ أَمْرُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي نُفُوسِهِمْ وَهَوَّنُوا الْخَطْبَ فِيهِ. حَتَّى إِنَّكَ لَتَرَى أَكْثَرَهُمْ يَرَى تَتَبُّعَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ ضَرْبًا مِنَ التَّكَلُّفِ. وَلَمْ تَرَ

ظَنًّا أَزْرَى عَلَى صَاحِبِهِ مِنْ هَذَا وَشَبهِهِ»[١].

وَكَذَلِكَ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأخيرِ فَوَائِدُ أُخرَى رَاجِعَةٌ للمَعْنَى، كَالحَصْرِ مَثَلًا، كَمَا نَجِدُهُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة).

فَإنَّنَا نَرَى أَنَّ اللهَ تَعالَى قَدَّمَ الـمَفعُول علَى الفِعْلِ وَالفَاعِلِ وَلَمْ يَقُلْ: نَعْبُدُكَ وَنَسْتَعِيْنُكَ، بَلْ: قَالَ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)؛ لأَنَّ هذَا التَّقدِيمَ يُفِيْدُ الحَصْرَ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ قَوْلِهِ: (لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ وَلَا نَسْتَعِيْنُ إِلَّا بِكَ)!

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ أَنَّ هذا التَّقدِيمَ وَالتَّأخِيرَ أعْطَى الجُمَلَ العَرَبِيَّةَ جَمالًا وَرَوْنَقًا، وَكَسَاهَا أَجْمَلَ حُلَّةٍ، فعَلَى سَبِيلِ الـمِثَالِ نَأْخُذُ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿..إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ..۝٢٨﴾ (فاطر).

فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُقَدِّمَ الفَاعِلَ عَلَى الـمَفْعُولِ فِي هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ لَا نَستَطِيعُ أَنْ نُعَبِّرَ عنهَا بِنَظْمٍ آخَرَ يَكُونُ بجَمَالِ هذَا النَّظْمِ القُرآنيِّ بِحَالٍ مِنَ الأَحوَالِ.

وَمَعَ ذلِكَ فإنَّ فِي هذَا التَّقدِيمِ سِرًّا بَيَانِيًّا رَفِيعًا كَمَا بَيَّنَهُ السُّهيلِيُّ بِقَوْلِهِ: «أَلَا تَرَى أَنَّ معْنى قَوْلِهِ تَعالَى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ) لَيسَ كَقَوْلِكَ: (إِنَّمَا يَخْشَى العُلَمَاءُ اللهَ)؛ لأَنَّكَ إذَا أَخَّرْت، نَفَيْتَ الخَشْيَةَ مِنْ غَيرِ العُلَمَاءِ، وَإِذَا قَدَّمْتَ الفَاعِلَ، نَفَيْتَ الخَشْيَةَ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذَا وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ بِهِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ. وَاللهُ الـمُوَفِّقُ»[٢].

---

(١) دَلَائِلُ الإعجَازِ للجُرْجَانيِّ (ص١٠٧-١٠٨)، ت: شاكر.

(٢) نَتَائِجُ الفِكرِ للسُّهَيْلِيِّ (ص١٣٥).

وَقَدْ ذَكَرَ نَحْوَهُ ابنُ الأَثِيرِ فِي بَدِيْعِهِ، وَعَدَّهُ مِنْ بابِ تَقْدِيمِ مَا هُوَ بَيَانُهُ أَهَمُّ فِي الكَلَامِ[1].

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ نَقُولُ: هـذَا التَّقـدِيمُ وَالتَّـأخِيرُ يُسَـهِّلُ أَمْـرَ الشُّـعَرَاءِ وَالأُدَبَاءِ، فِي نِظَامِهِم وَنِثَارِهِم، مِنْ حَيْثُ تَرتِيبُ السَّجْعِ، وَتَنْظِيمُ القَوَافِي، وَمُرَاعَاةُ الوَزْنِ، وَهذَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيرُ الأَدِيبِ الفَصِيحِ، وَالشَّاعِرِ النَّصِيعِ.

فَهذِهِ التَّعَابِيْرُ غَيْرُ مَوجُودَةٍ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى قَطْعًا، وَبِهَا يَظْهَرُ تَمَيُّزُ العَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِهَا.

الثَّالِثَ عَشَرَ: الِاعتِدَالُ فِي كَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ:

إِنَّ كَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ أَعْدَلُ الكَلِمَاتِ عَلَى الإِطْلَاقِ مِنْ بَيْنِ اللُّغَاتِ، فَمَثَلًا تَرَى الأَبْنِيَةَ فِي العَرَبِيَّةِ تَبْدَأُ مِنَ الثُّلَاثِيِّ لِلفِعْلِ وَالرُّبَاعِيِّ لِلاِسْمِ، أَمَّا فِي اللُّغَاتِ الأُخرَى تَرَى أَنَّ الكَلِمَاتِ لَيْسَتْ كَذلِكَ، إِمَّا قَصِيرَةٌ جِدًّا وَإِمَّا مُطَوَّلَةٌ جِدًّا، ولكِنَّهَا فِي العَرَبِيَّةِ تَتَّسِمُ بِالعَدْلِ فِي بِنْيَةِ كُلِّ كَلِمَةٍ.

الرَّابِعَ عَشَرَ: قُوَّةُ التَّعبِيرَاتِ بِحُرُوفِ الجَرِّ:

إِنَّ مِنْ أَجْمَلِ مَا فِي العَرَبِيَّةِ هُوَ استِخْدَامُ الحُرُوفِ الجَارَّةِ، حَيثُ يَستَطِيعُ الْمُتَكَلِّمُ التَّعبِيرَ عَنْ أغراضٍ كَثِيرَةٍ بِوَاسِطَةِ الحُرُوفِ الجَارَّةِ بِاختِصَارٍ وَاقْتِصَارٍ، وَقَدْ تُؤَثِّرُ هـذِهِ الحُرُوفُ فِي الجُمَلِ وَالعِبَارَاتِ تَأْثِيرًا أَسَاسِيًّا، حَتَّى نَرَى المَعْنَى يَنْقَلِبُ رَأْسًا بِاختِلَافِ هذِهِ الحُرُوفِ، فَمَثَلًا إِذَا قُلْتَ: (فُلَانٌ يَرْغَبُ فِي العِلْمِ)، يَعنِي: أَنَّهُ يُحِبُّ العِلْمَ. وَإِذَا قُلْتَ: (يَرْغَبُ عَنِ العِلْمِ)، يَعْنِي: يَكْرَهُهُ وَلَا يُحِبُّهُ! وَكَذلِكَ لَوْ أَتَيتَ

---

(١) البَدِيعُ فِي عِلْمِ العَرَبِيَّةِ لِابنِ الأَثِيرِ (١/ ٩٧).

بِجُمْلَةٍ أُخْرَى وَجَمَعتَ بينَ بعضِ الحُرُوفِ الجَارَّةِ، رَأيتَ اختِلافَ الْمَعانِي وَاضِحًا جَلِيًّا، كَمَا تَرَاهُ مُجَسَّدًا فِي هذِهِ الأَمْثِلَةِ:

* خَلَوْتُ إِلَى جَماعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ ذَهَبْتَ إِلَيهِم لِتَخلُوَ مَعَهُم.
* خَلَوْتُ مَعَ جَماعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ خَلَوْتَ مَعَهُم وَلَيْسَ فِيهَا الدَّلالَةُ عَلَى أَنَّكَ ذَهَبْتَ إِلَيْهِم، أَوْ: أَنَّهُم جَاؤُوكَ.
* خَلَوْتُ عَنْ جَماعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ خَلَوْتَ بَعِيْدًا عَنْهُم.
* خَلَوْتُ لِجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ خَلَوْتَ لأَجْلِهِم.
* خَلَوْتُ مِنْ جَماعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ خَلَوْتَ خَوْفًا مِنْهُم وتَسَتُّرًا.
* خَلَوْتُ فِي جَماعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ خَلَوْتَ مِنْ بَيْنِهِم بالنَّظَرِ إِلَى الْمَكَانِ.
* خَلَوْتُ بِجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ: يَعْنِي أَنَّكَ صَيَّرْتَهُم يَخلُونَ؛ لأَنَّ البَاءَ لِلتَّعدِيَةِ.

الخَامِسَ عَشَرَ: دِقَّةُ التَّفرِيقِ فِي العَرَبِيَّةِ بينَ الكَلِمَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ:

إِنَّ مِنْ أَرَقِّ مَا فِي العَرَبِيَّةِ وَأَدَقِّهَا، وأَمْتَنِ مَا فِيْهَا وَأَرْصَنِهَا، هُوَ الدِّقَّةُ فِي التَّفرِيقِ بَيْنَ الكَلِمَاتِ الْمُتَقَارِبَةِ وَالأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ، بِمَا كَسَاهَا جَمَالًا وَجَلالًا، وَحُسْنًا وَإِقْبَالًا، فَنَجِدُ العُلَمَاءَ فَرَّقُوا بينَ مَعَانِي أَكثَرِ هذِهِ الأَلْفَاظِ، كَالفرقِ بينَ (الدّلَالَةِ وَالدَّلِيلِ وَالاِسْتِدْلَالِ وَبَينَ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَبَينَ الرُّؤْيَةِ)، وَبَيْنَ (العِلْمِ وَالمعرِفَةِ)، وَبَيْنَ (الشَّرْطِ وَالسَّبَبِ)، وَبَيْنَ (الفِطْنَةِ وَالذَّكَاءِ)، وَبَيْنَ (الْقُدْرَةِ وَالقَهْرِ) وَبَيْنَ (الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ)، وَبينَ (الصِّحَّةِ وَالعَافِيَةِ)، وَغيرِهَا مِنَ التَّفرِيقَاتِ الكَثِيرَةِ الدَّقِيقَةِ بالفُرُوقَاتِ الرَّقِيْقَةِ، تَجِدُهَا فِي كُتُبِ الفُرُوقِ، وَمِنْ هُنَا نَذكُرُ أَرْبَعَةَ أَمْثِلَةٍ مِنْ كِتَابِ (الفُرُوقِ) لِلإِمَامِ أَبِي هِلالٍ العَسْكَرِيِّ:

* **الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَيَاةِ والعَيشِ**: أَنَّ الْعَيْشَ اسْمٌ لِمَا هُوَ سَبَبُ الْحَيَاةِ، مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَمَا بِسَبِيلِ ذلِكَ، وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُم: (مَعِيشَةُ فُلَانٍ مِنْ كَذَا) يَعْنُونَ: (مَأْكَلَهُ وَمَشْرَبَهُ)، مِمَّا هُوَ سَبَبٌ لبَقَاءِ حَيَاةٍ، فَلَيْسَ الْعَيْشُ مِنَ الْحَيَاةِ فِي شَيْءٍ[١].

* **الْفَرْقُ بَيْنَ الرَّدِّ وَالدَّفْعِ**: أَنَّ الرَّدَّ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَى خَلْفٍ، وَالدَّفْعَ يكُونُ إِلَى قُدَّامٍ وَإِلَى خَلْفٍ جَمِيعًا[٢].

* **الْفَرْقُ بينَ الْقَصْدِ وَالإِرَادَةِ**: أَنَّ قَصْدَ القَاصِدِ مُخْتَصٌّ بِفِعْلِهِ دُونَ فِعْلِ غَيرِهِ، وَالإِرَادَةَ غَيرُ مُخْتَصَّةٍ بِأَحَدِ الْفِعْلَيْنِ دُونَ الآخَرِ، وَالْقَصْدُ أَيْضًا إِرَادَةُ الْفِعْلِ فِي حَالِ إِيجَادِهِ فَقَطْ، وَإِذَا تَقَدَّمَتْهُ بِأَوْقَاتٍ لَمْ يُسَمَّ قَصْدًا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ: (قَصَدْتُ أَنْ أَزُورَكَ غَدًا)[٣].

* **الْفَرْقُ بَيْنَ الْقَرْضِ وَالدَّيْنِ**: أَنَّ الْقَرْضَ أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْعَيْنِ وَالْوَرِقِ، وَهُوَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ الرَّجُلِ دِرْهَمًا لِتَرُدَّ عَلَيْهِ بَدَلَهُ دِرْهَمًا، فَيَبْقَى دَيْنًا عَلَيْكَ إِلَى أَنْ تَرُدَّهُ، فَكُلُّ قَرْضٍ دَيْنٌ لَيسَ كُلُّ دَينٍ قَرْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ أَثْمَانَ مَا يُشْتَرَى بِالنَّسَاءِ دُيُونٌ وَلَيْسَتْ بِقُرُوضٍ، فَالقَرْضُ يكُونُ مِنْ جِنْسِ مَا اقْتُرِضَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الدَّيْنُ. وَيجوزُ أَنْ يُفَرَّقَ بَينَهُمَا فَنَقُولَ: قَوْلُنَا: (يُدَايِنُهُ) يُفِيدُ أَنَّهُ يُعْطِيهِ ذَلِكَ لِيَأْخُذَ مِنْهُ بَدَلَهُ، وَلِهَذَا يُقَالُ: قَضَيْتُ قَرْضَهُ، وَأَدَّيْتُ دَيْنَهُ وَوَاجِبَهُ، وَمِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَيْضًا يُقَالُ: (أَدَّيْتُ صَلَاةَ الْوَقْتِ) وَ(قَضَيْتُ مَا نَسِيتُ مِنَ الصَّلَاةِ)، بِمَنْزِلَةِ الْقَرْضِ[٤].

---

(١) الفُرُوقُ لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص١٠٢).

(٢) الفُرُوقُ لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص١١٤).

(٣) الفُرُوقُ لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص١٢٦).

(٤) الفُرُوقُ لأبي هلالٍ العسكريِّ (ص١٧١).

السَّادِسَ عَشَرَ: الشُّمُولُ وَالِاستِيعَابُ فِي العَرَبِيَّةِ:

وَمِنْ أجمَلِ مَا في العَربيَّةِ وَأزيَنِهَا، أنَّهَا لَم تَتْرُكْ شَيئًا دونَ إعْطَائِهِ اسمًا بِخِلافِ سَائِرِ اللُّغَاتِ، فَمِنْ ذلِكَ عَلَى سبيلِ المِثالِ أنَّكَ تَرَى أسماءَ أكثرِ الأَعْضاءِ فِي الإنسانِ تَخْتَلِفُ عَنْ أسمَائِهَا فِي البَهَائِمِ، وَكذَا بِالنِّسبَةِ إلَى الصِّفَاتِ وَمَا يَخرجُ مِنْهمَا مِنْ فِعْلٍ وَغيرِهِ، وَليسَ هذَا فَحَسْبُ، بَلْ: فَرَّقَتْ بينَ أجنَاسِ الحَيَوانَاتِ كَالبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ، وَالمُفتَرِسِ وَغيرِ المفتَرِسِ، فَعلَى سبيلِ المِثَالِ أنقُلُ يَسيرًا مِنْ كَلَامِهِم:

قَالَ الإمامُ أبُو حَاتِمٍ السَّجستَانِيُّ: «الشَفَةُ فَهِيَ مِنَ الإنسانِ الشَّفَةُ، بِالتَّاءِ مَفْتُوحَةً، والجَمِيعُ: الشِّفَاهُ، وهُما الشَّفَتَانِ. وهُمَا مِنَ البَعيرِ المِشْفرَانِ، والواحِدُ: مِشْفَرٌ، والجميعُ: المَشَافِرُ. وَهُمَا مِنْ ذَواتِ الحَافِرِ الجَحْفَلَتانِ، وَالوَاحِدَةُ: جَحْفَلَةٌ، والجَميعُ: جحافِلُ. ويُقالُ لَهُ مِنْ ذَوَاتِ الأَظْلافِ: المَقَمَّةُ والمَرَمَّةُ، الأوليانِ بالفتحِ، والأُخريانِ بالكسرِ: المِقَمَّةُ والمِرَمَّةُ...ويُقالُ لَهُ مِنَ السِّباعِ: الخَطْمُ والخُرْطومُ. وَمِنَ الطَّائِرِ: المِنْقارُ والمِنْسَرُ جَمِيعًا. ويُقالُ: نَقَرَهُ نَقْراً، ونَسَرَهُ نَسْراً. ورُبَّما أُقِيمَ بعضُ هذِهِ الأَشياءِ مُقَامَ بَعْضٍ إذا اضطَرَّ الشَّاعِرُ إلَى ذلِكَ.»[1].

وَقَالَ الإمَامُ أبُو محمَّدٍ ثَابِتُ بنُ أبِي ثَابِتٍ: «(بَابُ نُعُوتِ النِّسَاءِ وَالبَهَائِمِ مَعَ أَوْلَادِهِنَّ) يُقَالُ للمَرْأَةِ إذَا كانَ مَعهَا وَلَدٌ: امرأةٌ مُصْبِ، ومُطْفِلٌ: إذا كانَ مَعهَا طِفْلٌ وصَبِيٌّ. ويُقالُ فِي غيرِ الآدَمِيِّينَ مِنْ ذَوَاتِ الحَافِرِ وغَيْرِهَا: فَرَسٌ مُفْلٍ ومُفْلِيَةٌ، أيْ: ذاتُ فَلُوّ. والأَتَانُ مِثْلُها. وفَرَسٌ مُمْهِرٌ: ذَاتُ مُهْرٍ. وناقَةٌ مُسْقِبٌ: ذَاتُ سَقْبٍ. فَإِذَا قَوِيَ وَلَدُهَا ومَشَى فَهِيَ مُرْشِحٌ. فَإِذَا مَشَى مَعَ أُمِّهِ فَهِيَ مُشْبِلٌ، ومُتْلِيَةٌ؛ لأَنَّهُ يَتْلُوهَا وَهِيَ فِي

---

(١) الفرْقُ لأبِي حاتمٍ السّجستَانِيِّ (ص٢٢٧-٢٢٨).

هَذَا كُلِّهِ مُطْفِلٌ. وَالـمُشْدِنُ: الَّذِي شَدَنَ وَلَدُهَا وَتحرَّكَ. وَقَالَ رؤبَةُ بنُ العَجَّاجِ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

يَـــا دَارَ عَفْـــراءَ ودارَ البَخْـــدَنِ[١]   فِيْـكِ المهَـا مِــنْ مُطْفِـلٍ ومُشْـدِنِ

ويُقـالُ: ناقـةٌ مُجْيءٍ ومُجْيئِـةٌ: الَّتِي لَا يكـادُ يمـوتُ لَهَـا ولـدٌ. وبقـرةٌ مُعْجِـلٌ: ذاتُ عِجْلٍ. ومُذْرِعٌ: ذَاتُ ذَرَعٍ، وَهُوَ ولدُهَا. وسَبُعَةٌ مُجْرٍ: إِذَا كَانَ لَهَا جِراءٌ. وظَبْيَةٌ مُغْزِلٌ: مَعهَا غزَالٌ. وَكَذَلِكَ مُخْرِفٌ: إِذَا وَلَدَتْهُ فِي الخَريـفِ. ومُرْبـعٌ: إِذا وَلَدَتْـهُ فِـي الرَّبيـعِ. وَكَذَلِكَ مُشْدِنٌ: إِذَا شَدَنَ وتحرَّكَ. وأَرْوَى مُغْفِرٌ. ويُقَالُ للشَّاةِ: مُفِذٌّ ومُفْـرِدٌ ومُوحِـدٌ. وَإِذا كَانَ لَهَا اثنانِ فَهِيَ مُتْئِمٌ. وكلبَةٌ مُجْرٍ: لَهَا جِراءٌ.»[٢].

وَقَدْ كتَبَ كَثِيرٌ مِنَ العُلَمَاءِ فِي ذلِكَ كَثابِتِ بنِ أَبِي ثَابِتٍ، وَالأَصْمَعِيِّ، وَابنِ فَارِسٍ وَغيرِهِمْ.

السَابِعَ عَشَرَ: الأَصْوَاتُ فِي العَرَبِيَّةِ لَم تَتَغَيَّرْ وَلَم تَتبَدَّلْ:

إِنَّ ظَاهِرَةَ تَغَيُّرِ الصَّوْتِ فِي اللُّغَاتِ، ظَاهِرَةٌ اعْتَرَتِ اللُّغَاتِ جَمِيْعَهَا، وَلَـمْ تَبْقَ لُغَةٌ-حَسبَ اطِّلَاعِي-إِلَّا وَأَتى عَلَيْهَا تَغيِيرٌ كَبِيرٌ فِي أَصْوَاتِهَا، بحيثُ انمَحَّتْ بَعضُ الأَصْوَاتِ، وَطَرَأَتْ عَليْهَا أُخْرَى، كَمَا حَدَثَتْ فِي الإِنجليزِيَّةِ، مَثَلًا كَانَ فِيْهَا صَوْتُ الرَّاءِ فِي مِثْلِ: (Teacher)، وَ(picture)، وَلكِنَّهُ سُلِخَ.

كَمَا أَنَّ صَوْتَ الخَاءِ فِي مِثْلِ: (night)، فَإِنَّ هذِهِ الكَلِمَةَ كَانَـتْ تُقْرَأُ (نِيخْـت)، وَلكِنَّهَا اليَوْمَ تُقْرَأُ: (نَايت).

---

(١) اسمُ امرَأَةٍ.

(٢) الفَرْقُ لِابنِ أَبِي ثابتٍ (ص٦١-٦٢).

وَلكنَّ العَرَبِيَّةَ لَمْ يُمْحَ صَوْتٌ مِنْ أصواتِهَا عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ، فالأَصْوَاتُ الَّتِي صُوِّتَتْ فِي العَصْرِ الجَاهِلِيِّ، هِي الأَصوَاتُ الَّتِي تَخْرُجُ اليومَ مِنْ مُتكَلِّمٍ بالعَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَغْيِيرٍ، بِخِلافِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى حَيثُ شَاهَدَتْ تَغيُّرًا تَامًّا فِي أَصواتِهَا.

الثَّامِنَ عَشَرَ: مِيْزَةٌ أُخْرَى للأَصْوَاتِ فِي العَرَبِيَّةِ:

الصَّوْتُ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لَهُ مِيزَةٌ أُخْرَى تَمْتَازُ عَنِ الإنجليزِيَّةِ وَغيرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، وَهِيَ أنَّ الصَّوْتَ فِي العَربِيَّةِ لَهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ، وَليسَ ثَمَّةَ صَوتٌ يُصَوَّتُ بِحَرْفَينِ، أَوْ: أَكثَرَ مُجْتَمِعَةً حَتَّى تُخْرِجَ صَوْتًا وَاحِدًا، كَصَوْتِ (ش) فِي الإِنجلِيزِيَّةِ مَثلًا. وَكذَا لَا يُوجَدُ صَوْتٌ يُصَوَّتُ بِحُرُوفٍ مُختَلِفَةٍ، كَمَا نَجِدُهَا فِي الإنجلِيزِيَّةِ وَغيرِهَا، وَذَكَرْنَا ذلِكَ سَابِقًا فِي أَصْوَاتِ الإِنجلِيزِيَّةِ.

التَّاسِعَ عَشَرَ: دَلَالَةُ الصَّوْتِ عَلَى المَعْنَى:

إِنَّ دَلَالَةَ الصَّوْتِ عَلَى المَعْنَى فِي العَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ دَلَائِلِ[1] عَبقَرِيَّتِهَا، حَيثُ نَجِدُ أنَّ الصَّوْتَ يُسْفِرُ عَنِ المَعْنَى بينَ المُتَخَالِفِينَ فِي مُعْظَمِ الأَحَايينِ، وَوُضِعَ الصَّوْتُ بِحَسَبِ المَعْنَى، وَالعُلَمَاءُ بَحَثُوا هذَا قَدِيمًا، وَلَعَلَّ الأَقْدَمَ مِنْهُم هُوَ الخَلِيلُ بنُ أحمدَ الفَرَاهِيدِيُّ حَيثُ قَالَ: «صَرَّ الجُنْدُبُ صَرِيْرًا» و«صَرْصَرَ الأَخْطَبُ صَرْصَرَةً»، فكَأَنَّهُم تَوَهَّمُوا في صَوْتِ الجندُبِ مَدًّا وَتَوَهَّمُوا فِي صَوْتِ الأَخطَبِ تَرْجِيعًا»[2].

---

(١) فِي جَمْعِ (دَلِيل)، عَلَى (دَلَائِل)، بحثٌ طَوِيلٌ؛ لأنَّ (فَعِيلًا)، لَا يُجْمَعُ عَلَى (فَعَائِل)، إِذِ (الفَعَائِلُ) للمؤنَّثِ، وَالعُلَمَاءُ مُختَلِفُونَ فِي هذَا الجَمعِ، وَمَنْ أَجَازَهُ أجازَهُ بتأوِيلٍ.

(٢) العَينُ للخَلِيلِ (١/ ٥٦)، وَنَقَلَ عنهُ ابنُ جِنِّيْ فِي (الخَصَائِصِ) (٢/ ١٥٤).

وَقَدْ فَصَّلَ فِي ذلِكَ الإِمَامُ ابنُ جِنِّيْ فِي سِفْرِهِ العَظِيمِ «الخَصَائِصِ»، حَيثُ وَضَعَ فِيهِ بابًا وَأَسماهُ: «بَابٌ فِي إِمْسَاسِ الأَلْفَاظِ أَشْبَاهَ المَعَانِي»[(١)]، وَقَالَ تَحْتَهُ: «اِعْلَمْ أَنَّ هذَا مَوْضِعٌ شَرِيفٌ لَطِيفٌ، وَقَدْ نَبَّهَ عَليهِ الخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ وَتَلَقَّتْهُ الجَمَاعَةُ بِالقَبُولِ لَهُ وَالِاعتِرَافِ بِصِحَّتِهِ»[(٢)].

وَقَالَ أيضًا: «قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي المَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى «الفَعَلَانِ»: إِنَّهَا تَأتِي لِلاضْطِرَابِ وَالحَرَكَةِ نَحْوُ: «النَّقَزَانِ، وَالغَلَيَانِ، وَالغَثَيَانِ». فَقَابَلُوا[(٣)] بِتَوَالِي حَرَكَاتِ المِثَالِ تَوَالِيَ حَرَكَاتِ الأَفْعَالِ»[(٤)].

وَقَالَ أيضًا: «وَجَدْتُ أَنَا مِنْ هذَا الحَدِيثِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً عَلَى سَمْتِ مَا حَدَّاهُ[(٥)]، وَمِنْهَاجِ مَا مَثَّلَاهُ، وَذلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ المَصَادِرَ الرُّبَاعِيَّةَ المُضَعَّفَةَ تَأتِي لِلتَّكْرِيرِ، نَحْو: (الزَّعْزَعَةِ، وَالقَلْقَلَةِ، وَالصَّلْصَلَةِ، وَالقَعْقَعَةِ، وَالصَّعْصَعَةِ، وَالجَرْجَرَةِ، وَالقَرْقَرَةِ). وَوَجَدْتُ أَيضًا (الفَعَلَى) فِي المَصَادِرِ وَالصِّفَاتِ إِنَّما تَأتِي لِلسُّرْعَةِ نَحْو: (البَشَكَى، وَالجَمَزَى، وَالوَلَقَى)..فَجَعَلُوا المِثَالَ المُكَرَّرَ لِلمَعْنَى المُكَرَّرِ -أَعْنِي: بَابَ القَلْقَلَةِ- وَالمِثَالَ الَّذِي تَوَالَتْ حَرَكَاتُهُ لِلأَفْعَالِ الَّتِي تَوَالَتِ الحَرَكَاتُ فِيْهَا..وَمِنْ ذلِكَ -وَهُوَ أَصْنَعُ مِنْهُ- أَنَّهُم جَعَلُوا (اسْتَفْعَلَ) فِي أَكْثَرِ الأَمْرِ لِلطَّلَبِ نَحْو: (اسْتَسْقَى،

---

(١) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّي (٢/ ١٥٤).

(٢) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّي (٢/ ١٥٤).

(٣) هذَا تَعْلِيقُ ابْنِ جِنِّي.

(٤) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّي (٢/ ١٥٤).

(٥) يَعْنِي الخَلِيلَ وَسِيْبَوَيْه.

وَاسْتَطْعَمَ، وَاسْتَوْهَبَ، وَاسْتَمْنَحَ، وَاسْتَقْدَمَ عَمْرًا، وَاسْتَصْرَخَ جَعْفَرًا). فَرُتِّبَتْ فِي هذَا البَابِ الحُرُوفُ عَلى تَرْتِيبِ الأَفْعَالِ.

وَتفسِيرُ ذلِكَ أنَّ الأَفعَالَ الـمُحَدَّث عَنْهَا أَنَّهَا وَقَعَتْ عَنْ غَيرِ طَلَبٍ، إِنَّما تَفجَأُ حُرُوفُهَا الأُصُولُ، أَوْ: مَا ضَارَعَ بِالصَّنْعَةِ الأُصُولَ.

فَالأُصُولُ نَحْوُ قَوْلِهِم: (طَعِمَ، وَوَهَبَ، وَدَخَلَ، وَخَرَجَ، وَصَعِدَ، وَنَزَلَ). فَهذَا إِخْبَارٌ بِأُصُولٍ فَاجَأَت عَنْ أَفْعَالٍ وَقَعَتْ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا دَلَالَةٌ تَدُلُّ عَلَى طَلَبٍ لَهَا وَلَا إِعْمَالٍ فِيْهَا. وَكذلِكَ مَا تَقَدَّمَتِ الزِّيَادَةُ فيهِ عَلَى سَمْتِ الأَصْلِ نَحْوُ: (أَحْسَنَ، وَأَكْرَمَ، وَأَعْطَى، وَأَوْلَى). فهذَا مِنْ طَرِيقِ الصَّنْعَةِ، بِوَزْنِ الأَصْلِ فِي نَحْوِ: (دَحْرَجَ، وَسَرْهَفَ، وَقَوْقَى، وَزَوْزَى). وَذلِكَ أَنَّهُم جَعَلُوا هذَا الكَلامَ عِبَارَاتٍ عَنْ هـذِهِ الـمَعَانِي، فَكُلَّمَا ازْدَادَتِ العِبَارَةُ شَبَهًا بِالـمَعْنَى، كَانَتْ أَدَلَّ عَلَيْهِ وَأَشْهَدَ بِالغَرَضِ فِيْهِ.

فَلَمَّا كَانَتْ إِذَا فَاجَأَت الأَفْعَالَ فَاجَأَتَ أُصُولَ الـمُثُلِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا، أَوْ: مَا جَرَى مَجْرَى أُصُولِهَا، نَحْوُ: (وَهَبَ، وَمَنَحَ)، وَ(أَكْرَمَ، وَأَحْسَنَ)، كَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرْتَ بِأَنَّكَ سَعَيْتَ فِيهَا وَتَسَبَّبْتَ لَهَا، وَجَبَ أَنْ تُقَدِّمَ أَمَامَ حُرُوفِهَا الأُصُولِ فِي مُثُلِهَا الدَّالَّةِ عَلَيْهَا أَحْرُفًا زَائِدَةً عَلَى تِلْكَ الأُصُولِ، تَكونُ كَالـمُقَدِّمَةِ لَهَا وَالـمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا.

وَذلِكَ نَحْوُ: (اسْتَفْعَلَ)، فَجَاءَتِ الهَمْزَةُ وَالسِّيْنُ وَالتَّاءُ زَوَائِدَ، ثُمَّ وَرَدَتْ بَعْدَهَا الأُصُولُ: (الفَاءُ وَالعَيْنُ وَاللَّامُ). فهذَا مِنَ اللَّفْظِ وَفْقَ الـمَعْنَى الـمَوجُودِ هُنَاكَ، وذَلِكَ أَنَّ الطَّلَبَ للفِعْلِ وَالْتِمَاسَهُ وَالسَّعْيَ فِيْهِ وَالتَّأَتِّيَ لِوُقُوعِهِ تَقَدَّمَهُ، ثُمَّ وَقَعَتِ الإِجَابَةُ إِلَيْهِ، فَتَبِعَ الفِعْلُ السُّؤَالَ فِيْهِ وَالتَّسَبُّبَ لِوقُوعِهِ[1]. فَكَمَا تَبِعَتْ أَفْعَالُ الإِجَابَةِ أَفْعَالَ

---

(١) مِثَالُ ذلِكَ: (اسْتَطْعَمَ) فالفِعْلُ هُوَ (طَعِمَ)، والسُّؤَالُ هوَ الأَلِفُ وَالسِّيْنُ وَالتَّاءُ، فَقُدِّمَ السُّؤالُ عَلَى الفِعْلِ.

الطَّلَبِ، كذلِكَ تَبِعَتْ حُرُوفُ الأَصْلِ الحُرُوفَ الزَّائِدَةَ الَّتِي وُضِعَتْ لِلالْتِمَاسِ وَالمَسْأَلَةِ.»[(١)].

وَالأَمْثِلَةُ عَلَى ذلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا ذَكَرَهَا الإِمَامُ ابنُ جِنِّيْ وَغيرُهُ مِنَ العُلَمَاءِ، وَلَا سيَّمَا فِي كُتُبِ الِاشتِقَاقِ، وَلكِنَّنَا اقتَصَرْنَا خَوفًا مِنَ التَّطْوِيلِ.

العِشْرُونَ: دَلَالَةُ الصَّوْتِ عَلَى المَعْنَى مِنْ جَانِبٍ آخَرَ:

وَهُوَ دَلَالَةُ الأَصْوَاتِ عَلَى المَعْنَى مِنْ حَيثُ الحُرُوفُ المَوضُوعَةُ لَهُ، استِعْلاءً وَاستِفَالَةً، وَشِدَّةً وَرِخْوًا، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ الصِّدْقَ مَعْنَاهُ رَفِيعٌ فَلِذلِكَ تَجِدُ حُروفَهَا كُلَّهَا مُستَعلِيَةً، وَأَنَّ الكَذِبَ صِفَةٌ دَنِيَّةٌ فَلِذلِكَ حُروفُهَا مُستَفِلَّةٌ، وَكَذَا تَجِدُ الأُنسَ وَالأُلْفَةَ وَالحُبَّ وَالرَّجَاءَ وَالخَوْفَ وَغَيْرَهَا -مِمَّا فِيهِ رِقَّةٌ وَشَفَقَةٌ- حُرُوفُهَا لَيِّنَةٌ سَهْلَةٌ، بِخِلافِ الشِّدَّةِ وَالغِلْظَةِ وَالعَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ وَالحِقْدِ، وَغيرِ ذلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الأَوَّلِ[(٢)].

قَالَ ابنُ جِنِّيْ: «فَأَمَّا مُقَابَلَةُ الأَلْفَاظِ بِمَا يُشَاكِلُ أَصْوَاتَهَا مِنَ الأَحْدَاثِ، فَبَابٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ، وَنَهْجٌ مُتَلَئِّبٌ عِنْدَ عَارِفِيهِ مَأمُومٌ. وذلِكَ أَنَّهُم كَثِيرًا مَا يَجْعَلُونَ أَصْوَاتَ الحُرُوفِ عَلَى سَمْتِ الأَحْدَاثِ المُعَبَّرِ بِهَا عَنْهَا، فَيَعْدِلُونَهَا بِهَا وَيَحْتَذُونَهَا عَلَيْهَا، وذلِكَ أَكْثَرُ مِمَّا نُقَدِّرُهُ، وَأَضْعَافُ مَا نَسْتَشْعِرُهُ»[(٣)].

---

(١) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّيْ (٢/ ١٥٥-١٥٦).

(٢) وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ كَلِمَاتٌ بِخِلافِ ذلِكَ، وَلكِنَّ الأَغْلَبَ الأَعَمَّ هُوَ المُنَاسَبَةُ بينَ الحَرْفِ وَالمَعْنَى.

(٣) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّيْ (٢/ ١٥٩).

وَقَدْ ذَكَرَ فِي ذلِكَ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً، فَمِنْهَا قَوْلُهُ: «مِنْ ذلِكَ قَوْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم: ٨٣]، أَيْ: تُزْعِجُهُم وَتُقْلِقُهُم، فهذَا فِي مَعْنَى (تَهُزُّهُمْ هَزًّا)، وَالهَمْزَةُ أُخْتُ الهَاءِ، فَتَقَارَبَ اللَّفْظَانِ لِتَقَارُبِ المَعْنَيَيْنِ. وَكَأَنَّهُم خَصّوا هذَا المَعْنَى بِالهَمْزَةِ؛ لأَنَّهَا أَقْوَى مِنَ الهَاءِ، وهذَا المَعْنَى أَعْظَمُ فِي النُّفُوسِ مِنَ الهَزِّ؛ لأَنَّكَ قَدْ تَهُزُّ مَا لَا بَالَ لَهُ كَالجِذْعِ وَسَاقِ الشَّجَرَةِ وَنَحْوِ ذلِكَ»[١].

وَقَالَ أيضًا: «مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: (خَضْمٌ) وَ(قَضْمٌ) فَالخَضْمُ: لِأَكْلِ الرَّطْبِ كَالبطِّيْخِ وَالقِثَاءِ وَمَا كَانَ نَحْوَهُمَا مِنَ المَأْكُولِ الرَّطْبِ، وَالقَضْمُ: للصَّلْبِ اليَابِسِ نَحْوُ: قَضِمَتِ الدَّابَّةُ شَعِيرَهَا، وَنَحْوُ ذلِكَ»[٢].

وَقَالَ: «وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: (الوَسِيلَةُ) وَ(الوَصِيلَةُ) وَالصَّادُ -كَمَا تَرَى- أَقْوَى صَوْتًا مِنَ السِّينِ لِمَا فِيهَا مِنَ الاِسْتِعْلَاءِ، وَالوَصِيلَةُ أَقْوَى مَعْنًى مِنَ الوَسِيْلَةِ. وَذلِكَ أَنَّ التَّوَسُّلَ لَيسَتْ لَهُ عِصْمَةُ الوَصْلِ وَالصِّلَةِ، بَلْ: الصِّلَةُ أَصْلُهَا مِنِ اتِّصَالِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ وَمُمَاسَّتِهِ لَهُ، وَكَوْنِهِ فِي أَكْثَرِ الأَحْوَالِ بَعْضًا لَهُ، كَاتِّصَالِ الأَعْضَاءِ بِالإِنْسَانِ وَهِيَ أَبْعَاضُهُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَالتَّوَسُّلُ مَعْنًى يَضْعُفُ وَيَصْغُرُ أَنْ يَكُونَ المُتَوَسِّلُ جُزْءًا، أَوْ: كَالجُزْءِ مِنَ المُتَوَسَّلِ إِلَيْهِ. وهذَا وَاضِحٌ. فَجَعَلُوا الصَّادَ لِقُوَّتِهَا للمَعْنَى الأَقْوَى، وَالسِّينَ لِضَعْفِهَا للمَعْنَى الأَضْعَفِ»[٣].

وَالأَمْثِلَةُ فِي ذلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَايُمْكِنُ حَصْرُهَا وَإِقْصَاؤُهَا بِحَالٍ.

---

(١) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّي (٢/ ١٤٨).

(٢) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّي (٢/ ١٥٩).

(٣) الخَصَائِصُ لابنِ جنِّي (٢/ ١٦٢).

الوَاحِدُ وَالعِشْرُونَ: كَثْرَةُ الأَدَوَاتِ فِي العَرَبِيَّةِ:

فَمَثَلًا يُوجَدُ للنَّفْيِ أَدَوَاتٌ كَثِيرَةٌ، كَـ: (لَا، لَم، مَا، لَمَّا، لَن، لَيْسَ)، فَكُلُّ أَدَاةٍ مِنْ هذِهِ الأَدَوَاتِ تُسْتَخْدَمُ لِمُرَادٍ خَاصٍّ، وَتَتَمَيَّزُ كُلُّ واحِدَةٍ عَنْ أُخْرَى، فَمَثَلًا: (لَم) وَ(لَمَّا)، تَتَّفِقَانِ فِي مَوَاضِعَ وَتَخْتَلِفَانِ فِي كَونِ النَّفْيِ بِـ(لَم) لَا يُنْتَظَرُ وُقُوعُهُ، أَمَّا النَّفْيُ بِـ(لَمَّا)، فَمُنْتَظَرٌ وُقُوعُهُ.

فَهذَا التَّفرِيقُ وَالدِّقَّةُ جَعَلَ للعَرَبِيَّةِ تَمَيُّزًا عَنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ فِي ضَبْطِ الكَلامِ وَحُسْنِ التَّعبِيرِ عَنهُ.

الثَّانِي وَالعِشْرُونَ: وُجُودُ أَلْفَاظٍ كَثِيرَةٍ لَهَا مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ حَسَبَ السِّيَاقِ:

وَهذَا يُسَاعِدُ المُتَكَلِّمَ عَلَى التَّلاعُبِ بالأَلْفَاظِ بِأسلُوبٍ بَدِيعٍ عَجِيبٍ، وَلَا سِيَّمَا فِي الشِّعْرِ وَمُرَاعَاةِ أَوزانِهِ، فَمِثَالُ ذلِكَ كَلِمَةُ (الضَّرْبِ) فَإِنَّهَا تَأتِي عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، فَمِنْهَا: الشَّكْلُ، وَمِنْهَا: الصِّنْفُ، وَمِنْهَا: السَّفَرُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَمِنْهَا: السَّتْرُ وَالإِخْفَاءُ، وَمِنْهَا: ضَرْبُ المَثَلِ، وَمِنْهَا: الرَّجُلُ الخَفِيفُ اللَّحْمِ، وَمِنْهَا: الخَفِيفُ مِنَ المَطَرِ، وَمِنْهَا: الكَفُّ، وَغيرُ ذلِكَ مِنَ المَعَانِي الكَثِيرَةِ، وَقَدْ جَاءَتْ بعضُ هذِهِ المَعَانِي فِي القُرآنِ الكَرِيمِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿...وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ... ﴿٦١﴾﴾ (البقرة).

وَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ (إبراهيم).

وَقَالَ: ﴿...وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (النساء).

وَقَالَ: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (النساء).

وَقَالَ: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ (محمد).

وَقَالَ: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحديد).

وَقَالَ: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ ﴾ (طه).

وَقَالَ: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ... ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص).

الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ: مَعَانِي الصِّيَغِ الصَّرفيَّةِ (مَعَانِي الحُرُوفِ الزَّوَائِدِ):

مِنْ أجمَلِ الأَشياءِ فِي اللُّغَةِ العَربيَّةِ، هُوَ مَعَانِي الصِّيغِ الصَّرْفِيَّةِ (أَوْ: مَعَانِي الحُرُوفِ الزَّوَائِدِ)، وَبِفَضْلِهَا يَسْتَطِيعُ الإِنْسَانُ أَنْ يُعبِّرَ بِقَلِيْلٍ مِنَ الأَلفَاظِ بَحرًا مِن المعَانِي، كمَا تَرَى أنَّ مِنْ مَعَانِي (أَفْعَلَ) الدُّخولَ فِي مَكَانٍ، فيُقَالُ: (أَشْأَمَ فُلانٌ، وَأَعْرَقَ) بَدَلَ قَولِهِم: دَخَلَ فُلانٌ فِي الشَّامِ وَالعِراقِ! وَمِنْ مَعَانِي (تَفعَّلَ) التَّكَلُّفَ فِي الشَّيءِ، مَثَلًا لَوْ قُلْتَ: تَصَنَّعَ فُلانٌ فِي قَوْلِهِ، أَيْ: تَكَلَّفَ فِي صَنعَةِ مَقَالَتِهِ! وإِلَى آخرِ الصِّيَغِ الَّتِي تَجعَلُ الكَلامَ مُختَصَرًا وَالـمَقَالَ نَامِقًا أَنِيقًا، بَدِيعًا رَشِيقًا، وَقَدْ سَلَفَ الكَلَامُ عَلَى هذَا وَأَتَيْنَا بِبَعْضِ الأَمْثِلَةِ عَلَيْهِ.

الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ: الـمِيزَانُ الصَّرْفِيُّ:

مِنْ أَعْظَمِ مَا فِي العَرَبِيَّةِ، وَأَقْوَى أَدَاتِ الـمُتَكَلِّمِ بِهَا، هُوَ (الـمِيزَانُ الصَّرْفِيُّ)، وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ مَفْخَرَةَ العَرَبِيَّةِ، وَأُعجُوبَةَ اللُّغَاتِ، وَحُقَّ للعَرَبِيَّةِ أَنْ تَفْخَرَ بِهِ بَيْنَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى؛ لأَنَّ الـمُتَكَلِّمَ بالعَرَبِيَّةِ لَوْ أَتَيْتَ إِلَيْهِ بِمُفرَدَةٍ جَدِيدَةٍ، أَوْ: كَلِمَةٍ لَـمْ يَسْمَعْ بِهَا مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِجَمِيْعِ اشْتِقَاقَاتِهَا وَتَصَرُّفَاتِهَا التَّصْرِيفِيَّةِ فِي الكَلَامِ، وَلَا تُوجَدُ هذِهِ الـمِيزَةُ العَزِيزَةُ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ، وَلَا تَهْتَدِي إِلَى اشْتِقَاقَاتِ كَلِمَةٍ إِلَّا بَعْدَ السَّمَاعِ، أَوِ: الرُّجُوعِ إِلَى الـمَعَاجِمِ؛ لَأَنَّهُ لَيسَ هُنَاكَ قِيَاسٌ ولَا قَانُونٌ يَجْمَعُهَا لَكَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقِفَ عَلَيْهَا جَمِيْعِهَا.

وَلكِنَّ العَرَبِيَّةَ لَيْستْ كذلِكَ، فَإِنَّكَ لَوْ سَمِعْتَ أَيَّةَ كَلِمَةٍ تَعرِفُ جَمِيْعَ اشْتِقَاقَاتِهَا، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْهَا مِنْ قَبْلُ، فَمَثَلًا كَلِمَةُ (ذَعْمَطَ) بِمَعْنَى (ذَبَحَ)، فَعَامَّةُ النَّاسِ لَـمْ يَسْمَعْ بِهَا، وَلكِنْ لَوْ أَعْطَيْتَ هذَا الفِعْلَ الجَدِيْدَ أَيَّ طَالِبٍ مِنْ طُلَّابِ اللُّغَةِ مِنَ الَّذِينَ دَرَسَ كِتَابًا وَاحِدًا فِي التَّصرِيفِ، وَقُلْتَ لَهُ: اعطِنِي الـمُشْتَقَّاتِ مِنْهُ لَأَعْطَاكَ إِيَّاهَا بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ؛ لأَنَّهُ يَعْرِفُ هُوَ عَلَى وَزْنِ (فَعْلَلَ)، وَمِثَالُهُ (دَحْرَجَ)، فَيَقِيسُ هذَا الفِعْلَ الجَدِيْدَ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ: (ذَعْمَطَ): للمَاضِي، وَ(يُذَعْمِطُ): للمُضَارِعِ، وَ(ذَعْمِطْ): للأَمْرِ، وَ(ذَعْمَطَة): للمَصدَرِ، وَ(مُذَعْمِط): لِاسْمِ الفَاعِلِ، وَ(مُذَعْمَط): لِاسْمِ الـمَفْعُولِ، وَهكذَا الحَالُ فِي بَاقِي الـمُشْتَقَّاتِ.

فَالمِيزَانُ الصَّرْفِيُّ مِنْ أَبْدَعِ مَا فِي العَرَبِيَّةِ وَأَضْبَطِهَا، وَهُوَ يُسَهِّلُ أمرَ طَالِبِي هذِهِ اللُّغَةِ بِشَكْلٍ عَجِيبٍ، وَمِثْلُ هذَا لَا يُوْجَدُ إِلَّا فِي هذِهِ اللُّغَةِ العَبْقَرِيَّةِ العَجِيْبَةِ، وَاللُّغَاتُ الأُخْرَى لَيْسَتْ كَذَلِكَ وَيُعَانِي طَالِبُوهَا مِنْ أَمْرِ مَعْرِفَةِ الـمُشْتَقَّاتِ.

وَللإِنْجليزِيَّةِ يُمْكِنُ النَّظَرُ فِي هذَا الجَدْوَلِ لِتَعرِفَ الفَارِقَ بينَهَا وَبيْنَ العَرَبِيَّةِ:

التَّصرِيفُ الثَّالِثُ	المَاضِي	المُضَارِعُ
gon	went	go
grown	grew	grow
givin	gave	give
hidden	hid	hide
hit	hit	hit
hurt	hurt	hurt
put	put	put
left	left	leav
locked	locked	lock

فَلِذلِكَ يَصعُبُ أمرُ طَالِبِي الإنجليزِيَّةِ وَيَعيَا؛ لأنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى البَحْثِ وَالتَّفتِيشِ لِكُلِّ مُفْرَدَةٍ، وَلَا يُمْكِنُهُ القِيَاسُ فِيهَا لِكَثْرَةِ الشَّواذِّ فِي الأَفْعَالِ وَتَصرِيفَاتِهَا.

الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ: العَرَبِيَّةُ لُغَةٌ صَالِحَةٌ لِلخِطَابَاتِ المُخْتَلِفَةِ:

يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ العُنْوَانُ غَرِيبًا وَيَدعُو إِلَى استِغْرَابِ بَعضِ النَّاسِ وَاستِنْكَارِ الآخَرِينَ، وَلَا أُبعِدُ إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ رَفَضَ هذِهِ النُّقْطَةَ رَأسًا قَبْلَ قِرَاءَةِ مَا يَحْتَوِيهَا مِنْ بَيَانٍ، وَيقُولُ: كَيفَ تَكُونُ هذِهِ مِيزَةً مَعَ أَنَّ اللُّغَاتِ جَمِيعًا لَهَا القُدْرَةُ وَالمُكْنَةُ عَلَى التَّعَابِيرِ المُخْتَلِفَةِ وَالخِطَابَاتِ المُتَنَوِّعَةِ؟

وَلكِنَّنِي أقُولُ: لَيْسَ المُرَادُ أنَّ اللُّغَاتِ الأُخْرَى لَا تَصلُحُ لِذلِكَ، بل: المُرَادُ أنَّ نَبْرَةَ الصَّوْتِ وَلَحْنَ الكَلِمَاتِ وَالجُمَلِ، وَالمَخَارِجَ الصَّوتِيَّةَ فِي العَرَبِيَّةِ، تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْهَا فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَإِذَا أَرَدْتَ مَعرِفَةَ ذلِكَ، فَانْظُرْ إِلَى شُعَرَاءِ جَمِيعِ الأُمَمِ، وَانظُرْ إِلَى خِطَابَاتِ السِّيَاسِيِّينَ مِنْهُم، وَانْظُرْ حَتَّى إِلَى مُعَلِّقِي كُرَةِ القَدَمِ

وَاسْتَمِعْ مِنْهُم، وَقَارِنْ بِنَفْسِكَ بينَ تِلْكَ الأَصْوَاتِ وَالنَّبَرَاتِ الصَّوْتِيَّةِ، فِي الأَغْرَاضِ الـمُخْتَلِفَةِ، فَانْظُرْ فِي الخِطَابِ الحَمَاسِيِّ، وَانْظُرْ فِي الرِّثَاءِ، وَانظُرْ فِي غَيْرِهَا وَقَارِنْ بيْنَهَا بِإِنْصَافٍ وَعَدْلٍ، ولَا أَشُكُّ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ فِي العَرَبِيَّةِ مَا تَأنَسُ بِهِ وَيَلْتَصِقُ بِقَلْبِكَ وَسَمْعِكَ أَكْثَرَ مِنَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَمِنْهُ تَقُولُ بِقَوْلِي.

السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ: الِاشْتِقَاقُ الكُبَّارُ (النَّحْتُ):

إِنَّ مِنْ بَدِيعِ مَا فِي العَرَبِيَّةِ وَجَمِيلِهَا وجُودَ النَّحْتِ، وَتَقرِيرَهُ إِيَّاهُ وَجعلَهُ سُلَّمًا لِلاختِصَارِ وَالإِيْجَازِ فِي الكَلامِ، وَيَكْتَفِي الـمُتَكَلِّمُ بِكَلِمَةٍ سَهْلَةٍ عَلَى اللِّسَانِ، صَاغَهَا مِنْ كَلِمَاتٍ كَثِيْرَةٍ دَفْعًا للتَّطوِيْلِ، وللنَّحْتِ أنوَاعٌ ثَلَاثَةٌ فِي كَلامِهِم، وَهِيَ:

الأَوَّلُ: نَحْتُ الفِعْلِ، كَقَوْلِهِمْ: (بَسْمَلَ الرَّجُلُ، وَهَيْلَلَ)، أيْ: قَالَ: (بِسْمِ اللهِ)، وَقَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

الثَّانِي: نَحْتُ الِاسْمِ، كَقَوْلِهِم: (الشَّقَحْطَبُ)، وَهُوَ مَأخُوذٌ مِنْ كَلِمَتَيْ: (الشِّقِّ)، وَ(الحَطَبِ).

الثَّالِثُ: نَحْتُ النَّسَبِ، كَقَوْلِهِمْ: (عَبْشَمِيٌّ)، نِسْبَةً إِلَى (عَبْدِ شَمْسٍ).

قَالَ الخليلُ بنُ أحمدَ: «إنَّ العَيْنَ لا تَأْتَلِفُ معَ الحَاءِ فِي كَلِمَةٍ واحِدَةٍ لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا إِلَّا أنْ يُشْتَقَّ فِعْلٌ مِنْ جَمْعٍ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ، مِثْل: (حَيَّ عَلَى) كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: [مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَلَا رُبَّ طَيفٍ بَاتَ منكَ مُعَانِقِي ... إِلَى أَنْ دَعَا دَاعِي الفَلاحِ فَحَيْعَلا

يُرِيدُ: قالَ: حَيَّ على الفَلاحِ.

أَوْ: كَمَا قالَ الآخَرُ:

[مِنَ الوَافِرِ]

فَبَـاتَ خَيَـالُ طَيْفِـكِ لِـي عَنِيْقًـا إِلَـى أَنْ حَيْعَـلَ الـدَّاعِي الفَلَاحَـا

أَوْ: كَمَا قَالَ الثَّالِثُ:

[مِنَ الوَافِرِ]

أَقُـولُ لَهَـا وَدَمْـعُ العَـيْنِ جَـارٍ أَلَـمْ يَحْزُنْـكِ حَيْعَلَـةُ الـمُنَادِي

فهذِهِ كَلِمَةٌ جُمِعَتْ مِنْ (حَيَّ)، وَمِنْ (عَلَى) وَتَقُولُ مِنْهُ: (حَيْعَلَ، يُحَيْعِلُ، حَيْعَلَةً)، وَ: قَدْ أَكْثَرْتَ مِنَ (الحَيْعَلَةِ)، أَيْ: مِنْ قَوْلِكَ: (حَيَّ عَلَى). وَهذَا يُشْبِهُ قَوْلَهُمْ: (تَعَبْشَمَ الرَّجُلُ، وَتَعَبْقَسَ)، وَ(رَجُلٌ عَبْشَمِيٌّ) إِذَا كَانَ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ، أَوْ مِنْ عَبْدِ قَيْسٍ، فَأَخَذُوا مِنْ كَلِمَتَيْنِ مُتَعَاقِبَتَيْنِ كَلِمَةً، وَاشْتَقُّوا فِعْلًا، قَالَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَتَضْـحَكُ مِنِّـي شَـيْخَةٌ عَبْشَـمِيَّةٌ كَـأَنْ لَـمْ تَـرَى قَبْلِـي أَسِـيرا يَمَانِيَـا

نَسَبَهَا إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ، فَأَخَذَ العَيْنَ وَالبَاءَ مِنْ (عَبْد) وَأَخَذَ الشِّيْنَ وَالـمِيْمَ مِنْ (شَمْس)، وَأَسْقَطَ الدَّالَ وَالسِّيْنَ، فَبَنَى مِنَ الكَلِمَتَيْنِ كَلِمَةً، فهذَا مِنَ النَّحْتِ»[(١)].

وَقَالَ أيضًا: «الهَاءُ وَالحَاءُ لَا تَأْتَلِفَانِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ أَصْلِيَّةِ الحُرُوْفِ، لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا فِي الحَلْقِ، وَلكِنَّهُمَا يَجْتَمِعَانِ مِنْ كَلِمَتَيْنِ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى

---

(١) العَيْنُ للخَلِيْلِ (١/ ٦١). وَنَقَلَهُ عنهُ ابنُ فَارِسٍ وَالثَّعَالِبِيُّ أيضًا، يُنْظَرُ: الصَّاحِبي لِابنِ فَارِسٍ (ص٢٠٩)، وَفِقْهُ اللُّغَةِ لأَبِي مَنصورٍ الثَّعالِبيِّ (ص٢٦٩).

حِدَةٍ، كَقَوْلِ لَبِيْدٍ:

[مِنَ الرَّمَلِ]

يَتَمَارَى فِي الَّذِي قُلْتُ لَهُ وَلَقَدْ يَسْمَعُ قَولي حَيَّهَلْ

وَقَالَ آخَرُ(١):

[مِنَ البَسِيْطِ]

هَيْهَاؤُهُ وحَيْهَلُهُ

حَيْ: كَلِمَةٌ عَلَى حِدَةٍ وَمَعْنَاهَا: هَلُمَّ، وَهَلَّا: حَثِيْثًا، فجَعَلَهُما كَلِمَةً وَاحِدَةً. وَفِي الحَدِيْثِ(٢): (إذا ذُكِرَ الصَّالِحُوْنَ فَحَيَّهَلَا بِعُمَرَ). أَيْ: فَأْتِ بِذِكْرِ عُمَرَ.

قَالَ اللَّيْثُ: قُلتُ للخَلِيْلِ: مَا مِثْلُ هذا فِي الكَلَامِ: أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ فَتَصِيْرَ مِنْهُمَا كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: قَوْلُ العَرَبِ: (عَبْدُ شَمْسٍ، وَعَبْدُ قَيْسٍ)، فيَقُولُونَ: (تَعَبْشَمَ

---

(١) وَتَمَامُ البَيْتِ:

وَهَيَّجَ الحَيَّ مِنْ دَارٍ فَظَلَّ لَهُمْ يَوْمٌ كَثِيْرٌ هَيْهَاؤُهُ وَحَيْهَلُهُ

(٢) وَهُوَ أَثَرٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ، وَعَلِيٍّ، وَعَائِشَةَ -رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَليهِمْ، وَلَيْسَ حَدِيثًا بالمَعْنَى الخَاصِّ، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ كَمَا فِي جَامِعِ مَعْمَرِ بْنِ رَاشِدٍ (١١/ ٢٣١)، بِرَقْمِ: (٢٠٤٠٦): عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ قَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ هُوَ»، قَالَ: تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «ذَاكَ الْأَوَّاهُ عِنْدَ كُلِّ خَيْرٍ يُبْغَى» ، قَالَ: تُوُفِّيَ عُمَرُ فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: «إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلًا بِعُمَرَ». وَرَوَاهُ أيضًا ابنُ أَبِي شيبَةَ فِي المُصَنَّفِ (٦/ ٣٥٤)، بِرَقْمِ: (٣١٩٧٥)، وَأحمدُ فِي فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ (١/ ٢٦٣)، بِرَقْمِ: (٣٤٠)، وَالخَلَّالُ فِي السُّنةِ (١/ ٢٩٣)، بِرَقْمِ: (٣٦٠).

وَرَوَاهُ عَنْ أُمنا عَائِشَةَ الطَّاهِرَةِ النَّقِيَّةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا- أَحمدُ فِي المسندِ (٤٢/ ٧٧)، بِرَقْمِ: (٢٥١٥٢).

وَعَنْ عَلِيٍّ رَوَاهُ الهَيْثَمِيُّ وَحَسَّنَهُ فِي المجمعِ (٩/ ٦٧)، بِرَقْمِ: (١٤٤٢٦).

الرَّجُلُ، وَتَعَبْقَسَ)، وَ(عَبْشَمِيٌّ، وَعَبْقَسِيٌّ)»[(١)].

وَقَالَ يَاقُوتٌ فِي ذِكْرِ أَبِي عَلِيٍّ الظَّهِيرِ العمَّانِيِّ: «لَقَدْ رَأَيْتُ الشَّيْخَ أَبَا الفَتْحِ عُثْمَانَ بْنَ عِيسَى النَّحْوِيَّ البَلَطِيَّ، وَهُوَ شَيْخُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ، يَسْأَلُهُ سُؤَالَ المُسْتَفِيدِ عَنْ حُرُوفٍ مِنْ حُوشِيِّ اللُّغَةِ. وَسَأَلَهُ يَوْمًا بِمَحْضَرِي عَمَّا وَقَعَ فِي أَلْفَاظِ العَرَبِ عَلَى مِثَالِ: (شَقَحْطَبٍ)، فَقَالَ: هذَا يُسَمَّى فِي كَلَامِ العَرَبِ: (المَنْحُوتَ)، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الكَلِمَةَ مَنْحُوتَةٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ كَمَا يَنْحِتُ النَّجَّارُ خَشَبَتَيْنِ وَيَجْعَلُهُمَا وَاحِدَةً، فَـ(شَقَحْطَبٌ) مَنْحُوتٌ مِنْ (شِقٍّ)[(٢)] وَ(حَطَبٍ)، فَسَأَلَهُ البَلَطِيُّ أَنْ يُثْبِتَ لَهُ مَا وَقَعَ مِنْ هذَا المِثَالِ إِلَيْهِ، لِيُعَوِّلَ فِي مَعْرِفَتِهَا عَلَيْهِ فَأَمْلَاهَا عَلَيْهِ فِي نَحْوِ عِشْرِينَ وَرَقَةً مِنْ حِفْظِهِ، وَسَمَّاهَا: «كِتَابَ تَنْبِيهِ البَارِعِينَ عَلَى المَنْحُوتِ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ»»[(٣)].

قَالَ ابنُ مُنْظُورٍ: «وَرُوِيَ عَنِ الْفَرَّاءِ أنه قَالَ: لَمْ نَسْمَعْ بِأَسماءٍ بُنِيَتْ مِنْ أفعالٍ إِلَّا هَذِهِ الأَحْرُف: (الْبَسْمَلَةُ) وَ(السَّبْحَلَةُ) وَ(الْهَيْلَلَةُ) وَ(الْحَوْقَلَةُ)، أرادَ أنه يُقَالُ: بَسْمَلَ، إذا قَالَ: (بِسْمِ اللهِ)، وَحَوْقَلَ، إذا قَالَ: (لَا حَوْلَ وَلَا قوَّةَ إلا بِاللهِ)، وَحَمْدَلَ، إذا قَالَ: (الْحَمْدُ لِله)، وجَعْفَلَ، جَعْفَلَةً، مِنْ (جُعِلْتُ فِدَاءَكَ)، والحَيْعَلَةُ، مِنْ (حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ)..وَقَالَ ابْنُ الأَنباري: فُلَانٌ (يُبَرْقِلُ) عَلَيْنَا، و(دَعْنَا مِنَ التَّبَرْقُلِ)، وَهُوَ أَن يَقُولَ وَلَا يَفْعَلَ، ويَعِدَ وَلَا يُنْجِزَ، أُخذ مِنَ (البَرْقِ) و(القَوْلِ)»[(٤)].

---

(١) العَيْنُ للخَلِيْلِ (٣/ ٥).

(٢) أَو: يُمْكِنُ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ فِعْلِ: (شَقَّ).

(٣) مُعْجَمُ الأُدَبَاءِ (٢/ ٨٥٨).

(٤) لِسَانُ العَرَبِ (٢/ ٤٠٣). وَهُوَ نَقْلٌ عَنِ الأَزْهَرِيِّ، يُنْظَرُ: تَهْذِيبُ اللُّغَةِ (٣/ ٢٤٠).

وَقَالَ الثَّعَالِبِيُّ: (الفَصْلُ السَّابعُ: يُقَارِبُهُ فِي حِكَايَةِ أَقْوَالٍ مُتَدَاوَلَةٍ عَلَى الأَلْسِنَةِ):».. (الطَّلْبَقَةُ) حِكَايَةُ قَوْلِ: أطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ. (الدَّمْعَزَةُ) حِكَايَةُ قَوْلِ: أَدَامَ اللهُ عِزَكَ. (الجَعْلَفَةُ) حِكَايَةُ قَوْلِ: جُعِلْتُ فِدَاءَكَ»[1].

أَوْ: كَقَوْلِهِم: (الرَّوْمَنَةُ) نَحْتٌ لجُمْلَةِ: (النَّقْلُ مِنَ الرُّومَانِيَّةِ)، أَوْ: كَقَوْلِهِم: (النَّقْحَرَةُ)، نَحْتٌ لِجُمْلَةِ: (النَّقْلُ الحَرْفِيُّ).

فَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ أَنْ يُنْكِرَ جَمَالَ هذَا النَّحْتِ فِي العَرَبِيَّةِ وَبَهَاءَهُ فِي الاخْتِصَارِ، وَقَدْ يُوجَدُ الاخْتِصَارُ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى أيضًا، ولكِنَّهُ غَيْرُ مُنْقَادٍ للقَوَاعِدِ، وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ، وَيَتِمُّ عَلَى شَكْلٍ عَشْوَائِيٍّ، وَلَيْسَ كَمَا فِي العَرَبِيَّةِ.

السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ: التَّعرِيبُ:

إِنَّ مِمَّا تَتَمَيَّزُ بِهِ العَرَبِيَّةُ مِنْ غَيْرِهَا، أَنَّهَا تَسْتَوْعِبُ كَلِمَاتِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى وَتَهْضِمُهَا، وَتُلْبِسُهَا ثَوْبَ العَرَبِيَّةِ، وَبِهذَا تَحفَظُ كِيَانَهَا مِنَ التَّغْيِيرِوَالغَزْوِ عَنِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَتَتَّسِمُ بالحَيَوِيَّةِ والسَّعَةِ الأَكْثَرِ باستِيْعَابِ تِلْكَ الكَلِمَاتِ غَيْرِ المَوْجُودَةِ فِيهَا، وَقَدْ تَكَلَّمَ أَهْلُ العِلْمِ فِي هذِهِ المَسْأَلَةِ بِإِلْمَام؛ وَنَظَرُوا فِيهَا بإِمْعَانٍ وَإِنْعَام، وَصَنَّفُوا فِيهَا مُصَنَّفَاتٍ عِظَامٍ، وَكَمَا قُلْنَا سَابِقًا، إِنَّ العَرَبِيَّةَ بِفَضْلِ ذلِكَ قَدِرَتْ عَلَى استِيْعَابِ كَلِمَاتٍ كَثِيْرَةٍ مِنَ الفَارِسِيَّةِ وَالحَبَشِيَّةِ وَالنَّبطِيَّةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، مَعَ المُحَافَظَةِ التَّامَّةِ عَلَى أُصُولِهَا العَرَبِيَّةِ، وَإِعْطَاءِ هذِهِ الكَلِمَاتِ صُورَةً عَرَبِيَّةً، وَهذِهِ بِحَقٍّ مِنْ أَعْظَمِ المُمَيزَاتِ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَمِنْ أَعْلَى بَرَاهِيْنِ القُوَّةِ وَالقُدْرَةِ فِي هذِهِ اللُّغَةِ.

---

(١) فِقْهُ اللُّغَةِ لأَبِي مَنصورٍ الثَّعالِبيِّ (ص١٤٩).

بَوَّبَ ابنُ جِنِّيْ فِي (خَصَائِصِهِ) بَابًا، فَأَسْمَاهُ: (بابٌ في أنَّ مَا قِيْسَ على كلام العَرب فهُوَ منْ كلامِ العربِ)، وَقَالَ تَحْتَهُ: «هذَا مَوْضِعٌ شَرِيفٌ. وأكثرُ النَّاسِ يَضْعُفُ عنِ احْتِمَالِهِ لِغُمُوْضِهِ وَلُطْفِهِ. وَالمَنْفَعَةُ بِهِ عَامَّةٌ، وَالتَّسَانُدُ إِلَيْهِ مُقَوٍّ مُجْدٍ. وَقدْ نَصَّ أَبُو عُثْمَانَ عَلَيْهِ فَقَالَ: (مَا قِيْسَ عَلَى كَلَامِ العَرَبِ فَهُوَ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ)[١]؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ أَنْتَ، وَلَا غَيْرُكَ اسْمَ كُلِّ فاعِلٍ وَلَا مَفْعُولٍ، وَإِنَّمَا سَمِعْتَ البَعْضَ فَقِستَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ؟!. فَإِذَا سَمِعْتَ (قَامَ زَيْدٌ) أَجَزْتَ (ظَرُفَ بِشْرٌ)، وَ(كَرُمَ خَالِدٌ).

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «إِذَا قُلْتَ: (طَابَ الخُشْكُنَان) فَهَذَا مِنْ كَلَامِ العَرَبِ؛ لِأَنَّكَ بِإِعْرَابِكَ إِيَّاهُ قَدْ أَدْخَلْتَهُ كَلَامَ العَرَبِ.

وَيُؤَكِّدُ هذا عِنْدَكَ أَنَّ مَا أُعْرِبَ مِنْ أَجْنَاسِ الأَعْجَمِيَّةِ، قَدْ أَجْرَتْهُ العَرَبُ مُجْرَى أُصُولِ كَلَامِهَا، أَلَا تَرَاهُمْ يُصَرِّفُونَ فِي العَلَمِ نَحْوَ: (آجُرَّ، وَإِبْرَيْسَيْم، وَفِرِنْدَ، وَفَيْرُوْزَجَ[٢])، وَجَمِيعَ مَا تَدْخُلُهُ لَامُ التَّعْرِيفِ. وَذلِكَ أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَتْهُ اللَّامُ فِي نَحْوِ: (الدِّيْبَاجِ، وَالفِرِنْدِ[٣]، وَالسِّهْرِيزِ[٤]، وَالآجُرِّ)، أَشْبَهَ أُصُولَ كَلَامِ العَرَبِ، أَعْنِي:

---

(١) يُنْظَرُ إِلَى كَلامِ المَازِنِيِّ: المُنْصِفُ شَرْحُ كِتَابِ التَّصْرِيفِ لِلمَازِنِيِّ، ص:(١٨٠). ذَكَرَهُ أَيضًا ابنُ السَّرَّاجِ كَمَا فِي كِتَابِهِ (الأُصُول فِي عِلْمِ النَّحْوِ) (٣/ ٣٥١).

(٢) قَالَ ابنُ سِيْدَهْ فِي المُحْكَمِ (٢/ ٣٤٥): «الفَيْرُوزَجُ: ضَرْبٌ مِنَ الأَصْبَاغِ».

(٣) قَالَ ابنُ مَنْظُورٍ: «الفِرِندُ: وَشْيُ السَّيْفِ، وَهُوَ دَخِيلٌ. وَفِرِنْدُ السَّيْفِ: وَشْيُه. قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: فِرِنْدُ السَّيْفِ جَوْهَرُهُ وماؤه الَّذِي يَجْرِي فِيهِ، وَطَرَائِقُهُ يُقَالُ لَهَا الفِرِنْد وَهِيَ سَفاسِقُه. الْجَوْهَرِيُّ: فِرِنْدُ السَّيْفِ وإِفْرِنْدُه رُبَدُهُ وَوَشْيُه. والفِرِنْد: السَّيْفُ نفسُه»، لِسَانُ العَرَبِ (٣/ ٣٣٤).
سَفَاسِقُ: جَمْعُ سَفْسَقَةٍ (بِكَسْرِ السِّيْنِ وَفَتْحِهَا)، وَهُوَ لِلسَّيْفِ: ما يُرَى في نصلهِ من بريقٍ متموّج، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى طَرِيْقِهِ أيضًا.

(٤) قَالَ ابنُ سِيْدَهْ فِي المُحْكَمِ (٤/ ٤٧٢): «الشِّهْرِيزُ والشُّهْرِيزُ: ضَرْبٌ مِنَ التَّمْرِ، وَأَنْكَرَ بَعضُهُم

النَّكِرَاتِ. فَجَرَى فِي الصَّرْفِ وَمَنْعِهِ مَجْرَاهَا»[١].

الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ: وَضْعُ المَرَاتِبِ لِأَكْثَرِ الأَشياءِ فِي العَرَبِيَّةِ:

وَمِنَ الأُمُورِ الشَّرِيْفَةِ وَاللَّطَائِفِ المُنِيْفَةِ، أَنَّكَ تَجِدُ فِي العَرَبِيَّةِ مَرَاتِبَ أَكْثَرِ الأَشْيَاءِ، مِنَ القِلَّةِ إِلَى الكَثْرَةِ، كأَوَّلِ الظَّمإِ إِلَى آخرِهِ، وَأَوَّلِ الغَضَبِ إِلَى آخِرِهِ، وَأَوَّلِ الخَوْفِ إِلَى آخِرِهِ، فَعَلَى سبيلِ المِثَالِ، قَالَ الثَّعالِبيُّ: «الفَصْلُ الثَّانِي وَالثَّلاثُوْنَ: [في تَفْصِيل الفَقْرِ وتَرْتِيبِ أحْوَالِ الفَقِيرِ] إِذَا ذَهَبَ مَالُ الرَّجُلِ قِيلَ: أَنْزَفَ وأَنْفَضَ. عَنِ الكِسَائِيِّ. فإِذَا سَاءَ أَثَرُ الجَدْبِ والشِّدَّةِ عَلَيهِ وأَكَلَتِ السَّنَةُ[٢] مالَهُ، قِيلَ: عُصِّبَ فلانٌ. عنْ أبي عُبيدَةَ. فإذَا قَلَعَ حِلْيَةَ سَيْفِهِ لِلْحَاجَةِ والخَلَّةِ، قِيلَ: أَنْقَحَ فُلانٌ. عَنْ ثَعْلَبٍ عَنِ ابْنِ الأَعْرَابِيِّ. فإذا أَكَلَ خُبْزَ الذُّرَةِ ودَاوَمَ عَلَيهِ لعَدَمِ غَيْرِهِ، قِيلَ: طَهْفَلَ. عَنِ ابْنِ الأَعرابِيِّ أيضًا. فإذا لَمْ يَبْقَ لَه طَعامٌ، قِيلَ: أَقْوَى. فإذَا ضَرَبَهُ الدَّهْرُ بالفَقْرِ والفَاقَةِ[٣] قِيلَ: أصْرَمَ وألفَجَ. فإذَا لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيءٌ، قِيلَ: أَعْدَمَ وأمْلَقَ. فإذا ذَلَّ في فَقْرِه حَتَّى لَصِقَ بالدَّقْعَاءِ-وَهِيَ التُّرَابُ-قِيلَ: أدْقَعَ. فإذَا تَنَاهَى سُوءُ حَالِهِ في الفَقْرِ، قِيلَ:

ضَمَّ الشِّيْنِ، وَالأَكْثَرُ الشِّهْرِيزُ». وَقَالَ ابنُ مَنْظُورٍ: الشِّهْرِيز والشُّهْرِيز: ضَرْبٌ مِنَ التَّمْرِ مُعَرَّبٌ، = =وأَنكر بَعْضُهُمْ ضَمَّ الشِّينِ، والأَكثر الشِّهْرِيزُ. وَيُقَالُ: فِيهِ (سِهْرِيز وشِهْرِيز)، بِالسِّينِ وَالشِّينِ جَمِيعًا، وإِنْ شِئْتَ أَضفتَ مِثْلَ: (ثَوْبُ خزٍّ) وَ(ثَوبُ خَزٌّ)»، لِسَانُ العَرَبِ (٥/ ٣٦٢).

(١) الخَصَائِصُ (١/ ٣٥٨).

(٢) أَيْ: المَجَاعَةُ.

(٣) هُوَ الفَقْرُ وَالحَاجَةُ.

أَفْقَعَ. عَنِ اللَّيْث عَنِ الخَلِيلِ»[١].

وَقالَ أيضًا: «الفَصْلُ الخَامِسُ وَالثَّلاثُونَ [فِي الشَّجَاعَةِ وَتَفْصِيلِ أَحْوَالِ الشُّجَاعِ].
إذا كانَ شَدِيدَ القَلْبِ رَابِطَ الجَأْشِ فَهُوَ زِيرٌ وَمَزْبر. فإذا كانَ لَزُومًا لِلقِرْنِ[٢] لا يُفَارِقُهُ فهو حَلْبَسٌ، عَنِ الكِسَائِي. فإذا كانَ شَدِيدَ القِتَالِ لَزُومًا لِمَنْ طَالَبهُ فهو غَلِثٌ، عَنِ الأَصْمَعِي. فإذا كانَ جَرِيئًا عَلَى اللَّيْلِ فَهَوَ مِخَشٌّ ومِخْشَفٌ، عَنْ أبي عَمْرٍو. فإذا كانَ مِقْدَامًا عَلَى الحَرْبِ عَالِمًا بأحْوَالِها فَهُوَ مِحْرَبٌ. فإذا كانَ مُنْكَرًا[٣] شَدِيْدًا فَهُوَ ذِمرٌ، عَنِ الفَرَّاءِ. فإذا كانَ بِهِ عُبُوسُ الشَّجَاعَةِ والغَضَبِ فَهُوَ بَاسِلٌ. فإذا كانَ لا يُدْرَى مِنْ أَيْنَ يُؤْتَى لِشِدَّةِ بَأسِهِ فَهُوَ بُهْمَةٌ، عَنِ اللَّيْثِ. فإذا كانَ يُبْطِلُ الأَشِدَّاءَ والدِّمَاءَ فَلاَ يُدْرَكُ عِندَهُ ثَأْر فهو بَطَلٌ. فإذا كانَ يركبُ رأسَهُ لا يَثنِيهِ شَيْءٌ عَمَّا يرِيدُ فَهَوَ غَشَمْشَمٌ، عَنِ الأَصْمَعِيِّ. فإذا كانَ لاَ يَنْحَاشُ[٤] لِشَيءٍ فَهَوَ أَيْهَمُ، عَنِ اللَّيْثَ»[٥].

التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ: قُوَّةُ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ:

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ العَرَبِيَّةُ عَنْ سَائِرِ لُغَاتِ العَالَمِ هِيَ عَبْقَرِيَّةُ قَوَاعِدِهَا وَعَقْلَنَتُها، وَشُمُولُهَا لِكُلِّ أَجْزَائِهَا بِحَيثُ لَا تَبْقَى شَارِدَةٌ وَلَا وَارِدَةٌ إِلَّا وَبَحَثَهَا العُلَمَاءُ وَتَكَلَّمُوا عَنْهَا بِكَلامٍ رَزِيْنٍ رَصِيْنٍ، وَقنَّنُوا لَهَا بِتَقْنِينٍ حَصِيْنٍ، وَأَنَّكَ تَجِدُ لِكُلِّ عِلْمٍ مِنْ

---

(١) فِقْهُ اللُّغَةِ لأَبِي مَنصورٍ الثَّعالِبيِّ (ص٥٩).
(٢) القِرْنُ بالكَسْرِ الكُفْءُ وَالمِثْلُ: للإنسانِ يكونُ فِي الشَّجَاعَةِ والقِتَالِ وَالعِلْمِ.
(٣) رَجُلٌ مُنْكَرٌ: أيْ: دَاهٍ فَطِنٌ.
(٤) لا يَخَافُ وَلا يَنْقَادُ.
(٥) فِقْهُ اللُّغَةِ لأَبِي مَنصورٍ الثَّعالِبيِّ (ص٦٠).

عُلُومِهَا قَوَاعِدَ رَصِينَةً عَلِيَّةً بَلَغَتْ أَبْعَدَ مَدَى القُوَّةِ وَالقُدْرَةِ، وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا شَيءٌ مِنْ ذلِكَ عِنْدَ الكَلامِ عَلَى بَعْضِ جَوَانِبِ العَقْلَنَةِ فِي قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يُيَسِّرُ لَنَا تَخْصِيْصَ هذَا الجَانِبِ وَإِبْرَازَهُ وَإِظْهَارَهُ بِمُؤَلَّفٍ مُسْتَقِلٍّ، وَنَتَكَلَّمُ عَنْ جَانِبِ القُوَّةِ وَالعَقْلَنَةِ فِي قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، (نَحْوِهَا وَصَرْفِهَا وَبَلَاغَتِهَا..)، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الـمُوَفِّقُ.

الثَّلاثُونَ: تَقَارُبُ الـمُشْتَقَّاتِ فِي العَرَبِيَّةِ

إِنَّ مِمَّا تَتَمَيَّزُ بِهِ العَرَبِيَّةُ مِنَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى أَنَّ اشْتِقَاقَ الكَلِمَاتِ يَخْرُجُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَهُوَ مُتَقَارِبٌ جِدًّا، فَمَثَلًا عِنْدَكَ: (أَرْسَلَ، يُرْسِلُ، أَرْسِلْ، الإِرْسَالُ، الـمُرَاسَلَةُ، الرِّسَالَةُ، الـمُرْسِلُ، الـمُرْسَلُ، الرَّسُولُ، الـمُرْسَلُ إِلَيْهِ). وَ(طَارَ، يَطِيرُ، الطَّيَرَانُ، الطَّائِرُ، الطَّيْرُ، الـمَطَارُ، الطَّائِرَةُ، الطَّيَّارُ). وَ(دَرَسَ-أَوْ: دَرَّسَ-، يَدْرُسُ، أُدْرُسْ، الدَّرْسُ، الـمُدَارَسَةُ، الدِّرَاسَةُ، الـمَدْرَسَةُ، الـمُدَرِّسُ، الـمَدْرُوسُ، الدَّارِسُ). وَإِلَى آخِرِ الاِشْتِقَاقَاتِ فِي بَاقِي الكَلِمَاتِ.

وَلكِنْ لَوْ نَظَرْتَ إِلَى الاِشْتِقَاقَاتِ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى لَرَأَيْتَ الكَلِمَاتِ الـمُتَقَارِبَةَ قَلِيلَةً جِدًّا، وَالطَّابِعُ الغَالِبُ عَلَيْهَا هُوَ البُعْدُ وَعَدَمُ التَّوَافُقِ بينَهَا، وَمُفْرَدَةٌ بِمَشْرِقٍ وَأُخْرَى بِمَغْرِبٍ.

وَلَا يَخْفَى كَمْ يُسَهِّلُ هذَا القُرْبُ أَمرَ التَّعَلُّمِ لِلطُّلَّابِ، فَلَا تَجِدُهُ فِي لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ كَمَا هِيَ فِي العَرَبِيَّةِ.

الوَاحِدُ وَالثَّلاثُونَ: العَرَبِيَّةُ مُوغِلَةٌ فِي القِدَمِ:

إِنَّ العَرَبِيَّةَ أَقْدَمُ اللُّغَاتِ الَّتِي بَقِيَتْ فِي عَصْرِنَا دُونَ أَيِّ تَغيِيرٍ وَتَبدِيلٍ أَو: حِوَلٍ، وَبَقِيَتْ ثَابِتَةَ الأَرْكَانِ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَـم تَتَغَيَّرْ أَدْنَى تَغيِيرٍ فِي حِيْنٍ أَنَّ اللُّغَاتِ

الأُخْرَى مَاتَتْ وَانْقَرَضَتْ وَلَمْ تَبْقَ كَسَابِقِ عَهْدِهَا، فَاللُّغَاتُ الَّتِي بَدَأَ تَارِيْخُهَا مَعَ تَارِيْخِ العَرَبِيَّةِ، أَوْ: بَدَأَ قَبْلَهَا، انقَرَضَتْ جَمِيعُهَا وَانْدَثَرَتْ وَعَفَتْ رُسُومُهَا، أَوْ: تَغَيَّرَتْ تَغَيُّرًا تَامًّا، بحيثُ إِذَا بُعِثَ وَاحِدٌ مِنْ أَهلِهَا لَمْ يَفْهَمِ اللِّسَانَ الَّذِي كَانَ يَتكَلَّمُ بِهِ، أَمَّا العَرَبِيَّةُ فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَبَقِيَتْ كَمَا كَانَتْ، وَسَتَظَلُّ بَاقِيَةً بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ.

فَهذِهِ المِيزَةُ مِيْزَةٌ عَظِيْمَةٌ لَا تُوجَدُ إِلَّا فِي العَرَبِيَّةِ (لُغَةِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ).

الثَّانِي وَالثَّلاثُونَ: التَّفرِيقُ الدَّقِيقُ بينَ المُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ:

مِنْ سُهُولَةِ بعضِ اللُّغَاتِ أَنَّهَا لَا تُفَرِّقُ بينَ المُذَكَّرِ وَالمُؤنَّثِ فِي الأَسْمَاءِ وَالأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَتُخَاطِبُ الجِنْسَيْنِ بِخِطَابٍ وَاحِدٍ، وَهذَا حَقِيقَةً فِيْهِ سُهولَةٌ وَيُسْرٌ عَلَى المُتَعَلِّمِ؛ لأَنَّ كَسْبَ عِلْمِ التَّفرِيقِ بينَ الجِنْسَيْنِ يَتَطَلَّبُ وَقْتًا طَوِيلًا وَصُعوبَةً زَائِدَةً، وَلَكِنَّ عَدَمَ وجُودِ هذَا التَّفرِيقِ مُشْكِلَةٌ كَبِيرَةٌ فِي هذِهِ اللُّغَاتِ؛ لأَنَّكَ تُوَاجِهُ مُشكِلَةَ الفَهْمِ الصَّحِيحِ وَالتَّعبِيرِ الدَّقِيقِ عندَ مَا تُرِيدُ أَنْ تُخاطِبَ جِنْسًا بِعَيْنِهِ دونَ الآخَرِ، وَإِلَّا لَكُنْتَ مُسْهِبًا مُطْنِبًا لأَجْلِ ذِكْرِ دَلِيْلِ التَّمييزِ وَالفَارِقِ، حَتَّى لَا يَتَدَاخَلَا فِي الخِطَابِ، وَهذَا إِخلالٌ بِالبَلاغَةِ وَالإِيجَازِ؛ لأَنَّهُ لَو كَانَ التَّفرِيقُ مَوجُودًا مَا كُنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى هذَا التَّطوِيلِ، فَإِذَنْ مِنَ المُهِمِّ أَنْ يُفَرَّقَ بينَ الجِنْسَيْنِ حَتَّى يَكُونَ الخِطَابُ وَاضِحًا دونَ أَيِّ إِلْبَاسٍ، فَالعَرَبِيَّةُ اعْتَنَتْ بِالتَّفرِيقِ جَيِّدًا وَوَضَعَتْ لِكُلِّ جِنْسٍ خِطَابًا وَوَضْعًا خَاصًّا، وَالعُلَمَاءُ تَتَبَّعُوا ذلِكَ وَكَتَبُوا فِيْهَا كُتُبًا عَجِيْبَةً وَأَصَّلُوهُ تَأْصِيلًا رَائِعًا بَدِيْعًا، وَأَفْرَدُوهَا بِتَصَانِيْفَ كَثِيْرَةٍ، فَعَلَى سَبِيْلِ المِثَالِ يُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَى كِتَابِ: (المُذَكَّرِ وَالمُؤنَّثِ) لِعَظِيْمِ اللُّغَةِ ابْنِ الأَنْبَارِيِّ، لِلتَّعَرُّفِ عَلَى هذِهِ العَظَمَةِ الَّتِي تَتَّسِمُ بِهَا العَرَبِيَّةُ بَيْنَ سَائِرِ اللُّغَاتِ فِي هذِهِ المَسْأَلَةِ.

وَإِلَيْكَ جُمْلَتَيْنِ لِبَيَانِ ضَرُورَةِ المُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ فِي تَوْجِيهِ المَعْنَى:

(شَرِبْتُ الْـمَاءَ مِنْ نِصْفِ الكَأسِ العَلْيَاءِ)، وَ(شَرِبْتُ الْمَاءَ مِنْ نِصْفِ الكَأسِ الأَعْلَى)، فَيَكُونُ مَعْنَى الجُمْلَةِ الأُوْلَى: أَنَّكَ شَرِبْتَ مِنَ الكَأسِ العَلْيَاءِ؛ لأنَّ الكَأسَ مُؤنَّثٌ[1]، فَيكُونُ (العَلياءِ) صِفَةً لَهَا.

أَمَّا مَعنَى الثَّانِيَةِ فَهُوَ: أَنَّكَ شَرِبْتَ مِنَ النِّصْفِ الأَعْلَى مِنَ الكَأسِ وَليسَ النِّصْفَ الأَسْفلِ، فتكونُ(الأَعْلَى) صِفَةً لِـ(نِصْفِ) وَالنِّصفُ مُذَكَّرٌ.

الثَّالِثُ وَالثَّلاثُونَ: تَمييزُ مَصَادِرِ كُلِّ وَزْنٍ مِنَ الأَوْزَانِ بِمَعْنًى مِنَ الـمَعَانِي:

إنَّ مِنْ مُمَيِّزَاتِ العَرَبِيَّةِ بَيْنَ سَائِرِ اللُّغَاتِ، أَنَّ مَصَادِرَ كُلِّ بَابٍ تَدُلُّ دَلَالَةً عَلَى مَعْنًى مِنَ الـمَعَانِي(غَالِبًا)[2] وهذا يُسَهِّلُ عَلَى طُلَّابِ اللُّغَةِ تَمْييزَ الـمَصَادِرِ وَنِسْبَتَهَا إِلَى أبْوَابِهَا، كَمَا يُيَسِّرُ عَلَيْهِمُ التَّعَرُّفَ عَلَى مَعَانِيْهَا، فَعَلَى سَبِيْلِ الـمِثَالِ أَنْقُلُ بَعْضَ مَا قَالَهُ الأَئِمَّةُ.

قَالَ الجُرْجَانِيُّ فِي: (مِفْتَاحِهِ): «وَ(فَعِلَ): يَكثُرُ فيهِ العِلَلُ وَالأَحْزَانُ وَالأَضْدَادُ، كَـ(سَقِمَ، ومَرِضَ، وحَزِنَ، وفَرِحَ)، وَتَجِيْءُ الأَلْوَانُ وَالعُيُوبُ وَالحلَى كُلُّهَا عَلَيْهِ. وَقَدْ جَاءَ: (أَدُمَ، وسَمُرَ، وعَجُفَ، وحَمُقَ، وخَرُقَ، وعَجُمَ، وَرَعُنَ)، بِالكَسْرِ وَالضَّمِّ. وَ(فَعُلَ): لِأَفْعَالِ الطَّبَائِعِ وَنَحْوِهَا، كَـ(حَسُنَ، وقَبُحَ، وكَبُرَ، وصَغُرَ)، فمِنْ ثَمَّ كَانَ لَازِمًا، وَشَذَّ: (رَحُبَتْكَ الدَّارُ)، أيْ: رَحُبَتْ بِكَ»[3].

وَقَالَ: «(افْعَلَّ)، وَ(افْعَالَّ): للأَلْوَانِ وَالعُيُوبِ، نَحْوُ: (ابْيَضَّ وَابْيَاضَّ، وَاعْوَرَّ

---

(١) قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ (الإنسان).
(٢) قُلْتُ: (غَالِبًا)؛ لأنَّ هُنَاكَ مَصَادِرَ، لَا تَكُونُ كَذلِكَ.
(٣) الـمِفتَاحُ فِي الصَّرْفِ للجُرجَانِيِّ (ص٤٨).

وَاعْوَارَّ، وَافْعَالَّ)»[١].

وَقَالَ الرَّضِيُّ: «الغَالِبُ فِي الحِرَفِ وشِبْهِهَا منْ أيِّ بابٍ كانتْ: (الْفِعَالَةُ) بِالكَسْرِ، كَـ(الصِّيَاغَةِ، وَالحِيَاكَةِ، وَالخِيَاطَةِ، وَالتِّجَارَةِ، وَالإِمَارَةِ)، وَفَتَحُوا الأَوَّلَ جَوَازًا فِي بَعْضِ ذلِكَ، كَـ(الوَكَالَةِ، وَالدَّلَالَةِ، وَالوَلَايَةِ).

وَالغَالِبُ فِي الشِّرَادِ، وَلْهِيَاجِ وَشِبْهِهِ: (الْفِعَالُ) كَـ(الْفِرَارِ، وَالشِّمَاسِ، وَالنِّكَاحِ، وَالضِّرَابِ، وَالوِدَاقِ، وَالطِّمَاحِ، وَالحِرَانِ -شِبْهُ الشِّمَاسِ-، وَالشِّرَادِ، وَالجِمَاحِ)، وَالجَامِعُ امتِنَاعُهُ مِمَّا يُرَادُ مِنْهُ، وَيَجِيءُ (فِعَالٌ) بِالكَسْرِ فِي الأَصْوَاتِ أَيْضًا، لكِنْ أَقَلُّ مِنْ مَجِيْءِ (فُعَالٍ) بِالضَّمِّ، وَ(فَعِيلٍ) فِيهَا، وَذلِكَ كَـ(الزِّمَارِ، وَالْعِرَارِ)..

و(الْفِعَالُ) بِالكَسْرِ: غَالِبٌ فِي السِّمَاتِ أَيْضًا كَـ(الْعِلَاطِ، وَالْعِرَاضِ -لِوَسْمٍ عَلَى العُنُقِ-، وَالجِنَابِ -عَلَى الجُنُبِ-، وَالْكِشَاحِ -عَلَى الكَشْحِ-).

وَالغَالِبُ فِي مَصْدَرِ الأَدْوَاءِ مِنْ غَيْرِ بَابِ (فَعِلَ) الـمَكْسُورِ العَيْنِ: (الفُعَالُ)، كَـ(السُّعَالِ، وَالدُّوَارِ، وَالعُطَاسِ، وَالصُّدَاعِ)، وَيُشَارِكُهُ فِي لَفْظِ (السُّوَافِ): (فَعَالٌ) بِالفَتْحِ، لِاسْتِثْقَالِ الضَّمِّ قَبْلَ الوَاوِ.

وَالغَالِبُ فِي الأَصْوَاتِ أَيْضًا: (الْفُعَالُ) بِالضَّمِّ، كَـ(الصُّرَاخِ، وَالْبُغَامِ، وَالْعُوَاءِ)، وَيُشَارِكُهُ فِي (الْغُوَاثِ): (فَعَالٌ) بِالفَتْحِ، وَيَأْتِي فِيهَا كَثِيرًا: (فَعِيلٌ) أَيْضًا، كَـ(الضَّجِيْجِ، وَالنَّئِيمِ، وَالنَّهِيبِ)، وَقَدْ يَشْتَرِكَانِ كَـ(النَّهِيْقِ وَالنُّهَاقِ)، وَ(النَّبِيْحِ وَالنُّبَاحِ)..

وَالقِيَاسُ الـمُطَّرِدُ فِي مَصْدَرِ (التَّنَقُّفِ وَالتَّقَلُّبِ): (الْفَعَلَانُ)، كَـ(النَّزَوَانِ،

---

(١) المِفتَاحُ فِي الصَّرْفِ للجُرجَانِيِّ (ص٥١).

وَالنَّقَزَانِ، وَالْعَسَلَانِ، وَالرَّتَكَانِ)، وَرُبَّمَا جَاءَ فِيْهِ: (الفُعَالُ)، كَـ(النُّزَاءِ وَالْقُمَاصِ)، وَ(الشَّنَآنُ): شَاذٌّ؛ لأَنَّهُ لَيْس بِاضْطِرَابٍ.

وَالأَغْلَبُ فِي الأَلْوَانِ: (الْفُعْلَةُ)، كَـ(الشُّهْبَةِ وَالْكُدْرَةِ)..»[1].

الرَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ: كَثْرَةُ علومِهَا وَفُنُونِهَا:

إنَّ مِمَّا تَمْتَازُ بِهِ العَرَبِيَّةُ مِنْ غَيْرِهَا أنَّهَا تَمْتَلِكُ عُلُومًا كَثِيرَةً وَفُنُونًا غَزِيْرَةً، وَكُلُّ هذهِ العُلُومِ لَهَا قَوَانِينُ وَضَوَابِطُ، لَا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يَتَعَدَّاهَا، إِذَا أَرَادَ غَوْصًا فِي دَقَائِقِ المَعَانِي، وَغَزَائِرِ الدَّلَالَاتِ وَالإِشَارَاتِ، فَلَا تُشَارِكُ العَرَبِيَّةَ لُغَةٌ مِنَ اللُّغَاتِ فِي كَثْرَةِ فُنُونِهَا وَعُلُومِهَا عَلَى الإِطْلاقِ.

إنَّ العُلَمَاءَ الفُحُول، وَالمحققِّينَ فِي الفُروعِ وَالأُصول، قسَّمُوا عُلُومَ العَرَبِيَّةِ إِلَى ضُرُوبٍ وَفُصُول، وَلكِنْ عَلَى تَبَايُنٍ وَاختِلافٍ فِي التَّقْسِيْمِ؛ لأَنَّهُ تفرَّعَتْ عُلُومٌ عَنِ الَّذي كانَ يُعْرَفُ في القَدِيم، بِسَبَبِ تَفْرِيْقِ بَعْضِ العُلُومِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَخواتِهَا وَحَلِيْلَاتِهَا، ثُمَّ استقرَّتْ هذهِ العُلومُ فِي تِسْعَةَ عَشَرَ عِلْمًا[2]، وَهِيَ:

* **عِلْمُ اللُّغَةِ**: هَذَا العِلْمُ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ اللُّغَةِ بِشَكْلٍ عَامٍّ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، كَنَشْأَةِ اللُّغَاتِ وَاللَّهَجَاتِ وَغَيْرِهَا، وَأَهَمُّ الكِتَابِ فِي ذلِكَ كِتَابُ (الْمُزْهِرِ) للسُّيوطِيِّ.

* **عِلْمُ المَعَاجِمِ**: هَذَا العِلْمُ يُوقِفُكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الأَلْفَاظِ العَرَبِيَّةِ وَمُفْرَدَاتِهَا.

---

(١) شَرْحُ الشَّافِيَةِ للرَّضِي (١/ ١٥٣-١٥٦).

(٢) وَهُنَاكَ مَنْ يَزِيْدُ عَلَيْهَا كَمَا هُنَاكَ مَنْ يُنْقِصُ مِنْهَا.

* **عِلْمُ النَّحْوِ**: عِلْمُ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ أَوَاخِرِ الكَلِمِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ عُلُومِهَا.

* **عِلْمُ الصَّرْفِ**: عِلْمُ مَعْرِفَةِ أَبْنِيَةِ الكَلِمِ.

* **عِلْمُ البَيَانِ**: مَلَكَةُ الِاقتِدَارِ عَلَى إِيرَادِ الـمَعْنَى الوَاحِدِ، بِطُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ، فِي وضُوحِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ(١).

* **عِلْمُ الـمَعَانِي**: أُصُولٌ وَقَوَاعِدُ يُعْرَفُ بِهَا أَحْوَالُ الكَلَامِ العَرَبِيِّ مِنْ حَيثُ مُطَابَقَتُهُ للحَالِ، وَعَدَمُ مُطَابَقَتِهِ لَهُ.

* **عِلْمُ البَدِيعِ**: هُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ الـمُحَسِّنَاتِ اللَّفْظِيةِ للكَلامِ العَرَبِيِّ.

* **عِلْمُ الِاشْتِقَاقِ**: نَعْنِي بِهِ هُنَا: الِاشْتِقَاقَ الكَبِيرَ، وَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنْ عَلَاقَةِ اللَّفْظِ بالـمَعْنَى مِنْ كُلِّ كَلِمَتَينِ مُتَقَارِبَتَيْنِ لَفْظًا.

* **عِلْمُ العَرُوضِ**: عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ صَحِيحُ الشِّعْرِ مِنْ فَاسِدِهِ.

* **عِلْمُ قَرْضِ الشِّعْرِ**: هُوَ عِلْمُ قَرْضِ الشِّعْرِ، أَوْ: نَظْمِهِ. وَالفَرْقُ بينَهُ وَبينَ العَرُوضِ، أنَّ العَرُوضَ يُعَرِّفُكَ الـمَوزُونَ وَالـمُخْتَلَّ مِنَ الشِّعْرِ، أَمَّا القَرْضُ فَإِنَّهُ يُعَرِّفُكَ نَظْمَ الشِّعْرِ وَآدَابَهُ وَجَمَالَهُ وَعُيوبَهُ، وَبِمَ تَبْدَأُ وَبِمَ تَنْتَهِي مِنْهُ.

* **عِلْمُ القَافِيَةِ**.

* **عِلْمُ الخَطِّ وَالإِمْلاءِ**

* **عِلْمُ الأَدَبِ**.

---

(١) هذَا تَعرِيفُ صَاحِبِ: (شَرْحِ التِّبيَانِ فِي عِلْمِ البَيَانِ) (ص:٢٤٧)، وَلَا يَخْلُو التَّعرِيفُ مِنْ قُصُورٍ؛ لأنَّ مَجَالَ البَيَانِ أَوْسَعُ مِنْ هذَا.

* عِلْمُ الْـمُحَاضَرَةِ.
* عِلْمُ الأَصْوَاتِ.
* عِلْمُ تَارِيْخِ الأَدَبِ.
* عِلْمُ أُصُولِ النَّحْوِ.
* فِقْهُ اللُّغَةِ.
* عِلْمُ الدَّلَالَةِ.

وَقَدَ نَظَمَ السَّيدُ أحمَدُ الهَاشميُّ كثيرًا من هذِهِ العُلُومِ فِي بَيْتَيْنِ، فَقَالَ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

نَحْوٌ وَصَرْفٌ عَرُوْضٌ ثُمَّ قَافِيَةٌ ... وَبَعْدَهَا لغَةٌ قَرْضٌ وَإِنْشَاءُ
خَطٌّ بَيَانٌ مَعَانٍ مَعْ مُحَاضَرَةٍ ... وَالِاشْتِقَاقُ لَهَا الآدَابُ أسمَاءُ

الخَامِسُ وَالثَّلاثُونَ: العَرَبِيَّةُ لُغَةٌ مَرْوِيَّةٌ:

إِنَّ مِمَّا يُمَيِّزُ العَرَبِيَّةَ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ، هُوَ كَوْنُهَا لُغَةً جَاءَتْنَا عَنْ طَرِيْقِ الرِّوَايَةِ عَنْ أَهْلِهَا كَمَا هِيَ، مِنْ غَيْرِ اختِلاطٍ بِاللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَذلِكَ يَرْجِعُ إِلَى جُهُودِ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ فِي تَتَبُّعِهَا وَجَمْعِهَا مِنْ أَفْوَاهِ أَهْلِ البَدْوِ وَالبَحْثِ الـمُسْتَمِرِّ بَيْنَ قَبَائِلِ العَرَبِ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا، حِفَاظًا عَلَى العَرَبِيَّةِ وَأَسَالِيْبِهَا، وَمِنَ الأَمْثِلَةِ عَلَى ذَلِك مَا ذَكَرَهُ ابْنُ دُرَيْدٍ قَائِلًا: «قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: سَأَلْتُ الأَصْمَعِيَّ عَنْ هَذَا فَقَالَ: كُنْتُ أَسْمَعُ (غَسِيَ اللَّيلُ يَغْسَى)، وَأَنْشَدَ بَيْتَ ابْنِ أَحْمَرَ:

[مِنَ الوَافِرِ]

كَأَنَّ اللَّيلَ لَا يَغْسَى عَلَيهِ ... إِذَا زَجَرَ السَّبَنْتَاةُ الأَمُونَا

فَهَذَا مِنْ (غَسِيَ يَغْسَى)، ثُمَّ سَمِعْتُ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً[1] أَعْرَابِيًّا يُنْشِدُ لِابْنِ أَحْمَرَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَلَمَّا غَسَى لَيْلِي وَأَيقَنْتُ أَنَّهَا ... هِيَ الأُرْبَى جَاءَتْ بِأُمِّ حَبَوْكَرَا

فَهَذَا مِنْ (غَسَا يَغْسُو وَيَغْسِي). ثُمَّ قَالَ رُؤْبَةُ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

(وَمَرِّ أَيَّامٍ وَلَيْلٍ مُغْسِ)

فَهَذَا مِنْ (أَغْسَى يُغْسِي)»[2].

وَقَدْ تَتَبَّعَ العُلَمَاءُ كَلَامَ العَرَبِ مِنْ أَرْبَابِهِ، وَخَرَجُوا إِلَى البَوَادِي بُغْيَةَ جَمْعِ مَنْثُورِ كَلَامِهِمْ وَمَنْظُومِهِ، كَمَا حَكَى الزَّجَّاجِيُّ أَنَّ الإِمَامَ أَبَا عَمْرِو بْنَ العَلَاءِ جَاوَرَ البَدْوَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً[3]. لِكَيْ يَسْمَعَ مِنْهُم كَلَامَهُم، وَيُحَقِّقَ بِنَفْسِهِ، وَيَحْمِيَ كَلَامَ العَرَبِ مِنَ الضَّيَاعِ.

وَلَيْسَ هُوَ وَحْدَهُ، بَلْ: كَانَ مِنْ بَيْنِهِم عُلَمَاءُ كَثِيرُونَ انتَدَبُوا أَنْفُسَهُم لِهَذِهِ المُهِمَّةِ الشَّاقَّةِ كَخَلَفٍ الأَحْمَرِ، وَيُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ، وَالخَلِيْلِ، وَمُؤَرِّجٍ السَّدُوسِيِّ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَئِمَّةِ الكَثِيرِينَ، حَيثُ بَحَثُوا وَفَتَّشُوا قُرَابَةَ ثَلَاثِمَائَةِ سَنَةٍ مُتَتَالِيَةٍ.

فَهَلْ هُنَاكَ لُغَةٌ مِنْ لُغَاتِ العَالَمِ تُوجَدُ فِيْهَا هَذِهِ المِيزَةُ العَظِيْمَةُ؟ وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ

---

(١) تَدَبَّرْ قَوْلَهُ (مُنْذُ سِتِّيْنَ سَنَةً) جَيِّدًا!.

(٢) جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ لِابْنِ دُرَيْدٍ (٢/ ١٠٧٢).

(٣) مَجَالِسُ العُلَمَاءِ لِلزَّجَّاجِيِّ (ص١٣٠).

العَرَبِيَّةَ لَيْستْ لُغَةً جَامِدَةً بِحَيْثُ لَا تَقْبَلُ جَدِيْدًا، بَلْ: مَعَ الحِفَاظِ عَلَى هـذِهِ الأَصَالَةِ، لَهَا الـمُكْنَةُ عَلَى احتِوَاءِ مَا هُوَ جَدِيْدٌ، كَمَا أَشَرْنَا إِلَى ذلِكَ سَابِقًا، وَهُنَاكَ نُقْطَةٌ أُخْرَى مُهِمَّةٌ تُحَافِظُ عَلَى بَقَاءِ حَيَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، وَهِيَ أَنَّ العَرَبِيَّةَ لُغَةُ القِيَاسِ.

السَّادِسُ وَالثَّلاثُونَ: العَرَبِيَّةُ لُغَةُ القِيَاسِ:

إِنَّ مِمَّا يُمَيِّزُ العَرَبِيَّةَ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، هُوَ اهتِمَامَهَا البَالِغَ بِالقِيَاسِ وَالِاعتِدَادَ بِهِ، فِي مُخْتَلَفِ مَسَائِلِهَا فُرُوعًا وَأُصُولًا، وَلَا يُرَى هذَا الِاهتِمَامُ بِالقِيَاسِ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى كَمَا هُوَ فِي العَرَبِيَّةِ مُقَنَّنًا مَنْضَبِطًا، فَبَلَغَ اهتِمَامُ عُلَمَاءِ العَرَبِيَّةِ إِلَى حَدٍّ أَنَّ ابْنَ جِنِّيْ أَحَدَ عَمَالِقَةِ اللُّغَةِ حَكَى عَنْ عَبْقَرِيٍّ مِنْ عَبَاقِرَتِهَا إِذْ يَقُولُ: «قَالَ لِي أَبُو عَلِيٍّ -رَحِمَهُ اللهُ- بِحَلَبَ سَنَةَ سِتٍّ وَأَرْبَعِيْنَ: (أُخْطِئُ فِي خَمْسِيْنَ مَسْأَلَةً فِي اللُّغَةِ، وَلَا أُخْطِئُ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ القِيَاسِ)»[(١)].

فَكَلَامُ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ نَاتِجٌ عَنْ كَونِ الخَطَإِ فِي القِيَاسِ اختِلَالًا فِي الـمِيْزَانِ، وَالخَطَأُ فِيْهِ مُتَعَدٍّ إِلَى أَخْطَاءٍ أُخْرَى، فَلِذلِكَ صَرَفُوا عِنَايَةً تَامَّةً بِضَبْطِ القِيَاسِ ضَبْطًا دَقِيْقًا، حَتَّى إِنَّ ابْنَ جِنِّيْ نَفْسَهُ يُعَظِّمُ أَمْرَ القِيَاسِ وَيَقُولُ: (القِيَاسَ القِيَاسَ!)[(٢)].

وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى أُمَّهَاتِ كُتُبِ اللُّغَةِ، رَأَيْتَ العَجَبَ العُجَابَ مِنِ اسْتِئصَالٍ وَاسْتِفْصَالٍ فِي أَمْرِ القِيَاسِ.

السَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ: جَمَالُ حُرُوفِ العَرَبِيَّةِ:

إِنَّ مِنْ أَجْمَلِ مَا فِي العَرَبِيَّةِ وَأَزْيَنِهَا هُوَ جَمَالُ خَطِّهَا وَحُرُوفِهَا، وَتَصْمِيْمُهُ الرَّائِعُ

---

(١) الخَصَائِصُ (٢/ ٩٠).

(٢) الخَصَائِصُ (٢/ ٢٣٥).

الَّذِي أَذْهَلَ جَمِيعَ البَاحِثِيْنَ فِي مَجَالِ الخَطِّ وَتَارِيْخِهِ، وَهُوَ فِي حَالَةٍ مِنَ الجَمَالِ وَالرَّوْنَقِ وَالبَهَاءِ خَضَعَتْ لَهَا جَمِيْعُ خُطُوطِ العَالَمِ، وَإِنَّ هذَا الكَلَامَ لَيْسَ كَلَامًا عَاطِفِيًّا، بَلْ: هُوَ كَلامٌ عَقْلِيٌّ مَنْطِقِيٌّ مُبَرْهَنٌ صُدِرَ بَعْدَ النَّظَرِ فِي اللَّوْحَاتِ الفَنِّيَّةِ الرَّاقِيَةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي رُسِمَتْ بالخَطِّ العَرَبِيِّ فِي القَدِيْمِ وَالحَدِيْثِ، وَلَا يَزَالُ الإِبْدَاعُ فِي هذَا الخَطِّ العَرَبِيِّ العَظِيْمِ مُسْتَمِرًّا وَيُنْتِجُ خَطَّاطُوهَا تُحَفًا خَطِّيَّةً تُبْهِرُ العَالَمَ بِأَسْرِهِ.

الثَّامِنُ وَالثَّلاثُونَ: لَمْ تَتَغَيَّرْ حُرُوفُ العَرَبِيَّةِ:

إِنَّ مِنْ أَجْمَلِ مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ العَرَبِيَّةُ وَأَقْوَاهَا، أَنَّ حُرُوفَهَا بَقِيَتْ كَمَا كَانَتْ مِنْ غَيرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، وَهذِهِ المِيْزَةُ تَجْعَلُهَا يَسِيْرَةَ القِرَاءَةِ لِنُصُوصِهَا عَلَى مَدَارِ التَّارِيْخِ، مَعَ العِلْمِ أَنَّ هذِهِ المِيْزَةَ فُقِدَتْ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى، حيثُ شَاهَدَتْ تَغَيُّرًا فِي حُرُوفِهَا بِزِيَادَةٍ، أَوْ: نُقْصَانٍ.

التَّاسِعُ وَالثَّلاثُونَ: قِلَّةُ الإِرْفَاقِ فِي كَلِمَاتِ العَرَبِيَّةِ:

مِنَ الخَصَائِصِ البَدِيعَةِ للعَرَبِيَّةِ أَنَّ مُفْرَدَاتِهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِذَاتِهَا غَيرُ مُرْفَقَةٍ بحيثُ تُمْتَزَجُ كَلِمَةٌ مَعَ أُخْرَى حَتَّى تُعْطِيَ المَعْنَى، فَمَثَلًا، لَوْ أَخَذْتَ كَلِمَةَ: (الغَسَّالَة)، فَتَرَاهَا فِي الإِنجليزِيَّةِ: (washing machine)، وَفِي التُّرْكِيَّةِ: (Çamaşır makinesi)، وَفِي الفَارِسِيَّةِ: (مَاشِيْن لبَاسْشُويى)!

وَهَكَذَا الشَّأنُ فِي مُفرَدَاتٍ كَثِيرَةٍ، حيثُ نجِدُ العَرَبِيَّةَ تُعبِّرُ عَنْهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، أَمَّا اللُّغَاتُ الأُخْرَى، فَإِنَّهَا تَأتِي بِدَمْجِ كَلِمَتَيْنِ حَتَى تَصِيرَا دَلَالَةً عَلَى المَقْصُودِ.

وَكَذَا الحَالُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المُشْتَقَّاتِ، فَإِنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ التَّفْضِيْلَ مِنْ (ذَهَبَ)، قُلْتَ: (أَذْهَب)، وَإِذَا أَرَدْتَ مُبَالَغَةً قُلْتَ: (ذَهَّاب)، وَإِذَا أَرَدْتَ اسْمَ الفَاعِلِ، قُلْتَ:

(ذَاهِب)، وَهكذَا عَلَى التَّوَالِي لِبَاقِي الـمُشْتَقَّاتِ، فَإِنَّ لَكَ لِكُلِّ تَعْبِيرٍ وَزْنَهُ الخَاصَّ بِهِ، وَهذَا عَامٌّ فِي جَمِيْعِ الكَلِمَاتِ وَالـمُفْرَدَاتِ، أمَّا اللُّغَاتُ الأُخْرَى فَلَا بُدَّ للمُتكَلِّمِ بِهَا مِنْ إِضَافَةِ السَّوَابِقِ وَاللَّوَاحِقِ، حَتَّى يُعَبِّرَ الـمُتكَلِّمُ عَنْ مُرَادِهِ!.

الأَرْبَعُونَ: كَثْرَةُ كُتُبِ عُلُومِهَا، وَوَفْرَتُهَا:

إنَّ الكُتُبَ الـمُصَنَّفَةَ فِي عُلُومِ العَرَبِيَّةِ تَكَاثَرَتْ وَتَنَاثَرَتْ، وَفِي كُلِّ عَصْرٍ تَوَالَتْ وَتَرَاكَمَتْ وَازْدَهَرَتْ، فِي أُصُولِ مَسَائِلِهَا وُفُروعِ قَضَايَاهَا، بحيثُ مِنَ الـمُسْتَحِيلِ أَنْ يَقْدِرَ فَرْدٌ عَلَى تَعْدَادِ أَسْمَائِهَا كُلِّهَا، فَكَيْفَ قَرَاءَتُهَا وَالوقُوفُ عَلَيْهَا كُلِّهَا؟

وَالتَّوَالِيفُ فِي العَرَبِيَّةِ كَثِيرَةٌ إِلَى حَدٍّ أَنَّكَ تَجِدُ فِي الـمَسْأَلَةِ الوَاحِدَةِ، وَالجُزْئِيَّةِ الفَرْدَةِ تَصَانِيفَ مُصَنَّفَةً، وَيُمكِنُكَ الوُقُوفُ عَلَيْهَا، فَمَثَلًا فِي: (القَلْبِ وَالإِبْدَالِ)- وَهِيَ فَصْلٌ مِنْ عِلْمِ الصَّرْفِ-تَجِدُ حَوْلَهُ كُتُبًا كَثِيرَةً للعُلَمَاءِ: كَكِتَابِ: (القَلْبِ وَالإِبْدَالِ) لِابْنِ دُرَيْدٍ الأَزْدِيِّ، وَ(القَلْبِ وَالإِبْدَالِ) لِابْنِ السِّكِّيْتِ، وللأَصْمَعِيِّ أيضًا كِتَابٌ بِهذَا العُنْوَانِ، وَ(الْوِفَاقُ فِي الْإِبْدَالِ) لِابْنِ مَالِكٍ، وَ(كِتَابِ الإِبْدَالِ) لأَبِي الطَّيِّبِ اللُّغَوِيِّ.

وَفِي (الـمُذَكَّرِ وَالـمُؤَنَّثِ)، تَجِدُ كُتُبًا كَثِيرَةً-وَهِيَ مَسأَلَةٌ جُزئِيَّةٌ فِي النَّحْوِ-، والعُلَماءُ الَّذِينَ كَتَبُوا تَحْتَ هذا العُنوانِ كَثِيرُونَ، فَمِنْهُمْ: ابنُ الأنبَارِيِّ، وَالفَرَّاءُ، وَابنُ جِنِّيٍّ، وَأَبُو حاتِمٍ السَّجستَانِيُّ، وَابنُ دُرُسْتُوَيْهِ، وابنُ نَاصِحٍ تَلمِيذُ الأَصْمَعِيِّ، وَابنُ شُقَيْرٍ، وَنِفْطَوَيْهِ، وَابنُ خَالَوَيْهِ، وَأَبُو الحُسينِ الخزازُ النَّحْوِيُّ، وَأَبُو الطَّيِّبِ النَّحوِيُّ، وَغَيرُهُم كَثِيْرٌ مِنَ العُلَمَاءِ وَالأَئِمَّةِ.

وَفِي (الِاستِعَارَةِ)، تَجِدُ كُتُبًا كَثِيرَةً -وَهِيَ فَصْلٌ فِي عِلْمِ البَيَانِ- وَالبَيَانُ فَرْعُ

البَلَاغَةِ، فَمَثَلًا كَتَبَ فِيهَا: العِصَامُ، وَابنُ الدَّيْلَمِيِّ، وَالآقصِيُّ، وَالعَلَّامةُ الـمُلَّا أَبُو بَكرٍ الصُّورِيُّ، وَعُثْمَانُ بنُ سَنَدٍ النَّجْدِيُّ، وَأَبُو البَرَكَاتِ السّويدِيُّ، وَغيرُهم كَثِيرُون كَتبُوا فِي الِاسْتِعَارَةِ.

وَهكذَا الشَّأنُ فِي بَاقِي فُنُونِ العَرَبِيَّةِ أُصُولًا وَفُرُوعًا، فَإِنَّكَ لَوْ بَحَثْتَ عَنِ الكُتُبِ الـمُصَنَّفَةِ فِيْهَا، لَرَأَيْتَهَا كَثِيرَةً جِدًّا، وَلَا يُمْكِنُ لِمُتَعَدِّدٍ أَنْ يُعَدِّدَهَا، وَلَا لِمُسْتَقْصٍ أَنْ يَسْتَقْصِيَهَا.

فَهذِهِ الكَثْرَةُ فِي التَّدوِيْنِ وَالتَّصنِيْفِ تُسَهِّلُ أَمْرَ التَّعَلُّمِ، وَالوُقُوفِ عَلَى مَسَائِلِ هـذِهِ اللُّغَةِ وَفَهْمِهَا فَهْمًا دَقِيقًا مُنْضَبِطًا، وَتُعْطِي الطَّالِبَ فُسْحَةً مِنْ أَمْرِهِ لِيَبْحَثَ فِي أُمَّهَاتِ الكُتُبِ، وَيَجِدَ غَايَتَهُ الـمَنْشُودَةَ وَبُغْيَتَهُ، فَإِذَا لَمْ يَفْهَمْ مِنْ كِتَابٍ اعتَمَدَ عَلَى آخَرَ لِيَفْهَمَ الـمَسْأَلَةَ الَّتِي أُشْكِلَتْ عَلَيْهِ[١].

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ كَثْرَةُ التَّدوِينِ سَهَّلَتْ أَمرَ الوقُوفِ عَلَى حَقَائِقِ الكَلامِ وَأَسرَارِهِ، وَلَا سِيَّمَا لِمَنْ يَأتِي فِي الأَزْمِنَةِ الـمُتَأَخِّرَةِ -كَعَصْرِنَا- لِيَفهَمَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى وَكَلامَ

---

(١) هذِهِ الكُتُبُ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الحُسْنِ وَالجَوْدَةِ، وَفِيْ بَعْضِهَا تَكْرَارٌ، وَمِنْهَا مَا يُغْنِيْكَ عَنْ غَيْرِهِ، فَعَلَيْكَ بِالسُّلَّمِ الَّذِي ارتَقَى بِالعُلَمَاءِ لِيَكُونُوا عُلَمَاءَ، فَلَا تَدْخُلْ فِي الكُتُبِ عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِكَ وَمَيْلِكَ، وَلَا سِيَّمَا فِي أَوَائِلِ الطَّلَبِ، فَشَاوِرْ أَهلَ الخِبْرَةِ مَهْمَا أَمْكَنَ ذلِكَ، لِيَخْتَصِرُوا لَكَ تَجَارِبَهُم فِي طَرِيقِ العِلْمِ، وَلَا تَأْخُذْ مِنَ الَّذِي لَمْ تَرَ لَهُ ثَمَرَةً؛ لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْرَأُ بَعْضَ الـمَطويَّاتِ، وَبَعْدَ ذلكَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ الـمُسْتَشَارُ الـمَنْهَجِيُّ الوَحِيْدُ، وَيَصِفُ سُلَّمَ التَّرَقِّي، وَلَا يَعرِفُ عِلْمًا وَلَا يُحْسِنُ شَيئًا، وَيَكتُبُ الـمَنْهَجَ وَيَصِفُهُ فِي جَمِيعِ العُلُومِ وَفِي الحَقِيْقَةِ لَا يَعْرِفُ قَبِيلًا مِنْ دَبِيرٍ فِي أَمْرِ اختِيَارِ الـمَنْهَجِ، وَلَا يَدْرِي الـمِسْكِينُ أَنَّ مَرَدَّ هذا إِلَى مَنْ مَارَسُوا هذِهِ العُلُومَ وَدَرَسُوهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَتَمَكَّنُوا فِيهَا، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

رَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى الوَجْهِ الـمَطْلُوبِ؛ لأنَّ هـذِهِ الـمُدَوَّنَاتِ حَفِظَتْ أقوَالَ العَرَبِ وَأَسَالِيبَ كَلامِهِم، وَمِنْ خِلالِهَا يَتَرَجَّحُ لَنَا الفَهْمُ الثَّاقِبُ وَالرَّأيُ الصَّائِبُ.

وَهذِهِ الـمِيزَةُ لَا تَمْلِكُهَا لُغَةٌ أُخْرَى غَيْرُ العَرَبِيَّةِ، فَلِذلِكَ علَى الأَجيَالِ أَنْ يُوَقِّرُوا العُلَمَاءَ السَّابِقِيْنَ وَيَحْتَرِمُوهُم لِمَا بَذَلُوا مِنَ الجُهْدِ البَالِغِ، وَتَحَمَّلُوا التَّعَبَ وَالنَّصَبَ لأَجْلِ العِلْمِ وَخِدْمَةِ أَهْلِهِ، فَنسأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَنَا رُشدَنَا، وَيُخْلِصَ لَنَا النِّيَّةَ، وَأَنْ يَهْدِيَ قُلُوبَنَا إِلَيْهِ.

وَلَا أَدْرِي بَعْدَ هـذِهِ الخَصَائِصِ مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى تَفضِيلِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ عَلَى العَرَبِيَّةِ؟! وَإِذَا جَاءَ الـمُناوِؤُونَ بعدَ هـذَا البيَانِ وَشَرَعُوا فِي الهَذَيَانِ، تَذَكَّرْ بَيْتَ الـمَعَرِّيِّ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَالنَّجْمُ تَستَصْغِرُ الأبصَارُ صُورَتَهُ ... وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا للنَّجمِ فِي الصِّغَرِ

أَوْ بَيْتَ البُوصِيرِيِّ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الـمَاءِ مِنْ سَقَمِ

قُوَّةُ اللُّغَةِ لَا تَعْنِي عَدَمَ الصُّعُوبَةِ وَتَشَعُّبَ المَسَائِلِ

إِنَّ مِنَ الأُمُورِ الخَطِيرَةِ الَّتِي يَخُوضُهَا كَثِيرٌ مِنْ أَعدَاءِ العَرَبِيَّةِ جاهِلِينَ، أَوْ: مُتَجاهِلِينَ بابَ التَّصَوُّرِ وَالمُقَارَنَةِ فِي أَمْرِ اللُّغَاتِ، هُوَ الكَلامُ عَنْ صُعُوبَةِ العَرَبِيَّةِ وَتَشَعُّبِ مَسَائِلِهَا وَتَفَرُّقِ قَضَايَاهَا، وَيُشَكِّكُونَ فِي قُوَّتِهَا، وَسَيْرُورَتِهَا مَعَ حَاجَاتِ العَصْرِ، وَإِقْبالِ النَّاسِ عَلَيْهَا، بِهذِهِ الذَّرِيعَةِ الشَّنِيْعَةِ، وَهذِهِ المَقُولَةِ العَوْرَاءِ العَرْجَاءِ، الخَالِيَةِ عَنْ كُلِّ عَقْلٍ وَمَنْطِقٍ، كَيْفَ لَا؟ وَهِيَ تُبَيِّنُ جَهْلَ صَاحِبِهَا، وَتُعَرِّي حَالَهُ مَكْشُوفًا لِلنَّاسِ.

إِنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لُغَةُ الوَحْيِ، وَلُغَةٌ مُوغِلَةٌ فِي القِدَمِ، لَغَةٌ عُلُومُهَا تُقَارِبُ العِشْرِيْنَ، لُغَةٌ مَا تُرِكَتْ مِنْهَا شَارِدَةٌ وَلَا وَارِدَةٌ مِنْ غَيْرِ ضَبْطٍ وَتَقْنِيْنٍ، لُغَةٌ أُلِّفَ فِي شَوَارِدِ مَسَائِلِهَا آلافُ كُتُبٍ مُتَفَرِّقَةٍ، لُغَةٌ لَمْ تُهْمِلْ شَيئًا مِنْ غَيْرِ إِطْلَاقِ اسْمٍ عَلَيْهِ، لُغَةٌ تَمْلِكُ ثَرَاءً عَظِيْمًا فِي المُفْرَدَاتِ، لُغَةٌ يَحْكُمُهَا العَقْلُ وَالمَنْطِقُ، لُغَةٌ بَيْنَ مَسَائِلِهَا تَرَابُطٌ مَتِيْنٌ، وَعَلاقَةٌ قَوِيَّةٌ وَطِيدَةٌ..لُغَةٌ هِيَ كَمَا تَبَيَّنَ شَيءٌ مِنْ خَصَائِصِهَا وَمُمَيِّزَاتِهَا فِي الفَصْلِ السَّابِقِ.

وَهِيَ لُغَةٌ فِي حَالَةٍ مِنَ القُوَّةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ فِي جَمِيْعِ نَوَاحِيْهَا، لَا تُقَارِبُهَا لُغَةٌ أُخْرَى مِنَ اللُّغَاتِ، فَكَيْفَ تُنَافِسُهَا وَتُدَانِيْهَا؟

فَإِذَا كَانَتِ اللُّغَةُ فِي هذِهِ الحَالَةِ السَّنِيَّةِ الرَّفِيْعَةِ، وَالمَكَانَةِ المَرمُوقَةِ المَنِيْعَةِ، فِي القُوَّةِ وَالبَسْطِ فِي جَوَانِبِهَا كُلِّهَا، فَلَيسَ هُنَاكَ مَنْ يَعْتَرِضُ عَلَى تَشَعُّبِ مَسَائِلِهَا، وَتَنَاثُرِ قَضَايَاهَا، وَصُعُوبَةِ الظَّفَرِ بِهَا، وَهذِهِ عَادَةُ كُلِّ شَيءٍ يَكُونُ رَفِيْعًا قَوِيًّا، فَلَا يُنَالُ إِلَّا بِالسَّيْرِ فِي نَيْلِهَا عَلَى الطَّرِيْقِ الوَعِرِ، وَالسَّبِيْلِ الشَّائِكِ.

أفَلَا يُقالُ لَنَا: كَيْفَ تُضْبطُ هذهِ العُلُومُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَكَدٍّ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ؟ مِنْ غَيْرِ بَذْلِ المَجْهُودِ، وَالهِمَّةِ الكَؤُودِ؟ إِنَّهَا لُغَةٌ أَشْبَهُ بالسِّحْرِ الحَلَالِ، لُغَةٌ تَرْتَكِزُ عَلَى الكِنَايَاتِ وَالمَجَازَاتِ أَكْثَرَ مِنَ التَّصْرِيْحِ، لغةٌ تَرَاكَمَتْ أَسَالِيبُهَا وَتَوَاتَرَتْ، وَفِي كُلِّ تَغيِيرٍ حَاصِلٍ فِيْهَا يَتَغَيَّرُ المَعْنَى وَلَوْ كَانَ تَغيِيرًا يَسِيْرًا، مِنَ الحَذْفِ وَالذِّكْرِ، وَالإِضْمَارِ وَالإِظْهَارِ، وَالتَّعرِيفِ وَالتَّنْكِيرِ، وَالتَّقدِيمِ وَالتَّأخيرِ، وَبِتَغيِيرِ الحَرَكَةِ، وَغيْرِهَا.. إِذَنْ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ صَعْبَةَ المَنَالِ؛ لأَنَّهَا كَثِيرَةُ النَّوَالِ.

وَإِذَا أَتَاكَ وَاحِدٌ وَقَالَ لَكَ: إِنَّ العَرَبِيَّةَ وَالتَّضَلُّعَ فِيْهَا سَهْلَةٌ فَهُوَ لَا يَصْدُقُ القَوْلَ، إِلَّا إِذَا أَرَادَ المَرَاحِلَ الِابْتِدَائِيَّةَ، وَإِلَّا فَهِيَ لُغَةٌ لَا يُسْبَرُ غَوْرُهَا، وَلَا يُدْرَكُ قَعْرُهَا، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ جَمَعَهَا كُلَّا بِحَيْثُ لَمْ يَذْهَبْ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيءٌ، قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِي (الرِّسَالَةِ): «لِسَانُ الْعَرَبِ أَوْسَعُ الأَلْسِنَةِ مَذْهبًا، وَأَكْثَرُهَا أَلْفَاظًا، وَلَا نَعْلَمُهُ يُحِيطُ بِجَمِيْعِ عِلْمِهِ إِنْسانٌ غَيْرُ نبيٍّ، ولكِنَّهُ لا يَذْهَبُ مِنهُ شيءٌ عَلَى عَامَّتِهَا، حَتَّى لَا يَكُونَ مَوجُودًا فِيهَا مَنْ يَعرِفُهُ. وَالعِلْمُ بِهِ عِنْدَ العَرَبِ كَالعِلْمِ بالسُّنَّةِ عِندَ أهلِ الفِقْهِ، لا نَعْلَمُ رَجُلًا جَمعَ السُّنَنَ فَلَمْ يَذْهَبْ مِنْهَا عليهِ شَيْءٌ»[(١)].

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَفَوَّقَ فِيْهَا وَتَظْفَرَ بِأَسْرَارِهَا، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُعْطِيَهَا مِنَ الجُهْدِ وَالمُثَابَرَةِ مَا تَسْتَحِقُّهُ هذِهِ اللُّغَةُ عَلَى قَدْرِ عُلُوْمِهَا وَمَسَائِلِهَا.

أخيرًا: فَلْيَعْلَمِ القَارِئُ الحَبِيبُ أَنَّنِي لَا أُرِيدُ أَنْ أُقَنِّطَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ عَنْ تَعَلُّمِ العَرَبِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّنِي مُوقِنٌ أَنَّ العَرَبِيَّةَ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا عَلَى مِصْرَاعَيْهِ فِي وجُوهِ كُلِّ طَالِبٍ وَرَاغِبٍ، وَلَا تَطْرُدُ أَحَدًا عِنْدَ بَابِهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ نِيَّتُهُ فِي تَعَلُّمِهَا خِدْمَةَ دِيْنِ اللهِ تَعَالَى وَالدِّفَاعَ عَنْهُ.

---

(١) الرِّسَالَةُ للشَّافِعِيِّ (ص٣٤).

ولَا تَنْسَ أيُّهَا القَارِئُ الحَبِيْبُ أنَّ أَكْثَرَ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ لَمْ يَكُونُوا مِنَ العَرَبِ، وَمَا دَامُوا اشْتَغَلُوا بِهَا وَأَعْطَوْهَا أَوْقَاتَهُم، أَتْقَنُوهَا وَصَارُوا أَرْبَابَهَا بِلَا مُنَازِعٍ، وَاَحْتَاجَ العَرَبُ إِلَى عُلُومِهِم وَتَتَلْمَذُوا عَلَى أَيْدِيْهِم، فَإِذَا اشْتَغَلْتَ بِهَا أَنْتَ وَخَصَّصْتَ شَيئًا مِنْ وَقْتِكَ لِتَعَلُّمِهَا وَتَنْمِيَتِهَا، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ خَلِيْلَ العَصْرِ، وَسِيْبَوَيْهِ الزَّمَانِ.

وَلكِنَّ الكَلامَ السَّابِقَ نَابِعٌ عَنْ جَهْلِ بَعْضِ النَّاسِ حيثُ يَظُنُّونَ أنَّ قُوَّةَ اللُّغَاتِ فِي سُهُولَتِهَا، أَوْ: فِي إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا، فَإِذَا كَانَتْ سَهْلَةً وَرَغِبَ النَّاسُ فِيْهَا، قَالُوا بِقُوَّتِهَا وَرُقِيِّهَا، وَإِلَّا فَلَا، وَهذَا المَنْطِقُ سَنُنَاقِشُهُ فِي الفَصْلِ الآتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

لَيْسَ التَّسْهِيْلُ مَحْمُودًا دومًا

إنَّ مِمَّا ابتُلِيْنَا بِهِ فِي هذِهِ الأزمِنَة الـمُتَأَخِّرَة، فِي عَصْرِ التَّقَاعُسِ وَالكَسَلِ، عَصْرِ الانِهزَامِ وَالخَلَلِ، عَصْرِ الخِيَانَةِ وَالدَّجَلِ، وَتزوِيرِ الحَقَائِقِ وَالخَبَلِ، هُوَ ظُهُورُ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى الشَّاشَاتِ وَالقَنَوَاتِ، وآخَرِيْنَ بالتَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيْفِ، أَعْلَنُوا الحَرْبَ عَلَى الفُصْحَى وَوَصَفُوهَا بالتَّعْقِيْدِ، وَنَادَوا بِتَسْهِيْلِ القَوَاعِدِ وَالنَّظَرِ فِيْهَا نَظْرَةً جَدِيْدَةً بِحَذْفٍ وَتَعْدِيلٍ، وَنَقْصٍ وَتَبْدِيلٍ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم يَقْتَرِحُ اقترَاحا، فَكُلٌّ يُعَادِي مَا لَا يُحْسِنُهُ وَتَظَاهَرَ نَصَّاحا، وَيُبَرِّرُ تَقَاعُسَهُ فِي الفَهْمِ وَالضَّبْطِ بِشَنِّ الهَجَمَاتِ عَلَى العَرَبِيَّةِ البرِيئَةِ، وَاتِّهَامِهَا بالجُمُودِ وَالرَّكَاكَةِ وَالتَّقَوْقُعِ.

فَإِذَا جَمَعْتَ مَا يُرِيدُونَ حَذْفَهُ وَتَعْدِيلَهُ مِنَ القَوَاعِدِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مِنَ القَوَاعِدِ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يكْفِيهَا شَرْحُ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ(١).

لأنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم يَدْعُو إِلَى حَذْفٍ عَلَى قدْرِ فَهْمِهِ وَمُسْتَوَاهُ وَمَهْمَا ضَعُفَ الفَهْمُ، كَثُرَ طَلَبُ الحَذْفِ وَالهَدْمِ وَالرَّدْمِ، وَهكَذَا تَنْعَكِسُ النَّتِيْجَةُ عَلَى قَدْرِ الفَهْمِ وَالوَهم.

فَمُشْكِلَةُ هؤلاءِ مَعَ العَرَبِيَّةِ هِيَ أنَّ بَعْضَ تَلامِيذِ الـمَدَارِسِ لَا يُتْقِنُونَ القَوَاعِدَ، أَوْ: لَا يَفْهَمُهَا مَنْ يُسَمَّوْنَ مُثَقَّفِينَ، فَلِذلِكَ قَامُوا بالـدَّعْوَةِ إِلَى تَيْسِيرِ القَوَاعِدِ وَحَذْفِ بَعْضِ مَا فِيْهَا(٢).

---

(١) هذَا الكَلَامُ لِغَيْرِ صَاحِبِ الجِنَايَةِ وَأمثالِهِ؛ لأنَّهُم يَدْعُونَ إِلَى إِهْمَالِ الفُصْحَى وَوَأْدِهَا حَتَّى تمُوتَ، فَهَيْهَاتَ أَنْ يَرَوا هذَا اليَوْمَ.

(٢) لَا نَتَّهِمُ نِيَّاتِ كُلِّ هؤلاءِ لأنَّ فِيهِمْ مَنْ أَدَّاهُ إِلَى هذَا النِّدَاءِ حُبُّ العَرَبِيَّةِ، وَخَوْفُ ابتِعَادِ النَّاسِ عَنْهَا.

وَإِنَّنِي أقُولُ لهؤلاءِ جَمِيعًا: إِنَّ مُشْكِلَةَ التَّلامِيذِ لَيسَتْ مُنْحَصِرَةً فِي العَرَبِيَّةِ حَتَّى نَتَّهِمَهَا وَحْدَهَا، بَلِ: العُلُومُ الأُخْرَى تُعَانِي مِنْ جَهْلِ التَّلامِيْذِ، فَهَلْ هؤلاءِ الطَّلَبَةُ أَتْقَنُوا الفِيْزِيَاءَ وَالكِيْمِيَاءَ أصْلًا؟ وَالـمُشْكِلَةُ أَنَّكَ تَجِدُ بعضًا منهُم لَا يَنْجَحُ حَتَى فِي التَّربِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ؟ فَهَلِ الـمُشْكِلَةُ فِي اللُّغَةِ، أَمْ: هِيَ فِي التَّلامِيذِ[1]؟

وَلَا أُنْكِرُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ تلمِيذٌ يُتْقِنُ الفِيزِيَاءَ وَالكِيمياءَ وَالأَحيَاءَ، وَلكِنَّهُ لَا يُتْقِنُ العَرَبِيَّةَ كَمَا أتَى بهذَا الكَلامِ أوزونُ أيضًا، وَلكِنَّ هذَا أيضًا لَا يَرْجِعُ إِلَى العَرَبِيَّة، بَلْ: يَرْجِعُ إِلَى التَّلامِيْذِ، وَطَبِيْعَةِ حَالِهِم؛ لأَنَّ هُنَاكَ مَنْ هُوَ مُستوَاهُ ضَعِيفٌ فِي ضَبْطِ اللُّغَاتِ، وَلَا يُمْكِنُهُ ضَبطُهَا وَاستِيْعَابُهَا، كَمَا هُنَاكَ تأثِيرَاتٌ خارِجِيَّةٌ -كَالعَامِلِ النَّفْسِيِّ مَثَلًا- أَثَّرَتْ فِي اختِلاقِ الـمُشْكِلَة.

وَلَيْستِ العَرَبِيَّةُ وَحْدَهَا تُوَاجِهُ هذِهِ الـمُشْكِلَةَ، فَاللُّغَاتُ كُلُّهَا تُواجِهُهَا، فَمثَلًا أنَا رأيتُ هذِهِ الـمُشْكِلَةَ بِنَفْسِي بالنِّسْبَةِ لِلُّغَةِ الكُرديَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، حيثُ أرَى طُلَّابًا مُتمَيزِينَ فِي العُلُومِ التَّجرِيبِيَّةِ مُتَفَوِّقينَ فِيهَا، وَمَعَ هذَا لَا يُتْقِنُونَ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ الكُرْدِيَّةِ، وَهكَذَا الشَّأنُ فِي اللُّغَاتِ الأُخْرَى.

وَمِنَ الـمُهِمِّ أَنْ لَا أَنْسَى الإِشَارَةَ إِلَى أَنَّ تَغييرَ القَوَاعِدِ أَمرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَلا يُمْكِنُ التَّصرُّفُ فِيْهَا بِحَالٍ؛ لأَنَّ هذِهِ اللُّغَةَ لُغَةُ كَلامٍ سَمَاوِيٍّ، لَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا إِلَا بِهذِهِ اللُّغَةِ، وَإِذَا اقْتَصَرْنَا عَلَى القَدْرِ الهَيِّنِ اليَسِيْرِ مِنْهَا، فإِنَّنَا ضَيَّعنَا لُغَةَ القُرآنِ، وَيَكْفِي هذَا الأَمرَ شَنَاعَةً أَنَّهُ يُؤَثِّرُ فِي دِقَّةِ فَهْمِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يُفْهَمُ عَلَى مُرَادِهِ بَعدَ هذَا.

---

(١) سَيأتِي مَعَنَا الكَلامُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الـمَنَاهِجِ وَمَا تَتَعَلَّقُ بِتَدْرِيسِ العَرَبِيَّةِ.

وَلكِنَّ الكَلامَ العَدْلَ فِي هذَا البَابِ هُوَ أَنْ تُوْضَعَ مَنَاهِجُ مُخْتَلِفَةٌ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَهذَا قَدْ فُعِلَ -وَالحَمْدُ للهِ- وَكُتِبَتْ مَنَاهِجُ كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ، تَعْتَمِدُ عَلَى أَجزَاءٍ ضَرورِيَّةٍ للعَامَّةِ، وَلَا تُدْخِلُهُم فِي دَقَائِقِ المَسَائِلِ، وَاكْتَفَتْ بالضَّرُورِيِّ مِنْ كُلِّ بَابٍ، دُونَ تَفصِيلٍ وَإِطْنَابٍ، وَقَدْ مَالَتِ المَدَارِسُ الحُكُومِيَّةُ إِلَى هذَا أَيضًا وَسَهَّلَتِ المَنَاهِجَ للتَّلامِيْذِ، وَاقْتَصَرُوا عَلَى الأُصُولِ دُونَ التَّعَرُّضِ لِلخِلافَاتِ وَالتَّعلِيْلَاتِ.

وَبَعْدَ هذَا إِذَا جَاءَ وَاحِدٌ وَطَلَبَ تَغيِيرَ النَّحْوِ وَقَوَاعِدَ اللُّغَةِ، وَدَعَا إِلَى سَلْخِ كُتُبِ المُتَقَدِّمِيْنَ وَالعَبَثِ بِهَا، فلَا نَشُكُّ فِي كَوْنِهِ عَدُوًّا خَائِنًا بَاعَ دِينَهُ وَعُرُوبَتَهُ بِتَصْفِيقَةٍ فِي الإِعْلامِ، أَوْ: هُوَ جَاهِلٌ بالوَاقِعِ وَلَا يُدْرِكُ حَقِيقَةَ هذِهِ المؤامَرَاتِ الَّتِي صَارَ هُوَ أَيضًا وَقُودًا لَهَا، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

أيَّ شَيْءٍ نَحْذِفُ مِن النَحو؟

كُنَّا أَشَرْنَا سَابِقًا إِلَى مَقَالِ بَعضِهِم فِي الدَّعْوَةِ إِلَى حَذْفِ أَشْيَاءَ مِنَ النَّحْوِ، سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الـمُدَافِعِينَ عَنِ النَّحْوِ، أَوْ: مِنَ الـمُعَارِضِينَ لَهُ، فَالدَّافِعُ للصِّنْفِ الأَوَّلِ إِمَّا كَانَ اعتِقَادِيًّا كَمَا حَصَلَ لِابْنِ مَضَاءٍ فِي كِتَابِهِ: (الرَّدِّ عَلَى النُّحَاةِ) فِي بَعْضِ اعتِرَاضَاتِهِ، أَوْ: كَانَ الدَّافِعُ تَيْسِيرَ النَّحْوِ وَتَسْهِيلَهُ حَسَبَ ظُنُونِهِم.

أَمَّا الثَّانِي فَالدَّافِعُ لَهُم كَانَ حِقْدًا عَلَى العَرَبِيَّةِ، وَقَصْدًا للنَّيْلِ مِنْهَا وَإِبْعَادِ النَّاسِ عَنْهَا، بِشَنِّ حَمَلَاتٍ عَشْوَاءَ جَائِرَةٍ، وَحَرْبٍ ضَرُوسٍ ضَارِيَةٍ عَلَيْهَا وَعَلَى قَوَاعِدِهَا وَعُلَمَائِهَا وَالـمُتَمَسِّكِينَ بِهَا.

فَلَوْ سَأَلْتَهُم وَاحِدًا وَاحِدًا وقُلْتَ لَهُم: أَيَّ شَيْءٍ نَحْذِفُ؟ وَلِـمَاذَا؟ وَمَا الدَّافِعُ؟ لَرَأَيتَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم أَعْجَمَ أَبْكَمَ أَصَمَّ لَا يَمْلِكُ جَوَابا، وَمِنْهُ تَعْلَمُ أَنَّ طَرِيْقَهُ فِي النَّقْدِ لَيْسَ صَوَابا، وَلكِنَّهُ جَارَ عَلَى العَرَبِيَّةِ وَاعْتَرَض، وَاحتَرَقَ حِقْدًا وَامْتَعَض.

وهذِهِ الحَالَةُ تُذَكِّرُنِي بِمَا قَالَهُ الجُرْجَانِيُّ فِي أَوَائِلِ (أسرَارِهِ) مِنِ اعتِرَاضِ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى قَوَاعِدَ مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ وَدَعَوا إِلَى حَذْفِهَا، فَنَاقَشَهُمُ الإِمَامُ فَقَالَ: «وَأَمَّا زُهْدُهُمْ فِي النَّحْوِ وَاحْتِقَارُهُمْ لَهُ، وَإِصْغَارُهُمْ أَمْرَهُ وَتَهَاوُنُهُمْ بِهِ، فَصَنِيعُهُمْ فِي ذَلِكَ أَشْنَعُ مِنْ صَنِيعِهِمْ فِي الَّذِي تَقَدَّمَ، وَأَشْبَهُ بِأَنْ يَكُونَ صَدًّا عَنْ كِتَابِ اللهِ وَعَنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهِ، ذَاكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ بُدًّا مِنْ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْأَلْفَاظَ مُغْلَقَةٌ عَلَى مَعَانِيهَا، حَتَّى يَكُونَ الْإِعْرَابُ هُوَ الَّذِي يَفْتَحُهَا، وَأَنَّ الْأَغْرَاضَ كَامِنَةٌ فِيهَا حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْـمُسْتَخْرِجَ لَهَا، وَأَنَّهُ الْـمِعْيَارُ الَّذِي لَا يَتَبَيَّنُ نُقْصَانُ كَلَامٍ وَرُجْحَانُهُ حَتَّى يُعْرَضَ عَلَيْهِ، وَالْمِقْيَاسُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ صَحِيحٌ مِنْ سَقِيمٍ حَتَّى يُرْجَعَ

إِلَيْهِ، لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ يُنْكِرَ حِسَّهُ، وَإِلَّا مَنْ غَالَطَ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا عُذْرُ مَنْ تَهَاوَنَ بِهِ وَزَهِدَ فِيهِ، وَلَمْ يَرَ أَنْ يَسْتَقِيَهُ مِنْ مَصَبِّهِ، وَيَأْخُذَهُ مِنْ مَعْدِنِهِ، وَرَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالنَّقْصِ، وَالْكَمَالُ لَهَا مُعْرِضٌ وَآثَرَ الْغَبِينَةَ وَهُوَ يَجِدُ إِلَى الرِّبْحِ سَبِيلًا.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّا لَمْ نَأْبَ صِحَّةَ هَذَا الْعِلْمِ وَلَمْ نُنْكِرْ مَكَانَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ فِي مَعْرِفَةِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا أَنْكَرْنَا أَشْيَاءَ كَثَّرْتُمُوهُ بِهَا، وَفُضُولَ قَوْلٍ تَكَلَّفْتُمُوهَا، وَمَسَائِلَ عَوِيصَةً تَجَشَّمْتُمُ الْفِكْرَ فِيهَا. ثُمَّ لَمْ تَحْصُلُوا عَلَى شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُغْرِبُوا عَلَى السَّامِعِينَ، وَتُعَايُوا بِهَا الْحَاضِرِينَ!.

قِيلَ لَهُمْ: خَبِّرُونَا عَمَّا زَعَمْتُمْ أَنَّهُ فُضُولُ قَوْلٍ، وَعَوِيصٌ لَا يَعُودُ بِطَائِلٍ، مَا هُوَ؟ فَإِنْ بَدَأُوا فَذَكَرُوا مَسَائِلَ التَّصْرِيفِ الَّتِي يَضَعُهَا النَّحْوِيُّونَ لِلرِّيَاضَةِ، وَلِضَرْبٍ مِنْ تَمْكِينِ الْمَقَايِيسِ فِي النُّفُوسِ، كَقَوْلِهِمْ: كَيْفَ تَبْنِي مِنْ كَذَا كَذَا؟ وَكَقَوْلِهِمْ: مَا وَزْنُ كَذَا؟ وَتَتَبُّعَهُمْ فِي ذَلِكَ الْأَلْفَاظَ الْوَحْشِيَّةَ كَقَوْلِهِمْ: مَا وَزْنُ (عِزْوِيتَ)؟ وَمَا وَزْنُ (أَرْوَنَانَ)؟ وَكَقَوْلِهِمْ فِي بَابِ مَا لَا يَنْصَرِفُ: لَوْ سَمَّيْتَ رَجُلًا بِكَذَا، كَيْفَ يَكُونُ الْحُكْمُ؟ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، وَقَالُوا: أَتَشُكُّونَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي إِلَّا كَدَّ الْفِكْرِ وَإِضَاعَةَ الْوَقْتِ؟

قُلْنَا لَهُمْ: أَمَّا هَذَا الْجِنْسُ فَلَسْنَا نَعِيبُكُمْ إِنْ لَمْ تَنْظُرُوا فِيهِ وَلَمْ تُعْنَوْا بِهِ، وَلَيْسَ يُهِمُّنَا أَمْرُهُ. فَقُولُوا فِيهِ مَا شِئْتُمْ وَضَعُوهُ حَيْثُ أَرَدْتُمْ. فَإِنْ تَرَكُوا ذَلِكَ وَتَجَاوَزُوهُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى أَغْرَاضِ وَاضِعِ اللُّغَةِ، عَلَى وَجْهِ الْحِكْمَةِ فِي الْأَوْضَاعِ، وَتَقْرِيرِ الْمَقَايِيسِ الَّتِي اطَّرَدَتْ عَلَيْهَا، وَذِكْرِ الْعِلَلِ الَّتِي اقْتَضَتْ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى مَا أُجْرِيَتْ عَلَيْهِ، كَالْقَوْلِ فِي الْمُعْتَلِّ، وَفِيمَا يَلْحَقُ الْحُرُوفَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي هِيَ (الْوَاوُ وَالْيَاءُ وَالْأَلِفُ) مِنَ التَّغْيِيرِ بِالْإِبْدَالِ وَالْحَذْفِ وَالْإِسْكَانِ. أَوْ: كَكَلَامِنَا مَثَلًا عَلَى التَّثْنِيَةِ وَجَمْعِ السَّلَامَةِ، لِمَ كَانَ

إِعْرَابُهُمَا عَلَى خِلَافِ إِعْرَابِ الْوَاحِدِ، وَلِمَ تَبِعَ النَّصْبُ فِيهِمَا الْجَرَّ؟ وَفِي النُّونِ أَنَّهُ عِوَضٌ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالتَّنْوِينِ فِي حَالٍ، وَعَنِ الْحَرَكَةِ وَحْدَهَا فِي حَالٍ؟- وَالْكَلَامِ عَلَى مَا يَنْصَرِفُ وَمَا لَا يَنْصَرِفُ، وَلِمَ كَانَ مَنْعُ الصَّرْفِ؟ وَبَيَانِ الْعِلَّةِ فِيهِ. وَالْقَوْلِ عَلَى الْأَسْبَابِ التِّسْعَةِ وَأَنَّهَا كُلَّهَا ثَوَانٍ لِأُصُولٍ. وَأَنَّهُ إِذَا حَصَلَ مِنْهَا اثْنَانِ فِي اسْمٍ أَوْ تَكَرَّرَ سَبَبٌ، صَارَ بِذَلِكَ ثَانِيًا مِنْ جِهَتَيْنِ، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ أَشْبَهَ الْفِعْلَ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ ثَانٍ لِلاسْمِ وَالِاسْمُ: الْمُقَدَّمُ وَالْأَوَّلُ. وَكُلِّ مَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى؟

قُلْنَا: إِنَّا نَسْكُتُ عَنْكُمْ فِي هَذَا الضَّرْبِ أَيْضًا، وَنَعْذِرُكُمْ فِيهِ وَنُسَامِحُكُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنَّا بِأَنْ قَدْ أَسَأْتُمُ الِاخْتِيَارَ، وَمَنَعْتُمْ أَنْفُسَكُمْ مَا فِيهِ الْحَظُّ لَكُمْ وَمَنَعْتُمُوهَا الِاطِّلَاعَ عَلَى مَدَارِجِ الْحِكْمَةِ وَعَلَى الْعُلُومِ الْجَمَّةِ. فَدَعُوا ذَلِكَ وَانْظُرُوا فِي الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِصِحَّتِهِ وَبِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ، هَلْ حَصَّلْتُمُوهُ عَلَى وَجْهِهِ؟ وَهَلْ أَحَطْتُمْ بِحَقَائِقِهِ؟ وَهَلْ وَفَّيْتُمْ كُلَّ بَابٍ مِنْهُ حَقَّهُ وَأَحْكَمْتُمُوهُ إِحْكَامًا يُؤَمِّنُكُمُ الْخَطَأَ فِيهِ إِذَا أَنْتُمْ خُضْتُمْ فِي التَّفْسِيرِ، وَتَعَاطَيْتُمْ عِلْمَ التَّأْوِيلِ، وَوَازَنْتُمْ بَيْنَ بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَبَعْضٍ، وَأَرَدْتُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الصَّحِيحَ مِنَ السَّقِيمِ. وَعُدْتُمْ فِي ذَلِكَ وَبَدَأْتُمْ، وَزِدْتُمْ وَنَقَصْتُمْ؟

وَهَلْ رَأَيْتُمْ إِذْ قَدْ عَرَفْتُمْ صُورَةَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ وَأَنَّ إِعْرَابَهُمَا الرَّفْعُ، أَنْ تَتَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَنْظُرُوا فِي أَقْسَامِ خَبَرِهِ، فَتَعْلَمُوا أَنَّهُ يَكُونُ مُفْرَدًا وَجُمْلَةً.

وَأَنَّ الْمُفْرَدَ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَحْتَمِلُ ضَمِيرًا لَهُ وَإِلَى مَا لَا يَحْتَمِلُ الضَّمِيرَ. وَأَنَّ الْجُمْلَةَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ جُمْلَةٍ وَقَعَتْ خَبَرًا لِمُبْتَدَأٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهَا ذِكْرٌ يَعُودُ إِلَى الْمُبْتَدَأِ، وَأَنَّ هَذَا الذِّكْرَ رُبَّمَا حُذِفَ لَفْظًا وَأُرِيدَ مَعْنًى. وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ حَتَّى يَكُونَ فِي الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ، إِلَى سَائِرِ مَا يَتَّصِلُ بِبَابِ الِابْتِدَاءِ مِنَ الْمَسَائِلِ اللَّطِيفَةِ وَالْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا؟

وَإِذَا نَظَرْتُمْ فِي الصِّفَةِ مَثَلًا، فَعَرَفْتُمْ أَنَّهَا تَتْبَعُ الْـمَوْصُوفَ، وَأَنَّ مِثَالَهَا قَوْلُكَ: (جَاءَنِي رَجُلٌ ظَرِيفٌ) وَ(مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الظَّرِيفِ)، هَلْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ عِلْمًا؟ وَأَنَّ هَاهُنَا صِفَةً تُخَصِّصُ، وَصِفَةً تُوَضِّحُ وَتُبَيِّنُ، وَأَنَّ فَائِدَةَ التَّخْصِيصِ غَيْرُ فَائِدَةِ التَّوْضِيحِ، كَمَا أَنَّ فَائِدَةَ الشِّيَاعِ غَيْرُ فَائِدَةِ الْإِبْهَامِ، وَأَنَّ مِنَ الصِّفَةِ صِفَةً لَا يَكُونُ فِيهَا تَخْصِيصٌ وَلَا تَوْضِيحٌ، وَلَكِنْ يُؤْتَى بِهَا مُؤَكِّدَةً كَقَوْلِهِمْ: (أَمْسِ الدَّابِرُ). وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: [فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ](سُورَةِ الْحَاقَّةِ: ١٣) وَصِفَةً يُرَادُ بِهَا الْـمَدْحُ وَالثَّنَاءُ، كَالصِّفَاتِ الْجَارِيَةِ عَلَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى جَدُّهُ؟ وَهَلْ عَرَفْتُمُ الْفَرْقَ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالْخَبَرِ، وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَبَيْنَ الْحَالِ؟ وَهَلْ عَرَفْتُمْ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ تَتَّفِقُ فِي أَنَّ كَافَّتَهَا لِثُبُوتِ الْمَعْنَى لِلشَّيْءِ ثُمَّ تَخْتَلِفُ فِي كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ الثُّبُوتِ؟

وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا وَاحِدًا وَاحِدًا وَيَسْأَلُوا عَنْهَا بَابًا بَابًا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: لَيْسَ إِلَّا أَحَدُ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا أَنْ تَقْتَحِمُوا الَّتِي لَا يَرْضَاهَا الْعَاقِلُ فَتُنْكِرُوا أَنْ يَكُونَ بِكُمْ حَاجَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَفِي خَبَرِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَفِي مَعْرِفَةِ الْكَلَامِ جُمْلَةً إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَتَزْعُمُوا أَنَّكُمْ إِذَا عَرَفْتُمْ مَثَلًا: أَنَّ الْفَاعِلَ رُفِعَ لَمْ يَبْقَ عَلَيْكُمْ فِي بَابِ الْفَاعِلِ شَيْءٌ تَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَإِذَا نَظَرْتُمْ إِلَى قَوْلِنَا: (زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ) لَمْ تَحْتَاجُوا مِنْ بَعْدِهِ إِلَى شَيْءٍ تَعْلَمُونَهُ فِي الِابْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ، وَحَتَّى تَزْعُمُوا مَثَلًا أَنَّكُمْ لَا تَحْتَاجُونَ فِي أَنْ تَعْرِفُوا وَجْهَ الرَّفْعِ فِي [الصَّابِئُونَ] مِنْ سُورَةِ الْـمَائِدَةِ [الْمَائِدَة: ٦٩]، إِلَى مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِيهِ، وَإِلَى اسْتِشْهَادِهِمْ فِيهِ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الوَافِرِ]

وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ ... بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقِ

وَحَتَّى كَأَنَّ الْمُشْكِلَ عَلَى الْجَمِيعِ غَيْرُ مُشْكِلٍ عِنْدَكُمْ، وَحَتَّى كَأَنَّكُمْ قَدْ أُوتِيتُمْ أَنْ تَسْتَنْبِطُوا مِنَ الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ كُلِّ بَابٍ مَسَائِلَهُ كُلَّهَا، فَتَخْرُجُوا إِلَى فَنٍّ مِنَ التَّجَاهُلِ لَا يَبْقَى مَعَهُ كَلَامٌ.

وَإِمَّا أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ أَخْطَأْتُمْ حِينَ أَصْغَرْتُمْ أَمْرَ هَذَا الْعِلْمِ، وَظَنَنْتُمْ مَا ظَنَنْتُمْ فِيهِ، فَتَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ وَتُسَلِّمُوا الْفَضْلَ لِأَهْلِهِ، وَتَدَعُوا الَّذِي يُزْرِي بِكُمْ، وَيَفْتَحُ بَابَ الْعَيْبِ عَلَيْكُمْ وَيُطِيلُ لِسَانَ الْقَادِحِ فِيكُمْ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

هَذَا. وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ إِذْ تَرَكُوا هَذَا الشَّأْنَ تَرَكُوهُ جُمْلَةً، وَإِذْ زَعَمُوا أَنَّ قَدْرَ الْمُفْتَقَرِ إِلَيْهِ الْقَلِيلُ مِنْهُ، اقْتَصَرُوا عَلَى ذَلِكَ الْقَلِيلِ فَلَمْ يَأْخُذُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْفَتْوَى فِيهِ وَالتَّصَرُّفِ فِيمَا لَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهُ وَلَمْ يَخُوضُوا فِي التَّفْسِيرِ وَلَمْ يَتَعَاطَوُا التَّأْوِيلَ، لَكَانَ الْبَلَاءُ وَاحِدًا، وَلَكَانُوا إِذْ لَمْ يَبْنُوا لَمْ يَهْدِمُوا، وَإِذْ لَمْ يُصْلِحُوا لَمْ يَكُونُوا سَبَبًا لِلْفَسَادِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَجَلَبُوا مِنَ الدَّاءِ مَا أَعْيَى الطَّبِيبَ، وَحَيَّرَ اللَّبِيبَ، وَانْتَهَى التَّخْلِيطُ بِمَا أَتَوْهُ فِيهِ، إِلَى حَدٍّ يُئِسَ مِنْ تَلَافِيهِ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْعَارِفِ الَّذِي يَكْرَهُ الشَّغَبَ إِلَّا التَّعَجُّبُ وَالسُّكُوتُ. وَمَا الْآفَةُ الْعُظْمَى إِلَّا وَاحِدَةٌ، وَهِيَ أَنْ يَجِيءَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَيَجْرِيَ لَفْظُهُ، وَيَمْشِيَ لَهُ أَنْ يُكَثِّرَ فِي غَيْرِ تَحْصِيلٍ، وَأَنْ يُحَسِّنَ الْبِنَاءَ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ. وَأَنْ يَقُولَ الشَّيْءَ لَمْ يَقْتُلْهُ عِلْمًا. وَنَسْأَلُ اللهَ الْهِدَايَةَ وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي الْعِصْمَةِ»[١].

(١) دَلَائِلُ الإِعْجَازِ للجُرْجَانِيِّ (ص٢٩-٣٣).

كُتُبُ عُلُومِ العَرَبِيَةِ بَيْنَ التَعْقِيْدِ وَالتَسْهِيْلِ!

بَعْدَ أَنْ ذَكَرْنَا أُمُورًا مُهِمَّةً تَتَعَلَّقُ بِقَضِيَّةِ التَّوْضِيحِ وَالتَّقْرِيْبِ وَالتَّيسِيرِ فِي قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ، مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَذكُرَ شَيئًا عَنِ الكُتُبِ الـمُصَنَّفَةِ فِي عُلُومِ العَرَبِيَّةِ، وَمَنَاهِجِ الأَئِمَّةِ مِنْ حَيثُ التَّعقِيدُ وَالغُمُوضُ، وَالتَّوْضِيحُ وَالتَّسهِيلُ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ أمُورٍ وَمَسَائِلَ.

فَالـمُتَطَلِّعُ عَلَى الكُتُبِ اللُّغَوِيَّةِ وَالنَّحوِيَّةِ لِلْمُتَقَدِّمِينَ يَرَى صُعُوبَةً وَتَعْقِيْدًا لَا مَحَالَةَ، بِحَيْثُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْمُتَمَكِّنِ أَوِ: الـمُتَخَصِّصِ فِيهَا، وَهذَا التَّعْقِيْدُ يَخْتَلِفُ مِنْ كِتَابٍ إِلَى آخَرَ، فَمِنْهُم آثَرَ التَّعقِيْدَ فِي أَكْثَرِ مَبَاحِثِهِ وَمِنْهُم فِي أَقَلِّهَا وَمِنْهُم فِي كُلِّهَا، وَمِنْهُم لَم يُعَقِّدْ أَصلًا وَآثَرَ التَّسْهِيلَ وَالتَّوْضِيحَ مَهْمَا أَمْكَنَهُ ذلِكَ.

فَلَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ مَنَاهِجَ العُلَمَاءِ فِي التَّقْنِينِ وَضَبطِ القَاعِدَةِ وَشَرْحِهَا مُخْتَلِفَةٌ، فَمِنهُم مَنْ مَالَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعمِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَالَ إِلَى الإِيْضَاحِ وَالتَّيسِيرِ، وَبِكِلَا النَّوْعَيْنِ كَتَبَ أَئِمَّةٌ فُحُولٌ كُتُبًا وَمُصَنَّفَاتٍ، وَكَانَ التَّعقِيدُ وَالتَّيسِيرُ مُسْتَهْدَفَيْنِ وَأَتَوهُمَا قَصْدًا، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ لَاحِقًا، فَالنُّحَاةُ انْقَسَمُوا إِلَى أَقْسَامٍ مِنْ هذِهِ النَّاحِيَةِ كَمَا ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ قَائِلًا: «كَانَ يُقَالُ: النَّحْوِيُّونَ فِي زَمَانِهِمْ ثَلَاثَةٌ، وَاحِدٌ لَا يُفهَمُ كَلَامُهُ، وَهُوَ الرُّمَّانِيُّ، وَوَاحِدٌ يُفْهَمُ بعضُ كَلَامِهِ، وَهُو أَبُو عَلِيٍّ، وَوَاحِدٌ يُفْهَمُ جمِيعُ كَلَامِهِ، وَهُوَ أَبُو سَعِيدٍ السِّيرَافِيُّ»[1].

---

(١) تَارِيخُ الإِسلَامِ لِلذَّهبِيِّ (٢٧/ ٨٣). وَقَالَ الصَّفدِيُّ فِي: (الوَافِي بالوَفَياتِ) (٢١/ ٢٤٨): «وَوَاحِدٌ يُفهِمُ جَمِيعُ كَلَامِهِ بِلَا أُستَاذٍ وَهُوَ السِّيرافِيُّ» بِزِيَادَةِ: (بِلَا أُستَاذٍ)، وَهُوَ الـمُرَادُ مِنَ الكَلَامِ.

وَكَانَ أَبُو عُثْمَانَ الـمَازِنِيُّ يَمِيلُ إِلَى التَّعْقِيدِ فِي كَلَامِهِ إِلَى حَدٍّ رَوَى عَنهُ الـمُبَرِّدُ أَنَّهُ قَالَ: «قَرَأَ عَلَيَّ رَجُلٌ كِتَابَ سِيبْوَيْهِ فِي مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ، فَلَمَّا بَلَغَ آخِرَهُ قَالَ لِي: أَمَّا أَنْتَ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيرًا، وَأَمَّا أَنَا فَمَا فَهِمْتُ مِنْهُ حَرْفًا»[(١)].

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هذَا الشَّخْصُ بَلِيدَ الفَهْمِ خَامِلَ الذِّهْنِ، وَلَا مُبالِغًا فِي الكَلَامِ، فَإِنَّ كَلامَهُ يَدُلُّ عَلَى مَيْلِ الـمَازِنِيِّ الشَّدِيْدِ إِلَى التَّعقِيْدِ فِي الشَّرْحِ وَالتَّأْصِيْلِ.

وَهذَا التَّعقِيدُ فِي كُتُبِهِم يَرْجِعُ إِلَى أُمُورٍ مَلْمُوسَةٍ نَسْتَشْعِرُهَا وَنَلْمَسُهَا خِلَالَ البَحْثِ وَالتَّتَبُّعِ لِآثَارِهِم، وَيُمْكِنُ اخْتِصَارُهَا فِي هذِهِ النِّقَاطِ:

الأُوْلَى: كَانَ بَعْضُهُمْ يَرَى أَنَّ التَّعقِيْدَ وَالإِيْضَاحَ فِي الكِتَابِ بِمَثَابَةِ الجَنَاحَيْنِ للطَّائِرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ ضَمِّ أَحَدِهِمَا إِلَى الآخرِ حَتَّى يَكُونَ كَامِلًا، فَوُضُوحُ بَعْضِ أَجزَاءِ الكِتَابِ لَازِمٌ لِأَجْلِ عَدَمِ الإِملالِ، فَإِذَا كَانَ الكِتابُ كُلُّهُ مُعقَّدًا قَلَّ اهتِمَامُ النَّاسِ بِهِ وَفَرّوا منهُ، أَمَّا التَّعقِيدُ فَلِأَنَّ الكِتَابَ لَو كَانَ وَاضِحًا كُلُّهُ لَرَغِبَ النَّاسُ عَنهُ لأَنَّهُ لَيسَ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَى التَّفَكُّرِ فِيْهِ[(٢)].

وَفِي ذلِكَ قَالَ البَغْدَادِيُّ: «قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَرَأَيْتُ عَلِيَّ بنَ سُلَيْمَانَ يَذْهَبُ إِلَى غَيْرِ مَا قَالَ ابْنُ كَيسَانَ[(٣)] قَالَ: عَمِلَ سِيبَوَيْهِ كِتَابَهُ عَلَى لُغَةِ الْعَرَبِ وَخُطَبِهَا وَبَلَاغَتِهَا،

---

(١) إِنْبَاهُ الرُّوَاةِ للقِفطِيِّ (١/ ٢٨٣)، وَفَيَاتُ الأَعيَانِ لِابنِ خلكَانَ (١/ ٢٨٦)، وَفَوَاتُ الوَفَيَاتِ للكتبِيِّ (٤/ ٥١)، وَالوَافِي بالوَفيَاتِ للصَّفَدِيِّ (١٠/ ١٣٤).

(٢) وهذَا أَمرٌ نِسْبِيٌّ.

(٣) كَلامُ ابنِ كَيسَانَ هُوَ مَا نَقَلَهُ قَبْلَ هذَا الكَلَامِ: «قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: نَظَرنَا فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ، وَوجَدْنَا أَلْفَاظَهُ تَحْتَاجُ إِلَى عِبارَةٍ وإِيضَاحٍ؛ لِأَنَّهُ كتابٌ أُلِّفَ فِي زَمَانٍ كَانَ أَهلُهُ يأْلَفُونَ مِثْلَ هَذِه الأَلْفَاظِ، فَاخْتَصَرَ عَلَى مَذَاهِبِهِم».

فَجعَلَ فِيهِ بَيِّنًا مَشْرُوحًا، وَجعَلَ فِيهِ مُشْتَبِهًا، لِيَكُونَ لِمَنِ اسْتَنْبَطَ وَنَظَرَ فَضْلٌ، وعَلى هَذَا خَاطَبَهُمُ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ- بِالْقُرْآنِ.

قَالَ أَبُو جعْفرٍ: وَهذَا الَّذِي قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ حَسَنٌ؛ لِأَنَّ بِهذَا يَشْرُفُ قَدْرُ الْعَالِمِ وتَفضُلُ مَنْزِلَتُهُ، إِذْ كَانَ يُنَالُ الْعِلْمُ بالفِكْرَةِ وَاسْتِنْبَاطِ الْمعْرِفَةِ، وَلَو كَانَ كُلُّه بَيِّنًا لَاسْتَوَى فِي عِلْمِهِ جَمِيعُ مَنْ سَمِعَهُ فَيبْطُلُ التَّفَاضُلُ، وَلَكِنْ يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الشَّيْءَ بِالتَّدَبُّرِ وَلذَلِكَ لَا يمَلُّ؛ لِأَنَّهُ يَزْدَادُ فِي تَدَبُّرِهِ عِلْمًا وَفَهْمًا»[1].

الثَّانِيَةُ: قَدْ يَكُونُ مَوْضُوعُ الكِتَابِ خَاصًّا بالمَسَائِلِ المُعقَّدَةِ، وَالكَلِمَاتِ الحُوشِيَّةِ وَبَيَانِهَا، وَغيْرِهَا مِمَّا يَتَطَلَّبُ استِغْلاقًا وَتَعْقِيدًا، كَمَا اعتَرَضَ بعضُهُم عَلَى لَامِيَّةِ الأَفْعَالِ لِابْنِ مَالِكٍ وَاسْتَهْزَأَ بِهَا، مَعَ أنَّ النَّظْمَ حَاوٍ لِكَثِيرٍ مِنَ المُفْرَدَاتِ الغَرِيْبَةِ وَالحُوشِيَّةِ، وهذِهِ أبياتٌ صَعْبَةٌ مِنهَا (وَلَا مَطْعَنَ عَلَى صَاحِبِهِ):

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَالضَّمَّ مِنْ (فَعُلَ) الْزَمْ فِي الْمُضَارِعِ وَافْـ ـتَحْ مَوْضِعَ الْكَسْرِ فِي الْمَبْنِيِّ مِنْ فَعِلَا
مُضَاعَفًا مُدْغَمًا أَمْ لَا كَحَسَّ بِهِ وَعَضَّ مَصَّ وَحَمَّ مَلَّهُ مَلَلَا
وَخَبَّ صَبَّ وَطَبَّ لَجَّ بَحَّ وَوَدْ دَ بَرَّ لَذَّ وَشَلَّتْ يَدُهُ شَلَلَا
وَحَرَّ وَمَرَّ مَسَّ هَشَّ لَهُ وَبَشَّ سَفَّ وَشَمَّ صَنَّ مَعْ زَلِلَا
وَجْهَانِ فِيهِ مِن احْسِبْ مَعْ وَغِرْتَ وَحِرْ تَ أَنْعِمْ بَئِسْتَ يَئِسْتَ اوْلِهْ يَبِسْ وَهِلَا
وَمِثْلُ يَحْسِبُ ذِي الوَجْهَيْنِ مِنْ فَعِلَ يَلِغْ يَبِقْ تَحِمُّ الحُبْلَى اشْتَهَتْ أُكُلَا

الثَّالِثَةُ: تعْقِيدُ الكُتُبِ اللُّغَوِيَّةِ بِسَبَبِ تَدَخُّلِ المَنْطِقِ وَالفَلْسَفَةِ وَشَوَائِبِهِمَا، فِي

---

(١) خِزَانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ لِلبَغْدَادِيِّ (١/ ٣٧٢).

تَقرِيرِ مَسَائِلِهَا وَتَعلِيلَاتِها، وَمُنَاقَشَةِ الآرَاءِ فِيْهَا، كَمَا نَجِدُ الرُّمَّانِيَّ مَالَ إِلَى هذِهِ الطَّرِيْقَةِ وَارْتَضَاهَا، وَلِذَلِكَ نَقَلَ الذَّهَبِيُّ قَائِلًا: «كَانَ يُقَالُ: النَّحْوِيُّونَ فِي زَمَانِهِمْ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ لَا يُفهَمُ كَلَامُهُ، وَهُوَ الرُّمَّانِيُّ..»[(١)].

وَقَالَ أَيضًا: «كَانَ رَأسًا فِي عِدَّةِ فُنُونٍ وَسَمَاءِ العَرَبِيَّةِ، وَكَانَ يُخْرِجُ كَلَامَهُ فِي النَّحْوِ بِالمَنْطِقِ، حَتَّى قَالَ فِيهِ أَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ: (إِنْ كَانَ النَّحْوُ مَا يَقُولُهُ الرُّمَّانِيُّ، فَلَيْسَ مَعَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّحْوُ مَا نَقُولُهُ، فَلَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ)»[(٢)].

وَكَذَا ابنُ السَّرَّاجِ فَإِنَّهُ امْتَزَجَ المَنْطِقَ بِالنَّحْوِ وَلكِنَّهُ غَلَبَ عَلَى أُسلُوبِهِ السُّهُولَةُ وَالوضُوحُ، وَقَالَ عنهُ ابنُ الأنبارِيِّ: «وَلَهُ مُصَنَّفَاتٌ حَسَنَةٌ، وَأَحْسَنُهَا وَأَكْبَرُهَا كِتَابُ (الأُصُولِ)، فَإِنَّهُ جمَعَ فِيْهِ أُصُولَ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ. وَأَخَذَ مَسَائِلَ سِيْبَوَيْهِ وَرَتَّبَهَا أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ»[(٣)].

وَأَشَارَ القِفْطِيُّ إِلَى اهتِمَامِ ابْنِ السَّرَّاجِ بِالمَنْطِقِ فِي كِتَابِهِ هذَا حيثُ قَالَ فِي تَرْجَمَةِ العَبْدِيِّ النَّحْوِيِّ: «وَلَمْ يَكُنْ للعَبْدِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- أُنْسَةٌ بِشَيْءٍ مِنَ العُلُوْمِ القَدِيْمَةِ، وَدَلِيْلُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا عَابَ كِتَابَ (الأُصُوْلِ) لِابنِ السَّرَّاجِ، قَالَ: (أَفْسَدَهُ بِالتَّقْسِيمَاتِ الهَنْدَسِيَّةِ)، وَالهَنْدَسَةُ لَا تَقْسِيمَاتِ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّقْسِيمُ، وَالتَّرْتِيبُ، وَتَعْرِيفُ الأَجْنَاسِ، وَالأَنْوَاعِ، وَالخَاصَّةِ، وَالفَصْلِ، وَالعَرَضِ .. إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ، مِنْ

---

(١) تَاريخُ الإسلامِ للذَّهبِيِّ (٢٧/ ٨٣). وَقالَ الصَّفدِيُّ فِي: (الوَافِي بالوَفَياتِ) (٢١/ ٢٤٨): «وَوَاحِدٌ يُفهمُ جَمِيعُ كَلَامِهِ بِلَا أُستَاذٍ وَهُوَ السّيرافِيُّ».

(٢) تَاريخُ الإسلامِ للذَّهبِيِّ (٢٧/ ٨٣)، وَكَلَامُ أبي عليٍّ مذكورٌ فِي: مُعجَمِ الأدباءِ (٤/ ١٨٢٦)، والوَافِي بالوَفَياتِ (٢١/ ٢٤٨).

(٣) نُزهَةُ الألِبَّاءِ (ص١٨٦).

أَلْفَاظِ أَهْلِ الـمَنْطِقِ..وَمِنَ العَجَبِ أَنَّهُ كَانَ يَحْضُرُ مَجْلِسَ أَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عِيْسَى الرُّمَّانِيِّ، وَكَانَ عَالِـمًا بِالـمَنْطِقِ مُسْتَعْمِلًا لَهُ فِي عِبَارَتِهِ النَّحْوِيَّةِ وَالكَلَامِيَّةِ، وَمَا اسْتَفَادَ مِنْهُ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ التَّقْسِيمِ الـمَنْطِقِيِّ وَالهَنْدَسِيِّ»[١].

وَمِنَ الَّذِينَ اعتَنَى بِهذَا الجَانِبِ أَيضًا هُوَ الـمُلَّا الجَامِيُّ فِي شَرْحِهِ علَى الكَافِيَةِ، حيثُ تَرَاهُ يُكْثِرُ مِنَ الـمَبَاحِثِ الفَلْسَفِيَّةِ وَالـمَنْطِقِيَّةِ فِي التَّخرِيْجِ وَالتَّوْجِيْهِ، وَصَارَ الكِتَابُ مُعقَّدًا وَلَا يَفْهَمُهُ مَنْ لَيسَ لَهُ بَاعٌ فِي العَقْلِيَّاتِ مَعَ اللُّغَةِ، وَمَعَ هذَا التَّعقِيدِ فِيْهِ فَوَائِدُ غَزِيْرَةٌ وَدَقَائِقُ عَزَّ أَنْ تُوجَدَ فِيْ غَيْرِ كِتَابِهِ.

وَكَذَا بالنِّسْبَةِ لِعِلْمِ الـمَعَانِي وَالبَيَانِ وَالِاسْتِعَارَةِ، فَإِنَّكَ لَوْ نَظَرْتَ إِلَى كِتَابِ الـمُطَوَّلِ للتَّفْتَازَانِي وَحَوَاشِيْهِ، أَو: بَاقِي الكُتُبِ الـمُؤَلَّفَةِ فِي الِاستِعَارَاتِ، لَرَأَيتَ تَأْثِيرَ التَّفكِيرِ الـمَنْطِقِيِّ عَلَيْهَا بَارِزًا جَلِيًّا[٢].

الرَّابِعَةُ: أَحيَانًا يَكُونُ التَّعقِيدُ لأَجْلِ مَا يُدْفَعُ إِلَيْهِم مِنَ الـمَالِ حَتَّى لَا يَنْقَطِعَ، إِذْ لَـمْ يَكُنْ لَهُم مَصْدَرٌ مَعِيشِيٌّ وَكَانَ العِلْمُ لَـمْ يَدَعْ لَهُم مَجَالًا للتَّكَسُّبِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُم نَظَرُوا إِلَى اللُّغَةِ أَنَّهَا وَسِيْلَةٌ إِلَى العُلُومِ الدِّيْنِيَّةِ، وَلَيسَ مِنَ الدِّيْنِ بالأَصَالَةِ، فَلِذلِكَ هَانَ عَلَيْهِمْ أَمْرُ أَخْذِ الأُجْرَةِ عَلَي تَعلِيْمِهَا[٣]، وهذَا كَمَا حَكَاهُ الجَاحِظُ قَائِلًا: «قُلْتُ لِأَبِي الحَسَنِ الأَخْفَشِ: أَنْتَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالنَّحْوِ، فَلِمَ لَا تَجْعَلُ كُتُبَكَ مَفْهُوْمَةً كُلَّهَا، وَمَا بَالُنَا نَفْهَمُ بَعْضَهَا وَلَا نَفْهَمُ أَكْثَرَهَا، وَمَا بَالُكَ تُقدِّمُ بَعْضَ العَوِيْصِ وَتُؤَخِّرُ بَعْضَ

---

(١) إِنْبَاهُ الرُّوَاةِ (٢/ ٣٨٨).

(٢) هذَا الِامتِزَاجُ لَهُ فَوَائِدُ وَأَضْرَارٌ عَلَى هذِهِ العُلُومِ، وَلكِنْ لَيسَ الـمَكَانُ يَسْمَحُ لَنَا بِالتَّعَرُّضِ لَهُ.

(٣) فِي حُكْمِ أَخْذِ الأُجْرَةِ عَلَى تَدْرِيسِ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ خِلَافٌ مَشهُورٌ لَا نَتَطَرَّقُ لَهُ، يُؤخَذُ تَفْصِيلُهُ مِنْ كُتُبِ مُصْطَلَحِ الحَدِيْثِ.

المَفْهُوْمِ؟! قَالَ: أَنَا رَجُلٌ لَمْ أَضَعْ كُتُبِي هذِهِ للهِ، وَلَيْسَتْ هِيَ مِنْ كُتُبِ الدِّينِ، وَلَوْ وَضَعْتُهَا هذَا الوَضْعَ الَّذِي تَدْعُوْنِي إِلَيْهِ، قَلَّتْ حَاجَاتُهُمْ إِلَيَّ فِيْهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ غَايَتِي المَنَالَةَ»[1].

وَقَالَ الجَاحِظُ بَعْدَ الحِكَايَةِ عَنْ نَفْسِهِ: «فَأَنَا أَضَعُ بَعْضَهَا هذَا الوَضْعَ المَفْهُوْمَ، لِتَدْعُوَهُمْ حَلَاوَةُ مَا فَهِمُوا إِلَى التِمَاسِ فَهْمِ مَا لَمْ يَفْهَمُوا، وَإِنَّمَا قَدْ كَسَبْتُ فِي هذَا التَّدْبِيْرِ، إِذْ كُنْتُ إِلَى التَّكَسُّبِ ذَهَبْتُ»[2].

وَحَكَى القِفْطِيُّ عَنِ الأَخْفَشِ حِكَايَةً تَدُلُّ عَلَى مَضمُونِ حِكَايَةِ الجَاحِظِ فِي مَيْلِهِ إِلَى التَّعقِيْدِ، فَقَالَ: «وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى مَجْلِسِ الأَخْفَشِ، فَسَمِعَ كَلَامَهُم فِي النَّحْوِ، فَحَارَ وَعَجِبَ، وَأَطْرَقَ وَوَسْوَسَ، فَقَالَ لَهُ الأَخْفَشُ: مَا تَسْمَعُ يَا أَخَا العَرَبِ؟ قَالَ: أَرَاكُمْ تَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِنَا فِي كَلَامِنَا بِمَا لَيْسَ فِي كَلَامِنَا»[3].

الخَامِسَةُ: رَأَى بَعْضُهُم أَنَّ التَّعقِيدَ يُعَظِّمُ العِلْمَ وَيجعَلُهُ مُعَظَّمًا بينَ النَّاسِ، أَمَّا إِذَا سَهَّلْتَهُ كُلَّهُ فَإِنَّهُ يَدعُو إِلَى النَّظَرِ إِليهِ بِعَينِ الاحتِقَارِ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ، هذَا كَمَا حَصَلَ للسِّيرَافِيِّ وابنِهِ حيثُ كَانَ السِّيرَافِيُّ مَعْرُوفًا بِوُضُوحِ العِبَارَةِ، وَابنُهُ لَمْ يَرُقْ لَهُ ذلِكَ، كَمَا عَدَّدَ يَاقُوتُ تَصَانِيْفَهُ حَتى وَصَلَ إِلَى ذِكْرِ (الإِقْنَاعِ) فَقَالَ عَنْهُ: «كِتَابُ الإِقْنَاعِ فِي النَّحْوِ، لَمْ يُتِمَّ، فَتَمَّمَهُ ابْنُهُ يُوْسُفُ. وَكَانَ يَقُولُ: وَضَعَ أَبِي النَّحْوَ فِي المَزَابِلِ بِـ«الإِقْنَاعِ» يُرِيْدُ: أَنَّهُ سَهَّلَهُ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى مُفَسِّرٍ»[4].

---

(١) الحَيَوَانُ للجَاحِظِ (١/ ٦٢).

(٢) الحَيَوَانُ للجَاحِظِ (١/ ٦٣).

(٣) إِنْبَاهُ الرُّوَاةِ للقِفْطِيِّ (٢/ ٤٢)، والإِمْتَاعُ وَالمُؤَانَسَةُ لأَبِي حَيَّانَ (ص٢٥٣).

(٤) مُعجَمُ الأُدبَاءِ (٢/ ٨٧٨).

السَّادِسَةُ: بَعْضُهُمْ مَالَ إِلَى التَّعقِيدِ حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيْهِ غيرُ أَهْلِهِ، كَمَا حَصَلَ لِعَلِيِّ بْنِ عِيْسَى بْنِ الفَرَجِ الرَّبْعِيِّ[1]، وَقَدْ عَدَّدَ يَاقُوتٌ كُتُبَهُ فَقَالَ: «وَ(كِتَابُ شَرْحِ سِيْبَوَيْهِ) إِلَّا أَنَّهُ غَسَّلَهُ، وَذَاكَ أَنَّ أَحَدَ بَنِي رِضْوَانَ التَّاجِرِ نَازَعَهُ فِي مَسْأَلَةٍ، فَقَامَ مُغْضِبًا وَأَخَذَ شَرْحَ سِيْبَوَيْهِ وَجَعَلَهُ فِي إِجَّانَةٍ وَصَبَّ عَلَيْهِ الـمَاءَ وَغَسَلَهُ، وَجَعَلَ يَلْطِمُ بِهِ الحِيْطَانَ وَيَقُولُ: لَا أَجْعَلُ أَوْلَادَ البَقَّالِيْنَ نُحَاةً»[2].

السَّابِعَةُ: مِنْهُم مَنْ يَرَى أَنْ لَا يَبْسُطَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَذْكُرَ قَضَايَا العِلْمِ كُلَّهُ، وَلَا يُسَهِّلَ الأَمرَ بالمَرَّةِ، حَتَّى يَبْقَى للمُتَأَخِّرِ فَضْلُ تَحْقِيقٍ وَاسْتِخْرَاجٍ، كَمَا ذُكِرَ ذلِكَ عَنِ الخَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: «مِنَ الأَبْوَابِ مَا لَوْ شِئْنَا أَنْ نَشْرَحَهُ حَتَّى يَسْتَوِيَ فِيْهِ القَوِيُّ وَالضَّعِيْفُ، لَفَعَلْنَا وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَكُوْنَ لِلْعَالِمِ مَزِيَّةٌ بَعْدَنَا»[3].

وَهَذَا شَبِيْهُ مَا قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ حَيثُ قَالَ: «عَمِلَ سِيبَوَيْهِ كِتَابَهُ عَلَى لُغَةِ الْعَرَبِ وَخُطَبِهَا وَبَلَاغَتِهَا، فَجَعَلَ فِيهِ بَيِّنًا مَشْرُوْحًا، وَجَعَلَ فِيهِ مُشْتَبِهًا، لِيَكُونَ لِـمَنِ اسْتَنْبَطَ وَنَظَرَ فَضْلٌ، وعَلى هَذَا خَاطَبَهُمُ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ- بِالْقُرْآنِ»[4].

فَلِذلِكَ بَقِيَتْ فِي آثَارِ بَعْضِهِمْ شَيءٌ مِنَ التَّعقِيْدِ وَعَدَمِ الوضُوحِ، وَلَم يُبَيِّنُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَرَكُوا أُمورًا دُونَ التَّفْصِيْلِ فِيْهَا.

---

(١) أَحَدُ الأَئِمَّةِ النَّحْوِيِّينَ وَحُذَّاقِهِم، أَخَذَ عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ السِّيرَافِيِّ، وَهَاجَرَ إِلَى شِيْرَازَ فَأَخَذَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الفَارِسِيِّ وَلَازَمَهُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَلِيٍّ: مَا بَقِي شَيْءٌ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَوْ سِرْتَ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الغَرْبِ لَمْ تَجِدْ أَعْرَفَ مِنكَ بِالنَّحْوِ. مُعجَمُ الأُدباءِ (٤/ ١٨٢٨).

(٢) مُعجَمُ الأُدباءِ (٤/ ١٨٢٩).

(٣) شرحُ ابنِ يعيشَ على المفصَّلِ (١/ ٣٩)، ط: دار الكُتبِ العلميَّةِ.

(٤) خزَانةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لُبَابِ لِسَانِ العَرَبِ للبَغْدَادِيِّ (١/ ٣٧٢).

الثَّامِنَةُ: أحيانًا يَرْجعُ سَبَبُ التَّعقِيدِ إِلَى قُوَّةِ صَاحِبِهِ العِلْمِيَّةِ وَفَهْمِهِ الخَارِقِ، فَمِنَ الَّذِينَ يَغْلِبُ عَلَى كَلَامِهِم فِي الـمَسَائِلِ الدَّقِيقَةِ التَّعقِيدُ هُوَ الـمُبَرِّدُ، وَلكِنْ بِرَأينَا أنَّ التَّعقِيدَ منهُ رَاجِعٌ إِلَى حِدَّةِ ذَكَائِهِ، كَمَا ذُكِرَ عَنْ ذَكَائِهِ العَجِيْبِ أنَّ ثَعْلَبًا لَـمَّا نَظَرَ إِلَى مَنْ حَوْلَ أَبِي العَبَّاسِ المبرِّدِ، أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ السَّرىِّ الزَّجَّاجَ وَابْنَ الخَيَّاطِ بِالنُّهُوْضِ، وَقَالَ لَهُمَا: فُضَّا حَلَقَةَ هذَا الرَّجُلِ، فَنَهَضَ مَعَهُمَا مَنْ حَضَرَ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا صَارُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ السَّرِيِّ: أَتَأْذَنُ- أَعَزَّكَ اللهُ- فِي الـمُفَاتَشَةِ؟ فَقَالَ لَهُ الـمُبَرِّدُ: سَلْ عَمَّا أَحْبَبْتَ، فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَأَجَابَهُ عَنْهَا بِجَوَابٍ أَقْنَعَهُ، فَنَظَرَ الزَّجَّاجُ فِي وُجُوْهِ أَصْحَابِهِ مُتَعَجِّبًا مِنْ تَجْوِيْدِ أَبِي العَبَّاسِ للجَوَابِ، فَلَمَّا انْقَضَى ذَلِكَ قَالَ لَهُ أَبُو العَبَّاسِ: أَقَنِعْتَ بِالجَوَابِ؟.

فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ فِي جَوَابِنَا هذَا كَذَا، مَا أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ؟ وَجَعَلَ أَبُو العَبَّاسِ يُوْهِنُ جَوَابَ الـمَسْأَلَةِ وَيُفْسِدُهُ وَيَعْتَلُّ فِيْهِ!. فَبَقِيَ إِبْرَاهِيْمُ بْنُ السَّرِيِّ سَادِرًا لَا يُحِيْرُ جَوَابًا، ثُمَّ قَالَ: إِنْ رَأَى الشَّيْخُ- أَعَزَّهُ اللهُ- أَنْ يَقُوْلَ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ الـمُبَرِّدُ: فَإِنَّ القَوْلَ عَلَى نَحْوِ كَذَا، فَصَحَّحَ الجَوَابَ الأَوَّلَ وَأَوْهَنَ الِاعْتِرَاضَ.

فَبَقِيَ الزَّجَّاجُ مَبْهُوْتًا، ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِهِ: قَدْ يَجُوْزُ أَنَّهُ كَانَ حَافِظًا لِهذِهِ الـمَسْأَلَةِ، مُسْتَعِدًّا للقَوْلِ فِيهَا، فَسَأَلَهُ مَسْأَلَةً ثَانِيَةً، فَفَعَلَ الـمُبَرِّدُ فِيْهَا مَا فَعَلَهُ فِي الأُوْلَى، حَتَّى سَأَلَهُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً، وَهُوَ يُجِيبُ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِمَا فَعَلَهُ فِي الـمَسْأَلَةِ الأُوْلَى.

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الزَّجَّاجُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: عُوْدُوا إِلَى الشَّيْخِ، فَلَسْتُ مُفَارِقًا هذَا الرَّجُلَ، وَلَا بُدَّ لِي مِنْ مُلَازَمَتِهِ وَالأَخْذِ عَنْهُ»[1].

---

(١) إِنْبَاهُ الرُّوَاةِ للقِفْطِيِّ (٣/ ٢٥٠)، والإِمْتَاعُ وَالـمُؤَانَسَةُ لأَبِي حَيَّانَ (ص٢٥٣).

وَكَذلِكَ لَهُمْ مُسَوِّغٌ آخَرُ فِي فِعْلِهِم هذَا لأَنَّ الحِرصَ عَلَى العِلْمِ وَالِاشتِغَالَ بِهِ كَانَ سَهْلًا فِي زَمَانِهِم وَلَا تَصْرِفُهُم صَوارِفُ الدُّهُورِ، وَلَا نَائِبَاتُ الأَيَّامِ وَالشُّهُورِ، فَلِذلِكَ كَانَ فَهْمُ الْمُعَقَّدِ سَهْلًا يَسِيرًا بِخِلافِ زَمَانِنَا حَيثُ لَا يُفْهَمُ السَّهْلُ فِي كَثيرِ الأَوقَاتِ فَكَيْفَ بالْمُعقَّدِ الْمُشْكِلِ؟ وَإِلَى اللهِ الشَّكْوَى!

أخِيرًا: مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ القُدَمَاءَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الكِتَابَةِ وَأسلُوبِهَا خِلَافَ مَا نَنْظُرُ فِيهَا اليَومَ، فَمِنْهُم مَنْ يَرَى أَنَّ التَّعقِيدَ فِي تلكَ الكُتُبِ حَتْمٌ لَازِمٌ لِكَي لَا يَدْخُلَ فِي تِلْكَ العُلومِ غيرُ الْمُختَصِّ وَالْمَعنِيِّ بِهَا، وَبذلِكَ يُغْلَقُ البَابُ فِي وجُوهِ الدُّخَلَاءِ وَلَا يَجِدُ الْمُتَعَالِمُ إِلَى الولُوجِ فِيْهَا سَبِيلًا، كَمَا هُوَ الحَالُ فِي كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ فِي العُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ، وَلَاسِيَّمَا فِي عَصْرِنَا تَرَى صَوْلَاتِ الخنْفِشَارِيِّينَ وَجَولَاتِهِم، فِي كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ دُونَ ارْتِوَاءٍ وَلَا ارعِوَاءٍ!

مَاذَا عَلَيْنَا تُجَاهَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؟!

العَرَبِيَّةُ لغَةُ القُرآنِ الكرِيْمِ وَآيَاتِهِ، وَلِسَانُ الحَدِيْثِ النَّبَوِيِّ وَمِشْكَاتِهِ، وَمُوصِلَةٌ لِكُتُبِ العُلَمَاءِ، وَآثَارِ الأُدَبَاءِ، وَكَانَتْ هِيَ لُغَةَ الـمُسْلِمِيْنَ عَلَى مَدَارِ التَّارِيْخِ، وَبِهَا كَتَبُوا كُتُبَهُم وَمُصَنَّفَاتِهِم، وَخلَّدُوا آثَارَهُم بِهَا عَرَبًا وَعَجَمًا، وَكَانَتْ للعَرَبِيَّةِ فِي حَيَاةِ غَيرِ العَرَبِ أَهَمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ فَاقَتْ اهتمَامَهُم بِلُغَتِهِم الأُمِّ، تَعَلُّمًا وَتَعْلِيمًا، تَدَارُسًا وَتَدرِيسًا؛ لأَنَّهُم عَلِمُوا يَقِينًا أَنَّهُ لَا يَنْقَادُ عِلْمٌ مِنَ العلُومِ الإِسْلامِيَّةِ لِطَالِبِيْهِ، وَلَّا تُذَلَّلُ قُطُوفُهُ، وَلَا يُتْمَكَّنُ فِيْهِ، إِلَّا بالتَّمَكُّنِ فِي العَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا، وَمَعْرِفَةِ أَسَالِيبِهَا وَالوقُوفِ عَلَيْهَا، وَلِذلِك قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُ حَرْمَلَةُ وَقَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ، يَقُولُ: «أَصْحَابُ الْعَرَبِيَّةِ جِنُّ الإِنْسِ، يُبْصِرُونَ مَا لا يُبْصِرُ غَيْرُهُمْ»[(١)].

لَقَدْ صَدَقَ الإِمَامُ وَهذَا كَلامُ العَارِفِ بِهَا وَالغَائِصِ فِي دَقَائِقِ مَسَائِلِهَا وَدُرَرِ أَسَالِيبِهَا؛ لأَنَّنَا أَدْرَكْنَا أَهْلَ العِلْمِ وَوَجَدْنَا أَنَّ أَتْقَنَهُم للعَرَبِيَّةِ أَقْوَاهُم حُجَّةً وَتَعلِيلًا وَتَفْسِيْرًا.

وَمَا دَامَ الشَّأنُ هكذَا فَيَجِبُ أَنْ نُقْبِلَ جَمِيْعًا عَلَى العَرَبِيَّةِ وَنَتَعَلَّمَهَا جَيِّدًا، وَنَنْشُرَهَا بينَ النَّاسِ وَنُحَبِّبَهَا إِلَيْهِم أَكْثَرَ، وَنُصَحِّحَ وِجْهَةَ نَظَرِ مَنْ سَاءَتْ وِجْهَةُ نَظَرِهِ فِيْهَا، حَتَّى لَا يَتَعَامَى عَلَيْهَا، وَمُحَاوَلَةُ نَشْرِهَا وَتَحْبِيْبِهَا إِلَى النَّاسِ يَكُونُ بأُمُورٍ مُهِمَّةٍ، وَهِيَ:

* نُبيِّنُ لَهُم أَنَّ فَهْمَ الشَّرِيْعَةِ مُرْتَبِطَةٌ بالعَرَبِيَّةِ، وَلَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا فَهْمًا لَائِقًا إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ العَرَبِيَّةِ.

---

(١) مَنَاقِبُ الشَّافِعِيِّ للبَيْهَقِيِّ (٢/ ٥٣).

* نتعلَّمُها نَحنُ جيِّدًا ثُمَّ نَقومُ بِتعلِيمِ غيْرِنا، وَالـمُشْكِلَةُ الكَبِيرَةُ هِـيَ أنَّنَا لَـمْ نَـتَعلَّمْ بَعْدُ ونُرِيدُ تَعلِيمَ غيْرِنـا، هـذِهِ وَاللهِ مُصِيْبَةٌ وَنِقْمَةٌ عَلَى العَرَبِيَّةِ؛ لأنَّـكَ تُعَسِّرُ اليَسِيْرَ، وَتُعَقِّدُ الوَاضِحَ لِعَدَمِ غَوْصِكَ فِيهَا.

[مِنَ الخَفِيْفِ]

رَامَ نَفْعًـا فَضَـرَّ مِـنْ غَيْـرِ قَصْـدٍ وَمِـنَ البِـرِّ مَـا يَكُـونُ عُقُوقَـا

* أنْ نُيَسِّرَ أَمْرَهَا عَلَى الـمُبْتَدِي، وَلَا نُبْعِدَهُ عَنْهَا بِسَبَبِ التَّقَعُّرِ وَالتَّعْقِيدِ، وَأنْ نَخْتَارَ الأُسلُوبَ السَّهْلَ اليَسِيرَ فِي العَرْضِ وَالشَّرْحِ.

* أَنْ نُخَصِّصَ وَقْتًا لِغيرِنا لِيَدْرُسُوا عَلَيْنا عُلُومَ العَرَبِيَّةِ (نَحوًا–وَصرْفًا–وَبَلَاغَةً، وَعَرُوضًا..)، حَتَّى تَكثُرَ مَجَالِسُ اللُّغَةِ وَتَزْدَهِرَ، وَتَكُونَ سَدًّا أَمَامَ صَوْلَاتِ النِّسْنَاسِ، وَرَادِعَةً لِجُهُودِ الخُسَاسِ!

* أنْ نَقُومَ بِبَيَانِ مُمَيزَاتِهَا وَخَصَائِصِهَا وَقُوَّتِهَا وَعَبْقَرِيَّتِهَا، حَتَى يَرَاهَا النَّاسُ عَلَى حَالَتِهَا الحَقِيقِيَّةِ، لَا كَمَا يُرِيدُ لَهَا أَعدَاؤُهَا.

أخِيرًا: لَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى مَسْأَلَةِ التَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيْلِ مَرَّةً أُخْرَى وَنَقُولُ: مَا دُمْنَا نَجِدُ فِي كُتُبِ الـمُتَقَدِّمِينَ تَعْقِيدًا وَصُعُوبَةً لَا تُنَاسِبُ حَالَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهَا صَالِحَةٌ لِلطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ مِنْهُم، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْعَى جَمِيْعًا إِلَى تَسْهِيلِ شَيْءٍ مِنْهَا وَإِخْرَاجِ مَا كَانَ شَائِبًا شَائِكًا وَلا يُخِلُّ إِخْرَاجُهُ النَّحْوَ وَلَا يَضُرُّهُ لِطَبَقَةِ العَامَّةِ وَالـمُثَقَّفِيْنَ، كَبَعْضِ التَّعْلِيلاتِ الشَّائِكَةِ، وَالخِلَافَاتِ الشَّاقَّةِ غَيرِ الْمُثْمِرَةِ، وَمَا أُقْحِمَ فِيْهَا مِنَ الـمَنْطِقِ وَالفَلْسَفَةِ؛ لأنَّ الطَّالِبَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَوسُوعِيًّا لَا يَفْهَمُ هذِهِ الكُتُبَ وَلا يَسْتَطِيْعُ إِدرَاكَ دُرَرِهَا وَفَرائِدِهَا، وَبِهذَا يُحْرَمُ فَوَائِدَ تِلْكَ الكُتُبِ وعَوَائِدَهَا، وَهذِهِ

مُشْكِلَةٌ كَبِيرَةٌ أَمَامَ كثيرٍ مِنَ الطَّلَبَةِ حَيثُ لَا يَفْهَمُ الـمُطَوَّلَاتِ فِي النَّحوِ وَالصَّرْفِ لِأَجْلِ تِلْكَ الْمَبَاحِثِ العَقلِيَّةِ الَّتِي تُوْجَدُ فِيْهَا.

وَقَدْ اهتَمَّ الـمُعَاصِرُونَ بِذلِكَ وَكَتَبُوا كُتُبًا كَثِيرَةً فِي عُلُومِ اللُّغَةِ وَوَضَعُوهَا عَلَى شَكْلِ يَصْلُحُ لغَيرِ الـمُتَخَصِّصِ، مِنَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الـمُرُورَ بِعُلُومِ العَرَبِيَّةِ مُرُورًا سَرِيْعًا، وَلَا يَخُوضُونَ فِي دَقَائِقِهَا، وَالكُتُبُ كَثِيرَةٌ جِدًّا وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ[١].

وَلكِنْ فِي نِهَايَةِ الكَلامِ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَلْحُوظَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

الأَوَّلُ: لَقَدْ حَاوَلَ بعضُ العُلَمَاءِ وَأهلُ اللُّغَةِ تَيْسِيْرَ اللُّغَةِ وَتَسْهِيْلَهَا، وَلَا سِيَّمَا فِي عِلْمِ النَّحوِ، فَقَامُوا بِجُهودٍ مُبَارَكَةٍ يُشْكَرُونَ عَلَيْهَا، وَلكِنْ وَللأَسَفِ الشَّدِيدِ نَرَى مَقَاصِدَ أُخْرَى مُخَبَّأَةً تَحتَ دَعوَى التَّيسِيرِ الكَاذِبَةِ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ، حَيْثُ يُحَاوِلُونَ تَشْوِيهَ النَّحوِ وَالصَّرْفِ لأجلِ غَرَائِزِهِم وَلا يُهِمُّهُم فِي ذلِكَ صِيَانَةُ النَّحوِ؛ لأَنَّهُم نَدَبُوا أَنْفُسَهُم إِلَى إِزَالَةِ بَعْضِ الأَشياءِ مِنَ النَّحوِ، وَكَانَ البَاعِثُ فِكْرًا، أَوْ: عَقِيْدَةً، وَلَمْ يَكُنْ نَاتِجًا عَنِ التَّسهِيلِ الْمَزعُوم.

وَكَمَا حَاوَلَ أيضًا بَعْضُ أَهْلِ الزَّيْغِ سَلْخَ النَّحْوِ وَأُصُولَهُ، وَالقَبْضَ عَلَيهِ بِذَرِيْعَةِ التَّسْهِيْلِ، فَيَجِبُ الحَذَرُ مِنْ دُعَاةِ التَّسهِيْلِ وَقِرَاءَةُ مَا وَرَاءَ مَقْصِدِهِم، حَتَّى لَا تُصِيبَكُمْ سِهَامُهُمُ الـمَسْمُومَةُ.

الثَّانِي: طَالَمَا دَعَوْنَا إِلَى التَّيسِيرِ وَالتَّسهِيلِ لأَجْلِ تَلَامِذَةِ اللُّغَةِ وَالعُلُومِ الأُخْرَى، حَتَّى يَفْهَمُوهَا وَيَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ بِحَقَائِقِهَا، فَهذَا الأَمرُ مُبَارَكٌ حَقًّا، وَلكِنْ لِمَاذَا لَا

---

(١) هذِهِ الكُتُبُ يَشْتَغِلُ بِهَا الـمُثَقَّفُونَ الَّذِينَ لَيسُوا أهلَ تَخَصُّصٍ فِي العَرَبِيّةِ، وَلَا فِي العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ، أَمَّا طُلَّابُ الشَّرِيْعَةِ؛ فَلَا بُدَّ لَهُم مِنَ الإِقْبَالِ عَلَى كُتُبِ الأَئِمَّةِ السَّابِقِيْنَ وَضَبْطِهَا؛ لأَنَّ فَهْمَ الشَّرِيْعَةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَيْهَا.

ندعُو أيضًا مَعَ التَّسْهِيْل وَالتَّيْسِيْرِ إِلَى رَفْع الهِمَمِ وَشَحْذِهَا، وَبَذْلِ الْـمَجهُودِ مِنَ التَّلاميذِ لِيَرْفَعُوا مُستَوَاهُم وَيَخْرجُوا عَنِ الِانحِطَاطِ العَقْلِيِّ وَالذِّهْنِيِّ؟!

عُلُومُ العَرَبِيَّةِ وَطُلَّابُ الشَّرِيْعَةِ!

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الـمَصَائِبِ وَأَدْهَى الكَوَارِثِ وَأَمَرِّ مَا يَتَفَكَّرُ بِهِ الإِنْسَانُ-فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرَاهُ فِي الوَاقِعِ-هُوَ ظَنُّ طَلَبَةِ العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ أَنَّهُم لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى العَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا، وَأَنَّهُ يُمْكِنُهُم فَهْمُ العُلُومِ الشَّرعِيَّةِ وَالتَّعَمُّقُ فِيْهَا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى عُلُومِ اللُّغَةِ وَالغَوْصِ فِيْهَا!

وَإِنَّكَ تَرَى فِي أَيَّامِنَا بعضَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ رَضُوا بالتَّقَاعُسِ عَنْ إِدْرَاكِ الـمَعَالِي، يَقُولُونَ: نَحْنُ مُتَخَصِّصُونَ فِي الفِقْهِ، أَوْ: فِي الأُصُولِ، أَوْ: فِي التَّفْسِيْرِ، وَلَا حَاجَةَ لَنَا فِي النَّحْوِ وَالصَّرفِ وَالبَلَاغَةِ وَالِاشْتِقَاقِ، وَلَا نَشْتَغِلُ بِهَا وَنَحْنُ فِي غُنْيَةٍ عَنْهَا.

وَلَا يَدْرِي أَنَّ مَنْ لا حَظَّ لَهُ مِنَ اللُّغَةِ، لَا حَظَّ لَهُ مِنَ الأُصُولِ وَالتَّفسِيرِ، إِلَّا إِذَا ظَنَّ أَنَّ الأُصُولَ هِيَ حِفْظُ اصْطِلاحَاتِ القَوْمِ فَقَطْ! وَأَنَّ التَّفسِيرَ هُوَ سَرْدُ أَقْوَالِ الـمُفَسِّرِينَ فَحَسْبُ!

لأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَطْبِيقُ أُصُولِ الفِقْهِ، مِنْ غَيْرِ إِلْمَامٍ شَدِيدٍ بالعرَبِيَّةِ، كَمَا لَا يُمْكِنُكَ الظَّفَرُ بِمَكَامِنِ أَسَالِيبِ آيَاتِ القُرآنِ الكَرِيْمِ وَأَسْرَارِهَا البَيَانِيَّةِ، بَلْ: عِلَاوَةً عَلَى ذلِكَ أَنَّكَ لَا تَفْهَمُ كَلَامَ أَرْبَابِ الأُصُولِ وَالتَّفسِيرِ، مِنْ غَيْرِ اللُّغَةِ؛ لأَنَّهُمُ اعتَمَدُوا عَلَى قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ بِشَكْلٍ كَبِيرٍ، بحَيثُ لَا تَجِدُ كِتَابًا فِي أُصُولِ الفِقْهِ وَلَا كِتَابًا مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيْرِ، إِلَّا وَتَجِدُ فِيْه حَظًّا كَبِيرًا مِنْ دَقَائِقِ اللُّغَةِ.

وَهذَا يُذَكِّرُنِي بِصَرْخَةِ ابنِ فَارِسٍ لَـمَّا قَالَ: «إِنَّ عِلْمَ اللُّغَةِ كَالوَاجِبِ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ، لِئَلَّا يَحِيدُوا فِي تَأْلِيْفِهِم، أَوْ: فُتْيَاهُمْ عَن سَنَنِ الِاسْتِوَاءِ.

وَكَذلِكَ الحَاجَةُ إِلَى عِلْمِ العَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ الإِعْرَابَ هُوَ الفَارِقُ بَيْنَ المَعَانِي. أَلَا تَرَى أَنَّ القَائِلَ إِذَا قَالَ: (مَا أَحْسَنَ زَيد) لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ التَّعَجُّبِ وَالاِسْتِفْهَامِ وَالذَّمِّ إِلَّا بِالإِعْرَابِ.

وَكَذلِكَ إِذَا قَالَ: (ضَرَبَ أَخُوكَ أَخَانَا) وَ(وَجْهُكَ وَجْهُ حُرٍّ)، وَ(وَجْهُكَ وَجْهُ حُرٌّ)، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الكَلَامِ المُشْتَبِهِ..وَقَدْ كَانَ الناسُ قديماً يجتَنِبُونَ اللَّحْنَ فيما يكتبونهُ، أَوْ: يَقْرَؤُوْنَهُ اجتِنَابَهُمْ بَعْضَ الذُّنُوبِ. فأمَّا الآنَ فَقَدْ تَجَوَّزُوا حَتَّى إِنَّ المُحَدِّثَ يُحَدِّثُ فَيَلْحَنُ. وَالفَقِيهَ يُؤَلِّفُ فَيَلْحَنُ. فَإِذَا نُبِّهَا، قَالَا: مَا نَدْرِي مَا الإِعْرَابُ، وَإِنَّمَا نَحنُ مُحَدِّثُوْنَ وَفُقَهَاءُ. فَهُمَا يَسُرَّانِ بِمَا يُسَاءُ بِهِ اللَّبِيْبُ.

وَلَقَدْ كَلَّمْتُ بَعْضَ مَنْ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ وَيَرَاهَا مِنْ فِقْهِ الشَّافِعِيِّ بِالرُّتْبَةِ العُلْيَا فِي القِيَاسِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا حَقِيْقَةُ القِيَاسِ وَمَعْنَاهُ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيَّ هَذَا وَإِنَّمَا عَلَيَّ إِقَامَةُ الدَّلِيْلِ عَلَى صِحَّتِهِ.

فَقُلِ الآنَ فِي رَجُلٍ يَرُوْمُ إِقَامَةَ الدَّلِيْلِ عَلَى صِحَّةِ شَيْءٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ، وَلَا يَدْرِي مَا هُوَ. وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُوْءِ الاِخْتِيَارِ»[(١)].

فَأَيْنَ هُوَ مِنَ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الَّذِي ذَكَرَ عَنْهُ زَكَرِيَّا السَّاجِيُّ، وَقَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ بِنْتِ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: أَقَامَ الشَّافِعِيُّ عِلْمَ الْعَرَبِيَّةِ وَأَيَّامَ النَّاسِ عِشْرِينَ سَنَةً، فَقُلْنَا لَهُ فِي هَذَا، فَقَالَ: «مَا أَرَدْتُ بِهَذَا إِلَّا الاِسْتِعَانَةَ لِلْفِقْهِ»[(٢)].

---

(١) الصَّاحِبِي لِابنِ فَارِسٍ (ص٣٥).

(٢) الفَقِيْهُ وَالمُتَفَقِّهُ للخَطِيبِ (٢/ ٤١)، وَتَارِيخُ الإِسْلامِ (١٤/ ٣٤٠)، وَتَرتِيبُ المَدَارِكِ (٣/ ١٨٤).

لِمَاذَا ضَعُفَ مُسْتَوَى النَّاسِ فِي العَرَبِيَّةِ؟

يُسَائِلُ كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ عَنْ سَبَبِ ضَعْفِ مُسْتَوَى طَلَبَةِ العِلْمِ وَالتَّلامِيْذِ فِي العَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا، وَبَحَثَ الكَثِيرُونَ عَنْ مُؤَثِّرَاتِ هذَا الضَّعْفِ وَعَوَامِلِهِ، وَقَدْ كَثُرَ الكَلامُ فِي ذلِكَ وبَحَثُوهُ مِنْ زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ وَجَوَانِبَ مُتعَدِّدَةٍ، وَفِيْمَا يَلِي أَهَمُّ أَسْبَابِ هذَا الضَّعْفِ بِرَأْيِنَا:

* الشُّعُورُ بالدُّونِ فِي الإِقْبَالِ عَلَى العَرَبِيَّةِ بِسَبَبِ بَطْشِ الإعلام فِي تَشْوِيْهِ سُمْعَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمُحَاوَلَةِ إبْعَادِهَا عَنْهُم، حيثُ نَرَى الإِعْلَامَ ضَخَّمَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى وَفَضَّلَهَا عَلَى العَرَبِيَّةِ، وَيُحَاوِلُ دَوْمًا تصوِيرَ العَرَبِيَّةِ كَأَنَّهَا لُغَةٌ مُعَقَّدَةٌ غيرُ صَالِحَةٍ للعَصْرِ.

* الخلَلُ فِي المَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ المُقَرَّرَةِ فِي المَدَارِسِ وَالجَامِعَاتِ أحيانًا، وَهذَا الخَلَلُ المَنْهَجِيُّ مُتعَدِّدُ الأَشْكَالِ وَالصُّوَرِ، فَمِنْهَا مَا يَرجِعُ إِلَى ضَعْفِ المَنْهَجِ المُقَرَّرِ، وَمِنْهَا مَا يَرْجِعُ إِلَى تَرْتِيبِ المَوَادِّ العِلْمِيَّةِ، فَمَثَلًا فِي كَثِيْرٍ مِنَ الجَامِعَاتِ وُضِعَ شَرْحُ ابْنِ عَقِيْل كَالمَنْهَجِ المُقَرَّرِ، مَعَ أَنَّ عَيْنَ الطَّلَبَةِ لَمْ تَرَ كِتَابًا نَحْوِيًا مِنْ قَبْلُ، وَكُلُّ عَهْدِهِ بالعَرَبِيَّةِ هُوَ عَنْ طَرِيْقِ مَنَاهِجِ المَدَارِسِ، فَهذِهِ المَنَاهِجُ وَأُسْلُوبُهَا فِي العَرْضِ، مُخْتَلِفَةٌ تَمَامًا عَنْ أسلُوبِ النَّحوِيِّينَ القُدَمَاءِ، فَيَضِلُّ الطَّالِبُ بَيْنَ مَوَادِّهِ وَأُسْلُوبِ مُصَنِّفِهِ، وَيَتَجَسَّدُ فِي ذِهْنِهِ عَدَاءٌ مَعَ النَّحْوِ جَرَّاءَ ذلِك، وَلَا يَنْفَكُّ مِنْ خَيَالِهِ.

* ضَعْفُ المُدَرِّسِينَ الَّذِينَ يُدَرِّسُونَ عُلُومَ العَرَبِيَّةِ وَعَدَمُ أَهلِيَّتِهِم لِذلِكَ، وَهذَا مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيْدِ نَرَاهُ فِي العَرَبِيَّةِ بِشَكْلٍ خَاصٍ، وَكَذَا فِي العُلُومِ الأُخْرَى نَرَى المَنَاصِبَ تَشْكُو مِنْ وَضعِ مَنْ لَيْسَ بأهلٍ لَهَا عَلَيْهَا.

* الإِحْبَاطُ النَّفْسِيُّ لدَى الطَّلَبَةِ، وَهذَا لَيْسَ خَاصًّا بالعَرَبِيَّةِ، بَلْ: تَرَاهُم ضَعِيْفِيْنَ فِي العُلُومِ الأُخْرَى بِسَبَبِ هذَا الإِحْبَاطِ، وَلَا يُتْقِنُونَهَا.

وَهُنَاكَ أَسْبَابٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَبَّبَتْ فِي خَلْقِ هذَا الضَّعْفِ لَدَيْهِم، وَمِنْ خِلالِ ذلِكَ نَعْرِفُ أنَّ الأَسْبَابَ أَسْبَابٌ خَارِجِيَّةٌ وَلَا ذَنْبَ للعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا فِي ذلِكَ، فَالعَرَبِيَّةُ الَّتِي أَتْقَنَهَا القُدَمَاءُ وَتَفَنَّنُوا فِيْهَا، هِيَ العَرَبِيَّةُ نَفْسُهَا عِنْدَ هؤلاءِ الَّذِينَ يَشكُونَ مِنْهَا، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ نَقُولُ: إنَّ الضَّعْفَ فِي العَرَبِيَّةِ كَانَ مَوجُودًا عِنْدَ بَعْضِ القُدَمَاءِ أيضًا وَلَيسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم مُتْقِنًا للعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا، وَلكِنَّ الغَالِبَ فِيْهِمُ المُتْقِنُونَ، وَكذَا نَجِدُ فِي العُصُورِ المُتَأَخِّرَةِ وَفِي عَصْرِنَا الحَاضِرِ، مَنْ يُتْقِنُ العَرَبِيَّةَ وَيَتَفَنَّنُ فِيْهَا وَيُبْدِعُ، وَهذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ المُشْكِلَةَ لَيْسَتْ فِي العَرَبِيَّةِ ذَاتِهَا، بَلْ: هِيَ أَسْبَابٌ خَارِجِيَّةٌ يَجِبُ أَنْ نَجِدَ لَهَا حَلًّا.

الحَرَكَاتُ الإِعْرَابِيَةُ وَعَلَاقَتُهَا الوَطِيْدَةُ بِالـمَعْنَى

ظَهَرَ أُنَاسٌ مِنْ بَيْنِنَا قَدِيْمًا وَحدِيثا، سَعوا لِإِزَالَةِ الحَرَكَاتِ سَعْيًا حَثِيْثا، وَأعلَنُوا عَلَيْهَا حُرُوبَهُم القَاسِيَّةْ، وَصَارُوا فِيْهَا عَبُوسَ الـمُحيَّا وَالنَّاصِيَةْ، وَأرَاقُوا سُمُومَ أقلَامِهِمْ عَلَى السُّطُورِ وَالطُّرُوسْ، فِي هذِهِ الحَرْبِ العُدوَانِيَّةِ الضَّرُوسْ، تَلَقَّفُوا شَطَحَاتِ الـمُسْتَشْرِقِينَ بالقَبُولْ، فَوَصَفُوا الحَرَكَاتِ بالزِّيَادَةِ وَالفُضُولْ، وَقَالُوا لَيْسَتْ تَرْجِعُ بِطَائِلْ، وَلَا فِيْهَا فَائِدَةٌ لِسَائِلْ، وَغَايَتُهَا الغُمُوضُ وَالتَّعْقِيدْ، فَإِزَالَتُهَا حُكْمٌ سَدِيدْ.

وَلَمْ يَعرِفْ هؤلاءِ مَا للحَرَكَاتِ مِنْ دورْ، فَلَوْ عَرَفُوهُ مَا أتَوْ كُلَّ هذَا الجَوْرْ، بَاتَ ادِّعَاؤُهُم ادِّعَاءً عَقِيْمًا لَا يُجدِي شَيْئا، وَلَمْ يأتِ بِهِ صَاحِبُهُ إِلَّا هُزْءا، وَالعَجِيْبُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يُنَادُونَ بِأَنْ يُسَكَّنَ أَوَاخِرُ كُلِّ كَلِمَة، وَأَخْفَو عَجْزَهُم وَتَقَاعُسَهُم تَحْتَ تِلْكَ الـمَقولَةِ الـمُنْهَزِمَة: (سَكِّنْ تَسْلَمْ)!.

فَهذِهِ الدَّعْوَى تَنْشَأُ عَنِ الجَهْلِ بالنَّحوِ؛ لأَنَّ النَّحْوَ ليسَ لِصِيَانَةِ اللِّسَانِ وَحْدَهُ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُهُم، بَلِ: النَّحُو يَضْبطُ لَكَ الفَهْمَ مَعَ تَقوِيْمِ اللِّسَانِ، وَقَدْ نَحتَاجُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيْرِ النُّصُوصِ وَبَيَانِهَا، وَلَا تَكَادُ تَظْفَرُ بِتَفْسِيرٍ صَحيحٍ إِلَّا مِنْ خِلَالِ قَوَاعِدِ النَّحوِ وَالإِعْرَابِ، وَمَا سُمِّيَ الإِعْرابُ إِعْرَابًا إِلَّا لأَنَّهُ يُعْرِبُ الـمَعْنَى، أَيْ: يُبِيْنُهُ وَيُظْهِرُهُ، كَمَا هُوَ مَعْنَى (الإِعْرَابِ) لُغَةً!

وَهُوَ كَمَا قَالَ الزَّجَّاجِيُّ: «إِنَّ النَّحْوِيِّينَ لَـمَّا رَأَوا فِي أَوَاخِرِ الأَسْمَاءِ وَالأَفْعَالِ حَرَكَاتٍ تَدُلُّ عَلَى الـمَعَانِي، وَتُبِيْنُ عَنْهَا، سَمَّوْهَا (إِعْرَابًا) أَيْ: بَيَانًا. وَكَأَنَّ البَيَانَ بِهَا

يَكُوْنُ. كَمَا يُسَمَّى الشَّيْءُ بِاسْمِ الشَّيْءِ إِذَا كَانَ يُشْبِهُهُ، أَوْ: مُجَاوِرًا لَهُ. وَيُسَمَّى النَّحْوُ إِعْرَابًا، وَالإِعْرَابُ نَحْوًا، سَمَاعًا؛ لأَنَّ الغَرَضَ طَلَبُ عِلْمٍ وَاحِدٍ»[١].

يُمْكِنُ أَنْ نَسْأَلَ: لِمَاذَا وَضَعُوا الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةَ فِي آخِرِ الكَلِمَةِ، وَلَيْسَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ: وَسَطِهَا؟

فَأَجَابَ الزَّجَّاجِيُّ عَنْ هذَا السُّؤَالِ أَيضًا فَقَالَ: «وَالقَوْلُ عِنْدِي هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جِلَّةُ النَّحْوِيِّينَ: أَنَّ الاِسْمَ يُبْنَى عَلَى أَبْنِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِنْهَا: (فَعْلٌ، وَفِعْلٌ، وَفُعْلٌ، وَفَعَلٌ) وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَبْنِيَةِ، فَلَوْ جُعِلَ الإِعْرَابُ وَسَطًا، لَمْ يَدْرِ السَّامِعُ أَحَرَكَةُ إِعْرَابٍ هِيَ أَمْ: حَرَكَةُ بِنَاءٍ؟، فَجُعِلَ الإِعْرَابُ فِي آخِرِ الاِسْمِ؛ لِأَنَّ الوَقْفَ يُدْرِكُهُ فَيُسَكَّنُ فَيُعْلَمُ أَنَّهُ إِعْرَابٌ، وَإِذَا كَانَ وَسَطًا لَمْ يُمْكِنْ ذَلِكَ فيه.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: كَانَ أَبُو العَبَّاسِ الـمُبَرِّدُ يَقُوْلُ: لَمْ يُجْعَلِ الإعرابُ أَوَّلًا؛ لأنَّ الأَوَّلَ تَلْزَمُهُ الحَرَكَةُ ضَرُورَةً لِلابْتِدَاءِ. لأَنَّهُ لَا يُبْتَدَأُ إِلَّا بِمُتَحَرِّكٍ، ولا يُوقَفُ إِلَّا عَلَى سَاكِنٍ، فَلَمَّا كَانَتِ الحَرَكَةُ تَلْزَمُهُ لَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِ حَرَكَةُ إِعْرَابٍ؛ لِأَنَّ حَرَكَتَيْنِ لَا تَجْتَمِعَانِ فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَلَمَّا فَاتَ وُقُوْعُهُ أَوَّلًا لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يُجْعَلَ وَسَطًا؛ لِأَنَّ أَوْسَاطَ الأَسْمَاءِ مُخْتَلِفَةٌ؛ لِأَنَّهَا تَكُوْنُ ثُلَاثِيَّةً وَرُبَاعِيَّةً وَخُمَاسِيَّةً وَسُبَاعِيَّةً، فَأَوْسَاطُهَا مُخْتَلِفَةٌ، فَلَمَّا فَاتَ ذَلِكَ جُعِلَ آخِرًا بَعْدَ كَمَالِ الاِسْمِ بِبِنَائِهِ وَحَرَكَاتِهِ.

وَقَالَ آخَرُوْنَ: الإِعْرَابُ إِنَّمَا دَخَلَ الكَلَامَ دَلِيْلًا عَلَى الـمَعَانِي، فَوَجَبَ أَنْ يَكُوْنَ تَابِعًا لِلأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَامَ الدَّلِيْلُ عَلَى أَنَّهُ ثَانٍ بَعْدَهَا. وَهذَا القَوْلُ قَرِيْبٌ مِنَ الأَوَّلِ.

---

(١) الإِيضَاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ (ص٩١)، وَانظُرْ أيضًا: أسرارَ العربيَّةِ (ص٤٤) هذَا هُوَ الوَجْهُ الأَوَّلُ عِنْدَهُ وَيَذْكُرُ وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ.

وَكُلُّ هذِهِ الأَقْوَالِ يُقْنِعُ فِي مَعْنَاهُ»[(١)].

وَلكِنَّهُم لَو نَظَرُوا إِلَى أحوالِ الجُمَلِ وَالعِباراتِ لَاعترَفُوا بأنَّ هـذِهِ القَواعِدَ تُزِيلُ الإِبهَامَ وَالإِلْبَاسَ عَنِ الكَلامِ، وَقَدْ تكَلَّمَ شَيْخُ البَلَاغَةِ وَالبَيَانِ الإِمَامُ الجُرْجَانِيُّ عَنِ الَّذِينَ يترُكُونَ النَّحوَ وَيَزْهَدُونَ فِيه فقَالَ: «وَلَـمَّا لَمْ تَعْرِفْ هَـذِهِ الطَّائِفَةُ هَـذِهِ الـدَّقَائِقَ وَهَذِهِ الْخَوَاصَّ وَاللَّطَائِفَ، لَمْ تَتَعَرَّضْ لَهَا وَلَمْ تَطْلُبْهَا. ثُمَّ عَنَّ لَهَا بِسُوءِ الِاتِّفَاقِ رَأْيٌ صَارَ حَاجِزًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعِلْمِ بِهَا، وَسَدًّا دُونَ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا وَهُوَ أَنْ سَاءَ اعْتِقَادُهَا فِي الشِّعْرِ الَّذِي هُوَ مَعْدِنُهَا وَعَلَيْهِ الْـمُعَوَّلُ فِيهَا، وَفِي عِلْمِ الْإِعْرَابِ الَّذِي هُوَ لَهَا كَالنَّاسِبِ الَّذِي يَنْمِيهَا إِلَى أُصُولِهَا وَيُبَيِّنُ فَاضِلَهَا مِنْ مَفْضُولِهَا، فَجَعَلَتْ تُظْهِرُ الزُّهْدَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّوْعَيْنِ، وَتَطْرَحُ كُلًّا مِنَ الصِّنْفَيْنِ، وَتَرَى التَّشَاغُلَ عَنْهُمَا أَوْلَى مِنَ الِاشْتِغَالِ بِهِمَا، وَالْإِعْرَاضَ عَنْ تَدَبُّرِهِمَا أَصْوَبَ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى تَعَلُّمِهِمَا.

أَمَّا الشِّعْرُ فَخُيِّلَ إِلَيْهَا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ كَثِيرُ طَائِلٍ، وَأَنْ لَيْسَ إِلَّا مُلْحَةً أَوْ فُكَاهَةً أَوْ بُكَاءَ مَنْزِلٍ أَوْ وَصْفَ طَلَلٍ، أَوْ نَعْتَ نَاقَةٍ أَوْ جَمَلٍ، أَوْ إِسْرَافَ قَوْلٍ فِي مَدْحٍ أَوْ هِجَاءٍ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ تَمَسُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي صَلَاحِ دِينٍ أَوْ دُنْيَا.

وَأَمَّا النَّحْوُ فَظَنَّتْهُ ضَرْبًا مِنَ التَّكَلُّفِ وَبَابًا مِنَ التَّعَسُّفِ وَشَيْئًا لَا يُسْتَنَدُ إِلَى أَصْلٍ، وَلَا يُعْتَمَدُ فِيهِ عَلَى عَقْلٍ، وَأَنَّ مَا زَادَ مِنْهُ عَلَى مَعْرِفَةِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِمَّا تَجِدُهُ فِي الْمَبَادِئِ فَهُوَ فَضْلٌ لَا يُجْدِي نَفْعًا، وَلَا تَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى فَائِدَةٍ. وَضَرَبُوا لَهُ الْمَثَلَ بِالْمُلَحِ -كَمَا عَرَفْتَ- إِلَى أَشْبَاهٍ لِهَذِهِ الظُّنُونِ فِي الْقَبِيلَيْنِ، وَآرَاءٍ لَوْ عَلِمُوا مَغَبَّتَهَا وَمَا تَقُودُ إِلَيْهِ لَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْهَا وَلَأَنِفُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الرِّضَا بِهَا، ذَاكَ لِأَنَّهُمْ

---

(١) الإِيْضَاحُ فِي عِلَلِ النَّحْوِ (ص٧٦).

بِإِيثَارِهِمُ الْجَهْلَ بِذَلِكَ عَلَى الْعِلْمِ فِي مَعْنَى الصَّادِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمُبْتَغِي إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ تَعَالَى»[١].

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِيمَا مَضَى شَيءٌ مِنْ كَلامِهِ عَنِ النَّحْوِ وَضَرُورَةِ تَعَلُّمِهِ، يُمكِنُ الرُّجُوعُ إِلَى كَلامِهِ مَرَّةً أُخْرَى وَقِرَاءَتِهِ بِإِمْعَانٍ وَإِنْعَامٍ؛ لأَنَّ فِيْهِ مُتْعَةً وَفَائِدَةً.

وَفِي الفَصْلِ الآتِي نَضْرِبُ أَمْثِلَةً عَلَى كَوْنِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابيَّةِ مُبَيِّنَةً لِلمَعَانِي، وَهِيَ كَافِيَةٌ لِدَحْضِ مَقَالِ المُعْتَرِضِينَ، بِإِذنِ اللهِ تَعَالَى.

---

(١) دَلَائِلُ الإِعْجَازِ لِلجُرْجَانِيِّ (ص٧-٨).

الحَرَكَاتُ الإِعْرَابِيَّةُ تُزِيلُ الإِشْكَالَ وَاللَّبْسَ فِي الكَلَامِ

تَكَلَّمْنَا فِيمَا مَضَى عَنِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ وَضَرُورَتِهَا للإِسْفَارِ عَنِ المَعْنَى وَإِيْضَاحِهِ، وَلِتَرْجِيحِ المَعْنَى فِيما يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا، فَإِلَيْكَ أَمْثِلَةً عَلَى ذلِكَ[(١)]:

الْمِثَالُ الأَوَّلُ:

كُنتُ أَقْرَأُ قَصِيْدَةً للشَّاعِرِ الأَنَدلُسِيِّ أَبِي البَقَاءِ الرُّنديِّ فِي رِثَاءِ الأَنْدَلُسِ وَأُرِيدُ تَحلِيْلَهَا وَشَرْحَهَا لِكِتَابٍ أُصَنِّفُهُ[(٢)]، فَإِذَا بِبيتٍ مِنْ أَبيَاتِهَا يَقُولُ فِيْهَا:

[مِنَ البَسِيْطِ]

فَجَائِعُ الدَّهرِ أَنْواعٌ مُنَوَّعَةٌ ... وللزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزانُ

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يُمكِنُ أَنْ يَفْهَمَ مَنْ لا حَظَّ لَهُ منَ العربيَّةِ أَنَّ كلِمَةَ (فَجَائِعُ) اسمُ فَاعِلٍ أُخِذَتْ مِنَ (الجُوْعِ) وَالفَاءُ حَرْفُ عَطْفٍ، وَلكِنَّ مَنْ مَارَسَ العَرَبِيَّةَ عَلِمَ أَنَّ الصِّفَةَ وَالْمَوصُوفَ يَتَطَابَقَانِ فِي أشياءَ منهَا: فِي التَّذكيرِ وَالتَّأنيثِ.

فَبِهَذَا يَزُولُ الإِشْكَالُ وَيَعْلَمُ أَنَّ (فَجَائِعُ) جَمْعُ (فَجِيْعَةٍ)؛ لأَنَّ صِفَتَهُ جَاءَتْ مُؤَنَّثَةً وَهِيَ (مُنَوَّعَةٌ)، وَإِذَا كَانَ اسمَ فَاعِلِ (جَائِع)، لَكَانَتِ الصِّفَةُ تَأْتِي مُذَكَّرَةً وَقَالَ (مُنَوَّعٌ)، مَعَ أَنَّ مَنْ ذَاقَ طَعْمَ الشِّعْرِ يَعْرِفُ هذَا المَعْنَى أيضًا وَيَظْفَرُ بِهِ.

---

(١) وَقَدْ تَتعَلَّقُ حَرَكَةُ البِنَاءِ بِمَوْضُوعِنَا، فَلِذلِكَ نُشِيرُ إِليهَا أَحيَانًا.

(٢) كِتَابٌ لِي وَلَمْ يَكْتَمِلْ، أَجْمَعُ فِيْهِ عُيونَ مَرَاثِي البُلْدَانِ الإِسلامِيَّةِ وَأُعَلِّقُ عليهَا قَدْرَ الإِمْكَانِ، حَتَّى يَعْتَبِرَ بِهَا أَبْنَاءُ الأُمَّةِ، وَلَا يَنْسَوا الأَحْوَالَ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الأُمَّةُ، وَفِيْهَا دُرُوسٌ وَعِبَرٌ، أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى تَسْهِيلَهُ وَإِخرَاجَهُ وَالنَّفْعَ بِهِ.

الْـمِثَالُ الثَّانِي:

قَالَ البُوصِيرِيُّ فِي البُرْدَةِ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَلَـنْ يَضِـيقَ رَسُـولَ اللهِ جَاهُـكَ بِـي ... إِذَا الكَـرِيْمُ تَجَلَّـى بِاسْـمِ مُنْـتَقِمِ

فهذَا البَيْتُ أَيضًا مِنْ أَبْيَنِ الأَمْثِلَةِ عَلَى ضَرُورَةِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ فِي تَوْجِيهِ النُّصُوصِ وَتَفْسِيرِهَا؛ لأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (رَسُولُ اللهِ)، وَ(جَاهَكَ)، فَإِنَّ الـمَعْنَى يَنْقَلِبُ تَمَامًا، وَكَأَنَّ صَاحِبَ البَيْتِ خَاطَبَ شَخْصًا وَقَالَ لَهُ: (جَاهُكَ لَا يَضِيقُ رَسولَ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-).

أَمَّا إِذَا قَرَأْتَ (رَسُولَ) بالنَّصْبِ، فَإِنَّ الـمَعْنَى لَا يَتَرَجَّحُ أَيْضًا إِلَّا إِذَا عَلِمْتَ: هَلِ النَّصْبُ عَلَى النِّدَاءِ، أَمْ: كَانَ عَلَى الـمَفْعُولِ بِهِ؟ فَإِذَا كَانَ عَلَى النِّدَاءِ، فَإِنَّ الخِطَابَ لِلنَّبِيِّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- وَيَكُونُ الـمَعْنَى: يَا رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- جَاهُكَ لَا يَضِيقُ بِي.

أَمَّا إِذَا كَانَ عَلَى الـمَفْعُولِيَّةِ، فَإِنَّ الـمَعْنَى: جَاهُكَ لَا يَضِيقُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، وَعَلَيْهِ فَالخِطَابُ لَيْسَ مَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-.

وَبِهِ نُدْرِكُ ضَرُوْرَةَ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ الَّتِي نَرَى الـمُهَنْدِسَ نَصَبَ العَدَاءَ لَهَا.

الْـمِثَالُ الثَّالِثُ:

إِلَيْكَ مِثَالًا آخَرَ فِي ذَلِكَ: إِنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (مَدَحَ الرَّسُولَ الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ) يَخْتَلِفُ عَنْ قَولِكَ: (مَدَحَ الرَّسُولَ الرِّجَالُ ثَلَاثًا)، فَالأَوَّلُ بالـمُطَابَقَةِ بينَ الرِّجَالِ وَالثَّلَاثَةِ، فَيَكُونُ نَظَرُكَ فِيْهِ إِلَى عَدَدِ الرِّجَالِ وَهُم (ثَلَاثَةٌ)، أَمَّا فِي الثَّانِي فَإِنَّ نَظَرَكَ إِلَى عَدَدِ مَرَّاتِ الـمَدْحِ وَهِيَ (ثَلَاثٌ)!

الْمِثَالُ الرَّابِعُ:

سَأَلَنِي يَوْمًا مِنَ الأَيَّامِ أَخٌ عَنْ مَقْطَعٍ صَوْتِيٍّ نَشَرْتُهُ بِاللُّغَةِ الكُرْدِيَّةِ قَائِلًا: لَا أَفْهَمُ الكَلَامَ لَيتَكَ تَرْجَمتَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ؟! فَقُلْتُ لَهُ مُجِيبًا عَلَى سُؤَالِهِ: هَذَا مَقْطَعٌ مِنْ مُحَاضَرَتِي القَدِيْمَةِ تَكَلَّمتُ فِيْهِ عَنْ كَذَا.

ثُمَّ تَنَبَّهْتُ أَنَّ كَلَامِي فِيْهِ قُصُورٌ وَنَقْصٌ؛ لأَنَّنِي قُلْتُ: (مُحَاضَرَتِي القَدِيْمَةِ)! فَهَذَا الكَلامُ مُشْعِرٌ بِأَنَّ السَّائِلَ لَهُ العِلْمُ بِمُحَاضَرَتِي هَذِهِ، حَيْثُ عَرَّفْتُ الْمُحَاضَرَةَ بِإِضَافَتِهَا إِلَى ضَمِيْرِ (ي).

وَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ: هَذَا مَقْطَعٌ مِنْ مُحَاضَرَةٍ لِي قَدِيْمَةٍ، بِاستِخْدَامِ تَنوِيْنِ التَّنكِيْرِ، لِيَدُلَّ عَلَى عَدَمِ عِلْمِ السَّائِلِ بِهَذِهِ الْمُحَاضَرَةِ، لِكَيْ لَا يَقَعَ فِي حيرَةٍ وَدَهْشَةٍ وَيَظُنَّ أَنَّ لَهُ عَهْدًا بِهَا وَلَكِنَّهُ لَا يَتَذَكَّرُهُ، وَيَتَّهِمَ نَفْسَهُ بِالنِّسْيَانِ.

الْمِثَالُ الخَامِسُ:

إِذَا قَرَأَ وَاحِدٌ هَذَا البَيْتَ الشِّعْرِيَّ لِعَبْدِ الغَنِيِّ النَّابُلْسِيِّ:

[مِنَ المَدِيْدِ]

سَاكِنٌ فِي القَلْبِ يَعْمُرُهُ لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُه

فَلَوْ قَالَ: (فَأَذْكُرُهُ) بِالرَّفعِ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ يَخْتَلِفُ عَنْ: (فَأَذْكُرَهُ) بِالنَّصْبِ، فَالأَوَّلُ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَذْكُرُهُ، وَلَا يَنْسَاهُ، وَلَكِنَّ الثَّانِي فِيْهِ بَيَانٌ زَائِدٌ وَجَمَالٌ أَزْيَدُ؛ لأَنَّ المَعْنَى يَصِيرُ: (أَنَا لَمْ أَنْسَهُ حَتَّى أَذْكُرَهُ)، وَلَا يَخْفَى كَمْ لِهَذَا مِنَ الجَمَالِ عَلَى سَابِقِهِ.

الـمِثَالُ السَّادِسُ:

لَوْ نَظَرْنَا إِلَى هذِهِ الأَمْثِلَةِ الآتِيَةِ لَرَأَيْنَا بين مَعَانِيهَا فُرُوقًا كَبِيْرَةً بِسَبَبِ الإِعْرَابِ:

* لَمْ تَرْحَمْ مُحَمَّدًا فَيُحسِنْ إِلَيْك. فَالفاءُ هُنَا حَرْفُ عطْفٍ، يَعْنِي أَنَّكَ لَمْ تَرْحَمْهُ وَهُوَ لَمْ يُحْسِنْ إِلَيْك.

* لَمْ تَرْحَمْ مُحَمَّدًا فَيُحسِنَ إِلَيْكَ. أَمَّا هُنَا فَتَكُونُ سَبَبِيَّةً، وَالْمَعْنَى: أَنَّكَ لَمْ تَرْحَمْهُ حَتَّى يُحسِنَ إِلَيْكَ بِسَبَبِ رَحْمَتِك لَهُ.

* لَمْ تَرْحَمْ مُحَمَّدًا فَيُحْسِنُ إِلَيْكَ. أَمَّا هُنَا فَالجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيْهَا خَبَرِيَّةٌ، تَعْنِي: أَنَّكَ لَمْ تَرْحَمْهُ وَمَعَ هذَا هُوَ يُحْسِنُ إِلَيْك.

الـمِثَالُ السَّابِعُ:

وَكَذَلِكَ لَوْ أَزَلْنَا الإِعْرَابَ فِي هذِهِ الجُمَلِ لَوَقَعْنَا فِي تَخَبُّطٍ بَيِّنٍ فِي فَهْمِهَا:

* لِيَخْرُجَ مُحَمَّدٌ. فَاللَّامُ هُنَا تَعْلِيْلِيَةٌ، وَيَكُونُ مَعْنَى الْجُملَةِ: أَنَّكَ قُمْتَ بِشَيْءٍ، لِيَخرُجَ محمَّدٌ بِسَبَبِهِ.

* لِيَخْرُجْ مُحَمَّدٌ. أَمَّا هُنَا نَرَى اللَّامَ جَزَمَتِ الفِعْلَ فَيَظْهَرُ أَنَّهَا للأَمرِ، ويكُونُ مَعْنَى الجملَةِ: أَنَّكَ أَمَرْتَ مَحمَّدًا بالخُروجِ!

* لِيُخْرِجَ مُحَمَّدًا. أَمَّا هُنَا فاللَّامُ للتَّعليلِ ويَكونُ الـمَعنَى: وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ فَعَلَ شَيئًا لِكَيْ يُخْرِجَ الآخَرُ مُحمَّدًا بِسَبَبِهِ.

الـمِثَالُ الثَّامِنُ:

هذَا مَا ذَكَرَهُ السُّيوطِيُّ وَأَورَدَهُ فِي بَيَانِ مَعَانِي (إِلَّا)[1] حَيثُ قَالَ: «وَالفَرْقُ بَيْنَ

(١) سَبَقَهُ إِليهِ المُبرِّدُ فِي المُقْتَضَبِ (٤/ ٤٢٢)، وَالسّيرَافِيُّ كَمَا فِي المَنَاظَرَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو حَيَّانَ =

مَوْضِعِهَا فِي الِاسْتِثْنَاءِ وَالصِّفَةِ: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: (هذَا دِرْهَمٌ إِلَّا قِيرَاطًا) بِالنَّصْبِ، كَانَ اسْتِثْنَاءً، فَالْمَعْنَى: إِنَّ الدِّرْهَمَ يَنْقُصُ قِيرَاطًا، وَإِذَا قُلْتَ: (هذَا دِرْهَمٌ إِلَّا قِيرَاطٌ)، بِالرَّفْعِ كَانَ صِفَةً، فَـ(الدِّرْهَمُ) عَلَى هذَا تَامٌّ غَيْرُ نَاقِصٍ، وَالْمَعْنَى: (أَنَّ الدِّرْهَمَ غَيْرُ قِيرَاطٍ)»[1].

الْمِثَالُ التَّاسِعُ:

إِنَّ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ تُزِيلُ الإِلْبَاسَ وَتُبَيِّنُ المرادَ مِنْ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿...وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟...﴾ (البقرة).

وَإِذَا قَرَأَهُ وَاحِدٌ بِفَتْحِ التَّاءِ مِنْ قَوْلِهِ: (تَنكِحُوا) فَإِنَّ المعنَى يَنْقَلِبُ إِلَى مَعْنًى سَيِّءٍ جِدًّا، وَهذَا قَدْ حَدَثَ قَدِيمًا لِوَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ وَاقْشَعَرَّ لَهُ جِلْدُ رَجلٍ مِنَ الأَعْرَابِ، كَمَا حَكَاهُ ابنُ قُتيبَةَ قَائِلًا: «سَمِعَ أَعْرَابِيٌّ إِمَامًا يَقْرَأُ: [وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا] بِفَتْحِ تَاءِ (تَنْكِحُوا) فقالَ: سبحانَ اللهِ! هذا قَبْلَ الإِسْلَامِ قَبِيحٌ فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟! فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ لَحْنٌ، وَالقِرَاءَةُ: [وَلَا تُنْكِحُوا].

فَقَالَ: قَبَّحَهُ اللهُ، لَا تَجْعَلُوهُ بَعْدَهَا إِمَامًا فَإِنَّه يُحِلُّ مَا حَرَّمَ اللهُ»[2].

وَذَكَرَ أيضًا الوَزِيرُ أَبُو سَعدٍ الآبِيُّ قَائِلًا: «وَكَانَ سَابِقُ الْأَعْمَى يقْرَأُ: [الخَالِقُ البَارِئُ المُصوَّرُ] فَكَانَ ابْنُ جَابَانَ إِذَا لَقِيَهُ قَالَ: يَا فاسِقُ مَا فَعَلَ الحرفُ الَّذِي تُشرِكُ

= فِي الإِمتاعِ وَالمؤَانَسَةِ (ص٩٧).

(١) الأشباهُ والنَّظَائِرُ فِي النَّحوِ للسُّيوطِيِّ (٤/ ٧١)، الأَلْغَازُ النَّحويَّةُ (الطِّرَازُ فِي الأَلْغَازِ) لَهُ أيضًا (ص٣٦).

(٢) عُيونُ الأَخبارِ لِابنِ قُتيبةَ (٢/ ١٧٥).

بِاللهِ فِيهِ؟ قَالَ: وَقَرَأَ مرَّةً: [وَلَا تُنْكحُوا الْـمُشْركين حَتَّى يُؤمنُوا] بِفَتْحِ تَـاءِ (تُنْكِحُـوا)، فَقَالَ ابْنُ جَابَانَ: وَإِنْ آمَنُوا لَمْ ننْكِحْهُمْ!»[1].

أُنْظُرِ الفَارِقَ بينَ: (تَنْكِحُوا)، وَ(تُنْكِحُوا)، وبَيْنَ (الْـمُصَوَّرِ)، وَ(الْـمُصَوِّرِ)[2]، كَـمَ يَتَغَيَّرُ الْـمَعْنَى بِتَغَيُّرِ الحَرَكَةِ، فَهذَا هُوَ الإِعْرابُ الَّذِي يُعَادُونَهُ، وَالحَرَكَةُ الَّتِي يُرِيـدُونَ إِزَالَتها.

الْـمِثَالُ العَاشِرُ:

هذَا المِثَالُ أَخْرَجْنَاهُ مِنْ كَـلَامِ الإِمامِ ابنِ الْـوَرَّاقِ عَـنْ ضَـرورَةِ الإِعْـرَابِ لِإِسفَارِ المعنَى وَإِظْهَارِهِ فِي الْأَسْمَاءِ، وَقَالَ: «أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: (مَا أَحْسَنَ زَيْد).

لَكُنْتَ ذَامًّا لَهُ. وَلَوْ قُلـتَ: (مَـا أَحْسَـنُ زَيْـدٍ؟)، لَكُنْـتَ مُسْـتَفْهِمًا عَـنْ أَبْعَاضِـهِ أَيُّهَـا أَحْسَنُ؟.

وَلَو قُلْتَ: (مَا أَحْسَنَ زَيْدًا!) لَكُنْتَ مُتعَجِّبًا.

فَلَوْ أُسْقِطَ الْإِعْرَابُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ، لَاخْتَلَطَتْ هَذِه الْمعَـانِي، فَوَجَـبَ أَنْ تُعْـرِبَ الْأَسْمَاءَ حَتَّى يَزُولَ الْإِشْكَالُ»[3].

الْـمِثَالُ الحَادِي عَشَرَ:

هذَا هُوَ الْمِثَالُ الَّذِي نُسِبَ إِلَى ابنَةِ أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِي: (مَا أَجْمَلَ السَّمَاءُ)، **فَهـذَا الْمِثالُ إِذَا جُرِّدَ عَنِ الحَرَكَاتِ يَشْتَرِكُ بينَ مَعَانٍ ثَلاثَةٍ:**

---

(١) نَثْرُ الدُّرِّ فِي المحَاضَرَاتِ للآبيِّ (٥/ ١٨١).

(٢) حَرَكَةُ هذِهِ حَرَكَةُ بِنَاءٍ.

(٣) عِلَلُ النَّحوِ لِابنِ الوَرَّاقِ (ص١٤٣).

* مَا أجمَلَ السَّمَاءَ. هَذَا يَكُونُ للتَّعَجُّبِ.
* مَا أَجْمَلَ السَّمَاءُ. يَكُونُ للنَّفِي.
* مَا أَجْمَلُ السَّمَاءِ؟. يكُونُ لِلاستِفْهَامِ.

المِثَالُ الثَّانِي عَشَرَ:

وَأَضْرِبُ فِي ذلِكَ مِثالًا آخرَ وَهُوَ قَوْلُنَا: (مُحَمَّدٌ مُكْرِمٌ تَلْمِيْذهُ زَيْدًا). وَإِذَا رَفَعْنَا (تَلْمِيْذُهُ) فَيكُونُ الْمَعنَى: أَنَّ غُلامَ مُحَمَّدٍ أَكْرَمَ زَيْدًا. أَمَّا إِذَا نَصَبْنَا (تَلْمِيْذَهُ) فَيَكُونُ الْمَعنَى: أَنَّ مُحَمَّدًا أَكْرَمَ زَيْدًا؛ لأَنَّ(زَيْدًا) يَكونُ بَدَلًا منْ (تَلْمِيْذَهُ) أَوْ: عَطْفَ بيَانٍ لَهُ.

المِثَالُ الثَّالِثَ عَشَرَ:

خُذْ فِي ذلِكَ مِثَالًا آخرَ، وَهوَ الاسمُ الوَاقِعُ بَعْدَ (كَمْ):

* كَمْ رَجُلٍ جَاهَدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ. فَهُنَا تَكُونُ (كَمْ) خَبَرِيَّةً للتَّكْثيرِ، يَعْنِي: رِجَالٌ كَثِيرونَ جَاهَدُوا.
* كَمْ رَجُلًا جَاهَدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ. أَمَّا هُنَا فَتكُونُ استِفهَامِيَّةً وَتَكُونُ الجُمْلَةُ سُؤالًا عَنْ عَدَدِ الرِّجَالِ الْـمُجَاهِدِينَ.
* كَمْ رَجُلٌ جَاهَدَ فِي سَبِيْلِ اللهِ. أَمَّا هُنَا فَتكُونُ استِفْهَامِيَّةً وَلكِنْ باختِلافِ الْمَعْنَى الَّذِي يَحْمِلُهُ المِثالُ السَّابِقُ، وَهُنَا يَكُونُ السُّؤالُ عَنْ عَدَدِ مَرَّاتِ جِهَادِ هذَا الرَّجُلِ الْمَذكُورِ، وَليسَ السُّؤالُ عَنْ عَدَدِ لرِّجَالِ!

المِثَالُ الرَّابِعَ عَشَرَ:

هُنَاكَ مِثَالٌ مَشْهُورٌ يَسْتَخْدِمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الـمُعْرِبِيْنَ وَهُوَ قَدْ مَرَ مَعَنَا فِي قِصَّةِ وَضْعِ الحَرَكَاتِ حَيثُ سَمِعَ أَبُو الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ رَجُلًا قَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ

وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ..﴿٣﴾ (التوبة).
بِكَسْرِ (وَرَسُولُهُ)، فَاسْتَعْظَمَ ذَلِكَ أَبُو الْأَسْوَدِ وَقَالَ: عَزَّ وَجْهُ اللهِ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ رَسُوْلِهِ»[1].

فالإِعْرَابُ هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ الـمَعْنَى، فَإِذَا قُرِئَ بِالرَّفْعِ يَصِيرُ مَعْنَاهَا: (ورَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنَ الـمُشْرِكِينَ كَمَا أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَرِيءٌ مِنْهُم)، وَلَكِنْ بِالجَرِّ يَكُونُ الـمَعْنَى: (أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الـمُشْرِكِيْنَ وَبَرِيءٌ مِنْ رَسُولِهِ) وَالعِيَاذُ باللهِ!

الـمِثَالُ الخَامِسَ عَشَرَ:

قَالَ سِيبَوَيْهِ عِنْدَ الكَلامِ عَلَى (الحَالِ): «وَمِثْلُ ذلِكَ: (مَنْ ذَا قَائِمًا بِالبَابِ)، عَلَى الحَالِ، أَيْ: (مَنْ ذَا الَّذِي هُوَ قَائِمٌ بِالبَابِ). هـذَا الـمَعْنَى تُرِيْدُ. وَأَمَّا العَامِلُ فِيْهِ فَبِمَنْزِلَةِ: (هذَا عَبْدُ اللهِ)؛ لأَنَّ (مَنْ) مُبْتَدَأٌ قَدْ بُنِيَ عَلَيْهِ اسْمٌ. وَكَذَلِكَ: (لِـمَنِ الدَّارُ مَفْتُوحًا بَابُها).

أَمَّا قَوْلُهم: (مَنْ ذَا خَيرٌ مِنْكَ)، فَهُوَ عَلَى قَوْلِهِ: (مَنِ الَّذِي هُوَ خَيرٌ مِنْكَ)؛ لِأَنَّكَ لَمْ تُرِدْ أَنْ تُشِيرَ، أَوْ: تُومِئَ إِلَى إِنْسَانٍ قَدِ اسْتَبَانَ لَكَ فَضْلُهُ عَلَى الـمَسْؤُوْلِ فَيُعْلِمَكَهُ، وَلكِنَّكَ أَرَدْتَ (مَنْ ذَا الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ مِنْكَ). فَإِنْ أَوْمَأْتَ إِلَى إِنْسَانٍ قَدِ اسْتَبَانَ لَكَ فَضْلُهُ عَلَيْهِ، فَأَرَدْتَ أَنْ يُعْلِمَكَهُ نَصَبْتَ (خَيْرًا مِنْكَ)، كَمَا قُلْتَ: (مَنْ ذَا قَائِمًا)، كَأَنَّكَ قُلْتَ: إِنَّما أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هذَا الَّذِي قَدْ صَارَ فِي حَالٍ قَدْ فَضَلَكَ بِهَا. وَنَصْبُهُ كَنَصْبِ (مَا شَأْنُكَ قَائِمًا)»[2].

---

(١) الـمُحكَمُ فِي نَقْطِ الـمُصَاحَفِ للدَّانِيِّ (ص٤)، وَنُزْهَةُ الأَلِبَّاءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٢٠)، وَتَارِيخُ دِمَشْقَ (٢٥/ ١٩٣)، وَسَبَبُ وَضعِ عِلْمِ العَرَبِيَّةِ للسُّيُوطِيِّ (ص٣٦)، وَمَا بَعْدَهَا.
(٢) الكِتَابُ (٢/ ٦١).

المِثَالُ السَّادِسَ عَشَرَ:

وَكَذَا لَوْ لَمْ يَكُنِ الإِعرَابُ كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُفَرِّقَ بينَ هَاتَيْنِ الجُملَتَيْنِ:

* لَا يَخْرُجُ أَحمَدُ. وَهِيَ للنَّفيِ، وَتَحْمِلُ مَعْنَى الخَبَرِ؛ لأَنَّكَ تُخبِرُ بِعَدَمِ خُرُوجِهِ.
* لَا يَخْرُجْ أَحمَدُ. أَمَّا هُنَا فتَكُونُ للنَّهْيِ، وَأَنَّكَ تَنْهَاهُ عَنِ الخُرُوجِ!

المِثَالُ السَّابِعَ عَشَرَ:

وَكَذَلِكَ لَوْ نَظَرْنَا إِلَى هَاتَيْنِ الجُمْلَتَيْنِ فَنَرَى الرَّابِطَةَ القَوِيَّةَ بينَ الإِعرَابِ وَالْمَعنَى مَثَلًا لَوْ قُلْنَا: (لَا تَكْفُرْ تَدْخُلِ النَّارَ) وَ: (لَا تَدْنُ مِنَ الأَسَدِ فَيَأْكُلْكَ) بالجَزْمِ فِي فِعْلَي: (تَدْخُل) وَ(يَأكُل)، يَكُونُ خَطَأً مُسْتَهْجَنًا وَغَلَطًا فَاحِشًا؛ لِأَنَّ الجَزْمَ لَا يَجوزُ وَالحَالَةُ هذِهِ إِلَّا إِذَا جَازَتِ السَّبَبِيَّةُ بأَنْ يَكُونَ الأَوَّلُ سَبَبًا للثَّانِي، وَمِنْ هُنَا لَا تَصِحُّ السَّبَبِيَّةُ لأَنَّهُ لَوْ قُلْنَا: (إِنْ لَا تَكفُرْ تَدْخُلِ النَّارَ) وَ: (إِنْ لَا تَدْنُ مِنَ الأَسَدِ فَيَأكُلْكَ). فَكَيْفَ مَنْ لَا يَكْفُرُ يَدْخُلُ النَّارَ؟ وَكَذلِكَ بالنِّسْبَةِ للجُملَةِ الثَّانِيَةِ.

المِثَالُ الثَّامِنَ عَشَرَ:

وَكَذلِكَ لَوْ ضَرَبْنَا مِثَالًا بِـ(مَا) فِي ثَلاثِ جُمَلٍ، نَرَى أَنَّ مَعْنَاهَا يَخْلِفُ تَمَامًا مِنْ جُمْلَةٍ إِلَى أُخْرَى، كَالآتِي:

* أَنَا مَا أَعطَيتُكَ، لِنَفيِ الإِعْطَاءِ. بِجَعْلِ (مَا) نَافِيَةً.
* أَنَا مَا أَعْطَيْتُكَ، لإِثْبَاتِ الإِعْطَاءِ، بِجَعْلِهَا مَوْصُولَةً بِمَعْنَى الَّذِي.
* أَنَا مَا أَعطَيْتُكَ، للسُّؤالِ عَنِ الإِعْطَاءِ مُسْتَفْسِرًا عَدَمَ الإِعْطَاءِ، بِجَعلِهَا أَدَاةً لِلاستِفْهَامِ.

الـمِثَالُ التَّاسِعَ عَشَرَ:

وَكَذلِكَ نَرَى الفَرقَ وَاضِحًا بَيِّنًا فِي هَاتَيْنِ الْجُملَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَكُونُ السُّؤالُ بـ(مَنْ) وَالجَوَابُ بِـ(مَنْ)، وَهِيَ:

* مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ؟ مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ!
* مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ!

الـمِثَالُ العِشْرُونَ:

وَكَذَا الحَالُ فِي تَنوِينِ التَّنكِيرِ، فَلَوِ استَخْدَمْتَهُ يَتَغَيَّرُ الـْمَعنَى تَمَامًا مِنْ عَدَمِ استِخْدَامِهِ، كَالآتِي:عِندَ مَا تَكَلَّمْتَ مَعَ رَجُلٍ فِي مَسأَلَةٍ وَقُلْتَ لَهُ: (صَهٍ)، أَيْ: اُسْكُتْ سُكُوتًا مَا.

يَكُونُ الْـمَقصُودُ عدمَ الكَلامِ فِي شَيءٍ؛ لأَنَّ التَّنوينَ للتَّنكيرِ وَيَكُونُ أمرًا بالسُّكوتِ فِي الكَلام كُلِّهِ (جِنْسِ الكَلَام)، وَلكِنْ إِذَا قُلْتَ لَهُ: (صَهِ) بِدُونِ التَّنوِينِ، أَيْ: اُسْكُتِ الآنَ، فَيَكُونُ قَدْ أَمَرْتَهُ بالسُّكُوتِ عَنِ الكَلامِ الَّذِي بينَكَ وبينَهُ لَا بِجِنْسِ الكَلامِ.

وَمِثْلُهُ لَو قِيْلَ: (هِيْهٍ) يكُونُ معنَى الزِّيادَةِ في كُلِّ شيءٍ، أَمَّا إِذَا قيلَ: (هِيْهِ) بدونِ التَّنوينِ تَكُونُ الزِّيَادَةُ فِي شيءٍ معلُومٍ بينَ الـْمُتَكَلِّمِ وَ الـْمُخَاطَبِ.

الـمِثَالُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ:

وَمَا دُمْنَا فِي بَابِ الحَرَكَاتِ فلَا بأسَ أَنْ نَذكُرَ شَيئًا مِنْ ضَرُورَةِ مَعْرِفَةِ حَرَكَاتِ البِنَاءِ أيضًا؛ لأَنَّ الاختِلاطَ فِيْهَا يُوقِعُ فِي الأَوهَامِ وَالأَغْلاطِ فِي الفَهْمِ، وَهِيَ الفَارِقُ وَالفَيْصَلُ بينَ تَدَاخُلِ الكَلِمَاتِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الحَرَكَاتُ، لَمْ

يُفَرَّقُ بينَ مصْدَرٍ وَلَا فِعْلٍ فِي الكَلِمَاتِ الثُّلَاثِيَّةِ مَثَلًا، كَـ(فَهْمٍ) وَ(فَهِمَ)، وَكذَا لِسَائِرِ المُشتَقَّاتِ كَـ: (فُهِمَ) وَ(فَهِمٌ)!

وَلَا بينَ اسمِ الفَاعِلِ وَلَا الْمفعُولِ فِي غَيْرِ الثُّلاثِيِّ كَـ(مُحْتَرِمٍ) وَ(مُحْتَرَمٍ)، وَلَا بَيْنَ البِنَاءِ للفَاعِلِ (الْمَبنِي للمَعلُومِ) وَالبِنَاءِ للمَفعُولِ (الْـمَبنِي للمَجهُولِ) كَـ(فَهِمَ يَفْهَمُ) وَ(فُهِمَ يُفْهَمُ)!

وَلَوْلَا البِنَاءُ لَم يُعْلَمِ الفَرْقُ بينَ الجَمْعِ وَالْمُثَنَّى فِي حَالَتَي النَّصْبِ وَالجَرِّ، كَـ: (مُسلِمِينَ) وَ(مُسلِمَيْنِ)، وَ(مُؤمِنِينَ) وَ(مُؤمِنَيْنِ).

الْـمِثَالُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ:

وَلَا يَخْفَى كَمْ للحَرَكَاتِ مِنْ عَظِيْمِ دَوْرٍ وَكَبِيرِ فَائِدَةٍ، فَمَثَلًا:

(يَحْسِبُ) بالكَسْرِ وَالفَتْحِ مِنَ الحِسْبَانِ، وَهُوَ الظَّنُّ، أَمَّا (يَحْسُبُ) بالضَّمِّ، فَمِنَ الحِسَابِ. كَمَا أَنَّ (اللُّبْسَ) بالضَّمِّ، يَكُونُ لِارتِدَاءِ الثَّوْبِ، أَمَّا (اللَّبْسُ) بِالفَتْحِ، فَهُوَ لِاختِلاطِ الأَمْرِ وَالتِبَاسِهِ. وَ(الصَّبْغُ) بالفَتْحِ هُوَ مَصْدَرٌ، أَمَّا (الصِّبْغُ) بالكَسْرِ، فَهُوَ أَثَرُ (الصَّبْغِ).

وَهُنَاكَ كَلِمَاتٌ أُخرَى يَتَغَيَّرُ مَعْنَاهَا بِسَبَبِ الحَرَكَةِ، كَمَا نَرَى كَثِيرًا مِنَ العَامَّةِ يَقُولُونَ (الحِلُّ مِيْتَتُهُ) بِكَسْرِ الْـمِيْمِ، فِي الحَدِيثِ الْـمَشْهُورِ، وَالصَّحِيحُ هُوَ بِفَتْحِ (الْـمِيْمِ)، وَالْـمَعْنَى فِيْهِمَا مُختَلِفٌ تَمامًا، قَالَ الخَطَّابِيُّ: «قَوْلُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي البَحْرِ: (هو الطَّهُورُ مَاؤهُ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ). عَوَامُّ الرُّوَاةِ يُولَعُونَ بِكَسْرِ الْـمِيمِ مِنَ (الْـمَيْتَةِ). يَقُولُوْنَ: (مِيتَتُهُ)، وَإِنَّمَا هِيَ (مَيْتَتُهُ)، مَفْتُوحَةَ الْـمِيْمِ، يُرِيْدُونَ حَيَوَانَ البَحْرِ

إِذَا مَاتَ فِيْهِ. وَسَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ الـمُبَرِّدَ يَقُولُ فِي هـذَا: (الـمِيتَةُ): الـمَوْتُ، وَهُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ -عَزَّوَجَلَّ- يَقَعُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ، لَا يُقَالُ فِيْهِ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ»[١].

وَقَالَ ابنُ فَارِسٍ: «فَهُوَ بِفَتْحِ الـمِيْمِ، وَهُوَ: مَا مَاتَ مِمَّا عَيْشُهُ فِيْهِ، وَأَمَّا (الـمِيتَةُ)، بِكَسْرِ الـمِيْمِ فَهُوَ الـمَوْتُ نَفْسُهُ، وَالحَدِيْثُ هُوَ بِفَتْحِ الـمِيْمِ لَا غَيْرُ؛ لِأَنَّهُ يُرِيْدُ الَّذِي يَمُوتُ»[٢].

وَلِلمَزِيْدِ مِنْ ذلِكَ رَاجِعُوا الكُتُبَ الَّتِي أُفْرِدَتْ لِلمُثَلَّثَاتِ، فَفِيْهَا مُتْعَةٌ وَفَائِدَةٌ، وَاللهُ الـمُوَفِّقُ.

الـمِثَالُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ:

هذَا الـمِثَالُ هُوَ مَا ذَكَرَهُ ابنُ فَارِسٍ، وَهُوَ الفَرْقُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ: (وَجْهُكَ وَجْهُ حُرٍّ)، وَ(وَجْهُكَ وَجْهٌ حُرٌّ)[٣].

فَلَا يُمْكِنُ التَّفرِيْقُ بيْنَ تَيْنِكَ الجُمْلَتَيْنِ إِلَّا بِالإِعْرَابِ، فَالأُوْلَى عَلَى الإِضَافَةِ فِيْهَا مَعْنَى التَّشْبِيْهِ، عَلَى أَنَّ وَجْهَهُ كَوَجْهِ حُرٍّ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِنَّهَا عَلَى الصِّفَةِ وَالـمَوْصُوفِ، فَفِيْهَا إِخْبَارٌ بِأَنَّ وَجْهَهُ حُرٌّ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيْهٍ.

الـمِثَالُ الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ:

هـذَا الـمِثَالُ هُوَ مَا رَوَاهُ جَابِرٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «ذَكَاةُ الْجَنِينِ، ذَكَاةُ أُمِّهِ»[٤].

---

(١) إِصْلَاحُ غَلَطِ الـمحدِّثِينَ (ص٢٠).

(٢) حِلْيَةُ الفُقَهَاءِ (ص٣٤).

(٣) الصَّاحِبِي لِابنِ فَارِسٍ (ص٣٥).

(٤) رَوَاهُ ابنُ أَبِي شيبةَ فِي الـمُصنَّفِ (٧/ ٢٨٨)، بِرَقْمِ: (٣٦١٥٠)، وَأَحمدُ فِي الـمُسْنَدِ =

قَالَ العَلَّامَةُ الـمُلَّا عَلِيٌّ القَارِي: «بِالرَّفْعِ فِي الثَّانِي، وَفِي نُسْخَةٍ صَحِيحَةٍ بِالنَّصْبِ، وَحُكِيَ بِالنَّصْبِ فِيهِمَا. فِي النِّهَايَةِ: التَّذْكِيَةُ: الذَّبْحُ وَالنَّحْرُ، وَيُرْوَى الْحَدِيثُ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، فَمَنْ رَفَعَ جَعَلَهُ خَبَرَ الـْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ (ذَكَاةُ)، فَيَكُونُ: ذَكَاةُ الْأُمِّ هِيَ ذَكَاةَ الْجَنِينِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَبْحٍ مُسْتَأْنَفٍ.

وَمَنْ نَصَبَ كَانَ التَّقْدِيرُ: ذَكَاةُ الْجَنِينِ كَذَكَاةِ أُمِّهِ، فَلَمَّا حُذِفَ الْجَارُّ نُصِبَ، أَوْ: عَلَى تَقْدِيرِ: (يُذَكَّى تَذْكِيَةً مِثْلَ ذَكَاةِ أُمِّهِ)، فَحُذِفَ الـْمَصْدَرُ وَصِفَتُهُ، وَأُقِيمَ الـْمُضَافُ إِلَيْهِ مُقَامَهُ، فَلَا بُدَّ عِنْدَهُ مِنْ ذَبْحِ الْجَنِينِ إِذَا خَرَجَ حَيًّا»[١].

الـمِثَالُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ:

كُنَّا فِي الـمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الجَامِعَةِ وَكَانَ لأُسْتَاذِ مَادَّةِ النَّحْوِ[٢] إِلْمَامٌ بهذَا الجَانِبِ وَيُتْحِفُنَا بِبَعْضِ أَمْثِلَةٍ فِيهِ، وَمِنَ الأَمْثِلَةِ الَّتِي ضَرَبَهَا فِي هذَا البَابِ، هِيَ قَوْلُهُ فِي

= (١٧/ ٤٤٢)، بِرَقْمٍ: (١١٣٤٣)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي السُّنَنِ (٣/ ١٠٣)، بِرَقْمٍ: (٢٨٢٨)، وَغَيرُهُم، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

(١) هُوَ الأُسْتَاذُ الفَاضِلُ الـمَحبُوبُ لَدَى الطَّلَبَةِ الأُسْتَاذُ هَاوكَارُ -جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا وَثَبَّتَهُ عَلَى دِيْنِهِ- الأُسْتَاذُ بِجَامِعَةِ السُّلَيْمَانِيَّةِ بِكُرْدستَانَ.

(٢) مِرْقَاةُ الـمَفَاتِيحِ للقَارِي (٦/ ٢٦٥٦).

قَالَ الحَافِظُ الـمُنْذِرِيُّ فِي: (مُخْتَصَرِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ) (٢/ ٢٥٧): «والمحفوظُ عَنْ أَئِمَّةِ هذَا الشَّأْنِ فِي تَقْيِيْدِ هذَا الحَدِيْثِ: الرَّفْعُ فِيْهِمَا.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي قَوْلِهِ: (فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ) مَا يُبْطِلُ هذَا التَّأْوِيْلَ وَيُدْحِضُهُ، فَإِنَّهُ تَعْلِيْلٌ لِإِبَاحَتِهِ مِنْ غَيْرِ إِحْدَاثِ ذَكَاةٍ.

وَقَالَ ابْنُ الـمُنْذِرِ: لَمْ يُرْوَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ، وَسَائِرِ عُلَمَاءِ الأَمْصَارِ: أَنَّ الجَنِيْنَ لَا يُؤْكَلُ إِلَّا بِاسْتِئْنَافِ الذَّكَاةِ فِيْهِ، إِلَّا مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، قَالَ: وَلَا أَحْسِبُ أَصْحَابَهُ وَافَقُوهُ عَلَيْهِ». انتهى.

التَّفريقِ بينَ الجُمْلَتَيْنِ:

* يُعْجِبُنِي إِكْرَامُ الأُسْتَاذِ الـمُخْلِصِ، أَوِ: الـمُخْلِصَ، تَلامِيْذُهُ. فَفِي هذِهِ الجُمْلَةِ قَامَ التَّلامِيذُ بِإِكْرَامِ أُسْتَاذِهِمُ الـمُخْلِصِ، فَيَجُوزُ جَرُّ الصِّفَةِ (أَعْنِي: الـمُخْلِص)، عَلَى لَفْظِ (الأُسْتَاذ)، فَهُوَ مَجْرُورٌ، وَيَجُوزُ نَصْبُهُ عَلَى مَوْقِعِهِ إِذْ هُوَ مَنْصُوبٌ مَحَلًّا.

* يُعْجِبُنِي إِكْرَامُ الأُسْتَاذِ الفَاضِلِ، أَوِ: الفَاضِلُ، تَلامِيْذَهُ. وَمِنْ هُنَا يَجُوزُ جَرُّ الصِّفَةِ كَمَا كَانَ الحَالُ فِي الجُمْلَةِ الأُوْلَى، وَيَجُوزُ الرَّفْعُ نَظَرًا إِلَى مَحَلِّ الأُسْتَاذِ، إِذْ هُوَ فَاعِلٌ، قَامَ بِإِكْرَامِ التَّلامِيْذِ.

فَالإِعرَابُ هُوَ الـمُسْفِرُ عَنِ الـمَعْنَى وَالـمُبَيِّنُ لِلمُكْرِمِ مِنَ الـمُكْرَمِ؟

الـمِثَالُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ:

هذَا مِثَالٌ آخَرُ أَحَدُّ مِنْ حَدِّ السَّيْفِ وَأَنْكَى مِنْهُ بِالـمُخَادِعِ الـمُرَاوِغِ الَّذِي يُهِينُ بِالحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، وَيُلْقِمُهُ الحَجَرَ وَيُعَرِّي جَهْلَهُ لِعَامَّةِ النَّاسِ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ بِسَنَدِهِ إِلَى الأَحْمَرِ النَّحْوِيِّ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلَ أَبُو يُوْسُفَ القَاضِي (وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ[(١)]: مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ) عَلَى الرَّشِيْدِ وَعِنْدَهُ الكِسَائِيُّ يُحَدِّثُهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيْرَ الـمُؤْمِنِيْنَ! قَدْ سَعِدَ بِكَ هذَا الكُوْفِيُّ وَشَغَلَكَ.

فَقَالَ الرَّشِيْدُ: النَّحْوُ يَسْتَفْرِغُنِي؛ لِأَنَّنِي أَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى القُرآنِ وَالشِّعْرِ.

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ، أَوْ: أَبُو يُوسُفَ: إِنَّ عِلْمَ النَّحْوِ إِذَا بَلَغَ فِيْهِ الرَّجُلُ الغَايَةَ، صَارَ مُعَلِّمًا، وَالفِقْهُ إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ مِنْهُ جُمْلَةً صَارَ قَاضِيًا.

---

(١) هُوَ رَاوٍ لِهذِهِ القِصَّةِ، أَثْبَتَ اسْمَ الإِمَامِ مُحمَّدِ بْنِ الحَسَنِ بَدَلًا مِنَ القَاضِي أَبِي يُوسُفَ.

فَقَالَ الكِسَائِيُّ: أَنَا أَفْضَلُ مِنْكَ؛ لِأَنِّي أُحْسِنُ مَا تُحْسِنُ، وَأُحْسِنُ مَا لَا تُحْسِنُ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الرَّشِيْدِ وَقَالَ: إِنْ رَأَى أَمِيْرُ الـمُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي جَوَابِي عَنْ مَسْأَلَةٍ مِنَ الفِقْهِ. فَضَحِكَ الرَّشِيْدُ وَقَالَ: أَبَلَغْتَ يَا كِسَائِيُّ إِلَى هذَا، ثُمَّ قَالَ لِأَبِي يُوْسُفَ: أَجِبْهُ.

فَقَالَ الكِسَائِيُّ: مَا تَقُوْلُ لِرَجُلٍ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: (أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ دَخَلْتِ الدَّارَ)، فَقَالَ أَبُوْ يُوْسُفَ: إِنْ دَخَلَتِ الدَّارَ طَلُقَتْ، فَقَالَ الكِسَائِيُّ: خَطَأٌ، إِذَا فُتِحَتْ (أَنْ) فَقَدْ وَجَبَ الأَمْرُ، وَإِذَا كُسِرَتْ فَإِنَّهُ لَمْ يَقَعِ الطَّلَاقُ بَعْدُ، فَنَظَرَ أَبُو يُوسُفَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّحْوِ[(١)].

الـمِثَالُ السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ:

هذَا الـمِثَالُ أَيضًا جَوَابٌ مُسْكِتٌ، وَبُرْهَانٌ خِرِّيتٌ يَفْضَحُ أَعْدَاءَ الإِعْرَابِ، هُوَ مَا ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ وَغَيرُهُ عَنِ الكِسَائِيِّ أَنَّهُ قَالَ: اجْتَمَعْتُ أَنَا وَأَبُو يُوسُفَ القَاضِي عِنْدَ هَارُوْنَ الرَّشِيْدِ، فَجَعَلَ أَبُو يُوسُفَ يَذُمُّ النَّحْوَ وَيَقُولُ: وَمَا النَّحْوُ؟ فَقُلْتُ: -وَأَرَدْتُ أَنْ أُعَلِّمَهُ فَضْلَ النَّحْوِ- مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ قَالَ لِرَجُلٍ: (أَنَا قَاتِلُ غُلَامِكَ)، وَقَالَ لَهُ آخَرُ: (أَنَا قَاتِلٌ غُلَامَكَ)، أَيُّهُمَا كُنْتَ تَأْخُذُ بِهِ؟، قَالَ: آخُذُهُمَا جَمِيْعًا، فَقَالَ لَهُ هَارُوْنُ: أَخْطَأْتَ -وَكَانَ لَهُ عِلْمٌ بِالعَرَبِيَّةِ-، فَاسْتَحْيَا وَقَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟

قَالَ: الَّذِي يُؤْخَذُ بِقَتْلِ الغُلَامِ هُوَ الَّذِي قَالَ: (أَنَا قَاتِلُ غُلَامِكَ) بِالإِضَافَةِ؛ لِأَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ، وَأَمَّا الَّذِي قَالَ: (أَنَا قَاتِلٌ غُلَامَكَ) بِالنَّصْبِ، فَلَا يُؤْخَذُ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ، كَمَا قَالَ اللهُ -عَزَّوَجَلَّ-: [وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ] [الكهف: ٢٣] فَلَوْلَا أَنَّ التَّنْوِيْنَ مُسْتَقْبَلٌ مَا جَازَ فِيْهِ غَدًا، فَكَانَ أَبُو يُوسُفَ بَعْدَ ذَلِكَ

---

(١) مُعْجَمُ الأُدَبَاءِ (٤/ ١٧٤١).

يَمدَحُ العَرَبِيَّةَ وَالنَّحْوَ[1].

المِثَالُ الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ:

هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ هذِهِ الجملَ فِي المَعْنَى وَلَا يُمْكِنُ تَحْدِيدُ المُرَادِ إِلَّا بالإِعْرَابِ، وَهِيَ:

* مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنِ الوَجْهِ. بِجَرِّ (حَسَنٍ)، عَلَى الصِّفَةِ.
* مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنَ الوَجْهِ. بِنَصْبِ (حَسَنَ)، عَلَى الحَالِ.
* مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ الوَجْهَ. بِجَرِّ(حَسَنٍ) وَالتَّنْوِيْنِ، مَعَ نَصْبِ (الوَجْهَ) عَلَى أَنَّهُ شَبِيْهٌ بالمَفْعُولِ.
* مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنُ الوَجْهِ، بِرَفْعِ (حَسَنُ)، عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِمُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ.
* مَرَرْتُ بِرَجُلٍ حَسَنٍ الوَجْهُ. بِرَفْعِ (الوَجْهُ) عَلَى الفَاعِلِيَّةِ.

المِثَالُ التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ:

ذَكَرَ لَنَا أَئِمَّةُ الحَنَفِيَّةِ قِصَّةً لَطِيْفَةً وَدَوَّنُوهَا فِي كُتُبِهِم، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهذَا البَابِ وَتُبَيِّنُ ضَرورَةَ الإِعْرَابِ بِبَيَانٍ لَطِيفٍ مُنِيْفٍ، وَهِيَ مَا حَكَاهَا ابْنُ سَمَاعَةَ وَقَالَ: حُكِيَ أَنَّ الْكِسَائِيَّ سَأَلَ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ عَنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَإِنْ تَرْفُقِي يَا هِنْدُ فَالرِّفْقُ أَيْمَنُ ... وَإِنْ تَخْرَقِي يَا هِنْدُ فَالْخُرْقُ أَشْأَمُ

فَأَنْتِ طَلَاقٌ وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ ... ثَلَاثٌ وَمَنْ يَخْرِقْ أَعَقُّ وَأَظْلَمُ

---

(١) مُعْجَمُ الأُدَبَاءِ (٤/ ١٧٤١-١٧٤٢). وَذَكَرَهُ قَبْلَهُ التَّوحِيدِيُّ فِي البَصَائِرِ وَالذَّخَائِرِ (٥/ ٢٠٣)

فَقَالَ مُحَمَّدٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: إنْ قَالَ: وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثٌ، طَلُقَتْ وَاحِدَةً بِقَوْلِهِ: (أَنْتِ طَلَاقٌ)، وَصَارَ قَوْلُهُ: (وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ، ثَلَاثٌ): ابْتِدَاءً، وَخَبَرًا غَيْرَ مُتَعَلِّقٍ بِالْأَوَّلِ. وَإِنْ قَالَ: وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثًا، طَلَقَتْ ثَلَاثًا، كَأَنَّهُ قَالَ: أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ؛ لِأَنَّ الثَّلَاثَ هِيَ فِي الْحَالِ تَفْسِيرُ الْمُوْقَعِ. فَاسْتَحْسَنَ الْكِسَائِيُّ جَوَابَهُ[1].

قَالَ ابنُ يَعِيشَ فِي شَرْحِ ذلِكَ وَبَيَانِهِ: وَقَدْ رُوِيَ قَوْلُهُ: وَ(الطَّلَاقُ عَزِيْمَةٌ ثَلَاثٌ)، عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

(الطَّلاقُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثًا)، بِرَفْعِ (عَزِيْمَةٌ) وَنَصْبِ (الثَّلَاثِ)، وَ(الطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثٌ) بِرَفْعِهِمَا، وَ(الطَّلَاقُ عَزِيْمَةً ثَلَاثٌ) بِنَصْبِ (العَزِيمَةِ) وَرَفْعِ (الثَّلَاثِ)؛ فَإِذَا نُصِبَتِ (الثَّلاثُ)، فَكَأَنَّهُ قَالَ: (أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا)، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: (وَالطَّلَاقُ عَزِيْمَةٌ) مُبْتَدَأً وَخبرًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: (وَالطَّلَاقُ مِنِّي جِدٌّ غَيْرُ لَغْوٍ)، وَإِذَا رَفَعهُمَا، كَانَتِ (الثَّلَاثُ) خَبَرًا ثَانِيًا، أَيِ: الطَّلَاقُ الَّذِي يَقَعُ بِمِثْلِهِ الطَّلَاقُ هُوَ الثَّلَاثُ، أَوْ يَكُونُ مُوْضِحًا للعَزِيمَةِ عَلَى سَبِيْلِ البَدَلِ، وَتَقَعُ وَاحِدَةٌ لَا غَيْرُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (وَالطَّلَاقُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثٌ)، كَأَنَّهُ قَالَ: وَالطَّلَاقُ الَّذِي ذَكَرْتُهُ وَنَوَيْتُهُ عَزِيمَةٌ ثَلَاثٌ؛ فَسَّرَهُ بِهَذَا الدَّلِيْلِ، هذَا إِذَا نَوَى (الثَّلَاثَ)، وَدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: (فَبِيْنِي بِهَا)[2]، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى إِرَادَةِ الثَّلَاثَةِ وَالبَيْنُونَةِ، وَأَمَّا إِذَا نَصَبَ (عَزِيمَةً)،

---

(١) المَبسُوطُ للسَّرَخْسِيِّ (٦/ ٧٧)، وَبَدَائِعُ الصَّنَائِعِ للكَاسَانِيِّ (٣/ ١٠٤). وَبَعْضُهُم نَسَبُوهَا إِلَى القَاضِي أَبِي يُوسُفَ، يُنْظَرُ: (تَبْيِينُ الحَقَائِقِ شَرْحُ كَنْزِ الدَّقَائِقِ) (٢/ ١٩٩)، وَنَقَلَهُ ابنُ هِشَامٍ فِي الْمُغْنِي ثُمَّ أَبْدَى رَأْيَهُ بِعَبْقَرِيَّتِهِ اللُّغَوِيَّةِ، يُنْظَرُ مُغْنِي اللَّبِيْبِ (ص٧٦).

(٢) وَلَهُ بَيْتٌ ثَالِثٌ وَهُوَ:

=

مَعَ رَفْعِ (الثَّلَاثِ)، فَعَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: (وَالطَّلَاقُ ثَلَاثٌ أَعْزِمُ عَلَيْكِ عَزِيْمَةً)، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: (وَالطَّلَاقُ إِذَا كَانَ عَزِيمَةً، ثَلَاثٌ)، كَمَا تَقُولُ: (عَبْدُ اللهِ رَاكِبًا أَحْسَنُ مِنْهُ مَاشِيًا)، وَالمُرَادُ: إِذَا كَانَ مَاشِيًا، كَمَا تَقُولُ: (هذَا بُسْرًا أَطْيَبُ مِنْهُ رُطبًا)، أَيْ: هذَا إِذَا كَانَ بُسْرًا أَطْيَبُ مِنْهُ إِذَا كَانَ رُطْبًا[1].

المِثَالُ الثَّلَاثُونَ:

وَهذَا المِثَالُ أَيضًا هُوَ مَا ذُكِرَ فِي المَسْأَلَةِ ذَاتِهَا كَمَا حَكَاهَا ابْنُ الأَنْبَارِيِّ وَغَيْرُهُ، عَنِ الدُّورِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ أَبُو يُوْسُفَ يَقَعُ فِي الكِسَائِيِّ، وَيَقُولُ: أَيَّ شَيْءٍ يُحْسِنُ! إِنَّمَا يُحْسِنُ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ العَرَبِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الكِسَائِيَّ فَالْتَقَيَا عِنْدَ الرَّشِيْدِ-وَكَانَ الرَّشِيْدُ يُعَظِّمُ الكِسَائِيَّ لِتَأْدِيبِهِ إِيَّاهُ- فَقَالَ(أَيِ: الكِسَائِيُّ) لِأَبِي يُوْسُفَ: يَا يَعْقُوْبُ، أَيْشٍ تَقُوْلُ فِي رَجُلٍ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: (أَنْتِ طَالِقٌ طَالِقٌ طَالِقٌ)؟ قَالَ: وَاحِدَةٌ، قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَهَا: (أَنْتِ طَالِقٌ، أَوْ، طَالِقٌ، أَوْ: طَالِقٌ)؟ قَالَ: وَاحِدَةٌ، قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَهَا: (أَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ طَالِقٌ، ثُمَّ طَالِقٌ)؟ قَالَ: وَاحِدَةٌ، قَالَ: فَإِنْ قَالَ لَهَا: (أَنْتِ طَالِقٌ، وَطَالِقٌ، وَطَالِقٌ)؟ قَالَ: وَاحِدَةٌ.

قَالَ الكِسَائِيُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَخْطَأَ يَعْقُوْبُ فِي اثْنَيْنِ، وَأَصَابَ فِي اثْنَيْنِ، أَمَّا قَوْلُهُ: (أَنْتِ طَالِقٌ طَالِقٌ طَالِقٌ) فَوَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّ الثِّنْتَيْنِ البَاقِيَتَيْنِ تَأْكِيدٌ، كَمَا تَقُوْلُ: (أَنْتَ

=

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

فَبِينِي بِهَا إِنْ كُنْتِ غَيْرَ رَفِيقَةٍ ... فَمَا لِامْرِئٍ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ مُقْدَمُ

(١) شَرحُ المُفَصَّلِ (١/ ٥٩).

قَائِمٌ قَائِمٌ قَائِمٌ)، وَ(أَنْتَ كَرِيْمٌ كَرِيْمٌ كَـرِيْمٌ). وَأَمَّا قَوْلُـهُ: (أَنْـتِ طَـالِقٌ، أَوْ، طَـالِقٌ، أَوْ: طَالِقٌ) فَهَذَا شَكٌّ، فَوَقَعَتِ الأُوْلَى الَّتِي تُتيَقَّنُ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: (أَنْتِ طَالِقٌ، ثُمَّ طَـالِقٌ، ثُـمَّ طَالِقٌ) فَثَلَاثٌ؛ لِأَنَّهُ نَسَقٌ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: (أَنْتِ طَالِقٌ، وَطَالِقٌ، وَطَالِقٌ)»[١].

الـمِثَالُ الحَادِي وَالثَّلاثُونَ:

رَوَى الإِمَامُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»[٢].

فهذَا الحَدِيثُ الشَّرِيفُ دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى أَهَمِيَّةِ الحَرَكَاتِ وَدَوْرِهَا فِي تَوْجِيْهِ الـمَعْنَى، فَلَوْ أَنَّكَ قُلْتَ: (فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)، بالرَّفْعِ، يَكُونُ (أَهْلَكُ) خَبَرُ الـمُبْتَدَإِ (هُوَ)، يَعْنِي: أَنَّهُ أَهلَكُ مِنْهُم.

أَمَّا إِذَا قُلْتَ: (فَهُوَ أَهْلَكَهُمْ)، بِالفَتْحِ، يَكُونُ (أَهْلَكَ): فِعْلًا مَاضِيًا، وَيَصِيرُ الـمَعْنَى: أَنَّهُ أَهْلَكَهُم بِقَوْلِهِ إِنَّ النَّاسَ هَلَكُوا.

الـمِثَالُ الثَّانِي وَالثَّلاثُونَ:

كُنْتُ أَقْرَأُ كِتَابَ (مِنْهَاجِ العَابِدِيْنَ) للإِمَامِ الغَزَّالِيِّ، فَإِذَا بِأَثَرٍ فِيْهِ شُكِّلَ هَكَذَا: (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثَةِ دَوَاوِينَ: دِيوَانِ الحَسَنَاتِ، وَدِيوَانِ السَّيِّئَاتِ، وَدِيوَانِ النِّعَمِ، فَتَقَابَلُ السَّيِّئَاتُ بالنِّعَمِ، فَلَا يُؤْتَى بِحَسَنَةٍ إِلَّا وَيُؤْتَى بِنِعْمَةٍ، حَتَّى تَعمَّ الحَسَنَاتُ النِّعَمَ، وَتَبْقَى السَّيِّئَاتُ وَالذُّنُوبُ، فَلِلّهِ تَعَالَى فِيْهَا الـمَشِيْئَةُ)[٣].

---

(١) نُزْهَةُ الأُدَبَاءِ (ص٦٣)، وَتَارِيخُ بَغْدَادَ (١٣/ ٣٤٥)، وَإِنْبَاهُ الرُّوَاةِ (٢/ ٢٦٠).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤/ ٢٠٢٤)، بِرَقْم: (٢٦٢٣).

(٣) مِنْهَاجُ العَابِدِينَ للغَزَّالِيِّ (ص٢٤٦)، طَبْعَةُ دَارِ الـمِنْهَاجِ.

فَبِهذَا التَّشْكِيلِ يَخْتَلُّ الـمَعْنَى وَلَا يَصِحُّ، إِنَّمَا هُوَ بِنَصْبِ (الحَسَنَاتِ)، وَرَفْعِ (النِّعَمُ)؛ لأنَّ (النِّعَم) هُوَ الفَاعِلُ، وَإِذَا جَعَلْتَهُ مَفْعُولًا اخْتَلَّ الـمَعْنَى.

الـمِثَالُ الثَّالِثُ وَالثَّلاثُونَ:

يُحْكَى عَنْ رَجُلٍ أَنَّهُ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وَقِصَّتُهُ تَصْلُحُ لِهذَا الـمَقَامِ، كَمَا ذَكَرَهَا التَّوحِيدِيُّ وَغَيْرُهُ فَقَالَ: تَنبَّأَ رَجُلٌ أَيَّامَ الـمَأمُونِ فَقَالَ: أَنَا أَحْمَدُ النَّبِيّ، فَحُمِلَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: أَمَظْلُومٌ أَنْتَ فَتُنْصَفُ؟ فَقَالَ لَهُ: ظُلِمْتُ فِي ضَيْعَتِي، فَتَقَدَّمَ بِإنْصَافِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا تَقُولُ؟ قَالَ: أَنَا أَحْمَدُ النَّبِيَّ، فَهَلْ تَذُمُّهُ أَنْتَ؟[(١)].

فَهذَا الرَّجُلُ أَرَادَ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَقَصَدَ رَفْعَ (النَّبِيُّ)، وَلَـمَّا أَدْرَكَ خُطُورَةَ دَعْوَاهُ خَرَجَ مِنْهَا وَغَيَّرَ الكَلامَ بِتَغيِيرِ الحَرَكَةِ فَقَطْ، وَجَعَلَ (النَّبِيَّ) مَنْصُوبًا، فَصَارَ الـمَعْنَى أَنَّهُ يَمْدَحُ النَّبِيَّ. اُنْظُرْ كَمْ تَغَيَّرَ الـمَعْنَى بِتَغَيُّرِ الحَرَكَةِ الإِعْرَابِيَّةِ.

الـمِثَالُ الرَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ:

فَفِي القُرَآنِ الكَرِيمِ أيضًا نَجِدُ أمثِلَةً كَثِيرَةً عَلَى تَرْجِيحِ الـمَعْنَى بالإِعْرَابِ، فَمَثَلًا لَـمَّا نَقْرَأُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ ﴾ (هود).

---

(١) البَصَائِرُ وَالذَّخَائِرُ لأبِي حَيَّانَ التَّوحِيدِيِّ (٦/ ٦١)، يُنْظَرُ أيضًا: نَثْرُ الدُّرِّ فِي الـمُحَاضَرَاتِ (٢/ ١٥٦)، وَرَبِيعُ الأَبْرَارِ (٤/ ٣٥٢)، وَالتَّذكِرَةُ الحَمْدُونِيَّةُ (٨/ ٢٦١).

فَإِذَا قَرَأتَ (ٱمۡرَأَتَكَ) بالنَّصبِ، اختَلَفَ مَعْنَاهَا مِنَ الرَّفْعِ، وَقَدْ أَشَارَ إِمَامُ الـمُفَسِّرِيْنَ الطَّبَرِيُّ إِلَيْهِ فَقَالَ: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: (إِلَّا امْرَأَتَكَ)، فَإِنَّ عَامَّةَ الْقَرَأَةِ مِنَ الْحِجَازِ وَالْكُوفَةِ، وَبَعْضَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، قَرَأُوا بِالنَّصْبِ (إِلَّا امْرَأَتَكَ)، بِتَأْوِيل: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ، وَعَلَى أَنَّ لُوطًا أُمِرَ أَنْ يَسْرِيَ بِأَهْلِهِ سِوَى زَوْجَتِهِ، فَإِنَّهُ نُهِيَ أَنْ يَسْرِيَ بِهَا، وَأُمِرَ بِتَخْلِيفِهَا مَعَ قَوْمِهَا.

وَقَرَأَ ذَلِكَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ: (إِلَّا امْرَأَتُكَ)، رَفْعًا بِمَعْنَى: وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ، إِلَّا امْرَأَتُكَ فَإِنَّ لُوطًا قَدْ أَخْرَجَهَا مَعَهُ، وَأَنَّهُ نَهَى لُوطًا وَمَنْ مَعَهُ مِمَّنْ أَسْرَى مَعَهُ أَنْ يَلْتَفِتَ سِوَى زَوْجَتِهِ، وَأَنَّهَا الْتَفَتَتْ فَهَلَكَتْ لِذَلِكَ»[١].

الـمِثَالُ الخَامِسُ وَالثَّلاثُونَ:

لَوْ نَظَرْنَا إِلَى كَلِمَةِ (الأَيْمَن) فِي هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾﴾ (مريم).

فَإِنَّهَا تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لِـ(جَانِب)، كَمَا تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لِـ(الطُّور)، فَعَلَى الأَوَّلِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَادَاهُ مِنَ الجَانِبِ الأَيْمَنِ مِنَ الطُّورِ، وَعَلَى الثَّانِي أَنَّهُ نَادَاهُ مِنْ جَانِبٍ مِنَ الطُّورِ الأَيْمَنِ!!

وَلكِنَّ الـمُرَادَ هُوَ الجَانِبُ الأَيْمَنُ، فَالـمُرَجِّحُ هُوَ الحَرَكَةُ الإِعْرَابِيَّةُ حَيثُ أَخَذَتِ (الأَيْمَن) حَرَكَةَ (جَانِب)، وَهُوَ الفَتْحَةُ كَمَا فِي هذِهِ الآيَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ (طـه).

---

(١) تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ (١٥/ ٤٢٤)، وَفِي الـمَسْأَلَةِ بَحْثٌ وَلَيْسَ هَاهُنَا مَحَلٌّ لِلتَّطَرُّقِ لَهُ.

الـمِثَالُ السَّادِسُ وَالثَّلاثُونَ:

لَوْ نَظَرْنَا إِلَى كَلِمَةِ (كُلُّهُنَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿..وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ..﴿٥١﴾﴾ (الأحزاب).

لَرَأَينَاهَا مَرْفُوعَةً عَلَى أَنَّهَا تَوْكِيدٌ لِفَاعِلِ (يَرْضَيْنَ)، يَعْنِي: أَنَّهُنَّ يَرْضَيْنَ كُلُّهُنَّ.

أَمَّا إِذَا قَرَأْتَهَا مَنْصُوبَةً فَإِنَّ الـمَعْنَى يَتَغَيَّرُ تَمَامًا وَتَصِيرُ (كُلَّهُنَّ) تَوكِيدًا لِضَمِيرِ النَّصْبِ فِي قَوْلِهِ: (ءَاتَيْتَهُنَّ)، يَعْنِي: أَنَّهُنَّ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ.

الـمِثَالُ السَّابِعُ وَالثَّلاثُونَ:

سَمِعْنَا كَثِيرًا خُطُورَةَ الخَطَإِ فِي قِرَاءَةِ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ (فاطر).

فَلَوْ قَرَأَ قَارِئٌ بِرَفْعِ (اللهُ)، وَنَصْبِ (العُلَمَاءَ)، لَوَقَعَ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَكُفْرٍ صَرِيحٍ إِنْ كَانَ عَالِمًا، وَمَا الفَارِقُ بينَ الأَمْرَيْنِ غَيْرُ الحَرَكَةِ الإِعْرَابِيَّةِ الَّتِي يُنْكِرُهَا الخُصُومُ.

الـمِثَالُ الثَّامِنُ وَالثَّلاثُونَ:

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ (الحَجُّ):

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ قَالَ النُّحَاةُ: إِنَّهُ يَجِبُ نَصْبُ الْفِعْلِ الـمَقْرُونِ بِالْفَاءِ إِذَا وَقَعَ فِي جَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ، كَقَوْلِهِ: [فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا] وَ[فَتُصْبِحُ] هُنَا مَرْفُوعٌ؟

قُلْتُ: لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ شَرْطَ الْفَاءِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلنَّصْبِ أَنْ تَكُونَ سببية وهنا ليست كذلك بل هي لإستئناف لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ لَيْستْ سَبَبًا لِلْإِصْبَاحِ.

الثَّانِي: أَنَّ شَرطَ النَّصْبِ أَنْ يَنْسَبِكَ مِنَ الْفَاءِ وَمَا قَبْلَهَا شَرْطٌ وَجَزَاءٌ وَهُنَا لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: إِنْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مَاءً تُصْبِحْ لَمْ يَصِحَّ لِأَنَّ إِصْبَاحَ الْأَرْضِ حَاصِلٌ سَوَاءٌ رُئِيَ أَمْ لَا..

الثَّالِثُ: إِنَّ هَمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى مُوجَبٍ تَقْلِبُهُ إِلَى النَّفْيِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: [أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهين]، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى نَفْيٍ تَقْلِبُهُ إِلَى الْإِيجَابِ فَالْهَمْزَةُ فِي الْآيَةِ لِلتَّقْرِيرِ فَلَمَّا انْتَقَلَ الْكَلَامُ مِنَ النَّفْيِ إِلَى الْإِيجَابِ لَمْ يَنْتَصِبِ الْفِعْلُ لِأَنَّ شَرْطَ النَّفْيِ كَوْنُ السَّابِقِ مَنْفِيًّا مَحْضًا: ذَكَرَهُ الْعَزِيزِيُّ فِي «الْبُرْهَانِ».

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ به زرعا].

الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَوْ نَصَبَ لَأَعْطَى مَا هُوَ عَكْسُ الْغَرَضِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ إِثْبَاتُ الِاخْضِرَارِ فَكَانَ ينقلب النصب إِلَى نَفْيِ الِاخْضِرَارِ مِثَالُهُ أَنْ تَقُولَ لِصَاحِبِكَ أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَنْعَمْتُ فَتَشْكُرُ إِنْ نَصَبْتَ فَأَنْتَ نَافٍ لِشُكْرِهِ شَاكٍ تَفْرِيطَهُ وَإِنْ رَفَعْتَ فَأَنْتَ مُثْبِتٌ لِشُكْرِهِ. ذَكَرَ هَذَا الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ قَالَ وَهَذَا وَمِثَالُهُ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَرْغَبَ لَهُ مَنِ اتَّسَمَ بِالْعِلْمِ فِي عِلْمِ الْإِعْرَابِ وَتَوْقِيرِ أَهْلِهِ.

وَقَالَ ابْنُ الْخَبَّازِ: النَّصْبُ يُفْسِدُ الْمَعْنَى لِأَنَّ رُؤْيَةَ الْمُخَاطَبِ الْمَاءَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ لَيْسَ سَبَبًا لِلِاخْضِرَارِ وَإِنَّمَا الْمَاءُ نَفْسُهُ هُوَ سَبَبُ الِاخْضِرَارِ[١].

---

(١) الْبُرْهَانُ (٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

المِثَالُ التَّاسِعُ وَالثَّلاثُونَ:

نَرَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الكُتُبِ النَّحوِيَّةِ تَفرِيقًا دَقِيقًا فِي المَعْنَى بِوَاسِطَةِ تَغْيِيرِ الحَرَكَاتِ فِي مِثَالٍ، كَمَا قَالَ ابنُ هِشَامٍ: «تَقُولُ: (لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ)، فَتَنْصِبُ (تَشْرَبَ) إِنْ قَصَدْتَ النَّهْيَ عَنِ الْجَمْعِ بَينَهَا. وَتَجْزِمُ إِنْ قَصَدْتَ النَّهْيَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، أَيْ: (لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَلَا تَشْرَبِ اللَّبَنَ)، وَتَرْفَعُ إِنْ نَهَيْتَ عَنِ الأَوَّلِ وَأَبَحْتَ الثَّانِيَ، أَيْ: لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَلَكَ شُرْبُ اللَّبَنِ»[1].

وَقَالَ سِيبَوَيْهِ قَبْلَهُ: «وَتَقُولُ: (لَا تَأْكُلِ السَّمَكَ وَتَشْرَبَ اللَّبَنَ)، فَلَوْ أَدْخَلْتَ الفَاءَ هٰهُنَا فَسَدَ المَعْنَى. وَإِنْ شِئْتَ جَزَمْتَ عَلَى النَّهْيِ فِي غَيْرِ هذَا المَوْضِعِ. قَالَ جَرِيرٌ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَا تَشْتِمِ المَوْلَى وَتَبْلُغْ أَذاتَهُ[2] ... فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُسَفَّهْ وَتَجْهَلِ

وَمَنَعَكَ أَنْ يَنْجَزِمَ فِي الأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ لَهُ: لَا تَجْمَعْ بَيْنَ اللَّبَنِ وَالسَّمَكِ، وَلَا يَنْهَاهُ أَنْ يَأْكُلَ السَّمَكَ عَلَى حِدَةٍ، وَيَشْرَبَ اللَّبَنَ عَلَى حِدَةٍ، فَإِذَا جَزَمَ فَكَأَنَّهُ نَهَاهُ أَنْ يَأْكُلَ السَّمَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، أَوْ يَشْرَبَ اللَّبَنَ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[3].

المِثَالُ الأَرْبَعُونَ:

رَوَى مُسْلِمٌ وغيرُهُ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ حَدِيثًا وَفِيْهِ: (وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)[4].

---

(١) شَرْحُ قَطْرِ النَّدَى لِابنِ هِشَامٍ (ص٨١).

(٢) الأَذَاةُ: الأَذَى.

(٣) الكِتَابُ (٣/ ٤٢).

(٤) رَوَاهُ مُسلِمٌ (٤/ ٢١٩٧)، بِرَقْمِ: (٢٨٦٥)، وَابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (٢/ ٤٢٢)، بِرَقْمِ: (٦٥٣).

فَإِذَا قَرَأتَ بِنَصْبِ (عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ)، أَيْ: مَقَتَ العَرَبَ وَالعَجَمَ مِنْ أَهلِ الأَرْضِ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أهلِ الكِتَابِ، وَإِذَا قَرَأتَهُ بِجَرٍّ (عَرَبِهِم وَعَجَمِهِم)، أَيْ: نَظَرَ إِلَى عَرَبِ أَهْلِ الأَرْضِ وَعَجَمِهِم.

فَهذهِ الأَمْثِلَةُ هِيَ يَسِيرَةٌ فِي هذَا البَابِ، وَإِلَّا فَجَمْعُهَا كُلِّهَا وَتَتَبُّعُهَا مَعَ اسْتِقْصَاءِ مَا لَمْ يَنُصَّ عَلَيْهِ العُلَمَاءُ بالتَّفرِيْقِ وَالتَّمْثِيْلِ، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى مُجَلَّدَاتٍ ضِخَامٍ[1]، وَلَا نَقْدِرُ فِي هذَا المَكَانِ الضَّيِّقِ أَنْ نَذْكُرَ أَكثَرَ مِنْ هذَا، وَلكِنَّ هذَا القَدْرَ اليَسِيرَ يُعَلِّمُكَ دَوْرَ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، وَمَوْقِعَهَا فِي تَوْجِيْهِ النَّصِّ العَرَبِيِّ وَتَفْسِيْرِهِ، فَإِذَا جَاءَكَ دَجَّالٌ مِنَ الدَّجَاجِلَةِ وَأرَادَ مَحْوَ الحَرَكَاتِ، أَرِهِ كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِفُ، وَمِنْ خِلالِ ذلِكَ يَعْرِفُ الجَمِيْعُ أَنَّ الطَّاعِنَ فِي الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ بَاحِثٌ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ!

وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هذَا عَلِمْتَ سِرَّ قَوْلِ بَعْضِهِم كَمَا جَاءَ: عَنِ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: (مَا تَزَنْدَقَ مَنْ تَزَنْدَقَ بِالْمَشْرِقِ إِلَّا جَهْلًا بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَعُجْمَةَ قُلُوبِهِمْ)[2].

وَبالتَّالِي فَإِنَّنَا لَوْ أَمَّنَّا عَلَى دَعْوَةِ هؤلَاءِ وَاسْتَجَبْنَا لَهُم وَسَكَّنَّا أَوَاخِرَ الكَلِمَاتِ، فَنَصِيرُ أُضحُوكَةً بينَ الأُمَمِ وَأَمَامَ أَشْعَارِهِم؛ لأَنَّكَ تَرَى الجُمَلَ العَرَبِيَّةَ فَقَدَتِ الأَلْحَانَ وَالأَنْغَامَ، وَمِنْ هُنَا نَتَمَثَّلُ بِبَيْتَيْنِ مِنَ الشِّعرِ، فَتخَيَّلِ البَيْتَ عَلَى مَاهُوَ عَلَيْهِ، وَبَعْدَهُ كَمَا يُرِيدُهُ المُسْتَشرِقُونَ وَأَذيالُهُم.

---

(١) سَنُفْرِدُ هذَا المَوْضُوعَ بِكِتَابٍ مُخْتَصَرٍ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

(٢) رَوَاهُ البَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإِيْمَانِ (٣/٢١٦)، بِرَقْمِ: (١٥٦٩). وَرُوِيَ أيضًا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ.

قَالَ الْمُتَنَبِّيُّ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

يَـا أُخْـتَ خَيْـرِ أَخٍ يَـا بِنْـتَ خَيْـرِ أَبٍ   كِنَايَـةً بِهِمَـا عَـنْ أَشْـرَفِ النَّسَـبِ

وَإِذَا سَكَّنَّا أَوَاخِرَ الكَلِمَاتِ فَتَصِيرُ كَالآتِي:

(يَـا أُخْـتْ خَيـرْ أَخْ يَـا بِنـتْ خَيـرْ أَبْ   كِنايَـةْ بِهِمَـا عَـنْ أَشْـرَفْ النَّسَـبْ)

قَالَ أَبُو نُوَاسٍ:

[مِنْ مَجزُوءِ الكَامِلِ]

سُـــبحانَ عَـــلَّامِ الغُيُـــوبِ   عَجَبـــًا لِتَصـــرِيفِ الخُطُـــوبِ

وَإِذَا سَكَّنَّا أَوَاخِرَ الكَلِمَاتِ فَتَصِيرُ كَالآتِي:

(سُـــبحانْ عَـــلَّامْ الغُيُـــوبْ   عَجَبـــا لِتَصـــرِيفْ الخُطُـــوبْ)

باللهِ قُولوا لَنَا مَا هذِهِ الْمَهزَلَةُ الَّتِي يُدْعَى إِلَيْهَا، أَهَذا يُعَدُّ شِعْرًا أَمْ: هُـوَ كَـلامُ طِفْلٍ رَضِيعٍ، بَلْ: أَشْبَهُ بِكَلامِ السِّكِّيرِ؟!

وَكذلِكَ لَوْ سَكَّنَّا أواخِرَ الكَلِمَاتِ كُلِّهَا، لأَدَّى إِلَى رَفْضِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيْمِ وَتَشوِيْهِ سُمْعَتِهِ جُملَةً، وَتَكُونُ الأَشْعَارُ كُلُّهَا مُخْتَلَّةً غيرَ مَوزونَةٍ قَطْعًا، وَسَنَجِدُ العَرَبَ لَا تَمْلِكُ الشِّعْرَ الْموزونَ، وَهذِهِ دَاهِيَةٌ أُخْرَى لَمْ يَتَنَبَّهُوا إِلَيْهَا!

وَكَذَلِكَ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ نَقُولُ: إِنَّ وَضْعَ هذِهِ الحَرَكَاتِ لَيْسَتْ مِنْ صَنِيْعِ عُلَمَاءِ النَّحوِ وَالعَرَبِيَّةِ، بَلْ: الأُصُولُ النَّحوِيَّةُ كَانَتْ مَوجُودَةً وَتَعْرِفُهَا العَرَبُ تَطْبِيْقيًّا، وَلَكِنَّ عَمَلَ العُلَمَاءِ هُوَ التَّتَبُّعُ وَالتَّقْنِينُ وَالضَّبْطُ لَا الإِخْتِرَاعُ، وَكَانَ اكْتِشَافًا وَلَيْسَ إِيْجَادًا، كَمَا يَتَجَلَّى ذَلِكَ فِيمَا نَقَلَهُ الإِمَامُ ابنُ جِنِّي قَائِلًا وَسَائِلًا: «وَسَأَلْتُ يَوْمًا أَبَا عَبْدِ اللهِ

مُحَمَّدَ بْنَ العسَّافَ العُقَيْلِيَّ الجُوْثِيَّ التَّمِيْمِيَّ -تَمِيْمَ جُوْثَةَ- فقلتُ لَهُ: كَيْفَ تقُولُ: ضَرَبْتُ أَخُوْكَ؟ فقَالَ: أقُولُ: ضَرَبْتُ أَخَاكَ. فَأَدَرْتُهُ عَلَى الرَّفْعِ فَأَبَى[1]، وَقَالَ: لَا أَقُوْلُ: أَخُوكَ أَبَدًا. قُلْتُ: فَكَيْفَ تَقُوْلُ ضَرَبَنِي أَخُوْكَ؟ فَرَفَعَ. فَقُلْتُ: أَلَسْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تَقُوْلُ: أَخُوْكَ أَبَدًا؟! فَقَالَ: أَيْش[2] هذَا؟! اِخْتَلَفَتْ جِهَتَا الكَلَامِ.»[3].

ثُمَّ عَلَّقَ عَلَيْهَا ابنُ جِنِّيْ قَائِلًا: «فَهَلْ هذا إِلَّا أَدَلُّ شَيْءٍ عَلَى تَأَمُّلِهِمْ مَوَاقِعَ الكَلَامِ وَإِعْطَائِهِمْ إِيَّاهُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ حَقَّهُ، وَحِصَّتَهُ مِنَ الإِعْرَابِ، عَنْ مِيْزَةٍ وَعَلَى بَصِيْرَةٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ اسْتِرْسَالًا وَلَا تَرْجِيْمًا»[4].

فَهذَا كَلَامُ رَجُلٍ لَمْ يَعْرِفْ قَوَاعِدَ النَّحوِ وَلَا كَلامَ النُّحَاةِ، وَلَا ضَوَابِطَهُم، وَلكِنَّهُ يَعْرِفُ الإِعرابَ سَلِيْقَةً وَعَلَيْهِ خُلِقَ وَجُبِلَ، وَكَانَ هُوَ وَغيرُهُ يُعْرِبُ الكَلامَ فِطْرَةً وَبَدِيْهَةً.

وَقَبْلَ أَنْ أُنْهِيَ هذَا المَوْضُوعَ نِهَائِيًّا أُحِبُّ أَنْ أُشِيْرَ إِلَى أَمْرٍ مُهِمٍّ وَهُوَ: أَنَّهُ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ تَغيِيرٍ لِحَرَكَةٍ إِعرابِيَّةٍ، أَوْ: حَرَكَةٍ بِنَائِيَّةٍ، يُغَيِّرُ المَعْنَى، فَأَحيانًا لَا يَكُونُ لَهُ مَعْنًى جَدِيدٌ مَعَ التَّغيِيرِ، وَلَرُبَّمَا أَنْ يُسَفْسِطَ وَاحِدٌ وَيأتِيَ بِبَعْضِ الأَمْثلَةِ وَيَقُولَ: لَا يَتَغَيَّرُ المَعْنَى بِتَغَيُّرِ الحَرَكَاتِ، فَهذَا أَمرٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا، وَلكِنْ مَاذَا نَفْعَلُ بِالمَوَاضِعِ الكَثِيْرَةِ الَّتِي يَتَغَيَّرُ المَعْنَى وَيَنْعَكِسُ بِتَغَيُّرِ الحَرَكَةِ الإِعْرَابِيَّةِ فِيْهَا-بَلْ: هذَا

---

(١) يَعْنِي: حَاوَلْتُ إِلْزَامَهُ.
(٢) نَحْتٌ لِـ(أَيُّ شَيْءٍ).
(٣) الخَصَائِصُ لِابنِ جِنِّيْ (١/ ٧٧)، وَيَتَكَرَّرُ فِي: (١/ ٢٥١).
(٤) الخَصَائِصُ لِابنِ جِنِّيْ (١/ ٧٧).

هُوَ الأَصْلُ-وَعَلَيْهِ فَلَا عِبرَةَ بِمِثَالٍ وَلَا مِثَالَيْنِ وَلَا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ، فِي إِهْمَالِ الحَرَكَاتِ وَعَدَمِ الِاعتِبَارِ لَهَا، حَتَى إِذَا تَسَاوَى الـمَعْنَى فِي التَّغيُّرِ وعَدَمِ التَّغيُّرِ بِسَبَبِ الحَرَكَاتِ، رُوعِيَ الحِفَاظُ عَلَى الحَرَكَاتِ؛ لأنَّ فِي هذَا حِفَاظًا عَلَى فَهْمِ الـوَحْيَيْنِ مِنْ عَدَمِ اضْطِرَابِ الأَفْهَامِ، وَهذَا وَحْدَهُ كَافٍ لِإبْقَاءِ الحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ تَغيُّرُ الـمَعْنَى بِتَغيُّرِ الحَرَكَةِ هُوَ الأَصْلَ وَالأَكْثَرَ؟!

أُنهِي هذِهِ الـمَسْأَلَةَ بِقِصَّةٍ رَوَاهَا أَهلُ التَّارِيخِ عَنِ الوَلِيدِ بنِ عَبدِ المَلِكِ، وَلَهَا عَلَاقَةٌ بِمَوضُوعِنَا، وَهِيَ أَنَّ الْوَلِيدَ كَانَ لَحَّانًا لَا يُحْسِنُ النَّحْوَ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَمَتَّ إِلَيْهِ بِصِهْرٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَرَابَتِهِ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَنْ خَتَنَكَ؟ بِفَتْحِ النُّونِ، وَظَنَّ الْأَعْرَابِيُّ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخِتَانَ، فَقَالَ بَعْضُ الْأَطِبَّاءِ. فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: إِنَّمَا يُرِيدُ أَمِيرُ الـمُؤْمِنِينَ مَنْ خَتَنُكَ؟ وَضَمَّ النُّونَ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ فُلَانٌ، وَذَكَرَ خَتَنَهُ»[(١)].

وَمِنْ خِلَالِ ذَلِكَ عَرَفْنَا أَنَّ اتِّهَامَاتِ العِدَا بِلا يَدٍ، وَأَنَّ أَقَاوِيلَهُم بِلَا لِسَانٍ، وَأَنَّنَا مَا قُلْنَا إِلَّا بالدَّلِيلِ وَالبُرْهَانِ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

[مِنَ الوَافِرِ]

أَنَحْنُ الجَاهِلُونَ كَمَا زَعَمْتُم ... مَعَاذَ اللَّهُ مِنْ جَهْلٍ وَحُمقِ
أَنَحْنُ الخَائِنُونَ كَمَا ادَّعَيتُم ... بِأَيَّةِ شِيمَةٍ وَبِأَيِّ خُلْقِ
وَمَا مَلَكَتْ يَدِي فِي الدَّهْرِ إِلَّا ... يَرَاعَ أَمَانَةٍ وَلِسَانَ صِدْقِ

---

(١) الكَامِلُ لِابْنِ الأَثِيرِ (٤/ ٧١)، والمنتظَمُ لابْنِ الجوزِيِّ (٦/ ٢٦٩)، وَتَارِيخُ ابْنِ الوَرْدِيِّ (١/ ١٧١)، وَالبِدايةُ والنِّهايةُ لابن كثيرٍ (١٢/ ٣٦٤).

خُذُوهَا كَالصَّواعِقِ أَنذَرْتكُم   بِرَعْدٍ مِنْ زَوَاجِرِهَا وَبَرْقِ
تُدَمِّرُ مَا بَنَيتُم مِنْ صُرُوحٍ   تَطِيرُ لِهَولِها مِنْ كُلِّ شِقِّ

أَقْوَالُ بَعْضِ الْـمُسْتَشْرِقِينَ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ

لَـوْ أنَّ الْـمُعتَرِضَ عَلَى قَوَاعِدِ العَرَبِيَّةِ قَرأَ أقـوالَ الـمُنصِفِينَ مِـنَ المستَشْـرِقينَ، وَاللُّغَوِيِّينَ مِنَ الغَرْبِ، لَكَانَتْ كَفِيلَةً بالخُضوعِ للعربيَّةِ الفَصِيحَةِ، فَهَا هُوَ شـيءٌ يسـيرٌ من أقوَالِهِم وَإِعْجَابِهِم بِقَوَاعِدِهَا وَخُضُوعِهِم لِأُسُسِهَا.

يقولُ «مرجيلوثُ» الأُستاذُ بِجَامِعَةِ أُكسفُوردَ قِسْمِ اللُّغَةِ العربيَّةِ سَـابِقًا: (إنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ لا تَزَالُ حيَّةً حياةً حقيقيَّةً، وإنَّهَا إِحدَى لُغَاتٍ ثَلاثٍ استَوْلَتْ عَلَى سُكَّانِ العالَمِ، استِيلاءً لَمْ يَحْصُلْ عليهِ غيرُهَا)[1].

وَقَالَ الْمستَشْرِقُ الفَرَنسيُّ لويس مَاسِنيون: (إِنَّ الْمِنهاجَ العِلميَّ قَدِ انْطَلَقَ أوَّلَ مَا انْطَلَقَ باللُّغَةِ العربيَّةِ، ومِنْ خِلالِ العربيَّةِ فِي الحَضَارَةِ الأوروبيَّةِ).

وَقَالَ: (اللُّغَةُ العربيَّةُ أداةٌ خَالِصَةٌ لِنَقْلِ بَدَائِعِ الفِكْرِ فِي الـمَيْدَانِ الدَّولِيِّ، وأنَّ استِمْرَارَ حَيَاةِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ دَوليًّا لَهُوَ العُنصرُ الجوهَرِيُّ للسَّلامِ بينَ الأُمَمِ فِي الْـمُستَقْبَلِ)[2].

وَهـذا يُعَدُّ اعترافًا جميلًا مِنهُ بِفضْلِ العربيَّةِ عَلَى العُلومِ وَنقلِهَا إِلَى الغَـرْبِ، وبالتَّالِي فيهِ ردٌّ على الَّذينَ يَتَشَدَّقونَ وَيَتَفَوَّهُونَ بأنَّ العربيَّةَ ليسَتْ لُغَةَ عِلْمٍ!

وَقالَ الْـمُستَشْرِقُ الأمريكيُّ وُليَم وُرل: (إِنَّ اللُّغَةَ العَربيَّةَ لَـم تَتَقَهْقَرْ فِيمَا مَضَى أمامَ لغةٍ أُخْرَى مِنَ اللُّغاتِ الَّتِي احْتَكَتْ بِهَا، وَيُنْظَرُ إِلَى أنْ تُحافِظَ على كِيَانِهَا فِي

(١) مَجلَّةُ اللِّسَانِ العربيِّ، العَددُ الثَّلاثونَ، (٣٠/ ١٤٤).

(٢) مَجلَّةُ اللِّسانِ العربيِّ، العَددُ الثَّلاثونَ، (٣٠/ ١٤٤).

المستَقبَلِ كما حَافظَتْ عليهِ في الْـمَاضِي، ولِلُّغَةِ العَربيَّةِ لِيْنٌ وَمُرونَـةٌ يُمَكِّنَانِهَا مِـنَ التَّكَيُّفِ وَفْقًا لِـمُقْتَضَياتِ هَذا العَصْرِ)[١].

وَقَالَ الدُّكتورُ جُورج سَارطُون: (وَهَبَ اللهُ اللُّغَةَ العربيَّةَ مُرُونَةً جَعَلَتْهَا قادرَةً على أَنْ تُدوِّنَ الوَحيَ الإلهيَّ أحسنَ تدوينٍ بَجميعِ دَقَائقِ مَعَانيهِ وَلُغَاتِهِ، وأَنْ تُعبِّرَ عَنْهُ بِعِبَاراتٍ عَلَيْهَا طَلاوَةٌ وَفِيْهَا مَتَانَةٌ)[٢].

فلِذلِكَ لا يُمْكِنُ أَنْ يأتِيَ أديبٌ، أَوْ: شاعِرٌ بِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ بِشِعْرٍ، أَوْ: نَصٍّ أدَبيٍّ يُقَاوِمُ مَا كُتِبَ بالعربيَّةِ مِنْ حيثُ الجَمَالُ اللَّفظِيُّ وَالتَّحسيناتُ الكلاميَّةُ؛ لأنَّ فِي العربيَّةِ مُتَّسَعًا وَمُدَّخَلًا للكُتَّابِ، فليسَ يوجَدُ في اللُّغَاتِ الأُخرَى، وهذَا مَحسوسٌ لِمَنْ قَارَنَ بينَ النُّصُوصِ الأَدبيَّةِ فِي اللُّغَاتِ!

فَبِفَضْلِ ذلِكَ تَجِدُ الأُدَبَاءَ وَالشُّعراءَ الَّذينَ كتبُوا بالعربيَّةِ تَفَنَّنُوا وأبْدَعُوا إبداعاتٍ لغويَّةً، لا تَكَادُ تُوجَدُ في غيرِهَا منَ اللُّغَاتِ، أو: تُوجَدُ علَى قِلَّةٍ وَنُدْرَةٍ مَعَ كَونِهَا لا تُقاوِمُ نُصُوصَ العَربيَّةِ.

وَبِهذا يَلُوحُ فَضْلُ العَربيَّةِ وَيَتَجلَّى، وَيَتَلاشَى شَانِؤوهَا وَيَتَقلَّى، وَيَبْقَى لَهَا الفَضْلُ الدَّائِمُ الجاسِم، وَالقَوْلُ الحَاسِمُ السَّاحِمُ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى تَكَفَّلَ بِحِفْظِهَا الدَّائِم!

---

(١) الْمَصدرُ السَّابِقُ، (٣٠/ ١٤٤).

(٢) مَجلَّةُ اللِّسانِ العربيِّ، العَددُ التَّاسِعُ، (٩/ ٨٠).

قُوَّةُ العَرَبِيَّةِ لَا تَعْنِي العِصْمَةَ!

إنَّ مَا سَبَقَ مِنَ الكَلامِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ العَرَبِيَّةِ وَقَوَاعِدِهَا، لَا يَعْنِي أنَّ العَرَبِيَّةَ وَقَواعِدَهَا مَعْصُومَةٌ وَلَا تَقْبَلُ الِاعتِرَاضَ وَالنَّقْدَ، كَمَا لَا يَعْنِي أنَّهَا أقْوَى مِنَ اللُّغَاتِ الأُخْرَى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، كَلَّا.

وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ يُعْتَرَضَ عَلَى شَيءٍ مِنْ قَوَاعِدِهَا وَتُنْتَقَدَ، وَأَنْ يُرَدَّ بَعْضُ العِلَلِ الوَارِدَةِ وَيُنْتَقَضَ، وَهذَا أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ وَاحِدٌ مِنَّا؛ لأنَّ الضَبْطَ وَالتَّقْنِينَ لِهذِهِ اللُّغَةِ أَمْرٌ اجتِهَادِيٌّ قَامَ بِهَا عُلَمَاءُ كِبَارٌ، وَلكِنَّهُم لَيسُوا مَعْصُومِيْنَ مِنَ الزَّلَلِ، وَقَدْ كَانَ بَعضُهُم يَرُدُّ عَلَى بَعْضٍ، وَيَنْتَقِدُ وَاحدٌ مِنْهُم قَوْلَ مَنْ سَبَقَهُ دُونَ أَيِّ خَوْفٍ، أَوْ: خَجَلٍ، كَمَا تَبَيَّنَ كُلُّ ذلِكَ فِي أَوَائِلِ الكِتَابِ.

وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ نُفَرِّقَ بينَ أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ: (الِاعْتِرَاضُ العِلْمِيُّ البَنَّاءُ)، وَ(النَّقْدُ العَشْوَائِيُّ الهَدَّامُ)، فَالأَوَّلُ هُوَ مَنْهَجُ الأَئِمَّةِ الرَّبَانِيِّيْنَ، أَمَّا الثَّانِي فَهُوَ طَرِيقَةُ الجَهَلَةِ الـمُسْتَأجَرِيْنَ الخَوَنَةِ، فَيَجِبُ أَنْ نَعرِفَ نَوعِيَّةَ الِاعْتِرَاضِ وَالنَّقْدِ أَوَّلُ.

وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ لَيسَ بِضَرُورَةٍ أَنْ تَكُونَ العَرَبِيَّةُ أَقْوَى مِنَ اللُّغَاتِ فِي جَمِيْعِ نَوَاحِيهَا وَصُوَرِهَا، فِي مُفْرَدَاتِهَا، وَجُمَلِهَا وَجَمِيعِ مَسَائِلِهَا، وَتَعلِيلَاتِهَا، وَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ فِي لُغَةٍ أُخرَى جُمْلَةٌ أَقْوَى مِنَ العَرَبِيَّةِ، وَهذَا لَا يَضُرُّ بِمَرْتَبَتِهَا، وَلَا يَنَالُ مِنْ عَظَمَتِهَا وَعَبْقَرِيَّتِهَا؛ لأَنَّ الِاعتِبَارَ بِالـمَجْمُوعِ، وَنحنُ الآنَ لَا نَرَى لُغَةً تُقَارِبُهَا فِي القُوَّةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ فِي غَالِبِ مَسَائِلِهَا، فَكَيفَ بأنْ تَكُونَ أقْوَى مِنْهَا؟

بُرْهَانًا لِكَلامِنَا السَّابِقِ نَأتِي بِكَلامٍ لِلإِمَامِ أَبِي هِلالِ العَسْكَرِيِّ، حيثُ قَالَ: «ولِلفُرْسِ أَمْثَالٌ مِثْلُ أَمْثَالِ العَرَبِ مَعْنًى وَصَنْعةً وَرُبَّمَا كَانَ اللَّفْظُ الفَارِسِيُّ فِي

بَعْضِهَا أَفْصَح مِنَ اللَّفْظِ العَرَبِيِّ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ العَرَبِ: (وُلْدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ)[١] وقولُ الفُرْسِ: (هَرْكَ نَزَادْ نَروَدْ)[٢] واللَّفْظُ الفَارِسِيُّ في هذَا أَفْصَحُ مِنَ اللَّفظِ العَرَبِيِّ وَأَحْسَنُ، وَقَوْلُهم (كشند ميد)[٣] مثلُ قولِ العَرَبِيِّ: (مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ) سواءٌ فِي المَعْنَى، وَالفَارِسِيُّ أَقَلُّ حروفًا، وقولُهُمْ: (أصيد بركة خورده)[٤] وَلَيْسَ للعَرَبِ فِي مَعْنَى هذَا المَثَلِ شَيْءٌ وَمَعْنَاهُ: (المَأْمُولُ خَيْرٌ مِنَ المَأْكُوْلِ) وَلَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِكَلَامٍ عَرَبِيٍّ أَقَلَّ حُرُوْفًا مِمَّا ذَكَرْتُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ حُرُوْفَ تَفْسِيْرِهِ بِالعَرَبِيَّةِ ضِعْفَا حُرُوْفِهِ بالفَارِسِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ عَنْ بَعْضِهِمْ فِي مَعْنَى هذَا المَثَلِ: (انْتِظَارُ الحَاجَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ قَضَائِهَا)»[٥].

وَقَدْ عدَّ بعضُ المعَاصِرِينَ مِنَ الَّذِينَ أَعْمَاهُمُ التَّعَصُّبُ عَنْ رُؤيَةِ الحَقِّ، كَلامَ الإمامِ أبي هِلَالٍ مِنْ قبيلِ الشُّعوبيَّةِ وَالتَّعَصُّبِ عَلَى العَرَبِيَّةِ، وَفِي ذلِكَ مِنَ التَّحامُلِ وَعدمِ الإِنصافِ مَا لَا يَخْفَى، وَلَا سيَّمَا مع إمَّامٍ كبيرٍ كَأبي هِلالٍ الَّذِي أفنَى عمرَهُ في

---

(١) قَالَ فِي: (تَاجِ العَرُوسِ) (٩/ ٣٢٢): «مِنْ أَمْثَالِ بني أَسَدٍ (وُلْدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ) هكَذَا مُحَرَّكَةً وَكُسِرَ الْكَافُ فِيهِمَا بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ للأُنْثَى، (أَيْ: مَنْ نُفِستِ بِهِ) وَصَيَّرَ عَقِبَيْكِ مُلَطَّخَيْنِ بالدَّمِ (فَهُوَ ابنُكِ) حَقِيقةً لَا مَنِ اتَّخَذْتِهِ وتَبَنَّيْتِهِ، وَهُوَ مِنْ غَيْرِكِ».

(٢) يُمْكِنُ هُوَ هكَذَا: (هَرْ كِهْ نَزَاد نَروَدْ).

(٣) المَثَلُ الفَارِسِيُّ هكَذَا: (هَرْ كِهْ شُنِيدْ رَمِيدْ)، يُمْكِنُ أَنَّهُ خَطَأٌ مِنَ المُحقِّقِ، أَوْ: مِنَ النَّاسِخِ، كَمَا يُمْكِنُ أَنَّهُ تَغييرٌ حَصَلَ فِي الفَارِسِيَّةِ عَلَى مَدَارِ الزَّمَنِ.

(٤) حَصَلَ لِهذَا المَثَلِ مَا حَصَلَ للأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَالمَثَلُ عِندَهُم هكَذَا: (أُمِيدْ بَهْ كُهْ خُورْدَهْ). قَالَ سَعْدِي الشِّيْرَازِيُّ فِي: (گُلُستَان):

دونـان نخورند و گوش دارند   گويند اميد بـه كـه خـورده

(٥) ديوانُ المعَانِي لأبي هِلَالٍ العَسكريِّ (٢/ ٩٠).

خدمَةِ فنُونِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وَحمايَتِهَا مِنَ العُجمَةِ وَاللُّكْنَةِ وَالتَّصحِيفِ، وَجَاءَ صَاحِبُنَا الـمُتَّكِئُ عَلَى كُتُبِهِ، العَائِلُ عَلَيْهَا وَيَتَّهِمُهُ بالشُّعُوبِيَّةِ وَالحِقْدِ عَلَى العَرَبِيَّةِ، (يَا مَوْتُ زُرْ)!.

مَا هِيَ مَنْزِلَةُ كِتَابِ سِيبَوَيْه؟

إنَّ فَضْلَ سِيبَوَيهِ وَكِتَابِهِ بَارِزٌ ظَاهِر، وَتَأثِيرُهُ فِي العَرَبِيَّةِ بَادٍ بَاهِر، فَالمُنصِفُ أَذْعَنَ لَهُ وَبِجَمِيلِ صَنِيعِهِ اعترَف، وَنَهَلَ مِنْ نَهْرِ تَحقِيْقِهِ وَاغترَف، وَقَدْ تَبَيَّنَتْ مِمَّا مَضَى عَظَمَةُ الكِتَابِ فِي نُفُوسِ الأَئِمَّةِ الأَعْلَام، لِمَا فِيهِ مِنَ الفَوَائِدِ العِظَام، وَالفُنُونِ الجِسَام، وَلَقَدْ قَالَ الإِمَامُ الفيرُوز آبَادِي: «وَلِأَهْلِ البَصْرَةِ أَرْبَعَةُ كُتُبٍ يَفْتَخِرُوْنَ بِهَا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ: كِتَابُ (العَيْنِ) للخَلِيْلِ، وَ(كِتَابُ سِيبَوَيْهِ)، وَكِتَابُ (الحَيَوَانِ) لِلجَاحِظِ، وَكِتَابُ أَبِي حَاتِمٍ فِي القِرَاءَاتِ»[(١)].

وَلِفَخَامَةِ شَأنِهِ ذَكَرَ السُّيوطِيُّ أَنَّ العُلَمَاءَ يَقُولُونَ لِشَخْصٍ إِذَا ذُكِرَ شَأْنُهُ فِي اللُّغَةِ: «هَل يَقْرَأُ[(٢)] كتابَ سِيبَوَيْهِ؟ فَيُقَالُ: لَا، فَيَقُولُونَ: لَا يَعرِفُ شَيْئًا»[(٣)].

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ الجَرْمِيُّ فِي بَيَانِ أَهمِّيَةِ هذَا السِّفرِ العَظِيْم: «أَنَا مُنْذُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً أُفْتِي النَّاسَ فِي الفِقهِ مِنْ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ، فَقِيْلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ مُكْثِرٌ مِنَ الحَدِيْثِ، وَكِتَابُ سِيْبَوَيْهِ يُعَلِّمُنِي القِيَاسَ، وَأَنَا أَقِيسُ الحَدِيْثَ، وَأُفْتِي بِهِ»[(٤)].

يُمْكِنُ أَنْ يتعَجَّبَ شَخْصٌ مِنْ هذَا الكَلامِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعرِفُ جِهَتَهُ وَوِجْهَتَهُ، وَلكِنَّ الإِمَامَ الشَّاطِبِيَّ بيَّنَهُ وَأَبَانَ عَنْ دَقِيقِ أَمْرِهِ قَائِلًا: «وَفَسَّرُوا ذَلِكَ بَعْدَ الاِعْتِرَافِ بِهِ: بِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ حَدِيثٍ[(٥)]، وَكِتَابُ سِيبَوَيْهِ يُتَعَلَّمُ مِنْهُ النَّظَرُ وَالتَّفْتِيشُ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ

---

(١) البُلْغَة فِي تَرَاجِمِ أَئِمَّةِ النَّحْوِ وَاللُّغَة للفيرُوز آبَادِي (ص١٥٢).

(٢) يُمْكِنُ هُوَ (يُقْرِئُ)؛ لأنَّ الإِقْرَاءَ أَنسَبُ بهذَا المَكَانِ مِنَ القِرَاءَةِ.

(٣) بُغيَةُ الوعَاةِ للسُّيوطِيِّ (١/ ٣٣١).

(٤) مُعْجَمُ الأُدبَاءِ (٤/ ١٤٤٣)، الوَافِي بالوَفَيَاتِ (١٦/ ١٤٥).

(٥) يَعْنِي: الجَرْمِيَّ.

سِيبَوَيْهِ وَإِنْ تَكَلَّمَ فِي النَّحْوِ، فَقَدْ نَبَّهَ فِي كَلَامِهِ عَلَى مَقَاصِدِ الْعَرَبِ، وَأَنْحَاءِ تَصَرُّفَاتِهَا فِي أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ فِيهِ عَلَى بَيَانِ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ وَالْمَفْعُولَ مَنْصُوبٌ وَنَحْوِ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ يُبَيِّنُ فِي كُلِّ بَابٍ مَا يَلِيقُ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ احْتَوَى عَلَى عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَوُجُوهِ تَصَرُّفَاتِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي»[(١)].

وَالنَّاظِرُ فِي كِتَابِ سِيبَوَيْهِ يُدْرِكُ هذِهِ الحَقِيْقَةَ جَيِّدًا وَيُقِرُّ بِهَا، وَيُذْعِنُ لَهَا؛ لأَنَّهُ مَلِيءٌ بِالقِيَاسَاتِ البَدِيْعَةِ، وَالِاحتِجَاجَاتِ الْمَنِيْعَةِ، وَمَلآنُ بِالرَّدِّ وَالنَّقْدِ وَالتَّقوِيْمِ، بِمَنْهَجٍ عَقْلِيٍّ رَصِيْنٍ سَلِيْمٍ.

وَبذلِكَ تَعْرِفُ أَنَّهُم لَمْ يُعَظِّمُوا كِتَابَهُ سُدًى، وَلَمْ يُبَجِّلُوا صَاحِبَهُ هَمَلًا، بَلْ: كَانَ التَّعظِيمُ وَالتَّبْجِيلُ نَاتِجَيْنِ عَنْ عَظَمَةِ الكِتَابِ، وَرُسُوخِ صَاحِبِهِ فِي هذَا البَابِ، فَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ، وَأَسْكَنَهُ الفِرْدَوسَ الأَعْلَى مَعَ الأَصْحَابِ.

---

(١) الـمُوَافَقَاتُ للشَّاطِبِيِّ (٥/ ٥٤).

اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ .. لُغَةُ الـمُسْلِمِيْنَ جَمِيْعًا!

إنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ حَامِلَةٌ لِرِسَالَةِ الإِسْلامِ، وَبِهَا أَنزَلَ اللهُ تَعَالَى القُرآن، فَهذَا الكِتَابُ العَظِيْمُ هُوَ آخِرُ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ، أَنْزَلَهُ اللهُ تَعالَى هِدَايَةً للعَالَمِيْنَ، وَلَيسَ خَاصًّا بالعَرَبِ، بَلْ: أُنزِلَ للعَالَمِ بِأَسْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (الفرقان).

وَكَذَا الرَّسُولُ -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَسُولُ العَالَمِيْنَ بُعِثَ للنَّاسِ كَافَّةً، وَلَيسَ خَاصًّا بالعَرَبِ، وَالبُقْعَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ).

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ الأَمْرَيْنِ فَقَالَ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ عَلَى النَّاسِ جَمِيْعًا(الـمُسْلِمِيْنَ)، أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى العَرَبِيَّةِ، وَيُدَافِعُوا عَنْهَا وَيَرَوْهَا لُغَةً لَهُم، فَلَا يَمْنَعُهُم مِنْ تَعَلُّمِهَا وَتَعلِيمِهَا وَنَشْرِهَا وَتَحْبِيْبِهَا إِلَى النَّاسِ وَالتَّرْغِيبِ فِيْهَا، لَا قَوْمِيَّةٌ بَغِيْضَةٌ مُنْتِنَةٌ، وَلَا شِعَارَاتُ العِدَا وَمَكَايِدُهُمُ الـمَقِيتَةُ بِبَثِّ الحِقْدِ وَالضَّغَائِنِ عَلَى العَرَبِيَّةِ.

أَلَا فَلْيَعْلَمِ الجَمِيعُ أَنَّ الدِّفَاعَ عَنْهَا دِفَاعٌ عَنِ الإِسلامِ وَلُغَتِهِ وَعُلُومِهِ، دِفَاعٌ عَنْ بُطُولَاتِ أَبْطَالِنَا وَأَمْجَادِهِم؛ لأَنَّ العَرَبِيَّةَ هِيَ الَّتِي خَلَّدَتْ آثَارَهُم وَمَآثِرَهُم، فَإِذَا ضَاعَتِ العَرَبِيَّةُ ضَاعَتْ تِلْكَ العُلُومُ وَالـمَعَارِفُ وَالـمَفَاخِرُ، وَكَيْفَ السَّبِيلُ بَعْدَهَا إِلَى تِلْكَ العُلُومِ؟ أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى فَهْمِ القُرآنِ الكَرِيْمِ وَالأَحَادِيْثِ النُّورَانِيَّةِ؟

وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَمْرًا وَاحِدًا وَنَسْأَلَ أَنْفُسَنَا سُؤَالًا وَاحِدًا: لِمَاذَا كَانَ العُلَمَاءُ مِنْ غَيرِ العَرَبِ يَهْتَمُّونَ بالعَرَبِيَّةِ؟ مِنَ الفُرْسِ، وَالتُّرْكِ، وَالكُرْدِ، وَالهِنْدِ، وَغَيْرِهِم، حَتَّى سَمَا نَجْمُ كَثِيرٍ مِنْهُم وبرزَ فِي سَمَاءِ العَرَبِيَّةِ وَفَاقَ كَثِيرًا مِنَ العَرَبِ؟

فَالجَوَابُ وَاضِحٌ بيِّنٌ؛ لأَنَّهُم نَظَرُوا إِلَى العَرَبِيَّةِ نَظْرَةً دِينِيَّةً، وَرَأَوا خِدْمَتَهَا عِبَادَةً يُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، فَهِيَ لِسَانُ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ، فإِذَا ضَاعَتْ ضَاعَ فَهْمُ الشَّرِيْعَةِ وَنَبَا عَنِ الصَّوَابِ وَالسَّدَادِ، فَلِذَلِكَ صَرَفُوا فِي خِدْمَتِهَا مَجْهُودًا كَبِيرًا، وَتَعَلَّمُوهَا وَتَعَمَّقُوا فِي أَسْرَارِهَا، وَرَبَّوا أَبْنَاءَهُم عَلَيْهَا..

الجِنَايَاتُ الثَّلاثُ (جِنَايَةُ البُخَارِيِ، جِنَايَةُ الشَّافعيِ، جِنَايَةُ سِيبْوَيه)

الجِنايَةُ .. ذاكَ الِاسْمُ الـمُقزِّزُ الـمُقذِّرُ الَّذِي اخْتارَهُ الـمُهَندِسُ لِيَصِفَ بِهِ ثَلَاثَةً مِنْ عَمالِقَةِ عُلَماءِ الإِسْلامِ وَعَباقِرَتِهِم، اسْمٌ يُطلَقُ عَلَى مَنِ ارْتَكَبَ جَرِيمَةً وَجِنايَةً، وَإِذَا أُطْلِقَ عَلَى أَحَدٍ بِحَقٍّ لَجَعَلَهُ مَنبُوذًا مُحْتَقَرًا فِي الـمُجْتَمَعِ، وَلَا يَكَادُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ نَظَرَ الِاحْتِرَامِ وَالتَّوقِيرِ، وَلكِنَّ الـمُهَنْدِسَ اسْتَخْدَمَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَاخْتَارَهُ لِتَرْوِيجِ كُتُبِهِ وَتَشْوِيهِ سُمْعَةِ هؤلاءِ الأَئِمَّةِ وَصُورَتِهِم ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَلكِنَّ اللهَ تَعالَى يَأبَى الظُّلْمَ وَكَتَبَ لَهُ الدَّحْرَ وَالنَّحْرَ، وَسُنَّةُ اللهِ تَعالَى فِي هَتْكِ السِّتْرِ عَلَى أَمْثالِهِ مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ، كَمَا قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَسَاكِرَ: «اعْلَمْ يَا أَخِي -وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ لِـمَرْضاتِهِ مِمَّنْ يَخْشَاهُ وَيتَّقِيْهِ حَقَّ تُقَاتِهِ- أَنَّ لُحُومَ الْعُلَمَاءِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ- مَسْمُومَةٌ، وَعَادَةُ اللهِ فِي هَتْكِ أَسْتَارِ مُنْتَقِصِيْهِم مَعْلُوْمَةٌ؛ لِأَنَّ الوَقِيْعَةَ فِيْهِم بِمَا هُمْ مِنْهُ بَرَاءٌ أَمْرُهُ عَظِيمٌ، وَالتَّنَاوُلَ لِأَعْرَاضِهِمْ بِالزُّوْرِ وَالِافْتِرَاءِ مَرْتَعٌ وَخِيمٌ، وَالِاخْتِلَاقَ عَلَى مَنِ اخْتَارَهُ اللهُ مِنْهُم لِنَعْشِ الْعِلْمِ خُلُقٌ ذَمِيمٌ..»(١).

وَالقَارِئُ بَعْدَ قِرَاءَةِ رُدُودِنَا عَلَيْهِ يَتَيَقَّنُ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ حَاقِدًا عَلَى هؤلاءِ الأَئِمَّةِ وَعَلَى العُلُومِ الإِسْلامِيَّةِ إِلَى حَدٍّ لَمْ يرَ لَهُمْ أَيَّ فَضْلٍ أَوْ: سَابِقَةِ خَيْرٍ، وَقَدْ رَكِبَ التَّعَصُّبُ الأَعْمَى عَلَى ظَهْرِهِ وَسَادَهُ وَقَادَهُ، وَشَوَّشَ عَلَيْهِ سَدَادَهُ.

---

(١) تَبيينُ كَذِبِ الـمُفْتَرِي لِابْنِ عَسَاكِرَ (ص٢٩).

فَفِي الكِتَابِ الأَوَّلِ(جِنَايَةِ البُخَارِيِّ)، وَصَلَ بِهِ الفُجُورُ فِي الخُصُومَةِ إِلَى وَضْعِ آيَةٍ وَنِسْبَتِهَا إِلَى الـمُصْحَفِ الشَّرِيْفِ إِمْرَارًا لِبَاطِلِ أَرَادَهُ، وَكَذَا لَمْ يَدَعْ رِوَايَةً ضَعِيْفَةً وَلَا مَوْضُوعَةً لِتَشْوِيْهِ صُورَةِ الأَصْحَابِ إِلَّا وَسَرَدَهَا فِي كِتَابِهِ، وَزَوَّرَ النُّصُوصَ وَلَفَّقَهَا، كَمَا فَعَلَ مَعَ الصَّحَابِيِّ الجَلِيْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَنَسَبَ إِلَى الطَّبَرِيِّ وَابْنِ الأَثِيْرِ صَفَحَاتٍ مِنَ الكَذِبِ وَالبُهْتَانِ، وَلَيسَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَهُمَا وَلَمْ يَذْكُرَاهَا قَطُّ، وَهكَذَا شَأْنُهُ أَيضًا فِي الِافْتِرَاءِ عَلَى أُمِّنَا عَائِشَةَ، وَالصَّحَابِيِّ الجَلِيْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ، رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِيْنَ، وَقَدْ أَتَى بِجِنَايَاتٍ وَخِيَانَاتٍ كَثِيرَةٍ لَا يُمْكِنُنَا عَدُّهَا هُنَا، وَيُمْكِنُ الرُّجُوعُ إِلَى رَدِّنَا عَلَيْهِ.

وَفِي الكِتَابِ الثَّانِي (جِنَايَةِ الشَّافِعِيِّ)، تَطَرّقَ إِلَى مِلَفِّ الصَّحَابَةِ مَرَّةً أُخْرَى وَأَرادَ تَشْوِيهَ صُورَتِهِم وَسُمْعَتِهِم، حَتَّى يَرُدَّ مَروِيَّاتِهِمَ الفِقهِيَّةَ، كَمَا فِي الكِتَابِ الأَوَّلِ افْتَرَى عَلَيهِمْ حَتَى يُسْقِطَ رِوَايَاتِهِمُ الحَدِيثِيَّةَ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِهذَا وَتَطرَّقَ إِلَى الأَدِلَّةِ الأُصُولِيَّةِ وَأَرَادَ مَحْوَهَا كُلِّيًّا، وَمِنْ ثَمَّ أَتَى مَظَالِمَ وَرَكِبَ جَرَائِمَ وَادَّعَى عَظَائِمَ، فَكَانَتْ قَوَاصِمُهُ بِدُونِ العَوَاصِمِ، فَخَطَمْنَاهُ وَحطَمْنَاهُ بِهذِهِ العَوَاصِمِ..

فَمَشَى فِي ظِلَالِ الضَّلَالِ حَتَّى زَوَّرَ كَلامَ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ مَرَاتٍ بِحَذْفٍ وَزِيَادَةٍ وَتَأوِيلٍ بَعِيْدٍ مُتَكَلَّفٍ، وَافتِرَاءٍ صَرِيْحٍ أَحيَانًا، وَقَسَاوَةٍ فِي الِاسْتِنتَاجِ وَجَهْلٍ بِالتَّارِيْخِ، وَبُيِّنَ كُلُّ هذَا فِي رَدِّي عَلَيْهِ، يُمكِنُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ.

وَهذَا الَّذِي بَيْنَ أَيدِيكُمْ هُوَ رَدُّنَا عَلى كِتَابِهِ الثَّالِثِ، وَقَدْ رَأيتُم مَا فِيْهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالإِجْحَافِ وَالبُعْدِ عَنِ الإِتْحَافِ وَالإِنْصَافِ، وَقَدْ شَاهَدْتُم كَيْفَ تَلاعَبَ بِعُقُولِ السُّذَّجِ، وَعَمِلَ عَلَى عَوَاطِفِ الجَهَلَةِ، وَسَعَى فِي غِوَايَتِهِم تَحْتَ سِتَارِ العَقْلَنَةِ، وَالتَّزوِيرِ الَّذِي سَمَّاهُ لتَنوِيرَ.

وَحاوَلَ القَضَاءَ عَلَى عُلُومِ العَرَبِيَّةِ نَحْوًا وَتَصْرِيفًا وَبلاغَةً واشْتِقَاقًا، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى هذِهِ العُلُومِ فَحَسْبُ، بَلْ: حَاوَلَ الوصُولَ لِتَشْوِيهِ صُورَةِ الأَدَبِ، وَتَفْضِيلِ الأَدَبِ الـمُعَاصِرِ عَلَى الأَدَبِ القَدِيْمِ!.

فَأَرَادَ مِنْ كُتُبِهِ الثَّلاثَةِ أَنْ يُشَكِّكَ فِي أُصُولِ العُلُومِ الإِسْلامِيَّةِ وَيُسِيءَ إِلَيْهَا، حَتَّى يَهْجُرَهَا النَّاسُ وَيَتْرُكُوهَا، وَلكِنَّ السِّحْرَ انْقَلَبَ عَلَى السَّاحِرِ، فَاللهُ تَعَالَى أَبْطَلَ سِحْرَهُ كَمَا هِيَ سُنَّتُهُ، ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ (طـه).

وَجَاءَتْ قَذَائِفُ الحَقِّ فَذَابَتْ قَلَائِعُ البَاطِلِ وَمَعَاقِلُهُ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ (الأنبياء).

وَهَجَرَ النَّاسُ كُتُبَهُ وَصَارَتْ غَرِيبًا بَعِيْدًا طَرِيْدًا شَرِيْدًا بَيْنَهُم كَمُصْحَفٍ فِي بَيْتِ زِنْدِيقٍ:

[مِنَ البَسِيْطِ]

أَقَمْتُ فِيْهَا مُضَاعًا بَيْنَ سَاكِنِهَا كَأَنَّنِي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زِنْدِيْقِ

كَيْفَ لَا وَقَدِ انْكَشَفَ الْـمُوَرَّى، وَاتَّضَحَ الْـمُعَمَّى فِي أَمْرِ الـمُهَنْدِسِ، أَوْضَحَ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَيْعَانِ الضُّحَى؟

مَصَادِرُ أوزون ومَرَاجِعُهُ

إنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا يَعْرِفُ أنَّ البَاحِثَ إِذَا تَكَلَّمَ عَنْ مَوضُوعٍ مَا يَجِبُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى أُمَّهَاتِ كُتُبِ هذَا الـمَوْضُوعِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِيَتَكَلَّمَ عنهُ، لِيَكُونَ بَحْثُهُ عِلمِيًّا دَقِيْقًا، وَلكِنَّ الـمُهندِسَ زَكَرِيَّا أوزون خَالَفَ أَسَاليبَ البَحْثِ العِلْمِيِّ فِي جَمِيْعِ كُتُبِهِ[1]، وَلَم يُبَالِ بِالـمَصَادِرِ أَصْلًا، وَمِنْ هـذَا الكِتَابِ أيضًا نَرَاهُ يَفْعَلُ فِعْلَتَهُ القَدِيمَةَ فِي العَبَثِ بِالـمَصَادِرِ، وَمِنْ هُنَا أيضًا نَرَى فَقْرًا تَامًّا للنَّقْلِ مِنَ الـمَصَادِرِ الـمُعْتَبَرَةِ لِعِلْمِ النَّحْوِ، وَتَرْكِ كُتُبِ الـمُتَقَدِّمِيْنَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَعَلَى رأسِهِم سِيْبَوَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُلْ لَنَا كَلَامًا وَاحِدًا لِسِيْبَوَيْهِ، لَا مِنْ كِتَابِهِ(كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ)، لَا مِنَ الكُتُبِ الَّتِي اعتنَتْ بالنَّقْلِ عَنْ سِيْبَوَيْهِ، وَهذِهِ دَاهِيَةٌ فِي الـمَنْهَجِ البَحْثِيِّ، وَتَخدِشُ سُمْعَةَ الـمُؤلِّفِ وَالدَّارِ النَّاشِرَةِ لِكِتَابِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي آخِرِ كِتَابِهِ أَسْمَاءَ الـمَصَادِرِ الَّتِي اسْتَخْدَمَهَا، فَهَا نحنُ نُورِدُهَا كَمَا ذَكَرَهَا هُوَ[2]:

١- القُرآنُ الكَرِيمُ.

٢- اللُّؤلُؤُ وَالـمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ إِمَامَا الـمُحَدِّثِيْنَ: دَارُ البَازِ للنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ.

٣- مُغْنِي اللَّبِيْبِ: تأليفُ: جَمَالِ الدِّينِ، عَبدِ اللهِ بْنِ هِشَامٍ الأَنْصَارِيِّ.

---

(١) يَا حَبَّذَا لَوْ رَجَعْتُمْ إِلَى أَوَائِلِ كِتَابِنَا: (الجِنَايَةِ عَلَى البُخَارِيِّ)، فَفِيْهِ عَقَدْنَا فَصْلًا وَتَكَلَّمْنَا فِيْهِ أَزْمَةِ المَصَادِرِ عِنْدَ أوزون، وَبيَّنَّا فَقْرَ كُتُبِهِ فِي الاِعتِمَادِ عَلَى الـمَصَادِرِ الـمَوْثُوقَةِ.

(٢) جِنَايَةُ سِيبَوَيْهِ (ص١٧٥-١٧٦).

٤- إِمْلاءُ مَا مَنَّ بِهِ الرَّحمنُ مِنْ وجُوهِ الإِعْرَابِ وَالقِرَاءَاتِ فِي جَمِيْعِ القُرآنِ: أَبُو البَقَاءِ، عَبدُ اللهِ بْنُ الحُسَيْنِ بْن عَبْدِ اللهِ العُكْبَرِيِّ.

٥- النَّحْوُ الوَاضِحُ فِي قَوَاعِدِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ: عَلِيّ الجَارِم، وَمُصْطَفَى أَمِين.

٦- النَّحْوُ العَرَبِيُّ شَوَاهِدُهُ وَمُقَدِّمَاتُهُ: دكتُور أَحْمَد مَاهِر البَقَرِي.

٧- شَرْحُ أَلفِيَةِ ابْنِ مَالِكٍ، لِابْنِ النَّاظِمِ: أَبِي عَبْدِ اللهِ بْن بَدْرِ الدِّيْنِ مُحَمَّدٍ.

٨- إِعْرَابُ الكَلِمَاتِ وَالتَّرَاكِيْبِ المُشْكِلَةِ فِي الأَسَالِيْبِ العَرَبِيَّةِ: الدُّكتورُ شَوقِي المَعَرِّي.

٩- الأَلسِنَةُ التَّوْلِيدِيَّةُ وَالتَّحوِيلِيَّةُ وَقَوَاعِدُ اللُّغَةِ العَربِيَّةِ: د.مِيشَال زَكَرِيَّا.

١٠- قَضَايا نَحوِيَّةٌ وَصَرفِيَّةٌ: الدُّكتورُ نَاصِر حُسَين عَلِيّ.

١١- نَظَرِيَّةُ النَّظْمِ: د.صَالِح بالعِيد.

١٢- قَوَاعِدُ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَالإِمْلاءِ: حَيَاة عَلِيّ الحُسَيْنِي.

١٣- بَيْضَةُ الدِّيْكِ: يُوسُف الصَّيْدَاوِي.

١٤- المُنْجِد فِي الإِعرَاب وَالقَوَاعِدِ: صَالِح سَاسَا.

١٥- كُتُبُ القَوَاعِدِ لِصُفُوفِ المَرْحَلَةِ الإِعْدَادِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ فِي الجُمهُورِيَّةِ العَرَبِيَّةِ السُّورِيَّةِ عَامَ (١٩٩٩-٢٠٠٠).

١٦- English Grammar in Use, Raumond Murply.

هذَا كُلُّ مَا كَتَبَهُ المُهنْدِسُ فِي ثَبَتِ مَرَاجِعِهِ وَمَصادِرِهِ، وَبِهذِهِ المَصَادِرِ المُعاصِرَةِ يُرِيدُ أَنْ يُشَكِّكَ فِي عِلْمِ النَّحْوِ وَيَنْتَقِدَهُ، وَمِنْ خِلالِ هذِهِ المَصَادِرِ المُعاصِرَةِ الَّتِي

اعتَمَدَ عَلَيْهَا صَاحِبُ الجِنَايَةِ (مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى رُدُودِنَا عَلَيْهِ)، تَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِدْ عِلْمَ النَّحْوِ، وَلَا قَوَاعِدَ العُلَمَاءِ فِي هذَا العِلْمِ، بَلْ: هُوَ تَشَاغَبَ مَعَ أَمْثِلَةٍ نَحْوِيَّةٍ وَغَالَطَ نَفْسَهُ فِي حَقِّهَا، وَهذَا كُلُّ مَا سَعَى إِلَيْهِ صَاحِبُ الجِنَايَةِ.

(لَقَدْ حَكَيْتَ وَلكِنْ فَاتَكَ الشَّنَبُ!)[1].

وَبالتَّالِي فَأَنَا لَا أَدْرِي أَيْنَ اسْمُ الدُّورِ النَّاشِرَةِ للكُتُبِ الَّتِي ذكَرَهَا، وَأَيْنَ ذِكْرُ مَكَانِ الطَّبْعِ، وَرَقْمِ الطَّبْعَةِ، وَسَنَةِ طَبعِهَا، وَإِذا أَرَادَ القارِئُ أَنْ يَصِلَ إِلَى النَّصِّ كَيْفَ يَجِدُهُ؟

وَمَعَ هذَا كُلِّهِ فَإِنَّهُ فِي مُعْظَمِ الأَحَايينِ لَا يَذْكُرُ رَقْمَ الصَّفْحَةِ فِي التَّوْثِيقِ، وَيَكْتَفِي باسْمِ الكِتَابِ وَحْدَهُ دُونَ ذِكْرِ الصَّفْحَةِ، وَأَحيَانًا لَا يَذْكُرُ اسْمَ الكِتَابِ أيضًا، وَيَكْتَفِي بِذِكْرِ صَاحِبِ الكِتَابِ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مِئَاتُ كُتُبٍ!

عَجِيبٌ أَنْ يُبَاعَ مِثْلُ هذَا الكِتَابِ فِي السُّوقِ، وَيُقْبَلَ عَلَيْهِ، وَيُرَوَّجَ لَهُ فِي الإِعْلامِ[2].

(١) عَجُزُ بَيْتٍ مِنَ البَسِيطِ، وَأَكْثَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ تَضْمِينِهِ، وَضَرَبُوهُ مَثَلًا.

(٢) تَرْوِيجُ الإِعْلامِ لَهُ لَيْسَ عَجِيبًا؛ لأَنَّهُ وُكِّلَ بِهذَا التَّزوِيرِ وَالتَّلْفِيقِ أَصَالَةً.

مَنْ هُوَ الْـمُهَنْدِسُ زَكَرِيَا أوزونُ؟ وَمَاذَا يُرِيدُ؟

إنَّ شَخْصِيَّةَ هذا الرَّجلِ لَا تُهِمُّنَا وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى تَحديدِ شَخْصِيَّتِهِ، مَعَ كَوْنِهِ لَيسَ مَعرُوفًا وَلا مَشهُورًا، وَالَّذِي يُعرَفُ عَنْهُ هُوَ يَحمِلُ اسْمًا وَصُورَةً عَبرَ مَوَاقِعِ التَّواصُلِ الاجتِمَاعِيِّ، وَيُقالُ إِنَّهُ مُهَنْدِسٌ سُورِيٌّ!

فَلَسْنَا بِصَدَدِ تَرْجَمَتِهِ هَلْ لَهُ أَصلٌ وَفَصْلٌ أَمْ: لا؟ وَلا يُهِمُّنَا التَّعَرُّفُ عَلَيْهِ شَخصِيًّا، فَحَسبُنَا تَوَالِيْفُهُ وَكُتُبُهُ لِنَعْلَمَ مَنْ هُوَ وَمَاذَا يُرِيدُ!

وَبَعْدَ تأمُّلِ أَقْوَالِهِ وَاستِقْرَائِهَا خَلالَ كُتُبِهِ، تَبَيَّنَ لِي أَنَّ هذَا الرَّجلَ عَدُوٌّ شَرِسٌ للإِسلامِ وَالمُسلمينَ وَلا يَكتُبُ لأَجلِهِم سَطْرًا، بَلْ: يُحاوِلُ تَشوِيْهَ صورَتِهِم وَسُمعَتِهِم مِنْ عَصرِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى يومِنَا هَذَا، وَقَدْ حَاولَ التَّشكِيكَ فِي أُصُولِ الإِسلَامِ خِلالَ الجِنَايَاتِ الثَّلاثِ، فَفِي جِنَايَةِ البُخَارِيِّ أَرادَ أَنْ يَمْحُوَ كُتُبَ الحَدِيثِ جَمِيعَهَا، وَمَعَهَا تَارِيخُ الأُمَّةِ الْـمُشْرِقُ؛ لأَنَّهُ إِذَا سَلَبَ الأَمَانَةَ مِنَ الإِمَامِ البُخَارِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ- فَمَنْ يَلِيْهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى!

وَفِي جِنَايَةِ الشَّافِعِيِّ أَرادَ أَنْ يُسِيءَ إِلَى عِلْمَي الأُصُولِ وَالفِقْهِ؛ لأَنَّ الإِمَامَ الشَّافِعيَّ -رَحِمَهُ اللهُ- كَانَ بَحرًا مُغْدِقًا فِيهِمَا وَلا يُدانِيْهِ أَحدٌ، فإِذا كَانَ حالُ الإِمَامِ هكذا فَمَنْ يأتِي مِنْ بَعْدِهِ مِنْ بابِ أَوْلَى!

وَفِي جِنَايَةِ سِيْبَوَيْهِ أَرادَ أَنْ يُشكِّكَ فِي لُغَةِ القُرءانِ وَقَواعِدِهَا، وَحَاوَلَ الإِسَاءَةَ إِلَى أَجْمَلِ لُغَاتِ العَالَمِ وَأَزْيَنِهَا وَأَغْنَاهَا وَأَمتَنِهَا، وَاخْتَارَ الإِمَامَ العَلَمَ سِيْبَوَيْهِ -رَحِمَهُ اللهُ- لِذلِكَ، فَلَمْ يَكُنْ يَعتَرِضُ عَلَى الإِمَامِ وَأَقوَالِهِ؛ لأَنَّهُ لَيسَ أَهلاً لِفَهْمِ كَلامِهِ حَتَّى

يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ، فَلِذلِكَ لا تَجِدُ فِي كِتَابِهِ اعتِرَاضًا وَاحِدًا عَلَى كَلامٍ مَنصُوصٍ لِسِيبَوَيْهِ، وَلكنَّهُ اخْتَارَ اسمَهُ لَجَذْبِ القُرَّاءِ!

فَبَعْدَ ثُلاثيَّةِ الظُّلمَةِ كَتَبَ كِتَابَهُ الظَّالِمَ الغَاشِمَ: [الإسلامُ هَلْ هُوَ الحَلُّ؟] فَفِيهِ أَفْصَحَ بأنَّ الإسلامَ لَيْسَ مَعَهُ الحَلُّ الكَافِي، وَالدَّواءُ الشَّافِي، مِنْ لَدُنْ مَجِيْئِهِ إِلَى عَصْرِنَا، وَقَالَ صَرِيحًا فِي آخِرِ كِتَابِهِ للجَوابِ عَنْ سُؤالٍ وَضَعَهُ وَهُوَ موضُوعُ كِتابِهِ: [مَا هُوَ الحَلُّ؟] وَ [أَيْنَ وَكَيْفَ يَكُونُ ذلِكَ الحَلُّ؟].

وَيُجِيبُ قَائِلاً: «يَأْتِي الجَوَابُ صَرِيْحًا وَوَاضِحًا وَمُبَاشِرًا: إِنَّ الحَلَّ يَكُونُ فِي العَلْمَانِيَّةِ! وَالَّتِي تَعْنِي بِالنِّسْبَةِ لِي ـ بَعِيْدًا عَنْ ضَرُوْرَةِ فَتْحِ، أَوْ: كَسْرِ العَيْنِ فِي تِلْكَ الكَلِمَةِ ـ أَنْ لَا تُحْكَمَ البِلَادُ تَحْتَ شِعَارٍ، أَوِ: اسْمِ الدِّيْنِ! وَلْتَكُنِ البِلَادُ أَيْنَمَا تَكُوْنُ فِي الشَّرْقِ، أَوِ: الغَرْبِ، أَوِ: الشَّمَالِ، أَوِ: الجَنُوْبِ. وَلْيَكُنِ الدِّيْنُ مَا يَكُونُ إِسْلَامِيًّا ـ مَسِيْحِيًّا ـ يَهُودِيًّا ـ سَمَاوِيًّا، أَوْ: غَيْرَ ذَلِكَ عَامًّا، أَوْ: خَاصًّا. فَلَا مَكَانَ للدِّيْنِ فِي سِيَاسَةِ البِلَادِ وَالمُوَاطَنَةِ كَمَا رَأَيْنَا فِي بُحُوْثِ كِتَابِنَا هذَا. وَالعَلْمَانِيَّةُ لَا تَعْنِي الإِلْحَادَ وَالكُفْرَ، أَوِ: الإِشْرَاكَ[1]، بَلْ: إِنَّهَا تَحْتَرِمُ كُلَّ الأَدْيَانِ وَالمُعْتَقَدَاتِ السَّائِدَةِ، وَلَا تُنْكِرُ دَوْرَهَا فِي القِيَمِ الرُّوْحِيَّةِ وَالإِيْمَانِيَّةِ وَالأَخْلَاقِيَّةِ، لكِنَّهَا تَقُوْلُ لَهَا جَمِيْعًا ابْقِي بَعِيْدًا عَنْ أُمُوْرِ السِّيَاسَةِ وَالحُكْمِ وَالدَّوْلَةِ وَالوَطَنِ، ابْقِي فِي المَسْجِدِ وَالكَنِيْسَةِ وَالصَّوْمَعَةِ وَسَائِرِ بُيُوْتِ العِبَادَةِ ... وَابْقِي بَعِيْدًا عَنِ الأَبْنِيَةِ العَامَّةِ وَالوَطَنِ وَالدَّوْلَةِ، بَدْءًا مِنَ الشَّارِعِ، مُرُوْرًا بِالمَدْرَسَةِ وَالجَامِعَةِ وَالمَشْفَى وَالعَمَلِ، وَانْتِهَاءً بِأَيَّةِ مُؤَسَّسَةٍ، أَوْ: مَبْنًى عَامٍّ»[2].

---

(١) يُمْكِنُ أَنَّ الكُفْرَ عِنْدَ المُهَنْدِسِ مُنْحَصِرٌ فِي عِبَادَةِ الوَثَنِ فَقَط!

(٢) الإسلامُ هلْ هُوَ الحلُّ؟ لزكريَّا أوزون (ص١٤٦ ـ ١٤٧)، رِيَاضُ الرّيسِ للكُتُبِ وَالنَّشْرِ، ط: الأولى / ٢٠٠٧م.

عَجبًا لهذَا الرَّجلِ الَّذي يدَّعِي ضرورَةَ الرُّجوعِ إِلَى كتابِ اللهِ تَعالَى وَتَطبيقِهِ، وَمعَ هذا يَكتُبُ هذه الأَسطُرَ الظَّالِمَةَ! فَهذا الإِسلامُ الأَمريكيُّ الَّذي جَاءَ بِهِ أُوزونُ إِسلامٌ غيرُ الإِسْلامِ الَّذي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ الأَكرَمُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلا يَعترفُ بِهِ مُسلِمٌ مُؤمنٌ بالقُرءانِ الكَريمِ! فالإِسلامُ الَّذي نعرِفُهُ جاءَ لِيُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الشِّرْكِ والظُّلمِ إِلَى التَّوحيدِ وَالعِبَادَةِ، وَجاءَ بِنُصوصٍ تُنْكِرُ مَبدَأَ [دَعْ مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ].

وَلَمْ يَختَلِفْ علَماءُ الإِسلامِ فِي كونِ الْمُشَرِّعِ المخَالِفِ لِمَا جَاءَ بِهِ الإِسلامُ كَافِرًا، وَقَدْ جَاءَتْ فِي ذلِكَ آياتٌ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالَى، كَمَا قالَ تعالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (الشورى).

وَقالَ بُوجوبيَّةِ إِطَاعَتِهِ وَكَمَا أَنَّ لَهُ الخَلْقَ فَيَجِبُ أَنْ يكُونَ الأَمْرُ لَهُ: ﴿ ..أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأعراف).

وَقالَ تَعالَى فِي كُفْرِ الْمُشرِّعينَ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ..﴿٣١﴾ ﴾ (التوبة).

أمَّا الحُكمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ فَلا يَخرُجُ مِنْ حَالاتٍ، إِمَّا أَنْ يكُونَ كُفرًا أَكْبَرَ يُخرِجُ صَاحِبَهُ مِنَ المِلَّةِ الإِسلاميَّةِ، وَإِمَّا أَنْ يكونَ فاعِلُهُ ظَالِمًا، أَوْ: فَاسِقًا حَسَبَ حَالِ الحَاكِمِ، كَمَا قالَ تَعالَى:

* ﴿ ..وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (المائدة).
* ﴿ ..وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (المائدة).
* ﴿ ..وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (المائدة).

ثُمَّ يَقُولُ الْمُهَنْدِسُ: «وهكَذَا دَعُونَا (نَبْنِي) مُجْتَمَعًا حُرًّا عَلْمَانِيًّا دِيمُوقرَاطِيًّا مُسَالِمًا»[(١)].

أقُولُ: وَللهِ الحَمدُ وَالمِنَّةُ لَقَدْ أَفْصَحتَ عَنْ هُوِيَّتِك، وأبَنْتَ للجَمِيعِ مَا كُنتَ وَمَاذَا أردتَ مِنْ هذه الهَرَوَاتِ وَالجَعْجَعَاتِ وَالصَّيحاتِ!.

ثُمَّ يُدافِعُ فِي آخِرِ أَنْفَاسِ هَذَا الكِتابِ عَنْ أسيادِهِ وَيَقولُ: «وَإِنَّ ثَقافَةَ المَوْتِ الَّتِي تَعُمُّ بَعْضَ المُجْتَمَعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالعَرَبِيَّةِ اليَوْمَ، لَا خَيْرَ فِيهَا وَلَا تَبْنِي مُجْتَمَعًا مُتَطَوِّرًا مُسْتَقِلًّا، وَقَدْ أَثْبَتَ التَّارِيخُ فَشَلَهَا. عِلْمًا أَنَّ بَرَاعَةَ اخْتِرَاعِهَا تَعُودُ إِلَى أَيَّامِ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ مَا طَبَّقَهَا الكَامِيكَازِي (الطَّيَّارُونَ الِانْتِحَارِيُّونَ اليَابَانِيُّونَ) ضِدَّ الحُلَفَاءِ وَالأَمْيرِكِيِّينَ. وَكَانَتْ نَتِيْجَتُهَا الهَزِيْمَةَ لِدَوْلَةِ اليَابَانِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ وَأَقْوَى الدُّوَلِ آنَذَاكَ»[(٢)].

أقُولُ: قَدْ وَصَلَ هذا الرَّجُلُ مِنْ خِدْمَةِ أمريكا إِلَى عبادَتِهَا، بحيثُ لا يرَى لهَا نَقصًا وَلا يتكلَّمُ عنْ جَرائمِهَا فِي حقِّ اليابانيِّينَ وَإبادَةِ بِلادِهِم، وخَرابِ عَيشهِمْ وَقَتْلِ أطْفَالِهِم وَشُيُوخِهِم، وَلَمْ تَكُنْ فَرَّقَتْ بَيْنَ الإِنسانِ وَالجَمَادِ فِي التَّدميرِ وَالإِبادَةِ، وَيَكْفِي أَمريكَا أَنْ تَكُونَ نَاكَازَاكِي وَهيرُوشِيمَا نُقْطَةً سَوْدَاءَ عَلَى جَبِينِهَا المُلَطَّخِ المُكْفَهِرِّ إِلَى الأَبَدِ، وَلكنَّ الخَادِمينَ لَهَا عُميٌّ عَنْ رُؤيَتِهَا.

فَهَلْ نَكْسَةُ يَابَانَ وَتَدميرُهَا بِسبَبِ الفِدائِيِّينَ؟ أَمْ: كَانَ عَمَلُ الفِدائِيِّينَ لأَجْلِ إِنقَاذِ بِلادِهِمْ، حَيثُ هَاجَمَتْ أَمريكَا وَالمُتَحَالِفُونَ مَعَها هُجُومًا شَرِسًا عَلَى اليَابانِ، بَرِيًّا وَبَحرِيًّا وَجويًّا؟! فَهَذا التَّارِيخُ مَكتُوبٌ لِمَنْ أَرادَ مَعرِفَةَ خِيانَةِ أوزونَ وَتَحرِيْفِهِ!

---

(١) الإسلامُ هلْ هُوَ الحلُّ (ص١٤٧).

(٢) الإسلامُ هلْ هوَ الحل (ص١٤٧).

وَلَيْسَ هَذا فَحَسبُ، بَلْ: جَاءَ أوزونُ بالدِّفَاعِ عَنِ المَسيحيينَ دِفَاعًا إِلَى العَظْمِ فِي كِتَابِهِ «لَفَّقَ الْـمُسلِمُونَ» بَعْدَ أَنْ شَنَّعَ عَلَى الْـمُسلِمينَ فِي كلِّ طَوْرٍ، وَيَقولُ بأَنَّ المسلِمِينَ مُتخلِّفُونَ فِي كُلِّ الأَدوارِ، قالَ وَاصِفًا إِخوانَهُ مِنَ الْـمَغضُوبِ عَلَيْهِم وَالضَّالِّينَ: «لَكِنَّ الـمُسْلِمِيْنَ كَانُوا وَمَا زَالُوا أَبْعَدَ أَهْلِ الأَرْضِ عَنْ جَدِيْدِ دِيْنِ اللهِ ... وَسَرَى الجُمُوْدُ فِي مُجْتَمَعِهِم حَتَّى بَلَغَ أَحَاسِيْسَهُمْ فَتَبَلَّدَتِ الـمَشَاعِرُ وَسَادَتِ البَغْضَاءُ ... وَأَصْبَحَ اخْتِطَافُ وَقَتْلُ الأَبْرِيَاءِ وَذَبْحُهُمْ شَجَاعَةً وَبُطُوْلَةً تَسْتَحِقُّ وَبِجَدَارَةٍ أَنْ تُسَمَّى بُطُوْلَةَ الأَنْذَالِ ... أَخِيْرًا: لَا يَسَعُنِي إِلَّا أَنْ أُثْنِيَ عَلَى أَصْلِ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي سَبَقَتِ الإِسْلَامَ، وَأَخُصُّ الإِخْوَةَ الـمَسِيْحِيِّيْنَ فِي الغَرْبِ، الَّذِيْنَ استَحَقُّوا وَبِجَدَارَةِ الـمَكَانَةِ وَالسَّيْطَرَةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا اللهَ حَقًّا وَجَعَلُوا مِنْ دِيْنِهِمْ خَيْرَ دِيَانَاتِ القَرْنِ الوَاحِدِ وَالعِشْرِينَ فِي مَحَبَّةِ اللهِ وَمَحَبَّةِ الإِنْسَانِ»[1].

لِيسَتْ لِي وَقْفَةٌ عَلَى كَلامِهِ وَلا أَلُوْمُهُ عَلَى هذا التَّصريحِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الوَاجِبِ أَنْ لا يُخفِيَ هُوِيَّتَهُ عَنِ القُرَّاءِ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، وَلا يَظْهَرَ كَمُنَاضِلٍ عَنْ دِينِ اللهِ تعَالَى ذَابٍّ عَنِ الإِسلامِ فِي البِدَايَةِ!

وَلكِنَّهُ يعلَمُ جيِّدًا أَنَّهُ لَوْ أَفْصَحَ عَنْ مَذْهَبِهِ وَأعرَبَ عَنْ بَاطِنِهِ لَفَرَّ مِنْهُ القُرَّاءُ وَلَمْ يَقبَلُوا عَلَيْهِ، إِقْبَالَهُمْ عَلَى رَجلٍ مُخْلِصٍ لِدِيْنِ اللهِ تعالَى، فَلِذلِكَ تَظَاهَرَ بالنُّصْحِ وَالإِخْلَاصِ!

---

(١) لَفَّقَ الْمُسْلِمونَ لِزَكَرِيَّا أُوْزُوْنَ (ص٢٠٧ـ٢٠٩)، رياض الريس للكتب والنشر، ط: الأولى / ٢٠٠٨م.

فَمِنْ هُنَا تَنْتَهِي قِصَّةُ الوَهْمِ وَالخِيانَة، قِصَّةُ الخِيانَةِ مِنَ الأَمَانَة، أُسْطُورَةُ الـمَلامَةِ وَالإهَانَة، قِصَّةُ الفُجُورِ وَالخِدَاع، قِصَّةُ تَروِيجِ البَاطِلِ وَالضِّيَاع، فَهَا قَدْ بَدَا يُرْفَعُ عَنِ المُدَّلِسِ الحِجَابُ وَالقِنَاع!

أَخيرًا: يَا باحِثًا عَنِ الحَقيقَةِ بالجُهدِ وَالْـمُثابَرَة، يَا عَطْشَانَ الحَقِّ إِيَّاكَ وَدُعَاةَ الْـمُسامَرَةِ وَالـمُشاجَرَة، فَلا تَغْتَرَّ بكُلِّ شِعَارٍ خَفَّاق، فَكَمْ خَفَّاقٍ لَيسَ تَحتَهُ إِلَّا النِّفَاق، فَلا يَخْدَعَنَّكَ لَمَعَانُ الشِّعَارات، فَكَمْ لامِعٍ أَتَى بَالوَيلاتِ وَالحَسَرات، فَلا تُؤْمِنْ بكُلِّ دَاعٍ للإِصْلاح، فَكَمْ مِنْهُمْ بَكَى مِنْهُ الإِصْلاحُ وَالصَّلاح، وَكَمْ مِنْ فَلاحٍ فَرَّ مِنَ الفَلاحِ فِرَارَ الجَبانِ مِنَ الكِفَاح!

فَلا تَتأَثَّرْ بِسِحْرِ كَلامِ مُدَلِّسٍ للفِكْرِ مُخْتَلِس، وَلَوْ أَتَاكَ بِزُخْرُفِ القَوْلِ فَلَيسَ إِلَّا الـمُعَانِدَ الـمُفْلِس، فَلَوِ ادَّعَى حِمَايَةَ القُرءانِ وَالإِسلام، فَهُوَ كَلامٌ فَارِغٌ يَتَبَجَّحُ بِهِ حَتَّى الأَنْوَكُ الطَّغَام، وَقالَهُ صَاحِبُنَا أُوزونُ حَتَّى رُفِعَ الغِطَاءُ وَاللِّثَام[1]!

كَلِمَتِي الأَخيرَةُ لجَنَابِ الـمُهَنْدِسِ زَكَرِيَّا أُوزونُ: يَا مَنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهْ، وَثَقُلَ فِي البَاطِلِ رَأسُهْ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ هَجْسُهْ، وَيَنْطِقُ بَاطِلًا جَهْرُهُ وَهَمْسُهْ، وَقَرِيبٌ حَتْفُهُ وَقَفْسُهْ، أَشْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ فَقَدْ دَنَا الأَجَلُ الـمَحتُوم، وَبَانَ سِرُّكَ الـمَكْتُوم، وَظَهَرَ أَمْرُ الصَّحيحِ مِنَ الْـمَكْلُوم، وَالبَاطِلُ زَائِلٌ فَهُوَ الأَجَلُ الْـمَخْتُوم، وَلا يَخرُجُ مِنْهُ إِلَّا الشَّرُّ الْـمَشْؤُوْم، فَارْجِعْ إِلَى رُشْدِكَ وَدَعِ الجِنَايَةِ فِي حَقِّ العُلُوم[2]!

---

(١) وَقَدْ أَخَّرتُ الكَلامَ عَلَى أوزونَ لِيَكونَ تَقييمُكَ لِكِتَابنَا وَرُدُودُنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ المَنْطِقِ وَالمِعيارِ العِلميِّ، بَعيدًا عَنِ العَاطِفَةِ وَالضَّغينَة، وَكَذلِكَ لهذا الغَرَضِ تأتِي ترجَمَةُ الإِمَامِ سِيْبَوَيْهِ -عَلَيْهِ سَحَائِبُ الرَّحمَةِ- مُتَأَخِّرَةً، واللهُ مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ!

(٢) نَقَلْتُ الكَلامَ عَنْ أوزونَ مِنْ كتابِي: (الجِنَايَةِ عَلَى البُخَارِيِّ)، مَعَ تَعدِيْلٍ يَسِيْرٍ وَتَصْحِيحٍ لِبَعْضِ الهَفَوَاتِ.

[مِنَ البَسِيْطِ]

لَقَد بَذَلتُ لَكُم نُصْحِي بِلَا دَخَلٍ ... فَاِستَيقِظُوا إِنَّ خَيْرَ العِلْمِ مَا نَفَعَا
هَذَا كِتَابي إِلَيكُم وَالنَّذِيرُ لَكُم ... فَمَنْ رَأى رَأيَهُ مِنكُم وَمَنْ سَمِعَا

مَنْ هُوَ سِيبَويه؟

اسمُهُ وَلَقَبُهُ وَكُنْيَتُهُ:

هُوَ أَبُو بِشْرٍ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ قَنْبَرٍ[١]، الـمُلَقَّبُ: (سِيْبَوَيْه)، مَوْلَى بَنِي الحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ، وَقِيْلَ: آلِ الرَّبِيْعِ بْنِ زِيَادٍ الحَارِثِيِّ[٢].

قَالَ ابْنُ خَلْكَانَ: وَسِيْبَوَيْه: بِكَسْرِ السِّيْنِ الـمُهْمَلَةِ، وَسُكُوْنِ اليَاءِ الـمُثَنَّاةِ مِنْ تَحْتِهَا، وَفَتْحِ البَاءِ الـمُوَحَّدَةِ وَالوَاوِ، وَسُكُوْنِ اليَاءِ الثَّانِيَةِ، وَبَعْدَهَا هَاءٌ سَاكِنَةٌ، وَلَا يُقَالُ بِالتَّاءِ أَلْبَتَةَ، وَهُوَ لَقَبٌ فَارِسِيٌّ مَعْنَاهُ بِالعَرَبِيَّةِ: (رَائِحَةُ التُّفَّاحِ)، هَكَذَا يَضْبِطُ أَهْلُ العَرَبِيَّةِ هذَا الِاسْمَ وَنَظَائِرَهُ، مِثْلَ: (نِفْطَوَيْه، وَعَمْرَوَيْه) وغيرِهِمَا، وَالعَجَمُ يَقُوْلُوْنَ: (سِيْبُوْيَه) بِضَمِّ البَاءِ الـمُوَحَّدَةِ وَسُكُوْنِ الوَاوِ، وَفَتْحِ اليَاءِ الـمُثَنَّاةِ بَعْدَهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُوْنَ أَنْ يَقَعَ فِي آخِرِ الكَلِمَةِ (وَيْه)؛ لِأَنَّهَا لِلنُّدْبَةِ[٣].

وَإِنَّمَا سُمِّيَ سِيبَوَيْه؛ لِأَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ تُرَقِّصُهُ وَتَقُوْلُ لَهُ ذَلِكَ[٤].

قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ: سُمِّيَ سِيبَوَيْه؛ لِأَنَّ وَجْنَتَيْهِ كَانَتَا كَالتُّفَّاحَتَيْنِ، وَكَانَ بَدِيعَ الْجَمَالِ[٥].

---

(١) فِي ضَبْطِ (قَنْبَر) نِزَاعٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ أَئِمَّةِ الشَّأْنِ.

(٢) وَفَياتُ الأَعيانِ لِابنِ خَلْكَانَ (٣/ ٤٦٥)، وَالعِبرُ فِي خَبَرِ مَنْ غَبَرَ لِلذَّهَبِيِّ (١/ ٢١٥).

(٣) وَفَياتُ الأَعيانِ لابنِ خَلْكَانَ (٣/ ٤٦٥).

(٤) البِدايةُ والنِّهايةُ (١٣/ ٦٠٧).

(٥) تَارِيخُ بَغْدَادَ لِلخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩)، تَارِيخُ الإِسلامِ لِلذَّهَبِيِّ (١١/ ١٥٦)، والمختَصَرُ فِي أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥)، مِرآةُ الجِنانِ لِليافِعِيِّ (١/ ٣٤٣).

وَقِيلَ: هُوَ لَقَبٌ بِالْفَارِسِيَّةِ،مَعْنَاهُ: رَائِحَةُ التُّفَّاحِ[(١)].

وَقَدْ رَوَى القَاضِي التّنوخِيُّ عَنْ مُحَمَّد بن حسن الزبيدِيِّ، أنَّهُ قَالَ: قَالَ العسكريُّ: سِيبَوَيْهِ اسْمٌ فارسيٌّ، فـ(السِّي): ثَلَاثُونَ، وَ(بويْه): رَائِحَةٌ، كَأَنَّهُ فِي الْمَعْنى: ثَلَاثُونَ رَائِحَةً[(٢)].

أَسَاتِيْذُهُ:

لهذَا الإِمَام العَلَم أَساتِذَةٌ كُثُرٌ دَرَسَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَقَى مِنْ مَعِيْنِهِمُ الصَّافِي فِي مِشْوَارِهِ اللُّغُوِيِّ، فَأَبْرَزُهُم:

* الخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الفَرَهِيْدِيُّ[(٣)].
* يُونُسُ بْنُ حَبِيْبٍ[(٤)].
* وَأبُو الخَطَّابِ الأَخْفَشُ الأَكْبَرُ[(٥)].
* عِيَسى بْنُ عُمَرَ الثَّقَفِيُّ (شَيْخُ الخَلِيْلِ أَيْضًا)[(٦)].

---

(١) تَاريخُ بَغْدَادَ للخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩)، تَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (١١/ ١٥٦)، والمختَصَرُ فِي أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥)، مِرآةُ الجِنانِ لليافِعِيِّ (١/ ٣٤٣).

(٢) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيّينَ للتّنوخِيّ (ص٩٩)، ومُعجَمُ الأُدباءِ (٤/ ٢١٢٢)، وَعَزَاهُ يَاقُوتُ إِلَى ابنِ خَالَوَيْه.

(٣) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٤)، وَالكامِلُ لابنِ الأثيرِ (٥/ ٢٢٢)، وتَاريخُ الإسلامِ (١٠/ ١٣٧)، والمختَصَرُ في أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥).

(٤) المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٩١)، والمختَصَرُ فِي أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥)، وَتاريخُ ابنِ الوَردِيِّ (١/ ١٩٨).

(٥) المنتظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٤)، ومِرآةُ الجِنانِ لليَافِعِيِّ (١/ ٣٤٢).

(٦) تَاريخُ الإِسلامِ للذَّهَبِيِّ (٩/ ٥٦٢)، ومِرآةُ الجِنانِ لليَافِعِيِّ (١/ ٢٤٠).

تَلامِيذُهُ:

لم يَذْكُرِ الـمُؤَرِّخُونَ لَهُ مِنَ التَّلامِيْذِ سِوَى عَدَدٍ يَسِيرٍ، وَهم:

* **قُطْرُبٌ**: مُحَمَّدُ بْنُ الْـمُسْتَنِيرِ، النَّحْوِيُّ الشَّهِيرُ[(١)].

* **الْأَخْفَشُ الْأَوْسَطُ**: سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ أَبُو الْحَسَنِ، عَبْقَرِيُّ النَّحْوِ[(٢)].

* **الزِّيَادِيُّ**: أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سُفْيَانَ النَّحوِيُّ الكَبِيْرُ، شَيْخُ ابْنِ دُرَيْدٍ وَالـمُبَرِّدِ[(٣)].

يُمْكِنُ أَنَّهُ كَانَ لَهُ تَلامِيذُ آخَرُونَ وَلكنَّهُم لَم يَبرزُوا وَلَم يَكُنْ لَهُم شَأْنٌ كَمَا لِهؤُلاءِ الـمَذكُورِيْنَ نُبُوغٌ وَصِيتٌ، فَلِذلِكَ طَوَتْهُم صَفحَاتُ التَّارِيخِ وَلَـمْ تُعَرِّجْ عَلَيْهِم، كَمَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَلامِيذُهُ قَلِيْلِيْنَ؛ لأَنَّهُ مَاتَ فِي سِنٍّ مُبَكِّرٍ، وَعَاشَ بَعضُ شُيوخِهِ بَعْدَهُ بِسَنَوَاتٍ طِوَالٍ، هذَا الأَمرُ مَحَلُّ بَحْثٍ وَتَحْقِيقٍ لكِنَّ التَّحقِيقَ فِيهِ لَا يَعُودُ عَلَيْنَا بِكَبِيْرِ فَائِدَةٍ.

شُرَّاحُ كِتَابِهِ:

شَرَحَ كِتَابَهُ جَمْهَرَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ الـمُحَقِّقِينَ فِي العَرَبِيَّةِ، وَصَرَفُوا فِيْهِ أَوْقَاتَهُم، شَرْحًا وَتَعلِيقًا وَتَحْشِيَةً، فَمِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ شَرَحُوهُ: (السِّيرافِيُّ، وَالأَخْفَشَانِ: الأَوْسَطُ وَالأَصْغرُ، وَأَبُو عَلِيٍّ الفَارِسِيُّ، وَابنُ السَّرَّاجِ، وَابنُ الضَّائِعِ، وَابنُ وَلَّادٍ، وَأَبُو عُمَرَ الجَرْمِيُّ، وَأَبُو الحَسَنِ الرُّمَّانِيُّ، وَأَبُو العَبَّاسِ الـمُبَرِّدُ، وَأَبُو العَلَاءِ الـمَعرِّيُّ، وَأَبُو

---

(١) الكَامِلُ لابنِ الأثيرِ (٥/ ٥٢٩).

(٢) البدايةُ والنِّهايةُ (١٣/ ٦٠٧).

(٣) ذَكَرَ يَاقُوتٌ أَنَّهُ قَرَأَ الكِتَابَ عَلَى سِيبَوَيْهِ وَلَمْ يُتِمَّهُ، وَلكِنْ فِيْهِ نَظَرٌ. مُعْجَمُ الأُدَبَاءِ (١/ ٦٧).

جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ، وَابنُ السِّيدِ البَطليوسِيّ، وَابنُ خروفٍ، وَابنُ عُصفُورٍ، وَالأَعْلَمُ الشَّنْتَمْرِيُّ، وَابنُ دُرُسْتُويْهِ، وَابنُ الحَاجِبِ، وَالزَّجَّاجِيُّ، وَالزَّمَخْشَرِيُّ، وَالشّلوبين: الصَّغيرُ وَالكَبيرُ، وَأبُو حَاتمِ السّجستَانِيُّ، وَأحمَدُ بنُ عِيسَى ثَعْلَبٌ، وَأبُو حَيَّانَ الأَنْدَلُسِيُّ، وَغيرُهُم كَثِيرُونَ جِدًّا مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِينَ شَرَحُوهُ مَا بينَ شَرْحٍ مُطَوَّلٍ وَبينَ تَعْلِيقٍ يَسيرٍ، وَتَحْشِيَةٍ.

فَهذَا خَيرُ دَليلٍ عَلَى عَظَمَةِ الكِتَابِ فِي نُفوْسِهِم وَمعرِفَةِ صَاحِبِهِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَعرِفَةً تَامَّةً.

كَيفَ تَوَجَّهَ إِلَى النَّحْوِ؟

هُنَاكَ اختِلافٌ فِي تَحْدِيدِ قِصَّةِ تَحوُّلِ سِيبَوَيْهِ إِلَى النَّحْوِ، وَلكِنَّ مَفَادَ جَمِيْعِ الرِّوَايَاتِ وَاحِد، وَهُوَ: أنَّ سِيبَوَيْهِ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ النَّحْوَ وَمَا كَانَ يَعْرِفُهُ، وَأَخطَأَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِهِ وَرَاجعَهُ فِيهَا شَيْخُهُ، فَحَزِنَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُحْسِنُهُ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَقَرَّرَ أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْهُ حَتَّى يُتْقِنَهُ، فَأَتْقَنَهُ وَصَارَ إِمَامَ النَّحْوِ الفَذَّ.

وَكَانَ يَسْتَمْلِي عَلَى حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ(١)، فَلَحَنَ يَوْمًا، فَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَأَنِفَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَزِمَ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ، فَبَرَعَ فِي النَّحْوِ، وَدَخَلَ بَغْدَادَ وَنَاظَرَ الْكِسَائِيَّ(٢).

وَتَفصِيلُ هذِهِ القِصَّةِ ذَكَرَهَا السِّيْرَافِيُّ عَنْ نَصْرِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ سِيبَوَيْهِ يَسْتَمْلِي عَلَى حَمَّادٍ، فَقَالَ حَمَّادٌ يَوْمًا: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مَا أَحَدٌ مِنْ**

---

(١) حَمَّادٌ هُوَ القَائِلُ: (مَنْ يَطْلُبُ الحَدِيثَ وَلَا يَعْرِفُ النَّحْوَ، مِثْلُ الحِمَارِ عَلَيْهِ مِخْلَاةٌ لَيْسَ فِيْهَا شَعِيرٌ). معجَمُ الأدباءِ (٣/ ١١٩٩).

(٢) البِدايةُ والنِّهايةُ (١٤/ ٢٧٤)، وَتَارِيخُ بَغْدَادَ للخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩).

أَصْحَابِي إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ عَلَيْهِ، لَيْسَ أَبَا الدَّرْدَاءِ[(١)]». فَقَالَ سِيبَوَيْهِ: لَيْسَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: فَقَالَ حَمَّادٌ: لَحِنْتَ يَا سِيبَوَيْهِ. فَقَالَ سِيبَوَيْهِ: لَا جَرَمَ لَأَطْلُبَنَّ عِلْمًا لَا تُلَحِّنُنِي فِيهِ أَبَدًا. فَطَلَبَ النَّحْوَ وَلَزِمَ الخَلِيْلَ[(٢)].

وَرَوَى عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مَعَاذٍ، قَائِلًا: جَاءَ سِيبَوَيْهِ إِلَى حَمَّادٍ فَقَالَ: أَحَدَّثَكَ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ، فِي رجلٍ (رَعُفَ)[(٣)] فِي الصَّلَاةِ فَانْصَرَفَ.

فَقَالَ لَهُ: أَخْطَأْتَ، إِنَّمَا هُوَ (رَعَفَ)»[(٤)].

فَانْصَرَفَ إِلَى الْخَلِيلِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: صَدَقَ حَمَّادٌ[(٥)].

فَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ كَانَتْ قِصَّةُ تَحَوُّلِهِ، فَإِنَّهَا تُعَلِّمُنَا دَرْسَ الهِمَّةِ فِي طَلَبِ العُلُومِ، وَعَدَمِ الِاسْتِسْلَامِ للصِّعَابِ، فَلَيْتَ شَبَابَنَا أَحْيَوا سُنَّةَ هؤلَاءِ العَبَاقِرَةِ، وَتَعَلَّمُوا مِنْهُمُ الهِمَّةَ العَالِيَةَ فِي بَذْلِ المَجْهُودِ لِتَذْلِيْلِ الصِّعَابِ وَالصُّعُودِ.

مَا وَرَدَ عنهُ مِنْ كَلَامِ العُلَمَاءِ:

إِنَّ سِيْبَوَيْهِ هُوَ المُفْرَدُ العَلَمُ فِي النَّحْوِ، يُرَى فَضْلُ تَحْقِيقِهِ وَبَرَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ مَحْوٍ، فَهُوَ القَمَرُ المُتَلَأْلِئُ لَيْلَةَ الصَّحْوِ، وَقَدْ كَثُرَ مَدْحُ الأَئِمَّةِ لَهُ وَتَنَاثَرَ، وَتَوَاطَأَ فِيهِ التَّقْرِيظُ

---

(١) لَيسَ استِثنائِيَّةٌ وَليست نَاقِصةً.

(٢) أخبَارُ النَّحويّين البَصْريّينَ للسّيرافِيِّ (ص٣٥)، وَتاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ مِنَ البَصْرِيّينَ والكُوفيِّينَ وَغيرِهم للتّنوخِيِّ (ص٧٩)، وَنُزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ (ص٤٢).

(٣) رَعفَ: مُثَلَّثُ العَيْنِ، فَالأَفْصَحُ: الفَتحُ، ثُمَّ الضَّمُّ فَالكَسْرُ.

(٤) معجَمُ الأدباءِ (٢/ ٧٢٩)، وَتَاريخُ الإسلامِ للذَّهَبِيِّ (٢٦/ ١٣٩).

(٥) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ مِنَ البَصْرِيّينَ والكُوفيِّينَ وَغيرِهِم للتّنوخِيِّ (ص٧٩)، معجَمُ الأدباءِ (٣/ ١١٩٩)، وَإنبَاهُ الرُّوَاةِ للقِفطِيِّ (١/ ٤١-٤٢).

وَتَكَاثر، فَمِنْ هذِهِ الكَلِمَاتِ العَطِرَةِ إِلَيْكَ نُبْذَةً يَسِيرَةً:

قَالَ السِّيرَافِيُّ: كَانَ كِتَابُ سِيْبَوَيْهِ لِشُهْرَتِهِ وَفَضْلِهِ عَلَماً عِنْدَ النَّحْوِيِّيْنَ، فَكَانَ يُقَالُ بِالبَصْرَةِ: (قَرَأَ فُلَانٌ الكِتَابَ) فَيُعْلَمُ أَنَّهُ كِتَابُ سِيْبَوَيْهِ، وَ(قَرَأْتُ نِصْفَ الكِتَابِ)، وَلَا يُشَكُّ أَنَّهُ فِي كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ[1].

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيْدَ الـمُبَرِّدَ إِذَا أَرَادَ مُرِيْدٌ أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ سِيْبَوَيْهِ يَقُوْلُ لَهُ: هَلْ رَكِبْتَ البَحْرَ؟. تَعْظِيْماً لَهُ وَاسْتِصْعَاباً لِـمَا فِيْهِ[2].

وَكَانَ يَقُوْلُ: لَمْ يُعْمَلْ كِتَابٌ فِي عِلْمٍ مِنَ الْعُلُوْمِ مِثْلُ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْكُتُبَ الـمُصَنَّفَةَ فِي الْعُلُوْمِ مُضْطَرَّةٌ إِلَى غَيرِهَا وَكِتَابُ سِيْبَوَيْهِ لَا يَحْتَاجُ مَنْ فَهِمَهُ إِلَى غَيْرِهِ[3].

وَقَالَ الـمَازِنِيُّ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ كَبِيْراً فِي النَّحْوِ بَعْدَ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ فَلْيَسْتَحِي[4].

وَقَالَ ابْنُ سَلَّامٍ: كَانَ سِيبَوَيْهِ النَّحْوِيُّ غَايَةً فِي الخَلْقِ، وَكِتَابُهُ فِي النَّحْوِ هُوَ الإِمَامَ فِيْهِ[5].

---

(١) أخبارُ النَّحويّينَ البَصْرِيّينَ للسّيرافيِّ (ص٤٠)، وَنزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٥)، وَنَقَلَهُ عنِ السّيرَافِيِّ ابنُ الجوزيِّ أيضًا، يُنظَرُ: المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٥).

(٢) أخبارُ النَّحويّينَ البَصْرِيّينَ للسّيرافيِّ (ص٤٠)، وَنزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٥)، وَنَقَلَهُ عنِ السّيرَافِيِّ ابنُ الجوزيِّ أيضًا، يُنظَرُ: المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٥).

(٣) خِزَانَةُ الأَدَبِ للبَغْدَادِيِّ (١٠/ ٣٧١).

(٤) أخبارُ النَّحويّينَ البَصْرِيّينَ للسّيرافيِّ (ص٤٠)، وَنزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٦)، وَنَقَلَهُ عنِ السّيرَافِيِّ ابنُ الجوزيِّ أيضًا، يُنظَرُ: المنتَظَمُ لابنِ الجوزيِّ (٩/ ٥٥).

(٥) نزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٥).

قَالَ الزَّجَّاجُ: إِذَا تَأَمَّلْتَ الأَمْثِلَةَ مِنْ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ تَبَيَّنْتَ أَنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللُّغَةِ[١].

قَالَ الجَاحِظُ: لَمْ يَكْتُبِ النَّاسُ فِي النَّحْوِ كِتَابًا مِثْلَهُ، وَجَمِيْعُ كُتُبِ النَّاسِ عَلَيْهِ عِيَالٌ[٢].

وَقَالَ أَيْضًا: أَرَدْتُ الخُرُوْجَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ الزَّيَّاتِ -وَزِيْرِ المُعْتَصِمِ-، فَفَكَّرْتُ فِي أَيِّ شَيْءٍ أُهْدِيْهِ لَهُ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَشْرَفَ مِنْ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ، فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ لَهُ: لَمْ أَجِدْ شَيْئًا أُهْدِيْهِ لَكَ مِثْلَ هذَا الكِتَابِ، وَقَدِ اشْتَرَيْتُهُ مِنْ مِيرَاثِ الفَرَّاءِ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا أَهْدَيْتَ لِي شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ[٣].

وَزَادَ ابْنُ خَلكَانَ: وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ التَّوَارِيْخِ أَنَّ الجَاحِظَ لَمَّا وَصَلَ إِلَى ابْنِ الزَّيَّاتِ بِكِتَابِ سِيْبَوَيْهِ أَعْلَمَهُ بِهِ قَبْلَ إِحْضَارِهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزَّيَّاتِ: أَوَ ظَنَنْتَ أَنَّ خِزَانَتَنَا خَالِيَةٌ مِنْ هذَا الكِتَابِ؟ فَقَالَ الجَاحِظُ: مَا ظَنَنْتُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهَا بِخَطِّ الفَرَّاءِ، وَمُقَابَلَةِ الكِسَائِيِّ، وَتَهْذِيبِ عَمْرِو بْنِ بَحْرٍ الجَاحِظِ -يَعْنِي: نَفْسَهُ-، فَقَالَ ابْنُ الزَّيَّاتِ: هذِهِ أَجَلُّ نُسْخَةٍ تُوْجَدُ وَأَعَزُّهَا، فَأَحْضَرَهَا إِلَيْهِ، فَسَرَّ بِهَا وَوَقَعَتْ مِنْهُ أَجْمَلَ مَوْقِعٍ[٤].

---

(١) إِنبَاهُ الرُّوَاةِ لِلقِفْطِيِّ (١/ ٤١-٤٢).

(٢) تَارِيخُ بَغْدَادَ لِلخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩)، نزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٥)، مِرآةُ الزَّمانِ (١/ ٣٤١).

(٣) تَارِيخُ بَغْدَادَ لِلخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩)، نزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٥)، مِرآةُ الزَّمانِ (١/ ٣٤١).

(٤) وَفَيَاتُ الأَعيانِ لابنِ خلكانَ (٣/ ٤٦٣). فَفِي هذِهِ القِصَّةِ مَعَ عَظَمَةِ كِتَابِ سِيْبَوَيْهِ فِي نُفُوسِ النَّاسِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَبْعَدُ خَلُوُّ مَكْتَبَةٍ مِنْهُ، يُسْتَفَادُ مِنْهَا أيضًا أَنَّ الوزرَاءَ وَالسَّلاطِيْنَ فِي التَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ كَانَتْ لَهُمْ ثَقَافَةٌ عَالِيَةٌ وَمَرْتَبَةٌ مَرْمُوقَةٌ سَنِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُونُوا كَمَا نَرَاهُم اليَوْمَ!.

وَقَالَ ابنُ خَلكَانَ: كَانَ أَعْلَمَ الـمُتَقَدِّمِينَ وَالـمُتَأَخِّرِيْنَ بِالنَّحْوِ، وَلَمْ يُوْضَعْ فِيْهِ مِثْلُ كِتَابِهِ(١).

وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ: أَجَلُّ الكُتُبِ الـمُصَنَّفَةِ فِي النَّحْوِ وَاللُّغَةِ، كِتَابُ سِيْبَوَيْهِ وَكِتَابُ العَيْنِ(٢).

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ الأَنْدَلُسِيُّ: «فَجَدِيرٌ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى عِلْمِ التَّفْسِيرِ، وَتَرَقَّتْ إِلَى التَّحْقِيقِ فِيهِ وَالتَّحْرِيرِ، أَنْ يَعْتَكِفَ عَلَى كِتَابِ سِيبَوَيْهِ، فَهُوَ فِي هَذَا الْفَنِّ الْـمُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَالْـمُسْتَنَدُ فِي حَلِّ الْـمُشْكِلَاتِ إِلَيْهِ»(٣).

قَالَ ابنُ تَيمِيَةَ: فَكِتَابُ سِيبَوَيْهِ مَثَلاً مِمَّا لا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ عَامَّةُ الخَلْقِ»(٤).

وَقَالَ: «وَكَذَلِكَ النُّحَاةُ مِثْلُ سِيبَوَيْهِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مِثْلُ كِتَابِهِ وَفِيهِ حِكْمَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ»(٥).

وَقَالَ أَيْضًا: «فَإِنَّ كِتَابَ سِيبَوَيْهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يُصَنَّفْ بَعْدَهُ مِثْلُهُ»(٦).

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: وَيُقَالُ: بَرَزَ مِنْ أَصْحَابِ الْخَلِيلِ أَرْبَعَةٌ: النَّضْرُ، وَسِيبَوَيْهِ، وَعَلِيُّ بْنُ نَصْرٍ، وَمُؤَرِّجُ بْنُ عَمْرٍو السَّدُوْسِيُّ، وَكَانَ أَبْرَعُهُمْ فِي النَّحْوِ: سِيبَوَيْهِ، وَغَلَبَ عَلَى

---

(١) وَفَيَاتُ الأَعيانِ لابنِ خلكانَ (٣/ ٤٦٣)، المختَصَرُ فِي أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥).
(٢) الـمَحصُولُ للرَّازِيِّ (١/ ٢١٠).
(٣) البَحْرُ الـمُحِيطُ (١/ ١١).
(٤) النُّبُوَّاتُ لِابْنِ تَيْمِيَةَ (١/ ١٣٢).
(٥) مَجْمُوعَةُ الفَتَاوَى (٩/ ٤٦).
(٦) مَجْمُوعَةُ الفَتَاوَى (١١/ ٣٧٠).

النَّضْرِ اللُّغَةُ، وَعلَى مُؤَرِّجٍ الشِّعْرُ وَاللُّغَةُ، وَعلَى عَلِيٍّ الْحَدِيثُ[(١)].

قَالَ أَبُو العَلَاءِ الـمَعَرِّيُّ مَادِحًا إِيَّاهُ وَجَمَاعَةً مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ:

[مِنَ الوَافِرِ]

تَـوَلَّى سِـيْبَوَيْهِ وَجَاشَ سَـيبٌ ... مِـنَ الأَيَّـامِ فَاختَـلَّ الخَلِيلُ
وَيُـونُسُ أَوحَشَـتْ مِنهُ المَغَانِي ... وَغَيـرُ مُصَابِهِ النَبَأُ الجَلِيلُ
أَتَتْ عِلَلُ الـمَنُونِ فَما بَكَاهُم ... مِـنَ اللَّفظِ الصَّحِيحُ وَلَا العَلِيلُ
وَلَـو أَنَّ الكَلامَ يُحِسُّ شَيئًا ... لَكَانَ لَـهُ وَرَاءَهُـمُ أَلِيلُ
وَدَلَّتْهُم إِلَى حُفَرٍ أَيَادٍ ... لَنَا بِوُرُودِهَا وَضَحَ[(٢)] الدَّلِيلُ

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِيْهِ:

[مِنَ الوَافِرِ]

أَلَا صَلَّى الإِلَهُ صَلَاةَ صِدْقٍ ... عَلَى عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بنِ قَنْبَرْ
فَإِنَّ كِتَابَهُ لَمْ يَغْنِ عَنهُ ... بَنُو قَلَمٍ وَلَا أَبْنَاءُ مِنْبَرْ[(٣)]

قَالَ السَّخَاوِيُّ فِي وَصفِ سِيْبَوَيْهِ وَزَيْدِ بْنِ الحَسَنِ الكِنْدِيِّ:

[مِنَ الرَّمَلِ]

لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِ عَمْرٍو مِثْلُهُ ... وَكَذَا الكِنْدِيُّ فِي آخِرِ عَصْرِ
فَهُمَا زَيْدٌ وَعَمْرٌو إِنَّمَا ... بُنِيَ النَّحْوُ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرِو[(١)]

---

(١) تَارِيخُ الإِسلام (١٠/ ١٧٣).
(٢) يَقُولُ العَامَّةُ: وَضُح، بِالضَمِّ، وَالصَّحِيحُ بالفَتْح، وَاللهُ أَعلَمُ.
(٣) بُغيَةُ الوعَاةِ للسُّيوطِيِّ (٢/ ٢٣٠)، وَأَزْهَارُ الرِّيَاضِ فِي أَخْبَارِ القَاضِي عِيَاضٍ (٣/ ٢٩٨).

صِفَاتُهُ الخُلُقِيَّةُ:

مِنْ هذِهِ الصِّفَاتِ الجَمِيْلَةِ، حُسنُ ظَنِّهِ بِتَلاميذِهِ وَإِخْوَانِهِ، وَالتَّوَاضُعُ لَهُم مِن غَيْرِ كِبْرِيَاءٍ، أَوْ: تَرَفُّعٍ، وَفِي هذَا الجَانِبِ يُرْوَى أَنَّ الأَخْفَشَ جَاءَهُ يَوْمًا يُنَاظِرُهُ بَعْدَ أَنْ بَرِعَ، فَقَالَ لَهُ الأَخْفَشُ: إِنَّمَا نَاظَرْتُكَ لِأَسْتَفِيْدَ مِنْكَ، فَقَالَ لَهُ سِيبَوَيْهِ: أَتَرَانِي أَشُكُّ فِي ذلِكَ؟[٢].

وَذَكَرَ الأَزْهَرِيُّ عنهُ مَوْقِفًا يَدُلُّ عَلَى تَوَاضُعٍ وَدِينٍ: وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: الاسمُ غيرُ المسمَّى، قيل لَهُ: فَمَا قولُك؟ فقَالَ: لَيْسَ لي فِيهِ قَول[٣].

وَنَقَلَ ابنُ دُرَيْدٍ تَوَقُّفَهُ عَمَّا لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يُحْسِنُهُ فَقَالَ: وَقَالَ سِيبَوَيْهِ فِي كِتَابِه: (جِلْحِطاء)، بِالْحَاء والطَّاءِ، فَلَا أَدْرِي مَا أَقُولُ فِيهِ[٤].

وَمَعَ هذَا فَإِنَّ كُتُبَ التَّارِيْخِ لَمْ تُعْطِ هذَا الإِمَامَ العَلَمَ حَقَّهُ فِي ذِكْرِ حَيَاتِهِ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ.

وَفَاتُهُ:

تُوفِّيَ الإِمَامُ وَلَم يُعَمَّرْ كَثِيرًا كَمَا ذَكَرَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سُلَيْمَانَ يَقُولُ: أهلُ النَّحْوِ فِيمَا نَعْلَمُ مُعَمَّرُونَ، وَلَا يَكْسِرُ هذَا عَلَيْنَا إِلَّا سِيبَوَيْهِ[٥].

---

(١) سِيَرُ أعلامِ النُّبلاءِ (٢٢/ ٣٩).

(٢) نزهَةُ الألباءِ فِي طبقاتِ الأدباءِ لِابنِ الأنبارِيِّ (ص٥٧).

(٣) تَهذِيبُ اللُّغَةِ للأزهرِيِّ (١٣/ ٧٩).

(٤) جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ (٣/ ١٢٣٣).

(٥) تَهذِيبُ الأَسماءِ واللُّغَاتِ (٢/ ٢٧٤).

مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسعِينَ وَمَائَةٍ[١]، فِي عُمْرٍ يُناهِزُ اثْنَيْنِ وَثَلاثِينَ عَامًا، وَقِيلَ: أربَعِينَ، وَقِيلَ: غَيرَ ذلِكَ[٢]. وَقَالَ ابنُ دُرَيْدٍ: مَاتَ سِيْبَوَيْهِ بِشِيْرَازَ، وَقَبْرُهُ بِهَا[٣]. وَقَالَ ابنُ قَانِعٍ: مَاتَ بِالبَصْرَةِ[٤].

قَالَ القَاضِي أَبُو المَحَاسِنِ التّنوخِيُّ: دَخَلَ إِبْرَاهِيْمُ النَّظَّامُ عَلَى سِيبَوَيْهِ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا بِشْرٍ؟ قَالَ: أَجِدُنِي تَرْحَلُ عَنِّي الْعَافِيَةُ بِانْتِقَالٍ، وَأَجِدُ الدَّاءَ يُخَامِرُنِي بِحُلُولٍ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ الرَّاحَةَ مُنْذُ البَارِحَةِ.

قُلْتُ: فَتَشْتَهِي شَيْئًا؟

قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَشْتَهِي أَنْ أَشْتَهِي.

فَلَمَّا كَانَ مِنْ غَدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، دَخَلْتُ إِلَيْهِ وَأَخُوْهُ يَبْكِي، وَقَدْ قَطَرَتْ دَمْعَةٌ مِنْ دُمُوْعِهِ عَلَى خَدِّهِ، فَقُلْتُ كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

يَسُرُّ الفَتَى مَا قَد تَقَدَّمَ مِن بَقَا إِذَا عُرِفَ الدَّاءُ الَّذِي هُوَ قَاتِلُهْ

---

(١) وَاختَارَ الذَّهَبِيُّ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَمَائَةً وَرَجَّحَهُ، يُنظَرُ: العِبرُ في خَبَرِ مَنْ غَبَرَ (١/ ٢١٥).

(٢) تَارِيخُ بَغْدَادَ للخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩)، الكَامِلُ لابنِ الأثيرِ (٥/ ٤١٠)، والمختَصَرُ فِي أخبارِ البَشَرِ (٢/ ١٥)، تاريخُ ابنِ الوَردِيِّ (١/ ١٩٦)، وَمِرآةُ الزَّمانِ (١/ ٢٧١)، وَاختَارَ القَاضِي التّنوخِيُّ الخَمْسِينَ، يُنْظَرُ: تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحوِيِّينَ مِنَ البَصْرِيِّينَ والكُوفيِّينَ وَغيرِهِم للتّنوخِيِّ (ص١١٠)، وَقَالَ (ص١١٢): (وَلَيْسَ قولُ مَنْ قَالَ: عُمْرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً بِشَيْءٍ، هَذَا مُحالٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى غَيْرِ تَأَمُّلٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ).

(٣) تَارِيخُ بَغْدَادَ للخَطِيبِ البَغْدَادِيِّ (١٤/ ٩٩)، مِرآةُ الزَّمانِ (١/ ٢٧١).

(٤) مِرآةُ الزَّمانِ (١/ ٢٧١).

يُرْوَى: بِرَفْعِ (الدَّاء) وَنَصْبِهِ..قَالَ النَّظَّامُ: ثُمَّ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ[1].

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قَرَأْتُ عَلَى قَبْرِ سِيبَوَيْهِ بِشِيْرَازَ: (هَذَا قبرُ سِيبَوَيْهِ). وَعَلِيهِ مَكْتُوبٌ هَذِه الأَبْيَاتُ:

[مِنَ الكَامِلِ]

ذَهَبَ الأَحِبَّةُ بَعْدَ طُولِ تَزَاوُرٍ ... وَنَأَى الْمَزَارُ فَأَسْلَمُوكَ وَأَقْشَعُوا
تَرَكُوكَ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ بِقَفْرَةٍ ... لَمْ يُؤْنِسُوكَ وَكُرْبَةً لَمْ يَدْفَعُوا
قُضِيَ الْقَضَاءُ وَصِرْتَ صَاحِبَ حُفْرَةٍ ... عَنْكَ الأَحِبَّةُ أَعْرَضُوا وَتَصَدَّعُوا[2]

وَيُرْوَى أَنَّهُ أَنْشَدَ حَالَ احتِضَارِهِ وَبُكَاءِ أَخِيْهِ عَلَيْهِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أُخَيَّيْنِ كُنَّا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا ... إِلَى الأَمَدِ الأَقْصَى وَمَنْ يَأْمَنُ

وَلَمَّا مَرِضَ سِيبَوَيْهِ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيْهِ، جَعَلَ يَجُوْدُ بِنَفْسِهِ وَيَقُولُ:

[مِنَ المُتَقَارِبِ]

يُؤَمِّلُ دُنْيَا لِتَبْقَى لَهُ ... فَمَاتَ المُؤَمِّلُ قَبْلَ الأَمَلْ

---

(١) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحويِّينَ مِنَ البَصْرِيِّينَ والكُوفيِّينَ وَغيرِهم للتّنوخيِّ (ص١٠٦).

(٢) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحويِّينَ للتّنوخيِّ (ص١٠٩)، ومُعجَمُ الأُدباءِ (٤/ ٢١٢٣).

(٣) تاريخُ العُلَمَاءِ النَّحويِّينَ للتّنوخيِّ (ص١٠٩)، نزهَةُ الألباءِ فِي طبقَاتِ الأدباءِ لِابنِ الأَنبَارِيِّ (ص٥٧)، ومُعجَمُ الأُدباءِ (٥/ ٢١٢٦).

حَثِيْثًا يُرَوِّي أُصُوْلَ الفَسِيْل ... فَعَاشَ الفَسِيْلُ وَمَاتَ الرَّجُلْ (١)

أَلَا عَلَيْكَ رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى أَيُّهَا الإِمَامُ الأَلْمَعِيُّ، أَيُّهَا البَحْرُ الَّذِي جُدْتَ عَلَيْنَا بِعُلُومِكَ وَمَعَارِفِكَ، رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَجَعَلَ مُتَقَلَّبَكَ وَمَثْوَاكَ أَعْلَى العِلِيِّيْنَ فِي الجِنَانِ، وَلَا تَجُودُ القَرِيحَةُ أَنْ نَقُولَ فِيكَ أَجْمَلَ مِمَّا قَالَهُ الحَبْرُ المُبَجَّلُ أَبُو حَيَّانَ الأَنْدَلُسِيُّ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَقَى اللهُ قَبراً سِيْبَوِيهِ ثَوَى بِهِ ... مُلِثُّ الغَوادِي رِيقًا ثُمَّ رَيِّقَا

وَبَوَّأَهُ دارَ المَقامَةِ فِي غَدٍ ... بِمَا كَانَ أَسْدَى مِنْ عُلُومٍ وَحَقَّقَا

---

(١) مُعجَمُ الأُدباءِ (٥/ ٢١٢٦).

تَعلِيقَةٌ عَلَى مَسْأَلَة الـمُقَارَنَة بَيْنَ اللُّغَات

إِنَّ مِنْ أَقْبَح مَا نَرَاهُ فِي هذِهِ الأَيَّامِ الحُبْلَى بِالفِتَنِ وَالآهَاتِ، وَالَّذِي نُشَاهِدُهُ عِنْدَ كَثِيْرٍ مِمَّنْ نَصبَ نَفْسَهُ للمُقَارَنَةِ بيْنَ اللُّغَاتِ، هُوَ تَحامُلٌ بَارِد، وَجهْلٌ وَارِد، فِي أَمْرِ هذِهِ الـمُقَارَنَة، كَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَار فَضْل لُغَةٍ، وَجَمَالِيَّاتِهِ وَخَصَائِصِهَا، إِلَّا بالتَّجَنِّي عَلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى عِنْدَ الـمُوَازَنَة، فَمَثَلًا تَجِدُهُ يَزْدَرِي بِالإِنْجليزِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ اللُّغَاتِ، عِنْدَمَا يُرِيْدُ إِبْرَازَ فَضْلِ العَرَبِيَّةِ، وَيَشنُّ عَلَيْهَا حَرْبًا جَائِرَةً، وَيَتَعَصَّبُ عَلَيْهَا وَيَحْقِدُ إِلَى حَدٍّ يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْ ثِيَابِهِ!

فَإِنَّكَ إِذَا تَكَلَّمْتَ عَنْ أَيَّةِ لُغَةٍ وَأَرَدْتَ بيَانَ فَضَائِلِهَا وَخَصَائِصِهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُلْزَمٌ بِبَيَانِ أَوْجُهِ التَّمييز، وَإِبْرَازِ قُوَّةِ اللُّغَةِ الـمُفَضَّلَةِ لَدَيْكَ، وَلستَ مُلْزَمًا بشَنِّ حَرْبٍ قَاسِيَةٍ عَلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى، فَنحنُ نُؤمِنُ بِأَنَّ العَرَبِيَّةَ أَغْنَى لُغَاتِ العَالَم، وَأَقْوَاهَا وَأَجْمَلُهَا عَلَى حَدِّ اطِّلَاعِنَا، وَالبَحْثِ فِي هذَا الجَانِبِ، وَلكِنَّ التَّسلِيمَ لهذِهِ النَّتِيْجَةِ لَا يَعْنِي اختِلاقَ عَدَاوَةٍ حَمْقَاءَ عَلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَمِنْ جَرَّائِهَا نكونُ سَببًا فِي تَشْوِيهِ صُورَةِ العَرَبِيَّةِ عِنْدَ الآخَرِيْنَ، بَدَلًا مِنْ أَنْ نُبرِزَ جَمَالِيَّاتِهَا وَمَزَايَاهَا وَنُحَبِّبهَا إِلَيْهِم.

وَقَدْ فَعَلَ بَعْضُ النَّاسِ هذَا وَللأَسَفِ الشَّدِيْدِ، وَنَرَاهُ لَا يَمْدَحُ العَرَبِيَّةَ إِلَّا بِالازْدِرَاءِ بِاللُّغَاتِ الأُخْرَى وَالنَّيْلِ مِنْهَا، سَوَاءٌ إِنْ كَانَ هؤلَاءِ بَدَؤُوا بِالِازدِرَاءِ، أَمْ: أَصْحَابُ اللُّغَاتِ الأُخْرَى بَدَؤُوا بِهِ، فعَلَى أَيَّةِ حَالٍ أَقُولُ: إِنَّ العَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى هذِهِ النَّزَالَةِ فِي الـمُسْتَوَى؛ لأَنَّهَا بِحَالَةٍ مِنَ القُوَّةِ وَالعَبْقَرِيَّةِ تُؤهِّلُهَا لِتَبْقَى عَلَى رأسِ

اللُّغَاتِ، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى التَّعَرُّضِ لِلُّغَاتِ الأُخْرَى، حَيثُ يُنْتِجُ الحِقْدَ وَالضَّغِينَةَ عَلَى العَرَبِيَّةِ، وَلَا يأتِي بِخَيرٍ أَبَدًا.

وَلَا سِيَّمَا يَجِبُ أَنْ نَرْتَكِزَ عَلَى نُقْطَةٍ مُهِمَّةٍ جِدًّا، وَهِيَ غَائِبَةٌ عَنْ أَذْهَانِ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ يُعْنَونَ بِأَمْرِ المُقَارَنَةِ وَالمُوَازَنَةِ، وَهِيَ: أَنَّنَا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ أَصْلَ اللُّغَاتِ تَوقِيفٌ(١)، وَإِنَّهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى، فَيَكُونُ الطَّعْنُ فِيهَا كَالطَّعْنِ فِي الخِلْقَةِ! فَلِذلِكَ يَجِبُ الحَذَرُ مِنْ ذلِكَ وَلَا يُعْمِينَا التَّعَصُّبُ وَالتَّعَنُّتُ، واللهُ تَعَالَى هُوَ المُوَفِّقُ.

هُنَا يَجِبُ أَنْ نَذْكُرَ مَلْحُوظَةً مُهِمَّةً: يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ لَنَا: لِمَاذَا ذَكَرْتَ أَنْتَ أيضًا بَعْضَ الخَلَلِ فِي اللُّغَةِ الإِنجلِيزِيَّةِ وَأَشَرْتَ إِلَيْهَا فِي كِتَابِكَ؟ مَا دُمْتَ لَا تَرْضَى بِالهُجُومِ عَلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى لِبَيَانِ قُوَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ، فَلِمَاذَا فَعَلْتَ أَنْتَ؟

أَقُولُ: هُنَاكَ فرقٌ بَيْنَ الهُجُومِ وَالمُوَازَنَةِ وَالمُقَارَنَةِ، فَأَنَا قَصَدْتُ المَقَارَنَةَ دُونَ الهُجُومِ وَالتَّعَدِّي، وَكُنْتُ مُضطَرًّا لِذلِكَ أَحيَانًا؛ لأَنَّ المُهَنْدِسَ -هَدَاهُ اللهُ تَعَالَى وَأَرْشَدَهُ- حَاوَلَ كَثِيرًا أَنْ يُصَوِّرَ الإِنْجلِيزِيَّةَ كَلُغَةٍ عَصْمَاءَ قَوِيَّةٍ عَبقَرِيَّةٍ فَذَّةٍ، وَكَأَنَّهَا لَا

---

(١) قَالَ السُّيوطِيُّ فِي: (الكَوْكَبِ السَّاطِعِ) (١/ ١٨٨) ط: دار السَّلامِ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

تَوْقِيفُ اللُّغَاتُ عِنْدَ الْأَكْثَرِ ... وَمِنْهُمُ ابْنُ فُورَكٍ وَالْأَشْعَرِي
عَلَّمَهَا بِالْوَحْيِ أَوْ: بِأَنْ خَلَقْ ... عِلْمًا ضَرُورِيًّا وَصَوْتًا قَدْ نَطَقْ
وَبِاصْطِلَاحٍ قَالَ ذُو اعْتِزَالِ ... وَالْعِلْمُ مِنْ قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ
وَقِيلَ: مَا اسْتُغْنِيَ فِي التَّعْرِيفِ ... مُحْتَمِلٌ وَغَيْرُهُ تَوْقِيفِي
وَقِيلَ: عَكْسُهُ وَقَوْمٌ وَقَفُوا ... وَقَوْمُ التَّوْقِيفُ ظَنٌّ أَلِفُوا

تَحْتَمِلُ نَقْدًا فِي قَوَاعِدِهَا مِنْ حَيثُ العَقْلَنَةُ وَالرَّصَانَةُ، وَجَعَلَ قُوَّةَ قَوَاعِدِهَا وَعَقْلَنَتَهَا سَبَبًا لِانْتِشَارِهَا وَسِيَادَتِهَا وَرِيَادَتِهَا، فَأَنَا كُنْتُ مُضْطَرًّا أَنْ أَدْفَعَ هذِهِ الـمُغَالَطَةَ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ فِي عَدَمِ الإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِ جِهَاتِ الخَلَلِ فِي هذِهِ اللُّغَةِ، لِرَدِّ كَلام الـمُهَنْدِسِ، وَإِلَّا فَلَوْ كُنَّا بِصَدَدِ انْتِقَاصِ الإِنْجلِيزِيَّةِ، وَتَوْهِيْنِ أَمْرِهَا بينَ النَّاسِ، لَكَانَ لَدَيْنَا مَزِيْدٌ مِنَ الكَلَامِ، وَلكِنَّنِي أُكَرِّرُ مَقَالَتِي مَرَّةً أُخْرَى وَأَقُولُ: هذَا العَمَلُ لَيْسَ عَمَلَ رَجُلٍ حُرٍّ شَرِيْفٍ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُؤْذِيَ غَيْرَهُ بالتَّجَنِّي عَلَى لُغَتِهِ الَّتِي عَاشَ مَعَهَا جَمِيْعَ حَيَاتِهِ، وَكَتَبَ بِهَا بَدِيْعَ مَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَكْتُبَ بِهَا، وَعَبَّرَ بِهَا عِبَارَاتِهِ الرَّائِقَةَ الرَّقْرَاقَةَ.

كَلِمَةُ اعتِذَارٍ إِلَى الـمُهَنْدِسِ زَكَرِيَّا أوزون

قَطَعْنَا مَعَ الـمهندِسِ شَوْطًا كَبِيرًا، وَعِشْنَا مَعَ كُتُبِهِ كَثِيرًا، وَرَدَدْنَا عَلَى ثَلَاثَةٍ مِنْهَا رَدًّا وَفِيرًا، وَأَسْمَيْنَاهَا: (الجِنَايَةَ عَلَى البُخَارِيِّ)، وَ(الجِنَايَةَ عَلَى الشَّافِعِيِّ)، وَ(الجِنَايَةَ عَلَى سِيْبَوَيْهِ)، وَكَتَبْنَا صُحُفًا كَثِيرَةً فِي النَّقْدِ وَالحِوَارِ وَالـمُنَاقَشَةِ، وَقَلَّبْنَا الاِسْمَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ فِي الوَاقِعِ؛ لأنَّ هـؤلاءِ الأَئِمَّةَ لَمْ يَرْتَكِبُوا جُرْمًا وَلَا جِنَايَةً، بَلْ: أوزُونُ هُوَ الَّذِي جَنَى عَلَيْهِم.

وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْكُم مَا قَامَ بِهِ الـمُهندِسُ فِي كُتُبِهِ الثَّلاثَةِ، مِنْ خِيَانَاتٍ وَجِنَايَاتٍ، بِبَتْرِ النَّصِّ وَقَصِّ فَصِّهِ، وَالتَّحرِيفِ فِيْهِ، مَعَ التَّحَامُلِ الشَّدِيْدِ، وَرُعُونَةٍ فِي الطَّبْعِ، وَغلاظَةٍ فِي اللِّسانِ، وَقَسَاوَةٍ فِي القَلْبِ، وَكَانَ مَعَ عُلَمَائِنَا وَجُهُودِهِمْ كَالـمُبَشَّرِ بالأُنْثَى فِي الجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى وَصَلَ بِهِ الأَمرُ إِلَى وَضْع آيَةٍ وَنِسْبَتِهَا إِلَى القُرآنِ الكَرِيْمِ، وَمَعَ هـذَا كُلِّهِ حَاوَلَ اسْتِفْزَازَ مَشَاعِرِنَا بالاِزْدِرَاءِ بِعُقُولِ كِبَارِ العُلَمَاءِ وَالإِسَاءَةِ إِلَيْهِم، وَتَمجِيدِ الصَّلِيبِيِّنِ فِي مَعْرِضِ الطَّعْنِ فِي الـمُسْلِمِينَ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ، بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرَى، وَيَتَكَرَّرُ ذلكَ مِنْهُ مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ.

فَنَحْنُ بَشَرٌ وَلَسْنَا مَعْصُومِينَ، وَلَا مَلَائِكَةً، فَمُمْكِنٌ أَنْ قَدِ اعْتَرَتْنَا شِدَّةْ، وَاعْتَلَتْنَا حِدَّةْ، لِمَا حَصَلَ لَنَا مِنْ خَدْشٍ لِلمَشَاعِرْ، وَكَدْشٍ للشَّعَائِرْ، وَتَطَاوُلٍ عَلَى الأَكَابِرْ.

وَإِذَا أَسَأْتُ فَأَعتَذِرُ إِلَيْهِ وَلا أَخَافُ مِنْ طَعْنٍ وَلَا مِنْ لَمْزٍ أَوْ: غَمْزٍ، وَغَايَتِي فِي هذَا الدَّرْبِ هُوَ رِضَا مَوْلَايَ جَلَّ جَلالُهُ، وَإِذَا ظَفَرْتُ بِهِ فَقَدْ ظَفَرْتُ بِكُلِّ شَيءٍ، وَيَا فَرحَةَ يَوْمِ غَدٍ، أَمَّا إِذَا خَسِرْتُ اللهَ تَعَالَى بأَنْ كَتَبْتُ وَرَدَدْتُ مِنْ أَجْلِ الشُّهْرَةِ، وَالظُّهُورِ، فَيَا

تَرْحَةَ يَوْمِ غدٍ، وَأَظُنُّنِي لَـمْ أَكْتُبْ إِلَّا لِوَجْـهِ اللهِ تَعَـالَى، فَلِذلِكَ يَسْهُلُ عَلَيَّ الِاعتِذَارُ وَالِاعتِرَافُ بالأَخْطَاءِ، وَلَا أَسْتَحيي مِنَ الِاعتِذَارِ مَهْمَا كَانَ، وَلَا أَخَافُ مِنَ الِاعتِرَافِ بِالزَّلَلِ، فَاللهُ تَعَالَى هُوَ مُنْتَهَى آمَالِ العَابِدِيْنَ، وَغَايَةُ جُهُودِ العَارِفِيْنَ، وَلَعَلَّ فِيْه عِبْرَةً لِلمُعْتَبِرِ، فَلَا أَبِيْعُ آخِرَتِي بِدُنيَا دَنِيَّةٍ مَا حُيِّيتُ أَبْدًا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَسْتُ كَمَنْ يَشْرِي بِأُخْرَاهُ مَنْزِلًا ... يَزُولُ، وَعَيْشًا زَائِلًا بَيْعَ جَاهِلِ

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي القَاصِرَةَ، وَلَا أُبَرِّرُ لَهَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ الـمَوْلَى، وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا إِنْ أَسَأتُ إِلَيْكُمْ بِكَلامٍ، يَعْلَمُ اللهُ تَعَالَى لَيْسَ أَحْمِلُ فِي قَلْبِي لَكُمْ إِلَّا الـمَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ وَإِرَادَةَ خَيْرَي الدَّارَيْنِ(١).

---

(١) كُتِبَتْ هذِهِ الكُتُبُ الثَّلَاثَةُ فِي الرَّدِّ عَلَى الـمُهَنْدِسِ فِي عَجَلَةٍ بَالِغَةٍ وَبِمُدَّةٍ يَسِيرَةٍ، فَالكِتَابُ يَعْتَرِيهِ خَطَأٌ وَغَلَطٌ حَتَّى وَإِنْ بَذَلَ مُؤَلِّفُهُ فِيهِ كُلَّ جُهْدِهِ وَطَاقَتِهِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الأَمْرُ عَلَى اسْتِعْجَالٍ، وَلَا أُبَرِّئُ نَفْسِي بِأَنْ أَنسِبَ كُلَّ زَلَّةٍ -إِنْ وُجِدَتْ- إِلَى الِاسْتِعْجَالِ، بَلْ أَعْتَرِفُ أَيضًا بِجَهْلِي وَعَدَمِ خِبْرَتِي وَسُوءِ حَالِي، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ.

كَلِمَةٌ خِتَامِيَةٌ حَوْلَ رُدُودِي الثَّلاثَة

نَحْمَدُ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ مَنَّ عَلَيْنَا بِرَدِّ هذِهِ الكُتُبِ الثَّلاثَةِ، وَجَعَلَنَا ذَابِّيْنَ عَنِ العُلُومِ الإِسْلامِيَّةِ: (السُّنَّةِ، وَالتَّارِيخِ، وَالفِقْهِ، وَأُصُولِ الفِقْهِ، وَاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ)، فَنسألُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُجَنِّبَنَا عَوَائِقَ العِلْمِ وَشَوَائِبَهُ، وَأَنْ لَا يُحَرِّمَنَا أَجْرَ الجُهْدِ وَالمَشَقَّةِ، وَلَا يَجْعَلَ حَظَّنَا التَّعَبَ وَالنَّصَبَ مِنْ غَيْرِ أَجْرٍ، أَوْ: ثَوَابٍ، كَمَا أَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَهُ نَافِعًا قَابِلًا للقَبُولِ، وَلَائِقًا بِشأنِ هذِهِ العُلُومِ، وَلَمْ نَكُنْ مُحَامِيًا فَاشِلًا فِي هذِهِ القَضِيَّةِ الصَّادِقَةِ.

فَالقَضِيَّةُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِي إِبْرَازُ حَقِّهَا وَالدِّفَاعُ اللَّائِقُ عَنْهَا، وَكَمْ مِنْ مُحَامٍ يَتَلَعْثَمُ لِسَانُهُ فِي إِبْرازِ قَضَيا صَادِقَةٍ، وَلكِنَّهَا تَبْقَى فِي ذَاتِهَا قَضَايَا حَقِيقِيَّةً صَادِقَةً، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ المُحَامِي نُصْرَتَهَا وَإِرْجَاعَ حَقِّهَا إِلَيْهَا!

وَإِنَّنِي لَمْ أَقْصِدْ مِنْهَا سِوَى إِبْرازِ الحَقِّ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ، وَرَفْعِ الحِجَابِ عَنِ الَّذِينَ يُشَوِّهُونَ صُورَتَهُ وَيَعْبَثُونَ بالحَقَائِقِ، فَإِذَا أَخْطَأْتُ فِي شَيءٍ مِنْهُ نَبِّهُونِي عَلَيْهِ أَكُنْ شَاكِرًا لَكُم وَأَرْجِعْ عَنهُ، فَلَا أُصِرُّ عَلَى رَأيي بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَفِي خِتَامِ هذَا الكَلامِ أَوَدُّ أَنْ أُشِيْرَ إِلَى نُقْطَةٍ مُهِمَّةٍ للمُسْلِمِيْنَ جَمِيْعًا، وَهِيَ: أَنَّهُ لَيسَ بالضَّرُورَةِ أَنْ نَرُدَّ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ يَكتُبُهُ المُنْحَرِفُونَ الزَّائِغُونَ، فَلَوْ فَعَلْنَا لَكُنَّا خَلْفَهَمُ دَائِمًا وَسِرْنَا عَلَى مَسِيْرِهِم وَالخُطَطِ الَّتِي يُخَطِّطُهَا هؤلَاءِ، وَتَكُونُ الكُرَةُ فِي ساحَتِنَا دَوْمًا، وَنَكُونُ نَحنُ المُدَافِعِيْنَ، وَيَكُونُ هؤلاءِ المُهَاجِمِيْنَ عَلَيْنَا، فَالمُتَقَدِّمُ هِمْ وَالمُتَخَلِّفُ نَحنُ!

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُم فَعَلْنَا وَبِإِمْكَانِنَا ذلِكَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ نَخْرُجَ مِنْ دَائِرَةِ الدِّفَاعِ إِلَى الهُجُومِ عَلَى أُسُسِهِمُ الهَشَّةِ وَمَبَادِئِهِمُ المُنْهَزِمَةِ، وَلَا نَشْتَغِلَ بِرَدِّ كُلِّ كِتَابٍ يَكْتُبُونَهُ فِي نَقْدِ مَبَادِئِنَا وَيُحَرِّفُونَ فِيْهِ، وَإِذَا التَزَمْنَا بِالرَّدِّ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ يَكْتُبُونَهُ وَيُخْرِجُونَهُ، اشْتَغَلْنَا بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ وَسِرْنَا وَرَاءَ المَعْدُومِ؛ لِأَنَّنَا لَا نَرُدُّ عَلَى كِتَابٍ لَهُم، إِلَّا وَيَأْتُونَ بِعَشَرَاتِ كُتُبٍ، فَيَكُونُ مَشْرُوعُنَا تَابِعًا لِمَشْرُوعِهِم، وَكُلَّ يَومٍ يَأْتُونَ بِجَدِيدٍ مِنْ بَابٍ، وَالوَقْتُ أَيْضًا لَا يَسَعُ لِذلِكَ وَلَا يَسْمَحُ بِهِ، فَمِنَ الأَوْلَى أَنْ نَشْغَلَهُم بِأَنْفُسِهِم وَالدِّفَاعِ عَنْ مَبَادِئِهِم، لَا أَنْ يَشْغَلُونَا بِهِم وَبِالدِّفَاعِ عَنْ مَبَادِئِنَا، كَأَنَّنَا المُتَّهَمُونَ أَمَامَ مَحَاكِمِهِم دَائِمًا، وَيَجِبُ عَلَيْنَا إِبْرَاءُ ذِمَّتِنَا مِنَ الاِتِّهَامَاتِ.

وَمِنَ المُهِمِّ أَيضًا أَنْ نَرْتَكِزَ عَلَى تَحْصِيْنِ شَبَابِنَا بِالعِلْمِ وَالوَعْيِ لِهذِهِ القَضَايَا العَصْرِيَّةِ؛ لِأَنَّنَا لَوْ نَجَحْنَا فِي هذِهِ المُهِمَّةِ فَلَا يَبْقَى لِكُتُبِ هؤلاءِ قَدْرُ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ مِنْ قِيمَةٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيءٌ مَخُوفٌ؛ لِأَنَّكَ بِتَحصِيْنِ الشَّبَابِ مَنَعْتَ هؤلَاءِ مِنْ نَشْرِ بَاطِلِهِم، بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

فَهذِهِ هِيَ كُتُبٌ ثَلَاثَةٌ[1] فِي نَقْضِ أُسُسِ المُعْتَرِضِينَ وَدَحْضِ شُبُهَاتِهِم، عَنِ العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ، فَمَنْ أَرَادَ الحَقَّ وَجَدَهُ فِي هذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَمَنْ لَم يُرْقَ لَهُ وَجْهُ الحَقِّ، لَم يُبَالِ بِهِ وَلَوْ رَدَدْنَا عَلَى كُتُبِهِم جَمِيْعِهَا.

---

(١) وَالرَّابِعُ أَيضًا هُوَ (الوَحْيُ الثَّانِي) فَهُوَ دِرَاسَةٌ لُغَوِيَّةٌ عَقلِيَّةٌ لِأَكْثَرَ مِنْ خَمسِيْنَ آيَةً قُرآنِيَّةً فِي حُجِّيَّةِ السُّنَّةِ، وَمَعَهَا سِتُّونَ إِلْزَامًا عَقلِيًّا يُلْزِمُ الخَصْمَ أَنْ يَقُولَ بِحُجِّيَّةِ السُّنَّةِ، وَيَعْتَرِفَ بِأَنَّهَا الوَحْيُ وَوَصَلَتْنَا كَمَا هِيَ دُونَ أَيِّ تَغيِيرٍ. وَيَتلُوهُ الكِتَابُ الخَامِسُ إِنْ شَاءَ المَوْلَى وَهُوَ (صَحِيحُ البُخَارِيِّ بَينَ نَقْدِ الأَعْلَامِ وَجَهْلِ العَوَامِّ)، عَمَلٌ مُشْتَرَكٌ مَعَ شَيْخِنَا المُحَقِّقِ مُحَمَّدٍ البَرزِنجِيِّ، وَأَنَا انتَهَيْتُ مِنْ حِصَّتِي وَنَاقَشْتُ أَكْثَرَ مِنْ (٣٠٠ ثَلَاثمَائَةِ حَدِيثٍ) مِمَّا اعتَرَضَ عَلَيْهِ الخُصُومُ، وَفِيْهِ مَسَائِلُ أُخْرَى دَقِيْقَةٌ، وَأَظُنُّ هذَا القَدْرَ يَكْفِي، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ المُوَفِّقُ.

وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يُيَسِّرُ لَنَا فِيمَا بَقِي مِنَ العُمرِ، أَنْ نَكْتُبَ كِتَابًا فِي بَيَانِ الأَخْطَاءِ وَالمَزَالِقِ المَنْهَجِيَّةِ لَدَى هؤلاءِ الخُصُومِ، وَنُبيِّنَ أَوْهَامَهُم وَجَهَالَتَهُم، وَنُسَلِّطَ الضَّوْءَ عَلَى جَمْهَرَةٍ مِنْ كُتُبِهِم، وهذَا يَكْفِينَا إِفْرادَ كُلِّ كِتَابٍ بِرَدٍّ؛ لأَنَّكَ تَمُرُّ عَلَى مَنْهَجِيَّتِهِم، وَتَرَى جَهَالَاتِهِم عَيانًا، وَتَرَى خِيانَاتِهِم عَلَنًا، وَتَرَى كَيفَ يَبتُرُونَ النُّصُوصَ وَيَقُصُّونَ الفُصُوصَ، حَتَى يَصِلُوا إِلَى مُبْتَغَاهُمُ اللَّئِيم بِمَجْهُودٍ عَقِيم، وَاللهُ تَعَالَى هُوَ المُوَفِّقُ، فَنَسأَلُهُ التَّوفِيقَ وَالإِخْلاصَ فِي أُمُورِنَا كُلِّهَا، فَهُوَ حَسْبُنَا وَمَلَاذُنَا، نِعْمَ المَوْلَى وَنِعِمَ النَّصِيْرُ.

نِدَاءُ مُحِبٍ، وَبُكَاءُ ذِي شَجَنٍ!

إِنَّ الفِتَنَ تَرَاكَمَتْ وَانْتَشَرَتْ فِي كُلِّ مَكَان، فَصَنَعَتْ مَوْجَةً لِانْحِرَافِ الشَّبَابِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَان، وَإِنَّ دُعَاةَ البَاطِلِ اغْتَصَبُوا الأَمَاكِنَ العِلْمِيَّةَ وَتَصَدَّرُوا، وَلَمْ يَدَعُوا جَانِبًا إِلَّا وَفِي حَقِّهِ تَكَبَّرُوا تَجَبَّرُوا، يَهْرِفُونَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، وَيُفْسِدُونَ وَلَا يُصْلِحُونَ، جَمَّلَ الإِعْلَامُ الإِبْلِيسِيُّ صُورَتَهُمُ الـمُشَوَّهَةْ، وَأَقَاوِيْلَهُمُ الـمُمَوَّهَةْ، فَأَينَ مُقَابِلَ حَرْبِهِم العَمَلُ الإِسْلامِيُّ الجَادُّ لِإِكْبَاتِهِم وَإِلْقَامِهِمْ حَجَرَ الحُجَّةِ، حَتَّى يَعْرِفُوا قَدْرَ العِلْمِ وَحَقَّ العُلَمَاءِ؟ فَكَيْفَ يَسْهُلُ عَلَيْنَا أَنْ يَكْتُبَ وَاحِدٌ بِوَضَحِ النَّهَارْ، وَيُسَمِّي جُهُودَ الكِبَارْ، وَمَجْهُودَ لَيْلِهِم وَالنَّهَارْ، (جِنَايَةً)، وَيَكُونُ لَنَا بَعْدَهُ القَرَارُ وَالِاسْتِقْرَارْ؟

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

وَلَيْسَ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْعَيْنِ مَاؤُهَا ... وَلكِنَّهَا نَفْسٌ تَذُوْبُ فَتَقْطُرُ

وَقَالَ آخَرُ:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَيْسَتْ كَمَا ظَنَّ الغَبِيُّ مَدَامِعًا ... وَلكِنَّهَا نَفْسٌ تَذُوْبُ فَتَقْطُرُ

أَوْ: كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

بَلَلْتُ بِهَا رُدْنَيَّ وَالغَيْمُ مُسْعِدِي ... وَعَبْرَتُهُ صِرْفٌ وَفِي عَبْرَتِي دَمُ

وَلَو لَم يَكُنْ مَا انهَلَّ فِي الخَدِّ مِنْ دَمِي ... لَمَا كَانَ مُحْمَرًّا يَسِيْلُ فَأَسْقَمُ

وَلكِنَّكَ أيُّهَا الشَّابُّ المُسْلِمُ الموَحِّدُ، أيُّهَا الجِيلُ النَّاشِئُ العَزِيزُ، أخِي الحَبِيبُ، أُخْتِي الكَرِيْمَةُ..أنتُمْ جَمِيْعًا أقْوَى مِنْ أَنْ يَهُزَّ أرْكَانكُمْ شُبُهَاتُ مَائِقٍ، أوْ: سِحْرُ لِسَانِ مُنَافِقٍ، وَأَثْبَتُ مِنْ أَنْ يُزَلْزِلَ كِيَانكُمْ سَفَاسِفُ، أوْ: شَقَاشِقُ، فَأَنْتُمْ مَعَ الدَّجَاجِلَةِ وَشُبُهَاتِهِم كَمَا قَالَ ابنُ خَلْدُوْنَ:

[مِنَ الكَامِلِ]

وَلَأَنْتَ أَرْسَخُ فِي المَعَارِفِ رُتْبَةً ... مِنْ أَنْ يُمَوِّهَ عِنْدَهُ مُتَطَفِّلُ

وَلَا تَحْزَنُوا فَإِنَّ هذَا سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِي الِابْتِلاءِ وَالِامتِحَانِ، فَاللهُ تَعَالَى يَمْتَحِنُ بِهذِهِ البَلَايَا إِيْمَانَنَا وصِدْقَنَا وَإِخْلاصَنَا، وَنُصْرَتَنَا للدِّيْنِ وَأَهْلِهِ، وَمَحَبَّتَنَا لَهُ وَلِشَرِيْعَتِهِ، وَإِلَّا فَالحَقُّ مَنْصُورٌ مَا بَقِيَ الدُّنيَا، وَهُوَ أعَزُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَنْ يَضِيعَ، أَوْ: يَفْنَى بَيْنَنَا، عَلَى حَدِّ قَوْلِ ابْنِ القَيِّمِ:

[مِنَ الكَامِلِ]

والحَقُّ مَنصُورٌ ومُمتَحنٌ فَلاَ ... تَعجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحمَنِ

فَلَا بُدَّ للحَقِّ أَنْ يَنْتَصِرْ، وَالبَاطِلُ بَعْدَ مُدَّتِهِ يَنْدَحِرْ، فَالحَقُّ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، وَأُبَشِّرُكُم بِأَنَّ هذِهِ الأُمَّةَ يُنْتَظَرُ فِيْهَا الخَيْرُ عَلَى الدَّوَامْ، فَهِيَ أُمَّةٌ وَلُودٌ بالأَبْطَالِ العِظَامْ، وَلُودٌ بالعُلَمَاءِ المُخلِصِينْ، وَالسَّادَةِ المُجَاهِدِيْنَ وَالمُجْتَهِدِينْ.

[مِنَ البَسِيْطِ]

وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا ... إِلَّا افْتَلَيْنَا غُلَامًا سَيِّدًا فِيْنَا

إِنَّـا لَـمِنْ مَعْشَـرٍ أَفْنَـى أَوَائِلَهُـمْ ... قِيلُ الكُمَـاةِ[١] أَلَا أَيْـنَ الـمُحَامُوْنَا
لَـو كَانَ فِي الألْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَوا ... مَـنْ فَـارِسٌ؟ خَـالَهُم إِيَّـاهُ يَعْنُوْنَـا
إِنَّـا لَنُـرخِصُ يَـوْمَ الـرَّوْعِ أَنْفُسَـنَا ... وَلَـوْ نُسَـامُ بِهَـا فِـي الأَمْـنِ أُغْلِيْنَـا
وَلَا تَـرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّـتْ مُصِـيْبَتُهُم ... مَـعَ البُكَـاةِ عَلَـى مَـنْ مَـاتَ يَبْكُوْنَـا
إِذَا الكُمَـاةُ تَنَحَّـوا أَنْ يُصِـيْبَهُمُ ... حَـدُّ الظُّبَـاةِ[٢] وَصَـلْنَاهَا بِأَيـدِيْنَا

فَيَجِبُ أَنْ لَا يَنْسَى وَاحِدٌ مِنَّا دَوْرَهُ، وَلَا يَسْتَصْغِرَ مَا يُقَدِّمُهُ لِمُوَاجَهَةِ هؤلاءِ، فَإِذَا اسْتَشْعَرْنَا جَمِيْعًا بِمَا يَجِبُ عَلَيْنَا مِنَ المسؤُلِيَّةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْ هذِهِ الأُمَّةِ، وَعَرَفْنَا مَوَاقِعَنَا وَمَا تَكَاسَلْنَا وَلَا تَهَاوَنَّا فِي أَدَاءِ حُقُوقِ الأُمَّةِ وَأَبْنَائِهَا عَلَيْنَا، لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ فَجْوَةٌ تَسْمَحُ لِأَعْدَاءِ الأُمَّةِ وَالمَاكِرِيْنَ أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَيُرَوِّجُوا لِعُمْلَتِهِمُ المُزَيَّفَةِ، أَلَا فَلْنَحْمِلِ المَسْؤُولِيَّةَ وَلَا نَتْرُكْ قَضَايَا الأُمَّةِ لِغَيْرِنَا، فَإِنَّنَا أَبْنَاؤُهَا وَوَلِيُّهَا، فَالأَبْنَاءُ أَحَقُّ بِقَضِيَّةِ آبَائِهِم، وَلَا يَتْرُكُونَهَا لِغَيْرِهِم، وَلَا تَنْسَ بَيْتَ طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ أَبَدًا:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَن فَتًى؟ خِلْتُ أَنَّنِي ... عُنِيْـتُ فَلَـمْ أَكْسَـلْ وَلَـمْ أَتَبَلَّـدِ

(١) قِيْلُ الكُمَاةِ، أَوْ: قَوْلُ الكُمَاةِ.
قَالَ التَّبرِيزِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الحَمَاسَةِ (ص:٢٦): «(الكُمَاةُ): جمعُ (كَامٍ) كَمَا يُقَالُ: (غَازٍ وَغُزَاةٌ) وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِم: (كَمَى نَفْسَهُ فِي السِّلَاحِ) إِذَا تَوَارَى فِيْهِ. يَقُولُ: إِنِّي مِنْ جَمَاعَةٍ أَفْنَتْهُمُ الإِعَانَةُ وَالإِغَاثَةُ وَالنَّجْدَةُ وَالإِقْدَامُ عَلَى الحُرُوْبِ». وَانظُرْ أَيضًا: شَرْحَ المَرْزُوقِيِّ عَلَى الحَمَاسَةِ (ص٨٠). قَالَ المَرْزُوقِيُّ: «فَيَقُولُ مُفْتَخِرًا: إِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ أَهْلَكَ أَسْلَافَهُمْ قَوْلُ الأَبْطَالِ لَهُمْ: أَلَا أَيْنَ الذَّابُّونَ وَالمُحَامُوْنَ؟ فَكَانُوا يَتَقَدَّمُونَ وَيَفْنَوْنَ».
(٢) قَالَ الخَلِيلُ فِي: (العَيْنِ) (٨/ ١٧١): «والظُّبَةُ: حَدُّ السَّيْفِ فِي طَرَفِهِ، والخِنجَرُ وشِبْهُهُ، والجمعُ: الظُّبَاةُ، وَالظُّبَى وَالظُّبُونُ».

وَمِنَ العَارِ أَنْ نَمُوتَ وَلَا نُقَدِّمَ شَيْئًا لِهَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي تَكَالَبَتْ عَلَيْهَا الأَعْدَاءُ، وَاسْتَمْطَرَتْ عَلَيْهَا الفِتَنُ وَالمِحَنُ وَالأَدْوَاءِ، وَتَذَكَّرْ دَوْمًا مَا قَالَهُ عُرْوَةُ بْنُ الوَرْدِ:

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ   وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الخُطُوْبِ مُعَوَّلُ؟

زَمَنُ تَطَاولِ الأَقْزَامِ عَلَى الأَعْلَامِ

وَقَعْنَا فِي زَمَنٍ لَا يُفَرِّقُ أَهْلُهُ بَيْنَ العَالِمِ النِّحرِيرْ، وَلَا الدَّعِي السَّارِقِ الشِّرِّيرْ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ كَبَّرَ الإِعْلامُ حَجْمَهْ، وَأَبْرَزَ فِي سَمَاءِ التَّضْلِيْلِ نَجْمَهْ، أُنَاسٌ لَا يَعْرِفُونَ قَبِيْلًا مِنْ دَبِيرْ، وَلَا يُمَيِّزُونَ صَغِيْرًا مِنْ كَبِيرْ، فَهُوَ عِنْدَهُم سَيِّدٌ مَاجِدْ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ الإِعْلامُ سُوْءًا لَعَنَهُ الرَّاكِعُ مِنْهُم وَالسَّاجِد؛ لأَنَّ الإِعْلَامَ فَرَضَ قَهْرَهْ، وَأَغْرَى بَعْضَ النَّاسِ وَشَوَّشَ عَلَيْهِ أَمْرَهْ، وَظَنَّ الحَقَ مَعَ الَّذِي يَصْرُخُ وَيُنَادِي، وَيَصِيحُ وَيُعَادِي، فَظَنَّ الـمُعَادِي الظَّالِمْ، وَالـمُمَوِّهُ الغَاشِمْ، أَنَّ الفَهْمَ كُلَّهُ مَقسُومٌ لَهُ وَلأَتْبَاعِهِ مِنْ تَلامِيْذِ مَدْرَسَةِ القَسْوَةِ وَالسَّطْوَةِ، وَلَيسَ هُنَاكَ عَقْلٌ فَوْقَ عُقُولِهِم، وَلَا إِدْرَاكٌ عَلَى إِدْرَاكِهِم، فَكُلُّ مَا قَالُوهُ وَرَأَوهُ فَهُوَ عَقْلٌ وَتَقَدُّمٌ، وَمَا خَالَفَ ذِلِكَ فَهُوَ طَيْشٌ وَتَخَلُّفٌ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو العَلَاءِ الـمَعَرِّيُّ لَـمَّا قَالَ:

[مِنَ الوَافِرِ]

وَكَيْفَ يُؤَمِّلُ الإِنْسَانُ رُشْدًا ... وَمَا يَنفَكُّ مُتَّبِعًا هَوَاهُ

يَظُنُّ بِنَفْسِهِ شَرَفًا وَقَدْرًا ... كَأَنَّ اللَّهَ لَم يَخلُقْ سِوَاهُ

فَصَدَّقَ بَعضُ النَّاسِ شِعَارَاتِهِم، وَاتَّبَعُوهُم فِي مَقَالَاتِهِم، وَاغتَرُّوا بِهِمُ اغتِرَارَ الـمَفْتُونِ بالفَاتِنِ، وَلَمْ يَسْتَبِينُوا رُشْدَهُم فَوَقَعُوا فِي العَمَايَةِ، وَغَرِقُوا فِي قَعْرِ الضَّلَالِ وَالغِوَايَةِ، دُونَ عِلْمٍ بِمَا فِي كَلامِ أَعْدَاءِ الأُمَّةِ مِنَ الشَّرِّ وَالفُجُورِ، وَيُرَدِّدُونَ كَلِمَاتِهِم دُونَ فَهْمِهَا، أَوْ: إِدْرَاكِ مَآلِهَا.

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

زَوَامِلُ لِلأَسْفَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمُ ... بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الأَبَاعِرِ

لَعَمْــرِي مَــا يَــدْرِي الْبَعِيــرُ إِذَا غَــدَا بِأَحْمَالِــهِ، أَوْ: رَاحَ مَــا فِــي الْغَرَائِــرِ

زَمنُ التَّلَاعُبِ بِعُقُولِ السُّذَّجِ

إنَّ مِمَّا نَراهُ وَنُشاهِدُهُ اليَوْمَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الكُتَّابِ، الَّذِينَ يَسْعَونَ لِتَضْلِيْلِ الشَّبَابِ، يُنَمِّقُونَ لَطِيْفَ العِبَارَاتْ، وَيُزَخْرِفُونَ مُبَهْرَجَ الكَلِمَاتْ، يُوهِمُونَهُمُ الدَّعْوَةَ إِلَى الإِصْلَاحِ والتَّنوِيرْ، بِالكَذِبِ الصُّرَاحِ وَبالتَّزوِيرْ، شِعَارُهُمُ العَقْلُ وَالمَنْطِقْ، وَكُلُّ وَاحِدٍ منهُم لِسَانٌ بالبَاطِلِ يَنْطِقْ، فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَقِيقَةِ حَالِهِمْ، وَمَآلِ مَقَالِهِمْ، رَأيتَ تَدلِيسًا وَتَلْبِيسًا، وتَموِيهًا وَتَشْوِيشًا، ظَلْمًا وَقَسْوَةً، بُعْدًا وَفَجْوَةً، شَرًّا وَشُؤمًا، قُبْحًا وَلُؤْمًا .. وَفِي كُلِّ ذلِكَ بِحَلَاوَةٍ وَطَلَاوَةٍ فِي البِدَايَةْ، وَوَقَاحَةٍ وَقَسَاوَةٍ فِي النِّهَايَةْ، يَتَكَلَّمُونَ بالكَلِمَاتِ اللَّيِّنَةِ حَتَّى يَقَعَ الشَّبَابُ فِي فَخِّهِمْ وَمَصْيَدَتِهِم، فَإِذَا وَقَعَ فِي المُسْتَنْقَعْ، وَعَلِمُوا أنَّ الرُّشْدَ مِنْهُ لَا يَقَعْ، وَأنَّ البَاطِلَ سَتَرَ عَيْنَهُ، وَمَلأَ قَلْبَهُ مَيْنَهُ، يُدِيرُونَ بِهِم عَلَى هَوَاهُمْ؛ إِذْ فَقَدُوا هُدَاهُمْ..فَيَتَّبِعُونَهُم اتِّباعا؛ لأَنَّهُم لَا يَرَوْنَ فِي الأَمْرِ مَخْرَجًا وَاتِّسَاعا، يُقَلِّدُونَ دُونَ عِلْمٍ أَوْ: نَظَرْ، وَلَا مَعْرِفَةٍ أَوْ: فِكَرْ، مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ أَوْ تَتَبُّعْ، حَتَى يَرَوا مَا لِلمُضَلِّلِيْنَ مِنْ تَصَنُّعْ، رَضُوا بالقُشُور، وَقَنِعُوا باتِّبَاعِ الزُّور، وَتَقلِيْدِ أهلِ الشُّرُور، وهُوَ كَمَا قَالَ ابنُ القَيِّم:

[مِنَ الكَامِلِ]

لَكِنَّهُ أبدَى المَقَالَةَ هَكَذَا ... فِي قَالَبِ التَّنْزِيْهِ للرَّحمَنِ
وَأَتَى إِلَى الكُفرِ العَظِيْمِ فَصَاغَهُ ... عِجْلًا لِيَفْتِنَ أُمَّةَ الثِّيرَانِ
وَكَسَاهُ أنوَاعَ الجَوَاهِرِ والحُلَى ... مِنْ لُؤْلُؤٍ صَافٍ وَمِنْ عِقيَانِ
فَرَآهُ ثِيرَانُ الوَرَى فَأَصَابَهُم ... كَمُصَابِ إخوَتِهِم قَدِيمَ زَمَانِ
عِجلَانِ قَد فَتَنَا العِبَادَ بِصَوْتِهِ ... إحدَاهُمَا وَبِحَرفِهِ ذَا الثَّانِي

وَالنَّــاسُ أَكْثَــرُهُم فَأَهْــلُ ظَــوَاهِرِ تَبْـدُو لَهُـمْ لَيسُـوا بِأَهْـلِ مَعَـانِ
فَهُـمُ القُشُــورُ وبِالقُشُــورِ قِــوَامُهُمْ وَاللُّــبُّ حَــظُّ خُلاَصَــةِ الإِنْسَــانِ

مَعَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَسَائِلِ الصِّفَاتِ، لَكِنَّ كَلامَهُ صَالِحٌ لأَهْلِ الزَّيْغِ فِي كُلِّ حِيْنٍ؛ لأَنَّ طَرِيْقَ البَاطِلِ وَاحِد، فِي التَّلْبِيسِ عَلَى الهَاجِدِ.

وَبَعْدَ ذلِكَ عَلِمَ الخَصْمُ أَنَّ هذَا الصِّنْفَ يُقْبِلُ عَلَيْهِ، بَعْدَمَا حَاوَلَ إِسْقَاطَ العُلَمَاءِ، وَتَشْوِيهَ صُورَتِهِم عِنْدَهُم، وَسَاعَدَهُم فِي ذلِكَ إِعلامٌ إِبلِيسِيٌّ، وَلَا عَجَبَ فِي ذلِكَ إِذِ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ كُلَّ نَاعِقٍ، وَيَعْجَبُونَ بِكُلِّ صَاعِقٍ، وَمَا أَبْدَعَ أَبْيَاتَ مُنْذِرِ بْنِ سَعِيْدٍ البَلُوطِيِّ:

[مِنَ الرَّجَزِ]

انْعِـقْ بِمَـا شِـئْتَ تَجِـدْ أَنْصَـارَا وَرُمْ أَسْــفَارًا تَجِــدْ حِمَــارَا
يَحْمِـلُ مَـا وَضَـعْتَ مِـنْ أَسْـفَارِ مَثَلُـــهُ كَمَثَـــلِ الْحِمَـــارِ
يَحْمِـلُ أَسْـفَارًا لَـهُ وَمَـا دَرَى إِنْ كَـانَ مَـا فِيهَـا صَـوَابًا أَوْ خَطَـا

وَرَأَوْا مِنْهُمْ مَقْصِدًا قَرِيْبًا فَقَصَدُوا، وَمَشْرَعًا سَهْلًا فَوَرَدُوا، فَكَتَبُوا مُضَلِّلِيْنَ، وَأَكْثَرُوا وَاكْتَرَثُوا مُنْحَرِفِيْنَ عَنِ الحَقِّ مَائِلِيْنَ، وَاتَّبَعَهُمُ الأَوْبَاشُ وَظَنُّوا الحَقَّ مَعَهُم، وَالحَالَةُ كَمَا وَصَفَهَا أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيْدِيُّ: (أُنَاسٌ مَضَوْا تَحْتَ التَّوَهُّمِ، وَظَنُّوا أَنَّ الحَقَّ مَعَهُم، وَكَانَ الحَقُّ وَرَاءَهُم)[(١)].

وَمَا دَامَ الأَمْرُ هكَذَا وَحَمِيَ الوَطِيْسُ بِهَجَمَاتِهِم عَلَى مَبَادِئِنَا كَمَا تَجَلَّى، فَوَاجِبٌ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ التَّصَدِّي لَهُم حَتَّى البِلَى، وَيُبَيِّنُوا قُبْحَ آرَائِهِم لِلنَّاسِ لِتَنْكَشِفَ، وَيَرُدُّوا

---

(١) سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ (١٧/ ١٢١).

عَلَى أَضَالِيْلِهِم حَتَّى تَنْهَمِسَ، وَلَيْتَنَا أَدْرَكْنَا هذِهِ الحُرُوبَ عَلَى حَقِيْقَتِهَا، وَعَلِمْنَا أَنَّ الأَعْدَاءَ تَكَالَبَتْ وَتَوَاكَلَتْ وَتَأَلَّبَتْ عَلَيْنَا، وَأَنَّ حُرُوبَهُم تَرَاكَمَتْ وَانْثَالَتْ، فَفَشَتِ الضَّيْعَةُ عَلَيْنَا.

[مِنَ الوَافِرِ]

تَكَاثَرَتِ الظِّبَاءُ عَلَى خِرَاشٍ فَمَا يَدْرِي خِرَاشٌ مَا يَصِيْدُ

وَمِنْ خِلالِهِ سَعَيْنَا للوَحْدَةِ وَالتَّآخِي وَنَبْذِ الخِلافِ وَالتَّشَرْذُمِ، نُصْرَةً لِدِيْنِنَا وَرَحْمَةً وَشَفَقَةً بهذَا الجِيْلِ النَّاشِئِ الحَائِرِ الهَائِمِ، وَجَعَلْنَاهُ فِي مُقَدَّمِ أَعْمَالِنَا وَبَدَأْنَا بِهِ آثِرَ ذِي أَثِيْرٍ، لأَنَّهُ بِالتَّقدِيْمِ جَدِيْرٌ، وَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الكَافِي وَبِكُلِّ أَمْرٍ خَبِيرٌ، وَعَلَيْهِ نَتَوَكَّلُ فَهُوَ حَسْبُنَا وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ.

الخَاتِمَةُ

لَا بُدَّ لِكُلِّ عَمَلٍ بَشَرِيٍّ مِنْ نِهَايَةٍ وَاختِتَامْ، وَلَوْ كَانَ غَايَةً فِي الشِّدَّةِ وَالِاحتِدَامْ، وَالخَاتِمَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مَحْمُودَةً مَرْضِيَّةْ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مَرْذُولَةً مَخْزِيَّةْ، فَيَا سُرُورَ مَنْ حَسُنَتْ لَهُ الخَاتِمَةْ، وَفَازَ بِالجِنَانِ النَّاعِمَةْ، وَيَا فَرَحَ مَنْ رَضِيَ عَنهُ مَوْلَاهُ، وَبِخَيْرَاتِهِ أَوْلَاهُ، وَيَا تَرَحَ مَنْ سَاءَ خِتَامُهُ، وَكَثُرَ فِيهِ ظُلْمُهُ وَإِجْرَامُهُ، وَصَارَ فِيهِ صِفْرًا صِرْفا، وَللبَاطِلِ وَلِيًّا وَإِلْفا..

وَبِهذَا انْتَهَى مَعَ الـمُهَنْدِسِ عَمَلُنَا، وَالنَّفْعُ وَالقَبُولُ هُوَ غَايَتُنَا وَأَمَلُنَا، فَأَرْجُو أَنْ وُفِّقْتُ لِقَوْلِ الحَقّ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ بِالبَيَانِ الأَدَقّ، دُونَ أَيِّ تَشَنُّجٍ، أَوْ: تَعَصُّب، أَوْ: ضَغِينَةٍ، أَوْ: تَلَهُّب، مُرِيدًا الحَقَّ وَنُصْرَته، لَا التَّمَادِيَ فِي البَاطِلِ وَتَقوِيَته، فَالجُهُودُ كُلُّهَا هَبَاءٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ للهِ تَعَالَى خَالِصَةً.

وَلَقَدْ مَرَّ مَعَنَا الكَلَامُ مَعَ الـمُهَنْدِسِ أُوزُون، وَرَأَيتُم كَلَامَهُ غَيرَ الـمَوزُون، فَتَبَيَّنَ لَكُمْ مُسْتَوَاهُ فِي اللُّغَةِ، كَمَا تَبَيَّنَتْ لَكُمْ سَابِقًا حَقِيقَةُ بَاعِهِ فِي السُّنَّةِ وَالفِقْهِ وَالأُصُولِ، وَمِنْ هُنَا تَظَاهَرَ كَمُحَقِّقٍ لُغَوِيٍّ، وَلكِنَّ زَيْفَ عُمْلَتِهِ تَبَلَّجَ للجَمِيعِ.

وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ ابْنِ الرُّومِيِّ لَـمَّا قَالَ:

[مِنَ الخَفِيْفِ]

لَوْ تَلَبَّسْتَ مِنْ سَوَادِ أَبِي الأَسْـ … ـوَدِ لَوْنًا يُكْنَى أَبَا السَّوْدَاءِ

وَتَخَلَّلْتَ بِالْخَلِيلِ وَأَضْحَى … سِيبَوَيْهِ لَدَيْكَ عَبْدَ سِبَاءِ

وَتَلَفَّفْتَ فِي كِسَاءِ الْكِسَائِي … وَتَفَرَّيْتَ فَرْوَةَ الْفَرَّاءِ

لأَبَـــى اللهُ أَنْ يَـــرَاكَ ذَوُو الأَلْـــبَابِ إِلَّا فِـــي صُـــورَةِ الأَغْبِيَـــاءِ(١)

مَعَ أَنَّنَا لَا نَتَّهِمُ الـمُهَنْدِسَ بِأَنَّهُ غَبِيٌّ، أَوْ: فِي صُورَةِ الأَغبياءِ، وَنَتَمَنَّى لَهُ الخَيْرَ وَنَرْجُوهُ لَهُ، وَعَسَى أَنْ يَتَفَكَّرَ سَاعَةً فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ، وَلكِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ جَيِّدًا: أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّشْكِيْكِ فِي شَيءٍ لَمْ يَفْهَمْهُ، وَلَو تَظَاهَرَ بِأَنَّهُ فَهِمَهُ وَأَتْقَنَهُ؛ لأَنَّ زَيْفَ الكَلَامِ لَا يَخْفَى عَلَى الصَّيْرَفِيِّ النَّاقِدِ.

وَكَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَعَلَى كُلِّ مَنْ أَرَادَ الكَلَامَ عَلَى أَئِمَّةِ اللُّغَةِ وَصَنِيْعِهِم أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي جُهُودٍ سَلَبَتْهُم نَوْمَهُم وَرَاحَتَهُمْ وَلَذَّاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُم لَمْ يَقُولُوا إِلَّا بَعْدَ البَحْثِ الدَّائِبِ وَالتَّفتِيْشِ بِالنَّظَرِ الثَّاقِبِ، فَهذَا هُوَ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّتِهِم يَحْكِي عَنْ نَفْسِهِ بَذْلَهُ العَجِيْبَ، أَلَا وَهُوَ الـمُبَرِّدُ الَّذِي بَرَّدَ قُلُوبَنَا بِبَدِيْعِ تَحْقِيقَاتِهِ -فَبَرَّدَ اللهُ بِهِ مَضْجَعَهُ- إِذْ يَقُولُ: (لَرُبَّمَا رَوَّأْتُ فِي الحَرْفِ سَنَةً لِتَضِحَ لِي حَقِيْقَتُهُ)(٢).

وَهَا هُوَ الخَلِيْلُ بْنُ أَحْمَدَ إِمَامُ الفَنِّ يَبْحثُ فِي البَوَادِي بَادِيَةً بَادِيَةً، لِيَسْمَعَ كَلَامَ العَرَبِ الأَقْحَاحِ وَيَنْقُلَهُ إِلَى غَيْرِهِ، كَمَا حَكَى الخَطِيْبُ وَغَيْرُهُ عَنِ الكِسَائِيِّ أَنَّهُ سَأَلَهُ: مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَ عِلْمَكَ هذَا؟ فَقَالَ: مِنْ بَوَادِي الحِجَازِ وَنَجْدٍ وَتِهَامَةَ، فَخَرَجَ (أَيِ: الكِسَائِيُّ)، وَرَجَعَ، وَقَدْ أَنْفَدَ خَمْسَ عَشْرَةَ قِنِّيْنَةً حِبْرًا فِي الكِتَابَةِ عَنِ العَرَبِ سِوَى مَا حَفِظَ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ هَمٌّ غَيْرُ البَصْرَةِ وَالخَلِيْلِ(٣).

---

(١) وَفَيَاتُ الأَعيانِ لابنِ خلكانَ (٤/ ٢٠٦).

(٢) مَجَالِسُ العُلَمَاءِ لِلزَّجَّاجِيِّ (ص٩٥).

(٣) تَارِيخُ بَغْدَادَ (١٣/ ٣٤٥)، وَالـمُنْتَظَمُ (٩/ ١٦٩)، وَمُعْجَمُ الأُدَبَاءِ (٤/ ١٧٣٨).

وَقَبْلَهُ أيضًا سَنَّ الأَئِمَّةُ سُنَّةَ البَحْثِ وَالتَّفْتِيشِ لأَنْفُسِهِم كَمَا حَكَى الزَّجَّاجِيُّ أَنَّ الإِمَامَ أبَا عَمْرِو بْنَ العَلَاءِ جَاوَرَ البَدْوَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[١].

وَهَذَا إِمَامٌ آخَرُ وَهُوَ ثَعْلَبٌ يَقُولُ: (أَسْهَبَ فَهُوَ مُسْهَبٌ فِي الكَلَامِ، قَالَ: وَوَجَدْتُ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً حَرْفًا رَابِعًا، وَهُوَ: أَجْرَشَتِ الإِبِلُ: سَمِنَت، فَهِيَ مُجْرِشَةٌ)[٢].

وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ أَيْضًا عَنْ لَفْظَةٍ:(وَجَدْتُ هذِهِ اللَّفْظَةَ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً)[٣].

وَعَلَّقَ الصَّغَانِيُّ عَلَى كَلامِهِ هذَا بِقَوْلِهِ: (قَالَ الصَّغَانِيُّ - مُؤَلِّفُ هذَا الكِتَابِ-: وَأَنَا وَجدْتُ هَذِه اللَّفْظَةَ بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً)[٤]!.

فَإِذَا تفكَّرَ خُصُومُ الأَئِمَّةِ فِي هذِهِ الحَقِيْقَةِ، وَنَظَرُوا إِلَيْهَا بِعَيْنِ الإِنْصَافِ وَالإِتْحَافِ، لَأَدَّى بِهِم إِلَى التَّرَوِّي قَبْلَ النَّقْدِ وَالانتِقَادِ وَالتَّخْطِئَةِ، إِلَّا إِذَا كَانَ عَنْ هَوًى مُهْوٍ وَعَصَبِيَّةٍ حَمْقَاءَ، وَهذَا لَيْسَ كَلَامٌ مَعَهُ يَنْفَع، وَلَا دَوَاءٌ يَنْجِع، وَلَا صَاحِبُهُ بِشَيْءٍ يُرْدَع.

فَنسأَلُ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَكتُبَ لِكِتَابِنَا هذَا وَإِخْوَانِهِ القَبُولَ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا السُّمْعَةَ وَالرِّيَاءَ وَالتَّصَنُّعَ وَالتَّزَيُّنَ، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ حَظَّنَا مِنْهُ التَّعَبَ وَالنَّصَبَ دُونَ الأَجْرِ، إِنَّهُ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيْلُ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيْمِ.

---

(١) مَجَالِسُ العُلَمَاءِ لِلزَّجَّاجِيِّ (ص١٣٠).

(٢) تَاجُ العَرُوسِ لِلزَّبِيدِيِّ (٣/ ٧٩)، وَالمُزْهِرُ لِلسُّيُوطِيِّ (٢/ ٨٥)، وَقَدِ اسْتَدْرَكُوا كَلِمَاتٍ أُخَر.

(٣) تَاجُ العَرُوسِ لِلزَّبِيدِيِّ (١٧/ ١٠٢)، وَالشَّوَارِدُ لِلصَّغَانِيِّ (ص٢٠٧).

(٤) الشَّوَارِدُ لِلصَّغَانِيِّ، ص: (٢٠٧).

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧ ﴾ (الرعد).

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢ ﴾ (الصافات).

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا وَحَبِيبِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ

انْتَهَى الفَرَاغُ مِنْهُ[1]:

مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ

١٦/رَجَب/١٤٤٠هـ

٢٠١٩/٣/٢٣م

إسطَنبُول/تُركيا

---

(١) رَحِمَ اللهُ مَنْ لَا يَنْسَانِي بِصَالِحِ دُعَائِهِ، وَلَا يَنْسَى أَهْلِي وَوَالِدَيَّ وَكُردستَانَ وَالعِرَاقَ الجَرِيْحَ وَالأُمَّةَ الإِسْلَامِيَّةَ جَمْعَاءَ (لَعَنَ اللهُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهَا بِحُدُودٍ مَلْعُونَةٍ، وَقَطَعَ دَابِرَ مَنْ سَعَى لِإِدَامَتِهَا)، كَانَ اللهُ فِي عَوْنِ هذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هَاجَتْ عَلَيْهَا أَمْوَاجُ الفِتَنِ، وَاسْتَمْطَرَتْ عَلَيْهَا بَلَايَا وَمِحَنٌ، وَلَوْ لَا حِمَايَةُ جَنَابِهِ لَمْ يَبْقَ لَهَا أَثَرٌ وَصَارَ اسْمُهَا يُذْكَرُ فِي الغَابِرِيْنَ...طُوْبَى لِمَنِ اسْتَعْمَلَهُ اللهُ تَعَالَى فِي نُصْرَتِهَا، وَالدِّفَاعِ عَنْ حَوْزَتِهَا، وَعَاشَ وَمَاتَ مِنْ أَجْلِ حُرْمَةِ حَوْمَتِهَا.

[مِنَ البَسِيْطِ]

بِــالله يــا نَــاظرًا فِيْــهِ وَمُنْتَفِعًــا ... مِنْــهُ سَــلِ اللهَ تَوْفِيقًــا لِجَامِعِــهِ
وَقُــلْ: أَنِلْــهُ إِلَــهَ الْعَــرْشِ مَغْفِــرَةً ... وَاقْبَــلْ دُعَــاه وَجَنِّــبْ عَــنْ مَوَانِعِــهِ
وَخُــصَّ نَفْسَــكَ مِــنْ خَيْــرِ دَعَــوْتَ بِــهِ ... ومَــن يَقُــومُ بِمَــا يَكْفِــي لِطَابِعِــهِ
وَالْمُسْــلِمِينَ جَمِيعًــا مَــا بَــدَا قَمَــرٌ ... أَو كَوْكَــبٌ مُسْــتَنِيرٌ مِــن مَطَالِعِــهِ

[مِنْ مُخَلَّعِ البَسِيْطِ]

يَــا نَــاظِرًا فِــي الكِتَــابِ بَعْــدِي ... مُجْتَنِيًــا مِــنْ ثِمَــارِ فِكْــرِي
بِــيَ افْتِقَــارٌ إِلَــى دُعَــاءٍ ... تُهْدِيْــهِ لِــي فِــي ظَــلامِ لَحْــدِي

[مِنَ الطَّوِيْلِ]

أَخَـا الْعِلْـمِ لا تَعْجَـلْ لَعِيْـبِ مُصَنِّفٍ ... وَلَــمْ تَتَــيَقَّنْ زَلَّــةً مِنْــهُ تُعْــرَفُ
فَكَـمْ أَفْسَـدَ الـرَّاوِي كَلامًـا بِنَقْلِـهِ ... وَكَـمْ حَـرَّفَ الْـمَنْقُولَ قَـوْمٌ وَصَحَّفُوا
وَكَـمْ نَاسِـخٍ أَضْـحَى لِـمَعْنًى مُغَيِّـرًا ... وَجَـاءَ بِشَـيْءٍ لَـمْ يُـرِدْهُ الْـمُصَنِّفُ

تم بحمد الله

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

القُرآنُ الكَرِيْمُ.

١- أباطيل وأسمار، المؤلف: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ٢٠٠٥م.

٢- الِاتِّجَاهَاتُ الوَطَنِيَّةُ فِي الأَدَبِ الْمُعَاصِرِ، د. محمَّد حُسَيْنٍ، ط: مؤسَّسَة ُالرِّسالةِ، بيروت.

٣- الإحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (المتوفى: ٦٣١هـ)، المحقق: عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- لبنان.

٤- أخبار النحويين البصريين، المؤلف: الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد (المتوفى: ٣٦٨هـ)، المحقق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي - المدرسين بالأزهر الشريف، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: ١٣٧٣هـ-١٩٦٦م.

٥- أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: سمير حلبي، الناشر: دار الصحابة للتراث - طنطا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

٦- ارتشاف الضرب من لسان العرب، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥ هـ)، تحقيق وشرح ودراسة: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٧- إرشاد السالك إلى حل ألفية ابن مالك، المؤلف: برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (المتوفى ٧٦٧ هـ)، المحقق: د. محمد بن عوض بن محمد السهلي، الناشر: أضواء السلف - الرياض- الطبعة: الأولى، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م. .

٨- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور الناشر: دار الكتاب العربي الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٩- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقق: مصطفى السقا - إبراهيم الإبياري - عبد العظيم شلبي، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة- عام النشر: ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م. .

١٠- أسرار العربية، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، الناشر: دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١١- الأشباه والنظائر، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

١٢- الإصابة في تمييز الصحابة المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ.

١٣- إصلاح المنطق، المؤلف: ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى:

٢٤٤هـ)، المحقق: محمد مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢م.

١٤- إصلاح غلط المحدثين المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) المحقق: د. حاتم الضامن الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٥- الأصول في النحو، المؤلف: أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (المتوفى: ٣١٦هـ)، المحقق: عبد الحسين الفتلي، الناشر: مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت.

١٦- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم المؤلف: إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي (ت: ٩٤٣ هـ) حققه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٧- إعراب الجمل وأشباه الجمل، الدكتور فخر الدين قباوة، دار القلم العربي-حلب- الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

١٨- إعراب القرآن المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

١٩- إعراب القرآن المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٠- إعراب القرآن للأصبهاني المؤلف: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي

الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ) قدمت له ووثقت نصوصه: الدكتورة فائزة بنت عمر المؤيد الناشر: غير معروف (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض) الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٢١- الألغاز النحوية وهو الكتاب المسمى (الطراز في الألغاز)، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، عام النشر: ١٤٢٢هـ-٢٠٠٣م.

٢٢- ألفية الآثاري في النحو (كفاية الغلام فِي إعراب الكلام)، شعبان بن محمد القرشي الآثاري (المتوفى:٨٢٨هـ)، تحقيق: زاهير زاهد-وهلال ناجي، الناشر: دار عالم الكتب، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ.

٢٣- أمالي ابن الحاجب، المؤلف: عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة، الناشر: دار عمار – الأردن، دار الجيل - بيروت، عام النشر: ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٢٤- الإمتاع والمؤانسة، المؤلف: أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٥- الأمثال المولدة، المؤلف: محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر (المتوفى: ٣٨٣هـ)، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، عام النشر: ١٤٢٤هـ.

٢٦- إنباه الرواة على أنباه النحاة، المؤلف: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٧- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، المؤلف: عبد الرحمن

بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٢٨- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٩- إيضاح شواهد الإيضاح، المؤلف: أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي (المتوفى: ق ٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٣٠- الإيضاح في علل النحو، المؤلف: أبو القاسم الزَّجَّاجي (المتوفى: ٣٣٧ هـ)، المحقق: الدكتور مازن المبارك، الناشر: دار النفائس - بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م.

٣١- الإيضاح في علوم البلاغة، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (المتوفى: ٧٣٩هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة: الثالثة.

٣٢- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت- الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٣٣- البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٤- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المؤلف: علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد

الكاساني الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٥- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت. .

٣٦- البديع في علم العربية، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦ هـ)، تحقيق ودراسة: د. فتحي أحمد علي الدين، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٧- البرصان والعرجان والعميان والحولان، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٨- البرهان في علوم القرآن المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

٣٩- البصائر والذخائر، المؤلف: أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ)، المحقق: د/ وداد القاضي، الناشر: دار صادر - بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٠- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٤١- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين

السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية - لبنان / صيدا.

٤٢- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٤٣- البيان والتبيين، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣ هـ تَاجُ العَرُوسِ (٢٨/ ٢٩٨).

٤٤- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

٤٥- تاريخ ابن الوردي، المؤلف: عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٦- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤٧- تاريخ إربل، المؤلف: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي، المعروف بابن المستوفي (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: سامي بن سيد خماس الصقار، الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق، عام النشر: ١٩٨٠م.

٤٨- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: عمر عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٤٩- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ)، الناشر: دار التراث - بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧هـ.

٥٠- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، المؤلف: أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري (المتوفى: ٤٤٢هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، الطبعة: الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥١- تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٢- تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٥٣- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) تحقيق: محمد علي النجار مراجعة: علي محمد البجاوي الناشر: المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.

٥٤- التبيان في إعراب القرآن المؤلف : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى : ٦١٦هـ) المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٥٥- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ، المؤلف: عثمان بن علي بن محجن البارعي، فخر الدين الزيلعي الحنفي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، الحاشية: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يونس بن إسماعيل بن يونس الشِّلْبِيُّ (المتوفى: ١٠٢١ هـ)، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣١٣هـ.

٥٦- التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن العثيمين، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥٧- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، المؤلف: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت-، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٥٨- تحتَ رَايَةِ القُرآنِ، مصطفى صادِق الرَّافِعِيّ، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٥٩- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، المؤلف: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

٦٠- التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٦١- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، المؤلف: أبو حيان الأندلسي، المحقق: د. حسن هنداوي، الناشر: دار القلم - دمشق (من ١ إلى ٥)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا، الطبعة: الأولى.

٦٢- الفقيه و المتفقه، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

٦٣- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المؤلف: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: ٥٤٤هـ)، المحقق: جزء ١: ابن تاويت الطنجي، ١٩٦٥ م، جزء ٢، ٣، ٤: عبد القادر الصحراوي، ١٩٦٦ - ١٩٧٠ م، جزء ٥: محمد بن شريفة، جزء ٦، ٧، ٨: سعيد أحمد أعراب ١٩٨١-١٩٨٣م، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب. الطبعة الأولى.

٦٤- تصحيح الفصيح وشرحه المؤلف: أَبُو محمد، عبد الله بن جعفر بن محمد بن دُرُسْتُوَيْهِ ابن المرزبان (المتوفى: ٣٤٧هـ) المحقق: د. محمد بدوي المختون الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية [القاهرة] عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٦٥- التعليقة على كتاب سيبويه، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، المحقق: د. عوض بن حمد القوزي، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٦٦- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٦٧- تقويم النظر في مسائل خلافية ذائعة، ونبذ مذهبية نافعة، المؤلف: محمد بن علي بن شعيب، أبو شجاع، فخر الدين، ابن الدَّهَّان (المتوفى: ٥٩٢هـ)، المحقق: د. صالح بن ناصر بن صالح الخزيم.

٦٨- تَلْخِيْصُ الْمِفْتَاحِ، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن بن عمر المعروف (بالخطيب القزويني)، المطبُوعُ معَ المطوَّلِ للتفتازانيِّ، تَصْحِيحُ وتعلِيقُ: أحمد عزو عناية، دار الكوخ للطباعة والنشر، ط: الأولى، ١٣٨٧.

٦٩- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، المؤلف: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: ٧٧٨ هـ)، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.

٧٠- التمهيد في علم التجويد، المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور على حسين البواب، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.

٧١- تهذيب الأسماء واللغات، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، يطلب من: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان تَهذِيبُ اللُّغَةِ للأَزهَرِيِّ (١/ ٣١١).

٧٢- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم المؤلف: محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (المتوفى: ٨٤٢هـ) المحقق: محمد نعيم العرقسوسي الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.

٧٣- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، المؤلف : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى : ٧٤٩هـ)، شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان، أستاذ اللغويات في جامعة الأزهر، الناشر : دار الفكر العربي، الطبعة : الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

٧٤- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، الناشر: دار المعارف - القاهرة.

٧٥- الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق) المؤلف: معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (المتوفى: ١٥٣هـ) المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٧٦- جامع البيان في القراءات السبع المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، الناشر: جامعة الشارقة - الإمارات (أصل الكتاب رسائل ماجستير من جامعة أم القرى وتم التنسيق بين الرسائل وطباعتها بجامعة الشارقة) الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٧٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٧٨- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٧٩- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، المؤلف: أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (المتوفى: ٣٩٠هـ)، المحقق: عبد الكريم سامي الجندي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان- الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٨٠- الجمل في النحو المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم

الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) المحقق: د. فخر الدين قباوة الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٨١- جمهرة أشعار العرب، المؤلف: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، .

٨٢- جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٨٣- جناية الشَّافعي، زكريا أوزون، الناشر: رياض الريس، الطبعة الأولى٢٠٠٥م.

٨٤- جناية سيبويه، زكريا أوزون، الناشر: رياض الريس، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٨٥- الجِنَايَةُ عَلَى الشَّافِعِيِّ، مروان الكردي، الناشر: دَار المعرَاج، دمشق-سوريا-الطبعة الأولى ١٤٣٩ هـ-٢١٠٨م.

٨٦- الجيم، المؤلف: أبو عمرو إسحاق بن مرّار الشيباني بالولاء (المتوفى: ٢٠٦هـ)، المحقق: إبراهيم الأبياري، راجعه: محمد خلف أحمد، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة.

٨٧- حاشية الجوري على الشمسيَّة، حسن ابن السيد عبدالقادر الجوري، ت: مشتاق المشاعلي، مكتبة أمير-دار ابن حزم/ ط:١/ ١٤٣٨هـ.

٨٨- حاشِيَةُ الجوريِّ عَلَى الفَناريِّ، اعداد وتقديم: مهدي جوري، ط:انتشارات كردستان - سنندج – ١٣٩٢هـ.

٨٩- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (المتوفى: ٧٩٢ هـ)

[ومختصر السعد هو شرح تلخيص مفتاح العلوم لجلال الدين القزويني] المؤلف: محمد بن عرفة الدسوقي المحقق: عبد الحميد هنداوي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.

٩٠- حاشيةُ الصَّبَّانِ عَلَى شرحِ الأُشمونِيِّ (١/ ٢٩٩).

٩١- حاشية العلامة الصبان على شرح الملوي على السلم، أبو العرفان محمد بن علي الصبان، دار البصائر -القاهرة- ط:١/ ١٤٣٦هـ.

٩٢- الحجة في القراءات السبع المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ) المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت الناشر: دار الشروق - بيروت الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.

٩٣- حروف المعاني والصفات المؤلف: عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ) المحقق: علي توفيق الحمد الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٤م.

٩٤- حلية الفقهاء المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت الطبعة: الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٩٥- الحيوان المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٩٦- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، المؤلف: عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م. .

٩٧- الخصائص، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر:

الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

٩٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق.

٩٩- درة الغواص في أوهام الخواص، المؤلف: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (المتوفى: ٥١٦هـ)، المحقق: عرفات مطرجي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.

١٠٠- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية - صيدر اباد/ الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٠١- دلائل الإعجاز في علم المعاني، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. الطبعة: الأولى.

١٠٢- ديوان المعاني، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الجيل - بيروت.

١٠٣- ديوان امرِئ القيس، المؤلف: امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٠٤- ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه: أحمد أمين بك، وأحمد الزين،

وإبراهيم الأبياري، الطبعة الأميرية–الطبعة الثالثة– بالقاهرة، ١٩٤٨م.

١٠٥– ذيل طبقات الحنابلة المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) المحقق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م.

١٠٦– ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، المؤلف: جار الله الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

١٠٧– الرد الوافر، المؤلف: محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (المتوفى: ٨٤٢هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ه.

١٠٨– الرَّدُّ عَلَى النُّحَاةِ لابنِ مضَاءٍ، ت: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، الطَّبعةُ الأولى ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

١٠٩– الرِّسَالَةُ الشَّافِيَةُ فِي وجُوهِ الإعجَازِ للجُرْجَانِيِّ، المُلحَقَةُ بِـ(دَلَائِلِ الإِعجَازِ)، ط: شَاكر، المشار إليها سابقا.

١١٠– رسالة الغفران، المؤلف: أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان، أبو العلاء المعري، التنوخي (المتوفى: ٤٤٩هـ)، الناشر: مطبعة (أمين هندية) بالموسكي (شارع المهدي بالأزبكية) - مصر، صححها ووقف على طبعها: إبراهيم اليازجي، الطبعة: الأولى، ١٣٢٥هـ– ١٩٠٧م.

١١١– الرسالة المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ) المحقق: أحمد شاكر

الناشر: مكتبه الحلبي، مصر الطبعة: الأولى، ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م.

١١٢- رسالة منازل الحروف، المؤلف: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: ٣٨٤هـ)، المحقق: إبراهيم السامرائي، الناشر: دار الفكر - عمان.

١١٣- رسائل في اللغة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي (٤٤٤ – ٥٢١ هـ)، قرأها وحققها وعلق عليها: د. وليد محمد السراقبي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م. .

١١٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

١١٥- الزاهر في معاني كلمات الناس المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ) المحقق: د. حاتم صالح الضامن الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢.

١١٦- الزاهر في معاني كلمات الناس، المؤلف: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، المحقق: د. حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢م.

١١٧- سبب وضع علم العربية، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: مروان العطية، الناشر: دار الهجرة – بيروت / دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

١١٨- سر الفصاحة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

١١٩- سر صناعة الإعراب، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولي ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٢٠- السنة المؤلف: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ) المحقق: د. عطية الزهراني الناشر: دار الراية - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٢١- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

١٢٢- سير أعلام النبلاء، المؤلف : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

١٢٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٢٤- شرح (قواعد الإعراب لابن هشام) المؤلف: محمد بن مصطفى القُوجَوي، شيخ زاده (المتوفى: ٩٥٠ هـ) دراسة وتحقيق: إسماعيل إسماعيل مروة الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

١٢٥- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، المؤلف: بدر الدين محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك (ت ٦٨٦ هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٢٦- شرح التبيان في علم البيان، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي، دراسة وتحقيق: د.أبو أزهر بلخير هانم، دار الكتب العلمية-بيروت- الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

١٢٧- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، المؤلف: خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد (المتوفى: ٩٠٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٢٨- شرح ألفية ابن معطٍ لابن القَوَّاس، دراسة وتحقيق: د.علي موسى الشوملي، الناشر: مكتبة الخريجي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م.

١٢٩- شرح القصائِد العشر، المؤلف: يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، الناشر: عنيت بتصحيحها وضبطها والتعليق عليها للمرة الثانية: إدارة الطباعة المنيرية.

١٣٠- شرح الكافية الشافية، المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى.

١٣١- شرح المشكل من شعر المتنبي، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: ٤٥٨هـ]، تحقيق: مصطفى السقا، وحامد عبد المجيد، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م.

١٣٢- شرح المعلقات التسع، المؤلف: منسوب لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) ولا تصح نسبته ففي الكتاب نقول متأخرة عن زمن أبي عمرو وليس الأسلوب أسلوبه، تحقيق وشرح: عبد المجيد همو، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٣٣- شرح المفصل للزمخشري، المؤلف: يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٣٤- شرح المقدمة المحسبة، المؤلف: طاهر بن أحمد بن بابشاذ (المتوفى: ٤٦٩ هـ)، المحقق: خالد عبد الكريم، الناشر: المطبعة العصرية - الكويت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٧م.

١٣٥- شرح بحر العلوم على سلَّم العلوم، أبو العباس عبدالعلي اللكهنوي، ت: عبد النصير المليباريّ، دار الضياء -الكويت- ط:١/ ١٤٣٣هـ.

١٣٦- شرح تسهيل الفوائد، المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

١٣٧- شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت ٢٣١ هـ)، المؤلف: يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، الناشر: دار القلم - بيروت.

١٣٨- شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، المحقق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان- الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٣٩- شرح ديوان المتنبي المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ) المحقق: مصطفى السقا/ إبراهيم الأبياري/ عبد الحفيظ

شلبي الناشر: دار المعرفة - بيروت.

١٤٠- شرح شافية ابن الحاجب، مع شرح شواهده للعالم الجليل عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب المتوفي عام ١٠٩٣ من الهجرة، المؤلف: محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، نجم الدين (المتوفى: ٦٨٦هـ)، حققهما، وضبط غريبهما، وشرح مبهمهما، الأساتذة: محمد نور الحسن –محمد الزفزاف – محمد محيى الدين عبد الحميد – الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م.

١٤١- شرح قطر الندى وبل الصدى المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد الناشر: القاهرة الطبعة: الحادية عشرة، ١٣٨٣.

١٤٢- شرح كتاب الحدود في النحو، المؤلف: عبد الله بن أحمد الفاكهي النحوي المكي (٨٩٩ – ٩٧٢ هـ)، المحقق: د. المتولي رمضان أحمد الدميري، الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ–١٩٩٣م.

١٤٣- شرح كتاب سيبويه، المؤلف: أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (المتوفى: ٣٦٨ هـ)، المحقق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م.

١٤٤- شرح مشكل الآثار المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م.

١٤٥- شرح معاني الآثار، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن

سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار – محمد سيد جاد الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي – الباحث بمركز خدمة السنة بالمدينة النبوية، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

١٤٦- شرح مغني اللبيب، محمد بن أبي بكر الدماميني، القرشي المخزومي الإسكندراني المالكي (المتوفى: ٨٢٨ هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد عزّو عناية، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي –بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٨هـ.

١٤٧- شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: د.عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٤٨- الشعر والشعراء، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

١٤٩- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، المؤلف: مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى المقدسي الحنبلى (المتوفى: ١٠٣٣هـ)، المحقق: نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار الفرقان ، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ه.

١٥٠- الشوارد = ما تفرد به بعض أئمة اللغة، المؤلف: رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن القرشي الصغاني (المتوفى: ٦٥٠هـ)، تحقيق وتقديم: مصطفى حجازي، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٥١- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، الناشر: محمد علي بيضون،

الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٥٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤلف: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥٣- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٥٤- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، المؤلف: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (المتوفى: ٥٧٨ هـ)، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الثانية، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

- الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

- الطبعة: الأولى، ١٤١٨/ ١٩٩٨هـ.

- الطبعة: الأولى، الجزء: ١ - ١٩٧٣- الجزء: ٢، ٣، ٤- ١٩٧٤م.

١٥٥- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤلف: يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله(المتوفى: ٧٤٥هـ) الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٥٦- العبر في خبر من غبر، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو

حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ)، المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

١٥٧- علل النحو، المؤلف: محمد بن عبد الله بن العباس، أبو الحسن، ابن الوراق (المتوفى: ٣٨١هـ)، المحقق: محمود جاسم محمد الدرويش، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٥٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، المؤلف: أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٥٩- العميد في علم التجويد، المؤلف: محمود بن علي بسّة المصري (المتوفى: بعد ١٣٦٧هـ)، المحقق: محمد الصادق قمحاوى، الناشر: دار العقيدة - الإسكندرية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م،.

١٦٠- عيار الشعر، المؤلف: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا، الحسني العلوي، أبو الحسن (المتوفى: ٣٢٢هـ)، المحقق: عبد العزيز بن ناصر المانع، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة.

١٦١- عيون الأخبار، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٨هـ.

١٦٢- غريب الحديث، المؤلف: إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق [١٩٨ – ٢٨٥]، المحقق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد، الناشر: جامعة أم القرى – مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٦٣- الفاخر، المؤلف: المفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب (المتوفى: نحو ٢٩٠هـ)،

تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مراجعة: محمد علي النجار، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى، ١٣٨٠هـ.

١٦٤- الفائق في غريب الحديث والأثر، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة - لبنان، الطبعة: الثانية.

١٦٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

١٦٦- الفرق، المؤلف: أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (المتوفى: ٢٤٨هـ)، المحقق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٣٧، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١٦٧- الفرق، المؤلف: أبو محمد ثابت بن أبي ثابت اللغوي (المتوفى: ق ١٣هـ)، المحقق: حاتم الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٦٨- الفروق اللغوية، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.

١٦٩- الفروق، المؤلف: أسعد بن محمد بن الحسين، أبو المظفر، جمال الإسلام الكرابيسي النيسابوري الحنفي (المتوفى: ٥٧٠هـ)، المحقق: د. محمد طموم، راجعه: د. عبد الستار أبو غدة، الناشر: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٧٠- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، المؤلف: صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي

بن عبد الله الدمشقي العلائي (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: حسن موسى الشاعر، الناشر: دار البشير - عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

١٧١- فضائل الصحابة المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: د. وصي الله محمد عباس الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١٧٢- فقه اللغة وسر العربية، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: إحياء التراث العربي، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٧٣- الفِكرُ العَربيُّ المعَاصرُ لمحمّد أركون، ترجمة: عادل العوا، منشورات عويدات بيروت-باريس ط:٣/ ١٩٨٥م.

١٧٤- فَلسَفةُ الِاستِشراقِ وَتَأثيرُهَا في الأدبِ العربيِّ الْمُعَاصِرِ، د.أحمد سمَايلوفتِش، رئيس المشيخة لجمهوريات البوسنة والهرسك، وسلوفينيا، ويوغسلافيا، الناشر: دار الفكر العربي- مصر-القاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م. .

١٧٥- فهم القرآن ومعانيه المؤلف: الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤٣هـ) المحقق: حسين القوتلي الناشر: دار الكندي ، دار الفكر - بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٨ .

١٧٦- فوات الوفيات، المؤلف: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت.

١٧٧- القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم

العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٧٨- الكامل في التاريخ، المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٧٩- كتاب الصناعتين، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.

١٨٠- كتاب العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال. .

١٨١- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) المحقق: كمال يوسف الحوت الناشر: مكتبة الرشد - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.

١٨٢- الكتاب، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٨٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة -

١٤٠٧هـ.

١٨٤- الكفاية في علم الرواية، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: أبو عبدالله السورقي ، إبراهيم حمدي المدني، الناشر: المكتبة العلمية – المدينة المنورة.

١٨٥- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

١٨٦- الكناش في فني النحو والصرف، المؤلف: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: ٧٣٢ هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور رياض بن حسن الخوام، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، عام النشر: ٢٠٠٠م.

١٨٧- اللامات، المؤلف: عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ)، المحقق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

١٨٨- اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي المؤلف: أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) المحقق: محمد سعيد المولوي، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٨٩- لباب الآداب، المؤلف: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، تحقيق: أحمد حسن لبج، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١٩٠- اللباب في علل البناء والإعراب، المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: د. عبد الإله النبهان، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

١٩١- اللباب في علوم الكتاب المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

١٩٢- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ. .

١٩٣- لِمَاذا يُزَيِّفُونَ التَّارِيخَ وَيَعْبَثُونَ بالحَقَائِقِ، إِسْمَاعِيل كَيلانِي، المكتب الإسلاميّ، الطبعة الثانية،١٤١٣هـ.

١٩٤- اللمحة في شرح الملحة، المؤلف: محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ (المتوفى: ٧٢٠هـ)، المحقق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٩٥- اللمع في العربية، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية - الكويت.

١٩٦- ليس في كلام العرب، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة: الثانية، مكة المكرمة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٩٧- المبسوط، المؤلف: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت- الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٩٨- متن الشاطبية = حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، المؤلف: القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني، أبو محمد الشاطبي (المتوفى: ٥٩٠هـ) المحقق: محمد تميم الزعبي الناشر: مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية الطبعة: الرابعة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٩٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المؤلف: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

٢٠٠- مجالس العلماء، المؤلف: عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة، دار الرفاعي بالرياض، الطبعة: الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٠١- مجالس ثعلب، المؤلف: أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (المتوفى: ٢٩١هـ)، من المكتبة الشاملة.

٢٠٢- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد المؤلف: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ) المحقق: حسام الدين القدسي الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

٢٠٣- مجمل اللغة لابن فارس، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٢٠٤- مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الجامع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٠٥- المحاسن والأضداد، المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

٢٠٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.

٢٠٧- المحصول في أصول الفقه، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، المحقق: حسين علي اليدري - سعيد فودة، الناشر: دار البيارق - عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٠٨- المحكم في نقط المصاحف، المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، المحقق: د. عزة حسن، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ.

٢٠٩- المحكم والمحيط الأعظم، المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢١٠- مختصر سنن أبي داود، المؤلف: الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (المتوفى:

٦٥٦ هـ)، المحقق: محمد صبحي بن حسن حلاق، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٢١١- المختصر في أخبار البشر، المؤلف: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: ٧٣٢هـ)، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة: الأولى.

٢١٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، المؤلف: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (المتوفى: ٧٦٨هـ)، وضع حواشيه: خليل المنصور، لناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان-الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢١٣- مراتب النحويين، المؤلف: عبد الواحد بن علي، أبو الطيب اللغوي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية-بيروت-١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢١٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المؤلف: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت-لبنان-الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢١٥- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، يالمؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: فؤاد علي منصور، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ١٩٩٨م.

٢١٦- المسائل البصريات المؤلف: أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) المحقق: د. محمد الشاطر أحمد محمد أحمد الناشر: مطبعة المدني الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥هـ.

٢١٧- المسائل العسكريات في النحو العربي، المؤلف: أبو علي النحوي، المحقق: د. علي جابر المنصوري (أستاذ النحو العربي ورئيس الدراسات العليا)، الناشر: (الدار العلمية الدولية

للنشر والتوزيع ودار الثقافة للنشر والتوزيع) (عمان – الأردن)، عام النشر: ٢٠٠٢ م.

٢١٨– مسائل خلافية في النحو، المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: محمد خير الحلواني، الناشر: دار الشرق العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢١٩– المستصفى، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

٢٢٠– المستطرف في كل فن مستطرف، المؤلف: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٢١– مسند الإمام الشافعي (ترتيب سنجر)، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، رتبه: سنجر بن عبد الله الجاولي، أبو سعيد، علم الدين (المتوفى: ٧٤٥هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: ماهر ياسين فحل، الناشر: شركة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م.

٢٢٢– مسند الحميدي، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي (المتوفى: ٢١٩هـ)، حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ، الناشر: دار السقا، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٩٩٦م.

٢٢٣– المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٢٤- مشكل إعراب القرآن المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ) المحقق: د. حاتم صالح الضامن الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٢٥- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.

٢٢٦- المعارف، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٢م. .

٢٢٧- معاني القرآن للأخفش، المؤلف: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: ٢١٥هـ) تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٢٢٨- مَعَانِي القرآن، المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، المحقق: مجموعة، الناشر: المصرية دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر - الطبعة: الأولى.

٢٢٩- المعاني الكبير في أبيات المعاني، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: المستشرق د سالم الكرنكوي (ت ١٣٧٣ هـ)، عبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني (١٣١٣ - ١٣٨٦ هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن، بالهند [الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م]، ثم صورتها: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان [الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤ م]. .

٢٣٠- معاني النحو المؤلف: د. فاضل صالح السامرائي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٣١- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م. .

٢٣٢- معجم ديوان الأدب، المؤلف: أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (المتوفى: ٣٥٠هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، طبعة: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. .

٢٣٣- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. .

٢٣٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

٢٣٥- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت- الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ.

٢٣٦- المفتاح في الصرف، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، حققه وقدم له: الدكتور علي توفيق الحَمَد، كلية الآداب - جامعة اليرموك - إربد - عمان، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٢٣٧- المفصل في صنعة الإعراب، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد،

الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، المحقق: د. علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م.

٢٣٨- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك)، المؤلف: أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي (المتوفى ٧٩٠ هـ)، المحقق: مجموعة محققين الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م. .

٢٣٩- المقتضب، المؤلف: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب. - بيروت.

٢٤٠- ملحة الإعراب، المؤلف: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (المتوفى: ٥١٦هـ)، المحقق: بدون، الناشر: دار السلام - القاهرة/ مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٤١- الممتع الكبير في التصريف، المؤلف: علي بن مؤمن بن محمد، الحَضْرَمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (المتوفى: ٦٦٩هـ)، الناشر: مكتبة لبنان، الطبعة: الأولى ١٩٩٦م.

٢٤٢- مناقب الشافعي، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ت: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث - القاهرة، ط: الأولى، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٢٤٣- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢٤٤- المنصف لابن جني، شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث القديم الطبعة: الأولى في ذي الحجة سنة ١٣٧٣هـ - أغسطس سنة ١٩٥٤م.

٢٤٥- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، المؤلف: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٤٦- الموافقات، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٤٧- النبوات، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٤٨- نتائج الفكر في النَّحو للسُّهَيلي، المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢ - ١٩٩٢م.

٢٤٩- نثر الدر في المحاضرات، المؤلف: منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى (المتوفى: ٤٢١هـ)، المحقق: خالد عبد الغني محفوط، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٢٥٠- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله

الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (المتوفى: ٥٧٧هـ)، المحقق: إبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. .

٢٥١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت - لبنان. الطبعة: طبع على مدار سنوات.

٢٥٢- نقد الشعر، المؤلف: قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧هـ)، الناشر: مطبعة الجوائب - قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢ه.

٢٥٣- النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) المؤلف: علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني، أبو الحسن (المتوفى: ٤٧٩هـ) دراسة وتحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٥٤- النُّكَتُ فِي تَفسيرِ كَلامِ سِيْبَوَيْهِ للأَعْلَمِ الشَّنْتَمْريِّ، دراسة وتحقِيق: رَشِيد بلحَبيب، الناشر: وزارة الأوقاف المملكة المغريبية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢٥٥- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية - مصر.

٢٥٦- الوافي بالوفيات، المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر:١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٢٥٧- وحي القلم، المؤلف: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢٥٨- الوسيط في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي

الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) تحقيق وتعليق: جماعة من المحققين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٢٥٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت، طبع على مدار سنوات.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
تَقْرِيظُ شَيْخِنَا العَلَّامَةِ د.شَفِيع بُرْهَانِي	٩
تَقْرِيظُ شَيْخِنَا اللُّغَوِيِّ أ.د. مُحمّد حَسَن عُثْمَان	١١
تَقْرِيظُ شَيْخِنَا الـمُحَقِّقِ د.مُحَمَّدٍ البَرزنجِيِّ	٢٥
تَقْرِيظُ شَيْخِنَا العَلَّامَةِ أبِي الفَضْلِ عُمرَ الحَدُّوشِيِّ	٣٠
الـمُقَدِّمَةُ	٤٩
وَقَفَاتٌ عَلَى مُقَدِّمَةِ صاحب الجناية	٥٧
لِـمَاذَا سَادَت الإنجليزيَّةُ العَالَمَ؟ وَمَا العَامِلُ فِي ذلكَ؟	٥٨
الحَرْبُ عَلَى العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى!	٦٦
مَاذَا بَعْدَ إهْمَالِ الفُصْحَى وَالإقْبَال عَلَى العَامِيَّةِ؟	٧٢
مَا هُوَ سَبَبُ إهْمَالِ العَرَبِيَّةِ؟!	٨٢

الموضوع	الصفحة
مَا حَظُّ سيبويْه عنْدَ صَاحب (الجنَايَة)؟!	٨٤
هَلْ قوَاعدُ النَّحْو مُقدَّسَةٌ؟	٨٦
هَل العُلَمَاءُ رَأَوا سيْبَوَيْه وَكتَابَهُ مَعصُومِيْن مُقَدَّسَيْن؟	٩٠
عَقلَنَةُ قوَاعد العَرَبيّة وقُوّتُها!	٩٧
هَلْ تُريدُنَا أَنْ نتركَ لُغَةَ القُرآن؟!	١٢٨
هَلْ لُغَةُ النَّاس في الحيَاة اليَوميّة كَانَتْ فُصْحَى؟	١٣٢
هَلْ نَجَحَ سيبَوَيْه في عَقْلَنَة قوَاعد العَرَبيَّة؟!	١٣٥
هَلْ كَانَ جُهْدُ سيْبَوَيْه لغَير النَاطقينَ بالعَرَبيَّة؟	١٤٥
لَيْسَ عَمَلُ سيبوَيْه النَّحْوَ فَقَط!	١٤٩
هَلْ سيْبَوَيْه أَهْمَلَ الـمعَاني مُقْبلًا عَلَى الأَلْفَاظ فَقَط؟	١٧٠
صَاحبُ الجنَايَة وَالنَّيْلُ منَ الأَدَب العَرَبيِّ	١٧٤
مُصْطَلَحُ (الحَرْف) مُصْطَلَحٌ غَيْرُ دَقيق!	١٨٧
دَلَالَةُ الجُمْلَة الاسميَّة!	١٩١

الموضوع	الصفحة
طَغَى الـمُهَنْدِسُ وتَجَبَّر، في بَحْث الـمُبْتَدإ وَالخَبَر!	١٩٤
تَقْدِيمُ الخَبَر عَلَى الـمُبْتَدأ، لـمَاذَا؟	٢٠١
البَرَاهِينُ الفَاحِصَة، في تَوْجِيْه الأَفْعَال النَاقِصَة	٢٠٣
الحُرُوفُ الـمُشَبَّهَةُ بالفعْل، وَجِنَايَةُ الـمُؤَلِّف	٢١٢
أَزْمِنَةُ الأَفْعَال في العَرَبِيَّة	٢٢٧
مَعْنَى (الـمَفْعُول به) وَسُقْمُ تَصَوُّر الـمُهَنْدِس	٢٣٤
الكَلَامُ عَلَى تَعَلُّق الجَارِّ وَالـمَجْرُور	٢٣٦
إِنْكَارُ تَعَدِّي الفعْل إِلَى مَفْعُولَيْن وأَكْثَر	٢٣٩
إِنْكَارُ تَعَدِّي الفعْل إِلَى مَفْعُولَيْن وأَكْثَر	٢٤٣
كَيْفَ يَكُونُ الفعْلُ جَامِدًا؟	٢٤٥
الكَلَامُ عَنْ أَسْمَاء الأَفْعَال	٢٤٧
جِنَايَةُ الـمُهَنْدِس عَلَى أُسْلُوب (التَعَجُّب)!	٢٤٩
اعْتَلَّ الـمُهَنْدِسُ في الفعْل الـمُعتَلّ!	٢٥٤

الموضوع	الصفحة

اعتراضٌ مَشلُول، عَلَى الفعْل الـمَبْنِيّ للـمَجهُول	٢٥٧
طَيْفٌ زَائل في الاعتراض عَلَى الفَاعل	٢٦٥
الاسْمُ العَلَمُ وَجَهْلُ صَاحب الجنَايَة	٢٨١
حَدُّ النَّصْل، في الجنَايَة عَلَى ضَمِيْر الفَصْل	٢٨٤
هَل الـمَصْدَرُ أَصلُ الاشْتقَاق، أَم الأَصْلُ هُوَ الفعْلُ؟	٢٩٣
إنْكَارُ دَلَالَة الجُمُوع الـمُكَسَّرَة عَلَى الكَثْرَة وَالقلَّة!	٢٩٥
اعتراضٌ مُخَنَّث، عَلَى الـمُذَكَّر وَالـمُؤَنَّث	٢٩٨
إنْكَارُ الضَّمَائر أَنْ تكُونَ مَفعُولًا به	٣٠١
ظَلَمَ صَاحبُ الجنَايَة وَتَرَدَّى، في الكَلَام عَن الـمُنَادَى	٣٠٧
تَغَالُطُ الـمُهَنْدس بملْء فيْه، في بَحْث الـمَفْعُول فيْه	٣١٥
كَلَامُ الـمُهَنْدس عَن الـمَفعُول الـمُطْلَق	٣١٧
الـمُهَنْدسُ وَإنْكَارُ الـمَفعُول مَعَهُ	٣١٩

الموضوع	الصفحة
بَيَانُ جَوْرِ الْمُهَنْدِسِ وَجَهْلِهِ، فِي حَقِّ الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ!	٣٢٥
الاعتِرَاضُ عَلَى (الْحَالِ)!	٣٢٩
رَدٌّ وَجِيزٌ، فِي اعتِرَاضِهِ عَلَى التَّمْيِيزِ	٣٤١
وَقَعَ الْمُهَنْدِسُ فِي الْحُتُوفِ، لَمَّا تَكَلَّمَ عَنِ الْحُرُوفِ	٣٤٩
اعْتِرَاضٌ مِنْ وَهْنٍ، عَلَى ضَمِيرِ الشَّأْنِ	٣٦٦
أَوْهَامُ الْمُهَنْدِسِ الْمُلَفَّقَةُ، فِي بَحْثِ (إِنْ) الْمُخَفَّفَةِ	٣٧١
هَلْ وَرَدَتْ (إِنَّ) بِمَعْنَى (نَعَمْ) وَ(أَجَلْ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؟	٣٧٧
هَلْ تَعْمَلُ (إِنْ) عَمَلَ (لَيْسَ)؟	٣٨١
نَظْمُ الْقِلَادَةِ، فِي بَيَانِ مَعْنَى الزِّيَادَةِ	٣٨٦
أَجْحَفَ الْمُهَنْدِسُ وَتَوَلَّى، فِي كَلَامِهِ الْجَائِرِ عَنْ (لَمَّا)	٣٩٦
تَزْيِيفُ الْكَلَامِ، عَنْ بَعْضِ أَدَوَاتِ الِاسْتِفْهَامِ	٤٠١
بِالْجَوْرِ أَتَى الْمُهَنْدِسُ وَحَكَمْ، فِي كَلَامِ النُّحَاةِ فِي (كَمْ)	٤١١

الموضوع	الصفحة
وقَعَ الـمُهَنْدِسُ في الخَطَلِ، في بَحْثِ إعْرَابِ الجُمَل	٤١٣
اعْتِرَاضَاتٌ سَطْحِيَّة، عَلَى الشَّوَاهِدِ النَّحْوِيَّة	٤٢١
هَلْ تَصْلُحُ العَرَبِيَّةُ لتَكُونَ لُغَةَ العِلْمِ؟	٤٤١
أمَانَةٌ في رَقَبَةِ الـمُهَنْدِس، هَلْ يُؤَدِّيهَا؟	٤٥٥
لـمَاذَا جُعِلَت الإنْجليزيَّةُ اللُّغَةَ الأُولَى وفُضِّلَتْ عَلَى العربِيَّة؟!	٤٥٧
الدَّعْوَةُ إلَى الكِتَابَة باللَّاتِينِيَّة!	٤٦١
خَصَائِصُ اللُّغَة العَرَبِيَّة ومُمَيِّزَاتُهَا	٤٦٤
قُوَّةُ اللُّغَة لَا تَعْنِي عَدَمَ الصُّعُوبَة وتَشَعُّبَ الـمَسَائِل	٥١٦
لَيسَ التَّسْهِيلُ مَحْمُودًا دَوْمًا	٥١٩
أيَّ شَيْءٍ نَحْذِفُ مِنَ النَّحْوِ؟	٥٢٢
كُتُبُ عُلُومِ العَرَبِيَّة بَيْنَ التَّعْقِيدِ والتَّسْهِيلِ!	٥٢٧
مَاذَا عَلَيْنَا تُجَاهَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة؟!	٥٣٦

الموضوع | الصفحة

عُلُومُ العَرَبيّة وَطُلّابُ الشّرِيْعَة! ٥٤٠

لمَاذَا ضَعُفَ مُستَوى النّاسِ في العَرَبيّة؟ ٥٤٢

الحَرَكَاتُ الإعْرَابيّةُ وَعلَاقَتُها الوَطِيْدَةُ بالـمَعْنَى ٥٤٤

الحَرَكَاتُ الإعْرَابيّةُ تُزِيلُ الإشْكَالَ وَاللّبْسَ في الكَلَام ٥٤٨

أَقْوَالُ بَعْضِ الـمُسْتَشْرِقيْنَ عَن العَرَبيّة ٥٧٧

قُوّةُ العَرَبيّة لَا تَعنِي العِصْمَةَ! ٥٧٩

مَا هِيَ مَنْزِلَةُ كِتَابِ سِيبَوَيْهِ؟ ٥٨٢

اللُّغَةُ العَرَبيّة .. لُغَةُ الـمُسْلمِيْنَ جَمِيْعًا! ٥٨٤

الجِنَايَاتُ الثّلاثُ (جِنَايَةُ البُخَارِيِّ، جِنَايَةُ الشّافعِيِّ، جِنَايَةُ سِيبَوَيْهِ) ٥٨٦

مَصَادِرُ أوزون وَمَرَاجِعُهُ ٥٨٩

مَنْ هُوَ الـمُهَنْدِسُ زَكَرِيّا أوزون؟ وَمَاذَا يُرِيدُ؟ ٥٩٢

مَنْ هُوَ سِيبَوَيْهِ؟ ٥٩٩

تَعليقَةٌ عَلَى مَسْأَلَة الـمُقَارَنَة بَيْنَ اللُّغَات ٦١٢

الموضوع	الصفحة
كَلِمَةُ اعتذار إلَى المُهَنْدس زَكريَّا أوزونَ	٦١٥
كَلِمَةٌ ختَاميةٌ حَوْلَ رُدُودي الثَّلاثَة	٦١٧
نِدَاءُ مُحِبّ، وَبُكَاءُ ذِي شَجَن!	٦٢٠
زَمَنُ تَطَاول الأَقْزَام عَلَى الأَعْلَام	٦٢٤
زَمَنُ التَّلَاعُب بعُقُول السُّذَّج	٦٢٦
الخَاتمَةُ	٦٢٩